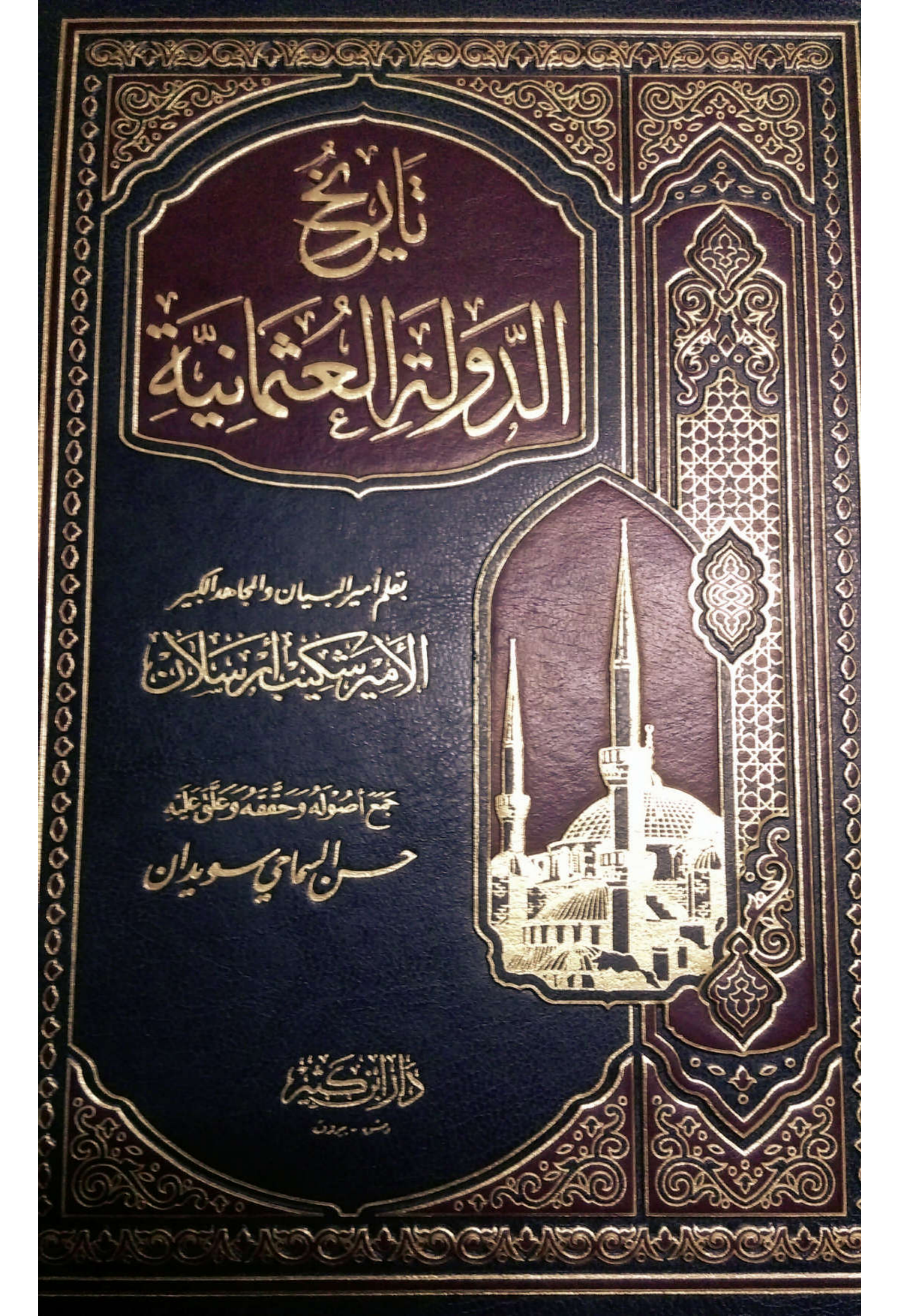
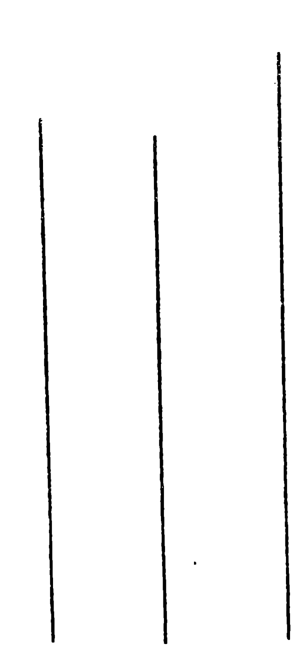

تاريخ
الدولة العثمانية
بقلم أمير البيان والمجاهد الكبير
الأمير شكيب أرسلان
جمع أصوله وحققه وعلق عليه
حسن السماحي سويدان
دار ابن كثير
دمشق - بيروت



تاريخ الدولة العثمانية

● الموضوع: تاريخ
العنوان: تاريخ الدولة العثمانية
تأليف: الأمير شكيب أرسلان
تحقيق: حسن السماحي سويدان

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ISBN 978-614-415-031-3

ISBN 978-614-415-031-3



● الطباعة: مطبعة علي جواد - بيروت ـــ التجليد: مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
● الورق: أبيض ـــ ألوان الطباعة: لون واحد ـــ التجليد: فني
● القياس: 17×24 ـــ عدد الصفحات: 872 ـــ الوزن: 1350 غ



دمشق - سوريا - ص.ب ، 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس، 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس، 2243502 - 2258541
بيروت - لبنان - ص.ب ، 113/6318
برج ابي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة - تلفاكس ، 817857 01 - جوال ، 204459 03

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



بقلم أمير البيان والمجاهد الكبير

الأمير شكيب أرسلان

جمع أصوله وحققه وعلق عليه

حسن السماحي سويدان





بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح العلّامة العالمي المجاهد الشّيخ

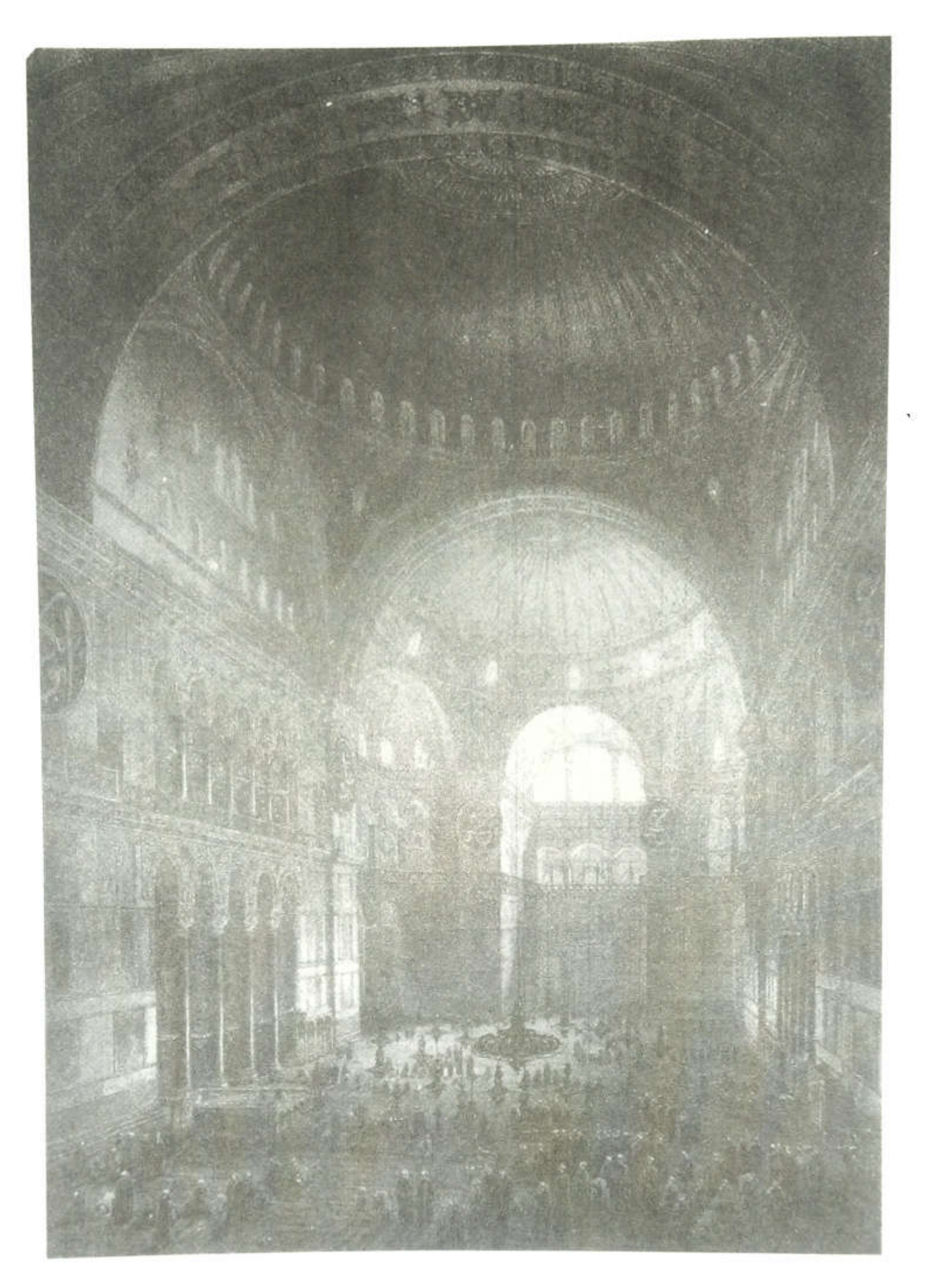
مصطفى صبري

شيخ الإسلام في الدّولة العثمانية سابقًا

وفاءً لذكراه

حسن

أيا صوفيا



أيا صوفيا حقّ التفرّقُ فاذكري   عهودَ كرامٍ فيكِ صلّوا وسلموا

حافظ إبراهيم

صورة أيا صوفيا

تلخص قصة الإسلام في الدولة العثمانية

أيا صوفيا

١ـ « أيا صوفيا » تُذري الدُّموعَ وتَسْفَحُ ... وتمسي على مُرِّ الأنينِ وتُصْبِحُ
٢ـ تنكَّـرَ أهلـوهـا لهـا وأذاقَهـا ... فـوادِحَـهُ صَرْفُ الـزمـانِ المُفَـدِّحُ
٣ـ وهانَتْ على مَنْ كانَ بالأَمْسِ مُشْفِقاً ... يُـدافِـعُ عنهـا الطـامعيـنَ ويَنْفَـحُ
٤ـ فـوا أسفـاً مـاذا أسـاءَتْ وأَذْنَبَـتْ ... وقـد يُغْفَـرُ الـذَّنْـبُ العظيـمُ المبَـرَّحُ
٥ـ أيهجُـرُهـا أبنـاؤهـا دونَ رحمـةٍ ... وتُتْـرَكُ فـي أيـدي الأسـى تتصـوَّحُ
٦ـ ألم تكُ مِحْرابَ الخلافةِ أعصُراً ... يَرفُّ عليها المجدُ ، والعزُّ يَصْدَحُ
٧ـ إذا سمـعَ النـاسُ الأذانَ رأَيتَهـا ... تكـادُ بـأفـواجِ المصليـنَ تطفـحُ
٨ـ وإنْ تُلِـيَ الفـرقـانُ فيهـا رأيتَهـا ... تمـايَـلُ مـن تـرتيلِـهِ وتـرنَّـحُ
٩ـ فأضحتْ خَلاءً لا الحمائِمُ خُشَّعٌ ... لديْهَا ، و لا الداعي المؤذِّنُ يُفْصِحُ
١٠ـ وعُطِّلَ فيها الدينُ فهيَ وجِيْعَةٌ ... تَضِـجُّ شكـاةً والمنـابِـرُ نـوَّحُ

***

١١ـ « أتاتُوركُ » لا يغْرُرْكَ أنَّكَ حاكِمٌ ... مُطـاعٌ ، تُـرَدِّي إنْ أردتَ وتصفَـحُ
١٢ـ رويدكَ إن الدهرَ ـ مُذْكان ـ قُلَّبٌ ... يَعُـوْدُ فيستَقْضِـي الـذي كـان يَمْنَـحُ
١٣ـ لعمـرُك إن أمسيتَ ربّـاً مسوَّداً ... أتعلَـمُ مـا يُبـدِي الصَّبَـاحُ ويَفْضَـحُ
١٤ـ إذا العينُ نامتْ عن أذى الدَّهْرِ غفلةً ... تفيـقُ علـى الهَـوْلِ الفظيـع وتُفتَـحُ
١٥ـ وأنت الذي يدعونَكَ اليوم مُصْلِحاً ... فهل يهدِمُ التاريخَ والمجدَ مُصْلِحُ
١٦ـ لئن كان قبحاً نَبْذُكَ العُرْبَ جانباً ... فنبـذُكَ للـدّيـنِ المقـدَّس أقبـحُ
١٧ـ حُقودٌ على العُرْبِ الكرام صببتَها ... على الدينِ ، ما تَنْفَكُّ تورَىٰ وتُقْدَحُ
١٨ـ تبيّنَ فيها الغَدْرُ واللؤمُ والأذى ... « وكـلُّ إنـاءٍ بـالـذي فيـه ينضَـحُ »
١٩ـ تجرأتَ مغتراً على الدين أهوجاً ... ولكـنَّ ديـنَ اللهِ أسمَـى وأسمَـحُ
٢٠ـ وشمّرتَ للدينِ الحنيفِ مُغالِباً ... فـوا عجبـاً ! أنـتَ الأجـمُّ وتَنْطَـحُ
٢١ـ وما ناصبَ الدينَ العداوةَ أحمقٌ ... مـن النـاسِ إلا عـادَ وهـوَ مجـرَّحُ

٢٢ـ ولله ِعيـنٌ تكـلأُ الـديـنَ بَـرَّةٌ ... وتـدفَـعُ عنـه كـلَّ مَـنْ جـاءَ ينبَـحُ

* * *

٢٣ـ بنيتم على الإسلام شامخَ مُلْكِكُمْ ... فلسـتَ إذا هـدمتَـهُ اليـوم تُفْلِـحُ

٢٤ـ وإنّ أيادي العُرْبِ فيكم كثيرةٌ ... وما ضرَّها أَنْ تنكروها وتقدَحُوْا

٢٥ـ ولولا تهاويلُ الخلافةِ لم يكنْ ... لعثمانَ في ضَخْمِ الممالِكِ مَطْمَحُ

٢٦ـ فإن تهجروا الدِّينَ المقدَّسَ فارجِعُوا ... سوائِمَ ترعى في المرُوْجِ وتَسْرَحُ

* * *

٢٧ـ «أتاتوركُ» حاذِرْ من بني الغَرْبِ وثبةً ... وإن غَرَّدُوا بالسِّلْمِ يوماً ولَوَّحُوْا

٢٨ـ فحبُّهمو حبُّ الـذئـابِ لنعجةٍ ... وسِلْمُهُمُـو البـرّاقُ سِلْـمٌ مُسَلَّـحُ

٢٩ـ فَصَمْتَ عُرى الشرقِ العزيزِ بنزوةٍ ... من الحمقِ ما تنفكُّ تنزو وتجمَحُ

٣٠ـ وقطّعتَ أسبابَ القرابةِ عامِداً ... وهـذا الـذي يُرْضِـي عـداكَ ويُفْـرِحُ

٣١ـ أأنـتَ إذا خُنْـتَ القـرابـةَ واجـدٌ ... من الأهلِ من يحنو عليكَ وينصَحُ

٣٢ـ ووالله ِلا يُبْدي لك الغَرْبُ حُرْمةً ... ولـو رحـتَ فـي أذيـالـه تتمسَّـحُ

٣٣ـ يقولُ لك الغربُ المدِلُّ بنابهِ ... وقد جئتَ تستجدِي رضاهُ وتَمْدَحُ

٣٤ـ مكانَكَ يا شرقيُّ وارجِعْ بِذِلَّةٍ ... فمـن ذا رأىٰ الشـرقـيَّ للعـزِّ يَصْلُـحُ

٣٥ـ ومهما سما الشرقيُّ فالشرقُ نعجةٌ ... تُسَمَّـنُ للغَـربِ النَّهُـوْمِ وتـذْبَـحُ

٣٦ـ فلا تلتمِسْ عطفاً من الغربِ صاغِراً ... ذليـلاً ، فمـا يحنُـو القـويُّ ويَسْمحُ

٣٧ـ ولا تعبدِ الغربيَّ جهلاً ، فإنما ... ستكسِـبُ منـه كـلَّ ذُلٍّ وتـربَـحُ

٣٨ـ ألسـتَ تـراهُ رابضـاً متـربِّصـاً ... يَـوَدُّ لـو آنَ الصيـدَ يبـدو ويَسْنَـحُ

الرسالة ... دمشق ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ ... الدكتور أمجد الطرابلسي
عدد ١٠٩ ... الموافق ٥ آب أغسطس سنة ١٩٣٥ ... عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد : فلم يكتَب هذا الكتاب مدحاً للدولة العثمانية ولا ذماً لها ، إذ انقضى عهدها . . وطواها الزمان كما طوى غيرها ، وإنما كتِب لأن التاريخ مدرسة يتعلم فيها الإنسان الحياة،ومن خلاله يتعرف الإنسان على الحاضر ، ويرسم خطة المستقبل ، فهو بمثابة الأساس للبناء .

ولهذا فالحقيقة هي التي ينشدها المؤرخ ، وهو في هذا كالقاضي لا يهمل أي وثيقة أو شهادة تقرّب من الحقيقة .

أما المؤرخ الذي يحكِّم هواه فهو يضلِّل نفسَه ، ومن ثَمّ فهو وحده الذي سيدفع ثمنَ هذا التضليل ، أما الحقيقة فهي هي لا تغيرها الأهواء والدعايات .

ولا شيء أضرَ على المؤرخ من التعميم القائم على الاستقراء الناقص ، فهو أيضاً نوع من التضليل غير المتعمد الذي يبتعد عن الحقيقة ويزيغ عنها .

والناظر في التاريخ العثماني يحار من كثرة الوثائق ، وتوزعها في عواصم العالم القديم ، وتنوع لغات هذه الوثائق من تركية وفارسية وعربية وروسية وفرنسية ولاتينية ، كل ذلك على مدى سبعة قرون مما ينوء بحمله أيُّ مؤرخ مهما أوتي من العلم وسعة الإطلاع .

لذلك فأول ما ينبغي عمله هو تنظيم هذه الوثائق وفهرستها وتيسير إطلاع الباحثين عليها .

ومن ضمن هذه الوثائق هذا الكتاب الذي أقدمه إلى الدارسين والباحثين ، وهو « تاريخ الدولة العثمانية » للأمير شكيب أرسلان ، فلأمير رحمه الله قد عاصر أربعة سلاطين عثمانيين ، وتبوّأ عدة مناصب في عهد الدولة العثمانية منها نائب في مجلس المبعوثين (البرلمان) في إستانبول ، مما أتاح له التعرف على رجالات السياسة في العاصمة العثمانية ، كما تعرف على أسرار الدولة وخفاياها ، وربما شارك في بعض الأحداث كالحرب الطرابلسية ، والحرب

البلقانية ، وحرب القناة أثناء الحرب العالمية الأولى .

كما أن إحساس الأمير السياسي واطلاعه الواسع على التّاريخ واتقانه لعدة لغات أجنبية أتاح له معرفة دقيقة للتاريخ العثماني والوقوف على حقائقه .

والتاريخ العثماني ينقسم إلى ثلاثة أدوار :

١ ـ **دور الازدهار والقوة** : ويبدأ من عهد السلطان عثمان الأول (٦٨٨هـ ـ ١٢٨٩م) وينتهي في عهد السلطان سليمان القانوني ، (٩٨٢ ـ ١٥٧٤) وفي هذا العصر وصلت الدولة العثمانية إلى قمة مجدها وأوج اتساعها ، فكانت الدول الأوربية جميعها تدفع الجُزَى لها ، وكان الصدر الأعظم يحرر المعاهدات والاتفاقيات باللغة التركية ،ويأتي مندوبو الدول الأوربية للتوقيع عليها دون أن يكون لهم الحق في قراءتها ومعرفة مضمونها .

ومن الجدير بالذكر أن سلاطين هذا العصر كانوا قواداً عسكريين من الطراز الأول ، فكانوا يقودون جيوشهم بأنفسهم ، وينزلون إلى ساحات المعارك ويقاتلون كأي جندي ، مما كان له أكبر الأثر في استبسال الجنود العثمانيين ، وبقاء الجيش قوياً ، بعيداً عن المفاسد .

وقد ترجم الأمير شكيب أرسلان لأعيان العلماء في هذا الدور مما وسع دائرة البحث ، حيث أشار إلى الحياة العلمية والثقافية ، وكان عمدته في هذا كتاب « الشقائق النعمانية » وكتاب « العقد المنظوم » .

٢ ـ **دور الركود** : ويبدأ من عهد سليم الثاني (٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م) وينتهي في عهد مصطفى الثاني (١١١٥هـ ـ ١٧٠٣م) الذي في عهده وقعت معاهدة كارلوفيتس بين الدولة العثمانية والنمسة في (٢٦) يناير ـ كانون الثاني عام (١٦٩٩م = ١١١٠هـ) وفي هذه المعاهدة ألغيت جميع الجُزَى التي كانت الدول الأوربية تدفعها للدولة العثمانية ، وكانت هذه المعاهدة أكبر ضربة على السلطنة ، ومن خلالها ظهر الضعف الذي كان قد بدأ عمله في عهد سليم الثاني .

وفي هذا الدور كان الدور الأساسي في الدولة العثمانية للصدور العظام الذي نبغ منهم الصوقلي وآل كوبرلي .

٣ ـ دور الانحدار والانكماش : ويبدأ من عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣م ـ ١١١٥هـ) وينتهي في عهد محمد وحيد الدين المعروف بمحمد السادس (١٩٢٢م ـ ١٣٤٤هـ) .

وهذا الدور كان دور هزائم متلاحقة ، وكانت الدولة تحارب على عدة جبهات خارجياً براً وبحراً ، وداخلياً الحركات الانفصالية وأشهرها حرب إبراهيم باشا في سورية ، وفي هذا الدور بدأ الاحتلال الأوربي يقتطع أطراف الدولة العثمانية دون أن تستطيع أن تفعل شيئاً لضعف الجيش أولاً وضعف الدولة ثانياً . وانتهى هذا الدور بانفراط عقد الدولة العثمانية وإلغائها بعد أن عاشت حوالي سبعة قرون .

وفي هذا العصر أطلق على الدولة اسم الرجل المريض ، والذي كان يحول دون وفاته هو عدم اتفاق الدول المعادية له على الغنائم .

والأمير عاصر الفترة الأخيرة من دور الانحدار والانكماش ، وتحدّث عن أسباب الضعف ، وعن طرق تلافيه ، وعن الأخطار التي تهدد الدولة خارجياً وداخلياً ، **وهو يرى أن الأتراك أنفسهم كان لهم الدور الأكبر في القضاء على الدولة العثمانية بسبب سوء إدارتهم وانطماس بصيرتهم ، وتناحرهم ، وصراعاتهم ، وسوء أخلاق الإدارة ، وتفشي الرشوة ، والولاء للأجنبي إلى غير ذلك ، كل ذلك أدى إلى ردة فعل عند بقية الأمم ، التي كانت تحت رعاية الدولة العثمانية فاتسع الخرق ، وتتسرب منه العدو الذي باض وفرخ وكان ما كان .**

والأمير رغم ذلك كان يفضِّل بقاء الدولة العثمانية لما يعلم من حقيقة المطامع الأوربية في الوطن العربي ، وأن البديل عن الحكم العثماني ليس هو الحكم العربي ، بل هو الحكم البريطاني والفرنسي ، وهذا الذي كان ، فاختيار العثمانيين هو اختيار لأخف الضررين .

* * *

لم يترك الأمير شكيب كتاباً برأسه بعنوان « **تاريخ الدولة العثمانية** » وإنما تحدّث عنها في ثلاثة كتب :

١ ـ في ملحق الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون ويستغرق ما كتبه هناك من ص (٢٣ ـ ٤٠٤) من هذا الكتاب ، حيث بدأ بمقدمة عن الترك : مواطنهم ، وتاريخهم القديم ، والفتح الإسلامي لبلادهم ، وكيف دخلوا في الإسلام ، وكيف أسسوا أول مملكة لهم ذات شأن ، وهي الدولة السلجوقية ثم بدأ بالتأريخ للدولة العثمانية سلطاناً سلطاناً إلى بداية الحرب العالمية الأولى .

٢ ـ « شكيب أرسلان بقلمه » وتحدّث فيه عن الحرب العالمية الأولى ، وعن آثارها ، وخاصة في بلاد الشام واستفاض في الحديث عن سياسة جمال السفاح الخرقاء ، التي كان لها أكبر الأثر في انهيار الدولة العثمانية .

٣ ـ حاضر العالم الإسلامي ، حيث تحدّث عن بعض المواضيع التي تتعلق بالتاريخ العثماني .

عملي في الكتاب

١ ـ جمعت كل ما كتبه الأمير شكيب عن الدولة العثمانية ورتبته .

٢ ـ صححت النص وخاصة أسماء البلدان والأعلام وذلك بالرجوع إلى المصادر الخاصة بذلك ، وإلى المصادر التي منها استقى الأمير معلوماته .

٣ ـ صححت الأخطاء المطبعية الكثيرة الواقعة في الكتاب ، وذلك لأن الأمير لم يكن بمقدوره تصحيح تجارب الطبع لبعد الديار ، فالكتاب يطبع في مصر ، والمؤلف في سويسرة .

٤ ـ وضعت للكتاب عنوان « تاريخ الدولة العثمانية » أخذاً من كلام الأمير نفسه حيث قال : نحن أحببنا الوقوف في « تاريخ الدولة العثمانية » عند هذا الحد .

٥ ـ وضعت علامات الترقيم ، وضبط ما يحتاج لضبط ، وربما زدت كلمة أو كلمات وضعتها بين حاصرتين ليتسقيم الكلام .

٦ ـ علقت على بعض المواضيع وميزت تعليقاتي عن تعليقات المؤلف بأن ذكرت كلمة (المؤلف) عقب تعليقاته .

٧ - ربما يقتصر الأمير على التاريخ الهجري أو الميلادي ، فوضعت التاريخين ليكون الكتاب على نسق واحد .

٨ - زودت الكتاب بالخرائط والرسوم التوضيحية .

٩ - ألحقت بالكتاب :

١ - رسالة نشرها الأمير شكيب أرسلان إبان الحرب البلقانية بعنوان « إلى العرب » يحذِّر من الانفصال عن الدولة العثمانية ، لأن ذلك يعني دون أدنى ريب الوقوع في براثن الدول الأوربية ، وخاصة أن هذه الدول قد أعلنت عن نياتها في احتلال بلاد الشام والعراق فهذا وزير خارجية فرنسة بونكاره قد صرَّح عام (١٩١٢) بأن بلاد الشام ستكون حصة فرنسة وتحت حكمها إذا انفرط عقد الدولة العثمانية .

وهذه الرسالة تصوِّر الصراع الدائر حول المأزق التي كانت تعيشه الأمة العربية عشية الحرب العالمية الأولى وسبل الخلاص منه .

٢ - محاولات العرب لفتح القسطنطينية منذ العهد الأموي إلى الفتح العثماني لها ، والقضاء على الدولة البيزنطية التي كانت الخطر الأكبر الذي يهدد العالم العربي والإسلامي ، وخاصة منذ القرن الرابع الهجري ، حيث وصلت الجيوش البيزنطية إلى حمص واحتلت السواحل الشامية . فكان فتح القسطنطينية طي لصفحة هذا العدوان المستمر طيلة (٦٠٠) سنة .

ولهذا صدرت الكتاب بصورة لجامع أيا صوفيا رمزاً لهذا المعنى ، ومعها قصيدة للدكتور أمجد الطرابلسي عضو مجمع اللغة العربية تبيِّن مأساة الإسلام في تركية الحاضرة ، وأن الأتراك بلا إسلام لا شيء فهم أغنام ترعى أغنام ، والإسلام هو الذي جعل منهم شيئاً في التاريخ ، وعندما يتخلون اليوم عن الإسلام ويعادون العرب الذين أنقذوهم من الضلال إلى الهدى ومن الحضيض إلى العلى ، فسيعودون إلى آخر قائمة الشعوب .

٣ - خطط القسطنطينية ، وما فيها من آثار عمرانية : من جوامع ، وقصور ، ومدارس ، ومشافي إلى غير ذلك .

٤ ـ نص القانون الأساسي المسمّى (المشروطية) الذي دار حوله الصراع منذ عام (١٨٧٦) إلى (١٩٠٩) .

٥ ـ خطبة السلطان عبد الحميد الثاني في افتتاح مجلس المبعوثين الأول عام (١٨٧٦) وفيه تصوير دقيق لأحوال السلطنة المتردية .

٦ ـ جدول بأسماء السلاطين العثمانيين ، ومدة حكم كل واحد منهم بالسنين الهجرية والميلادية .

٧ ـ جدول بأسماء ولاة دمشق في العهد العثماني ، وبيان مدة حكم كل واحد منهم .

٨ ـ أرجوزة للشيخ عبد الغني النابلسي اسمها « الطلعة البهية للملوك العثمانية » تنشر لأول مرة .

٩ ـ وصية عثمان لابنه أورخان .

وفي الختام أرجو أن أكون قد قدمت للقرّاء كتاباً نفيساً لكاتب مرموق من زعماء النهضة العربية في القرن العشرين ، وهو مشهور بالإنصاف والتحري حيث ذكر حقائق التاريخ بحلوها ومرّها .

وقبل أن أضع القلم لا بد أن أشكر كل من ساهم في إخراج الكتاب على هذه الصورة الجميلة وعلى رأس هؤلاء الأستاذ علي مستو أبي مالك والأخوة الأعزاء مولود جيلان ، وعبد الله شينيكيت ، كما أشكر الأخ أبا رامي محمد شونو الذي نضد الكتاب ، فإلى هؤلاء جميعاً خالص شكري وامتناني .

اللهم تقبل مني عملي ، وادخر لي أجري إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

دمشق ١٧/ ربيع الأول ١٤١٩

١١ تموز ـ يوليو ١٩٩٨

حسن السماحي سويدان



الأمير شكيب أرسلان

(١٢٨٦ ـ ١٣٦٦هـ = ١٨٦٩ ـ ١٩٤٦م)

هو الأمير شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة ، ووالدته سيدة فاضلة ، شركسية الأصل .

مؤرخ ، سياسي ، شاعر ، أديب ، من أكابر الكتاب ، يلقب بأمير البيان ، من أعضاء المجمع العلمي العربي ، وترأسه سنة ١٩٣٧م .

ولد في الشويفات في قضاء الشوف في لبنان في الأول من رمضان عام (١٢٨٦) الموافق للخامس والعشرين من كانون الأول (١٨٦٩) .

ولما بلغ الخامسة من عمره أحضر له والده معلماً علّمه القراءة والكتابة ، ثم ذهبت الأسرة إلى بلدة عين عنوب ، وهناك أحضر له والده أستاذاً اسمه أسعد فيصل علمه تلاوة القرآن الكريم ، وحفّظه جانباً منه .

وبعد رجوع الأسرة إلى الشويفات دخل المدرسة الأمريكية حيث تلقى دروس الجغرافية والحساب واللغة الإنكليزية وغيرها .

في سنة (١٨٧٩) دخل مدرسة الحكمة في بيروت ، فمكث فيها ثماني سنوات ، وكان من أقوى الأساتذة تأثيراً فيه عبد الله البستاني صاحب المعجم المعروف بالبستان .

وقد زار الإمام محمد عبده مدرسة الحكمة وشكيب طالبٌ فيها ، فأعجب الإمام بالفتى الذكي، الذي بدأ يقول الشعر، وتوقع الإمام للفتى مستقبلاً مشهوراً، ومن ذلك اليوم بدأت علاقة شكيب تتوثق بالإمام فيسمع منه ويتأثر به .

وفي عام (١٨٨٧) دخل شكيب المدرسة السلطانية ، وفيها درس عن الأستاذ الإمام الفقه والتوحيد إلى جانب العلوم الأخرى .

وفي عام (١٨٨٩) سافر شكيب إلى دمشق ، وحضر مجلس الشيخ محمد المنيني مفتي الشام ، وبدأت صلته بالشيخين الفاضلين المصلحين محمد جمال الدين القاسمي وعبد الرزاق البيطار ، كما تعرف على الشيخ طاهر الجزائري رأس علماء الإصلاح في سورية .

وفي عام (١٨٩٠) زار مصر لأول مرة ، واجتمع بالشيخ محمد عبده وبصفوة من المفكرين والعلماء مثل الشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » وأحمد تيمور باشا .

وفي أواخر عام (١٨٩٠) سافر الأمير إلى الأستانة والتقى جمال الدين الأفغاني وسمع منه وتأثر به .

في سنة (١٨٩٢) سافر إلى فرنسة ، وهناك تعرّف إلى الشاعر أحمد شوقي .

وفي عام (١٩٠٨) عين مديراً للشويفات ، ثم قائم مقام لمقاطعة الشوف لمدة ثلاث سنوات .

ولما صدر الدستور العثماني سنة (١٩٠٨) وتألف مجلس المبعوثين بالأستانة سنة (١٩٠٩) اختير شكيب ليكون نائباً عن حوران .

وفي عام (١٩١١) اعتدت إيطالية على ليبية ، فسارع شكيب إلى الجهاد ، وكتب عدة مقالات في « المؤيد » يحث على الدفاع عن أرض العروبة والإسلام ، ودخل طرابلس الغرب متخفياً ، وشارك مشاركة فعالة مع القائد أنور باشا في التصدي للغزو الطلياني .

وفي عام (١٩١٢) بدأت حرب البلقان ، فاضطرت الدولة العثمانية لعقد هدنة مع الطليان ، لتتفرغ لحرب البلقان ، وسحبت جيوشها من ليبية ، فانتدب الأمير شكيب ليكون مفتشاً لبعثات الهلال الأحمر المصري في البلقان ، فقام بمهمته خير قيام ، ووقف على كثير من أسرار الحرب البلقانية

التي دونها في كتابه هذا .

كما كانت له صلات وثيقة مع رجال الحكم في العهد العثماني ، مما أتاح له الوقوف على أَسرار السياسة العثمانية ، وحقيقة الأوضاع في السلطنة في أواخر عهد السلطان عبد الحميد ، وفترة عهد الإتحاد والترقي ، وهو ما تراه واضحاً في كتابه هذا .

في عام (١٩١٤) سافر إلى المدينة المنورة لإنشاء مدرسة فيها .

وفي عام (١٩١٦) تزوج الأمير شكيب من الآنسة سليمى الخاص بك حاتوغو الشركسية الأصل .

وفي أواخر عام (١٩١٦) غادر بيروت سراً إلى إستانبول فراراً من ظلم أحمد جمال باشا السفاح ، الذي كان يريد شنق الأمير شكيب لولا مكانته عند أنور باشا ، وفي إستانبول شكى شكيب إلى أنور وغيره من رجال الحكم جرائم جمال باشا تجاه أحرار العرب وأثر ذلك على مستقبل السلطة العثمانية .

(١٩٢٠) غادر الأمير سورية إلى مرسين خوفاً من الفرنسيين الذين احتلوا سورية ، ثم غادر مرسين إلى برلين ، حيث اشترى بيتاً وأقام هناك عدة سنوات .

في عام (١٩٢٢) اختير عوضاً في وفد سوري فلسطيني ذهب إلى جنيف للدفاع عن قضايا العرب وحقوقهم أمام عصبة الأمم .

وفي عام (١٩٢٤) أسس في برلين جمعية الشعائر الإسلامية ، التي كان أعضاؤها يمثلون جميع الشعوب الإسلامية .

في عام (١٩٢٦) سافر شكيب على رأس الوفد السوري إلى رومة ، ليبسط أمام لجنة الإنتداب القضية السورية ، وقدم لرئيس اللجنة مطالب سورية التي تتلخص في إلغاء الانتداب ووحدة سورية ، وإصدار دستور لها ، كما فضح شكيب ألاعيب فرنسة مع تركية على حساب سورية ، وسلخ أنطاكية وأسكندرونة عن سورية وتقديمها لتركية .

وفي سنة (١٩٢٧) سافر الأمير إلى أميركة الشمالية ، حيث رأس مؤتمراً

عربياً في بلدة ديترويت بناءً على دعوة تلقاها من عرب المهجر هناك .

زار روسية في أواخر عام (١٩٢٧) حيث استقبل هناك بحفاوة وإجلال ، وكتب كتاباً عن رحلته هذه إلى روسية .

وفي سنة (١٩٢٩) حج الأمير إلى بيت الله الحرام ، والتقى هناك الملك عبد العزيز آل سعود ، وأقام مدة في الطائف ، وقام بجولة علمية أثرية تاريخية في الحجاز ، وكتب ذلك في رحلته الحجازية المسمّاة « الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » .

وفي سنة (١٩٣٠) قام برحلة إلى إسبانية ، وعاد إلى جنيف ليكتب كتابه « الحلل السندسية » .

كما أخذ في إصدار مجلة « الأمة العربية » باللغة الفرنسية في جنيف ، وساعد مجاهدي المغرب العربي في تونس والجزائر ومراكش في جهادهم ، وكان قلمه لسان جهادهم مما بوأه مكانة عالية في قلوبهم .

في عام (١٩٣٤) ، سافر إلى اليمن ضمن وفد الصلح الذي أرسله المؤتمر الإسلامي في القدس ، للتوفيق بين السعودية واليمن ، بعد أن نشبت الحرب بينهما ، وقد نجح الوفد بمهمته .

في صيف عام (١٩٣٧) سمحت له فرنسة بزيارة سورية ، فعاد إلى وطنه ، واستقبل استقبالًا رائعاً ، وكرمته الحكومة السورية ، فأصدرت قراراً بتعينه رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق ، لكن السلطات الفرنسية عادت ونكثت بوعدها ، وطلبت منه مغادرة سورية ، فعاد إلى جنيف .

في سنة (١٩٣٩) سمح له بزيارة مصر ، فزارها ، وقضى فيها نحواً من أربعة أشهر عاد بعدها إلى أوربة .

في عام (١٩٤٦) عاد شكيب إلى وطنه ، واستقبل بحفاوة وإكبار ، ولكن صحته كانت قد ضعفت بمرور السنين ، وطول الكفاح ، وتوالي المتاعب ، وكثرة الأمراض في الصدر ، التي كانت تسبب له عسر التنفس ، وتصلب الشرايين ، وأمراض في المثانة والكلى ، ومرض في عينيه ، وغير ذلك .

وفي يوم الإثنين (١٥/١/١٣٦٦) الموافق (٩/١٢/١٩٤٦) لحق شكيب أرسلان بربه بعد حياة حافلة ، وصلي عليه في الجامع العمري في بيروت ، ثم دفن في قرية الشويفات إلى جوار أخيه الأمير عادل أرسلان .

ترك الأمير ثلاثة أولاد هم : غالب ومي وناظمة .

كان الأمير يعرف الفرنسية والتركية والإنكليزية وطرفاً من الألمانية .

شمائله : قالت زوجته السيدة سليمى الخاص بك حاتوغو : إن الإمير كانت متديناً ، محافظاً على الصلاة ، وحياته كلها كانت كتابة أو قراءة أو حديث أو رحلة .

حليته : كان الأمير يميل إلى الطول في القامة ، حنطي اللون ، أسود الشعر في شبابه ، ثم ابيض مع تقدمه في السن . رحمه الله رحمةً واسعة .

مؤلفاته المطبوعة :

١ ـ باكورة (ديوان شعر) .
٢ ـ الدرة اليتيمة (تحقيق) .
٣ ـ رواية آخر بني السراج (ترجمة) .
٤ ـ المختار من رسائل الصابىء (تحقيق) .
٥ ـ إلى العرب بيان للأمة العربية عن حزب اللامركزية . وهو ملحق بهذا الكتاب .
٦ ـ أعمال الوفد السوري الفلسطيني .
٧ ـ حاضر العالم الإسلامي (حواشي) .
٨ ـ أناطول فرانس في مباذله (ترجمة) .
٩ ـ لائحتي إلى المسيو جوفنيل (المندوب السامي الفرنسي في سورية) .
١٠ ـ مجلة الأمة العربية (بالفرنسية) .
١١ ـ لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم .
١٢ ـ الرحلة الحجازية المسماة : الإرتسامات اللطاف ، وهو تحت الطبع

تاريخ الدولة العثمانية

زهدي

بقلم أمير البيان والمجاهد الكبير

الأمير شكيب أرسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

جاءتني في السنة الماضية من فاس المحروسة حاضرة المغرب أن الكتبي النبيه، الساعي في نشر العلم بما أوتي من جودة الفهم الحاج محمد المهدي الحبابي أخذ الله بيده - عزم أن يطبع « تاريخ ابن خلدون » طبعة جديدة رائقة مستوفية شروط التحقيق، مطرزة بالحواشي القيمة اللائقة بمثل ذلك التاريخ العظيم. . .

فتلقيت من هذا الخبر بشرى أثلجت الصدر، وصرت أترقب طلوع هذا الفجر بذاهب الصبر، وبينما أنا كذلك إذا بصاحب هذه الفكرة يريدني أن أعلق أنا أيضاً على هذا التاريخ حواشيَ بما يعن لي من آراء وأنحاء متصلة بمواضيعه.

فما زال بي حتى رضيت برغم ما أنا عليه من كثرة الشواغل أن أعلق بعض الحواشي على بعض المظان، مجتزئاً من البحث بالمختصر المفيد، ومكتفياً من القلادة بما أحاط بالجيد.

ولما كان قد ورد في متن المؤلف ذكر الأمم الكبار، ومن جملتها أمة الترك، علّقت تحت هذه اللفظة خلاصة ضافية في نسب هذه الأمة وأولياتها ومصائرها.

ثم لما كان لا بد في هذا النسب من الانتهاء إلى تاريخ بني عثمان الذين تحملوا أعباء الخلافة الإسلامية ردحاً من الدهر دخلت في هذا البحث وأنا على نية إجماله ما استطعت إلى الإجمال سبيلاً، فإذا بي مهما سلكت الطرق القاصدة لا أقدر أن أتخلّصَ من هذا التاريخ إلا في مجلد كبير، وكيف لا يكون ذلك، وهناك دولة طويلة عريضة كانت من أعظم دول الأرض، وشجت عروقها، وامتدت شماريخها من حدود المغرب الأقصى غرباً إلى بحر الخزر شرقاً، ومن أواسط أفريقية الليل جنوباً إلى ألمانية وبولونية شمالاً، فكانت أيامها ملأى بالحوادث الكبار، شاغلة ما بين دفتي الليل والنهار، فمضيت فيه متوكلاً على الله من أول تأسيس هذه الدولة إلى بداية الحرب العالمية، متوخياً في الوصف الحد المتوسط، متجانفاً عن خطتي المفرط والمفرّط، ولا أظن كتاباً قد وُضِعَ في العربية عن الدولة العثمانية على غرار هذا الكتاب، لاسيما في العصر الحاضر.

فأما القسم المتعلق من تاريخ هذه الدولة بالحرب الكبرى فقد أرجأته إلى فرصة أخرى ريثما أكون عرفت ما يجب أن أملكه في هذا الموضوع من مواد، وأسلكه من الجواد، والله أسأل العون والتيسير، إنه تعالى من وراء السداد.

جنيف ٢٦ شعبان المعظم ١٣٥٥

شكيب أرسلان

الترك

هذه الأمةُ هي بدون شك من أشهر أمم الكرة الأرضية ، وأكثرِها عدداً ، وأشدِّها شكيمةً ، وأوسعِها فتوحات ، وأمجدِها تاريخاً .

وقد حرّرتُ خلاصةَ تاريخها في حواشي « حاضر العالم الإسلامي »[1] بما أرى مناسباً إعادته هنا مع زيادةِ تفصيلٍ .

قلت هناك : إنّ التركَ هم من أكبرِ وأشهرِ الأمم الآسيوية ، وإنّهم معدودون من الشعوب الطورانية ، وهم متشابهون في الخِلقة مع الصين والتبت واليابان ، ولا عبرةَ بما تجدُه من سحناء أتراكِ الأستانة والأناضول ؛ فإنّ هؤلاء قد توالدوا وتناسلوا في غربي آسية مِنْ قرونٍ متطاولةٍ ، واختلطوا بالأمم الأخرى كالقوقازيين ، والمكدونيين ، والأرناؤوط ، والروم ، والبلغار ، والأكراد ، والصرب ، وبقايا أهل الأناضول القدماء ، وتولّدت منهم أمةٌ لا تشبهُ المغول ، ولا الصين ، ولكنّ التركَ الأناضوليين الذين لم يختلِطوا بهذه الأمم الغريبة يشبِهُون كثيراً أتراكَ بُخارى ، وخيوة ، وكاشغر ، وهم ذَوُوْ ملامحَ ظاهرةِ الشبهِ مع أهلِ الصّين ، والتبت ، والمغول .

كان الترك مِنْ على عنق الدهر في جبلِ الذّهب بين سيبيرية والصين ، ثم أخذوا ينتشرون في الأقطار ، فهاجروا إلى شماليِّ سَيْحون وجَيْحون ، وإلى الشمال الشرقيِّ من بحر خارزم[2] ، وإلى الشمال الغربي من الصين والخطا . فكان منهم قسمٌ في الغرب ، وهم المجر والفنلانديون ـ أهل فنلاندة على البلطيق ـ والبلغار ، وهؤلاء هم الذين يقال لهم : الأوراليون . وكان منهم قسمٌ

---

(١) « حاضر العالم الإسلامي » (٤ : ١٧٣ ـ ١٧٦) .

(٢) تكتب خوارزم وتقرأ خارزم كما ذكر ذلك الأستاذ عبود الشالجي في « الكنايات البغدادية » .

في الشرق ، وهم الذين يقال لهم : المانشو والتونغوز . وقسم في الجنوب الشرقيّ ، وهم المغول .

وكان لهم مناسبات ومحاربات مع الأمة الفارسية ، وقيل : إن هيرودتس أبا المؤرخين أشار إليهم تحت اسم تاركيتاوس .

وباني أول دولةٍ منهم أوغز خان بن قره خان ، وكان له ستةُ أولاد ؛ وهم : كون خان[1] ، وآي خان ، ويلديز خان ، وكول خان ، وطاغ خان ، ودكز خان .

فمن هؤلاء ثلاثةٌ سكنوا الشرق ، وثلاثةٌ سكنوا الغرب ، وكان لكل منهم أربعة أولادٍ ، فصار لأوغز خان (٢٤) حفيداً ، هم رؤساءُ القبائل التركية ، هكذا قال نسّابوهم .

ومن البداية انقسم الترك إلى قسمين : الساكنين في شرقيّ تركستان ، وهم : الإويغور ، والساكنين في الغرب منها : وهم الترك أو التركمان .

وكان الإويغور بادِىءَ ذي بدءٍ أرقى وأرقّ وأكثرَ مدنيةً ، وكان لسانُهم لسانَ الترك الأدبي ، وكان لهم خطٌّ ومؤلفاتٌ ، ثم جاء رهبانٌ من النّساطرة ، ونصّروا بعضَهم ، وعلّموهم خطًا مأخوذاً من السّريانية ، وموجودٌ بهذا الخطِّ كتبٌ تركيةٌ إلى اليوم .

***

وفي سنة (٨٥) للهجرة و (٧٠٤) مسيحية غزا قتيبة الباهليّ بالمسلمين العربِ بلادَ الترك ، وافتتحَ بُخارى ، ومرو ، وخارزم ، وسمرقند ، وغيرها . واجتمع عليه ملك السُّغدِ ، وملك الشَّاش ، وغيرهما . فهزمهم ، وأثخنَ في الترك ، فصالحوه على أموالٍ يؤدونها إليه ، وكان في صُلحِهِ بيوتُ الأصنامِ والنيران ، فأُخْرِجَتِ الأصنامُ ، فسُلِبَتْ حليتُها . وكانوا يقولون : إنّ هناكَ أصناماً مَنْ استخفّ بها هلك ، فلما حرَّقها قُتيبةُ بيدِه أسلم من الترك خلقٌ ، وهذا أول إسلامهم .

---

(١) وهو جد بني عثمان .

وفي خلافة هشام بن عبد الملك تولّى خالد بن عبد الله القسري العراق ، وأخوه أسد بن عبد الله خراسانَ ، وغزا أسدٌ بلادَ الترك ، ومنها جبال نمرود ، فصالحه نمرودُ وأسلم .

ثم استعمل هشامُ على خراسان أشرس بن عبد الله السُّلمي ، فدعا أهل ما وراءِ النهر إلى الإسلام ، وطرحَ الجزيةَ عن الذين أسلموا ، فسارعوا إلى الإسلام[1] .

***

ثم لما صارت **الخلافةُ إلى بني العباس** ، وتولى المأمونُ خراسانَ ـ وذلك قبل خلافته ـ أخذ يغزو السُّغْدَ ، وأشروسنة ، وفرغانة ، ويقول البلاذُريُّ في « فتوح البلدان »[2] : إنّه كان مع تسريته الخيولَ إليهم يكاتُبهم بالدعاءِ إلى الإسلامِ والطاعةِ ، والترغيبِ فيهما .

نعم ! ولما تولّى المأمونُ الخلافةَ سنة (١٩٨ ـ ٨١٢) دخل في الإسلام كاوس ملك أشروسنة بعد حروب ومقاتلات ، تغلّب فيها العربُ على أهالي تلك البلدان ، وكان المأمونُ رحمه الله بينما هو يغزو الترك من جهةٍ يدعوهم إلى الإسلام من جهةٍ أخرى .

قال البلاذري[3] : وكان يوجّه رسله ، فيفرضون لمن رغب في الديوان ، وأرادَ الفريضةَ من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ، ويستميلهم بالرغبة ، فإذا وردوا بابه شرّفهم ، وأسنى صلاتهم وأرزاقهم .

ثم استُخلِفَ **المعتصمُ بالله** ، فكان على مثل ذلك ، حتى صار جلُّ شهودِ عسكرِهِ من جُنْدِ أهلِ ما وراء النهر من السُّغْدِ ، وفرغانة ، وأشروسنة ، وأهلِ الشاشِ وغيرِهم ، وحضر ملوكُهم بابه ، وغلب الإسلامُ على من هناك . اهـ .

---

(١) البلاذري ـ « فتوح البلدان »(٤١٧)

(٢) فتوح البلدان (٤١٩) .

(٣) « فتوح البلدان » (٤١٩) .

ولا يخفى أنّ البلاذُري كانَ قريبَ العهدِ من هذه الحوادث ، لأنّ الخليفةَ المعتصم مات سنة (٢٢٧ ـ ٨٤١) والمؤرِّخُ أحمد بن يحيى البلاذري مات سنة (٢٧٩ ـ ٨٩٢) .

وسنة (٣٥٠ ـ ٩٦١) أسلم سالور خان سلطانُ التركمان [من] سلالة طاغ خان ، وتسمّى قره خان ، وأسلم معه قومه ، وجاء ابنُه فبنى جوامع ، وفتح عمُّه بغرا خان كاشغر ، وأخذ بُخارى من السامانية ، وجاء بعدَه أحمد خان بن أبي نصر ، فأكملَ إسلامَ مَنْ لم يهتدِ من الأتراك ، وازدادَ تردُّدُ التركِ إلى بغداد ، وامتلأت منهم العراقُ ، وأرضروم ، وأذربيجان ، ووصلوا الشام ، وصار منهم أمراءُ جيشِ الخلافةَ ، واستبدّوا بأمورِها ، وصاروا يكتبون بالعربية ، وبعضُهم اتخذَ اللسانَ الفارسيَّ ، ولم يهتمَّ أحدٌ منهم بلسان الإويغور التركي القديم ، ولم يجعلوا التركي لساناً رسمياً إلا في زمان بني سلجوق في الأناضول ، ثم ترقّى هذا اللسانُ في زمان الأتراك آلِ عثمان ، الذين خلفوا آلَ سلجوق ، لا سيما في أيامِ محمّدٍ الفاتح ، وسليم وسليمان .

وفكر سليم في جعل [اللسان][1] العربي لسانَ الدولة الرسمي ، فلم يطيعوه ، لكنّه بَقي لسانَ الدين والعلم .

وأما لسان الإويغور ، فقد كان في زمن جنكيز خان ترقى كثيراً ، لكنّه عراه بعد ذلك التوقُّفُ ، وهو الذي يعرف بجغطائي ، ثم بتوالي الزمن تباعدَ التركيُّ الغربيُّ العثمانيُّ عن التركيِّ الجغطائي كثيراً . ثم هناك تركيُّ تترِ القرمِ ، وهو متوسط بين الفريقين .

وعلماءُ الألسنِ يجعلونَ [اللسان] التركيَّ خَمسةَ أقسام؛ الأول: **الإويغوري أو الجغطاي** . الثاني : **التتري** ، والثالث : **القرغيزي** ، والرابع : **الياقوتي** ، الخامس : **العثماني** ، وليس للقرغيز والياقوتِ أدبياتٌ في ألسنتهم . والقرقيز مسلمون ، لكنّ الياقوتَ لا يزالونَ وثنيين . وقيل : إن [اللسان] الياقوتي هو أصلُ [اللسان] التركي ، والباقي فروع عنه . ويقول المدقِّقون : إن [اللسان]

(١) كل ما هو موضوع بين حاصرتين زيادة من المحقق إما لتصحيح الجملة أو توضيحها .

التركيَ يشبِهُ في الدرجةِ الأولى لسان التونغوز والمانشو من الألسنةِ الطورانية ، وفي الدرجة الثانية لسان المغول، وفي الدرجة الثالثة لسانَ المجر والفنلانديين .

هذا والفرقةُ الأنقرويةُ من الأتراك[1] المستبَّدة بأمر تركية اليوم ، تعلِّمُ في مكاتب[2] تركية مذهباً جديداً في التاريخ، وهو أنّ أصلَ الترك الذين في الأناضول وغربي آسية هم من الحثّيين !؟ وأنّ هذه البلدان هي لهم من أربعة آلاف سنة ، وهم في هذا الكشفِ التاريخيّ الجديد يستندون إلى تخميناتِ بعضِ مؤرِّخينَ محدَثينَ من أصحابِ النظريات الجديدة في أوروبة، ولكنّ شيئاً من هذا لم يثبت.

وأكثر مؤرخي الأوروبيين يقولون : إنّ أصلَ الحثّيين من جهة الدم لم يتحقق بعدُ ، وغاية ماتقرر ـ تاريخياً ـ أنهم أخذوا مدنيتهم عن السومريين والآكاديين أهلِ بابل ، وقلّدوهم في الكتابة والديانة والشعائر الدينية ، ومزجوها كلَّها بمدنيتهم وديانتهم ، وتقرّر أيضاً عند بعض المؤرخين أنّ الحثّيين كانوا الواسطةَ بين المدنية السامية والمدنية الإغريقية ، ولا يزالُ تاريخُ الحثّيين في أول عهده ، ولا يزالُ العلماءُ لم يحلّوا الكتابات الباقية عنهم ، ولا يعلمونَ هل لغةُ الحثّيين هي هند أوروبية ، أم قوقازية ؟ وغاية ما لحظوا أن فيها دخيلاً من لغات أخرى .

أما الآكاديون من أهل بابل فإنّهم ساميون بلا نزاع ، ولغتُهم سامية ، والأرجح أنّهم جاءوا من جزيرة العرب مهد الساميين .

وأما السومريون فلا يُعْرَفُ أصلُهم، وقُصارى ما نرجِّحُ مِن أمرِهم أنّهم غيرُ ساميين ، وأنه وجدت مدنية معاصرة لمدنيتهم في جهاتِ بحرِ الخزر .

ولا يعلم أحدٌ ما فائدةُ أتراك أنقرة من تعليم آراء تاريخية جديدة واهية ، لا تستند على قواعد متينة ؟! وهل إذا كان تركُ الأناضول آتين من فرغانة وسمرقند وكاشغر من ألفِ سنة فقط يُسْقِطُ حقَّهم بالأناضول ؟! و [أنه] لا بدّ مِنْ أن يثبتوا أنّ هذه البلاد بلادهم منذ آلاف السنين حتى يستحقوها ؟! كلُّ هذا من جملةِ الغرائبِ التي ولدت مع الإنقلاب الأنقروي . انتهى ما كتبته في

---

(١) الكماليون وأسيادهم من الدونمة الصّهيوَنية .

(٢) مدارس .

« حاضر العالم الإسلامي »[١]

وجاء في « الأنسيكلوبيدية[٢] الإسلامية » أنّ لفظةَ ترك محرفةٌ عن لفظ توكو عند الصينين ، وهو شعبٌ ظهر في القرن السادس بعد المسيح ، وأَسَّسَ ملكاً طويلاً عريضاً ، امتد من بلاد المغول وشماليّ الصين إلى البحر الأسود ، وكان أصحابُ هذا الملك من القبائل الرحالة ، وكان مؤسس هذا الملك الكبير رجلاً يقال له تومان عند الصينيين ، وتركبومين عند الأتراك ، وقد مات سنة (٥٥٢) للمسيح . وكانت أكثرُ الفتوحات على يد الخاقان الذي مات سنة (٥٧٦) والصينيون يقولون لهؤلاء : ترك الشمال والغرب ، وكانوا قد انفصلوا عن ترك الشرق .

وفي القرن السابع للمسيح خضع الترك جميعاً الشرقيون والغربيون لسلالة تانغ الصينية ، ولكنّ تُرك الشمال عادوا فاستقلّوا في سنة (٦٨٢) للمسيح ، وفي مدةِ هذه الدولةِ التركيةِ الغربية وُجدت الكتابةُ المسمّاة كتابة آرخون نسبة إلى نهرٍ في بلاد المغول يقال له آرخون وهي أقدم كتابةٍ تركيةٍ .

واشتهر في قبائل الترك الغربية قبيلة ترغش ، وحاز أمراؤها لقب خان في أواخر القرن السابع المسيحي ، وفي ذلك الوقت جاء العرب فقضوا على ملك الترغش هؤلاء في زمان نصر بن سيار سنة (١٢١) للهجرة (٧٣٨) مسيحية . اهـ كلام « الأنسيكلوبيدية » .

قلت : في زمان هشام بن عبد الملك تولّى نصرُ بن سيّار بلادَ طخارستان ، فغزا أشروسنة ، وذلك في أيّام الخليفةِ مروان بن محمد الأموي .

وقد كان مَضاء العرب في فتح خراسان وما وراء النهر من أبدع ما جاء في التواريخ ، ومما يدلُّ على أنّ العرب إذا استقامَ أمرُهم لم يقف في وجههم قبيل[٣] ، فإنّ الترك الذين تغلّبَ العربُ عليهم مشهورون بشدَّةِ البأس وقوَّةِ

---

(١) (٤ : ١٧٣ ـ ١٧٦) ، وانظر « حاضر العالم الإسلامي » (٤ : ١١٠ ـ ١١١) .

(٢) دائرة المعارف أو الموسوعة .

(٣) انظر ص (٣٨٥) كيف استطاعت القبائل العربية أن تهزم البلغار في الحرب البلقانية عام =

المراس ، وقد حشدوا للعرب مِن كلِّ حدب ، فما نالوا منهم نيلاً ، وتغلّب العرب عليهم في أواسط بلادهم ، وأثخنوا فيهم ، ولم يكفّوا عنهم حتى دخلوا في الإسلام . فكان الإسلامُ هو الذي أنجاهم في الدنيا فضلاً عن الآخرة .

وفي زمن معاوية استولى العرب على خراسان ، وكان الوالي عبيد الله بن زياد ، وهو لا يزال ابنُ خمس وعشرين سنة ، فقطع النهر في (٢٤٠٠٠) مقاتل ، فأتى بيكند ، وقصد إلى بُخارى ، فأرسلت خاتون ملكةُ بخارى إلى الترك تستنجدُهم ، فزحفوا إلى العرب ، فهزمهم العربُ ، واستولوا على بُخارى ، ورامدين ، وبيكند .

ثم ولّى معاويةُ سعيدَ بن عثمان بن عفان خُراسان ، فقطعَ النهرَ بجنده ، وكان معه رجل يقال له : رُفيع أبو العالية الرياحي ، فتفاءل بهذا الإسم خيراً ، وقال : رُفيع أبو العالية رفعة وعلو . وبلغ خاتون ملكةُ بُخارى عبوره النهر ، فحملت إليه الصلح ، وأدّت الإتاوة ، وبينا هي داخلةٌ في الطاعة ، أقبل الترك من السُّغد ، وكَش ، ونَسَف في مئة وعشرين ألف مقاتل ، والتقوا ببخارى ، وندمت خاتون على طاعتها للعرب ، ونكثتِ العهدَ ، إلا أنّ العرب هزموا الترك ، فرجعت خاتون إلى الصلح ، ودخل سعيدُ بن عثمان بن عفان مدينة بخارى ، ثم زحف إلى سمرقند ، وحلف أن لا يبرحَ أو يفتحها ، وما زال يضيِّقُ عليها الحصار ، حتى صالحوه ، وأعطوه رهائن مِن أبناء ملوكهم ، ثم أقامَ على تِرْمذ ، وما زال يضيِّقُ عليها حتى فتحها ، ثم انتقض أهل ترمذ ، ففتحها قتيبة بن مسلم الباهلي .

وفي فتح بلاد الترك استُشْهِدَ قُثَمُ بن العباس بن عبد المطلب ، كان مع سعيد بن عثمان ، فلما بلغ خبرُ شهادتِه أخاه عبدَ الله بن عباس رضي الله عنه قال : شتّان ما بين مولدِه ومقبرِه !!

ولم يوجد أناسٌ تباينت قبورُهم مثل أولاد العباس بن عبد المطلب فقد توفي عبد الله بن عباس بالطائف ، وتوفي الفضلُ بن عباس شهيداً بوقعة أجنادين

= (١٩١٣) .

بفلسطين ، وقيل بطاعون عَمواس ، واستُشهِدَ مَعبد وعبد الرحمن ابنا عباس بأفريقية ، وقيل : إنّ معبداً مات شهيداً بأفريقية ، وعبد الرحمن مات بالشام ، واستُشهد قُثمُ بن العباس بسمر قند ، ومات عُبيدُ الله بن العباس بالمدينة ، وقيل باليمن .

ثم إنه بعد موت معاوية ولّى ابنه **يزيدُ بن معاوية** سَلْمَ بن زياد ما وراء النهر ، فصالحه أهل خارزم على أربعمئة ألف ، وحملوها إليه ، وقطَع النهرَ ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي ، وكانت أولَ عربيةٍ عبرت النهر ، وأقام سَلمُ بن زياد بالسُّغد ، وسرّحَ جيشاً إلى خجندة ، وفيهم أعشى همدان الشاعر ، فانهزم هذا الجيشُ فقال الأعشى[1] :

ليتَ خَيلي يومَ الخَجْندةِ لم تُـ ـهزَمْ وغُودِرْتُ في المَكرِ سَليبا
تَحْضُرُ الطيرُ مَصْرَعي وتروَّحـ ـتُ إلى الله في الدماءِ خَضِيْبا

ثم رجع سَلْم بنُ زياد إلى مرو ، وحشد هناك جيشاً ، وغزا بلاد الترك ، فجمع له أهلَ السُّغدِ ، فقاتلهم ودوَّخهم .

ثم إنّ سَلم بن زياد انصرف عمّا وراء النهر ، وتولاها عبد الله بن خازم السُّلمي بعهدٍ من سَلْمِ بن زياد ، فعصاه سليمان بن مرثد ، من بني سعد بن مالك ، من المراثد بن ربيعة ، واقتتلا ، وكان ذلك في أثناءِ فتنة ابن الزبير مع بني أمية ، وطال القتال بين العرب ، فانتهز التركُ الفرصةَ ، وشنّوا الغارات ، حتى بلغوا قرب نيسابور ، ولكن انتهت هذه الفتنة بين العرب بالطائلة لابن خازم ، **وكانت العصبيةُ العربية بين القبائل هي العامل في تلك الفتن**[2] ، **كما كانت في الأندلس ، وفي بلاد الفرنجة .**

وكان عبد الله بن خازم لا يتولى غير عبد الله بن الزبير ، ولا يطيعُ عبدَ الملك بن مروان ، فكتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح يوليّه خراسان ، فقاتل ابنَ خازم ، وتغلّب عليه ، وقتله ، وأرسلوا برأسه إلى عبد الملك بن

---

(١) فتوح البلدان (٤٠٣) .

(٢) وكما هي اليوم ، فكل دولة عربية تقدم مصالحها الخاصة على مصالح الأمة .

مروان فنصبه بدمشق ، واشتدّت الفتنةُ بين العرب في خراسان ، إلى أن كتب وجوهُ العرب إلى عبد الملك بن مروان أنّه لا تصلح خراسان بعد هذه الفتنة إلا برجل من قريش ، فولّى عبدُ الملك على خراسان أمية بن عبد الله بن خالد ، وغزا أميةُ بلادَ الختل فافتتحها .

ثم جاءت أيامُ الحجّاج بن يوسف ، وكانت خراسان من جملة ولايته ، فولّاها المهلبَ بن أبي صُفرة من الأزد ، وذلك سنة (٩٩ ـ ٧١٧) فغزا مغازٍ كثيرةً ، وانتقضت الختل في أيامه ، فدوّخها ، وفتح خجندة وأطاعت له السُّغد وكَش ونَسَف .

ومات المهلب ، فقام بعدَه ابنهُ يزيدُ بن المهلب ، فغزا مغازٍ كثيرةً في بلاد الترك ، وفتح البتم ، ثم غزا يزيدُ خارزم .

ثم ولّى الحجاجُ بن يوسف المفضّلَ بن المهلب بن أبي صُفرة ، ففتح المفضَّلُ بلداناً منها باذغيس ، وشومان .

وكان موسى بن عبد الله بن خازم السُّلمي بعد قتل أبيه قد امتنع بترمذ ، فاستنجد أهلُ ترمذ بالترك على موسى ، فهزمهم موسى ، وحدثت مع موسى هذا وقائع كثيرة وحروب ذاتِ بالٍ تغلّبَ فيها كلّها[1] .

وكان أهلُ خراسان يقولون عن موسى بن عبد الله بن خازم السلمي هذا : ما رأينا مثل موسى !! قاتل مع أبيه سنتين لم يُفَلَّ ، ثم أتى ترمذ ، فغلب عليها ، وهو في عدّةٍ يسيرةٍ ، وأخرجَ ملكها عنها ، ثم قاتل التركَ والعجمَ وأوقع بهم ، إلا أنه لما تولّى المفضَّل بن المهلب خُراسان ، أرسل جيشاً يقاتل موسى على ترمذ ، فانهزم موسى ، وقُتلَ .

وتولى ترمذَ مُدْرِك بن المهلب ، وكان قتل موسى في آخر سنة (٨٥ ـ ٧٠٤) ، وقيل : إنَّ رجلاً ضَربَ ساق موسى وهو قتيل ، فلما تولّى قتيبةُ الباهلي وعلم به قتله .

---

(١) انظر « فتوح البلدان » : (٤٠٤ ـ ٤٠٨) .

ثم ولّى الحجاجُ بن يوسف قتيبةَ ، وهو أشهرُ فاتحٍ عربي لبلاد التركِ ، خرجَ يريدُ بلادَ آخرون ، فلما كان ببلاد الطالقان ، تلقّاه دهاقين بَلْخ ، فعبروا معه النهر ، وقَدِمَ عليه ملك الصغانيان بهدايا ، وأعطاه الطاعة ، واستعان به على ملك آرخون وشومان ، اللذين كانا عدوين لملك الصغانيان ، ثم أقبل على قتيبة ملك كفيان ، وقدم له الطاعة . فانصرف قتيبةُ إلى مرو ، وخلّف أخاه صالحاً على ما وراء النهر ، ففتح صالحُ كاسان وأورشت من بلاد فرغانة وبيعنخر وخشكت وكان في جيش صالحٍ هذا نصرُ بن سيار المشهور . وأطاع ملك الجوزجان وقدم على قتيبة[1] .

ثم غزا قتيبةُ بيكند سنة (٨٧) فاستصرخ أهالي بيكند أتراكَ السُّغْدِ ، فهزمهم قتيبةُ ، وفتح بيكند ، ثم فتح تومشكت وكرمينية سنة (٨٨ ـ ٧٠٦) ، ثم استخلف على مرو أخاه بشاراً ، وغزا بخارى ودخلها صلحاً ، ثم أوقع بالسُّغْدِ وافتتح كش ونَسَف ، وكان ملك خارزم قد عصاه أخوه خرزاد ، فالتجأ الملكُ إلى قتيبةَ ، فوجّه قتيبةُ أخاه عبد الرحمن بن مسلم بجيشٍ ، فقاتل خرزاد فقتله ، وأوقع بجماعته ، وأعادَ الملك إلى أخيه ، ثم وثب الأهالي بالملك فقتلوه ، فولّى قتيبةُ أخاه عبيد الله بن مسلم على خارزم ، ثم غزا قتيبة سمرقند فاجتمعوا لقتاله ، وكتب ملكُ السُّغدِ إلى ملك الشّاش (الشاش ما يقال له اليوم : طاشقند) فنهدوا إليه في خَلْقٍ كثيرٍ ، فقاتلهم المسلمون ، وهزموهم ، وصالحهم أهلُ سمرقند على ألفي ألف ومئتي ألف درهم في كلِّ عام ، وعلى أن يصلّيَ قتيبةُ في المدينة ، فدخل قتيبة سمرقند ، وصلّى ، واتخذ مسجداً ، وخلّف بها جماعة من المسلمين فيهم الضحّاك بن مُزاحم صاحب التفسير ، وكان في صلح قتيبة بيوت الأصنام والنيران ، فأخرجَ قتيبةُ الأصنامَ ، وسلب حليتها ، وأحرقها ، وكانوا يعتقدون بها ، فلما رأوا قتيبة قد أحرقها بيده ، ولم يحصل له سوءٌ ، أسلم منهم خلقٌ .

وفي زمن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وفد قومٌ من أهل سمرقند ،

---

(١) « فتوح البلدان » : (٤٠٩) .

فرفعوا إليه أن قتيبة دَخلَ مدينتهم غَدراً ، وأسكنها المسلمين ، فكتب عمرُ يأمرُ بنصبِ قاضٍ للنّظَرِ فيما ذكروا ، فنصبَ لهم جُميعُ بن حاضر الباجي ، فحكم بإخراج المسلمين ، على أن ينابذوهم على سواء ، فكره أهلُ سمرقند الحرب ، وبقي المسلمون فيها[1] .

ثم فتح قتيبة عامة بلاد الشّاش ، وبلغ أسبيجاب وقالوا : إنّ قتيبة فتح خارزم وسمرقند عنوةً .

وقد كان سعيدُ بن عثمان بن عفان قد تغلّب على سمرقند وخارزم صلحاً ، ولكنّ قتيبة استقلّ هذا الصلح ، وأبى إلا فتحها بالقوة ، ثم فتح بيكند ، وكش ، ونسَف وقيل : والشاش ، وبعضَ فرغانة ، وغزا أشروسنة .

ولما تولىّ الخلافةَ سليمانُ بن عبد الملك كان قتيبة بن مسلم الباهلي مستوحشاً منه ، كارهاً لخلافته ، فكتب سليمانُ إلى قتيبة يأمره بإطلاق كل مَن في حبسه ، وأن يعطي الناس أعطياتهم ، ويأذَنَ لمن أراد القفول في القفول ، وكانوا متطّلعين إلى ذلك ، وكان من مقاتلةِ أهل البصرة أربعون ألفاً ، ومن أهلِ الكوفةِ سبعةُ آلاف ، ومن الموالي سبعةُ آلاف ، فلم يأذن قتيبةُ في القفول ، فثاروا به ، فانتصر له العجم على العرب ، وكانت حربٌ بين الفريقين ، فظفر العرب بقتيبة وقتلوه ، وهو الذي مهَّدَ لهم بلاد خراسان وما وراءَ النهر ، وقُتِلَ معه جماعة من إخوته ، وقُتِلَتْ زوجته ، ونجا أخوه ضرار بواسطة بني تميم ، وأخذت الأزد رأس قتيبة وخاتمه ، وبعثوا به إلى الخليفة مع سُليط بن عطية الحنفي ، وكان قتيبةُ يوم قتل ابن (٥٥) سنة .

وبعد أن قتل قتيبةُ رحمه الله تولّى خراسان وكيعُ بن حسان بن قيس التميمي ، وأراد سُليمان بن عبد الملك أن يثبته في الولاية فقيل له : إنّ وكيعاً ترفعه الفتنة ، وتضعه الجماعة ، وفيه جفاء وأعرابية ، وكان وكيع يدعو بطستٍ فيبولُ ، والناس ينظرون إليه ، فلم يكن يصلحُ للولاية . فقدِمَ عليه يزيدُ بن المهلب والياً ، فقدّم يزيدُ ابنه مُخلّداً ، فعزا مخلد البتم فتحها ، ثم نقض أهلها

---

(١) « فتوح البلدان » : (٤١١) .

العهدَ ، فكرّ عليهم ، وفتحها ثانيةً ، وأصاب بها مالًا وأصناماً[١] .

ولما استُخلِفَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، فإنّ هَمه كان نشرَ الإسلام قبل كلّ شيء ، فأسلم بعضُهم ، وكان عاملُ عمَر على خراسان الجرّاح بن عبد الله الحكمي ، فوجَّهَ الجراح أحدَ قواده عبد الله بن معمر اليشكري إلى ما وراء النهر ، فأوغل في بلاد العدو ، وهمَّ بدخول الصين ، فلما تكاثر عليه الترك رجع إلى الوراء ، وامتنع ببلد الشَّاش ، ورفع الخليفة رضي الله عنه الخراجَ عمّن أسلمَ بخراسان ، وفرضَ العطاء للمسلمين منهم ، وبنى الخانات .

وكان الجَراح بن عبد الله الحكمي قد كتب للخليفة أنّه لا يُصلِحُ خُراسانَ إلا السيف ، فاغتاظ عمرُ من كلامه هذا ، وعلم أنه والٍ يستخفُّ بالدماء ، فعزله ، ولكن قضى الدَّينَ الذي عليه .

ثم ولّى عبدَ الرحمن بن نعيم الغامدي حربَ خراسان ، وعبد الرحمن بن عبد الله القُشَيريَ خراجها[٢] .

وفي خلافة يزيد بن عبد الملك تولّى خُراسانَ سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، فنزل خراسان ، وبعث ابنه إلى ما وراء النهر ، فنزل أشتيخن ، فزحف إليه التركُ فقاتلهم ، وهزمهم ، ثم لقي التركَ مرةً ثانية ، فانهزم أصحابُ سعيد ، فولّى سعيدُ نصرَ بن سيّار على الجيش ، وشخص قومٌ من وجوهِ خراسان إلى مَسْلَمَة بن عبد الملك والي العراق ، وشكوا سعيداً ، فعزله مَسلمة ، وولى سعيد بن عمر الجرشي على خراسان ، فافتتح الجُرَشِيُّ عامةَ حصون السُّغدِ . وقال البلاذُري : إنه نال من العدو نيلاً شافياً[٣] .

وفي خلافة هشام بن عبد الملك تولّى العراقَ عمر بن هُبَيرة الفزاري ، فعزل

---

(١) « فتوح البلدان » : (٤١٤) .

(٢) « فتوح البلدان » : (٤١٥) .

(٣) « فتوح البلدان » : (٤١٦) .

الجُرَشِيَّ ، واستعمل على خراسان مسلم بن سعيد ، فغزا الأفشينَ ، فصالحه على ستة آلاف رأس ، ودفع إليه قلعته . وتولّى طخارستان نصرُ بن سيار ، كما تقدم الكلام عليه ، فخالفه خلقٌ من العرب ، فأوقع بهم ، ثم سفرت بينهم السفراء فاصطلحوا .

ثم تولّى العراقَ خالد بن عبد الله القسري ، من قِبَلِ الخليفة هشام بن عبد الملك ، فولّى خالدٌ أخاه [أسد بن] عَبد الله بلادَ خُراسان ، وبلغ ذلك مسلم بن سعيد ، فسار إلى فرغانة ، وأناخ على مدينتها ، وعاثَ فيها ، فاجتمع عليه التركُ وعليهم خاقانهم ، فارتحل عن فرغانة ، وغزا أسد بن عبد الله القسري جبال نمرود فصالحه نمرود وأسلم ، وغزا الختلَ فلم يقدر عليها .

ثم استعمل الخليفةُ هشام أشرسَ بن عبد الله السُّلَمي ، فدعا أهلَ ما وراء النهر إلى الإسلام ، وأمَرَ بطرحِ الجزيةِ عمّن أسلمَ ، فسارعوا إلى الإسلام ، وانكسر الخراجُ .

ثم استعمل الخليفة هشام سنة (١١٢ ـ ٧٣٠) الجُنيدَ بن عبد الرحمن المُرِّي على خراسان ، فحارب التركَ وهزمهم ، وظفر بابن خاقان ، فبعث به إلى الخليفة هشام ، ولم يزل يقاتِلُ التركَ حتى دوَّخهم ، وأمدَّهُ الخليفةُ بِعَمرو بن مسلم في عشرة آلاف رجل من أهل البصرة ، وبعبد الرحمن بن نُعيم في عشرة آلاف من أهل الكوفة ، وحمل إليه ثلاثينَ ألف قناة ، وثلاثين ألفَ ترس ، وأطلقَ يده في الفريضة ، ففرض لخمسة عشر ألف رجل .

وكانت للجُنيد مغازٍ كثيرة ، وفي زمانه عصت نواحٍ من طخارستان ففتَحها ، وكانت وفاتُه بمرو . فولّى الخَليفةُ هشام عاصمَ بن عبد الله بن يزيد الهلالي .

وكان نصر بن سيار غزا أشروسنة أيامَ الخليفة مروان بن محمد ، فلم يقدر عليها ، وكان من بعده من الخلفاء يُولّون عُمالهم ، فينتقصون حدودَ أرضِ العدو ، ويحاربون مَن نقضَ العهد[1] .

وبقي الأمر كذلك إلى أيام المأمون يوم مقامُه بخراسان ، فكان يغزو بلاد

---

(١) « فتوح البلدان » : (٤١٨) .

الترك من السُّغد وأشروسنة وفرغانة ويوالي عليهم الغارات ، ولكنّه من جهة ثانية يدعوهم إلى الإسلام . وكتب إليه كاوس ملك أشروسنة يسألهُ الصلحَ على مالٍ يؤديه ، على شرط أن لا يُغزِي المسلمين بلده ، فأُجيبَ إلى ذلك .

فلما تولى المأمون الخلافة ، امتنع كاوس من الوفاء بالصلح ، فأرسل المأمون أحمد بن أبي خالد الأحول الكاتبَ لغزو أشروسنة في جيشٍ عظيم ، فاستصرخ كاوس التركَ فزحفوا لنجدته ، ولكنَّ أحمد بن أبي خالد أناخ على أشروسنة قبل وصول الأتراك ، فاستسلم كاوس له ، وَوَرَدَ كاوس مدينةَ السّلام ، وأظهر الإسلام ، وملّكهُ المأمون على بلاده ، ثم ملّك ابنَه خَيذَرَ بنَ كاوس الملقّب بالأفشين بعده (واسمه بالخاء المعجمة كما رأيتُ في تاريخ أبي الفداء) .

وكان المأمونُ رحمه الله يكتُبُ إلى عمّاله في خراسان بغزو مَن لم يُسلم من التركِ ، ويُسني العطاءَ لمن أسلم ، وإذا ورد ملوكُ التركِ بابَه بالغَ في تشريفهم وإكرامهم ، وأدرَّ عليهم الأرزاق .

ثم جاءت **خلافة المعتصم** فكانت رغبتهُ في الترك أكثرَ من كلِّ الخلفاء ، وصار أكثرُ جيشِه من أهل السُّغْدِ ، وفرغانة ، وأشروسنة ، والشاش ، وغلبَ الإسلامُ على تلك البلاد ، وصار أهلُها يغزونَ مَن وراءَهم من التركِ ، وأغزى عبدُ الله بن طاهر ابنَه طاهرَ بن عبد الله بلاد الغورية ففتح مواضِعَ لم يصل إليها أحدٌ قبله .

وكان قُتيبةُ الباهليُّ أسكنَ العربَ في أرضِ فرغانة والشّاش .

والأفشين هذا هو الذي بعدَ أن أَسبغَ عليه الخلفاءُ النعمَ الجسامَ ، عاد فظهر أنهُ لم يكن إسلامُه إلا خِدَاعاً ، وأنه لم يكنْ طهَّرَ قلبه من عبادةِ أصنامِه ، فانتهى الأمرُ بأن قاتله المعتصم وأخذه ، وبعد وقوعِهِ باليد أحرقه ، وفي ذلك يقول أبو تمّام الطّائي شاعرُ الحضرةِ[1] :

يـا رُبَّ فِتنَـةِ أُمَّـةٍ قَـدْ بَـزَّهـا   جَبَّارُها في طاعَةِ الجبَّارِ

(١) ديوانه : (٢: ١٩٨) .

جالت بِخَيذَرَ جولةَ المقدارِ ... فأحلَّهُ الطغيانُ دارَ بوارِ
كم نِعمَةٍ لله كانت عِندَهُ ... فكأنَّها في غُربَةٍ وإِسارِ
كُسِيَتْ سَبائِبُ لُؤمِهِ فتضاءَلتْ ... كتَضاؤُلِ الحسناءِ في الأطمارِ
صادَى أميرَ المؤمنينَ بِزِبرِجٍ ... في طَيِّهِ حُمَةُ الشُّجَاعِ الضارِي[1]
حتّى إذا ما اللهُ شَقَّ ضَمِيرَهُ ... عَن مُسْتِكِنِّ الكُفرِ والإصرارِ
ونحا لهذا الدِّينِ شَفرَتَهُ انثنى ... والحقُّ مِنهُ قانِىءُ الأظفارِ
هذا النبيُّ وكانَ صَفوَةَ رَبِّهِ ... مِن بَينِ بادٍ في الأنامِ وقَارِ
قد خَصَّ مِن أهلِ النِّفاقِ عِصابةً ... وهمُ أشدُّ أذًى مِنَ الكُفّارِ
واختارَ مِن سَعْدٍ لَعِينِ بني أَبي ... سَرحٍ لِوحيِ اللهِ غَيرَ خِيارِ
حتّى استضاءَ بشُعلَةِ النُّورِ التي ... رَفَعَتْ له سَجْفاً عَنِ الأسرارِ

ومنها :

ما كانَ لولا فُحْشُ غَدرةِ خَيذَرٍ ... ليكونَ في الإسلامِ عَامُ فَجارِ
ما زالَ سِرُّ الكُفرِ بَينَ ضُلُوعِهِ ... حتّى اصطَلَى سِرَّ الزِّنادِ الوارِي
ناراً يُساوِرُ جِسمَهُ مِن حَرِّها ... لَهَبٌ كما عَصْفَرتَ شِقَّ إزارِ
مَشبُوبَةً رُفِعَت لأَعظَمِ مُشرِكٍ ... ما كان يَرفَعُ ضَوءَها للسارِي
صَلَّى لها حياً ، وكان وَقُودَها ... ميتاً ، ويدخُلُها مع الفُجّارِ
قد كان بَوَّأَهُ الخليفَةُ جانباً ... مِنْ قَلبِهِ حَرَماً على الأقدارِ
فسقاهُ ماءَ الخَفضِ غيرَ مُصَرَّدٍ ... وأنامَهُ في الأمنِ غَيرَ غِرارِ
فإذا ابنُ كافِرةٍ يُسِرُّ بِكُفرِهِ ... وَجدًا كَوَجْدِ فَرزدَقٍ بِنَوارِ
وإذا تَذَكَّرهُ بكاهُ كما بَكَى ... كَعْبٌ زَمانَ رَثَى أبا المِغوارِ
دَلَّت زخارِفُهُ الخليفةَ أنَّه ... ما كلُّ عُودٍ ناضِرٍ بنُضَارِ
يا قابضاً يَدَ آلِ كاوُسَ عادِلاً ... أَتبِعَ يميناً مِنهُمُ بِيَسَارِ
واعلَم بأنَّكَ إنما تُلْقِيهُمُ ... في بعضِ ما حَفَروا مِنَ الآبارِ

(١) قال محقق الديوان : والأشبه أن يكون الصاري بالصاد غير المعجمة مأخوذاً من صرى السم إذا جمعه .

وذلك أن الأفشين خَيذر بن كاوس كان مقرَّباً عند المعتصم ، ولخيذر جهادٌ عظيم في حروب الروم ، ولا سيما في فتح عمورية ، وهو الذي هزم بابِكَ الخرَّميَّ ، الذي خرج على الخلافة في جبال طبرستان واشتد أمرُه ، وهزم عساكر المعتصم مراراً ، فرماه المعتصمُ بالأفشين ، فما زال يقاتله حتى أخذه ، ولكن في سنة ست وعشرين ومئتين غضب المعتصم على الأفشين خيذر بن كاوس ، وحبسه إلى [أن] مات في حبسه ، وأُخرِجَ فصُلِبَ إلى جانب بابك ، كما هو مبسوطٌ في التواريخ .

وجاء في « الأنسكلوبيدية الإسلامية » أن الخليفة هشام بن عبد الملك كان قد دعا ملكَ الترك إلى الإسلام ، وأنّ مؤلفي العرب لم يبدأوا بالكتابة عن الترك إلا في القرن الثالث للهجرة . فذكروا من أصنافهم الطوغوزغوز والقرغيز والكيماك والغُز أو الأوغُز والقارلُق .

وكان القرغيز أبعَدهم مكاناً عن العرب ، وكان الأوغز والقارلق هم الساكنون على حدود المملكة العربية مثل جرجان ، وفاراب وأسبيجاب .

وكان الطريقُ من المملكة العربية إلى الصين ماراً ببلاد القارلق ، فكان المسافر يمشي ثلاثينَ يوماً من حدود فرغانة الشرقية في بلاد القارلق إلى أن يصلَ إلى البحر المحيط .

وذكر ابن خرداذبه قبيلاً من الترك كان يسكن بقرب مشاتي القارلق ، وهم الخالاج ، وذكروا أنّ مدينة خاقان ترغُش كانت بقرب نهر كو ، وكان الترغش ينقسمون إلى تخسي وإلى آز ، وكان التخسي يسكنون على ضفاف كو ، ولهم مدينة اسمها صوياب .

وكان إلى الشرق منهم قبيلٌ يقال له : الصيغل وكان إلى الجنوب من نهر مارين قبيلٌ يقال له : يغمة ، من الطوغوزغوز ، وفي بلادهم كانت مدينة كاشغر .

وقال محمود الكاشغري : إنّ اليغمةَ والتخسي كانوا يسكنون على ضفاف نهر اللي ، وكان بالقرب منهم قسم من الصيغل ، وكان هؤلاء الصيغل ثلاثة

أقسام : صيغل اللي ، وصيغل كاشغر ، والصيغل الذين بقرب تاراز .

وكان الأوغز يسمون جميعَ الترك من سيحون إلى الصين صيغل ، ويقول محمود الكاشغري : إنّ الأوغز والقارلق كان يقال لهم : التركمان .

وذهب بعضُهم إلى أنّه قد يكون التركمان من سلائل الإيرانيين الرحالة ، وقد استتركوا بكرور الأيام ، لأن سحنتهم تختلفُ عن سحنة سائر الترك ، ويظنّون أنّ التتر هم من قبائل الكيماك السبع ، وأصلهم من الطوغوزغوز .

وقسّمَ بعضُهم التركَ إلى قسمين : الشمالي ، والجنوبي ، وقالوا : إنّ كُلاّ منهما عشرة شعوب :

فالشماليون هم : البَجَنِك ، والقِبْجاق ، والأوغز ، واليمك ، والباشكير ، والباسميل ، والقاي ، والياباكو ، والتتر ، والقِرغيز .

وإن الجنوبيين هم : الجيكيل ، والتخسي ، واليغمة ، والإغراق ، والقاروق ، والجومول ، والإويغور ، والتنكوت ، والخيطاي ، والتفغاق .

وقد يقع اختلاف في هذا التقسيم ، لأن شعوباً منسوبةٌ إلى الشمال قد ثبت أنها سكنت في الجنوب .

ومن شعوب القسم الشمالي مَن كانت لهم لغاتُ مخصوصة بهم مثل : القاي ، والياباكو ، والتتر ، والباسميل ، ولكنهم كانوا يعرفون اللسانَ التركيَّ العام .

وكان الياباكو يسكنون على ضفاف النهر الكبير يامار ، الذي يُظَنُّ أنه النهر الذي يقال له اليوم أومورية ، وقدروى بعضُ المؤرخين أنّ جيشاً إسلامياً عبر هذا النهر في القرن الحادي عشر للمسيح تحت قيادة أرسلان تكين ، الذي ذهب يغزو الياباكو ، والباسميل .

وأما الشعوب الجنوبية من الترك ، فكان منهم شعب الجومول يتكلّم بلسان غير التركي ، ولكنه يعرف التركي ، وقيل مثلُ هذا عن الإويغور فقد كانت لهم عدا [اللسان] التركي لغةٌ خاصة .

وأما التنكوت فكانوا قبيلاً غريباً في الحقيقة ، سكن في وسط الترك ،

وكذلك أهل خوطان والتبت ، فقد كانت لهم لغات خاصة بهم .

وفي بلاد الصين وماسين كان للأهالي لسان غير التركي ، وإنما كانوا يعرفون التركي .

وفي أصناف الترك القاروق ، وكانوا يسكنون في مدينة برقوق ، التي هي اليوم مارالباشي ، وكان في بلاد الإويغور خمس مدن ، منها بشبالق ، وقوقو ، وقر خوجه ، وكان الإويغور بوذيين يعبدون الأصنام .

وقد ذكر محمود الكاشغري قبائل تركيةٍ أخرى ليست داخلةً ضمنَ الشعوب العشرين التي ذكرناها ، من جملتها : الأدغيش ، والكوجات ، الذين كانوا في خارزم .

وقد ذكروا من جملة مَن هُم من أصل تركي البلغار والصوغار .

وذهب الكاشغري إلى أنّ لغةَ البلغار والصوغار ، والبجنك ، كلُّها لغة واحدة ، ولكن الأصطخري يقول : إنّ لغة البلغار والخزر تفترقُ عن لغة الترك .

وكانت لهجاتُ القرغيز ، والقبجاق ، والأوغز ، والتخسي واليغمة ، والصيغل ، والأغراق ، والقاروق ؛ تركيةً محضةً ، ويقربُ منها لغات اليغمة ، والباشكير .

وبالإجمال فالترك الرّحالةُ الساكنون بين الإيتل واليامار كانوا يتكلّمون بلغةٍ أنقى من لغات أهل المدن ، وقد كانت اللغة السُّغدية مستعملةً إلى جانب [اللسان] التركي في المدن ، وكان يغلبُ على لغة الأوغوز ـ أو التركمان ـ لهجة الشعوب التركية الجنوبية .

ثم جاء في « الأنسكلوبيدية الإسلامية » : إنّ ظهور العرب على الترك في أول الدولة العربية لم يؤثّر في قضية اتخاذ الترك الإسلامَ ديناً ، وكانوا يروون الحديث النبوي : « إتركوا الترك ما تركوكم »[1] . وما أسلم الترك إلا اختياراً

---

(١) أخرجه الطبراني عن ابن مسعود قال في « ضعيف الجامع » رقم (١٠٥) : موضوع انظر « الأحاديث الضعيفة » رقم (١٧٤٧) للعلامة محدث العصر وناصر السنة في هذا الزمان الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى .

في القرن الرابع للهجرة (وقد ظهر لك مما تقدّمَ أنَّ الإسلامَ بدأ في التركِ من أيام بني أميةَ ، ثم فشافيهم لعهد المأمون والمعتصم) .

وإنه في سنة إحدى وتسعين ومئتين للهجرة (٩٠٣) مسيحية ، كان زحف الترك الوثنيين على المملكة السامانية ، فدحرهم المسلمون ، وفي سنة اثنين وثمانين وثلاثمئة للهجرة (٩٩٢) مسيحية ، دخل الترك المسلمون بُخارى واستولوا عليها .

وفي القرن الخامس للهجرة فتح الترك المسلمون تحت راية بني سلجوق بلاد الأناضول ، وقد رُويت أحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام بخلافِ الحديث السابق ، أي أنّه كان يحرِّضُ على تعلُّمِ لسان الترك ، لأنه سيكون لهم ملك طويل العهد ـ وأظنّه من الأحاديثِ الموضوعة ـ ولم يُعلم شيءٌ عن تاريخ الحادث الذي قيل فيه : إنّ شعباً تركياً يبلغ مئتي ألف خيمة قد أسلم في يوم واحدٍ .

قلت : ورد هذا في « صبح الأعشى » .

والمظنون أنّ لهذا الحادثِ علاقةً بدولةِ ألك خان من قبيلة أفراسياب ، وكان أمراءُ كاشغر المسلمون استولوا على بلاد خوطان ، ولم تُعْلَمْ تفاصيلُ هذا الاستيلاء .

وكانت بلدة كوزون وقلعة بوغور وغيرها معدودةً ثغورَ الإسلامِ في بلاد التركستان الصيني ، وكان دخول الأتراك الذين في الغرب متأخراً عن دخول الذين كانوا في الشرق في الإسلام .

وقد روى ابن الأثير أنّ شعباً تركياً كان يشتو في بلاد بالازاغون ويصيِّفُ في بلاد بلغار بقرب الأورال ، قد أسلم في شهر صفر سنة خمس وثلاثين وأربعمئة ، وروى أنّهم كانوا عشرة آلاف خيمة .

وكان القبجاق في أواسط القرن السادس للهجرة لمّا يدخلوا في الإسلام ، وذلك يُستفادُ من كتابٍ قيل فيه عن وصول أميرِ القُبجاق إلى جند ، ثم يقول صاحب الرواية : رزقه الله الإسلام .

وكان الروس منذ أواسط القرن الثاني عشر للمسيح يسمون جميعَ أصنافِ الترك ما عدا القبجاق : سرنيكلوبوكي أي الطرابيش السود ، ومن هؤلاء قبيلة البكنج ، يُظَنُّ أنُ أصلها ليست من الترك ، بل أمة غريبة ، وهم يخالفون الأتراك الطارئين من أواسط آسية بكونهم يربون البقر ، وقد أسلموا كسائرِ مَن أسلم من الترك .

ولما تأسست سلطنة قره خطاي التركية بعد سنة ثلاثين ومئة وألف مسيحية (٥٢٥) هجرية ، كان الإسلام قد فشا في الترك ، ولكنّ هذه السلطنة كانت وثنيةً ، فأخذت تضطهد الإسلام ، ولكنها لم تقدر عليه ، وكانت إمارة بالازاغون الواقعة في الشمال إمارة إسلامية ، وعند انحلال سلطنة قرة خطاي كانت توجدُ إمارات إسلامية في شمالي اللي مثل إمارة قارلق ، وإمارة أخرى في بلاد قلجة ، وكانت بلاد ماناس هي الحدُّ الفاصِلُ بين الترك الإسلامية وغير الإسلامية .

أما دخول الأتراك في الأناضول وقبل ذلك في أذربيجان فما بدأ إلا في زمن السلاجقة ، وقد تمَّ تتريك تلك البلاد فيما بعد .

وفي زمن **صلاح الدين ابن أيوب** ، كان يوجد أتراك في مصر ، ومنها دخلوا إلى أفريقية ، وبعد ذلك إلى الأندلس كما ذكر عبد الواحد المراكشي . ولكن لم يكنْ أثرٌ يذكَرُ للترك في الأندلس . انتهى كلام « الأنسكلوبيدية الإسلامية » ملخصاً . وفيه بعض الأخطاء ، وهو في ظنّه أنّ الترك لم يعرفوا مصر إلا في زمن صلاح الدين ، بل عرفوا مصر قبل صلاح الدين بكثير ، وقبل الفاطميين . وآل طولون هم من الترك ، وقيل : إنه كان في مجلس الخلفاءِ الفاطميين أناسٌ من الترك ، فبعد انصرافهم سئل عنهم فقال : هؤلاء الذين سيكونون أمراؤنا في الغد .

قلنا : إنه في القرن الحادي عشر للمسيح [الخامس الهجري] كانت جميعُ بلادِ الأناضول التي يقال لها آسية الصغرى مع بلاد كليكية أي ولاية أضنة الحاضرة ، ومع شماليّ سورية كأنطاكية ، واللاذقية ، ومع أرمينية كلّها داخلةً في ملك القسطنطينية ، وكان الإسلامُ يومئذٍ منقسِماً إلى دولتين ؛ **الخلافة**

العباسية في بغداد ، والفاطمية في مصر .

وكانت فارس الغربية تخصُّ بني بويه ، الذين استأثروا بالأمر في بغداد ، وحجّروا على الخلفاء العباسيين ، وأما في شرقيِّ إيران فكانت الدولة السامانية تارةً في بخارى ، وتارةً في سمرقند . وبقيت مستتبة إلى زمان محمود الغزنوي التركي ، الذي استولى على خراسان ، وعلى قسم من بلاد العجم ، ولو لم يُشغَلْ بفتوحاتِ الهند ، لربما كان تقدّمَ إلى بغداد ، فشغلت الهندُ الدولةَ الغزنوية ، وبذلك اتسع المجال لدولة أخرى تركية من الغز[1] ، يقال لها **الدولة السلجوقية** .

وكان **آل سلجوق** أتباعاً للغزنويين في بادىء الأمر ، فظهر منهم رجل يقال له **طغرل بك** ، واستولى على نيسابور قاعدة خراسان ، فأراد الغزنويون أن يقضوا عليهم ، ولكن جاؤوا متأخرين بما شغلهم من فتوحات الهند ، وظهر طغرل بك على الغزنوية ، فتمكّن طغرل بك من خراسان ، وانتشر أبناءُ عمه في البلاد الغربية مثل إيران ، وكرجستان ، وأرمينية .

وكان طغرل بك أحسنُ السلاجقةِ سياسةً ، وأوفرهم عقلاً ، فاتخذ لنفسه خطة معينة ، وصار يفتح البلاد بلداً بلداً حتى وصل إلى بغداد .

وكان بنو بويه غلبوا على بغداد ، وحجّروا على الخلفاء ، وكانوا شيعةً متعصبين ، فجاء طغرل بك إلى بغداد ، ورفع منار السنة ، وأيد الخلافة العباسية ، وقلّده الخليفةُ السلطنة ، وسماه بملك الشرق والغرب .

وكان في ذلك الوقت أرسلان البساسيري قد دعا للخليفة الفاطمي في وسط بغداد ، وانهزم الخليفة القائم بالله العباسي من وجهه ، فجاء **طغرل بك** ، وهزمَ البساسيري وقتله ، وأعادَ الخليفةَ إلى مكانه . ثم تزوج **طغرل بك** ابنة الخليفة ، وعاد أمرُ الخلافة العباسية كما بدأ من القوة ، وانتصرت السنّةُ أيضاً على يد طغرل بك السلجوقي .

ومنذ تمكّن طغرل بك من بغداد ، نشر غاراته هو وأبناء عمه في الأناضول ،

---

(١) كانت هذه القبائل تسمّى : الأوغوز ، ثم خففت هذه التسمية فصارت الغز .

وأخذ ينتقِصُ أطرافها ، فبدأ السلاجقة بأرمينية وقارص ، **وأغار عليها طغرل بك** بذاته سنة(٤٤٦ هجرية ـ ١٠٥٤ مسيحية) .

وكان إمبراطور بيزنطة في ذلك الوقت **قسطنطين** التاسع ، **المسمّى** مونوماكوس فعجز عن دفعهم ، وجاء بعده قسطنطينُ العاشرُ الملقب دوكاس ، فوصل الترك في زمانه إلى سيواس في قلب الأناضول .

ثم توفي **طغرل بك** ، وخلفه **ألب أرسلان** ابن أخيه ، **فزحف** صوبَ **مملكة** الروم ، واستولى على أرمينية وهزم ملوك الأرمن ، وهكذا **انفتحت** أمامه مسالكُ الأناضول ، فبثّ فيها الغاراتِ من كلٍّ جانبٍ ، ووصل إلى قيصرية .

وتولى الأمر في القسطنطينية قيصرٌ شديدُ الشكيمة ، اسمه رومانوس ديوجينيس فجهّز الجيوش ، وزحف إلى الأتراك ، وكانت الحرب بين الفريقين سجالاً . وكان ألب أرسلان قد كرَّ راجعاً إلى إيران ، بسبب عصيان **أولاد** عمه عليه ، فلما فرغ من قتالهم عاد إلى الأناضول ، فنهد إليه رومانوس ديوجينيس بمئة ألف مقاتلٍ ، وذلك سنة (٤٦٣ هجرية ـ ١٠٧١ مسيحية) ، **فتلاقى** الجمعان في (١٩) أغسطس ـ آب سنة (١٠٧١ ـ ٤٦٣) عند بلدةِ ملازكرد بقرب خلاط ، فدارت الدائرةُ على الروم ، وجرح رومانوس ديوجينيس ، ووقع في الأسر ، وكان ذلك أعظمُ خطبٍ حلَّ بالنصرانية في الشرق ، وانقصم بمعركة ملازكرد ظهرُ السلطنة الرومانية البيزنطية .

ووصلت الأخبار إلى الغرب ، فهاج هائج جميع العالم المسيحي ، ورأوا أنّ المملكة البيزنطية أصبحت لا تصلُحُ خصماً للإسلام ، ولا حاجزاً دون تقدمه صوب أوروبة . **ومن ذلك اليوم تولّدت فكرة الحروب الصليبية** ، ومعناها أنّ المسيحيين الشرقيين لا يقدرُون أن يقفوا في وجه الإسلام ، فيجب على المسيحيين الغربيين أن ينهضوا ويزحفوا إلى الإسلام في عُقر داره .

وبرغم الحروب الصليبية لم يزل التركُ يتقدّمون في آسية الصغرى حتى بلغوا بحر مرمرة ، وذلك في زمان ملك شاه بن ألب أرسلان ، وبمعاونة ابن عمهم سليمان بن قطلمش ، ووصل الأتراك إلى أزمير في سنة (٤٧٤ ـ ١٠٨١) ، وأخذ ظِلُّ الروم يتقلَّصُ عن تلك البلاد الواسعة . نعم إنّ الصليبيين أخروا تتريك

الأناضول مدةً من الزمن ، ولكن عاد الأتراكُ ، فأتموا فتحَ هذه البلاد ، ووجدت دولةٌ ثانيةٌ تركيةٌ غير السلاجقة ، وهي الدولة الدانشمندية التي تأسست في كبادوكية ، وكانت لها قيصرية ، وسيواس ، وأماسية .

وأخيراً جاء **بنو عثمان** ، وخلفوا السلاجقة والدانشمندية ، وفتحوا بروسة ، وجعلوها دار مملكتهم ، ثم جازوا إلى الروملي ، ونقلوا دار ملكهم إلى أدرنة قبل أن فتحوا القسطنطينية .

ثم وفّق الله محمداً الثاني ، الملقب بالفاتح ، فاستولى على عاصمة النصرانية في الشرق ، واستصفى بلاد الأناضول كلها ، وعاد فأكمل فتح الروملي ، واستولى على جميع ملحقات الملك القسطنطيني ، وأوغلَ في بلاد البلقان ، حتى استولى على بلاد الصرب والبوسنة .

وأكمل خلفاؤه عمَله ، فاستولوا على جميع الممالك التي في شبه جزيرة البلقان ، وأدخلوها في الحكم العثماني ؛ واستلحقوا مملكة المجر ، ووصلوا إلى بولونية ، وحاصروا ڤينة ، ولولا قليلٍ لكانت سقطت في أيديهم .

ولم يبدأ تقلّصُ ظل الأتراك عن شبه جزيرة البلقان إلا عند ظهور روسية ، فأصبح التركُ بإزاء عدوين كبيرين معاً ؛ السلطنة النمساوية ، والسلطنة الروسية . فما مضت بعد ذلك أربعة قرون حتى عاد الأتراك ، فخرجوا من جميع تلك الممالك التي كانوا افتتحوها في البلاد البلقانية ، ولم يبقَ لهم إلا القسطنطينية وَربْضها ، الذي ينتهي عند أدرنة .

وسنذكر شيئاً عن تتمة تاريخ الأتراك العثمانيين بعد الإنتهاء من مبحث الترك الأصلي .

ونعود إلى تاريخ الترك في أيام زحف المغول من الشرق إلى الغرب فنقول : إنّ المغول شعبٌ آخر غير الترك ، ولكنّهم من أصلٍ واحدٍ ، وقد دخل من المغول كثيرٌ في الترك فصاروا منهم ، ولما زحف جنكيز خان وأعقابُه كان يقال لهم المغول ، ويقال لهم أيضاً التتر ، ولكن بعد أن أسلمت الدولة المغولية في القرن الرابع عشر للمسيح [الثامن الهجري] غلب على المغول اسم التتر ، فتأسست سلطنةٌ في قازان ، وسلطنةٌ أخرى في أستراخان ، وسلطنة أخرى في

القرم وكلُّها كَانت دولًا تترية إسلاميةً .

ثم تأسست دولة تترية إسلامية في سيبرية بقرب طوبولسك الحاضرة ، وغلب اسم التتر على جميع الأتراك غير العثمانيين ، وهذا هو اصطلاح الروس واصطلاح الكثير من الأوربيين ، وذلك بأن يسموا أتراك السلطنة العثمانية تركاً ، والأتراك الذين في روسية الحاضرة تتراً ، ومن هؤلاء شعب يقال لهم : الأوزبك ، تغلّبوا في القرن السادس عشر المسيحي [العاشر الهجري] على بخارى وخيوة وأزالوا مملكة الجغطاي ، ثم أسسوا دولة خانات خوقند .

وجاء شعب آخر اسمه النوغاي من الترك ، فكانت لهم دولة في بلاد الڤولغة ثم غلب عليهم شعب تركي آخر اسمه الكلموك .

ومن الشعوب التركية المعروفة شعبٌ يقال له : القوزاق ، كانوا مستقلين ، وإن كانوا جيراناً للأوزبك .

وقد كانت تأسست في كاشغر من التركستان الصيني دولةٌ تركيةٌ على أثر سقوط دولة الجغطاي ، واتخذت الإسلام ديناً في أواسط القرن الرابع عشر [الثامن الهجري] ، أي منذ نحو أربعمئة وخمسين سنة . واشتهر منها أميرٌ يقال له : محمود خان ، اعتنى جداً بنشر الإسلام ، وكان المغولي أو التركي الذي لا يلبس عمامة يُدَقُّ له مسمارٌ في رأسه !! وأخذت الديانة البوذية تتقهقرَ من تلك الديار .

وكان الإويغور من أشهر شعوب الترك لا يزالون بوذيين ، فانتشر الإسلام فيهم أيضاً .

ولم يبق على البوذية إلى يومنا هذا إلا قسمٌ منهم يقال لهم : الإويغور الصفر .

ومما يجب أن يُعرفَ أنّ الأتراك العثمانيين هم من جنس الترك الذي يقال له : التركمان ، وهؤلاء التركمان منهم قسم يقال له : الخروف الأسود ، وقسم آخر يقال له : الخروف الأبيض ، وقد انتشروا في غربي آسية ، ودخلت منهم أقوامٌ في البلادِ العربية .

وفي القرن الثامن عشر والتاسع عشر للمسيح [الثاني عشر والثالث عشر الهجري] تغلب الكلموك على هؤلاء التركمان ، كما تغلب الكلموك على القرغيز ، والقوزاق ، ثم سقطت دولة الكلموك .

ومن القرغيز فرقةٌ تسكن في بلاد بني زاي ، ويقال لها اليوم : خاكاس ، ليسوا كسائر أصناف الترك تابعين للمدنية الإسلامية ، كما أنّه يوجد في جبال الألطاي ، تركٌ غير مسلمين ، والروس يقولون لهم : كَلموك الجبال ، وليس هؤلاء مسلمين ، وكذلك الأمة المسماة الياقوت ، هم أتراكٌ غير مسلمين ، ولغتهم لغة تركية قديمة .

وقد كانت جميعُ البلاد إلى النصف الأول من القرن السادس عشر للمسيح [العاشر الهجري] من شبه جزيرة البلقان ، وشطوطِ البحر الأسود ، إلى الصين ممالكَ إسلاميةً متصلة ، كما ورد في « الأنسكلوبيدية الإسلامية » ، ولكن كان قد بدأ دخولُ هذه الممالك في دور الإنحطاط ، فتقلّص ظِلُّ المدنية ، وعادت البداوة القديمة .

وكان قد بدأ الروس من ذلك العهد يتغلّبون على من جاورهم من الترك ، فاستولوا على مملكة قازان سنة (٩٥٧ ـ ١٥٥٢) ، وعلى مملكة استراخان سنة (٩٦٢ ـ ١٥٥٤) فقطعوا ما بين الترك المشارقة والترك المغاربة أي العثمانيين .
ومنذ ذلك الوقت أخذ الروس يزحفون صوب الشرق ، على هذه الممالك التركية الإسلامية مملكة مملكة ، واتفقوا مع الصين على أنه لا يجوز أن يبقى للإسلام مُلكٌ من بحر الخزر إلى حدود الصين ، فالذي لم يدخل تحت حكم روسية ، يجبُ أن يدخلَ تحت حكم الصين ، وقد انعقد هذا الإتفاق بين روسية والصين بمعاهدة تاريخها (٢٤) فبراير ـ شباط (١٨٨١م ـ ١٢٩٩هـ) . وبرغم هذا فيقول بارتولد محرر هذا الفصل من « الأنسيكلوبيدية الإسلامية » : إنّ الإسلام والتركية لم يرجعا إلى الوراء في روسية ، وإنه بعد الإنقلاب الروسي والحكومة البلشفية تأسست للأتراك في روسية جمهوريات تابعة لموسكو مثل جمهوريتي الأوزبك ، والتركمان ، وجمهورية أذربيجان في القوقاز . وبالإجمال فللأتراك تحت حكومة السوفييت الحاضرة سبعُ جمهوريات لها شبهُ استقلالٍ ، وهي :

جمهورية القرم ، وجمهورية قوقاز ، وجمهورية الباشكير ، وجمهورية التتر ، وجمهورية القوزاق ، وجمهورية القرغيز ، وجمهورية ياقوت ، ويوجد أربع نواح لها أيضاً إدارة مستقلة ، وأكثرُ أهلها من التركِ وهي : بلاد قره كاي ، وبالكار ، وقره كالبكيك ، وأويرات .

ويقول : إنّ هذا الدور قد أحيا أسماء القبائل التركية القديمة ، ويذكر أنّ أكثر هؤلاء الأتراك قد عوّلوا في الكتابة على الحروف اللاتينية ، أما الكوفاش والكاكاس والأويرات ، فقد بقوا متمسكين بأحرف الهجاء الروسية . اهـ .

قلنا : إنّ السبب في هذا هو الدعاية الأنقروية[1] والدعاية البلشفية نفسها ، فإنّ كلاً من موسكو وأنقرة أخذتا بالحروف اللاتينية ، فالأتراك المسلمون في روسية قلدوا في ذلك أنقرة ، وأما الأتراك غير المسلمين مثل الكاكاس ، والأويرات فبقوا متمسكين بالحروف الروسية ، وذلك لأنّه لا يجمعهم بأنقرة جامعة إسلامية حتى يقلّدوها ، **وقد بلغ من انقلاب الأوضاع أنْ صارت الحروفُ اللاتينية هي موضوع دعاية الأتراك المسلمين !!** ويقلد بعضُهم بعضاً فيها ، وأنّ الأتراك غير المسلمين لا يعرفونها ، وجاء في « الأنسيكلوبيدية » أنه في إحصاء سنة (١٣٠٣ ـ ١٨٨٥) كان عدد الترك في روسية (٢٦) مليوناً ، وقيل : إنّ هذا العدد مبالغ فيه ، وأن أتراك روسية ليسوا غير (١٦) مليوناً ، وأن جميع الأمة التركية في العالم ثلاثون مليوناً ، ولكن كتّاب الأتراك ومؤلفيهم يجعلون الترك أكثر من هذا العدد بكثير . فأحمد أغاييف يقول : إنهم من سبعين إلى ثمانين مليوناً ، ومصطفى كمال باشا يقول : مئة مليون ! انتهى ما في « الأنسيكلوبيدية الإسلامية » .

والحقيقة أن الذين قالوا : إنّ الترك بأجمعهم ثلاثون مليوناً قد نقّصوا عددهم كثيراً ، كما أنّ كتّاب الترك قد يكونون زادوا العدد على ماهو في الحقيقة ، ولا شك أنّ الترك الذين في روسية لا يقلون عن ثلاثين مليوناً ، كما أن الترك الذين في التركستان الصيني يبلغون عشرة ملايين ، فيبقى ترك

---

(١) الكمالية .

الأناضول ، ومن يليهم من الترك الذين في تراقية ، وبلاد البلغار ، وروماننية ، فهؤلاء كلُّهم لا يقلّون عن خمسة عشر مليوناً . ويجبُ أن نضيفَ إلى هذا العدد أتراكَ إيران ، وهم أربعة إلى خمسة ملايين ، فالجميع ستون مليوناً ، وهذا أقرب تعديل[1] .

وقد جاء في « صبح الأعشى » في الجزء الخامس خبرُ كيفية استيلاء الترك على بلاد الأناضول بعد أن كانت كلُّها للروم قال : إنّ ثغورَ المسلمين كانت من جهة الشام ملطية ، ومن جهة أذربيجان أرمينية ، إلى ان دخل بعضُ قرابة **طغرل** بك أحدُ ملوكِ السلجوقية في عسكر بلاد الروم هذه ، فلم يظفروا منها بشيء ، ثم دخلها بعد ذلك مماني أحدُ أمرائهم بعد الثلاثين وأربعمئة ففتح وغنم ، وانتهى في بلادِهم حتى صار من القسطنطينية على خمس عشرة مرحلة . ثم فتح قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق قونية ، وأقصرا ، وأعمالها .

ثم وقعت الفتنة بين قطلمش ، وبين ألب أرسلان السلجوقي ، وقتل قطلمش في حربه سنة ست وخمسين وأربعمئة ، وملك البلادَ من بعده ابنُه سليمان ، ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمئة .

وملك بعدَه قلج أرسلان ، ثم خَلَفَهُ بقونية وأقصرا ابنه مسعود ، ثم توفي مسعود سنة إحدى وخمسين وخمسمئة ، وملك بعده ابنه قلج أرسلان ، وهذا قَسَّمُ المملكةَ بين أولاده ؛ فأعطى قونية وأعمالها ابنه غياث الدين كيخسرو ، وأعطى أقصَرا وسيواس ابنه قطب الدين ، وأعطى دوقاط ، ابنه ركن الدين ، وأعطى أنقرة ابنه محيي الدين ، وأعطى ملطية ابنه عز الدين قيصر ، وتخلّى إلى ابنه غياث الدين عن الأبلستين ؛ ولابنه نور الدين محمود عن قيصرية ، وأعطى أماسية لابن أخيه ، ثم ندم على هذه القسمة ، وأراد انتزاعَ هذه الأعمال من أولاده ، فخرجوا عن طاعته ، إلا ابنه غياث الدين ، فإنه بقي معه .

وحاصر قلج أرسلان ابنه محموداً في قيصرية فتوفيَ وهو محاصِرُ لها سنة (٥٨٨ ـ ١١٨٩) ، ووقعت الحروب بين الإخوة ، وتغلّب عليهم أخيراً ركن

---

(١) القدير .

الدين صاحب دوقاط ، وخلفه ابنه قلج أرسلان ، ثم قبض عليه أهل قونية ، وملَّكوا عمه غياث الدين كيخسرو ، وبقي حتى قُتِلَ في حربٍ مع صاحب القسطنطينية ، وملك بعده ابنه كيكاوس الغالب بالله ، وبقي حتى مات سنة (٦١٦ ـ ١٢١٩) وخلفه أخوه علاء الدين فتوفي سنة (٦٣٤ ـ ١٢٣٦) . وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو ، وتوفي في سنة (٦٥٤ ـ ١٢٥٦) وملك بعده ابنه علاء الدين .

ولما جاء المغول ، واستولوا على بغداد ، كان المُلك لعز الدين كيكاوس ، وركن الدين قلج أرسلان ، فخضعا لهولاكو سلطان المغول ، وبعد هلاكِ هولاكو ، غلب ركن الدين على جميع ملك الترك في الأناضول ، وكان هولاكو أقام رجلاً اسمه البرواناه وكيلاً من قِبَلِهِ في بلاد الأناضول ، فتغلب على ركن الدين قلج أرسلان ، ثم قتله ، وحجر على ابنه غياث الدين كيخسرو . وفي تلك الأيام دخل الملك الظاهر بيبرس صاحب الديار المصرية إلى بلادِ الروم سنة (٦٧٥ ـ ١٢٧٦) ولقيه صمغان بن بيدو الشحنة من جهة التتر فهزمهم ، وسار بيبرس إلى قيصرية ، فملكها ، وجلس على تخت آل سلجوق بها ، ثم رجع إلى مصر . وبلغ ذلك أبغا بن هولاكو صاحب إيران ، فسار في جموعه إلى قيصرية ، ورأى مصارع قومه فشقّ عليه ، واتهم البرواناه بممالأة الظاهر بيبرس ، فقبض عليه وقتله .

واستقل بالملك غياث الملك بن ركـن الدين قلج أرسلان ، وبقي في الملك حتى قتله أرغون بن أبغا صاحب إيران سنة (٦٨١ ـ ١٢٨٢) وجعل مكانه مسعود ابن عمه كيكاوس ، وجعل شحنته في الأناضول رجلاً اسمه هولاكو ، وليس لمسعود بن كيخسرو من الملك إلا الاسم ، وبعد ذلك استقل الشحنة بالملكة ، وصار ملوكُ التتر يرسلون إلى الأناضول شحنة بعد شحنة (أصل معنى الشحنة حاميةُ البلدِ من قِبَلِ السلطان) وربما عصى عليهم بعضُ هؤلاء ، فلجأوا إلى صاحب مصر ، وكثيراً ما تقلَّدوا الإمارة بعهدٍ من صاحب الديار المصـريـة مثـل النـاصـر محمـد بـن قـلاوون ، وصـارت الأنـاضـول مـن

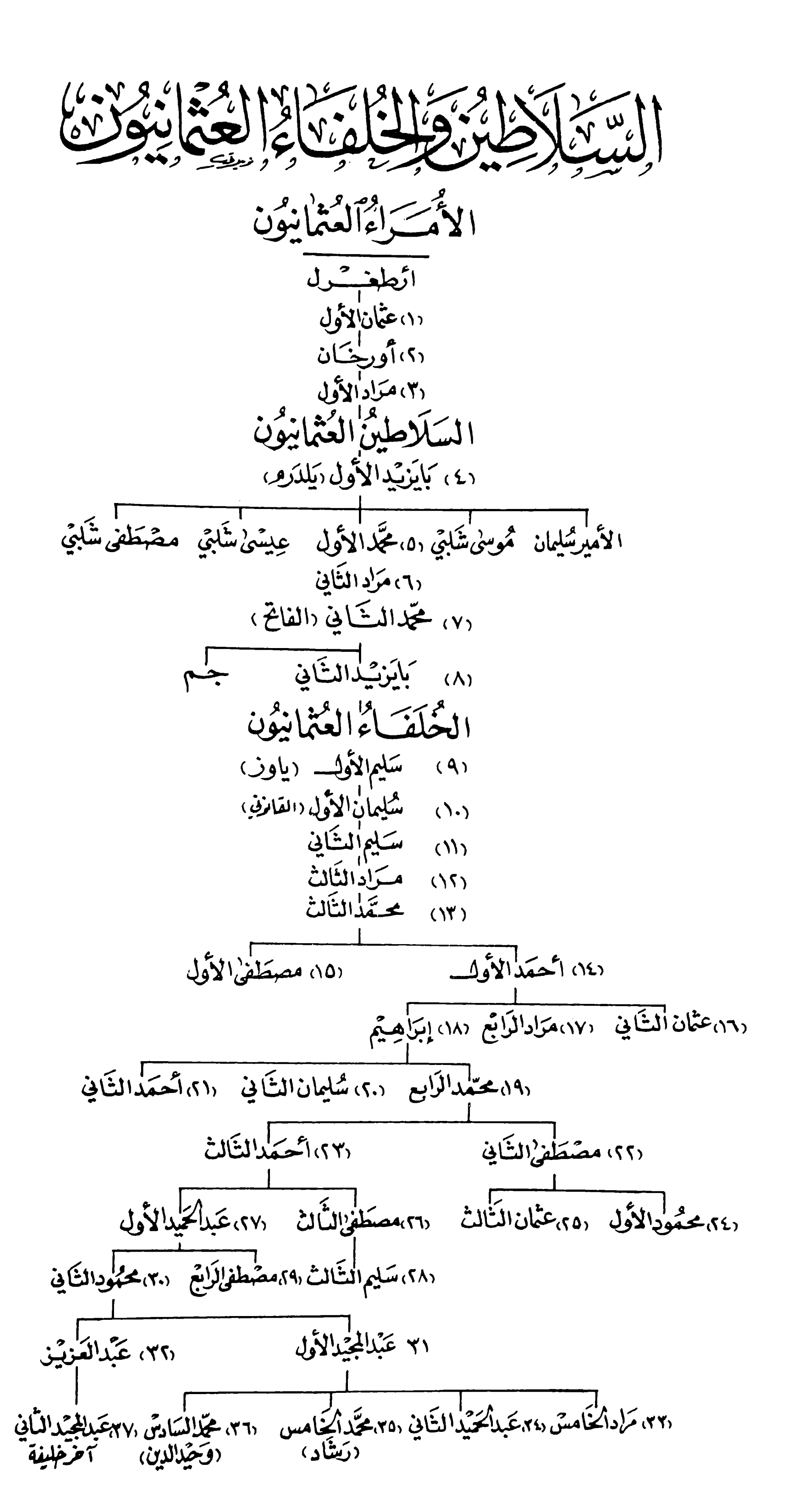
مضافات[1] الديار المصرية ، وكان في بلاد الأناضول ـ و « صبح الأعشى » يقول بلاد الروم ـ : طوائف كثيرة من التركمان ، كان السلاجقة يستعينون بهم في الحروب ، فظهر منهم أمراء ، وأسَّسوا ممالك ، مثل أولاد قرمان أصحاب أرمناك وقسطموني ، وبنو الحميد أصحاب أنطاكية . وبنو آيدين أصحاب البلاد التي يقال لها اليوم : أزمير ، وبنو منتشة وبلادهم إلى الجنوب من أزمير . وبنو أورخان بن عثمان جق وهو صاحب بروسة . وكان قد اتخذ بروسة داراً لملكه ، لكنه لم يفارق الخيام إلى القصور ، وكان ينزِلُ بخيامه في ضواحي بروسة ، ولم يزل على ذلك إلى أن مات .

قال القلقشندي في « صبح الأعشى » : وملك بعده ابنه مراد بك ، وتوغّل في بلاد النصرانية فيما وراء الخليج القسطنطيني في الجانب الغربي ، وفتح بلادهم ، إلى أن اقترب من خليج البنادقة ، وصيّرَ أكثرَهم أمراء ورعايا له ، وأحاطَ بالقسطنطينية من كل جانب ، حتى أعطاه صاحبُها الجزية ، ولم يزل حتى قُتل في حرب الصقالبة سنة (٧٩١ ـ ١٣٨٨) وملك بعده ابنه أبو يزيد ، فجرى على سنن أبيه ، وغلب على البلاد ما بين سيواس وأنطاكية والعلايا ، ودخل بنو قرمان وسائر التركمان في طاعته ، ولم يبقى خارجاً عن ملكه إلّا سيواس التي كانت بيد قاضيها إبراهيم المتغلِّب عليها ، وملطية الداخلة في مملكة الديار المصرية ، ولم يزل أبو يزيد حتى قصده تمرلنك بعد تخريب الشام في سنة ثلاث وثمانمئة (١٤٠٠) ، وقبض عليه ، فبقي في يده حتى مات ، وملك بعد ابنه **سليمان شلبي** ، وبقي حتى مات ، وملك بعده أخوه محمد بن أبي يزيد بن مراد بن عثمان جق ، وهو القائم بمملكتها إلى الآن . انتهى بتصرف .

* * *

---

(١) ملحقات .


السلاطين والخلفاء العثمانيون
الأمراء العثمانيون
أرطغرل
(١) عثمان الأول
(٢) أورخان
(٣) مراد الأول
السلاطين العثمانيون
(٤) بايزيد الأول (يلدرم)
الأمير سليمان
موسى شلبي
(٥) محمد الأول
عيسى شلبي
مصطفى شلبي
(٦) مراد الثاني
(٧) محمد الثاني (الفاتح)
(٨) بايزيد الثاني
جم
الخلفاء العثمانيون
(٩) سليم الأول (ياوز)
(١٠) سليمان الأول (القانوني)
(١١) سليم الثاني
(١٢) مراد الثالث
(١٣) محمد الثالث
(١٤) أحمد الأول
(١٥) مصطفى الأول
(١٦) عثمان الثاني
(١٧) مراد الرابع
(١٨) إبراهيم
(١٩) محمد الرابع
(٢٠) سليمان الثاني
(٢١) أحمد الثاني
(٢٢) مصطفى الثاني
(٢٣) أحمد الثالث
(٢٤) محمود الأول
(٢٥) عثمان الثالث
(٢٦) مصطفى الثالث
(٢٧) عبد الحميد الأول
(٢٨) سليم الثالث
(٢٩) مصطفى الرابع
(٣٠) محمود الثاني
٣١ عبد المجيد الأول
(٣٢) عبد العزيز
(٣٣) مراد الخامس
(٣٤) عبد الحميد الثاني
(٣٥) محمد الخامس (رشاد)
(٣٦) محمد السادس (وحيد الدين)
(٣٧) عبد المجيد الثاني آخر خليفة



٦٩٩-١٣٤٤ هـ = ١٣٠٠-١٩٢٤ م

١ ـ السلطان عثمان الأول

١٣٠٠ ـ ١٣٢٦

قلنا : أيام زحف جنكيز خان على بلاد خارزم جاء رجل يقال له : سليمان شاه ابن كيالب ، من بعض قبائل الأوغز ، ومعه خمسونَ ألفاً من قبيلته ، ونزل على شواطىء الفرات بين أرزنجان وخلاط ، وذلك سنة (٦٢١ هجرية ـ ١٢٢٤ مسيحية) ، وتوفي سليمانُ شاه هذا غريقاً في الفرات[١] ، وبعد وفاته رجع أكثر قومه إلى خراسان ، وبقي منهم أربعمئة عائلة مع ولديه دندار وأرطغرل .

وتقدّم أرطغرل إلى الغرب ، وكانت حصلت في ذلك الوقت حربٌ مع علاء الدين السلجوقي فخدمه أرطغرل ونصره ، فأقطعه السلجوقي إقطاعاتٍ معلومةٍ مكافأةً له ، ثم تقدّم عنده ، فأقطعه بلاداً على مقربة من يني شهر .

وولد لأرطغرل ولد سماه عثمان[٢] ، وكان عثمان يخطب ابنة شيخ من الأولياء اسمه أده بالي . ووالدُها يأبى أن يزوّجه بها ، فرأى يوماً فيما يرى النائمُ أنه تزوّجَ ملك خاتون ابنة الأده بالي ، وخرج من حِجرها هلالٌ ، وصعد إلى صدرها ، ثم ظهرت من جوانبها شجرة عمّت البرَّ والبحر ، إلى آخر ما تحدثوا عن هذا الحلم ، فلما أصبح الصباح قصّ رؤياه على الشيخ الأده بالي ، فزوجه ابنته ، وولدت له ابنه أورخان .

وكان عثمان كبير أولاد أرطغرل ، وكان المقدّمُ عند سلطان قونية ، فحسده الأمراء على حَظوته عند السلطان ، ثم ملك عثمان بلدة قره حصار[٣] ، وزاد السلطان في إقطاعه ، ومنحه حقّ ضرب السكة[٤] ، وصار اسمه يُقرَنُ باسم السلطان في صلاة الجمعة ، وكان المغول قد غزوا بلاد الأناضول سنة (٧٠٠)

---

(١) وقبره قرب قلعة جَعْبر ، وقصة سليمان هذا ملفقة انظر « تاريخ الدولة العثمانية » ليلماز أوزوتا (١ : ٨٦) .

(٢) سنة (٦٥٦هـ) .

(٣) وهي أفيون قره حصار .

(٤) النقود .

هجرية ـ (١٣٠٠) للمسيح ، فانهزم علاء الدين الثالث ، الذي كان يقال له : سلطان الروم ، والتجأ إلى ميخائيل[١] باليولوج ملك القسطنطينية ، فمات في حبسه . وصار كرسيُّ ملك الإسلام في الروم فارغاً ، فتولى عدة أمراء منهم بنو قرمان ومنهم بنو قره سي ومنهم بنو صاروخان ومنهم بنو آيدين ومنهم بنو حميد ومنهم بنو منتشة ومنهم بنو عثمان الذين كان بيدهم يني شهر وما والاها .

وكان عثمان شديد البأس صارماً ، وكان لا يزال للقسطنطينية قلاع وبلاد في الأناضول ، فأرسل عثمان إلى قوّاد هذه القلاع يخيّرهم بين الإسلام ، أو الخضوع له ، وكان له صاحب من الروم اسمه ميكال كيوز ، فأسلم ، وأقطعه عثمان بلاداً ، وهذا هو جدُّ عائلة ميكال أوغلو التي لها ذكر شهير في الدولة العثمانية ، وخضع له بعض أمراء الروم ، وأدّوا الجزية .

ثم استولى ابنه أورخان على بروسة ، أخذها من أيدي الروم ، وكانت أحصنَ بلدةٍ في آسية الصغرى ، وكان ذلك سنة (٧٢٧) هجرية ـ (١٣٢٦) مسيحية .

ومات عثمان[٢] ، وحزن عليه قومه ، لأنه كان بطلاً مغواراً ، وهو الذي أسس هذا الملك ، فقيل الدولة العثمانية من ذلك الوقت ، وكان زاهداً يقتدي بأصحاب رسول الله ﷺ ، ولم يكن يدخر مالاً ، بل يوزِّع كلَّ ما يدخُلُ في يده على أصحابه ، وكان يعيشُ في بيته مِن قطيعِ غنمٍ لا يزال من ذريته[٣] حتى اليوم في نواحي بروسة .

بويع للسلطان عثمان مؤسس السلطنة العثمانية في سنة تسع وتسعين وستمئة ـ (١٣٠٠م) .

وقد كان الأده بالي الذي تزوّجَ السلطان عثمان ابنته من علماء القرمان ، وتفقه في البلاد الشامية ، وكان عاملاً عالماً عابداً زاهداً ، وكانوا يرجعون إليه

---

(١) في الأصل (ميشيل) .

(٢) توفي عثمان في (٢١) رمضان ٧٢٦ ـ ١٣٢٦ وكان عمره سبعين سنة ، وحكم (٢٧) سنة .

(٣) من ذرية القطيع .

في المسائل الشرعية .

***

ومن **العلماء المعروفين في أيام عثمان** :

المولى **طورسون**[١] [فقيه] خِتن[٢] الأده بالي ، قد قرأ عليه ، وقام مقامه في أمر الفتوى .

ومنهم المولى **خَطّاب بن أبي القاسم القره حصاري** ، قرأ أيضاً في البلاد الشامية ، وله شرحٌ نافع على « منظومة الشيخ عمر النسفي في الخلافيات » .

ومنهم **مخلص بابا** من بلاد القرمان ، وكان يرافق السلطان عثمان في فتوحاته .

ومنهم ابنه **عاشق باشا** [ابن مخلص بابا المذكور] ، وكان عابداً زاهداً متصوفاً .

ومنهم [الشيخ علوان شلبي] ابن عاشق باشا المذكور ، وكان أيضاً على قدم الصلاح نظير آبائه .

ومنهم العارف بالله **الشيخ حسن** ، وكان له زاويةٌ ببلدة بروسة .

***

---

(١) التصويبات والزيادات في هذه التراجم وما بعدها من كتاب « الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية » لطاش كبري زاده ومن ذيله « العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم » .

(٢) زوج الأخت .

٢ ـ السلطان أورخان

١٣٢٦ ـ ١٣٥٩

وكان أكبر أولاد عثمان علاء الدين ، إلا أنه كان مشغوفاً بالعلم ، محباً للعزلة فعهد عثمان بالملك لولده أورخان[١] ، فعرض أورخان على أخيه الأكبر قسمة المُلك ، فأبى علاء الدين ، وأراد الاعتزالَ جانباً ، واختار أن يقيمَ على ضفة نهر نيلوفر الجاري في مرج بروسة ، فعرض عليه أورخان نصف قطعان الغنم ، التي خلّفها لهم أبوهم ، فرفض أيضاً ، فقال له أورخان : من حيثُ إنك رفضتَ أن تأخذ حصتك من الغنم والبقر والخيل ؛ فإني أعرضُ عليك أن ترعى رعيتي ، وتكونَ وزيراً لي ، فلم يسعه إلا القبول ، وصار وزيراً لأخيه ، وأحسنَ الإدارة .

وكان عثمان لم يضرب السكة باسمه ، فالذي ضربها هو ولده علاء الدين في أيام أخيه أورخان ، ثم جعل علاء الدين للمملكة جيشاً دائماً . ولكنّ هذا الجيش لم يطل أمرُه ، فاتفق أورخان وأخوه علاء الدين على حلّه ، واعتمدا على طريقة أخرى أشار بها خليل جندرلي ، وهي تأسيسُ وجاق الإنكشارية ، وكانوا يأتونَ بأحداثٍ من أبناء النصارى وغيرِهم ، فيربّونهم في الإسلام ، فأكثرُ الإنكشارية هم من هؤلاء .

ولما أسسوا هذا الجيش باركه الحاج بكتاش وهو الذي أعطاه اسم يني شاري[٢] .

وفي البداية لم يكن هذا الوجاق[٣] أكثر من ألف جندي ، ولكنّه صار يزداد سنة فسنة .

---

(١) ولد سنة (٦٨٠) وتولى السلطنة سنة (٧٢٦) وتوفي سنة (٧٦١) عن (٨١) سنة .

(٢) أي الجيش الجديد .

(٣) هو صنف من أصناف الجند أو السلاح ، كما يقال الآن : سلاح المدفعية وسلاح المدرعات وسلاح الطيران . . إلخ انظر « تأصيل ما ورد في الجبرتي من دخيل » (١٩٤) .

٢ ـ أورخان

وقضية أخذ أولاد النصارى ، وتربيتُهم في الإسلام ، وجعلهم جنوداً كان العثمانيون قد أخذوها عن الروم أصحابِ القسطنطينية ، الذين كانوا إذا غزوا بلادَ الإسلام سَبَوا كثيراً من الأولاد وربوهم في النصرانية ، وجعلوهم جنداً يقاتلون به المسلمين .

ولما استولى نقفور فوكاس على حلب سبى عشرةَ آلافِ ولدٍ من أهلها ، وربّاهم في دار مُلكه ، وعمّدهم ، وصيرهم من أعز جنوده .

وكذلك عندما استولى البطريق ميخائيل[١] بورتسنريس على أنطاكية سنة (٣٥٩ ـ ٩٦٩) سبى من أولاد المسلمين عشرةَ آلاف أيضاً ، وربّاهم في القسطنطينية ، فخرجوا نصارى ، وصاروا جنداً .

فالعثمانيون لم يعملوا إلا ما عمله البيزنطيون من قبلُ .

ورتّب أورخان وأخوهُ عدةَ أصنافٍ من الجيوش ؛ منهم الجيش الذي يقال له : العَزَب ، ومنهم الخيّالة ، وهم أنواع : السباهية ، والسلحدارية ، والعلوفجية ، والغرباء ، والمسلمان ، والإيكنجي ، وبقيت قيادة الإيكنجي ـ وهم الكشافة ـ في ذرية عائلة ميكال أوغلو مدة أعصرٍ[٢] .

وجعل أورخان وأخوه مدينة بورسة قاعدةَ المملكة ، وأخذا يفتتحان كل يوم بلداً جديداً ، وحاصرا نيقية التي كانت العاصمةَ الثانيةَ لمملكة الروم ، وبعد حصار سنتين أخذاها عنوةً ، وهي البلدة التي انعقد فيها المجمع النيقي ، الذي به تقرّرتْ العقيدةُ الكاثوليكية ، فحوّل الأتراكُ كنيسةَ المجمع المقدس جامعاً .

وأسس أورخان وأخوه في نيقية مدرسةً عاليةً ، وملجأً للفقراء ، وشيّدا فيها عمارات كثيرة ، وعهدا بقيادة موقع نيقية إلى سليمان باشا كبيرِ أولادِ أورخان ، الذي صار فيما بعد خلَفاً لعمه علاء الدين في الوزارة .

ثم مضى العثمانيون في فتوحاتهم ، فاتسعت المملكة ، وكان أولاد أمير

---

(١) في الأصل ميشيل .

(٢) انظر عن الجيش العثماني « المشرق العربي في العهد العثماني » للدكتور عبد الكريم رافق ص (٣٤ ـ ٣٨) .

قرَسِي قد اختلفوا بعد موت والدهم ، فوضع أورخان يده على هذه الإمارة ، وعمرت بروسة في ذلك الوقت ، واجتمع فيها العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، وصارت عاصمةً حقيقةً ، ولا تزالُ عماراتها ومآثرُها إلى اليوم تُدْهِشُ الأبصار ، وفيها مدافِنِ ستةٍ من سلاطين آل عثمان .

وكان دوشان ملك الصرب جمع الصقالبةَ ، وافتتح بلاد البلغار ، وأراد أن يزحفَ على القسطنطينية ، فأرسل ملكُ القسطنطينية يوحنا باليولوج يعرض على أورخان أن يزوِّجه ابنته ، حتى يستعينَ به على قتال الصقالبة ، ولكن دوشان مات قبل أن يتمكَّنَ من الزحف على بيزنطة .

وفي سنة (٧٥٩ ـ ١٣٥٧) جاز سليمان باشا ابن السلطان إلى البر الأوربي بستين مقاتلاً فقط ، ثم جاز بعده ثلاثة آلاف مقاتل ، واستولوا على مدينة كاليبولي على الدردنيل ، ثم على كونور ، وبولايير ، ومالاجرة ، وإبسالة ، ورودُستو ، وبينما سليمان باشا يتقدم في الفتوحات تردَّى به جوادُه فمات ، ولم يلبث أبوه أنْ لحق به .

بويع للسلطان أورخان بالسلطنة في سنة ست وعشرين وسبعمئة (١٣٢٦م) .

* * *

وقد نبغ في زمانه :

المولى داود القيصري القرماني ، قرأ في مصر ، وكان له قدم راسخة في التصوف ، وشرح « فصوص الحكم » ابن العربي ، ولما بنى السلطان أورخان مدرسته في بلدة أزنيق انتدبه للتدريس بها .

ومنهم المولى **تاج الدين الكردري** ، كان فقيهاً علامةً ، ولما مات داود القيصري جعله السلطان أورخان مكانه في التدريس .

ومنهم المولى **علاء الدين الأسود** ، قرأ في بلاد العجم ، وله مؤلفات ، ودَرَّس في مدرسة أزنيق .

ومنهم **المولى خليل الجندرلي** وهو أول قاض من قضاة العسكر ، وصار فيما

بعد وزيراً ، وكان من أقارب الشيخ أده بالي .

ومنهم المولى **محسن القيصري** ، قرأ في البلاد الشامية ، وله نظم في علم الفرائض وشرحٌ عليه .

ومنهم **الشيخ الغزال** ، ومولده ببلدة خوي من بلاد العجم ، وكان يركب الغزال ، وحضر فتح بروسة مع السلطان أورخان ، وكان متجرّداً عن العلائق الدنيوية ، وكان السلطان أورخان يحبه حباً جماً ؛ فأقطعه موضعاً قريباً من مقامه مع ما حوله من القرى ، فلم يقبلْ ذلك الشيخُ ، وقال : الملك والمال هما مما يلزم الملوك والأمراء ، ولا يحتاجُ إليه الفقراء[١] .

ومنهم **الشيخ العالم بالله قره جه أحمد** ، وأصله من بلاد العجم ، سلك مسلك الزهد .

ومنهم **الشيخ العارف بالله أخي أوران** .

ومنهم **الشيخ المجذوب موسى أبدال** ، حضر مع السلطان أورخان فتح بروسة .

ومنهم **أبدال مراد** ، وهو أيضاً حضر فتح بروسة مع السلطان .

ومنهم بدوغلو بابا ، وهو أيضاً من المجاهدين الذين حضروا ذلك الفتح .

***

(١) الفقراء : الصوفية .

٣ ـ السلطان مراد خان الأول

١٣٥٩ ـ ١٣٨٩

ثم جلس على كرسي السلطنة مراد بن أورخان ، أخو سليمان باشا ، وكان سلطاناً عظيماً في حُبّ الفتوحات ، وحسنِ التدبير ، وهو الذي استولى على أدرنة في البر الأوربي ، ونقل إليها كرسيَّ ملكه ، وهي من أهم المدن ، واقعة على ملتقى ثلاثة أنهار ، ومن أدرنة زحفت جيوشه ، فاستولت على كملچنة في تراقية ، وعلى ڤاردار ونيكوبولي[١] ، وبنى مرادٌ جامعاً كبيراً في أدرنة .

ولما رأى أهالي بلاد البلقان تقدّمَ العثمانيين وتوالي فتوحهم ؛ هالهم الأمرُ ، وعمدوا إلى مصادمتهم ، وكان البابا أوربانوس الخامس نادى بالحرب الصليبية ، فزحف أوروشق الخامس ملك الصرب ، ومعه أمراء البوسنة ، والفلاخ ، والمجر قاصدينَ الأتراك في أدرنة ، وكان السلطان مراد يحاصر بلدة بيغا في الأناضول ، فالتقاهم الحاج إلْبِيكي من قواد مراد ، وهزمهم هزيمةً شنيعة سنة (٧٦٥ ـ ١٣٦٣) ، واستولى الترك على أثر هذه الوقعة على قيزِلْ أغاج ، ويَانْبُول ، وإسْتِيمان ، وسَمَاكوف .

ثم رجع مراد فاستولى على قِرْق كْلِيسَة ، وآيدوس ، ومُدُن أخرى .

وفي تلك المدة زوّج مراد ابنه بايزيد المسمى يِلْدِرِم[٢] ، الذي تقدم أنَّ تيمورلنك أخذه أسيراً[٣] ، وذلك من ابنة أمير كوتاهية ، واستولى عليها ، وأجْبَر أمير حميد في الأناضول أن يبيعه إمارته ، وسرّح تيمورطاش أحد قوّاده ، فافتتح مناستر ، وبيرليبةَ ، وإشتيب في بلاد الصرب ، وافتتح أيضاً صوفية من بلاد البلغار ، ثم سرَّح جيشاً آخر بقيادة الصدر الأعظم خير الدين ، فافتتح سلانيك ،

---

(١) في الأصل فيليبولي .
(٢) أي الصاعقة .
(٣) ص (٣٧) .

وكان خير الدين هذا من أحسن الوزراء تدبيراً ، فلما مات طمع أعداءُ العثمانيين ، وزحف البلغار من جهة أوروبة ، وأمراء قرمان في الأناضول في وقت واحد ؛ فأسرع مراد إلى صدِّ أمير قرمان ، وهزمه ، وأسره ، وعاد إلى البلقان لقتال الصرب والبلغار ، وزحف الوزير علي باشا فاستولى على بلاد البلغار ، وأسر سيسمان ملك بلغارية ، ولم يقتله ، وعيَّن له مرتباً يعيش به ، وصار ابن ملك البلغار من أتباع السلطان .

وأما ملك الصرب أليعازر ، فكان قد جمع جموعه ، وزحف بالصرب والأرناؤوط ، فالتقى الجمعان في صحراء قُوصْوَه (Kosvo) ، **فكانت معركةٌ من أشدِّ ما عرف التاريخ** ، وانهزم الصرب وأحلافهم ، وبينما السلطان مراد يسيرُ على أشلاء قتلى الصرب ، نهض أحدُ الجرحى ، فأغمدَ فيه خِنجره ، فجرح السلطان جرحاً بليغاً مات به[1] ، ولكن بعد أن أمات أليعازر ملكَ الصرب .

وكان لقبه عند الناس غازي خُداوندكار[2] ، بويع له سنة إحدى وستين وسبعمئة ـ (١٣٦٠م) .

* * *

ونبغ في زمانه :

المولى محمود قاضي بروسة ، وكان قاضياً بالعدل ، تقياً متورعاً ، وكان له ولد اسمه محمد ، فبرع في العلوم ، إلَّا أنه مات شاباً ، وكان له ولدٌ آخر اسمه موسى باشا ، ارتحل إلى بلاد العجم ، وقرأ على علماء خراسان وما وراء النهر ، وبلغ شهرةً عظيمةً ، واتّصل بخدمةِ ملك سمرقند أولغ بك[3] ، وكان هذا الملكُ محباً للعلوم الرياضية ، فقرأها عليه ، لأنّه كان من علماء هذه العلوم ، ومن المؤلفين فيها ، وشرحَ أشكالَ التأسيس في الهندسة . وله كتابٌ

---

(١) وذلك في (١٥) شعبان (٧٩١) (٩/ ٨/ ١٣٨٩) عن (٦٥) عاماً ومدة سلطنته (٣٠) عاماً .

(٢) خدا : الله ، وندكار : مراد .

(٣) ابن شاه رخ بن تمرلنك .

في علم الهيئة ، وقرأ على السيد الشريف[1] ، ولكنْ لم تحصُلْ الملاءمة بينهما فتركه ، وقال السيد الشريف في حقه : غلبتْ عليه الرياضيات .

ومنهم **الشيخ جمال الدين محمد بن محمد الأقصرائي** ، كان علامةً في العلوم العقلية والنقلية ، وله كتبٌ منها كتابٌ في الطب ، ويقال : إنه من نَسْلِ الفخر الرازي .

ومنهم **المولى برهان الدين أحمد** ، قاضي أرزنجان ، وكان عالماً فاضلاً ورعاً ، وصار أميراً على أرزنجان ، وقُتل في أواخر سنة ثمانمئة في إحدى الوقائع .

ومنهم **الحاج بكتاش** ، وكان من الأولياء ، وجاء في « الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية » (١٦) : أنه انتسب إليه فيما بعدُ بعضُ الملاحدة نسبةً كاذبة ، وهو بريءٌ منهم[2] .

ومنهم **الشيخ محمد الكشتري** ، أصله من العجم ، توطن بروسة .

ومنهم **بيوستين بوش** ، أصله من العجم ، بنى له السلطان مراد زاويةً في قصبة بكي شهر .

***

---

(١) الجرجاني شارح « المواقف » في علم الكلام .

(٢) وهم البكتاشية انظر ما قاله المؤلف عنهم في « حاضر العالم الإسلامي » (٤ : ٣٤٩) .

٤ ـ السلطان بايزيد الأول

١٣٨٩ ـ ١٤٠٢

ثم تولى السلطنة بعد مراد ابنه بايزيد يلدرم أي الصاعقة ، وفي أيام بايزيد صارت مملكة الصرب تابعةً للمملكة العثمانية ، ولكن بقي إتيان بن أليعازر أميراً عليها ، يؤدّي الجزيةَ لبايزيد . وكانت بقيتْ لمملكة القِسطنطينية في الأناضول بلدة فيلادلفية ، والأتراك يقولون لها : آلاشِهِر ، فأراد السلطان بايزيد أن يلحقها بمملكته ، وحاصرها ، فأرسل السلطان إلى ملك القسطنطينية باليولوج بأن يأمر القائدَ بتخليةِ البلدة ، فزحف باليولوج إلى البلدة ، وأجبر أهلها على تسليمها للسلطان ، وفي ذلك الوقت استولى السلطان على إمارة آيْدِين ، وعلى قسم من إمارة قَرَمَان .

ثم حاصر بايزيد القسطنطينية ، وزحف صوب بلاد الفلاخ من رومانية الحاضرة ، ودوّخها ، حتى ارتضى أهلُها بدفع الجزية .

ثم استولى بايزيد على مملكة قرمان كلِّها ، وعلى طوقات ، وسيواس ، فلم يبق في آسية الصغرى مملكة تركية مستقلة ، إلا إمارة قسطموني ، والتجأ إليها الأمراءُ الذين كان بايزيد أخذَ بلادهم ، فطلب بايزيد من أمير قسطموني تسليمَ أولادِ أمراء منتشة ، وآيدين ، فرفض طلبه ، فزحف إليه ، واستولى على صمصون ، وعثمان جيك ، وغيرهما ، وفر أمير قسطموني لاحقاً بتمرلنك .

وفي أيام بايزيد استلحقت السلطنةُ العثمانية مملكةَ البلغار تماماً ، وأسلم ابن الملك سيسمان ، فاعترض سيجسموند ملك المجر على استلحاق بايزيد لبلاد البلغار كلها ، وتأهّب للحرب ، وأرسل يستصرِخُ الفرنسيسَ والبابا ، فأعلن البابا الحربَ الصليبية على العثمانيين ، وأرسل دوق برغونية ستةَ آلافِ مقاتلٍ لمعاونة المجر ، وانضمَّ إلى ذلك الجيشِ أكابرُ أمراءِ فرنسة ، مثل الدوق دوبوربون ، والدوق دويار ، أولاد عم ملك فرنسة ، والماريشال بوسيكو ،

وانضم إليهم كثير من الألمان من باڤارية ، وأُستيرية[١] ، ولما تلاقى هذا الجيش مع المجر ، وزحفوا لقتال الأتراك ، كان عددُ هذا الجيش الصليبي ستين ألفاً ، ولكنَّ جيش آل عثمان كان مئتي ألف ؛ فعندما التقى الجمعانِ هجم الفرنسيس على مقدمة العثمانيين ، فأحاط هؤلاء بهم ، فانهزموا ، فلما رأى الهزيمةَ جيشُ الميمنة من الصليبيين تحت قيادة لازكوڤيتش أمير ترانسلڤانية ، تقهقر إلى الوراء ، وكذلك تقهقر مانيس قائد الميسرة المؤلفة من الفلاخيين ، وثبت القلبُ ، وكان فيه المجر والألمان ، واشتدَّ القتال ، وكادت تتزلزلُ أقدامُ العثمانيين ، إلا أنهم تغلبوا في الآخر على أعدائهم بعدَ معركةٍ تشيب لها الأطفال ، هي من أشهرِ معارك التاريخ .

ويقال : إنَّ العثمانيين لم يقهروا الجيشَ الصليبيّ ذلك اليوم إلا بعدَ خسائرَ تفوق التصور ، حتى إن بعض مؤرخي الإفرنج ، ذكروا أن المسلمين خسروا في تلك المعركة ستينَ ألفَ قتيلٍ ، مما أهاج غضبَ السلطان ، حتى أمر بقتل عشرة آلاف أسير من الإفرنج ، واستحيا[٢] السلطان منهم الكونت دي نيڤير (De Nevers) الذي يقال له : جان بلاخوف ، وأربعةً وعشرين أميراً من أعظم نبلاء فرنسة ، فهؤلاء لم يقتلهم السلطان ، بل اكتفى بأخذِ الفدية منهم ، ولما سَرَّحَ الكونت دي نيڤير (De Nevers) قال له : **أنت في حلٍّ من العهد الذي تعهدتَ به أن لا تقاتِلَ عساكري ، وذلك أنك لَوْ أتيتني بكلِّ جيوشِ النصرانية لما كان ذلك إلا سبباً في انتصاري عليهم .**

وأدَّى باليولوج ملك القسطنطينية الجزيةَ السنوية لبايزيد ، **وبنى جامعاً ومحكمةً في القسطنطينية** ، وكان للمسلمين فيها قاضٍ شرعي قبل أن يفتحوها !!

وقال بايزيد : إنه لا بدَّ أن يطعِمَ حصانه الشعيرَ في رومة ، وصارت إيطالية كلُّها ترتجف منه .

وبينا بايزيد في أوج عظمته إذ التجأ إليه أحمد الجلاير أمير بغداد ، الذي كان تمرلنك تغلَّب على بلاده ، فبعث تمرلنك إلى بايزيد يطلُبُ تسليم أحمد

---

(١) النمسة .

(٢) أي أبقاه حياً .

الجلاير ، فقابل بايزيدُ تلك الرسالة بالازدراء ، فزحف تمرلنك إلى الأناضول ، واستولى على سيواس ، وقتل أرطغرل بن بايزيد في المصافّ ، فسار بايزيد إلى قتال تمرلنك بجيوشه ، وتلاقى الجمعان في سهل أنقرة ، فكان بايزيد في ذلك اليوم صاعقةً كما هو اسمه ، ولكنّ طالعَ الحرب لم يكن معه ، فانهزم ، وتردَّى به جوادُه ، فوقع أسيراً في (٢٠) يوليو ـ تموز سنة (١٤٠٢م) ـ (٨٠٤) هجرية وأُسِرَ معه ابنه موسى ، ونجا أولاده الثلاثة سليمان ، ومحمد وعيسى ، واختفى ابنه مصطفى ، ولم يطل أَسْرُ بايزيد ، إذ مات غمًّا في السنة التالية . فأخذ الأميرُ موسى جثةَ والده بإذن تمرلنك ، ودفنها في بروسة . **ويقال**[1] : إنه في زمن بايزيد ابتدأ فسادُ الأخلاق في الدولة ، وانتشرت الرشوة ، إلى أنَّ أمر السلطان بقتل ثمانين قاضياً في يوم واحد .

بويع لبايزيد في رابع رمضان سنة إحدى وتسعين وسبعمئة .

❊ ❊ ❊

ومن علماءِ زمانه : شمس الدين محمد بن حمزة الفناري ، قال ابن حجر : كان الفناريُّ عارفاً بالعلوم العربية ، وعلمي المعاني والبيان ، وعلم القراءات ، كثيرَ المشاركة في الفنون ، أخذ عن علماء بلاده ، ثم ارتحل إلى مصر ، ثم رجع إلى الروم ، وتولى قضاء بروسة ، وكان مقدّماً عند السلطان ، ويقال : إنه أثرى إلى الغاية ، حتى كان عنده من النقد خاصةً مئة وخمسون ألف دينار ، وحجَّ مرتين ، وزار القدس ، ثم أصابه رمدُ أشرفَ به على العمى ، ثم ردَّ الله إليه بصره ، فحجَّ بعد ذلك الحجة الأخيرة ، وله كتاب يسمّى « فصول البدائع في أصول الشرائع » . وشرح « الرسالة الأثيرية في الميزان »[2] شرحاً لطيفاً ، وشرح « الفوائد السراجية » وعلق على « شرح المواقف »[3] للسيد الشريف تعليقاتٍ تتضمَّنُ مؤاخذاتٍ لطيفةٍ على السيد ، وبلغ من الجاهِ والثروةِ الدرجةَ

---

(١) يقال في عرف المحدثين والمؤرخين تدل على الشك في الخبر .
(٢) لأثير الدين الأبهري في علم المنطق .
(٣) من أشهر كتب علم الكلام .

القصوى ، وتزاحم الناسُ على بابه ، وخلَّفَ عشرةَ آلافٍ من الكتب . وقيل : إنه شهدَ السلطانُ أمامه شهادةً في قضيةٍ فردَّ شهادته ، فسأله عن السبب في ردِّها ، فقال له : إنك تاركٌ للجماعة[1] ، فلم يترك السلطانُ الجماعةَ بعد ذلك ، ثم اختلف المولى الفناري مع السلطان ، والتحق بصاحب قرمان ، ولكنَّ السلطان ابن عثمان عاد فاسترضاه ، ورجع إلى بروسة .

ومنهم **المولى حافظ الدين بن محمد الكردري** ، المشهور بابن البزازي ، وله « الفتاوى البزازية » وكتاب في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه ، وقيل : إنه تباحث مع المولى الفناري فغلب هو في الفروع ، وغلب الفناريُّ في الأصول وسائر العلوم .

ومنهم **مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروز أبادي** صاحب « القاموس » ، وكان ينتسِبُ إلى الشيخ أبي إسحاق الشيرازي . قال صاحب « الشقائق النعمانية » : وربَّما يرفَعُ نسبَه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، دخل بلاد الروم ، واتصل بخدمة السلطان بايزيد يلدرم ، وأنعم عليه ، وحظيَ عند السلطان ، وتجوَّل في البلدان ، وبرع في العلوم كلِّها ، لا سيما الحديث ، والتفسير ، واللغة ، وله تصانيفُ كثيرةٌ ، تنيف على الأربعين ، وأجلُّ مصنفاته « اللامعُ المعلم العجاب ، الجامع بين المحكم والعباب » . وكان تمامهُ في ستين مجلداً ، ثم لخصه في مجلدين وسمَّاه « القاموس المحيط ، والقابوس الوسيط ، فيما تفرَّق من كلامِ العرب شماطيط » . وكان آيةً في الحفظ والإطلاع . ولد سنة تسع وعشرين وسبعمئة ، وتوفيَ باليمن قاضياً بِزَبِيد ، ليلةَ العشرين من شوال سنة ست أو سبع عشرة وثمانمئة ، وهو مُمَتَّعٌ بحواسه ، ودفن بتربة الشيخ إسماعيل الجبرتي ، قال صاحب « الشقائق النعمانية » : وهو آخرُ من ماتَ من الرؤساء الذين انفردَ كلٌّ منهم بفنٍّ فاقَ فيه أقرانه على رأسِ القرن الثامن ، وهم : الشيخ سراج الدين البلقيني في الفقه الشافعي ، والشيخ زين الدين العراقي في الحديث ، والشيخ سراج الدين بن

---

(١) أي صلاة الجماعة .

الملقن في كثرةِ التصانيف في الفقه والحديث ، والشيخ شمس الدين الفناري في سَعة الاطلاع على العلوم العقلية والنقلية ، والشيخ أبو عبد الله ابن عرفة في فقه المالكية ، والشيخ مجد الدين الشيرازي في اللغة .

وممن نبغ في زمان السلطان بايزيد يلدرم : **الشيخ شهاب الدين السيواسي** ، وأصلُه عبدٌ لبعض أهالي سيواس ، تعلَّم في صغره ، ونبغ ، ومال إلى التصوف ، وتوطَّنَ في بلاد آيْدِين ، وأكرمه أميرُها ، وله تفسير للقرآن العظيم ، وله رسالةٌ في التصوف سماها « رسالة النجاة في شرف الصفات » .

ومنهم المولى **حسن باشا بن المولى علاء الدين الأسود** ، وله شرحُ « المراح » في الصرف ، وشرح « المصباح » في النحو .

ومنهم المولى **صفرشاه** ، وكان من علماء ذلك العصر .

ومنهم **محمد شاه ابن المولى شمس الدين الفناري** ، وكان مطلعاً على ما اطّلع عليه والده من العلوم ، وفُوِّضَ إليه في حياة أبيه تدريسُ المدرسة السلطانية في بروسة ، وهو في سن الثامنة عشرة ، وكانت وفاته سنة (٨٣٩ ـ ١٤٣٥) .

وكان له أخ هو **المولى يوسف بن المولى الفناري** ، وتولّى التدريسَ بمدرسة بروسة واستُقْضِي فيها .

ومنهم الشيخ **قطب الدين الأزنيقي** ، وكان زاهداً متورعاً متصوفاً ، علامةً في العلوم الشرعية ، قيل : إنه لما اجتاز تمرلنك بالبلاد الرومية اجتمع مع هذا الشيخ ، فقال له : عليك أن تترك صنيعك هذا من قتلِ عبادِ الله وسفكِ الدماءِ المحرمة . فقال له تمرلنك : يا شيخ إني أنزل في منزل وبابُ خيمتي إلى الشرق ، فأجدُ بابها في الغد إلى الغرب ، وإذا ركبتُ يركَبُ أمامي خمسون رجلاً ، لا يراهم غيري ، فأقفو[1] أثرهم . فقال له الشيخ : كنتُ سمعتُ أنك رجلٌ عاقلٌ ، فالآن علمتُ أنكَ جاهلٌ .

---

(١) أتبع .

فقال : من أينَ علمتَ هذا ؟ قال : لأنَّك تفتخِرُ بوصف الشيطانِ ، وهو كونه مظهراً لقهر الله سبحانه وتعالى . ومات هذا الشيخ سنة (٨٢١ ـ ١٤١٨) .

ومنهم المولى بهاء الدين عمر بن **قطب الدين الحنفي** ، كان من الفقهاء أرباب الفتوى .

ومثله المولى **إبراهيم بن محمد الحنفي** .

ومثله أيضاً **نجم الدين الحنفي** .

ومنهم الشيخ **محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن علي الجزري** ، المكنى بأبي الخير ، ولد بدمشق ، ورحلَ إلى الديار المصرية ، وقرأ بها ، وجلس للإقراء ، وولي قضاء الشام سنة (٧٩٣ ـ ١٣٩٠) وجاء إلى بروسة في زمان السلطان بايزيد ابن عثمان . ولما تغلَّب تمرلنك على السلطان المذكور ، أخذ تمرلنك هذا الشيخ معه إلى بلاد تركستان ، وقرأ عليه الناسُ في سمرقند . ثم بعد وفاة تمرلنك خرج من تلك البلاد إلى خراسان ، ودخل هراة ، ثم جاء إلى أصفهان ، ثم إلى شيراز ، وكان الناسُ يقرأُون عليه في كلِّ محلٍ ، ثم جاء إلى البصرة ، ثم جاور بمكة والمدينة ، وكان متخصِّصاً في علم القراءات ، وله التصانيف فيه[١] ، وتوفي سنة (٨٣٣ ـ ١٤٢٩) في شيراز ، وله ولدان فاضلان أكبرهُما : محمد أبو الفتح ، وكان من العلماء الكبار ذوي التآليف . والثاني : محمد أبو الخير ، وكان أيضاً من العلماء ، وولد ثالث اسمه أحمد ، وكان أيضاً كأخويه ، ولما وقعت الفتنة التيمورية أرسله تمرلنك رسولاً إلى الناصر فرج بن برقوق صاحبِ الديار المصرية ، وافترق عن والده نحواً من عشرين سنة ، ثم اجتمعا بمصر .

وأدرك أبو الخير ابن الشيخ الجزري زمانَ السلطان محمد بن مراد ، ونصّبه السلطان موقِّعاً بالديوان العالي ، وأكرمه إلى الغاية .

ومنهم المولى **عبد الواحد بن محمد بن محمد** ، كان بارعاً في العلوم

---

(١) منها « النشر في القراءات العشر » و « غاية النهاية في طبقات القراء » .

العقلية والنقلية ، **وله كتابٌ في الإسطرلاب ، ودرَّس في مدرسة كوتاهية ، وأصله من بلاد العجم .**

ومنهم المولى **عز الدين عبد اللطيف بن الملك** ، وكان عند الأمير محمد بن آيدين ، شرح « مشارق الأنوار » للإمام الصاغاني ، وله تصانيف أخرى .

ومنهم أخوه **محمد بن عبد اللطيف بن الملك** .

ومنهم **الشيخ العارف بالله عبد الرحمن بن علي بن أحمد البسطامي** من أهل أنطاكية ، وكان متخصصاً بعلم الحروف والأوفاق والجفر ، وله معرفة بالتاريخ ، وسكن في بروسة .

ومنهم المولى **علاء الدين الرومي** ، أخذ عن العلامة التفتازاني ، والسيد الجرجاني ، وحضر مباحثتهما ، وحفظ منهما أسئلةً كثيرة مع أجوبتها .

ومنه **الشيخ العارف بالله فخر الدين الرومي** ، وكان من العلماء الزهاد .

ومنهم **الشيخ رمضان** ، اتخذه السلطان بايزيد شيخاً لنفسِه ، ثم جعله قاضياً للعسكر .

ومنهم **المولى أحمدي** ، أصله من كرمان ، وصار المولى أحمدي معلماً للأمير ابن كرميان . وكان المولى أحمدي شاعراً ، وابن كرميان كان محباً للشعر ، ثم صحب الأمير سليمان بن السلطان بايزيد ، ولأجله نظم المولى أحمدي الديوان المسمى « إسكندر نامه » .

ومنهم **الشيخ بدر الدين محمد بن إسرائيل المعروف بابن قاضي سماونة** ، وكان قد تعلَّم في الديار المصرية ، وقرأ مع السيد الجرجاني على مبارك شاه المنطقي المدرّس بالقاهرة ، وعلى الشيخ أكمل الدين ، وقرأ عليه السلطان فرج بن برقوق ملك مصر ، ثم التحق ببلاد الروم . ولما تسلطن الأمير موسى الملقب بشلبي من أولاد عثمان ، وهو أخو السلطان محمد الأول ؛ نصب الشيخ بدر الدين قاضياً للعسكر . ثم وشوا به إلى السلطان ، فأمر بقتله بإفتاء مولانا حيدر العجمي ، وله تصانيف كثيرة .

ومنهم **المولى الحاج باشا** ، وكان من رفاق الشيخ بدر الدين عندما كان يقرأ

بالقاهرة وتخصص بالطب ، وفُوض إليه بيمارستان مصر ، فدبّره أحسنَ التدبير ، وصنف كتاب « الشفاء » باسم الأمير محمد بن آيدين .

ومنهم **الشيخ العارف بالله حامد بن موسى القيصري** ، وكان يبيع الخبز ، والناس يشترون منه تبركاً به ، ولما بنى السلطان بايزيد الجامع الكبير بمدينة بروسة ، رغب إليه أن يكونَ واعظاً فيه ، ومات بمدينة آقسراي .

ومنهم **شمس الدين محمد بن علي الحسيني البخاري** ، ولد في بخارى ، وكان له قدم راسخة في التصوف ، وجاء إلى بروسة ، وأحبه أهلها ، واشتهر عندهم باسم أمير سلطان ، وأحبته بنت السلطان بايزيد فتزوّجَ بها ، وكان آل عثمان يتبركون به ، ومات في بروسة .

ومنهم العارف بالله **الحاج بيرم الأنقروي** ، ولد بقرية قريبة من أنقرة ، ونبغ في العلوم ، وصار مدرساً في أنقرة ، ومات بها .

ومنهم **الشيخ عبد الرحمن الأرزنجاني** ، كان ساكناً في الجبال بقرب أماسية .

ومنه **العارف بالله طابدق أمره** ، كان من الزهاد النساك ، يسكن بقرب نهر سقارية .

* * *

٥ ـ السلطان محمد شلبي الأول

١٤٠٢ ـ ١٤٢١

ولما أُسر بايزيد ثارت الممالك البلقانيّة ، التي كان السلطان العثماني قد أخضعها مثل بلغارية ، والصرب ، ورومانية ، وكذلك ثار أمراء الأناضول من الأتراك مثل أمراء قرمان ، ومنتشة ، وآيدين ، وصاروخان ، واسترجعوا استقلالهم .

ووقع الشقاق بين أولاد بايزيد ، فصاروا يقتتلون ، ويستأثر كلُّ واحدٍ منهم بشطرٍ من المملكة ؛ ولكن تمرلنك انكفأ عن آسية الصغرى قاصداً الصين ، وبقي القتالُ بين أولاد بايزيد بعضهم مع بعض ، وبينهم وبين أمراء الأناضول ، الذين استرجعوا استقلالهم ، وذلك مدة عشر سنوات ، والأمور فوضى ، إلى أن تغلب محمد على الجميع . وكان مَلِكُ القسطنطينية باليولوج حليفاً لمحمد ، فلذلك عندما صفا الوقت له لم يحاول أن يستولي على بلدته ، بل ردّ له بعضَ المدن التي كانت مِن قبلُ تابعةً للقسطنطينية

وكان السلطان محمد هذا ـ وهو محمد الأول ـ عظيم الأمانة ، محباً للعفو ، وقد أجمع المؤرخون على وصف معالي أخلاقه ، وهو الذي مهّد المملكة تمهيداً جديداً ، ورتق جميع فتوقها ، بعد أن مزّقتها الفتنُ تمزيقاً ، وكان محباً للعلم والعلماء ، متمسّكاً بالدين الإسلامي ، منفذاً لأحكامه .

وهو أول سلطان عثماني أرسل صُرّةً إلى أميرِ مكة ، وفرّقَ الصدقات في الحجاز . وفي زمانه نبغ كثيرٌ من الشعراء والأدباء والمؤلفين ، ومن جملتهم ابن عرب شاه صاحب تاريخ تيمور المسمى « عجائب المقدور » وكان معلماً لأولاد السلطان محمد ، ومات السلطان محمد سنة (٨٢٥) هجرية (١٤٢١) مسيحية ، بويع له بالسلطنة سنة ست عشرة وثمانمئة .

* * *

وممن نبغ في ذلك الزمان :

الشيخ المسمى أمير سلطان .

ونبغ في زمانه **برهان الدين حيدر بن محمود الخوافي الهروي** من تلاميذ السعد التفتازاني ، له حواشٍ على « شرح الكشاف » للسعد ، أورد فيها أجوبة على اعتراضات السيد الجرجاني ، وكان تقياً ورعاً .

ومنهم **المولى فخر الدين العجمي** ، قرأ على السيد الجرجاني ، ثم أتى إلى بلاد الروم ، وصار مفتياً في زمن السلطان مراد ، وتعين له ثلاثون درهماً كلَّ يوم ، فأراد السلطان أن يزيد عليها ، فلم يقبل ، وقال : حقي في بيت المال ما يقوم بكفايتي ، ولا يحلّ الزيادة عليه ، وكان شديدَ الوطأة على أتباع فضل الله التبريزي رئيس الطائفة الحروفية الضالّة ، ومات في أورفة ، ولما مرض مرض الموت عاده المولى علي الطوسي واستوصاه ، فأوصى بأن لا يخلّى ظهرَ العوام من عصا الشريعة .

ومنهم **المولى يعقوب الأصغر القرماني**، وكان عالماً مدققاً، وجاء إلى بروسة، وله رسالةٌ في دفع التعارض بين الآيتين ؛ قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر : ٥١] وقوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران : ٢١] .

ومنهم **المولى المعروف** بقره يعقوب من بلاد قرمان .

ومنهم**المولى بايزيد الصوفي** ، نصّبه السلطان با يزيد معلّماً لابنه محمد .

ومنهم **العلامة محيي الدين الكافيه جي** ، سُمّي بذلك لكثرةِ اشتغاله بكتاب « الكافية » في النحو[1] ، قال السيوطي : شيخنا العلامة أستاذُ الأستاذين محيي الدين أبو عبد الله الكافية جي ، ولد سنة ثمان وثمانين وسبعمئة ، واشتغل بالعلم أول ما بلغ ، ورحل إلى بلاد العجم وتبريز ، ولقى العلماء الأجلاء ، فأخذ العلوم عن شمس الدين الفناري ، والبرهان حيدر ، والشيخ واجد ، وابن فرشتة شارح « المجمع » ، وحافظ الدين البزازي ، وغيرهم ، ودخل القاهرة ، وأخذ عنه الفضلاء والأعيان ، وولي مشيخة الشيخونية لما رغب عنها ابن

---

(١) للعلامة ابن الحاجب .

الهُمام ، وكان إماماً كبيراً في المعقولات كلِّها : الكلامِ ، وأصول الفقه ، والنحوِ ، والتصريف ، والإعراب ، والمعاني ، والبيان ، والجدل ، والمنطق ، والفلسفة ، والهيئة ، بحيثُ لا يَشُقُّ أحدٌ غباره بشيء من هذه العلوم . وله اليد الحسنى في الفقه ، والتفسير ، والنظر في علوم الحديث ، وألّف فيه ، وأما تصانيفه في العلوم العقلية فلا تُحْصَى ، بحيث إني سألتُه أن يسمِّي لي جميعها لأكتبها في ترجمتِه فقال : لا أقدر على ذلك .

قال السيوطي : وكان صَحيح العقيدة ، حسنَ الاعتقاد في الصوفية ، محباً لأهل الحديث ، كارِهاً لأهل البدع ، كثيرَ التعبُّدِ على كبر سنه ، كثيرَ الصدقةِ والبذلِ ، لا يُبقي على شيءٍ ، سليم الفطرة ، صافي القلب ، كثير الاحتمال لأعدائه ، صبوراً على الأذى ، واسع العلم جداً ، لازمتُه أربعَ عشرة سنة فما جئتهُ مِن مرةٍ إلا وسمعتُ منه من التحقيقات والعجائب ما لم أسمعه قبل ذلك . قال لي يوماً : ما إعراب زيدٌ قائمٌ ؟ فقلت : قد صرنا في مقام الصغار نسأل عن ذلك !! . فقال لي : فيها مئة وثلاثة عشر بحثاً ؛ فقلت : لا أقوم من هذا المجلس حتى أستفيدها ، فأخرج لي تذكرته ، فكتبتها منها . انتهى .

قلت : وما سبقنا الأوربيون في المعارف العمرانية والوسائل المادية إلا بكثرة اشتغالنا بزيدٌ قائمٌ إلى الحد الذي يَخرجُ عن اللزوم ، بينما كانوا يقضون أوقاتهم بالعلوم الرياضية ، والتجارب الطبيعية المفيدة ، وهكذا تفوّقوا وتغلبوا علينا .

وممن نبغ في زمان السلطان محمد الأول العثماني :

الشيخ عبد اللطيف المقدسي ، وكان عالماً ، ثم مال إلى التصوف ، وسكن بروسة ، ومات فيها .

ومنهم **العارف بالله عبد الرحيم بن الأمير عزيز المرزيفوني** ، وكان متصوفاً أيضاً .

ومنهم **العارف بالله پير الياس الأماسي** ، وكان من الزهاد الأتقياء ، وله مريدون .

ومنهم **عبد الرحمن شلبي** ابن بنت پير الياس .

٥ ـ محمد الأول

ومنهم **شجاع الدين القرماني** .

ومنهم **بدر الدين الدقيق** .

ومنهم **العارف مظفر الدين الأرندوي** .

ومنهم **بدر الدين الأحمر** .

ومنهم **بابا نحايس الأنقروي** .

ومنهم **صلاح الدين البولوي** .

ومنهم **مصلح الدين خليفة** .

ومنهم **عمردده البروسوي** .

ومنهم **الشيخ لطف الله** .

وكلٌّ هؤلاء من مشاهير الأتقياء رحمهم الله .

* * *

٦ ـ السلطان مراد الثاني

١٤٢١ ـ ١٤٥١

وخلفه ابنه مراد ، وكان عمر مراد عندما تولى السلطنة ثماني عشرة سنة ، وبدأ عمله بمهادنة أمير القرمان ، وملك المجر . وثار على مراد عمُّه مصطفى ، وعضده ملك القسطنطينية ، فتغلب مرادُ على عمه ، وأخذه أسيراً وشنقه ، وزحف على القسطنطينية ، وجرت معركة شديدة ، إلا أنّ الأتراك لم يقدروا ذاك اليوم على فتح البلدة .

أما في الأناضول فاستولى مراد على إمارة آيدين بعد أن كان أمراؤها استقلوا في أثناء الفتنة التي وقعت بين أولاد السلطان بايزيد ، وكذلك استولى على صاروخان ، وعلى منتشة ، وعلى بلاد القرمان ، وعلى نصف إمارة قسطموني ، فاسترجع مرادُ جميعَ ما كانت معركة أنقرة المشؤومة مع تمرلنك خسّرته إياه من البلدان .

ولما استراح فكر مراد من جهة آسية ؛ وجَّه همته نحو أوروبة ، وكان جورج برانكوفيتش ملكاً على الصرب ، وسيجيسموند ملكاً على المجر ، فظفر العثمانيون بالمجر ظفراً عظيماً ، فاضطر برانكوفيتش خوفاً على ملكه أن يخضع ، ويؤدي سنوياً خَمسين ألف دوقية للسلطان مراد ، ويقطع كلَّ علاقةٍ مع المجر .

واحتل العثمانيون كروش واتس في قلب بلاد الصرب ؛ ثم وجه السلطان قوته صوب بلاد الأرناؤوط ، وكان الجنوبي منها يليه بنو توكشي والقسم الشمالي يليه جان كستريوت ، فاستولى السلطان على القسمين ، ثم زحف نحو بلاد الفلاخ ، أي رومانية ، فخضع أميرها ڤلاد دراكول للسلطان .

ولكن سيجيسموند ملك المجر ثار ، ومالأه ملك الصرب ، وأميرُ الفلاخ من جهة أوروبة ، وأمير القرمان من جهة آسية ، فقهرهم السلطان جميعاً ، واستسلم أميرُ الفلاخ للسلطان ، وطلب ملك الصرب العفو ، وزوج السلطانَ

ابنته ، فبقي ملك المجر وحده برأسه ، فعاث الأتراك في بلاده ، ورجعوا بسبعين ألف أسير .

ثم استأنف برانكوفيتش ملك الصرب ثورته ، فزحف السلطان إلى بلاد الصرب ، وفر برانكوفيتش إلى المجر ، واستولى السلطان على أكثر بلاد الصرب ، إلا أنه لم يقدر على بلغراد ، فرجع عنها بعد حصار ستة أشهر .

وأما المجر فكان [قد] ظهر فيهم بطل اسمه جان هونياد فهزم العثمانيين ، وقتل منهم عشرين ألفاً مع قائدهم مزيد بك ، فأرسل السلطان شهاب الدين باشا ، ومعه ثمانون ألف مقاتل ، للأخذ بالثأر ، فكسرهم هونياد بفئة قليلة ، وأخذ أكابر قوادهم أسرى ، ووالى الهزائم على العثمانيين ، ثم زحف السلطان بنفسه ، فانهزم هو أيضاً في واقعة نيشل ، وخسر ألفي قتيل ، وأربعة آلاف أسير ، وتقهقر إلى الوراء ، ثم تقدّم هونياد إلى الأمام ، واستولى على مدن كثيرة للعثمانيين ، فاضطر السلطان مراد للصلح ، وأعاد إمارة الفلاخ إلى أميرها دراكول ، وعقد هدنة مع المجر إلى عشر سنوات ، وصارت بلاد الصرب وبلاد الفلاخ تابعةً لمملكة المجر ، فحزن السلطان من هذه الحوادث ، و [حدث] عقب ذلك أنَّ ولده علاء الدين توفي ، فخلع السلطان نفسه ، وذهب معتزلاً الملك ، وأقام بمغنيسة ، وتولى مكانه ابنه محمد الثاني ، وهو في الرابعة عشرة من العمر ، ولم يصل السلطان إلى مغنيسة حتى نقض المجرُ عهدَهم بتحريضِ البابا ، الذي أرسلَ إليهم أنّ العهدَ ليس مسؤولاً[1] إذا كان مع المسلمين ، فزحف هونياد واستولى على بلاد البلغار ، وحاصر وارنة ، فرجع السلطان إلى أوروبة ، وزحف هونياد فهزمه [السلطانُ] ، وكان معه الكردينال سيزاريني رسول البابا ، فقُتِلَ الكاردينال في المعمعة .

وبعد هذه الطائلة على المجر ، رجع السلطان إلى عزلته ، وأراد أن يستريحَ ، وإذا بالإنكشارية قد قاموا بثورة في أدرنة ، فجاء السلطان بنفسه ، فأطاعوا ، ثم زحف بستين ألف مقاتل على بلاد اليونان فدوّخها ، وانعطف نحو

---

(١) لا يجب الوفاء به .

بلاد الأرناؤوط ، وكان أميرَ هذه البلاد المسمى أمير المرديت جعل أولادَه الأربعة رهائن عند السلطان ، ومنهم جورج الذي تربى في الإسلام ، وكان السلطان يحبُّه جداً لشجاعته ، وهو الذي أطلق عليه اسم إسكندر بك ، إلا أن إسكندر بك هذا لم ينسَ وطنه ، فانسل خفيةً ، وأثار الأرناؤوط على العثمانيين ، وهزم القائد علي باشا واستقل بالبلاد ، فسرّح السلطانُ إليه فيروز باشا ومصطفى باشا بعساكر وافرة ، فتغلّب إسكندر بك عليهما ، وأخذ مصطفى باشا أسيراً ، فاضطر السلطان مراد أن يخرُجَ من عزلته مرةً ثالثة ، وزحف بمئة ألف مقاتل ، وهزم الأرناؤوط ، واستولى على دبرة بعد معارك شديدة .

وانتهز الفرصة جان هونياد المجري ، وشنّ الغارة على العثمانيين بجيشٍ عددُه أربعة وعشرون ألفاً ، منهم عشرة آلاف من الفلاخيين ، ولم ينضم إليه ملك الصرب خوفاً من السلطان ، فتلاقى هونياد وجيشه في صحراء قوصُوَه (Kosvo) مع السلطان مراد وجيشه ، فبقي القتالُ ثلاثةَ أيام ؛ ولكن انتهت الواقعة بانكسار المجر ، وتفرّغَ السلطان لمحاربة إسكندر بك ، فلم يقدر عليه ، وبقي يناوشه القتال معتصماً بالجبال ، ومات السلطان مراد في فبراير سنة (١٤٥١) مسيحية (٨٥٥) هجرية .

بويع له بالسلطنة سنة خمس وعشرين وثمانمئة (١٤٢١م) .

ومن علماء عصره :

المولى محمد بن أرمغان ، انتهت إليه رئاسة الفتوى في بروسة بعد المولى شمس الدين الفناري .

ومنهم ابنه **محمد شاه استُقضِي** ببروسة .

ومنهم ابنه **يوسف** [بالي] وكان مدرساً .

ومنهم **المولى محمد بن بشير** ، وكان من مدرسي بروسة .

ومنهم **المولى شرف الدين بن كمال القِرمي** .

ومنهم **المولى السيد أحمد بن عبد الله القِرمي** ، ومات بالقسطنطينية بعد فتح السلطان محمد الثاني لها .

ومنهم **السيد علاء الدين السمرقندي** ، وكان عالماً ، ثم مال إلى التصوف .

ومنهم **أحمد بن إسماعيل الكوراني** ، كان فقيهاً أصولياً ، ارتحل إلى القاهرة ، وأجازه ابن حجر في الحديث ، وجاء الكوراني إلى بلاد الروم ، فأجلَّه السلطان مراد الثاني ، وأعطاه مدرَسة جدِّه مراد الأول في بروسة ، ثم مدرسة جده بايزيد يلدرم في بروسة أيضاً .

روى صاحبُ « الشقائق النعمانية » أنّ الأمير محمد بنَ السلطان مراد ـ وهو الذي صار فيما بعد السلطان محمد الفاتح ـ كان أرسلَ إليه والدُه عدداً[1] من المعلمين ليعلموه ، فلم يمتثل لأمرهم ، ولم يقرأ شيئاً ، حتى إنه لم يختم القرآن ، فطلب السلطان مرادُ رجلاً ذا مهابة وحِدَّة ، ليتمكنَ من تعليم ابنه ، فذكروا له المولى الكوراني ، فجعله معلماً لولده ، وأعطاه بيدِه قضيباً يضربُه إذا خالفَ أمرَه ، فذهب إليه والقضيب بيده . فقال له : أرسلني والدك للتعليمِ وللضربِ إذا خالفتَ أمري ، فضحك السلطان محمد من هذا الكلام ، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضرباً شديداً ، حتى خاف منه السلطان محمد ، وختم القرآن في مدةٍ يسيرةٍ ، ففرح بذلك السلطان مراد ، وأرسل إلى المولى الكوراني أموالاً عظيمة . ثم إن السلطان محمد خان لما جلس على سرير السلطنة بعد وفاة أبيه عرض على الكوراني الوزارةَ ، فلم يقبل ، وقال له : إنّ مَن في بابك من الخدّام والعبيدِ إنما يخدمونك لأن ينالوا وزارةً آخرَ الأمر ، وإذا كان الوزير مِن غيرهم تنحرِفُ قلوبهم عنك ، فيختلُّ أمرُ سلطنتك ، فاستحسنه السلطان محمد ، وعرض عليه قضاء العسكر فقبله ، ولما باشر أمر القضاء أعطى التدريسَ والقضاءَ لأهلِهما من غير عرضٍ على السلطان ، فأنكره السلطان ، ولكن استحيَا مِنْ أن يظهره له ، فشاور الوزراء ، فأشاروا على السلطان بأن يقول له : سمعتُ أنّ أوقافَ جدي في بروسة قد اختلت ، فلا بد من تَدَارُكها ، فلما قال له السلطان هذا الكلام ، قال الكوراني : إنْ أمرتَني بذلك أُصْلِحُها ، فقال السلطان : هذا يقتضي زمناً مديداً ، فقلّده قضاءَ بروسة مع توليه الأوقاف ، فقبل

---

(١) في الأصل (عدة) .

الكوراني ، وذهب إلى بروسة ، وبعد مدةٍ أرسلَ السلطان إليه واحداً من خدامه وبيده مرسوم السلطان ، وضمّنهُ أمراً يخالِفُ الشرع ، فمزَّقَ [الكوراني] الكتابَ ، وضربَ الخادِمَ ، فاشمأزّ السلطان من ذلك ، فعزله ، ووقع بينهما نفورٌ ، فارتحل المولى الكوراني إلى مصر ، وسلطانُها يومئذٍ قايتباي ، فأكرمه غايةَ الإكرام ، ثم إنّ السلطان محمداً الفاتح نَدِمَ على ما فعله ، فأرسل إلى السلطان قايتباي يلتمِسُ منه أن يرسل المولى الكوراني إليه ، فحكى السلطان قايتباي ذلك للكوراني ، وقال له : لا تذهب إليه ، فإني أكرمك فوق ما يكرمُك هو . قال الكوراني : نعم هو كذلك ، إلا أن بيني وبينه محبةً عظيمةً ، كما بين الوالدِ والولدِ ، وهذا الذي جرى بيننا شيءٌ آخر ، وهو يعرف أني أميل إليه بالطبع ، فإن لَم أذهب إليه يفهم أن المنعَ من جانبك ، فيقع بينكما خلافٌ . فاستحسنَ السلطان قايتباي هذا الكلام ، وأعطاه مالاً جزيلاً ، وهيأ له أسباب السفر ، وأرسلَ معه هدايا إلى السلطان محمد ، فلما جاء إلى القسطنطينية ، ولاّه السلطان قضاء بروسة ثانيةً (٨٦٣ ـ ١٤٥٨) ، ثم قلّده منصب الفتوى ، وعاش في كنف حمايته عيشاً رَغِيداً ، وصنف تفسيراً للقرآن العظيم سماه « غاية الأماني في تفسير السبع المثاني » عقّبَ فيه على العلامتين الزمخشري والبيضاوي ، وشرحَ البخاري وسماه « الكوثر الجاري على رياض البخاري » وله تصانيفُ أخرى ، وكان قوالاً بالحق ، وكان يخاطِبُ الوزيرَ والسلطانَ باسمه ، وكان إذا لَقِي السلطانَ يسلّم عليه ولا ينحني له ، ويصافحه ولا يقبّلُ يده ، ولا يذهبُ إليه يومَ عيد إلا إذا دعاه ؛ وكان رحمه الله ينصحُ للسلطانِ محمد الفاتح فيقول له : إنّ مطعمك حرامٌ ، وملبسَك حرامٌ ، فعليك بالإحتياط . فاتفق في بعض الأيام أنّه أكل مع السلطان ، فقال له السلطان : أيها المولى أنتَ أكلتَ أيضاً من الحرامَ ؟! فقال : ما يليك من الطعام حرام ، وما يليني منه حلال ، فحوّل السلطانُ الطعامَ ، فأكل المولى ، فقال السلطان : أكَلتَ من جانبِ الحرام ؟! فقال المولى : نفد ما عندك من الحرام ، وما عندي من الحلال ، فلهذا حولتَ الطعام . وتوفي الكورانيّ سنة (٨٩٣ ـ ١٤٨٨) في القسطنطينية .

ومنهم المولى مجد الدين ، صار قاضي عسكر في زمان الفاتح .

ومنهم المولى خضر بك بن جلال الدين ، أعطاه السلطان محمد مدرسة جَدِّهِ في بروسة ، وكان علامةً يلقَّبُ بجراب العلم ، ولما فتح محمد الفاتح القسطنطينية جعله قاضياً فيها ، وهو أول قاضٍ بتلك العاصمة ، وتوفي فيها ، ودفن [عليه رحمة الله] في جوار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .

ومنهم المولى إبراهيم ابن الخطيب .

ومنهم المولى خضر شاه من منتشة ، قرأ في بلاده ، ثم ارتحل في طلب العلم إلى مصر ، وعاد إلى الروم ، وكان زاهداً ، وتوفي قاضياً .

ومنهم المولى محمد بن قاضي أيا ثلوغ ، وكان عالماً زاهداً .

ومنهم المولى علاء الدين علي الطوسي ، وأصله من العجم ، وجاء إلى بلاد الروم ، ولما فتح السلطان محمد الثاني القسطنطينية جعل ثمانياً من كنائسها مدارسَ ، وأعطى واحدةً للطوسي ، وهي مدرسة جامع زيرك . وجاءه السلطان محمد الفاتح مرةً ، وأمر الطوسي بأن يدرس كالعادة ، وجلس على يمينه ، وجلس محمود باشا الوزير على يساره ، وصار الطوسيُّ يقرأ في « شرح العضد » للسيد الجرجاني ، وحلَّ كثيراً من الدقائق ، فطرب السلطان ، ويقال : إنه قام وقعد من شدة طربه ، وخلع عليه بعد الدرس ، وأعطاه عشرةَ آلاف درهم ، وأحسنَ إلى جميع الطلبة ، ثم أعطاه السلطانُ مدرسةَ والدة السلطان مراد في أدرنة ، وعيَّن له كلَّ يوم مئة درهم ، ثم أمر السلطان محمد المولى الطوسي والمولى خوجه زاده أن يصنِّفَ كلٌّ منهما كتاباً للمحاكمة بين « تهافت الفلاسفة » للإمام الغزالي والحكماء(١) . فكتب المولى خوجه زاده كتابه في أربعة أشهر ، وكتب المولى الطوسي كتابه في ستة أشهر ، ففضل النّاسُ كتابَ خوجه زاده ، وأعطى السلطان محمد كلاًّ منهما عشرة آلاف درهم ، وزاد خوجه زادة خلعةً نفيسة ، فكان ذلك سبباً في ذهاب المولى الطوسي إلى بلاد العجم .

ومنهم المولى حمزة القرماني .

---

(١) أي بين كتابي « تهافت الفلاسفة » للغزالي « وتهافت التهافت » لابن رشد .

والمولى ابن التمجيد ، وكان معلِّماً للسلطان محمد .

ومنهم **المولى علي العجمي** ، حصّل العلوم في بلاده ، وقيل قرأ علي السيد الجرجاني ، ثم أتى بلاد الروم ، ونزل بقسطموني ، فأكرمه أميرُها إسماعيل بك غايةَ الإكرامِ ، ثم أتى إلى أدرنة ، فأعطاه السلطان مراد الثاني مدرسةَ جدِّه السلطان بايزيد يلدرم[1] في بروسة ، وعاش إلى زمان السلطان الفاتح .

ومنهم **المولى علي القرماني** ، وبلده قريبة من مدينة طوقات .

ومنهم **المولى حسام الدين الطوقاتي** .

ومنهم **المولى إلياس بن إبراهيم السينابي** .

ومنهم **المولى إلياس بن يحيى بن حمزة** .

ومنهم **المولى محمد بن ميناس** .

ومنهم **المولى علاء الدين القوجه حصاري** ، ارتحل إلى بلاد العجم ، وقرأ على التفتازاني ، والسيد الجرجاني .

ومنهم **المولى قاضي بلاط** .

ومنهم **المولى بخاشيش** ، صنّف رسائلَ للسلطان مراد .

ومنهم **المولى محمد بن قطب الدين الأزنيقي** .

ومنهم **المولى فتح الله الشرواني** ، قرأ على السيد الشريف الجرجاني ، وقرأ العلوم الرياضية على قاضي زاده الرومي بسمرقند ، ثم أتى بلادَ الروم ، وتوطَّنَ قسطموني .

ومنهم **المولى شجاع الدين إلياس** ، ويلقَّب بشيخ أسكوب ، درس فيها مدةَ أربعين سنة .

ومنهم **المولى إلياس الحنفي** .

ومنهم **المولى سليمان شلبي** ابن الوزير خليل باشا ، وكان خليل باشا وزيراً

(١) الصاعقة .

للسلطان مرادخان ، وتولى هو القضاء بالعسكر المنصور في زمن والده .

ومنهم **المولى آق بيق** ، وهو من العارفين .

ومنهم **الشيخ محمد بن الكاتب** ، توطن كاليبولي منقطعاً عن الخلق .

ومنهم **الشيخ أحمد بن الكاتب** أخوه ، وسكن كاليبولي أيضاً .

ومنهم **المولى شيخي** [الشاعر] من بلاد كرمان .

ومنهم **مصلح الدين** المعروف بإمام الدباغين بمدينة أدرنة .

ومنهم **الشيخ پيري خليفة الحميدي** .

ومنهم **الشيخ تاج الدين إبراهيم بن بخشي** فقيه .

ومنهم **الشيخ العارف حسن خوجه** من بلاد قرسي .

ومنهم **شمس الدين** من خلفاء حسن خوجه .

***

٧ ـ السلطان محمد الفاتح

١٤٥١ ـ ١٤٨١

وخلفه ابنه محمد الثاني الفاتح ، بويع له في سنة خمس وخمسين وثمانمئة للهجرة (١٤٥١م) وكانت آسية الصغرى ـ أي الأناضول ـ كلُّها في يده ، ما عدا إمارة القرمان ، وولاية طرابزون ، التي كانت تابعةً للقسطنطينية ، أما في أوروبة فلم يكن للروم غير القسطنطينية وضواحيها . وأما بلاد اليونان فكانت مقسّمة بين البنادقة ، وبين بعض أمراء من الأهالي ، وأما الأرناؤوط ، فكانت تحت حكم إسكندر بك ، وأما البوسنة فكانت لها إمارة مستقلة ، وأما الصرب فكانت تؤدي الجزية للسلطنة العثمانية ، وكان باقي ما بقي تابعاً للسلطنة رأساً .

فتح القسطنطينية

فلما تولى محمد الثاني فكَّر في فتح القسطنطنية ، حتى يجمعَ شمل المسلمين ، وكان بايزيد يلدرم بنى من قبلُ بإزاء القسطنطينية حصناً من جهة آسية ، فجاء محمد الثاني فبنى حصناً يقابله من جهة أوروبة ، فلما رأى الإمبراطور قسطنطين مباشرةَ السلطان محمد هذه البناية أرسل يستعطفه ، وعرضَ عليه دفع إتاوةٍ سنوية ، فاستنكف السلطان عن قبول أي شيء ، وبدأت الحرب ؛ فاستأصل السلطانُ الروم الذين في ضواحي القسطنطينية ، وأجمع كلٌّ من الفريقين على القتال ، وصنع رجلٌ مجري للسلطان مدفعاً كبيراً يرسلُ قذائفه إلى مسافة ميل ، كان موكلاً به سبعمئة رجل ، فكان تأثير هذا المدفع عظيماً لضخامته وبعدِ مرماه .

وكان السلطان محمد يَقدِرُ أن يحشدَ مئاتِ ألوف من المقاتلة ، أما الإمبراطور قسطنطين ، فلم يقدر أن يحشدَ إلا أربعةَ آلاف وتسعمئة وثلاثة وستين مقاتلاً ، فهذا العددُ كان يقابل مئتين وخمسين ألف جندي عثماني ، معهم أربع عشرة بطارية من المدافع ، يعاونهم من البحر مئة وثمانون سفينة حربية !!،

فاستصرخ قسطنطين باليولوج ممالك النصرانية فخذلته ، وكل ما أنجدته به هو أنّ البابا وعد بإعلان حربٍ صليبيةٍ إذا كانت الكنيستان الشرقية والغربية تتحدان ، وأرسلت جنوة أسطولًا صغيراً خمسَ سفائن ، وتمكّن خمسة آلاف مقاتلٍ من الغرباء من الوصول إلى المدينة ، فنقل السلطان مراكبه البحرية إلى البر ، وأزلقها على الشحم ، وأنزلها في خليج قاسم باشا في ليلةٍ واحدةٍ ، ولما أصبح الصباح كانت سبعون سفينة حربية في وسط الخليج ، وبقي الحصار خمسين يوماً ، فتهدمت الأبراج ، فأرسل السلطان إلى قسطنطين يعرضُ عليه الإستسلام ، فامتنع ، فعرض عليه السلطان أن يولّيه بلاد المورة بدلًا من فَروق[1] ، فاستنكف أيضاً ، وفي (٢٩) مايو ـ أيار من تلك السنة قام العثمانيون بهجوم عام ، وكان المهاجمون مئة وخمسين ألفاً ، فدافع الرومُ في ذلك اليوم دفاعاً شديداً ، ولكن المسلمين دخلوا من الأسوار ، فلجأ الرومُ إلى كنيسة آيا صوفيا ، يرجون المعجزة التي تنقذهم ، فدخل عليهم العثمانيون مِنْ كّلِ جهةٍ ، وأخذوا البلدة عنوةً ، وقُتِلَ الإمبراطور قسطنطين ، وهو يقاتل بنفسه[2] .

وكان للإستيلاء على القسطنطينية دويٌّ لا يوصَفُ ، ووصلت الأخبار الى المورة ، فحلّ من الرعب في قلوب اليونانيين ما لا يُحيطُ به تعريف ، وأخذوا يجلون عن بلادهم إلى حيث لا يعلمون ، وامتلأ البحرُ بالسفن التي تشحن الأثقال ، وتحمل الأنام ، ولجأ كثيرٌ من الأروام إلى الجزر الخاصة بالبنادقة والجنوية ، فصدر أمر السلطان بتأمين الناس ، **ونادى المنادي في كل مكانٍ بأنّ كلّ روميٍّ يريدُ الرجوعَ إلى وطنه ، فهو آمنٌ على حياتهِ ودينهِ ومالهِ ، وترك السلطانُ للأروام عدداً كبيراً من الكنائس** .

وكان البطريرك قد قُتِلَ في المعمعة ، فعَيَّن السلطان بطريركاً جديداً اسمه جناديوس وسلَّمه العصا ، وقال له : إني أعطيك الإمتيازات التي كان يتمتعُ بها

---

(١) فَروق ، وبيزنطة ، والأستانة ، ودار السعادة ، وإستنبول اسم لمسمًّى واحد .

(٢) كتب المؤلف فصلاً مطولًا عن فتح القسطنطينية وخططها في « حاضر العالم الإسلامي » (١ : ٢١٨) ولأهمية هذا الفصل ألحقته بهذا الكتاب ص (٦٨٣ ـ ٦٩٢) .

أسلافك ، وصار البطريرك منذ ذلك اليوم رئيساً للأمة الرومية ، وكان له في الدولة العثمانية رتبةُ وزيرٍ ، وكانت عنده محكمة ، ومجلس روحاني ، فكان يحكم بين الأروام في جميع القضايا ، وكان المجلس الروحاني أشبهَ بمحكمة استئناف ، وكان أعضاؤه ذوي امتيازات أيضاً ، فلا يدفعون شيئاً من الخراج ، وبالاختصار لم يتعرض الأتراك إلى الأروام في دينهم ، ولا في أملاكهم إلا كنيسة آيا صوفيا فقد جعلها السلطان جامعاً .

وبعد أن انتهى السلطان من فتح العاصمة الرومية أخضع بلاد اليونان بأجمعها ، ودخلت جيوشه بلادَ الصرب ، وسبت خمسين ألف نسمة من رجال ونساء ، فأرسل جان هونياد بطلُ المجر إلى برانكوفيتش ملكِ الصرب ، يعرِضُ عليه التحالف للزحف معاً لقتال العثمانيين ، **فبعث برانكوفيتش إلى هونياد يقول له : ماذا تصنعُ فيما إذا تغلبت أنتَ من جهة الكنيسة ؟ فأجابه هويناد : إنني أقرر العقيدة الكاثوليكية ، وكان سفراء برانكوفيتش سألوا السؤال نفسه السلطان محمد الفاتح ، فأجابهم : بجانب كل جامعٍ أبني كنيسةً ، وكلٌّ من الفريقين يعبدُ ربَّه كما يشاء** [1] .

فسار السلطان بمئة وخمسين ألف مقاتل ، وثلاثمئة مدفع ، وحاصر بلغراد ، لكنه لم يقدر عليها ، ولحقت به خسائر كثيرة في الحصار ، وكان هونياد قد جُرِحَ في المعركة ومات ، فضعفت المقاومةُ ، ولم تمض سنتان حتى دوّخ العثمانيون جميعَ بلادِ الصرب .

وبعد أن انتهوا من الصرب ، زحفوا إلى البوسنة ، وأخذ محمودُ باشا قائد الأتراك أميرَ البوشناق أسيراً ، ولكنه وعده بالأمان على حياته ، ثم إن السلطان محمداً أخذ فتوى من شيخ الإسلام بجواز قتله !! وأما الأهالي فمنهم من هاجر ، ومنهم من أسلم .

---

(١) قال بول كولنو في كتابه « العثمانيون في أوروبة » (١٦٢) : لقد مارس العالم العثماني تأثيراً هائلاً على سائر الشعوب ، فقد كان العثمانيون يطبقون مبدأ التسامح الديني على نطاق واسع ، بينما كانت أوروبة تفتقر إلى ذلك .

وأكثرُ من أسلم كانوا من طائفة يقال لها البوغوميل ، وكانت مسيحيةً ؛ لكنها لم تكن تعتقِدُ بألوهية عيسى كما يعتقد جمهور النصارى ، وكانت لها آداب خاصة بها ، وعقائد بعيدة عن العقيدة المسيحية ، وكان من هذه النحلة أقوامٌ في بلاد البلغار ، ونظراً لتعصُّب المجر للكنيسة الكاثوليكية ، طالما اضطهدوا هؤلاء البوغوميل ، وأرادوا إكراههم على قبول الكثلكة ، وكانت الباباوات لا تزالُ تلحُّ على ملوكِ المجر باستئصال هذه الطائفة ، فكان هؤلاء يعانون ألوانَ العذاب . فلما دخل الأتراك إلى بلاد البلقان التي يقولون لها : الروملي ، بدأ هؤلاء البوغوميل يدخلون في الإسلام ، وهذا قبلَ أن يَفْتَحَ السلطانُ محمد الفاتح مملكة البوسنة ، ولكن عندما دخل السلطان بجيوشه أسلم سائر البوغوميل اختياراً من تلقاءِ أنفسهم .

فمؤرخو الإفرنج يزعمون أنّه لما دخلَ السلطان إلى البوسنة خيرَّ الناس بين الإسلام والنصرانية ، وأنّ الذي أسلم بقيت له أملاكه ، ومَن لم يقبل الإسلام جرَده الأتراك من ثروته ، وكلُّ هذا من أكاذيب المؤرخين الأوربيين ! ! والحقيقةُ هي ما ذكرناه ، ولو كان السلطان محمد الفاتح عاملَ البوشناق هذه المعاملة لكان أولى به أن يعاملَ النصارى بها في سائر البلاد .

والحالُ كما هو معلوم ومشهورٌ أنّ السلاطين العثمانيين لم يتعرَّضوا لأحد في دينه ، فالبوشناق المسلمون لم يكن أصلهم نصارى بالمعنى المعروف ، بل كانوا من هذه الطائفة التي وصفنا شيئاً من عقيدتها ، والتي كانت أرقى من جميع سكان تلك البلاد .

ولنا رحلة إلى بلاد البوسنة والهرسك جمعنا فيها كلَّ المعلومات اللازمة عن أصل البوشناق وعن أصل البوغوميل ، ومرادنا نشرها في أول فرصة ، وقد رأينا بأعيننا قبور البوغوميل القديمة ، وليس عليها شيء من الصلبان ، ولا من علامات النصرانية ، وبديهيٌ أنّه لما كان البوغوميل هم في الأصل ذوي الوجاهة في بلاد البوسنة والهرسك ، صاروا هم ذوي الوجاهة في الإسلام أيضاً ، وكان استيلاءُ الأتراك على البوسنة سنة (٨٦٩ ـ ١٤٦٣) . وفي تلك المدة استولى السلطان محمد على بلاد طرابزون ، التي كان يليها ملوك من الأروام من عائلة كومين .

ثم زحف السلطان لفتح بلاد الفلاخ ، فقاومه أميرها ڤلاد مدةً من الزمن ، لكنَّه انهزم ، والتجأ إلى بلاد المجر ، فجعل السلطان أخاه رادول أميراً على الفلاخ .

فأما الأرناؤوط فكانوا لا يزالون عصاة ، وكان إسكندر بك لا يزال مظفَّراً في حروبه مع الأتراك ، فزحف السلطان بنفسِه إلى بلاد الأرناؤوط ، واستولى على بعض المدن مثل برات وغيرها ، ثم رجع ، وترك القيادة لبَلبَان باشا فلم يوفَّق ، وبقيت ألبانية متمردةً إلى أن مات إسكندر بك .

واشتعلت الحرب بين السلطان وبين جمهورية البندقية . فأرسلَ السلطان أسطولاً مؤلفاً من ثلاثمئة سفينة حربية ، عليها سبعون ألف مقاتل تحت قيادة محمود باشا ، فاستولى هذا الأسطول على جزيرة نيغربون وأخذها عنوةً ، واستأصل حاميتها ، فتحالف البنادقة ومملكة نابولي ، والبابا ، مع أوزون حسن من أمراء التركمان في شرقيِّ الأناضول ، وذلك لمحاربة السلطان ، فزحف لصدّ أوزون حسن بمئة ألفِ مقاتل ، وقهره في واقعة أوقلق بيلي ، وفي ذلك الوقت استولى على بر القرمان في جنوبيّ الأناضول بعد مقاتلات شديدة .

وكان السلطان اعتزم فتحَ بلاد البغدان من رومانية الحاضرة ، فساق مئة ألف مقاتل لفتحها ، وكان أميرُها إيتيان الرابع صلباً شديداً ، فقاوم أشدَّ مقاومة ، وأوقع بالأسرى ، فحنق السلطان ، وزحف من جهة الجنوب ، وأوعز إلى تتر القرم بالزحف من الشرق ، وكان في القرم عائلةٌ مالكة من التتر ، تنتسِبُ إلى جنكيز خان ، وكانت هذه المملكة تشتملُ على شبه جزيرة القرم ، وبلادِ قوبان ، وبلادِ الشركس ، ولها جانبٌ من بلاد البغدان ، وبصربية ، وكان فيها عِدّةُ إمارات تَخضَعُ للخان الكبير مثل آل شيرين ، وآل منصور ، وآل سُجُد ، وآل إرغين ، وآل بارون . وكل هذه العائلات كانت من سلائل أعوان جنكيز خان ، وكان الجنويون قد استولوا على جانب من القرم ، وأوقعوا الشقاقَ بين أمراء التتر ، فجاء السلطان محمد الفاتح ، وطرد الجنوية من هناك بأسطول مؤلف من ثلاثمئة شراع ، واستولى هو على بلاد القرم ، ووضع على كرسي تلك المملكة منكلي غرائي ، وصار من الملوك التابعين للسلطنة العثمانية ، واستولى

الأسطول العثماني على مصاب نهر الطونة[1] ، وزحف بمئة ألف مقاتل لقتال إيتيان الرابع ، فكانت الحرب سجالًا ، وكانت أساطيل البندقية تجتاح سواحل الأناضول .

واشتعلت الحرب بين البنادقة والسلطان في ألبانية ، وبعد حصار شديد ، استولى السلطان على أشقودره سنة (٨٨٤ ـ ١٤٧٩) ثم تصالحت جمهوريةُ البندقية مع السلطان ، فتفرّغَ لقتال المجر ، وزحف أربعون ألف مقاتل من الأتراك إلى ترنسلفانية ، ثم إن الخُلفَ وقع بين القواد ، فظفر بهم إيتيان باتوري أمير ترانسلفانية ، والجنرال مايتاس كورفين وهزموا الجيش الإسلامي ، وارتكبوا من فظائع التعذيب للأسرى ما روته التواريخ .

ولكنّ السلطانَ لم يتوقّف في فتوحاته ، بل صمّمَ على فتح إيطالية أيضاً ، وأرسل أسطولًا ، ففتح عنوةً مدينة أوترانت في (١٤) أغسطس ـ آب (١٤٨٠) مسيحية (٨٨٥) هجرية فوقع الرعب في إيطالية .

وكان مسيح باشا يغزو رودس لطرد فرسان القديس يوحنا الأورشليمي، وهم الذين كان يسميهم العرب بالإسبتارية ، ولهم ذِكرٌ شهير في الحروب الصليبية ، ولما طردهم المسلمون من فلسطين جعلوا رودس مركزاً لهم ، وكانت قاعدة سياستهم محاربة المسلمين ، فجاء مسيح باشا بمئة وستين شراعاً ، وحاصر رودس ، وأنزل العساكر إلى البر ، وبقي الحصار مدة شهرين ، فدافع الإسبتارية دفاعاً شديداً ، واضطروا مسيح باشا إلى رفع الحصار ، وبعد ذلك بقليل مات السلطان الفاتح في (٢) مايو ـ أيار (١٤٨١) مسيحية (٨٨٦) هجرية .

وخلاصةُ أعمال السلطان محمد الفاتح أنّه فتَح القسطنطينية ، وكان ذلك فتحاً مبيناً ، انتهت به القرون الوسطى ، فصيَّرها عاصمة للإسلام ، وفتح أيضاً ملحقاتها ، وفتح مملكتي الصرب والبوسنة ، وبلاد الأرناؤوط ، وجمع جميع آسية الصغرى في ملكه .

ولم يكن السلطان الفاتح من أعظم الفاتحين في الحروب فقط ؛ بل امتاز

(١) الدانوب .

بحسن الإدارة ، وتنظيم الملك ، وهو الذي حرّرَ النظام المسمى بقانون نامه ، وفيه جميع أنظمة السلطنة من علمية ، وإدارية ، وسياسية ، وعسكرية ، وسارت الدولة العثمانية بموجب هذه الأنظمة مدة طويلة ، ولا سيّما التراتيب المتعلقة بالقضاة والعلماء والمدرسين ، فإنه اعتنى بها الفاتح أشد الاعتناء ، وكان الفاتحُ نفسُه على جانب عظيم من العلم وحسنِ الثقافة ، يتكلمُ بلغاتٍ متعددةٍ ، وكان بدون شك من أعاظم رجال الدهر ، ومن حسنات الإسلام الكبرى ، وجميعُ هؤلاء السلاطين من عثمان إلى الفاتح لم يوجد منهم إلا بطلٌ مجاهدٌ ، وسلطانٌ عظيمُ الشأن ، وقلما تصادف ذلك في دولةٍ أخرى بهذا النسق خلفاً عن سلف[1] .

***

وفي زمان السلطان محمد الفاتح نبغ من العلماء :

المولى خسرو قاضي العسكر المنصور ، أخذ العلم عن المولى حيدر الهروي ، وصار مدرساً بمدينة أدرنة ، ولما فتح السلطان القسطنطينية جَعله قاضياً فيها ، مع التدريس في آيا صوفيا ، وكان إذا دخل جامع آيا صوفيا يقوم له من في الجامع كلهم !! ويصلّي عند المحراب ، وكان السلطان ينظر إليه من مكانه ، ويقول لوزرائه : انظروا هذا أبو حنيفة زمانه !! وكان كثيرَ الاشتغال بالمطالعة ، وله تآليف متعددة ، ومساجد متعددة بناها في القسطنطينية ، ومات فيها ، ونُقل جثمانه إلى بروسة .

ومنهم **خير الدين خليل بن القاسم بن الحاج صفا** .

ومنهم **المولى محمد الشهير بزيرك** ، وكان مدرساً بمدرسة السلطان مراد في بروسة ، ووقعت له مناظرة مع خوجه زاده أمام السلطان محمد الفاتح ، **وكان السلطان مدققاً متبحراً ، يحب مناظرات العلماء بعضهم لبعض ، ويميِّزُ بينها تميزاً مدهشاً ، ففي ذلك اليوم استحسن السلطانُ قول خوجه زاده ، فوقع في نفس المولى زيرك شيء ، فترك القسطنطينية وذهب إلى بروسة ، فعاد**

---

(١) للأستاذ سالم رشيدي كتاب جليل في سيرة « محمد الفاتح » جمع فيه ما تفرق في المصادر وقد نشرته مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

السلطان يحاول تطييب خاطره ، وعرض عليه مناصب عالية ، فرفضها .

ومنهم **مصلح الدين مصطفى بن يوسف بن صالح البروسوي المشتهر** بين الناس **بخوجه زاده** ، والمذكور كان أبوه من التجار ، فمال إلى تحصيل العلم برغم إرادة أبيه ، ولم يكن أبوه مع ثروته يعطيه شيئاً ، فعاش معيشة الفقراء ، وتولّى القضاء في زمان السلطان مراد ، ولما انتهت السلطنة إلى الفاتح ـ وكان محباً للعلم والعلماء ـ صار هؤلاء يشدون الرحال إليه ، وكان خوجه زاده ممن قصد السلطان ، فلقيه وهو ذاهب من القسطنطينية إلى أدرنة ، فلما رآه محمود باشا الوزير الأكبر قال له : أَصبت في مجيئك ، لأني ذكرتك عند السلطان ، فاذهب إليه ، وعنده البحث ، فذهب إلى السلطان ، فسأل عنه ، فقال محمود باشا للسلطان : [ها] هو خوجه زاده ، فكان في جانب السلطان المولى زيرك ، وفي الجانب الآخر المولى سيدي علي ، فجلس خوجه زاده إلى جانب سيدي علي ، واعترض على المولى زيرك وأفحمه ، حتى قال له السلطان : كلامك ليس بشيء ! ثم ذهب المولى زيرك ، وبقي خوجه زاده عند السلطان ، ثم جعله السلطان معلماً لنفسه ، وقرأ عليه السلطان « متن عز الدين الزنجاني » في التصريف ، وصارّ مقرباً عند السلطان إلى النهاية ، حتى حسده محمود باشا الوزير ، وقال للسلطان : إنّ خوجه زاده يريد منصب قضاء العسكر ، فقال السلطان : لأي شيء يريدُ أن يترك صحبتي ؟ فقال الوزير : هكذا يريد . ثم قال الوزير لخوجه زاده : أمرك السلطان أن تصير قاضي العسكر . فقال : أنا لا أريد ذلك ، قال الوزير : هكذا جرى الأمر ، فامتثل خوجه زاده أمرَ الوزير ، وصار قاضياً للعسكر ، وكان والد خوجه زاده لا يزال على [قيد] الحياة ، وكذلك إخوته ، فجاءوا يزورونه وهو في منصبه العالي ، ورأوا ذلك الإقبال العظيم ، فقال خوجه زاده لوالده : **لو كنتَ أعطيتني مالاً لما صرتُ إلى هذا الجاه الذي تراه الآن ، يشير بذلك إلى أنه في صغره لما عوّل خوجه زادة على طلب العلم ، وخالف مسلك أبيه في التجارة ، أمسك أبوه عن الإنفاق عليه ، فصار يكد ويجتهد ، حتى بلغ تلك الدرجة العالية .**

وكان الشيخ ولي شمس الدين البخاري رأى خوجه زاده وهو يطلب العلم في صباه وثيابهُ رثّةٌ ، ورأى إخوته متجمّلين بالثياب النفيسة ، فسأل أباهم : لماذا

أولادك هؤلاء كلُّهم عليهم علامات اليسارِ ، وولدك هذا وحدَه بحالة الفقر ؟ فقال له : هذا لأني أسقطتُه من نظري حين تركَ طريقتي . فقال الولي شمس الدين : إنّ هذا الولد سيكون له شأنٌ عظيم ، ويقوم إخوتُه أمامه بمقام الخدم ، وقد تحقق كلام الولي هذا ، لأنّ خوجه زاده عند ما صار قاضي العسكر صنع ضيافةً عظيمةً لأبيه ، وحشد إليها الأكابر والأعيان والعلماء ، فجلسوا على مراتبهم ، ونظراً للازدحام ، لم يوجد مكانٌ في السفرة لإخوةِ خوجه زاده ، فلبثوا واقفين كالخدم ، وتذكّر خوجه زاده قول الولي شمس الدين .

وصنف خوجه زادة كتاب « التهافت » بأمر السلطان ، وقال المولى الفناري : المصيبةُ كلُّ المصيبة أن خوجة زادة قبل القضاء ، إذ لو داوم على الإشتغال بالتأليف لظهرت له آثار تتحير فيها الألباب .

ثم إن السلطان جعل محمد باشا القرماني وزيراً ، وكان متعصباً على المولى خوجه زاده ، لميل الوزير إلى المولى علي الطوسي ، فقال للسلطان الفاتح : إنّ خوجه زاده يشكو هواء القسطنطينية ، ويمدح هواء أزنيق ، فقال السلطان : أعطيته قضاء أزنيق مع المدرسة التي فيها ، فمضى خوجه زاده إلى أزنيق ، ثم ترك القضاء ، واشتغل بالتدريس فقط ، ثم رجع إلى القسطنطينية بعد وفاة الفاتح .

ولما جلس السلطان بايزيد ابن السلطان الفاتح على سرير السلطنة أَعطاهُ المدرسة السلطانية في بروسة ، مع منصب الفتوى فيها ، **وكان لا يكتب الفتوى إلا بعد النظر في « الفتاوى »**[1] ، **وإذا تكررت عليه مسألةٌ واحدةٌ لا يهمِلُ أن يعيدَ النظر في « الفتاوى » قائلاً : لو سامحت نفسي في هذه لربما تسامحتُ في غيرها** ، وكان إذا لم يجد المسألة في « الفتاوى » سلك مسلك الرأي ، وكان يقول : إني قد أرِّجحُ وجهاً من الوجوه ، ثم إذا طالعت في الكتب وجدتُ هذا الوجه قد ذهب إليه بعض الأئمة قبلي .

وكان يقول : ما نظرتُ في كتابِ أحدٍ بعدَ تصانيف السيد الشريف بنية الإستفادة .

---

(١) حيث كانت بمثابة قانون يلتزمه القضاة .

وكان خوجة زاده يقول : إني صاحبُ إقدامٍ وإحجامٍ . فقيل له : ما تريدُ بذلك ؟ فقال : إذا كملت مطالعتي لا أخاف أحداً كائناً من كان ، وإذا لم تكمُل أخافُ كلَّ أحدٍ .

ونُقِل عنه أنّه قال : إن العلوم على ثلاثة أقسام : قسم منها ما يمكنُ تقريرُه وتحريره ، وهو المكتوب في المصنفات . ومنها ما يمكنُ تقريرهُ ، ولا يمكن تحريره ، وهو الجاري في المباحثات . ومنها ما لا يمكن تقريرهُ ولا تحريرُه ، وهو مالا يمكِنُ التعبيرُ عنه لدقته ، إلا إذا حصل لأحدٍ تلك الحالة الذوقية ، فيتكلَّمُ بالإيماء والإشارة .

وأمر السلطان با يزيد خوجه زاده أن يكتبَ حاشيةً على « شرح المواقف » فا متثل أمره ، وكان قد وقع شلل في يده اليمنى ، فكان يكتبُ الحاشية باليد اليسرى ، وتوفي خوجه زاده سنة ثلاث وتسعين وثمانمئة ، وكان له ولد اسمه الشيخ محمد من العلماء الكبار ، مال في آخر الأمر إلى التصوف .

ومن علماء عصر الفاتح **المولى شمس الدين أحمد بن موسى الشهير بالخيالي** ، وكان عالماً عاملاً ورعاً ، ولما توفي تاج الدين الخطيب مدرّس أزنيق طلب السلطان محمد الفاتح مدرساً مكانه ، فعرض الوزير محمود باشا اسم الخيالي ، فقال له السلطان : أليس هو الذي كتب الحواشي على « شرح العقائد » وذكر فيها اسمك ؟ قال الوزير : نعم هو ذلك . قال السلطان : إنه مستحق لهذا المنصب ، وأعطاه المدرسة المذكورة ، وعيّن له كلَّ يومٍ مئة وثلاثين درهماً ، ومات وهو مدرس فيها ، وعمره ثلاث وثلاثون سنة ، وكان كثيرَ العبادة ، حكى مَنْ لازمه أنّه لم يره فَرِح ولا ضَحِكَ ، وكان دائم الصمتِ ، لا يتكلم إلا عندَ مباحث العلوم .

ومنهم **المولى مصلح الدين مصطفى القسطلاني** ، كان مدرساً في مدرسة ديموطقة في الروملي ، ثم لمّا بنى الفاتح المدارس في القسطنطينية أعطاه واحدةً منها ، وصار قاضياً بالعسكر المنصور ، فخافه محمد باشا القرماني ، لأن القسطلاني كان قوياً لا يداري أحداً ، فقال الوزير للسلطان : الأولى أن يكون

للعسكر قاضيان ؛ أحدُهما القسطلاني يكون قاضياً لعسكر الروملي ، والآخر يكون قاضياً لعسكر الأناضول ، وفي تلك المدة مات السلطان الفاتح ، وجلس بايزيد ، فعزل القسطلاني عن قضاء العسكر ، وكانت له تصانيفُ عالية الدرجة ، ولم يتفرّغ لأكثر منها ، لكثرة اشتغاله بالدرس والقضاء ، وتوفي سنة إحدى وتسعمئة ، ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه .

ومنهم المولى **محي الدين محمد بن الخطيب** كان مدرساً بإحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية ، وادَّعى مرّةً أنه يقدر على مباحثة خوجه زاده ، فقال السلطان الفاتح : أأنتَ تقدِرُ على البحث معه ؟ قال : نعم ، لا سيما أنّ لي مرتبةً عند السلطان . فعزله السلطان محمد لهذا الكلام ، وكان طليق اللسان ، جريء الجنان ، وقهرَ كثيراً من علماء زمانه ، ويُروى عنه أنه ذهب ومعه جماعة من العلماء إلى السلطان بايزيد ، فقبّل العلماءُ يد السلطان ، وأما ابن الخطيب فلم يقبّل يده ، ولا انحنى له ، فلما خرجوا من حضرة السلطان ، قالوا له : كان الأليقُ أن تنحنيَ له وتقبلَ يده !! قال : أنتم لا تعرفون ، يكفيه فخراً أن يذهب إليه عالمٌ مثل ابن الخطيب ، وهو راضٍ بهذا القدر . ثم إن السلطان بايزيد جمعه مع المولى علاء الدين العربي وغيره من العلماء ، وانتهى البحثُ إلى كلامٍ غضب منه السلطان ، فصنّف ابن الخطيب رسالةً ، وذكر السلطان بايزيد خان في خطبتها ، وأرسلها إلى السلطان بيد الوزير إبراهيم باشا ، فازداد السلطانُ غضباً ، وقال للوزير : ما اكتفى بذكر ذلك الكلام الباطل باللسان ، حتى كتبه في الورق ! اضرب برسالته وجهه ، وقل له يخرج من مملكتي ، فكتم الوزير ذلك عن ابن الخطيب ، ولم يشأ كسر خاطره ، وأرسل إليه عشرة آلاف درهم باسم السلطان ، والسلطانُ لا علم له بذلك . وله مؤلفات كثيرة .

ومنهم **المولى علاء الدين علي العربي** ، أصله من نواحي حلب ، قرأ أولاً في حلب ، ثم قدم إلى بلاد الروم ، فقرأ على المولى الكوراني ، وقال المولى الكوراني له : أنت عندي بمنزلة السيد الشريف عند مبارك شاه المنطقي .

وتحريرُ الخبر أنّ السيد الشريف كان قرأ « شرح المطالع » ست عشرة مرةً ، ثم قال في نفسه : أريد أن أقرأ هذا الكتاب على مصنفه ، فذهب إليه ، وهو

بهراة ، والتمس منه أن يقرأ عليه « شرح المطالع » ، وكان الشيخُ قد بلغ من الكِبَرِ عتيًّا ، فنظر إلى السيد الشريف ، فقال له : أنت شابٌ ، وأنا شيخٌ كبيرٌ لا أقدرُ على التدريس ، فأذهب إلى مبارك شاه ، فهو يقرئك كما سمع مني ، وكان مبارك شاه وقتئذٍ يدرَسُ بمصر ، فذهب السيد الشريف من هراة[1] إلى مصر ومعه الكتاب ، فقال له مبارك شاه : نعم إلا أنه ليس لك درسٌ مستقِلٌ ، ولا آذنُ لك بالتكلُّم ، بل تقنع بمجرد السماع ، فرضي السيد بالشروط كلِّها ، وحضر الدرس ، وكان بيتُ مبارك شاه متّصلاً بالمدرسة ، وله بابٌ إليها ، فخرج ليلةً إلى صحن المدرسة ، وبينما كان يدورُ فيها سمع السيد الشريف يقول : قال الشارح كذا ، وقال الأستاذ كذا ، وأنا أقول كذا ، وكرر كلماتٍ لطيفة أعجبت مبارك شاه ، حتى رقصَ من شدة طربه ، فأذنَ للسيد الشريف أن يقرأ ويتكلّم ، وسوّد حاشيةَ « شرح المطالع » هناك .

فالمولى الكوراني قصّ على المولى العربي هذه القصة وقال له : إني أفتخر بك افتخار مبارك شاه بالسيد الشريف ، ودرّس المولى العربي بإحدى المدارس الثمان في القسطنطينية ، ثم صار مفتياً فيها ، وكان رجلاً قويَّ المزاجِ إلى الغاية ، يجلِسُ عند الدرس مكشوف الرأس في أيام الشتاء ، ويقال : إنّه كان يأتي النساء كلَّ ليلةٍ ، وكان يغتَسِلُ في بيته مهما اشتد البرد ، ثم يصلي مئة ركعة ، ثم ينام ، ثم يقوم للتهجد ، ثم يطالع إلى الصُبح ، وقد وُلد من صلبه سبعُ وستون نفساً ، ولما مرض مرض الموت عاده الوزراء ومعهم طبيب ، فأشار عليه الطبيب بالاستحمام فلم يرضَ ، فحمله الوزراء جبراً على سريرٍ ، قبض كلُّ واحدٍ طرفاً منه ، وذهبوا به إلى الحمام .

ومنهم **المولى عبد الكريم** كان هو والوزير محمود باشا والمولى إلياس عبيداً لمحمد آغا ، من أمراء السلطان مراد ، وقد جيء بهم من بلادهم وهم صغار ، فمحمود باشا صار فيما بعد وزيراً للسلطان الفاتح ، والمولى عبد الكريم قرأ العلوم بأسرها ، واشتهر بالفضل ، وأخذ عن المولى علي الطوسي .

و [منهم] المولى **سنان العجمي** ، ثم صار مدرِّساً بإحدى المدارس الثمان

---

(١) هراة في أفغانستان ، فانظر إلى هذه الهمة العظيمة في طلب العلم .

التي أحدثها الفاتح بعد فتحه القسطنطينية ، وصار قاضياً للعسكر ، ومات في أيام السلطان بايزيد خان .

ومنهم **المولى حسن بن عبد الصمد الصامصوني** ، كان عالماً فاضلاً ، محباً للفقراء، أخذ عن المولى خسرو ، ودرّس في إحدى المدارس الثمان ، ثم صار معلماً للسلطان محمد الفاتح ، ثم قاضياً للعسكر المنصور ، ثم قاضياً لمدينة القسطنطينية ، وكان محمود الطريقة في قضائه ، وكان له خطٌ حسن ، كتب للسلطان الفاتح « صِحاح الجوهري » بخطه .

ومنهم **المولى محمد بن مصطفى بن الحاج حسن** ، قرأ على علماء عصره ، وصار قاضياً بمدينة كاليبولي ، ثم أعطاه محمد مدرسة والده بمدينة بروسة ، ثم استُقضي فيها ، ثم استُقضي بالقسطنطينية ، ثم صار قاضياً للعسكر ، ومات في سنة إحدى عشر وتسعمئة (١٥٠٥م) ، في زمن السلطان بايزيد خان ، وله تآليف منها حاشيته على « تفسير سورة الأنعام » للبيضاوي ، وحاشيته في المحاكمة بين الدّواني ومير صدر الدين ، وكتاب في الصرف اسمه « ميزان التصريف » .

ومنهم **علاء الدين علي بن محمد القوشجي** كان أبوه من خدَّام أولغ بك ملك ما وراء النهر ، وكان حافظ البازي ـ وهو معنى القوشجي بالتركية ـ قرأ على علماء سمرقند ، وقرأ على قاضي زاده الرومي العلومَ الرياضية ، وكان الأمير أولغ بك أيضاً عالماً بهذه العلوم ، فأخذها عنه ، وبنى الأمير أولغ بك مرصداً عظيماً في سمرقند ، وتعيّن له المولى القوشجي هذا ، وله زيجٌ شهيرٌ ، وبعد وفاة أولغ بك لم يعرف أولاده قدر القوشجي ، فرحل إلى تبريز ، وكان أميرها السلطان حسن الطويل ، فأكرمه كثيراً ، وأرسله في رسالةٍ إلى السلطان محمد العثماني ، فلما جاء إلى الفاتح بالرسالة أكرمه فوق ما أكرمه السلطان حسن ، ورغب إليه أن يسكن في ظل حمايته ، فوعده بالمجيء بعد إتمام الرسالة ، وعاد إلى السلطان حسن ، وأدّى الجواب ، ثم أرسل الفاتح مَن جاء به إلى القسطنطينية بالحشمة الوافرة ، وقدم للسلطان رسالةً في علم الحساب وسماها « المحمدية » ، ولا يوجد أنفعُ منها في هذا العلم ، ثم حصلت حربٌ بين الفاتح والسلطان حسن الطويل ، فاستصحب السلطانُ المولى القوشجي وهو ذاهب إلى

الحرب ، فصنّفَ له في أثناء السفر رسالة في علم الهيئة سمَّاهَا « الفتحيّة » ، ولما رجع السلطان من فتح العجم ، أعطى القوشجي مدرسة أيا صوفيا ، وأكرم أولاده وأتباعه ، وكان معه مئتا نفس من الأتباع .

ورووا أنّ المولى القوشجي ذكر مباحثة السيد الشريف مع العلامة التفتازاني ، ورجَّح جانب التفتازاني ، وكان المولى خوجه زاده يقول : كنتُ أظنُّ الأمر كذلك ، إلا أني حققت البحث المذكور ، فظهر لي أنّ الحقّ في جانب السيد الشريف ، فكتبت ذلك في حاشية كتابي ، وطالعها القوشجي فاستحسن ما كتبت ، ولمَّا لقي القوشجي السلطان محمداً الفاتح ، قال له السلطان : كيف شاهدت خوجه زاده . قال : لا نظير له في العجم والروم . قال السلطان : ولا نظير له في العرب أيضاً . وللقوشجي حاشية على أوائل « شرح الكشاف » للتفتازاني ، توفي في القسطنطينية ، ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .

ومنهم **المولى علي بن مجد الدين محمد بن مسعود بن محمود بن محمد بن عمر الشاهرودي البسطامي الهروي الرازي العمري البكري ، الشهير بالمولى مصنفك** ، والكاف علامة التصغير عند العجم ، ولُقبَ بذلك لاشتغاله بالتصنيف منذ حداثة سنة ، وهو من ذرية فخر الدين الرازي ، ويقال : إنّ الفخر الرازي صرّح في بعض مصنفاته بأنه من ذرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقيل : بل هو من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ولد المولى مصنفك سنة ثلاث وثمانمئة ، وسافر إلى هراة لتحصيل العلم سنة اثنتي عشرة وثمانمئة ، وصنّف « شرح الإرشاد » سنة ثلاث وعشرين وثمانمئة ـ أي وهو ابن عشرين سنة ـ وشرح « المصباح » في النحو سنة خمس وعشرين ، وشرح « آداب البحث » سنة ست وعشرين ، وشرح « اللباب » سنة ثمان وعشرين ، وشرح « المطوّل » سنة اثنين وثلاثين ، وشرح « شرح المفتاح » للتفتازاني سنة أربع وثلاثين ، وصنف « حاشية التلويح » سنة خمس وثلاثين ، وشرح « البردة » و « القصيدة الروحية » لابن سينا في تلك السنة ، ثم ارتحل إلى هراة ، وشرح « الوقاية » ثم شرح « الهداية » سنة تسع وثلاثين ، ثم صنف

« حدائق الإيمان لأهل العرفان » ، **ثم ارتحل إلى بلاد الروم** سنة ثمان وأربعين ، وشرح « المصابيح » للبغوي ، وشرح « شرح المفتاح » للسيد الشريف ، وصنف شرح « الكشاف » للزمخشري ، وله عدة تآليف بالفارسية ، وقرأ العلوم الأدبية على المولى جلال الدين يوسف الأبّهي من تلاميذ التفتازاني ، وقرأ فقه الشافعي على الإمام عبد العزيز بن الأبهري ، وقرأ الفقه الحنفي على الإمام نصيح الدين محمد بن محمد علاء الدين .

وكان سريعَ الكتابة يكتبُ كلَّ يوم كراساً ، **وكان يدرِّس الطلبة بالكتابة ، يكتبون إليه مواضع الإشكال فيجيب كلاً في ورقة ، ويدفعها إلى الطالب**[1] ، مات بالقسطنطينية سنة خمس وسبعين وثمانمئة ، ودفن عند أبي أيوب الأنصاري ، وأصيبَ بالصمم في آخر حياته .

ومنهم **المولى سراج الدين محمد بن عمر الحلبي** ، لمّا أغار تمرلنك على البلاد الحلبية أخذه معه إلى ما وراء النهر ، فقرأ هناك ، ثم قدم إلى بلاد الروم في زمن السلطان مراد خان ، ونصّبه معلماً لابنه السلطان محمد ، الذي فتح إستانبول ، ثم أعطاه مدرسة بأدرنة ، وبقي يدرّس ويصنّف حتى مات فيها .

ومنهم **المولى محيي الدين درويش بن محمد بن خضر شاه** ، كان مدرساً بسلطانية بروسة ، وكان غاية في الورع ، والناس تتبرَّك به .

ومنهم **المولى إياس** ، وكان متصوفاً ، انقطع للعبادة والمطالعة ، وكان له غرامٌ بتصحيح الكتب ، وكتابة الفوائد في حواشيها ، وكان للنّاس فيه اعتقادٌ عظيم .

ومنهم المولى **خير الدين** معلم السلطان محمد الفاتح ، وكان له جامع ومدرسة في القسطنطينية . وكان عالماً فاضلاً متفنناً ، لذيذ الصحبة ، حسن النادرة .

ومنهم **المولى حميد الدين بن أفضل الدين الحسيني** ، وكان على جانب عظيم من الورع والتقوى ، صبوراً على الشدائد ، تولّى التدريسَ بمدرسة

---

(١) هذه أول مدرسة تدرّس بالمراسلة ، وقد سبق فيها المسلمون الأوربيين .

السلطان مراد في بروسة ، ثم عزل عنها في أوائل سلطنة الفاتح ، وأتى إلى القسطنطينية ، وكان الفاتحُ أحياناً يخرجُ ماشياً في عددٍ من أعوانه ، فصادفه الشيخ حميد الدين ، فنزل عن فرسه ، ووقف ، فقال له السلطان : أنت ابن أفضل الدين ؟! قال : نعم ، قال : احضر إلى الديوان غداً ، فلما حضر ، أعطاه مدرسة السلطان مراد في بروسة ، وأجرى عليه أرزاقاً تكفيه ، وأوصاه بالاشتغال بالعلم ، وقال له : أنا لا أغفل عنك .

ثم أعطاه السلطان إحدى المدارس الثمان في القسطنطينية ، ثم استقضاه .

وبعد وفاة الفاتح صار مفتياً في زمان ولده السلطان بايزيد . وكان شديد الحفظ ، قلّما توجَدُ مسألةٌ شرعية أو عقلية إلا وهو يحفظها ، ولم يكن يعرف الغضب .

ومنهم **المولى سنان الدين يوسف بن المولى خضر بك ابن جلال الدين** ، كان عالماً فاضلاً ، واسع الإطلاع ، حادّ الذهن ، ولشدة ذكائه غلب عليه الشك[1] ، فصار يشتبه بأكثر الأشياء ، وكان والده يلومه على ذلك ، وكانا يأكلان مرة معاً ، فقال له والده : بلغ بك الشك إلى مرتبةٍ أنّك قد تشكُّ في أن هذا الظرف من نحاس ؟! فقال له : نعم ، يمكن ذلك ، لأن للحواس أغاليط ، فغضب والده عليه ، وضربه بالطبق على رأسه ، ولمّا مات والده كان في العشرين من عمره ، فأعطاه السلطان الفاتح مدرسة بأدرنة ، ثم أعطاه دار الحديث ، ثم جعله من خواصه ، وتعلم سنان الدين العلوم الرياضية على المولى القوشجي الذي تقدّم ذكره ، ثم تغيَّر الجو بينه وبين السلطان فعزله وحبسه ، فلما عرف العلماء اجتمعوا في الديوان العالي ، وقالوا : لا بدّ من إطلاق سبيله ، وإلا نحرق كتبنا ، ونخرج من المملكة ، فأمر السلطان بتخلية سبيله ، ولكنه أخرجه من القسطنطينية إلى سفر حصار ، وبقي غضبان عليه ، إلا أن السلطان بايزيد عاد فاستدعاه إلى أدرنة ، وجعله في دار الحديث فيها ، وأنعم عليه ، وكتب هناك حواشي على مباحث الجواهر من « شرح المواقف » ، وأوردَ

---

(١) الوسواس .

أسئلة كثيرة على السيد الشريف ، فنصحه بعض أصحابه قائلاً له : لا بدّ من انتخاب تلك الأسئلة ، لأن السيد رفيع الشأن ، فأوعز للطلبة بأن يطالعوا تلك الأسئلة ، فأسقط منها ما أجابوا عنه ، ثم ترك المناصب ، ومات بالقسطنطينية ، ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه سنة إحدى وتسعين وثمانمئة ، وكان ينفقُ كلَّ ما في يده ، ولما مات لم يوجد في بيته حطب يسخَّنُ به الماء .

ومنهم **المولى يعقوب باشا بن المولى خضر بك بن جلال الدين** ، وكان عالماً محققاً صالحاً ، استقضى في مدينة بروسة ، ومات وهو قاض بها سنة إحدى وتسعين وثمانمئة .

ومنهم **أحمد باشا بن خضر بك بن جلال الدين** ، كان أيضاً عالماً فاضلاً متواضعاً محباً للفقراء ، أعطاه السلطان محمد إحدى المدارس الثمان ، وهو دون العشرين ، ثم صار مفتياً بمدينة بروسة في زمان السلطان بايزيد ، ومات سنة سبع وعشرين وتسعمئة ، وقد نيف على التسعين .

ومنهم **المولى صلاح الدين** ، كان عالماً عابداً جعله الفاتحُ معلماً لابنه بايزيد ، وتوفي في بروسة .

ومنهم **المولى عبد القادر** ، أصله من أسبارتة ، من ولاية حميد ، قرأ على المولى على الطوسي ، وترقى في المناصب ، حتى صار من خواص السلطان الفاتح ، فنقل الوزير محمود باشا عنه إلى السلطان ما غيَّر خاطره عليه ، فذهب إلى وطنه ، ومات مكسورَ الخاطر .

ومن نكاته أنه كان مع السلطان في قونية ، فخرج العلماء لاستقبال السلطان مشاةً ، وكان المولى عبد القادر راكباً ، فقال له السلطان : قد أضناك السفر ، فانظر إلى هؤلاء العلماء وقوة مزاجهم ، فأنشده بيتاً بالفارسية معناه : إن الفرس العربي ـ وإن كان نحيفاً ـ فهو أجود من جماعة الحمر ، فضحك السلطان ، واستحسن جوابه .

ولكنه لم يستحسن منه قوله مرة : إنه لو كان العلامة التفتازاني والسيد الجرجاني في عصره لحملا قدّامه غاشية السرج ، فإن السلطان اشمأز من كلامه ، وأمره بالمباحثة مع خوجه زاده ، فأفحمه خوجة زاده ، كأنّ السلطان

جعل ذلك عقاباً له .

ومنهم **المولى علاء الدين علي بن يوسف بالي ابن المولى شمس الدين الفناري** ، كان من العلماء المحققين ، ارتحل إلى بلاد العجم ، وأخذ عن علماء هراة ، ثم عن علماء سمرقند ، وبخارى ، ثم عاد إلى بلاده . وكان المولى الكوراني يقول للسلطان الفاتح : يجبُ أن يكونَ عندك أحدُ أبناء المولى الفناري ، فلما بلغه وجود المولى علاء الدين من ذرية الفناري استقضاه بمدينة بروسة ، ثم جعله قاضياً للعسكر المنصور ، وفي زمانه ارتقى شرفُ العلم ، وكانت للعلماء سيادة تامَّة ، ثم عُزل ، ثم أعاده السلطان بايزيد لقضاء العسكر ، ثم عزل ، وأقام على جبل فوق مدينة بروسة يشتغِلُ بالعلم ، وكان يقضي في ذلك الجبل الفصولَ الثلاثة ، وينزل إلى بروسة في الفصل الرابع ، وكان لا ينام على فراش ، فاذا غلب عليه النومُ استند على الجدار ، والكتب بين يديه .

وكان ماهراً في العلوم الرياضية ، وفي علم الكلام ، وعلم الأصول ، وفي الفقه والبلاغة ، وسلك أيضاً طريقَ التصوف ، ودخل في خدمة العارف بالله حاجي خليفة ، ومع سعة علمه لم يرغب في التأليف ، وليس له إلا شرح « الكافية » في النحو ، وكان ينفق كلَّ ما بيدِهِ ، ولم يدّخر من رواتبه الكثيرة التي جرت عليه وهو قاض للعسكر أقلَّ شيء ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : كنت رجلاً سكران ، ولم يوجد عندي من يحفظ المال ، يريد أنه كان سكراناً بخمرة الجاه . فقال له بعض الحاضرين : إذا رجعتَ إلى المنصب فيلزم أن تحفظ المال ، فقال : لا يفيدُ ، فإنه إذا عاد المنصب يعود معه السكر . توفي سنة ثلاث وتسعمئة ، وقيل إحدى وتسعمئة .

ومنهم **المولى حسن شلبي بن محمد شاه الفناري** ، كان عالماً عابداً ، محباً للفقراء ، وكان مدرساً بالمدرسة الحلبية في أدرنة ، وكان ابن عمه المولى علي الفناري قاضياً بالعسكر في أيام الفاتح ، فدخل عليه وقال : استأذن لي من السلطان ، لأني أريد أن أذهب إلى مصر لقراءة كتاب « مغني اللبيب » في النحو على رجلٍ مغربي سمعته بمصر يعرف ذلك الكتاب غاية المعرفة ، فأذن له السلطان وقال : قد اختل دماغه ، وكان السلطان لا يحبه ، لأنه صنَّف حواشيه

على كتاب « التلويح » باسم السلطان بايزيد في حياة والده ، ثم ذهب إلى مصر ، وقرأ « مغني اللبيب » على العالم المغربي قراءة تحقيقٍ وتدقيقٍ ، وكتب الكتاب بخطه ، وكتب له المغربي إجازةً على ظهر الكتاب ، وقرأ « البخاري » على بعض تلاميذ ابن حجر ، وأخذَ إجازةً في الحديث ، ثم حجَّ ، ورجع إلى بلاد الروم ، فأرسل كتابَ « مغني اللبيب » إلى السلطان ، فلما نظر فيه رضي عنه ، وأعطاه مدرسة أزنيق ، ثم أعطاه إحدى المدارس الثمان .

وفي زمان السلطان بايزيد سكن بروسة ، وعيّنَ له السلطان رزقاً كافياً ، ومات ببروسة ، وله حواشٍ على الشرح « المطول » للتخليص وحواشٍ على « شرح المواقف » للسيد الشريف ، وحواشٍ على « التلويح » للتفتازاني .

ومنهم **المولى مصلح الدين مصطفى بن المولى حسام** ، وكان عالماً في العلوم الشرعية والعلوم الأدبية ، ومتصوفاً أيضاً ، وكانت له اليد الطولى في الإنشاء ، وصار مفتياً في بروسة ، ومات بها .

ومنهم **محيي الدين محمد الشهير بأخوين** ، قرأ على علماء الروم ، ودرّس في إحدى المدارس الثمان في القسطنطينية .

ومنهم **المولى قاسم المشتهر بقاضي زاده** ، كان أبوه قاضياً في مدينة قسطموني ، وكان عالماً عابداً ، وكانت له معرفة بالعلوم الرياضية ، وتولّى القضاءَ في بروسة ، وكان محمود الطريقة ، ومات وهو قاض في بروسة .

ومنهم **المولى محيي الدين الشهير بابن مغنيسة** اتصل بخدمة المولى خسرو ، وهو مدّرس بمدرسة آيا صوفيا ، وكان يسكن في الطبقة العليا من المدرسة ، ويشعل سراجه طوال الليل ، ويرى ذلك السلطان محمد من دار السعادة ، فسأل السلطان يوماً المولى خسرو : من أفضل تلاميذك ؟ فقال له : ابن مغنيسة . قال : ثم من ؟ قال : ابن مغنيسة . قال السلطان : أهو رجلان . قال : لا ، ولكنّه واحدٌ كألف ، فقال له السلطان : إنّه ساكنٌ في الحجرة الفلانية ، وذلك لأنّ السلطان كان يرى سراجه موقداً طول الليل . ولما بنى الوزير محمود باشا مدرسته بالقسطنطينية أعطاها السلطان لابن مغنيسة ، وفي أول درسٍ ألقاه ، قال أستاذه المولى خسرو وبحضور جمٍّ من العلماء : حضرتُ درسين ؛ أحدهما

لمحمد شاه الفناري ، والآخر هذا الدرس . **قال ذلك لشدَّة إعجابه بتلميذه** ، ثم صار قاضياً بالقسطنطينية ، ثم قاضياً بالعسكر المنصور . واتفق أنْ سافرَ السلطانُ الفاتح إلى الحرب في الروملي ، فسأل ابنَ مغنيسة عن بيتٍ من الشعر العربي فقال له : أتَفَكَّرُ فيه بالمنزل ثم أجيبُ ، فقال له السلطان محمد : أيحتاج بيتٌ واحدٌ من الشعر إلى كل هذا ؟! وأمر بحضور المولى سراج الدين ـ وكان موقِّعاً في الديوان العالي ـ فسأله عن ذلك البيت ، ففي الحال أجابه قائلاً : هو للشاعر الفلاني من القصيدة الفلانية من البحر الفلاني . ثم قرأ السباق والسياق ، وحقّقَ معنى البيت . فقال السلطان لابن مغنيسة : ينبغي أن يكونَ العالم هكذا في العلم ، ثم عزله عن قضاء العسكر ، وأعطاه إحدى المدارس الثمان ، وقال : هو محتاج بعد إلى التدريس ، ثم بعد ذلك استوزره ، ثم عزله عن الوزارة ، وفي زمان السلطان بايزيد رجع قاضياً للعسكر ، وتوفي وهو قاضٍ .

ومنهم **المولى حسام الدين حسين بن حسن بن حامد التبريزي المشهور بأم ولد** ، لقب بذلك لأنه تزوَّجَ أمَّ ولدِ المولى فخر الدين العجمي ، كان عالماً عابداً منقطعاً عن الخلق ، عاكفاً على الدرس والعبادة ، أعطاه السلطان الفاتح إحدى المدارس الثمان ، وكان يحبُّه لصلاحه ، ويحسِنُ إليه .

ومنهم **ابن المعرف** ، كان من ولاية بالي كسرى ، وكان معلماً للسلطان بايزيد ، وكان السلطان يقول : لولا صحبتي معه ما صحّت عقيدتي .

ومنهم **المولى بهاء الدين بن الشيخ الحاجي بيرم** ، كان عالماً فاضلاً عابداً ، صار مدرساً بمدرسة السلطان بايزيد بن مراد في بروسة ، وأخذ عن خوجه زاده ، ودرّس في إحدى المدارس الثمان ، ولما بنى السلطان بايزيد بن محمد مدرسته بأدرنة ، أعطاها إلى المولى بهاء الدين المذكور .

ومنهم **المولى سراج الدين** ، كان معيداً لدرس خوجه زاده ، ثم أعطاه السلطان الفاتح إحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية ، وكان يحفظ جيداً قصائدَ العرب ، وينظمُ الشعرَ العربي ، وقد تقدّم كونهُ تغلّبَ على ابن مغنيسة في معرفة الشعر العربي ، ومات في عنفوان شبابه ، وحَزِنَ عليه النّاسُ .

ومنهم **المولى محيي الدين محمد ابن كوبلو** ، جعله الفاتح قاضياً بالعسكر

المنصور ، وتزوّجَ بأخته سليمان شلبي بن كمال باشا ، فولد له منها ولد اسمه أحمد شاه ، وهو المولى العالم الفاضل المعروف بابن كمال باشا .

ومنهم **المولى محيي الدين محمد المعروف بمولانا ولدان** ، وكان قاضياً بمدينة كاليبولي ، ثم جعله السلطان مدرساً في بروسة ، ثم قاضياً بها ، ثم جعله قاضي العسكر ، ثم عزله ، وبقي إلى زمان ولده بايزيد خان ، فأعاده إلى قضاء العسكر ، وحصل في زمانه أن أحدَ خدامِ السلطان في أدرنة ظَهرَ منه فسادٌ ، فأرسل نائبُ المحكمة أناساً مِن قبله لمنعه ، فلم يمتنع ، فغضب النائب ، وركب إليه بنفسه ، وقصد منعه ، فضرب هو النائبَ ضرباً شديداً ، وبلغ الخبرُ السلطان فأمر بقتله ، لتحقيره نائب الشرع ، فشفع له الوزراء ، فلم يقبل شفاعتهم ، فالتمسوا من مولانا ولدان أن يتوسَّطَ في الأمر ، فقال للسلطان : إنّ النائب مخطىءٌ في قيامه من مجلس القضاء بسبب الغضب ، فلما ذهب فضربه ذلك الغلام لم يكن عند الضرب قاضياً ، بل كان قد أسقط نفسه ، فلذلك لا يقال : إنّه حصل تحقيرٌ للشرع يستحِقُّ فاعِله القتل ، فسكن السلطان الفاتح ، ثم جيء بالغلام بين يدي السلطان ، فضربه ضرباً شديداً مَرِضَ من بعده أربعة أشهر ، ثم برىء بعد ذلك ، وترقَّى ، وصار وزيراً للسلطان بايزيد ، وكان يترحّم على الفاتح ويقول : ما حصل لي هذا الرشد إلا من ضربه .

ومنهم **أحمد باشا بن المولى ولي الدين الحسيني** ، كان مدرساً بمدرسة السلطان مراد في بروسة ، ثم صار قاضياً بأدرنة ، ثم جعله السلطان محمد الفاتح قاضياً بالعسكر ، ثم جعله معلماً لنفسه ، وكان حلو الفكاهة ، يقرضُ الشعر بالتركية ، واستوزره السلطان ، ثم عزله ، وجعله أميراً على بروسة ومات بها .

ومنهم **المولى تاج الدين إبراهيم باشا بن خليل بن إبراهيم بن خليل باشا** ، جدّه الأعلى خليل باشا ، أول قاض بالعسكر المنصور في الدولة العثمانية ، وأما والده خليل باشا فكان وزيراً للسلطان مراد والد الفاتح ، فلما تولّى الفاتحُ عزل خليل باشا ، ونكبه ، ومات محبوساً ، وكان ولده تاج الدين إبراهيم باشا قاضياً بأدرنة ، فعزله أيضاً ، وتحولت به الأحوال ، وصار إلى فقرٍ شديدٍ ، ثم ولاه

السلطان قضاء أماسية ، ولما مات ، وتولّى ابنه بايزيد ، استدعاه إلى القسطنطينية ، وجعله قاضياً للعسكر ، ثم جعله رئيساً للوزراء ، وكانت سيرته في القضاء والوزارة محمودةً ، وكان يأكل من مطبخه كلَّ يوم ستمئة نفس من الفقراء ، وعند وفاته لم يوجد في خزانته إلا ثمانية آلاف درهم !! وله جامع ومدرسة في القسطنطينية .

ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن أوحد الدين البارحصاري ، كان عالماً فاضلاً عالي الهمة ، عظيم الحرمة ، أخذ عن خوجه زاده ، ودرّس في أدرنة وفي القسطنطينية ، واستقضي فيها أيام دولة السلطان بايزيد ، ومات وهو قاضٍ ، ولم يصنِّف كتباً إلا رسالةً في تجويز الفرار من الوباء .

ومنهم المولى يوسف بن حسين الكرماسني ، قرأ على خوجه زاده ، ودرَّس في القسطنطينية ، ثم استقضي فيها ، وكان سيفاً من سيوف الحق ، لا يخاف في الله لومة لائم ، خرج مرة إلى المسجد بعمامة صغيرة ، فطلبه الوزير إبراهيم باشا لمصلحةٍ اقتضت حضوره في الحال ، فلم يبدل عمامته الصغيرة ، فسأله الوزير عن ذلك فأجابه : حضرتُ خدمة الخالق بهذه الهيئة ، ثم لما استدعيتني لم أجد في نفسي رخصة في تغيير الهيئة لأجل الوزير ، فوقع هذا الكلام عند الوزير موقع القبول ، ورواه للسلطان بايزيد ، فسُرَّ السلطان بذلك ، وأنعم عليه .

ومنهم المولى ابن الأشرف ، قرأ على خوجه زاده ، ثم على المولى علي الطوسي ، ونبغ نبوغاً عجيباً ، ولكنه التحق أخيراً بزمرة الصوفية ، ورغب في السياحة إلى أن مات .

ومنهم المولى عبد الله أماسي ، كان مدرساً عظيم الشأن في أماسية ، زاهداً في الدنيا .

ومنهم المولى حاجي بابا الطوسي ، اشتغل بالتدريس ، وأخذ عنه الكثيرون ، وله تصانيف كثيرة في النحو .

ومنهم المولى ولي الدين القرماني ، والد الشاعر المشهور بنظامي ، توفي ولدُه نظامي في حياته .

ومنهم **المولى علاء الدين علي الفناري** ، وليس من أولاد المولى الفناري ، تولى القضاء في بروسة ، ثم صار قاضي عسكر الأناضول ، ومات في أيام السلطان بايزيد ، وكانت له ملكة في الإنشاء بالعربية .

ومنهم **سنان الدين يُوسف المشهور بقره سنان** ، كان ماهراً في العلوم العربية والأدب ، شرح « مراح الأرواح » في الصرف ، وشرح « الشافية » في الصرف أيضاً .

ومنهم المولى **مصلح الدين مصطفى بن زكريا القرماني** ، قرأ في القاهرة ، ثم عاد إلى بلاد الروم ، وله تصانيف .

ومنهم **المولى مصلح الدين مصطفى** ، أخو زوجة المولى عبد الكريم ، كان مدرساً بمرادية بروسة .

ومنهم **المولى شمس الدين أحمد الشهير بقراجه أحمد** ، كان مدرساً بمرادية بروسة ، وله تصانيف .

ومنهم **المولى شمس الدين أحمد الشهير بديكقوز** ، كان مدرساً في بروسة وصنف « شرح المراح » في الصّرف ، وله شرحٌ على « كتاب المقصود » في الصرف .

ومنهم **المولى طشغون خليفة** ، وكان متصوفاً ، توفي في زمان السلطان بايزيد .

ومنهم **المولى مصلح الدين مصطفى الشهير بالبغل الأحمر** ، وكان عالماً ، حافظاً لجميع المسائل ، درّس مدة في بروسة ، ثم في أدرنة ، وكان عظيم الجثةَ جداً ، لا يحمله إلا فرس قوي .

ومنهم **المولى شمس الدين** ، أصله من ولاية آيدين ، ارتحل إلى بلاد العجم ، وقرأ على علمائها ، ثم إلى بلاد العرب ، وقرأ أيضاً على علمائها ، وبرع في علم النغمات ، واتصل بالفاتح ، ثم غضب عليه ، فذهب إلى بروسة ، واختل عقله في آخر عمره من حزنه لأجل مفارقته للسلطان ، وكان ينظم القصائد بالعربية ، والفارسية والتركية ، [يمدح بها الأكابر] ، وكلُّ قصيدة إذا صُحِّفَت

من أولها إلى آخرها يحصلُ منها هجاء ، كما جاء في « الشقائق النعمانية » .

ومنهم **المولى المليحي** ، مهر في العلوم ، وذهب إلى بلاد العجم ، فأخذ عن علمائها ، وكان يحفظ « صحاح الجوهري » كله ، ولكنه ابتلى في آخر الأمر بالخمر ، وسقطت منزلتهُ ، ونقل إلى السلطان الفاتح أن المليحي شَرِبَ الخمر في سوق البزازين ، وصبَّ الخمر على الناس ، فأرسل فأتوا به ، فسأله لماذا شربت الخمر وصببته على الناس ؟ فكان المليحي يقول : عجباً للسلطان ، كيف صدّق قولهم : إن المليحي صبَّ الخمر على الناس ، مع أن المليحي إذا وجد الخمر لا يضيّعُ منها قطرة !! وقد تاب المليحي عن الخمر في زمان السلطان محمد ، فلما توفي رجع إلى شأنه ، عفا الله عنه ، والله يعفو عن كثير .

ومنهم **المولى سراج ، الخطيب** ، وكان من بلاد العجم ، جاء إلى بروسة ، ثم إلى إستانبول ، فجعله السلطان الفاتح خطيباً في الجامع الذي بناه المعروف بالفاتح ، وكان له في رعايةِ النغماتِ شيءٌ عظيمٌ ، لم يلحقه به أحد بعده .

ومنهم **قطب الدين العجمي** ، كان وزيراً لبعض ملوك العجم ، ثم جاء إلى بلاد الروم ، وخدم السلطان الفاتح ، فأكرمه جداً ، وكان يعرفُ علم الطب غاية المعرفة .

ومنهم **الحكيم شكر الله الشرواني** ، وكان طبيباً ماهراً ، وعالماً بالعلوم العربية ، ولما حجَّ أقام بمصر ، وقرأ على علمائها كالشيخ السخاوي ، وغيره . وأجازه بالروم المولى الكوراني ، واتصل بخدمة السلطان محمد ، ومات في أيامه .

ومنهم **خوجه عطا الله العجمي** ، جاء من بلاد العجم إلى بلاد الروم في أيام الفاتح ، ومات في أوائل سلطنة بايزيد ، وكان ماهراً في الفلك والرياضيات ، ومعرفة الأزياج ، واستخراج التقاويم ، قال صاحب « الشقائق النعمانية » : رأيت له رسالةً كبيرةً في العلوم الرياضية لحلِّ الأسطرلاب والربع المجيّب ، والمقنطرات ، ورسالةً لطيفة في معرفة الأوزان .

ومنهم **يعقوب الحكيم** ، كان يهودياً ، وكان من أمهر الأطباء ، فحظى عند السلطان محمد لأجل طبه ، ثم أسلم ، فاستوزره السلطان ، ولما مرض

السلطان الفاتح رحمه الله عالجه يعقوب الحكيم هذا ، فلم ينجح علاجه ، فأشار الوزير محمد باشا باستدعاء الحكيم اللاري ، فعالج السلطان بخلاف ما عالج يعقوب ، فازداد ضعف السلطان ، فاستدعى يعقوب مرةً ثانيةً ، فلما عاينه عرف أن مرضه غيرُ قابلٍ للشفاء ، فصوّب رأي الحكيم اللاري ، ولم يلبث السلطان إلا قليلاً حتى مات ، روّح الله روحه ، وجزاه عن الإسلام خيراً .

ومنهم **الحكيم اللاري العجمي** ، اتصل بخدمة الفاتح .

ومنهم **الحكيم عرب** ، حصّل الطب في بلاد العرب ، ثم جاء إلى بلاد الروم ، واتصل بخدمة عيسى بك بن إسحاق بك أمير أسكوب ، ثم اتصل بخدمة السلطان محمد .

ومنهم **ابن الذهبي** ، كان عالماً عابداً زاهداً ورعاً ، وكان ماهراً في معرفة الأعشاب ، وكان لا يؤتى إليه بشيء منها إلا عرفه باسمه ، ورسمه ، ومنافعه ! وكان طبيباً حاذقاً .

ومنهم **محمد بن حمزة الشهير بآق شمس الدين** ، نجل العارف بالله شهاب الدين السهروردي ، ولد بدمشق الشام ، ثم أتى مع والده إلى بلاد الروم ، وكان مائلاً إلى التصوف ، واتصل بخدمة الشيخ بيرم ، وكان طبيباً للأبدان ، كما هو طبيب للأرواح ، ولما عزم السلطان محمد على فتح القسطنطينية ، دعا هذا الشيخ للجهاد ، فقال الشيخ آق شمس الدين : سيدخل المسلمون القلعة من الموضع الفلاني في اليوم الفلاني ، وقت الضحوة الكبرى ، فكان الأمر كما قال : فاعتقد فيه السلطان محمد مزيد الاعتقاد ، وقال : ما فرحت بهذا الفتح كفرحي بوجود مثل هذا الرجل في زماني . ثم جاءه السلطان يوماً من الأيام ، وهو مضطجع في خيمته ، فلم يقم للسلطان ، فقبّل السلطان يده ، وقال له : جئتك لحاجة ! قال : ما هي ؟ قال : أريد أن أدخل الخلوة عندك أياماً . فقال الشيخ : لا . فألح السلطان مراراً ، والشيخ يقول : لا . فقال له السلطان وهو غضبان : إنّ واحداً من الأتراك يجيء إليك ، وتدخله الخلوة بكلمةٍ واحدةٍ ، فلماذا تمنعني أنا وحدي ؟ فأجابه الشيخ آق شمس الدين : إذا دخلتَ الخلوةَ تجدُ فيها لذةً تُسقِطُ السلطنة من عينيك ، وتختلُّ أمورها ، فيمقتنا الله ، والغرض

من الخلوة إنما هو تحصيل العدالة ، فأنت عليك أن تفعل كذا وكذا ، وذكر ما بدا له من النصائح . ثم قام السلطان من عنده ، والشيخ مضطجع لا يقوم له ، فقال السلطان لابن ولي الدين : ما قام الشيخ لي ؟! ـ وكان مستاءً من ذلك ـ فقال له ابن ولي الدين : إنّ الشيخ خافَ عليك الغرورَ لهذا الفتح الذي لم يتيسّر لغيرك من السلاطين العظام ، والشيخُ كما لا يخفى هو مرشدٌ ، ثم دعا السلطانُ الشيخ في الثلث الأخير من الليل ، وجاء والليلُ مظلمٌ ، فما رآه بالبصر ، ولكن عرفه بالروح ، فعانقه وضمّه ، وجلس إليه حتى طلع الفجر ، فصلى السلطان خلفه ، وبعد الصلاة قرأ الشيخ الأوراد ، والسلطان جالسٌ أمامه على ركبتيه ، فلما أتمها التمس السلطانُ من الشيخ أن يعّينَ له موضعَ قبر أبي أيوب الأنصاري ، وكان يُروى في التواريخ أنّ قبره بموضع قريب من سور القسطنطينية ، فقال آق شمس الدين : إنيِ أشاهِدُ في هذا الموضع نوراً ، فلعلّ قبرَ أبي أيوب هو هنا . قال له السلطان : إني أصدقك ، ولكن أريدُ علامةً يطمئنُّ بها قلبي ، فتوجه الشيخ ساعة ، ثم قال : احفروا هذا الموضع من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين يظهر رخامٌ عليه خط عبراني ، تفسيره كذا ، فحفروا مقدار ذراعين ، فظهر الرخام الذي قال عنه ، وعليه الخط ، ففسروه ، فإذا هو كما قال ، فاندهش السلطان ، وغلب عليه الحال حتى كاد يسقُطُ ، وأمر ببناء القبة على ذلك الموضع ، وببناء جامع ، واتمس من الشيخ أن يجلس هناك مع مريديه ، فأبى الشيخ ، وأستأذن أن يرجع إلى وطنه ، فلم يشأ السلطان أن يخالفه ، فلما عبر البحر قال لولده : لما جاوزتُ البحرَ امتلأ قلبي نوراً ، وقد فسدت إلهاماتي في القسطنطينية مِن ظلمة الكفر فيها ، وعاد إلى وطنه قصبة كومنك ، وبقي فيها حتى مات ، وله رسالة في التصوف اسمها « رسالة النور » وكان ماهراً في علم الطب ، وله رسالة فيه .

أبو أيوب الأنصاري

حاصر العرب القسطنطينية من سنة (٤٨) إلى سنة (٥٢) للهجرة ، ومنهم من يمدّ ذلك إلى سنة (٥٥) ويقولون : إنّ أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه ،

وهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد بن عوف من بلحارث بن الخزرج ، الذي شهد بدراً ، وأُحداً ، والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، خرج غازياً في زمان معاوية ، ومرض في غزو القسطنطينية ، فلما ثَقُلَ قال لأصحابه : إنْ أنا متُّ ، فاحملوني ، فإذا صافقتم العدوَّ ، فادفنوني تحت أقدامكم ، وسأحدِّثُكم بحديثٍ سمعتهُ من رسول الله ﷺ وهو : « مَنْ مات لا يُشرِكُ باللهِ شيئاً دخل الجنة »[1] . قال ابن سعد في « الطبقات الكبرى »[2] : ولما مرض أتاه يزيد بن معاوية يعوده ، فقال : حاجتك ؟ قال : حاجتي إذا أنا مِتُّ ، فاركب بي ، ثم سُغ بي في أرض العدو ما وجدت مساغاً ، فإذا لم تجدْ مساغاً فادفني ، ثم ارجع . فلما مات ركب به ، ثم سار في أرض العدو ما وجد مساغاً ، ثم دفنه ، ثم رجع .

قال محمد بن عمر : توفي أبو أيوب عام غزا يزيدُ بن معاوية القسطنطينية في خلافة أبيه سنة (٥٢) وصلّى عليه يزيد بن معاوية ، وقبرُه بأصلِ حصنِ القسطنطينية ، ولقد بلغني أنّ الرومَ يتعهّدون قبرَه ، ويُرِمُّونَه ، ويستسقون به إذا قحطوا ، انتهى ما جاء في « الطبقات » . وقد نقلته إلى حواشي « حاضر العالم الإسلامي »[3] ثم قلت : إنّ الأتراك عندما فتحوا القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الفاتح عثروا على قبر أبي أيوب الأنصاري وبنوا عليه قبة ، وجعلوا عنده جامعاً .

وجاء في « الأنسيكلوبيدية الإسلامية » : أن ابن قتيبة ، هو أول من ذكر قَبر أبي أيوب[4] . قلت : كانت وفاة ابن قتيبة في ذي القعدة سنة سبعين ومئتين ، وقيل ست وسبعين ومئتين ، على ما في « وفيات الأعيان »[5] ، والحال أن وفاة محمد بن سعد « صاحب الطبقات » كانت يوم الأحد لأربعٍ خلونَ من جمادى

---

(١) لم أجده من حديث أبي أيوب وقد أخرجه مسلم من حديث جابر رقم (٩٢) .
(٢) الطبقات (٣ : ٤٨٤) .
(٣) حاضر العالم الإسلامي (١ : ٢١٤ ـ ٢١٧) .
(٤) « المعارف » (٢٧٤ ـ ٢٧٥) .
(٥) وفيات الأعيان (٣ : ٤٤) .

الآخرة سنة ثلاثين ومئتين ، أي قبل وفاة ابن قتيبة ،كما في « وفيات الأعيان » أيضاً ، .فيكون جزمُ أصحابِ « الأنسيكلوبيدية الإسلامية » بأنّ ابن قتيبة هو أول مَن ذكر قبرَ أبي أيوب الأنصاري بغيرِ محلّه ، وذلك لأنّ ابن سعد سابِقٌ لابن قتيبة ، وأنت ترى أنّه قد ذكره .

وأما قضية كون الروم حفظوا قبره ، وكانوا يستسقون به في القحط ، فقد جاء في « الأنسيكوبيدية » المذكورة نقلها عن الطبري ، وابن الأثير ، وابن الجوزي ، والقزويني ، والحالُ أنّها مذكورةٌ في « طبقات » ابن سعد ، الذي تقدم في الزمن هؤلاء جميعاً ، وقد جاءت هذه القصة مع ترجمة أبي أيوب في كتاب تركي للحاج عبد الله اسمه « الآثار الماجدية في المناقب الخالدية » طبع إستانبول سنة (١٢٥٧) . ثم ذكرت في حواشي « حاضر العالم الإسلامي » روايةَ كون المولى آق شمس الدين كشف ضريح أبي أيوب ، وأنّ السلطان الفاتح بنى سنة (٨٦٣ ـ ١٤٥٨) جامعاً عند الضريح المذكور .

وبعد طبع « حاضر العالم الإسلامي » اطلعتُ على رواياتٍ لا أتذكّر الآن مظنتها بالتحقيق ، تدلُّ على أن قبرَ أبي أيوب كان معروفاً إلى القرن السادس للهجرة ، وقد حدَّثَ أحد التجّار المسلمين بأنه رأى بنيةً بيضاء في ذلك الموضع ، فسأل عنها فقالوا له : هذا قبر أبي أيوب الأنصاري ، فإن كان طُمِسَ القبرُ بعدَ ذلك حتى اختفى أثره ، وانكشف للمولى آق شمس الدين ، فهذا لا يتعارض مع هذا .

***

ومنهم **الشيخ عبد الرحيم المعروف بابن المصري** ، اتصل بخدمة العارف بالله آق شمس الدين ، وله كتاب اسمه « وحدة نامة » . وهو من بلدة قره حصار ، ومات فيها .

ومنهم **الشيخ إبراهيم بن حسين السيواسي** ، قرأ العلوم على المولى يعقوب بقونية ، ثم تولى التدريس بمدرسة خوند خاتون بمدينة قيصرية ، فلما اطلع على أنّ المدرسة للحنفية تركها ، لأنه كان شافعي المذهب ، وكان متصوفاً ، وتوفي بقيصرية .

ومنهم **الشيخ حمزة المشهور بالشامي** .

ومنهم **الشيخ مصلح الدين ابن العطار وكلاهما من جماعة آق شمس الدين** .

ومنهم **العارف بالله أسعد الدين بن الشيخ آق شمس الدين** ، وكان على قدم أبيه في الصلاح والإنقطاع عن الدنيا ، وكان من علماء عصره ، وكذلك أخوه **فضل الله** ، كان من العلماء الأتقياء ، ومنهم أخوه **أمر الله** ، ومنهم أخوه **حمد الله المشهور بحمدي شلبي** ، وكلهم كانوا على قدم والدهم رحمه الله .

ومنهم **مصلح الدين مصطفى الشهير بابن الوفاء** ، وكان جامعاً بين العلوم الباطنة والعلوم الظاهرة ، وكان يعرف الموسيقى معرفةً تامة ، وكان يختار الخلوة على الصحبة ، وقصد السلطان الفاتح أن يشاهِدَه ، فلم يقبل أن يجتمع معه ، وكذلك قصده السلطانُ بايزيد ، فلم يرض هو أن يرى السلطان ، وكان حنفي المذهب ، إلا أنه كان يجهرُ بالبسملة في الصلاة الجهرية ، فأنكر عليه علماء الحنفية ذلك ، فأجاب عنه المولى سنان باشا قائلاً : لعلّه اجتهد فيحق له ذلك ، فقالوا : هل يمكنه الاجتهاد ؟ قال : نعم ، شرائط الاجتهاد موجودة فيه ، فسكتوا .

ومنهم **العارف بالله عبد الله حاجي خليفة** ، أصله من قسطموني ، وكان من العارفين ، وله مناقب كثيرة .

ومثله الشيخ **سنان الدين الفروي** .

ومثله **الشيخ مصلح الدين القوجوي** ، وهو من العارفين أيضاً .

ومثله **الشيخ مصلح الدين الأبصلاوي** ، وكان أيضاً عارفاً منقطعاً عن الناس .

ومنهم **الشيخ محيي الدين القوجوي** وكان جامعاً بين الظاهر والباطن ، معرضاً عن أبناء الزمان ، مشغولًا بتهذيب الفقراء .

ومنهم **العارف بالله سليمان خليفة** ، وكان من المنقطعين إلى الله ، توطّنَ بالقسطنطينية قريباً من جامع زيرك .

ومنهم الشيخ **عبد الله الإلهي** ، من أهل الأناضول ، وذهب إلى ما وراء

النهر ، واتصل بخدمة عبيد الله السمرقندي وغيره ، ثم رجع إلى القسطنطينية ، وسكن في جامع زيرك ، واجتمع عليه الأكابر والأعيان ، ففرّ منهم إلى بلاد الروملي ، فأقام عند الأمير أحمد بك الأورنوسي ، وأقبل عليه الطلبة ، ومات هناك .

ومنهم **العارف بالله عبيد الله السمرقندي** ، ولد في طاشقند من تركستان ، ويقول بعضهم : إن نسبه ينتهي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان يقول : **الوحدة** : خلاص القلب عن العلم بوجود ما سوى الله ، ويقول : **الإتحاد** : الاستغراق في وجود الحق سبحانه وتعالى ، ويقول : **السعادة** : خلاص السالك عن نفسه في مشاهدة الله تعالى . ويقول : **الوصل** : نسيان العبد نفسه في شهود نور الحق ، **والفصل** : قطعُ السِّرِ عما سوى الله تعالى . توفي سنة خمس وتسعين وثمانمئة ، وقبره بسمرقند ، ومن تلاميذه **الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الجامي** ، وله تآليف كثيرة بالعربية والفارسية .

ومنهم **العارف بالله علاء الدين الخلوتي** ، جاء إلى القسطنطينية ، فخاف منه السلطان الفاتح لكثرة إقبال الناس عليه ، فأمره بالذهاب إلى بلاد أخرى ، فتوفي في بلاد القرمان .

ومنهم **العارف بالله دَدَه عمر الآيديني** ، وأقام في تبريز عند الأمير حسن الطويل .

ومنهم **الشيخ حبيب العمري القرماني** ، كان عمرياً من جهة الأب ، وبكرياً من جهة الأم ، وكان من بلاد القرمان ، وكان من كبار المتصوفة .

ومنهم **المولى مسعود** ، وتوطن بمدينة أدرنة ، واشتغل بتربية المريدين .

ومنهم **محمد الجمالي الشهير بشلبي خليفة** ، وكان أيضاً من المتصوفة .

ومنهم **الشيخ سنان الدين** ، وكان من العارفين المنقطعين عن الناس ، يسكن بالقرب من القسطنطينية .

ومنهم **السيد يحيى بن بهاء الدين الشرواني** ، وكان يقول : يجوز إكثار الخلفاء لتعليم الآداب للناس ، وأما المرشد الذي يقوم بمقام الإرشاد بعد شيخه فلا يكون إلا واحداً .

* * *

٨ ـ السلطان بايزيد الثاني

١٤٨١ ـ ١٥١٢

هذا ، وبعد وفاة الفاتح رحمه الله بويع بالسلطنة لولده السلطان بايزيد ، سنة ست وثمانين وثمانمئة (١٤٨١) . وكان محمد باشا القرماني يميل إلى أخيه جمّ ، معجباً بمزاياه العالية ، فأرسل إلى جمّ يعجّل عليه بالحضور ، فعلم الإنكشارية بذلك ، فثاروا بالوزير فقتلوه ، وكان بايزيد في أماسية ، فجاء ومعه جيش ، فاقتتل الأخوان بايزيد وجمّ في صحراء يني شهر ، فتغلّب بايزيدُ على جمّ ، وفرّ هذا إلى مصر . ثم إنّ أنصار جمّ مثل قاسم بك ومحمود صنجق بك الأنقروي دعوا جمّ ثانيةً إلى القتال ، فجمع جموعه ، وتلاقى مع عساكر أخيه، فانهزم هذه المرة أيضاً، واضطر أن يلتجىء إلى فرسان القديس يوحنا في رودس، فاستقبلوه بِرًّا وترحيباً ، فأرسل بايزيد إليهم يعرضُ عليهم خمسة وأربعين ألف دوقية بالسنة ، بشرط أن لا يَدَعوا جمّ يفرّ من عندهم ، فاتفقوا مع بايزيد على ذلك ، وأرسلوا جمّ إلى فرنسة ، واعتقلوه في برج بورغانوف (Bourgane) ثم نقلوه إلى رومة في زمن البابا إينوشنسيوس الثامن ، ولما ارتقى إسكندربورجيه إلى كرسي الباباوية بعث إلى السلطان بايزيد يعرضُ عليه هذه المساومة ؛ وهو أنه إن أرادَ أن يقتلَ له أخاه ، فهو يتقاضى على ذلك ثلاثمئة ألف دوقية ، وإن كان يكتفي بحبسه ، فهو يطلب على ذلك أربعين ألف دوقية في السنة ، وفي أثناء ذلك زحف كارلوس الثامن ملك فرنسة على إيطالية . فتخلّص جمّ من البابا مدةً قصيرةً ، إلّا أن ملوك النصرانية حاولوا أن يستعملوه لإثارة الفتنة في المملكة العثمانية ، فاتفق فرسانُ رودس مع ملوك إيكوسية ، والمجر ، وبولونية ، وفرنسة ، والمرديت من الأرناؤوط وغيرهم على أن يزحفوا بجم ، ويقاتلوا السلطان بايزيد ، فبلغ ذلك السلطان ، فأرسل إلى البابا المبلغ الذي اقترحه من المال لأجل قتل جمّ ، فسمّوه في نابولي في (٢٤) فبراير ـ شباط (١٤٩٥) مسيحية (٩٠٠) هجرية ومات مسموماً ، وتخلّص بايزيد من أخيه .

وبعد موت أخيه حاول بايزيد أن يشنّ الغارة على إيطالية ، إلا أنّ الأحوال لم تساعده ، إذ كانت الحربُ قد اشتعلت بينه وبين الدولة المصرية ، فإنّ المصريين كانوا قد احتلوا بعضَ القلاع بقرب طرسوس وأضنة ، فأمر السلطان بايزيد قره كوز باشا والي القرمان بأن يطردهم من هناك ، ولكنّ المصريين تغلّبوا على جيش بايزيد ، واشتدت الحرب بين الفريقين ، وبينما الحرب قائمة بين السلطان بايزيد وسلطان مصر ، مات ملك المجر ماتياس كورفين ، فاهتبل بايزيد هذه الغرّة ، وأغار على المجر من جهة ، وحاصر بلغراد من جهة أخرى ، وكان قائدُ عسكره في المجر سليمان باشا ، فهزمه المجر ورجع أدراجه ، ورفع التركُ الحصارَ عن بلغراد ، إلا أنّ السلطان دخل في بلاد الألمان مثل كارنتية وأستيرية وعاث وغنم وسبَى ، وكان معه من المسيحيين خمسة عشر ألف أسير ، يجرّهم الجيش العثماني من ورائه ، فزحف الألمان بقيادة الكونت كينتز ، والتقى الجمعان في كارنتية ، فأفلت الأسرى المسيحيون من الوراء ، ووقع العثمانيون في الوسط ، فانكسروا ، وفعل فيهم المسيحيون الأفاعيل ، وعذبوا الأسرى بألوان العذاب ، ولكنّ الأتراك في السنة التالية بقيادة يعقوب باشا عادوا فشنوا الغارة على أستيرية ، وهزموا الألمان .

وسنة (٩٠١ ـ ١٤٩٥) عقد الأتراك هدنةً مع المجر ، ووجهوا قوتهم لقتال البندقية ، وقهر الأسطول العثماني أسطول البندقية ، واستولى على ليبانت ، وغزا إسكندر باشا والي البوسنة بلاد طارنت ، وخرّبها تخريباً تاماً ، وكان أمير البحر داود باشا استولى على مورون ، ونافارين ، وكورين ، فوجدت البندقية نفسَها عاجزةً وحدَها عن مقاومة العثمانيين ، فاتفقت مع دول النصرانية فرنسة ، وإسبانية ، والمجر ، والبابا ، على مقاتلةِ السلطان بايزيد ، وبثوا أساطيلهم من كل جهة ، وفي أثناء ذلك ثارت قبائلُ القرمان على السلطان ، فألجأته الضرورةُ إلى عقدِ الصلح .

وفي ذلك العهد ظهر اسم الروس ، وكانوا مِن قبلُ تحت حكم المغول ـ أي التتر ـ ولبثوا تحت حكمهم إلى سنة (٨٨٦ ـ ١٤٨١) حينما ظهر منهم الغراندوق إيڤان الثالث ، فهزم التتر ، ووحّد كلمة الروس .

وفي سنة (٨٩٨ ـ ١٤٩٢) طلب إيفان الثالث محالفةَ السلطان بايزيد، وجاء سفراؤه بعد ذلك إلى إستانبول، وانعقد الاتفاق بين بايزيد وإيفان، واضطر السلطانُ إلى السلم، لأنّه كان حصل زلزالٌ خارقٌ للعادة، انهدَّ فيه سبعون ألف بيت، ومئة وتسعة جوامع في القسطنطينية، وتخرّبت مُدُن كثيرة، مثل أدرنة وكاليبولي، وديموطقة، وشورلو.

وكان بايزيد قد قسم ولايات السلطنة بين أولاده، فأعطى كلاًّ منهم ولايةً، وأخطأ في هذا التدبير، لأنهم بدأوا يقتتلون بعضهم مع بعض في حياة أبيهم، بل ثار عليه ابنه سليم، واستولى على بعض المدن، فقام أخوه قورقود، واستولى على مدن أخرى، وكان الإنكشارية يميلون إلى سليم، فطلبوا من السلطان أن يعتزِلَ المُلكَ، وأن يولّي السلطان سليماً، فلم يجد بُداً من إجابتهم، ومات بعد ذلك بقليل. ويقال: إنه كان حليماً محباً للعلم والعلماء، وللشعر والأدباء، وإنه لم يكن يحبُّ الحربَ بفطرته، وإنما كان يُساقُ إليها بالضرورة، وقام بإصلاحات كثيرة، **وفي زمانه وُجدَت العلاقات الرسمية بين الدولة العثمانية والدول المسيحية**.

* * *

وفي زمانه نبغ من العلماء.

المولى محيي الدين محمد بن إبراهيم النكساري، كان مدرساً في قسطموني، ثم جاء إلى القسطنطينية، وكان السلطان يحضُر درسَه في جامع آيا صوفيا، وكان بارعاً في علم التفسير، وصنّفَ تفسيراً لسورة الدخان، وأهداه للسلطان بايزيد.

ومنهم **يوسف بن جنيد التوقاتي**، أخذ عن المولى خسرو، وتولّى التدريسَ في بروسة، ثم في القسطنطينية.

ومنهم **المولى قاسم يعقوب الأماسي المشهور بالخطيب** كان مدرساً ببلدة أماسية، واتصل بالسلطان بايزيد يوم كان أميراً على تلك البلدة، فلما تولّى السلطنة جعله معلماً لابنه الأمير أحمد.

ومنهم **سنان الدين يوسف** ، اتصل بخدمة المولى علي القوشجي ، وقضى حياته في التدريس والإفادة .

ومنهم **سنان الشاعر** ، أخذ العلم عن المولى خسرو .

ومنهم **المولى شجاع الدين إلياس** ، وكان من المدرسين المعروفين .

ومنهم **شجاع الدين إلياس الشهير بالموصلي شجاع** .

ومنهم **المولى علاء الدين اليكاني** ، كان مفتياً بمدينة بروسة .

ومنهم **لطف الله التوقاتي الشهير بمولانا لطفي** ، أخذ عن المولى علي القوشجي ، وكان بارعاً في العلوم الرياضية ، وصار أميناً على خزانة الكتب عند السلطان الفاتح ، وكان عالماً علاَّمة ، إلا أنه كان يُطيلُ لسانهَ على أقرانه ، وأحياناً يطعَنُ في السلف ، فأبغضه العلماء ، ونسبوه إلى الزندقة ، وحكم المولى خطيب زاده بإباحه دمه فقتل !! وجاء في تاريخه (ولقد متّ شهيداً) وقيل : إنه لما قتل خرجت روحه وهو يكرِّرُ كلمتي الشهادة .

وجاء في « الشقائق النعمانية » : أنه كان يقرىء « صحيح البخاري » فتنزِلُ دموعُه على الكتاب ، وحكى يوماً وهو يبكي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ضُرِب في بعض الغزوات بسهمٍ ، فثبت نصلُ السهم في بدنِهِ ، فلم يقدروا على إخراجه ، فلما قام للصّلاةِ أخرجوه من بدنه ، ولم يحسّ بذلك . قال المولى لطفي : هذه هي حقيقة الصلاة ، وأما صلاتنا نحن فهي قيامٌ وانحناءٌ لا فائدةَ فيها ، فجاء الوشاة ونقلوا عنه أنه قال : الصلاة قيامٌ وانحناءٌ لا عبرة بها ، وشهدوا عليه بذلك . وأما المولى أفضل الدين فتوقف عن إباحة دمهِ ، وكذلك المولى محيي الدين القوجوي قال : أشهدُ بأنّ المولى لطفي بريءٌ من الإلحاد والزندقة .

ومنهم **المولى قاسم الكرمياني** ، وكان علاّمةً في عصره ، وكثر عنده الطلبة ، وكان مجلسه كثير الفوائد .

ومنهم **المولى قوام الدين قاسم بن أحمد الجمالي** ، تولىّ قضاء القسطنطينية ، وكان عالماً كثير الحفظ ، إلا أنه لم يصنف شيئاً .

ومنهم **المولى علاء الدين علي بن أحمد الجمالي** ، قضى حياته مدرساً

يتنقل من مدرسةٍ إلى مدرسة ، ثم صار مفتياً في العاصمة ، وكان متواضعاً خاشعاً ، طاهرَ اللسان ، لا يذكرُ أحداً بسوءٍ ، وكانت أنوار العبادةِ تتلألأ على صفحات وجهه ، وكان يقعدُ في أعلى داره ، وله زنبيلٌ معلقٌ ، فيلقي المستفتي ورقته في الزنبيل ، ويحركه ، فيجذبه المولى علاء الدين ، ويأخذ الورقة ويكتب جوابها ، وذلك حتى لا ينتظر الناسُ لأجل الفتوى .

وكان السلطان سليم بن بايزيد قد تولى السلطنة ، وكان سفاكاً للدماء ، فأمر بقتل مئة وخمسين رجلاً من حُفاظ الخزائن ، فجاء المولى علاء الدين إلى الديوان العالي ، وقال للوزراء : أريد أن أقابل السلطان ، فعرضوا الأمر على السلطان ، فدخل عليه وقال له : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظُوا على آخرة السلطان ، وقد بلغني أنكَ أمرتَ بقتل مئة وخمسين رجلاً ، لا يجوز قتلهم شرعاً ، فيجب أن تعفو عنهم ، فغضب السلطان سليم ، وقال له : إنكَ تتعرَّضُ لأمرِ السلطنة ، وليس ذلك من وظيفتك ، فأجابه المفتي : بل أتعرَّضُ لأمرِ آخرتك ، وإنه مِن وظيفتي ، فإن عفوتَ فلك النجاة ، وإلا فعليك عتابٌ عظيم . فانكسرت عند هذا القولِ حِدَّةُ السلطان ، وعفا عنهم ، وتحدثَ مع المفتي ساعةً ، ولما أراد المفتي أن ينصَرِفَ ، قال للسلطان : تكلمت معكَ في أمر آخرتك ، وبقي لي كلامٌ متعلقٌ بالمروءة ، قال السلطان : ما هو ؟ قال المفتي : إنّ هؤلاء من عبيد السلطان ، فهل يليقُ بعرضِ السلطنة أن يتكففوا الناس ؟ قال السلطان : لا . قال : فقرّرهم في مناصبهم ، فقال له السلطان : نعم إلا أني أعزِّرهم لتقصيرهم في خدمتهم ، فقال المفتي : هذا جائزٌ ، لأنّ التعزيرَ مفوضٌ إلى رأي السلطان .

ومرةً أخرى أمر السلطان بقتل أربعمئة رجل كانوا قد اشتروا الحرير خلافاً لأمر السلطان ، فعارضه المفتي في ذلك . فغضب السلطان أيضاً ، وقال له : أيها المولى أما يحلُّ قتلُ ثلثي العالم لنظام الباقي ؟ فقال : نعم ، لكن إذا كان هناك خللٌ عظيم . فقال السلطان : ليست هذه من وظيفتك . فقال له : بلى هي من وظيفتي ، لأنها متعلقة بالآخرة . وانصرف المفتي ، ولم يسلّم على السلطان ، فبقي السلطانُ واجماً مدةً طويلة ، ولكنه عاد فعفا إجابةً لطلب المفتي ، ثم فكر في استقامة هذا المفتي ، وولاّه قضاء العسكر ، وقال له : إني تحققتُ أنكَ تتكلم

بالحق ، وتوفي سنة اثنين وثلاثين وتسعمئة .

ومنهم **المولى عبد الرحمن بن علي بن المؤيد الأماسي** . كان متبحّراً إلى الغاية في العلوم العقلية والنقلية ، شيخاً في العلوم العربية ، ناظماً بالتركية والعربية والفارسية ، وقرأ في حلب كتابَ « المفصل في النحو » للزمخشري ، وقرأ على المولى جلال الدين الدواني في بلاد العجم ، وجاء إلى إستانبول في أيام بايزيد خان ، ودرّس في إحدى المدارس العثمانية الثمان ، ثم استقضاه السلطانُ بالعسكر المنصور . ولما تولّى السلطنة السلطان سليم بن بايزيد ، وسار إلى حرب الشاه إسماعيل ، كان المولى المذكور معه ، وفي أثناء الطريق اختلّ عقلُه ، فجاءوا به إلى إستانبول حيث مات ، ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري .

ومنهم **المولى مصلح الدين مصطفى بن البركي زاده** ، نصّبه السلطان بايزيد معلماً لابنه أحمد في أماسية ، ثم استقضاه في أدرنة ، ومات في القسطنطينية .

ومنهم **المولى محيي الدين محمد الصامصوني** ، قضى حياته مدرساً ، واستقضاه السلطان سليم في أدرنة .

ومنهم **المولى سيدي الحميدي** ، قضى حياته مدرساً بين بروسة ، وأزنيق ، والقسطنطينية ، ثم صار قاضياً في العاصمة .

ومنهم **المولى سيدي القرماني** ، وكان مدرساً ، ثم صار قاضياً بالعسكر المنصور .

ومنهم **المولى نور الدين القراصوي** ، كان مدرساً في بروسة ، ثم صار مدرساً في أسكوب ، ثم صار مدرساً في إحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية ، وصار قاضياً بالعسكر المنصور ، وكان قوّالًا بالحق ، محافظاً على الشريعة ، ورعاً متعبداً .

ومنهم **المولى محيي الدين محمد القوجوي** ، وقضى حياته مدرساً إلى أن استقضاه السلطان سليم في القسطنطينية ، ثم استقضاه بالعسكر المنصور ، ثم استعفى ، ثم جعلوه قاضياً بمصر ، وذهب من هناك إلى الحج ، ومات سنة

إحدى وثلاثين وتسعمئة .

ومنهم **المولى بالي الآيديني** ، وكان من كبار المدرّسين .

ومنهم **المولى عبد الرحيم بن علاء الدين العربي** ، وكان من عظام المدرسين أيضاً .

ومنهم **المولى موسى بن حميد الدين بن أفضل الدين الحسيني** ، وكان عالماً عابداً .

ومنهم **المولى محيي الدين العجمي** ، وكان قاضياً بأدرنة متصلباً في الحق .

ومنهم **المولى سنان الدين يوسف العجمي** ، وكان من كبار المدرسين ، ومن الصلحاء ، ومن المؤلفين ، وله حواشٍ على « شرح المواقف » للسيد الشريف ، **وقلَّما يوجد عالمٌ كبير من علماء الترك ليس له حواشٍ على كتب السيد الشريف الجرجاني ، أو على كتب التفتازاني** .

ومنهم **المولى السيد إبراهيم** ، **من سادات العجم** ، جاء إلى بلاد الروم ، وكان معدوداً من أولياء الله ، وكانت تروى عنه الكرامات ، وتوفي سنة خمس وثلاثين وتسعمئة في القسطنطينية .

ومنهم **المولى علاء الدين علي الأماسي** ، وكان مدرساً ، أرسله السلطان بايزيد إلى قايتباي سلطان مصر ، فأصلح بينهما .

ومنهم **المولى بدر الدين محمود بن الشيخ محمد** ، كان إماماً للسلطان بايزيد .

ومنهم **المولى الخليلي** ، كان مدرساً ، ثم استُقضي بالعسكر المنصور .

ومنهم **پير**[1] **محمد الجمالي** ، كان قاضياً في صوفية [في] بلاد البلغار ، ثم صار حافظاً للدفتر بالديوان العالي ، ثم استوزره السلطان سليم خان ، ولقبه پير باشا ، ثم عُزِلَ عن الوزارة ، وكان محمود السيرة ، كثيرَ المبرّات ، توفي في حدود الأربعين وتسعمئة ، وكان السلطان سليم يقول : إن كان إسكندر يفتخِرُ

---

(١) أي المرشد .

بوزيره أرسطوطاليس ، فأنا أفتخر بوزيري پير باشا في عقله ورأيه .

ومنهم **المولى محمد المشهور بابن زيرك** ، بعد أن قضى مدةً من عمره مدرساً بين بروسة ، وأزنيق ، وكوتاهية ، تولّى القضاء في أدرنة ، ثم بالقسطنطينية ، ثم بالعسكر المنصور ، وأرسله السلطان سليم إلى السلطان الغوري صاحب مصر ، ومات سنة تسع وثلاثين وتسعمئة .

ومنهم **قوام الدين يوسف المعروف بقاضي بغداد** ، كان قاضياً في بغداد ، فلما حدثت فتنةُ ابن أردبيل ارتحل إلى ماردين ، ثم جاء إلى القسطنطينية ، وكان عالماً علامةً ، له شرحٌ على « نهج البلاغة » للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

ومنهم **المولى إدريس بن حسام الدين البدليسي** ، كان من بلاد العجم ، ارتحل إلى بلاد الروم ، وأكرمه السلطان بايزيد غايةَ الإكرام ، وأنشأ « تاريخ آل عثمان » بالفارسية ، ويقال : إنه تاريخٌ منقطع النظير ، انتقل إلى رحمة ربه في زمان السلطان سليمان القانوني .

ومنهم **المولى يعقوب بن سيدي علي** ، كان من كبار المدرّسين ، له شرح على كتاب « شرعة الإسلام » ، وكان السلطان بايزيد يلَقبُهُ بشارح الشرعة ، لميله إلى الشرح المذكور .

ومنهم **المولى نور الدين حمزة [المشهور بليس شلبي]** ، كان حافظاً لدفتر بيت المال بالديوان العالي في زمان السلطان بايزيد .

ومنهم **شجاع الدين إلياس الرومي** ، كان من قصبة ديموطقة في الروملي ، وكان من كبار المدرسين معروفاً بالعلم والصلاح والزهد ، وله حواشٍ على حاشية « شرح التجريد » للسيد الجرجاني ، وحواشي على « حاشية المطالب » للسيد أيضاً ، وحواشٍ عل حاشية « شرح الشمسية » للسيد أيضاً ، وحواشٍ على حاشية « شرح العضد » كذلك للسيد ، وكان أكثر اشتغاله بالعلوم العقلية .

ومنهم **تاج الدين إبراهيم الشهير بابن الأستاذ** وكان من المدرسين في زمان السلطان بايزيد .

ومنهم **ابن المعيد** ، كان مدرساً في أسكوب ، ومات فيها .

ومنهم **ابن العبري** وكان من المدرسين .

ومنهم **شمس الدين أحمد اليكاني** ، وكان من المدرسين أيضاً .

ومنهم **عبد الرحمن بن محمد بن عمر الحلبي** ، كان من أصحاب السلطان محمد الفاتح ، ونال عندَه القبول التام ، ثم صدر منه ماغاظ السلطان ، فأبعده عن جنابه ، وقال : لولا أنه ابن أستاذي لدمَّرته ، ومات قاضياً في كوتاهية .

ومنهم **المولى عبد الوهاب بن عبد الكريم** ، كان حافظاً لدفتر الديوان في أيام سليم خان ، وتوفي في زمان السلطان سليمان .

ومنهم **المولى يوسف الحميدي** المشهور بشيخ سنان ، كان من العلماء المدرسين ، وله حواشٍ على « شرح المفتاح » للسيد الشريف .

ومنهم **المولى جعفر بن تاجي** [**بك**] ، وكان من أصحاب السلطان بايزيد ، وبلغ عنده حظوة تامة ، ثم غضب عليه ، وبقي إلى زمان السلطان سليم ، فجعله قاضياً للعسكر ، ثم نكبه وقتله .

ومنهم **المولى سعدي** بن تاجي [بك] ، ودرّس مدة طويلة ، وكان متقناً للعربية ، يقرِضُ الشعر كأنه من فُصحاء العرب ، وله حواشٍ على « شرح المفتاح » للسيد الشريف ، وقد نظم « العقائد النسفية » بالعربية نظماً بليغاً .

ومنهم **المولى محمود بن محمد بن قاضي زاده الرومي** ، درّس في كاليبولي ، وفي أدرنة ، ثم جعله السلطان بايزيد من أصحابه ، وقرأ عليه العلوم الرياضية ، إذ كان لا يدانيه فيها أحد ، وفي زمان السلطان سليم بن بايزيد تولّى قضاء عسكر الأناضول .

ومنهم **المولى غياث الدين بن أخي العارف بالله آق شمس الدين** ، قرأ على الخيالي وعلى خوجه زاده ، ودرّس بالمدرسة السيفية في أنقرة ، ثم بالمدرسة الحسينية في أماسية ، ثم بالمدرسة الحلبية بأدرنة ، ثم بسلطانية بروسة ، ثم بإحدى المدارس الثمان في القسطنطينية ، ثم في مدرسة أبي أيوب الأنصاري ، ومات سنة ثمان وعشرين وتسعمئة .

ومنهم **الشيخ مظفر الدين علي الشيرازي** ، قرأ في بلاد العجم على صدر الدين الشيرازي ، والجلال الدواني ، وارتحل إلى بلاد الروم ، فأعطاه السلطان بايزيد مدرسةَ مصطفى باشا بالقسطنطينية ، ثم أعطاه إحدى المدارس الثمان ، ثم كُفَّ بصره ، فتوطن مدينة بروسة ، وكان شافعيَّ المذهب ، وكانت له اليد الطولى في العلوم العقلية ، والمنطق ، وعلم الكلام ، وكذلك في الحساب ، والهيئة ، والهندسة ، وكان مع هذا صالحاً مؤثِراً الفقر ، باذلاً ماله للفقراء .

ومنهم **الحكيم شاه محمد القزويني** ، كان من تلاميذ الجلال الدواني ، ومهر في علم الطب ، وجاورَ مدةً في مكة المكرمة ، واستدعاه السلطان بايزيد إلى إستانبول ، ونالَ حظوةً تامّةً عند ولده السلطان سليم ، ومات في أيام السطان سليمان القانوني ، لأنّ صاحبَ « الشقائق النعمانية » يقول : « وماتَ في أيام سلطاننا الأعظم سلّمه الله تعالى وأبقاه » يريد به السلطان سليمان . وله حواشٍ على « شرح العقائد العضدية » للدواني ، وترجمةُ « حياة الحيوان »[1] إلى الفارسية ، وغير ذلك من التآليف .

ومنهم **المولى السيد محمود** ، كان نقيباً للأشراف في زمان السلطان بايزيد ، وكان كريمَ الأخلاق ، طارحاً للتكلُّفِ ، مشتغلاً بنفسه ، جواداً بماله .

ومنهم **المولى محيي الدين المشتهر بطبل البازي** ، وكان مدرساً مشهوراً .

ومنهم **المولى إبراهيم المشتهر بابن الخطيب** ، مات وهو مُدَرِّسٌ في بروسة .

ومنهم **المولى يحيى بن بخشي** ، كان عالماً واعظاً ، وكان يُقرىء الطلبة « تفسير القاضي البيضاوي » بلا مطالعة ، وله حواش على « شرح الوقاية » لصدر الشريعة .

ومنهم **كمال الدين إسماعيل القرماني** ، وكان من المدرسين الكبار ، وله تصانيف منها حواشٍ على « الكشاف » ، وحواشٍ على « تفسير البيضاوي »

---

(١) للدميري .

وحواشٍ على « شرح الوقاية » لصدر الشريعة ، وحواشٍ على « شرح المواقف » للسيد الجرجاني .

ومنهم **المولى عبد الأول بن حسين الشهير بابن أم الولد** ، قرأ على المولى خسرو الشهير ، وتزوّج بنته ، وكان قاضياً في البلدان الكبيرة ، ثم اعتُقِلَ لسانهُ ، فلزم بيتَه في القسطنطينية ، ومات عن مئة سنة .

ومنهم **المولى شمس الدين أحمد الأماسي** ، كان مدرساً ، وتوفي في أوائل سلطنة سليم خان .

ومنهم علاء الدين علي آيديني الملقب باليتيم ، كان مدرساً زاهداً ، أرادوه على القضاء فلم يرضَ، وكان يقرأ عشرين درساً في اليوم، ولا يأخذ أجرةً من أحدٍ، وربما قَبِلَ الهدية ، وكان راضياً من العيش بالقليل ، ومات عن تسعين سنة .

ومنهم المولى الشيخي ، كان مدرساً بمدرسة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، وأخذ عنه الكثيرون .

ومنهم **المولى المعروف بضميري** ، أعطاه السلطان بايزيد إحدى المدارس الثمان ، فقال له المولى ابن المؤيد : إنّه غير قادر على التدريس فيها ، فقال السلطان بايزيد : فليدرِّس الشرح المتوسط للكافية ، لعلّه يقدر على ذلك .

ومنهم **عمر القسطموني** ، كان علامةً بالقراءات .

ومنهم **علاء الدين علي القسطموني** ، أخذ عن المولى عمر القراءات ، وأقرأها الطلّاب .

ومنهم **ابن عمر [القسطموني] زاده** ، وكان أيضاً يعرف القراءات السبع ، وأقرأها للناس .

ومنهم **حسام المشهور بابن الدلاك** ، كان خطيباً بجامع الفاتح في القسطنطينية ، وكان عالماً صالحاً .

ومهم **محيي الدين الطبيب** ، جعله السلطان رئيس الأطباء ، وأكرمه غاية الإكرام ، وكان عالماً عابداً يحبُّ المساكين ، وبعد موته جعل السلطان بايزيد مكانه **الحكيم حاجي** ، **وكان السلطان يحبُّ علاج الحكيم المذكور** .

ومنهم **محيي الدين محمد الأسكليبي** ، وكان من رجال التصوف ، وكان السلطان بايزيد أميراً على أماسية ، فذهب هذا الشيخ إلى الحج ، ولمّا ودع السلطانَ بايزيد ، قال له : سأراك بعد إيابي من الحجاز جالساً على سرير السلطنة ، فلما رجع من الحج كان الأمر كما قال . فأحبه السلطان حباً جماً ، وبنى له زاوية في القسطنطينية ، وكانت تزدحم على بابه الوزراء وقضاة العسكر ، وكان يدعوه السلطان إلى مصاحبته ، فحصل له جاه عظيم ، لكنّه لم يتغير طوره ، وبقي ملازماً الزهد والتقوى .

ومنهم **الشيخ مصطفى السيروزي** ، كان من خلفاء الشيخ الأسكليبي ، وكان عالماً عابداً .

ومنهم **العارف بالله السيد ولاية** ، من قصبة كرماستي في الأناضول ، وكان شريفاً صحيح النسب ، حج ثلاث مرات ، وكان في غاية الورع ، ويقال : إن السلطان سليم عندما طلب السلطنة في أيام والده بايزيد ، وسلّمه والده السلطنة ، التجأ إلى المشايخ الصوفية ، ومنهم السيد ولاية المذكور ، فقال له السيد : ستصير سلطاناً ، ولكنْ ليسَ في عمركَ امتدادٌ . وهكذا كان ، لأنّ السلطان سليم لم يبق في السلطنة أكثر من ثماني سنوات .

ومنهم **الشيخ محيي الدين محمد الشهير ببولولي شلبي** ، كان مدرساً ، ثم تصوّف ، وصار مرشداً .

ومنهم **شجاع الدين الشهير بنيازي** ، وهو أيضاً كان قاضياً ، ثم تصوف وترك الدنيا .

ومنهم **صفي الدين مصطفى** ، وكان من الزهاد المرشدين .

ومنهم **الشيخ رستم خليفة البروسوي** ، كان ينتسِبُ إلى الشيخ حاجي خليفة ، وكان عابداً متوكلاً .

ومنهم **العارف بالله ابن علي دَدَه خليفة العارف بالله ابن الوفاء** ، وكان شيخاً عابداً زاهداً .

ومنهم علاء الدين الأسود، أخذ عن حاجي خليفة، وكان متوجهاً إلى الله بكلّيته.

ومنهم السيد **علي بن ميمون المغربي الأندلسي** ، جاء في « الشقائق النعمانية » أنه أخذ عن ابن عَرَفة ، وعن الشيخ الدّباسي ، وجاء إلى الشرق لأجل الحج ، ودخل مصر ثم الشام ، **ثم** جاء إلى بروسة ، **ثم** رجع إلى البلاد الشامية ، وتوفي بها سنة سبع عشرة وتسعمئة ، **وكان على جانبٍ عظيمٍ من التقوى ، قوالًا بالحق ، وكان لا يخالف السنّة ، فلا يقومُ للزائرين ، وكان يقول** : **لو أتاني بايزيد ابن عثمان لا أعامله إلا بالسنة . وكان لا يقبل الوظائف ، ولا هدايا الملوك .**

وجاء في « شذرات الذهب »[1] لعبد الحي بن العماد الحنبلي ترجمة العارف بالله سيدي علي بن ميمون فقال : إنه ابن ميمون بن أبي بكر بن علي بن ميمون بن أبي بكر بن يوسف بن إسماعيل بن أبي بكر بن عطاء الله بن حسّون بن سليمان بن يحيى بن نصر الهاشمي القرشي المغربي الغماري ، أصله من جبل غمارة ، وسكن مدينة فاس ، واشتغل بالعلم ، ثم درّس ، ثم ولي القضاء . ثم ترك ذلك ، ولازم الغزو على السواحل ، وكان رأس العسكر ، ثم ترك ذلك أيضاً ، وصحب مشايخ الصوفية : منهم الشيخ عرفة القيرواني ، فأرسله إلى أبي العباس أحمد التَّوزي الدباسي ، ومن عنده توجه إلى المشرق . قال الشيخ موسى الكناوي : فدخل بيروت في أول القرن العاشر ، وكان اجتماع سيدي محمد بن عرّاق به أولًا هناك .

ولما دخل بيروت ، استمر ثلاثة أيام لم يأكل شيئاً ، فاتفق أنّ ابن عرّاق قال لجماعته وقد أتوا بالطعام : ادعوا لي ذلك الفقي ، فقام السيد علي وأكل ، ثم قال ابن عرّاق : قوموا بنا نزور الإمام الأوزاعيَّ ، فصحبهم ابن ميمون لزيارته ، وفي أثناء الطريق لعب ابن عرّاق على جواده كعادة الفرسان ، فعاب عليه ابنُ ميمون ، فقال له ابن عراق : أتحسِنُ اللعب على الخيل أكثر مني ؟ قال : نعم ، فنزل ابن عرّاق عن فرسه ، فحلّ ابن ميمون الحزام وشدَّهُ[2] كما يعرف ،

---

(١) « الشذرات » (٨ : ٨١) .

(٢) في الأصل (وشكّه) والتصويب من الشذرات .

وركب ، ولعب على الجواد ، فعرفوا مقداره في ذلك ، ثم انفتح الأمر بينهما إلى أن شهر الله تعالى سيدي علي بن ميمون . وقال في « الشقائق » : إنه دخل القاهرة وحجّ منها ، ثم دخل البلاد الشامية وربىَّ كثيراً من الناس ، إلى آخر ما نَقَلَ عن صاحب « الشقائق » .

وقال ابن العماد الحنبلي : إنه كان من طريقته ما حكاه محمد بن عرَّاق في كتابه « السفينة » وهو أنه لا يرى لبس الخرقة ، ولا إلباسها ، وذكر الشيخ علوان أنه كان لا يرى الخلوة ، ولا يقول بها . ومن وصاياه : اجعل تسعةَ أعشارك صمتاً ، وعُشرَكَ كلاماً . وكان يقول : الشيطان له وحيٌ وفيضٌ ، فلا تغترّوا بما يجري في نفوسكم وعلى ألسنتكم من الكلام في التوحيد والحقائق حتى تشهدوه من قلوبكم .

وكان ينهى أصحابه عن الدخول بين العوام والحكام . ويقول : ما رأيت لهم مثلاً إلا الفأر والحيات ، فإنَّ كلاًّ منهما مفسدٌ في الأرض ، وكان شديدَ الإنكار على علماء عصره ، ومن كلامه : لا ينفعُ الدّارَ إلا ما فيها . ومنه : لا تشتغل بأن تعُدَّ أموال التجار وأنت مفلسٌ . ومنه : أسلك ما سلكوا تدرك ما أدركوا . ومنه : عجبت لمن وقع عليه نظر المفلح كيف لا يفلح . ومنه : كنزك تحت جدارك ، وأنت تطلبه عند جارك . وله من المؤلفات « شرح الآجرومية على طريقة الصوفية » ، وكتاب« غربة الإسلام في مصر والشام وما والاهما من بلاد الروم والأعجام » ، ورسالة لطيفة سماها « تنزيه الصديق عن وصف الزنديق » ترجم فيها للشيخ محيي الدين بن العربي ترجمةً في غاية الحسن والنظم .

وذكر ابن طولون أنه دخل دمشق في أواخر سنة اثنتي عشرة وتسعمئة ، ونزل بحارة السكة بالصالحية ، وهرع الناس إليه للتبرك به . وقال محمد بن عرَّاق في « سفينته » : إنّه لم يشتهر في بلاد العرب بالعلم والمشيخة والإرشاد إلا بعد رجوعه من الروم إلى حماة ، سنة إحدى عشرة ، ثم قدّم إلى دمشق سنة ثلاث عشرة وتسعمئة ، وأقام في قدمته هذه ثلاث سنوات وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً يربي ويرشد ، ويدعو إلى الله على بصيرة ، واجتمع عليه الجمّ

الغفير ، ثم دخل عليه قَبضٌ وهو بصالحية دمشق ، واستمر ملازماً له حتى ترك مجلس التأديب ، وأخذ يستفسر عن الأماكن التي في بطون الأودية ورؤوس الجبال ، فذكر له محمد بن عرَّاق مجدل معوش ، فهاجر إليها في ثاني عشر محرم هذه السنة . قال سيدي محمد بن عرَّاق : ولم يصحب غيري والولد علي - وكان سنُّه عشر سنين - وشخصاً آخر عملاً بالسنة[1] . وأقمت معه خمسة أشهرٍ وتسعة عشر يوماً ، وتوفي ليلة الإثنين حادي عشر جمادى الآخرة ، ودفن بها في أرضٍ مواتٍ بشاهقِ جبلٍ حسبما أوصى به ، قال : ودُفن خَارجَ حضرته المشرَّفة رجلان وصبيان ، وامرأتان ، وأيضاً امرأتان وبنتان ، الرجلان محمد المكانسي ، وعمر الأندلسي ، والصبيان ولدي عبد الله - وكان عمره ثلاث سنين - وموسى بن عبد الله التركماني . والمرأتان أم إبراهيم وبنتها عائشة زوجة الذعري ، والأخريان ؛ مريم القدسية ، وفاطمة الحموية . وسألته عند وفاته : أينَ أجعلُ دار هجرتي ؟ فقال : مكانٌ يسلمُ فيه دينك ودنياك ، ثم تلا قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النساء : ٩٧] .

قلت : قرية مجدل معوش ، هي في قضاء الشوف من بلادنا في جبل لبنان ، وكان أهلُها مسلمين من أهل السنة ، ووقعت بينهم عداوةٌ شديدةٌ ، فخرجوا منها ، واشتراها النصارى ، وذلك منذ مئتي سنة .

ولمّا دخلها السيد علي بن ميمون المغربي كانت لا تزال قريةً إسلاميةً ، وبقي قبرُ السيِّدِ من ذلك الوقت معروفاً لا يجهله أهلُ القرية ، وجاءنا مرةً الخبرُ بأنّ بعضَ النصارى أرادوا استعمال ذلك القبر للدفن ، وكان في ذلك الوقت عمنا الأمير مصطفى أرسلان قائم مقام قضاء الشوف ، فأخبرته بالخبر ، فأمر مدير ناحية العرقوب الشمالي التي منه تلك القرية بأن يتحقق هذا الأمر ، ويمنع تعرض أحدٍ للقبر ، ثم جمعنا إعانةً ماليةً ، وأدى كلٌّ منا ما قَدِرَ عليه ، فبلغ المجموع مئة جنيه ذهب ، وجددنا القبر المذكور ، لأنه كان قد خربَ تقريباً ، فخشينا بسبب خرابه أن يستعمله النصارى لدفن موتاهم .

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « الراكبُ شيطانٌ ، والراكبان شيطانانِ ، والثلاثةُ ركبٌ » حديث صحيح أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والحاكم عن عبد الله بن عمرو .

وبلغ المرحوم الأمير علي بن الأمير عبد القادر الجزائري شروعنا ببناء هذا القبر ، فأراد أن يكون له حصة في المثوبة ، فأرسل أيضاً شيئاً من المال ، وهكذا جدّدنا قبرَ الولي المشار إليه قدّس الله سرَه بعد نحو أربعمئة سنة من وفاته ، وكان هذا العاجز السبب في ذلك ، وأخمِّنُ أنّ هذه القضية مضى عليها سبع وثلاثون سنة ، وقد أطلت في ترجمة السيد علي بن ميمون لكونه من أقمار أهل المغرب التي طلعت على المشرق ، ولكوني قمتُ له بخدمة قبره بعد دفنه بأربعة قرون ، والله على ذلك شهيد .

ثم نعود إلى ذكر العلماء الذين اشتهروا في زمان السلطان بايزيد .

فمنهم **العارف بالله الشيخ علوان الحميدي** ، اتصل بخدمة السيد علي بن ميمون ، وكان بحراً من بحار الحقيقة ، وكان شافعي المذهب ، توفي سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة .

ومنهم **الشيخ محمد الشهير بابن عرَّاق** ، كان من أولاد الأمراء الشراكسة ، وكان من طائفة الجند ، وكان صاحب ثروةٍ وحشمةٍ وافرة ، فترك كلَّ هذا ، واتصل بخدمة السيد علي بن ميمون ، واشتغل عنده بالرياضة ، وكان عالماً زاهداً . وجاور مدةً بعد وفاة ابن ميمون بالمدينة المنورة ، ومات ودفن فيها . وأتذكَّرُ أنه يوجَدُ في بيروت زاوية منسوبة إلى ابن عرَّاق .

ومنهم **ابن صوفي واسمه عبد الرحمن** ، كان عالماً مدرساً ، ثم اتصل بالسيد علي بن ميمون ، وصار من تلاميذه ، ولما ذهب السيد إلى الشام بعد أنْ سكنَ مدة في بروسة ، نصّبه خليفةً له في بلاد الروم .

ومنهم **المولى إسماعيل الشرواني** قرأ على جلال الدين الدواني ، وخدم العلم طول حياته ، وتوطّن أخيراً في مكة المكرمة ، ومات فيها .

ومنهم **الشيخ بابا نعمة الله** ، وكان من السادة الصوفية ، سكن بقصبة آق شهر ، وتوفي فيها .

ومنهم **الشيخ محمد البدخشي** ، كان زاهداً متجرداً من علائق الدنيا ، ثم ذهب إلى دمشق ، وسكن بها ، ولما دخل السلطان سليم دمشق زار هذا الشيخ

مرتين : ففي المرة الأولى جلسا صامتين ، وسُئل السلطان سليم عن ذلك فقال : فَتحُ الكلام ينبغي أن يكون من العالي ، ولا علوّ لي عليه ، وقد تأدبَ الشيخُ هو أيضاً ، واختار الصمتَ تنزُّلاً منه ، وأما في الزيارة الثانية فقال الشيخ البدخشي للسلطان : كلانا عبد الله تعالى ، وإنما الفرق هو أنّ ظهرك ثقيلٌ من أعباء الناس ، وظهري أنا خفيف ، فاجتهد أن لا تضيِّع أمتعتهم ، ومات البدخشي بدمشق سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة .

ومنهم السيد **أحمد البخاري الحسيني** ، جاء من بُخارى إلى بلاد الروم ، وصحب الشيخ الألهي ، وكان من أشدّ الناس ورعاً ، وتعلَّقَ به الناسُ كثيراً ، وتركوا المناصب ، واختاروا خدمته ، فبنى مسجداً وحجرات حوله للطالبين ، وذلك في القسطنطينية ، وكان مجلسه في غاية الوقار ، يَجلِسُ فيه الناسُ كأنّما على رؤوسهم الطير ، ولا تجري في مجلسه كلمات دنيوية أصلاً ، وكانت طريقته العمل بالعزيمة ، وترك البدعة ، واتباع السنة ، وإقامة الصلاة ، والإنقطاع عن الناس ، والمداومة على الذكر الخفي ، والعزلة عن الأنام ، وقلة الكلام والطعام ، وإحياء الليالي وصوم الأيام . مات سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة .

ومنهم الشيخ **مصلح الدين الطويل** ، أصلُه من كرة النحاس من ولاية قسطموني ، كان من المشتغلين بالعلم ، ثم التحق بالشيخ الألهي ، واشتغل بالتصوّف .

ومنهم **عابد شلبي** من ذرية مولانا جلال الدين الرومي ، كان قاضياً ، ثم ترك القضاء ، واتصل بالشيخ الألهي وبنى مسجداً في القسطنطينية ، وحوله حجرات للفقراء .

ومنهم **الشيخ لطف الله الأسكوبي** ، وهو ممن اتصل أيضاً بالشيخ الألهي ، وكان في الآخر زاهداً ناسكاً ، ساكناً على جبل من جبال أسكوب ، منقطعاً عن الدنيا .

ومنهم **بدر الدين بابا** ، وكان أيضاً من جماعة الشيخ الألهي .

ثم منهم **علاء الدين خليفة** ، وكان أولاً من طائفة الجند ، ثم اقتدى بالشيخ

علاء الدين أبدال ، ورووا عنه الكرامات ، وبني زاوية بالقسطنطينية .

ومن هذا النمط الشيخ **سليمان خليفة** ، وبنى زاوية أيضاً .

ومنهم **الشيخ سونديك الشهير بقوغه جي دده** .

ومنهم **العارف بالله ابن الإمام** من السادة الصوفية من أهل آيدين .

ومنهم **الشيخ صلاح الدين الأزنيقي** ، كان من مريدي شيخي خليفة .

ومنهم **الشيخ بايزيد خليفة** ، وكان عالماً متصوفاً ، سكن بمدينة أدرنة .

ومنهم **الشيخ سنان الدين يوسف المعروف بسنبل سنان** ، وكان مرشداً مربياً ، وعلى جانب من العلم .

ومنهم **الشيخ جمال الدين [إسحاق] القرماني المعروف بجمال خليفة** ، جاء من بلاد قرمان إلى القسطنطينية ، وكان مربياً مرشداً ، وتاب على يده الكثيرون .

وقال صاحب « الشقائق النعمانية » : إنّه عاده في مرض موته ، وطلب من الوصية ، فقال له : لا تسلُك مسالكَ الصوفيةِ ، إذ لم يبقى لها اليوم أهل . وقال : التوحيد والإلحاد يصعُبُ التمييز بينهما ، فالوقوف على طريقتك أسلم . ثم قال له : فإن غلب عليك خاطر الميل إلى التصوف ، فاختر من المشايخ مَن كان ثابتَ القدم في الشريعة ، **وإن رأيتَ فيه شيئاً يخالفُ الشرع ولو قليلاً فاحترز منه ، فإنّ مبنى الطريقة رعايةُ الأحكام الشرعية** .

ومنهم **الشيخ داود** من قصبة مدرني ، وكانت تُروى عنه الكرامات .

ومنهم **الشيخ قاسم شلبي** ، وكان متصوفاً ، جلس في زاوية الوزير علي باشا في القسطنطينية .

ومنهم الشيخ رمضان ، كان من أتباع طريقة الحاج بيرم ، وكان مرشداً كبيراً .

ومنهم **الشيخ بابا يوسف السفري حصاري** ، وكان منتسباً إلى هذه الطريقة ، ولما بنى السلطان بايزيد جامعه بالقسطنطينية حضر للصلاة في أول جمعة بعد

بنائه ، وصعد الشيخ بابا يوسف المنبر ، ووعظ الناس ، فحصل لكلامه تأثيرٌ عظيم في السامعين ، وكان بعضُ النصارى يستمعون من خارج الجامع ، فأسلم منهم ثلاثة ، ففرح السلطان بايزيد بذلك ، وأنعم عليهم ، وصار السلطان يحبُّ هذا الشيخ كثيراً ، وعندما ذهب الشيخ للحج أعطاه السلطان مقداراً من الذهب وقال له : هذا المال حصل لي من كسب يدي ، وأوصاه أن يجعله في قنديل الصدقات في التربة المطهرة بالمدينة ، وأن يقول عند التربة المطهرة : **يا رسول الله إنّ راعي أمتك العبد المذنب بايزيد يقرئك السلام ، وأرسل هذا الذهب الحاصل من طريق الحلال ، ليُصرَف إلى زيت قنديل تربتك** ، وتضرع إليك أن تقبل صدقته[1] . ففعل الشيخ ما أمره به السلطان ، وكانت وفاة هذا الشيخ في أوائل سلطنة سليم خان ، ودفن في جوار أبي يوب الأنصاري عليه رحمة الباري .

* * *

---

(١) من الغرائب والعجائب أن السلاطين العثمانيين لم يحج أحد منهم قط !! والسلطان عبد العزيز زار باريز لحضور معرض هناك ، وزار مصر لحضور حفل افتتاح قناة السويس . أما كان الأولى به أن يحج وقد صار قريباً من الحرمين الشريفين ؟!! .

٩ ـ السلطان سليم الأول

١٥١٢ ـ ١٥٢٠

ولما جلس السلطان سليم بن بايزيد على كرسيّ السلطنة ، وذلك في الثاني عشر من صفر سنة ثماني عشرة وتسعمئة ـ (١٥١٢) ، طلب الإنكشاريةُ زيادة رواتبهم ، فاضطر أن يرضيهم ، لأنهم كانوا السبب في سلطنته ، وزاد الرسوم المضروبة على البضائع الواردة إلى بلاده ، رفعها من ثلاثة في المئة إلى خمسة .
وكان الأمير أحمد أمير أماسية استقلّ ، واستولى على بروسة ، واتفق مع مصطفى بك والي أنقرة ، فرأى السلطان سليم أنْ لا بد من قتل إخوته ، ولما وقع أخوه قورقود في يده قتله ، وكذلك زحف إلى قتال أخيه أحمد ، فتلاقيا في صحراء يني شهر ، فكانت الطائلةُ للسلطان سليم ، ووقع أحمد في يد أخيه ، فقتله أيضاً ، فاتسق له الأمر ، وأرسلت الدولُ المجاورةُ تهنئةً ، ما عدا الشاه إسماعيل سلطان العجم ، فكان هواه مع الأمير أحمد ، وقد بلغ الشاه إسماعيل في زمانه أقصى درجات القوة ، وكان في يده جميعُ فارس ، وخراسان ، والعراق العربي ، وكردستان ، وديار بكر ـ أي من الفرات إلى سيحون وجيحون ـ فكانت الدولة الصفوية في أوج مجدها . وكانت دولة شيعية خالصة[١] ، وقد أخذت تَبُثُّ التشيُّعَ في البلاد العثمانية ، فثار غضبُ السلطان سليم ، وزحف بمئة وثمانين ألفَ مقاتل ، فصار جيش شاه إسماعيل ينكُصُ إلى الوراء ولا يقاتل ، فوصل العثمانيون إلى تبريز ، فاعتصم الإيرانيون بأعالي الجبال المشرفة على صحراء چالديران ، فَقَبلَ أن أصلاهم السلطان سليم نارَ الحرب عقد مجلساً حربياً ، فأشار الوزراء بإراحة العسكر أربعاً وعشرين ساعة على الأقل ، وخالفهم في ذلك پيري باشا قائلاً : تجب المناجزة في الحال . فأعجب رأيه السلطان سليم ، وهجم على الإيرانيين ، وتغلّب عليهم بواسطة

---

(١) انظر ما قال الأمير شكيب عن تشيع فارس في « حاضر العالم الإسلامي » (١ : ١٦١ - ٢٠٤) .

مدافعه ، ووقع في يد السلطان أثقال الشاه إسماعيل وأمواله مع حرمه ، وعددٌ كبير من الأسرى ، فأمر بقتل الجميع ما عدا النساء والأولاد .

وأراد السلطان سليم أن يشتو تلك السنة في تبريز ، وأن يزحفَ في أول الربيع إلى فارس ، ولكنّ الإنكشارية كانوا قد ملّوا القتال والسفر ، وأصبحوا يريدون الرجوع ، فعادِ بهم إلى أماسية ، وقيل : إنه رجع لفقدِ القوت والعلوفة في بلاد العجم ، لأن الشاه إسماعيل كان قد خرّب البلاد ، ثم أرسل الشّاه إسماعيل يطلُبُ من السلطان سليم زوجته التي وقعت في الأسر في معركة چالديران ، فرفض السلطان تسليمها إليه ، وزوّجها من وزيره جعفر شلبي !! .

ثم إنّ الإنكشارية ثاروا مرة ثانية في أماسية ، وأجبروا السلطان على الرجوع إلى القسطنطينية ، فأراد السلطانُ الانتقام من رؤسائهم ، وقتل إسكندر باشا ، وسقبان باشي عثمان ، وقاضي العسكر جعفر شلبي .

ثم إنّ بلاد كردستان كانت بعد واقعة چالديران ، دخلت في حوزة السلطان ، وجاء جيشٌ من قبل الشاه إسماعيل يسترجِعُ ديار بكر ، فهزمهم العثمانيون ، واستوالوا على حصن كيفا ، وسنجار ، وبيرجك ، والموصل .

ثم فكر السلطان سليم في فتح بلاد العرب ، فزحف إلى حلب ، وجاء من مصر السلطان قانصوه الغوري ، وكان شيخاً كبيراً بلغ سِنَّ الثمانين ، إلا أنّه كان عالي الهمة ، فتلاقى مع السلطان سليم في مرج دابق عند حلب ، وكانت مدافِعُ العثمانيين [قد] جعلت الرجحان في جانبهم ، وانحاز جانبٌ من جماعة قانصوه الغوري إلى السلطان سليم ، ومن هؤلاء جان بردي الغزالي وخاير بك ، الجركسيان ، وكان معهما أمراء لبنان .

وكان الملك الأشرف قانصوه الغوري أمرَ الغزالي وخاير بك أن يتقدّماه أمام الجيش ، أملاً بأن يقتلا لوحشةٍ كانت بينه وبينهما ، فراسلا السلطان سليماً ، واتفقا معه ، وانحازا إلى جيشه ، ومعهما جمعٌ من رجال الجيش المصري ، ومعهما أمراء لبنان ، منهم الأمير فخر الدين المعني[١] ، والأمير جمال الدين

---

(١) قال المحبي في « خلاصة الأثر » (٣ : ٢٦٦) وكان بعض حفدة فخر الدين حكى لي =

الأرسلاني ، وهو جدُّنا على عمود النسب ، والأمير عساف التركماني ، ولما دارت المعركة ، كان النصر للسلطان سليم ، وقُتِلَ الغوري في المعركة ، وكانت هذه الواقعة سنة (٩٢٢ ـ ١٥١٦) وقيل (٩٢١ ـ ١٥١٥) وهو الأصح ، فدخل بعدها السلطان سليم حلب ، ثم دمشق بدون قتال ، وقيل : إنّ السلطان صلّى الجمعة في جامع سيدنا زكريا في حلب ، فخطب الخطيب ، ودعا له بالنصر ، ولقبه سلطانَ البرين والبحرين ، وصاحب الحرمين الشريفين ، فأمر السلطان بأن يقال [له] : « خادم الحرمين الشريفين » وسجد شكراً لله .

ولما مرّ بحماة ، نزل في دار آل الكيلاني السادة المشهورين من ذرية السيد عبد القادر الكيلاني ، ورأيتُ بعيني الغرفة التي بات فيها ، وهي مطلةٌ على نهر العاصي ، وأنعمَ السلطانُ على آل الكيلاني ، وأكرمهم ، وكان شاعراً أديباً ، فأطربه مركز حماة ، وأعجبه ما عليه السادة الكيلانية من الوجاهة والكرم ، فنطق لسانُه بهذين البيتين :

بنـي كيـلانَ هُنِّئتـمْ بِعَيـشٍ أَرَى مِنْ دُونِهِ السَبعَ الطباقا
أطاعَ لَدَيكُمُ العاصي ، ولمَّا تَشَـرَّفَ بـالجـوارِ حَـلا ورَاقـا

رواهما لي السيد عبد القادر الحسني الكيلاني كبير هذه الأسرة الشريفة اليوم .

وجلس على كرسي مصر بعد قتل الغوري طومان باي ، واستعدّ للقتال ، فزحف السلطان سليم إلى مصر ، واشتبكت معركةٌ مِن أشدِّ المعارك المعروفة في التاريخ ، ولكن الأتراك بسبب مدافعهم تغلّبوا على المماليك ، ودخل السلطان سليم إلى القاهرة ، وانهزم طومان باي بعد أن ألحق بالعثمانيين خسائر عظيمة ، ولم يقع طومان باي في المعركة أسيراً ، بل انحاز بمن بقي معه إلى الريف ، وشرع يهاجِمُ العثمانيين . فأرسل السلطان يعرضُ عليه الصلح ، فأبى

= عنه أنه كان يقول : أصل آبائنا من الأكراد ، وقال سليم الدحداح في مجلة « المشرق » (٤ : ٣٨٩) : إن الأمراء المعنيين سنيون ، حكموا الشوف ، والعراقيب ، والجرد ، مدة طويلة ، وإنما غلط الإفرنج في نسبة الأمير فخر الدين إلى المذهب الدرزي لما ورد في فرامانات الدولة العثمانية من تسميته أمير الدروز وأمير جبل الدروز .

المماليك الصلحَ ، فزحف السلطان إليهم ، وفي هذه الوقعة أُخِذَ طومان باي أسيراً ، وشنقه السلطان ، وعلقه على باب القاهرة[١] وذلك في (١٣) إبريل - نيسان سنة (١٥١٧) مسيحية (٩٢٣) هجرية ، وبعد ذلك دخل الحجازُ تحت حماية الدولة العثمانية ، ويقال : إنّ السلطان سليم كتب بيدِه على عمودِ المقياس الذي على شاطىءِ النيل هذين البيتين :

المُلكُ للهِ مَن يَظْفَرْ بِنَيْلِ غِنى ... يَرْدُدْهُ حقًّا ، وَيَضْمَنْ بَعْدَهُ الدَّرَكا
لَوْ كَانَ لي أَوْ لغيري قَيدُ أُنمُلَةٍ ... فَوقَ التّرابِ لكانَ الأمرُ مُشترَكا

وقد ظنّ بعض المؤرخين أنّ هذين البيتين هما من نظمه ، لأنّه كان شاعراً بليغاً بالعربية والتركية والفارسية ، ولكننا وجدنا هذين البيتين في « لزوميات المعري » ، فيكون السلطان قد استشهد بهما .

ثم إنّه بعد أن استودع مصر خاير بك ، رجع إلى سورية ، وأخذ بتنظيم إدارتها ، وكان نشاطُ هذا السلطان غيرَ معهود المثال ، وتوقُّدُ ذهنه فوقَ الخيال . وكان محباً للعلماء والأدباء ، ومغرماً بالعلم والعرفان ، وكانت همتُه أعلى ما عُهدَ في همم الرجال ، وكان يتنكّر ، ويخرج متنكّراً ، فيختلط بالشعب ، ليطلعَ على حقائق الأحوال ، ويعرف ممن تشكو الرعية ، فيقتصُّ من العمال ، الذين يتحقّقُ خروجهم عن جادة العدل ، ولم يكن فيه عيب يذكر سوى شدة ميله إلى سفك الدماء[٢] ، وكم قتل من إخوته ووزرائه وعمّاله ، ولم يكن يجرؤ عليه إلا المفتي الجمالي ، الذي يلقبه الأتراك بزنبيلي علي أفندي ، لأنه كما تقدم الكلام ، كان عنده زنبيل معلّقٌ يَضَعُ فيه السائلُ سؤاله ، ويحركه ، فيجذبه الشيخ ، ويخرج منه السؤال ، ويجيب عليه ، ويعيدهُ بالزنبيل الذي يسقط إلى أسفل ، فيؤخذُ الجواب منه .

ويقال : إنّ السلطان سليم أرادَ حمل النصارى الذين في المملكة على الإسلام جميعاً ، أو يخرجوا من البلاد ، فعارضه زنبيلي علي أفندي - أي المفتي

---

(١) باب زويلة .
(٢) وكفى به عيباً .

الجمالي ـ وقال له : لا يَحلُّ لك ذلك ، وليسَ لنا إلا أن نأخذ منهم الجزية والطاعة .

ويروي الناس بالتواتر شيئاً آخر ، وهو أن السلطان سليم أراد أن يجعلَ العربيةَ لساناً رسمياً للدولة[1] فعارضه الأتراك في ذلك ، ولم أطلع على هذه الرواية في الكتب ، ولكنّ الناس يتناقلونها كثيراً والله أعلم .

فأما قضية حمل النصارى الذين في المملكة على قبول الإسلام أو الرحيل منها فهو مرويٌّ بالتواتر ، وفي الكتب أيضاً ، فيكون قد ثبت أن الشريعة الإسلامية بعدالتها وأمانتها هي التي حفظت المسيحيين في السلطنة العثمانية أيام كان السلطان يقدر أن ينفِّذَ جميع ما يريده بهم ، ولذلك نجد ملاحدة التركِ ينتقدون دائماً العمل بالشرع الإسلامي ، بحجة كونه السبب في بقاء النصارى في السلطنة العثمانية ، وأن بقاءهم كان سبب الضعف في تركية ، فملاحدة الترك يجعلون الشرع الإسلامي مذنباً في تهيئة الخطر السياسي الذي أصاب تركية ، ولذلك لما استولوا على الحكم بعد الحرب العامة أخرجوا جميع النصارى من تركية ، ولم يبق إلا النصارى الذين هم في القسطنطينية فقط ، لأنّ الدولَ في مؤتمر لوزان لم توافق على إخلاء القسطنطينية من النصارى تماماً ، وتقرر بمقابلتهم إبقاءُ مسلمي تراقية في بلاد اليونان .

ومن العجب أننا نرى الأوربيين يعملون بكلِّ قوتهم لمحو الشريعة الإسلامية التي في ظلها ـ وبسببها لا غير ـ بقي النصارى في جميع الممالك الإسلامية وفي السلطنة العثمانية متمتعينَ بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلمون منذ ظهور الإسلام إلى يوم الناس .

هذا وكان نصارى البلاد العثمانية بضع عشر مليون نسمة ، ومن العجب أننا نراهم مع ذلك يفضِّلونَ أن تكونَ الحكومات الإسلامية ملحدةً ، ولو كانت تُخرِجُ جميعَ النصارى من بلادهم ، وهذا أقصى ما يتصوره العقل من التحامل والتعصب على الإسلام!! يكرهونه ولو حفظهم، ويحبون زواله ولو كان في ذلك زوالهم !.

---

(١) لو تم ذلك لكان للدولة العثمانية شأن آخر .

هذا ومات السلطان سليم في (٢٢) سبتمبر ـ أيلول سنة (١٥٢٠) مسيحية (٩٢٦) هجرية فلم يقم في السلطنة أكثر من ثماني سنوات ، ولو طالت مدة هذا الرجل العظيم على كرسي هذه السلطنة العظمى لما عرف أحدٌ إلى أي درجة من الشوكة والبسطة كانت تنتهي السلطنة العثمانية ؟! وجاء في « شذرات الذهب »[1] عن السلطان سليم ما يأتي : وفي سنة ست وعشرين وتسعمئة توفي السلطان سليم بن أبي يزيد بن محمد السلطان المفخَّم ، والخاقان المعظَّم ، سليم خان ابن عثمان ، تاسع ملوك بني عثمان . وهو من بيت رفع الله على قواعده فسطاط السلطنة الإسلامية ، ومن قومٍ أبرزَ الله تعالى لهم ما ادّخره من الإستيلاء على المدائن الإيمانية ، رفعوا عمادَ الإسلام ، وأعلوا مناره ، وتواصوا باتباع السنة المطهرة ، وعرفوا للشرع الشريف مقداره ، وصاحبُ الترجمة منهم هو الذي ملك بلاد العرب ، واستخلصها من أيدي الشراكسة ، بعدما شتَّتَ جمعهم ، فانفلّوا عن مليكهم ، وجدّوا في الهرب .

ولد بأماسية في سنة اثنتين وسبعين وثمانمئة ، وجلس على تخت السلطنة وعمره ست وأربعون سنة ، بعد أن خلعَ والدُه نفسَه عن السلطنة ، وسلّمها إليه ،

وكان السلطان سليم ملكاً قهاراً ، وسلطاناً جباراً ، قويَّ البطش ، كثيرَ السفكِ ، شديدَ التوجّه إلى أهل النجدة والبأس ، عظيمَ التجسّس عن أخبار الناس ، وربمّا غيّر لباسه ، وتجسّس ليلاً ونهاراً ، وكان شديدَ اليقظة والتحفّظ ، يحب مطالعة التواريخ وأخبارَ الملوك ، وله نظمٌ بالفارسيةِ والروميةِ والعربيةِ ، منه ما ذكره القطب الهندي المكي أنّه رآه بخطه[2] في الكَوْشَكِ الذي بُنيَ له بروضةِ المقياس بمصر ونصُّه :

المـلـكُ للهِ مَـن يَظْفَـرْ بِنَيْـلِ غِنـى ... يَرْدُدْهُ حقًّا ، وَيَضْمَنْ بَعْدَهُ الدَّرَكا

لَـوْ كَـانَ لـي أَوْ لغيـري قَيـدُ أُنمُلَـةٍ ... فَـوقَ التّـرابِ لكـانَ الأمـرُ مُشتـرَكـا

---

(١) الشذرات (٨ : ١٤٣ ـ ١٤٦) .

(٢) البيتان للمعري من لزومياته كما تقدّم آنفاً .

قال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه « نزهة الناظرين » : وفي أيامه تزايدَ ظهورُ شأن إسماعيل شاه ، واستولى على سائر ملوك العجم ، وملَكَ خراسان ، وأذربيجان ، وتبريز ، وبغداد ، وعراق العجم ، وقهر ملوكهم ، وقتل عساكرهم ، بحيث قتل ما يزيدُ على ألف ألف !! وكان عسكرهُ يسجدون له ، ويأتمرون بأمره ، وكان يدَّعي الربوبية ، وقَتَلَ العلماء ، وأحرق كُتُبَهم ، ونَبَشَ قبورَ المشايخ من أهل السُّنةِ ، وأخرجَ عظَامَهم وأحرقها ، وكان إذا قتلَ أميراً أباحَ زوجته وأمواله لشخصٍ آخر ، فلما بلغ السلطان سليم ذلك ، تحركت همتهُ لقتاله ، وعدَّ ذلك من أفضل الجهاد ؛ فالتقى معه بقُرب تبريز بعسكرٍ جرارٍ ، وكانت وقعةً عظيمةً ، فانهزم جيشُ إسماعيل شاه ، واستولى سليم على خيامه ، وأعطى الرعية الأمان ، ثم أراد الإقامة بالعجم ، للتمكُّنِ من الاستيلاء عليها ، فما أمكنه ذلك لشدة القحط ، بحيث بيعَت العَلِيقةُ بمئتي درهم ، والرغيف بمئة درهم ، وسببُه تخلُّف قوافل الميرة التي كان أعدَّها السلطان سليم ، وما وجد في تبريزَ شيئاً ، لأنّ إسماعيل شاه عند انهزامه أمرَ بإحراق أجْرانِ[1] الحَبّ ، فاضطر سليم للعود إلى بلاد الروم .

وفي أيامه كانت وقعة الغوري ، وذلك أن سليماً لما رجع من غزوة إسماعيل شاه ، تفحّصَ عن سبب انقطاع قوافل الميرة عنه ، فأُخبر أنّ سببهَ سلطانُ مصر قانصوه الغوري ، فإنّه كان بينه وبين إسماعيل شاه محبة ، ومراسلات وهدايا ، فلما تحقّقَ سليم ذلك ، صمم على قتال الغوري أولاً ، ثم بعده يتوجه لقتال إسماعيل شاه ثانياً ، فتوجه بعسكره إلى جهة حلب ، سنة اثنتين وعشرين كما تقدم ، فخرج الغوريُّ بعساكرَ عظيمةٍ لقتاله ، ووقع المصافّ بمرج دابقٍ شماليّ حلب ، ورمى عسكر سليمٍ عسكر الغوري بالبندق ، ولم يكن في عسكر الغوري شيء منه ، فوقعت الهزيمةُ على عسكر الغوريِّ ، بعد أن كانت النصرةُ له أولاً ، ثم فُقِدَ تحت سنابك الخيل ، وكان ذلك بِمُخامرةِ خاير بك والغزالي ، بعدَ أن عَهِدَ إليهما السلطان بتوليتهما مصر والشام .

---

(١) مخازن .

ثم بعد الوقعة أخليا له حلب ، لأنهما معه في الباطن ، فأقبل سليم إلى حلب ، فخرجوا للقائد يطلبون الأمان ، ومعهم المصاحف يتلون جهاراً ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] فقابلهم بالإجلال والإكرام ، ثم حضرت صلاةُ الجمعة ، فلما سمعَ الخطيب خطب باسمه وقال : خادم الحرمين الشريفين سجد لله شكراً على أن أهَّله لذلك ، ثم ارتحل إلى الشام بعد أن أخلاها له خاير بك والغزالي ، فخرجوا للقائه ، ودَعوا له ، فأكرمهم ، وأقام بها لتمهيدِ أمرِ المملكة . وأمرَ بعمارة قبةٍ على [قبر] الشيخ محيي الدين بن عربي بصالحية دمشق ، ورتّب عليها أوقافاً كثيرةً ، ثم توجه إلى مصر ، فلما وصل إلى خان يونس بقرب غزة قتل فيه وزيره حسام باشا .

ثم لما دخل مصر وقع بينه وبين طومان باي سلطان الجراكسة حروب يطولُ ذكرُها ، وقُتِلَ بها وزيرُ سليم يوسف سنان باشا ، وكان مقداماً ذا رأي وتدبير ، فأسف سليم عليه ، بحيث قال : أي فائدة في مصر بلا يوسُفَ ؟! وقاتل طومان باي ومن معه من الأمراء قتالًا شديداً ، وظهرت لطومان باي شجاعة قوية عرف بها ، وشهد له بها الفريقان ، وأوقع الفتكَ بعسكر السلطان سليم ، ولولا شدة عضده بخاير بك والغزالي ومكيدتيهما ما ظفر بطومان باي ، ثم لما ظفر به أراد أن يكرمه ، ويجعله نائباً عنه بمصر ؛ فعارضه خاير بك ، وخاف عاقبةَ فعله ، وقال لسليم : إنك إن فعلتَ ذلك استولى على السلطنة ثانياً ، وحَسَّنَ له قتله ، فقتله ، وصلبه بباب زويلة ، ودفنه كما أسلفنا .

ونزل السلطان سليم بالمقياس مدةَ إقامته بمصر بعيداً عن روائح القتلى ، وحذراً من المكيدة ، إلى أن مهّدها ، ثم ولّى خاير بك أمير الأمراء على مصر ، وولى الغزالي على الشام ، وولّى بمصر القضاة الأربعة وهم : قاضي القضاة كمال الدين الشافعي ، وقاضي القضاة نور الدين علي بن ياسين الطرابلسي الحنفي ، وقاضي القضاة الدميري المالكي ، وقاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن النجار الحنبلي ، واستولى على الأرض الحجازية وغيرها ، ورتّب الرواتب ، وأبقى الأوقاف على حالها ، ورتّب لأهل الحرمين في كلِّ سنةٍ سبعة آلاف إردب حبّ .

ثم عاد إلى القسطنطينية ، وقد صرف غالب خزائنه ، فأَخَّرَ السفر إلى بلاد العجم ، ليجمع ما يستعين به على القتال ، فظهر له في ظهره جمرةٌ منعته من الراحة ، وعجز عن علاجها حُذاقُ الأطباء ، ولا زالت به حتى حالت بينه وبين الأمنية ، فتُوفي رحمه الله في رمضان ـ أو شوال ـ بعد علةٍ نحو أربعين يوماً .

وذكر العلائي في « تاريخه » « أنه خرج من القسطنطينية إلى جهة أدرنة ، وقد خرجت له تلك الجمرة تحت إبطه وأضلاعه ، فلم يفطنْ لها ، حتى وصل إلى المكان الذي بارز فيه أباه أبا يزيد حين نازعه على السلطنة ، فطُلِبَ له الأطباء ، فلم يدركوه إلا وقد تأكلت ، ووصلت إلى الأمعاء ، فلم يستطيعوا لها دفعاً ولا نفعاً ، ومات بها ، ودفن بأدرنة عند قبر أبيه » . انتهى ملخصاً .

***

قلت : ونبغ من العلماء في عصر السلطان سليم .

المولى شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا ، وكان جدَّه من أمراء الدولة العثمانية ، ونشأ في حجر العِزِّ والدلال ، ثم غلب عليه حُبّ العلم والكمال ، فاشتغل بتحصيل العلم ليلاً ونهاراً ، وبعد أن مهر في العلوم ، تولّى التدريس ، وانتقل من مدرسة إلى مدرسة ، ثم تولّى قضاء العسكر ، ثم تولّى الإفتاء في القسطنطينية بعد وفاة زنبيلي علي أفندي ، ومات وهو في الإفتاء سنة أربعين وتسعمئة ، وله تصانيفُ كثيرة ، منها حواشٍ على « الكشاف » ، وله كتاب في الفقه متنٌ وشرحٌ سماه « الإصلاح والإيضاح » ، وله كتابٌ في الأصول متنٌ وشرحٌ ، وله كتابٌ في علم الكلام متنٌ وشرحٌ ، وله كتابٌ في الفرائض متنٌ وشرحٌ ، وله حواشٍ على « شرح المفتاح » للسيد الشريف ـ ومَنٍ مِن فحول علماء الأتراك لم يكتب حواشٍ على كتُبِ السيد الشريف ـ وله تآليف في التركية والفارسية ، ومن جملة كتبه التركية تاريخٌ لآل عثمان .

ومنهم **المولى عبد الحميد بن علي** ، وقرأ في بلاد العرب ، ثم في بلاد العجم ، ثم جاء إلى بلاد الروم ، وسكن ببلدة قسطموني ، ولما جلس السلطان سليم على سرير السلطنة اتخذه إماماً لنفسه ، ومات بصحبةِ السلطان بمدينة

دمشق ، بعد قفول السلطان من مصر .

ومنهم **المولى محيي الدين محمد شاه بن علي بن يوسف بالي [بن المولى] شمس الدين الفناري** ، وهم بيت علم كابراً عن كابرٍ ، وتولى التدريس مدة طويلةً ، ثم استقضي بالقسطنطينية ، ثم تولّى قضاء العسكر .

ومنهم **المولى محيي الدين محمد بن علي بن يوسف بن شمس الدين الفناري** ، ودرّس مدة طويلة ، واستقضي بالعسكر المنصور ، وكان عالماً ورعاً ، مدقِّقاً محتاطاً في معاملاته مع الناس ، محبّاً للفقراء والصلحاء ، قال صاحب « الشقائق » : كان رحمهُ الله علامةً في الفتوى ، وآيةً كبرى في التقوى .

ومنهم **محيي الدين محمد بن علاء الدين علي الجمالي** ، المتقدم الذكر ، وهم بيت علم وفضل ، تولى التدريس ثم القضاء ، وكان من ذوي الطريقة الحسنة .

ومنهم **محمد شاه بن محمد بن الحاج حسن** ، وتولى التدّريس مدةً طويلة ، وله تآليف ، منها شرحٌ على « مختصر القدوري » .

ومنهم **المولى حسام الدين حسين بن عبد الرحمن** ، ودرّس في أكثر المدارس المشهورة ، ثم تولى القضاء .

ومنهم **مصلح الدين مصطفى بن خليل والد « صاحب الشقائق »** ولد سنة فتح القسطنطينية ـ أي سنة سبع وخمسين وثمانمئة ـ وكانت ولادته ببلدة طاش كوبري . وأخذ عن علماء كثيرين ، وأشهرهم خوجه زاده ، وتولّى التدريس تارةً في أنقرة ، وتارةً في بروسة ، وطوراً في أسكوب ، وطوراً في أدرنة ، ثم جعله السلطان بايزيد معلِّماً لابنه السلطان سليم ، ثم استقضاه السلطان سليم بمدينة حلب ، ثم استعفَى من القضاء ، ورجع إلى التدريس ، وكان زاهداً عابداً صاحبَ أدبٍ ووقارٍ فيما يَروِي عنه ولده ، قال : إنه لم يسمع منه كلمة فيها رائحة الكذب ، ولا كلمة فيها فحش ، وكان طاهرَ الظاهرِ والباطن ، وكانت أكثرُ براعته في الحديث ، والتفسير ، وأصول الفقه والعلوم الأدبيّة ، ولم يتبحّر في المعقول ، وله عدة تصانيف .

ومنهم **قوام الدين قاسم بن خليل** ، وهو أخو المترجَم السابق ، وكان مدرساً كبيراً ، وكانت أكثرُ مهارته في العلوم الأدبية والعقلية .

ومنهم **عبد الواسع بن خضر** ، من أولاد الأمراء ، أصله من بلدة ديموطقة في الروملي ، وارتحل إلى بلاد العجم وخراسان ، وقرأ على شيخ الإسلام حفيد العلامة التفتازاني حواشي « شرح المطالع » ، وحواشي « شرح العضد » للسيد الشريف ، ثم رجع إلى بلاد الروم في أواخر سلطنة بايزيد ، وفي زمان السلطان سليم تولّى التدريس ، وفي زمان السلطان سليمان القانوني تولّى قضاء العسكر ، وبعد أن بقيَ مدةً في القضاء ، وبنى مدارس ومكاتب ؛ ارتحل إلى مكة المكرمة ، واعتزل الناس ، وعكف على العبادة إلى أن مات سنة خمس وأربعين وتسعمئة .

ومنهم **عبد العزيز بن يوسف بن حسين الحسيني الشهير بعابد شلبي** ، وكان مدرساً ، ثم تولى القضاء .

ومنهم **عبد الرحمن بن يوسف بن حسين الحسيني** ، وكان أيضاً مدرساً ، ثم انقطع عن الخلق لأجل العبادة .

ومنهم **پير أحمد شلبي الآيديني** ، وكان من المدرسين الكبار .

ومنهم **محيي الدين محمد بن الخطيب قاسم** ، وكان مدرساً ، وتولى تعليم الأمير أحمد بن السلطان بايزيد ، وكان عالماً أديباً عابداً ورعاً ، وكان ينظُم الشعر العربي والتركي ، ويحفظ المحاضرات والتواريخ .

ومنهم **زين الدين محمد بن محمد شاه الفناري** ، وكان عالماً فاضلاً ، خدم العلم الشريف مدةً طويلة مع التقوى والورع .

ومنهم **المولى داود بن كمال القوجوي** ، وكان مدرساً كبيراً ، وله اليد الطولى في العلوم العقلية .

ومنهم **بدر الدين محمود الشهير ببدر الدين الأصغر** ، وكان أيضاً من المشتغلين بالعلوم العقلية ، وبعلم الحديث أيضاً .

ومنهم **المولى نور الدين حمزة** ، وكان من الفقهاء ، ولكنّه كان حريصاً على

جمع المال ، وبنى بماله مسجداً بالقسطنطينية ، وحجرات لسُكنَى العلماء . قال له الوزير إبراهيم باشا : إنك تحبُّ المال ، فكيف صرفتَ هذه الأموال في الأوقاف ؟ قال : هذا من غاية محبتي للمال ؛ حيثُ لا أرضَى أن أخلفه في الدنيا ، وأريدُ أن يذهبَ معي إلى الآخرة .

ومنهم المولى محيي الدين محمد البردعي ، وكان بارعاً في العلوم العربية ، وصاحب أخلاق ، وله تصانيف .

ومنهم محمود الشهير بابن المجلد ، وكان عالماً زاهداً ، وتوفي في أوائل سلطنة سليمان القانوني .

ومنهم محيي الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الملقب باجه زاده ، وكان من المدرسين ، ثم صار من القضاة في زمان السلطان سليم .

ومنهم محيي الدين محمد المشهور بشيخ شاذلو ، وكان من العلماء العابدين .

ومنهم سنان الدين يوسف بن علاء الدين اليكاني ، كان مدرساً ، ثم صار قاضياً ، وفي زمان السلطان سليم تولّى قضاء دمشق ، وله حواشٍ على « شرح المواقف » للسيد الجرجاني .

ومنهم پير أحمد بن نور الدين حمزة ، درّس في أشهر المدارس ، ثم تولى القضاء ، وصار قاضياً بمصر مرتين .

ومنهم المولى باشا شلبي اليكاني ، بقي مدة في التدريس ، وله حاشية على « شرح المفتاح » للسيد الشريف .

ومنهم باشا شلبي بن زيرك ، وكان من المدرسين المعروفين .

ومنهم محيي الدين بن زيرك استُقْضِي في عددٍ من البلدان .

ومنهم عبد العزيز حفيد المولى المشهور بابن أم الولد ، وكان من العلماء الأدباء .

ومنه محيي الدين محمد بن مصلح الدين القوجوي ، وكان عالماً زاهداً ، وانتفع به خلق كثير ، وله عدة تصانيف .

ومنهم **الشريف عبد الرحيم العباسي** ، ولد بمصر ومهر في العلوم الأدبية ، وجاء إلى القسطنطينية في زمن بايزيد خان ، ورجع إلى مصر ، ثم لما انقرضت دولة السلطان الغوري عاد إلى القسطنطينية ، وتوفي سنة ثلاث وستين وتسعمئة ، وقد عاش نحواً من مئة سنة ، وله كتاب « معاهد التنصيص في شرح شواهد التخليص » وهو شهير . وقرأتُه أولَ مرةٍ في إستانبول منذ (٤٥) سنة ، أعارنيه قبل أن أقتنيته الشريف عبد الإله باشا أمير مكة سابقاً رحمه الله ، فوجدت الشيخ محمد بن التلاميد الشنقيطي المعروف بالشنقيطي الكبير قد قرأ هذه النسخة ، وقرأت تعقيباتٍ له على المؤلف من جملتها أنه ذكر أحمد بن خلف ، وذكر أنه قُتل ، فقال الشنقيطي في الهامش : هو خلف بن أحمد ، والمعروفُ أنهّ مات حتف أنفه .

ومنهم **المولى بخشي خليفة الأماسي** ، ولد بأماسية ، وقرأ على علماء عصره ، ثم ارتحل إلى بلاد العرب ، وقرأ على علمائها أيضاً ، ثم اختار طريق التصوف ، وجلس للوعظ والتذكير ، وانتفع به خلق كثير ، وتوفي سنة إحدى وثلاثين وتسعمئة[1] .

ومنهم **محيي الدين محمد بن عمر بن حمزة** ، كان جدُّه من بلاد ما وراء النهر من تلاميذ السعد التفتازاني ، وضرب في الأرض ، فوصل إلى أنطاكية ، وبها ولد محمد هذا ، وتفقهّ في أنطاكية ، ثم سار إلى حصن كيفا وآمد ، ثم إلى تبريز ، وأخذ عن علماء تلك البلاد ، ثم رجع إلى أنطاكية ، وحلب ، ثم ذهب إلى القدس ، وجاور هناك ، وحج البيت الحرام ، ثم ذهب إلى مصر ، وأخذ عن السيوطي ، ولقي قبولاً عظيماً عند السلطان قايتباي ، وبقي عنده إلى أن توفي ، فسافر إلى الروم من طريق البحر ، وأول بلدةٍ أقبل عليها بروسة ، فحصل له فيها إقبال عظيم ، ثم ذهب إلى القسطنطينية ، فأحبه أهلها ، وسمع السلطان بايزيد وعظَه ، فمال إليه كلَّ الميل ، وألف له كتاباً اسمه « تهذيب الشمائل » في السيرة النبوية ، ولما خرج السلطان إلى الغزو ، كان هذا الشيخ

---

(١) « الشذرات » (٨ : ١٧٨) .

محمد بن عمر معه ، فلما فتح قلعة مشون ، كان هو ثاني الداخلين إليها أو ثالثهم ، ثم ذهب إلى حلب ، ورجع إلى الروم في زمن السلطان سليم ، وحرّضه على الجهاد إلى طائفة قزلباش ـ هي طائفة تؤلّه علياً ـ وكان يعظُ الجنود وعظاً مؤثراً ، ويذكر لهم ثواب الجهاد . ثم ذهب إلى الروملي ، وأخذ يعظُ أهلها ، فأصلح كثيراً من الخلق ، وأسلم على يديه كثيرون من غير المسلمين ، وبنى جامعاً في سراي البوسنة[1] ، ومسجداً في أسكوب ، وأقام في تلك البلاد عشر سنوات يعظُ ويفسِّرُ القرآنَ الكريم ، وفي سنة اثنتين وثلاثين وتسعمئة غزا مع السلطان سليمان بلادَ المجر ، ووافقهم الفتحُ المبين .

ثم سكن في بروسة ، وشرع في بناء جامعٍ كبيرٍ ، تُوفِّي قبل إتمامه في رابع المحرم (٩٣٨) وذلك عن سبعين سنة . وولد من صلبه قريبٌ من مئة نفس ، وله كتب ورسائل ، وكم أحيا من سنن ، وأماتَ من بدع . فهذا من الرجال الذين اشتغلوا في حياتهم ، وفقدهم الناسُ عند مماتهم !!

ومنهم **خير الدين خضر المعروف بالعطوفي** ، كان معلِّماً لعبيدِ السلطان بايزيد ، ثم اختار طريقة الوعظ ، فصار يفسِّر [القرآن الكريم] أيامَ الجمع في مساجد القسطنطينية ، وكان ماهراً في التفسير . وله اليد الطولى في علمي المعاني والبيان .

ومنهم **عبد الحميد بن شرف** ، من أهالي قسطموني ، قرأ على علماء عصره ، ثم رغب في التصوّف ، وصحب مصلح الدين الطويل من شيوخ النقشبندية ، وبعد وفاتِه اختار طريقَ الوعظ ، وعكف على التفسير ، وكان زاهداً في الدنيا .

ومنهم **عيسى خليفة** ، من قسطموني أيضاً ، وكان متصوِّفاً ، واختارَ طريق الوعظ ، وكان لكلامه تأثير في النفوس .

ومنهم **المولى شعيب الترابي** ، جعله السلطان بايزيد معلماً لعبيده ، ثم اختار طريقةَ الوعظ ، وكان على الفطرة ، وكان قويَّ البدنِ إلى النهاية ، وقيل :

---

(١) اسمها الآن سراييفو ، وهي عاصمة البوسنة .

إنه كان في شبابه يكسر نعال الدواب بأصبعيه !!

ومنهم **محيي الدين محمد الأماسي** وكان من العلماء المحدثين والوعاظ ، وكانت النّاسُ تحبه لورعه وتقواه .

ومنهم **المولى التوقاتي** من أماسية ، لم يفارقها إلى أن مات ، ومات في أوائل سلطنة سليمان القانوني ، وكان مشتغلاً بالدرس والعبادة ، منقطعاً عن الناس .

ومنهم **المولى مصلح الدين موسى بن موسى الأماسي** ، اشتهر بين الناس « بحافظ الكتاب » لأنه كان قيماً على خزانة كتب جامع السلطان بايزيد ببلدة أماسية ، قرأ على علماء العجم ، ثم على علماء العرب ، وكان صَحيحَ العقيدةَ ، مرضَّي السيرة ، وكانت له اليد الطولى في الفقه والأصول ، وله تآليف نفيسة .

ومنهم **المولى الشهير بابن المعيد الأماسي** ، وكان فاضلاً محققاً ، سالكاً مسلك التصوف ، مقبلاً على شأنه .

ومنهم **المولى عبد الله خوجه** نزيل قصبة كوبريجك اشتهر بعلم العربية ، والفقه ، وكان من الصالحين .

ومنهم **المولى ابن دده جك** ، وكان مشهوراً بالقراءات العشر ، مرضيَّ السيرة ، زاهداً عابداً .

ومنهم المولى الشهير في علم القراءات **صادق خليفة المغنيساوي** ، وكان من القانتين العابدين .

ومنهم **المولى محمد بن الحاج حسن** ، وكان عالماً ، ولكنه لم يكن على نمط العلماء في الزهد وخشونةِ العيش ، بل كان مائلاً إلى الزينة والترف ، فجعله السلطان سليم من الأمراء ، وكان بارعاً بالإنشاء ، وله معرفة بالتواريخ .

ومنهم **محمد باشا حفيد المولى ابن المعرِّف معلم السلطان بايزيد** ، وكان محمد باشا هذا من وزراء السلطان سليم ، وكان على جانب من المعرفة بالآداب السلطانية .

ومنهم **المولى عيسى باشا بن الوزير إبراهيم باشا** ، وكان من العلماء ، ثم صار موقِّعاً بالديوان العالي ، ثم تولّى الإمارة في بلاد الشام .

ومنهم **المولى الشهير بنهاني** ، وبقي مدة من حياته يشتغل بالتدريس ، ثم ذهب إلى الحج ، ومات بمكة المكرمة ، وكان من العلماء الأدباء .

ومنهم **المولى حيدر** ، ابن أخي المولى الخيّالي ، وقرأ على علماء عصره ، ثم ذهب إلى مصر ، وأخذ عن علمائها ، ثم رجع إلى الروم ، وأقام ببروسة ، وتوفي في أواخر سلطنة سليم خان ، وكان جميل الطلعة ، مرضيَّ السيرة ، جيِّدَ المحاضرة ، زينةً للمجالس .

ومنهم **المولى [خضرشاه بن المولى] محمد ابن الحاج حسن** ، تولّى القضاء في عدد من البلاد ، وكان حليمَ الطبع ، معرضاً عن أبناء الزمان ، مشتغلاً بنفسه .

ومنهم **محمود بن الكمال المشتهر بأخي شلبي** ، كان أبوه من الأطباء المشهورين ، وطلبه السلطان محمد ليصير طبيباً عنده ، فاعتذر وقال : كيف أختار الرقّ بعد الحرية ، وبعد وفاته نبغَ ولده محمود في صناعة الطب ، حتى صار رئيساً للأطباء في المستشفى الذي بناه محمد الفاتح بالقسطنطينية ، ثم صار رئيساً للأطباء في زمان ولده السلطان بايزيد ، ثم عزله السلطان سليم ، ثم أعاده إلى مكانه ، ولما تولى سليمان القانوني عزله أيضاً ، ثم أعاده إلى مكانه ، ثم حج بيت الله [الحرام] ، ومات بمصر منصرفه من الحج ، ودُفن عند قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه .

ومنهم **هدهد بدر الدين** ، وكان من الأطباء المعروفين في دار السلطنة .

ومنهم من أكابر الصوفية **العارف بالله الشيخ نصوح الطوسي** .

ومنهم **العارف بالله الشيخ مصلح الدين الإمام بمدينة بروسة** .

والعارف بالله محمد الشهير بابن أخي شوروه .

والعارف بالله محيي الدين محمد المعروف بأبي شامة [كان زاهداً عابداً] .

والعارف بالله الشيخ عبد الرحيم المؤيدي المعروف بحاجي شلبي .

والشيخ **محيي الدين محمد بن المولى بهاء الدين** ، أخذ عن العارف بالله محيي الدين الأسكليبي .

والشيخ **مصلح الدين مصطفى** المنسوب إلى المولى خوجه زاده .

والعارف بالله مصلح الدين مصطفى المعروف بابن المعلِّم .

والعارف بالله الشيخ بني خليفة .

والشيخ محيي الدين الأسود [صحب الشيخ حاجي خليفة] .

والشيخ لطف الله [كان من أصحاب الشيخ حاجي خليفة] .

والشيخ أمير علي بن أمير حسن [من نسل السيد جلال الدين الكرماني] .

والمولى خضر بك بن المولى أحمد باشا [صار مدرساً بمدرسة مراد ببروسة] .

والشيخ محمود بن عثمان بن علي النقاش المشتهر باللامعي .

وسيدي خليفة الأماسي [كان عابداً زاهداً تقياً ورعاً ، صاحب هيبة ووقار] .

والشيخ عبد اللطيف ، من أتباع طريقة الشيخ ابن الوفاء .

والحاج رمضان ، المتوطن في قسطموني .

والشيخ سنان الدين الشهير بسوخته سنان .

❊ ❊ ❊

١٠ ـ السلطان الأعظم سليمان القانوني

١٥٢٠ ـ ١٥٦٦

هذا ثم تولى سلطنة آل عثمان ، السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان في شهر شوال سنة (٩٢٦ ـ ١٥٢٠) .

وأكثر المؤرخين على أنّ سليمان خان هو أعظمُ سلاطين آل عثمان ، وعلماء الإفرنج يسمونه سليمان العظيم (Le Grand) أو سليمان الفاخر (Le Magnfique) وكان عمره ستاً وعشرين سنة يوم تولى الملك ، وبدأ ملكه بالحلم والعفو ، فأطلق سبيل ستمئة أسير مصري ، وكان أبوه السلطان سليم قد ضبط لتجار الحرير مقداراً عظيماً من متاجرهم ، فعوَّضهم السلطان سليمان ما خسروه ، وأخذ على أيدي الولاة الظالمين ، وأمر بالعدل والإحسان ، وجعل هذه الآية القرآنية ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] شعاره .

وعقد سليمان معاهدة مع البندقية ، ليس هنا محلُّ ذكرها ، وبموجبها كانت البندقية تؤدي إتاوتين إلى السلطان عن بعض البلاد ، التي كانت تحت احتلالها .

وفي زمن سليمان القانوني ثار الغزالي والي الشام ، الذي انحاز إلى السلطان سليم في واقعة مرج دابق ، فأرسل السلطان سليمان جيشاً بقيادة فرهاد باشا ، فتغلّب عليه وقتله .

وغزا سليمان بلادَ المجر ، فأرسل أحمد باشا ، فحاصر شاباتس ، وبيري باشا فحاصر بلغراد ، ومحمد ميكال أوغلو فاجتاح ترانسلڤانية ، فاستولى على شاباتس ، ودخلها السلطان ظافراً ، ثم استولى على بلغراد ، وعلى سملين ، وكان نصراً باهراً .

ثم فكر السلطان في فتح رودس ، لأنّ فرسان رودس كانوا ملؤوا البحر المتوسط إعتداءً على المسلمين ، وكانوا يقطعون الطريق على الحجاج إلى مكة إذا ذهبوا في البحر . ففي (١٦) يونيو ـ حزيران سنة(١٥٢٢م) (٩٢٩هـ) سار

الأسطول العثماني عليه مئة ألف مقاتل ، وضيّق السلطانُ الحصار على رودس ، ووالى عليها الهجمات نحواً من شهرين بدون انقطاع . ويقول مؤرخو الإفرنج ـ وربما كانوا يبالغون في تقدير خسائر العثمانيين ـ : إنّ هؤلاء فقدوا في حصار رودس مئة ألف مقاتل ، ومنهم أربعون ألفاً ماتوا بالأمراض . إلا أنّ العثمانيين دخلوا أخيراً رودس عنوةً ، واستولوا عليها وعلى الجزر التي في جوارها . وأخرج السلطان قائد فرسان رودس ـ وكان اسمه [فيليب ، ولقبه فيليه دي ليل أدام] (Villiers de l'Sile - Adam) ـ سالماً فذهب إلى مالطة ، وهناك جددوا قوة الفرسان المذكورين ؛ فصاروا يقطعون الطرق على مراكب المسلمين ، كما كانوا يفعلون وهم في رودس .

وفي زمن سليمان عصى أحمد باشا والي مصر ، وحدثتهُ نفسُه بالاستقلال ، فأرسل إليه السلطان جيشاً فهزمه ، وانتهى الأمر بالقبض عليه ، فقطعوا رأسه ، وعلّقوه على أسوار القسطنطينية ، ثم وقع خلاف بين والي مصر والدفتردار ـ أي رئيس الجباية ـ فأرسل السلطان وزيرَه إبراهيم باشا ـ وأصله مملوك صار مقرباً عند السلطان ، وبلغ من الحظوة ما لم يبلغه أحد ـ فعزل إبراهيم باشا العاملين المتخاصمين ، ورتب الأمور ، ونصب والياً على مصر سليمان باشا ، الذي كان والياً على سورية .

ثم غزا السلطان بلاد المجر بمئة ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع ، فنشبت معركة هائلة ، قاتل فيها الفريقان أشدَّ قتال ، وانتهت بظفر السلطان ، وغرق لويس الثاني ، ملك المجر ، وهو منهزم ، هو وجانب من جماعته في مستنقعات موهاش ، وسقط بول طوموري رئيس أساقفة المجر ، ومعه سبعة مطارين ، واثنان وعشرون أميراً . وخمسة وعشرون ألف جندي قتلى ، وكانت هذه الواقعة في (٢٦) أغسطس ـ آب سنة (١٥٢٦) مسيحية (٩٣٢) هجرية وعلى رواية كانت خسارة المجر مئتي ألف رجل ، ولم تكن خسائر العثمانيين أكثر من مئة وخمسين رجلاً .

وقيل : إنه وقع في أسر الأتراك عشرة آلاف مجري ، فذبحوهم عن بكرة أبيهم ، ودخل الأتراك بودابست قاعدة المملكة ، واستولوا على ما فيها من

الخزائن والكنوز ، وأسروا مئة ألف نسمة من رجال ونساء ، ورجع السلطان إلى القسطنطينية بعد أن أجلس على كرسي المجر أمير ترانسلڤانية المسمى سابوليا ، وكان المجر الذين فرّوا من أمام الترك نادوا بفرديناند أخي الأمبراطور شارلكان ملكاً عليهم ، وفي أيام سليمان حصلت فتن في بلاد قرمان ، وكليكية ، وثارت البكطاشية ، وسارت الجيوش تلو الجيوش ، وخسرت الدولة جنداً كثيراً ، إلا أنّ إبراهيم باشا قمع الفتنة .

وفي زمان سليمان اشتدت العداوة بين فرنسة والإمبراطور شارلكان ، وكان الإمبراطور شارلكان أعظم سلطان مسيحي في عصره ، إذ كان يلي ألمانية ، وإسبانية ، وإيطالية ، وهولاندة ، وكانت له الكلمة العليا في البحر المتوسط ، فأوشك أن يخنق فرنسة ، ولم يبقَ أملٌ للفرنسيس إلا بالالتجاء إلى العثمانيين ، لأن السلطان سليمان لم يكن يجد أمامه قِرناً يقاومه في أوربة غير الإمبراطور شارلكان ، الذي كانت الوقائع متصلة بينه وبينه على حدود النمسة ، فكان من الطبيعي أنّ فرنسة تتفق مع السلطان العثماني عدو عدوها ، ولكن فرنسة المشهورة بكثرة حروبها الصليبية ، وبشدة عداوتها للإسلام ، لم يكن من السهل عليها أن تحالفَ العثمانيين بدون أن تكبرَ هذا الأمرَ جميعُ أمم النصرانية ، والأمة الإفرنسية نفسها ، غير أنّ فرنسيس الأول ، الذي كان وقع في أسر شارلكان ، مضى في عزيمته في الإلتجاء إلى العثمانيين ، ومدّ يده لمحالفة السلطان سليمان ، وكانت العلاقات الرسمية قد بدأت بين فرنسة والدولة العثمانية في زمن السلطان بايزيد الثاني من جهة ، ولويس الحادي عشر من جهة أخرى ، ثم كتب السلطان بايزيد كتاباً إلى شارلوس الثامن ، وفي سنة (٩٠٦ ـ ١٥٠٠) كتب السلطان إلى لويس الثاني عشر ، يطلب منه التوسط بينه وبين البندقية .

وكان فرنسيس الأول ، لأولِ حكمِه عرضَ على إمبراطور ألمانية وعلى فرديناند الكاثوليكي صاحب إسبانية مشروعاً مآلُه تقسيم السلطنة العثمانية بين ملوك النصرانية ، ولكن لم يتم هذا الأمر ، لأنه لم يكن سهلاً عليهم هذا العمل ، ثم اتفق أنّ الحرب وقعت بين الألمان والفرنسيس ، وأخذ فيها فرنسيس الأول أسيراً ، فأرسلت الملكة لويزا دوساڤواي ، بناء على مشورة وزيرها دوبراه

(Duprat) معتمداً بهدايا نفيسة إلى السلطان سليمان ، وذلك في (٢٥) فبراير ـ شباط سنة (١٥٢٥) مسيحية (٩٣٢) هجرية ، ثم كتب الملك فرنسيس الأول نفسهُ كتاباً إلى السلطان يخطب صداقته ، ولما كان شارلكان قد عرض من جهته الصلح على السلطان ، واقترح التحالف ؛ فضَّل السلطان محالفة الفرنسيس لما كان الأتراك يعلمون من شدة الفرنسيس ، ولكن لم يرض الترك وقتئذ بكتابة حلفٍ بالورق ، وإنما أجاب السلطان على كتاب الملك فرنسيس بكتاب تعالى فيه على ملك فرنسة ، وأظهر له مزيد عظمته ، وهذا الكتاب لا يزالُ مشهوراً في التاريخ بعد أن ذكر فيه سليمان جميعَ ألقابه السلطانية ، قال لفرنسيس : قد انتهى إلينا ما قدمته إلينا من العرض عن أنّ عدوك قد استولى على مملكتك ، وأنك الآن في أسره ، وأنك تلجأ إلينا لأجل إنقاذك وحمايتك ، فكلٌّ هذا قد عُرِضَ على سدتنا السنية ملجأ العالم ، وأحاط به علمُنا السلطاني ، وليس غير معهود أن تدور الدائرة على الملوك ، وأن يقعوا في الأسر ، فليكن قلبك ثابتاً ، ولتكن نفسُك طيبةً إلخ . ثم وعده خيراً .

ثم إن فرنسيس الأول تخلص من أسره بموجب معاهدة مجريط ، ولكنه لم يعدل عن خطته من جهة محالفة السلطان سليمان ، وكتب إليه يشكره قائلاً له : إننا مغتبطون بما نراه من كرم أخلاقك ، وما وعدتنا به من المساعدة في حالتنا الحرجة . الخ ثم أخذ فرنسيس الأول يجتهد في إقناع شعبه بأنّ تقربه إلى العثمانيين يكون وسيلة لنشر نفوذ فرنسة في الشرق ، ومحافظتها على المسيحيين الذين هناك ، وقد حصل بالفعل على امتيازات عديدة للفرنسيس بموجب الخط الشريف السلطاني المؤرخ في (٢٠) سبتمبر ـ أيلول سنة (١٥٢٨) مسيحية (٩٣٥) هجرية . فإنّ السلطان سمح للفرنسيس والكتالان أن يجولوا في مصر ، ويتّجروا كما يشاؤون ، وأنهم في الخصومات التي بينهم يراجعون قناصلهم فيما عدا الدم ، إذ يبقى الحكمُ فيه لقضاة الشرع ، وأذن للفرنسيس والكتالان بإنفاذ وصاياهم ، وأنّ القناصلِ يحرّرون التركات ، وغير ذلك من **الإمتيازات التي تساهل فيها السلطان** ليتَخذَ من فرنسة ردءاً ضد ألمانية[1] .

---

(١) كانت هذه الامتيازات موجبة لضعف الدولة بسبب تدخل القناصل في الإجراءات الداخلية =

ثم إنه جرى كلام بين فرنسة والسلطان بموجبه يتولّى أحدُ أولاد ملك فرنسة عرش المجر ، وكانت الحرب قد اشتعلت بين المجر والعثمانيين ، فكان العثمانيون من جهة ومعهم الأمير سابوليا الترانسلڤاني ، المولّى من قبلهم على المجر ، والمجر والنمسويون من جهة أخرى ، فانكسر سابوليا ، ودخل فرديناند أخو شارلكان إلى بودابست ، فزحف الجيش الإسلامي بقيادة إبراهيم باشا ـ وكان الجيش مئتين وخمسين ألف مقاتل ـ فدخل العثمانيون بودابست ، وأعادوا سابوليا إلى الملك ، وجاء أمير البغدان ، وخضع للسلطان ، وسار السلطان سليمان في شهر سبتمبر ـ أيلول سنة (١٥٢٩) مسيحية (٩٣٦) هجرية إلى ڤينة يحاصرها ، ومعه مئة وعشرون ألف مقاتل ، وأربعمئة مدفع ، ولاقاه في نهر الطونة[١] ثمانمئة قلع[٢] ، ولم يكن في ڤينة أكثر من ستة عشر ألف مقاتل ، واثنين وسبعين مدفعاً ، ولم تكن الأسوار متينة ، ولكن خوف الألمان على بلادهم بعثَ فيهم حمية خارقة للعادة ، فصدوا هجمات العثمانيين كلها ، ويقال : إنّ السلطان خسر في هذا الحصار أربعين ألف جندي ، واضطر للرجوع خائباً ، وهي أول خيبة عرفتها جيوش سليمان القانوني ! .

ولما رجع السلطان إلى بودابست توّجَ سابوليا ملكاً على المجر ، وكان فرديناد أخو شارلكان يسعى في استمالة إبراهيم باشا ، حتى يقنع السلطان بقبوله ملكاً محل سابوليا ، فعرض على إبراهيم باشا الرشوة فلم يجبه إلى شيء ، وبقيت الحرب تشتعل . وفي سنة (٩٣٩ ـ ١٥٣٢) استولى العثمانيون على غون (Guns) بعد حصارٍ شديد ، ثم بثوا الغارات في أوسترية من بلاد النمسة ، وحصلت هناك معارك كانت فيها الحرب سجالاً وجاء أمير البحر أندري دوريا ، المشهور ، فعاث في اليونان ، واستولى على الحصون التي بناها السلطان بايزيد على جوانب خليج ليبانت ، ثم حصلت متاركة[٣] بين السلطان وبين شارلكان ،

= واتخاذ هذه الامتيازات ذريعة لتقوية النفوذ .

(١) نهر الدانوب .

(٢) سفينة شراعية .

(٣) هدنة .

أراد السلطان خلالها أن يتفرّغ لمحاربة العجم ، وذهب إبراهيم باشا على رأس جيش جرار ، فاستولى على تبريز ، ولكنه عامل الأهالي بالرفق ، وزحف السلطان بنفسه ، واستولى على بغداد ، ورجع ظافراً بعد أن غاب أربعة أشهر .

وفي ذلك الوقت اشتهر في البحر المتوسط أندري دوريا ، أمير الأساطيل المسيحية ، وبمقابلته خير الدين بربروس ، أمير الأساطيل الإسلامية ؛ وكان هذا في مبدأ أمره هو وأخوه عرّوج من متلصصة البحر ، ثم دخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي صاحب تونس ، ومن هناك امتدت سلطتهما على سواحل الجزائر . وقتل عرّوج في حرب بينه وبين الإسبانيول على تلمسان ، فانفرد بالأمر أخوه خير الدين ، وسمّاه السلطان أمير البحر سنة (٩٤٠ ـ ١٥٣٣) وأخذ يعيث في البحر المتوسط ، ويغزو سواحل إيطالية ، ثم استولى على تونس ، فاضطر شارلكان إلى غزو تونس ، وأخذِها عنوةً ، وأطلق فيها خمسين ألف أسير مسيحي ، وأعاد سلطانها مولاي الحسن على شرط أن يؤدي له الإتاوة ، وأن تبقى هناك حامية إسبانيولية .

ثم إن فرنسيس الأول أرسل إلى السلطان سليمان يعرضُ عليه المحالفة مع معاهدة تجارية ، على أنّ سليمان وفرنسيس يحاربان شارلكان إذا كان شارلكان يمتنع عن إعادة دوقية ميلانو ، وجنوة ، وبلاد فلاندر ، إلى فرنسة ، وطلب من السلطان سليمان أن يقرِضَه مليونَ [قطعة] من الذهب ، حتى يقوم بنفقات الحرب اللازمة ، وكذلك كان من جملة الاقتراحات أن يغزو خير الدين جزيرة صقلية ومملكة نابولي وجزيرة سردينية ، وكان المتولي لهذه المهمة الوزير الإفرنسي جان دولا فوره (Jean dela Forest) فانعقدت معاهدة تتضمن حرية التجارة بين المملكتين العثمانية والإفرنسية براً وبحراً ، وأن تكون الدعاوى بين الفرنسيس جزائية كانت أو حقوقية متعلقة بقناصل فرنسة ، وإذا وقعت جناية من إفرنسي فلا يساق كسائر الناس إلى الحبس ، بل لا بدَّ أن يساق إلى الباب العالي ، وأنّ تجار الفرنسيس لا يؤدونّ إلا خمسة في المئة عن بضائعهم ، وأن الإفرنج من غير الفرنسيس كالإنكليز ، والكتالان ، والصقليين ، والجنوية ، ممن ليست بينهم وبين الدولة العثمانية معاهدات إذا سافروا تحت العلم

الإفرنسي يتمتعون بالحقوق التي يتمتَّعُ بها الفرنسيس .

ولكن برغم الحرية الدينية التي يكفلها السلطان لرعايا فرنسة لا يحقُّ أن يملك الفرنسيس ، ولا تملك الكنائس اللاتينية عقارات في بلاد الإسلام ، وكذلك الإفرنسي الذي يتزوج بمسيحية عثمانية ، يكون أولاده من رعايا السلطان .

وتضمَّنَ الاتفاق تحالفاً عسكرياً في الهجوم والدفاع ، فالسلطان تعهَّدَ بمهاجمة مملكة المجر ، ومملكة نابولي ، والملك فرنسيس تعهَّدَ بشن الغارة على بلاد لومباردية ، وجرى الإتفاق على أنّ المدن الإيطالية التي يستولي عليها الأسطول العثماني يكون للأتراك حق انتهابها ، وسوق أهلها أسرى ، ولكن ملكية هذه المدن تعود إلى ملك فرنسة .

ولما انعقدت هذه المعاهدة كانت اليد الطولى في عقدها لإبراهيم باشا الصدر الأعظم ، ويقال : إنه جعل توقيعه في ذيل هذه المعاهدة باسم **سر عسكر سلطان** ، فغاظ ذلك السلطان سليمان ، وأساء فيه الظن ، وفي (٥) مارس ـ آذار (١٥٣٦) مسيحية (٩٤٢) هجرية ذهب إبراهيم باشا إلى السراي بحسب عادته ، فقُبض عليه ، وخُنِقَ ، وتولّى مكانه إياس باشا الأرناؤوطي ، وكان السلطان سليمان والملك فرنسيس اتفقا على إدخال جمهورية البندقية في هذه المعاهدة ، فأبى البنادقة أن يدخلوا في هذا العقد ، فغزاهم السلطان بأسطول يبلغ مئة شراع ، فاجتاح سواحلهم ، ورجع بعشرة آلاف أسير ، واستولى على جزر الأرخبيل اليوناني .

وجاء أمير البحر أندري دوريا قائد أساطيل شارلكان لينازِلَ الأسطول الإسلامي ، فدارت الدائرة على أندري دوريا ، وذلك في واقعة بريفيزة ، التي وقعت في سبتمبر ـ أيلول (١٥٣٨م) ـ (٩٤٤هـ) .

وفي السنة التالية حشد السلطان مئة ألف مقاتل في ألبانية ، ناوياً شنّ الغارة على إيطالية ، وجاء خير الدين بربروس بسبعين بارجة حربية ، فأنزل عساكره في مدينة أوترانت ، وانتظر السلطان من ملك فرنسة أن يزحف على شماليِّ إيطالية ، ويرسل أسطوله لمعاونة الأسطول العثماني ، فلما انتشر هذا الخبر في الأمم النصرانية ، قامت له وقعدت ، ولم يجرأ فرنسيس على الإتيان بحركة ، بل

اشترط لأجل الهجوم على مملكة بيبمون ، أن يخرج الأتراك من إيطالية ، وعقد معاهدته مع شارلكان ، فلم يقع ذلك عند السلطان سليمان موقعاً حسناً ، لكنه اجتنب أن يخرِقَ عهده لملك فرنسة .

واستمرت الحرب بين السلطان وبين شارلكان ومعه البنادقة ، وكانت الحرب بين السلطان والبنادقة سجالًا ، إلا أنَّ البنادقة اضطروا أخيراً إلى طلب الصلح ، وتركوا جميع جزر الأرخبيل الرومي ، وتخلّوا عن دالماسية ، ودفعوا غرامة حربية للسلطان ثلاثمئة ألف دوقية . وفي ذلك الوقت مات إياس باشا بالطاعون ، وكان أرناؤوطياً في الأصل من عائلة كاثوليكية ؛ وكان ممدوحَ السيرة ، فتولّى مكانه لطفي باشا ، وكان أرناؤوطياً أيضاً ، وكان السلطان زوّجه بشقيقته ، واشتعلت الحرب في بلاد المجر بين العثمانيين والنمسويين ، وثار أمير البغدان متفِقاً مع النمسة ، فولّى السلطان أخاه مكانه ، وفي أثناء هذه الحرب مات سابوليا ملك المجر مِنْ قبل السلطان سليمان ، فتولت الأمر امرأته إيزابيلا ، فزحف جيش النمسة لحصار بودابست ، فاستصرخت الملكةُ إيزابيلا السلطان سليمان ، فزحف بنفسه ، وجاؤا للسلطان بابن سابوليا وهو طفل عمره سنة ، وإذا بالإنكشارية دخلوا بغتة إلى بود ، وتحولت هذه البلدة من بلدة مجرية إلى بلدة إسلامية ، فاعتذر السلطان للملكة إيزابيلا بأنّ مقصده بذلك تأمين بلاد المجر من غائلة النمسة ، وأنه متى بلغ ابنها رشده يسلّمه مدينةَ بود .

وكان رنسون (Rincon) سفير فرنسة في القسطنطينية يعمل ليلاً ونهاراً لأجل بقاء الاتحاد بين فرنسة وتركية ، وكان هذا السفير يلوم مولاه فرنسيس الأول على مهادنته لشارلكان ، وفي أثناء ذلك انخدع فرنسيس بسياسة شارلكان ، وأرسل إلى السلطان سليمان يطلب منه مصالحة عدوه شارلكان ، فاستغرب السلطان هذا الطلب !! ولكن رنسون أصلح خطأ سيده ، فكتب السلطان إلى فرنسيس قائلاً له : إنّ شارلكان ملك إسبانية يلتمِسُ الهدنة بواسطتك ، فإذا كان يريدُ الهدنة ، وكنتَ أنتَ تريدُ ذلك مِن قلبك فأنا أشترطُ عليه بأن يردَّ لك جميعَ البلاد والحصون والأراضي التي أخذها منك ، فإذا قام بهذا الشرط ، وأنتَ أعلمتَ بابي العالي بذلك ، فأنا أعمل لك ما تشاء .

وظهرَ أنّ الحق كان مع السلطان سليمان ، وأنّ الإمبراطور شارلكان كان قد خدع ملك فرنسة ، ثم تجدّدت الحرب ، وبعث فرنسيس الأول من يلتمس من السلطان تجريد الأسطول العثماني كله لمباشرة الحرب ، وكان للسفير رنسون اليد الطولى في ذلك ، فأرسل شارلكان من قتل رنسون السفير الإفرنسي غيلةً ، بحجة أنّة خائن للنصرانية ، فكتب فرنسيس الأول إلى ندوة نورنبرغ يشكو عمل شارلكان ، ويتهمه بأنه زوَّرَ وثائق لا صحّةَ لها تبرئة لنفسه من ذلك الجرم .

وبلغ السلطان سليمان مقتل رنسون بينما كان في بود ، فبلغ منه الغضب أن كاد يقتل سفراء النمسة الذين عنده ، ولولا توسط المعتمد الإفرنسي بولين (Boline) الذي أتاه بخبر قتل رنسون لكان السلطان من شدة غضبه قتلهم .

وأما سياسة فرنسيس الأول ، فكان قد ظهر للسلطان أنها سياسة تذبذب ، وكاد يرغَبُ عن صحبته ، إلا أن بولين المعتمد الإفرنسي التجأ إلى خير الدين بربروس ، وكان هذا أصبح مقرباً جداً عند السلطان ، لا سيما بعد أن كسر أسطول شارلكان في بحر الجزائر ، وكان بربروس يميل إلى فرنسة ، فما زال بالسلطان حتى أقنعه بإرسال الأسطول العثماني نجدةً لملك فرنسة على الإمبراطور شارلكان ، وذلك سنة (٩٥٠ ـ ١٥٤٣) فسار الأسطول العثماني إلى نيس بقيادة خير الدين بربروس ، وكان مؤلفاً من مئة وعشر بوارج ، عليها أربعة عشر ألف مقاتل ، فانضمَّ إليه أسطول ملك فرنسة بقيادة الكونت دانغين (d'enghirn) وكان مؤلفاً من أربعين بارجة ، عليها سبعة آلاف مقاتل ، فاستولى العثمانيون والفرنسيس على نيس ، ولكنهم اختلفوا ، وقامت قيامة النصرانية على فرنسيس الأول من أجل تحالفه مع المسلمين على النصارى ، ومن أجل موافقته على إذلال النصرانية في بلادها ، حتى قيل : إنّ الكنائسَ في سواحل نيس لم تكن تجرؤ على قرع أجراسها مدةَ إقامةِ الأسطول العثماني أمام نيس .

فتصالح فرنسيس الأول مع شارلكان ، ووجّه السلطان قوته إلى حرب المجر ففتح ڤالبو ، وسكلوز ، وغران ، ونيوغراد ، وڤيشغراد ، وڤيلكة ، وغيرها ، فأرسل شارلكان وأخوه فرديناند يلتمسان الصلح من السلطان ، وكاد السلطان يجنح إلى الصلح لولا مساعي جبرائيل ده آرمون (d'Aramont) سفير فرنسة ، الذي

كان يهوّن على السلطان أمر شارلكان ، قائلاً له : **إنّه في المقيم المقعد مع أمراء البروتستانت في ألمانية** ، فعاد السلطان سليمان ، وأجمع على الحرب ، وقرر الزحف ، وكتب بذلك إلى الملك فرنسيس في شهر مايو ـ أيار (١٥٤٧ ـ ٩٥٤) فوصل كتاب السلطان إلى فرنسة بعد وفاة فرنسيس الأول ، فتبدّلت الحالة ، وجنح السلطان إلى مصالحة شارلكان ، وانعقدت بينهما متاركة لمدة خمس سنوات ، على أن يدفع الأمير فرديناند أخو شارلكان للسلطان العثماني خمسين ألف دوقية كلَّ سنة جزية عن القسم الباقي من بلاد المجر [التي] تحت ولايته .

ولما استراح فكر السلطان من جهة أوربة وجّه نظره إلى آسية ، فاستنجده أمراء الإسلام في الهند على البرتغال ، فأنجدهم ، وأرسل فاحتلّ اليمن ، ووقع القتال بين العثمانيين والزيديين ، وكتب السلطان إلى إمام صنعاء يعاتبه على قتاله للجيش العثماني ، ولكن الإمام أجابه بجواب سديد قائلاً له : **إننا نعلم بلاءك العظيم في حفظ بيضة الإسلام ، ولا نشكو منك ، وإنما نشكو من سوء إدارة عُمّالك ، وقد كان الأولى بهم أن يسوقوا هذه القوة على الكفّار بدلاً من أن يسوقوها على المسلمين ، الذين هم على كل حال تبعة السلطان** ، وهذا الكتاب مذكور في « تاريخ البرق اليماني » . ثم جاء ابن شاه العجم والتجأ إلى السلطان، فزحف السلطان إلى تبريز، وفتحها بعد أن فتح وان، ثم فتح جانباً من كرجستان.

وبينما كان جيشه يتقدم في آسية ، إذ تجددت الحرب في بلاد المجر ، وذلك أن الملك سابوليا كان أوصى امرأته إيزابيلا بقسيس اسمه جورج مارتيموزي ، فصارت تعمل برأيه ، وكان هذا القسيس يشتغل لفصل الملكة إيزابيلا عن السلطان ، ولتأليفها مع الأمير فرديناند ، وأقنعها بأن تترك له ترانسلڤانية والبانات ، وكل ذلك لم يعلم به السلطان إلا فيما بعد ، فلما بلغه الخبر ، سيَّر ثمانين ألف مقاتل ، فعبرت نهر الطونة ، واستولت على ليبة ، واشتدت الوقائع ، ولكنها انتهت بظفر السلطان ، وأرسل أحمد باشا على أثر الواقعة أربعة آلاف أنف من أنوف النمسويين إلى الأستانة ، ورجعت طمشوار والبانات إلى حكم الدولة العثمانية ، وأخذ العثمانيون البارون غوندون دروف ، أسيراً مع أربعة آلاف مقاتل .

ثم استولى فرسان مالطة على طرابلس الغرب ، فأرسل السلطان الأسطول العثماني فطردهم منها ، وضمّ تلك البلاد إلى السلطنة العثمانية ، وكان هنري الثاني بن فرنسيس الأول لا يقلُّ رغبةً عن أبيه في محالفة الدولة العثمانية ، وفي سنة (٩٥٨ ـ ١٥٥١) تعهّد هنري الثاني للسلطان بتأدية ثلاثمئة ألف قطعة ذهبية بدلًا عن مساعدة الأسطول العثماني لفرنسة ، ورهن تحت ذلك جانباً من سفنه ، واتفقا على أنَّ السلطان ينجِدُه بستين مركباً حربياً وخمسة وعشرين مركباً من مراكب القرصان ، وأنه إذا أراد ملك فرنسة أن يستعمل هذه القوة البحرية خارجاً عن بحر توسكانة ، فعليه أن يؤدّي مئةً وخمسين ألف [قطعة] ذهب ، وتقرّر أنَّ جميعَ السفن التي يغنمها الأسطول العثماني تكون ملكاً للسلطان ، وأن المدن التي يستولي عليها العثمانيون يصير رجالُها وأموالُها مُلكاً أيضاً للسلطان ، إلا أن المدن نفسها تصير لملك فرنسة ، وتقرّر أن الأسطول العثماني يكتسح ما شاء من ممالك شارلكان ، ويسبي بقدر ما يستطيع ، وسار الأسطول العثماني بقيادة طورغوت ريس ، وانضم إليه الأسطول الإفرنسي بقيادة البارون لاغارد ، فاكتسحا بلاد كالابرة ، وصقلية ، واحتلا كورسيكة ، ودانت لهما جميع المدن التي في تلك السواحل .

إلا أنه لم يلبث الخُلْفُ أن وقع بين الحلفاء ، لأن الإفرنسيس اعترضوا على عدم حرمة العثمانيين للدم ، والدين ، والمال ، فافترق الأسطولان ، وغضب السلطان على طورغوت ، وأرسل أسطولًا آخر بقيادة بيالي باشا ، كان عددُه سبعينَ بارجة حربية ، لكن هذه المرة أيضاً لم يقع الوفاق بين أمراء الأسطولين ، والفرنسيس يقولون : إنّ قواد الترك لم يكونوا يفكّرون إلا في النهب والسبي ، وأرسل هنري الثاني إلى سفيره في القسطنطينية يقول له : إني مع الأسف لم أقدر أن أستفيد من عضد الجيش العثماني لي ، لا لعدم رغبة السلطان في ذلك ؛ بل لاهتمام قواده بالغنائم دون الاهتمام بتنفيذ إرادة مولاهم ، ومن بعد هذه الواقعة تصالح هنري الثاني ملك فرنسة مع فيليب الثاني ملك إسبانية وملحقاتها ، وعادت المحالفة التركية الإفرنسية من ذلك التاريخ حبراً على ورق ، لا سيما أنّ السلطنة العثمانية بعد السلطان سليمان بدأت بالتقهقر .

وكان السلطان سليمان في آخر حياته قد اختلف مع أولاده ، لأن وزيره الأعظم رستم باشا وشَى للسلطان على ولده مصطفى ، وكان العسكر يحب مصطفى حباً جماً لكرمه وشجاعته ، وكان العلماء والأدباء يحبونه أيضاً ، لاعتنائه بالعلم والأدب ، فزيّنَ رستم باشا للسلطان أن ابنه يريدُ أن يخلعه ، ويجلس مكانه ، ووقر ذلك في نفس السلطان ، فأمر بقتل ولده مصطفى في مخيمه وهو في الأناضول ، وذلك في (٢١) سبتمبر ـ أيلول سنة (١٥٥٣) مسيحية (٩٦٠) هجرية ، وكان مصطفى ولد في بروسة فقتلوه [فيها] أيضاً ، وبكت المملكة كلُّها على مصطفى ، لما كان له من المنزلة في قلوب الأمة ، ولا سيما عند العلماء وعند العساكر ـ أي رجال السيف والقلم معاً ـ وكان مصطفى شاعراً له قصائد غزلية لطيفة ، نشرها تحت اسم مستعار (مخلصي) وكان له تفسيرٌ للقرآن ، وتعليقاتٍ على « البخاري » وكتب نحوية ، ورثاه الشعراء ، ولم يخشوا والده ، وكان لمصطفى أخ اسمه جهانكير ، فمات حزناً على أخيه ، وثارت العساكر على السلطان ، وطلبت عزل الصدر الأعظم رستم باشا ، الذي كان الواشي بالأمير مصطفى ، وكان السبب في هذه المأساة التي جرحت القلوب بأجمعها .

وكان مرجع هذه الدسائس إلى السلطانة خورشم ، التي كانت تهيّء العرشَ للأولاد الذين منها ، وكان رستم باشا صهرها ، وهي التي في الحقيقة قتلت الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، ثم قتلت الصدر الأعظم أحمد باشا ، الذي كان قد خلف صهرها في الوزارة ، وهي التي قتلت الأمير مصطفى ابن السلطان .

ثم نشبت الحرب من جديد بين العثمانيين والمجر ، فزحف خادم علي باشا على بلاد المجر ، واستولى على عدد من المدن ، وقام المجر يقاتلونه ، وعلى رأسهم الأمير فرديناند ، ولكن الدولة اضطرت إلى توقيف الحرب والمتاركة ، نظراً لما طرأ من الحوادث في بيت السلطنة ، لأنّ الأمير بايزيد ابن السلطان ثار على أبيه ، على أثر دسائس بين الوزراء لا محلَّ لذكرها هنا ، فجمع بايزيد عشرين ألف جندي ، وقاتل بهم عساكر أبيه ، فتغلّب أبوه عليه ، وفرّ بايزيد مع ولده أورخان إلى أماسية ، ومن هناك كتب إلى والده يلتمس منه العفو ، فوقع

الكتاب والرسول في يد لالا مصطفى باشا ، الذي كان عدواً لبايزيد ، فأخفى الكتاب عن السلطان ، ولما لم يجد بايزيد جواباً من أبيه ، ذهب ملتجئاً إلى شاه العجم ، وكان معه اثنا عشر ألف جندي ، فقبله الشاه طهماسب[1] براً وترحيباً في ظاهر الحال ، ولكنّه وضع نصب عينه استثمار هذه الحادثة بقدر الإستطاعة ، وبالاختصار فقد قبض طهماسب أربعمئة ألف [قطعة] ذهب ، وقتل بايزيد مع أولاده الأربعة ، وكان لبايزيد طفل في بروسة في سن ثلاث سنوات فقتلوه أيضاً .

وكان قد تولّى الوزارة علي باشا ، وكان رجلاً حليماً كريماً ، يكره الشر ، فعقد مع النمسة صلحاً في يوليو ـ تموز سنة (١٥٦٢) مسيحية (٩٦٩) هجرية ، وبعد عقد هذا الصلح ، تفرّغ السلطان لمشروعاته البحرية ، وأجمع على غزو مالطة ، فسيَّر بيالي باشا قبطان البحر ، ومعه صالح بك أمير الجزائر ، ودراغوت أمير طرابلس ، وكان الأسطول العثماني مؤلفاً من مئة وثمانين بارجة ، وفي (٢٠) مايو ـ أيار (١٥٦٥) مسيحية (٩٧١) هجرية أنزل الأسطول عشرين ألف عسكري في مالطة ، وبدأوا بحصار قلعة سنت إيلم (Saint-Elme) وفي أول يوم من المهاجمة سقط دراغوت أمير طرابلس قتيلاً ، وبقي الأتراك يضّيقون على ذلك الحصن حتى أخذوه عنوةً ، ولكن أدوا عنه ثمناً غالياً جداً .

وكان رئيس فرسان مالطة بطرس لاڤاليت ، فأرسل قائد الجيش العثماني مصطفى باشا يعرِضُ عليه الإستسلام ، فأجاب بأنه ليس أمامه سوى الدفاع أو الموت ، إلا أن الخبر ورد بأنّ الحرب نشبت من جديد في بلاد المجر ، فأقلع العثمانيون عن مالطة ، وذلك أن الأمير فرديناند كان قد مات ، وخلفه ابنه مكسيمليان ، وكان راغباً في الصلح ، إلا أنّ إتيان بن سابوليا ملك المجر من قبل الدولة العثمانية تجاوز حدود النمسة ، ودخل بلدة ساتمار ، فلم يسع مكسيمليان إلا أن يحشد جيشه ، ويدخل إلى بلاد المجر ، وكان علي باشا الصدر الأعظم قد مات ، فخلفه محمد باشا الصوقلي من البوسنة ، وكان راغباً

---

(١) في الأصل (طماسب) وهو خطأ .

في الحرب ، فدخلت الجيوش العثمانية في كرواسية ، وترنسلڤانية ، وجاء السلطان سليمان إلى بلاد المجر ، ودخل عليه إتيان بن سابوليا ، فوعده بأنه لن يفارق المجر قبل أن يوطد له ملكه ، فحاصر السلطان بنفسه مدينة سيغيت (Szigeth) واستولى عليها ، وامتنعت القلعة ، وبقي العثمانيون يحاصرونها مدة أربعة أشهر ، وفي أثنائها مات السلطان سليمان ، فأخفى الصوقلي خبرَ موته عن الجيش ، وكانت وفاة السلطان في (٥) سبتمبر ـ أيلول (١٥٦٦) مسيحية (٩٧٤) هجرية ، وفي (٨) سبتمبر ـ أيلول استولى العثمانيون على القلعة ، وذبحوا كلَّ من فيها ، وبقي الصدر الأعظم كاتماً موت السلطان عن الجيش يقرأ الأوامر باسمه إلى أن وصل السلطان الجديد من كوتاهية .

ولا شك في أنّ السلطان سليمان القانوني كان أعظمَ سلطانٍ أنجبه البيت العثماني ، وبرغم ما عابوه من انقياده للسلطانة ـ التي كانت أحظى حظاياه ـ المسماة روكسلان ـ وبرغم قَتله وزيره إبراهيم باشا ، الذي كان عمادَ سلطنته ، وقتله أولاده ، فقد قال المؤرخ هامر (Hammer) أشهر مؤرخ لسلطنة آل عثمان : إنّ هذه الأغلاط لا ينبغي أن تنسينا محاسنَ هذا السلطان الباهرة ، التي جعلت من زمانه العصر الأكبر للسلطنة العثمانية ، وذلك **بعلو همة هذا السلطان ، وسعة عقله ، ومتانة عزمه ، وشدة بأسه ، مع محافظته التامة على الشريعة الإسلامية ، ومع حبه للنظام والضبط ، ومع تثميره للملكة وخيراتها ، ومراعاة الاقتصاد مراعاةً لا تخلّ بشيءٍ من إظهار عظمة المُلك ، والبذخ في مقام البذخ ، وكان السلطان سليمان محباً للعلم والعلماء ، وموقّراً لهم ، عارفاً بأقدارهم ، لا يألو جهداً في الإحسان إليهم ، والاعتناء بشأنهم .**

وقال المؤرخ الإفرنسي لاجون كيير (La Jon quiere) : إن عصر سليمان القانوني لم يكن له نظير ؛ سواء من جهة الفنون والآداب ، أو من جهة المفاخر الحربية سوى عصر لويس الرابع عشر في فرنسة ، مع الفرق بأن دور سليمان انتهى كما بدأ في عُنجهية الظفر ، ولم تكن نهايته إدباراً وبدايته إقبالاً .

* * *

ولم يعهد أنّ السلطنة العثمانية أنجبت في عصر من الأعصر من أعاظم

الرجال بقدر ما أنجبت في عهد السلطان سليمان .

فقد نبغ فيها من **رجال السياسة** ، إبراهيم باشا ، ورستم باشا ، وصوقلي باشا .

ومن **رجال البحر** : خير الدين بربروس ، وطورغوت ، ودراغوت ، وبيالي .

ومن **قادة الجيش** : فرهاد باشا ، وأرسلان باشا ، وحمزة باشا ، وميكال أوغلو .

ومن **كتّاب السلطنة** : جلال زاده ، ومحمد إيغري عبدي .

ومن **الفقهاء** : أبو السعود أفندي ، وابن كمال باشا .

ونبغ في عصره من الشعراء : عبد الباقي ، الذي كان عند الأتراك كما كان المتنبي عند العرب ، وحافظ عند الفرس ، وكان السلطان سليمان يجلُّ عبد الباقي إجلالاً زائداً ، ويجعله حلية عصره ، ولما كان السلطان سليمان نفسُه شاعراً ، فقد بعث إليه بأبيات يلّقبه فيها بشاعر آل عثمان .

ومن **شعراء ذلك الوقت** : يحيى بك ، الذي رثى الأمير مصطفى بن السلطان سليمان ، ولم يحقد عليه السلطان بسبب ذلك ، بل خصَّص له مرتباً .

ومن شعراء ذلك العصر : فضولي ، والرواني ، والسامعي ، وغيرهم .

ومن مآثر السلطان سليمان المعدودة ؛ **جامع السليمانية** ، الذي لا يوجَدُ بناءٌ أجلُّ ولا أدقُّ منه في أبنية آل عثمان ، وكذلك جامع السليمية الذي بني على قبر السلطان سليم الأول ، وجوامع محمد وجهانكير في غلطة ، وجامع السلطانة الخاصكي .

وفي زمانه جرى إصلاح قناة المياه المسماة بقناة يوستنيانوس في إستانبول ، وكذلك جدّد السلطان سليمان قناة جديدة على الحنايا إلى دار السلطنة ، ولو شاء الكاتب أن يحصي جميع مآثر السطان سليمان من الأبنية الفخمة ، والآثار الخالدة ، لاحتاجَ إلى كتابٍ كبير ، وهو مع ذلك إنما تخصّص بالقوانين ، حتى أطلق عليه المؤرخون اسم القانوني ، وكان له مزيد الاعتناء برتب العلماء ،

وتوفير الجرايات لهم ، وإغنائهم عن الناس ، وقد ميّزهم في أمورٍ كثيرةٍ ، وهذا دأب آل عثمان .

وله قوانين كانت في غاية الحكمة ، لولاها لم تكن السلطنة العثمانية بلغت ما بلغته من السعادة في زمانه ، فإنّ الحروبَ بينه وبين دول النصرانية ، وبين دول آسية أيضاً كانت متصلة ، وكانت الجيوش تتلو الجيوش ، والزحوف تتبع الزُحوف ، وجميعها تقدّر بمئات الألوف من العساكر ، فلو لم تكن البلاد معمورة ، والنعم موفورة ، والأرزاق فائضة ، والخيرات دارّة ! لم يكن يتيسّر للسلطان قضاء نصف قرن في الجهاد المستمر ، وتعبئة الجيوش الجرّارة بدون استنزاف حياة المملكة .

والحقيقة أنّ السلطان وجّه عنايةً خاصة إلى مسألة تنظيم المالية ، وترتيب الخراج ، بشكل يفي باحتياجات الدولة بدون أن يرهق الرعية ، وبلغت واردات السلطنة في أيامه نحواً من تسعة ملايين وعشرين ألف دوقية ، هذا عدا [عن] واردات الخزانة الخاصة التي كانت تبلغ أيضاً خمسة ملايين دوقية .

هذا ولما بلغ سليمان سنّ الكبر صار قليل الخروج إلى الديوان ، وصار الوزراء يستبدّون ، ويسترسلون في شهواتهم ـ وفي هذا أصاب سليمان من الانتقاد ما أصاب عبد الرحمن الناصر الأموي ، الذي يشبه سليمان في طول مدة حكمه ، بل تولّى عدة سنوات زيادةً على حكم سليمان ـ ويشبهه في سعة ملكه ، وعظمة أعماله ، وتوالى فتوحاته ، وسعادة الرعية في ظله ، ولكنّه في آخر الأمر اعتمد على خواصه ، وأخلد إلى الراحة . فشكا الرعية من عمّاله ، وتناولوه باللوم ، وأشرعوا إليه أسنة الانتقاد ، ولكنه لم يمنع هذا أن يكون عبد الرحمن الناصر وسليمان القانوني كلٌّ منهما نسيجَ وحده ، وأن يكون مفخرةً من مفاخر الإسلام الكبرى .

وجاء في « شذرات الذهب »[١] أنه في سنة (٩٧٤ ـ ١٥٦٦) كما في « النور السافر » أو (٩٧٥ ـ ١٥٦٧) كما في كتاب « الأعلام »[٢] . توفي السلطان سليمان

---

(١) الشذرات (٨ : ٣٧٥) .

(٢) لقطب الدين النهرواني .

١٠ ـ سليمان القانوني

خان بن السلطان سليم خان العاشر[١] من ملوك آل عثمان .

قال في « الأعلام » : كان سلطاناً سعيداً ، ملكاً أيّده الله بنصر الإسلام تأييداً ، وَليَ السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان سليم خان في سنة ست وعشرين وتسعمئة ، وجلس على تخت السلطنة وما دمي[٢] أنف أحد ، ولا أُريق في ذلك محجمة من دم ، ومولده الشريف سنة تسعمئة ، واستمر في السلطنة تسعاً وأربعين سنة ، وهو سلطان غاز في سبيل الله ، مجاهد لنصرة دين الله ، مرغمٌ أنوفَ عداه ، بلسان سيفه وسنان قناه ، كان مؤيداً في حروبه ومغازيه ، مسدداً في آرائه ومغازيه ، مسعوداً في معانيه ومغانيه ، مشهوداً في وقائعه ومراميه ، أيان سلك ملك ، وأني توجه فتح وفتك ، وأين سافر سفر وسفك ، وصلت سراياه إلى أقصى الشرق والغرب ، وافتتح البلدان الشاسعة والواسعة بالقهر والحرب ، وأخذ الكفار والملاحدة بقوة الطعن والضرب .

وكان مجدّد دين هذه الأمة المحمدية في القرن العاشر ، مع الفضل الباهر ، العلم الزاهر ، والأدب الغضّ ، الذي يقصُر عن شأوه كلُّ أديب وشاعر ، إن نظَمَ فعقود الجواهر ، أو نثر فمنثورَ الأزاهر ، وإن نطق قلّد الأعناقَ نفائسَ الدّر الفاخر ، له ديوانٌ فائق بالتركي ، وآخر عَديم النظِير بالفارسي ، تتداولهما بلغاء الزمان ، وتَعجَزُ أن تنسجَ على منوالهما فضلاءُ الدوران ، وكان رؤوفاً شفوقاً ، صادقاً صدوقاً ، إذا قال صدق ، وإذا قيل له صدّق ، لا يعرفُ الغِّلَّ والخداع ، ويتحاشى عن سوء الطباع ، ولا يعرف المكر ولا النفاق ، ولا يألف مساوىء الأخلاق ، بل كان صافيَ الفؤاد ، صادقَ الاعتقاد ، منوّرَ الباطن ، كاملَ الإيمان ، سليمَ القلب ، خالص الجنان .

وما تناهيتُ في بثي محاسنَه إلا وأكثرُ مما قلت ما أَدَعُ

وأطال صاحب « الأعلام » في ترجمته وترجمة أولاده ، وذكر غزواته ، فذكر له أربعَ عشرة غزوةً ، انتصر وفتح في جميعها ، وذكر كثيراً من مآثره ، فمن ذلك

---

(١) في الأصل : (الحادي عشر) .

(٢) في الأصل (دلي) والتصويب من « الشذرات » .

الصدقة الروميّة ، التي هي الآن مادةُ حياةِ أهل الحرمين الشريفين ، فإنه أضاف إليها من خزائنه الخاصة مبلغاً كبيراً ، ومنها صدقات الجوالي ، وهي جمع جالية ـ ومعناه ما يؤخَذُ من أهل الذمة في مقابل استقرارهم في بلاد الإسلام تحت الذمة ، وعدم جلائهم عنها ـ وهي من أجلَ الأموال ، ولأجل حِلّها جُعلت وظائفَ للعلماء والصلحاء ، والمتقاعدين من الكبراء .

ومنها إجراء العيون ، ومن أعظمها إجراء[1] عينِ عرفات إلى مكة المشرفة ، ومنها بمكة المدارس الأربع [السليمانية][2] ، ومنها تكيَّته ومدرسته العظيمة [الشأن الكائنة][2] بمرجة دمشق ، إلى غير ذلك مما لا يحصى ، فرحمه الله رحمة واسعة .

انتهى ملخصاً . ومن أراد البسط الزائد فليراجع « الأعلام » . اهـ .

قلت : كان سليمان القانوني يجمَعُ أحياناً بين الأضداد ، فإنّه قد اشتهر عنه من الرأفة والعفو ما لا خلافَ فيه ، كما أنه ثبت كونه أمر بقتل أولاده ، الذين بلغه أنهم كانوا يريدون أن يخلعوه ، والملك ـ كما يقال ـ عقيم ، فلا تنفعُ في جانب الاستئثار بالملك رأفة ولا شفقة ، وهذا من وجوه الشبه أيضاً بين السلطان سليمان القانوني والخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي ، الذي قتل أيضاً ابنه ، وكان الحامل له على قتله سببٌ أشبه بالسبب الذي حمل السلطان سليمان على قتل ابنه مصطفى ، وهو ولوع الناس به ، وحوم القلوب عليه ، واشتهاره بالعلوم والآداب .

هذا وقد رثى السلطان المفتي أبو السعود العمادي الشهير بِمَرْثيَةٍ هي وإن كانت من شعر العلماء ، وعلى لهجة الفقهاء ، فهي لا تخرج عن طبقة الشعر العالي قال :

أصوتُ صاعقةٍ أَم نفخةُ الصّورِ ... فالأرضُ قد مُلئَت مِن نَقرِ ناقور
أم ذاكَ نعيُ سليمانَ الزمان وَمَن ... قَضَت أوامِرُه في كلِّ مأمورِ

---

(١) في الأصل (أجرا) والتصويب من « الشذرات » .
(٢) زيادة من « الشذرات » .

وَمَـنْ ومَـنْ مـلأَ الـدنيـا مهـابتُـه ... وسَخَّـرَتْ كـلَّ جبـارٍ وتيمـورِ
مجـاهـدٍ فـي سبيـل الله مجتهـدٍ ... مؤيَّـدٍ مِـن جنـابِ القُـدسِ منصـورِ
وصِدقِ عَزْم إلى الخيراتِ مُنصَرِفٍ ... وَحُسنَ لحظٍ على الألطافِ مَقصُورِ

ومنها:

يا نفسُ مالكِ في الدنيا مخلفة ... مِن بعدِ رحلتِه عَن هذِه الدورِ
وكيفَ تمشينَ فوقَ الأرضِ غافلةً ... أليـس جثمـانُـه فيهـا بِمَقبُـورِ
يـا نفـسُ فـاتّشـدي لا تَهلَكِـي أسفـاً ... فأنتِ منظومةٌ في سلكِ مَعذورِ

***

وأما العلماء الذين نبغوا في زمان السلطان سليمان القانوني :

فمنهم **المولى خير الدين** ، الذي كان معلماً للسلطان ، وكان قد حصلَ على حشمة وافرة بسبب جاهه عند السلطان سليمان ، ومع ذلك لم يتبدّل مافي طبعه من التواضع ولينِ الجانب .

ومنهم **عبد القادر الشهير بقادري شلبي** ، وتقلّب في المناصب العلمية ، حتى صار قاضياً للعسكر ، ثم عزل عن ذلك ، وتولى الإفتاء بالقسطنطينية .

ومنهم **سعد الله بن عيسى** ، وأصله من قسطموني ، وتولّى القضاء بالقسطنطينية ، ثم تولى الإفتاء بها ، وكان محمودَ السيرة ، مرضيَّ الطريقة .

ومنهم **الشيخ محمد بن إلياس المشتهر بجوي زاده** ، تولى القضاء بمصر ، ثم صار قاضياً للعسكر المنصور ، ثم تولّى الإفتاء بالقسطنطينية ، ثم تقاعدَ عن الفتوى ، وعاد إلى التدريس ، وكان قوّالاً بالحق ، صادعاً بالشرع ، وقال صاحب « الشقائق النعمانية » : إنه كان من محاسن الأيام .

ومنهم **المولى محيي الدين محمد قطب الدين** ، وكان مدرساً ، وما زال يترقى حتى تولّى قضاء العسكر ، ثم عُزِلَ عن القضاء فرجع إلى التدريس ، ثم ترك التدريس ، وذهب إلى الحجّ ، ورجع ، وانقطع للعبادة ، واعتزل الناس .

ومنهم **المولى حافظ الدين محمد بن أحمد باشا بن عادل باشا** ، أصله من بردعة ، في حدود العجم ، قرأ في تبريز ، وفاق أقرانه ، وبلغ الغاية من العلوم

العقلية ، مع الرسوخ التام في الفقه ، والتفسير والحديث ، ومع الأدب ، والتاريخ ، ولم يكن يفترُ عن الكتابة ، وله تآليف كثيرة وشروح وحواشٍ على كتب السيد الشريف الجرجاني ، وله رسالة اسمها « الهيولى » ، وله كتاب اسمه « مدينة العلم » جعله ثمانيةَ أقسام ، وأوراد في كّلٍ قسم منه اعتراضات على ثمانية من العلماء المشهورين في الآفاق ؛ كصاحب « الهداية » ، وصاحب « الكشاف » و« البيضاوي » ، « والتفتازاني » ، و« الشريف الجرجاني » ، ونحوهم . وله رساله اسمها « نقطة العلم » ورسالة أخرى اسمها « معارك الكتائب » ورسالة أخرى اسمها « السبعة السيّارة » وكان بالجملة من أعاظم العلماء .

ومنهم **الشيخ محمد التونسي الغوثي** ، قال عنه الطاش كُبري صاحب « الشقائق النعمانية » : إنه أجازه ، وقال : إنه كان آيةً من آيات الله الكبرى في العلم والفضل والتحقيق ، وكان يقرأ القرآن العظيم على القراءات السبع ، بل على العشر ، وذلك بدون مطالعة كتاب ، وكان يحفظ الشرح « المطول » للتلخيص ، مع حواشيه للسيد الشريف ، ويحفظ « شرح المواقف » للسيد ، و« شرح المطالع » لقطب الدين الرازي ، « والكشاف » مع حواشي الطيبي ، وغير ذلك من الكتب ، يحفظها بأسرها ، ولم يكن يحتاج إلى كتاب ، ولا إلى ورقة ، بل كان يملي كلَّ شيء من حفظه ! وقد يكون شأنه في هذا من خوارق العادة ، وفي آخر الأمر استأذن السلطان سليمان في الذهاب إلى مصر ، فراراً من برد إستانبول الذي لم يألفه ، وتوفي في مصر .

ومنهم **المولى عبد الفتاح بن أحمد بن عادل باشا** ، كان من المدرسين الكبار ، وتوفي وهو يدرّس بمدرسة الوزير إبراهيم باشا في القسطنطينية .

ومهم **المولى علاء الدين علي الأصفهاني** ، وكان أيضاً من كبار المدرسين ، وأصله من بلاد العجم .

ومنهم مصلح الدين المشهور بجاك [**مصلح الدين**] ، وأصله من بلاد منتشة ، وكان مدرساً ، ثم انقطع عن التدريس ، وانقطع للعبادة .

ومنهم **شاه قاسم بن الشيخ المخدومي** ، من أهل تبريز ، لما فتح السلطان

سليم تلك البلدة أتى به معه إلى بلاد الروم ، وكان من الأدباء .

ومنهم **قاضي زاده الأردبيلي** ، وهو من تبريز أيضاً ، فلما فتحها السلطان سليم أتى به أيضاً إلى بلاد الروم ، وقد ترجم « تاريخَ ابن خلكان » إلى الفارسية ، وقُتِلَ مع الوزير أحمد باشا نائب السلطان سليمان في مصر .

ومنهم **محيي الدين محمد القراباغي** ، قرأ في بلاد العجم ، ثم أتى إلى بلاد الروم ، وعاش مدرساً ، وله تآليف منها شرح لرسالة « إثبات الواجب » للدّواني ، وحواشٍ على شرح « الوقاية » لصدر الشريعة : وكتاب في المحاضرات اسمه « جالب السرور » وقد تلّقى علماءُ عصره هذه الكتب بالقبول .

ومنهم **ابن الشيخ الشبشري** ، وقرأ في بلاد العجم ، وجاء إلى بلاد الروم ، وله قصيدة بالفارسية مقدار ستين بيتاً ، مصراعُ كل بيتٍ منها تاريخٌ لجلوسِ السلطان سليمان ، وكان المصراعُ الأخير تاريخاً لفتح قلعة رودس ، وله كتب وحواشٍ على تآليف السيد الجرجاني ، وأثنى السيد الطاش كوبري عليه في أخلاقه .

ومنهم **الشريف العجمي** ، قرأ في بلاد العجم ، ثم جاء إلى بلاد الروم ، وعاش مدرساً ، ومات وهو مدرس في أزنيق .

ومنهم **حسام الدين [حسين الشهير] بابن الطباخ** ، ولد في مدينة گاليبولي ، وكان من المدرسين ، وتولّى القضاء ، ثم ترك القضاء والتدريس ، وكان عالي الهمة ، لا يتذلل إلى أرباب الجاه ، ولا يذكر أحداً بسوء .

ومنهم **محمد بن پير محمد باشا الجمالي** ، قرأ على والده ، ثم على أحمد بن كمال باشا ، وتولّى التدريس بإحدى المدارس الثمان في القسطنطينية ، ثم صارَ قاضياً في أدرنة ، ومات وهو قاضٍ بها .

ومنهم **المولى عبد اللطيف** ، من قسطموني ، وكان أيضاً من أكابر المدرسين ، ثم استُقْضِي في أدرنة ، ثم ترك القضاء ، وكان على جانبٍ عظيم من الصلاح ، همّه في آخرته ، لا في دنياه .

ومنهم **المولى بايزيد الشهير بنقيضي** ، وكان مدرساً صالحاً لا يلتفت إلى الدنيا ، وكان يرضى من العيش بالقليل .

ومنهم **يعقوب الحميدي** ، وهو من المدرسين أيضاً ، وكان عابداً متصوّفاً .

ومنهم **محمد الشهير بابن المعمار** ، كان مدرساً في أسكوب ، ثم جاء مدرساً في إحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية ، واستُقْضِي في مدينة حلب مرتين ، ومات وهو قاضٍ بحلب ، وكان مرضيَّ السيرة .

ومنهم **شمس الدين أحمد المشهور بابن الجصّاص** صار قاضياً بدمشق ، ثم صار مدرساً بإحدى المدارس الثمان في القسطنطينية ، ومات وهو مدرّس بها .

ومنهم **علاء الدين علي المشهور بجرجين** ، وكان يدرّس في المدارس المشهورة ، ومات وهو يدرِّس بإحدى المدارس الثمان .

ومنهم **سيدي المنتشوي الملقب بالدبّ** ، وكان من المدرسين .

ومنهم **المولى حيدر الملقب بحيدر الأسود** ، كان مدرساً ، ثم استُقْضِي بمدينة حلب ، ولم تحمد سيرتُه في القضاء ، فغضب عليه السلطان وعزله ، فعاش في القسطنطينية ، وبنى مسجداً ، وأوقف عليه أوقافاً ، إلا أن اشتغاله بأمور الدنيا كان أكثر من اشتغاله بالعلم عفا الله عنه .

ومنهم **عبيد الله شلبي بن يعقوب** ، الفناري من جهة الأم ، كان قاضياً في مدينة حلب ، قال صاحب « الشقائق » : إنه كان حميدَ الأخلاق إلى الغاية ، وكان من الكرم بما لا مزيد عليه ، وربما تجاوز حدّ الكرم إلى الإسراف ، وملك أموالاً عظيمة ، وكان ينفقها كلها ، وملك عشرةَ آلاف مجلّد من الكتب ، وله شرح على « البردة الشريفة » مِنْ أحسنِ شروحها .

ومنهم **حسام الدين حسين الشهير بكدك حسام** ، كان من المدرسين الكبار ، ومات وهو مدرس في طرابزون ، وكان من أهل التقوى والصلاح .

ومنهم **محمد الشهير بابن القوطاس** ، أصلُ أبيه من بلاد العجم ، وجاء إلى الروم ، وتوفي محمد المذكور وهو يدرّس بمدرسة محمود باشا في القسطنطينية .

ومنهم **سنان الدين يوسف ابن أخي الآيديني** ، الشهير بأخي زاده ، قرأ في بلاد العجم ، ودرّس في بلاد الروم ، وكان عالماً ، سليم النفس ، على فطرة الإسلام .

ومنهم **المولى جلال الدين القاضي** ، كان مدرساً ، ثم صار قاضياً ، وكان عالماً ، فاضلاً ، صالحاً ، محمودَ الطريقة في قضائه .

ومنهم **محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر الحلبي** ، كان مدرساً ، ثم تولّى القضاء ، وكان مشتغلاً بنفسه ، سليم الطبع ، خاشعاً متواضعاً ، وقد بنى دار التعليم بالقسطنطينية .

ومنهم **ابن الكتخدا الكرمياني** ، قرأ في بلاد العجم على العلامة جلال الدين الدوّاني ، وتولّى التدريسَ في الروم ، ثم صار قاضياً ، وحُمدت سيرته في القضاء .

ومنهم **بدر الدين محمود** ، من أولاد الشيخ جلال الدين الرومي ، كان مدرساً بإحدى المدارس الثمان ، وكان صاحبَ أخلاق كريمة .

ومنهم **بدر الدين محمود بن عبيد الله** ، كان مدرساً في إحدى المدارس الثمان ، ثم تولّى القضاء بحلب ، ثم بأدرنة ، ومات وهو قاض بها . وكان مستقيمَ الطريقة .

ومنهم **إسحاق الأسكوبي** ، كان مدرساً بإحدى المدارس الثمان ، ثم استُقضيَ بدمشق ، ومات وهو قاضٍ بها ، وكان صدوقاً صحيح العقيدة .

ومنهم **أبو السعود المشتهر بابن بدر الدين زاده** ، وكان قاضياً ، ومن أهل العلم .

ومنهم **دَلي برادر** ، وكان من المدرسين ، ثم ترك التدريس ، وسكن في القسطنطينية بقرب البحر ، وبنى مسجداً ، وأوقف عليه حمّاماً ، ثم ارتحل إلى مكة ، وجاور بها إلى أن مات .

ومنهم **جعفر البروسوي المشتهر بنهالي** ، كان مدرساً ، ثم صار قاضياً في غلطة من القسطنطينية، ثم مال إلى العزلة ، وكان خَفيفَ الروح ، ظَريفَ الطبع .

ومنهم **باشق قاسم** ، وكان من المدرسين ، وهو من أصحاب اللطائف والنوادر ، ولكنّه كان من الصالحين ، وقد عُمّر نحواً من مئة سنة .

ومنهم **فخر الدين بن إسرافيل زاده** ، كان من المدرسين ، ثم صار قاضياً بدمشق أولًا وثانياً ، وكان له اختصاص بالعلوم العقلية .

ومنهم **شمس الدين أحمد بن عبد الله** ، كان من المدرسين ، ثم تولى قضاء دمشق ، ومات وهو قاضٍ بها ، وكان محمود الطريقة .

ومنهم **حسام الدين حسن شلبي القَرَاصوُيّ** كان مدرساً بإحدى المدارس الثمان ، ثم استُقضيَ بالقسطنطينية ، وكان من العلماء .

ومنهم **أمير حسن الرومي** ، كان من المدرسين ، ومات وهو يدرِّسُ بدار الحديث في أدرنة ، وله حواشٍ على « شرح الفرائض » ، للسيد الشريف .

ومنهم **محمد الشاه بن شمس الدين اليكاني** ، كان مدرساً بإحدى المدارس الثمان ، ومات وهو مدرس بها ، وكان مشتغلاً بنفسه ، لا يذكر أحداً بسوء .

ومنهم **سليمان الرومي** ، كان مدرساً ، ومات وهو مدرّسٌ بإحدى المدرستين المتجاورتين بأدرنة . قال صاحب « الشقائق » : وكانت وفاته في مجلسٍ خاصّ بالعلماء عند حضور سلطاننا الأعظم في وليمته المباركة لختن أولاده الكرام ، وقد سقط مغشياً عليه ، فحُمِلَ من المجلس إلى خيمته ، ومات هناك وكان معرِضاً عن أبناء الزمان ، لا يذكر أحداً إلا بخير .

يريد بقوله : سلطاننا الأعظم السلطان سليمان القانوني .

ومنهم **قطب الدين المرزيفوني** ، وكان من المدرسين ، ومات وهو يدرِّس في طرابزون ، وله تعليقات على « شرح المفتاح » للسيد الشريف .

ومنهم **المولى پير أحمد** ، كان مدرِّساً ثم اسقضي بحلب ، وكان صحيح العقيدة ، لا يذكر أحداً بسوء .

ومنهم **محمد بن الشيخ محمود المغلوي الوفائي** ، كان من المدرسين ، وكان محباً للطريقة الوفائية ، وكان عالماً ، وله مؤلفاً ، وله حواشٍ على حاشية « شرح التجريد » للسيد الشريف .

ومنهم **أحمد بن حمزة القاضي الشهير بعرب شلبي** ، قرأ في مصر الصّحاحَ الستة من الأحاديث ، والفقه ، والأصول ، والهندسة ، والهيئة ، وجاء إلى القسطنطينية ، فبنى له الوزير قاسم باشا مدرسةً بقرب مدرسة أبي أيوب الأنصاري ، فدرَّس هناك طول حياته .

ومنهم **ورق شمس الدين** ، وكان مدرساً بمدرسة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، وكان صالحاً لا يذكر أحداً بسوء .

ومنهم **محمد بن عبد الأول التبريزي** ، كان والدهُ قاضي الحنفية بتبريز ، ورأى المولى جلال الدين الدوّاني وهو صغير ، وحكى أنّ علماء تبريز كانوا يجلسون بين يدي الدّواني مطرقين رؤوسهم ، وجاء محمد المذكور إلى بلاد الروم ، فأعطاه السلطان بايزيد مدرسةً ، ثم أعطاه السلطان سليمان مدرسة أيضاً ، ثم استُقضِي بحلب ، ثم بدمشق ، ثم بالقسطنطينية ، وكانت له اليد الطولى في العلوم العربية والإنشاء ، وكان كثيرَ الاهتمام بالمحسِّنات اللفظية ، ولم يكن يذكر أحداً بسوء .

ومنهم **محمد بن عبد القادر المشتهر بالمعلول** ، كان مدرِّساً بإحدى المدارس الثمان ، ثم تولّى قضاء مصر ، ثم قضاء العسكر ، وكان من أصحاب الثروة ، بنى دار القراء في القسطنطينية وغيرها .

ومنهم **محمد الشهير بمرجا**[١] **شلبي** ، كان من مدرسي المدارس الثمان ، وتولّى قضاء دمشق ، ثم قضاء أدرنة ، ومات وهو قاضٍ بها ، وكان محمودَ السيرة .

ومنهم **پير محمد بن علاء الدين علي الفناري** ، كان من مدرسي المدارس الثمان ، وعلى جانب من العلم والورع .

ومنهم **علاء الدين علي بن صالح** ، كان مدرساً بإحدى المدارس الثمان ، ثم استُقْضِي بأدرنة ، ومات وهو قاضٍ بها ، وكانت له يد في الإنشاء ، وترجم

---

(١) في « الشقائق » (٢٩٠) : (بمرحبا) .

« كليلة ودمنة » إلى التركية ترجمةً حسنةً .

ومنهم **صالح الأسود** ، وكان مدرساً بإحدى المدارس الثمان ، ومات وهو يدرِّس بها ، وكان عالماً صالحاً كاسمه .

ومنهم **المولى أبو الليث** ، وكان مدرساً بإحدى المدارس الثمان ، ثم استُقْضِي بحلب ، ثم بدمشق ، وتُوفِّي وهو قاضٍ بها ، وكان فاضلاً حسنَ العقيدةَ .

ومنهم **فخر الدين بن محمد بن يعقوب** ، وكان مدرساً بإحدى المدارس الثمان ، فاضلاً صاحبَ أخلاق ، مات في عنفوان شبابه .

ومنهم **مصلح الدين مصطفى الشهير بمصدر** ، درَّس بإحدى المدارس الثمان ، ثم استُقضي بمدينة حلب ، ثم صار قاضياً بمكة المشرفة ، واتصل بخدمة العارف بالله السيد علي بن ميمون المغربي .

ومنهم **محمد الشهير بشيخي شلبي** ، درَّسَ بإحدى المدارس الثمان ، ومات وهو يدرِّس بها ، وكان محمودَ الطريقة ، لا يذكرُ أحداً إلا بخير .

ومنهم **سنان الدين يوسف الشهير بكربريجيك زاده**، ودرّس بإحدى المدارس الثمان ، وبمدرسة أيا صوفية ، وأفتى ببلدة أماسية ، وكان مرضيَّ الطريقة .

ومنهم **علاء الدين علي بن عبد الرحيم المؤيد المشهور بحاجي شلبي** ، وكان مدرساً بمدرسة أبي أيوب الأنصاري ، ثم بإحدى المدارس الثمان ، وكان عالماً بالعلوم العربية ، وينظمُ الشعر العربي الحسن ، ومات وهو شاب .

ومنهم **محيي الدين محمد بن عبد الله الشهير بمحمد بك** ، اتصل بخدمة الفاضل ابن كمال باشا ، ثم صار مدرساً بالمدارس المشهورة ، ثم ظهر اختلالٌ في دماغه ، ثم برىء منه ، فسافر إلى مصر ، فأسره النصارى ، واسترده بعض أصدقائه منهم ، وفي زمان السلطان سليمان تولّى التدريس ، ثم استُقْضِي بدمشق ، وكان ماهراً في العلوم العقلية والعلوم الرياضية .

ومنهم **مناسترلي شلبي** ، درّس في مناستر ، ثم اختار العزلةَ ، واشتغل بالعلم والعبادةِ وكان من الصالحين .

ومنهم **الشيخ إبراهيم الحلبي** ، خطيب جامع السلطان الفاتح بالقسطنطينية ، وكان من حلب ، وقرأ في مصر ، ثم أتى القسطنطينية ، فصار خطيباً بجامع السلطان محمد ، ومات عن تسعين سنة ، وكان فقيهاً أصولياً تقياً نقياً ، ملازماً لبيته ، لا يراه أحد إلا في بيته أو في المسجد ، وإذا مشى في الطريق يغضُّ بصرَه عن الناس ، ولم يسمع منه ذِكْرُ أحدٍ بسوء ، وله عِدّةُ تصانيف أشهرها كتابٌ في الفقه سماه « ملتقى الأبحر » .

ومنهم **محمد الحسيني الشهير بسيرك محيي الدين** ، كان معلماً للأمير محمد بن السلطان سليمان ، وكان من ذوي السمت الحسن .

ومنهم **محيي الدين محمد القوجوي الشهير بمحيي الدين الأسود** ، كان معلماً للأمير مصطفى بن السلطان سليمان ، وكان عالماً عاملاً مستقيم الطريقة ، لا يذكر أحداً بسوء .

ومنهم **المولى خير الدين خضر** ، كان معلماً للأمير مصطفى بن السلطان سليمان ، وتُوفي وهو معلم له .

ومنهم **هداية بن بار علي العجمي** ، كان من المدرسين بإحدى المدارس الثمان ، ثم صار قاضياً بمكة ، ثم ترك القضاء ، وجاء إلى مصر ، وتُوفّي فيها ، وكانت له مشاركة في العلوم مع الأدب والتواضع .

ومنهم **محيي الدين محمد بن حسام الدين** ، تنقل في المدارس الشهيرة بين بروسة ، وتيرة ، وأماسية ، وشورلو ، ومناستر ، ومغنيسة ، وأدرنة ، وتولى القضاء بدمشق ، ثم في أدرنة ،ثم في القسطنطينية ، وكان مطلعاً على علم الكلام ، وله يد في التواريخ والمحاضرات .

ومنهم **محيي الدين الآيديني المشتهر باهلجه** ، وكان من المدرسين ، ومات وهو يدرِّس بسلطانية بروسة ، وكان من الصالحين .

ومنهم **عبد القادر الشهير بعبدي** ، كان من كبار المدرسين ، ثم صار قاضياً بمكة ، ثم في مصر ، وتُوفّي وهو قاضٍ فيها ، وكان مرضيَّ السيرة في قضائه .

ومنهم **حسام الدين حسين شلبي القراصُوِي** ، وكان مدرساً بإحدى المدارس

الثمان ، وتوفي وهو مدرس فيها ، وكانت له نسبة خاصة إلى العلوم العقلية .

ومنهم **كمال الدين الشهير بكمال شلبي** ، وكان من المدرسين بإحدى المدارس الثمان ، واستُقضِيَ بدار السلام بغداد ، وتوفي وهو قاضٍ فيها ، وكانَ صحيحَ العقيدة ، كريمَ الأخلاق .

ومنهم **أمير حسن شلبي** ، وكان مدرساً بإحدى المدارس الثمان ، ثم بمدرسة آياصوفيا ، وكان من أهل المروءة والفتوة .

ومنهم **محمد بن الوزير مصطفى باشا** ، كان مدرساً بسلطانية بروسة ، ومات شاباً .

ومنهم **محيي الدين محمد بن المولى خير الدين** ، معلم السلطان سليمان ، كان مدرساً بمدرسة الوزير مصطفى باشا بالقسطنطينية ، ومات شاباً .

ومنهم **فرج خليفة القرماني** ، وكان مدرساً بإحدى المدارس الثمان ، ومات ، وهو مدرس فيها .

ومنهم **شمس الدين أحمد اللازمي المعروف بشمس الأصغر** ، وتنقَّل في التدريس ، إلى أن صار بإحدى المدارس الثمان ، ثم صار مدرِّساً بمدرسة السلطان سليمان بالقسطنطينية .

ومنهم **شمس الدين أحمد البروسوي** ، وكان من المدرسين ، وتُوفّي في أوائل أيام السلطان سليمان .

ومنهم **عبد الرحمن بن يونس الإمام** ، وكان مختصاً بعلم الكلام ، وقد مات شهيداً .

ومنهم **عبد الكريم الويزوي** ، كان مدرساً ، توفي مفتياً في مغنيسة .

ومنهم **شمس الدين أحمد الشهير بالقاف** ، تنقّل في المدارس الشهيرة ، ثم استُقضّي بدمشق ، وكان حسن السمت .

ومنهم **سعد الدين الأقشهري** ، تنقّل في المدارس الشهيرة ، وأفتى بأماسية ، ومات وهو مدرس بمدرسة السلطان مراد في بروسة ، وكان عابداً زاهداً .

ومنهم **خير الدين الأصغر** ، ودرّس في أسكوب ، ثم في شورلو ، ثم مات وهو يدرِّسُ بها .

ومنهم **عبد الرحمن المشهور بابن الشيخ** ، كان مدرّساً ، ثم اعتزل التدريس ، وانقطع إلى الله تعالى ، وكان لا يذكر أحداً بسوء ، وكان يُحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه ، هذا مع القناعة والورع ، والرضى من العيش بالقليل .

ومنهم **حسن القرماني** ، وكان مدرساً ، ثم استقضي في غلطة ، ثم في طرابلس ، ثم في سلانيك ، وتوفي بالقسطنطينية ، وكان صاحِبَ ثروة مع الخير والدينِ وحُسنِ السمتِ في قضائه ، ولم يكن يذكُر أحداً بسوء .

ومنهم **محيي الدين الشهير بابن الحكيم** ، كان قاضياً بالمدينة المنورة صلى الله على ساكنها وسلم ، ومات وهو قاضٍ فيها ، وبنى مدرسةً بالقسطنطينية .

ومنهم **عبد الحي بن عبد الكريم بن علي بن المؤيد** ، من أماسية ، درّس ببلده ، ثم بالقسطنطينية ، ثم صار قاضياً بعدد[1] من البلاد ، ثم اعتزل القضاء ، ورغب في التصوف وكان محمودَ الطريقة .

ومنهم **سنان الدين يوسف** ، أصله من قره سي ، كان متصوفاً واعظاً ، يجلسُ للوعظِ في جامع الأمير محمد بن السلطان سليمان ، وكان عابداً زاهداً تتلألأ أنوار الصلاح من جبينه ، ذا شيبة جليلة .

ومنهم **بدر الدين محمود الآيديني** ، توفي وهو يدرِّسُ بمدرسة محمد باشا في القسطنطينية ، وكان مشتغلاً بالعلم والعبادة .

ومنهم **علاء الدين الآيديني** ، وكان مشتغلاً بالتدريس مع العبادة .

ومنهم **شمس الدين محمد بن عمر بن أمر الله بن الشيخ آق شمس الدين المشهور** ، وكان معلماً للأمير سليم بن السلطان سليمان ، وهو [الذي] تولّى السلطنة بعد أبيه ، وتوفي شمس الدين محمد هذا في سِنّ الشباب .

ومنهم **المولى خير الدين** ، من قسطموني ، وكان مدرِّساً ، ثم صار معلّماً

---

(١) في الأصل (بعدة) .

لبعض أبناءِ السلطان سليمان .

ومنهم **المولى بخشي** ، كان معلماً للسلطان سليم بن السلطان سليمان .

ومنهم **جعفر المنتشوي** ، وكان معلماً للسلطان بايزيد بن السلطان سليمان ، كان مشتغلاً بنفسه .

ومنهم **المولى درويش سبط المولى سنان باشا** ، وكان من المدرسين .

ومنهم **مصلح الدين بن المنتشوي** ، وكان من المدرسين المعروفين .

ومنهم **سعد الله المعروف بابن شيخ شاذيلو** ، وكان من المدرسين أيضاً ، وعلى الفطرة الإسلامية .

ومنهم **عبد الكريم بن عبد الوهاب بن عبد الكريم** ، وكان عالماً صالحاً وتُوفيّ شاباً .

ومنهم **الشريف مير علي البخاري** ، قرأ على علماء عصره في بخارى ، وسمرقند ، ثم جاء إلى بلاد الروم في زمان السلطان سليمان ، وله شرح لطيف على « الفوائد الغياثية » في علم البلاغة للعلامة عضد الدين .

ومنهم **حسام الدين حسين النقاش العجمي** ، من أهل تبريز ، رأى العلامة الدّواني ، وكان رجل من العلماء ، يقال له : غياث الدين منصور ، يريد أن يباحث الدّوانيّ ، فقال ملك تبريز للعلامة الدواني : يريدُ غياث الدين أن يتكلّم معك في بعض المباحث ؟! فقال الدواني : يتكلّم مع الأصحاب ، ونحن نتشرف باستماع كلامه ، ولم يتنزل إلى المباحثة مع غياث الدين ، ثم إنّ النقاش العجمي المذكور جاء إلى بلاد الروم ، ثم جاور بمكة ، ثم جاء إلى القسطنطينية . وكان شافعيَّ المذهب ، وكان حافظاً للأحاديث والتواريخ ، وله شرح على « البردة الشريفة » .

ومنهم **مهدي الشيرازي الشهير بفكاري** ، قرأ في شيراز ، وأتقَن علمَ الكلام ، والمنطق والحكمة ، وجاء إلى بلاد الروم ، وصار مدرساً بمدرسة فلبة ، ومات وهو مدرِّسٌ بها ، وكانت له تآليف ، وكان كاتباً بالعربية .

ومنهم **المولى سعي** ، وكان أديباً بالعربية ، والفارسية ، والتركية ، وتُوفّي

في أوائل سلطنة سليمان خان .

ومنهم **المولى قاسم** ، لازم خدمة العارف بالله ابن الوفاء ، ثم نصبه السلطان بايزيد معلماً لخدَّامه ، وذلك لعلمه وصلاحه ، وكان سريعَ الكتابةِ ، وسرعة كتابته لو وُصِفَت لربما لم يصدق السامع .

ومنهم **ابن المكحل** ، كان خطيباً **بجامع الفاتح بالقسطنطينية** ، وكان بليغاً صالحاً .

ومنهم **محيي الدين بن العرجون** ، وكان حسن الصوت ، عارفاً بالقراءات ، وتولى الخطبة بجامع أياصوفيا .

ومنهم **المولى پير محمد** ، كان ماهراً بالقراءات ، وصار خطيباً بجامع السلطان بايزيد بالقسطنطينية .

ومنهم **الحكيم سنان الدين يوسف** ، مهر في الطبِّ ، ونُصِّبَ طبيباً في بِيمارستان[1] أدرنة ، ثم في بيمارستان القسطنطينية ، ثم صار طبيباً للسلطان سليم خان الثاني ، وهو بعدُ أميراً على طرابزون ، ولما تولّى السلطنة جعله طبيباً لدار السلطنة . ثم جعله السلطان سليمان رئيساً للأطباء ، وبقي على ذلك إلى أن تُوفّي سنة إحدى وخمسين وتسعمئة . قال صاحب « الشقائق » : وسألته عن عمره قُبيل موته بشهر أو شهرين فأخبر أن سنّه مئة أو أكثر بسنتين ، ومع ذلك لم يتغيّر عقله ، إلا أنه ظهر في يديه رعشة ، فسألته عن ذلك فقال : إنّها من ضعف الدماغ ، فتعجبتُ من إخباره عن ضعف الدماغ مع ماله من كمال الإدراك والفهم ، وكان طبيباً مباركاً ، وله احتياط عظيم في معالجاته لقوة صلاحه ، وكان لا يذكرُ أحداً بسوء .

ومنهم **الحكيم عيسى** ، كان طبيباً لبيمارستان أدرنة ، ثم صار طبيباً بدار السلطنة ، وكان متصفاً بكرم الأخلاق ، مملوءاً بالخير من فَرقه إلى قدمه .

ومنهم **الطبيب عثمان** ، أصله من العجم ، جاء في زمان السلطان سليم إلى

---

(١) مشفى .

بلاد الروم ، وصار طبيباً بدار السلطنة ، وكان خيِّراً صالحاً .

ومنهم **يحيى شلبي المعروف بأمين زاده** ، كان أبوه من أمراء الدولة العثمانية ، وغلبَ عليه حُبّ الكمال ، واشتغل بالعلم ، وكان صاحبَ كمالٍ وجمالٍ ، وقرأ على المولى كمال باشا زاده ، وعلى المولى علي شلبي الجمالي ، ثم صار معيداً لدرسه ، ثم صار مدرساً ، وأخذ يتنقَّلُ في المدارس الشهيرة ، ثم صار قاضياً ببغداد ، ثم صار مدرساً بدار الحديث التي بناها السلطان سليمان بالقسطنطينية ، وكان أبعدَ الناس عن ذكر مساوىء الناس . قال صاحب « الشقائق » : ولم تسمع منه كلمة فيها رائحة الكذب أصلاً ، ولا كلمة فحش ، وكان ماهراً في العلوم الأدبية ، وفي التاريخ ، والمحاضرة .

ومنهم **عبد الكريم القادري الملقب بمفتي شيخ** ، كان متصوفاً ، جلس في زاوية أيا صوفيا الصغيرة بالقسطنطينية ، واشتغل بالإرشاد ، ونصّبه السلطان سليمان مُفتياً ، وظهرت مهارته في الفقه ، وكان إذا قعد في الخلوة الأربعينية يرتاضُ رياضةً قويةً ، ويحفرُ في الأرض كالقبر ، ويقعد في تلك الحفرة ، وربّما تعطَّلت حواسه من شدة رياضته ، وبعد تمام الأربعين يخرج إلى الناس ، ويعظهم إلى وقت الخلوة من السنة القابلة ، وكان متواضعاً خاشعاً ، يستوي عنده الكبير والصغير .

ومنهم **الشيخ محمود شلبي** . انتسب إلى العارف بالله أحمد البخاري ، وتزوَّج بابنته ، وبعد موته قام مقامه . قال صاحب « الشقائق » : وكنتُ لا أقدرُ على النظر إلى وجهه الكريم ، لانعكاس حيائه إليّ ، وكان يقرأ عنده كتاب « المثنوي »[1] يؤوّله على طريقة الصوفية .

ومنهم **الشيخ پيري خليفة الحميدي** ، وكان من اتباع السيد البخاري ، زاهداً عابداً منقطعاً عن الناس .

ومنهم **حاجي خليفة المنتشوي** ، كان من طلبة العلم ، ثم انتسب إلى خدمة الشيخ محمود شلبي ، الذي ذكرناه ، وحصل عنده التصوف ، وأكمله ، وأجاز

---

(١) ديوان شعر صوفي بالفارسية للمولى جلال الدين الرومي .

له بالإرشاد ، وكانت له كلمات مؤثرة في القلوب ، وكلٌّ من جالسه يمتلىء قلبه خشية ، ومات وهو مجاور بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية .

ومنهم **الشيخ بكر خليفة السيماوي** ، وكان من المتصلين بخدمة الحاج خليفة المذكور ، وخلفه بعد وفاته ، وكان مشتغلاً بالحقائق ، منقطعاً عن الخلائق .

ومنهم **سنان الدين يوسف الأردبيلي** ، وكان من أتباع العارف بالله شلبي خليفة ، اشتغل بالإرشاد ، وسكن بزاوية عند جامع أيا صوفيا ،ومات عن مئة سنة .

ومنهم **الشيخ رمضان** ، وهو من المتصوفة ، أخذ عن الشيخ قاسم شلبي ، وجلس مكانه بعد وفاته في زاوية الوزير علي باشا بالقسطنطينية .

ومنهم **الشيخ بالي خليفة** ، كان من خلفاء الشيخ قاسم شلبي ، ومات ببلدة صونية بعد الخمسين والتسعمئة .

ومنهم **مصلح الدين مصطفى الشهير بمركز خليفة** ، وكان من أتباع العارف بالله الشيخ سنبل سنان ، و [كان] صارفاً أوقاته للرياضة .

ومنهم **الشيخ سنان خليفة** ، من خلفاء الشيخ سليمان خليفة ، وكان رجلاً أمياً ، إلا أنه كان صاحبَ أحوال سنية ، وجذبات عظيمة !

ومنهم **مصلح الدين مصطفى الشهير بكوندر مصلح الدين** ، كان متصوفاً ، اتصل بالشيخ محيي الدين القوجوي ، وخلفه بعد وفاته . وكان منقطعاً عن الناس ، لا يخرج من بيته إلا ليصلي في مسجده .

ومنهم **محيي الدين الأزنيقي** ، وكان من أتباع محيي الدين الأسكليبي ، وكان من الزاهدين .

ومممن تربّى عند الأسكليبي **الشيخ إسكندر دده بن عبد الله** ، وكان رجلاً أميّاً ، حصل ببركة التصوف على معارف ذوقية ، تتحيرّ فيها العقول ، كما يقال عن سيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه .

ومنهم **محيي الدين محمد** ، كان ببلدة أشتب في الروملي ، وكان من العارفين بالله .

ومنهم **الشيخ إدريس** ، كان من خلفاء شلبي خليفة ، وتوطّن بدمشق .

وكان من خلفاء الشيخ إدريس مريد اسمه**الشيخ داود خليفة** ، وكان عابداً، إلا أنه كان يدّعي أنه يصاحبُ المهدي ، وأنّ المهدي من جماعته !! .

ومنهم **الشيخ بابا حيدر السمرقندي** ، جاء إلى بلاد الروم ، وبنى له السلطان سليمان مسجداً في ظاهر القسطنطينية ، وكان خاشعاً ، يستوي عنده الكبير والصغير .

ومنهم **صفي الدين الملقب بشيخ السّراجين** ، من أماسية .

ومنهم **الشيخ محيي الدين محمد** ، من قرية [قفلة] بقرب أماسية ، ولم يكن يأكل إلا من زراعة يده .

ومنهم **الشيخ عبد الغفار** ، من بلدة مدرني ، وكان أبوه منتسباً إلى الطريقة الزينيّة ، وكان في شبابه تابعاً لهوى نفسه ، فرأى في منامه أنّ والده قد ضربه ضرباً شديداً ، ووبخه ، فلما أصبح ذهب إلى الشيخ رمضان ، وتاب على يده ، وكانت له توبة عظيمة ، ومع هذا فقد كان من العلماء والأدباء ، قال صاحب « الشقائق » : وكان من محاسن الأيام .

ومنهم **الشيخ إسحاق** ، وكان طبيباً نصرانياً ، قرأ على المولى لطفي التوقاتي المنطق ، والعلوم الحكمية ، واهتدى للإسلام ، فترك الطب والحكمة ، واشتغل بتصانيف الإمام الغزالي ، وداوم على العمل بالكتاب والسنة ، إلا أنه أنكر التصوف ، لأنّه لم يصل إلى أذواقهم .

ومنهم **الشيخ أحمد شلبي الأنقروي** ، كان من العلماء ، ثم رغب في التصوف ، ولما بلغ سن الشيخوخة أقام بمدينة أنقرة .

ومنهم **السيد الشريف عبد المطلب بن السيد مرتضى** ، وكان سيداً صحيح النسب ، وحصّل العلم والأدب ، ثم رغب في التصوف ، وصحب الشيخ ابن الوفاء ، وأجاز له بالإرشاد الشيخ يحيى الطوزلري ، وزوّجه بابنته ، إلا أنه لم

يؤثر العزلة والخلوة ، بل بقي يختلط بالناس .

ومنهم **الشيخ عبد المؤمن** ، من أتباع السيد علي بن ميمون ، **انقطع في** مدينة بروسة ، ومن الناس مَن لم يكن يعتقد به ، ولكن يقال : إنّهم كانوا يفترون عليه إتباعاً لأغراضهم .

ومنهم **الشيخ شجاع الدين إلياس** ، من الطريقة الخلوتية ، وكان أمياً تغلُبُ عليه الجذبةُ .

ومنهم **الشيخ أحمد بن مركز خليفة** ، حصَّل العلم ، ثم مال إلى التصوف ، وانتفع به كثير من الناس .

ومنهم **نور الدين حمزة الكرمياني** ، كان من طلبة العلم ، ثم رغب في التصوف ، واتصل بسنبل سنان ، ثم بمحمد بن بهاء الدين ، وكان مواظباً على آداب الشريعة .

ومنهم **تاج الدين إبراهيم الشهير بالشيخ الأصغر العريان** ، وكان منقطعاً عن الناس ، ساكناً بقرب مغنيسة .

ومنهم **محيي الدين المعروف بإمام قلندرخانة** ، صحب الشيخ حبيباً القرماني ، والشيخ ابن الوفاء ، والسيد أحمد البخاري ، وكان عالماً ، ولكن انقطع عن الناس ، وكان خطيباً بجامع قلندرخانة . قال الطاش كوبري صاحب « الشقائق » : سألتهُ عن سنِّه فقال : مئة ، وأقل منها بسنتين ، وعاش بعد ذلك مقدار ثماني سنين .

ومنهم **مصلح الدين مصطفى** ، من خلفاء السيد أحمد البخاري ، كان متوطناً في القسطنطينية في زاوية المسماة بذات الأحجار ، منقطعاً إلى الله ، مشتغلاً بإصلاح أصحابه .

ومنهم **العارف بالله الشيخ علي الكازروني** ، وكان في أول أمره اتصل بخدمة السيد علي بن ميمون المغربي ، وكان له اطلاع على الخواطر وأحوال القلوب .

ومنهم **أحمد بن مصطفى بن خليل الطاش كوبري** ، صاحب كتاب « الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية » ونشأ في أنقرة ، وكان أبوه من العلماء ،

فاعتنى به ، فقرأ على علاء الدين الملقّب باليتيم النحو والصرف ، وقرأ على عمه ، وعلى أبيه ، وعلى خاله ، وعلى المولى محيي الدين الفناري ، وعلى المولى محيي الدين القوجوي ، وعلى المولوي محمود ابن قاضي زاده ، وعلى الشيخ محمد التونسي ، وأجازه العلماء الكبار ، وتولّى التدريس بمدرسة قلندر خانة بالقسطنطينية ، ثم انتقل إلى إحدى المدارس الثمان ، ثم إلى مدرسة السلطان بايزيد بأدرنة ، واستُقْضِيَ في بروسة ، وتوفي وهو مدرّس بإحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية ، وله كتاب اسمه « المعالم في علم الكلام » وحاشية على « حاشية التجريد » للسيد الشريف ، وله كتاب كبير في التاريخ جمع فيه ماذكره ابن خلكان وأضاف إليه ، وقد جمع كتابه « الشقائق النعمانية » بعد أن أصابه الضرر في عينيه ، لأنه بعد أن تولّى القضاء كُفّ بصره ، فصحَّ فيه المثل : إذا جاءَ القضاءُ عمي البصر .

ومنهم **يحيى بن نور الدين الشهير بكوسج الأمين** ، وتنقل في المدارس الشهيرة ، ولما بنى السلطان سليمان مدرسته بالقسطنطينية ، وجعلها دارَ الحديث أعطاه إياها ، ثم بلغ السلطان عنه شيءٌ فغضب عليه ، وعزله ، فأصابه غم شديد ، لم يَعش بعدَه كثيراً .

ومنهم **محمود الآيديني المعروف بخوجه قايني** ، وكان من كبار المدرسين ، وتولّى القضاء بحلب ، ثم بمكة .

ومنهم **المولى مصلح الدين** ، وكان مدرساً في المدارس الشهيرة ، وتولّى قضاء بغداد ، وقضاء حلب ، واستُقضي في أدرنة ، ثم في القسطنطينية ، وأناف عمرهُ على تسعين سنة .

ومنهم **مصلح الدين بن شعبان** من گاليبولي ، وكان معلماً للأمير مصطفى ابن السلطان سليمان ، وكان لا يقطع أمراً إلا بمشورته ، فلما قَتَلَ السلطان ابنه عند خروجه من طاعته ، وقع في هوة الفقر ، وصبر على نوائب الدهر .

ومنهم المولى **محيي الدين الشهير بجرجان** ، وكان يدرّس في المدارس الشهيرة ، ثم تولّى الإفتاء ، ثم عزل بكائنة خروج الأمير بايزيد بن السلطان سليمان .

ومنهم **محمد بن محمد الشهير بعرب زاده** ، وكان مدرساً في إحدى المدارس الثمان ، وتولى قضاءَ مصر ، وسافر إليها بحراً في قلب الشتاء ، فأصابتهم عاصفةٌ ، فغرق هو وجماعة من رفاقه .

ومنهم **نعمة الله الشهير بروشني زاده** ، وتنقّل في المدارس الشهيرة ، ثم تولّى قضاء المدينة المنورة ، وحمدت سيرته في القضاء ، ولكنه كان في لسانه بذاءة ، يحذرُه الناس من أجلها .

ومنهم **شاه علي شلبي بن قاسم بك** ، وكان من أصحاب الزهد والصلاح .

ومنهم **شمس الدين أحمد بن أبي السعود** ، وكان مدرساً في إحدى المدارس الثمان ، ثم في مدرسة الأمير محمد بن السلطان سليمان ، وتوفيّ وهو مدرسٌ فيها .

ومنهم **قورت أحمد شلبي بن خير الدين** ، معلم السلطان سليمان ، وكان مدرساً .

ومنهم **غرس الدين أحمد** ، نشأ في حلب ، ثم قصد دمشق ، وأخذ الطب فيها عن رئيس الأطباء المشهورين بابن المكي ، ثم ارتحل إلى مصر ، وأخذ العلوم العقلية والرياضيات عن الشيخ ابن عبد الغفار ، وأخذ علوم الدين عن القاضي زكريا .

ومنهم **عبد الباقي بن علاء الدين العربي الحلبي** ، وكان من المدرسين المشهورين ، وتقلّد القضاء في حلب ، وفي مكة ، وفي مصر ، وكانت له شهرة عظيمة إلا أنه كان مقبلاً على الدنيا .

ومنهم **الشيخ عبد الرحمن بن جمال الدين المعروف بشيخ زاده** ، وكان من جلّة العلماء ، وأجازه المفتي أبو السعود .

ومنهم **محمد بن المفتي أبي السعود**، وكان مدرساً، وتقلّد القضاء في دمشق.

ومنهم **المولى صالح بن جلال** ، وكان السلطان سليمان أمره بترجمة بعض الكتب الفارسية ، فأتمها في قليل من الزمن ، ثم تولّى قضاء حلب ، ثم قضاء مصر .

ومنهم **محيي الدين الشهير بابن الإمام** ، وتولى قضاء حلب .

ومنهم **الشيخ تاج الدين إبراهيم بن عبد الله** ، وكان يدرّس بمدرسة سليمان باشا في أزنيق ، وله تآليف ، من جملتها ردٌّ على ابن كمال باشا .

ومنهم **دده خليفة** ، وتولى التدريس ، ثم الإفتاء ، وله تآليف منها حاشية على « شرح التفتازاني في الصرف » .

* * *

١١ ـ السلطان سليم الثاني

١٥٦٦ ـ ١٥٧٤

هذا وتولّى بعد السلطان سليمان الكبير ولدهُ السلطان سليم الثاني ، وذلك في أوائل ربيع الأول سنة أربع وسبعين وتسعمئة (١٥٦٦) ، وكانت وفاة السلطان سليمان رحمه الله في اليوم الثاني والعشرين من صفر سنة أربع وسبعين وتسعمئة ، وجاؤوا بجنازته إلى القسطنطينية ، وكان يوماً عظيماً ، وبقي خبرُ موته مكتوماً خمسين يوماً ، وجاء في تاريخ سلطنة سليم الثاني :

سليمٌ تولّى الملكَ بعدَ سليمان

ولما جاء سليم بجنازة أبيه إلى القسطنطينية ، لم يوزِّع على الإنكشارية العطايا التي اعتاد السلاطينُ توزيعها عند جلوسهم على عرش السلطنة، فحصلت ثورةٌ ، صارت تتفاقم ، وعجز الوزراء عن قمعها ، وخاف السلطان على نفسه ، فاضطر إلى إجابة طلب العساكر ، وأنفق جميعَ ما في الخزانة حتى أسكتهم .

وكان سليم الثاني أول سلطان انحرف عن الجادة التي كان يسيرُ عليها آل عثمان ، فإنهم كانوا بأجمعهم أبطالًا يباشرون القتال بأنفسهم ، ولا يعرفون للراحة معنى ، ولم يكن لهم غرام إلا بالفتوحات ، وتأييد الإسلام ، وتحصين ثغور المملكة ، وقهر عداها ، وكانت همم جميعهم ساميةً ، لا يعرف منهم نكس ولا كَلل ، فما بدأ دور التراخي في آل عثمان إلا في زمن سليم الثاني .

وكان محباً للدعة والراحة ، ملازماً للحرم[1] ، مدمناً لشرب الخمر ، مسترسلاً في الشهوات ، وفي أيامه ارتفع التحريج عن الخمرة ، فكاد يعمُّ شربُها ، وإنما روى صاحب « الدر المنظوم » أنه قَبلَ موته تاب ، وكسر أدوات اللهو وأواني الشرب ، وكان قد ألقى السلطان سليم بمقاليد الأمر إلى وزيره [محمد باشا] الصوقلي ، ولولا الصوقلي لسقطت هيبةُ السلطنة ، ولم يمت

---

(١) وأم السلطان سليم هذا أوكرانية تدعى روكسلان .

سليمان القانوني حتى انعقدت في (١٧) فبراير ـ شباط سنة (١٥٦٨) مسيحية (٩٧٥) هجرية معاهدة بين الدولة العثمانية والمجر، على أنّ كلَّ فريقٍ يحفظُ ما بيده، وأنّ النمسة تؤدي للدولة ثلاثين ألف دوقية سنوياً، وتعترفُ بسيادة الباب العالي على البغدان، والفلاخ، وترانسلفانية، ولم تحصل النمسة على هذا الصلح إلا بعد أن رشت رجالَ الباب العالي بأربعين ألف دوقية.

وكان الصوقلي يريدُ أن يرسل عساكر تستولي على بلاد القُولغا في شماليّ روسية، حتى يقطع ما بين الروس وبين آسية، فسرَّح جيشاً إلى استراخان، ولكن لم توفق تلك الغزاة، برغم جميع ما بذله الصوقلي من العناية، ولم يساعده خان القرم دولة غرائي كما كان يُنتَظر.

وفكر الصوقلي في فتح ترعة السويس لتتمكن الدولة العثمانية من البحر الأحمر والبحر الهندي، ولكنه لم يتمكن من إجراء فكرته هذه بسبب توالي الحروب.

وفي زمن السلطان سليم الأول كانت الحجاز واليمن دخلتا في طاعة الدولة، ولكنّ الزيدية لم يلبثوا أن ثاروا على العثمانيين بقيادة الإمام مطهر، وبعد أن دخل الأتراك إلى صنعاء، أخرجوهم منها ومن سائر المدن، ولم يبقَ تركٌ إلا في زَبيد، فأرسلت الدولة سنان باشا الأرناؤوطي، فتغلّب على الزيدية، واعترف الإمام مطهر بسيادة السلطان.

وفي زمن سليم الثاني فتحت الدولةُ جزيرة قبرص، ويقال: إن الذي رغَّب السلطان في فتحها رجلٌ يهودي برتغالي اسمه يوسف ناسي، مدح له خمر قبرص، فجرّد عليها أسطولًا وفتحها، وقيل: إنّه وعد هذا البرتغاليَّ بتوليته قبرص، ولكنه بعد الفتح استحيا من إنجاز ذلك الوعد المُدني، الذي حمله عليه الشرب، ولكنه أعطى البرتغالي لقب دوق ناكسوس، وكان الوزير الصوقلي غير مرتاح إلى فتح قبرص، ويفضل على ذلك إنجاد مسلمي الأندلس، الذين كانوا يثورون المرة بعد الأخرى على الإسبانيول، ويستنجدون بآل[1] عثمان،

---

(١) في الأصل (آل).

ولكنَّ لالا مصطفى باشا ، والوزير بيالي ، وقبطان البحر أرادوا فتح قبرص ، فساقت الدولة مئة ألف مقاتل إلى تلك الجزيرة ، ونزلت العساكر في (١) أغسطس ـ آب سنة (١٥٧٠) مسيحية (٩٧٨) هجرية ، وحاصر العثمانيون نيقوسية ، وأخذوها عنوةً ، ويقال : إنهم قتلوا عشرين ألفاً من الأهالي ، واستولى الأتراك على ليماسول ، ولارنكة ، وامتنعت فاماغوستة ، وردَّت هجمات الأتراك ، لكنّها لم تقدر على المقاومة إلى الآخر ، واستولى الترك عليها ، وقتلوا قائدها براغادينو ، الذي أبدى تلك المقاومة الشديدة ، ولما وصل خَبر قبرص إلى أوروبة ، اتفقت البندقية ، والبابا ، ودولة إسبانية ، وفرسان مالطة ، وجهزوا أسطولاً كبيراً فيه سبعون سفينة إسبانيولية ، وتسع سفن لفرسان مالطة ، واثنتا عشرة سفينة للبابا ، ومئة وأربعون سفينة للبندقية ، فتلاقى هذا الأسطول بالأسطول العثماني في (٧) أكتوبر ـ تشرين الأول سنة (١٥٧١) مسيحية (٩٧٩) هجرية ، وكان الأسطول العثماني ثلاثمئة سفينة ، واشتبك القتال بإزاء جزائر كورزولاري ، على سواحل بلاد الأرناؤوط .

ووقعت سفينة قبطان البحر العثماني بين سفينتي الأميرال الإسبانيولي ، والأميرال البندقي ، فجاءت أربع سفن عثمانية لأجل تخليص أمير البحر العثماني ، وفي أثناء المعمعة أصابته رصاصة فسقط ، وهجم الإسبانيول ، وقطعوا رأسه ، ودارت بعد ذلك الدائرة على العثمانيين ، فأخذ الأسطول المسيحي منهم مئة وثلاثين سفينة غصباً ، وأحرقوا أربعاً وتسعين ، وغنموا ثلاثمئة مدفع ، وأسروا ثلاثين ألف مقاتل ، وأنقذوا خمسة عشر ألف أسيرٍ مسيحي . ولم ينجُ من الأسطول الإسلامي إلا أربعون سفينة لأمير الجزائر ، وكانت خسائر أسطول النصرانية لا تزيدُ على خمس عشرة سفينة ، وثمانية آلاف مقاتل ، وبعد هذه المعركة المشهورة بمعركة ليبانت ، لم تقم للبحرية الإسلامية قائمة تُحمَدُ في البحر المتوسط ، ولهذه المعركة قُرِعَت طبول البشائر في جميع العالم المسيحي ، **ولا يزال أهل إيطالية يحتفلون كل سنة بتذكار هذه الموقعة** .

ولما بلغ الخبر السلطان امتنع ثلاثة أيام عن الطعام ، وطرح نفسه على الأرض يستغيث بالله أن يرأف بالإسلام ، لأنّ القوة البحرية التي كان أسسها سليم

الأول وسليمان القانوني استولى عليها البوار بهذه الكائنة ، ولكن الصوقلي بمهارته ، لم يلبث أن شرعَ بتجديدِ الأسطول العثماني بسرعةٍ خارقةٍ للعادة ، وعضّده في ذلك أمير الجزائر ، أولوج علي ، وتوجهت إليه[1] إمارة البحر ، فبنى العثمانيون مئة وخمسين سفينة حربية ، وكان القرار هو أن يبنوا مئة وخمسين سفينة ثانية ، فقال قبطان البحر : إنّه يصعب على الدولة استحضار كلّ لوازم هذه السفن ، فأجابه الصوقلي الصدرُ الأعظم : بأنّ السلطنة بمنابع ثروتها تقدِرُ أن تجعلَ جميعَ الأسلحة من الفضة ، وجَميع الأشرعة من الأطلس ، وهكذا خرج الأسطول العثماني في سنة (٩٨٠ ـ ١٥٧٢) بمئتين وخمسين بارجة حربية ، فعادت البندقية تحسبُ للعاقبة حساباً . وفي (٧) مارس ـ آذار سنة (١٥٧٣) مسيحية (٩٨١) هجرية ، وارتضت بالصلح مع الباب العالي ، وتخلّت عن جزيرة قبرص ، ودفعت ثلاثمئة ألف دوقية تعويضات ، ثم طرد العثمانيون الإسبانيول من تونس ، واستولوا على هذه البلدة ، وامتنع الإسبانيول بحلق الواد ، إلا أنّ الدون جوان دوتريش ، جاء بأسطول إلى تونس ، وردَّ مولاي حسن الحفصي إلى الملك ، ولم يطل هذا الأمر ، إذ بعد سنة ونصف جاء سنان باشا ، ومعه أربعون ألف مقاتل ، فطرد الحفصي والإسبانيول معاً ، واستولى على قلعة حلق الواد ، التي امتنع الإسبانيول بها .

ثم عصت بلاد البغدان ؛ فأرسلت الدولة جيشاً خلع أميرها ، ونصّب مكانه رجلاً اسمه إيڤونيا ، وفرّ أمير البغدان السابق إلى روسية حيث قتله إيڤان ملك الروس ، ثم إنّ إيڤونيا نفسه عصى على الدولة ، وظاهره القوزاق ، واستولى على برايلة ، وبندر ، وأكرمن ، فزحفت إليه الجنود العثمانية ، فهزمته ، ووقع في الأسر ، واستؤصِل القوزاق بأجمعهم .

ومات السلطان سليم في (١٢) ديسمبر ـ كانون الأول (١٥٧٤) مسيحية (٩٨٢) هجرية ، ومع ما كان عليه هذا السلطان من القصور ، فقد كانت وفاته مصيبةً على الدولة ، لأنّه بعد وفاته سقط الصدر الأعظم الصوقلي ، وكان رجلاً

---

(١) في الأصل (عليه) .

من دهاة الرجال ، وكان نادر المثال .

وجاء في « شذرات الذهب »[١] نقلاً عن « الأعلام » أنّ السلطان سليم الثاني ولد سنة تسع وعشرين وتسعمئة (١٥٢٢) ، وجلس على تخت السلطنة يوم الإثنين لتسع من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمئة ، ومدةُ سلطنته تسعُ سنوات ، وسنّة حين تسلطن ست وأربعون سنة ، وعمره كلُّه ثلاثٌ وخمسون سنة ، وكان سلطاناً كريماً ، رؤوفاً بالرعية ، رحيماً ، عفواً عن الجرائم حليماً ، محباً للعلماء والصلحاء ، محسناً إلى المشايخ والفقراء ، طالما طافت بكفيه الآمال واعتمرت ، وصدع بأوامره الليالِيَ والأيام فأتمرت ، كم أظهرت لسوادِ الكفرةِ يدُ صارمهِ البيضاء آيةً للناظرين ، وكم جهزّ جيوشاً للجهاد في سبيل الله فقطعَ دابر القومِ الكافرين .

فمن **أكبر غزواته** : فتح جزيرة قبرص بسيف الجهاد ، ومنها فتحَ تونس المغرب ، وحلق الواد ، ومنها فتحُ ممالك اليمن ، واسترجاعها من العصاة .

ومن خيراته تضعيف صدقة الحب على أهل الحرمين، والأمر ببناء المسجد الحرام.

وتولى بعده ولده السلطان مراد ، وتاريخ جلوسه :

بالبختِ فوقَ التَخْتِ أصبحَ جالساً ... مَلِـكٌ بـهِ رَحِـمَ الإلـهُ عِبَـادَهُ
وبـهِ سَرِيرُ المُلـكِ سُرَّ فـأَرِّخُوا ... حازَ الزَّمانُ مِنَ السّرورِ مَرادَهُ

اهـ . وهو من نظم الشاعر ماميه الرومي .

* * *

وفي زمن السلطان سليم الثاني نبغ من العلماء :

الشيخ محيي الدين المشتهر بحكيم شلبي ، وكان من الأطباء .

وعلاء الدين المنوغادي ، وكان من المدرسين الكبار ، وتولى قضاء بغداد .

---

[١] « الشذرات » (٨ : ٣٩٦) .

والمولى شمس الدين أحمد بن أخي القرماني ، وكان أيضاً مدرساً ، ثم تولى قضاء المدينة المنورة .

ويعقوب الشهير بجالق ، وكان مدرساً أخيراً بإحدى المدارس الثمان ، ثم تولى قضاء بغداد .

وتاج الدين إبراهيم ، وقضى حياته في التدريس ، وكان في المدرسة التي بناها السلطان سليمان في دمشق .

ومحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم ، وأخذ عن أبي السعود المفتي ، وعن كمال باشا زاده ، وتولّى قضاء حلب ، ثم قضاء الشام ، ثم قضاء مصر ، ثم صار قاضياً بالعسكر المنصور ، ثم اختلف مع الوزير الكبير فاعتزل ، وكان من الأجواد الكبار فوق علمه وفضله . ولما جمع المولى محيي الدين سباهي زاده حواشيه التي علّقها على « حاشية التجريد » للسيد الشريف صدّرها باسمه ، فأعطاه مئة دينار ، ويقال : إنه حصل له من قضائه بالعسكر سبعون ألف دينار ، أنفقها كلها ، ومات وعليه أربعةُ آلاف دينار ، وكانت له مقامات على منوال « مقامات الحريري » ، وعلّق حواشٍ على « حاشية الدواني للتجريد » وله شعر عربي بديع .

ومنهم السيد حسن بن سنان ، خدم المفتي أبا السعود ، ودرّس في المدارس الشهيرة ثم تقلّد قضاء حلب ، ثم انتقل إلى مكة ، وحمد أهلُ الحجاز قضاءه .

ومنهم مصلح الدين داود زاده ، وتنقل في المدارس ، حتى صار إلى إحدى المدارس الثمان ، ثم مدرسة سليم خان ، ثم تقلّد قضاءَ المدينة المنورة ، ولما دخل الحرمَ الشريف أعتقَ مماليكه ، ومات بالمدينة المنورة ، ودفن بالبقيع .

ومنهم المولى محمود ، معلّم الوزير الكبير محمد باشا ، وتنقّلَ في المدارس ، ثم تولّى قضاءَ القاهرة ، وحمد الناسُ قضاءه .

ومنهم مصلح الدين الشهير بمعلم السلطان جهانكير ، ابن السلطان سليمان ، وكان من العلماء العاملين .

ومنهم محيي الدين الشهير بابن النجار ، نشأ في أسكوب من الروملي ،

وتولّى التدريسَ مدةً طويلة ، ثم تولّى قضاء بغداد ، وكان فاضلاً أديباً ، وله نظم بالتركي والعربي .

ومنهم **عبد الرحمن المعروف بيالدار زاده** ، كان مدرساً في ديموطقة ، ثم في القسطنطينية ، وتولّى قضاء المدينة المنورة ، وقضاء حلب .

ومنهم **مصلح الدين بستان** ، وكان مدرساً في إحدى المدارس الثمان ، ثم تولىّ قضاء أدرنة ، ثم قضاء القسطنطينية ، ثم قضاء العسكر المنصور . وكان من فحول العلماء ، وله تآليف قيمة .

ومنهم **مصلح الدين الشهير بكوجك بستان** ، وكان من كبار المدرسين . وأفتى في بلاد مغنيسة .

ومنهم **المولى عبد الله الشهير بغزالي زاده** ، وهو من ذرية الإمام الغزالي ، وكان منسوباً إلى الوزير الكبير رستم باشا ، وولّاه القضاء في قصبة أبي أيوب الأنصاري ، مع قصبة غلطة ، فلما عُزِلَ رستم باشا عزل هو أيضاً معه ، وكان محمودَ الطريقة .

ومنهم **المولى جعفر** ، ابن عم المفتي أبي السعود ، كان مدرساً ، ثم تولى قضاء دمشق ، ثم قضاء العسكر في الأناضول ، وكان عالماً عابداً .

ومنهم **شاه محمد بن حزم** ، وهو من ذرية جلال الدين صاحب « المثنوي » ، وكان من أكابر المدرسين ، وتقلّد قضاء القاهرة ، ثم قضاء القسطنطينية ، وكان من فحول العلماء ، إلا أنه كان معجباً مستبداً صعبَ المقادة ، وله حواشٍ على كتاب « الإصلاح والإيضاح » لكمال باشا زاده ، وحاشية على « حاشية التجريد » للسيد الشريف .

ومنهم **أحمد بن عبد الله المشتهر بالفوري** ، ودرّس بمدرسة السلطان [سليم بن] بايزيد في دمشق ، وكان عالماً أديباً ، له رسالة في علم الخط .

ومنهم **المولى يحيى بن عمر** ، من أماسية ، وكان من المدرسين العظام ، وبلغ السلطان عنه شيءٌ فعزله عن التدريس ، فانقطع عن الوزراء ، واتخذ مسكناً في بشكطاش من القسطنطينية ، وبنى أيضاً مدارسَ ومسجداً ، وكان يُطعِمُ

الفقراء ، وكان الناس يعتقدون فيه الولاية ، ولما مات صلّى عليه المفتي أبو السعود ، وكانت له جنازةٌ عظيمةٌ .

ومنهم **أحمد بن محمد بن حسن الصامصوني** ، وقضى حياته في التدريس ، وتولّى مرة قضاء حلب ، وحمده الناس في قضائه .

ومنهم **المولى عطاء الله** ، معلم السلطان سليم الثاني ، وكان يعلّمه عندما كان أميراً على مغنيسة ، فلما جلس على كرسيّ السلطنة حَظِيَ عنده ، وصار يشاوره ، وصار يقدِّم رجاله ، وربما قدم غيرَ المستحق على المستحقِ ، فخاض الناس في عرضه ، ونسبوه إلى التعصب ، ولما مات كانت له جنازةٌ حافلة ، وصلّى عليه المفتي أبو السعود ، ونزل السلطان إلى الباب العالي بنفسه .

ومنهم **الشيخ رمضان** ، وكان خطيباً في جامع أحمد باشا في شورلو ، وتوفي هناك ، وكانت له تآليف وحواشٍ .

ومنهم **پير أحمد المشهور بليس زاده** ، كان أبوه قاضياً في مصر ، وقضى حياته في التدريس .

ومنهم **المولى سنان** ، وكان أيضاً من المدرسين المعروفين ، ومِن مزاياه أنه كان يسعى في مصالح الناس ، مقصداً لذوي الحوائج .

ومنهم **علاء الدين علي بن محمد المعروف بحناوي زاده** ، وكان مدرساً في إحدى المدارس الثمان ، ولما بنى السلطان سليمان المدرستين اللتين بناهما غربي جامعه الكبير ، أعطاه إحداهما ، ثم تولّى القضاء في دمشق ، ثم في بروسة ، ثم في أدرنة ، ثم في القسطنطينية ، ثم صار قاضي العسكر ، وكان من فحول العلماء ، وقد جمع الأدبَ إلى العلم ، وله بدائع النظم ، وله كتب كثيرة .

ومنهم **الشيخ يعقوب الكرماني** ، وكان أبوه من الجند ، ولكنّه رغبَ في العلم والعبادة .

ومنهم **محمد بن خضر شاه المعروف بابن الحاجي حسن** ، وكان مدرساً شهيراً . ثم تقلّد قضاءَ المدينة المنورة ، ثم قضاء مكة المشرّفة .

ومنهم **مصلح الدين اللاري** ، نسبة إلى اللار بالراء المهملة . وهي مملكةٌ بين الهند وشيراز ، جاء من بلاده إلى القسطنطينية ، ثم خرج إلى ديار بكر ، وآمد ، ومات هناك ، وله تآليف وحواشٍ على الكتب المشهورة ، وأرادَ معارضة المفتي أبي السعود في قصيدته الميمية فقصَّر عنه .

ومنهم **الشيخ أبو سعيد ابن الشيخ صنع الله** ، أصله من بلاد تبريز ، وكان من المرشدين ، ومن الأجواد ، وكانت له كلمة نافذة عند الملوك .

ومنهم **شمس الدين أحمد بن مصلح الدين المشتهر بمعلّم زاده** ، يقالُ : إنه من ذرية إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه ، وكان مدرّساً ، ثم تولى القضاء ، ومازال يرقى في القضاء حتى تولى قضاء عسكر الروملي .

قال صاحب[1] « العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم » (٤٢٦) : إنّه كان مجبولاً على اللطف والكرم ، غير أنّ فيه طمعاً زائداً ، وحرصاً وافراً ، سامحه الله أولاً وآخراً .

ومنهم **الشيخ بالي الخلوتي المعروف بسكران** ، وتعاطى في أول أمره التدريس ، ثم تبع الطريقة الصوفية ، فترك التدريس والإفادة ، وعكف على الزهد والعبادة .

ومنهم **علي بن عبد العزيز المشتهر بأم الولد زاده** ، وكان مدرساً كبيراً ، ولكنّه لم يكن له حظ ، فعانى كثيراً من الفقر ، ونكبات الدهر ، ثم تولّى قضاء حلب ، ولم يكد يتولاه حتى مات ، وعارضَ المفتي أبا السعود في قصيدته الميمية ، لأنّه كان ضارباً بسهم في الأدب ، متمكناً من لغة العرب .

ومنهم **الشيخ محيي الدين بركيلو** ، وكان عالماً عادلاً ، قوالاً بالحق ، لا يهاب الحكام والأمراء ، وربما وبخهم في وجوههم .

ومنهم **محيي الدين نكساري زاده**، وكان مدرساً، وكان في قول الحق صارماً.

---

(١) هو علي بن لالي بالي بن محمد بك المعروف بمنق المتوفى سنة (٩٩٢) وكتابه هذا ذيل لكتاب « الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية » لطاش كبري زاده .

ومنهم **عبد الكريم بن محمد بن أبي السعود** ، تولّى قضاء القسطنطينية ، ثم قضاء العسكر ، وكان من أفذاذ العلماء ، وتوفّيَ وما بلغ عمره الثلاثين سنة .

وأما **أبو السعود أفندي المفتي [محمد بن محمد] بن مصطفى العمادي الشهير** ؛ فإنّه كان حسنةَ زمانِ السلطان سليمان ، وكان منه بمقام القاضي أبي يوسف من هارون الرشيد ، والقاضي الفاضل من صلاح الدين يوسف ، والقاضي منذر بن سعيد البلوطي من عبد الرحمن الناصر الأموي ، ولم تطر شهرة أحدٍ من شيوخ الإسلام في دولة آل عثمان مطارَ شهرتِه .

ولد رحمه الله سنة ثمان وتسعين وثمانمئة ، بقريةٍ قريبةٍ من القسطنطينية ، من خواصّ أوقاف الزاوية التي كان السلطان بايزيد خان قد بناها للمولى محيي الدين العمادي ، والد أبي السعود ، وقرأ المولى أبو السعود على والده ، وعلى الشيخ عبد الرحمن المشتهر بشيخ زاده ، وبدأ أبو السعود أفندي بالتدريس يتنقّلُ من مدرسة إلى مدرسة ، حتى انتهى إلى إحدى المدارس الثمان ، ولما فارقها ، ودّعها بأبيات منها :

دنا النأيُ عَنْ نجدٍ فأصبحتُ قائلاً ... وداعاً لَمِنْ قَد حَلّ هذي المنازِلا
فيا حبَّذَا تِلْكَ المعالِمُ والرُّبى ... بها كلُّ مَنْ تهوى ، وما كنتَ آمِلا
نسيمُ الصَّبا عَرِّجْ عليها ونادِها ... سقَتْك الغوادي وابلاً ثُمّ وابلا
نأتْ عَنْكَ داري لاقِلًى وسآمة ... بلى فَعَلَ التقديرُ ما كانَ فاعِلا
ولنْ تَبْرَحَ الأشواقُ تَزدَادُ في الحشا ... إلى أنْ أرى أمراً مِنَ الدّهرِ هائِلا

وتقلّد قضاء بروسة ، ثم قضاء القسطنطينية ، ثم قضاء العسكر في الروملي .

قال صاحب « العقد المنظوم » (٤٤١) : ولما انتقل المولى سعد بن عيسى بن أمير خان إلى رحمة ربه ؛ اضطرب أمرُ الفتوى ، وانتقل من يدٍ إلى يدٍ ، ولم يثبت سقف بيتِه على عمدٍ ، حتّى تسلَّم أبو السعود زمامَ الإفتاء ، وذلك سنة اثنتين وخمسين وتسعمئة ، وبقي في عُهدته نحواً من ثلاثين سنة ، وكَتَب الجوابَ مراراً في يوم واحد .

ثم قال صاحب « العقد المنظوم » (٤٤١) : وسارت أجوبته في جميع العلوم مسيرَ النجوم .

وكانت وفاةُ أبي السعود في أوائل جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمئة ، وصلّى عليه المولى سنان مُحَشّي « تفسير البيضاوي » ودُفِنَ في جوار أبي أيوب الأنصاري .

ثم قال صاحب « العقد المنظوم » : إنّه تفرّدَ في ميدان فَضلِه ، فلم يجاره أحدٌ ، وضاقت عن إحاطته صدورُ الحَصرِ والحدّ ، ما صارع أحداً إلا صرعه ، وما صمَّم شيئاً إلا قطعه ، وانقطع القرين . ولم يبقَ من يعارضه ويكايده ، وقد وصل تلاميذُه وأصحابه إلى المناصب العليّة ، والمراتب السنية ، فكان لا يضيُع منه كلام ، ولا يفوتُ له مرام ، وقد عاقه الدرس والفتوى والاشتغال بما هو أهم وأقوى ، عن التفرغِ للتصنيف ، سوى أنّه اختلس فُرصَاً ، وصرفها إلى التفسير الشريف ، وقد أتى فيه بما لم تَسمَخْ به الأذهانُ ، ولم تُقْرَعْ به الآذان وسمّاه « إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم »[1] ولما وصل منه إلى آخر سورة ﴿ ص ﴾ ، ورد التقاضي من طرف السلطان سليمان خان ، وظهر كمالُ الرغبة والانتظار ، فلم يمكن التوقف والفرار ، فبيّض الموجودَ ، وأرسله مع صهره المولى محمد المشتهر بابن المعول ، فقابله السلطان بحسن القبول ، وأنعم عليه بما أنعم ، وزاد في وظيفته كلَّ يومٍ خمسمئة درهم ، وبعد ذلك تيسّر له الختام ، ورتّبه بالكمال والتمام ، وأرسله إلى السلطان ثانية بعد إتمامه ، فقابله السلطان بمزيد لطفه وإنعامه ، وزاد في وظيفته مئة أخرى .

وكان يمنعُه عن الإكثار من التآليف تواتر الفتوى من الآفاق .

ومن شمائله أنه كان ذا مهابة عظيمة ، قلما يقع في مجالسه أخذٌ وردٌ ، ولكنه كان كثيرَ المداراةِ للنّاسِ ، مائلاً إلى مداهنة رجال الحكومة ، وكان طويلَ القدِّ ، خفيفَ العارضين ، غير متكلّف في اللباس والطعام ، انتهى بتصرف .

وله من النظم القصيدةُ الميمية المشهورة :

---

(١) وهو التفسير المشهور بتفسير أبي السعود اختصره من « الكشاف » وهو مطبوع ومتداول .

أبعدَ سُلَيْمَى مَطْلَبٌ وَمَرَامُ ... وغير هواها لَوْعَةٌ وغرامُ
وفوقَ حِماها مَلْجَأٌ ومثابةٌ ... ودونَ ذُرَاها مَوْقِفٌ وَمقامُ
وهيهاتَ أنْ يُثْنَى إلى غيرِ بابها ... عِنانُ المطايا أو يُشَدَّ حِزامُ
هي الغايةُ القُصْوَى فإنْ فاتَ نَيلُها ... فكلُّ مُنَى الدنيا عليَّ حَرَامُ
سلا النفس عنها ، واطمأنت بِنَأْيِها ... سُلُوَّ رَضِيعٍ قد عَرَاهُ فِطامُ

وهي تسعون بيتاً ، شرحها كثيرٌ من العلماء .

وله مشيراً إلى تعلّق الإنسان بالعالم الجسماني قصيدة مطلعها :

طالَ الثواءُ بدارةِ الهجرانِ ... مثوى الكروبِ قرارة الأشجان

ومنها :

حتّى مَ ترتعُ في مراتعِ غفلةٍ ... وإلى مَ تَسْلُكُ مَسْلَكَ الخُسرانِ
فكأنَّ قلبكَ في جناحَيْ طائرٍ ... بادي التقلُّبِ دائمِ الخفقانِ
ما زلتَ تبغي مَطْلباً عَنْ مَطْلبٍ ... وتحلُّ في مَغْنًى عقيبَ مغاني
أوما كَفَى ما قَدْ بلغتَ مِنَ المُنَى ... قَدْ كانَ ما في حَيِّزِ الإمكانِ
أَلقَى الزمانُ إليكَ حَبلَ قيادِه ... مع ما بهِ مِنْ شِدَّةٍ وحِرَانِ
لو أنتَ تَملِكُ كلَّ ما قَدْ رُمْتَهُ ... فاعلمْ بأنَّ جميعَ ذلكَ فاني
سِرْ في فضاءِ العالم العلوي كَمْ ... هذا الجثومُ بعالمِ الجثمانِ
قد آنَ مِنْ شمسِ الحياة طلوعُها ... مِنْ حضرةِ الأشباحِ والأبدانِ

وجاءه كتاب من شريف مكة ، فأجابه بجوابٍ فيه ما يأتي :

وخريدةٌ برزتْ لنا مِنْ خِدْرِها ... كالبدر يبدو مِنْ خلالِ غَمامِ
عربيةٌ فتنكّرَتْ وازّينَتْ ... بملابسِ الأعجامِ والأروامِ
طوبَى لِمَن رُزِقَ الوقوفَ بِبابِها ... فهو المرامُ وأيُّ أيِّ مرامِ
بابٌ إليه تشوُّقي وتوجُّهي ... حَرَمٌ إليه تحيتي وسلامي
يا ليتَ شعري هل أفوزُ بِزَوْرَةٍ ... يوماً وقد ضُرِبَتْ هناك خيامي

***

١٢ ـ السلطان مراد الثالث

١٥٧٤ ـ ١٥٩٥

وتولى بعد سليم الثاني ابنه مراد الثالث ، وكان محباً للعلم والأدب ، إلا أنه استولت عليه شهوتان ؛ إحداهما : حب المال ، والثانية :حب الجمال ، وأفرَط في معاشرةِ النّساء إلى الحد الذي أضرَّ بعقله ، ولكنّه أصدرَ أمراً قاطعاً بمنع الخمر ، فثار به الإنكشارية والسباهية[1] ، حتى اضطروه إلى إلغاء هذا الأمر ، فانعكس المثل ، وصار : اليوم أمر وغداً خمر .

وفي زمانه خَرقت النمسة الصلح ، فسارت العساكر العثمانية ، وهزموا جنودها وقتل هربرت بارون أوسبرغ في المعركة ، وأُرسِلَ رأسُه إلى القسطنطينية ، فطلبت النمسة الصلح ، ولكنّ العثمانيين لم يزالوا يشنون الغارات على أوسترية ، وكارنيتية ، فاضطر النمسويون إلى القتال .

وفي ذلك الزمان صار إيتان باتوري ملكاً على بولونية ، فاتفق مع البابا ومع إمبراطورية ألمانية على حربٍ صليبيةٍ يصلونها الأتراك ، وبدأت المذاكرة في كيفية تقسيم السلطنة العثمانية ، وقد سبق لنا في حواشي « حاضر العالم الإسلامي » أنّ الممالك الأوروبية في مدة ستمئة سنة قرّرت تقسيم السلطنة العثمانية وبلاد الإسلام مئة مرة ، ذكرنا كلَّ واحدةٍ منها ، وكيفية المذاكراتِ التي جرت بها ، فمن شاء فليراجع ذلك هناك[2] .

وقد كانت عزيمة إيتان باتوري هذا من أهّم هذه العزائم النصرانية بحق دولة آل عثمان ، وكان يريدُ أيضاً استئصال إمارة موسكو ، ولكنّه مات قبل أن يضَع عزيمته هذه موضعَ الإجراء .

وفي مدة مراد الثالث ضعفتْ قوةُ الصدر الأعظم الصوقلي ، وتغلّب عليه

---

(١) الفرسان .

(٢) حاضر العالم الإسلامي (٣ : ٢٠٨ ـ ٣٤٢) .

رقباؤه ، وتمكنوا من عزل حواشيه والمنسوبين إليه ، وما زالوا يقصّون من أجنحته إلى أن أرسلوا من قتله سنة (٩٨٧ ـ ١٥٧٩) ففقدت الدولة بفقده رأسها المفكر ، وعقلها المدبّر .

وكان شاه العجم طهماسب قد مات مسموماً ، وخلفه ابنه حيدر ، فقتل في يوم مبايعته ، وتولّى أخو إسماعيل ، فاستقر في الملك ثمانية عشر شهراً ، فانتهز العثمانيون الفرصة ، وشنّوا الغارة على أطراف العجم ، واستولوا على بلاد كرجستان كلها ، وقسموها إلى أربع ولايات ؛ فتولى أزدمير عثمان باشا ولاية شيروان ، وتولى محمد باشا تفليس ، وحيدر باشا صخوم ، وتولّى ابن اللاوند على كرجستان الأصلية ، فأرسلت سلطنة العجم أربعة جحافل لاسترداد بلادِ كرجستان ، فوقعت المعارك بين الفريقين ، وكانت الحرب سجالاً بينهما ، إلا أنّ أزدمير عثمان باشا في الطاغستان كان دائماً مظفَّراً ، فأتمّ فتح طاغستان ، وكرّ على الروس .

ولما كان خان القرم تخلّف عن مساعدة الدولة أراد أن يقاتله، فزحف محمد غرائي خان القرم بأربعين ألف فارس ، وكاد يوقع بأزدمير عثمان باشا ، إلا أنّ إسلام غرائي أخا محمد تولّى القرم مِنْ قبل السلطان ، فزحف على أخيه ، فتفرق عن محمد غرائي جميعُ جندِه وقتل ، فلما رجع أزدمير عثمان باشا إلى القسطنطينية ، دخل بأبهة عظيمة لم تحصل لقائدٍ قبله ، وتولّى الوزارة العظمى مع قيادة الجيش الزاحف لحرب العجم ، ثم إنه سار بمئة وستين ألف مقاتل إلى تبريز ، وهزم العجم ، ودخل تلك البلدة ، ولكن ساءت صحته ، فتعطّلت الحركات العسكرية ، وظفر حمزة ميرزا قائد العجم بالعثمانيين . وفي أثناء ذلك مات عثمان باشا ، وتقهقر الجيش العثماني ، ورجع العجم ، فحاصروا تبريز ، وحملوا عليها خمسة عشر حملة ، وأَصْلَوْها ثمانية وأربعين معركة ، ولكنهم لم يقدروا عليها ، وأرسلت الدولة فرهاد باشا لنجدتها ، وفي هيعة ذلك اغتيل القائد حمزة ميرزا ، وظفر فرهاد باشا ظفراً عظيماً بالإيرانيين ، فاضطر الشاه عباس إلى طلب الصلح ، فانعقدت المعاهدة على أن تبقى كرجستان ، وشيروان ، ولورستان ، وتبريز ، وقسم من أذربيجان للدولة العثمانية .

١٢ - مراد الثالث

وفي زمن مراد الثالث اضطربت المملكة بكثرة الفتن : وظهرت علامات اختلال الإدارة ، فثار الإنكشارية في إستانبول ، لأنهم أرادوا أن يؤدوا إليهم رواتبهم بمعاملة ورق رقيق[١] لم يرتضوا بها ، فهجموا على قصر السلطان .

وفي مصر ثار الجند على أويس باشا الوالي .

وفي تبريز خرج الجند أيضاً عن الطاعة ، فذبح منهم جعفر باشا ألفاً وثمانمئة .

وفي بود عاصمة المجر انتقض الجند بسبب تأخُّر أرزاقهم وقتلوا الوالي .

ومازال الجند - لا سيما الإنكشارية - يزدادون تمرداً حتى قرّرَ سنان باشا الصدر الأعظم الدخولَ في حربٍ مع دولة أجنبية ، ليشغلَ الإنكشارية عن العصيان ، فسرّح جيشاً تحت قيادة حسن باشا والي البوسنة يهاجم النمسة ، فانهزم حسن باشا ، وزحف سنان باشا بنفسه ففتح وسبريم ، وبالوتة ، إلا أنّ قائد بود انهزم ، واستولت النمسة على تسع قلاع ، ثم ثارت ترانسلفانية ، والفلاخ ، والبغدان ، واتحدت هذه الإمارات الثلاث مع النمسة ، و قتلوا المسلمين الذين كانوا ساكنين فيها ، ولم تكن أحوال السلطنة العثمانية في زمن هذا السلطان على ما يرام ، بل اضطرب الحبل ، ومات السلطان في (٦) يناير - كانون الثاني سنة (١٥٩٦) م - (١٠٠٤) هـ .

***

ونبغ في زمن هذا السلطان من العلماء .

الطبيب الياس القرماني ، وكان في الأصل طبيباً ، ثم تبحّرَ في العلوم العقلية والنقلية ، ولكنه بقي يتعاطى الطب ، وكان فرهاد باشا من وزراء السلطان مراد الثالث مبتلىً بحبس البول ، فأشار عليه الطبيب إلياس بتناول معجون فتناوله ، فمات بعد ذلك بالزحير ، فاتهم الطبيب بأنه تعمَّدَ قَتل فرهاد بإشارة من الوزيرمحمد باشا الذي كان رقيبه ، فدخلت زوجة فرهاد باشا على السلطان ،

---

(١) هذه أول مرة تصدر فيها الدولة العثمانية عملة ورقية .

وطلبت قتلَ الطبيب ، فأُخِذَ وحبس ، وأمر السلطان بالتحقيق ، فلم يثبت شيءٌ على الطبيب ، وتشفّع له المفتي والعلماء ، فأخرج من الحبس ، فجاء خدّام فرهاد باشا وقتلوه ، ولما وقف السلطان على ذلك غضب غضباً شديداً ، وقبضَ على ستين شخصاً من جماعة فرهاد باشا ، وصلب منهم عشرة ، ونفى الباقين .

ومنهم **مصلح الدين بن علاء الدين المشتهر بجرّاح زاده** ، ولد في أدرنة ، وقرأ على المولى لطف الله بن المولى شجاع ، ثم تبع طريق الصوفية ، وصار من الأولياء ، ومات بأدرنة ، وتُنْسبُ إليه الكرامات الكثيرة .

ومنهم **عبد الرحمن بن علي الأماسي** ، كان من المدرسين ، ثم استُقْضِيَ في بروسة ثم في أدرنة ، ثم في العسكر المنصور ، ثم في مكة المكرمة . وكان ذا حظوةٍ عند السلطان سليم الثاني ، وبقي إلى زمن السلطان مراد الثالث ، ولكنَّ صاحب « العقد المنظوم » نبزه بمداهنة الوزراء ، وانهماكه بالرياسة ، وليس ذلك مستحسناً في العلماء .

ومنهم **الشيخ محرّم بن محمد** ، من قسطموني ، وكان من المتصوفة ، ولما أتم السلطان سليمان جامعه الشهير نصب له به كرسي ، فكان يدرِّس تارة ، ويَعِظُ أخرى .

ومنهم **المولى شمس الدين أحمد** ، وكان من العلماء وأصحاب الأخلاق .

ومنهم **محمد بن أحمد المشتهر [بابن] بزَن** ، كان أبوه من ندماء السلطان سليم الأول ، وطلب العلم ، وانتهى بأن صار من المدرسين ، يتنقل من مدرسةٍ إلى أخرى ، ودرّس في مدرسة السلطان سليمان بجزيرة رودس ، وكان أطلس ، بحيث إذا عُرّي عن زي الرجال يشتبه أمره على النظر ، ويكون مصداقَ ما قال الشاعر[1] :

وما أدري وَسَوْفَ إخَالُ أدْرِي ... أقـومٌ آلُ حِصـنٍ أمْ نسـاءُ !!

يحكى أنّه كان مع السلطان مراد الثالث ببلدة مغنيسة ، وكان قد ظهر

---

(١) هو زهير بن أبي سُلمى .

الجراد ، وأكل الزروع كلها ، فقال السلطان : كأنما الجراد لعب بلحية المفتي أيضاً .

ومنهم **أحمد بن حسن الصامصوني** ، وكان من المدرسين ، ثم تولّى قضاء حلب ، ثم قضاء دمشق ، ثم قضاء مكة ، وحُمِدَتْ سيرتُه .

ومنهم **محمد بن عبد العزيز المشتهر بمعيد زاده** ، من مرعش ، لازم المولى خير الدين معلّم السلطان سليمان ، وصار يتنقلُ في المدارس ، ودرّس في مدرسة السلطان سليمان في دمشق ، ثم تولّى قضاء بيت المقدس ، وكان عالماً أديباً ، وله نظم يمدَحُ به أهل بروسة ويقول فيهم :

لبثنا ثلث تسع في بروسا ... على نُعمى بلا همٍّ وبوسا
رأيناهم أشدَّ النّاسِ حُبًّا ... لأهل العِلمِ رأساً أو مروسا
فلو كانَ البلادُ بني أبينا ... لكانتْ هذِه فيهم عروسا

ومنهم **المولى محمود المشتهر بالكاتب** ، ولد في سلانيك ، وكان من المدرسين المعروفين ، وتولّى قضاء بغداد ، ثم قضاء آمد .

ومنهم **المولى زين العباد** ، من أولاد الشيخ إبراهيم النوري القيصري ، ولد في قيصرية ، وطلب العلم ، واتصل بكبار العلماء ، وأخذ عنهم ، وصار من المدرسين ، ودرّس في دمشق بمدرسة السلطان سليمان .

ومنهم **رمضان المشتهر بناظر زاده** ، وكان من المدرسين المعروفين ، وتقلّد قضاء الشام ، ثم قضاء مصر ، وكان عالماً عاملاً ، حسَنَ الصورة والسيرة ، احترز من التأليف خوفاً من الخطأ .

ومنهم **المولى حسن** ، ولازم المفتي أبا السعود ، ودرّس بإحدى المدارس الثمان ، وتقلّدَ قضاءَ الشام ، ثم قضاءَ مصر ، ثم قضاء مكة ، ثم قضاء القسطنطينية .

ومنهم **المولى حامد** ، من قونية ، وكان من المدرسين ، وتقلّد قضاء دمشق ، ثم قضاء مصر ، ثم قضاء بروسة ، وتولى قضاء العسكر في الروملي ، وكان من الفقهاء المشهورين ، كان عظَيمَ النفس ، مَهيباً في أعين الناس .

ومنهم **المولى محمد بن عبد اللطيف المشتهر ببخاري زاده** ، وتولّى القضاء بطرابلس الشام .

ومنهم **المولى يوسف المشتهر بالمولى سنان** ، قرأ على محيي الدين الفناري ، وعلى علاء الدين الجمالي ، ودرّس بدار الحديث في أدرنة ، وتقلّد قضاءَ حلب ، ثم قضاء دمشق ، وانتهى أمرُه بأنْ صار من قضاة العسكر ، ومات عن تسعين سنة ، وكان شيخاً جميلَ الصورةِ على أخلاق كريمة كثيرة ، وكتب حواشٍ على « تفسير البيضاوي » .

ومنهم **أحمد بن محمد المشتهر بنشانجي زاده** ، وكان مدرساً وتقلّد قضاء مكة ، وقضاء مصر .

ومنهم **المولى محمد المعروف بهمشيره زاده** ، وكان من المدرسين ، قال صاحب « العقد المنظوم » : إنه كان محباً للصلحاء ، متردداً إلى مجالسهم اللطيفة ، مستمداً من أنفاسهم الشريفة ، غير أنّه كان كثير الاقتحام في مصالح الفئام ، باذلاً عِرْضه الخطير في الأمر الحقير .

ومنهم **محمد بن المولى سنان** ، كان مدرساً بمدرسة داود باشا ، ثم بمدرسة خانقاه ، ثم بالمدرسة الخاصكية ، ثم بإحدى المدارس الثمان ، ثم بإحدى المدارس السليمانية ، وكان معروفاً بحدة الذهن ، وفرط الذكاء ، وقوة البحث ، وله حواشٍ على الشرح « الشريفي للمفتاح » .

ومنهم **المولى أحمد المعروف بالكامي** ، كان مدرساً بمدرسة مصطفى باشا بإستانبول ، ثم نقل إلى مدرسة السلطان محمد بجوار أبي أيوب ، ثم بإحدى المدارس الثمان ، ثم بإحدى مدارس السلطان سليمان . ولما فتح السلطان سليم الثاني جزيرةَ قبرص تولّى قضاءها ، وتسلّم هناك زمام الحكومة ، لكنّه عجز عن القيام بأمور قبرص ، فاستقال من ذلك المنصب ، وعاد إلى القسطنطينية . قال صاحب « العقد المنظوم » (٤٩٥) : إنه كانت له مكاتيب ، تارة يختار فيها الحروف العارية عن النقط ، وتارة يلتزم في كلمة حرفاً واحداً فقط ، ومن الذي ما ساءَ قط .

ومنهم **محمود المشتهر بمعلم زاده** ، وكان ملازماً للمفتي أبي السعود ، ودرّس بمدرسة مراد باشا ، ثم بمدرسة داود باشا ، ثم بمدرسة رستم باشا في القسطنطينية ، ثم بمدرسة بنت السلطان سليمان بأسكدار ، ثم بإحدى المدارس الثمان ، ومات شاباً .

ومنهم **محمود المشتهر ببابا شلبي** ، قرأ على المولى القادري ، ثم ذهب مذهب الصلاح ، واشتهر بالتقوى ، فنصب لتعليم بنت السلطان سليمان صاحبة الخيرات الحسان ، فلما تزوّجت بالوزير الكبير رستم باشا أكرمه غاية الإكرام ، وجمع كتباً كثيرة نفيسة .

ومنهم **شمس الدين أحمد بن بدر الدين المشتهر بقاضي زاده** ، وكان مدرساً في المدارس الشهيرة ، وتولى قضاء حلب ، ثم قضاء القسطنطينية ، ثم قضاء العسكر ، وفي زمان السلطان مراد الثالث نالَ الحظوة التامة ، وتقلّد الفتوى بدار السلطنة ، قال صاحب « العقد المنظوم » : إنّه أفحم مَن عارضه بشقاشقه الهادرة ، وأرغم من عاناه بحقائقه النادرة ، كثيرُ الإعتناء بدرسه ، دائِمُ الاشتغال في يومه وأمسه ، رفيعُ القدر ، شديدُ البأس ، عزيز النفس ، يهابه الناس ، ثم قال : إنه كان فيه من التهور المفرط والحدة ما زاد على المعتاد .

ومنهم **أحمد المشهور بمظلوم ملك** ، وكان معلماً لأبناء السلطان سليم ، فلما جلس على سرير السلطنة السلطان مراد الثالث ، وقتل إخوته الذين كان هذا الشيخ معلّماً لهم ـ فقد قيل : إن السلطان مراد قتل من إخوته خمسة ـ أصبحَ هذا الشيخ منكوباً ، ثم قلّدوه قضاءَ بيت المقدس ، ثم قضاء المدينة المنورة ، ثم قضاء مكة المشرفة ، ثم عاد إلى القسطنطينية ، وكانت سيرته مرضية .

ومنهم **عبد الواسع بن محمد بن المفتي أبي السعود** ، كان من المدرسين المعروفين ، وكان يكتب الخط النادر الجميل .

ومنهم **محمد بن نور الله المشتهر بأخي زاده** ، أخذ عن عرب شلبي ، وعن المولى عبد الباقي ، ولازم خير الدين معلم السلطان سليمان ، ثم درّس بمدرسة خير الدين باشا في بشكطاش وفي غيرها . ثم تقلّد القضاء ، انتهى بأن صار قاضياً للعسكر ، وكان بحراً من بحار العلوم ، أَنظَر أهل زمانه .

ومنهم **شمس الدين أحمد المعروف بالعزمي** ، ولد في القسطنطينية ، وطلب العلم ، ودرّس بالمدرسة الأفضلية ، ثم بمدرسة سنان باشا في بشكطاش .

ومنهم **المولى محمد المعروف بصارو كرز أوغلي زاده** ، كان من ملازمي المفتي أبي السعود ، وتنّقل في المدارس الشهيرة .

ومنهم **المولى خضر بك بن عبد الكريم القاضي** ، وكان من المدرسين ، وتوفي وهو مدرس في بروسة . قال صاحب « العقد المنظوم » : وكان من الغائصين في بحار العلوم ، غير أنّه لا يخلوا عن القيل والقال ، مطلق اللسان في السلف ، ومزدرياً بشأن الخلف ، مع غاية الإعجاب بنفسه ، لطف الله به في رمسه .

* * *

١٣ ـ السلطان محمد الثالث

١٥٩٥ ـ ١٦٠٣

وتولى بعد مراد الثالث محمد الثالث ، وكانت أمه بافّه[١] من البندقية ، ولما تولى محمد الثالث ، كان له تسعة عشر أخاً ، فقتلهم جميعاً !! وبرغم هذه الفعلة الغريبة ، كان حَسَنَ العقيدة ، صارماً في إحقاق الحقوق ، مهتماً بتنفيذ الشريعة الغراء !! وفي زمانه تولّى الأمورَ سنان باشا ، وحسن باشا ، وسيكالا زاده ، وعسفوا بالرعية ، وأثقلوا كواهِلَ الأهالي بالضرائب ، ولم يقدر السلطان على إصلاح الحال .

وكانت الحرب مستمرة ، وكانت العساكر العثمانية غير موفقة في بلاد الفلاخ ، حيث اتفق أمير الفلاخ مع أمير مولدافية ، وأمير ترانسلڤانية ، والإمبراطور رودولف الثاني ، فزحف سنان باشا واستولى على بخارست سنة (١٠٠٤ ـ ١٥٩٥) إلا أنّ ميشيل أميرَ الفلاخ ، عاد فهزم العثمانيين ، **وقتل أسرى الأتراك بالخازوق** ، **وشوى علي باشا** ، **وكدجي بك على النار** !! وصار الفلاخيون يتقدّمون كل يوم إلى الأمام .

ولكنّ الدولة العثمانية لم تكن تستغني عن بلاد الفلاخ لما كانت تستدرُّه من أخلافها ، وتنعمُ به من خيراتها ، وبينما هي تفكر في استرداد بلاد الفلاخ ، التي هي في هذا العصر مِصاص مملكة رومانية ، مات الأمير ميشيل هذا ، فتخلّصت الدولة العثمانية من شره .

وأما النمسة فكانت جيوشها استولت على غران ، ويشغراد ، وبابقشة ، وكليس ، فهاجت خواطر العثمانيين جداً ، واضطر السلطان أن يخرجَ بنفسه إلى الحرب ، سائراً على خطة أجداده الأوائل ، فوقع المصّاف في سهل كيرستس في

---

(١) كان قد سباها قراصنة البحر ، وبيعت في السراي السلطانية وسميت صفية ، وتدخلت كثيراً في سياسة الدولة الخارجية ، وساعدت بلادها الأصلية .

(٢٦) أكتوبر ـ تشرين الأول (١٥٩٦) م (١٠٠٥) هـ ، ودارت الدائرة على النمسويين والمجر ، وخسروا خمسين ألف مقاتل في تلك الموقعة ، إلا أنّ العثمانيين لم يُحسِنُوا الإستفادة من هذا الظفر العظيم .

وفي سنة (١٠٠٧ ـ ١٥٩٨) رجعت النمسة ، وهاجمت مدينة راپ ، وعرضت على ساتورجي باشا تسليم البلدة فرفض ، ولما وقع في أيدي النمسويين قطّعوه إرباً !! والتجأ ثلاثمئة من العثمانيين إلى القلعة ، ووضعوا النار في البارود فانفجر مخزن البارود ، وقتل فيه المحاصرون والمحصورون ، واستولى النمسويون بعد ذلك على دولا ، ووسبريم ، وپاپا ، وانكسر حافظ أحمد باشا في نيقوبوليس ، ثم في بود ، فزحف الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، وأنقذ بود واستولى على كانيشة ، سنة (١٠٠٩ ـ ١٦٠٠) واستعمل إبراهيم باشا حُسنَ السياسة مع الصرب والفلاخيين ، فأنقادوا إلى الطاعة .

وأما حالة السلطنة في الداخل فقد كانت أسوأ ما يكون ، فلم تكن تسكن ثورة في جهةٍ حتى تثورَ ثورةٌ في جهة أخرى ، وأهمها ثورة قره يزيدجي عبد الحليم في الأناضول ، وكان استولى على أورفة ، ثم اتفق مع أخيه الدلي حسن والي بغداد ، وادعّى السلطنة ، ولم تتغلّب الدولة عليه إلا بعد جهاد طويل .

وثار والي دياربكر ، ووالي الشام ، ووالي حلب ، ووالي كوتاهية ، ووالي بغداد حسن المذكور ؛ فتغلّبت الدولةُ عليهم بعد عناء لا يوصف ، ونقلت والي بغداد إلى البوسنة .

ولكنّ أوجاق السباهية ثار على الحكومة بسبب تأخر أرزاقه ، ولو شاركه أوجاق الإنكشارية لقبوا الحكومة والسلطان معاً ، ولكن الإنكشارية حافظوا على الأمانة ، وفي أثناء ذلك مات محمد الثالث .

* * *

١٤ ـ السلطان أحمد الأول

١٦٠٣ ـ ١٦١٧

وخلف [السلطان محمد] ابنه أحمد الأول ، وهو لم يتجاوز الرابعة عشر من العمر ، وكانت السلطنة منهوكة القوى بكثرة الفتن ، وهي تحارب النمسة في أوروبة ، والعجم في آسية ، لأنّ الشاه إسماعيل كان أعلن الحرب ، واسترجع تبريز ، ووان ، وأريوان ، بينما العصاة في أكثر بلاد الأناضول قد رفعوا رؤوسهم ؛ وفي ذلك الوقت عصى الأكراد تحت قيادة جان بولاد[1] في حلب ، وعصى الدروز الذين تحت قيادة الأمير فخر الدين المعني ، فاسترضى مراد باشا الصدرُ الأعظم جماً من رؤساء العصاة ، وأرسلوا جان بولاد والياً على طمشوار في البلقان ، وأرضوا قلندر أوغلي بولاية أنقرة ، فرفضت أنقرة قبول الثائر ، فعاد إلى العصيان ، فزحف إليه مراد باشا فهزمه .

وأرسل من فتك بموصلي شاويش ، وهو من رؤساء العصاة ، كما أنه استجلب إليه يوسف باشا والي منتشة ، وآيدين ، الذي كان عاصياً أيضاً ، فلما حصل في يده خنقه ، وفرّ الأمير فخر الدين المعني إلى البادية .

والخلاصة أنّ مراد باشا أتى بخوارق العادات من الحزم والدهاء ، حتى استأصل جراثيم الفتن التي كادَتْ تقضي على كيان السلطانة العثمانية ، فلقّبوه بمجدد السلطنة ، وما انتهى من قمع الفتن الداخلية حتى وجه همته لمحاربة العجم .

ومن أغرب الأمور أنّ هذا الشيخ قام بجميعِ تلك العزائم والعظائم وهو في سن التسعين ـ أي كان أسنّ من موسى بن نصير يوم فتح الأندلس ـ ولكن أثر فيه التعب ، وفي (٥) أغسطس ـ آب (١٦١١ ـ ١٠٢٠) انتقل إلى رحمة باريه ، فاستدعى السلطان أحمد للصدارة الوزير نصوح باشا والي ديار بكر ، فعقد

---

(١) أي ذو النفس الفولاذية .

الصلح مع العجم ، وأعاد لهم البلاد التي كانت الدولة أخذتها منهم .

فأما من جهة النمسة فإنّه كان وقع بينها وبين المجر خلاف نفع العثمانيين ، وبايع المجر ملكاً اسمه بوسكاي ، فدخل تحت حماية السلطان ، وزحف لالا محمد باشا بجيش استرجع غران ، ويشغراد ، ووسپريم ، فعادت النمسة فصالحت بوسكاي ملك المجر ، وبقيت عساكر الدولة وحدها تحارب النمسة ، وكانت الدولة مضطرة إلى الصلح لتطفىء نيران الفتن المشتعلة في الأناضول فانعقدت بين الدولة وبين النمسة معاهدة سيتڤاتوروك (Sitvotorok) سنة (١٠١٥ ـ ١٦٠٦) فنزلت الدولة عن الجزية السنوية التي كانت تدفعها لها النمسة ، وهي ثلاثون ألف دوقية ، واكتفت بقبض مئتي ألف ريال غرامة حربية ، وأعاد كلٌّ من الفريقين الأسرى الذين في يده ، وبقيت للدولة غران ، وإيرلو ، وكانيشة ، وبقيت في يد النمسة راپ ، وكومورنو .

وهذه المعاهدة هي أول معاهدة حصلت بها المساواة بين الدولة العثمانية والدول الأوربية ، لأنه إلى حد ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية تعامِلُ الدول الأوربية معاملة الأعلى للأدنى ، وتتقاضى[من] الأوربيين جُزًى سنوية ، وإتاوات متنوعة .

وبهذه المعاهدة حصلت ترانسلڤانية على نصف استقلال ، وتخلّصت مملكة المجر من دفع الجزية عن القسم الذي لم يكن العثمانيون يحتلونه .

ومن خصائص تلك المعاهدة أنّ الدول المسيحية أمكنها أن تناقِشَ الدولة العثمانية في كيفية تحرير الصك ، وقبل ذلك كانت الدولة تملي مثل هذه المعاهدات باللغة التركية ، وتبلغها أعداءها ، وكان عليهم أن لا يراجعوا فيها .

وبالإختصار **كانت هذه المعاهدة أعظم إرهاص بين يدي تقهقر آل عثمان .**

هذا وقد رفض أهالي ترانسلڤانية الدخول في طاعة النمسة ، فرجع الباب العالي عما تقرر في المعاهدة ، وزعم أن بوسكاي لم يكن له حق بالتصرف بالإمارة بدون رضى الأهالي ، فولّى أمراء آخرين من قبله منهم بيتلنغابور ، وكان من أشدّ أعداء النمسة ، فاعترضت النمسة على ذلك ، فأجاب الصدر الأعظم

بأنّ المتاركة[1] غير شرعية ، لأنّه لم يكن وقّع عليها مفتي السلطنة ، فثارت إمارة مولداڤية ، وطرد الأهالي طومزه الأمير الذي كان من قبل الباب العالي ، إلا أن إسكندر باشا جاء فقمع الثورة ، وأعاد طومزه إلى مكانه .

ثم نشبت الحرب في تلك المدة بين الدولة وإسبانية ، وجاءت سفن فرسان مالطة ، وصارت تعيثُ في سواحل الدولة ، وغنمت أساطيل الطليان عدة سفن حربية عثمانية ، فوجهت الدولة قوتها البحرية إلى البحر المتوسط ، وانتهز القوزاق هذه الفرصة ، ونزلوا في سينوب ونهبوها ، فغضب السلطان على الصدر الأعظم نصوح باشا ، وأمر بخنقه .

وفي سنة (١٠١٣ ـ ١٦٠٤) تجددت العهود التي كانت بين الدولة وفرنسة ، وربما زيد فيها ، وشددت الدولة في منع أعمال القرصنة في البحر المتوسط ، وعزلت والي تونس ، وخنقت والي الجزائر ، ثم تجددت العهود بين الدولة وبولونية ، وتعهدت بولونية بمنع القوزاق من الغارة على مولداڤية ، كما تعهد الباب العالي بمنع التتر من الغارة على بولونية ، وفي سنة (١٠٢١ ـ ١٦١٢) انعقدت معاهدة تجارية بين هولاندة والباب العالي .

وفي ذلك الوقت ظهر التبغ بواسطة الهولنديين ، فأفتى شيخُ الإسلام بمنعه ، بحجة أنّه من الخبائث ، على نحو ما يذهبُ إليه اليوم الوهابية ، وأتباع الطريقة السنوسية أيضاً ، ولكنّ الشعب ثار بالمفتي ، وقالوا : إنّه لا يوجد تحريمٌ للدخان في الكتاب أو السنة ، فمن أين للمفتي حقٌّ تحريم ما لم يرد على منعه نصٌّ ؟ فاضطر المفتي إلى إلغاء فتواه .

وكان السلطان أحمد الأول قد بلغ رشده ، وظهرت مناقبه ، فكان عادلاً كريماً محمود السيرة ، معتنياً بأمر المملكة ، وكان موصوفاً بالتقوى والورع ، أهدى نفائس نادرة إلى الحجرة الشريفة النبوية ، ولم يكن له عِلّة إلا أنّ رئيس الخصيان في القصر السلطاني كان في زمانه صاحبَ الأمر والنهي !! ولما مات السلطان أحمد الأول سنة (١٠١٤ ـ ١٦٠٧) كان ابنه عثمان في سن الثالثة عشرة.

---

(١) المتاركة : الهدنة .

١٥ ـ السلطان مصطفى الأول (أول مرة)

١٦١٧ ـ ١٦١٨

فرجّحت الأمة مبايعة السلطان مصطفى أخي السلطان أحمد ، وفي زمن السلطان أحمد هذا أجلى الإسبانُ بقية مسلمي الأندلس ، الذين كانوا أُكرهوا على التنصر ، لكنّهم لبثوا مسلمين في الباطن ، وسبب ذلك أنّ هؤلاء أرسلوا وفداً إلى السلطان أحمد يستغيثون به ، فخاف ملك إسبانية من الدولة العثمانية ، فقرّرَ إجلاءهم ، ودخل منهم ألوف إلى فرنسة ، فأرسل السلطان أحمد إلى هنري الرابع ملك فرنسة يطلبُ منه إرسالهم إلى بلاده وبلاد الإسلام ، ففي الحال أركبوهم السفن إلى بلاد الإسلام .

وفي بداية زمن السلطان مصطفى وقعت حادثةٌ كادت تُشعِلُ الحرب بين الباب العالي وفرنسة ، وذلك أنّ أميراً من أمراء بولونية كان معتقلاً في الأبراج السبعة بالقسطنطينية ، ففرّ منها بمساعدة أحد كُتّاب سفارة فرنسة ، فقبضت الدولة على السفير ، واعتقلته ، ووضعت مأموري السفارة تحت الاستنطاق ، ولبثوا في الاعتقال أربعة أشهر ، فأرسلت فرنسة تهدّدُ بالحرب ، وتطلبُ التعويضات ، فلم يصل معتمد فرنسة إلى الأستانة حتى كان العثمانيون خلعوا السلطان مصطفى .

* * *

١٦ ـ السلطان عثمان الثاني

١٦١٨ ـ ١٦٢٢

وبايعوا السلطان عثمان الثاني ابنَ أخيه ، فكانت مدة مصطفى ثلاثة أشهر فقط . واعتذرت الدولة لفرنسة ، وكتب السلطان والصدر الأعظم وقبطان البحر كتابَ اعتذار إلى لويس الثالث عشر ، وانتهت المسألة .

وفي ذلك الوقت وقع خلاف بين الدولة وبولونية من أجل مسائل تتعلق بترانسلفانية ، فأجمع السلطان على غزو بولونية ، وكان ينوي ذلك حتى يتمكّن من منع تجاوز روسية التي كان قد بدأ أمرُها يستفحل ، فزحفت الجيوش العثمانية ، وقطعت نهر دينستر ، وحملت على الجيش البولوني حملاتٍ شديدة ، لكنّها لم تقدر عليه ، لمّا رأى العثمانيون عقم هذه الحرب ، وكان البولونيون في وجلٍ شديد من الهزيمة ؛ انعقدت معاهدة الصلح في (٦) أكتوبر ـ تشرين الثاني (١٦٢٠) ـ (١٠٢٩) .

وفي ذلك الوقت حصلت مؤامرة في فرنسة على الدولة العثمانية ، ترأسها كارلس الثاني الملقب بكارلس دوغزاغ (de gauzague) وزعموا أنهم يريدون الاستيلاء على القسطنطينية ، وكان منهم البرنس دوكليف (de Cleves) الذي كانت جدَّتُه مرغريت باليولوج من سلالة الإمبراطور أندرونيكوس باليولوج فبدأ هؤلاء الأمراء بالسعي لدى إمبراطور ألمانية ، وملك إسبانية ، حتى يعضداهم في هذه الحرب الصليبية ، وأرسلوا يوقدون نيرانَ الفتن في بلاد العرب وكرواسية ، ودالماسية ، وألبانية ، ومكدونية ، وفي (٨) سبتمبر ـ أيلول (١٦١٤) ـ (١٠٢٣) حصل اجتماع حضره زعماء من الصرب ، والهرسك ، والبشناق ، والدالماسيين ، في أرض القبيلة الألبانية الكاثوليكية المسماة بكوتجي . وكان في هذا الاجتماع بطريرك الصرب ، وكثير من الأساقفة ، وتقرّرَ إدخال أسلحة وأعتدة من البحر إلى أرض الجبل الأسود ، وتوزيعها على القبائل الألبانية ، وأن تثور هذه القبائل ، وينضم إليها الصربيون ، وقدّروا أنّ عدَد الثوار لن يقلَّ عن اثنين وأربعين ألف مقاتل ، منهم اثنا عشر ألفاً من الفرسان ، وأنهم

يدهمون المدن مثل فالونة وشقودرة وكاستلنوفو قبل أن يتنبّه الترك للمكيدة .

وبلغ الخبر أمراء مولدافية والفلاخ ، فوعدوا بأنّهم بمجرد اشتعال الثورة يعبرون نهر الطونة بجيوشهم ، وينضمون إلى الثوار المسيحيين ، وكان كارلس الثاني دوغزاغ قد شرع بتكتيب كتائب من فرنسة ، وفي بناء سفن حربية على نفقة نفسه ! وتبرّع البابا بمبلغ مئتي ألف [قطعة] ذهب لهذه الحرب ، وبتقديم ألفي مقاتل في عشر سفن ! ووعد ملك إسبانية بستمئة ألف [قطعة] ذهب ، وعشرين سفينة ، ووعد فرسان مالطة بست سفن ، وتعهد اليونان بالدخول في هذه الثورة ، واتفق الكاثوليك والأرثوذكس من يونانيين وألبانيين ، وصرب ، وبلغار ، وتعاهد الأساقفة على ذلك ، وكان الرأي العام في فرنسة مائلاً جداً إلى إصلاءِ هذه الحرب الصليبية على المسلمين ، ونشر سافاري دوبريف (de Breves) سفير فرنسة في تركية سابقاً (١٠٢٩ ـ ١٦١٩) نشرةً في وجوب محو السلطنة العثمانية ، ودعا القسيسون والأساقفة في الكنائس ، وأعلنوا الحرب الصليبية سواء في فرنسة ، أو في النمسة ، أو في بولونية ، أو في إيطالية ، إلا أنّ كلَّ هذا توقّفَ من نفسه وحبط العمل ، ويقال : إنّ الأسطول الذي كان أعدَّه كارلس دوغزاغ المسمى بدوق نيفير احترق بسببٍ لا يزالُ مجهولاً ، واضمحلّت هذه المسألة من ذلك الوقت .

وقد أشرنا في حواشي « حاضر العالم الإسلامي » إلى هذه المؤامرة الصليبية في جملة المئة مشروع التي ائتمرت بها أوربة على الإسلام في مدة ستمئة سنة ، فمن شاء فليراجع ذلك هناك[١] .

وكان السلطان عثمان قد صمّم أن يتخلّص من أوجاق الإنكشارية ، ويستبدل به جيشاً يكونُ أطوعَ للسلطنة منه ، فعلم الإنكشاريةُ بذلك ، وثاروا به ، وعينوا داود باشا صدراً أعظم ، وخلعوا السلطان ، وساقوه إلى الأبراج السبعة ، وهناك قتلوه في (٢٠) مايو ـ أيار سنة (١٦٢٢) ـ (١٠٣١) وهو أولُ سلطان قُتِلَ في الدولة العثمانية .

---

(١) « حاضر العالم الإسلامي » (٣ : ٢٠٨ ـ ٣٤٢) .

١٥ ـ السلطان مصطفى الأول (ثاني مرة)

١٦٢٢ ـ ١٦٢٣

وتولّى مكان السلطان عثمان عمُّه السلطان مصطفى ، فما مضى يومان على مبايعته حتى ثار السباهية بداود باشا ، وطالبوه بدم السلطان عثمان ، فقال لهم : إنّه ما قتله إلا بأمرِ السلطان مصطفى ، فلم ينفعه هذا العذر ، وأسقطوه من الوزارة ، وصارت الحكومة ألعوبةً في أيدي العساكر ، حتى يقال : إنهم أسقطوا ستةَ صدورٍ عظام في مدة الخمسة عشر شهراً التي تولاها مصطفى ، وصارت الأمور في نفس الأستانة أشبه بالفوضى .

وعصى باشا طرابلس الشام ، فطرد الإنكشارية من بلده .

وعصى باشا أرضروم ، وزحف إلى أنقرة وسيواس ، وعَذّبَ من سقطوا في يده من الإنكشارية ، وانضمت بلدان كثيرة في الأناضول إلى الثوار كرهاً بالإنكشارية .

وأراد العلماء أن يوقفوا الإنكشارية عند حَدّهم ، فلم يفلحوا .

وأخيراً تولّى الصدارة علي باشا ، فرأى أنه لا يستتب النظام بوجود سلطان بلغ هذا الحد من ضعف العزم ، فقرّر خلعه ، ومبايعةَ مراد أخي السلطان عثمان .

***

١٧ـ السلطان مراد الرابع

١٦٢٣ ـ ١٦٤٠

وكان مراد مراهقاً ، لم يتجاوز اثنتي عشرة سنة من العمر ، لذلك بقي السباهية والإنكشارية يسرحون ويمرحون كما يشاؤون ، ويعسفون بالأهالي باسم السلطان .

واستفادت العجم من هذه الحالة ، فتجاوزت على ملك آل عثمان ، وزحف الشاه عباس على بغداد ، وفتحها بعد حصارِ ثلاثة أشهر ، وعذّبَ أهلَ السنة ، وشنق نوري أفندي قاضي بغداد ، وعمر أفندي خطيب جامع الأعظمية . وكان والي بغداد في الأصل ضابطاً من ضباط الشرطة اسمه بكير آغا ، فعصى الوالي ، وأراد أن يستأثر هو بالولاية ، واعصوصب حوله جماعة على شاكلته ، فتغلّب عليه حافظ باشا ، وكاد يوقع به ، فأرسل بكير آغا إلى الشاه عباس ليأتي إلى بغداد ، فيسلمه البلد ، فلما جاء الشاه عباس ، وطلب مفاتيح بغداد ، وجدَ بكير آغا قد صالح العثمانيين على شرط أن يكون والياً ، فالتزم الشاه عباس أن يحاصِرَ بغداد ، وأخذ يغاديها القتال ويراوحه ، ولم يتمكّن منها إلا بخيانة ابن بكير آغا ، الذي وعده الشاه عباس بأن يجعله والياً محل أبيه ، فلما فتح الشاه عباس بغداد ، بقي يعذِّبُ بكيرآغا سبعة أيام ، ثم وضعه في زورقٍ مطلي بالقطران الملتهب ، وتركه في دجلة ، **ثم قتل ابنه الذي خان أباه** ! .

ولما وصل خبر سقوط بغداد إلى السلطان مراد الرابع ، حاول علي باشا الصدر الأعظم إخفاءَ الخبر عن السلطان ، ولكن المفتي أسعد أفندي أخبره بالحادثة ، فصدر أمر السلطان بقتل الصدر ، وعيّن مكانه شركس محمد ، وسرّحه بجيشٍ لقتالِ أباظة والي أرضروم ، الذي عصى الحكومة ، وأخذ يقتل الإنكشارية في كل سهلٍ وجبلٍ .

فزحف إليه القائد حافظ باشا ، وهزمه ، ثم صالحه على أن يبقى والياً على أرضروم ، وفي أثناء ذلك مات الصدر الأعظم محمد باشا ، فتولّى مكانه حافظ

باشا ، وزحف إلى بغداد لطرد العجم منها ، فمازال الإنكشارية يثورون عليه حتى اضطر إلى ترك حصار بغداد ، وانكفأ إلى الموصل ، ثم إلى ديار بكر ، وعاد الإنكشارية إلى الثورة ، فعزل السلطان حافظ باشا ، وولّى مكانه خليل باشا ، فزحف هذا ليأخذَ أباظة والي أرضروم ، فلم يقدر عليه ، فعزله السلطان ، وولى خسرو باشا ، فتمكّن هذا من إخضاع أباظة ، ولكنه عوضه عن [ولاية] أرضروم ولاية البوسنة .

وبقيت الثورات تتوالى في وسط السلطنة ، والحالةُ تسوء ، ولكنّ الله فرّجَ عن الدولة العثمانية بموتِ الشاه عباس أكبرِ سلاطين الدولة الصفوية ، فخلفه ابنه ، وكان شابا غراً ، فزحف خسرو باشا إلى العراق ، وهزم جيوش العجم ، لكنّه لم يقدر على فتح بغداد برغم مهاجماته الكثيرة لها ، ورجع خسرو باشا إلى الموصل ، فردَّ السلطان إلى الصدارة حافظ باشا ، الذي لم يكن عنده مثله في كفايته .

فلما علم العسكر أنّ السلطان عزل خسرو باشا ثاروا على السلطان ، وتقاضوا[1] رأس حافظ باشا ، وكان المحرك للعسكر على هذا العمل هو خسرو باشا نفسه . فأذن السلطان للعساكر في الانصراف من العراق أملاً بتسكينهم ، فلما وصلوا إلى الأستانة ، ازدادوا تمرداً ، وهجموا على القصر ، ففتح السلطان لهم الأبواب ، واستدعى اثنين من الإنكشارية ، واثنين من السباهية ، وقال لهم قولًا ليناً ، لعلّهم يتناهون عن غيهم ، فلبثوا مصرين على أخذ رأس حافظ باشا ، فبذل حافظ باشا نفسه لأجل راحة مولاه ، وخرج إليهم ، حتى قتلوه طعناً بالخناجر ، ولكنّه لم يسقط رخيصاً برغم شيخوخته ، ولم يُقْتَلْ إلا بعد أن قتل منهم عدة . وسكنت ثورة العسكر مؤقتاً ، ولكن السلطان لم ينسَ عصيانهم لأمره ، وكونهم إنما عملوا بدسائس خسرو باشا ، فأمر بخنقه . فثار العسكر مرة ثانية ، ونادوا بخلع السلطان مراد ، وكان متولي كِبْرَ هذه الثورة رجب باشا ، **فظهر في هذه الحادثة أنّ السلطان الشاب كان بطلاً غشمشماً** ، فإنّه أمر حالًا بقتل

---

(١) طلبوا .

رجب باشا ، والرمي بجثته إلى العسكر ، ولم يبالِ بهم !! وطلب السلطان من أحمد آغا قائد السباهية أن يقبضَ على رؤوس الثورة ، فماطل في إنفاذ الأمر السلطاني ، فأمر السلطان بقتله مع أربعة من رفاقه ، وجاء المفتي الأعظم يخوِّفُ السلطان من عاقبة استخفافه بغضب العلماء فقتله ، **فعلمت السلطنةُ أنّ على رأسها رجلاً غير الرجال الذين عرفتهم إلى ذلك الوقت منذ مدة طويلة ، ودخلت الناسُ في الطاعة .**

وكان الأمير فخر الدين المعني[1] أميرُ لبنان ثار بالدروز على الدولة ، وعقد معاهدات مع بعض الدول الأوربية ، ولما لم يقدر على مقاومة الدولة جاء إلى فلورنسة من إيطالية ، ثم بعد أن أقام عدة سنوات في فلورنسة في خبر يطولُ شرحه ، ولا يسعه هذا المختصر ؛ زحفَ إليه الكوجك أحمد باشا بجيشٍ جرار ، وبعد وقائع شديدةٍ دارت الدائرةُ على الأمير فخر الدين ، وقُتِلَ ابنه الأمير علي ـ وكانت أم الأمير علي أرسلانية ـ في واقعة حاصبيا ، فالتجأ الأمير فخر الدين إلى مغارة في جبل الشوف اسمها شقيف تيرون ، ويقال لها اليوم قلعة نيحا ، وهي كهف عظيم في بطن جبل أشبه بالحائط ، لا يمكن الرقي إليه من الأسفل ، ولا النزول إليه من سطح الجبل ، ولا العبور إليه من الجانبين !! وإنما يدخلون إليه من أحد الجانبين زحفاً على البطن واحداً وراء واحد على صخرة ضيقة مشرفة على الوادي ، ولا يمكن الإنسان أن يمّر بها واقفاً .

وقد دخلتُ أنا بنفسي زحفاً على هذه الصورة إلى هذا الكهف ، الذي كان يلجأ إليه العصاة في كل حين ؛ وكان ممن لجأ إليه الضحاك بن جندل الخارجي في أيام الحروب الصليبية ، وهذا الكهف يسع نحواً من خمسمئة مقاتل ، وليس فيه ماء نبع ، ولكنْ آبار تجري إليها مياه تحت الأرض بأنابيب من عين يقال لها عين الحلقوم ، كانت في ذلك الوقت مطمورة ، فلما جاء الكوجك أحمد باشا ، ورأى استحالة الوصول إلى الكهف ، لأنّه لا يؤتى لا من فوق ولا من أسفل ، ولا من أيمانه ولا من شمائله ، سأل عن مشرب أهل الكهف ؟ فقيل له : إن

---

(١) وهو كردي سني ، انظر الحاشية ص(١٣٥) .

الماء يجري تحت الأرض ، ولكنه غيرُ معلومِ أصلُه ، ولا مكان جريه ، فأتى القائدُ المذكور بخيل تركها عدة أيام عطاشاً ، فلما أفلتها على سطح الجبل وهي عطاش ، شمَّت رائحة الماء ، فصارت تضرب بأرجلها على الأماكن التي كان الماء يجري تحتها ! فعلم الكوجك أنّ الماء هو هناك ، فأمر بحفر الأرض حيث كانت الخيل تضرب بأرجلها ، فوجد أنابيب الماء ، فلم يقطع الماء ، لأنه لو قطع الماء ، والآبارُ التي في الكهف ملآى لبقي الأمير فخر الدين قادراً على الامتناع مدةً طويلةً ، فذبح الكوجك بقراً في مجرى الماء ، فجرى دماً إلى الآبار ، وفي أحد تلك الأيام قام الأمير فخر الدين صباحاً فقال له جماعته : تعال فانظر الآبار ، فنظر فإذا هي دم ، فأمر الجند الذين معه بأن يخرجوا ويستسلموا للقائد ، وفي جوف الليل دلَّى نفسه هو ومدبر أموره أبو نادر الخازن ومعهما خادم ، وذلك من الكهف إلى أسفل ، وهو علو خمسين متراً ، ومن هناك ذهب إلى كهف آخر يشابه شقيف تيرون ، واسمه مغارة جِزّين ، فأرسل الكوجك أحمد باشا جماعة نقبوا الصخور من تحت الكهف الثاني ، وما زالوا يحشونها بالبارود ، ويقطعون منها جانباً بعد جانب ، حتى أوشكوا أن يصلوا إلى المغارة ، فاضطر الأمير فخر الدين أن يستسلم إلى الكوجك أحمد ، الذي أرسله إلى الأستانة مع أولاده الثلاثة منصور ، وحيدر ، وبلك .

فلما وصل الأمير فخر الدين إلى الأستانة قال للسلطان : إنني مظلوم ، ولم أبن القلاع إلا حماية من الأعداء ، ولم أحاربْ إلا مَنْ كان عاصياً الدولة ، وقد أمّنتُ طريق الحج ، ومنعت الأعراب عن التعدّي ، وأديتُ الأموال الأميرية ، وأيدتُ الأحكام الشرعية ، فعفا عنه السلطان . إلا أنّ الأمير ملحم المعني جمع رجالًا من حزبه القيسية ، ونهض لقتال الأمير علي علم الدين الذي كانت الدولة ولّته جبل الشوف ، فنهض الأمير علي لقتاله ، ومعه اليمنية ، فجرى بينهم قتالٌ دارت فيه الدائرة على اليمنية ، فكتب الكوجك أحمد باشا للسلطان بأنّ هذه المشاغبات كلّها من دسائس الأمير فخر الدين ، فصدر أمرُ السلطان بقتله مع أولاده ، وذلك (٣) مايو ـ أيار (١٦٣٥) ـ (١٠٤٤) واستحيى[1] السلطان من

---

(١) أبقاه حيّاً عنده .

أولاده الأميرَ حسيْناً ، واستخدم بالحضرة ، وترقّى ، وعاش زمناً طويلاً ، وكان عمر الأمير فخر الدين يوم قُتل اثنتين وخمسين سنة ، وكان قصيرَ القامة طويلَ الباع ، عاليَ الهمة ، استولى على معظم سورية ما عدا دمشق ، وحمص ، وحماه ، وحلب ، وقيل له سلطان البر ، وكان عنده جيش دائم (١٢) ألفاً .

هذا ولقد تمكّن السلطان مراد الرابع بحزمه وشدة بأسه من قمع الفتن الكثيرة ، وهدأت الأحوال في زمانه ، وزحف لقتال العجم على رأس جيش جرارٍ ، وبينما كان زاحفاً ، كان يأتي من الصرامة أعمالاً توقِعُ الرعبَ في قلوب الذين تُحَدِثُهم أنفسُهم بالانتقاض ، وفي طريقه استولى على قلعة أريوان ، ثم على قلعة تبريز وأحرقها ، ثم عاد إلى القسطنطينية يستريح من وعثاء السفر ، فما كاد يستقرُّ به المقام حتى رجع الإيرانيون ، فحشدوا واسترجعوا أريوان ، وكسروا العثمانيين في صحراء ميربان ، فنهض السلطان مراد ثانيةً ، وزحف إلى بغداد ، ولبس ثياب جندي من عامّةِ الجند ، ونزلَ بنفسه يقاتِل في الخنادق ! وكان معه الصدر الأعظم ، فلما حمل العسكر العثماني كان السلطان والصدر العظم والوزراء يقاتلون بأنفسهم كسائر العسكر ، وأصابت الصدر الأعظم طيار محمد باشا رصاصة برأسه فسقط قتيلاً ، وأخذ السلطان مراد بغداد عنوة على أثر حملةٍ استمرّت ثمانياً وأربعين ساعة ، ثم انعقد الصلح بين الدولة والعجم ، على أنْ تعودَ بغدادُ لآل عثمان ، وأن تعودَ أريوان للعجم .

وكان مراد الرابع في شدة بأسه ، ومضاء عزمه ، وعظمة مهابته ، أشبه بآل عثمان الأولين ، ولو طالت حياته لجدّد عهدَ سليمان القانوني ، ولكنه بعد أن استولى على بغداد ، استرسل في الشهوات البدنية ، وأدمن شرب الخمر ، فاعتلت صحته ، وبلغت منه العلة أن صارت الروح فيه ذماءً . وبقي يأمُر بسفكِ الدماء . ويقال : إنه بينما كان وصل إلى دورِ النزع أمر بقتل أخيه إبراهيم ! ! ولكنَّ السلطانة الوالدة أمرت بعدم إنفاذِ هذا الحكم ، وقالت له : إنّه نفذ ، وفي (٩) فبراير ـ شباط سنة (١٦٤٠) ـ (١٠٤٩) أسلم الروح ، وكان عمره تسعاً وعشرين سنة ، **وهو الذي أنقذَ السلطنةَ بعد أن كادَتْ تتمزَّقُ أيدي سبأ ، بالفتن والثورات وانتقاضِ الأمراء كلّ واحد من جهة ، فأعاد مراد وِحْدَةَ السلطنة بشدة**

حزمه وصرامته ، وأزالَ كثيراً من المظالم ، وأعاد النّظام إلى الجيش ، وفي أيامه ازدادت واردات السلطنة ، وحسنت جباياتها .

ولم يكن يُعاب [السلطان] إلا في ظمئه إلى سفك الدماء ؛ فإنّه كان يتلذذ بالقتل ، وكان له عيب آخر ؛ وهو شدة غرامه بالمال ، فكان يُحِبُّ الأحمرين الدم والذهب !! .

ولم يكن لمراد الرابع أولاد ، فتولّى السلطنةَ بعدَه أخوه السلطان إبراهيم ، ولولا وجود السلطان إبراهيمُ هذا لانقرضت عائلةُ آل عثمان ، لأنه لم يكن بقي منها غيره .

* * *

١٨ ـ السلطان إبراهيم

١٦٤٠ ـ ١٦٤٨

وبدأ السلطان إبراهيم ملكه بمصالحة النمسة ، ولكن حصلت حادثة أدت إلى الحرب بينه وبين جمهورية البنادقة ، وهذه الحادثة مِنْ أغرب حوادث التاريخ ، وهي أنّ رئيس الخصيان في القصر الذي يسمونه قيزلر آغاسي[1] كان عنده في الحرم جارية حسناء بارعة الجمال ، اختيرت لتكون ظئراً[2] للأمير محمد بن السلطان إبراهيم ، وكانت هذه الجارية قد حملت ثم وضعت ، ولا يُعْلَمُ مِنْ أين وقع حملها ، فشغف حبُها السلطانَ ، حتى صار يفضّلُ طفلها على طفله ، فوقعت الغيرة في السراي ، وكاد السلطان يقتل طفله من شدة شغفه بالجارية وحبه لطفلها ، فلم يجد القيزلر آغاسي حيلة أحسن من أن يقصد الحج ، ويأخذ معه الجارية والطفل .

ومن المعلوم أنّ فرسان مالطة لم يكن لهم مهمة سوى قطع طرق البحر على المسلمين ، فهاجموا الأسطول الذي كان فيه القيزلر آغاسي ، فنشبت بين الفريقين معركة ، ووقع القيزلر آغاسي قتيلاً ، بعد أن دافع أشدَّ الدفاع عن نفسه ، ووقعت الجارية وطفلها في أيدي فرسان مالطة ، فظنَّ الفرسان أنّ الطفلَ هو ابن السلطان ، وبالغوا في الاعتناء به وبأمّه ، إلا أنّهم عرفوا فيما بعد أنّ الطفل لم يكن ابن السلطان ، فربّوه على الديانة المسيحية ، ونشأ قسيساً ، وكان يطلق عليه اسم الأب العثماني (Paere Ottomani) وكان الناس في أوربة يعتقدون أنّه من ذرية السلطان .

ثم إنّ فرسان مالطة بعد هذه الغنيمة ، عرّجوا على قندية من جزيرة إقريطش ، ونزلوا على البنادقة هناك ، فأكرموهم ، فوصل هذا الخبر إلى

---

(١) قيز : بنت ، وقيزلر آغاسي ، آغا البنات:أي المسؤول عن نساء السلطان وجواريه ، ولا يكون هذا الآغا عادةً إلا أسود خصياً اهـ انظر « التأصيل » (١٨) .

(٢) مرضعاً .

السلطان، فجنّ جنونه، وأصدر أمره بادىء ذي بدء باستئصال جميع المسيحيين، **إلا أنّ شيخ الإسلام عارضه بشدة** ، فتوقّفَ عن إنفاذ هذا الأمر ، وأمر بقتلِ جميع الإفرنج ، فجاء الوزراء ، وأبدوا وأعادوا ، حتى أرجعوه عن أمره هذا ، وحسّنوا الاكتفاء بقتل كهنة الكاثوليك ، ولكنّه رجع عن هذا أيضاً ، وإنما اعتقل سفراء الدول المسيحية كلهم ، وأرسل يقول لهم : إنّه يجعلهم مسؤولين عن الإهانة التي لحقت به ، فأجابه سفراء البندقية وإنكلترة وهولاندة بأنه لا يوجد في فرسان مالطة واحدٌ من تبعة حكوماتهم ، وأنّ جميع فرسان مالطة هم فرنسيس ، فهاج غضب السلطان إبراهيم على الفرنسيس، وبينما هو يريد الانتقام منهم أغراه الصدر الأعظم بفتح جزيرة كريت أو قريطش وفي (٢٤) يونيو ـ حزيران (١٦٤٥) (١٠٤٥) كان الأسطول العثماني المؤلّف من ثلاثمئة وثمان وأربعين سفينة أمام هذه الجزيرة، وأنزل إلى خانية خمسينَ ألف مقاتل ، فجاء أسطول البنادقة متأخراً ، فأخذوا ثأرهم بإحراق باتراس ، وكورون ، ومورون ، وأخذوا خمسة آلاف أسير من العثمانيين . فلما اتصل الخبر بالسلطان اشتد غضبه ، وأصدر أمراً جديداً بقتل المسيحيين في السلطنة ، ورجع المفتي فعارضه أيضاً بشدة ، وفتح العثمانيون ريتمو، وأبو كورونو، وكسانو ، من مدن إقريطش ، ولكن امتنعت عليهم قندية .

وكان السلطان مسترسلاً إلى شهواته البدنية ، منقاداً لجواريه الحسان ، يفعل لهنّ ما يشأن ، فاستنزفنَ خزانةَ السلطنة ، وأسفت الرعية من هذه الحالة التي عليها السلطان ، وكثر القال والقيل ، فعزم السلطان على البطش بقواد الإنكشارية والسباهية ، فتجمعوا ، وانضمّ إليهم العلماء ، وقرّروا خلعَ السلطان ، ومبايعة ابنه محمد الرابع ـ وهو طفل ـ ووقع ذلك في (٨) أغسطس ـ آب (١٦٤٨) ـ (١٠٥٧) وما مضى أسبوع على هذا العمل حتى قام السباهية يطلبون إرجاع السلطان إبراهيم إلى العرش ، فخاف المفتي والعلماء على أنفسهم إذا رجع ، وجاؤوا بالجلاد قره علي ، ودخلوا على السلطان ، فأخذ السلطان يستغيث وقال للمفتي : كان يوسف باشا سوَّل لي قتلك ، وأنا لم أقبل منه ، واستحييتك وأنتَ الآن تريد قتلي أفلا تلوتَ القرآن وعلمتَ كيف يكون حكم الظالمين ؟! وبينما يقول هذه الكلمات إذ وضع الجلاّدون الحبلَ في عنقه وشدّوه ، فأزهقوا روحه .

١٩ ـ السلطان محمد الرابع

١٦٤٨ ـ ١٦٨٧

وجلس[١] السلطان محمد الرابع على عرشه، وهو ابن سبع سنوات، ورجعت الفوضى كما كانت قبلَ أيامِ مراد الرابع ، واضطر العثمانيون لرفع الحصار عن قندية ، وانكسر الأسطول العثماني ، فقتل الوزير صوفي محمد باشا بسبب هذه الهزيمة ، وزحف الثّوار من الأناضول صوب القسطنطينية ، وقابلهم الصدر الأعظم قره مراد ، فهزموه ، وكادوا يستولون على الأستانة ؛ إلا أنّ الخُلْفَ وقع بينهم فتفرقوا ، وتمكنت الدولة من الإيقاع بهم ، ومن استرضاء بعضهم .

وفي سنة (١٠٦٢) ـ (١٦٥١) ثار الإنكشارية طالبين عزل شيخ الإسلام بهائي ، لأنه أفتى بجواز الدخان والقهوة ، وكانت الصدورُ العظام لا تستقّر في الدسوت إلا أياماً قلائل . وفي سنة (١٠٦٧) ـ (١٦٥٦) ثار الإنكشارية والسباهية بسبب تأخّرِ رواتبهم ، وطلبوا عقاب الوزراء ، فاضطر السلطان لإرضائهم ، ولحسن الحظ كانت النمسة مشغولةً بحرب الثلاثين سنة ، فلم تقدر أن تسترجعَ بلادَ المجر ، ولكنّ الحربَ بين البندقية والدولة العثمانية لم تكن سعيدة الطالع للدولة ، وتغلّبَ الأسطول البندقي على الأسطول العثماني بإزاء الدردنيل ، واستولى على تيندوس وعلى لمنى ، وبينما الحالة في الدرجة القصوى من الخلل ، تولّى زمامَ الصّدارة الوزير محمد باشا الكوبرلي الشهير ، ولم يقبل الصدارة إلا على شرط إطلاق يده في العمل ، فوعدته السلطانة الوالدة بعدم معارضته بشيء ، وأول ما بدأ به من الأعمال أنّه ألغى الأمرَ الصادر بقتل سلفه ، ثم ثار العسكر ، فأنزل بهم العقاب الصارم ، ورمى في البحر أربعة آلاف جثة ، وبدت خيانةٌ من بطريرك الروم فشنقه ، ثم جدَّدَ الحرب على البنادقة بشدة عظيمة ، واسترجَع تيندوس ولمنى ، وجاء رسل شارل غوستاف ملك السويد يعرضون على الباب العالي محالفةَ دفاعٍ وهجومٍ على بولونية ، فرفض الكوبرلي ، وألقى في السجن معتمدَ أميرِ ترانسلفانيّة راكوشي ، الذي كان

---

(١) في الأصل (بقي) وليست بشيء .

تحالفَ مع السويديين ومع القوزاق على البولونيين ، ثم عزله الكوبرلي ، وأقام مكانه رجلاً يونانياً ، وانقرضت بذلك عائلة باساربية التي نبغ منها عِدّةُ أمراء ، فثار راكوشي على الدولة ، وانتصر في أول الأمر ، إلا أنّ الكوبرلي تغلّبَ عليه .

ووقعت معارك في بلاد رومانية ، أوقع بها المسيحيون بالمسلمين الذين هناك ، فزحف الكوبرلي على بلاد الفلاخ ، وظاهَرَهُ التتر ، فزحفوا إلى مولدافية ، وقهروا الرومانيين ، وأقاموا أميراً من قِبَلِهم على تلك البلاد .

ثم إنّ التتر تجاوزوا حدودَ مملكة النمسة ، فوقعت الحرب بين النمسة والدولة من أجل ذلك ، فصارت الحرب بين الدولة من جهة ، والنمسة والبندقية من جهة أخرى ، وكادت تقع مع فرنسة أيضاً ، وكانت امتيازات فرنسة في المملكة العثمانية مقررة ، ومسكوكاتها مقبولة ، وما عدا الإنكليز والبنادقة ، فكلُّ الأمم لأجلِ أن تتجر في البلاد العثمانية يجبُ عليها رفع العلم الإفرنسي ، وكان الفرنسيس لا يؤدون شيئاً من الضرائب في بلاد الدولة ، وكان قرصان الجزائر لا يقدرون أن يمسوا بسوء السفن الإفرنسية ، وكان للفرنسيس حق اصطياد الصدف في سواحل الجزائر ، وأكثر من وطد هذه الامتيازات لفرنسة هو السفير سافاري دوبريف ، ولكن بعد انقضاء أيام هذا السفير أخذت المحبةُ بين فرنسة والباب العالي بالنقصان ، ولا سيما في زمان مراد الرابع .

وكان الإنكليز والهولنديون أقنعوا السلطان بطرد الجزويت ، وجاء سفير لفرنسة اسمه هنري دوغورنيه (de Gournay) فأساء السياسة ، فصدر الأمرُ بإغلاق كنائس غلطة ، التي كانت تحت حماية فرنسة ، وبمنع الفرنسيس من حمل السلاح ، وبإجبارهم على دفع الرسوم والضرائب . ثم إنّ الأروام في القدس الشريف حصلوا على الإذن بحراسة الأماكن المقدسة ، وقد كانت من قبلُ في أيدي الفرنسيسكان ، وأخذ قرصان الجزائر يعتدون على مراكب الفرنسيس ، وانضمّ إلى ذلك أنّ سفير فرنسة عند ما تولى الصدارة محمد باشا الكوبرلي لم يقدِّمْ له الهدايا المعتادة ، وقد كانت هذه سنةً متبعة ، ثم رأى المسيو دو لاهاي أنّ هذا الصدر الأعظم طالت أيامه ، فقدّمَ له الهدايا اللازمة ، وعوّضَ

ما فرط ، ولكن كانت سخيمة[1] الصدر الأعظم تمكّنت من قلبه ، فصار يترصّدُ الفرصةَ ليوقع بين فرنسة والدولة .

وكانت الحرب لا تزالُ مشتعلةً بين البنادقة والدولة على إقريطش ، وفي سنة (١٠٧٠) ـ (١٦٥٩) جاء إفرنسي اسمه فيرتامون إلى الصدر الأعظم ، وسلّمه رسائل واردة من جيش البنادقة في قندية باسم المسيو دو لاهاي سفير فرنسة في الأستانة ، وكان هذا الإفرنسي خائناً لقومه ، فسئل السفير عن ذلك ، وكانَ طريحَ الفراش بمرض الحصا ، وكان الصدر الأعظم وقتئذ في أدرنة ، فأرسل السفير ابنه ينوب عنه ، فبينما كان الصدر الأعظم يسأل ابنَ السفير عن معنى هذه المكاتيب ، لأنّها كانت محرّرةً بالأرقام ؛ أجابه الولد بغلظة ، فأمر الصدر بحبسه ، وقال : لا نتحمّل من ابن سفير ما يجوز أن نتحمله من سفير ! فقام السفير من فراشه ، وذهب إلى أدرنة يحاول تخليص ابنه ، فسأل الصدر السفير عن معنى هذه المكاتيب ؟ فأبى السفير أن يجيب بشيء ، فبقى الولد في الحبس ، وأرسل الكردينال مازارين الماريشال بلونديل ومعه مكتوب من ملك فرنسة إلى السلطان ، يطلبُ فيه عزلَ الصدر الأعظم ، فلم يلتفت الكوبرلي لمعتمد فرنسة ، ولا أذنِ له بمقابلة السلطان ، فتحمَّل الكردينال مازارين هذه الإهانة ، وانتقم لفرنسة بإرسال متطوعين يساعدون البنادقة في إقريطش ، وكان أمر الكوبرلي يغلظُ يوماً فيوماً ، وكلّما ازدادت سِنُّه علواً ازداد بطشاً وعتواً . وحصلت بعض فتوق في أيامه ، فسدها بدهائه وحزمه ، وأطفأ ثورةً حصلت في مصر ، وقبل أن مات سأله السلطان عن الشخص الذي يليق بأن يخلفه ؟ فأشار عليه بابنه أحمد باشا الكوبرلي ، وكان كأبيه في الدهاء والحزم .

ولما تولّى هذا الصدارةَ عرضت النمسة والبنادقة الصلَح ، فلم يجب أحمد باشا الكوبرلي هاتين الدولتين إلى الصلح ، وزحفَ ، وعبر [نهر] الطونة[2] عند غران ، وهزم الكونت دوفورغاكس ، وضيّق الحصار على بلدة نوهيزل (Neuhoesel) وهي أمنع معقل في بلاد المجر ، كان يقال : إنها لا تؤخذ ، ففتحها

---

(١) الحقد والكراهية .

(٢) الدانوب .

الكوبرلي عنوة بعد حصار ستة أسابيع ، ثم عاث الجيش العثماني في المجر ، ومراغية ، وسيليسية ، وسحب في رجوعه ثمانين ألف أسير ، فاستغاث الإمبراطور ليوبولد صاحب النمسة بدول النصرانية ، فدعا البابا جميعَ النصارى إلى حرب صليبية .

وكان لويس الرابع عشر غيرَ ناسٍ الإهانةَ التي لحقت بسفيره ، فوعد بتجهيز ستين ألف مقاتل لحرب الترك ، وأرسل بالفعل ثلاثين ألفاً بقيادة الكونت دوكليني (de Coligny) وتطوّع في هذا الجيش أكثر أبناء بيوتات الشرف في فرنسة ، وكان الكوبرلي قد استولى على سيرين فار وكورمورن الصغرى ، ولكن عندما وصل جيش الفرنسيس صارت الحرب سجالاً ، وقطع الكوبرلي الأمل من محو قوة النمسة ، فعقد الكوبرلي الصلح المسمّى صلح فازفار سنة (١٠٧٥) ـ (١٦٦٤) ووقع الإتفاقُ على أنّ ترانسلفانية لا يكون فيها عثمانيون ولا نمسويون ، وأن يتوّلاها أمير تحت سيادة السلطان ، وفي الولايات المجرية السبع يكون منها ثلاث للنمسة ، وأربع للدولة العثمانية ، وبقى الفرنسيس في البحر المتوسط ، يتجاوزون على سواحل الدولة ، ويتعرّضون لمراكبها ، فاشتد غضب الأتراك ، ونادوا يا للثارات .

وكان في فرنسة الوزير كولبير (Colbert) لا يرى في هذه العداوة خيراً ، فأرسل ابن المسيو دو لاهاي لأجل السعي في الصلح ، ولم يكن هذا الاختيار في محله ، لأنه هو الذي أغلظ القول لمحمد باشا الكوبرلي ، وأمر هذا بحبسه ، فلما وصل لاهاي الصغير وقابل الكوبرلي الصغير اختصما في الكلام ، فسمع لاهاي من الصدر الأعظم كلاماً مهيناً ، فخرج مغاضباً ، وقال للصدر : إنه سيغادر القسطنطينية ، فلما وصل عند الباب ، قبضوا عليه وحبسوه . ولما بلغ الخبر السلطان أمرَ بإطلاق دو لاهاي واسترضائه ، ولكن الكوبرلي رفض تجديدَ امتيازات الفرنسيس ، ومنعهم من المرور بالبحر الأحمر ومصر في تجارتهم مع الهند ، وأذن في ذلك للإنكليز والجنويين ، فأخذ الفرنسيس يوالون النجدات لجزيرة إقريطش وكان الحصار على قندية ، فركب أحمد باشا الكوبرلي بنفسه ، وضيّقَ الخناق على تلك البلدة ، وأقبل فرسان مالطة ، وأكثرُ أبناءِ النبلاء في

فرنسة ينجدون قندية ، إلا أنهم انكسروا في واقعة حاسمة ، وتركوا ميدانَ القتال منصرفين إلى بلادهم . فازدادَ ضغطُ الأتراك على تجار الفرنسيس ، فأرسل لويس الرابع عشر أربع سفن لأجل حملِ السفير ورجال السفارة وجميع التجار الفرنسيس الذين في القسطنطينية ، ثم جهّز اثني عشر طابوراً وثلاثمئة فارس في خمسة عشر سفينة تحت قيادة الدوق بوفور (Beaufort) وأرسلها إلى كريت . ولكن هذه الحملة لم تكن عظيمة الفائدة لكريت والبنادقة ، ولم تمنع تغلب العثمانيين على الجزيرة ، وانعقد الصلح في (٦) سبتمبر ـ أيلول سنة (١٦٦٩) ـ (١٠٨٠) ودخلت كريت كلُّها تحت حكم الدولة ، ما عدا ثلاثة مراس كورابوزة وصودة وإسبينالونفة .

وكان فتحُ العثمانيين لكريتٍ هو آخرُ فتحٍ لهم فتحوه من ممالك النصرانية ، ولم يوجد في التاريخ بلدة اشتدّ حصارُها وطالَ نظير قندية ، واستمرّت حرب كريت خمساً وعشرين سنة ، في أثنائها قام العثمانيون بست وخمسين حملة ، وصدوا خمساً وأربعين هجمة !! وأحرق المحصورون ألفاً ومئة واثنين وسبعين لغماً ، وأحرق الأتراك ثلاثة أضعاف ذلك . وبلغ عدد خسائر البنادقة أربعين ألفاً .

وذكر المؤرخ هامر أن خسائر العثمانيين بلغت مئة ألف .

وكان لويس الرابع عشر وأكثر شبان فرنسة يريدون محاربة تركية ، إلا أن كولبير الوزير المعروف كان لا يزال يعارِضُ في هذه الحرب ، وعزل السفير دو لاهاي، وأرسل مكانه المركيز دونوانتل (de Noiontel) فطلب من تركية مطالب رفضها الكوبرلي ، وقال : إنّ تلك الامتيازات التي كان يتمتع بها الفرنسيس كانت من قبيل الإنعام لا غير ، وليست شرطاً لازماً ، فإنْ لم يكن السفير يفهم هذا فما عليه إلا أن يرجع إلى بلاده ، فلما علم لويس الرابع عشر بما جرى أمرَ بتجهيزِ أسطولٍ [مؤلف من] خمسين بارجة حربية ، ولكن في آخر الأمر تغلّبَ الميل إلى السلام ، وأعيدت معاملة الفرنسيس في تركية إلى ما كانت عليه ، واعترفت الدولةُ لفرنسة بحماية الكاثوليك في الشرق ، ومع هذا فإنّ لويس الرابع عشر بقي طول حياته يكره تركية ، ويفكّرُ في شنّ الغارة عليها ، ولم يتأخّرْ

عن ذلك إلا عجزاً ، لأنّ الدولة في أيام أحمد باشا الكوبرلي عادت فصعدت إلى ذروة المجد .

وفي أيام الكوبرلي دخل القوزاق الروس في طاعة الدولة ، وكانت الدولة أعلنت الحرب على بولونية في (١٨) أغسطس ـ آب (١٦٧٢) ـ (١٠٨٣) وزحف السلطان بذاته ، وكسر البولونيين ، وعقد ملك بولونية ميشيل فيسموفيكي صلحاً مهيناً ، وتخلّى عن بادولية للعثمانيين وعن أوكرانية للقوزاق ، وتعهّد بدفع جزية سنوية عشرين ألف دوقية ، فالشعب البولوني لم يوافق على هذا الصلح ، وعاد القواد فاستأنفوا الحرب ، وكانت سجالاً بين الفريقين ، فتوسّطَ خان القرم في الصلح ، وانعقدت المعاهدة على أن يبقى قسمٌ من أوكرانية تابعاً للدولة العثمانية .

ومن سوء حظ الدولة مات **أحمد باشا الكوبرلي** ؛ وكان لم يتجاوز إحدى وأربعين سنة ، وكانت وفاتُه في (٣٠) أكتوبر ـ تشرين الأول (١٦٧٦) ـ (١٠٨٧) ولم يكن سفاكاً للدماء كأبيه ، ولا كان شرهاً إلى المال . **وكان محباً للعدل ، قائماً بالقسط** ، فتولّى الصدارةَ بعده ابنُ عمه قره مصطفى باشا ، ولم يَطُلْ الأمر حتى استؤنفت الحرب في رومانية ، وبلاد القوزاق ، فزحف قره مصطفى بجيشٍ جرارٍ ، واستولى على كورين من أوكرانية .

وبينما العثمانيون يحاربون في أوكرانية إذ حصلت وقائع في بلاد المجر ، حملتهم على عقد الصلح ، وذلك أنّ المجر كانوا قد اقتتلوا مع النمسويين ، وكانوا منقسمين إلى قسمين ؛ أحدُهما حزب الكونت تكلي (Tekeli) وهؤلاء كانوا يعتمدون على تركية ، والحزب الآخر كان يعتمد على النمسة ، فاستعان تكلي بالدولة ، وزحف قره مصطفى باشا على رأس مئة وأربعين ألف مقاتل ، وكان النصرُ حليفَ جيشه ، فاغترّ بقوته ، وساق الجيشَ إلى فينة طامعاً في أخذها ، وكان الكونت تكلي والقائدُ العثماني في بود وأكثرُ القواد ضدَّ هذا الرأي ، إلا أنّ قره مصطفى أصرّ على حصار فينة ، وكان قائد البلدة الأمير اشتارنبرغ (Stharemburg) فجنّدَ الأهالي كلهم ، وقابل هجمات الأتراك بمدافعة نادرة المثال ، وقام الترك بثماني عشرة هجمة ، وحمل النمسويون من الداخل

أربعاً وعشرين حملة ، ووقع كثير من الحصون في أيدي الأتراك .

ويقول المؤرخ الإفرنسي دولا جون كيير : إنّه لولا بخل قره مصطفى لربما كان الجيش العثماني استولى على ڤينة ، وذلك أنه [كان] يعتقد أن ڤينة ملأى بالأموال والكنوز ، فلو كان أمر بحملة عمومية ، واستولى الجند على البلدة ، لكانوا نهبوها لأنفسهم، فكان يريدُ أن يأخذَها بدون أن يترك للعسكر حق التصرف بالغنائم ، فبقي منتظراً النصر مع حفظ النظام إلى أن تمكّن إمبراطور النمسة ليوبولد من استجلاب البولونيين لنجدة ڤينة ، وكان البابا استصرخ لويس الرابع عشر باسم النصرانية، إلا أنّ شِدّةَ بغضاءِ ملك فرنسة لإمبراطور ألمانية حالت دون نجدة ملك فَرنسة ، الذي كان يثبطُ سائرَ الدول المسيحية عن إصراخ الألمان .

وبرغم كل مساعي لويس الرابع عشر في خذلان النمسة زحف صوبيسكي ملك بولونية ، وزحف أمراء الساكس والبافيير لنجدة النمسة وفي (١٢) سبتمبر ـ أيلول (١٦٨٣) ـ (١٠٩٤) اشتبكوا في معركةٍ حاسمة مع العثمانيين ، فخاب السعد في هذه المعركة ، وفقد العثمانيون عشرة آلاف قتيل ، وغنم الألمان والبولونيون ثلاثمئة مدفع ، وخمسة آلاف خيمة ، وصناديق لا تحصى ملأى بالعُدَدِ ، وسقط في أيدي الألمان أعلام الجيش العثماني عدا السنجق[1] النبوي الشريف، وتقهقر قره مصطفى باشا قاصداً إلى بود ، فتعقبه البولونيون ، وهزموه هزيمةً ثانية ، وقتلوا من جيشه ثمانية آلاف ، واستولى الرعبُ على الأتراك ، فولوا مدبرين، ووصلت الأخبار إلى الأستانة ، فثار ثائر الأمة ، واضطر السلطان محمد الرابع إلى إصدار الأمر بقتل قره مصطفى باشا ، وأرسلوا رئيس القرناء إلى بلغراد لأجل تنفيذ هذا الأمر ، وتولّى الصدارة إبراهيم باشا في أحرج وقتٍ عرفتْه السلطنة ، وتألّبتْ على الدولة العثمانية عصبةٌ من دول النصرانية : ألمانية ، وبولونية ، والبندقية ، والبابا ، وفرسان مالطة : وانضم إليهم الروس ، طمعاً في دخول البحر الأسود ، وغزو بيزنطة ، وكان الشيخ العثماني قد دب الرعب في قلبه ، وكانت الخزانة خاوية ، وكانت فرنسة غيرَ داخلة في هذا الحلف بغضاً بألمانية ، ولكن كانت المراكب الإفرنسية تغزو سفن المسلمين ، ووقع قتالٌ بين

---

(١) العلم .

الأسطول الإفرنسيَ والمراكب العثمانية أمام جزيرة شيو ، وضرب أميرُ البحر الإفرنسي دوكين (Duquesne) مدينةَ الجزائر بالقنابل ودمّرها ، ولم يرجع الفرنسيس عنها إلا بعد أن أخذوا غرامةَ الحرب من إمارة الجزائر ، وتسلّموا الأسرى المسيحيين الذين عندهم ، وضربَ أيضاً دوكين مدينةَ طرابلس ، فأوقع بها ما أوقع بالجزائر ، وجاء الفرنسيس فضربوا مراسي المغرب ، ودمّروا الأسطول المغربي .

ثم إنّ الهزائم التي وقعت على جيش قره مصطفى باشا في النمسة تركت الطريقَ مفتوحاً للعدو ، فزحف إلى المجر ، كما أنّ البنادقة أعملوا الحركة لأجل فتح بلاد المورة ، ووقعت بريفيزة في أيدي البنادقة ، ثم نافارين وموررون وأركادية وباتراس وليبانت وكارنيتة وأثينة .

وأما النمسويون فإنّهم استولوا على فيشغراد وفاكسن ، ودخلوا بست وحاصروا بود ، واستولوا على بعض مواقع للعثمانيين في كرواسية، ودحروا والي البوسنة ، ثم استولى قائدُ النمسة الدوق دولورين على غران ونوهيزل كما أنّ الكونت هربشتاين استولى على ليكة ، وكوربافية ، ووادي أودفينة ، كما أنّ الجنرال شولتس هزم تكلي الأمير المجري المولّى من قبل العثمانيين .

فعيّن السلطان سليمان باشا صدراً أعظم وعهد إليه باسترداد شرف السلطنة التي أصيبت من النوائب بما لم يسبق له مثيل ! وكان سليمان باشا شديدَ البأس مقداماً إلا أنه كان ينقصه علم الحرب الذي كان موصوفاً به الدوق دولورين ، وهو القائد الأول في زمانه ، وكان الدوق دولورين يحاصِرُ بود ، وفيها القائد عبدي باشا ، وكان المحاصرون تسعين ألفَ مقاتل ، فردّهم عبدي باشا على الأعقاب مرتين ، إلا أنّه قتل في المعمعة ، وبعد قتلِه دخل النمسويون وحلفاؤهم إلى بود ، وذلك في (٢) سبتمبر ـ أيلول سنة (١٦٨٦) ـ (١٠٩٧) وكانت بود هي آخر حدود الإسلام من جهة أوربة ، وبقى العثمانيون فيها مئة وخمساً وأربعين سنة ، وكانت هي باب الجهاد ، ومفتاح السلطنة . وكانت فيها مساجد ومدارس عديدة ، فلم يبقَ منها شيء سوى مدفن لمجاهد يقال له : كل بابا ، حافظ عليه المجريون إلى الآن ، وهو على رابيةٍ عاليةٍ من بود .

ومن آثار العثمانيين في بود حمامات معدنية ، لا تزال إلى الآن .

ثم اشتبك سليمان باشا مع العدو في موهاك ، وهو مكان كان العثمانيون كسروا فيه المجر قبل ذلك التاريخ بمئة وستين سنة . فلم يسعدهم طالع الحرب هذه المرة ، وخسروا عشرين ألف مقاتل ، مع المدافع ، والذخائر ، ودخل العدو بلاد ترانسلفانية ، واستولى عليها ، واستولى على أربعة عشر حصناً في سلافونية ، وعلى كثيرٍ من القلاع في كرواسية ، والمجر السُّفْلَى ، فبعد توالي هذه المصائب على الدولة ، لم تجد الأمةُ أمامَها وسيلةً لإصلاح الحال سوى خلع السلطان محمد الرابع ، فخلعوه في (٨) نوفمبر ـ تشرين الثاني (١٦٨٧) ـ (١٠٩٩) وبايعوا أخاه السلطان سليمان الثاني .

* * *

٢٠ - السلطان سليمان الثاني

١٦٨٧ - ١٦٩١

وكان سليمان الثاني محبوساً مدة ست وأربعين سنة في أحد القصور ، لا يخالِطُ أحداً ، ولا يخالطه أحدٌ ، وكان يقضي أوقاتَه بالمطالعة ، فلما عرضوا عليه السلطنة حاول الاستعفاء منها ، فأجبروه على القبول ، ولكنّ الإنكشارية والسباهية ثاروا على الحكومة ، وقتلوا الصدر الأعظم ، وأهانوا حرمه ، فلما شاع الخبر في الأستانة ، ثارت حميةُ الشعب ، وخرج العلماء تحت العلم النبوي ، ودعوا الأهالي إلى تأديب العسكر ، فانقضوا عليهم ، وفتكوا بهم ، وقتلوا كثيراً من رؤسائهم ، فأخلدوا إلى السكون .

وبقي النمسويون والبنادقة يتقدّمون في فتوحاتهم ، فاستولوا على إيرلو ، وطردوا العثمانيين من دالماسية ، وأخيراً دخلوا بلغراد ، فالتمس الأتراك الصلح ، فاشترطت النمسة شروطاً ثقيلة إلى الغاية ، فحاول العثمانيون الثبات ، فتقهقروا أيضاً ، وأخرجهم العدو من نيش وودن ، وأصبحت أسكوب تحت خطر السقوط ، وقال أحد الوزراء : لا يزال أمامنا حملة واحدة ، ويصير العدو في الأستانة ، فعقدت الدولة مجلساً في أدرنة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ السلطنة ، وعُهِدَ بالصدارة إلى **مصطفى باشا الكوبرلي** ابن الكوبرلي الكبير ، وأخو أحمد باشا الكوبرلي ، **فقام بالأمور خيرَ قيام ، وبدأ بإصلاح السلطنة من الداخل ، وملأ الخرائنَ بالأموال ، واستأصل الرشوةَ ، وأخذَ على أيدي الظالمين ، وسنّ قوانينَ عادلةٍ للخراج ، وكان جانبٌ من مواردِ السلطنة تحَولَ إلى الأوقاف ، فاسترجعها الكوبرلي ، وقال : إنّ الجهاد أولى بها ، ثم بعد أن ملأ خزانة السلطنة بالأموال اللازمة ؛ نشر فرماناً يقول فيه : إنّ الله يأمرُ المؤمنينَ بالجهاد إلى آخرِ رَمَقٍ من حياتهم ، وإنّه يجبُ على المسلمين أنْ ينفِرُوا خفافاً وثقالاً . فثارت الحمية في رؤوس المسلمين ، ونفروا من كل صوب ،**

وفي الوقت نفسه عاملَ النصارى بمزيدِ الرفقِ ، وأطلق حريةَ التجارة ، فاستفاد من ذلك اليهود والنصارى .

ومن جملة ما شدد به هذا الصدر الأعظم الرشيد منعَ العساكر من الاعتداء على الأهالي ، ولو بمثل حبة الخردلة ، ومن خالفَ ذلك أنزلَ به العقابَ الصارم ، ثم نظر إلى أحوال القضاء ، فطهّرَ المحاكم ، وأشعر الرعيةَ وجودَ العدلِ ، وأعادَ مجد السلطنة كما بدأ ، وبحسن إدارته هذِه حفظَ للسلطنة بلاد المورة لأنَّ الأهالي قاموا إذ ذاك ، وانتصروا للدولة على البنادقة ، لا سيما أنّ هؤلاء كانوا يسعَوْن في نشر المذهب الكاثوليكي بين الأروام الأرثوذكسيين ، فلما رأى الأروام ما رأوا من عدالة هذا الصدر ، وحسن إدارتهِ ، رجعوا إلى الدولة العثمانية من تلقاء أنفسهم .

وبعد أن سدّدَ الكوبرلي أحوالَ السلطنة ، وأعادَ هيبة الحكومة كما كانت ، زحف إلى الثغور ، ووافاه خان القرم سليم غرائي ، فبدأوا ببلاد الصرب فدوَّخوها ، وهزموا جيشاً ألمانياً في قوصوه . وهزم الأمير تكلي المجري حليفُ الدولة الجنرال هوسلر وأخذه أسيراً ، واسترجعت الدولة نيش وودن وسيمندرية وبلغراد ، وذلك سنة (١١٠٢) ـ (١٦٩٠) ثم مات السلطان سليمان الثاني .

***

٢١ ـ السلطان أحمد الثاني

١٦٩١ ـ ١٦٩٥

وخلف[1] [السلطان سليمان الثاني] أخوه أحمد الثاني في (٢٣) يونيو ـ حزيران (١٦٩١) ـ (١١٠٢) فكان للكوبرلي في مـدة [السلطان] أحمد من نفوذ الكلمة ما كان في مدة [السلطان] سليمان ، حتى إن السلطان أحمد قال مرة : إني لا أريدُ أن أعترضَ الكوبرلي في شيء من أمور الإدارة خوفاً من أن يتعطّلَ بذلك ما هو أدرى [به] مني . إلا أنّ الأقدار أبت إلا حرمان السلطنة العثمانية من هذا الرجل العظيم ، فإنّه في الحرب مع النمسة تلاقى في سالان كنيم (Salan Kenem) مع جيش ألماني يقوده لويس فون بادن ، وكان الصدر الأعظم مختِرطاً سيفَه أمامَ الجيش ، فأصابته رصاصة في صدره فخّر قتيلاً ، ودارت الدائرة على الأتراك ، وفقدوا ثمانية وعشرين ألف مقاتل ، ومئة وخمسين مدفعاً ، وكانت مصيبةً من أعظم المصائب على الدولة ، وفقدت بفقدِه وزيراً عاقلاً ، عادلاً ، نشيطاً ، جريئاً ، مهذّباً ، صادقاً ، اجتمع فيه من الخلال الباهرة ما قلّ أن[2] وجد في رجلٍ من رجال السياسة . فبكاه المسلمون والمسيحيون معاً ، وأسف الجميع لفقده ، وبقيت الدولة مدة أربع سنوات لم يلتئم جرحها الذي تركه موتُ الكوبرلي .

***

---

(١) في الأصل (خلفه) .

(٢) في الأصل (ما) .

٢٢ ـ السلطان مصطفى الثاني

١٦٩٥ ـ ١٧٠٣

ثم تولّى السلطنةَ مصطفى الثاني بن محمد الرابع ، **وكان عهدُه متّسماً بالمتانة والصلابة** ، **ورجع السلطان إلى دأب أجداده الأولين** ، وأعلن أنه سيباشِرُ قيادةَ الجيش بنفسه ، فقال له بعضُ وزرائه : إنّه لا يجوزُ له أن يعرِّض للتهلكة شخصَه المقدس ، فرفض كلامه ، وفي بداية أمرِهِ كسر الأسطولُ العثماني في خليجِ شيو أسطولَ البنادقة ، وزحف خان التتر إلى بولونية ، وأوقعَ بأهلها ، ولم يتوقّفْ إلا عند ألمبرغ .

وجاء الروس فحاصروا آزوف فهزمهم العثمانيون والتتر ، وقتلوا منهم ثلاثين ألفاً ، وذلك في (١) أكتوبر ـ تشرين الأول سنة (١٦٩٥) ـ (١١٠٧) ثم دخل السلطان بنفسه بلادَ المجر ، وفتح ليبة ، وجاء الجنرال فيتيراني ليصده ، فأحاط به الجيش العثماني ، وبعد عِراكٍ شديد ، كَثُرَتْ فيه الخسائر من الفريقين أُخذَ فيتيراني أسيراً ، وأمر السلطانُ بدقِّ عنقه ، ثم انتصر السلطان في وقعة أولاش على أمير الساكس ، وبينما كانت الأمور جارية وفق مراد العثمانيين ؛ إذ تولّى البرنس أوجين دوسافوا قيادةَ الجيش الألماني .

سلطنة مصطفى الثاني ابن محمد الرابع التي ابتدأت سنة (١١٠٧) ـ (١٦٩٥) كانت فاتحتُها فاتحةَ حزم وعزمٍ ، وما مضى ثلاثة أيام على استواء السلطان على سرير الملك حتى أعلنَ نيتَه أنْ يتولّى قيادةَ الجيوش بنفسه ، خلافاً لما كان عليه أسلافُه المتأخرون ، وقد حاول بعضُ وزرائه أن يأفِكَهُ عن عزمه هذا ، فلم يستفدْ شيئاً ، وقال له السلطان : إني ماضٍ في خطتي هذه ، ثم إنّ عهدَ هذا السلطان بدأ بالظفر ، فالأسطول العثماني كسر أسطول البنادقة أمام جزيرة ساكس واستولى العثمانيون على هذه الجزيرة ، وزحف خان القرم على بولونية ، وأوغل وأثخن ، ولم يتوقّف إلّا عند ألمبرغ[1] .

---

(١) تكرار في الأصل .

وكذلك الروس تركوا حصار آزوف بعد أن فقدوا ثلاثين ألفَ مقاتل ، وذلك في أكتوبر ـ تشرين الأول سنة (١٦٩٥) ـ (١١٠٧) ثم إنّ السلطان نفسه دخل بلاد المجر ، وافتتح مدينة ليبة عنوة ، وأسر الجنرال فيتيراني وأمر بقطع عنقه ، ثم تغلّب السلطان في واقعة أولاش على أمير الساكس قائد الجيش الألماني في السنة التالية ، فاشتعلت حماسة العثمانيين ، وصاروا يجودون بالعطايا لتجهيز الجيوش ، ولتكتيب كتائب من المتطوعة . إلا أنّ طالع الحرب لم يستمر طويلاً على هذا الشكل ، فإنّ بطرس الأول قيصر روسية عاد فافتتح آزوف ، والبرنس أوجين دوسافوا تولّى قيادةَ الجيوش النمسوية ، فكسر الجيش العثماني على نهر تيس (Thaiss) حيث فقد العثمانيون ثلاثين ألف مقاتل ، منهم عشرة آلاف غرقوا في النهر ، وقُتل الصدر الأعظم ، وفرّ السلطان ، ودخل العدو بلاد البوسنة ، وذلك سنة (١١٠٩) ـ (١٦٩٧) فعاد الخطر فأحدق بالسلطنة ، وعوّل السلطان على وزير جديد من آل كوبرلي ، وهو الكوبرلي حسين باشا ، وكانت الخزانةُ فارغةً ، فجاء الكوبرلي هذا ورمّم الأحوال ، وحشد جيشاً عهد بقيادته إلى دالتّبان باشا ، وسرّحه إلى البوسنة ، فأجبر النمسويين على الإنكفاء إلى الوراء ، فعبروا نهرَ الساف .

وكان لويس الرابع عشر يغري تركية بمتابعة القتال ، ويتعهّدُ لها بواسطة سفيره الماركيز دوفريول بأنه لا يصالح النمسة إلا إذا استرجعت تركية بلادَ المجر وجميعَ البلدان التي فقدتها ، ولكنّ سياسة النمسة تغلّبت في ذلك الحين ، وقيل إنّ الذهبَ لَعِبَ دورَه في هذه المسألة ، وانعقد الصلحُ بين تركية والنمسة على شرط ترك الأولى للثانية جميعَ المجر وترانسلفانية ، **وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة كارلوفيتس** ، وتاريخُ إنعقادها (٢٦) يناير ـ كانون الثاني سنة (١٦٩٩) ـ (١١١٠) وبموجبها تقرّرتْ الهدنة ين الدولتين إلى مدة خمس وعشرين سنة ، وصار نهر الساف ونهر أُنّة فاصلاً بين تركية والنمسة ، واسترجعت بولونية كامنيك وفادولية وأوكرانية وبقيت آزوف لروسية ، وصارت بلاد المورة وجميع دالماسية إلى جمهورية البندقية ، **وألغيت جميعُ الجُزَى التي كانت تدفعُها الدول المسيحية إلى الدولة العثمانية** .

ومعاهدة كارلوفيتس هذه كانت إلى ذلك العهد أعظم ضربة على السلطنة العثمانية ، فتراجع الأتراك عن بولونية والمجر إلى ما وراء نهر الدنيستر ، والساف والأَنَّة ، وظهر للجميع الضعفُ الذي كان قد بدأ يعمل عمله في سلطنة آل عثمان.

وكان الخلل [قد] عمَّ جميعَ فروع الإدارة ، وكانت الفتنُ مشتعلةً على حدود إيران ، وفي القرم ، وفي أفريقية ، وفي بلاد العرب . فقام الكوبرلي حسين ، الذي اقتفى أثر عمّه برأب الصدوع ، وسدّ الفتوق ، وأعفى أهل البوسنة والبانات مما كانوا يؤدونه باسم الجيش ، وترك لأهل الروملي مليوناً ونصف مليون من متأخر الضرائب ، وأصدر أوامره في جميع السلطنة بأنّ جميعَ المأمورين يجب أن يكونوا علماء ، وان يحفظوا القرآن وقواعد الدين ، وشدّد في انتخاب المدرّسين ، ووضع الإدارة وقيادة الجيش تحت رقابة شديدة ، وأصلحَ الأمور المالية ، وسنَّ قانوناً للبحرية ، وبنى المساجد ، والمدارس ، والأسواق ، والثكن العسكرية، ورمّم أسوار بلغراد، وطمشوار ، ونيش . وشحنها بالأقوات، ونظر في أحوال المسيحيين من الرعايا فعاملهم على قدم المساواة مع المسلمين .

ولكنّ هذه الإصلاحات كلّها لم تقع بدون مقاومة ؛ فتألب على الصدر الأعظم حزبٌ ممن كانوا يعيشون بالغلول من أموال الدولة ، وأخذوا يدسّون الدسائس حوله وحولَ أعوانه ، إلى أن اضطروه إلى الاستقالة ، وكان أُصيبَ بمرضٍ عضال ، وفي (٥) سبتمبر ـ أيلول سنة (١٧٠٢) ـ (١١١٤) بعث إلى السلطان بختم الصدارة ، ومات بعد ذلك بسبعة عشر يوماً ، وفقدت الدولة به رجلاً عظيماً ممن أخّروا أجلَ سقوطها نظير سائر آل الكوبرلي .

وقد أحدث موت الكوبرلي هذا فتوقاً جديدة في السلطنة ، وتولّى الصدارة دالتَبَان باشا ، وكان مغرماً بالحرب ، يريدُ نقض المعاهدة التي انعقدت مع النمسة ، إلا أنه لم يَطُلْ أمرُه ، وقُتل ، قيل بدسائس بعض العلماء ، فتولّى الصدارة نامي محمد باشا ، فأراد أن يحذُوَ حَذْوَ الكوبرلي في الإصلاح ، فأثار عليه المشايخ [و] جيش الإنكشارية ، وانتهى الأمر بخلع السلطان مصطفى الثاني ، ومبايعة أخيه أحمد الثالث .

❊ ❊ ❊

٢٣ ـ السلطان أحمد الثالث

١٧٠٣ ـ ١٧٣٠

وفي أول الأمر اضطر السلطانُ الجديد إلى إرضاء الثوار ، وقتلِ المفتي فيض الله أفندي ، بفتوى من خلفه محمد أفندي ، وهو حادثٌ لم يُسْبَقْ له مثيل ، غَيرَ أنّ السلطان بعد أَن تمكنتْ أقدامُه في السلطنة ، عاد فأخذ ينكِّلُ بزعماءِ الثورة ، فقتل منهم ، وغرّب ، وعَهِدَ بالوزارة إلى صهره المسمّى داماد حسن باشا ، فسار بالمملكة سيرةً حسنة ، وثارت في أيامه بلادُ الكرج ، فدوخها ، واعتنى بتأمين قافلةِ الحج من الشام إلى مكة ، وبنى مدارس ، وأنشأ دارَ صنعةً بحريةٍ .

وفي أيام أحمد الثالث كان لويس الرابع عشر قد خاض الحرب المسماة حرب الوراثة في إسبانية ، فعرض بواسطة سفيره على تركية أن تدخلَ في حربٍ مع النمسة وتسترجعَ ما فقدته ، ولكنّ حزب السلام كان في تركية غالباً ، فرفضَ السلطانُ طلبَ ملك فرنسة .

وكانت روسية قد نجمت قرونُها إذ ذاك ، فانتهزتْ فرصةَ اشتغال الدول الغربية بالحرب ، وخلالها الجو ، ورأت تركية قد مالت إلى الدعة ، فجعلت تتأهب لقتالها ، وتركية كانت لا تحفلُ بما تفعله روسية بقيادة بطرس الأكبر ، وكان كارلوس الثاني عشر[1] قد خَشِيَ مغبَّة قوة روسية ، فحملَ عليها ، وطلب معاونة السلطان ، فوعدوه بإرسال خان القرم لمعاونته ، فاعتمد على هذا الوعد ، وأوغل في أرض روسية بستة عشر ألف مقاتل لا غير ، فانكسرَ ، والتجأ إلى بندر ضمن الحدود العثمانية ، وحاول أن يجرَّ العثمانيين إلى محاربة روسية فلم يفلح ، وذلك لأنّ نعمان باشا الكوبرلي الصدر الأعظم كان يكره دخول الدولة في الحرب ، وكان هذا الكوبرلي نظيرَ أسلافه في العدل ، إلّا أنه كان

---

(١) ملك السويد .

ينقصُه علوَّ أفكارهم ، فسقط أخيراً ، وكان أكبر سبب في سقوطه مشرِّفاً له ، لأنّه عارضَ السلطان في إسرافه ، وأبى أن يجعلَ معاشاتِ الإنكشارية من طرق غير شرعية . فقال له السلطان : إنّ سلفك شورلولي كان يجدُ طرقاً لتأدية رواتب العساكر ، فأجابه الكوبرلي : لي الفخرُ بأنْ أجهلَ مثل هذه الطرق ، فعزله السلطان ، وولّى مكانه محمد باشا البلطجي ، الذي أعلن الحرب على روسية ، وتولى بنفسه قيادة الجيوش .

وكان بطرس الأكبر يؤمِّلُ أنّ المسيحيين في السلطنة العثمانية يرفعون لواء الثورة ، فلم يتحرك منهم أحد ، وسار البلطجي بمئتي ألفِ مقاتل من الترك والتتر ، وأحاطوا بجيش بطرس الأكبر على ضفاف نهر البروت ، وأوشك بطرس وجيشه أن يقعوا في الأسر ، وكانت روسية لو أُسروا ستسقط من عداد الدول ، فبادرت كاترينة بدهائها لتلافي الخطب ، ودخلت في المذاكرة مع الصدر الأعظم ، وعزّزت الكلام بهدايا فاخرة قدمتها له ، وانعقدت معاهدة فاكسن وذلك سنة (١١٢٣) ـ (١٧١١) وبموجبها تعهّدَ قيصر روسية بإعادة قلعة آزوف ، وبهدم القلاع التي بناها في تلك البلاد ، وبعدم التدخل في أمور القوزاق ، فكانت هذه المعاهدة مفيدةً لتركية إلا أنها كانت أفيد جداً لروسية ، لأنها أنقذت القيصرَ من الأسر . وثار غضبُ ملك السويد ، ووبَّخَ البلطجي على عدم أسرِهِ بطرس الأكبر ، فأجابه البلطجي جواباً بارداً ، وهو أنّه لو أسرَ بطرس لبقيت بلادُ الروس بدون رئيس !! فهذا الكرمُ كان بغيرِ محله ، بل كان نوعاً من الخبال .

وجاء الكونت بونياثوفسكي سفيرُ السويد ، وعرض القضيةَ على السلطان ، وعضده خان القرم دولة غرائي فغضب السلطان على البلطجي ، وعزله ونفاه ، على أنّ خلفه يوسف باشا لم يكن أيضاً مغرماً بالحرب ، فعقد متاركة مع روسية إلى مدة (٢٥) سنة ، وصدر الأمر لكارلوس الثاني عشر بأن يعود إلى بلاده ، وكان كارلوس جباراً عنيداً ، فأبى أن يمتثلَ الأمرَ ، وبقي معلّقاً أملَه بجرّ العثمانيين إلى محاربة روسية ، فالتزمت الدولة أن تعالِجَ إخراجه من أرضها بالقوة ، فعصى الأمر ، فساقوا إليه عشرين ألف عسكري من التتر ، وستة آلاف من الترك ، فحاول مقاومةَ هذا الجيش بثلاثمئة من رجاله ، ولكنّ العثمانيين لم

يريدوا أن يغدروا بنزيلهم ، وصبروا عليه حتى رجع إلى السويد من نفسه بعدَ أن أقام سنتين في تركية !! .

وفي تلك المدة استفادت الدولة من الهدنة مع روسية ، وطردت البنادقة من جميع بلاد المورة ، ومن بعضِ البلاد التي كانت باقيةً لهم في كريت ، ولكنّ جزيرة كورفو امتنعت على العثمانيين ، فالتجأت البندقيةُ إلى النمسة ، وكان قائدُ جيوشها أوجين دوسافوا الشهير ، فأعلن الحرب على تركية ، وهزم الجيشَ العثماني في برفاردين وذلك في (٥) أغسطس ـ آب سنة (١٧١٦) ـ (١١٢٨) وقُتِلَ الصدر الأعظم في الوقعة ، واستولى النمساويون على طمشوار ، وحاصروا بلغراد ، فزحف الصدر الأعظم الجديد خليل باشا لنجدة بلغراد ، فانكسر أيضاً ، فالتزمت الدولة أن تعقِدَ الصلحَ مع النمسة ، وأخلت لها طمشوار وبلغراد ، وقسماً من بلاد الصرب ، ومن بلاد الفلاخ .

ورجع بطرس الأكبر فاستفادَ من هزيمة تركية هذه ، وأخلّ بالمعاهدة التي كان عقدها معه البلطجي ، فتجددت معاهدةٌ أخرى ، وأقنعت روسية عدوتها تركية بالاتحاد معها على قضية النظام الإرثي في مملكة بولونية ، وغفلت تركية عن كون بولونية حصناً حصيناً لها ، فسايرت روسية .

وتولّى الصدارة إبراهيم باشا ، فقام يحارِبُ العجم ، وأثار السنّيةَ الذين في بلادها ، فانتهز بطرس الأكبر الفرصة ، وأغار على الطاغستان وسواحل بحر الخزر ، فأرسل خان القرم ينذِرُ الدولةَ بسوء المصير ، فزحفت الجيوش العثمانية على أرمينية وكرجستان ، وكادت الحرب تقع بينها وبين الروس ، فخاف بطرس الأكبر أن تدورَ عليه الدائرة هذه المرة أيضاً ، فوسّطَ فرنسة بينه وبين الدولة ؛ فسعى دوبوا سفيرُ فرنسة في إرضاء الفريقين ، وذلك من أملاك العجم .

وكانت فارس يومئذٍ في حالٍ أشبهُ بالفوضى ، وكان الشاه مير محمود قد تغلّبَ عليه أشرفُ ابن عمه ، واستولى على الملْك ، ونازعه طهماسب ، وكان هذا أحقُّ بالملك شرعاً ، فتحارب الاثنان ، وانتهى الأمرُ بهزيمة أشرف ، والتحاقه بسجستان ، حيث مات ، وكان عند طهماسب قائدٌ عظيم اسمه نادر

كولي خان ، كان في الأصل زعيم أشقياء ، فزحف صوب تركية ، واسترجع الولايات الفارسية التي كانت قد دخلت في الحوزة العثمانية ، فلم يشأ السلطان أن يثيرَ على فارس حرباً ، فغضبت الإنكشارية ، وثاروا وطلبوا رأس الصدر الأعظم ، ورأسَ شيخ الإسلام ، ورأس القبطان باشي ، فامتنع السلطان عن إعطائهم رأس شيخ الإسلام ، ولكن قتلَ لهم الآخرين ، فلم يزدهم ذلك إلا تمرداً ، وخلعوا السلطان أحمدَ ، وبايعوا محمود الأول .

وفي زمن أحمد الثالث دخلت المطبعة في تركية ، وأفتت مشيخة الإسلام بجوازها ، إلا أنّه بقي طبع المصحف الشريف ممنوعاً . وطبعت في ذلك الوقت كتبٌ كثيرة ، مثل « جيهان نامه » وهو جغرافية للشرق مع أطالس وخلاصات تاريخية ، و « تقويم التواريخ » وهو سلسلة ملوك الشرق وعظمائه إلى سنة (١١٤٥) ـ (١٧٣٢) و « تحفة الكبار » وهي تاريخ البحرية العثمانية إلى سنة (١٠٦٦) ـ (١٦٥٥) و « تاريخ تيمور » من قلم نظمي زاده . و « تاريخ مصر » للسهيلي ، و « تاريخ الأفغان » مع « مختصر تاريخ الدولة الصفوية في فارس » . و « تاريخ بوسنة »من سنة (١١٤٩) ـ (١٧٣٦) إلى سنة (١١٥٣) ـ (١٧٣٩) وهي مدةٌ اتصلت فيها الحروب في ذلك الاقليم . و « تاريخ الهند الغربية » . وكتاب « الفيوضات المغناطيسية » يتكلَّمُ عن خصائص المغناطيس وإبرته المعروفة . فهذه هي الكتب الأولى التي طبعت بالمطبعة العثمانية ، بحسب رواية المؤرخ لاجون كيير (Lajonquiere) وقد قرأتُ في بعض المظان ما يخالِفُ هذا ، وهو أنّ أول كتابٍ طبع في الأستانة هو « صحاح الجوهري » .

ثم إنّ الدولة عادت فمنعت المطبعة[1] ، وبقي ذلك إلى زمن السلطان عبد الحميد الأول ، الذي أصدر خطاً شريفاً في تاريخ (١٢) مارس ـ آذار سنة (١٧٨٤) ـ (١١٩٨) بإعادة المطبعة تحت إدارة محمد رشيد أفندي ، وأحمد واصف أفندي ، **فكانت مدة إهمال المطبعة أربعينَ سنة** ، ثم إنّ السلطان محمود الأول اهتمَّ بها مزيدَ الاهتمام .

---

(١) حتى لا تقطع أرزاق النساخ ، حيث كان في إستانبول وحدها ما يزيد على ستين ألف ناسخ .

٢٣ ـ أحمد الثالث

وكان السلطان أحمد الثالث شاعراً أديباً ، وله شِعْرٌ رقيق ، لا سيما في الغزل . أحفظُ من جملته :

عجباً لسلطانٍ يَذِلُّ له الورَى   وَيَصُوْلُ سُلْطانُ الغَرامِ عليهِ

وما أكثر الأدباء والشعراء في آل عثمان ! !

* * *

٢٤ ـ السلطان محمود الأول

١٧٣٠ ـ ١٧٥٤

تولى السلطان محمود الأول سنة (١١٤٣) ـ (١٧٣٠) ولأول سلطنته ثار الإنكشارية ، وعلى رأسهم المسمى بترونة خليل فقمعت الحكومة ثورتهم ، وقتلت منهم سبعة آلاف ، وعاد السكون إلى العاصمة . ثم استأنفت الدولةُ محاربةَ العجم ، وأجبرت الشاه طهماسب على طلب الصلح ، فانعقد في (١٠) يناير ـ كانون الثاني سنة (١٧٣٢) ـ (١١٤٤) ونزلت العجم عن تبريز ، وأردهان وهمذان ، وجميع اللورستان ، وأيضاً تركت لتركية الطاغستان ، وناخشيفان ، وأريوان وتفليس ، وغيرها .

ولكنّ هذا الصلح لم يطل أمره ، فإنّه برز نادر كولي خان من قواد العجم ، وخلع الشاه طهماسب ، وصار هو كافلاً للمملكة الفارسية ، ووصيّاً على القاصر الشاه عباس الثالث ، فنقض نادر المعاهدة ، وغزا البلادَ العثمانية ، وحاصر بغداد ، فاشتبكت معركة شديدة على دجلة ، وانكسر العجم أولاً وثانياً ، ولكنهم عادوا فانتصروا في المعركة الثالثة ، ووقع السر عسكر طوبال عثمان باشا قتيلاً ، وكان هذا قائداً بطلاً ، ووزيراً عادلاً فاضلاً ، خسرت تركية بموته خسارة لا تعوّض . وأرسلت الدولة جيشاً آخر بقيادة السر عسكر عبد الله باشا الكوبرلي بن مصطفى باشا الكوبرلي ، فقتل هذا السر عسكر أيضاً ، فاضطرت الدولة إلى طلب الصلح ، وعقدته مع نادر شاه الذي كان تولّى سلطنة العجم ، ورجعت مع إيران إلى الحدود التي كانت تحددت بين السلطان مراد الرابع والعجم سنة (١٠٤٩) ـ (١٦٣٩) وأكبر[1] السبب الذي حدا بتركية لطلب الصلح هو نشوب الحرب بينها وبين روسية .

وكانت بولونية في فوضى مستمرة ، فانتهزت روسية من جهة ، والنمسة من

---

(١) في الأصل (أكثر) .

جهة أخرى الفرصة لأجل اقتسامها . وقاتل ستانسلاس ملك بولونية قتالاً شديداً ، إلا أن الروس تغلبوا عليه ، فصارت بولونية في قبضة روسية ، بينما فرنسة مشغولة بالحرب مع النمسة .

وكان عند الدولة العثمانية رجلٌ إفرنسي اسمه أحمد باشا ، أصله من البحرية الإفرنسية ، وقد جرت معه وقائع خرج من أجلها من وطنه ، ودخل في خدمة النمسة ، وامتاز بالبسالة في الحرب بين النمسة وتركية ، ثم وقع الخلاف بينه وبين البرنس أوجين ، فألقاه في السجن ، فوجدَ وسيلةً للفرار من السجن ، والتجأ إلى تركية ، وصار قائداً ، وتسمّى بأحمد باشا ، وقدّم للسلطان تقريراً يطلِعُه فيه على أسرار السياسة الأوربية ، وأشار على السلطان بعقد محالفة مع فرنسة ، وأقنعه بها ، فرضي السلطان بذلك ، حتى يتمكّنَ من قهر النمسة ، ولما علم كارلوس الثاني إمبراطور النمسة بمشروع هذه المحالفة مع فرنسة أسرع بمصالحة هذه ، وفي أثناء ذلك ، زحف الروس إلى تركية بينما هي في حربٍ مع العجم ، فاستولوا على آزوف ، والقرم ، وغيرهما .

ولما كانت النمسة قد صالحت فرنسة واستراحت من حروبها مع إسبانية وسردينية عبئت[1] جيشاً كبيراً ، وغزت به بلاد الصرب ، والفلاخ ، والبوسنة ، وظنَّت نفسها قد نالت مرامها ، فانكسر جيشها في بانيالوقة ، والتزمت أن تخلي البوسنة ، وكذلك انكسر جيشها في الصرب تحت قيادةِ البرنس هيلدبورهوزن فطلب إمبراطور النمسة الصلح ، وذلك سنة (١١٥٠) ـ (١٧٣٧) وتوسطت إنكلترة وهولاندة في إعادة السلام ، إلا أنّ الباب العالي اشترط أن يكونَ الصلحُ بواسطة فرنسة ، واسترجعت الدولة في تلك النوبة بلاداً كثيرة كانت قد استولت عليها النمسة ، ولولا غفلة الحاج محمد باشا الصدر الأعظم لكان الجيش النمسوي قُضي عليه بتمامه .

فأما الحرب مع روسية فكانت سجالاً ، ففي البداية انكسر الروس على نهر الدنيستر ، وأحرق الأسطول العثماني أسطولَ روسية ، إلا أنهم عادوا فيما بعد

---

(١) في الأصل (عبّت) .

فانتصروا على العثمانيين ، ودخلوا مُولدافية ، وبمساعدة المركيز فيلنوف (Villeneuve) انعقد الصلح بين الدولتين روسية والنمسة ، وبين الدولة العثمانية ، وذلك بكفالة فرنسة ، وبموجب هذه المعاهدة رجعت بلغراد وشاباتس وجميع بلاد الصرب ، والفلاخ ، وقلعة أورزوفة إلى تركية ، وجُعِلت هذه المعاهدة لمدة سبع وعشرين سنة ، وقد محت معاهدة كارلوفيتس السابقة التي كانت وصمةَ عارٍ على العثمانيين .

فأما روسية فقد رضيت بالصلح على شرط أن تُهْدَمَ قلعة آزوف ، ولا يكون لها سفن حربية لا في قلعة آزوف ولا في البحر الأسود ، وأعاد الروس جميعَ البلاد التي كانوا احتلوها من تركية .

وقال المؤرخ الألماني هامر (Hammar) : إنّه في ذلك الوقت ساد النفوذ الإفرنسي في الأستانة ، إلى أن صار كلُّ شيءِ بيد فرنسة تقريباً ، وطلبت فرنسة تعديلات في الامتيازات الأجنبية المعروفة بامتيازات سنة (١٠٨٤) ـ (١٦٧٣) فأجيبت إليها ، وذهب السفير العثماني محمد سعيد ليقدِّم ذلك إلى لويس الخامس عشر في فرساي ، فقوبِلَ باحتفالٍ عظيم ، ورجع ومعه مدربون إفرنسيس للجيش العثماني ، بحسب طلب بونفال (Bonval) الإفرنسي الذي كان أسلم ، وتسمّى بأحمد باشا ، وهو الذي مات سنة (١١٦٠) هجرية (١٧٤٤) م ودفن في بيره من بلاد اليونان .

ثم إنّ تركية عقدت محالفة عسكرية هجومية دفاعية مع السويد في وجه روسية .

وفي ذلك الوقت توفي الإمبراطور كارلوس السادس صاحب النمسة ، وترك المُلك لابنته ماري تيريز فتحركت أطماعُ الدول الأوربية ، وَأَرَدْنَ اقتسام النمسة .

وكانت هذه أحسنَ فرصةٍ للدولة العثمانية حتى تسترجعَ بلاد المجر ، وكانت فرنسة على رأس الدول التي تريدُ تمزيق النمسة ، فدعت تركيةَ إلى الاشتراك معهنّ ، فأبى السلطان نقضَ العهد !! وشرع يرسِلُ المواعظ إلى تلك الدول ، حتى تمتنع عن إثارة الحرب .

وأصدرَ الصدر الأعظم منشوراً طويلاً يصِفُ فيه أهوال الحروب بأبلغ العبارات ، ويختمه بدعوة الدول المسيحية إلى السلام !! وعبثاً حاول بونفال المسمى أحمد باشا وسفير فرنسة وغيرهما تحريك السلطان ورجالِهِ لانتهاز هذه الفرصة ، وساعدهم في ذلك أرسلان غرائي خان القرم ، الذي كان يعِرفُ مقاصد روسية ، فالدولة العثمانية حينئذ أصرّت على التزام السكوت ، وتوسطت إنكلترة بينها وبين روسية وأوسترية حتى عقدت بين الدول الثلاث معاهدة سلم دائمة .

ثم إنّ الدولة وحّدت بين إمارة الفلاخ ومولدافية ، وصارت ترسِلُ إلى هناك أميراً تنتخبه من أروام إستانبول ؛ فكان رجال الدولة يضعون هذه الإمارة بالمزاد ، فيذهب الأمير الرومي من الأستانة فيجمعُ ما يقدِرُ عليه من الأموال بالطرق الدنيئة وغير المشروعة ، ويرشو بها رجالَ الديوان لأجل إطالة إمارته ، حتى إذا جاء من زاد عليه صرفوه عن الإمارة ، وولوا الذي زاد ، وهكذا ساءت إدارة الفلاخ والبغدان ، وكان هذا النسق في الحكم يزيدُ بغضاء أهالي رومانية للأتراك ، ويحملهم على محبة الروس ، وقد جنت الدولة العثمانية من تحكيم هؤلاء الأروام في بلاد رومانية اتحاد الرومانيين مع الروس في وجهها ، وكان ذلك وبالًا عليها .

❊ ❊ ❊

٢٥ ـ السلطان عثمان الثالث

١٧٥٤ ـ ١٧٥٧

وفي (١٣) ديسمبر ـ كانون الأول سنة (١٧٥٤) ـ (١١٦٨) **توفي السلطان محمود الأول** بعد أن ملك أربعاً وعشرين سنة ، وكان حليماً رؤوفاً محبوباً ، فأسِفَ عليه الناس أجمع ، وخلفه السلطان عثمان الثالث .

وكان الصدر الأعظم هو علي باشا ، فاستخفّ بأمرِ السلطان ، وأكثر الغلول من مال الدولة ، فأمر السلطان بقتله ، ووضع رأسه في صحنٍ من فضة على باب القصر السلطاني ، وولى الصدارةَ وزيراً اسمه **محمد راغب باشا ، وكان في غايةِ الدهاءِ والحكمةِ ، مع الحزمِ والعزم ، وكانت له خبرة بالسياسية الخارجية** . ولم يطلّ أمرُ عثمان الثالث ، ولم يحصل شيءٌ في زمانه سوى حريق لم يسبق له مثيل في الأستانة ، التهم نصفَ هذه العاصمة . ومات عثمان الثالث في (٢٩) أكتوبر ـ تشرين الأول سنة (١٧٥٧) ـ (١١٦٩) .

***

٢٦ - السلطان مصطفى الثالث

١٧٥٧ - ١٧٧٤

وخلف[1] [السلطان عثمان الثالث] ابن أخيه السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث .

وقد بدأت سلطنته في أثناء حوادث أثارت ثائرة الأمة ؛ منها الاعتداء الذي جرى على قافلة الحجاج بين الحرمين ، ومنها أنّ سفينة أمير البحر[2] - أي القبطان باشي - خرج منها جنودها ، وبقى فيها بعض النواتية من الأرقاء المسيحيين ، فذهبوا بها إلى مالطة .

غير أنّ السلطان بدأ بالإصلاح فعلاً ، وأول ما وجّه إليه همه هو إصلاح الأمور المالية ، وضبط الجبايات ، واتباع سياسة التوفير ، ولا سيما في القصر السلطاني . وأخذ السلطان إدارةَ الأوقاف من يد آغا القصر ، وسلّمها إلى الصدر الأعظم ، وكان راغب باشا يبني المحاجرَ الصحية توقياً من الطاعون ، ويقوم بإصلاحاتٍ أخرى ، مثل بناء دار الكتب العظيمة التي بناها في إستانبول ، وكان مرادُه أن يشقَّ بلاد الأناضول بترعة تتكون من نهر سقارية ، ومن بحيرة واقعة بين سقارية وأزنيق ، وذلك تسهيلاً لنقل الحبوب والأقوات ، فمات قبلَ أن يتمكّنَ من إجراءِ هذه الفكرة الحسنة ، وكانت وفاته سنة (١١٦٦) - (١٧٥٢) .

وبينما كانت الدولة في أشدّ الحاجةِ إلى مثل راغب باشا جرت حوادثُ في غاية الخطورة ، منها قتل بطرس الثالث قيصر روسية ، وجلوس كاترينة الثانية على عرش تلك المملكة ، وموتُ أوغوست الثالث ملك بولونية ، وكانت روسية قد دخلت في صفّ الدول العظام ، وأخذت تنمو بسرعةٍ ، فوجهت جميع دسائسها إلى إسقاط مملكة السويد ، ومملكة بولونية ، والسلطنة العثمانية .

---

(١) في الأصل (خلفه) .
(٢) في الأصل (الماء) .

وقد تغلّبت على السويد ، ونزعت من يدها بموجب معاهدة نيستاد أحسنَ ولاياتها في البلطيق الغربي ، ثم قضت روسية على مملكة بولونية وأجلستْ على عرش هذه المملكة الكونت ستانسلاس بونياثوفسكي عشيق القيصرة كاترينة ، أو أحد معشوقيها الذين كان لا يأخذُهم الإحصاء ، فاحتجت تركية وفرنسة على عمل روسية هذا ، ولكن الدولة العثمانية كان بلغ فيها فسادُ الإدارة وفشو الرشوة والخيانة إلى أقصى حد يتصوّره العقل ، وكان الإنكليز يستعملون المال في جميع مقاصدِهم ، وينالون به جميع ما يريدونه من الدولة ، وكان السلطان يعِرفُ كلَّ ذلك ، ولا يقدِرُ على الإصلاح ، نظراً لشمول الفساد ، وعموم البلوى ، حتى إنه قال لخان القرم : إن جميعَ الباشوات الذين عندي قد فسدت أخلاقُهم ، ولم يبقَ لهم همّ إلا في اقتناء الجواري ، وآلاتِ الطرب ، وبناء القصور .

وفي أثناء ذلك اعتدى الروس على حدود الدولة ، ودخل القوزاق إلى يالطة فأعلنت الدولة الحربَ على الروس ، ولكن كانت جيوشُها في أسوأ حالة ، وكان مضى زمنٌ طويل وهي خافضة في السلم ، فنسيت أهمَّ معدات القتال ، وكانت قلاعُها قد تداعت إلى الخراب ، وكانت المدفعية في أشنع حال ، وكان الولاةُ قد أخذوا يستقلُون في ولاياتهم ، مثل أحمد باشا في بغداد ، والحاج يمكلي في طرابزون ، والمملوك علي بك في مصر ، وغير ذلك ، وثار يومئذٍ ظاهرُ العمر الزيداني في عكا .

هذا ولما أعلنت تركية الحربَ على روسية زحف خان القرم كريم غرائي فاخترق حدود روسية ، وهزم الروس ، وعاد إلى بندر بخمسة وعشرين ألف أسير منهم ، ولسوء الحظ مات كريم غرائي في أثناء ظفره هذا ، فزحف الروسُ ، وحاصروا شوقسين فامتنعت عليهم ، وجاء أمين باشا قائد العثمانيين لنجدة التتر ، فانهزم ، وأمر السلطان بقتله ، وخلفه وزيرٌ يقال له المولدوفنجي فلم يتوفق ، لأنّه بينما كان يعبر نهر دِنَيستر طغت المياه ، فزعزعت أركان الجسرَيْن اللذين على النهر ، فازدحم الجيش العثماني ازدحاماً ساعد على انهيار الجسور ، فغرق منه عدد كبير ، بينما كان الروس يرمون على الجيش بنيرانهم ، فانكفأ العثمانيون إلى نهر الطونة ، ودخل الروس إلى بلاد رومانية . ثم أرسلت روسية

أسطولاً إلى البحر المتوسط ، فأثار بلاد المورة ، وبلاد الجبل الأسود ، فتوالت الوقائع بين الأتراك وبين الثائرين من الأروام ، ومن السلاف ، واشتعلت الحرب بين الأسطولين العثماني والروسي ، واحترق الأسطول العثماني في ششمه . وكان يقود الأسطول الروسي أورلوف الشهير ، عشيق القيصرة كاترين الثانية ، ولكن قيادته كانت اسمية ، والفعل كان لأمير البحر الأيكوسي المسمى الفنستون ، وأراد الفنستون هذا أن يخترِقَ الدردنيل ، فأبى أورلوف أن يطيعه ، وجاء فحاصر جزيرة لمنى ، التي هي قبالة ذلك البوغاز[1] . وكان العثمانيون قد بادروا إلى تحصين الدردنيل ، وحشدوا على الضفتين ثلاثين ألف مقاتل ، وهكذا أَمِنُوا خطر عبور الروس إلى الأستانة .

وأما في رومانية فدارت الدائرة أيضاً على العثمانيين ، مع أنّه كان عندهم هناك مئة وثمانون ألف مقاتل ، وأوشكوا أن يحيطوا بالروس ، ولكنْ بسوءِ إدارتهم تغلّب الروس عليهم في معركة كاهولو ، وقيل : إنهم فقدوا خمسين ألفَ مقاتل .

ولم يكن مَنْ يفكِّرُ في حفظ شأن السلطنة غير السلطان وحده ، وكان الوزراء كلُّهم تحت تأثير الإنكليز ، يريدون الصلح ، وقد طلبوا وساطة النمسة لذلك . وكان البارون دوتوت (de Tott) الإفرنسي يشتغل بأمر السلطان في ترميم المدفعية العثمانية ، إذ بعد أن كانت هي المدفعية الأولى في أوربة ، تقهقهرت إلى الدّرك الأسفل ! ! فأنشأ السلطان مدرسةً للمدفعية والهندسة في الكاغدخانة ، وكذلك بنى السلطانُ مدرسةً للبحريةِ ، وذلك في دار الصنعة ، التي يقول لها الأتراك الترسَانة ، وكانت البحريةُ [قد] وصلت إلى أقصى حدودِ الخلل ، وصار القبطان باشي ـ أي ناظر البحرية ـ يضعُ السفن تحت المزاد ، فالذي يزيدُ له في الرشوة يقلِّدُه قيادةَ السفينةِ ، ومما لا شكّ فيه أنّ البارون دوطوط خدم العثمانيين في ذلك الوقت خدمةً جزيلةً في ترميم المدفعية والبحرية .

وفي سنة (١١٨٥) ـ (١٧٧١) هاجم حسن بك التركي ، ومعه أربعة آلاف

---

(١) المضيق .

متطوع جزيرة لمنى ، وهزم الروس ، وألجأهم إلى الفرار بأسطولهم ، **فكافأه** السلطان بنظارة البحرية ، وانهزم الروس أيضاً في كرجستان ، وفي طرابزون ، إلا أنّهم تغلبوا على القرم ، وكانت هذه قاصمة الظهر لتركية ، إذ أعلن البرنس الروسي قائد جيشهم استقلالَ القرم عن تركية ، ووضعها تحت حماية روسية ، ومن بعد ذلك **صار البحر الأسود بين الدولتين ، بعد أن كان عثمانياً بحتاً** .

أما النمسة فقد اتفقت مع بروسية وروسية على اقتسام بولونية ، ثم توسطت النمسة في الصلح بين تركية وروسية ، واجتمع رجال الدول الثلاث في مولدافية ، وعندما بدأوا بالمذاكرات الصلحية اشتطّ الروس في مطالبهم ، فرفضت تركية صلحاً كهذا ، واستؤنفت الحرب . فانكسر الروس في روسجق وسيلسترية من بلاد البلغار .

فذهبوا إلى بازَرِجيك وهي مدينة غيرُ محصنة ، فانتقموا عن هزائمهم بقتل الأهالي وفيهم النساء والأطفال ، وروى المؤرخ هامر أنّ حسن باشا قبطان البحر على رأس جيش من السباهية طرد الروس إلى ما وراء الدانوب ، وغنم مدافعهم وأرزاقهم وقدورَ الطعام فيها اللحوم وهي نصف ناضجة .

ثم إنّ الدولة تغلّبت على علي بك الثائر بمصر بالاتفاق مع ظاهر العمر الزيداني والي عكا ، الذي كانت السفن الروسية تمدُّه بالمال والسلاح ، ولسوء طالع السلطنَة مات مصطفى الثالث ، بينما كان يريدُ أن يقودَ الجيشَ المرابط على الدانوب ، وذلك في (٢١) سبتمبر ـ أيلول سنة (١٧٧٣) ـ (١١٨٧) وأسفت الأمة العثمانية بأجمعها عليه ، **لأنّه كان مصلحاً كبيراً ، وجاء في زمن بلغت فيها الإدارةُ أبعدَ ما يتصوره العقل من الخلل ، فعالج أمراضَ السلطنة بصبرٍ عجيبٍ ، وأصلحَ جانباً كبيراً مما كان ينوي إصلاحه** .

وقد فكّر السلطانُ في خرق برزخ السويس ، وكلّفَ البارون دوتوت بأن يرسم له خطة لهذا المشروع الذي كان ينوي إجراءَه بعد عقد الصلح .

* * *

٢٧ ـ السلطان عبد الحميد الأول

١٧٧٤ ـ ١٧٨٩

فتولّى الملَك السلطان عبد الحميد الأول ، والمُلْكُ جمرةٌ تضطرِمُ ، ولم تصل الفوضى في السلطنة العثمانية إلى مثل ما وصلت إليه في ذلك العهد ، فإنَّ أحمد باشا والي بغداد كان قد أعلنَ استقلالَه ، وظاهرُ العمر الزيداني كان قد استفحل أمُره ، واستولى على بلاد الجليل ، التي يقول لها العرب بلاد الأردن وحصّن عكا ، واتخذها عاصمة له ، وكان محمد بك والي مصر ثائراً تقريباً ، وكان محمود باشا والي اشقودرة في شماليِّ ألبانية قد انفصل عن الدولة ، وكان أهم منه علي باشا والي يانية ، الذي أسّسَّ في جنوبيِّ ألبانية مملكةً مستقلةً .

دخل عبد الحميد الأول على السلطنة وهي بهذه الحالة ، وجاءت روسية ، وأعلنت عليه الحرب انتقاماً لهزائمها الماضية ، وأسرع القائد الروسي الكونت رومانوف فقطع بين الجيش العثماني وبين ميرته التي كانت في فارنة ، فوقع الرعب في الجيش ، وتبدّد شملُه ، ولم يبقَ مع السِر عسكر إلا (١٢) ألف مقاتل ، فرأى السلطان أنّ مداومة الحرب مستحيلة ، وعقد مع روسية معاهدة كوتشوك قينارجي في (٢١) يوليو ـ تموز سنة (١٧٩٤) ـ (١٢٠٨) وبهذه المعاهدة انسلخت بلاد القرم ، وبلاد بوجاق ، وبلاد قوبان عن تركية ، واستولى الروس على كيلبورم ،ويني قلعة ، وآزوف ، وصار لهم حقُّ الملاحة في البحر الأسود ، ورجعت الفلاخ والبغدان إلى تركية ، ولكن مع الاعتراف لروسية بحقّ إبداء رأيها في شؤون تينك الإمارتين ، وكذلك صار لروسية حقُّ آخر ، وهو التكلم في الشؤون العائدة للمسيحيين وكنائسهم ، مما كان السببَ في الحرب المسماة حرب القرم سنة (١٢٧١) ـ (١٨٥٤) .

قال هامر مؤرخ السلطنة العثمانية : من بعد هذه المعاهدة صار السلم والحرب مع الدولة العثمانية في قبضة روسية ، وقلّما وُجدت معاهدة على تركية أشأم منها ، ولم ينشف الحبر على الورق ، حتى أعملت روسية دسائسها في شبه

جزيرة القرم ، فثار الأهالي وخلعوا دولة غرائي الأمير الشرعي ، وبايعوا شاهين غرائي الذي انضوى تحت لواء روسية ، فلم يقبل أشرافُ البلاد أن يدخلوا في طاعة الخان الجديد ، فاستنجد هذا بكاترينة ، فأرسلت إليه جيشاً [من] سبعين ألف عسكري ، فقبضوا على أشراف البلاد وأعيانها ، وقتلوا منهم ، وغرّبوا ، وارتكبوا الفظائع ، وانتهى الأمر بخضوع القرم للحكم الروسي ، وبعد أن قضت روسية وطرها من القرم ، رمت الخان شاهين هذا إلى الخارج ، فلجأ إلى تركية ، فنفوه إلى رودس ، وقيل إنّهم قتلوه ، وصارت القرم والقوبان من ذلك العهد جزءاً من روسية ، واعترف الباب العالي بذلك سنة (١٧٨٤) ـ (١١٩٩) .

وكانت النمسة وروسية متفقتين حينئذ ، وتعاهد الإمبراطور يوسف الثاني صاحب النمسة ، والقيصرة كاترينة على اقتسام تركية ، فاضطر الباب العالي أن يعلنَ الحرب على الدولتين ، فزحفت الجيوش النمسوية من جهة بلغراد ، فكسرها الصدر الأعظم في لاغوس ، واكتسح بلاد البانات التي كانت لتركية من قَبْلُ ، وهاجم الأتراك مدينة كيلبورم فامتنعت عليهم ، لأنّ الروس أحسنوا الدفاع عنها ، واستولوا على هوقسيم وعلى أوقزاقوف ، وجاء قبطان البحر حسن باشا لينقذ أوقزاقوف فخسر خمس عشرة سفينة ، وأحد عشر ألف مقاتل ، فكانت نتيجة هذه الفادحة أنّ الروس دخلوا أوقزاقوف وذبحوا (٢٥) ألف نسمة من أهلها .

وفي أثناء هذه الحرب ظهر رجل في الأناضول تسمّى بالشيخ أوغلان أولو وزعم أنه المهدي ، وكاد يثيرُ الأناضول كلّها على الدولة ، ومن الغريب أنّ هذا المهدي كان في الحقيقة رجلاً طليانياً اسمه الأصلي جيوفاني باتيستا بوتي (Jiovanni Battista Boatti) ولد في بيازانو من إيطالية ، ودخل راهباً عند الدومينيكان في رافين (Ravenne) فأرسلوه إلى الموصل ، فاختلف هناك مع المطران ، وخرج من الدير ، وأخذ يجوبُ بلادَ الأناضول ، وبلاد إيران ، وانقلب من الرهبانية إلى القيادة العسكرية ، وإلى الدعاية المهدوية ، وأخذ يخطبُ في الأمصار في إعادة الإسلام إلى نقائه الأول ، كما كان عليه السلف ، فانقاد الناسُ إلى كلامه وأطاعوه ، وزحف إلى أرضروم ، واستولى عليها ،

وتلقّب بالمنصور ، وأراد أن يتقَّدم منها إلى سيواس ، فأرسل البابُ العالي رسله إلى هذا المهدي يقول له : إنّه ما دام المهديَّ المنتظر ، فليظهرْ حماسته الدينية في محاربة روسية ؛ فاقتنع المهدي المنصور بهذا الكلام ، وسار إلى القوقاز يحارب الروس ، وانتصر في الوقعة الأولى على القائد الروسي أبركسين ثم انكسر ، وما زال يحارِبُ مدةَ أربع سنوات ، والحرب بينه وبين الروس سجال ، إلى أن وقع في أيدي الروس أسيراً ، فعاملته كاترينة معاملةً حسنةً ، وأجرت عليه رزقاً كافياً ، وعاش في دير الأرمن الكاثوليك إلى سنة (١٧٩٨) ـ (١٢١٣) .

أما السلطان عبد الحميد الأول فبعد توالي هذه المصائب على المملكة مات غماً ، وذلك في (٧) إبريل ـ نيسان سنة (١٧٨٩) ـ (١٢٠٣) .

***

٢٨ ـ السلطان سليم الثالث

١٧٨٩ ـ ١٨٠٧

وتولى مكان[1] [السلطان عبد الحميد الأول] ابنُ أخيه السلطان سليم الثالث ، وكان عبدُ الحميد بخلاف السلاطين السابقين بَرّاً بأهله ، فكان يعامِلُ السلطان سليم معاملة الأب لابنه .

فجلس السلطان سليم أسوأ ما كانت السلطنة حالاً ، وكان سليم مقتنعاً بوجوب إصلاحها ، **والأخذِ في إدارتها بالطرق العلمية الأوربية** ، وكانت هذه الفكرة قد ملأت دماغَه ، فتجشَّم مشقةَ إجرائها ، وأنفذ كثيراً منها ، **وكان حميدَ الخصال ، عاقلاً حليماً ، فبدأ مُلْكَهُ بالعفو والمرحمة** ، وساعد المدينين بأداء ثلاثين في المئة إلى دائنيهم من خزانة السلطنة ، تخفيفاً للأزمة الاقتصادية ، ولكنَّ طالع الحرب كان لا يزال مشؤوماً . فإنّ قبطان البحر حسن باشا انكسر في فورشاني في (٢١) يوليو ـ تموز سنة (١٧٨٩) ـ (١٢٠٣) وبعد ذلك بشهرين لحقتْ بالعثمانيين هزيمةٌ أخرى ، وكانت الفلاخ ، ومولدافية ، وبلاد الصرب في أيدي الأعداء ، والروس يحاصرون قلعة إسماعيل ، التي هي معقل العثمانيين الأعظم على الدانوب ، وكانت الخزانةُ فارغةً ، فكانت من كل جهة علاماتُ الشؤم مُطبقةً ، إلا أنّ حادثاً جاء فخفّف الأزمة ، وهو موت يوسف الثاني إمبراطور النمسة سنة (١٢٠٥) ـ (١٧٩٠) فإنّ أخاه ليوبولد خالفَ السياسة التي كان سائراً عليها أخوه في عداوة تركية ، وعقد الصلح مع الباب العالي ، وأعادَ إليه جميعَ البلاد التي كانت النمسة احتلتها من تركية ، سوى بعض أماكن على ضفة نهر الأُنَّة ، ولكنّ الروس لبثوا ظافرين ، وفتحوا قلعة إسماعيل عنوةً بعد حصارٍ شديد يفوقُ الوصف ، فذبح الروس جميع المسلمين كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساءً ، واستمرت المذبحة ثلاثةَ أيام ، ولما وصل الخبر إلى إستامبول

---

(١) في الأصل (مكانه) .

ثار الشعب ، وطلبوا الاقتصاص من رجال الدولة ، فقتلوا[1] لهم الوزير حسن باشا ، الذي كان قبطان البحر ، برغم ما كان من بسالته وقيامه بواجباته ، وكان السرعسكر يوسف باشا قد انهزم أيضاً في ماتشين ، فتدخلت إنكلترة وبروسية في الصلح ، وانعقدت معاهدة ياسي في (٩) يناير ـ كانون الثاني سنة (١٧٩٢) ـ (١٢٠٦) وبموجبها استولت روسية على القرم ، وعلى شبه جزيرة طامان ، وقسم من قوبان ، وقسم من بسارابية ، ومدينة أوقزاقوف وغير ذلك .

ونبغ في ذلك الوقت كوتشوك حسين باشا فتولّى نظارةَ البحرية ، وكان صهراً للسلطان ، وكان متحلّياً بمزايا نادرة ، ولو لم يمت قبل وقته ، وذلك سنة (١٢١٨) ـ (١٨٠٣) لبلغت تركية بواسطة هذا الوزير الدرجة القصوى من الرقيّ ، فإنّه بدأ ، فطهرَّ البحرَ من القرصان ، بعد أن طال عَيْثُهم فيه ، ثم أخذ بترميم القلاع وشحنها بالمقاتلة ، ثم انتدب مهندسين من فرنسة والسويد ، ثم أخذ بإنشاء الأساطيل ، وجدّد مدرسةَ المدفعية ، ومدرسة البحرية ، اللتين كان أنشأهما البارون الإفرنسي دوتوت ، وأنشأ خزانة كتب تشتمل على أحسنِ كتب الفن ، واعتمدَ في أكثر إصلاحاته العسكرية على ضباط الفرنسيس ، وأدخل إصلاحاتٍ في دار السبك في الطوبخانة ، وكانت روسية تنظر إلى هذه النهضة العثمانية بعين الحذر ، وقد تحفَّزت للنكث بمعاهدة ياسي ، وثار في ذلك الوقت [عثمان] باشا وِدْين من بلاد البلغار ، فساقت الدولة عسكراً لمحاربته ، ولكنّها التزمت أخيراً أن ترضيه بترك ودين له مدةَ حياته .

وكانت هذه الفتن المصطلمة المستمرة في السلطنة العثمانية في داخلها ، وهذه الحروب المضطرمة المستمرة عليها من خارجها ؛ قد أطمعتْ فيها دولَ أوربة ، وصيرتها تفكر في دنو أجل هذه السلطنة ، وصارت كل دولة تتحفَّزُ للاستئثارِ بشقْصٍ[2] من هذه التركة ، وقد كان حديثُ اقتسام أوربة للسلطنة العثمانية قديماً ، وطالما تذاكرت الدول الأوربية جمعاء في هذا الأمر ، أو تفاوضَ القسمُ الأكبر منها في إتمامه ، وكان يحُولُ دون ذلك الاختلافُ فيما

---

(١) أي رجال الدولة .
(٢) بقطعة .

بينهن ، مع صعوبة إتمام العمل بنفسه ، لأنه ليس بسهل ، وقد لخصنا في حواشي «حاضر العالم الإسلامي» كتاباً لأحدِ وزراء رومانية اسمه «مئة اقتسام لتركية»[١] يدل بالوثائق على قِدَمِ الفكرة الصليبية في أوربة ، وعدم انقطاعها ، ومن الغريب أنّ الأوربيين فكروا في هذا الأمر أيام كانت تركية في عُنجهية أمرها ، وكانت جيوشُها توغِلُ في قلب أوربة . فبديهي أنهم ازدادوا تفكيراً به بعد أن ظهرت عليها علامات الانحطاط ، وتوالت فيها الثورات ، وتحفّز رعاياها البلقانيون المسيحيون كالصرب واليونان للانتقاض عليها .

الحملة الفرنسية على مصر

فلما تولّى سليم الثالث السلطنة كان الناس في أوربة يعتقدون أنّ أجلَ السلطنة أصبحَ قريباً جداً ، ولذلك قررت الحكومة الفرنسوية غزوَ الديار المصرية ، وحاولت إقناع تركية بأنّ هذه الغزاة لا تنوي بها فرنسة العداوة لتركية ، وإنما تريدُ بها سبيلاً إلى الهند ، كما أنها ترى حُكْمَ المماليك في مصر شيئاً أشبهَ بالفوضى ، فتريدُ القضاء عليه . وكانت إنكلترة في غَيْرةٍ شديدةٍ من نفوذ كلمة فرنسة لدى الباب العالي ، فلما غزت فرنسة مصرَ اهتبلت في ذلك الفرصة ، حتى تقربّت إلى الحكومة العثمانية ، وصارت معها يداً واحدةً ، فأعلنت الدولةُ الحرب على فرنسة ، واتحدت معها إنكلترة وروسية ، وقبضت الدولة على معتمد فرنسة ، وحبسته في الأبراج السبعة بالأستانة ، وضبطت أملاكَ الفرنسيس في جميع البلاد العثمانية ، وكان الفرنسيس قد تغلبوا على المماليك في واقعتي الأهرام وأمبابة ، وسقطت مصرُ كلُّها في أيدي الفرنسيس ، وجاء جيشٌ عثماني بقيادة مصطفى باشا عدده (١٨) ألفاً ، فنزل عند أبي قير ، وقبل أن يتحصّنَ في مراكزه هجم عليه بونابرت ، ومزَّقه شرَّ ممزق ، إلَّا أنّ الأسطول الإنكليزي أحرق الأسطولَ الإفرنسي في ميناء أبي قير ، فتعذّر على الفرنسيس إنجاد عسكرهم ، وصار كالمحصور .

---

(١) « حاضر العالم الإسلامي » (٣ : ٢٠٨ ـ ٣٤٢) .

ومع هذا فقد زحف بونابرت إلى سورية ، وما زال يتقدّمُ حتى وضع الحصار على عكا ، وكان لو أخذها استولى على سورية ، وربما وصل إلى الأستانة ، وهذا شيءٌ لا يقدر مؤرخ أن يجزمَ به ، وإنما يتفق العقلاء على أنّ فشلَ بونابرت أمام عكا قضى على آمال فرنسة في هذه الحملة المصرية ، فأحمد باشا الجزّار البوسنوي قائدُ الحامية العثمانية في عكا والأميرال سيدني سمث قائد الأسطول الإنكليزي في بحر عكا ، ردّا بونابرت خائباً ، فرجع إلى مصر ومنها أبحر إلى فرنسة ، وترك قيادة جيشه للجنرال كليبَر ، فأخذ الإنكليز يفاوضون كليبر في الصلح ، ولكنهم طلبوا منه تسليمَ جيشه ، فأبى قبول هذا الشرط المهين ، فجاء واحدٌ اسمه سليمان الحلبي ، سار من حلب إلى مصر بمجرد حميتهِ ، وطعن كليبر بخنجرٍ فقتله ، فأنقذ الإسلام من عدوٍّ كبيرٍ ، فخلفه الجنرال مينُو فانكسر ، وأخيراً تمّ الاتفاق سنة (١٨٠١) ـ (١٢١٥) على إخلاء الفرنسيس للديار المصرية .

***

وكان السلطانُ راغباً جداً في عقد الصلح ، وذلك لأنّ الفتوق كانت متوالية من كل جهة ، فالإنكشاريةُ عَصَوْا في بلغراد ، واستولوا على القلعة ، وكانت عصائب من الأشقياء تعيثُ في بلاد البلغار ، ومكدونية . وكان الصربيون بقيادة قره جورج جد العائلة المالكة اليوم ، قد رفع لواء الثورة . وكان علي باشا تبليني المتغلّبُ على يانية قد أعلنَ استقلاله عن الدولة ، وكان الوهابيون قد غزوا الحجاز ، واستولوا على الحرمين الشريفين ، وكانت في نفسِ العاصمة ثورةٌ أحدثها الإنكشارية بالاتفاق مع العلماء بسبب التشكيلات العسكرية التي قام بها السلطان سليم مقتدياً فيها بالجيوش الأوربية ، وقد أطلق عليها اسم النظام الجديد ، فوقع القتال بين الإنكشارية والنظام الجديد ، وانتهى الأمر بغلبة الإنكشارية .

وفي ذلك الوقت رجع التقارب بين تركية وفرنسة ، وأرسل بونابرت الجنرال سباستياني لأجل حمل الباب العالي على محاربة روسية ، وكان الباب العالي عزل أميري الفلاخ ومولدافية صنيعتي روسية ، فأرسل إسكندر الأول

قيصرُ روسية عسكراً احتل تينك الإمارتين ، وأُعلنتْ الحربُ .

ثم لم تكفِ الثورات الداخلية والفتن والحرب مع روسية ، حتى جاء الإنكليز يطلبون من الدولة أن تعقِدَ تحالفاً مع روسية وإنكلترة ، وأن تعلنَ الحرب على فرنسة ، وتطرد الجنرال سباستياني الذي أرسله بونابرت إلى الأستانة ، وأن تتخلّى عن الفلاخ ومولدافيةِ لروسية ، وقد طلبوا أن يتسلّموا الدردنيل والأسطول العثماني . فأبى الباب العالي قبولَ هذه الشروط ، ودخل الأسطول الإنكليزي من الدردنيل ، الذي كانت حصونُه ضعيفةً جداً بسبب إهمال الأتراك لها ، وكان الأسطول العثماني أمام گاليبولي ، فأحرقه الإنكليز ، ولما وصل الخبر إلى الأستانة عوّل رجال الدولة على الاستسلام لإرادة الإنكليز والروس ، وأشاروا على السلطان سليم بترك كل مقاومة ، إلا أنّ الإنكشارية والأهالي ثاروا عليهم ، وأجبروا السلطان على المقاومة ، واستفاد من ذلك الجنرال سباستياني والفرنسيس ، وانضمّ إليهم سفير إسبانية ، وحرّضوا الأهالي على القتال ، وابتدأت التحصينات بالعاصمة ، بينما الأميرال الإنكليزي دوكنورت يتفاوَضُ مع رجال الديوان على شروط الصلح ، فما مضت خمسةُ أيام حتى كانت الحصون قد رممت ، وصار فيها تسعمئة مدفع ، وكان ناظِرُ البحرية من حزب المقاومة مخالِفاً لزملائه ، فجّهز عشرَ بوارج ، وأعدّها للقتال ، فلما رأى الأميرال دوكنورت أنّه بهذه الأيام الخمسة التي أضاعها في المفاوضات الصلحية أصبحت الأستانة في مِنْعَةٍ عظيمةٍ ، خاف على أسطوله ، فأسرع بمفارقة الأستانة ، وبينما هو عابرٌ الدردنيلَ أطلقت عليه الحصون مدافِعَها فأغرقت له بارجتين ، وأهلكت ستمئة بحري .

فغضبَ الإنكليزُ ، وأرادوا الاستيلاء على الديار المصرية ؛ وكانت الدولةُ قد أرادت التخلُّص من المماليك ، فثاروا عليها ، وتغلّبوا على خسروباشا في دمياط .

***

محمد علي باشا

وكان هناك قائد ألباني اسمه محمد علي من ذوي التدبير ، استفاد من سوء إدارة المماليك ، واستجلبَ إلى ناحيته عواطفَ الأهالي ، فصار له حزب عظيم ، وثاروا على المماليك ، وثاروا أيضاً على خسرو باشا الوالي من قِبَلِ الدولة ، وسفّروه إلى الأستانة ، فأرسلت الدولة مكانه خورشيد باشا ، فأراد هذا أن يتخلّص من محمد علي ، فلم يقدر عليه بسبب انتصار الأهالي له ، وألحّ المصريون على الدولة بتولية محمد علي على مصر ، فرضيت الدولةُ بذلك تسكيناً للفتنة ، وأصدرت الفرمان بولاية محمد علي ، على أن يدفعَ لها خراجاً سنوياً سبعة ملايين فرنك ، وكان ذلك سنة (١٢٢٠) ـ (١٨٠٥) فاتفق المماليك تحت رئاسة محمد بك الألفي مع الإنكليز ، وشرع الفريقان بمحاربة الدولة ، واحتلّ الجنرال فريزر الإنكليزي الإسكندرية سنة (١٢٢٢) ـ (١٨٠٧) إلَّا أنّ محمد علي لم يكن على طُرُزِ المماليك في الإهمال ، فتغلّبَ على الإنكليز ، واسترجع الإسكندرية ، وأعلنت الدولةُ الحربَ على إنكلترة ، وجرت معركةٌ بحريةٌ هائلة بين الأسطول العثماني والأسطولين الإنكليزي والروسي على باب الدردنيل .

* * *

وفي ذلك الوقت عادت الثورة إلى الأستانة ، وكان الصدر الأعظم غائباً مع أعوانه الوزراء في سدِّ الفتوق البعيدة ، فتولى الأمر قائمقام الصدارة ، فخان السلطان ، وأفسدَ بين الجند ، فهاجموا القصر ، وطلبوا من السلطان أن يسلّمهم سبعة عشر شخصاً من رجاله ليقتلوهم ، وكان السلطان توقّف عن مقابلة العسكر الجديد بالإنكشارية ، تحرّجاً من سفك الدماء بين عساكره ، ولكنّه لم يشأ أن يوافِقَ على تسليم رجاله للقتل ، وفي مقدمتهم البُستانجي باشي ، الذي عند ما رأى استفحالَ الثورةِ وإحاطة الإنكشارية والجيش المسمّى يَمَك بالقصر ، أراد أن يستسلمَ إليه ليقتلوه ، ويخلّصَ مولاه السلطان من هذا المأزق ، وأخذ السيفُ يعملُ في جميع أنصار الإصلاحات الجديدة ، ثم ازداد تمردُ الجند ،

حتى طلبوا خلع السلطان سليم نفسه ، فاستفتوا شيخَ الإسلام قائلين له : إذا كان السلطان مخالِفاً لأحكامِ القرآن فهل يجوزُ بقاؤه على عرش السلطنة ؟ فأجاب شيخُ الإسلام : كلاّ ، واللهُ أعلم بما يجب[١] . وكان رئيسُ الثورة رجلاً يقال له قاباقتجي أوغلو ، فاستند على هذه الفتوى ، وخلعوا سليم الثالث .

* * *

(١) بهذه الفتاوى الصورية تم خلع عدد من السلاطين .

٢٩ ـ السلطان مصطفى الرابع

١٨٠٧ ـ ١٨٠٨

بايع[١] [الثوار] مصطفى الرابع ابن عبد الحميد الأول ، ودخل شيخُ الإسلام ، فأبلغ السلطان سليم فتوى الخلع وإرادةَ الشعب ، فتلقى السلطان سليم هذا الأمر بالصبر الجميل ، واعتزل جانباً ، وأخذ يقضي أوقاته في تعليم محمود ابن عمه ، الذي تولّى السلطنة فيما بعد باسم محمود الثاني ، ولما وصل الخبرُ إلى الإنكشارية على نهرطونة زاطوا فرحاً ، وثاروا على الصدر الأعظم ، وجعلوا مكانه مصطفى شلبي باشا .

وصار الحكم في إستانبول لشيخ الإسلام ، وقائم مقام الصدارة ، ولكنْ لم يَطُلْ الأمرُ حتى وقع الخُلْفُ بينهما ، واستفاد قاباقتجي أوغلو من ذلك ، فانحاز إلى شيخ الإسلام ، وأسقطا الصدر الأعظم ، فقام مقامه طيّار باشا ، فاختلفا معه أيضاً ، فأسقطاه ، فالتجأ إلى مصطفى باشا البيرقدار والي رُسجق ، وكان البيرقدار من حزب السلطان سليم ، فقرر أن يزحفَ إلى الأستانة ، ويخلّصها من هذه الفوضى ، ويرد سليماً إلى السلطنة ، فأرسل من قِبَلِهِ سعاةً إلى الصدر الأعظم ـ وكان الصدر مصطفى شلبي ـ فأكّدَ أنّ كلّ مراده تخليصُ الأستانةِ من شيخ الإسلام وقاباقتجي أوغلو ، فوافق الصدر على ذلك ، ومالأهم السيد علي ناظر البحرية ، وزحف البيرقدار بستة عشر ألف عسكري على الأستانة ، فلما علم السلطان مصطفى الرابع بهذه الحركة أصدر أمره بعزل شيخ الإسلام وأعوانه ، وحلِّ نظام عسكر اليَمَك ، وكان مصطفى البيرقدار على باب الأستانة ، فأظهر رضاه ، وظنّ السلطان مصطفى أنّ الفتنة قد انقضت ، وذهب إلى كوشك كوك صوتنيزّه ، ولكن البيرقدار كان ناوياً أن لا يرجع حتى يرد السلطان سليماً إلى السلطنة ، فهاجم القصر ، واتفق الإنكشارية معه ، وبلغ السلطان مصطفى ذلك ، فرجع إلى القصر ، وأرسل إلى البيرقدار يقول له ليتمهل ، فإنه لا يلبث أن يخرج إليه السلطان سليم ، وفي الوقت نفسه أمر

(١) في الأصل (وبايعوا) .

مصطفى الرابع جماعةً من رجاله بقتلِ سليم الثالث ، وكان السلطان سليم قويَّ البنية موثق العضلات ، فصرع جملةً ممن هاجموه قبل أن سقط قتيلاً . ولما قيل للسلطان مصطفى إنّه قد قُضي عليه ، جاء ونظر إليه ، وقال : قولوا لباشا روسجق ليأخذ الآن السلطان سليم الذي يريده ، وكان البيرقدار ـ ويقال له أيضاً العَلمَدار ـ قد دخل القصرَ عنوة ، فرأى السلطان سليم مضرجاً[1] بدمائه ، فصاح وَيْ أفندم ، وأخذ يلطم نفسه ويبكي ، فقال له سيد علي ناظر البحرية : ليس لباشا روسجق مصطفى العلمدار أن يبكي بكاء النساء ، فلندع البكاء ، ولنقتصَّ من قتلة السلطان سليم ، ولنخلّص السلطان محمود الذي يجوزُ أن يقتلَ أيضاً ، فرجع البيرقدار إلى رشده ، وخلع السلطان مصطفى وحبسه .

***

(١) في الأصل (مدرجاً) .

٣٠ ـ السلطان محمود الثاني

١٨٠٨ ـ ١٨٣٩

وبايع [السلطان مصطفى] أخاه محموداً بالسلطنة وذلك في (٢٨) يوليو ـ تموز سنة (١٨٠٨) ـ (١٢٢٣) هجرية .

وفي سنة (١٣٣٥) ـ (١٩١٧) طفت أنا محرر هذه السطور مع بعض زملائي نوابِ الأمة العثمانية في قصر طوب قبو ، مقر السلاطين العظام ، قبل أن صاروا يسكنون في قصر طولمه بغجة وكشك يلدز ، وكان يدلنا على آثاره التاريخية ، وأقسامهِ الكثيرة المدهشة ، المؤرخ أحمد رفيق بك ، ولما وصلنا إلى الغرفة التي قُتل فيها السلطان سليم الثالث رحمه الله ، دلنا على المكان الذي سقط فيه صريعاً ، وهو لا يزال معروفاً إلى الآن ، وبهذه المناسبة روى لنا حادثة مصطفى العلمدار هذه بتفاصيلها وقال : إنّ الذين قتلوا السلطان سليماً أرادوا قتل السلطان محمود أيضاً ، بحيثُ لا يبقى غير السلطان مصطفى فيضطر العلمدار إلى قبول سلطنته ، فإنّه كان لم يبقَ إلّا سليم ومصطفى ومحمود ، فجماعة مصطفى بعد قَتْلِ سليم جاسوا خلالَ القصر ، ليجدوا محموداً فيقتلوه ، لكن الجواري أخذنَ محموداً وخبأنه في مدخنة ، لم تخطر على بال القتلة ، فبقي مختبئاً في هذه المدخنة إلى أن قبضَ مصطفى باشا البيرقدار على السلطان مصطفى ، فأخرجوا محموداً من المدخنة ، وبايعوه سلطاناً ، ولو لم يوجد محمود لكانوا مضطرين أن يَبقوا طائعين للسلطان مصطفى ، قال لنا رفيق بك : إنه أدركَ جاريةً عاشت طويلاً ، ومات في زمان السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود ، وكانت تقصُّ له كيفيةَ قتل السلطان سليم الثالث ، لأنّها شهدتْ ذلك عياناً .

ولما تولى السلطان محمود الثاني ولّى البيرقدار مقامَ الصدارة العظمى ، فبدأ هذا بقتل جميع أعوانِ السلطان مصطفى ، وزعماء عسكر اليَمَك . وانفرد البيرقدار بالأمر والنهي ، وعقد مجمعاً من جميع الأعيان والوزراء ، وأوضح

لهم وجوبَ إصلاح أوجاق الإنكشارية ، وتأسيسِ جيشٍ يضارعُ الجيوشَ الأوروبية في تعليمه ومعداته . وقال الصدر الأعظم : إنه هو مِنْ جملة الإنكشارية ، وهو يفتخر بكونه من هذا النظام ، ولكنّه يرى أنّ هذا النظام قد فسد ، وأنّه كان نظاماً لا يُغْلَبُ لو لم ينحرف عن جادة تعاليم الحاج بكتاش ، ولكنّ هذا الجيش بعد أن كان مدةَ قرونٍ هو عماد السلطنة ، وكان العالم يرتجف خوفاً منه ، آل من الفساد إلى أن فقد كلَّ مزاياه القديمة ، ونسيَ جميعَ القوانين التي كان فَرَضَ عليه العملَ بها السلطان سليمان القانوني ، وصار الترقي فيه بالرشوة ، وصارت الرُتبُ تحت المزاد ، وعمَّ الجهلُ بالفنون العسكرية ، فانحطت منزلةُ هذا الجيش انحطاطاً عظيماً ، ولذلك فقد أمرني السلطان بأن استأصِلَ جميعَ هذه المفاسد من أوجاق الإنكشارية ، وأن أجبرَ جميعَ الإنكشارية غير المزوَّجين على السكن في الثكن العسكرية ، وأنْ لا أدفعَ رواتبَ إلّا للإنكشارية المقيمين في الثكن ، وأن أمنعَ بيعَ الجرايات والرواتب ، وأن أوجبَ على جميع الإنكشارية التقيُّدَ بتعاليم السلطان سليمان ، واتّباع الطرق العصرية الأوربية ، التي أفتى العلماء بوجوب اتباعها ، كما أنّ مولاي السلطان عازمٌ على تأسيسِ جيشٍ جديدٍ من شُبّان المسلمين ، ومن أَنْفُسِ الإنكشارية ، ليتلقّىٰ الطرقَ العصرية الأوربية ، التي يمكنه أن يقاتِلَ بها الكفار بنجاح ، هذا مع المحافظة على نظام الطاعة والاتحاد الذي كان عند الإنكشارية القدماء .

فوافق جميعُ الوزراء وأعيانُ السلطنة على هذا القرار ، وأفتى شيخُ الإسلام بوجوبه ، وظنّ الناسُ أنّ كلَّ شيءٍ قد انتهى .

إلا أنّ فوز البيرقدار كان عظيماً إلى حدّ أن غصّ به النظراء ، وصاروا يتربصون به الدوائر ، وكان قد أغضبَ العلماء باحتقارهِ إيّاهم ، وبعزمه على التصرّف بأوقاف المساجد ، وارتكب البيرقدار خطيئةَ تبديدِ الجيشِ الذي دخل به الأستانة ؛ فإنه كان أرسل منه اثني عشر ألفاً إلى مدينة فلبة لقتال مولىٰ أغا الثائر بها ، فلم يبقَ عنده إلّا سبعة آلاف ، لم يكونوا بقوة كافية ليمنعوه من أعدائه ، فزحف الإنكشارية إلى القصر ، لينقذوا السلطان مصطفى الرابع ، ويردّوه إلى السلطنة ، فقابلهم البيرقدار بشِرْذِمة من العسكر الجديد ، فلم يقدر عليهم

لتفوقهم في العدد ، فقتل السلطان مصطفى ، ورمى إليهم بجثته ، فازدادوا حنقاً ، وأحرقوا جانباً من القصر ، ودخلوا ، وأوشكوا أن يقبضوا عليه وعلى أعوانه ، فلجأ إلى مخزن البارود ، ووضع فيه النار ، فهلك هو وأعوانُه تحتَ أنقاضِ مخزن البارود ، ولم يشأ أن يستسلِمَ إلى أعدائه .

وانتصر للعلمدار رامز باشا ناظر البحرية ، ورمى الإنكشارية بالقنابل ، وأسرع قاضي باشا بثلاثة آلاف من الجند للمحافظة على شخص السلطان، وأخذ الإنكشارية يتراجعون ، وأراد رامز باشا أن يعلِنَ العفوَ إلّا أنّ قاضي باشا خالفه في هذا الأمر ، وأصرَّ على الانتقام ، فلما رأى الانكشاريةُ أنّهم قد أُحِيْطَ بهم ، حلَّ بهم اليأس ، فوضعوا النّار بالبلدة ، وهي كما لا يخفى مبنيةٌ بالخشب ، فكادتْ النار تلتهمُ جميعَ الأستانة ، لتشاغُلِ النّاسِ بالفتنة عن إطفاء الحريق .

ثم إنّ رامز باشا وقاضي باشا وأعوانهما عندما علموا أنّ البيرقدار قد هلك في مخزن البارود ، سُقط في أيديهم ، وفرّوا إلى رسجُق ، وأرادوا هناك المقاومة ، فلم يتمكنوا ، فالتجأ رامز باشا إلى بطرسبرج ، لأنّ أصله من القرم ، وفرّ قاضي باشا وبهيج أفندي من أعوانه إلى بلاد القرمان ، فوقعا في أيدي أعدائهما ، وقُتلا ، وقد زَعزعتْ هذه الثورة أركانَ السلطنة ، فاضطرت الدولة إلى عقد الصلح مع الإنكليز ، فانعقد في (٩) يناير ـ كانون الثاني سنة (١٨٠٩) ـ (١٢٢٣) أما مع روسية فلم يمكن عقد الصلح معها ، وزحف الروس وأخذوا برايلة على الدانوب ، وكسروا العثمانيين أمام سيليسترية ، ولكن لم يقدِرُوا على قلعة[1] [شملة] .

ودارت السنة الثانية والصدر الأعظم معتصِمٌ بقلعة شمُلة ، لكنّه لا يقدِرُ أن يحميَ البلاد ، فاستولى الروس على سيليسترية ، ورسجُق ، وبيقوبوليس ، وبزارجق ، فجعلت الدولة أحمد باشا صدراً أعظم ، فزحف بستين ألف مقاتل إلى الروس ، وأجبرهم على إخلاء رسجق .

وفي ذلك الوقت أعلنت فرنسة الحربَ على روسية ، فاضطر قيصر روسية إلى طلب الصلح من الباب العالي ، فانعقد الصلح في (٢٨) مايو ـ أيار سنة

---

(١) في الأصل (القلعة) .

(١٨١٢) ـ (١٢٢٧) وصار نهر ألبروت هو الحد الفاصل بين المملكتين ، ولم يبقَ في أيدي الروس سوى أفواه الدانوب ، وقسم من بسارابية ، وندم السلطان على عقد هذه المعاهدة ، لأنّ الناس نبّهوه فيما بعدُ إلى أن روسية لم يكن لها مناص من قبول جميع شروطه ، وأن وزراءَه أضاعوا الفرصة ، فعزلهم ، وتُسمّى هذه المعاهدة معاهدة بخارست .

ولما تولّى محمود الثاني كانت السلطنة في الداخل ممزقةً تمزيقاً ، فكان آل شعبان أوغلو حاكمين في شماليّ الأناضول ، وكان آل قره عثمان أوغلو متغلّبين على البلاد المجاورة لأزمير ، وكان في سَرَس من مقدونية ، وفي فلبّة من تراقية أمراء أصحاب جيوش وقوة ومنعة ، لا يخضعون تمام الخضوع للحكومة ، وكانت بلادُ العرب في أيدي الوهابيين ، وكانت مصر في يد محمد علي ، وكانتَ بلادُ الصرب ثائرة ، وكان علي باشا والي يانية مستأثراً ببلاد تسالية وأبيروس ، وكان مولى آغا غالباً على ودين .

فأخذ السلطان محمود يعالِجُ أمراض السلطنة ، فرمى الوهابيين بمحمد علي والي مصر ، فساق عليهم جيشاً بقيادة ولده طوسون باشا ، فتغلّبَ الوهابيون على هذا الجيش في الحجاز ، ولكن توالت النجدات من محمد علي فهزم الوهابيين ، ثم صارت الحرب سجالًا بين الفريقين ، ثم أرسل محمد علي ولده إبراهيم باشا ، فبعد حروبٍ شديدةٍ حاصر الوهابيين في الدرعية ، واستولى عليها عنوةً ، وأخذ الأمير السعودي أسيراً ، وأرسله إلى أبيه ومعه ولدهُ ، فمحمد علي أرسلهما إلى إستانبول ، وقال لهما : إنني أوصيتُ الدولة بكما ليُحْسِنُوا معاملتكما ، فقال له ابن سعود : يكونُ ما أراد الله ، ولَكن لما وصل الأميرُ وابنُه إلى الأستانة شنقتهما الدولة .

وكان محمد علي قد ذبح المماليك ، واستأصلهم جميعاً في القطر المصري ، وبعد أن استراح فكره منهم ، وجّه همته إلى إصلاح مصر ، وقام بأعمال مدهشة ، بحيث يمكن أن يقال : **إنّه مِنْ أعظم مصلحي الشرق ، بل مصلحي العالم ، لأنّه** بعث مصر من قبرها ، وأنقذها من عيث المماليك ، وأنشأ لها جيشاً عظيماً على طراز الجيوش الأوربية ، واعتمد في تدريبه على ضباط من

الفرنسيس ، وأنشأ أسطولاً عظيماً ، ودارَ صنعةٍ بحرية ، ومعامل للسلاح ، وبنى مدارس ، وأرسل طلبة يحصّلون العلم في أوربة ، واحتفر ترعة بين الإسكندرية والقاهرة .

وفتح محمد علي السودان ، وكان في الحقيقة مَلِكاً مستقلاً ، لولا الخراج السنوي الذي كان يدفعه للدولة[1] .

* * *

وفي ذلك الوقت ثار الصرب على الدولة لسببين .

أحدُهما : نزوعهم الطبيعي إلى استرداد ملكهم .

والثاني : سوء الإدارة وظلم العمال لهم .

فلما انتقضوا ، أراد الوالي أن يسكِّنَ الأمورَ باللطف وحسن السياسة ، فجاء الإنكشارية ، وذبحوا الوالي ، وقتلوا من الصربيين عدداً كبيراً .

وكان المجر والنمساويون يساعدون الصربيين .

قره جورج

وامتاز بين الصربيين رجل اسمه جورج ، لقبه الأتراك قره جورج أي الأسود ، وكان صارماً جداً ، فاعصوصبَ حوله جماعة من الصربيين ، وأرادوا عبور نهر الساف لينضموا إلى النمساويين ، ويقاتلوا العثمانيين ، وكان والد قره جورج غيرَ راغبٍ في الثورة ، فراود ابنه على الرجوع فأبى ، فتنازعا ، وانتهى الأمر بأنّ الولد قتل الوالد .

وامتدت الثورة ، واستولى قره جورج على شاباتس وسَمنَدرية ، فأرسلت الدولة جيشاً للتنكيل بهم ، وعزَّزته بجيش ثانٍ ، ولكنّهم لم يقدِرُوا على قمع الثورة ، وكان القائد إبراهيم باشا تراضَى مع الصربيين على إعطائهم الاستقلال

---

(١) انظر « بناء دولة: مصر محمد علي » تأليف الدكتور فؤاد شكري وعبد المقصود العناني وسيد محمد خليل ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٨م .

الداخلي تحت سيادة السلطان ، وأن تقيمَ الحامياتُ العثمانية في المدن ، فأبى البابُ العالي تصديقَ هذا الصلح ، فاستؤنف القتالُ بشدة ، وحاصر الصربيون بلغراد ، وكان فيها سليمان باشا ، فلما أوشك أن يَسْقُطَ ، اتفق معهم على الخروج بجيشه وتسليم البلدة ، ولكنْ لما خرجَ نكث الصربيون بالعهد ، وقتلوه مع جميع العساكر التي معه .

ثم أرسلت الدولة جيوشاً للانتقام من الصربيين ، فكانت الحربُ سجالًا ، وازدادت شهرةُ قره جورج بين الصربيين ، واستبدّ بالأمور ، فوقعت المنافسةُ بينه وبين كثير من أقرانه ، واستفادت الدولة من هذا الخلاف ، فساقت العساكرَ ، واسترجعت بلغراد ، وبدّدت شمل الصربيين .

وفر قره جورج إلى بلاد المجر ، ورجع الحكم إلى الأتراك ، فبادؤوهم والأرناؤوط بالانتقام من الصربيين ، وقتلوا ونهبوا ، فعاد الصربيون وتألّبوا ، وثاروا ثورةً ثانيةً ، وتجدد القتال بشدة ، وكان ميلوش أوبرنوفيتش من زعماء الصربيين قد عرض على القواد العثمانيين الصلح على شرط العفو العام ، وتأليف مجلس من (١٢) عضواً ينتخبهم الأهالي ، ويكونُ على يدهم توزيعُ الضرائب ، وتكون بلادُ الصرب متمتعةً باستقلالها المدني والديني والقضائي ، ويكون لها أميرٌ ، وأن يبقى في بلغراد قائدٌ عثماني ومعه حامية ، فانتُخب أوبرنوفيتش أميراً ، وصار بيده الأمرُ والنهي ، ولم يبقَ في يد الوالي التركي من الولاية إلا الاسم .

وبلغ قره جورج خبر هذا الاتفاق بين الدولة وأوبرنوفيتش فثار به الحسدُ ، وجاء إلى بلاد الصرب أملاً بإشعال الثورة ، فوصل إلى سمندرية ، فلما علم به أوبرنوفيتش أرسل إليه مَنْ قتله غيلةً ، وبعث برأسِه إلى الأستانة . فنصبتْ الدولةُ رأسه على حائط القصر ، وكتب فوقَه : هذا رأس الشقي قره جورج .

علي باشا التبليني

هذا ما كانَ من أمر الصرب فأما علي باشا التبليني ، فكان أرناؤوطياً ، وكان أبوه رأسَ عصابةٍ ، فورثَ العيثَ والفسادَ في الأرضِ عن أبيه ، ولكنّه كان داهيةً

حكيماً ، وبطلاً مغواراً معاً . ولم يكن عنده وجدانٌ يردعُه عن شيء ، فدخل في خدمة الدولة ، وأقنعَ ولاةَ الأمور بتوليته ترحالة وتَبَالين أولًا ، وسمت نفسُه إلى الاستيلاء على يانية ، فبثّ في أطرافها عصائبَ من قطاع الطريق ، أقلقوا راحة الأهلين ، وبعث من جهة أخرى إلى الدولة يعرضُ عليها أن توليه يانية ، وأنه يعيدُ الأمن إلى نصابه ، فقبلت الدولة اقتراحه ، وولّته يانية ، وكانت فرنسة استولت على جزيرة كورفو وأخواتها ، فخدع علي باشا ضباط الفرنسيس ، ونال منهم الإذنَ بالملاحة في بحر كورفو ، ولما نشبت الحرب بين الدولة وفرنسة زحف علي باشا على الفرنسيس ، واستولى على فونيتزة وبريفيزة ، ثم وجّه قوته إلى محو الإمارات المسيحية التي بين بلاد اليونان وبلاد الأرناؤوط ، ولا سيما جمهورية شولي ، فقهرهم بعد أن أعملَ الحيلَ والمالَ والسيفَ لذلك ، وبعد هذا حاز علي باشا والي يانية شهرةً عظيمةً ، ولقبتْهُ الدولة بوالي الروملي .

ثم أعطت ولديه ولي ومختار باشويتي المورة ، وضمّت إليه بشوية برَاة .

ثم إنَّه كان في أبيروس بلدتان لا تزالان مستقلتين ، وهما أرجيروكاسترو وكارديكي ، فشنّ عليهما الغارة ، واستأصلَ أهاليهما ، ولا سيما أهالي كارديكي .

وكان له في ذلك ثأرٌ قديمٌ غريبُ الشكل ، وذلك أنّ أمه خاميكو بعد وفاة أبيه ، تولّت قيادةَ العصابةِ محلَّ زوجها ، فوقعتْ في إحدى المرات في أيدي أهل كارديكي ، هي وابنتها شاميتزة ، فارتكبوا فيهما الفاحشة ، فاستحلفتْ ولدَها علياً الذي كان قاصراً ، أنه متى بلغ رشدَه يأخذُ بثأرِ أمهِ وأختهِ من أهل كارديكي ، فلم ينسَ عليٌّ هذا الثأر ، ولما وقع أهل كارديكي في يده ، بحث عن الذين اعتدوا على عرض أمه وأخته ، فنظمهم بالسفافيد ، وشواهم على النار كما يشوى لحم الغنم ، ولكن المذابح التي أجراها علي أثارت عليه السخط العام ، وبدأت الدولةُ تخشى غائلتَه ، فأرسلوا إليه من إستانبول من يقتله ، فكان بحزمه ويقظته يطِلّعُ على ذلك ، فلم يصل أحدٌ من المرسلين لقتله إلى يانية ، بل كان يأخذُهم السيفُ في الطريق قبل وصولهم ، وكان جمعَ أموالًا عظيمة ، لأن البلاد التي تولاها كانت مملكةً فيها عدة ملايين ، وبقي والياً عليها نحواً من ستين سنة ، فتمكنت قدمُه إلى حدٍّ أنه أصبح لا يعبأ بطاعةِ السلطان .

وكان أحدُ المقربين إلى علي باشا ، واسمه إسماعيل باشو قد اختلف معه ؛ وجاء فعرض على السلطان جميع ما يعلمه من مظالم علي ، وأقنع السلطانَ بعزل ابن علي باشا عن ولاية المورة، فلما علم علي باشا بالخبر، أرسل إليه من يقتله، فهجم الجناة على إسماعيل باشو على باب جامع أيا صوفيا ، ولكنهم لم يوفّقوا لقتلهِ ، فقبضوا عليهم، واستنطقوهم ، فأقّروا بأنهم مرسَلون من قِبل علي باشا، فغضب السلطان غضباً عظيماً ، وولّى إسماعيل باشو على يانية ، ودلفينو ، وسرّح معه جيشاً عظيماً لقتال علي باشا ، فلما علم علي باشا أنه لم يبقَ له أمل في عفو السلطان أجمعَ المقاومة ، وحاول أن يستجلِبَ المسيحيين الذين في بلاد اليونان والأرناؤوط إلى صفّه ، واعداً إياهم بالتحرر من حكم الأتراك .

فأجاب بعضُهم نداءَه ، وامتنع البعض الآخر ، فأما الذين التفوا حوله فسكان الجبال من اليونان الغربية ومن تسَّالية ، وكان في مقدمتهم أساقفتهم ، وأما الذين رفضوا الإنضمامَ إليه فالكاثوليك من الأرناؤوط ، لأنه لم يكن لهم ثقة به ، غير أنّه بسبب سوء إدارة إسماعيل باشو انضم أكثرُ المسيحيين إلى علي باشا ، وبدأت الحرب ، فانكسر علي باشا في البداية ، وذلك في تسّالية ، وانحاز اثنان من قوادِه عمر فريّون وطاهر عباس في خمسة عشر ألفاً من الجنود إلى العسكر السلطاني ، وخان علياً أولادُه الثلاثة ، وسلّموا القلاع التي في أيديهم إلى الدولة ، ولما بلغه خيانةُ أولادِه له نادى أنّهم ليسَ لهم حقٌ أن يرثوه ، وقال : إنّه لا يعرِفُ له أولاداً غير الذين هم أنصاره ، ولم يبقَ مع علي باشا سوى ثمانية آلاف مقاتل ، كانوا من نخبةِ جنودهِ ، وبينهم رجالُ مدفعيةٍ ماهرون ، فوقف بهذه القوة أمام عشرين ألفَ مقاتلٍ من عسكر الدولة ، كانوا أحاطوا بمدينة يانية ، وشرع علي باشا يراسِلُ المسيحيين الذين مع جيش الدولة ، وفتح خزائنه لهم ، وبثَّ الدعاة إلى الثورة في جميع بلاد اليونان ، وكذلك في بلاد رومانية . ثم لجأ إلى حيلةٍ أخرى لأجل استجلاب النصارى إلى صفه ، وهو أنه زوَّر كتاباً زعم أنه ورد إليه من خالد أفندي أحد مقربي السلطان يقول له فيه : إنّه في الربيع القادم يجبُ القيام بقتلٍ عامٍ يستأصِلُ فيه جميعَ المسيحيين القادرين على حمل السلاح ، وتُسْبَى نساؤهم ، ويؤخذ أولادُهم المراهقون ، لينشَّأوا في الديانة

الإسلامية ، فصدَّق النصارى هذا المكتوب المزوَّرَ ، وثاروا بأجمعهم ، وفي مقدمتهم أهالي جمهورية شولي ، وانحازوا إلى علي باشا ، ومعهم كثير من الأرناؤوط المسلمين ، فتزعزعت مراكِزُ الأتراك ، ونسبت الدولة عدم النجاح إلى سوء تدبير إسماعيل باشو فعزلته، وعهدت بالقيادة إلى خورشيد باشا، وذلك سنة (١٢٣٧) ـ (١٨٢١) فسار خورشيد باشا بعشرة آلاف من بلاد اليونان قاصداً يانية ، فلما وصل إلى لاريسة بلغه أنّ أهالي مدينة باتراس رفعوا لواءَ العصيان ، فأمر بنزع السّلاح من أيديهم، وتغريم المسيحيين جميعاً، فبدأت من ذلك الوقت ثورةُ اليونان . وكان أهالي الجزر اليونانية لم يفقدوا قوة المقاومة في وجه الأتراك ، وكذلك أهالي الجبال الغربية من بلاد اليونان ، فإنّهم كانوا حفظوا نوعاً من الاستقلال الداخلي ، وكان لهم جند وطني يقال له الأرماتوليس ـ ومعنى هذه اللفظة الرجال الشاكي السلاح ـ وكان الأرماتوليس الذين في الجبال لا يخضعون للدولة إلا قليلاً ، فأرادت الدولة أن تَخْضِدَ شوكتَهم ، وشكّلت بإزائهم قوةً مسلحةً من الأرناؤوط المسلمين بقيادة الأتراك ، يقال لها درفتد باشا ، فتنبه الأورام إلى أنّ مرادَ الدولة هو استئصالُ قوتهم ، والقضاء على الأرماتوليس ، فلما عصى علي باشا ، وساقت الدولة عليه الجيش ، حاول علي باشا أن يستجلبَ إلى ناحيته هؤلاء الأرماتوليس ، الذين كان هو من قبلُ آفةً عليهم .

وكانت بلاد اليونان قد استعدت للثورة ، وذلك لأنّ الأروامَ أهلُ حركة ونشاط ، وهم أقومُ على التجارة والملاحة مِنْ كل قوم ، وكانت ثروتهم قد ازدادت كثيراً عن ذي قبل ، بانصرافهم إلى التجارة ، وكانوا يجوبون البحار كلّها ، وفي كلِّ مكانٍ من أوربة تجار من الأروام ، فلا يكاد يخلو منهم مكان ، وكانوا هم الوساطة بين الشرق والغرب ، وكانت الدولة العثمانية نفسَها تحتاجُ إليهم ، وتستخدم منهم في سفنها ، وباحتكاك الأروام الدائم مع الأوربيين ، وحروب الأوربيين مع الدولة العثمانية ازدادَ نزوعُ الأروام إلى الاستقلال ، وانقسموا إلى قسمين : منهم من يريدُ الاستقلال العاجل بقوةِ السلاح ، وآخرونَ يَرَوْنَ المصلحة في عدم مقاومة الدولة العثمانية بالسيف ، بل بتهذيب الأمة اليونانية ، وترقيتها حتى تنالَ تدريجاً حقوقَها ، ويأتي وقتٌ تتحرَّرُ من حكم الترك تماماً .

وفي سنة (١٢٢٩) ـ (١٨١٣) عندما تألّبت جميعُ دول أوربة على نابوليون ، ظنَّ الأروام أنّ دول الاتحاد المقدس ستمدُ إليهم يدَ المساعدة ؛ ولكنّ دولَ الاتحاد المقدس كانت تكرهُ تحريرَ الشعوب المخالفةِ لمبادئها ، فخاب أملُ اليونان فيها .

ثم إنّ علي باشا التبليني كان قد ضرب التجارة اليونانية ضربة شديدةً باستيلائه على مرافىء أبيروس وألبانية ، فعند ذلك اتحد اليونان من تجارٍ رأوا كساد تجارتهم ، وضباطٍ تدرّبوا في الجيوش الأوربية ، وناشئةٍ تعلّموا في مدارس أوربة ؛ [وأيقنوا] أنّه لا خلاصَ لبلاد اليونان إلا بالثورة العامة .

وكما يحصل في جميع الأمم المقهورة تألّفت الجمعياتُ السرية ، ودخل فيها ألوفٌ من الأروام ، وتألفت شُعَب لهذه الجميعات السرية في أوربة وفي نفس القسطنطينية ، ويقال : إنه كان في القسطنطينية عاصمة تركية (١٧) ألف شخص تابعون للجمعية المركزية ، وكانوا مطّلعين على كل شيء ، وكانت لهم في بلاد رومانية وبسّاربية جمعيات تعمل بالاتحاد مع الأروام ، فتنبهت تركية لهم ، وبطشت بكثيرٍ منهم .

وكان أهالي باتراس في بلاد اليونان قد ثاروا بالسلاح على الحامية التركية ، وانتظروا أن تأتيهم نجدة من الروس ، وكان الثوار نحواً من عشرة آلاف ، فساقت الدولة جيشاً مزّق شملهم ، فاعتصموا بالجبال ، وامتدت حركة العصيان في الجزر اليونانية ، **وبلغت الحماسةُ من الأروام أنّ امرأةً اسمُها بُوبُولينة جهزّت بمالها ثلاثَ بوارجَ حربية ، وتولّت قيادتها ، ووجد من أغنياء اليونان عددٌ كبيرٌ نزلوا عن كل ثروتهم لأجل ثورتهم** . وكان أحدُ القضاة من الأتراك آتياً مع حرمه في سفينة من مصر إلى الأستانة ، فظفر اليونانُ بالسفينة ، وأهانوا القاضي وضربوه ، ويقال : إنهم اعتدوا على عِفّةِ زوجته ، ثم تركوا السفينةَ تمضي إلى الأستانة ، فلما وصلتْ شاعَ خبرُ هذا الاعتداء في العاصمة ، وكانت صدورُ الأتراك قد امتلأت وغراً من أخبار الثورة اليونانية ، فهاجَ الشعب التركي ، وهجموا على دار البطريركية ، وذبحوا البطريرك غريغوريوس مع ثلاثة من الأساقفة ، وقتلوا ألوفاً من الأروام ، واحتجَّ سفراءُ الدول الأوربية على هذه

المجزرة ، **فأجابتهم الدولة بأنّ دول أوربة كلّها تقتصُّ من جميع الذين يكيدون عليها بلا استثناء ، فأيُّ حقٍّ لها في الاعتراض على الذين يأتمرون بسلامة الدولة العثمانية ؟ وفتك الأتراكُ بالأروام في مقدونية ، وتراقية ، والأناضول ، وقيل : إنه هلك ثلاثونَ ألفَ رومي ، منهم ثمانونَ أسقفاً .**

ولما وصلت أخبارُ هذا الانتقام إلى بلاد اليونان ؛ اشتدت الثورة ، وانْتُخِبَ ديمتريوس إبسيلنتي في مدينة هيدرة قائداً عاماً للثورة ، ولكنّ الجيوشَ العثمانية كانت دوَّخت مون بازي ، ونافارين ، وحاصرت باتراس ، ونابولي ، وتربيوليتّزة ، وغيرها ، وأرسل خورشيد باشا وهو يحاصر يانية عساكر طهّرت كثيراً من البلاد اليونانية من الثوار ، ولا سيما في آرتَة ، إلّا أنّ اليونان ذبحوا من الأتراك في تربيوليتزة (١٢) ألف نسمة ، ثم وقع الخُلْفُ بين الأروام أنفسهم ، فكانوا ثلاثةَ أحزاب ، كلٌّ منها يخالِفُ الآخر في آرائه ، وكان علي باشا لا يزال يدافع عن يانية ، وخورشيد باشا يحاصره ، إلى أن تمكَّنَ خورشيد من الاستيلاء على قلعة يانية ، ففرّ علي باشا إلى بحيرة يانية ، واعتصم بجزيرةٍ في وسط البحيرة ، حيث يوجد برجٌ فيه مخزنُ بارود ، جلس فيه ناوياً إذا وصل إليه العدو أن يضعَ النّارَ في البارود ، فيطير هو والعدو معاً ، ولكنّ بقيةَ عساكره لم يطيعوه ، فاضطر إلى قبول شروط الصلح التي عرضها خورشيد باشا ، **وأقسم له هذا على المصحف الشريف** ، بأنه إذا استسلم يسلم ، **فلما استسلم أمر خورشيد باشا الجند بقتله !!** وكان ذلك الشيخ لم يفقد شيئاً من بأسه ، فلما هجموا عليه أعمل فيها النار ، ثم هجم بيطقانة ، وما زال يصارعه حتى وقع قتيلاً ، وكان ذلك في (٥) فبراير ـ شباط سنة (١٨٢٢) ـ (١٢٣٧) هجرية .

أما الأروام فضجروا من الشقاق ، وعقدوا مؤتمراً في أبيدور وأعلنوا استقلال اليونان ، وذلك في أول يناير ـ كانون الثاني سنة (١٨٢٢) ـ (١٢٣٧) هجرية ، وأعلنوا الحرية الدينية ، واحترام الملك الشخصي ، والمساواة التامة أمام القانون ، وانتخبوا مجلساً يقال له مجلس الشيوخ ، مؤلّفاً من واحد وخمسين عضواً ، ينوب كلُّ واحدٍ منهم عن مقاطعة ، ولهذا المجلس لجنة إجرائية مؤلفة من خمسة أعضاء ، وانتُخب ديمتريوس إبسيلَنتي رئيساً لمجلس

الشيوخ ، وانتخب مافرو كورداتو رئيساً للّجنة الإجرائية . ولكن إبسيلَنتي استقال من رئاسة الشيوخ ، وأبى كثيرٌ من رؤساء العصابات أن يعترفوا بهذا المجلس ، ومضوا في أعمالهم ، كأنّهم غيرُ مرؤوسين .

وكان من أشهر هؤلاء قائد عصابة إسمه أندروزوز ، لم يكن أهالي يتسالية وليفادية يخضعون لغيره ، فهذا الرجل عصى أوامرَ المجلس ، فأمر مافروكورداتو بعزله عن القيادة ، وأعلن خيانته .

ولما سقط علي باشا والي يانية ساق خورشيد باشا عساكره إلى بلاد اليونان ، ليقضيَ على الثورة ، منتهزاً فرصة الخلاف الذي وقع بين زعمائها ، ولكنّ خورشيد أخطأ في كونه أعلن على الأروام بياناً مهيناً لهم ، وفي أثناء ذلك جاء زعيم أرناؤوطي مسيحي إسمه بوتزاريس مشهورٌ بالبسالة ، ومعه عصابة من نخبة رجاله ، فانضم إلى الأروام ، واشتدّوا به ، وكان هذا الرجل أبيَّ النفس ، شريفَ المبدأ ، فوبخهم على قتلهم نساءَ الأتراك وأطفالهم ، قائلاً لهم : إنّكم بهذه الأعمال لوثّتم القضية الوطنية بالعار ، وزحف مافروكورداتو لقتال خورشيد باشا فانكسر ، وانكسر أيضاً زعماء عصائب أخرى ، وسقط في أيدي الأروام . ولم تعد إليهم حماستهم إلا بعد وصول المتطوعين الأوربيين ، وكان خورشيد باشا استولى على قورنتية ، وفرّ رجال الحكومة الوطنية التي تألفت هناك ، واستولى اليأس على الأروام ما عدا الزعيم أبسيلَنتي ، وزعيماً آخر اسمه كولوكوتروني فهذان بقيا يقاتلان ، واجتمع إليهما بقايا [حملة] السيف ، وأخيراً هزما الأتراك في ستفاني وبارباتي ، ومات بعد ذلك خورشيد باشا ، قيل : إنه سَمَّ نفسه من شدة اليأس ، غير أنّ عمر فريون استولى على جمهورية شولي ، وأجلى أهلها من هناك إلى جزيرة كورفو والجزر التي حولها .

وظهر أنّ الأروام لا يقدرون أن يقاوموا الدولة العثمانية في البر ، لكنّهم كانوا على جانبٍ عظيم من القوة في البحر ، لأنّ مراكب القرصان كانت تملأُ بحرَ اليونان ، وكانت تعتدي على الجميع ، وكان عدد القرصان الأروام وافراً جداً ، وكانت الدول الأوربية تضطر أحياناً إلى تأديبهم ، فلما حصلت حربُ الاستقلال الرومي ، اجتمع هؤلاء القرصان كلُّهم ، ونصروا القضية الوطنية ، وصار

أكبرُهم المسمّى طومبازيس ومعه مئة سفينة ، وأجبر الأسطول العثماني على عبور الدردنيل راجعاً ، وبقي يجول في الأرخبيل الرومي ، ويجاذِبُ الأسطول العثماني الحبل ، فاستنجدت الدولةُ بالأسطولَ المصري ، وأرسلت قوة بحرية عظيمة ، فتمكّن قرصان الأروام من أن يدهموها على غرة في عيد رمضان ، وأن يحرقوا بارجة قائد الأسطول بدون أن يشعر أحدٌ ، فوقع الرعب في سائر الأسطول ، ودارت الدائرة عليه ، فأرسلت الدولة أسطولاً ثانياً ، فلم يقدر على قرصان اليونان ، ودخلت سنة (١٢٣٨) ـ (١٨٢٣) والوقائعُ مستمرةٌ ، والحربُ سجال بين الفريقين ، إلا أنه في هذه السنة قُتِل بوتزاريس المسيحي الذي يُعد هو وأبسيلَنتي وكناريس أعظم رجال الثورة اليونانية .

ولما طالت هذه الثورة ثارت الحميةُ في جميع بلاد أوربة لنصرة اليونان ، الذين يقاتلون لأجلِ استقلالهم ، وهبَّ الشبان في فرنسة وإنكلترة وألمانية ، يريدون التطوّعَ في هذه الحرب ، وتألفت الجمعياتُ لجمع الأموال ، واكتتب النّاسُ فيها من كلِّ فَجٍّ ، وأقبل كثير من القواد والضباط يركبون البحر إلى بلاد اليونان ، وانضموا إلى الثوار ، وقُتل كثير من هؤلاء المتطوعين ، وكان منهم أفرادٌ من أشرف العائلات النبيلة ، وقوادٌ من المشهورين بالبسالة .

وفي سنة (١٢٤٠) ـ (١٨٢٤) استولى الأسطول المصري على جزيرة كازوس ، وقطع المصريون خمسمئة رقبة من الأهالي ، وأرسلوا ألوفاً من الآذان المصلومة إلى الأستانة ، واستولى الأسطول التركي على بسارة ، ولكنْ لم يطل فرحُ الأتراك هذا ، فإنّ السفنَ اليونانية تغلّبت على الأسطول العثماني ، وفرّ أميرُ البحر تاركاً الجنود التي أنزلها في بسارَة ، فهجم عليهم الأروام وذبحوهم ، فأرسلت الدولة أسطولاً اجتمع مع الأسطول المصري في جزيرة ساقس ، إلَّا أن ميوليس اليوناني ـ من أكبرِ زعماء الثورة ـ تغلّبَ على الأسطولين ، وفقدا عدداً من جنودهما ، فأرسل السلطان محمود إلى محمد علي والي مصر يولّيه بلادَ المورة وجزيرة كريت ، ويعهد إليه بقمع الثورة ، فأرسل محمد علي ولده إبراهيم باشا ، فأنزل عساكره في المورة سنة (١٢٤١) ـ (١٨٢٥) واستولى على نافارين وكالاماتة وجميعَ السواحل ، ما عدا نابولي ، وهزم كولوكوتروني في

مدينة تريكورفة ، وهزم أبسيلنتي في مدينتي ريزس وإردوفة ، برغم مساعدات المتطوعين الأوربيين ، الذين كانوا في صفوف اليونان ، وكادَ إبراهيم يسحقُ الثوار بأسرهم ، فصاروا يفرّون إلى الجبال ، ولم يبق ثائراً إلا زعيمٌ اسمه بابا فليشاس فإنّ هذا الرجل لم يقدر عليه[1] إبراهيم ، ولكنّه ألحق بعسكره خسائر غير قليلة ، ولم تبقَ بلدة غير طائعة في بلاد اليونان غير أثينة وميسولونكي ، التي جاء القائد التركي رشيد باشا يحاصرها ، فدافعت هذه البلدة دفاعاً شديداً ، وكان فيها أربعة آلاف من نصارى الأرناؤوط ، وأقبلت عليها النجدات من كل فج ، بحيثُ لم يقدِرْ رشيد باشا على فتح البلدة ، فاستنجد بإبراهيمَ باشا ، فجاء وضيّقَ الحصار على ميسولونكي ، فاشتدت المجاعة بالمحصورين ، حتى أكلوا الخيل والكلاب ، وأخيراً أجمعوا من يأسهم على الخروج ، وكانوا ثلاثةَ آلافِ مقاتلٍ ، ومعهم النساء والأولاد ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، ولكنّهم لم يقدروا على النجاة ، فسحقتهم عساكر إبراهيم ورشيد باشا ، واستولى المسلمون على ميسولونكي ، ومن بعد ذلك ذهب رشيد باشا يحاصر أثينة ، حيث اجتمع ألوف من الثوار ، ومعهم قواد أوربيون ، فانتصر الأتراك عليهم ، ثم أخذت البلاد اليونانية تقدِّمَ الطاعةَ لإبراهيم باشا ، وكاد ينقطع كلُّ أملٍ من استقلال اليونان ، الذين أخذ الزعماء منهم يقاتِلُ بعضُهم بعضاً ، وصارت الحالة عندهم أشبه بالفوضى ، فعند ذلك تدخّلت الدول الثلاث فرنسة وإنكلترة وروسية ، وطلبت من الدولة ومن الثوار الأروام توقيف الحرب ، فالأروام أسرعوا إلى القبول بطبيعة الحال ، وأما الدولة فقد رفضت هذه المداخلة في مملكتها ، واستمرت على القتال ، فاقترحت روسية تقسيم بلاد اليونان إلى ثلاث إمارات ، تحت حماية أوربة ، فرفضت ذلك الدولة واليونان معاً ، فالدولة رأت في هذا التدبير خروجاً لبلاد اليونان من السلطنة العثمانية ، واليونان رأوه تدبيراً يخالِفُ مبدأ استقلالهم ووحدتهم ، وفي ذلك الوقت أي سنة (١٢٤٢) ـ (١٨٢٥) في شهر ديسمبر ـ كانون الأول توفّي القيصر إسكندر ، وخلفه ابنه نقولا الأول ، الذي أجبر تركية على عقد معاهدة تخوِّلُ روسية حقَّ الملاحة في البحر الأسود وتجعل

---

(١) في الأصل (على) .

الفلاخ ومولدافية إمارتين ينتخب الأهالي أميريهما إلى مدة سبع سنوات ، وتجعل صربية إمارة مستقلة استقلالاً داخلياً تحت سيادة السلطان ، وإنما تبقى حاميات عثمانية في بلغراد ، وثلاث قلاعٍ أخرى ، وتدفَعُ للدولةِ جزيةً سنويةً ، ثم قررت الدولة توكيل إنكلترة وروسية بإيجاد طريقة لحلِّ المشكلة اليونانية ، ووافقت النمسة ، وبروسية ، وفرنسة على ذلك . فلما خاطبت إنكلترة وروسية الباب العالي بشأن حرب اليونان ، أجاب بأنّ السلطان لن يقبلَ تدخُلَ الأجانب بينه وبين رعيته ، ولن يجاوبَ على اقتراحات كهذه .

فعند ذلك اتفقت الدول الثلاث في (٦) يوليو ـ تموز سنة (١٨٢٧) ـ (١٢٤٣) على أن تُفصَلَ بلادُ اليونان عن تركية فصلاً إدارياً ، وتُجعلَ إمارةً مستقلةً داخلياً ، وعليها أن تؤدي جزيةً للدولة العثمانية ، فأجاب الباب العالي كالأول بالرفض الباتّ ، فأمرت الدول الثلاث أساطيلها بمنع الجيوش العثمانية من الحركات العسكرية ، فأبلغ أمراء البحر الإنذار اللازم إلى إبراهيم باشا ، وهو تعهّدَ لهم بأن يتوقف عن كل حركة إلى ما بعد ورود الجواب من السلطان ومن محمد علي .

فأما اليونان فلم يتقيّدوا بإنذار الدول الذي كان موجهاً إليهم أيضاً ، وهاجموا بقوتهم البحرية أسطولاً صغيراً كان في ميسولونكي فأحرقوه ، فثار غضب إبراهيم باشا ، وأرسل إلى أمراء البحر ، بأنّه لا يمكنه أن يبقى مكتوف اليد بإزاء اعتداء الثوار ، وكان إبراهيم باشا قد جاءه الأمرُ من الأستانة بعدم توقيف القتال ، فكرر قواد الأساطيل الثلاثة إنذار إبراهيم باشا بإرجاع الأسطول العثماني إلى الدردنيل ، والأسطول المصري إلى الإسكندرية ، وبإخلاء بلاد المورة، وكان إبراهيم باشا غائباً، فأجيبوا بأنّ هذا البلاغ سَيُرسَلُ إليه، فاجتمعت الأساطيل الثلاثة في مياه نافارين ، وكان الأسطول العثماني ثمانين قطعة مصطفاً صفين على شكل هلال ؛ ولم يكن عند الفريقين نية القتال ، ولكن بطريق القضاء والقدر انطلقت رصاصةٌ من جهة الأسطول العثماني فأصابت رجلاً إنكليزياً من نواب المجلس البريطاني ، فقابل ذلك ربّان السفينة الإنكليزية التي وقع فيها هذا الحادث بإطلاق الرصاص المتوالي ، ثم إنّ الإنكليز أرسلوا إلى

محرّم بك قائد الأسطول المصري يقولون له : إنهم حاضرون لتجنّب الحرب إذا توقف العثمانيون عن إطلاق النار ، ولكن في ذلك الوقت أصابت رصاصة أخرى جندياً إنكليزياً فقتلته ، ويقول الإفرنج : إنّ هذه الرصاصة جاءت من بارجة الأميرال التركي ، فنشبت الحربُ ، واستمرت المعركة خمسَ ساعات إلى المساء ، فلم يبقَ من الأسطول العثماني سوى خمس عشرة سفينة ، ولما بلغ الخبرُ إبراهيم باشا ، تلقاه بسكون جأشٍ ، وأعلن أنهّ سيقتل[1] كلَّ من أراد الاعتداء على مسيحي ، ووصل الخبر إلى الأستانة ، فأبلغ الصدر الأعظم سفراء الدول الثلاث الاقتراحات الآتية :

الأول : عدم التدخل في قضية اليونان .

والثاني : دفع غرامة عن السفن الحربية العثمانية التي احترقت في ميناء نافارين ، هذا مع اعتذار الدول للدولة .

فأجاب سفراء الدول الثلاث بأنّ دولهم قطعت علاقاتها مع تركية ، وبرحوا الأستانة .

فأعلن السلطان محمود الجهاد باسم الدين الإسلامي ، وحرّض المؤمنين على القتال ، فأعلنت روسية الحرب على الدولة ، على حين أنّ الدولة كانت محقت أوجاق الإنكشارية ، فبقيت بدون جيش تقريباً ، ولما حصلت معركة نافارين تجدّدت آمالُ اليونان ، وزحفوا للقتالِ مِنْ كلِّ صوب ، إلا أنّ الأتراك حفظوا مراكزهم في نافارين ، ومودون ، وباتراس ، وكورون . وأما إبراهيم باشا فسحب أسطوله ، وعاد إلى الإسكندرية ، بموجب عقد هدنة ، ولم يترك سوى إثني عشر ألف جندي في بعض القلاع .

وفي (١٦) نوفمبر ـ تشرين الثاني سنة (١٨٢٨) م ـ (١٢٤٣) هجري انعقد في لوندرة مؤتمر دولي لأجل تحديد المملكة اليونانية ، التي قررت الدولةُ تأسيسها ، واتفقوا على أن يجعلوا لها ملكاً مسيحياً تحت حماية الدول الثلاث ، وجعلوا للدولة على هذه الإمارة اليونانية جزيةً سنويةً نصف مليون قرش ،

---

(١) في الأصل (يقتل) .

وكذلك قرروا التعويض على المسلمين الذين أجلاهم الأروام عن بلادهم ، وبعث الدول إلى السلطان لينيب عنه مندوباً في المؤتمر ، فرفض السلطان هذا الطلب ، واستؤنفت الحرب في بلاد اليونان ، ولكنّ روسية أغارت على بلاد الدولة ، وعبرت جيوشُها نهر ألبروت ، واحتلت الفلاخ ، ومولدافية ، ثم حاصر الروس قلعة سيلسترية ، وأحاطوا ببرايلة على نهر الطونة ، وكان السر عسكر حسين باشا في قلعة شُملة ، وكان يوسف باشا في فارنة ، فالروس الذين أمام سيلسترية انهزموا عنها ، ولكن برايلة سقطت في أيديهم ، وجاء القيصر نقولا الأول بنفسه إلى ساحة الحرب ، وضيّق الروسُ الحصار على سيلسترية وفارنة ، وهاجموا شملة وأسكي إستانبول ، ولكنهم فشلوا ، وبينما العثمانيون يدافعون الروس أحسنَ دفاعٍ ، إذ باع يوسف باشا قائد موقع فارنة قلعة هذه المدينة إلى الروس ، وقبض مقابل ذلك مبلغاً من المال ، وفرّ به إلى روسية ، يتنّعم بثمن خيانته ؛ فلما دخل الروس إلى فارنة امتنع ثلاثمئة من الأتراك بالقلعة ، وأبوا تسليمها برغم الأمر الصادر من يوسف باشا ، وبعد أخذٍ وردٍّ ارتضى القيصر بأن يخرجوا بأسلحتهم ، ويلتحقوا بالعساكر العثمانية .

وأما في آسية فقد ظهر الروس على العثمانيين ، وأخذوا قارص وأردَهَان وغيرهما ، وتولّى الصدارة في إستانبول رشيد باشا ، فاتح ميسولونكي وأثينة ، فزحف إلى البلقان ، وناجز الحرب الجنرال رُوت ، فخف الكونت ديابتش القائد الكبير للجيش الروسي لمعاونة الجنرال روت ، وهزموا الصدر الأعظم في (١١) يونيو ـ حزيران سنة (١٨٢٩)م ـ (١٢٤٤) هجرية ، ثم استولى الروس على سيلسترية ، فاعتصم الصدر الأعظم بقلعة شملة ، فانتهز الروس هذه الفرصة ، وعبروا الطونة من وراء الصدر الأعظم ، ولبثوا يزحفون إلى أدرنة ، فاستسلمت البلدة لهم بدون قتال ، واحتل الروس قرق كليسة ، وديموطِقَة وغيرهما .

وأما من جهة آسية فاستولى الروس على أرضروم ، وكانوا سائرين إلى الأمام . وأما في بلاد اليونان فاشتدت عزائمُ الأروام ، واسترجعوا كلَّ المواقع التي خلت منهم .

والخلاصة إنّ السلطان محمود شاهد في هذه الحرب هزائم لم تحلّ بالدولة

من قبل ، فطلب الصلح بواسطة بروسية ، وانعقدت معاهدة أدرنة ، التي بموجبها استولى الروس على مصبِّ [نهر] الطونة ، وصار لهم الحقُّ في حرية الملاحة في البحر الأسود ، والخروج منه إلى البحر الأبيض ، وأخذوا بوتي في آسية ، وفصلوا بين تركية وبلاد القوقاز . فخسرت تركية علاقتها بتلك الأمم القوقازية ، التي كانت من أشدِّ أنصارها ! فسهل على روسية إدخالهم في الطاعة تدريجاً ، وتعهّدت الدولة بأن لا تعزل أمراء الفلاخ ومولدافية .

وأما صربية فبقيت على حالها ، وتعهّدَ الباب العالي بدفع غرامة حربية (١٢٥) مليون قرش يؤديها تقسيطاً على عشر سنوات ، على شرط أنّ الروس لا يخلون بلاد الفلاخ ومولدافية قبل دفع الأقساط كلها .

وفي سنة (١٢٤٥) ـ (١٨٣٠) اعترفت الدولة باستقلال اليونان ، وبالحدود التي وضعتها الدول بينها وبين تركية .

وكان السلطان محمود معتقداً أنّه لا بدّ من الإصلاح في داخل السلطنة ، والسير بتركية على الطرق العصرية الأوربية ؛ ولما توالت الهزائم على الجيوش العثمانية في زمان سليم الثالث ومحمود الثاني ، تحقق الناسُ أنّ السبب في هذه الهزائم إنما كان قصور الإنكشارية في التعليم العسكري عن الجيوش الأوربية ، وأنّه لا بدّ للدولة من جيشٍ مرتّبٍ على نسق الجيوش الأوربية ، حتى يمكنه أن يقاتِلَها بنجاحٍ وثبات ، ولم يكن في الإمكان تنظيم هذا الجيش الجديد مع وجود الإنكشارية ، الذين كانوا يعارضون في هذا الأمر معارضة مَنْ يقاتِلُ عن حياته ، وكانت الدولة تعاني من ثورات الإنكشارية ما لا يوصَفُ ، وكم من مرةٍ كانت ثوراتهم سبباً في الإنهزام أمامَ الأعداء ، وكم استبدوا بالأهالي ، وعاثوا في البلاد ، حتى عاف الناسُ مجرَّدَ سماع ذكرهم ؛ فكانت الصدورُ ملأى من أعمالهم ، وكانت الأمةُ ترجو الخلاصَ منهم ، فلما أمر السلطان محمود بتنظيم الجيش الجديد كانت جميعُ الأمةِ مؤيدةً لفكرته هذه ، وبدأ السلطان بتنظيم هذا الجيش ، وأخذ ضباط الإنكشارية يتعلّمون الحركات العسكرية في آت ميدان ، وإذا بالإنكشارية تآمروا وثاروا على السلطان بغتةً ، وزحفوا إلى السراي يهدّدون السلطان ، ويطلبون منه رؤوس الذين وافقوا على النظام الجديد ، ولم يكن

السلطان محمود خوّار العزيمة ، ولا ممن يهاب الأخطار ، فامتنع من إجابة طلبهم ، ونادى بالأمة ، وأخرج السنجق النبوي ، فاجتمعت الأمةُ تحته ، والعلماء في مقدمتهم ، وصدوا الإنكشارية[١] ، ورموهم بالنيران ، وأطلقوا المدافع عليهم ، فكسروهم ، وبعد أن انهزموا ، أعملت الأمةُ السيوفَ في رقابهم ، فقتلوا منهم عشرة آلاف رجل ، وقيل عشرين ألفاً ، وتخلّصت الأمةُ من معرّتهم ، وبعد ذلك نشر السلطان خطاً شريفاً يقول فيه : إنّه من المعلوم بين المسلمين أنّ السلطنةَ العثمانيةَ إنما رَقَتْ ونمت واستولت على الشرق والغرب بقوة الدين الإسلامي ، وأنّ نظام الإنكشارية كان في أول الأمر يومَ كانتْ الطاعةُ شعاره حصناً حصيناً للدولة ، وطالما كان النصرُ معقوداً برايات هذا النظام ، ولكنْ في العصر الأخير ، فشا في الإنكشارية روحُ التمرد ، وصاروا بلاءً على الدولة ، وصاروا لا يلقون الأعداء إلا انهزموا ، فأجمعت الأمةُ على إيجاب التخلُّصِ من هذا النظام البالي ، وعلى تنظيم جيشٍ جديدٍ يمكننا أن نصادِمَ به أعداءَ الدين إلخ .

وما اكتفى السلطان باستئصال الإنكشارية ، بل أراد استئصال جميعِ جراثيمِ الفساد ، التي كانت آفةً على المملكة ، فألغى الطريقة البكتاشية[٢] ، وقتل رؤساءها ، وأقفلَ تكاياها .

ولكن بعد أن سار على خِطَّةِ التجدد في المملكة ، وغيّر الأزياء القديمة ؛ حاول الرجعيون الانتقام ، فأشعلوا النار عدة مرار ، وفي إحدى المرار أحرقوا ثُمْنَ الأستانة ! ولكنّ السلطان ضمّد الجروح ، وساعد المصابين ، وفي مرة أخرى أحرقوا بيك أوغلي محلة الأوربيين ، وحصلت أيضاً ثورةٌ بالسلاح ، فقضى السلطانُ عليها ، ولم يثنِه شيءٌ عن عزمه ، ومضى في سياسة التجدد ، وبنى المدارس ، وأسَّس المدرسة العسكرية الكبرى ، وأنشأ المراكب النارية ، وأسَّس المحاجر الصحية .

---

(١) في الأصل (إلى الإنكشارية) .

(٢) انظر ما قاله المؤلف عن البكتاشية في «حاضر العالم الإسلامي» (٤ : ٣٤٩ ـ ٣٥٠) .

وكان بالجملة مقتنعاً بوجوب الإصلاح والتجديد ، حازماً ، رابطَ الجأش ، غيرَ هيّابٍ للموت ، عادلاً بالرعية ، مهتماً بالصغيرة والكبيرة من شؤون الأمة ، مساوياً بين جميع أجناس رعيته ، ولكن المصائب بسبب أطماع الدول الأوربية توالت على السلطنة في زمانه .

وفي سنة (١٢٤٧) ـ (١٨٣١) استولى الفرنسيس على الجزائر ، في خبرٍ ليس هنا موضعه ، فعجزت الدولة عن دفع هذا الاعتداء ، لا سيّما أنّ الجزائر كانت منفصلة عنها ، ولم تكن سيادتُها عليها إلّا بالاسم .

حملة إبراهيم باشا على الشام

ثم خرج محمد علي والي مصر على الدولة ، وأغزى ابنه إبراهيم بلادَ الشام بخمسين ألف جندي ، فاستولى على غزَّة ، ويافا ، وحيفا ، وحاصر عكا التي كان قائدها عبد الله باشا ، فأمر السلطان محمد علي بردّ عساكره إلى الوراء ، فاشترط محمد علي على السلطان توليته سورية ، فأبى السلطان قبولَ طلبه ، وأرسل جيشاً لقتال الجيش المصري تحت قيادة حسين باشا ، فانكسر حسين باشا ، وفتح إبراهيم باشا عكا عنوةً ، واستولى على جميع سورية ، وفي ذلك يقول الشيخ أمين الجندي[1] الشاعر :

لو قيلَ إبراهيمُ جاءَ محارِباً ... سَقَطُوا ولو كانَ الكلامُ تَقَوُّلا
قامتْ قيامُة عكةٍ مِنْ بأسِهِ ... وأحاطَ مِنْ كلِّ الجهاتِ بها البَلا
بمدافعٍ ما إنْ لها مِنْ دافعٍ ... وقنابرٍ تحكي القضاءَ المنزَلا
تُنسِيكَ بَدْراً والنّضِيْرَ وخيبراً ... وحروبَ مكَّةَ والبسوسَ وكَرْبلا
مَنْ مبلغ الأتراك أنّ جنودَهم ... هُزِمُوا وأنّ حُسَيْنَهُمْ ولّى إلى

ولم يقف في وجه إبراهيم باشا غير الدروز ، فإنهم اجتمعوا في وادي التيم وناجزوا جيشه القتال في وقائع متعددة ، أشهرها واقعة وادي بكّة حيثُ أحاط إبراهيم باشا ومعه اثنا عشر ألف مقاتل نظامي بخمسمئة من الدروز ، فقاتلوه

(١) من أعيان حمص مولد سنة (١٧٦٦) ووفاته سنة (١٨٤١) له ديوان شعر مطبوع .

طولَ النهار ، وأبوا أن يستسلموا إليه إلى أن ماتوا جميعاً ، وما نجا منهم غير (٢٥) شخصاً ، اخترطوا سيوفهم ، وشقّوا الجند النظامي على كثافته ، وخلصوا من بين الجند كله ، وقد عرفتُ منهم واحداً عُمِّر طويلاً ، اسمه أمين المصفى من قصبة بعقلين . وأما دروز حوران فالتجأوا إلى اللجاة ، واتفقوا مع عرب السلوط ، وساق عليهم إبراهيم باشا جيشاً فكسروه مراراً ، وقتلوا منه مقتلةً عظيمة ، وبقي الدروز عصاة على إبراهيم إلى أن انصرف من سورية .

ولكنّ الأمير بشير الشهابي الوالي على جبل لبنان لان إلى إبراهيم باشا ، لأنه كان ذهب إلى مصر ، وتعاهد مع محمد علي ، فلّما زحف إبراهيم باشا إلى الشام مهّدَ له كثيراً من العقبات ، ولم تمنع إبراهيم باشا ثورةُ الدروز من أن يزحفَ إلى الأناضول ، ويهزِم جيشَ الدولة عند قونية ، وأن يتقدّم من هناك إلى بروسة ، فوقع الهلعُ في الأستانة ، وقد كان خوف الروس من محمد علي أعظمُ من خوفِ الترك ، وذلك أنّ الروس فكروا في أنّ محمد علي قد يستولي على القسطنطينية ، وينظِّم [شؤون] تركية كما نظَّم شؤون مصر ، ويؤسّس دولة جديدة شابة غير الدولة العثمانية التي كان [قد] حلّ بها الهرم ، فعرضت روسية على السلطان محمود محالفةً عسكرية في وجه محمد علي ، وأنزلت خمسة عشر ألف جندي بقرب الأستانة ، وكانت على نية زيادةِ هذا الجيش حينما نبّه السلطان سفيرا إنكلترة وفرنسة إلى خطر وجود العساكر الروسية في الأستانة ، وقالا له : إنّ الأولى به أن يقبلَ شروط محمد علي ، وهي إضافة سورية كلها وولاية أضنة إلى مصر تحت سيادة السلطان ، من أن يستعينَ بروسية صاحبةِ الطمع السرمدي في القسطنطينية ، وهكذا اقتنع السلطان بإعطاء سورية وكيليكية إلى محمد علي ، ولكنّ السلطان لم يكن ليرضَى من قلبه مصالحةَ محمد علي على هذا الشرط ، وبقي يجهّز العساكر ليقاتِلَ إبراهيم باشا ، ويرده إلى الوراء ، فزحفت العساكر العثمانية تحت قيادة حافظ باشا ، وتلاقى الجمعان في نِزِّبْ ، وكان مع إبراهيم باشا جيشٌ كبير من العرب ، فانكسر حافظ باشا كسرةً شنيعةً ، وغنم إبراهيم أكثر مدافعه ، ومات السلطان محمود من الغمِّ عند سماعِ خبرِ هذه الهزيمة ، وذلك سنة (١٢٥٥) ـ (١٨٣٩) .

***

٣١ ـ السلطان عبد المجيد

١٨٣٩ ـ ١٨٦١

وتولّى السلطنة [بعد محمود الثاني] ولدُه الكبير السلطان عبد المجيد ، وكانت الدولةُ أصبحتْ بدون جيشٍ تقريباً ، وكان أميرُ البحر أحمد باشا اختلف مع الصدر الأعظم ، فذهب وسلّم الأسطول العثماني إلى محمد علي في ميناء الإسكندرية ، فصارت الدولة مضطرة إلى الصلح مع محمد علي ، إلا أنّ روسية وإنكلترة والنمسة وبروسية عقدت مع السلطان عبد المجيد معاهدة سنة (١٢٥٦) ـ (١٨٤٠) لا يبقى بموجبها لمحمد علي سوى مصر ، التي تعود إمارة له ولذريته ، وفلسطين التي يتولاها بصورة مؤقتة ، وعليه أن يخلي سورية وبلادَ العرب وجزيرة كريتِ ، وبقيت فرنسة خارجةً عن هذا الاتفاق ، لكنَّها لم تصل في مساعدة محمد علي إلى العمل ، وذلك بما رأته من تألُّبِ أوربة عليه ، فصار محمد علي يقاوم بدون سند من جهة الدول ، وكانت قوة إبراهيم باشا أكثرها في عكّا ، فجاء الأسطول الإنكليزي ، وضرب عكا بالقنابل ، وطيّر مستودعَ البارود والذخيرة ، فاستسلمت عكا ، وسحب إبراهيم جيشه إلى مصر ، وكانت الدولة تريدُ الخلاص من محمد علي تماماً ، إلا أن الإنكليز كانوا عقدوا معه معاهدة لإبقاء مصر في يده ، فأجبروا الدولة على مراعاة هذه المعاهدة .

وأما الأمير بشير الشهابي حليف محمد علي ، فلما التزم إبراهيم باشا إخلاء سورية ، لم يتبعه إلى مصر ، بل بقي يرجو أن يصلحَ أموره مع الدولة ، وكان الأمر والنهي وقتئذٍ في يد الإنكليز ، فلما نزل إلى صيدا ، وقابل أميرَ البحر الإنكليزي سمع منه ما يدلُّ على أنّ إنكلترة لا تريدُ إبقاءَه أميراً على لبنان ، ثم أتوا به إلى بيروت ، وأبلغوه أنّ الدولة العثمانية قررت عزله ، فليختر بلاداً يقيم بها ، فاختار فرنسة ، فقال له الإنكليز : لك أن تسكنَ في أي بلد شئت ما عدا فرنسة ومصر ، فاختار مالطة ، ثم وجد مالطة في عزلةٍ عن الدنيا كلِّها ، فسعى في التحول إلى إستامبول ، وجاء إليها ، وبقي فيها إلى أن مات .

وكان قد تعين الأمير بشير قاسم الشهابي والياً على جبل لبنان ، وكان الفرقُ بينه وبين ابن عمه في الحزم والعزم وحسن التدبير كما بين السماء والأرض ، فما مضى على ولايته إلَّا أشهر قلائل ، حتى سخط عليه مشايخ الدروز أصحاب الإقطاعات ، لأنه كان بذيءَ اللسان ، فكانت بذاءته تجرحُ في قلوبهم ، على حين لا يوجدُ في الدنيا بلدٌ كجبل لبنان يهتمُّ أهلهُ قبلَ كل شيء بالآداب وحفظِ اللسان ، فقرر الدروزُ الاجتماع لخلع الأمير بشير قاسم ، فانتصر له النصارى ، لأنه منهم ، فوقعت الوقائع بين الفريقين في دير القمر سنة (١٢٥٧) ـ (١٨٤١) وتسمّى هذه الوقائع في لبنان بالحركة الأولى .

فعزلت الدولة الأمير بشير قاسم ، وأرسلت عمر باشا النمساوي إلى جبل لبنان ، فأخذت فرنسة تسعى في إعادة الحكم إلى آل الشهابي بناءً على كون الطائفة المارونية ترغبُ في ذلك ، إلا أنّ الدروز وسائر الطوائف غير المارونية عارضوا رجوعَ الحكم إلى الشهابيين ، فبعد أخذٍ وردّ بين الدول ، تقررت قسمة الجبل إلى قسمين ، يفصِلُ بينهما طريق دمشق ، وجعلت الدولة الأمير أحمد عباس الأرسلاني والياً على القسم الجنوبي ، والأمير حيدر إسماعيل أبي اللمع والياً على القسم الشمالي ، وألحقت بلادَ جبيل بباشوية طرابلس ، فأغضب هذا التدبيرُ الطوائفَ الكاثوليكية ، وحاميتهم فرنسة ، ولكنّ الدول الأخرى حباً بالتوازن ، وبمقاومة نفوذ فرنسة التي تريد السيادةَ على جبل لبنان ، عضدت الدولةَ العثمانية في الترتيب الجديد ، وهي : إنكلترة ، وبروسية ، وأميركة ، وروسية ، وتألف في كلٍّ من القائم مقاميتين ديوانٌ مختلَطٌ ، تتمثل فيه كلُّ الطوائف .

حوادث الستين

وما مضت سنواتٌ قلائل على هذا النظام حتى تشاجرَ الدروز والنصارى مرةً أخرى ، وحصلت وقائع بين الفريقين ، فسكَّنت الدولة هذه الفتنة .

وجاء شكيب أفندي ناظر الخارجية من الأستانة فرتّبَ الأمور ، وعزل الأمير أحمد أرسلان ، بسبب حصول الفتنة في أيامه ، وجعل مكانَه أخاه الأمير أميناً ،

فبقى إلى سنة (١٢٧٦) ـ (١٨٥٩) فخلفه ولده الأمير محمد الأرسلاني ، وفي مدة هذا ثارت العامة في قضاء كسروان ، وكلُّهم هناك من الموارنة ، وكانت ثورتهم على مشايخهم آل الخازن ، فطردوهم ، واستولوا على أملاكهم ، وقتلوا منهم ، فذهبوا إلى بيروت يشتكونَ إلى الوالي التركي ، فرأى الوالي أنّه لا بدّ من حربٍ لقمع ثورة الأهالي ، فرأى الأولى أخذَ المسألة بالسياسة ، فطال الأمرُ ببني الخازن ، فالتجأوا إلى مشايخ الدروز ، لأنّهم أصحابُ إقطاعات مثلهم ، وبين الفريقين تكافُلٌ إقطاعيٌّ طبيعي ، فقرّرَ مشايخ الدروز الزحف على كسروان ، وإعادة بني الخازن إلى بيوتهم ، فقامت من أجلِ ذلك قيامةُ المارونيين الذين في بيروت وفي بلاد الشوف وجِزّين ، وقالوا : إنهم لا يرضون بذهاب الدروز إلى كسروان يقاتلون إخوانهم ، فوقع التنافر بين الفريقين ، وبدأ المارونيون بالحركة ، ثم انفجر الدم في حوادث جزئيةٍ في البداية ، واجتمع المسيحيون في زحلة ، وزحف منهم عدة آلاف قاصدين قضاء الشوف ، على تفاهم مع نصارى الشوف ، بأن يثوروا من جهتهم ، فيضعوا الدروز بين نارين ، واعتمدوا على كثرة عددهم ، لأنّ الدروز لا يزيدون على السدس بالنسبة إلى النصارى ، ولكنّ الدروز المشهورين بالشجاعة وبحسن الانقياد إلى رؤسائهم في الحروب قابلوا ذلك الجيش الذي زحف إليهم ، وذلك في ضَهْر البيدر ، شرقي عين صوفر ، وجرت معركة تقهقر فيها النصارى إلى قُبّ الياس .

ثم حصلت وقائع أخرى كان الفوز في جميعها للدروز ، ثم جمع خطّار بك العماد جمعاً كبيراً من الدروز ، وقصد مدينة زحلة ، حيث تجمّعَ فيها النصارى من كل جهة ، فوقعت واقعةٌ شديدةٌ انتهت أيضاً بأن ترك النصارى زحلة ، واستولى عليها الدروز ، وأحرقوها .

وكانت قصبة دير القمر المسيحية الواقعة في وسط بلاد الدروز تدافِعُ بشدة الدروزَ الذين يهاجمونها ، فلما سقطت زحلة خارت عزائم أهالي دير القمر ، فاستولى عليها الدروز ، وأعملَ الجهلاءُ منهم السيف في أهلها ، وقتلوا مقتلةً عظيمةً ، ولكن عندما بلغ الخبر آل أرسلان ، وآل جنبلاط ، وآل نكد ، أرسلوا رجالهم إلى دير القمر ، وأنقذوا ألوفاً من بقايا المسيحيين من السيف ،

وآووهم ، وقاموا بإعاشتهم ، إلى أن جاء وزراء الدولة والدول ، وبدأوا بالتحقيق عن الحوادث ، وكذلك حصلت حادثة كهذه في حاصبيا ، وأخرى في راشيا ، وكان الدروز مع كونهم أقل عدداً يتغلبون على النصارى ، وكانت تقع من الجهلاء بعدَ الفوز حوادث مؤسفة ، لامِراءَ فيها ، إلا أنه في جميع هذه الوقائع لم يكن الدروز هم البادئين بالشر ، وكيف يبدأون ، وزعماؤهم هم أصحاب الإقطاعات الوافرة ، وتحت حكمهم عشرات الألوف من النصارى ، وفي أيديهم أكثر الأملاك ، فكان لا يخفى عليهم ، وهم عقلاء محنكون ، أنّ الفتنة تكونُ سببَ انقراض نعمتهم ، وتؤول إلى جعل الحكومة على نسبة عدد الطوائف ، فيفقدون أكثرَ امتيازاتهم ، بخلاف النصارى ، الذين كانوا يرون أنهم لا يحصلون على المساواة ، ولا يتخلّص ذلك العدد الكبير منهم من حكم الدروز إلا بثورة تجبرُ الدولة على إنصافهم ، فقضيةُ أنّ الدروز كانوا مستولين على أكثر كثيراً مما يحقُّ لهم بحسب العدد ، هذه قضيةٌ لا نزاعَ فيها .

وأما قضيةُ كون الدروز هم الذين بدأوا بقتال النصارى ، وأنّهم هم الذين اعتدوا عليهم ، **فهي كذب محض ، قد تحققتْهُ لجنةُ التحقيق الدولية ، التي وقفتْ على جميع الحقائق** ، ولذلك أبى الجانب الأعظم من الدول أن يعدَّ الدروز معتدين ، وإنْ كانوا حكموا على مئاتٍ منهم بالنفي ، فلم يكن ذلك مبنياً على اعتدائهم ، ولكنْ كان ذلك تسكيناً لخواطر النصارى ، الذين قُتِلَ منهم عِدّةُ آلافِ بعدَ تغلُّبِ الدروز عليهم ، ولقد حكمت الدولة بالقتل على المشير أحمد باشا قائد الفيلق العثماني في دمشق ، وعلى مئات من المسلمين ، ممن كانوا المسؤولين عن الحادثة التي وقعت على نصارى الحاضرة السورية ، ولكنّها بالاتفاق مع الدول عدا فرنسة لم تقتل أحداً من الدروز ، لما ظهر من أنّ الاعتداء لم يقع منهم ، ولما ثبت بالوثائق والمناشير التي صدرت عن أساقفة النصارى من أنّ الرؤساء الروحيين كانوا هم المحرضين على الحرب ، وغير معقول أن الدول المسيحية مع شدة تعصبها في النصرانية مثل إنكلترة ، والنمسة ، وبروسية ، وروسية ؛ تساعِدُ الدروزَ بقدر الإمكان ، وتأبى مجاراة فرنسة على قتل جانب منهم لو تحقق عندها أنّ الدروز كانوا هم المعتدين !

ولا تبالِ أصلاً بأقوال المؤلفين الإفرنسيين ، الذين ينكِرُون هذه الحقيقة ، ويروون رواياتٍ إذا قرأها الإنسانُ يضحَكُ ، أو يحزنُ لشدة بُعدِها عن الواقع ، ولغياب الوجدان فيها تماماً .

ودعوى الفرنسيس أنّ الإنكليز لأجلِ أن يتوكأوا على الدروز ، ويتخذوا لأنفسهم أنصاراً في سورية قد اجتهدوا في إنقاذهم على أثر تلك الحوادث المسماة بحوادث الستين ـ لوقوعها سنة (١٢٧٧) ـ (١٨٦٠) ـ هي دعوى لا ترتكزُ على أدنى أساس ، لأنّ الإنكليز هم أشدُّ تحمساً للنصرانية من أن يرضوا بذبح الدروز للنصارى ، وبأن يُترَكُوا بدون قصاص ، ولما وصلتْ إلى لندرة أخبارُ هذه الحوادث مقلوبةً عن وجهها اشتدّ غضب الإنكليز ، وطلبوا في أول الأمر من حكومتهم الاقتصاص من الدروز بكلِّ صرامةٍ ، إلّا أنّه كان بعضُ الإنكليز المنصفين المقيمين بسورية ، لا سيما المستر سكوت صاحب معمل الحرير في قرية شملان من لبنان ، قد كتبوا إلى إنكلترة بحقيقة ما جرى ، وقالوا : إنّ الدروز إنما كانوا مدافعين لا مهاجمين ، فهدأ عند ذلك الرأي العام الإنكليزي .

ولما تألفت اللجنةُ الدولية في بيروت ، ثبتَ أيضاً أن الدروزَ لم يكونوا هم البادئين بالقتال ، وثبتَ أنّ الأمير محمد أرسلان أميرَ لبنان الجنوبي راجع الوالي خورشيد باشا ، لأجلِ إرسالِ جيشٍ نظامي يكفي لمنع الحوادث ، واستمدّ أيضاً [من] قناصلِ الدول كلِّها حتى يَسْعَوْا في هذا الأمر لدى الوالي ، وهذا كان سببَ خلاصِ الأمير محمد من القتل والنفي ومن كل مسؤولية ، ولا يُنكَرُ أنّ الإنكليزُ كانوا قد بدأوا بتأسيس علاقةٍ مع آلِ جنبلاط وحزبِهم من الدروز ، وربّما كانوا لأجلِ حفظِ التوازن ، غير راغبين في استئصال هذه الطائفة القليلة العدد من جبل لبنان ، ولكنّهم لو كانوا قد تحقّقوا كونَ الدروز هم المعتدين ، لكانوا وافقوا على الأقل على إجراء القصاص بحقِّ عِدَّةِ مئاتٍ منهم ، كما جرى في دمشق بحقِّ المشير أحمد باشا ومئات من المسلمين ، وأيضاً فإنّ روسية ، والنمسة ، وبروسية لم يكن عندهم أقلُّ سبب سياسي يقتضي العفوَ عن الدروز ، والاكتفاء بنفي مئتين أو ثلاثمئة رجلٍ منهم إلى الخارج ، مع أنّ النصارى قدّموا جدولًا إلى

اللجنة الدولية يلتمسون فيها قتل سبعة آلاف من الدروز .

والخلاصة لما ثبت أنّ الدروز لم يكونوا إلا مدافعين عن حوزتهم ، ترفقت بهم الدولة العثمانية ، وجميعُ الدول عدا فرنسة ، وإنما نُفي من نُفي منهم نكالاً وعبرةً من أجلِ المذابح التي لا تُنكَرُ ، مما قام به جهلاؤهم بعد الغلبة ، ولقد قَلَبَ مؤرخو هذه الوقائع من الفرنسيس حقائقها رأساً على عقب ، وجعلوا الابتداء والاعتداء من الدروز ، وليس ذلك بصحيح .

ثم إنّه قد ثبتَ أيضاً باعتراف عُقلاءِ النصارى أنفِسهم أنّه لم يوجد واحدٌ من الدروز سطا على عِرْضِ امرأةٍ نصرانية ، ولا وُجِدَ منهم مَنْ قتلَ ولداً ، أو امرأةً ، أو شيخاً عاجزاً ، وقد اعترفَ بذلك صاحِبُ كتاب «حسر اللثام عن نكبات الشام» المطبوع بمطبعة المقطّم بمصر ، وفيه سَرْدُ حوادِث سنة (١٨٦٠) ـ (١٢٧٧) وفيه من الطعن بالدولة العثمانية ومن الوقيعة بالمسلمين والدروز ما يزيدُ على كلِّ وصفٍ ، إلا أنّه صرّح بكون الدروز في جميع هذه الوقائع لم يتلوّثوا بالاعتداء على أعراضِ النّساءِ ، ولا قتلوا امرأة ، ولا ولداً ، ولا عاجزاً ، وهو يذكُرُ أيضاً هممَ كثير من زعماء الدروز الذين أنقذوا [من] النصارى ألوفاً ، كما يذكر أنّ أعيانَ المسلمين في الشام مثل محمود أفندي الحمزاوي وصالح آغا المهايني ، وعمر آغا العابد ، وعدداً كبيراً من الوجهاء ـ ليس الأمير عبد القادر الجزائري فقط ـ قد حافظوا على النصارى ، وآمنوهم من خوف ، وآووهم من فقر ، مع أن مؤرخي الفرنسيس يحصرون هذه المحافظة في الأمير عبد القادر رحمه الله وحدهَ ، وهو بدون شك قد حافظ على ألوف من المسيحيين ، وكان السبب في نجاتهم من الغوغاء الذين اعتدوا عليهم بدون علم الرؤساء ، ولكن الأمير عبد القادر لم يكن هو الوحيد الذي قام بذلك الواجب .

ثم إنّ السلطان عبد المجيد أعلن التنظيمات المسماة بخط كولخانة ، ومآله أنّ حياة الأشخاص وأموالهم وأعراضهم تكونُ مصونةً ، وتكونُ الأموالُ الأميرية عائدة إلى نظام واحد ، وأن تُلْغَى الاحتكارات ، وأن تكونَ الضرائبُ بحسب الثروة ، وأن تكونَ مدة الخدمة العسكرية خمس سنوات ، وأن تكون المحاكمات علنية ، وأن تكون المساواة أمام القانون شاملةً لكلِّ أصنافِ الرعية ،

وأن يكونَ الناسُ أحراراً في البيع والشراء ، وأن يكونَ ضبطُ أملاكِ المجرمين ممنوعاً ، بل تعود إلى ورثتهم .

وقد زعم بعضُ مؤرخي الفرنسيس أنّ الضرائب وإن أوجبَ خط كولخانة استيفاءها على نسبة الثروة ، فقد كانت تُجبَى بصورةٍ جائرةٍ من المسيحيين ، وهذا الكلام أيضاً غير صحيح ، فالضرائب في السلطنة العثمانية كانت على حسب مقدار الأملاك وريعها ، **ولم يكن فيها تمييزُ طبقةٍ على طبقةٍ مما هو شأنُ الدولة الاستعمارية الأوربية .**

وأسست الدولة جامعةً باسم دار الفنون ، وجعلت التعليم ابتدائياً ، وإعدادياً وعالياً ، وقامت بإصلاحات كثيرة .

وفي سنة (١٢٦٥) ـ (١٨٤٨) ثارت الفلاخ ومولدافية ، وكادت الفتنةُ تؤدي إلى الحرب بين الدولتين العثمانية والروسية ، ولكنّ الحرب لم تقع بينهما هذه المرة ، وتفادوها بتدابير سليمة .

وفي زمان السلطان عبد المجيد نشبت حربُ القرم ، وأساسُها الخلافُ بين الروم واللاتين على كنيسة بيت لحم ، التي فيها المغارة التي يُقال : إنّ المسيحَ ولد فيها ، فاللاتين كانوا يدّعون حقَّ الولاية على هذه الكنيسة بموجب فرامين[1] بأيديهم ، وزعموا أنّ الأروام بدسائسهم لدى الدولة قد استولوا على حقوقٍ لم تكن لهم من قَبْلُ ، وأخذوا مفاتيحَ كنيسةِ القيامة وبُسطها وقناديلها بفرمان من السلطان محمود الأول ، وزعم اللاتين أنّ السلطان سليمان الثاني كان خوّلهم هذه الحقوق سنة (١٠٧١) ـ (١٦٩٠) فرجع الأروام واستردوا ما فقدوه في سنة (١١٧١) ـ (١٧٥٧) .

ثم إنّ روسية سنة (١٢٢٣) ـ (١٨٠٨) ساعدت الأروام لدى الباب العالي ، فاستولوا على جميع الأماكن المقدّسة تقريباً ، فبقيت فرنسة تحتج على ذلك .

وسنة (١٢٦٨) ـ (١٨٥١) طلبت فرنسة من الدولة تأليف لجنة مختلَطة ، لأجل النظر في الفرامين التي بأيدي اللاتين والروم ، وادّعت الاستيلاءَ على

(١) جمع فرامان : أي مرسوم يصدره السلطان وكان يسمّى أيضاً إرادة سنية .

كنيسة القيامة ، وعلى المكان الذي فيه مدافن ملوك الإفرنج ، وعلى قبر العذراء ، وعلى كنيسة بيت لحم ، وغيرها .

فلما بلغ ذلك روسية اعترضت على هذا الأمر ، وقدّمت إلى الدولة مذكرةً لو قبلها الباب العالي لكان ذلك اعترافاً منه بحماية روسية لجميع المسيحيين الأرثوذكسيين ، فلذلك رفض البابُ العالي إجابةَ طلب روسية ، فقطعت روسية العلاقات مع الدولة ، وزحفت العساكر الروسية تحت قيادة البرنس ، كورتشاكوف فقطعت نهر البروت بتسعين ألف ماشٍ وعشرين ألف فارس ، وستة آلاف مدفعي ، فاحتلّ هذا الجيش الفلاخ ، ومولدافية ، وكانت الحصونُ العثمانيةُ عند [نهر] الطونة خراباً تقريباً ، ولكنْ كان عندَ الدولة قائدٌ اسمه عمر باشا النمساوي أصله خرواطي[1] ، كان من عظماء القواد ، فرمَّمَ تلك القلاع ، وجمعَ جيشاً جراراً ، وصدَّ الروس وردّهم .

أما في آسية فتقهقر العثمانيون إلى الوراء ، وجاءَ أسطول روسي ، فأحرق أسطولاً عثمانياً في ميناء سينوب ، وفي ذلك الوقت كانت إنكلترة ترى من مصلحتها توقيفَ روسية عند[2] حدها خوفاً من استيلاء الروس على الأستانة ، وكان نابليون الثالث إمبراطور فرنسة منقاداً إلى السياسة الإنكليزية ، وكانت الأمةُ الإفرنسيةُ الكاثوليكية ترى أنّ الدولةَ العثمانية قبلت هذه الحرب مع روسية من أجل عدم تسليمها حقوقَ اللاتين في القدس ، فلما أحرق الأسطول الروسي السفنَ العثمانية التي كانت في سينوب دخل الأسطول الإنكليزي والأسطول الإفرنسي من الدردنيل إلى الأستانة محافظةً عليها من روسية ، فأرسل نيقولا الأول قيصر الروس يحتجّ على هذه الحركة ، ونشر على شعبه منشوراً أشبه بإعلان حرب على فرنسة وإنكلترة ، فعقدت هاتان الدولتان محالفة هجومية دفاعية مع السلطان عبد المجيد في (١٢) مارس ـ آذار سنة (١٨٥٤) ـ (١٢٧٠) وكان تحتَ قيادة عمر باشا ـ وكان يقال له السّردار ـ مئة وثلاثون ألف مقاتل نظامي ، وخمسون ألف متطوع ، وكان الجيش الروسي تحت قيادة البرنس

(١) كرواتي .
(٢) في الأصل (على) .

باسكيفتش يبلغ مئة وتسعين ألفاً ، فهاجم الروس سيلسترية ، فدحرهم العثمانيون عنها ، فتقهقروا على طول الخط . وأراد عمر باشا أن يجتاز نهر ألبروت ، إلا أنّه كان الفرنسيس والإنكليز قد عمدوا إلى نقل ميدان الحرب إلى القرم ، وقرروا حصار سيباستوبول ، فانتقل السردار عمر باشا إلى القرم ، وهناك جرت الوقائع الكبرى .

وثارت بلادُ اليونان انتصاراً لروسية ، وتجاوز الأروام على الحدود العثمانية ، فانهزموا ، واحتلّ جيشٌ إفرنسي أثينة .

وأما في القرم فانتصر الإنكليز والفرنسيس والعثمانيون في وقائع آلمة وبالاكلافة وأنكرمان وتراكثير ، وافتتح عمر باشا أوبَّاتورية عنوةً ، وفتح الحلفاء برج مالا كوف بعد معارك شديدة ، قيل : إن الفرنسيس هناك فقدوا عشرة آلاف مقاتل ، ودمّرت أساطيلُ الحلفاء مرافىء روسية في البحر الأسود ، ودخلت أساطيلُهم من [بحر] البلطيق ، واستولوا على بومارسوند ، وانضمّ إلى فرنسة وإنكلترة وتركية في هذه الحرب مملكة الساردوة ، والبيمونت ، فأرسلت (١٥) ألف مقاتل ، فلما توالت هذه المصائب على روسية طلب القيصر نقولا الصلح ، فانعقد مؤتمر في فينَّة في أول فبراير ـ شباط سنة (١٨٥٦) ـ (١٢٧٢) هجري وتقرّرتْ فيه شروطُ الهدنة ، ثم انعقد مؤتمرُ الصلح في باريز ، وكان الجانب الأول هو فرنسة وإنكلترة وتركية ومملكة الساردوة ، والجانب الآخر روسية . وكانت بروسية والنمسة كفيلتين ، وبهذه المعاهدة تقّررَ استقلالُ السلطنة العثمانية التام ، وعدم تدخل أية دولة في شؤونها الداخلية ، وذلك بموجب المادة التاسعة ، كما أنّه بموجب المادة العاشرة تقرَّرَ عدمُ مرورِ السفن الحربية من الدردنيل . وبحسب المادّة الحادية عشرة تقررتْ حريةُ التجارة والملاحة في البحر الأسود . وكذلك بحسب المادة العشرين تقّرَ أنّ روسية تتخلّى لمولدافية عن قسم من بسارابية ، ثم جعلت مصابّ [نهر] الطونة تحت إشراف لجنة أوربية ، وبهذه المعاهدة جرى إلغاءُ حمايةِ الروس على بلاد الصرب ، والفلاخ ، ومولدافية ، ورجعت هذه الإمارات تحت سيادة الباب العالي وحماية أوربة .

وبمقابلة معاهدة باريز هذه جددت الدولةُ العثمانيةُ مآل خط كولخانةَ من جهة إعلان المساواة التامة بين أصناف رعاياها ، ومن جهة حرية المذاهب وغير ذلك من الإصلاحات .

وفي (١٣) يوليو ـ تموز سنة (١٨٥٨) ـ (١٢٧٤) هجم بعض أهالي جدة بالحجاز على قنصل فرنسة ومعاون قنصل إنكلترة فقتلوهما ، فجاء أسطولٌ إنكليزي إفرنسي فضرب البلدة بالقنابل .

وفي سنة (١٢٧٧) ـ (١٨٦٠) جرت الوقائع التي سبقت الإشارةُ إليها بين الدروز والنصارى في جبل لبنان ، وكانت الدولة سكّنت الأمور ، واستدعت زعماءَ الفريقين إلى بيروت ، ووقع الصلح بينهما ، إلّا أنّ بعضَ الجهلاءِ في دمشق طمعاً بالنهب والسلب استفادوا من غفلة الحكومة ، فانقضوّا على حارة النصارى ، وفجرّوا الدماء الغزيرة ، وارتكبوا الموبقات الكبيرة ظلماً وعدواناً ، فكانت هذه الحادثة المشؤومة سبباً في احتلالِ جيش إفرنسي لبيروت ولبنان تحت قيادة الجنرال بوفور دوبو (Beaufort D'haipoul) فأرسلت الدولة فؤاد باشا المشهور إلى سورية ، فأخذ فؤاد باشا يضمِّدُ جروحَ المسيحيين ، ووزّع عليهم تعويضات بالملايين ، وبحسن سياسته سكّن الأمور ، وقتل عدداً من الجناة في حادثة دمشق يبلغ (١٣٠) ونفى كثيراً من العلماء والأعيان ، وفي مقدمتهم الشيخ عبد الله الحلبي مفتي الشام ، وقد كان نفيهم لأجلِ السياسة ، لأنّهم كانوا بالحقيقة أبرياءَ من كل ما وقع على المسيحيين .

وما رجع فؤاد باشا من سورية إلى الأستانة إلّا بعد أن استرجعت فرنسة عساكرها ، وكانت يومئذٍ إنكلترة والنمسة مساعدتين لتركية .

وفي (٢٥) يوليو ـ تموز سنة (١٨٦١) ـ (١٢٧٧) هجرية توفّي السلطان عبد المجيد ، **وكان سلطاناً كريمَ الأخلاق ، عادلًا حليماً متواضعاً ، وكانت الرعية العثمانية من جميع الطبقات تحبّه وتحترمه ، ولذلك أسف عليه الجميع .**

* * *

٣٢ ـ السلطان عبد العزيز

١٨٦١ ـ ١٨٧٦

[توفي السلطان عبد المجيد] وتولّى مكانه السلطانُ عبد العزيز، وفي زمانه لم تحصل حوادثُ تذكَرُ سوى ثورة كريت، التي قمعتها الدولةُ بالقوة، والسلطانُ عبد العزيز هو أولُ سلطانٍ زار أوربة[١] ، عندما دعاه نابليون الثالث سنة (١٢٨٤) ـ (١٨٦٧) إلى معرض باريز مع سائر الملوك ، وفي زمانه أيضاً جرى خَرْقُ بوغاز[٢] السويس ، بواسطة شركة إفرنسية يرأسها المسيو دوليسبس[٣] وذهب السلطانُ عبدُ العزيز بنفسه إلى مصر ، وكان السلطان عبد العزيز سليمَ الطوية ، جسوراً ، إلا أنه كان مسرفاً ، ترك على الدولة ديوناً كثيرة .

على أنّ مِنْ أهم مآثره اعتناؤه بالأسطول ، ففي زمانه كان للدولة قوة بحرية عظيمة ، وكانت هي الدولة الثالثة في البحر .

وقد كان في أيّامه من رجال الدولة مدحت باشا وكان مؤلعاً بالحرية ، فنما بواسطته حزبُ الأحرار ، وصاروا يتحدّثون بخلع السلطان لكثرة إسرافه ، واستمالوا إليهم السر عسكر حسين عوني باشا ، ودبَّروا للسلطان مكيدة ، فاتفقوا مع ناظر البحرية ، وأتوا بالأسطول فرسا أمامَ سراي طولمه بغجة ، بينما كانت العساكر تحيطُ بالسراي من جهة البر ، أدخلوا على السلطان مَنْ أبلغه أنّ الأمة خلعتْه . فأراد السلطان أن يستخفَّ بهذا الموضوع ، فأطلعوه على العساكر المحيطة بالقصر من جهتي البر والبحر ، وأنزلوه من السراي ، ووضعوه في قصرٍ آخر .

---

(١) من أغرب الغرائب أن السلاطين العثمانيين لم يحج منهم أحد ، وقد قيلت أعذار في تبرير ذلك لكنها كلها غير مقنعة .

(٢) قناة ومضيق .

(٣) كان دوليسبس من أعظم المحتالين في العالم ، وقد أوهم سعيد باشا أنه مهندس . انظر « قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة » (١ : ١١٧) للدكتور مصطفى الحفناوي .

٣٣ ـ السلطان مراد الخامس

١٨٧٦ ـ ١٨٧٦

وبايعوا السلطان مراد ، كبير أولاد السلطان عبد المجيد ، وما مضى عدةُ أيام على خلعِ السلطان عبدِ العزيز حتى وُجد في قصره قتيلاً ، فذهب النّاسُ إلى أنه قُتل بأيديَ هؤلاء الذين خلعوه ، وليسَ ذلك بصحيح ؛ بل كان الخلعُ فجأةً قد أثّرَ جداً في عقل السلطان ، فتناول مقراضاً ، وقطع به عروق زِنْدِه ، فسال دمه إلى أن مات .

وكان ضابط اسمه حسن الشركسي شقيقاً لإحدى نساء السلطان ، فجاء إلى الباب العالي ، ودخل على مجلس الوزراء ، فاغتال السر عسكر حسين عوني باشا ، وناظر البحرية أحمد باشا القيصرلي ، وراشد باشا ناظر الخارجية ، وكان مرادُه قتلَ مدحت باشا ، ولكن هذا فرّ ونجا بأعجوبة ، فجاء الجندُ ، ولم يتمكنوا من القبض على حسن الشركسي إلّا بقتله .

وأما السلطان مراد ، فما مضت عليه إلا ثلاثة أشهر في السلطنة حتى حصل له اختلاطٌ في عقله ، فاتفق رجالُ الدولة على إقصائه عن السلطنة .

* * *

٣٤ ـ السلطان عبد الحميد الثاني

١٨٧٦ ـ ١٩٠٩

ونُصِّبَ أخوه السلطان عبد الحميد مكانه ، وكان ذلك سنة (١٢٩٤) هجرية الموافق ١٨٧٦م ، وكانت في أواخر مدة السلطان عبد العزيز قد نجمت قرونُ الثورة في البلقان ، وكانت بدايتها في الهرسك ، وكان على رأسها قره جورجوفيتش من ذرية قره جورج ، الذي تقدّمَ الكلامُ عليه ، وهو جدّ ملك يوغوسلافية الحالي ، ثم امتدت الثورة إلى بلاد الصرب ، فأرسلت الدولة جيشاً للتنكيل بالعصاة ، فاتسعت الثورة ، وكان مراد الصربيين أن يستقلوا استقلالاً تاماً ، ولا يؤدوا جزية للسلطان .

فساقت الدولة جيشاً بقيادة عثمان باشا ، الذي صار فيما بعد يلقّب بالغازي ، فهزم الصربيين ، ودوّخت الدولةُ جميعَ ثوار البلقان من بلغار وصرب ، وهرسك ، وكانت روسية تظاهر الثائرين كما لا يخفى ، فلما سحقتهم العساكرُ العثمانية أعلنت روسية الحرب على الدولة العثمانية ، وهذه الحادثة تشبه كثيراً إعلان روسية الحرب على النمسة عندما ساقت النمسة جيشها على الصرب في أول الحرب العامة ، أي أنّ روسية كانت دائماً ترى نفسها مَرْجعاً للأمم السلافية ، ولا سيما الأمم السلافية الأرثوذكسية ، فأما السلافيون الكاثوليكيون فلم يكونوا يرجعون إليها .

فكانت بدايةُ سلطنة عبد الحميد الثاني هي الحرب مع روسية ، ونظراً لكون تاريخ هذه الحرب معلوماً ، وعليه تأليفٌ كبيرٌ بالإفرنسية (La Puerre Russo Turque) فإننا لانجدُ لزوماً للتطويل في شأنها ، ولا للإسهاب في تاريخ سلطنة عبد الحميد ، لأنّ حوادثَ أيامه معروفةٌ مشهورةٌ ، وقد كُتب عنها بكلّ اللغات .

فالحرب الروسية التركية جاءت وبالاً على الدولة ، إذ إنّ روسية في القرن الأخير قد نمت نمواً زائداً ، فصار عددُ سكانها يفوق عدد سكان السلطنة

العثمانية أربعَ مرات على الأقل[1] ، وكانت البلاد البلقانية من صرب ، وبلغار ، وفلاخيين ، وأروام ، يداً واحدة مع روسية ، ولم تكن هذه الأسباب وحدَها كافيةً للفشل الذي حلَّ بالجيش العثماني ، بل حصل خطأٌ كثير في التدبير العسكري ، وكانت لوازم الجيش ناقصة ، كما هو شأن الدولة في حروبها في العهد الأخير ، **وتدخّل السلطان كثيراً في أمور الحرب بدون معرفة** .

وخلاصةُ القول : إنّ الروس عبروا نهر الطونة ، وتقدموا ظافرين ، وصار الجيش العثماني بقيادة السردار عبد الكريم باشا يرجِعُ إلى الوراء ، وكادت الحرب تنتهي بفشل تامّ للعثمانيين ، وإذا بعثمان باشا قاهر الصرب جاء ، ودخل في قلعة بلافنة ، واعتصم بها ، فجمع الروس جيوشهم ، وصعدوا إليه ، فكسرهم كسرةً شنيعة ، فأعادوا الكّرةَ عليه أولًا وثانياً ، وفي كل مرة كان يهزمهم ، وفي إحدى المرار فقدوا خمسةَ عشر ألف عسكري ، ورجعت الحرب تُبَشِّرُ بحسن مآل العثمانيين ، ولكنّ عثمان باشا لم يبقَ عنده وهو محصور من كل الجهات ذخائر تساعده على الثبات ، وجاء قيصر روسية إسكندر الثاني بنفسه ، واستصرخ إمارة رومانية ـ أي الفلاخ ـ ومولدافية وذلك باسم النصرانية قائلاً : إنّها كلها تحت الخطر ، فأنجده الرومانيون بسبعين ألف عسكري ، انضافت هذه إلى الجيش الروسي المحاصِرِ لعثمان باشا في بلافنة ، ومع هذا فلولا نفاد الذخيرة لم تكن تلك الجيوش كلُّها لتتغلّب على عثمان باشا ، وفي آخر وقعةٍ أراد عثمان باشا أن يخرِقَ جيوشَ الروس برغم كثافتها ، وينفذ إلى الخارج ، فوقع جريحاً ، فاضطر إلى النكوص نحو بلافنة ، وعرض على إمبراطور روسية الاستسلام ، ولما دخل عليه ، وأراد أن يسلّمه سيفه كما هي عادةُ كلِّ المستسلمين ، قال له الإمبراطور : **إنّ قائداً مثلك يحقُّ له أن يُبقي سيفَه معه ، وبالغَ القيصرُ في إكرامه** .

وبعد تسليم بلافنة ، زحفت جيوش الروس إلى الأستانة ، واحتلت أدرنة ، ووصلت إلى سان إستفانو ؛ وكان العثمانيون قد أعدوا جيشاً للدفاع عن

(١) في الأصل (بالأقل) .

الأستانة ، إلا أنهم كانوا يخشون أن تدور عليهم الدائرة لكثرة جيوش الروس .

فأما من جهة القوقاز ، فكان القائد الكبير أحمد مختار باشا الغازي قد انتصر على الروس في وقعة كدكلر ، وتقدم إلى الأمام ، ولكنّ الروس عادوا فتغلّبوا عليه لتفوقهم في العدد ، وكان درويش باشا قائد الجيش العثماني المرابط في باطوم تحت الحصار ، فهاجمه الروسُ مراراً ، فدحر جميعَ مهاجماتهم ، وانتهت الحرب وباطوم في يده .

هذا وعند ما وصل الغراندوق نقولا إلى سان إستفانو ، طلب السلطانُ عبد الحميد الصلح ، فاشترطت روسية شروطاً ثقيلة جداً ، التزمت الدولة العثمانية أن تقبلها خوفاً على الأستانة من السقوط .

إلّا أنّ الإنكليز وجدوا الصلح على هذه الشروط عبارة عن استيلاء روسية القريب على سلطنة آل عثمان ، ووصولهم إلى البحر المتوسط ، فاعترضوا روسية ، ودخل أسطولهم إلى الأستانة ، وأجبروا الروس على تمزيق المعاهدة، وفاوضوا الدولَ السبع في عقدِ معاهدةٍ ثانية بدلًا عن معاهدة سان إستفانو[1] ، فتقّررَ عقدُ مؤتمر برلين المشهور[2] ، واتفقت الدول هناك على أنْ تكونَ إمارة رومانية مملكة مستقلة تماماً عن السلطنة العثمانية ، وأن تستقلَّ تماماً أيضاً إمارة الصرب، ويسمّى أميرها ميلان أونوفتش ملكاً عليها، وأن يستقلَّ الجبل الأسود، ويُعطَى قسماً من بلاد الأرناؤوط ، وأن تضافَ تسالية وأبيروس إلى اليونان ، وأن تكونَ بلاد البلغار إمارة تحت سيادة السلطان ، ويليها ولاية ممتازة .

ومن جهة آسية تضافُ قارص وأردهان وباطوم وتوابعها إلى روسية ؛ وأن تدفعَ الدولةُ العثمانية غرامةً حربية وتعويضاتٍ لتجّار الروس ، الذين لحقتهم خسائر بسبب تدمير الأسطول العثماني لسواحل روسية ، هذا هو مجمل معاهدة برلين .

وبعد ذلك اتفقت الدولة مع إنكلترة على أن تتخلّى لها عن قبرص ، وتؤدي إنكلترة للدولة خراجاً سنوياً عن هذه الجزيرة ، وبمقابلةِ هذا التخلّي ، تعهدت

---

(١) انظر نص المعاهدة في « تاريخ الدولة العلية » لمحمد فريد بك (٦٥٢) .
(٢) انظر نص المعاهدة في « تاريخ الدولة العلية » لمحمد فريد بك (٦٧٨) .

إنكلترة للدولة بأنه إن تجاوزت روسية على حدود تركية من جهة آسية ، تكون إنكلترة مساعدةً لها ، ثم تقرّرَ بموجب معاهدة برلين هذه أن تحتلّ النمسة ولايتي البوسنة والهرسك احتلالاً مؤقتاً ، ولما دخلت الجيوش النمساوية هاتين الولايتين ثار في وجهها مسلمو تلك البلاد ، وبقيت المعارك بين الفريقين مدة أربعة أشهر ، ولم يساعدهم الأهالي الصربيون في شيء ، بل انحصرت المقاومة في المسلمين ، وكذلك ثار الأرناؤوط في وجه الجبل الأسود ، وأبوا أن يلتحق من بلادهم شيءٌ بحكومة الجبل المذكور .

وكان الشركس والداغستانيون ثاروا على الروس في أثناء الحرب بين الدولة وروسية ، فلما انكسرت الدولة ، هاجر منهم مئات ألوف إلى الأناضول .

وبعد مضيٍّ عدة سنوات على معاهدة برلين شنَّ إسكندر أمير البلغار الغارة على ولاية الروملي الشرقية ، وألحقها بإمارة البلغار ، فصارت الولايتان واحدة ، وفكّر السلطان عبد الحميد في سَوْقِ جيشٍ لإرجاع الوضع إلى ما كان عليه ، إلا أنّ كامل باشا أشار بعدمِ الحرب وبإقرار هذه المسألة ، فأعجب رأيُه السلطانَ ، وجعله صدراً أعظم .

ولما رأت فرنسة ما حلّ بالدولة العثمانية من الضعف ، أرادت أن تستغلَّ ضعفها بالاستيلاء على تونس ، فلم يصعُبْ عليها أن توجِدَ لذلك سبباً ، وشنّت الغارةَ على تونس ، وأجبرت باي تونس محمد الصادق على إمضاء معاهدة تَضْمَنُ لتونس استقلالها الداخلي تحت حماية فرنسة ، وكان ذلك سنة (١٢٩٧) ـ (١٨٧٩) واحتجت الدولة على ذلك ، ولكّنها لم تقدر على محاربة فرنسة من أجلِ تونس ، وزعمت فرنسة بأنّه جاء وقتٌ على تونس لم يكن فيه للباب العالي عليها إلا سيادة اسمية ، وثار بعضُ الأهالي والجند التونسي بقيادة علي بن خليفة ، ولكنْ لعدمِ تكافؤ القوتين انتهت الثورة بتغلّب الفرنسيس ، كما حصل في الجزائر مِنْ قبلُ ، ولو لم تحتل فرنسة بلدة الجزائر ، لم تكن لتستوليَ على المغرب الأوسط كلّه العمالات الثلاث : الجزائر ، ووهران ، وقسنطينة .

ثم إنه بقيت فرنسة خمسين سنة تقاتِلُ أهلَ الجزائر حتى أدخلتهم في الطاعة ، فلما انتهت منهم ، بدأت تفكر في الاستيلاء على تونس ، ولما انتهت من خطب تونس ، بدأت تفكر في الاستيلاء على المغرب الأقصى .

ولما رأت إيطالية أنّ فرنسة استأثرت بهذه الممالك الثلاث من دونها اعترضت على فرنسة من جهة ، واعترضت على إنكلترة من جهة أخرى ، وقالت لهما : إنكما تقاسمتما قارة أفريقية ، فمصر والسودان لإنكلترة ، وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وأواسط أفريقية لفرنسة ، ولم تدعا الإيطالية شيئاً ! .

فاتفقت هذه الدول الثلاث على أن تكون لإيطالية ولاية طرابلس مع برقة ، ومن هنا جاءت حربُ طرابلس ، **وهكذا الاستعمار سلسلة آخِذٌ بعضُها برقابِ بعض ، وَمَنْ تساهلَ في أمر ملكه في البداية خوفاً من شرٍّ أعظم ، فإنّه لا يلبثُ أن يقعَ في شرٍّ أعظم من الذي تفاداه** . وكذلك احتلال الإنكليز لمصر ، كان نتيجةَ وقوعِ تركية في الضعف الذي كانت روسية هي السبب فيه .

وإذا نظرنا إلى حروب روسية نجد أنّها كانت تقدِّم رجالها وأموالها ، وتنفق النفائس والأنفس في سبيل غيرِها ، فاستقلال اليونان ، والجبل الأسود ، والصرب ، والبلغار ، والرومانيين ، واحتلال النمسة للبوسنة والهرسك ، واستيلاء فرنسة على تونس ، واحتلال الإنكليز لوادي النيل والسودان ، وإحتلال إيطالية لأريترية ، ثم لطرابلس ، وبسط إنكلترة حمايتها على لحج وحضرموت ، وظفار ، وسلطنة عمان ، وجزيرة البحرين ، ومدينة الكويت ، ونزولها في جزيرة قبرص ـ كلُّ ذلك كان من نتائج الضعف الذي أوقعته روسية بتركية ، روسية كانت تطبخ ، والآخرون كانوا يأكلون .

الاحتلال الإنكليزي لمصر

وفي زمن السلطان عبد الحميد وقعت الحادثةُ الجلَّى ، وهي احتلال الإنكليز لمصر ، وبسببها نفر السلطان من إنكلترة نفوراً شديداً ، **وصار الإنكليز يعملون بكل الوسائل لهدم بنيان السلطنة العثمانية** .

وقد تقدم لنا في هذا التاريخ أنّ عيونَ الإنكليز كانتْ طامحةً إلى مصر منذ قرون ، وأنّها على أثر خروج الفرنسيس من مصر أرادوا أن يستأثروا هم بها ،

ولكن محمد علي لم يكن كالمماليك ، فأجبرَ الإنكليز على الخروج من مصر ، وبقيت إنكلترة تترصَّدُ الفرصة لإحتلال وادي النيل في أول فرصة ، لا سيما بعد فتح برزخ السويس ، الذي جعل طريق الهند على مصر .

وكأن إنكلترة استأجرت قبرص من الدول العثمانية لتكونَ لها قاعدةً بحرية في وجه مصر .

وقد حدث أنّ الجيش المصري كان فيه عنصران ؛ أحدهما عربي مصري والآخر تركي وشركسي ، فحصل خلافٌ بين العنصرين ، لم يعرف العقلاء أن يتداركوه ، ولا حسبوا حساباً للعواقب ، فنشأ عن هذا الخلاف حزبٌ وطني مصريٌ ترأَسه الميرالاي أحمد عرابي[1] وصار هذا الحزب يطالِبُ بحقوق المصريين الأقحاح ، ووقف موقفاً مناوئاً للخديوي توفيق باشا ، فشعر الإنكليز بأنّ هناك حركة يمكنهم أن يستفيدوا منها ، فأخذوا يتدخّلون فيها بحجة أنّ لهم مصالح مالية في مصر ، يخشون عليها ، وكانت أمنيتهم إنما هي إحداثُ ثورةٍ في مصر ، يتمكنون بسببها من الاحتلال ، وتحقيقِ تلك الأمنية القديمة ، وهي الاستيلاء على الديار المصرية ، فأعملوا في هذا الموضوع جميعَ الدسائس التي اشتهروا بها ، ولم تكن شهرتُهم فيها بدون أساس . فأخذ الحزب الوطني ينمو تحت زعامة عرابي ومحمود سامي البارودي وغيرهما من الزعماء ، وانقلب عَنْ أصله ، فبدلاً من أن يكون منحصراً في دائرة ضيقة ، مناوئاً للأتراك والشركس ، أصبح حزباً هدفُه الأسمى كسرُ نفوذ الأوربيين في مصر ، لأنّ نفوذهم كان بلغ في زمن إسماعيل باشا مبلغاً لا يكادُ يتصوره العقل ؛ فإنّ إسماعيل وضع نُصْبَ عينيه إدخالَ مصرَ في المدنية العصرية الأوربية ، **وظنّ أنّ مِنْ لوازم هذا المبدأ ترغيبَ الأوربيين في السكنى بمصر ، وتمييزهم على الأهالي في كلِّ شَيءٍ ، فانتهى الأمرُ بأن أصبحَ الأهالي في حكم العبيد للأجانب .**

فلما تألّف هذا الحزب الوطني نظر إلى حالة البلاد ، فوجدها أصبحت

(١) انظر « أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه » للأستاذ محمود الخفيف ، و « مذكرات عرابي » نشر دار الهلال بمصر .

لا تطاق من جهة النفوذ الأوربي ، فترك مناوأة الترك والشركس ، واتحد معهم على مناوأة الإفرنج ، وأخذ الإنكليز يشعلون النار ، حتى يحدثوا ثورة من المصريين على الأوربيين .

وكان السلطان عبد الحميد قد ارتكب هو وأعوانهُ خطأً كبيراً ساعد الإنكليز في الوصول إلى مرامهم ، وذلك أنه أخذ يقوّي الحركة العرابية بطريق غير مباشرة على أملِ إسقاط الخديوي توفيق وعائلة محمد علي كلِّها ، وإعادةِ مصر ولايةً عثمانية كسائر الولايات ، وكان هذا رأياً سقيماً جداً ، إذ لا يعُقَلُ أن الدولة بمكانها من الضعف وكثرة المشكلات والخطوب تفتح على نفسها أبواباً كهذه ، يتعذَّرُ عليها سدها فيما بعد ، وتجعل العائلة الخديوية ضد الدولة أحوج ما كان الفريقان إلى الوئام ، لما هناك من الخطر الأجنبي على الاثنين .

ثم إنه لما شعر الأجانب بأن الحركة العرابية منظورٌ إليها بعين الرضا في الأستانة ، طلبوا من السلطان أن يصدِرَ فرماناً بعصيان عرابي باشا ، ولم يسعه إلّا إجابة طلبهم ، فبعدَ أن كانت سياسة الأستانة مشجعةً للعرابيين على العصيان ، رجعت تحت الضغط الأجنبي إلى تقوية الخديوي ، وكسر نفوذِ العرابيين ، بحيث انفضّ عنهم كثيرون ، بحجة أنّ السلطان الخليفة أعلن عصيانه .

ومع هذا بقيت الثورة تمتدّ وتشتدّ ، حتى جرت مذبحة الإسكندرية ، وذهب فيها كثيرٌ من الأجانب ، وانتشرت الفوضى في البلاد ، وهذا الذي كانت إنكلترة تتمناه ، حتى تدخل من هذا الباب ، وهو حماية أرواح الأجانب ، وبالفعل دخلت منه ، وجاء الأسطول الإنكليزي ، فضرب الإسكندرية ، ودمَّر قلاعها بالقنابل ، ثم بعد تدميرها نزلت العساكر الإنكليزية إلى البلدة ، ثم وقعت الحرب بين الإنكليز والعرابيين ، وكان الإنكليز في ظاهر الحال يحاربون باسم الخديوي والسلطة الشرعية .

وانقسم الناس في مصر إلى قسمين ؛ منهم من استمسك بالخديوي وقاومَ العرابيين ، بحجة أنهم خارجون عن السلطة الشرعية ، ومنهم من انحاز إلى العرابيين ، بحجة أنهم المدافعون عن الوطن ، وحشد العرابيون جيشاً في التلّ الكبير ، وصمّموا على المقاومة هناك ، فزحف إليهم الإنكليز ، وبددوا شملهم

في أقل من ساعتين ، ثم سارت العساكر الإنكليزية ودخلت القاهرة ، وكلُّ هذا بزعمهم على نية تأييد الخديوي ، والرجوع من حيث أتوا ، ولبث الجيش الإنكليزي مدةً من الزمن في مصر ، بحجة توطيد سلطة الخديوي المتزعزعة ، فكلّما طالبت الدولة الإنكليز بالجلاء عن مصر ، كان جوابُهم : إنّ هذا يكون بعد توطيدِ الأمن ، وتمكينِ الخديوي وكيلِ السلطان الشرعي .

ثم أنهم عقدوا مجالسَ عسكرية ، وحاكموا العرابيين ، ونفوا عرابي باشا ومحمود سامي باشا وعدداً من الباشوات إلى جزيرة سيلان في الهند ، كما أنّهم نفوا عدداً من الضباط الكبارِ إلى بيروت ، ونفوا أيضاً معهم إليها الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقاني وغيرهما من الوطنيين أصحاب الأقلام .

وطال مكث الإنكليز في مصر ، والبابُ العالي يعترِضُ عليهم ، ويطلب جلاءَهم بحسب وعدهم ، **حتى إنهم أحصوا مواعيدهم الرسمية بالجلاء فبلغت اثنين وستين وعداً ، نكثوا بها كلها !** وكان احتلال الإنكليز لوادي النيل سنة (١٣٠٠) ـ (١٨٨٢) وبعد أخذٍ وردٍّ طويلين بين إنكلترة والباب العالي وصل الفريقان إلى اتفاق على الجلاء اشترطت فيه إنكلترة حقّ احتلالها لمصر ، فيما إذا تجددت فيها حوادث مخلَّة بالأمن ، أو وقائع ذات خطر على حياة الأوربيين ، وكاد السلطان عبد الحميد يوقع على هذا الاتفاق ، إلَّا أنّ فرنسة ألحت عليه برفضه ، فامتنع في آخر ساعة من التوقيع عليه .

وكان مراد فرنسة الحقيقي أن تتفق هي رأساً مع إنكلترة ، فتترك منازعتها على مصر مقابل تخلّي إنكلترة عن منازعتها إياها على مراكش ، وهذا ما تمَّ بينهما فيما بعدُ ، وأصبحت إنكلترة في مصر لا ينازِعُها سوى الدولة العثمانية ، التي كانت مشكلاتها الكثيرة ؛ وعداوتها مع روسية ؛ تقيِّدُها تقييداً شديداً عن الاندفاع في عداوة إنكلترة .

وأما فرنسة فبطل اعتراضها على إنكلترة في إحتلال مصرَ مقابل سكوت إنكلترة عن احتلال فرنسة للمغرب .

وبقيت الحال على غير استواء بين إنكلترة والدولة العثمانية مدةَ سلطنة عبد الحميد كلِّها ، وذلك كلُّه بسبب مصر ، وكان السلطان قد أرسل إلى مصر الغازي

مختار باشا مندوباً من قبله لملاحظة مصالح الدولة ، وكان المصريون يجلّون مختار باشا مزيدَ الإجلال ، باعتبار تمثيله للسلطان الخليفة ، وأيضاً بسبب كونه في نفسه قائداً عظيماً ، وعالماً كبيراً ، ولكنّ الإنكليز لم يجعلوا له سبيلاً لأيّ تدخُلٍ في أمورِ مصر ، ووضعوا هناك مسيطراً على مصر السير إفلين بارنغ الذي لقّبوه فيما بعد باللورد كرومر ، وكان هذا الرجل شديدَ الغطرسة ، متكبرّاً فظاً ، وله عداوة خاصّة للإسلام ، فتصرّف بأمورِ مصرَ كما لو كانت إحدى مستعمرات إنكلترة ، وفي زمانه ثار السودانيون تحت قيادة محمد أحمد ، الذي لقّب نفسه بالمهدي فقالوا له : المتمهدي ، وانقضُّوا على العسكر المصري الإنكليزي الذي كان يقوده غوردون باشا فاستأصلوه ، وكان عدده عشرة آلاف جندي ، واستولى المهدي على السودان ، وانقطع الحكم الإنكليزي المصري من هناك ، ومات المهدي ، فخلفه التعايشي وكان هذا ظالماً عاتياً جبَّاراً ، فأسرف في سفك الدماء ، وأفنى كثيراً من الخلق ، فتغيّرتْ عليه قلوبُ الأهالي ، وصاروا يريدون التخلص منه .

وفي ذلك الوقت قرر الإنكليز استرجاع السودان ، فجهزوا جيشاً مصرياً عهدوا بقيادته إلى ضباط منهم ، وأنفقوا على الحملة من خزانة مصر ، وفتحوا السودان ، ولكن بدلاً من أن يردوه إلى مصر كما كان ، جعلوا الحكم مشتركاً بينهم وبين المصريين ـ بزعمهم ـ والحقيقة أنّهم جعلوا شركة مصر بالاسم فقط ، وبرفع العلم المصري ، وقضوا على كل شيء ، وتصرّفوا بكل شيء كما يشاؤون ، وهم الذين أذنوا لإيطالية في احتلال مصوّع ، وعصب ، والاستيلاء على بلاد عثمانية واسعة ، كانت تحت إدارة الحكومة المصرية .

ولما احتلّ الإنكليز مصر كانت الحكومة المصرية تُدِيْرُ من قبل الدولة شماليَّ بلادِ الحجاز ، ففي الحال فَطِنَ والي الحجاز لمغبّة هذا الأمر ، وأخرجَ قضاءَ الوجه من تحت الإدارة المصرية .

ولكن بقي في يد مصر القسم الأكبر من شبه جزيرة سيناء ، فأراد العثمانيون إجراء تحصينات في القلاع التي إلى الغرب من العقبة ، فاعترضت إنكلترة على الدولة في ذلك ، فأصرّ السلطان على التصرف ببلاده بحجة أنّها بأجمعها بلادٌ

عثمانية ، فاستبدّ الإنكليز في هذه المسألة استبداداً شنيعاً ، وأنذروا الدولة بالحرب ، وكأنّ مصر أصبحت في نظرهم من جملة أملاك الإمبراطورية البريطانية ، فازداد السلطان عبد الحميد شنآناً لبريطانية العظمى ، وكان ذلك من جملة أسبابِ موالاته لألمانية . وانعقدت بينه وبين الإمبراطور غليوم الثاني مودةً أكيدة ، صارت تزدادُ بمرور الأيام ؛ وعوّل السلطان على ألمانية في تدريب جيشه ، واستدعى فون غولتس من قواد ألمانية ليكون على رأس المدرسة العسكرية في الأستانة ، واستجاد[1] غيره من أهل العلم والصنعة في ألمانية ، واستخدمهم في حكومته . وكان يرسِلُ كلَّ سنة عدداً كبيراً من الطلبة إلى ألمانية ، وبقي السلطان عبد الحميد صديقاً للإمبراطور غليوم إلى نهاية ملكه .

ولما أُعلن الدستور العثماني[2] ، وصار الأمرُ إلى جمعية الاتحاد والترقي ، رأى رجال هذه الجمعية أن يتركوا صداقة ألمانية التي كانت تعتمد على السلطان عبد الحميد ، وتنال بواسطته الامتيازات في تركية ، ومن جملتها سكة حديد بغداد ، ورأوا أن يرجعوا إلى صداقة إنكلترة ، وأخذوا يتزلّفون إلى هذه ، ويذكّرونها بالصحبة القديمة يوم كانت إنكلترة تساعد العثمانيين على الروس ، ويوم كان السلطان عبد المجيد في ثورة الهند الكبرى يخاطِبُ مسلمي الهند ناصحاً لهم بعدم الاشتراك مع الهنادك في محاربة الإنكليز ، إلّا أنّ المسألة المصرية منعت كلَّ تقارب بين العثمانيين والإنكليز ، وما مضت ثلاثة أشهر على حكم الاتحاديين في تركية حتى رجع الإتحاديون ، وأدركوا أنْ لا أملَ في عطف الإنكليز ، وعادوا أصدقاء لألمانية ، كما كان السلطان عبد الحميد ، وبقيت الأحوال بين تركية وإنكلترة مُشْرَبةً بروح العداوة إلى الحرب العامة ، أي كانت قد بدأت العداوة بين إنكلترة وتركية من سنة (١٣٠٠ـ١٨٨٢) لأجل مصر واستمرت إلى (١٣٣٢ـ١٩١٤) أي إلى سنة الحرب العامة ، وهي مدة اثنتين وثلاثين سنة ، وذلك كلُّه بسبب احتلال الإنكليز لمصر والسودان وتوابعهما .

ثم خاضت الدولة غمرات الحرب العامة إلى جانب ألمانية ، [فازدادت]

---

(١) اختار الجيد .

(٢) انظر نصه في الملاحق .

نفوراً من إنكلترة ، ولما بدأت الحرب الكبرى ، وحاولت دول الحلفاء : روسية وفرنسة وإنكلترة إقناع الدولة العثمانية باجتنابِ الحرب ؛ كان أول شرطٍ اقترحه رجالُ الدولة هو إخلاءُ الإنكليز لمصر ، وكان الأتراك مستعدين أن يقبلوا التحالف مع الإنكليز إذا أراد هؤلاء إخلاءَ مصر ، فلم يقبل الإنكليز أن يسمعوا كلمةً واحدة في هذا الموضوع .

وعندما دخلت الدولة في الحرب العامة أعلنت إنكلترة الحماية على مصر ، وخلعت الخديوي عباس حلمي المنصّب بفرمان سلطاني ، ونصّبتْ عمَّهُ الأمير حسين كامل بن إسماعيل سلطاناً على مصر ، وأرادت تجنيد جيشٍ من المصريين لقتال الأتراك ، فاعترض على ذلك السلطان حسين كامل نفسُه ، لأنه كان وطنياً صادقاً .

ورضي بعضُ زعماء مصر بالدخول في الحرب إلى جانب إنكلترة شريطة أن تعترف إنكلترة باستقلال مصر ، وتخلي وادي النيل ، فرفضت إنكلترة هذا الطلب أيضاً ، وأصرَّت على إرادتها ، وساقت من المصريين عشرات الألوف استخدمتهم في جيوشها ، وتصرّفت برجالِ مصر وأحوالِ مصر كما تتصرّفُ بالهند أو بغيرِها من المستعمرات الإنكليزية .

وكانت إنكلترة لا تفكر أصلاً أن تلقى شيئاً من القوة الحيوية التي ظهرت من السلطنة العثمانية في أيام الحرب الكبرى ، ولكن عندما حَمِيَ الوطيس ، ورأت دول الحلفاء ما رأتُه من قوة تركية ، وعظمة المقام الذي قامته بجانب ألمانية ؛ علمت خطلَ رأيها ، وكونها استخفت بتركية استخفافاً دلّتْ الحوادثُ على أنه لم يكن في محله ، ففكر قواد الإنكليز في اختراق الدردنيل ، والاستيلاء على الأستانة ، وعبَّأ الحلفاءُ جيشاً جراراً، وأرسلوا أساطيلهم ، وحاولوا عبورَ مضيق الدردنيل ، فقاتلهم العثمانيون قتالاً شديداً ، وأغرقوا جانباً من بوارجهم ، فأتوا بجيوشٍ أخرى ، وأنزلوها في البر ، وحاولوا التقدم إلى الأمام ، فصادمهم الترك بشدة استبسلوا فيها إلى أقصى ما يتصوره العقل . واستمرت حرب الدردنيل هذه

ثمانية أشهر[١] ، والحلفاء يكرون ، والعثمانيون يصدونهم ، إلى أن قطع الحلفاء كلَّ أمل من الفوز ، وركبوا بوارجهم خائبين ، وقد فقدوا بين قتيل وجريح ثلاثمئة وخمسة وعشرين ألف جندي ، حسبما قرأتُ في وثائق الحرب الكبرى المطبوعة في باريز ، وفيها أنّ هذا العدد هو خسائر الجنود البرية ، ولم يدخل فيه عدة آلاف من خسائر الأساطيل ، وقد جاء في هذا الكتاب أنّ بعضَ البوارج التي أغرقها العثمانيون بمدافعهم لم ينجُ من بحريتها إلَّا عشرون جندياً لا غير .

وقد كانت حرب الدردنيل هذه ألمعَ صفحةٍ من تاريخ العثمانيين في الحرب الكبرى ، كما كانت حربُ بلافنة ألمع صفحة من تاريخ الحرب الروسية التركية . وتعدل[٢] خسائِرُ العثمانيين في حرب الدردنيل بمئتي ألف مقاتل بين قتيل وجريح .

ولما رأت إنكلترة بعينها أنّ حسبانها من جهة تركية وقوة مقاومتها كان أكثره خطأ ؛ عادت ففكرت في فصل العرب عن الترك ، حتى تشغلَ العثمانيين بعضَهم ببعض .

وقد كان الشريف حسين بن علي ـ أميرُ مكة قبيل الحرب الكبرى ـ داخَلَ الإنكليز في عقدِ محالفةٍ معهم ، على أن يثورَ على الدولة ، وتمده إنكلترة بالمال والسلاح إلى أن تستقلَ البلاد العربية ، وتنفصلَ عن تركية ، فرفضت إنكلترة اقتراحَ أمير مكة هذا استخفافاً بالقوة العربية ، واعتماداً على أنّها لا تحتاجُ إلى العرب في القضاء على تركية إذا نشبت الحرب ، وكان معلوماً أنّ الحرب العامة ستقعُ لا محالة ، **ولذلك اتفق الإنكليز والفرنسيس على اقتسام سورية وفلسطين منذ سنة (١٣٣٠ـ١٩١٢) أي قبل الحرب العامة بسنتين ، وهذا من أوضح الدلائل على كونِ دول الحلفاء كانت تتأهّب لقتال ألمانية ولاقتسام تركية بعد تغلبهم على ألمانية ، وأيضاً يستدل على تلك النية التي كانت عندهن بأنّ تركية في أول**

---

(١) وتسمّى حرب چنة قلعة ، ويسميها الغربيون معركة كاليبولي .

(٢) أي تقدّر .

الحرب العامة ، عندما صار الحلفاء يراودونها على عدم الدخول في الحرب ، أجابتهم بأنّها لا تقدِرُ أن تبقى على الحياد التام ، خوفاً من أن يتفقَ الجميعُ عليها ، ويتصالحوا على ظهرها ، فهي إنْ لم تدخل في الحرب إلى جانب ألمانية ، فلا بدّ لها من الدخول في الحرب إلى جانب الحلفاء ، تحت محالفةٍ تُعْقَدُ بينهم وبين تركية ، فرفضت إنكلترة هذا الاقتراح ، ولم تجدْ من حاجةٍ إلى عقد محالفة مع تركية قد تمنعها فيما بعد من الاستيلاء على البلاد العربية ، وهذا مثل رفضها للتحالف مع مصر ، وللسبب نفسه ، وكذلك مثل رفضها للتحالف مع إيران ، وللسبب نفسه ، أي حتى لا تضطر إلى الاعتراف باستقلال هذه الممالك الإسلامية ، التي كان الإنكليز وضعوا نُصْبَ أعينهم القضاء عليها .

فتنة الأرمن

ونعود إلى أخبار السلطان عبد الحميد ، فنقول : إنّ من أهم الحوادث التي جرت في أيام هذا السلطان هو : فتنة الأرمن .

وهذه الفتنة أساسُها أنّ الأرمن كانت لهم في الأعْصُرِ القديمة دولةٌ ، وكان لهم استقلال ، وكانت مملكتهم واقعة في شرقيِّ الأناضول ، بين المملكة البيزنطية والمملكة الفارسيّة ، ولما استولى الأتراك على تلك البلاد في أيام الأتراك السلاجقة ، وبعد واقعة ملازكرد ، التي وقع فيها قيصر القسطنطينية أسيراً ، رحل منهم جانبٌ إلى غربيّ الأناضول ، وأقاموا في جبال طوروس ، وفي سهول كيليكية ، وكانت لهم هناك إمارات لعبت أدواراً في الحروب الصليبية ، وسواء كانوا في شرقي الأناضول أو في غربيّه ، لم تكن لهم أكثريةُ عددٍ بالنسبة إلى السكان المسلمين ، وإذا وجدتْ منهم جماعةٌ في مقاطعةٍ صغيرةٍ كانت أكثر من غيرها ، فلم يكن ذلك ليقيمَ لهم مُلْكاً مستقلاً .

وقد كانت الدولة العثمانية أحصت عددهم في جميع بلادها فكانوا لا يزيدون على ثلاثة ملايين مبعثرة ما بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين مليوناً من الأمم الأخرى ، ففي بعض الولايات كانوا خمسة في المئة ، وفي بعضها عشرة في المئة .

وأكثر الولايات سكاناً من الأرمن كانت ولايات مُوش وبِتْلِيس في شرقيِّ الأناضول ، وكانوا هناك خمسة وثلاثين في المئة ، وبرغم هذا كلّه كانوا يزعمون أن لهم حقاً في الاستقلال كما استقل اليونان ، والبلغار ، والصربيون ، والفلاخيون ، وغيرهم من الأمم المسيحية ، التي كانت خاضعةً لسلطنة آل عثمان ، ولكنّ هذا قياسٌ مع الفارق ، فإنّ الفلاخيين ، والبغدانيين ، كانوا عِدّةَ ملايين من أمة واحدة ، وعلى حدود روسية ، ولم يكن بينهم إلا مئتان أو ثلاثمئة ألف من الترك ، وإن الصربيين كانوا مليوني نسمة ، وليس بينهم سوى بضعة عشر ألف مسلم ، وكذلك البلغار ، كانوا خمسة ملايين ، وليس بينهم سوى مليون من الأتراك ، وكان اليونان من قَبْلُ أكثرَ من مليون في بلادهم ، وليس بينهم إلا مئتان أو ثلاثمئة ألف من المسلمين . فلذلك تيسر لهذه الأمم أن تقومَ وتدّعيَ الاستقلال ، وتقاتِلَ الدولةَ العثمانية قتالاً لم يكن يخمد حتى يشتعل ، واستمرّ ذلك مئات من السنين ، فانتهى الأمرُ بانسلاخِ هذه الأقوام عن السلطنة العثمانية بمساعدة أوربة .

فأمّا الأرمن ، فلم يكونوا في أوربة مثل اليونان ، ولا البلغار ، ولا الصرب ، ولا الرومانيين ، ولم يكونوا مجتمعين في ولايةٍ واحدةٍ ، حتى تتألّف منهم كتلة تستحق الاستقلال ، وإنما كانوا مشتتين في جميع ولايات السلطنة ، وكانوا في كلِّ مكانٍ هم الأقلية ، ولم يكن سائر السكان من أتراك وأكراد يقبلونَ الخضوعَ للأرمن .

فلهذا كان ادّعاؤهم الاستقلالَ غيرَ واردٍ ولا من جهة ، وكان بينه وبين إمكانه فعلاً بونٌ شاسعٌ ، وهذا ما كان **يدركه قدماء الأرمن ، فلذلك كانوا قد وطنوا أنفسهم على الارتباط بالدولة العثمانية ، التي كانت تعتمد عليهم ، وتستخدم كثيراً منهم حتى في المناصب العالية ، وفي ظلها نما عددهم ، وازدادت ثروتهم ، ولما كانوا هم أهل جد ونشاط ، وإقدام على الأعمال ؛ كان كثير من مرافق السلطنة في أيديهم ، وأينما توجه الإنسان في البلاد العثمانية ، كان يجدُ على الأرمن آثارَ النعم . وكانت الدولة تَثِقُ بهم ، وكان الأتراك يخلطونهم بأنفسهم ، ويسمون الأرمن الملّة الصادقة .**

واستمرت الحال على هذا المنوال إلى أن بدأ الضعفُ في السلطنة العثمانية ، فصار الأرمن يرفعون رؤوسهم ، وينتهزون الفرص من خطوب الدولة ، ليطالبوا بتجديد ملكهم القديم ، وإن كانتْ قد درست معالِمُ ذلك الملك ، وكانوا هم تفرّقوا شذر مذر ، وزاد هذا الادّعاء عندَهم أنهم أخذوا يرسلون أولادهم لتحصيل العلم في أوربة وأمريكة ، فجميعُ هؤلاء الشبان الذين كانوا يتعلّمون في الديار الأوربية والأمريكية كانوا يعودون متشبعين بأفكار الانفصال عن الدولة العثمانية ، وكان الأوربيون بواسطة إرسالياتهم[١] الدينية [التبشيرية] الكثيرة يذهبون إلى الديار التي فيها أرمن من تركية ، ويفتحون المدارس والملاجىء ، وكان جميعُ مَنْ يتعلّم في هذه المدارس الأوربية يخرجُ كارهاً للدولة ، عدواً للمسلمين ، وذلك بسبب المبادىء التي كان الأوربيون ـ ولا سيما الأقسَّة والمبشرون ـ يرضعونهم إياها منذ الصغر . فأهمّ عوامل الشقاق الذي وقع بين الأرمن وبين سائر الرعية العثمانية كان هو التعليم في مدارس الأوربيين[٢] ، فأصبح غيرُ ممكن تَسَاكُن الجنسين بعضهم مع بعض ، وظهرت عند الأرمن نزعات شيطانية ، ونزعات عدوانية ، تخالِفُ ما كان عند آبائهم بتمامه ، فلم يلبث أن وقع الاصطدام بينهم وبين المسلمين ، ودارت الدائرة على الدولة في الحرب التركية الروسية .

طلب الأرمن من الدول الأوربية استقلالاً داخلياً للبلاد التي في شرقيِّ الأناضول ، على أملِ أن يجدِّدوا هناك المملكة الأرمنية القديمة ، وبديهيّ أنّ الدول في مؤتمر برلين أمكنها أن تفصِلَ الولايات الأوربية التي كانت للدولة بسبب كثرة المسيحيين فيها ، وقلة المسلمين الذين يساكنونهم ، ولكنها لم تقدر أن تفصلَ الأرمن عن حكم الدولة العثمانية ، نظراً لقلة عددهم بالنسبة إلى مَنْ يساكنهم من المسلمين ، فقررت اقتراح بعض إصلاحات إدارية في البلاد التي فيها أرمن ، ولما كانت هذه الإصلاحات ليست هي مرمى الأرمن الحقيقي ، سواء أنفذها الأتراك أو لم ينفذوها ؛ لم تكن هذه المسألةُ لتشفي للأرمن غليلاً .

---

(١) في الأصل (رسالاتهم) .
(٢) التبشيرية .

فمن ذلك الوقت شرعوا يعدّون معدات الثورة ، ويتحفّزون للقيام على الدولة ، حتى ينالوا ما يريدونه بالثورة ، فأخذوا بتشكيل جمعياتٍ سريّة ، جعلوا مركزها في أوربة ، وهي ذات شُعَبٍ وفروع في جميع البلاد التي فيها أرمن ، فكان المركز الأرمني ـ بالوسائل الكثيرة التي له ـ يجمَعُ الأموالَ من الأوربيين ، ومن الأرمن الموسرين ، ويقرر الأعمال ، ويرسم الخطط والحركات ، ويشتري الأسلحة ، ويعين متطوعين فدائيين ، يفادون بأنفسهم في سبيل مصلحة أمتهم .

وهكذا جعلوا حركةَ الانتقاضِ على الدولة تكادُ تكونُ عامة ، لا سيما بين النشء الجديد ، وكانوا إذا رأوا من أبناء قومهم مَنْ لا يريدُ أن يسايرهم في طريقهم ، إما اقتناعاً بفساد عملهم ، أو خوفاً من سطوة الدولة ؛ بطشوا به ، وعدوه خائناً ، وكانوا يستحلّون دمه ، **وقد قتلوا من هذا النمط عدداً غير قليل منهم** ، وكانوا يعلّمون أَحْداثهم أسماء ملوكِ الأرمن القدماء ، ويذكرون أسماء قديسي الأرمن في الكنائس ، ليثيروا في رؤوس الشبان الحميةَ الأرمنيةَ ، ويحيوا تذكار المُلْكِ الأرمني القديم ، وكلُّ هذا تحمّلتْهُ الدولةُ العثمانيةُ مدةً طويلة ، ولكنها في الآخر رأت أنَّ رعيتها المسلمين لن يستطيعوا على هذه الأحوال صبراً ، فأمرت بإقفال بعضِ مدارس كانت تُلْقَى فيها بعضُ التعاليم الثورية ، فثار الأرمن بسبب إقفال هذه المدارس ، وقاموا بحركة عصيان ، وكان الأتراك والأكرادُ قد امتلأت صدورهم وَغْراً[1] منهم ، فحصلت حوادث ، وسالت دماء في ولاية أرضروم ، وموش ، فجاء الأرمن يشكون إلى الدولة ، وقامت قيامتهم في الأستانة ، وطلبوا من بطريركهم عشقيان أفندي أن يراجع السلطان في الاقتصاص من المسلمين ، الذين حملوا على الأرمن .

ولما وجدوا من عشقيان أفندي فتوراً في المراجعة ، هجموا عليه ، وهو في كنيسة قوم قبو ، وحاولوا قتله ، ففرّ من بين أيديهم ، وتوارى ريثما جاءت الشرطة ، فقبضت على الثائرين ، وألقوا عدداً كبيراً من شبان الأرمن في غيابات السجون .

---

(١) حقداً .

وكانت تَشَكَّلَتْ في إستانبول لجنة أرمنية ثورية اسمها اللجنة الحمراء يديرها أرمني من التبعية الروسية اسمه آغوب بدريكوف ، **وأخذت هذه الجمعية السرية تفتك بالأرمن الذين كانوا لا يوافقون على الثورة ، فقبضت السلطةُ على بدريكوف هذا ، وحكمت عليه المحاكم بالقتل ، ولكن السلطان عفا عنه ، وسلمه إلى سفارة روسية ، على شرط إخراجه من الأستانة ، وخرج ، ولكن اغتيال الأرمن الصادقين للدولة بقي مستمراً** ، وكانت **هذه الوقائع سنة** (١٣٠٨ـ١٨٩٠) .

ثم إنّ جمعيات الأرمن ، لا سيما التي يقال لها هيكان ، ازدادت جرأةً ، وأخذت تبثُّ حركةَ العصيان في الأناضول ، فاشتعلت الفتنة في سيواس ، وأنقرة ، وقونية ، وأضنة ، وقبضت الدولة على المشاغبين ، وأخذت بمحاكمتهم ، وأكبرَ النّاسُ ـ حتى عقلاء الأرمن أنفسِهم ـ هذه الحركات ، وأصدر البطريرك عشيقان أفندي منشوراً ينصحُ فيه أمته بالإخلاد إلى السكون ، وتجنب هذه الحركات المخالفة للأمانة للدولة ، ولمصلحة الأرمن أنفسِهم ، فما مضى على ذلك أيام قلائل ، حتى أطلق أحد المنسوبين إلى هذه الجمعيات الرصاص على البطريرك وهو في كنيسة قوم قبو ، ولكنه أخطأه ، فأخذت الحكومة العثمانية تشدِّدُ في معاقبة ثوار الأرمن .

وفي أثناء ذلك نجمت بوادرُ الثورة في جبلٍ يقال له جبل ساسون من سنجق موش ، في ولاية بِتليس ، وذلك بأنّ أهالي هذا الجبل كانوا امتنعوا عن تأدية الضرائب ، فأبرق والي بتلِيس إلى الباب العالي عن عصيان أهالي هذا الجبل ، ووجوب تأديبهم ، فأرسلت الدولة المشير زكي باشا بقوة من المشاة والخيل والمدفعية ، فدمروا ديار العصاة ، وجعلوا عاليها سافلها ، فما [إن] وصلت أخبارُ إيداب[1] الدولة لعصاة الأرمن إلى صحف أوربة ، حتى قامت قيامتها ، **وأخذت تتكلّم عن مذابح الأرمن ، كما هي عادتُها كلّما ثار ثائر أمة مسيحية على حكومةٍ إسلاميةٍ** .

---

(١) تأديب .

وما زالت الصحفُ الأوربية تضرِبُ على هذا الوتر ، حتى أمر السلطان عبد الحميد بإرسال لجنة تحقيق إلى محل الواقعة ، **ودعا الدول التي هنّ موقعات على معاهدة برلين أن ترسل معتمدين من قبلها مع اللجنة المذكورة ، ليشهدوا سيرَ التحقيق ، فجرى التحقيق بحضورهم ، وثبت عصيان الأرمن بشهاداتٍ تفوق الإحصاء ، وأدلةٍ لا تقبل المراء ، ومع ذلك فقد بقي قناصل الدول فرنسة وإنكلترة وروسية يدّعون أنهم لم يقدروا أن يتصلوا تمام الاتصال بالأهالي ، حتى يطلعوا على الحقائق . ثم عندما وجدوا كون هذا العذر واهياً ، جعلوا يقولون : إنه على فرض وقوع عصيان ، فلم يكن من العدل أن يتناول العقابُ جميعَ أهالي الناحية ، والحال أنّه قد بطش الأكرادُ بالأرمن الذين ثاروا على الدولة ، وذلك بمرأى ومسمع من العساكر العثمانية !!!**

وأخذت الصحف الأوربية تحت تأثيرِ الكنائس ، لا سيما في إنكلترة تستفزُّ الدول إلى التدخل لرفع المظالم عن الأرمن ، ولما كانت إنكلترة تسمع كثيراً لرؤساء الكنائس في بلادها ، سعت لدى الدول في التدخل بهذه المسألة ، فأجابتها فرنسة وروسية ، واتفقت الدول الثلاث على تقديم اقتراحات للسلطان لأجل إصلاح الإدارة في البلاد التي كان الأوربيون يطلقون عليها اسم أرمينية وهي في الحقيقة **بلاد الأكراد** .

فمن جملة هذه الاقتراحات تعيينُ مفتّشٍ عامٍّ لتلك الولايات ، وتشكيلُ لجنة مختلطة دائمة لمراقبة سير الإصلاحات ، ويكونُ مركز اللجنة في الأستانة ، فرفض السلطان قبولَ تشكيل هذه اللجنة الدائمة المختلطة ، وعيّن المشير شاكر باشا مفتشاً عاماً لولايات شرقيِّ الأناضول ، فرفضت الدول تعيين هذا المفتش ، وأصرّت على تعيين مراقبين أوربيين ، وجرى بينها وبين السلطان كثيرٌ من الأخذ والرد ، والسلطان ثابتٌ لا يتزعزع ، فخطب اللورد ساليسبوري في مجلس اللوردية خطاباً أنذر به السلطان بسوء المصير إذا لم يقبل نصائحَ الدول ، فاشتدّ بذلك عزمُ ثوّار الأرمن ، وقاموا بمظاهرة عظيمة ، بحجة أنهم يطالبون بتنفيذ الإصلاحات الموعودة ، فعند ذلك هجم عوامُ المسلمين على الأرمن في نفس العاصمة ، وذبحوا منهم عدداً كبيراً ، **لأنّهم رأوا الأرمن يتعمّدونَ إثارة الفتنة**

سبيلاً لِتَدَخُّلِ الدول الأوربية في أمور السلطنة الداخلية ، وهذا ما كان يقصده الأرمن فعلاً ، وكانوا يعتقدون أنّ في ذبحهم فائدة لأنفسهم في المستقبل .

فلما وقع هذا الانتقام من الأرمن ؛ واتهم الأجانبُ رجالَ الشرطة وناظم باشا ناظر الضبطية ، بأنهم غضّوا النظر على ذبح الأرمن[1] ، وأنهم كانوا يقدرون على منع الشر فلم يمنعوه ؛ أبعد السلطان ناظم باشا عن الأستانة ، وجعله والياً على بيروت ، وعزل سعيد باشا الصدر الأعظم ، وجعل مكانه كامل باشا ، ثم أصدر خطاً سلطانياً يتضمَّنُ قبولَ اقتراح الدول ، وتشكيل مجلس مراقبة لسير الإصلاحات ، ولكنّ خبر ثورة الأرمن والمذبحة التي حلّت بهم كان انتشر في ولايات الأناضول ، وامتلأت صدورُ المسلمين غيظاً منهم .

وكان للأرمن حينئذ بطريرك اسمه إزميرليان ، عقد الأرمنُ عليه جميع آمالهم ، وكانوا يبالغون في مدح مناقبه ، لأنّه كان يقوّي عزائمهم ، ويجدِّدُ روحهم القومية ، فازدادت حركتهم نمواً .

ولما كان الأرمن غير مقتصرين في حركتهم هذه على البلاد العثمانية ، بل كانت هذه الحركة ممتدة إلى بلاد القوقاز ، فقد تنكّر لها رجال الدولة الروسية أيضاً ، وسعوا لدى الباب العالي في استبدال بطريرك آخر بالبطريرك إزميرليان ، الذي كانت روسية ترى فيه مصدر هذه الحركات ، فإنّه كان يعارض في إلغاء التعليم الأرمني في القوقاز ، وروسية تأبى إلا التعليم الروسي وحده ، ولما كان طلب روسية موافقاً لهوى تركية ، فقد حملت الدولة العثمانية هذا البطريرك على الاستقالة ، فاستعفى في (٢) أغسطس ـ آب سنة (١٨٩٦ ـ ١٣١٤) وعينت مكانه بطريركاً برلتماوس مطران بروسة ، فبلغ الأرمن من الحنق لهذا التبديل أنْ أجمعتْ جمعياتُهم الثورية الهجوم على القصر السلطاني ، ووزعوا الأسلحة سرّاً على كثير من أعضاء الجمعيات ، وعينوا عيد الجلوس موعداً لهذه الحملة ، إذ يكون الشعب التركي غافلاً منصرفاً إلى إعداد الزينة بعيد السلطان ، فوصل الخبر إلى السلطان بواسطة البطريرك برلتماوس نفسُه ، ويقال : إنّ الحكومة الروسية

---

(١) هذه الحوادث التي جرت ضد الأرمن جرى مثلها على المسلمين في البلقان وكريت والقوقاز والهند ، فلماذا التركيز على الأرمن فقط ؟!!

هي نفسَها أبلغتْ السلطان خبرَ هذه المؤامرة ، لأنها كانت تكره جمعيات الأرمن الثورية وتعلم اتصالهم بحزب النيهيلست ، الذين كانوا اغتالوا القيصر إسكندر الثاني ، فأخذ السلطان حِذْرَهُ ، وتهيأت الضابطة للتنكيل بثوار الأرمن . وفي (٢٦) أغسطس ـ آب سنة (١٨٩٦م ـ ١٣١٤ هـ) دخلت عصابة من الأرمن إلى البنك العثماني بغتةً ، ومعهم أكياس ملأى بقنابل الديناميت ، وقتلوا الجند المحافظ على البنك ، وقصدوا الاستيلاء على خزانة البنك ، فجاء الجند ، وأحاطوا بهم من الخارج ، وصاروا يطلقون النار عليهم ، وهم يقابلون الجند بالمثل ، وشاع في الأستانة أنّ ثوار الأرمن حاولوا نسفَ البنك العثماني ، فهاج الشعب التركي ، وصاروا يقتلون الأرمن أينما ثقفوهم ، فحصلت مذبحة استمرت ثلاثة أو أربعة أيام فقُتِلَ منهم ألوف ، وكان سيقتل أضعاف ذلك **لولا أنّ كثيرين من المسلمين حموا كثيرين من الأرمن ، وآووهم في بيوتهم ، وكان كثيرٌ من أئمة المساجد ومن رجال الدين ينهون العامة عن أن يمسّوا الأرمن بسوء ، وكذلك كثير من رجال الدولة وَقُوا الأرمن في الحارات التي تجاور بيوتهم ، و**امتاز بين **هؤلاء المشير فؤاد باشا الجركسي**[1] .

فأما العصابة التي دخلت إلى البنك ، فقد أخرجوها تحت ضمان سفراء الدول ، وأبعدوها من الأستانة ، بعد أن كانت هذه العصابة هي سبب ذَبْحِ عِدَّةِ آلاف من الأرمن ، ربما كان كثيرٌ منهم أو أكثرُهم أبرياء .

ثورة كريت

وكانت **جزيرة كريت** ـ أو إقريطش ـ قد أَخذت تتحرك ، وذلك لاختلافٍ وقع بين أهالي الجزيرة وبين الدولة ، وكانت الثورةُ في كريت خُلُقاً متأصِّلاً في أهل هذه الجزيرة ، ويقال : إنَّهم مفطورون على القلق والشغبِ ، وقد كانوا كذلك في القديم قبل الدولة العثمانية ، بل قبل الدولة الرومانية نفسها .

وفي هذه الجزيرة حلّ **ثوارُ قرطبة** الذين بطش بهم الحَكَمُ الأمويُّ أميرُ الأندلس في وقعة الربض المشهورة ، فجلا منهم طائفة إلى فاس ، وسارت

(١) هذا الموقف لا يذكره الأرمن عملاً بالمثل القائل : « بغضك الشيء يعمي ويصم » .

طائفة أخرى بضعة عشر ألف نسمة إلى الشرق ، فنزلوا في الإسكندرية ، وثاروا فيها على الدولة العباسية ، فقاتلهم عُمّال مصر مِنْ قِبَلِ بني العباس ، وأخرجوهم من مصر إلى جزيرة إقريطش ، قائلين لهم : ليتبوأوا منها ما يشاؤون . فذهبوا ونزلوا بهذه الجزيرة ، وأسسوا لأنفسهم إمارة مستقلة في جانب من إقريطش تحت رئاسة عبد العزيز بن شعيب البلّوطي ، واستمرت هذه الإمارة على استقلالها أكثر من مئة سنة .

ثم أرسل عليهم الروم من بيزنطة جيشاً حاصرهم حتى استسلموا ، وأُخذ أميرهم أسيراً إلى القسطنطينية ، وشرّدهم من تلك الجزيرة ، ومن بقي منهم فيها تنصّروا[١] .

ويقال : إنه لا يزال في كريت قرًى معروفة يقال : إن أصلَ أهلِها من العرب ، وسحناؤهم تدلُّ على ذلك ، ولا تزالُ عندهم عادات عربية محفوظة إلى اليوم .

وقد ذكرنا فيما سبق[٢] كيفيةَ فتح الدولة لكريت ، وأنها آخرُ فتوحات الدولة العثمانية ، وأنها بقيت تقاتل كريت سبعاً وعشرين سنة إلى أن دوّختها .

وفي سنة (١١٨٠ ـ ١٧٦٦) عصت هذه الجزيرةُ الدولةَ ، ثم ساقت الدولةُ عليها عسكراً أدخلها في الطاعة ، وسنة (١٢٩٥ ـ ١٨٧٨) ثارت مرة ثانية ، فاتفقت الدولةُ مع أهلها على دستور خاص بهم ، وعيّنت لهم والياً مدته بحسب هذا الدستور خمس سنوات ، وتقرّرَ أنّه إذا كان الوالي مسلماً يكون له معاون مسيحي ، وإذا كان مسيحياً يكون له معاون مسلم . وكذلك المتصرّفون إذا كان المتصرف مسلماً كان المعاون مسيحياً ، وبالعكس .

وكانت نواحي الجزيرة (٨٨) ناحية منها (٥١) مختلطة ، أي مسلمين ونصارى ، و(٣٤) مأهولة بمسيحيين فقط ، وثلاث نواحٍ ليس فيها غير

---

(١) سنة (٣٥٠ ـ ٩٦١) .

(٢) ص (٢٥٥ و ٢٣٠) .

مسلمين ، وكان للجزيرة مجلس تشريعي ، يْجتمع مدة أربعين يوماً في السنة ، وعدد أعضائه (٨٠) منهم (٤٩) مسيحيون و(٣١) مسلمون ، ولا يتقرر شيءٌ إلا بثلثي الأصوات . ففي سنة (١٢٩٩ ـ ١٨٨١) طلب المسيحيون تعديل هذا الدستور بحجة أنه مجحف بحقوقهم ، وأنّ التمثيلَ في المجلس غيرُ متناسب مع عدد السكان ، فإذا كان الأعضاء المسيحيون فيه (٥٠) وجب أن لا يزيد المسلمون على (٢٥) ، والحال أن الدولة جعلتهم (٣١) ولا شكّ في أنّ الدولة كانت تعلم من استعداد أهل كريت للانفصال عنها ما جعلها تحتاط لمستقبل الحكم العثماني فيها ، وتراعي الأقلية الإسلامية ، ومع ذلك فمسلمو كريت كانوا لا يقلّون عن ثلث السكان ، وكان بينهم عدد غيرُ قليل من عرب برقة ، وجماعاتٍ وافرة من مهاجري البوسنة والهرسك ، والبلغار المسلمين .

ثم إنّ المسيحيين في كريت اختلفوا مع الدولة من أجل الموازنة المالية لإدارة الجزيرة ، واشتدّ الخصام في سنة (١٣٠٥ ـ ١٨٨٧) فأرسل السلطان عبد الحميد المشير شاكر باشا لأجل إصلاح الأحوال ، فوجد أنّه لا مناصَ من استعمال القوة ، فإنّ المسيحيين خرجوا عن الطاعة ، وأبوا دفع الضرائب ، وصاروا يعتدون على المسلمين في القرى التي أكثرُها مسيحيون ؛ وصار المسلمون يرحّلون من القرى إلى المدن ، لأنهم في المدن كانوا هم الأكثرية ، فساق شاكر باشا القوى العسكرية على عصائب الأروام ، فشتّتَ شملها ، وأخلد الجميعُ إلى السكون ، برغم أنه كان لكريت جمعيةٌ في أثينة ترسِلُ إلى كريت متطوعين وأسلحة ، فلما رأى اليونان أنّ الدولة العثمانية قهرت ثوار كريت ، هاجوا ، وطلبوا من حكومتهم إرسال الإسطول اليوناني إلى مراسي كريت ، بحجة حماية المسيحيين ، حيث كان الأتراك بطشوا بالأروام في مدينتي خانية وقندية ، فلما رأت الدول استفحالَ الخطب أرسلن إلى مرسَىٰ سودة سفناً حربية ، فأنزلت عساكر في الجزيرة ، وذلك في (٣) فبراير ـ شباط سنة (١٨٩٧ م ـ ١٣١٥ هـ) ولم تشترك ألمانية ولا النمسة في هذه الحركة ، وإنما كانت الدول اللواتي تولينها إنكلترة ، وفرنسة ، وروسية ، وإيطالية ، فبدلًا من أنّ الأروام يسكنون إلى عمل الدول هذا ؛ كان منهم أن أرسلوا في (١٠) فبراير ـ شباط الكولونيل فاسوس ، ومعه عدة طوابير من الجند المنظم ، وجماعة من

المتطوعين ، فساروا بالأسطول اليوناني ، ونزلوا بقرب خانية ، وأنذرتهم الدول حتى يرجعوا ، وألقت عليهم النار من سفنها ، فابتعدوا إلى داخل الجزيرة ، وأعلنوا إلحاقَ كريت بمملكة اليونان .

فعند ذلك أعلنت الدولةُ الحرب على اليونان ، وزحف المشير أدهم باشا بمئة وخمسين ألف جندي على اليونان ، فما انقضت مدة شهرين حتى تمزّق الجيش اليوناني كلَّ ممزق ، ولولا أنْ أبرق قيصرُ روسية إلى السلطان عبد الحميد يرجوه العفو عن اليونان والتوقف عن متابعة الحرب ؛ لكان الأتراك دخلوا أثينة ، واستولوا على اليونان كلها ، فلم يسع السلطان إلا إجابة رجاء القيصر ، وانعقد مؤتمر الصلح ؛ وبعد مذاكرات طويلة ، تقررت إعادة الجيوش العثمانية من بلاد اليونان كما دخلت بدون أن تجني الدولةُ العثمانية أدنى ثمرة من انتصارها ، عملاً بالقاعدة الأوربية : **إنّ ما يُؤْخَذُ من الهلال للصليب لا يعاد ، وإنّ ما يؤخَذُ من الصليب إلى الهلال لا بدّ من إعادته** ، فكانت نتيجة تلك الحرب كلها تصحيحَ بعضِ الحدود بين تركية واليونان ، بحيث أن جميع ما استردت الدولة من تسالية كان عبارة عن قريتين ، ولكن أجبرت الدول اليونان المغلوبة على دفع غرامة حربية أربعة ملايين جنيه كلفة الحملة العثمانية .

على أنّ الدولة استفادت فائدةً أدبيةً لا تنكَرُ بهذه الحرب ، **لأنها كادت في مدة شهرين لا غير تستولي على بلاد اليونان كلها ؛ واجتاز الجيش العثماني جبالاً يحارُ العقلُ كيف اجتازها بهذه السرعة !!**

ومن ذلك الوقت خمدت الحركة الأرمنية ، واستراحت الدولة مدة سنوات من مشكلات الأرمن ، ووقفت الدول عن مطالبتها بتنفيذ برنامج المطالب الأرمنية .

فأما في جزيرة كريت فكان النصارى قد طردوا المسلمين من جمع القرى ، واقتلعوا أشجارهم ، ودمّروا بيوتهم ، فالتجأ المسلمون إلى المدن ، واشتدتْ العداوةُ بين الفريقين ، فهجم الكريتيون المسلمون ومعهم جماعة من عرب بنغازي على حارة النصارى في قندية فأحرقوها ، وبطشوا بالمسيحيين ، وحصل مثل ذلك في خانية حاضرة الجزيرة ، فتعصبت الدول ، وأنذرت الدولة بأن

تخرجَ عساكرها من كريت ، أو تعلن هي استقلالَ الجزيرة ، وهي وإن لم تفعل ذلك دفعةً واحدةً فقد كانت تريد أن تصلَ إلى هذه الغاية تدريجاً ، فأتت بالبرنس جورج ابن ملك اليونان ، وجعلته والياً للجزيرة ، وبقيت هذه الحالة إلى أن انتهت الحرب البلقانية في زمن السلطان محمد رشاد ، فتقرّرَ ضم كريت إلى اليونان ، وعانى المسلمون في كريت شدائد كثيرة ، وهاجر منهم قسم كبير إلى بلاد الدولة العثمانية ، ومنهم جماعات وصلوا إلى دمشق ولهم حارة في جبل الصالحية[1] ، ومنهم جماعات تفرقوا في سائر الأقطار . وأناس ذهبوا إلى الإسكندرية ، وكانت الدولة أسكنت منهم جماعةً في الجبل الأخضر من برقة ، ولكن مهاجرتهم الكبرى وقعت بعد الحرب العامة ، وانعقاد مؤتمر لوزان سنة (١٣٤٣ ـ ١٩٢٣) وفيه تقررت مبادلة السكان ، فأخرجوا جميع المسلمين الذين في الروملي ، أي في البلاد اليونانية من أوربة وفي الجزر ، وكريت من الجملة ، وقرروا إسكانهم في تركية ، وبمقابلة ذلك أخرجوا جميع الأروام الذين في بلاد الأناضول بدون استثناء ، فلم يبق في تركية رومي واحد إلا من كان غريباً ، ولم يبق في بلاد اليونان مسلم واحد إلا عابر سبيل ، وقد حصلت مبادلة الأملاك والأراضي أيضاً ، وإنما وقع استثناء للأروام الذين في الأستانة ، فإنّ مؤتمر الدول في لوزان لم يشأ إخلاءَ القسطنطينية عاصمة الروم القديمة من المسيحيين ، فأبقوا فيها الأروام الذين لم يهاجروا من تلقاء أنفسهم ، وهم مئة وخمسون ألف نسمة ، وأبقوا في مقابلة ذلك الأتراك الذين في ولاية تراقية الغربية ، أي الولاية التي إلى الغرب من ولاية أدرنة ، وذلك لأنّ الأتراك المذكورين هم أكثرية هذه الولاية ، ولم تكن لهم رغبة في المهاجرة .

وأما في جزيرة كريت ، فلم يبق مسلم واحد ، ولا في سائر جزر الأرخبيل الرومي ما عدا رودس وأخواتها ، التي احتلتها إيطالية في أثناء حرب طرابلس الغرب ، ثم استلحقتها نهائياً ، فهذه الجزر لم تتبع قاعدة تبادل السكان ، لكونها خرجت من ملك تركية واليونان معاً ، فلا يزال عشرة آلاف من المسلمين في

---

(١) وسموا بالمهاجرين ، وهم الذين عمروا حي المهاجرين في سفح قاسيون .

جزيرة رودس ، وبضعة آلاف في سائر الجزر العشر (dedocanaire) وذلك تحت حكم إيطالية .

وانطوى بساط كريت ، كما انطوى بساط الأندلس ، بعد أن ملكها المسلمون ثلاث مرات :

الأولى : في زمن بني أمية في دمشق .

والثانية : عندما احتلها ثوار قرطبة ، تحت إمارة عبد العزيز بن شعيب .

والثالثة : في أيام الدولة العثمانية ، والله يرثُ الأرضَ ومَنْ عليها .

وقد عرفتُ من أعيان كريت المسلمين رجلين :

أحدهما **أحمد نسيمي بك** ناظر الخارجية العثمانية في أيام الحرب ، وهو من أعزِّ إخواني ، وأمثلُ مَنْ عرفتُ في حياتي وأحسنهم أخلاقاً ، فضلاً عن ذكائه وسَعة اطلاعه ، وكان يحدثني عن كريت الأحاديثَ .

والآخر : **فاضل بك** أحد أعيان المسلمين في قندية ، وقد كنتُ أسأَلُهُ مرةً عما يقال من حُسْنِ جزيرة كريت وزكاء تربتها ، ولذة فواكهها ، وطيب نجعتها ، فقال لي : جميع ما تسمعه من هذا القبيل عن كريت هو الواقع ، وربما أقل من الواقع ، ولكن لا يوجد في الدنيا أكثرُ شَرًّا من أهلها ، وفنزيلوس الوزير اليوناني المشهور كان من زعماء ثوار كريت على الدولة العثمانية ، ولما صار وزيراً للدولة اليونانية كان هو العامل مع دول الحلفاء على[1] خلع قسطنطين ملك اليونان كما لا يخفى ، وفي أخريات هذه الأيام ترأسَ ثورةً على الحكومة اليونانية ، وهو قد بلغ من الكبر عتياً .

* * *

وفي زمن السلطان عبد الحميد ساءت الأحوال في مكدونية ، **لأن السلطان كان أكثرُ همه المحافظة على شخصه ، وكان شديدَ التخيل إلى درجة الوسواس . فاستكثر من الجواسيس ، وصار بأيديهم تقريباً الحل والعقد ، وليس من الصحيح**

---

(١) في الأصل (في) .

أنّ السلطان كان يعملُ بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرمي أكثرَها ولا يصدِّقُ ما فيها ، ولكن اهتمامه بقضيةِ أخبار الجواسيس ألقَى الخوفَ في قلوب الرعية ، وصارت في قلق دائم ، وأصبحت الناس تبالغ في الروايات عن الجواسيس ، فساءت سمعةُ الحكومةِ ، وسخط الرأي العام على هذه الحالة ، وبرغم ما كان السلطان يعفو ويصفحُ ، ويجودُ ويمنحُ ، كانت سمعتُه بعكس ما كان يفعل ، وذلك بسبب كثرة الجواسيس ، وحصولهم على الحظوة عنده ، فصار الناس يعلّلون جميعَ خطوب المملكة بسوءِ الإدارة ، ويعلّلون سوءَ الإدارة بانتشار الجواسيس وفقدِ الحرية ، وهذا وإنْ كان صحيحاً إلى حدٍّ محدودٍ ، فليسَ بصحيح على إطلاقه ؛ لأنّ خطوبَ المملكة كانت لها أسباب داخلية وخارجية ، لا تُذْكَرُ قضيةُ الجواسيس في جوانبها شيئاً .

فأما العوامل الداخلية فهي :

١ ـ انحطاطُ درجةِ التعليم عما يجب أن تكون ، واستيلاءُ الجهل .

٢ ـ وانقسامُ سكان المملكة إلى أقوام شتى ، كلٌّ منها له هدف غير هدف الآخر .

٣ ـ وعدو عامل ، لا يرضيه إلا زوالُ الدولةِ العثمانية .

٤ ـ ثم ما وقرَ في صدور الناس أجمعين من قربِ أجل هذه الدولة ، فصارت أشبهَ بالمريض الذي انقطع الأملُ من شفائهِ .

وأما العوامل الخارجية فهي : مطامع الدول الأوربية في أجزاء هذه السلطنة ، كلُّ دولة منهن تُحِبُّ أن ترث شِقْصاً[1] من هذه التركة ، فهي تدسُّ الدسائسَ في البلاد ، التي هي مطمح نظرها ، حتى تتوصلَ منها إلى مأربها .

ولو كانَ سَهْمٌ واحدٌ لاتقيتُه ولكنَّه سَهْمٌ وثانٍ وثالثُ

بل كانت الأسهمُ التي تتلقّاها الدولةُ العثمانيةُ مما لا يعدُّ ولا يُحصَى . ولكنّ

---

(١) قطعة .

المسلمين في السلطنة نظراً لمعرفتهم أنّ هذه الدولة هي ملجؤهم الوحيد ؛ كانوا لا يريدونَ أن يعتقدوا زوالها ، فكانوا يتأوَّهون من جهةٍ لحالتها هذه ، ويجتهدونَ من جهة أخرى في إصلاحها ، ويظنّون أنّ الإصلاحَ ليس بالمستحيل ، وأنّ في استطاعةِ الدولة أن تنهضَ وتسترجعَ مكانها السابق ، وذلك إذا كان السلطان يقلِعُ عن سياسته الخاصة ، وعن حصر الأمور في يده ، ويترك الاهتمامَ بالجواسيس ، ويطبّق على المملكة (القانون الأساسي)[1] الذي كان بدأ به في أول سلطنته ، ثم عطّله تعطيلاً مؤقتاً ، فاستمر هذا التعطيلُ ثلاثين سنة ، وكان الشبان على الخصوص يعتقدون أنْ لا نجاةَ للمملكة من السقوط إلَّا بإعادة الدستور ، وانتخابِ مجلس الأمة ؛ وكان لذلك العهد كثير من رجالات الأتراك المتشبعين بمبادىء الحرية قد هجروا بلادهم ، وأقاموا بباريز ، وصاروا ينشرون نشرات ينتقدِونَ فيها الحكم الحميدي ، ويبثّون روحَ الثورة بين الناشئة ، فكان السلطان يجتهدُ في إسكات هذه الفئة ، التي كانت تشوِّهُ سمعتَه في العالم الأوربي ، وكثيراً ما كان يتمكَّنُ من إرضاء أناسٍ من هؤلاء الشبان ، بتقليدهم مناصبَ عالية ، أو بإغداقِ النعم والعطايا عليهم ، ولكن بقي هناك من هذه الفئة من كانوا لا يبيعون من السلطان سكوتَهم ، بل لبثوا يرفضون جميعَ ما يعرَضُ عليهم من أموالٍ أو مناصبَ ، وكان في طليعة هؤلاء أحمد رضا بك المقيم بباريز ، والذي كان يُصْدِرُ جريدةً حرّةً باسم «مشورت» تدخلُ إلى البلاد العثمانية سرّاً ، والدكتور ناظم ، الذي كان من أركان جمعية الاتحاد والترقي ـ وشنقه مصطفى كمال من عهد قريب ـ وغيرهما .

ولما كانت الجمعيات الأرمنية بطبيعة الحالة تميلُ إلى إسقاط السلطان عبد الحميد مدت أيديها إلى هؤلاء الأتراك ، الذين كانوا قد هجروا أوطانهم إلى أوربة ، وشرعوا في التحريك لأجل إعلان الحكم الشوري في تركية ، وكان بعض المسيحيين من سورية مشتركين أيضاً في هذه الحركة ، وكل فئة من هذه الفئات كانتْ لها أغراضٌ غيرَ أغراضِ الأخرى في الحقيقة ، ولكنّها كانت تجتمع في نقطة واحدة وهي ؛ مقاومة السلطان ، والعمل على إسقاطه . وأخيراً ، انتدب بعضُ

---

(١) الدستور ، انظر نصه في الملاحق .

شبان الأتراك ، وألفوا جمعية سرية في سلانيك ، وسموها جمعية الاتحاد والترقي[١] ، وأخذوا يجتذبون إلى جمعيتهم كلَّ الوطنيين المخلصين الذين قدروا على اجتذابهم برغم شدة المراقبة ، حتى إن بعض المستخدمين في الحكومة انضموا إلى هذه الجمعية ، وكانوا يجتمعون في المحافل الماسونية ، حتى يتقوا الشبهة فيهم ، وكان معظم اجتهاد هذه الجمعية السرية متوجّهاً إلى استجلاب الجيش ، حتى تصيرَ في أيديهم القوةُ اللازمة لخلع السلطان ، وتوفّقت هذه الجمعية إلى استجلاب عددٍ كبيرٍ من الضباط ، ولما كانت عصائب البلغار واليونان يعملون بدون انقطاع في بلاد الروملي ، وكانت الدولة تسوقُ عليهم العساكر ، لأجل تطهير بلاد الروملي منهم ، وكانوا يعملون في جوار سلانيك ؛ تسنّى لرجال الاتحاد والترقي أن يتصلوا بضباط الجيش ، وأن يقنعوهم بأنّ هذه العصائب البلغارية واليونانية إنما تشاغِبُ وتعثوا[٢] في الأرض ، لأجلِ الحصول على إدارةٍ حسنةٍ ، يستريحُ في ظلها السكان ، وهذه الإدارةُ غيرُ ممكنةٍ ما دام السلطان عبد الحميد على عرش السلطنة ، فأما إذا أمكنَ خلعُه ، وجُعِلَ الحكم في السلطنة دستورياً شورياً ، كما هو في سائر الممالك المتمدنة ، فإنّ جميعَ هذه المشاغبات تنتهي من نفسها ، وتخلدُ جميعُ الأقوام إلى السكينة ، وهكذا تنجو السلطنةُ العثمانيةُ من خطر السقوط المحدِقِ بها ، فَشَرِبَ أكثرُ الضباط هذه المبادىء ، التي ليس بعجبٍ أن تقبلَها عقولُهم ، لأنّ المسيحيين من أروامٍ ، وبلغارٍ ، وصربيين ، كانوا يدّعون أنهم لا يلجأون إلى الثورة إلاّ من سوءِ الإدارةِ ، وأنّه إذا اصطلحت الإدارةُ فهذه تكون غاية أمانيهم ، ويدخلون في الطاعة .

ولم يكن هذا الادعاء صحيحاً ، بل حقيقة الحال أنه سواء اصطلحت الإدارةُ العثمانية ، أم لم تصطلح ، فالبلغارُ إنما يجتهدون في ضم البلاد المأهولة بالبلغار إلى مملكتهم ، واليونان إنما يسعون في ضم البلاد التي أكثرها منهم إلى مملكتهم ، ولن يرضوا بالبقاء تحت حكم الأتراك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

---

(١) انظر أرنست رامزور : تركية الفتاة وثورة (١٩٠٨) ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ، بيروت (١٩٦٠) .

(٢) تفسد .

ولكن شبان الأتراك منهم من آمن بأقوال العصائب اليونانية والبلغارية ، ومنهم من لم يكن يؤمِنُ بها ، لكنّه كان يجد أن طريق النجاة لن تكون إلا بإعادة الدستور ، وجعل الحكم في السلطنة للشورى ، كما هو في سائر البلاد .

وبلغ السلطانُ سريانَ هذه الحركة إلى الجيش المرابط في الروملي ، فراعه الأمر ، وأرسل لجنة تحت رئاسة القائد إسماعيل ماهر باشا ، لأجل الفحص عن هذه الحركة ، فرجعت هذه اللجنة ، وقررت للسلطان أنّ أكثر الضباط دخلوا في جمعية الاتحاد والترقي ، وأنّ الخطبَ عظيمٌ ، وأن الخرقَ اتسع على الراقع ، وكان حسين حلمي باشا مفتشاً عاماً لولايات الروملي ، فكتب هو أيضاً إلى السلطان يعظِّم من شأن حركة الجيش ، ويشيرُ على السلطان بإعلان الدستور .

وفي أثناء ذلك ذهب أنور بك ، وعصى بشرذمة من الجند في جوار سلانيك ، كما أنّ نيازي بك استولى على مدينة مَنَاسْتر ، وكاد يعلنُ فيها الدستور .

ولما بلغ جمعية الاتحاد والترقي ما قام به أنور ونيازي من العصيان ، اشتدت عزيمتهم ، واجتمعوا حول منزل حسين حلمي باشا ، وطلبوا إعلان الدستور ، وأصبحت سلانيك في أيديهم .

ولما وصل الخبر إلى السلطان استشار الصدر الأعظم ، وكان الصدر يومئذ فريد باشا الأرناؤوطي ، فأشار إليه بإعلان الدستور ، وذلك تسكيناً للفتنة ، وكذلك جمال الدين أفندي شيخُ الإسلام أبدى له ضرورةَ هذا الإعلان ، وكان أحمد عزَّة باشا الدمشقي[1] مستشاراً للسلطان ـ كما لا يخفى ـ وهو المطلع على مجريات هذا الخطب ؛ قد عارَضَ في إعلان الدستور بكل قوته ، ولكنّ الوزراء خالفوه ، وهو نفسه الذي قال لكاتبِ هذه السطور عندما اجتمعتُ به بعد الحرب العامة هنا في جنيف : بأنّ الذي أثر في السلطان بالدرجة الأولى حتى أعلن الدستور هو جمال الدين أفندي شيخُ الإسلام .

أما كوچك سعيد باشا ، ففي أول الأمر نصحَ للسلطان بالثبات ، وبقمع هذه

---

(١) أحمد عزة العابد (١٨٥٥ ـ ١٩٢٤) : من مشهوري الساسة في العهد العثماني توفي بمصر .

الحركة بالقوة ، إلّا أنّه بعدَ ذلك جاءت الأخبار بأنّ الفيلق الثاني الذي مركزُه أدرنة ، انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي ، فوقع الرعبُ في قلوب الوزراء جميعاً ، وعادوا فأشاروا على السلطان بإعلان الدستور اتقاءً لشرٍّ أعظم !! والحقيقة أنّ القوة التي في يد جمعية الاتحاد والترقي كانت ضئيلة ، وكان الجيشُ أكثرُه طائعاً للسلطان ، ولكنّ قوةَ الجمعية كانت معنويةً ، والأمة ـ حتى في نفس قصر يلدز ـ أصبحتْ تعتقدُ أنْ لا نجاةَ للدولة إلا بإعلان الدستور ، وعقد مجلس الأمة .

والخلاصة أنّ السلطان عبد الحميد أعلن القانون الأساسي ، وأمر بانتخاب المبعوثين ، وتعينِ كوچك سعيد باشا رئيساً للوزارة الجديدة . فأراد سعيد باشا إعطاء السلطان بعضَ حقوقٍ في تعيين الوزراء خلافاً للقانون الأساسي ، فوقع بسبب ذلك خُلْفٌ بين الوزراء ، أدَّى إلى استعفاء الوزارة .

فانتدب السلطان للصدارة كامل باشا ، وتألفتْ وزارةٌ جديدةٌ ، فيها رجالٌ أماثل مثل رجب باشا الأرناؤوطي ناظر الحربية ، وحسن فهمي باشا ناظر العدلية ، وغيرهما . ولكنّ وزارة كامل باشا هذه شاهدت حوادث ذات بال ، مثل إعلان بلغارية استقلالها التام ، ومثل أنّ دولة النمسة أعلنت استلحاق ولايتي البوسنة والهرسك ، ومثل أنّ الأروام أعلنوا إلحاقَ جزيرة كريت باليونان .

وكان إعلان البلغار لاستقلالهم بموجب كتاب من أميرهم فرديناند إلى السلطان عبد الحميد في (٥) أكتوبر ـ تشرين الأول سنة (١٩٠٨ م ـ ١٣٢٦ هـ) فأرسلت الدولة جواباً للحكومة البلغارية ، بأنها لا تستطيع الاعتراف بعمل مخالفٍ لمعاهدة برلين ، وكتبت إلى الدول تدعوهنّ إلى عقد مؤتمر لأجل النظر في ما أقدمت عليه بلغارية من خرق هذه المعاهدة ، وكذلك احتجَّت الدولة على استلحاق النمسة والمجر للبوسنة والهرسك ، برغم كون النمسة والمجر اجتهدتا في استعطاف الدولة العثمانية ، وعرضتا عليها تعويضات مالية ، وردَّت لها سنجق نوڤيبازار من أصل البوسنة .

وفي أثناء ذلك وقع الخلاف بين جمعية الاتحاد والترقي وبين وزارة كامل باشا على مسائل داخلية ، لأنّ الجمعية كانت هي سببُ إعلان الحرية ، فكانت

تريد بطبيعةِ الحال أن تسيطرَ على الحكومة ، ولم يكن هذا الأمرُ ليحصلَ بدون اصطدام آراءٍ مفضٍ إلى النزاع ، وكانت الأمةُ مشغولةً بانتخاب المبعوثين ، ولم تكن الآراء متفقةً في قضايا الانتخابات مما يحصل في كلِّ مملكة ، فانتهى الأمر بسقوط [وزارة] كامل باشا .

وكان مجلس الأمة قد انعقد ، وحضر السلطان عبد الحميد افتتاحه ، وأقسم يمينَ الأمانة للدستور ، ولكنْ لم يكد المجلسُ ينعقدُ حتى وقعَ الشقاقُ بين المبعوثين ، فمنهم مبعثو جمعية الاتحاد والترقي ، ومبدؤهم كان المركزية التامة ، أي حصرُ كلِّ الإدارة في مركز الدولة ، وبناء الإصلاحات كلِّها على هذا الأساس ، ومن البديهي أنّ مبدأً كهذا سيُعطي السيادةَ للعنصر التركي الذي له المقام الأول في السلطنة ، فلهذا كان العربُ والأرناؤوط والأروام والأرمن ضدَّ هذا المبدأ ، لأنه يُجحِفُ بحقوقهم ، فتألف من هؤلاء حزب تسمى حزب الأحرار[1] انضمَّ إليهم أيضاً كثيرٌ من الأتراك المناوئين لجمعية الاتحاد والترقي ، ففي مسألة كامل باشا وقع الخلاف بين الحزبين ، وتغلّب الاتحاديون على خصومهم .

وهكذا سقطت وزارة كامل باشا ، وجاء مكانه حسين حلمي باشا ، ففي مدة هذا الصدر تسوَّت بين تركية والنمسة قضية البوسنة والهرسك ، وذلك بدون عقد مؤتمر دولي ، لأنّ الأتراك كانوا يخشون من عقد المؤتمر الدولي فتحَ أبوابٍ جديدة عليهم ، فاسترجعت الدولة سنجق نوفيبازار ، واستأدت[2] مليونين ونصف مليون جنيه بدلاً عن الأراضي العائدة في البوسنة للدولة خاصة ، وتقرّرَ بقاءُ التشكيلات الدينية الإسلامية في البوسنة والهرسك مربوطةً بالدولة العثمانية ، كما كانت في السابق ، وعقدت الدولة مع النمسة معاهدةً تجاريةً ، ثم رجعت إلى مسألة البلغار ، فبعد أخذٍ وردٍ طويلين ، وحل مشكلاتٍ ماليةٍ يطولُ شرحُها ، انتهى الخلاف وانعقدت المعاهدة في (١٩) إبريل ـ نيسان سنة

---

(١) واسمه حزب الحرية والائتلاف وكان يرأسه لطفي فكري .
(٢) استدت .

(١٩٠٩ م ـ ١٣٢٧ هـ) وفي هذه المعاهدة كلُّ ما يضمَنُ حقوقَ المسلمين وأوقافهم ومؤسساتهم الدينية في مملكة البلغار ، فاستراحَ بالُ الدولة من جهة هاتين المشكِلتين ، قضية استقلال البلغار التام ، وقضية استلحاق البوسنة والهرسك بالنمسة .

ولكن ثار تنُّور الخصام في وسط السلطنة ، وتعدَّدتْ الأحزابُ ، وبسبب إعلان الحرية أظهر كلٌّ ما في نفسه ، وبدلاً من أن يكونَ هذا القانون الأساسي سبباً للانضمام[1] ، وللسير على قاعدة ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المؤمنون : ٥٢] وليس فيها امتياز لفريقٍ على فريقٍ ؛ كانت عاقبة هذا النظام الجديد أنّ كلَّ أمةٍ من الأمم الكثيرة التي تتألف منها السلطنة العثمانية أخذت تحاول الانفصالَ عن السلطنة نفسها بالطريق الممكنة وغير الممكنة .

وجاءت هذه الحالة عذراً للسلطان عبد الحميد الذي كان يدّعي أنه إنما أخّر إعلانَ الدستور وجمعَ مجلس الأمة خوفاً من تفكُّكِ أجزاءِ السلطنة ، وفراراً من صدعِ الوحدةِ العثمانيةِ ، لأنّه في ظلّ الحرية لا يمكن منع النزاعات القومية ، التي هي كامنة في صدور هذه الأمم المختلفة ، التي لا يجمَعُ بينها سوى رهبة الدولة .

ولكن جمعية الاتحاد والترقي مع حُسْنِ نيةِ رجالها كان ينقصُها كثيرٌ من الخبرة ، وكان أكثرُ زعمائها شباناً لم يتمرّسوا بالأمور ، ولم تنجّزهم الحادثات ، وقد جاء فوزُهم بالقبض على ناصية السلطنة غيرَ منتظر ـ حتى من أنفسِهم ـ فَسَكِرُوا بخمرةِ العزّ ، واستخفّوا بمن سواهم ، وظنوا أنّهم قادرون على كل شيء ، والحال أنهم كانوا يواجهون صعاباً ، ويقابلون عقاباً[2] لا قِبَلَ لهم بها ، فكانت أمامهم ـ وهي الطامة الكبرى ـ دسائسُ الدولة الأوربية ، التي **كلُّ واحدةٍ منهنّ كانت تحرِّك أهالي البلاد التي تطمَحُ إليها من أجزاء السلطنة ؛ وكان هذا مرضاً مزمناً ، فلا الأجانب كانوا راجعين عن أطماعهم هذه ، ولا**

---

(١) للوحدة والتضامن .
(٢) عقبات .

الأهالي الذين تعوَّدوا رؤية نفوذ هذه الدول في بلادهم كانوا عادلين عن الانقياد إلى وساوسهم ، ولأجلِ وَضْعِ سَدٍّ في وجه الأجانب ، كان ينبغي أن تكونَ الدولة أقوى وأرقى وأسعد حالاً ، وأغزر مالاً من جميع الدول العظام ، ولم تكن هذه الشروط حاصلة في الدولة العثمانية كما لا يخفى .

ثم إنّ جميع الأمم التي كانت تتألف منها هذه السلطنة كانت أهدافُها مختلفة ؛ فالأروام وهم جانبٌ كبير في المملكة لا يَنْسَوْن ملكهم القديم ، وفي كلِّ حركاتهم وسكناتهم كان هدفهم الوحيد استئناف الاستيلاء على القسطنطينية ، وطرد الترك منها إلى آسية ، والأرمن كان هدفهم الوحيد استئناف ملكهم القديم في نفس الأناضول ، والبلغار يريدون ضم مكدونية إلى المملكة البلغارية الجديدة ، هذا من جهة المسيحيين .

فأما من جهة المسلمين فإنّ الجامعة الوحيدة التي كانت تجمع بين الترك والعرب والكرد والأرناؤوط والجركس هي **الجامعة الدينية** ، ولولاها لكانت هذه السلطنة تفككت منذ قرون ، ولكن سوء الإدارة في الداخل من جهة ؛ ودسائس الأجانب من الخارج من جهة أخرى ؛ حملا الكثيرين من العرب والأرناؤوط بنوع خاص ، على النزوع إلى الانفصال عن الدولة برغم الجامعة الدينية ، وقد بدأ ذلك عند الأرناؤوط قبل العرب ، فحاولت الدولة تأديبَ الثائرين منهم ، فاستلزم ذلك تجريد جحافل ، ووقعت معارك دموية ، فازداد الأرناؤوط من الدولة نفوراً .

وأما العرب فكانت عندهم غيرة من الترك ، لأنهم كانوا أكثر من هؤلاء عدداً ، ولم تكن لهم الامتيازات التي للترك ، وكان التركُ يزعمون أنّ العرب غير قائمين بما يجب عليهم تجاه السلطنة حتى يتمتعوا بالمساواة التامة مع الأتراك ، فمن البلاد العربية جانبٌ كبيرٌ لا يقومُ بالخدمة العسكرية الإجبارية ، بل يكلِّفُ الدولةَ سوقَ عساكر لإدخال أهله في الطاعة ، وهذا النزاعُ بين العرب والترك لم يكن ينتهي ، بل كان يزدادُ بضعف الدولة ، وقد كان يظهر في مواقع كثيرة . ولكن كان المانعُ الوحيد من انفجار بركان الشّر بين الفريقين هو الخوف على بيضةِ الإسلام لا غير .

إلاّ أنّ الإنكليز تمكنوا قبل الحرب العامة من استجلابِ كثيرٍ من ناشئة العرب ، منهم مَن استجلبوهم بالمنافع الخاصة ، ومنهم من استجلبوه بطريقة الإقناع ، وأوهموا العربَ أنّهم إنما يريدون ليجددوا دولةَ عربية كدولة بني العباس ، أو دولة بني أميّة مثلاً ، ويساعدوا العرب على تجديد مجدهم القديم ، وعلى عمارة بلادهم ، التي لم يحسِنِ التركُ إدارتَها ، ولا عمارتها .

فصار بين العرب حزبٌ غيرُ قليل ينزعون إلى الانفصال عن الدولة قلباً وقالباً ، متوقعين لذلك أول فرصة ، ولا يمكن أن يقال : إنّ هذا كان رأي الجمهرةِ من الأمة العربية ، بل في الحقيقة كان عقلاء العرب يفقهون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والترك ستسقطُ بلاد العرب تحت حكم الإفرنج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب ، واختياراً لأهون الشرّين .

نعم لو كانوا على يقين بأنّ الدولَ الأوربية ستحترِمُ استقلال البلاد العربية ، ولا تبسطُ أيديها إليها بالغصب والتقسيم ، لكانوا يرجِّحون بدون شك الانفصال عن الترك ، والاستقلال بدولةٍ لأنفسهم .

ولكنَّ عقلاءَ العرب كانوا لا يجهلون مطامعَ الدول الأجنبية في بلادهم ، ولم يكن يخفى عليهم تصميمُ أوربة على تقسيمها ، وأنه لا عهدَ للدول المسيحية بإزاء المسلمين مهما عاهدت ، ولم يكن يشذُّ من العرب عن هذه العقيدة سوى بعض مَنْ لا تجربةَ لهم ، أو مَنْ لا تهمُّه الجامعةُ الإسلامية في كثيرٍ ولا قليل ، ومنهم من كان الإنكليز يستخدمونهم في بث دعايتهم كأُجَراءَ لا غير .

ثم إن الاتحاديين ساعدوا بسوء تصرفهم واستخفافهم بأعدائهم هذه الأمم غير التركية في السلطنة على أنفسهم ، ودخل في الجمعية الاتحادية عناصر كثيرة مفسدة كرَّهت الرعيّةَ بها ، وكان رجالُ الحكم الجديد قد أقصوا عن وظائف الحكومة أكثرَ الذين كانوا يشغلونها ، واستبدلوا بهم شباناً من حزبهم ، فآسفوا[1] جمعاً عظيماً لهم تأثيرٌ في السلطنة ، لأنّهم أصابوهم في أسباب معيشتهم ،

---

(١) أغضبوا .

فانكسرت خواطرٌ ، وتراكمت أحقادٌ ، وتألفت فرقة جديدة من قدماء الرجال الذين كان يقال لهم الرجعيون ، وانتشرت لهم جرائد ، وأعصوصب حولهم كثير من العوام .

ولما كان الاتحاديون يتظاهرون بالتفرنُجِ ، ويتساهلون بأمورِ الدين ، ويتكلّمون أحياناً بما يخالِفُ الشرع ؛ مالَ جمهورُ العلماءِ وأنصارُ المبادىء الإسلامية إلى هذا الحزب الذي شَرَعَ بمصادمة جمعية الاتحاد والترقي ، وألّفوا تحت رئاسة الشيخ درويش وحدتي عصبةً سمّوها الوحدة المحمدية ، وأخذ حزب الأحرار يمدُّ يدَه إلى حزب الرجعيين ، ليكونا يداً واحدة على حزب الإتحاد والترقي ، فاشتدت المعارضة في وجه الاتحاديين بينما هم مهملون للاحتياط ، واثقون بأنفسهم ، مستخفّون بخصومهم . فاشتدت المناقشات في الجرائد ، وازدادت العداوة بين الأحزاب ، وإذا بالناس في (٨) أبريل ـ نيسان سنة (١٩٠٩ م ـ ١٣٢٧ هـ) تسمعُ أنّ حسن فهمي بك محرر جريدة « سربستي » قد قُتِلَ غيلَةً على الجسر وهو راجع من بيك أوغلي إلى إستانبول ، وكان هذا الكاتبُ من أكبرِ أعداءِ الاتحاد والترقي ، فقيل : إنّ الاتحاديين هم الذين أرسلوا من يغتاله ، وقيل : إنّ الذين اغتالوه هم حزبُ الرجعيين ، وذلك لأنهم استشاروه في القضاءِ على الدستور ، والرجوع إلى نظام الحكم القديم ، فأبى أن يسايرهم في هذه المكيدة ، فخافوا أن يُفْشِي سرَّهم للحكومة ، فأرادوا التخلص منه فقتلوه ، فهاجت الخواطر لقتلِ هذا الكاتب ، وقَدَّمَ ستة من مبعوثي المجلس سؤالاً لناظر الداخلية عن هذه الحادثة ، وتفاقم القلقُ في الأستانة ، وكان الرجعيونَ قد اتصلوا ببعض طوابير من الجيش ، واتُّهِمَ السلطانُ عبد الحميد بأنّ له يداً في الدسيسة رأساً ، أو بواسطة أنصارِه القدماء ، فما شعر الأهالي إلا والعساكر قد ملأت ساحة أيا صوفيا ، وأخذوا ينادون بإسقاط الوزارة ، وعزل أحمد رضا بك رئيس مجلس الأمة ، ويطلبون تسليمَ علي رضا باشا ناظر الحربية ، وأعضاء جمعية الإتحاد والترقي ليقتلوهم .

وكان بعضُ المشايخ علّموا العسكر أن ينادوا بإعادةِ الشريعةِ ، وإلغاءِ القانون الأساسي ، حتى يَمْلِكوا بذلك قلوبَ العامة ، وفي ذلك الوقت هجموا

على نادي الإتحاد والترقي ، وعلى إدارة جريدة « طنين » ، وعلى النادي العسكري ، وعلى نادي النساء ، ونهبوها ، وجعلوا عاليها سافلها .

ثم انقضّ الجنودُ على ضباطهم ، فقتلوا منهم ثلاثمئة ، وفرّ من الضباط عددٌ كبيرٌ من الأستانة ، وتخبأ آخرون فيها ، ثم هجم الجندُ على مجلس المبعوثين ، ليقتلوا منهم الإتحاديينَ المعروفينَ بمكانتهم في الجمعية ، ولكنْ كان المبعوثون الاتحاديون قد علموا بالثورة ، وما يضمِرُهُ الرجعيون المتستّرون باسم الشريعة من نيةِ قتلهم ، فلم يحضروا إلى المجلس ، وحضر الأمير محمد أرسلان رئيس لجنة الأمور الخارجية ومبعوثِ اللاذقية ، وقيل له في ذلك اليوم : إنّ ذهابَه إلى المجلس خطرٌ على حياته ، لأنه كان من الاتحاديين المعروفين ، فأبى إلّا أن يذهبَ ليقومَ بالواجبِ ، وكان بلغه أنّ في نية الثوار إحداثُ مذبحةٍ في الأستانة ، تحمِلُ الأجانب على التدخل لأجل حماية رعاياهم ، فتسقطُ بذلك حكومةُ الإتحاد والترقي ، فذهب ابن عمنا إلى المجلس ليحملَ المبعوثين على مراجعة السلطان شخصياً ، ليبذل كلمته ونفوذَه لأجل تسكينِ الثورة التي قد تجرُّ وبالاً عظيماً على السلطنة ، فلما ذهبَ رحمه الله إلى المجلس ، لم يجد من [أصل] نيّف ومئتي مبعوث إلا ثلاثين أو أربعين مبعوثاً فقط ، فتكلّم معهم في الموضوع ، وتقرَّرَ بينهم إرسالُ وفدٍ إلى قصر يلدز ، ليعرضَ الخَطْبَ على السلطان ، ويلتمسَ أمرَه الجازمَ للعسكر وللشعب بالسكون ، فانتخبَ المجلسُ أحدَ عشر مبعوثاً منهم محمد أرسلان ، ليقوموا بهذه المهمة . فلما خرجوا وركبوا العربات ، عرف محركو هذه الثورة مقصدَهم ، فردوهم من حيث أتوا ، وبينما هم على باب المجلس ، أوعز بعضُ المحركين لهذه الثورة إلى الجند بأن يطلقوا الرصاص على محمد أرسلان ـ وهم لا يعرفونه ـ فوقع شهيداً . ثم قتلوا أيضاً ناظم باشا ناظر العدلية ، وكان مرادُهم أن يفتكوا أيضاً بسائرِ أعضاءِ المجلس ، الذين لبثوا ينتظرون الموت مدة ساعتين ، ومنهم من رمى بنفسه من النوافذ ، فسقطوا ، وتكسّرت أرجلُهم ، ومنهم من تخبّأ في أي مكان يتوارَى به عن الأعين ، ولكنّ العسكرَ بعد أن فتكَ بناظر العدلية وبمبعوث اللاذقية سمعوا أنه سيأتي عسكرٌ آخر بأمر السلطان فيقتصّ منهم ، فوقع الرعبُ في قلوبهم ، وأمسكوا عن قتلِ سائرِ المبعوثين، وصاروا يطلقون الرصاصَ في الفضاء تهويلاً .

وأما حسين حلمي باشا والوزراء رفاقه ، فقد تخبأوا حيثُ لا يعلمُ بهم أحدٌ ، وانسلّ محمود مختار باشا على باخرةٍ إنكليزيةٍ ، فذهب العسكر إلى بيته ليقتلوه فلم يجدوه .

فأمر السلطانُ بتأليف وزارةٍ جديدةٍ تحت رئاسة توفيق باشا ، الذي كان سفيراً للدولة في لندرة[1] ، وأدخل فيها أدهم باشا قائد الجيش العثماني الذي قهر اليونان ، وذهني باشا ، ورفعت باشا ، الذي كان ناظراً للخارجية في الوزارة السابقة ، فأبقوه في الوزارة الجديدة كما كان ، وأبقوا أيضاً ضياء الدين أفندي شيخَ الإسلام . وأبقوا نورادونغيا أفندي الأرمني ناظر الأشغال النافعة ، وأبقوا خليل حمادة باشا ناظر الأوقاف ، وتعيّنَ لنظارة العدلية ولرئاسة مجلس الشورى الوزير الشهير حسن فهمي باشا ، وتعيّنَ عادل بك ناظراً للداخلية ، والقائد ناظم باشا قائداً للفيلق الخامس مكان محمود مختار باشا ، وقد كان وقوعُ هذه الثورة في (١٣) إبريل ـ نيسان سنة (١٩٠٩ م ـ ١٣٢٧ هـ) .

وفي اليوم التالي لم ينعقد المجلس ، ولكن لما تمّ تشكيلُ الوزارة انعقد بحضور (١٩١) مبعوثاً ، وأصدر المجلس منشوراً يحاولُ فيه تلطيفَ الحادثةِ ، ويحثُّ الرعية على السكون ، ونُقِلَتْ جثةُ الأمير محمد أرسلان باحتفالٍ عظيم إلى بيروت ، حيثُ كان له مأتم لم يسبق نظيرُه ، وبكى الجميعُ شبابه ، لأنه كان في الرابعة والثلاثين من العمر ، وبكوا مزاياه العالية ، وحزن عليه أبوه الأمير مصطفى أرسلان حزناً أثّرَ في صحته ، فلم يعشْ بعدَ ذلك طويلاً .

ولما وصل الخبر إلى سلانيك ، وهي مركز الإتحاد والترقي ، هاج العسكرُ ، ولا سيما الضباط الذين علموا بقتل رفاقهم ، فلم يبطئوا أن زحفوا إلى الأستانة ، فاجتمع الفيلق الثالث ـ أي فيلق سلانيك ـ والفيلق الثاني ـ أي فيلق أدرنة ـ وساروا إلى العاصمة تحت قيادة محمود شوكت باشا ، فوقع الرعبُ في الأستانة ، وخِيْفَ أن تنتقمَ العساكرُ الآتية من أدرنة وسلانيك من العساكر والأهالي الذين قاموا بالثورة الرجعية ، فأرسل الصدرُ الأعظم إلى محمود

---

(١) لندن .

شوكت باشا يقول له : إنّ السكونَ تامٌ في الأستانة ، وأنه لا خوفَ من حرب ، وكان توفيق باشا قد نصحَ للسلطان بعدم المقاومة خوفاً من حرب أهلية .

ولما اجتمعت الجيوش في سان إستفانو ، وذلك في (٢١) إبريل ـ نيسان أقبلَ عليها النواب والشيوخ ، وانعقد مجلس الأمة تحت رئاسة أحمد رضا بك ، ونشروا منشوراً يجعل الأمرَ والنهيَ والاقتصاص من الثائرين في يد محمود شوكت باشا قائد الجيش المسمّى بجيش الحركة ، وكانت العساكر البحرية قد اشتركوا في الثورة من قبل ، ولكنهم لما رأوا القوة أقبلت أسرعوا إلى الخضوع .

وبالإجمال لم يكن في نية توفيق باشا ولا أدهم باشا ، ولا أحد من الوزارة الجديدة مقاومة الفيلقين القادمين من الروملي ، ولكنّ بعضَ العساكر الذين كانوا في ثكنة طاش قشلة ، والذين كانوا هم الثائرين والفاجرين للدماء ، أطلقوا النار على جيوش الروملي ، فوقعت معركةٌ انتهت بفوز جيوش الروملي ، وكذلك وقعت مناوشات خفيفة في ثُكن أخرى ، وانتهت بفوز قوة محمود شوكت باشا ، وكان يحيطُ بقصر يلدز سبعةُ آلافٍ من الجيش الخلص للسلطان ، إلّا أنهم لم يروا السلطان ناوياً المقاومة ، فخضعوا لمحمود شوكت باشا .

وفي (٢٦) إبريل ـ نيسان تقرّرَ في مجلس الأمة خلعَ السلطان ، وصدرت الفتوى من مشيخة الإسلام بأنّه إذا كان زيدٌ ـ الذي هو أمير المؤمنين ـ يحذِفُ مسائلَ مهمّة من كتب الشرع ، وقد يمنع تداولَ هذه الكتب أحياناً[١] ، وكان يخالِفُ الشرعَ في استعمالِ بيتِ مال المسلمين ، ويقتلُ ، وينفي ، ويحبس بمجرد هواه ، ويحنثُ بيمينه الذي أقسمه ، ويُحدِثُ الفوضى في المملكة ، أفلا يجوزُ تخليصُ الأمة من ضرره ؟ أفلا يكون مِنْ مصلحة الأمة خلعُه إلخ ؟

الجواب ؛ نعم .

***

(١) إشارة إلى منع تداول « حاشية ابن عابدين » في زمن السلطان عبد الحميد ، انظر القصة في « مقالات الكوثري » ص (١٠٦) .

٣٥ ـ السلطان محمد الخامس

١٩٠٩ ـ ١٩١٨

وهكذا تقرّرَ خلع عبد الحميد الثاني ، ومبايعةُ أخيه السلطان محمد رشاد ، باسم محمد الخامس ، وذهبت لجنة مؤلفةٌ من عارف حكمت باشا ، وآرام أفندي من أعضاء مجلس الأعيان ، ومن أسعد باشا مبعوث دراج ، قره صو أفندي مبعوث سلانيك ؛ فبلّغوا السلطان قرارَ خلعه ، وفي يوم الأربعاء (٢٨) إبريل ـ نيسان الساعة الثامنة والنصف مساءً جاء القائد حسين حسني باشا ، وعلي فتحي بك ، وأبلغا السلطان قرار نقله إلى سلانيك ، وسفّروه في نصف الليل ، وكان معه نساؤه ، واثنان من أولاده ؛ الأمير عبد الرحيم أفندي وعمره (١٦) سنة والأمير محمد عابد وعمره (٦) سنوات ، ولم يصحبْهُ إلا أربعةٌ من الخصيان ، وتسعةٌ من الخدم .

وبعد نقل السلطان إلى سلانيك ، ومبايعة أخيه ، سكنت الأمور ، وأعلنت الإدارة العرفية في العاصمة ، وتألّف مجلسٌ حربي لمحاكمة الذين أحدثوا الثورة ، وسفكوا الدماء ، فصدر الحكم بشنق عددٍ من هؤلاء ، ولا شكَّ في أنّه كان قد بقي أناسٌ كثيرون متحفزون لإعادة السلطان عبد الحميد إلى العرش في أول فرصة ، ولكنّ هذا الحزب كان يرى لزومَ السكينة إشفاقاً على الدولة .

ولما اشتعلت الحرب البلقانية أعادت الدولة السلطان عبد الحميد إلى الأستانة ، وأنزلته في قصر بكلربك حيث بقي إلى أن مات سنة (١٣٣٥ هـ ـ ١٩١٧ م) **وحضرتُ مأتمه ، وشهد الجمهورُ بحقه شهادةً حسنةً ، لأنهم كانوا يعتقدون إسلامه وإيمانه** [١] .

---

(١) قال فارس الخوري : تأكد لي فيما بعد بما لا يقبل الجدل أن هذا الخليفة الإسلامي قد راح ضحية ثأر اليهودية العالمية التي ساءها رفضه لاقتراح تيودور هرتزل ، واتخاذه مختلف الوسائل لمنع اليهود من الهجرة إلى فلسطين ، ووضعه قانون الجواز الأحمر =

وبعد أن بويع السلطان محمد الخامس ، أعيدَ حسين حلمي باشا إلى الصدارة ، وبقي النفوذُ الحقيقي لجمعية الاتحاد والترقي ، فحصلَ بين الجمعيةِ وحسين حلمي باشا اختلافٌ أدى إلى استقالته .

فاستدعى الاتحاديون إبراهيم حقي باشا سفير الدولة في رومة ، وجاء إلى الأستانة في (١١) يناير ـ كانون الثاني سنة (١٩١١ م ـ ١٣٢٩ هـ) فاختار حقي باشا لنظارة الحربية محمود شوكت باشا ، وصار طلعت بك ناظراً للداخلية ، وجاويد بك للمالية ، ورفعت باشا للخارجية ، ونجم الدين ملاّ بك للعدلية ، وحلاجيان أفندي للنافعة ؛ والأميرال خليل باشا للبحرية ، والشريف علي حيدر باشا للأوقاف ، وأمر الله أفندي للمعارف ، وتوّلى مشيخة الإسلام القاضي حسين حسني أفندي .

وعندما قُرىء برنامج الوزارة الجديدة في المجلس نالت (١٨٧) صوتاً ضد (٣٤) من المعارضين . واستنكف (٢١) مبعوثاً عن إعطاء أصواتهم ، فكان مبدأ وزارة حقي باشا مؤذناً بالنجاح ، إلا أن الأمر كان لا يزالُ في يد الاتحاديين ، فاشتدت من أجل ذلك المعارضة ، وكان حقي باشا ، ومحمود شوكت باشا ، ورفعت باشا ، من أعضاء الوزارة معتدلين ، على حين أنّ طلعت بك ، وجاويد بك ، وحلاجيان أفندي ، كانوا يريدون إجراء برنامج الاتحاد والترقي بزرّه

= الخاصّ بكل يهودي يدخلها للسياحة والزيارة ، ومنعه إياهم من تملك الأراضي مما أدى لحنقهم عليه ، وشروع منظماتهم بالعمل مع الدول الاستعمارية على مناوأته شخصياً وعلى كيان الدولة العثمانية يوم اتخذوا من مدينة سلانيك وكراً رئيسياً لدسائسهم ومؤامراتهم ، لأن هذه المدينة تضم عدداً كبيراً من الدونمة اليهود ، الذين انتحلوا الإسلام ، وتظاهروا باعتناقه ، والعمل له ، وتغلغلوا بواسطة ذلك في مختلف وظائف الدولة العثمانية ، حتى تمكن فريق منهم من بلوغ أعلى المناصب ، فكان منهم الوزراء والنواب والصحفيون والكتاب والأساتذة والتجار .

وكان أحد الثلاثة الذين انتدبهم مجلس المبعوثان العثماني لإبلاغ السلطان عبد الحميد الثاني قرار خلعه عن العرش نائب يهودي يدعى عمانويل قره صو أفندي انظر « فارس الخوري وأيام لا تنسى » للأستاذ محمد الفرحاني ص (٣٠٢) و « أوراق فارس الخوري » الكتاب الأول ص (٤٠٤) .

وعروته ، فوقع الخلافُ في وسطِ الوزارة ، وصار الاتحاديون الغُلاة يريدونَ إسقاط حقي باشا من الصدارة .

ثورة الأرناؤوط

وفي ذلك الوقت جرت ثورةُ الأرناؤوط ، وأساسُها أنّه بعد مؤتمر برلين تألفتْ جمعيةٌ في بلاد الأرناؤوط مبدؤها المحافظة على الوطن الألباني ، وهذه المحافظة كانت تقتضي مقاومة الأروام من جهة ، والصربيين من جهة أخرى ، فنظر السلطانُ عبدُ الحميدِ إلى الموضوع فوجده موافقاً لسياسته ، ولسياسةِ الدولة العثمانية ، فأخذ يقوِّي الأرناؤوط عمداً ، ويمدهم بالمال ، ويولّيهم المناصبَ ، ويعتمد عليهم أكثرَ من سواهم ، وما عاشت الجمعية الأرناؤوطية إلّا بفضل إمدادِ السلطان عبدِ الحميد لها ، فقد كان يتخذُ الأرناؤوطَ ردءاً له في مقاومة البلقانيين الذين ينوون الاستيلاء على بلاد الروملي كالصرب والبلغار ، واليونان ، وكان أيضاً يتخذ الأرناؤوط بطانة له ضد حزب جون تورك ، الذي كان يعلم أنه لن يرضى عنه ، وكان بلغَ [من] عدم ثقته بالترك أن جعل الحرس السلطاني الخاصّ كلُّه من العرب والأرناؤوط ، فكان حول قصر يلدز بضعة عشر طابوراً من العساكر ، نصفُها من العرب بزي خاص بهم يلبسون العمائم ، وأكثرُهم من عرب اليمن ، والنصف الآخر كان من الأرناؤوط بزيهم الخاص .

وكان قد اعتنى جد الاعتناء بتعليم هذا العسكر الخاص ، وتدريبه ، وترفيه معيشته ، والتأنق في كسوته ، حتى صار من الطبقة الأولى في عساكر العالم ، لا يفضُله عسكرٌ آخر .

ولما زار إمبراطور ألمانية غليوم الثاني صديقَه السلطان عبد الحميد الثاني ، واستعرضَ أمامه هذا الحرس الخاص ؛ ابتهج الإمبراطور به ابتهاجاً أكيداً ، وقال : إنه يضاهي أحسن عسكره في ألمانية .

وكان إذا خرج السلطان يوم الجمعة للصلاة أُقيمت له مراسمُ حافلة ، تتجلى فيها الهيبة الملوكية إلى الدرجة القصوى ، ويسير الوزراء والقواد أمام مركبة

السلطان مشاة على الأقدام ، وتصطف عساكر الحرس المذكور عن الجانبين ؛ العربُ من جهة ، والأرناؤوط من جهةٍ ، فيكونُ لذلك أبّهة وروعة لا ينكرِها أحدٌ ، وكان يسمّى هذا الاحتفال برسم السَّلَمْلِك ، فيقصده كبارُ الأجانب والسياح من جميع الأقطار ، وقلّما كان السلطان يخرج من قصره إلاّ لصلاة الجمعة ، وكان سفراء الدول يذهبون غالباً لشهود هذه الحفلة ، وكان اقتصار السلطان في حرسه على العرب والأرناؤوط دليلاً واضحاً على عدم ثقته في الأتراك الذين يوجد منهم غالباً مَنْ ينوي له السوء .

وقد كنّا نلاحظ أيضاً أنه عندما يخرجُ لصلاة الجمعة ـ سواء كان راكباً جواداً أو راكباً عربة ـ يكون عن جانبيه فارسان ؛ كلٌّ منهما سيفُه مسلولٌ في يده ، وهما أيضاً عربيان ، أحدهما محمد باشا العرقسوسي من دمشق ، والثاني علي باشا قيراط من طرابلس الغرب .

فلمّا تولّى السلطان محمد رشاد وصار الأمر إلى حزب جون ترك نثروا هذا الحرس الخاص من أرناؤوط وعرب نثراً ، ولم يبقوا له أثراً .

ونعودُ إلى ذكر إقبال السلطان عبد الحميد على الأرناؤوط فنقول : إنه أمتعهم بامتيازات كثيرة ، وأعلقهم حبال الارتباط بشخصه ، حتى صاروا لا يبغون منه بدلّا ، ولا عنه حِوَلّا .

ولما قام الاتحاديون بالانقلاب وإعلان القانون الأساسي ثقل ذلك على الأرناؤوط ، وتوجّسوا خيفة قسر حريتهم ، لأن القانون الأساسي كان معناه المساواة التامة بين الرعية ، وهم لم يكن السلطان يعاملهم بالحقيقة بالمساواة ، بل كان يميزهم على غيرهم ، ويُسبغ عليهم من النعم مالا يعرفُه فريقٌ آخر من الرعية ، ولذلك اجتهدت جمعية الاتحاد والترقي في استرضاء الأرناؤوط بجميع الوسائل ، حتى لا يناهضوا الدستور ، ووعدتْهُم بإبقاء امتيازاتهم الأولى ، وبفتح مدارس تعلم فيها لغتهم ، وباعتبار اللغة الأرناؤوطية لغة رسمية في بلادهم ، وبمعاملتهم في كثير من الأحيان بحسب تقاليدهم وعاداتهم ، وبتعزير الشرع الإسلامي فيما بينهم ، وأخذت توزّع الأسلحة على الأرناؤوط ، ليتمكنوا من مقاومة الصربيين ، وأهالي الجبل الأسود ، وكل هذا قصدتْ به جمعيةُ

الاتحاد والترقي اجتذابَ الأرناؤوط إلى ناحيتها ، حتى لا يعارضوا نشر الدستور ، ولا يحدِثوا عليه ثورةً ، وهم أسرع الناس إلى الثورات . إلا أنّ الأرناؤوط كانوا لا ينسون منزلتهم الخاصة عند السلطان عبد الحميد ، وكانوا لا يثقون في حزب جون تورك ، ففي أول سبتمبر ـ أيلول سنة (١٩٠٩ م ـ ١٣٢٧ هـ) أرسلوا وفداً إلى سلانيك ، يطالب بإعادة الأحكام في ألبانية إلى الشرع الشريف ، وبالاعتراف بامتيازاتهم ، وبتأسيس مكاتب أرناؤوطية على نفقة الدولة مما لم يكن ليُرضي جمعيةَ الاتحاد والترقي ، التي داهنتهم في أول الأمر من قبيل التسكين وتخدير الأعصاب ، حتى لا يثوروا في وجه النظام الجديد ، فلما رأتهم ممعنين في الادلال ، متعنتين على الدولة بصنوف المطالب ، قررت بإزائهم إرهافَ الحد ، وإدخالهم في الطاعة كسائرِ أجناس الرعية ، وكان بين الأرناؤوط رجل اسمه عيسى بولاطين من زعمائهم ، ولم يكن يراعي القوانين ، ولا يتحرّجُ عن القتل والنهب إذا ألجأه الأمر ، وكان السلطان عبد الحميد يصيبه بنعمه المتواترة حتى تسلَم البلادُ من عَيْثِه[1] ، فلما أُعْلِنَ الدستور لزم عيسى بولاطين بيته ساكناً ، ولكنّ الاتحاديين لبثوا يحسبون له حساباً ، فأصدروا الأوامر إلى الحكومة المحلية بنزع سلاح عيسى بولاطين ، والجماعة التي حوله ، ومن المعلوم أنّ الأرناؤوطي يؤثر الموتَ على تسليم سلاحه ، فعصى عيسى بولاطين الأمر ، فساقت الدولة عسكراً بقيادة جاويد باشا ، فذهب هذا الجيش ، ودمّر القرى ، وأوقع بأهلها ، ودكّ الحصنَ الذي يسكنه عيسى بولاطين ، فثار الأرناؤوط في كل الجهات من أجل ذلك ، واتسعت الثورة ، فضاعف جاويد باشا القوة ، وبطش بالثائرين بطشةَ جبّارين ، ونزع الأسلحةَ من أيدي الأرناؤوط ، وتقاضى منهم[2] غرامات ثقيلة ، وقيل : إنه قتل النساءَ والأولاد ـ وهذا ما لا نعتقده ، ولكنه أشيع يومئذ عمداً ـ فاجتمع ثلاثة آلاف أرناؤوطي في فيرزوفيتش لأجل الاحتجاج ، فرماهم جاويد باشا بالقنابل ، وشرّد بهم مَنْ خلفهم ، ثم أخذت الدولة بإحصاء النفوس ، فازداد

---

(١) فساده .

(٢) في الأصل (مقاضاتهم) .

قلق الأرناؤوط ، وعلموا مِنْ هذا أنّ الدولة تريدُ إجراءَ الخدمة العسكرية في ألبانية ، وكان مقصد الجون تورك في الواقع أن يلغوا امتيازات الأرناؤوط تدريجاً ، وأن يجبروهم على دفع الضرائب التي تدفعها سائر الرعية ، وأن ينسوهم تلك الدالّة التي عوّدهم إياها السلطان عبد الحميد ، وكل هذا كان بعيداً عن أن يرضَى به الأرناؤوط .

وفي (١٧) يوليو ـ تموز سنة (١٩٠٩ م ـ ١٣٢٧ هـ) عقد الأرناؤوط في فريزوفيتش مجمعاً عاماً للتحدث فيما بينهم في ما يجب أن يعملوه لمعالجة هذه الحالة ، فأرسلت جمعية الاتحاد والترقي نيازي بك أحد أركانها لأنه أرناؤوطي ، وأصحبته بجماعة من المخلصين لها ، على أمل أن يصرفوا الأرناؤوط عن المطالبة بما يخالِفُ مصالحَ الدولة ، فلم تقترن مساعيها بالنجاح ، لأنّ المؤتمر الأرناؤوطي قرر أن يكون للأرناؤوط حق بتولي المناصب الإدارية ، وبتعليم اللغة الأرناؤوطية ، واقترحَ توسيعَ سلطة مجالس الولايات ، وإنشاء الطرق ، وعقد اجتماع سنوي للأمة الأرناؤوطية ، وعدم التقاضي[1] [من] الأرناؤوط شيئاً من الضرائب عدا العشر ، وأن يؤخذ معدل خمس سنوات ، ويجعل منه متوسط ، ويصير جبايةً ثابتة ، وغير ذلك من الاقتراحات التي رأت فيها جمعية الاتحاد والترقي مقدمةً لاستقلالٍ داخلي في ألبانية ، وكانت بلاد ألبانية الجنوبية ساكنة ، بخلاف ألبانية الوسطى والشمالية ، إلا أنّ الحركة في آخر الأمر شملت الجميعَ ، وقرر الأرناؤوط فيما بينهم الحربَ لأجل الاستقلال بإدارتهم الداخلية ، وتحفزوا للقتال .

وفي سنة (١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ م) بدأت الثورة في نواحي برشتينة بسبب الضرائب ، فأسرع الأرناؤوط من سائر الجهات إلى نجدة أرناؤوط برشتينة ، فأرسلت الدولة جيشاً نحو عشرين ألف مقاتل ، ومعهم ثلاثون بطارية من المدافع تحت قيادة شوكت تورغوت باشا ، فقاتلوا الأرناؤوط قتالًا شديداً ، ولكنهّم لم يقدروا عليهم ، ولا سيما في مضيق كاتشانيق وهو موقعٌ شديد المنعة

---

(١) أي الأخذ .

في ولاية قوصوه ، احتله الأرناؤوط ، وعجز العسكر عن أخذه ، فما زال تَرِدُ الإمداداتُ إلى شوكت تورغوت باشا ، حتى تمكَّنَ من الاستيلاء على المضيق ، وهزم الأرناؤوط بعد وقائع دموية ، ودمّر لهم قرى كثيرة ، فانتقلتْ مقاتلةُ الأرناؤوط إلى مضيق تشرنالوقة ، ولبثوا يقاتلون ، فأرسلت الدولة محمود شوكت باشا ينصح للأرناؤوط بالكف عن القتال ، وبالدخول في طاعة الدولة ، فتوفق في مهمته ، وأخلد الأرناؤوط إلى السكينة .

إلا أنّ عيسى بولاطين ، وإدريس صقر ، وعدة آلاف من الثائرين معهما ، لاذوا بالفرار إلى جهة الجبل الأسود ، وإلى قرى الأرناؤوط الكاثوليك ، وكانت الثورة الأرناؤوطية ، في بداية الأمر قاصرةً على الأرناؤوط المسلمين ، ففي سنة (١٣٢٩ هـ ـ ١٩١١ م) انضم إلى المسلمين قبائل الأرناؤوط الكاثوليك ، وصارت جمعيات الأرناؤوط في إيطالية وورمانية تمدُّ الثورة ، وجاءت إلى الأرناؤوط نجدات من الجبل الأسود ، وصار ثوار الأرناؤوط يلجؤون إذا ضاقت بهم الحال إلى أرض الجبل ، وعادت الثورة ، فازدادت اشتعالاً ، وعَبَّئَتِ الدولةُ ستين طابوراً ، وأخذ شوكت تورغوت يدمِّر قرى الماليسور ، المارديت من الأرناؤوط الكاثوليكيين ، فعند ذلك توسطت دولة النمسة والمجر لدى الباب العالي ، لأجل الكف عن سفك الدماء ، فاستمعت الدولة لنصيحة النمسة ، وأخذت في تضميد جروح الأرناؤوط بما أمكن ، وسكن الأرناؤوط ، ولكنهم رجعوا إلى اقتراحاتهم الأولى ، وهي احترام الدولة لعاداتهم القومية ، واستقلال التعليم في مكاتبهم ، واستعمال الحروف اللاتينية ، ومنح ألبانية إدارة لامركزية ، وإنفاق ما يفيض من واردات ألبانية على منافع هذه البلاد ، واجتمع مبعوثو الأرناؤوط تحت رئاسة حسن بك مبعوث أسكوب ، وقرّروا هذه المطالب ، فأجابت الدولة بالقبول ، وأصدرت العفو عن جميع الثائرين ، وسامحت في كثير من بقايا الأموال الأميرية ، ورضيت بأن تكون الخدمة العسكرية سنة في الأستانة ، وسنتين في نفس ألبانية ، وأوجبت أن يكون المأمورون في ألبانية عارفين باللغة الأرناؤوطية ، وأخذت الدولةُ ترمِّمُ البيوتَ التي دمرتها العساكر ، ووزعت مبالغ من النقود على المصابين ، وهكذا سكنت الثائرة الأرناؤوطية ، وذهب السلطان محمد الخامس بنفسه إلى بلاد الأرناؤوط

وصلّى في صحراء قوصُوَه ووراءه جمعٌ قيل : إنه مئة ألف مصلٍّ ، ورجع إلى الأستانة مسروراً .

* * *

وفي تلك الأيام بدأ الشقاق بين أعضاء الاتحاد والترقي أنفسهم ، واختلفت الآراء في مجرى السياسة التي يجب على الجمعية اتباعها ، فخرج منها أناس مغاضبين ، منهم الأميرلاي صادق بك ، الذي كان من مؤسّسي جمعية الاتحاد والترقي ، فانفصل عن الجمعية ، وألف حزباً جديداً معاكساً لها ، ثم استعفى طلعت بك ، وأمر الله أفندي ، وحلاجيان أفندي من النظارات[١] ، التي كانوا يتولونها ، وظهر للناس ضعف الحكومة ، ولم يكن مجلس المبعوثين بأحسن منها حالاً ، بل كانت تتوالى فيه المشاحنات والمهاترات بين الأحزاب ، ومرةً جرت حادثة بين نواب العرب ونواب الترك ، وكادوا يتضاربون .

والخلاصة أنّ العثمانيين كانوا في ذلك الوقت يمزّقُ بعضهُم بعضاً ، وكانت كلُّ العلامات تؤذِنُ بسوءِ المصير ، وإذا بحادث طرأ بغتةً ، وهو أنَّ إيطالية أعلنت الحرب على تركية ، أو تتخلى لها عن طرابلس الغرب وبرقة ، وكانت مطالِبُ إيطالية عبارة عن خمسة [مطالب] وهي :

خروج العساكر العثمانية من طرابلس ، وبنغازي ، ودرنة .

وتشكيل جندرمة فيها تحت قيادة ضباطٍ من الطليان .

وأن تكونَ إدارةُ الجمارك بأيدي مأمورين من الطليان أيضاً .

وأن لا يتعيّنَ والٍ لطرابلس إلا برضى إيطالية .

وأُعطيَ الباب العالي مدةَ أربع وعشرين ساعة ليجيبَ بالقبول ، فاجتمع مجلسٌ فوق العادة في القصر السلطاني ، وسمع حقي باشا الصدر الأعظم كلاماً مهيناً بسبب إهماله وعدم احتياطه ، لأنّ سعيد باشا رئيس مجلس الأعيان ذكر له أنّ مطامع إيطالية لم تكن مجهولةً عند تركية ، وأنه سبق لإيطالية أنْ قدمت مذكرةً

---

(١) الوزارات .

إلى الباب العالي سنة (١٣٢٢ ـ ١٩٠٤) بعد اتفاق إيطالية مع فرنسة وإنكلترة تقول فيها : إنّها ما دامت الحالة غير متغيرة في البحر المتوسط ، فإنّ إيطالية لا تدّعي بشيءٍ في طرابلس الغرب ، ولكن إذا حصل تغيير في البحر المتوسط يخلّ بالتوازن الدولي ، فهي مضطرة أن تتخذَ تدابيرَ لوقاية مصالحها .

ثم إنّ حقي باشا كان سفيراً في رومة ، فكان يجبُ عليه أن يطّلع على حقيقة نيات إيطالية ، وليس لحقي باشا عذرٌ في غفلته هذه ، فثبت بحق حقي باشا ما أوجبَ استقالته ملوماً ، بل مغضوباً عليه ، ولم يقدر هو أن يدافعَ عن نفسه ، ثم أجاب الباب العالي برفض مطالب إيطالية قائلاً لها : إذا كانت ستصمم على احتلال طرابلس ، فإنّ الدولة ستقوم بالواجب عليها بإزاء اعتداءِ إيطالية .

وحقيقةُ مسألة طرابلس الغرب من أولِها إلى آخرِها لا تخرجُ عن كون إنكلترة وفرنسة تقاسمتا أفريقية ، وذلك على أثرِ حادثة فاشودة المشهورة ، التي كادَتْ توقِعُ الحربَ بين هاتين الدولتين ، فعندما اقتنعت فرنسة بإرجاع جنودها من فاشودة ، اتفقت الدولتان على تقسيم أفريقية كلِّها تقريباً بينهما ، على قاعدة أنّ فرنسة تسكتُ لإنكلترة على وادي النيل وجميعِ توابعه ، وعن امتلاكِ الخط الممتد من البحر المتوسط إلى الكاب ، وبمقابلة ذلك توافق إنكلترة على احتلال فرنسة للمغرب بحذافيره وتوابعه .

وقد كانت هذه السياسة التي اتفقت فرنسة وإنكلترة عليها هي الأصل الأصيل في الحرب العامة ، ولولاها كان يبعدُ كثيراً وقوعُ هذه المجزرة البشرية الكبرى ، وذلك لأنّ ألمانية وجدت في عمل فرنسة وإنكلترة هذا استخفافاً بها ، وجهالةً لمكانتها بين الدول العظام ، وأخذتْ من ذلك الوقت تترصّدُ الفرصةَ لإظهار ما في نفسها من عمل إنكلترة وفرنسة ، وأبتْ أن تعترفَ لفرنسة بحقّ احتلال مراكش .

وسيكون لهذه المسألة أدوار أخرى تمرُّ بها ، وتزيدُ العداوة بين ألمانية وإنكلترة ، إلى أن تنشبَ الحرب العامة ، لأنه عندما اشتدت الأزمة بين فرنسة وألمانية من أجل استيلاء فرنسة على مُراكش ؛ كان الفرنسيس سألوا الإنكليز عما يكونُ من موقفهم في هذا الخلاف ؟ فأجابوهم بأن الأسطول الإنكليزي حاضرٌ

للعمل إلى جانب فرنسة ، فكان هذا الجواب هو أعظم عاملٍ في زرعِ العداوة بين الألمان والإنكليز .

فالحرب العامة إذاً ، وإن تعدَّدَتْ أسبابُها ، فقد كان السبب الأقوى في نشوبها اتفاقُ إنكلترة وفرنسة على تقسيم أفريقية ، وانتهاء الأمر باحتلال فرنسة للمغرب بمساعدة إنكلترة .

فإنكلترة من زمن قديم تريدُ أن تربطَ شرقي أفريقية بالهند ، وتجعل من ذلك مستعمرةً واحدةً ، ولأجل تحقيق هذا المشروع توسلتْ بوسائلَ لا تُحصى :

أولها : **القضاء على الدولة العثمانية** ، حتى يتسنَّى لإنكلترة وضعَ يدها على جزيرة العرب ، التي هي حائلة في الوسط بين أفريقية والهند .

الثاني : **القضاء على استقلال الدولة الإيرانية** ، وقد كانت إنكلترة اتفقت سنة (١٢٢٩ هـ ـ ١٩١١) مع روسية على اقتسام المملكة الفارسية ، فجعلوها ثلاث مناطق ؛ الشمالية **تحت تصرف روسية** ، والجنوبية **تحت تصرف إنكلترة** ، والمتوسطة مستقلة إلى حدٍّ محدود ، تحت نفوذ الدولتين .

وهكذا أصبح ممكناً أن تَمُدَّ إنكلترة خطاً حديدياً في جنوبي فارس آتياً من الهند إلى العراق ، ثم تمدَّهُ في أراضي الدولة العثمانية من حدود فارس في أرض العراق وفلسطين إلى مصر ، وهكذا إلى رأس الرجاء الصالح ، وتكونُ جميعُ البلدان التي سيمرُّ بها هذا الخط من أملاك إنكلترة خالصةً لها .

فما اكتفت إنكلترة بالاستيلاء على بلاد الهند التي فيها (٣٢٠) مليوناً من السكان ؛ بل حاولت أن تطفر من الهند إلى أفريقية ، وتجعل هاتين القارتين ؛ غربي آسية ، وشرقي أفريقية قطعة واحدة ، لا ينازعها فيها منازع ، وكأنها تريد أن تأخذ موثقاً على الدهر ، وتجعل الفلَك الدوَّار يدور على محور إرادتها ، فجميعُ هذه الأمم من هنود ، وإيرانيين ، وعرب ، ومصريين ، وأحباش ، وصوماليين ، وزنوج ، لم يوجدوا في نظر إنكلترة ليكون لهم حرية في أنفسهم ! وإنما أوجدهم الله ليكونوا رعايا لإنكلترة حتى تكونَ لها الكبرياء في الأرض ، ولأجل إتمام تصورها هذا لزم لها أن تسترضيَ فرنسة ، فتبيحها احتلال المغرب ، واسترضاء إيطالية فتتفق مع فرنسة ، ويسمحان لها باحتلال طرابلس

الغرب ، فهل تمكنت إنكلترة من تطبيق برنامجها الواسع هذا ؟

الجواب أنها قد لقيت في تطبيقه ما لم تكن تتوقعه ، بل ما لم يكن يخطر لها على بال ! فأول خرقٍ وقع في هذا البرنامج وقع من جهة فارس ، فإنّ إنكلترة كانت تقاسمت فارس هي وروسية قبل الحرب العامة ، ثم جاءت الحرب العامة ، فكانت نتيجتُها الظفرُ الأكبر لإنكلترة ، وكان من المعقول أن إيران بعد هذا الظفر تصبحُ ـ لا سيما المنطقة الجنوبية منها ـ مستعمرةً إنكليزية ، فكان الذي حصل هو عكس ذلك ، ورجعت إيران ، فأخرجتِ الإنكليزَ والروسَ من بلادها ، ورجع خط الاتصال بين الهند ومصر منقطعاً .

وأما الخرق الثاني في برنامج السلطنة البريطانية هذا ، فقد وقع من جهة بلاد العرب ، فقد كانت إنكلترة تفكِّر بأنّها إذا قضت على الدولة العثمانية كانت هي الوارثة لها في بلاد العرب ، فتتصرف بهذه البلاد كما تشاء ، والملك حسين بن علي الذي زعمتْ أنها حالفتْهُ ، واعترفتْ باستقلاله بدل قيامِهِ على الأتراك ؛ إنما تجعلُ له الحكم في الحرمين الشريفين فقط ، وهو مع ذلك سيكونُ مضطراً إلى قبول أيةِ كلمةٍ تصدرُ منها .

وأما نجد والعراق وفلسطين ، فهذه كانت في نظر إنكلترة مرشحةً لتكونَ من المستعمرات البريطانية ، فظهر لها بعد الحرب العامة ، وبعد ظفرها مع حلفائها أنّ العراق لا يرضى أن يكونَ من جملة مستعمرات إنكلترة ، وما زال يثورُ حتى اضطرت انكلترة إلى الاعتراف باستقلاله ، وهي وإن كانت اتفقت مع العراقيين على تأمين المواصلات الإمبراطورية كما يقال ، فهذا التأمين للمواصلات ليس بسرمد ، كما أنّ نجداً مع توابعه الواصلة إلى الجوف ، وإلى قُرّيات الملح على مقربة من شرقيّ الأردن ؛ بقي مستقلاً تمام الاستقلال ، يليه مَلِكٌ عظيم الشأن هو عبد العزيز بن سعود ، وقد أوسع ملكه بالاستيلاء على الحجاز ، وصارت هناك دولة عربية مؤلّفة من نجد والحجاز وعسير ، يسكنها زهاء خمسة ملايين من قبائل العرب المسلحة ، ولا يسهل على إنكلترة أن تلعبَ بها كما تشاء ، ولا أن تجعلَ فيها خطوط مواصلات ، فلذلك كان هذا هو الخرق الثاني في البرنامج البريطاني .

ثم بينما هي تظنُّ أنها قد تملّكت مصرَ ، ولم يبقَ لها معارِضٌ فيها ولا في السودان ، وبينما هي تقيم القيامة اليومَ لأجلِ منع إيطالية من الاستيلاء على الحبشة ، حتى تؤمنَ السلطنة التي تحلمُ بها من البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح ؛ ظهر لها خرقٌ ثالث في هذا البرنامج ، وهو قيامُ المصريين عن بكرةِ أبيهم يبلّغون إنكلترة أنَّ جميع مماطلاتها لن تفيدَها شيئاً في حل الخلاف الذي بينها وبين مصر ، وهو الخلاف الذي يأبى المصريون أن يعرفوا له حلاً غير مؤسَّسٍ على استقلال مصر التام ! . فهذه إذاً ثلاثة خروق ؛ أولها إيراني ، والثاني عربي، والثالث: مصري ـ في هذا البرنامج الواسع الذي حلمت به إنكلترة .

وليس الإنكليز بأول كتلة بشرّية اتسع سلطانُها حتى أفقدَها رشدَها ، وجعلها تحاوِلُ تخليدَ حكمها على آفاق لا تغربُ الشمس عنها ، بل من قبلها سَكِرَتْ أممٌ كثيرة بخمرة العِزِّ ! وبينما هي تظنُّ أنْ لم يبقَ لها منازعٌ في الدنيا ؛ جاءتها الحوادثُ بما لم يكن في حُسبانها ، وخسرت ما كانت قد تظنّه مما ملكت أيمانُها ، وظهر على الأمر مَنْ لم يكونوا لها على بالٍ ، ولا بدّ أن يصُدقَ فيها قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٨ ـ ٢٩] .

ونعود إلى غارة إيطالية على طرابلس الغرب فنقول : إنها وإن كانت قد اعتذرت بكون الإنكليز والفرنسيس تقاسمتا أفريقية ، ولم تُبْقِيا لها شيئاً غيرَ طرابلس الغرب ، فاضطرت إلى احتلالها ؛ فإنّه لم يكن من ضمير حي ، ووجدان قوي ، ليقبلَ هذا التعليل ، ويجعله حجةً !! . وإنْ كان مما لا شكَّ فيه أنَّ إنكلترة وفرنسة كانتا على وفاقٍ مع إيطالية في قضية طرابلس ، ولذلك عندما استغاثت تركية بدول أوربة جمعاء مما فعلتْه إيطالية أصمّت إنكلترة وفرنسة آذانهما عن سماع نداء تركية !! **وليتأمّل المتأمل في تلوّي السياسة ، ودناءة مبادئها** ، وذلك عندما يرى أن اعتداء إيطالية على طرابلس لم تقابله إنكلترة بأدنى كلمة استنكار ، على حين أنها ـ أي إنكلترة ـ اليوم تحشد (١٨٠) بارجة حربية ، وتجمع كلمة خمسين دولة من أعضاء جمعية الأمم على مقاطعة إيطالية التجارية ، **بحجة أنّ إيطالية شنّت الغارةَ على الحبشة ظلماً وعدواناً** ، وكأنَّ

الغارةَ على طرابلس لم تكن ظلماً وعدواناً !! ﴿ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا ﴾ [التوبة : ٣٧] ويفضحون أنفسهم أمام التاريخ ، ولا يبالون بما يقال عنهم .

الحرب في طرابلس الغرب

أرسلت إيطالية في (٢٩) سبتمبر ـ أيلول سنة (١٩١١ م ـ ١٣٢٩ هـ) أسطولًا عظيماً إلى مرسَى طرابلس ، فأنذر البلدةَ بالضرب إن لم تستسلم له ، فأبت البلدة الخضوع ، فبدأ يرميها بالقنابل ، وما زال يرميها حتى تمكّن من احتلالها في (٧) أكتوبر ـ تشرين الأول ، ولم يكن فيها قوة من الجيش التركي النظامي غير ألفين إلى ثلاثة آلاف عسكري ، لم يكن لها قِبَل بتجريدة إيطالية ، لا في العدد ولا في العتاد ، وإنما كان الأهالي العرب هم الذين تولوا كِبْرَ المقاومة .

وبعد أن نزل الطليان بساحة طرابلس ، حاول العرب أن يردّوا العسكر الإيطالي إلى البحر ، فاقتتل الفريقان من (٢٣) أكتوبر ـ تشرين الأول إلى (٢٦) منه بشدةٍ نادرةِ المثال ، وكاد العربُ يَقْلَعُون الطليان من طرابلس ، ولولا امتناع الطليان بقلاع طرابلس لأخرجوهم منها ، ولكنهم امتنعوا ريثما تكاملت جموعُهم بوصول الإمدادات من البحر ، وردّوا العرب إلى الوراء ، بعد أن لحقت بالطليان خسائر جسيمة ، ومن شدة ما لحق بهم من الخسائر ارتكبوا فظائعَ لا تزالُ وصمةَ عارٍ عليهم في التاريخ ، وذلك في حادثة المنشية التي ذبحوا فيها الأهالي ، ولم يستثنوا أحداً لا النساء ولا الأطفال !! ونشرت ذلك الصحف الأوربية ـ حتى الصحف المعادية منها للإسلام ـ فانكفأ الطرابلسيون إلى واحة عين زارة ، فتقدم الطليان بقوة كبيرة ، وأخرجوهم منها ، فانكفأوا إلى غريان ، وصاروا يناوشون الطليان القتال بينها وبين مدينة طرابلس ، وقد طرح مبعوثو طرابلس قضية بلادهم في مجلس الأمة العثمانية ، فحصلت المناقشات فيها ، فتبيّنَ من إهمال الحكومة العثمانية في ظل الدستور والحرية ما لم يكن معهوداً في زمن السلطان عبد الحميد الذي رموه بكل سوء . فمن جملة ذلك أنّ حامية طرابلس كان ينبغي أن تكون بحسب النظام (١٧) طابوراً من المشاة و(١٠)

كواكب من الفرسان ، وست بطاريات من مدافع الصحراء ، والحال أنّه لم يوجد في كل طرابلس إلا أربعة آلاف جندي نظامي لا يزيدون ، وأنّه كان أهالي طرابلس قد اقترحوا التجنيدَ من تلقاء أنفسِهم ، وقرر المجلس في السنة السابقة النفقات المالية لذلك ، وعندما حضر الشبان للتجنّد ، وكانوا ستة عشر ألفاً ، لم تَقْبَلْ القيادةُ منهم إلا ثلاثة آلاف وأربعمئة .

وكان يوجدُ في طرابلس أربعون ألف بندقية من نوع مرتيني ، ونوع شنَيْدَر ، فاسترجعتها الحكومة إلى الأستانة على وعدِ أن تُرسِلَ بدلًا عنها أربعين ألف بندقية موزر ، فنسيت الحكومةُ هذا الوعد ، ولم ترسل شيئاً .

وتبين أنّ المشير إبراهيم باشا الذي كان والياً لطرابلس قبل ذلك بسنوات اقترحَ تأسيسَ معمل سلاح ، وخراطيش للبنادق في نفس طرابلس ، وكتب إلى الباب العالي بأنّ أهالي طرابلس أشداء ، ذوو بصائر في الحروب ، إذا أغارت عليهم دولة أجنبية يقدرون أن يدفعوها عن بلادهم ، بشرط أن يكون عندهم الأعتدة والأسلحة الكافية ، ولما كان لا يوجد عند الدولة قوة بحرية تؤمِّنْ إيصالَ الأسلحة إلى طرابلس فيما إذا أغارت على هذا القطر دولةٌ كدولةِ إيطالية ، فإنّه يجب إرسال كمية وافرة من الأسلحة إلى تُكن طرابلس ، وتأسيس معمل للسّلاحِ أو للرصاص على الأقل في نفس طرابلس ، بحيث يكون في أيدي الأهالي معدات كافية يدافعون بها عن أنفسهم عند الحاجة ، فهذا الاقتراح أهمله البابُ العالي ، ولم ينظرْ فيه ، برغم النُّذُر الكثيرة التي كان يتلو بعضها بعضاً ، بأنّ إيطالية تتأهب من زمن طويل للإغارة على طرابلس وبرقة .

بل حدثني من أثقُ به من زعماء الطرابلسيين ، ومنهم كبيرُهم السيد أحمد الشريف السنوسي رحمه الله بأنّ الدولة في زمن السلطان عبد الحميد كانت ترغبُ في تجريد أهالي طرابلس من السلاح ، وتكبسُ الزوايا السنوسية التي تظنُّ فيها وجودَ أسلحة ، وأن انتقال السيد المهدي السنوسي من واحةِ جغبوب إلى واحةِ الكَفْرة على مسافة (٢٥) مرحلة من بنغازي إلى الجنوب كان أصلُ السببِ فيه اعتقادُ المهدي السنوسي أنّ هذا القُطْرَ سيتعرَّضُ في يومٍ من الأيام لاحتلال إيطالية ، وأنه سيحتاج الأهالي إلى السلاح حتماً ، والحالَ أنّ الدولةَ العثمانية

ـ بعماية قلبٍ غيرِ مفهومة ـ كانت تحاوِلُ تجريدَ الأهالي من أسلحتهم ، ولا تريدُ أن تدرِكَ أنّ هذا القطرَ دونَ غيره هو تحت خطرِ غارة أجنبية لا تقدِرُ الدولة أن تدفعها ، إلا إذا كان الأهالي مسلحين .

فالسيد المهدي السنوسي رضي الله عنه كان يرى ضرورة التسلح في وجه الأجانب ، ولكنه لم يكن يريد أن يخاصِمَ الحكومة العثمانية التي كانت ضد هذا الأمر ، فأوغل في الصحراء ، وسكن في الكَفْرة بعيداً عن الحكومة ، وذلك حيثُ يمكنُه أن يتسلّح هو ومن معه ، وأن يستقلّ بآرائه .

ولما ذهبتُ أنا إلى برقة لأجل الجهاد بعد الغارة الإيطالية ببضعة أشهر ؛ سمعتُ أنّ متصرّفَ بنغازي كان قبل حرب طرابلس بشهرين يكبس زاويةً من زوايا السنوسيين اسمها زاوية القطفية بتهمة أنّه مخبأٌ فيها سلاح ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

ولما اجتمعتُ بأنور رحمه الله بمعسكر عين منصور فوق درنةَ ، حيثُ أقمتُ ثمانية أشهر مجاهداً ، كنتُ أتحدثُ إليه بما في نفسي من تقصيرات الدولة الفظيعة بحق طرابلس ، وكان يوافقُ على ذلك كله ، ولا يجدُ عن إهمالها عذراً .

ثم إنّه كان تقرر لدى الدولة تعليمُ أهالي طرابلس الحركات العسكرية ، وأنّ هذا القرار أيضاً قد أهملته الحكومة ، ولهذا طلب مجلس الأمة محاكمة حقي باشا وزملائه الوزراء ، لأجل ما ارتكبوه من هذه الإهمالات كلِّها ، فلم ينفذ القرار ، بسبب أنّ بعض الوزراء كانوا من أركان الاتحاد والترقي ، فكيف يمكن للجمعية أن توافقَ على إدانتهم ومحاكمتهم ؟ فبقي هذا القرار من المجلس حبراً على ورق .

وكان الصدر الأعظم سعيد باشا قد جنح إلى الصلح ، لأن إيطالية كانت قد احتلت رودس والجزائر التي تجاورها ، وكان البحر في يدها ، ولم يكن الأسطول العثماني كفؤاً للأسطول الإيطالي ، فكان الصدرُ يرى وجوبَ الصلح على شرط إبقاء السيادة العثمانية على طرابلس ولو بالاسم ، وحفظِ حقوق الخلافة الإسلامية ، وكانت هذه سياسة دفع الضرر الأشد بالضرر الأخف ، إلا

أنّ الرأيَ العام الإسلامي كان ضد التساهل في قضية طرابلس ، لا سيّما عندما رأى المسلمون أن عرب طرابلس لبّوا داعيَ الجهاد بشكل لم يكن منتظراً ، ووقفوا في وجه إيطالية وِقفةً كان الأوربيون أنفسهم لا يصدّقونها لو لم يروها بأعينهم !. فإيطالية كانت تظنُّ ـ بحسب المعلومات التي عندها عن ضعف الحامية العثمانية في طرابلس ـ أنها تستولي على هذا القطر في مدة لا تتجاوز (١٥) يوماً ، وهي لا تشك في ذلك ، ولما سمع اللورد كتشنر بظن إيطالية هذا ـ وهو القائد المحنك المشهور ـ وكان يومئذٍ المندوبَ السامي البريطاني في مصر قال : إني أرى الطليان مفرطين في التفاؤل ، وإن تجربتي الطويلة في حروب أفريقية تجعلني أخَطِّىء هذا الرأي ، وأقول : إنّ احتلال إيطالية لطرابلس الغرب وبرقة قد يستغرق ثلاثة أشهر . . . فهذه الثلاثة الأشهر التي ضربها أمداً اللورد كتشنر القائد الإنكليزي الكبير ، المنجّذ في حروب العالم الإسلامي ، والخمسة عشر يوماً التي ضربتها إيطالية أمداً لتمام الاستيلاءِ على طرابلس ؛ كانت لدى الفعل عشرين سنةً تامةً ، وما انتهت إلا بأسر الشهيد عمر المختار ، وشنق الطليان إيّاه ، وذلك سنة (١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١) ولو كان أهالي طرابلس يملكون ما فيه بُلْغَةً من العتاد والذخيرة لكانوا إلى اليوم حامين لساحتهم .

فإيطالية بعد غارتها على طرابلس بشهرين أو ثلاثة أوصلت جيش الاحتلال هناك إلى مئة ألف عسكري ، ولكنّها لم تقدر أن تتقدّمَ إلى الأمام شبراً واحداً ، بل كان جيشُها في نفس مدينة طرابلس ، وفي بلدة خُمس ، وفي مدينة بنغازي التي لم تقدر العساكر الإيطالية أن تنزلَ فيها إلا بعد معركةٍ استمرت ثلاثين ساعة ، وجرى فيها من الوقائع ما تشيبُ له ذوائبُ الأطفال ، واحتل الطليان أيضاً بلدة درنة على البحر في ذيل الجبل الأخضر ، وموقع طبرق من البطنان ، أي أنهم لم يكونوا داسوا من أرض طرابلس سوى هذه المدن الأربع ، بينما لهم هناك مئة ألف عسكري تمدها البوارجُ الحربية من البحر !!

وكان أنور ملحقاً عسكرياً بسفارة الدولة في برلين ، وكان علي فتحي ملحقاً عسكرياً بسفارة الدولة في باريز ، فخفَّ أنورُ من برلين إلى الأستانة يقصدُ الجهاد في طرابلس ، ولما أبدى اقتراحه وجوبَ تسفيرِ جانبٍ من الضباط إلى طرابلس ،

لم يعتقد أحدٌ في الأستانة بأنّ ذلك يؤدي إلى فائدة عملية ، ولما استأذن لنفسه في الذهاب إلى طرابلس ، قال له محمود شوكت باشا ناظر الحربية : لا أرى فائدةً من سفرك ، وربما يقتلك العرب في الطريق ، لأن الطليان يقدرون أن يرشوهم بالمال فيغتالونك ؟! فقال له أنور : لقد أهملنا طرابلس إهمالاً فظيعاً ضاقت فيه فُسْحَةُ العذر ، فيجبُ علينا أن نعوّضَ تفريطنا في حقها ، وأن نبذلَ كلَّ ما نستطيعه في سبيل الدفاع عنها ، وإذا كان العربُ يقتلوننا في الطريق ، فيكون الذنب ذنبهم ، ونعودُ نحن معذورين ، قال لي هذا أنور من فمه في معسكر درنة ، وقد وقعت بيني وبينه مودّة أكيدة ، وخلطة ارتفع فيها التكليف بيننا ، واستمرت هذه المحبةُ منذ تعارفنا في عين منصور سنة (١٣٣٠ هـ ـ ١٩١٢ م) إلى أن استُشهد رحمه الله في أرض بخارى في محاربته للروس البلاشفة سنة (١٣٤١ هـ ـ ١٩٢٢ م)[1] . ولما رأت الدولةُ إصرارَ أنور على الجهاد بنفسه في طرابلس ؛ أدّت إليه خمسة آلاف جنيه لا غير ، لاعتقادها عقم حركته هذه ، فذهب ومعه عدة ضباط مرّوا من مصر متنكرين ، وكان مصطفى كمال من جملة هؤلاء الضباط .

ولم يصلوا إلى السلّوم حتى وافتهم الأخبار بأنّ قبيلةً من العرب يقال لها الشلاويّة ، وهي من القبائل الصغرى أوقعوا بطابورين من الطليان ، وردوهما مدحورين إلى درنة ، وغنموا منهما أسلاباً كثيرة ، فاشتدّ بهذا الخبر عزمُ أنور ، وأغذَّ السير ، فأول ما لاقى زعماء العرب ومشايخ الزوايا السنوسية في زاوية مرطوبة ، وكان العرب ناقمين على الدولة إهمالها أمر طرابلس ، ذاكرين تلك الحماقة التي كانتْ تظهَرُ من عُمّالها في تجريدهم من سلاحهم ، فقالوا لأنور : إننا لا نمشي ولا نقاتل حتى تأتينا بالأسلحة والذخائر الكافية وبالمدافع ، فأجابهم بأنّه سيأتي بكل ذلك ، وكان مقصدُه بهذا الوعد الفارغ إثارةَ حماستهم حتى ينغمسوا في الحرب ، وإلّا فهو يعلم صعوبةَ تهريب السلاح إلى طرابلس وبرقة ، فإنّ الأسطول الإيطالي كان مراقِباً للسواحل مراقبةً شديدةً ، فلم تتمكن تركية من تسريبِ الأسلحةِ إلى المجاهدين إلّا في الأندر ، والذي أعلمه أنه من

---

(١) انظر ص (٤٩٣) من هذا الكتاب .

محمول البواخر العديدة التي أرسلتها الدولة لم يصلْ إلّا محمولُ باخرتين لا غير ، إحداهما تمكنت من التفريغ في سواحل برقة ، والأخرى تمكنت من التفريغ في ساحل طرابلس لأولِ هذه الحرب .

وقد كان من الممكن تهريبُ السلاح بواسطة سواحل مصر ، لولا أنّ الإنكليز شدّدوا المراقبةَ إلى الدرجة القصوى بواسطة مصلحة خفر السواحل المصرية ، فلم تتمكن الدولةُ من تهريب بندقيةٍ واحدةٍ بواسطة سواحل مصر .

ولما كنتُ قد أقمتُ في معسكر عين منصور عدة أشهر ؛ فقد علمتُ أنّ السلاحَ الذي كان يقاتِلُ به العربُ هناك قليل منه كان من بقايا سلاح الدولة ، ومنه قسم من السلاح اليوناني المهرّب الذي يقال له : غراه ، والأكثر كان من البنادق الطليانية التي كان العرب يغنمونها في أثناء الوقائع .

وقد أُعْجِبَ العربُ بحمية أنور وبسالته ، فأحبوه حباً جماً ، ولما وصلتُ إلى هناك ، وجدت في مخيّم عين منصور من الجبل الأخضر على مسافة ساعتين من درنة إلى الجنوب سبعةَ أو ثمانيةَ آلافِ مقاتلٍ من العرب من قبيلة العبيدات ، وقبيلةِ البراعصة ، وقبيلة الحاسة ، وبينهم المشايخ السنوسية لزوايا الجبل الأخضر ، مثل سيدي محمد العالمي الغماري شيخ الزاوية البيضاء ، وسيدي محمد الدردفي شيخ زاوية شحّات ، وسيدي محمد الغزالي شيخ زاوية ترت ، وغيرهم من أشياخ السنوسية .

وكان مع أنور بضعة عشر ضابطاً من الأتراك ، منهم مصطفى كمال رئيس جمهورية تركية اليوم ، وبضعة عشر ضابطاً آخرون من أبناء العرب .

ولما مررتُ بطبرق كان الطليان احتلوها ، ولكنّهم بنوا استحكاماً بقرب البحر ، امتنعوا من ورائه ، فلم يكونوا يقدرون أن يخرجوا منه ، وكان هناك أمامهم معسكرٌ للعرب ، قائدُه أدهم باشا الحلبي ، ولا يزيدُ عدد المقاتلين فيه على ألفين ، وبينه وبين معسكر الطليان في طبرق ساعة ونصف ، وكان عمدةُ المقاتلين للطليان في معسكر طبرق قبيلة يقال لها عائلة مريم من العبيدات ، وكان لها زعيمٌ يُقال له الشيخ المبري ، قُتل في الجهاد .

وكان القائمون بالجهاد في برقة هم السادة السنوسية تحت رئاسة السيد

أحمد الشريف ، الذي استنفر القبائل كلها ، فانضوت تحت علم السنوسي ، وانقادت إلى الضباط العثمانيين تحت رئاسة أنور القائد العام ، فكان معسكر صغير في طبرق أمام الحامية الطليانية التي نزلت في ذلك المرسَى ، ومعسكر ثان في عين منصور تحت قيادة أنور نفسه ، وهو يقابل الطليان الذين في درنة ، وكان عدد الطليان عشرين ألف مقاتل ، ولكنهم كانوا لا يقدرون على الخروج ، وكلّما خرجوا ردّهم العرب إلى حيث كانوا ، وقد بنوا استحكامات حول درنة ، يعتصمون بها إذا هاجمهم العرب في[١] البلدة ، ولكن مهاجمَةً كهذه كان ينبغي لها مدافع ، ولم يكن في معسكر أنور إلا مدفعان صغيران لا غير .

وكانت مدافع الطليان من أضخم المدافع ، وكانوا يقذفون علينا بالقنابل بدون انقطاع ، وأظنّ أنّه لولا المدافع الكبيرة ما استطاع الطليان الثبات في درنة نفسها .

وأما المعسكر الثالث في برقة فكان في بنغازي تحت قيادة عزيز بك المصري ، وكانت فيه قبائل العواقير ، والمغاربة ، والدرسة ، والعُرُفا ، والعبيد ، وفيه من زعماء السنوسية سيدي عمران السكوري ، وسيدي محمد بن عبد المولى ، وجم غفير معهما .

وكان المعسكر العربي مخيّماً في سهل يبعُدُ ساعتين عن بنغازي إلى الجنوب ، وكنا نخمِّنُ عدده بأربعين ألف مقاتل كلها تحت المضارب . وقد وقعت سواء في درنة أو في بنغازي وقائع في غاية الشدة ، وخسر الطليانُ فيها ألوفاً مؤلّفة من الجنود ، وما استطاع الطليان أن يخرجوا مسافة شبرٍ واحدٍ إلا ردّهم العربُ إلى المدن ، فاعتصموا بها ، تمدّهم بوارجهم من البحر .

وقد ذكرتُ هذه الحوادث في حواشي «حاضر العالم الإسلامي» في مبحث خاص بطرابلس الغرب أوسع من هذا[٢] . وبقيتْ هذه الحالةُ كما نحن واصفوها إلى أن نشبت الحرب البلقانية ، وهي التي هجمت فيها دول البلقان مجتمعةً

---

(١) في الأصل (إلى) .

(٢) « حاضر العالم الإسلامي » (٢ : ٦٤ ـ ١٦٥) .

بسياسة قيصر روسية على تركية مفاجأة ، فتغلبت عليها ، فبعثوا من الأستانة إلى أنور يستقدمونه إلى الأستانة بإلحاحٍ شديد ، فاضطر إلى ترك القيادة كارهاً ، وعاد إلى إستانبول ، وخاض في حرب البلقان ، ولكن بعد أنْ كانت الدائرةُ دارت على الدولة . وكان لأنور بلاءٌ حسنٌ بمعية القائد أحمد عزت باشا الأرناؤوطي عندما استرجع الأتراك ولاية أدرنة .

وبعد رجوع أنور إلى الأستانة ، صارت قيادةُ المجاهدين في يد عزيز بك المصري ، فبقي يقاوم الطليان مدة من الزمن ، لكنه اختلف مع السنوسية اختلافاً شديداً ، وكانت إيطالية قد اتفقت مع عباس حلمي خديوي مصر لذلك العهد ، وذلك على أن يَبْذُلَ جهده في تسكين حركة المقاومة فاقتنع بذلك ، وأرسل وفوداً إلى السنوسية ينصحُ لهم بترك الجهاد ، فلم يقبلوا كلامه . وحدثني السيد أحمد الشريف ، أنه عندما جاءه رسول الخديوي آخر مرة قال له : كنا نتلقاك بالإكرام والاحترام مراعاةً للذي أرسلك ، وإن كنا لم نستطع إجابة طلبه ، ولكن بعد أن تكرَّرَ قدومُك علينا بالطلب نفسه ، فإننا مضطرون أن ننذرك ، بأنك إذا جئت بعدَ هذه المرة من قِبَلِ سمو الخديوي تنصحُ لنا بترك الجهاد ، فليس لك عندنا أمانٌ على نفسك .

ولما قطع الخديوي أمله من السنوسية ، استقدم عزيز بك المصري[1] إلى مصر ، وكانت الدولة قد عقدت معاهدة الصلح مع إيطالية ، وأمرت عزيز بك علي بإخلاء برقة ، فجاء ومعه أربعمئة جندي هم بقية العسكر العثماني الذي كان في برقة ، والتمس السنوسية من عزيز بك أن يتركَ لهم الأسلحة والأعتدة التي كانت في يد العسكر ، فاحتجَّ بعدم إمكانه ذلك ، لأن الدولة كانت صالحتْ

---

(١) عزيز علي شركسي ، واسمه الكامل عزيز علي عرفات ، متزوج من الأمريكية فرنسيس دريك عام ١٩٢٣ خلال لقائهما في إيران !! وأثمر زواجهما ولداً سمي عمر ، وهو يحمل الجنسية الأمريكية . وقد تضمنت الوثائق البريطانية المحفوظة في دار المحفوظات البريطانية ثلاث إشارات للقاءات تمت بين عزيز علي مع مسؤولين بريطانيين ، الأول مع الكابتن روسل في ١٦/ ٨/ ١٩١٤ والثاني مع الكولونيل كلايتون رئيس المخابرات البريطانية في القاهرة بتاريخ ٢٥/ ١٠/ ١٩١٤ والثالث مع جريفس مراسل صحيفة التايمز في القاهرة بتاريخ ٦/ ١٢/ ١٩١٤ انظر « صحوة الرجل المريض » ص (٢٩١) .

إيطالية على طرابلس بعد أن هاجمتها الدول البلقانية ، ومن أجل ذلك لا يقدِرُ هو أن يَسْحَبَ العسكر إلا بسلاحه ، فحصل بينه وبين العرب من أجل قضيةِ السّلاح هذه معركةٌ في سهل دَفْنَة من البطمان غير بعيدٍ عن السلّوم ، قُتل فيها من العسكر بضعة عشر رجلاً ، ومن العرب زيادة على ستين ، فتكاثرت العربُ ، واستصرخ بعضُهم بعضاً ، وأحاطوا بالعسكر ، ومنعوه من المسير ، وكان مرادهم إصلاءَ عزيز بك والجندَ الذي معه معركة لم تكن تنتهي إلّا بفناء الأربعمئة جندي وعدد كبير من العرب المهاجمين ، فوصل الخبر إلى السيد أحمد الشريف بمكانه من الجبل الأخضر ، فأرسل السيد عمر المختار الشهيد المشهور ، يأمر العرب بالانصراف ، وترك عزيز بك المصري بعسكره يسير إلى جهة مصر ، وكانت المسافة بين مكان السيد السنوسي ومكان عزيز بك مسيرة أربعة أيام ، فقطعها الشيخ عمر المختار في أربع وعشرين ساعة ، ولما وصل وجد العرب كلّها تجمعت ، وقد أحاطتْ بعزيز بك وعسكره تريد الأخذ بالثأر ، فأبلغ عمر المختار قبائلَ العرب أمر السيد أحمد الشريف ، وقال لهم : مهما كان قد حصل فإنه لا يليقُ بنا أن تكون نهاية مساعدة الدولة لنا في هذه الحرب أن نفتكَ بعساكرها لأجل مسألة سلاح ، وهم مجاهدون ومسلمون مثلنا . وهكذا ألقى عمر المختار السلام بين الفريقين ، ومضى عزيز بك بعسكره إلى مصر ، وقد ترك السلاح للعرب[1] .

ولا بدّ من التنويه بالمقام المحمود الذي كان لأهلِ مصر في هذا الجهاد ، فإنّ هجوم الطليان على طرابلس وقع بغتةً ، فما مضت أيام حتى بدأوا بالتفاوض مع العرب ، واستجلبوا أناساً منهم إلى جهتهم ، لأن الطرابلسيين رأوا أنّ الدولة لم ترسل قوة تدافع بها عن بلادهم ، ووجدوا القوة التي لها من قَبْلُ في طرابلس تكادُ تكون عدماً ، فانقطعت آمالهم من إمكان الجهاد ، وبينما هم في منتهى الانكسار ، إذ وصلت إليهم قوافلُ من مصرَ موقّرة أرزاقاً يتلو بعضُها بعضاً ، فكانوا كالأرض الميّتة التي أصابها وابل فاهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج

---

(١) وقيل : أمر جنوده بإحراق جميع الأسلحة التي كانت بحوزتهم قبل صعودهم إلى الباخرة الألمانية التي نقلتهم إلى إستانبول « صحوة الرجل المريض » (٢٩١) .

بهيج ، ومن ذلك الوقت بدأوا بالجهاد العظيم ، وعلموا أنّ المسلمين من ورائهم ظهير ، ثم لم يلبثْ أنورُ أن وصل ، فازدادت بذلك ثقتهم ، واشتدت حماستهم ، وكان منهم هذا الجهاد الذي استمر عشرين سنة . على أنه لولا دعوة السيد أحمد الشريف هذه القبائل إلى الجهاد ما كان مجيء أنور من الأستانة ، ولا كانت جمعية الإعانة المصرية التي ترأسها الأمير عمر طوسون ، ليتمكنوا من تأسيس هذا الجهاد المبين على هذا الأساس المتين ، الذي أذن للعرب بأن يصدّوا دولة عظيمة كإيطالية مدة عشرين سنة ! .

وأما من جهة غربي طرابلس ، فقد كان الجهادُ لا يختلِفُ في شيءٍ عمّا كان في جهة برقة ، واجتمعت هناك الكلمةُ على الحرب دفاعاً عن الوطن ، والتفوا حول نشأت بك قائدِ الجند العثماني الذي جاءه فتحي بك الملحق العسكري العثماني في سفارة الدولة في باريز ، وصار هو رئيس أركان الحرب ، وانضمّ إليهم رجالات طرابلس مثل الشيخ سليمان الباروني زعيم الإباضية ، وآل سيف النصر ، والمحاميد ، وأهالي مصراتة ، وترهونة ، وزليطن ، وأُرفلّة ، وغيرهم . وكان للدولة معسكرٌ أمامَ طرابلس ، ومعسكرٌ آخر أمام خُمس ، وكان في المعسكر الأول نشأت بك ، وفتحي بك ، وفي المعسكر الثاني خليل بك خال أنور باشا ، ونوري بك أخوه .

وكانت الحالة هناك كما كانت في برقة تماماً ، أي أنّ المجاهدين كانوا يصدّون الطليان عن الخروج من طرابلس وخُمس ، وبقي هذا الأمر إلى أن نشبت الحرب البلقانية ، وصالحت الدولة إيطالية على طرابلس ، فانفضت هذه الجموع ، وركب نشأت بك وفتحي بك ببقية العساكر إلى الأستانة ، وكما أنّ المصريين قاموا بالواجب تحت رئاسة الأمير عمر طوسون من إمداد مجاهدي برقة ؛ فإنّ التونسيين قاموا أيضاً بمثل ذلك من إمداد مجاهدي طرابلس ، وكلٌّ من الفريقين أنفقَ بدون حساب ، وتجلّى هناك تعاون المسلمين بما يسر الخواطر ويحقق قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

وأحزرُ أنّ المصريين أمدوا مجاهدي برقة بمبلغ لا يقل عن مئتي ألف جنيه نقداً عدا قيمة الأقوات والأرزاق التي كانت قوافلها متصلةً ، يلاقي بعضها بعضاً

بين غاد ورائح ، وقادم وقافل ، فهذه لا أعلم حسابها ، وعدا ثلاث بعثات أرسلها الهلال الأحمر المصري ، وقام فيها بمساعدات كبيرة .

وكان للدولة العثمانية أيضاً بعثات هلال أحمر متعددة ، وجاءت بعثةُ هلال أحمر أيضاً من قبل أهالي مناسْتر في الروملي ، وعدا ما كان من معالجة الجرحى ، فقد وجدتْ هذه البعثات الصحية أنّ الأهالي كانوا مصابين بأمراضٍ مزمنة ، وأوبئةٍ مستحكمة ، لا سيما مرض الزهري المنتشر !! فأخذت هذه البعثات بمواساتهم بعد أن كانوا لا يعرفون شيئاً من أمر العلاج والوقاية ، فاستفاد الأهلون كثيراً في صحتهم ، لا سيما عرب الجبل الأخضر ، ولولا أن نشبتْ الحربُ البلقانية ، والتزم المصريون تحويلَ إمداداتهم إلى جهة الأستانة ؛ لكان الجهاد في القطر الطرابلسي بقي على حاله ، وكان الطليان لا يقدرون أن يبرحوا مراكزهم وراء استحكاماتهم ، ولكنّ الحرب البلقانية شغلت المسلمين عن حرب طرابلس ، وانصرفوا عن المهم إلى الأهم ، وأخذت لجنة الإعانة تحت رئاسة الأمير عمر طوسون ـ أمين الأمة ـ ترسِلُ الإعانات إلى الدولة ، وأراد الأمير عمر أن يبعث أيضاً ما بقي من الإعانة الطرابلسية إلى الأستانة ، فكتبتُ إليه حينئذٍ أرجوه أن يُبْقِي إعانة طرابلس لطرابلس ، لأنها في الحرب البلقانية لا يكون لها غناء ذو بال ، وأما في طرابلس فإنّها تسدُّ أرماقَ المجاهدين ، الذين كانوا يجاهدون مكتفين بالقوت الضروري ، فقد كان الواحدُ منهم يعيش بقرش ونصف في اليوم .

ولما طال القتال في طرابلس على غير نتيجة لإيطالية ؛ أخذتْ هذه تفكِّر في إشعال الحرب على تركية في أمكنةٍ أخرى ، فأما الدردنيل فكانت الدولة قد بادرت بتحكيمه ، ووضعت فيه أربعين ألف عسكري ، فلم يَجْرُأْ الأسطول الطلياني أن يقتحمه حذراً من الدمار ، ولكنّه احتل موقعاً من جزيرة لمنى ، ثم ذهب فدمّر نسّافتين من الأسطول العثماني كانتا في بيروت ، ولما لم يجد الطليان فائدةً من هذه التهويلات ، أجمعوا [على] احتلال جزيرة رودس ،

ومع ذلك[1] بقي العثمانيون مصممين على القتال ، وكان فريقٌ من الترك يودُّ في الباطن مصالحةَ إيطالية على طرابلس تخلُّصاً من الأخطار التي كان يُخْشَى منها على الدولة باستمرار الحرب ، إلا أنهم خافوا هيجان العرب والعالم الإسلامي فيما إذا تخلّوا عن طرابلس ، ولم يكن مساعداً لإيطالية يومئذ حَسْبَ زعم الطليان سوى الخديوي بالسبب الذي تقدَّم ذكره ، وقد أَشار إلى ذلك جيولتّي رئيس نظار إيطالية السابق ، وذلك في مذكراته المطبوعة التي يذكر فيها تاريخَ حياته ، فصرَّح بأنّ عباس حلمي خديوي مصر كان مِنْ أول حرب طرابلس إلى آخرِها مساعِداً لإيطالية بما أمكنه من الوسائل ، بحجة أن جدَّه إسماعيل باشا عند ما خلع من إمارة مصر ، وسكن في نابولي أحسنت الحكومةُ الإيطالية معاملته ! ولما اطلع الأتراك على هذا الكتاب بعد الحرب العامة ، وكان جيولتّي نشره قبل ذلك ببضع سنوات ، كان لذلك وقعٌ سيءٌ لديهم ، وطعنتْ جرائدُهم في الخديوي السابق طعناً شديداً .

فالدولةُ كانت إذاً لا تجرُؤ على التخلي عن طرابلس حتى بعد احتلال رودس ، وكان الطليان [قد] أصبحوا في حَيْص بَيْص من تمادي هذه الحرب ، التي كلفتهم مبالغ طائلة من المال ، فمنذ عشر سنوات كانت إيطالية أحصت خسائرها المالية على طرابلس بثلاثمئة مليون من الجنيهات ، وعشرات الألوف من الرجال ، فحدثتها نفسُها أخيراً باحتلال بلاد الروملي ، وكان هذا مما يغيظُ البلقانيين الطامحين إلى ميراثها من تركية ، وكانت روسية قد بدأت بسياسة التأليف بين البلغار والصرب واليونان ، حتى يهاجموا الدولة العثمانية يداً واحدة ، فوجدت إيطالية في احتلال الروملي سبباً للتنازع بينها وبين البلقانيين ، فتوقفت عن ذلك ، وربما تكونُ إيطالية كلّفت روسية اتخاذَ سياسةِ ضغطٍ على الباب العالي ، حتى يرضَى بالتخلّي عن طرابلس .

فأخذت روسية تفاوضُ الدول العظام في التوسط لدى الباب العالي في هذا الأمر ، وأخيراً اتفقوا جميعاً على تقديم مذكرة إلى تركية ينصحون لها فيها بوضعِ

---

(1) في الأصل (وبقي مع ذلك العثمانيين مصممين) .

حدٌّ لهذا الخلاف ، فأجابت تركية أنّ الصُلْحُ الوحيدَ الذي يمكنها أن ترضى به هو إلغاء قرار مجلس نواب إيطالية استلحاق طرابلس الغرب ، وسحب جميع العساكر الطليانية من ذلك القطر ، وإلا فهي تقاتِلُ إلى ما شاء الله قتالَ المظلوم المعتدَى عليه! وبينما تركية على أشد ما يمكن من العزم للدفاع عن طرابلس لما شاهدتْهُ من بأسِ الطرابلسيين ، وشدةِ بلائهم في هذه الحرب ، ولكونها لم تكن تتكلّفُ عليهم في الشهرِ الواحد أكثر من مئة ألف جنيه ؛ إذ راعها اتحادُ الدول البلقانية الأربع : اليونان ، والبلغار ، والصرب ، والجبل الأسود ، وتحفُّزِهم للزحف عليها ، فعند ذلك أزمعتْ الصلحَ مع إيطالية مكرهةً .

وكان أنور لا يزال في الجبل الأخضر ، ووصل إلينا الخبرُ ونحن هناك ، فعلمتُ أنّ الدولةَ لا تقِدرُ أن تكافِحَ البلقانيين جميعاً ومعهم إيطالية ، وفكرتْ أنّه يمكنُها إذا أُكرهت على الصلح مع إيطالية أن تستمرَّ على إمداد الطرابلسيين سراً بواسطة مصر ، ويمكنها أيضاً أن تسحبَ عسكرها النظامي الباقي في طرابلس بدون أن يُحدِثَ ذلك فتوراً في الدفاع ، فبعد أن وقعت مذاكرات بيني وبين السنوسيين من أعوان السيد أحمد الشريف ، لأنه كان وقتئذٍ لم يزل في الكفرة ، برحتُ الجبلَ الأخضر قادماً إلى مصر ، ومنها قصدتُ إلى الأستانة ، فوجدتُ الحربَ البلقانية على وشك الانفجار ، وكان الصدر الأعظم حينئذٍ مختار باشا الغازي ، ولكن السياسةَ كان أكثرُها في يد كامل باشا ، وكان ناظرُ الحربية ناظم باشا ، وكان شيخُ الإسلام جمال الدين أفندي ، فقابلتُهم جميعاً ، وأوضحتُ لهم محاذيرَ التخلّي عن طرابلس ؛ فقال كامل باشا بالحرف : **إننا لا نقدر أن نحارِبَ دولَ البلقان الأربع ، ونستمرَّ على محاربةِ دولةٍ عظيمةٍ كإيطالية** . فبيّنتُ له أنّ استمرار الدفاع عن طرابلس ممكنٌ بدون تكليف الدولة مؤونةً شاقةً ، لأنّ المجاهدين هناك إذا كَفِلَتْ لهم الدولة والعالم الإسلامي قوتَهُمْ الضروريَّ ، فإنهم يقدرون أن يصدُّوا الطليان عن التقدم ، وليس المقصدُ من مسعانا سوى إقناع الدولة بأنها إن أُكرهت على الصلح [أن] لا تتخلّى عن إمداد الطرابلسيين بواسطة مصر ، فهذا الرأي لم يرفضْهُ كامل باشا ، وكذلك أكّد لي جمال الدين أفندي شيخُ الإسلام بأنّ الدولة لن تُهْمِلَ أهلَ طرابلس ، ولكنّها مضطرةٌ الآن أن تكُفَّ عن حرب إيطالية حتى تكون انتهت من الحرب البلقانية .

وبالاختصار أرسلت الدولة نامي بك ، وفخر الدين بك إلى سويسرة ، حيث اجتمعا مع برتوليني وفولبي معتمدَيْ إيطالية ، وباشرا مذاكرات الصلح ، وانتهى الأمر بأن تترك الدولة سيادتها على طرابلس لأهاليها ، وتنصح لهم بالائتلاف مع إيطالية ، وأن تعفو إيطالية عن جميع الذين قاوموها في طرابلس من الأهالي ، والعساكر التي للدولة في طرابلس يخرجون منها ، كما أنّ العساكر الإيطالية تجلو أيضاً عن رودس ، وجزر الأرخبيل التي احتلتها .

وكان أيضاً من جملة الشروط أن تبقى طرابلس مرتبطةً بالدولةِ من الجهة الدينية ، فالسلطانُ يبقى هو الخليفةُ الأعظم في نظر الطرابلسيين ، ويُدعى له على المنابر ، ويكون للسلطانِ وكيلٌ في طرابلس يقال له نائب السلطان ، وقد تعيّنَ بعد الاتفاق شمس الدين باشا لهذا المنصب ، ومعه يوسف بك شتوان مستشاراً .

وكانت وزارة سعيد باشا قد شعرت بأنّ المجلسَ لا يمشي معها في قضية الصلح مع إيطالية ، لا سيّما بعد أن جاء يوسف بك شتوان ، وخطبَ في مجلس المبعوثين خطاباً مآله أنّ الحالةَ الحربية في[1] طرابلس مرضية جداً لا تؤذِنُ بأدنى خطر ، وأنّه لا خوفَ على الدولة إلّا من الشقاق الداخلي ، فتحمّسَ المبعوثون ، وآلوا بعدمِ الموافقة على الصلح ، وكان الصدر الأعظم بدأ يشعر بقرب الحرب البلقانية ، ويرى أنّه لا بدَّ من عقد الصلح مع إيطالية ، وكان المجلسُ لا يزالُ في شقاقٍ بعيدٍ بين الأحزاب ، فأقنع سعيد باشا السلطان بحلّ مجلس المبعوثين ، حتى يتسنّى للحكومة أن تمضي في سياستها ، وكان للسلطان حقٌّ في حل مجلس النواب بموافقة مجلس الأعيان ، على شرط مباشرة الانتخابات لانعقادِ المجلس الجديد ، فصدر الأمرُ بحلِّ المجلس ، وانتُخب مجلسٌ جديد ، وما كاد ينعقدُ المجلس حتى جاءت الأخبار بأنّ الأرناؤوط استأنفوا الثورة ، واتفقوا هذه المرة مسلمين وكاثوليكيين وأرثوذكسيين يداً واحدة في وجه الدولة ، وعلى رأسهم إسماعيل بك مبعوث برات ، ونجيب دراغة مبعوث برشتينة ، وبصري بك

---

(١) في الأصل : (هي في) .

مبعوث دبره ، وحسن بك ، ويحيى بك ، وغيرهم . وانضم إليهم أيضاً ضباط أرناؤوط من ضباط الجيش العثماني ، وعقد هؤلاء الأرناؤوط اجتماعاً حضره (٨٦) من رجالاتهم ، وقرّروا طلب حل المجلس الجديد ، وعزل الاتحاديين الذين في الحكومة مثل محمود شوكت باشا ناظر الحربية ، وطلعت بك ناظر البوسطة والتلغراف ، وجاويد بك ناظر الأشغال النافعة ، فاشتدّ الخطب على الدولة ، واستعفى محمود شوكت باشا ، وظهر أنّ الاتحاديين أصبحوا بعد ثورة ألبانية يخشون تحمّل المسؤولية ، فصار الصدر الأعظم سعيد باشا يعرِضُ نظارةَ الحربية على المقتدرين ، فلا يقبلها أحد منهم ، فاختار الاستعفاء ، فانتدب السلطان لتأليف الوزارة الغازي أحمد مختار باشا المشهور .

وكانت تألفت في الأستانة جمعيةٌ عسكرية ، يقال لها : جمعية الخلاص كاران ، فوزَّعت منشوراً تطلبُ فيه تبديلَ الحكومة ، ومنعَ الأشخاص غير المسؤولين من التدخل في أمور الدولة ، وتقترحُ حلَّ المجلس ، وانتخابَ مجلسٍ آخر بتمام الحرية ، وكانت الحكومةُ تريدُ سنَّ قانون يمنع رجال العسكرية من التدخل في السياسة ، فهذه الجمعيةُ أعلنت أنّ رجال العسكرية لا يمتنعون عن التدخل في السياسة إلا بعد قبول هذه المطالب ، فقُرِىءَ هذا المنشور في المجلس ، وأثارَ حركةً شديدة ، وأقسم المبعوثون أنهم لا يتركون كراسيهم إلَّا موتى ، وطلبوا من الحكومة التحقيقَ عن الجمعية التي وزَّعت هذا المنشور ، فجاء الصدر الأعظم أحمد مختار باشا ، ومعه ناظم باشا ناظر الحربية الجديد ، وطمأنا خواطر المبعوثين ، وتعهّدَ ناظم باشا بإعادة النظام إلى الجيش كما كان ، وتلا الصدرُ الأعظم برنامج الوزارة الجديدة ، وفيه منع الضباط من الاشتغال بالسياسة ، ومنع المأمورين من التدخل في أمور الانتخابات ، والتقيّد بالقوانين الموضوعة في أمر تعيين المأمورين ، وغير ذلك .

وأما من جهة الصلح مع إيطالية ، فلم تعلنْ الوزارةُ شيئاً .

ثم وقع الخلاف في المجلس على قضية حقّ السلطان في حلّ المجلس وعدمه ، وكان الاتحاديون الذين لهم الأكثرية في المجلس يريدون إعطاء هذا الحق للسلطان ، على شروط كان يناقشهم فيها خصومهم حزب الحرية

والائتلاف ، وكان هذا الحزب يرأسُه لطفي فكري ، فاشتدّ الجدلُ بين الفريقين ، وفي أثناء ذلك كانت ثورةُ الأرناؤوط تتفاقَمُ يوماً فيوماً ، ثم بدأ الشقاقُ بين أعضاء الوزارة نفسِها ، وانتَدبَ أحمدُ مختار باشا الصدرَ السابق فريد باشا الأرناؤوطي لأجل نظارة الداخلية ، وحسين حلمي باشا الصدر السابق أيضاً لنظارة العدلية ، فأبى فريد باشا الدخول في الوزارة ، ودخل حسين حلمي باشا ، ولكنه اضطر بعد قليل إلى الاستعفاء ، وازداد تحرُّجُ مركز الحكومة التي كانت ترى ازدياد مشكلاتها في الداخل والخارج ، وبينما ثائرةُ الأرناؤوط تتوقَّدُ ، إذا بعصائب البلغار في مقدونية ـ أي الروملي ـ رجعت إلى العمل ، وأخذت بنسف السكك الحديدية ، ثم في نهار العيد انفجرت قنبلة في جامع أشتب ، وجُرِحَ بها أناسٌ كثيرون ، فثار المسلمون ، وأوقعوا بكثير من البلغار ، ثم حصلت حوادث من هذا القبيل في ولاية أسكوب ، فانتقم المسلمون أيضاً بقتل عدد من البلغار ، وأهم حادثة هي التي وقعت في كوتشانة ، في أول أغسطس ـ آب سنة (١٩١٢ م ـ ١٣٣٠ هـ) ؛ فإنه كان قد وضع البلغار قنابل في السوق فانفجرت وقتلت عدداً من المسلمين ، فأوقع المسلمون بالبلغار ، وقيل إنهم قتلوا منهم (١٥٠) شخصاً ، وهكذا استمرت الحوادث مدةً طويلةً ، فعصائبُ البلغار تلقي القنابل الديناميتية في الأسواق والمجامع عمداً لأجل إثارة المسلمين ، حتى ينتقموا من المسيحيين ، وتضطر الدول المسيحية للتدخل ، فتنسلخ مكدونية عن تركية ، وهذا على نمطِ حركاتِ الأرمن .

أحوال البلقان

وكان البلقانيون أكثرَ الأحيان مختلفين بعضُهم مع بعض ، نعني بذلك البلغار ، واليونان ، والصرب ، وذلك لأنّ مكدونية التي يقول لها الترك : الروملي فيها من جميع هذه الأجناس ، فالبلغار يدّعون أنها يجب أن تكون لهم ، واليونان يحتجّون بأن الأكثرية من سلانيك ونواحيها وتراقية هي للجنس الرومي ، والصربيون يحتجّون بأنّ الأكثرية في شمال مكدونية هي لهم ، وكل فئة تعزّزُ دعواها بأدلة . ولم يكونوا يفكرون بشيءٍ من حقوق المسلمين هناك ،

٣٥ ـ محمد رشاد

مع أنّ المسلمين في ألبانية ومكدونية كانوا أكثرَ من نصف السكان !

وكانت للدولة في أوربة ست ولايات .

الأولى : **ولاية أدرنة** ، الواقعة على البحر الأسود ، ممتدة من ضواحي الأستانة إلى حدود البلغار .

والثانية : **ولاية سلانيك** ، التي يتبعها أكثرُ مكدونية .

والثالثة : **ولاية قُوْصُوَه** (Kosvo) التي هي الآن من ضمن مملكة يوغسلافية .

والرابعة : **ولاية مَنَاسْتر** ، الواقعة بين يوغسلافية وبلاد اليونان .

والخامسة : **ولاية يانية** ، من جنوبيّ بلاد الأرناؤوط .

السادسة : **ولاية أشقودرة** ، في شماليِّ بلاد الأرناؤوط .

وكان عددُ المسلمين في هذه الولايات الست من أرناؤوط وترك وبوماق ـ وهم نوع من البلغار دينُهم الإسلام ولغتهم البلغارية ـ ومهاجرين يزيدونَ على عدد النصارى بقليلٍ ، فلم يكن للبلقانيين حقٌّ في ادّعاء تقسيم هذه البلاد فيما بينهم ، لا سيّما وقد كانوا هم أنفسُهم غيرَ متفقين على التقسيم ، وكل فئة تريدُ أن تأخذَ حصةَ الأخرى ، ولكنَّ ضعفَ الدولة العثمانية ، وتكالُبَ الدول الأوربية عليها من كلِّ جهةٍ أوسعا مطامع البلقانيين ، حتى أصبحوا لا يفكّرون في شيء سوى طرد الأتراك من أوربة تماماً ، بحجةِ أنّهم طارئون على أوربة من آسية ، وأنّهم لم يكونوا ذوي مِلْكٍ في شبه جزيرة البلقان قبل القرن الرابع عشر للمسيح .

ثم إنّ البلقانيين كانوا يعلمون أنّ الأتراك في حال تغلبهم عليهم لا يقدِرون أن ينالوا منهم شيئاً ، ولا أنْ يفتحوا من بلدانهم بلداً ، بخلافِ ما لو تغلّبوا هم على الأتراك ، فإنّهم حينئذٍ يقدرون أن ينالوا كلَّ ما يريدون ، وذلك عملاً بقاعدة **أنّ ما يُؤْخَذُ من الهلال للصليب لا يُمكن إعادته للهلال ، وأن ما يُؤْخَذُ من الصليب للهلال فلا بدّ أن يرجعَ إلى مكانه** . وهذه القاعدة متفقٌ عليها في أوربة تطبّقُها أوربة بقدر إمكانها ، والبلقانيون يعلمونها .

٣٥ ـ محمد رشاد

التحالف البلقاني

وفي بداية الحرب البلقانية كان في ظنّ الدول الأوربية أن تركية تتغلّب على البلغار والصرب واليونان والجبل الأسود ، فأرسل المسيو بوانكاره ـ وهو يومئذٍ رئيسُ نظّار فرنسة ـ مذكرةً إلى تركية وإلى الدول البلقانية المتحالفة عليها ، يبلِّغُ الجميعَ بأنها إذا حصلت حرب بين الفريقين فالدول لا تسمح للفريق الغالب أن يأخذَ شيئاً من الفريق المغلوب . وقد كتب بوانكاره هذا تزهيداً للفريقين في الحرب ، وكان مرجَّحاً عنده أنّ دول البلقان لا يقدرون على تركية ، فلما وقعت الواقعة ، وانهزمت تركية في هذه الحرب ، بما كان فيها من الشقاق المستمر الذي صرف نظرها عن الاحتياط لحفظ ثغورها ؛ نسي بوانكاره بلاغَه هذا الرسمي الذي كتبه باسم الدول ، وكان من جملةِ المساعدين للبلغار واليونان والصرب على اقتسام [ولايات] تركية الأوربية . وكان مرادُ الدول ـ لا سيما إنكلترة وفرنسة وروسية ـ إلحاق ألبانية أيضاً بمكدونية ، وإعطاء جنوبيها لليونان ، وشماليِّها للصرب ، لولا معارضة النمسة وإيطالية في ذلك . فالنمسة كانت دائماً تجتهدُ في منع اتساع مملكة الصرب ، وقد كان هذا من أكبر عوامل الحرب العامة ، وإيطالية نفسُها كان من مصلحتها حفظ ألبانية للأرناؤوط ، فلذلك بعد الحرب البلقانية وافقت الدولُ على تأسيس استقلالٍ خاصّ لألبانية ، ولكنْ بعدَ مشادّةٍ عظيمةٍ كادت النمسة فيها تقتَتِلُ مع روسية ، غير أنّهم ظلموا الأرناؤوط أيضاً ، إذ إنّ هذه الأمة تبلغُ نحواً من ثلاثة ملايين ، يسكنونَ على ساحلِ بحر الأدرياتيك بين الجبل الأسود من الشمال ، واليونان من الجنوب ، ومكدونية من الشرق ، وهم كتلة واحدة كلّهم أرناؤوط ، ولسانُهم هو اللسان الأرناؤوطي ، وإن كان الثلثان منهم مسلمين ، والثلث الثالث كاثوليكيون وأرثوذكسيون .

وعلى كل حالٍ فبعد أن تقرّرَ إخراجُ الدولة العثمانية من أوربة وجب أن يُعطى الأرناؤوط البلدان التي هم فيها أكثرية السكان ، وهي ؛ ولايات يانية ، وأشقودرة ، وقوصُوَه ، ومناستر ، ولا سيما أنّ الأتراك المسلمين كانوا بعد خروج الدولة العثمانية من الروملي يفضِّلون الانضمام إلى الأرناؤوط حتى

يتخلّصوا من حكم البلغار واليونان والصرب ، فالذي حصل في مؤتمر لندرة[١] بعد الحرب البلقانية ـ بتأثير روسية ومساعدة فرنسة لها ـ لم يكن مطابقاً لحقوق الأمم من الجهة التي يقال لها الأتنوغرافية ، بل بشدة إلحاح النمسة وموافقة إيطالية جعلوا بلاد الأرناؤوط المستقلة عبارة عن ولايتي يانية وأشقودرة ، وألحقوا منهما شيئاً بالجبل الأسود ، وشيئاً باليونان ، وكلُّ الذي بقي للمملكة المستقلة لا يزيدُ عددُ سكانه على مليون واحد . والحال أن جنوبيّ يوغسلافية لا سيما ولاية قوصُوَه مأهولٌ بالأرناؤوط ، فلذلك يوجدُ الآن من الأرناؤوط ضمن مملكة يوغسلافية وعلى حدود ألبانية أكثر مما يوجد في ألبانية نفسِها !! وهذه من المسائل التي لم تُصِبْ فيها الدول ، وإنما كان الإعوجاجُ فيها بسبب تعصب روسية للصربيين ، وستكونُ هذه من أسبابِ تجدُّدِ الحروب في شبه جزيرة البلقان[٢] .

ولما كان الاختلافُ شديداً بين العناصر المسيحية في البلقان الرومي والسلافي والبلغاري ؛ ففي زمن السلطان عبد الحميد سعت روسية كثيراً في التأليف بينهم حتى يتمكّنوا من إخراج الدولة العثمانية من هناك ، ولكنّ السلطان عبد الحميد بدهائه ويقظته كان دائماً يمنعُ الاتفاق بينهم ، ويستميلُ هذا العنصر تارةً ، وذاك العنصر أخرى .

أما جمعيةُ الاتحاد والترقي فاغترّتْ بقوّتها ، وظنّتْ أنّ إعلانَ الدستور قد نفى كلَّ خطرٍ عن السلطنة ، ونامت عن مراقبةِ السياسة الخارجية ، بل بلغ غرورُ بعضِ أعضائِها في أول الأمر أنْ اعتقدوا أنْ حركاتِ البلغار واليونان والصربيين لخلع الحكم العثماني إنما السائقُ فيها [هو] مجرَّدُ سوءِ الإدارة العثمانية ، وأنّه لو اصطلحت الإدارةُ العثمانيةُ لأخلدَ هؤلاء إلى السكون !

وحقيقةُ الحال أنّ هؤلاء لم يكونوا براجعين عن حركاتهم حتى يطردوا الأتراك من شبه جزيرة البلقان ، وأنّ المسألةَ عندهم تاريخيةً محضةً ، لا تعلُّقَ لها بالإدارة

---

(١) لندن .

(٢) كما هو حادث اليوم في البوسنة والهرسك وكوسوفو .

في حسنها وعدمه . فهذه البلاد لم يكن فيها مسلمون قبل السلطان مراد الأول ، فيجبُ أن تخلو تماماً من المسلمين مرةً ثانيةً . هذه هي فكرتُهم الحقيقية ، وأوربة كلُّها تميلُ إلى هذه الفكرة ، ولما افتتح البلقانيون سلانيك قال أحدُ وزراءِ الإنكليز : لا يمكنُنا إلاّ أن نفرحَ باسترجاع المسيحيين للبلدةِ التي بها ابتدأ انتشارُ النصرانية .

وإذا رجعنا إلى الحقائق نرى أنَّ الحربَ الصليبية ، وإن كانت غيرَ مستمرةٍ إلى اليوم تحت هذا الاسم كما كانت في القرون الوسطى ؛ فهي مستمرةٌ بالفعل بالروح نفسها ، وإنْ كانَ قد تغيّرَ الاسمُ ! وكلُّ بلادٍ وُجِدَتْ تحتَ حكم المسيحيين في الغابر تجتهدُ الدولُ الأوربية في إخراجها مِنْ تحتِ حكم المسلمين ، ولو كان مضى على ذلك بضعة عشر قرناً ، أي أنّ الأندلس تتمثل في كثير من البلدان ، وليست هي منحصرة في إسبانية ، فالمسلمون ليس لهم إلا القوة ليحافظوا على أنفسهم .

ولما كانت الدولة العثمانية قويةً تغلّبت ليس على بلاد اليونان والبلغار والصرب فقط ؛ بل على بلاد رومانية ، والمجر ، وخرواطية[1] ، وقسم من بولونية ، وحاصرت فينَّة مرتين . فلما حلّ بها الضعفُ ، صارتْ تتقلّص شيئاً فشيئاً إلى الجنوب ، حتى لم يبقَ لها في أوائل هذا القرن غير الولايات الستّ التي تقدَّمَ ذكرُها ، ولم يكنْ مِنَ المأمول أن تحفظَها إلا بالقوةِ القاهرةِ .

حدثني حسين حلمي باشا الصدر الأعظم السابق ، وهو الذي كان مفتشاً عاماً للولايات المذكورة يوم أُعلنَ الدستور العثماني أنّ السّير إدوارد غراي ناظر الخارجية الإنكليزية المشهور سأله : ألَا توجدُ طريقةٌ تنحلُّ بها مشكلات مكدونية ؟ فأجابه : نعم يوجدُ طريقة ، وهي أن يكونَ عندنا نحنُ الأتراك القوة اللازمة لكسر البلغار واليونان والصربيين والجبل الأسود في وقت واحد ، وليس من طريقة غير هذه .

هذا ، وقد كان السعيُ في جمع كلمة الدول البلقانية الأربع قديماً .

---

(١) كرواتية .

وسنة (١٣٠٦ هـ ـ ١٨٨٨ م) قدَّم أميرُ الجبل الأسود نيقولا لائحةً إلى قيصر روسية ، تتضمَّنُ وجوبَ تحالُفِ هذه الدول ضد تركية تحت حماية القيصر ، وسنة (١٣١١ هـ ـ ١٨٩٣ م) صارتْ مكالمةٌ بين اليونان والبلغار في هذا الصدد ، ولكنْ لم تُسْفِرْ عن نتيجةٍ ، ثم إنّ البلغار والصربيين اتفقوا على ذلك ، وبقي الخلافُ بين الصرب والجبل الأسود ، فتوسَّطَ البلغارُ بين الفريقين ، ومهّدوا العقبات ، فبقي ناقصاً دخول اليونان في الاتحاد ، فالذين من اليونان قاموا بالسعي الحثيث للائتلاف مع البلغار ، برغم ما كانَ بين الفريقين من نقط الخلاف ، [و] هم : باناس سفير اليونان في صوفية ، وفنزيلوس رئيس نظّار اليونان .

وكان إهمال الاتحاديين السهر على هذه المسألة من جملةِ أسباب اتفاق البلقانيين ، حتّى إنه لما علم السلطان عبد الحميد المخلوع بخبر الاتحاد البلقاني هذا هزّ برأسه وقال : **كم من مرّة أوشك هذا الاتحاد أن ينعقد ، وسعيتُ كلَّ سعيٍ حتى منعتُه** ! قال هذا عندما جاؤوا ينقلونه من سلانيك إلى الأستانة ، فسأل عن السبب فقالوا له : إنّ دول البلقان الأربع تحالفنَ على تركية ، والحربُ قريبةُ الوقوع .

وفي (١٣) مارس سنة (١٩١٢ م ـ ١٣١٠ هـ) انعقدتْ أولُ محالفةٍ بين الصرب والبلغار ضد تركية ، وفي (٢٩) مايو ـ أيار من السنة نفسها انعقدت المحالفة بين البلغار واليونان ، ولكنّ الأولى كان أمدها ستَ سنوات ، أما الثانيةُ فكانت ثلاث سنوات .

وفي (٥) أكتوبر ـ تشرين الأول من تلك السنة ، ذهب دانف رئيسُ مجلس النواب البلغاري إلى ليڤادية في القرم ، فأخبرَ القيصرَ الروسي والمسيو سازونوف ناظرَ خارجيته بانعقاد جميع المحالفات اللازمة بين البلقانيين ، وانحلالِ جميعِ العقد التي كانت تفرِّقُ بينهم ، لأنّ القيصر كان هو الحَكَم فيما إذا اختلفوا .

وفي ذلك الوقت كانت ثورة الأرناؤوط أجبرت الدولة العثمانية على منح الأرناؤوط بعضَ امتيازات ، رآها البلقانيون مضرةً بهم ، فلما تحققت الدول أنّ

الحرب بين البلقانيين وتركية واقعةٌ لا محالة ؛ توسطت النمسة في الخلاف تفادياً للحرب ، وذلك على أساس إدخال الإصلاحات في بلاد الروملي ، وأنْ تكونَ هذه الإصلاحات تحت إشراف لجنةٍ دوليةٍ .

الحرب البلقانية

وبينما الدول في المذاكرة حتى تمنعَ الحرب ؛ إذا بأمير الجبل الأسود يُعْلِنُ الحربَ على تركية في (٨) أكتوبر ـ تشرين الأول سنة (١٩١٢ م ـ ١٣٣٠ هـ) وفي (١٣) منه عالنت[١] الدول الثلاث اليونان والصرب والبلغار الدولة العثمانيةَ طلب الإصلاحات في الروملي بحسب المادة (٢٣) من معاهدة برلين ، وطلبت تفريقَ العساكر العثمانية المرابطة في الروملي ، وكانت مذكرة هذه الدول في شكلها غيرَ مقبولة ، فلم يبقَ أمام تركية سوى إعلان الحرب ، ولكنّ كامل باشا كان يرجو فصلَ اليونان عن الاتحاد البلقاني بالنزول لهم عن جزيرة كريت ، فذهب سعيُه سدًى ، لأنّ فنزيلوس أبى بتاتاً أن ينفصِلَ عن حلفائه ، فنشبت إذاً الحرب .

وكان البلغار مستعدين للقتال من زمن طويل ، فزحفوا بمئتين وخمسين ألف مقاتل من أحسنِ الجيوش تدريباً ، وأكملِهم عدةً ، ولم يكن عند الدولة جيشٌ متقَنُ التدريب كهذا الجيش ، بل كان من أغلاطِ السلطان عبد الحميد التي لا يمكن التماري فيها منع التمرينات العسكرية خوفاً من انتقاض الجيش عليه ، واستمرّ هذا طول مدة سلطنته .

فالعسكر الممرَّن الذي كان في زمن عمِّه السلطان عبد العزيز ، والذي بمثله انتصر عثمان باشا على الروس في بلاڤنة ، وأحمد مختار باشا في القوقاز ؛ ذهب ولم يقم مقامه عسكر آخر مثله . فجميعُ العسكر في زمن عبد الحميد لم يكن يعرِفُ شيئاً من التمرينات التي كانت في زمن عمه .

فكان الفرقُ إذاً كبيراً بينه وبين العساكر البلقانية ، ولما جاء الاتحاديون ،

---

(١) أعلمت .

وخلعوا السلطان عبد الحميد ، أرادوا إصلاحَ الجيش بعملية سمّوها عملية التصفية ، فأخرجوا إلى التقاعد جميعَ الضباط القدماء المجرَّبين ، ووضعوا مكانهم شباناً خالين من التجربة ، وبعبارة أخرى انحلَّ الجيش القديم ، ولم يمضِ الوقتُ الكافي حتى يتكوَّن جيشٌ جديد .

ومن جملة أسباب الضرر الذي وقع هو اشتغال ضباط الجيش بالسياسة ، وانصرافهم عن واجباتهم إلى إحداث القلق في المملكة ، والانتصار لفئةٍ على فئةٍ مما يجب أن ينزَّه الجيش عنه[١] .

فصار الجيشُ العثماني بعد إعلان الدستور أشبهَ بجيشِ الإنكشارية القديم في الفوضى ، فهذه الفرقة تخرج عن الطاعة ، وتنحاز إلى العصاة مثلاً ، وهذه الجمعية من ضباط الجيش تطلبُ إسقاطَ الحكومة وحلَّ المجلس ، وهذه الفرقة الأخرى تهجمُ على مجلس الأمة ، وتسفِكُ دماءَ بعض المبعوثين وبعضِ النظار بتحريكٍ خفيٍ من رجال السياسة ، وكم وقع من قتلِ جنودٍ لضباطِهم ، وعصيانِ ضباطٍ على قوادهم .

نعم إنّ فون غولتس باشا الألماني ، كان هو والضباط الذين معه أصلحوا كثيراً من حالة الجيش في تركية ، **ولكنّ السلطان عبد الحميد كان يمنعُ التمرينات العسكرية خوفاً على نفسه** ، وكانت هناك مصالح ضرورية للجيش ، بغاية الإهمال ، مثل : مصلحة الإعاشة . ومصلحة الصحة ، ومصلحة نقل العساكر بالسكك الحديدية ، وغير ذلك مما لا غنى عنه في الجيوش العصرية .

وأضف إلى كلِّ هذه النواقص أنّ الدولة في حرب البلقان احتقرت البلقانيين أشد الاحتقار ، وظنّت أنها في شهر من الزمن تُمزِّقُ شملهم كلَّ ممزّق ، حتى إنّ ناظم باشا ناظر الحربية أعلمَ الضباطَ وجوبَ أَخذهم ألبستهم الرسمية إلى ميدان القتال ، حتى إذا دخلوا صوفية وبلغراد وأثينة ، ووقع عرضُ الجيش يكونون بألبستهم الرسمية ، كأنّ أمرَ الظفر عنده كان [أمراً] لا يتطرَّقُ إليه الشك ، وهذا

---

(١) وهذا ما يحصل في تركية اليوم حيث يقوم الجيش بحجة حماية النظام بفرض سياسات صِهْيونية تتعارض مع مصالح تركية الحيوية ، ولا يبالي بمشاعر الأتراك البتة .

أشبهُ بزبيدة أم الأمين عندما أعطت قائدَ جيش ولدِها قيداً من فضة ، وقالت له : إنَّ المأمونَ هو من أولادِ الخلفاء ، ومتى وقع في يدك فلا يصحُّ أن تقيدَه كما تقيِّدُ سائر الأسرى ـ أي بالحديد ـ فأنا أعطيكَ هذا القيد من الفضة لتقيده به عندما يقع في الأسر . فكان من الأمر أنّ المأمونَ هو الذي قهر الأمين ، وأخذ منه الخلافة ، ثم قُتِلَ الأمينُ في المعمعة .

ثم بناء على هذا الاستخفاف لم تستنفِر الدولةُ الجيوشَ التي لها في سورية ، ولا في العراق ، ولا في شرقيِّ الأناضول ، حيث كانتْ تخشى ثورةً من جهة الأرمن ، فاقتصرت على جيش الروملي وقسم من عساكر الأناضول . ولم يكن جيش الروملي كلُّه ليجتمِعَ ، لأنّ الأرناؤوط كانوا في حال ثورة ، ولم يقاتلوا في هذه الحرب إلّا قتالَ عصائب ، وبهذا كان عددُ الجيوش البلقانية أعظمَ من عدد الجيش العثماني ، ففي كلٍّ من الساحات الثلاث ؛ أي ساحة تراقية الشرقية أمام البلغار ، وساحة مكدونية العليا أمام الصرب ، وساحة سلانيك أمام اليونان ؛ كان الجيشُ العثماني أقلَّ عدداً وأقلَّ معداتٍ من أعدائه .

وفي (١٨) أكتوبر ـ تشرين الأول زحف البلغار لأخذ أدرنة ، فلم يتمكنوا من ذلك ، ولكنّهم ظهروا على الأتراك في ناحية طونجة . وكان عبد الله باشا في (٢٠) و(٢١) أكتوبر ـ تشرين الأول أعطى الأمرَ بالهجوم بدون أن يؤمِّنَ خطاً للرجعة ، فارتكب في ذلك خطأً حربياً ، ظهرت نتيجتُه حالاً .

وفي (٢٢) أكتوبر ـ تشرين الأول تلاقت الفرقة السادسة من الجيش الرابع العثماني مع فرقة من الجيش الأول ، فلم تعِرفْ إحداهما الأخرى وترامتا بالنيران ، إذ كلُّ فرقةٍ منهما كانت تظنُّ أنها بإزاء البلغار ، فمن أولِ الحربِ ظهرَ سوءُ القيادة في الجيش العثماني .

وكان محمود مختار باشا قائداً لشطر الجيش الثالث وهو ثابتٌ في مركزه ، وإذا بالبلغار يهجمون على الجيش الذي على جناحه الأيسر هجوماً فجائياً ضعضعَ الأتراكَ ، فانهزموا ، فحاول محمود مختار أن يصدَّ البلغار ، ويوقفَ الهزيمة ، ولكن كان الجنرال البلغاري ديمتريف [قد] جاء بدون أن يشعرَ به الأتراكُ أصلاً ، فهاجم الجيشَ الذي على يمين محمود مختار ، فاضطر محمود

إلى التقهقر ، فانهزم العسكر العثماني إلى قرق كليسة ، وهو الجيش الرابع ، ثم الجيش الثالث ، ثم حاول الجيش الأول أن يهاجمَ البلغار ، ليوقفَ الهزيمة ، فلم يقدر على شيء ، بل تقهقرَ هو أيضاً . وكلُّ هذا من عدم وحدة القيادة ؛ وعدم وجود خطة حربية مقررة . **فكلُّ فرقةٍ وكلُّ جيشٍ من الأتراك كان يقاتلُ بدون أدنى صلة مع رفاقه ، ولا علم له بما عليه سائر الجيوش العثمانية** . لأنّ الأتراك فكروا أنه لا يلزم لهم إلّا أن يقابلوا البلغار في أي مكان كان ، وفي أي وقتٍ كان ، حتى يولّي هؤلاء الأدبار ، فمن شدّة استخفافهم بالعدو تغلّب عليهم العدو .

ولما تقهقر عبد الله باشا بجيوشه ، قسمٌ منها إلى جهة ڤيزة ، والقسمُ الآخرُ إلى لولي بوغاز ؛ لم يكن بين القسمين أدنى صلة ، ولا كان الواحدُ يعرِفُ ما عندَ الآخر ، ومحمود مختار باشا هو القائد الوحيد الذي كان مالكاً حركةَ جيشِهِ ، بحيثُ عندما اضطر[1] إلى التقهقر تقهقر بانتظام حقيقي ، وكان ناظم باشا [قد] ذهب بنفسه ليتولّى القيادةَ العامة ، وناجزَ البلغار القتال في لولي بوغاز ، وقره أغاتش .

وزحف محمود مختار باشا مهاجماً العدو على ظنّ أنّ عبد الله باشا يتمكن من نجدته بالجيش الأول والجيش الثاني ، فتمكّن محمود مختار من أن يشطر فرقة الجنرال خريستوف إلى شطرين ، إلا أنّه كانتْ [قد] وردت نجداتٌ عظيمةٌ للبلغار ، وفي الوقت نفسه انهزم الجيش الثاني العثماني ، فلم يقدر محمود مختار أن يتمِّمَ خطته بسبب الفشل الذي حلَّ بسائر القوّاد ، لكنه بقي ثابتاً في مركزه . فأمر ناظم باشا القائدُ العام بتراجع القوات كلِّها إلى شركس كُوي ، فتراجعت كلُّها ، ومن الجملة جيش محمود مختار .

ومن أغربِ الأمور أنّه بقدر ما استخفّ الأتراكُ بالعدو في البداية ؛ وقع فيهم الرعُب بعد أن حلّتْ بهم الهزيمة الأولى ، فنكصوا جميعُهم إلى شطلجة .

ولما علمتْ الجيوشُ العثمانية التي في تراقية الغربية وفي مكدونية بالهزيمة

---

(١) في الأصل (التزم) .

التي وقعت في تراقية الشرقية ؛ تلاشت قوتها المعنوية ، وكان قائد الجيوش العثمانية في مكدونية هو علي رضا باشا ، فانكسر أمام الصربيين في بورنيڤو ، وفي قُوْصُوَهُ ، وفي كومانوڤو ، وهي هزيمةٌ كان أكثرُ السببِ فيها أنّ عصائبَ الأرناؤوط في أثناء المعركةِ انسلّت من ميدان القتال مدبرة ، فوقع الفشلُ في الجيش كلِّه ، وصارت المعارك هناك عبارةً عن سلسلة هزائم ، تتلو إحداها الأخرى ، بدون أن يوفَّقَ التركُ في معركةٍ واحدةٍ إلا ما ندر ، فسقطت المراكز التركية المهمة مثل قُوْصُوَهُ (Kosvo) ، ومناستر ، وأسكوب ، وجميع البلاد التي تتبعها ، وكل هذا بين (٢٣) أكتوبر ـ تشرين الأول و(١٨) نوفمبر ـ تشرين الثاني .

ولو قيل : **إنه لم يقع مع تركية حرب أشأم من هذه الحرب من أول الدهر إلى ذلك الوقت لم يَكنْ في هذا القولِ مبالغةٌ** .

وكان القائد الوحيد الذي حفظ جيشه هو جاويد باشا ، فإنه لولا انهزام عصائب الأرناؤوط في واقعة كومانوڤو مع الصربيين لكانت الغَلَبَةُ في تلك الوقعة للترك ، وكان الخبر وصل إلى الأستانة بأن الصرب انهزموا نهائياً ، ولكنّ المعركة انتهت بعكس ما ابتدأت ، وكان جاويد باشا هزم اليونان في إحدى الوقائع ، وتمكّنَ من اللحاق ببلاد الأرناؤوط مع جيشه ، إلا أنّ الأرناؤوط ـ عندما رأوا هزيمة العثمانيين ـ فصلوا أنفسهم عن الدولة ، وأسّسوا في ڤالونة حكومةً مؤقتةً بمساعدة النمسة وإيطالية .

وأما من جهة الجيش اليوناني ، فإنّه لم يكن أمامه إلّا قوة تركية ضئيلة ، فكان الجيش اليوناني يتقدَّمُ إلى الأمام قاصداً سلانيك ، وكان تحت قيادة ولي عهد اليونان ستون ألفُ جندي يقابلها (٢٥) ألفاً من الأتراك ، ولكنّ الترك ثبتوا برغم قلة عددهم ثباتاً عظيماً ، ثم تقهقروا إلى الوراء ، لأن الصربيين والبلغار كانوا اتصلوا باليونان ، واضطر تحسين باشا إلى تسليم سلانيك لهؤلاء .

وكان جاويد باشا تغلّبَ على اليونان في وقعة سيروڤيتش التي استمرت يومين وانتهت بهزيمة اليونان في (٥) نوفمبر ـ تشرين الثاني ، إلّا أنه وردت إمداداتٌ عظيمة لليونان ، فتمكّنَ بها ولي العهد اليوناني من الإقبال بعد الإدبار .

فتراجعَ جاويد باشا إلى مناستر ، وهناك هاجمه الصربيون ، وجرت وقائع بين بقايا الجيوش العثمانية والصربيين واليونانيين والبلغار ، لم يقدر التركُ أن ينالوا فيها كلها خيراً بعد أن انخذلت قواهم المعنوية ، وتقطّعَ ما بينهم ، لأنّ البلغارَ كانوا استولوا على ديموطقة ، فقطعوا ما بين الأستانة وبين مكدونية .

واستولى الذعرُ على الدولة نفسها في الأستانة ، فأصبح رجالها لا يعلمون ماذا يفعلون ، وكان عندهم جيوشٌ كثيرةٌ في المملكة ، لا تزالُ في أراضيها ، وإنما كانوا في جمودٍ تام ، بسببِ الفشل غيرِ المنتظر ، فلم يفكّروا في استجماع قواهم ، وكانت الإدارة أشبه بالفوضى ، وقد رأينا ذلك بأعيننا .

وكان الهلال الأحمر المصري أرسل بعثةً عظيمةً إلى الأستانة ، فيها المرحوم محمد باشا الشريعي والمرحوم كامل باشا جلال مفتشان ، وجاءني أيضاً كتابٌ من رئاسة الهلال الأحمر المذكور بأن أنضم إليهما مفتشاً ثالثاً ، كما أنّ لجنة الإعانة المصرية التي يرأسُها الأمير عمر طوسون كلّفنا بتوزيع الإعانات على مهاجري المسلمين ، الذين فرّوا من الروملي إلى الأستانة بعد انهزام الجيوش العثمانية ، فكنّا نحنُ الثلاثة المفتشون مضطرين أن نتصلَ برجال الدولة كلَّ يوم ، لأجلِ تسهيلِ مهمة الهلال الأحمر ، ومهمةِ توزيع الإعانات على المهاجرين ، فشاهدنا من آثار الفوضى في الإدارة مالا يصدّقه العقلُ ، وذهبنا في نهارِ جمعةٍ إلى نظارة الحربية للمراجعة بمصالح مستعجلة ، فلم **نجدْ في نظارةِ الحربيةِ أحداً** ، وقيل لنا : **أفلا تعلمون أنّ دوائر الحكومة لا تشتغلُ نهارَ الجمعة!** فقلت : **كلا! إنّ الدولة التي يحلُّ بها من المصائب ما حلَّ بها هذه المرّة ، لا يحقُّ لدوائرِها أن تتمتع براحة يوم الجمعة** ! نعم عندما كنا نذهب إلى الباب العالي ، كنا نجد كامل باشا الصدر الأعظم دائماً حاضراً ، وكنا دائماً نراجعه في أيام الجمعة أيضاً ، وكان يبيتُ في الباب العالي بقرب مكتبه برغم علو سنّه .

وجاءنا مرةً الخبر بأنّ أربعةَ آلاف عسكري في سان إستفانو قد أصيب أكثرُهم بالكوليرة ، لأنّ من جملة مصائب الدولة في هذه الحرب أنّ الكوليرة تفشّتْ في عساكرِها تفشّياً فظيعاً ، وفتكت بهم فتكاً ذريعاً ، فقيل لنا : إنّ هؤلاء العساكر الذين في سان إستفانو على مقربةٍ من الأستانة مطروحون بالعراء ، بدون خيام

ولا بيوتٍ يأوون إليها ! وكان ذلك في وسط زمهرير الشتاء ، فذهبت أنا ورفاقي إلى كامل باشا وأخبرناه بالخبر ، وروينا له ما سمعناه مِنْ أنّ نصفَ هؤلاء الجند قد ماتوا ، وأن رفاقهم جالسون إلى جانبهم في انتظار الموت ، فأعطى الأوامر اللازمة إلى الحربية ، حتى يرسِلوا إلى سان إستفانو الأطباءَ والممرضين وجميع اللوازم لأجل معالجة هذه الحالة ، ولكننا ثاني يوم لحظنا أنّه لم يحصل شيءٌ ، فقلت لزملائي : إن كنتم تنتظرون في أثناء هذه الفوضى إغاثةَ الدولةِ لهؤلاء العسكر ، فاعلموا أنّه لا يذهبُ إلى هناك أحدٌ من الأطباء والممرضين حتى يكونَ العسكرُ قد قضوا نحبهم جميعاً ، وعليه يجبُ أن نبادرَ نحنُ بالعمل ، فأرسلنا في اليوم نفسه النجارين ، وحملوا الأخشاب اللازمة ، وبنوا للعساكر بيوتَ الخشب ، وأرسلنا إليها الأسرّة والأغطيةَ اللازمة ، والأطباء والممرضين[1] والأدوية ، وكلُّ هذا تمَّ في ثلاثة أيام ، وبعد ذلك جاء المأمورون العثمانيون ، فوجودوا كلَّ شيء خالصاً ، وعلى هذا يمكن أن يقاس غيره .

ونعودُ إلى تاريخ هذه الحرب المشؤومة التي انتهت بها ولاية الدولة العثمانية على شبه جزيرة البلقان فنقول : إنّه بعدَ أن انهزمت الجيوشُ العثمانية في تراقية الشرقية ، وتراجعت إلى شطلجة ، وتشتت العسكرُ العثماني في تراقية الغربية ، ومكدونية ، بقيت بلادُ الأرناؤوط لم يحتلها العدو ، وبقيت القوة هناك أيضاً ضعيفة ، فتقدّمَ اليونان من جهة الجنوب ، وما زالوا يهزمون أمامَهم تلكَ الشراذمَ المتفرقة حتى وصلوا إلى يانية ، وأخيراً استولوا على يانية . ثم إنَّ الصربيين وعساكر الجبل الأسود استولوا أيضاً على عدة مواقع من شمالي ألبانية ، غير أنّ الأرناؤوط صدوهم عن أشقودرة .

أما من جهة البحر فقد كان الأسطول العثماني انحطّ انحطاطاً عظيماً ، **وكان السلطان عبد الحميد يخشى الأسطول كما يخشى الجيشَ البرّي ، وكان يكره العساكر البحرية أكثر مما يكرَهُ العساكرَ البريّة ، لأنه يتذكر أنه لما خلعوا عمه السلطان عبد العزيز في سراي طولمه باغجة التي على ساحل البحر ، نظر السلطان إلى البحر ، فوجد الأسطول واقفاً أمامه** ، مع أن عبدَ العزيز هو الذي أنشأ

---

(١) في الإصل : (المعللين) .

الأسطول ، وكان عبدُ العزيز شديدَ العناية به ، وكانت الدولةُ في زمانه دولة بحرية من الدرجة الثالثة .

ولما جرت الحرب العثمانية الروسيّة ، كان البحر الأسود كلُّه في يد الدولة ، ولكن **السلطان عبد الحميد أهمل الأسطول إهمالاً تاماً** ، فما زالت قوة تركية البحرية في أيامه تنحط ، حتى صارت دولة اليونان أقوة منها في البحر .

وبعد خلع عبد الحميد ، اشتغلت الدولة بالفتن الداخلية ، وقامت الأحزابُ تتناحر فيما بينها ، فلم يكن عند الدولة وقتٌ لإصلاح الأسطول ، فلما نشبت الحرب البلقانية أدركتْ الدولةُ عِظَمَ الضرر الذي جرّه عليها إهمالُ الأسطول ، وذلك بأنّها بسبب ضعفِ أسطولها لم تقدر أن تستحضِرَ جيشَ سورية عن طريق البحر ، خوفاً من أن يتعرّض الأسطول اليوناني للبواخر التي تنقلُ الجيش من سواحل سورية وكيليكية إلى الأستانة أو الروملي ، ولم تكن يومئذٍ بين الأناضول وسورية سكك حديدية متصلة ، حتى يمكن نقل العساكر برّاً ، فجيوشُ البلاد العربية بقيت جميعاً في أرضها ، وعدا هذا فقد استولى اليونان على جزائر الأرخبيل .

نعم إنّ الأسطول اليوناني لم يجرُؤ أن يناطِحَ حصونَ الدردنيل التي عجزت عنها جيوش الحلفاء الجرارة في الحرب العامة ، ولكنّه استولى على جزيرة لمنى وإيمروز ، ومدلي ، وساقس ، وسائر الجزر .

وخرج الأسطول العثماني من الدردنيل لمنازلة الأسطول اليوناني ، وألحق الأول بالثاني خسائر مهمة ، لكنّه لم يتمكن من غلبة ظاهرة ، فرجع إلى الدردنيل محتمياً بالحصون .

وكان حسين رؤوف بك يومئذٍ قائداً لبارجة اسمها حميديّة ، فأشار بالكرة على الأسطول اليوناني ، فلم يقبلوا كلامه ، فخرج وحدَه ببارجته حميديَّة ، واخترق نطاق الحصار اليوناني ، وجاء إلى بلاد اليونان ، ودمَّر ميناء سيرة ، وأغرق عدة بوارج لليونان ، وعجز الأسطول اليوناني عن مطردته ، ولكنّه كان يتجنّب الانتظار في مكانٍ واحدٍ خوفاً من أن تجتمع قوة اليونان البحرية عليه ، فكان ينتقِلُ من مكان إلى آخر ، وكلّما صادف لليونان سفينة أغرقها . وقد أخبرني

هو أنّه كان [قد] ذهبَ إلى مرسَى مالطة ، ونزل إلى البر ، ودعاه القائد الإنكليزي ، واحتفى به ، وبينما هو على مائدته أخبروه بأنّ عدة سفن حربية لليونان وصلت على مقربة من مالطة ، تترصدُ خروجَه لأجل الايقاع بحميديَّةٍ ، وقال لي : إنّه لم يعتقد تلك المرة إمكانَ النجاة ، لأنّه بسفينةٍ واحدةٍ لا يقدِرُ أن يتغلّبَ على عدة سفن ، وإن كان يمكنُه أن يدمّر بعضها ، فخرج من مالطة متوجساً الخوف ، وسار ببارجته أمام البوارج اليونانية ، فلم يجرأوا أن يتعرضوا له !

ورؤوف بك هذا هو الذي صار فيما بعد ناظراً للبحرية في أيام الحرب العامة ، ثم بعد الحرب العامة كان من أكبر رجال تركية الذين نهضوا بها ، وقاوموا معاهدة سيفْر ، ونظّموا المقاومة العسكرية في الأناضول ، وبعد استقلال تركية تولّى رئاسة الوزارة في أنقرة ، ولكنّه لم يوافق مصطفى كمال على سياسته الداخلية وخروجه على قواعد الإسلام ، فاختلفا ، وأدّى إلى مغادرته تركية ، فأقام في فرنسة عدة سنوات ، ذهب في خلالها إلى الهند ، ثم في هذه السنة (١٩٣٥) دعته الحكومة التركية إلى العودة وألحّوا عليه ، فأجاب الدعوة ، ولكن على شرط أن يبقى بعيداً عن السياسة .

ثم نعود إلى الحرب البلقانية فنقول : إنّ سبب الفشل الفظيع الذي حلّ بتركية في تلك الحرب كان إقدامُ الأتراك على القتال بدونِ استعدادٍ كافٍ ، وعلى ظنّ أنهم بمجرد اللقاء يهزمون البلقانيين كما هزموا اليونان سنة (١٣١١ هـ ـ ١٨٩٤ م) ، فهاجموا البلغار في تراقية بدون منهاج حربي معيّن ، معتقدين أنّهم سائرين إلى تأديب رعية ثائرة ، والحال أنّ الجيش البلغاري كان على تمام الاستعداد من كل جهة ، فلما انكسرَ التركُ في هذه الجهة في الصدمة الأولى ، انكسرت جميعُ قواهم المعنوية دفعةً واحدةً ، وصارت هذه الحرب عبارةٌ عن سلسلةِ مصائب .

على أنّ البلغار كانت لحقت بهم خسائر عظيمة ، ولما وصلوا أمام شطلجة ، كان القتالُ قد برَّح بهم ، فلما هاجموا الأتراك في شطلجة لم يقدروا عليهم ، وكان هؤلاء قد تنبهوا للخطر المحدق بهم ، وتأملوا في فظاعة دخول البلغار إلى الأستانة ، وأفاقوا بعضَ الشيء من عماياتهم الحزبية ، التي كانت إلى

ذلك الوقت هي شُغلهم الشاغل ، وأرسلت الحكومة عدداً من الوعّاظ إلى شطلجة ، يثيرون الحميّة الدينيَّة في رؤوس العساكر ، وهذا خلاف ما كانوا عوّلوا عليه من قبلُ .

فإنّه لما بدأت الدول البلقانية الأربع بالقتال أعلنتْ في مناشيرها الرسمية أنّها في حربها هذه إنما تباشِرُ حرباً صليبية ضد الهلال ، وسارتْ من أوّلِ الحربِ على هذه الخطة .

ولكن الدولة العثمانية تجنّبت في مناشيرها مقابلة البلقانيين بالمثل ، وتحاشت في هذه الحرب كلَّ صبغةٍ دينيةٍ ، وبقيت كذلك إلى أن دارت عليها الدائرة ، فأرسلت إلى الجيش المرابط في شطلجة الوعّاظ وخطباء الجوامع يستفزّون حميةَ الجنود باسم الإسلام ، الذي أصبحَ على شفا جرفٍ هار ، وكان الجنودُ من أنفسِهم أدركوا أنه لم يبقَ أمام البلقانيين ليقضوا على الدولة سوى عقبة شطلجة ؛ فاستجدّوا عزائمهم ، ونظراً لضيق خط الدفاع ، ـ لأن شطلجة أشبهُ ببرزخٍ واقعٍ بين البحر الأسود من الشرق ، وبحرِ مرمرة من الغرب ـ تمكَّنَ الجيش العثماني من الثبات فيه برغم هجوم البلغار الشديد ، بل عندما هجم هؤلاء دحرهم الأتراك ، وألحقوا بهم خسائر فادحة ، وحاول البلغار مهاجمات أخرى ، فانكسروا فيها .

وكان قد وصل من اليمن الفريق أحمد عزّت باشا الأرناؤوطي ، وهو من أمهرِ القوّاد العثمانيين ، وأوفرهم علماً ، وأوسعهم بصيرة ، فذهب وشاهد حالةَ الجيش المعنوية والمادية في شطلجة ، وحادثتُه بعد رجوعه منها ، هل هناك أملٌ في إمكانِ المقاومةِ بعد هذا الذعر الذي حلَّ بالجيش ؟ ـ وكان عنده عبد الهادي باشا الفاروقي ، وهو من القواد المعروفين ـ فقال لي : إنّ الجيش يقدِرُ على المقاومة ، نعم لا يعرف ، كلُّ شيءٍ يمكنُ أن يجدَّ في أثناء القتال ، ولكنّ الحالةَ الحاضرةَ التي رأيتُها في شلطجة تؤذنُ بالتأكيد أنّ البلغار لا يقدِرُون أن يخرقوا هذا الخط ، وأن يدخلوا إلى الأستانة .

وكان كامل باشا قد باشر المساعي في طلب الصلح ، ولا شكّ أنه طلب الصلحَ راضياً بشروط البلقانيين الثقيلة ، فجاء الفريق محمود مختار باشا إلى

الأستانة ، ونهى الدولة عن هذا التهوّر في طلب الصلح ، وأكّد لها بأنّ الأعداء لم يقدروا أن يخرقوا خطوط شطلجة .

ولم أشاهد محمود مختار بنفسه ؛ ولكن شاهدتُ والده الغازي أحمد مختار باشا، وشكا لي أعظم الشكوى من فسولةِ[1] القوّاد الذين تولوا تلك الحرب، واستيلاء الرعب عليهم وقال لي : لولا محمود لدخل البلغار الأستانة ، ولكنّ محمود كان السببَ في تثبيت قوة الجيش ، وفي منع هذا الهلع الذي استولى على الدولة .

وكان كامل باشا قال للسلطان محمد رشاد : إنّه يكون الأوفق انتقال جلالته إلى بروسة ، خوفاً من دخول البلغار إلى الأستانة ؛ فأجابه السلطان : إنني لا أتحرَّكُ من مكاني ، فإذا كان لم يبق أمة عثمانية قادرة على منع سقوط سلطانها أسيراً ، فلا مانع عندي من السقوط أسيراً !

وقد جرّب البلغار بكل قواهم أن يزحزحوا الأتراك عن مواقفهم فلم يقدروا على شيء .

فالرواية التي يذيعها بعضُ الكتاب الأوربيين بأن روسية هي التي منعت البلغار من دخول الأستانة ولولا ذلك لدخلوها غيرُ صحيحة .

وقول القائد العام للجيش البلغاري : إننا لو أردنا أن نخرِقَ خطوط شطلجة لأمكننا ذلك ، لكن لا نريدُ أن نتجشّمَ خسائر الهجوم الفادحة بدون فائدة مادية ؛ هو كلام **تَبَجُّح** ، ليس عليه أدنى دليل ، بل البلغار بعد أن دحرهم الأتراك ، صاروا يخشون أن يعود الأتراك ، فيكروا عليهم ، ويخسروا ثمرات انتصارهم ، لا سيّما أنّ الدولة كانت بدأت تستدعي قواها التي كانت متفرقة ، وتجمعها في شطلجة .

ومن جملة مَنْ زعم أنّ البلغار إنما ثبطهم عن دخول الأستانة نهي روسية لهم عن ذلك المسيو دولاجون كيير صاحب « تاريخ السلطنة العثمانية »[2] المطبوع

---

(١) ضعف .

(٢) Histoire de l'Empire Ottoman depuis les Origines Jusqu a nos Jours por leVte de la Jonquiere.

في باريز سنة (١٩١٤) وهو تاريخٌ غريبُ الشكل جداً ؛ كتابتُه من أولها إلى آخرها تحاملٌ على الأتراك وعلى الإسلام جميعاً ، وانتقاصٌ من مزاياهم ، وبخس من أشيائهم ، وتحريفٌ للوقائع عن حقائقها ، وليس يخلو سطرٌ واحدٌ من هذا الكتاب من عبارة بغضاء ، تخرجُ من فم مؤلفه ، مما هو مخالفٌ لشروط التاريخ . ومع هذا فالفرنسيس يعتمدون على هذا الكتاب ، ويظنونه بالفعل تاريخاً للسلطنة العثمانية .

ثم نعود إلى قضية طلب الصلح فنقول : إنّ البلغار لو كانوا علموا هم والصربيون أنهم يقدرون أن يناموا على ظفَرهم هذا لما كانوا رضوا بالصلح ، بل كانوا مضوا في الحرب إلى آخرها ، ليزدادوا ربحاً مادياً ، ومجداً معنوياً ، ولكنّهم علموا أنّ الدولة العثمانية قد تستجمع قواها ، وتهزمهم عن شطلجة ؛ وتذهب جميعُ مجهوداتهم سدى .

فأما اليونان فأبوا الصلح ، لأنه كان عليهم أن يستصفوا فتحَ البلدان التي يريدون ضمها إليهم ، ولم يكونوا يخشون استجماعَ الدولة قواها ، فأما في البحر فلم يكونوا خائفين على سواحلهم ، لأنّ الأسطول العثماني كان أضعفَ من أسطولهم ، وأما في البر فكان الجيش العثماني لا يقدرُ أن يلتحمَ مع الجيش اليوناني إلا بعد أن يدحر الجيشَ البلغاري كلَّه في تراقية ، والجيشَ الصربي كلَّه في مكدونية .

أما في الأستانة فكان كامل باشا وحزبُه مصممينَ على الصلح ، وكان الاتحاديون يريدون متابعة القتال حتى يغسلوا هذا العار ، الذي لحق بالدولة ، ولم يسبق له نظير ، لأنهم كانوا يقولون : إنّ تغلب دولة كروسية سكانها (١٦٠) مليوناً على تركية التي سكانها (٢٦) مليوناً ليس بعجيبٍ ، ولكن تغلب هذه الدويلات الصغيرة التي سكانُها يومئذٍ لا يزيدونَ مجتمعين على اثني عشر مليوناً هو غيرُ مفهوم ، ولا يجوز للدولة أن ترضَى به بوجهٍ من الوجوه ، إلا إذا كانت ترضى بانحلالها التام ، وكانوا يعدّون الفشلَ الذي وقع في الجيش العثماني أشبه بقضاء نزل ، أو آفة سماوية لا ينبغي أن تكونَ قاعدةً ، وعلى كلِّ حال ينبغي متابعةُ الحرب حتى تستردَّ الدولةُ شأنها ، وإلا فلا حياةَ لها بعد ذلك .

وذهب الأمير حليم سعيد باشا ، وطلعت بك[١] إلى كامل باشا عندما شاع عزمُه على عقد الصلح ، وجادلاه طويلاً حتى يصرفا نظره عن ذلك ، فقال لهما : إنّ الاتحاديين هم الذين أصروا على الحرب ، وهم الذين كانوا السبب في هذه المصائب ، وأنه لا يريد أن ينقادَ إلى آرائهم ، فرجعا بخفي حنين .

وفي (٣) ديسمبر ـ أيلول انعقدت المتاركة بين تركية من جهة ، وبلغارية وصربية والجبل الأسود من جهة أخرى ، وأبرق ناظم باشا ناظر الحربية من موقع القتال إلى كامل باشا بذلك ، وكانوا قرروا مباشرة المفاوضات الصلحية بعد عقد المتاركة بعشرة أيام ، وكانت أدرنة لا تزال محاصرةً لا يقدِرُ الأعداء عليها ، فكانت شروط البلقانيين هي : تسليم أدرنة ، ومناستر ، وأشقودرة ، لأنّ المدن الثلاث لم يقدر البلقانيون عليها ، وكذلك كان اليونان يحاصرون يانية ، ولم يقدروا عليها ، وطلب البلقانيون تخلية الجيش العثماني لشطلجة ، وعدم إرسال قوة من قبل الدولة العثمانية إلى ساحات القتال في أوربة ، وأجاب الترك برفض تخلية شطلجة ، وباقتراح تموين المدن التركية المحاصرة ، وبعد أخذٍ وردٍّ طويلين ، خِيف في أثنائهما من انقطاع المفاوضات ، اتفق ناظم باشا والجنرال شافوف البلغاري على أن تبقى العساكر العثمانية في شطلجة ، وتبقى العساكر البلغارية والصربية في مراكزها ، ويكون بين الفريقين منطقة محايدة[٢] .

ورفض اليونان الدخول في المتاركة ، لأنهم كانوا يريدون فتح يانية ، وكانت لا تزال ممتنعة عليهم .

ثم جاء ناظم باشا إلى الأستانة بعد عقد المتاركة ، وهو لا يشكُّ أنّ الصلح واقعٌ فذهب محرِّرُ هذه السطور لمقابلته ، وأبديتُ وأعدتُ معه في أنّ شأن الدولة قد انكسر تماماً في هذه الحرب ، وأنّ الدولةَ لا يمكن أن تحيى بعد أن انكسر شأنُها إلى هذا الحد ، وأن الدولة لا يزال في يدها قوًى تقدِرُ بها على تلافي ما فرط ، وأن في ولاياتها الآسيوية عساكر كثيرة ، تقدر أن تجرَّها إلى ميدان

---

(١) بلغاري غجري الأصل ، قتل في برلين انظر ص (٥٠٧) من هذا الكتاب .
(٢) في الأصل (متحايدة) .

القتال ، وتستأنفَ الكرةَ ، وقلتُ له : إنّ البلقانيين بعصائبهم التي كانت تعيثُ في تراقية ومكدونية قد شغلوا الدولة أكثر مما شغلتهم جيوشهم المنظمة ، فكان يجب على الدولة أن تقابلهم بالمثل ، وأن تأتيَ بجانبٍ من القبائل الكردية والعربية ، وتبثَّها في شبه جزيرة البلقان ، فإنَّه من الصعب جداً أن يستطيعَ البلقانيون تأمينَ البلاد التي احتلوها إذا شنَّت هذه القبائل الغارات في أطرافها .

فقال لي ناظم باشا : إنّ الصلح كان مقرَّر ، والقتالُ لن يتجددَ ، وعبارته هكذا بالحرف « غوغاتكررإيتميه جكدر » أي أن القتال لن يتكرر . فأبديتُ له عدمُ اعتقادي كونَ الحرب انتهت ، وذهابي إلى أنه لا بدّ من أن تشتعلَ الحربُ من جديد ، فعلى الدولة أن تستحضِرَ جميعَ عساكرها الباقية في آسية . وخرجتُ من عند ناظم باشا ، وأنا غير متعجِّبٍ من فشل الدولة في هذه الحرب .

وأما أحمد عزت باشا الأرناؤوطي ، الذي كان والياً في اليمن ، وجاء في آخر الحرب ، وكان لا يصدِّقُ انكسار الجيش العثماني في ظروفِ الأحوال التي انكسر بها لكثرة ما رأى من أغلاط القيادة ، فقد كاشفتُه بما في نفسي من قضية جمع العساكر التي في آسية ، واستنفار القبائل العربية والكردية ، فأجابني بالموافقة على الشق الأول ، وأما الشق الثاني فقال لي : كان هذا موافقاً جداً لو وقع في أول الحرب ، أما الآن فلم يبقَ ميدانٌ لشنّ هذه الغارات بعد أن احتلّ العدو جميع الروملي ، وانحصر الجيش العثماني في شطلجة . نعم قال لي هذا ، ولكنّه رجع فيما بعد إلى رأيي ، ولما استرجعَ الأتراكُ تراقية الشرقية وأدرنة كما سيأتي الكلام عليه ، واستدعت الدولة وفداً من سورية إلى الأستانة [مؤلفاً من] ثمانيةِ أعضاء كنتُ أنا من جملتهم ، لبعض المذاكرات المتعلقة بالإصلاحات الداخلية ، دعتنا أن نذهبَ إلى أدرنة ، ونهنىءَ أهلَهَا على الخلاص ، **فشاهدتُ فريقاً من القبائل مخيّمينَ غير بعيد عن البلدة ، وهم من قبائلِ العراقِ ، وكانوا بزيِّهم العربي أي بالعُقُل والكوفيات ، وزرتُهم في مضاربهم ، وشربت القهوةَ عندهم ، وعلمتُ أنه في الكرّة التي كرَّها الترك على البلغار ، وأخرجوهم فيها من أدرنة ، كان لهذه القبائل بلاءٌ شديدٌ ، وكان مجرَّدُ مشاهدتِهِمْ قبلَ فعلهم يوقع الرعبَ في البلغار ، ولو كانت الدولة تنبهتْ لهذا**

الأمر ، وسحبت من بوادي الشام والزور والعراق ثلاثينَ ألف فارسٍ من العرب والأكراد ، وجعلتهم رِدْءاً للجيش المنظّم ، لما حلَّ بها هذا الفشلَ العظيمَ الذي حلَّ بها في الحرب البلقانية ، ولكنّ الدولة استخفّت بأعدائها يومئذ استخفافاً خُيِّل لها أنها ذاهبة إلى حرب لا يزيد على تأديب عصاة ! !

ولما جاؤا إلى المذاكرات الصُلحية استندت الدولة على بيان البلقانيين أنهم لا يريدون من هذه الحرب إلا إصلاح إدارة البلدان التي يسكنها أقوام منهم ، وأظهرت استعدادها لإعطاء مكدونية إدارةً خاصةً تحت مراقبة الدول ، فأجاب البلقانيون بأنهم إنما كانوا رضوا بذلك الاقتراح أملاً بتفادي الحرب ، والحال أنّ الحرب قد وقعت برفض الدولة لهذا المشروع ، فالآن هم يريدون العمل بنتيجة الحرب ، وهو إدخال إخوانهم في ممالكهم رأساً ، ويطلبون غرامةً حربيةً لتعويضهم عمّا تكلّفوه ، وطلب البلغار أن تكون حدودهم خطاً يذهب من ميدية على البحر الأسود إلى بحر الأرخبيل ، وتكون قَوَلَة تابعةً لهم ، وطلب الصربيون ولايتي قُوْصُوَه ومناستر ، وطلب الجبل الأسود أشقودرة وتوابعها . وطلب اليونان جميع الجزائر ، وولاية يانية ، ومكدونية السُّفْلَى ، داخلاً فيها سلانيك وتراقية الغربية ، فرفض الأتراكُ هذه المطالب كلها ، وانعقد مؤتمر الصلح في لندرة ، وتواجهت الخصوم بعضها مع بعض .

وكانت الدولة حشدت ثلاثةَ جيوش أتت بها من آسية ، وصممت أنّها لدى الحاجة تزحف وترفع الحصار عن أدرنة التي كان البلقانيون عجزوا عن فتحها ، وبتوسط الدول رضيت تركية أن تتخلّى للبلغار عن بعض أماكن غربي أدرنة ، وأما من جهةِ جزائر الأرخبيل ، فرفضت أيضاً تركية التخلّي عنها لليونان ، واقترحت أن تترُكَ للدول حلّ مسألة كريت .

وأما ألبانية فقد رضيت تركية بأن يكون لها استقلال داخلي ، وأن تتعيْنَ حدودُها بالاتفاق مع الدول ، فلما رأت الدول أن الدولة غير مستعدة لإجابة البلقانيين إلى مطالبهم ، وأنّ الحرب قد يستأنف نشوبها ، أرسلت إلى الدولة في (١٠) يناير ـ كانون الثاني سنة (١٩١٣ م ـ ١٣٣٠ هـ) مذكرةً عموميةً تنصحُ لها فيها بقبول مطالب البلقانيين ، وبالتخلّي عن أدرنة للبلغار ، وأنْ يقع اتفاق على

حماية مسلمي أدرنة ، وصيانة المساجد والمقابر الإسلامية التي فيها ، وأنّه إذا كانت تركية تصرُّ على الحرب ، فهذه المرة يجوزُ أنّ الحربَ تمتد إلى آسية ، وأنه لا يمكن أن تقترض تركية مالاً من أوربة عند الاحتياج لأجل إصلاح ممالكها في آسية . وكان الاتحاديون معارضين أشدَّ المعارضة في الصلح على هذه الصورة ، وكانوا يطعنون بكامل باشا لجنوحه إلى السلم ، ويقولون : لا يحقّ له أن يتخلّى عن شبرٍ من أراضي المملكة بدونِ قرارِ مجلس الأمة ، والحال أنّ المجلس كان منفضًّا ، فأجمع كامل باشا على عقد مجمعٍ كبير من رجال الدولة وأعيانها ، لاستشارتهم في هذا الخطب الجلل ، وهي عادةٌ قديمة عند الدولة بأنها في الخطوب الكبرى تدعوا الوزراء الذين في الخدمة ، والوزراء السابقين ، وقواد الجيش القائمين على الخدمة والمتقاعدين ، والعلماء الكبار ، ورؤساء الطرق ، وكبار أصحاب الأملاك ، وأعيان التجار والزراع ، ومثل هذا الديوان انعقد في ديسمبر ـ كانون الأول سنة (١٨٧٦ م ـ ١٢٩٢ هـ) عندما طلبت الدول وضع مكدونية وبلغارية والبوسنة والهرسك تحت المراقبة الأوربية ، فرفض الديوان الذي انعقد يومئذٍ اقتراحَ الدول هذا ، وأدّى ذلك إلى نشوب الحرب الروسية التركية . فالديوان الذي عقده كامل باشا هذه المرة لم يحل المسألة حلاً نهائياً ، وانقضى بالمذاكرات على كيفية المقاومة ، وبعد ذلك جاءت جماعة من الاتحاديين إلى الباب العالي ، وبيدِهم طلبٌ يتضمَّنُ رفضَ تسليم أدرنة ، ودخل أنور إلى مجلس الوزراء يقدِّمُ هذا الطلب إلى الصدر الأعظم ، وفي أثناء وجودِه داخلاً حصلتْ جلَبَةٌ أمامَ الباب العالي ، فخرج ناظم باشا ناظر الحربية ، وانتهر الذين كانوا يرفعون أصواتهم ليحدثوا الضوضاء ، فأطلق عليه أحدُهم الرصاص فقتله ، فخرج كامل باشا ، فوجدَ ناظم باشا صريعاً ، فاستقال من الصدارة بتلك الدقيقة ، وركب عربته وسار إلى بيته . وتولّى الاتحاديون الحكومة تحت رئاسة محمود شوكت باشا بعد أن جاء أنور إلى سراي طولمة باغجة ، وحصل على الأمر السلطاني بذلك .

أما زعم بعضِهم بأنّ أنور هو الذي قتل ناظم باشا فليس بصحيحٍ ، لأنّ كامل باشا نفسُه روى في مصر لمن حادثه مِنْ أصحاب الجرائد أنّ جماعَةَ الاتحاديين اجتمعوا أمام الباب العالي ، وكانوا نحواً من مئة شخص ، ودخل أنور عليه يقدِّم

له الاحتجاج على تخلية أدرنة ، وبينما هو يقرأه سمع صوتَ الرصاص أمامَ الباب ، فخرجَ فوجدَ ناظم باشا صريعاً ، إذاً أنور بريءٌ من هذه التهمة بشهادةِ كامل باشا نفسه .

وأما كيفية قتل ناظم باشا وياورِه توفيق القبرصي فقد اختُلِفَ فيها ، والأقرب أنه انتهر الجمعَ ، فأهانوه بالكلام ، فتصدّى ياورُه للقبض على من استطالوا عليه ، فحينئذ أطلقوا الرصاص على الناظر والياور معاً وقتلوهما . وبعد ذلك وقع استعفاءُ الوزارةِ ، وذهب كامل باشا وجمال الدين أفندي شيخُ الإسلام إلى مصر ، وذهب فريد باشا الأرناؤوطي الصدر السابق أيضاً إلى مصر ، وشاهدتُهم هناك ، وجرى بيني وبين فريد باشا جدال طويل في سراي عابدين أمام جمال الدين أفندي ، وكان صدرُه ملآنَ وَغْراً على الاتحاديين ، وكنت أقول له : إنني آسف من هذه المنازعات الحزبية في أثناء ما البلغار مخيمون على أبواب الأستانة ، وأتأسف من تفكره والحالة هذه بعداوة الاتحاديين ، فامتعض جداً مما واجهتهُ به ، وشرعَ جمال الدين أفندي شيخُ الإسلام في تهدئةِ روعِ كلٍّ منا .

ثم في (٣٠) يناير ـ كانون الثاني سنة (١٩١٣ م ـ ١٣٣٠ هـ) ردت الدولة الجوابَ على الدول ومآلُ مذكرتها الجوابية [أنه] من جهة أدرنة [لا مانع من] التخلّي عن أحد شطريها ، وهو ما يقع على الضفة اليمنى من نهر المريج ، فأمّا الضفة اليسرى التي فيها المدينة الحقيقية فتبقى لتركية ، وكذلك لم توافق الدولة على ترك جزائر الأرخبيل . ثم اقترحت على الدول إلغاء الامتيازات الأجنبية التي تعرقلُ سيرَ الإصلاح الإداري في تركية ، وطلبت أن يكونَ لها الحق بضرب المكوس التي تستلزمها الحالة ، وطلبتْ إضافةَ أربعةٍ في المئة على رسوم الجمارك ، وغير ذلك مما لم تُجِبْ إليه الدولُ .

ولما رأى البلغار أن تركية لا تريدُ تسليم أدرنة جددوا الحرب ، وهاجموا أدرنة ، وجددوا القتال أيضاً في شطلجة ، وبولايير بقرب الدردنيل ، ومع كون واقعة بولايير لم يوفَّقْ فيها التركُ ، فإنّه كان يتعذر على البلغار أن يربحوا شيئاً من استمرارهم في الحرب ، ثم إنّ الترك كسروهم في واقعة كالكترية ، وكانت الدولة استجدَّتْ نشاطها ، وقطع البلغار آمالهم من التغلب عليها . نعم إن مدينة

يانية في جنوبيِّ ألبانية كانت استسلمت للجيش اليوناني بعد حصارٍ طال عدةَ أشهرٍ ، ولم يبق فيها قوة ولا ذخيرة ، فاضطرت حاميتها إلى الاستسلام في (٥) مارس ـ آذار ، ومثل ذلك مدينة أدرنة ، التي اضطر قائدها شكري باشا إلى تسليمها في (٢٦) مارس ـ آذار ، فتكون مدةُ حصارِها ستةَ أشهر وثمانية أيام ، كما أنَّ مدة حصارِ يانية كانت نحواً من أربعة أشهر ، وكل من البلدتين لم يتمكن البلقانيون من الاستيلاء عليهما إلا بالجوع ، ولو كان فيهما الميرة الكافية والذخيرة الكافية[1] للبنادق والمدافع ما كان في استطاعة البلقانيين دخولهما .

والدفاع الذي دافعه شكري باشا عن أدرنة يبقى صفحةً تاريخيةً باهرةً في تاريخ تركية ، وطالما اقترح عليه البلقانيون تسليم أدرنة تحت شرائط شريفة فأبى ، وأجاب بأنه لا يسلمها إلا ميتاً ، ولكن بعد أن نفدت الذخيرة ، وانتهى القوت ، لم يبق في استطاعته المقاومة ، وأما في الحرب فقد حمل عليه البلغار والصرب مراراً عديدة ، وكانوا يرتدون على أدبارهم ، وقضى هو وأهالي أدرنة من الجوع وإعواز ضروريات الحياة شيئاً كثيراً ، علمتُ منه أنا بنفسي حقائقَ مُرَّةً يومَ كنتُ مفتشاً للهلال الأحمر المصري في الأستانة مع محمد باشا الشريعي ، وكامل باشا جلال . ذلك أنه جاءنا رسولٌ من قبل شكري باشا في أثناء الحصار يقول : إنه إنسلَّ من أدرنة خفيةً ، ومعه كتاب إلى الباب العالي يطلبُ مبلغاً من المال لشراء حنطة للعسكر ، وأن الجوع قد عضّ[2] العسكر بنابه ، ولم يجدوا مالاً في الخزينة ذلكَ الوقت ، فهل من الممكن للهلال الأحمر المصري أو لجنة الإعانة المصرية أن تُقرِض الدولةَ مبلغاً لأجلِ إغاثة حامية أدرنة ، فتذاكرتُ مع رفاقي ، وأرسلنا بواسطةِ الدولةِ سِرّاً عشرة آلاف جنيه من مبلغ الإعانة المصرية إلى شكري باشا تحت اسم إعانة لجياع أدرنة .

ثم إننا قرّرنا بعد ذلك إرسالَ بعثةٍ من الهلال الأحمر المصري إلى أدرنة ، فأبرقتُ إلى الأمير محمد علي توفيق رئيس الهلال الأحمر المصري ، وإلى الأمير عمر طوسون رئيس لجنة الإعانة المصرية بوجوبِ السعي لدى الدول ، حتى

---

(١) في الأصل (العلف الكافي) .
(٢) في الأصل (ضرس) .

تتوسطَ مع البلغار لأجل إدخال بعثة إلى أدرنة لمعالجة الجرحى والمرضى ، وتمّ الأمرُ ، ودخلت البعثةُ المصريةُ ، وأعانت الجيش العثماني ومسلمي أدرنة إعانةً فوقَ الوصف ، عرفتُ مقدارها بنفسي ، وذلك أنه بعد استرداد الدولة لأدرنة ، كما سيأتي الكلام عليه ، استدعتْ الدولةُ وفداً من سورية كان مؤلفاً من ثمانية أشخاص [وهم] : محمد فوزي باشا العظم ، وعبد الرحمن بك اليوسف ، وأمين أفندي الطرزي من دمشق ، ومحمد باشا المخزومي ، والدكتور حسن الأسير من بيروت ، والشيخ أسعد الشُّقيري من عكا ، ونصري أفندي الشنتيري من بيروت ، والأستاذ الشيخ عبد المحسن أفندي الأسطواني قاضي الشام الحالي ، وهذا العاجز كاتب السطور ، ولم يبقَ في الحياة من هذا الوفد غيري وغير الأستاذ الأسطواني والشيخ الشقيري ونصري الشنتيري . وكان ذهابُنا من بيروت إلى الأستانة في شهر أغسطس ـ آب (١٩١٣ م ـ ١٣٣٠ هـ) لأجل مذاكرات مع الدولة تتعلّق بالإصلاحات الداخلية في سورية ، وبتسكينِ الأمور بين العرب والترك ، وكانت الدولةُ استرجعت أدرنة ، فدعتنا إلى زيارتها لأجلِ تهنئةِ أهلها بالرجوع إلى حضن السلطنة العثمانية ، فذهبنا إلى هناك ، واحتفلَ الجيشُ المرابط بوصولنا ، وفي حضورِ الجيش تلوتُ قصيدةً منشورة في ديواني الذي هو الآن تحت الطبع مطلعها :

فِدًى لحمانا كُلُّ مَنْ يَمْنَعُ الحِمَى ... وَمَنْ ليسَ يَرْضَى حَوْضَهُ مُتَهَدِّمَا
فمـا العَيْـشُ إلّا أنْ نَمُـوْتَ أَعِـزَّةً ... ومـا المـوتُ إلا أنْ نَعِيْشَ وَنَسْلَمَـا

وخطب في الجَمْعِ الشيخ الشقيري ، وخطب في صلاة الجمعة الشيخ أحمد الفقيه المكي الذي جاء معنا خطبةً بصوته الشجيّ وفصاحتِه الحجازيَّة ، مما حقّقَ قولي في قصيدتي :

أَدَرْنَتُنَـا لـو كـانَ للصَّخْـرِ أَلْسُـنٌ ... بِهَـا يَـوْمَ عـادَ الـرّاجِعُـوهـا تَكَلَّمَـا
فمـا مِـنْ فتًـى إلا وَأَجْهَـشَ بِـالبُكَـا ... وَلا مِـنْ جَـوَادٍ عَـادَ إلا وَحَمْحَمَـا
ولا غـــادةٌ إلا وَكَفْكَـــفَ دَمْعَهـــا ... مَكَرُّ حُمَاةِ العِرْضِ كالسَّيْلِ مُفْعَمَا
ولا مِنْبَـــرٌ إلا وَأَوْرَقَ بَهْجَـــةً ... وَقَـامَ عليـهِ سَـاجِـعٌ مُتَـرَنِّمـا
وَقَرَّتْ عيونُ المصطفى في ضَرِيْحِهِ ... وهنّاه في الفِرْدَوْسِ عِيْسى ابنُ مَرْيَمَا

ومنها :

فَمَنْ مُبْلِغُ البُلْغَارِ أَنَّا إلى الوَغَى وَإِخْوانُنَا الأتراكُ نَزْحَفُ تَوْأَمَا
وليس يزالُ العربُ والتُّرْكُ أمةً حنيفيةً بيضاءَ لن تَتَقَسَّمَا
وقُولوا لَهُمْ «بَانَتْ سُعَادُ»[١] فلا يَزَلْ فُؤادُكُم وصَبّاً عليها مُتَيَّما
فلا يُطمِعَنْكُمْ في أَدَرْنَةَ مُطْمِعٌ ولا تَفْتَحُوا في شَأْنِهَا أبداً فما
أَدَرْنَةُ صارَتْ عندنا تِلْوَ مَكةٍ وَمَاءُ المَرِيْجِ اليَوْمَ أَشْبَهَ زَمْزَمَا

ولما أقبل الليلُ كان الوالي الحاج عادل بك أعدَّ لنا مكاناً للمبيت ، فاستعفيتُ منه قائلاً : إنني كنتُ مفتشاً للهلال الأحمر المصري ، ولا يزالُ له بعثة في أدرنة ، وكنت أنا السبب في دخولها ، فأرغبُ في المبيت بدائرة الهلال الأحمر المصري فذهبتُ ، وبتّ هناك ، وعند الصباح رأيتُ مئاتٍ من مسلمي أدرنة أمامَ دائرة الهلال الأحمر ، وبأيديهم سطول ، فسألتُ عن ذلك فقالوا : إنّه كل يوم يوزَّعُ عليهم حساءٌ وخبزٌ ، ولكنهم قالوا : إنه في أثناء حصار أدرنة بعد أنْ قلّت الأقوات ، واشتد الجوع ، كان الأربعون ألف نسمة من مسلمي أدرنة يعيشون كلُّهم من الهلال الأحمر المصري ، ولولاه لهلكوا بأجمعهم من الجوع ؛ لأنّه لم يبقَ بأيديهم شيءٌ من طول الحصار ، حتى إن الذين في أيديهم شيءٌ من النقود لو أرادوا شراءَ القوتِ لم يجدوه ، فالله تعالى أغاثهم بوجود هذه البعثة المصرية ، ولما استرجعت الدولةُ أدرنة درّت الخيراتُ ، وارتفعَ الضيقُ ، ووَزَّعَتْ الدولةُ عليهم الأقوات ، فلم يعودوا محتاجين إلى الهلال الأحمر ، وقالوا لي : إنّ الذين تراهم الآن إنما هم خمسمئة أو ستمئة شخص من المساكين والعاجزين .

وبمناسبة هذه المعاونة التي لقيَتْها أدرنةُ من حميَّةِ أهلِ مصر ينبغي لي أن أذكر على وجه الإجمالِ ما قامت به مصرُ كنانةُ الله في أرضه من إمدادِ الدولةِ العثمانيةِ في الحرب البلقانية المشؤومة ، وأنْ لا أدعَ هذه الواقعةُ غُفْلاً ، قياماً

---

(١) قصيدة البردة الشريفة للصحابي كعب بن زهير ، وللأتراك غرام في قراءتها ، وشروحها أكثر من أن تحصى .

بواجبِ الأمانة مع التاريخ ، وتوفير الحق لأهله ، فأهلُ مصرَ يومئذٍ حققوا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] وقوله ﷺ : «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهِم وتعاطُفِهِم مثلُ الجسدِ الواحدِ إذا اشتكى منه عضوٌ ، تداعى له سائرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمّى»[1] فأول شيء أنّهم جمعوا إعانةً للدولة مبلغَ نصف مليون جنيه ، وذلك بهمة لجنة الإعانة التي كان يرأسها الأمير عمر طوسون ، وهو الذي يرأس كلَّ عمل خيري تقريباً في مصر ، وأرسلوا بعثةً من الهلال الأحمر المصري ، قامت بأعظم الأعمال في معسكر شطلجة ، ثم إنّ مسلمي الروملي بالنظر لما وقع عليهم من اعتداء البلقانيين ـ لا سيما اليونان ـ فرّوا من وجه العدو اتقاءَ القتل للنفوس والهتك للأعراض ؛ فالتجأوا جميعاً إلى الأستانة ، ليجوزوا إلى بلاد الأناضول ، وجاء منهم فريق إلى كاليبولي ، ليجوزوا منها أيضاً إلى البلاد نفسها ، وبديهي أنّ هؤلاء الذين فروا من وجه العدو ، هاموا على وجوههم ، لا يلوون على شيء خوفاً على دمائهم وأعراضهم ، ولم يكن ليتيسَّرَ لهم التريّثُ حتى يستحضِروا النفقات اللازمة لهم من أجل السفر ، وأكثرُهم خرجوا بعيالهم ، وهم لا يملكون القوتَ الضروريَّ ، وكان ذلك في قلب الشتاء ، وكان عددُهم لا يقلُّ عن مئةٍ وخمسينَ ألفَ نسمةٍ .

فلما دخلوا الأستانةَ ، أنزلتهم البلدية في الجوامع والمدارس ، فاستوعبتهم جميعاً ، ومن هنا يعرِفُ الإنسانُ فائدةَ هذه الجوامع العظيمة التي شيّدها سلاطينُ آلِ عثمان بالحجر الصلب ، وتوسّعوا في عمارتها إلى الدرجة القصوى ، حتى إن الجامع الواحد منها مع مُضافاته والمدارس المتصلة به يكادُ يكونُ بلدةً ، فأبرقنا إلى مصر بحالة هؤلاء المهاجرين ، وكنت أنا المتولّي الكتابة إلى الأمير عمر طوسون ، والأمير محمد علي توفيق ، ووصفتُ لهما حالة إخواننا المهاجرين ، وما هم عليه من البأساء ، فلم نلبث إلا أياماً قلائل حتى فوضوا إلينا ـ هذا العاجز ومحمد باشا الشريعي وكامل باشا جلال ، وعدة أشخاص آخرين من مستخدمي الهلال الأحمر ـ توزيعَ الإعانات على هؤلاء المهاجرين بمعدل ثلاثة ريالات مجيدية للنسمة ، فطلبنا من أمانة البلدة جداول بأسمائهم جميعاً ، وأخذوا

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

بتنظيمها لنا ، فكنا نذهب بأنفسنا إلى [الجوامع] جامعاً جامعاً ومعنا البوليس ، يدعو كلَّ رئيسِ عائلةٍ باسمه ، ليأتيَ أمامَ اللجنة مع جميع أفراد عائلته ، فننظر في الجدول الذي في أيدينا ، ونسأله عن اسمه وأسماء أفراد عائلته ، فإذا طابق ما في الجدول أدينا له ما يستحقه ، فكان صاحبُ العائلة يقبض عشرين ريالًا ، أو ثلاثين ريالًا ، أو أربعين ريالًا بحسب عدد عائلته . وهكذا حصل لهؤلاء المهاجرين من الفرج ما لا يوصَفُ في زمنٍ كانت الدولة في شغل شاغل عنهم بسبب الحرب ، وإعداد لوازم الجيوش .

وقد بقينا أكثرَ من شهرٍ نوزِّع هذه الإعانات عليهم ، حتى أخذ كلٌّ من المئة والخمسين ألف نسمة نصيبه ، وأرسلنا لجنة إلى كاليبولي ، فدفعت مثلَ ذلك من الإعانات إلى المهاجرين الذين اجتمعوا فيها ، وجميعُ هؤلاء المهاجرين عبروا إلى الأناضول ، وسَلِمُوا من الإهانات والإعتداءات ، لا بل من الفظائع التي حلّت بالذين تخلّفوا من المسلمين في بلاد البلقان ، وهي وصمةُ عارٍ على البلقانيين ، لا يمحوها الدهر ، فقد ارتكبوا من الفظائع والفواجع بحق مسلمي الروملي المساكين بعد انهزام العساكر العثمانية ما لو ارتكب المسلمون بحق المسيحيين عُشْرَ معشاره لقامت أوربة وقعدت ، وملأ صراخها الآفاق ، وملأت أساطيلها مرافىءَ الشرق ، وتوالت احتجاجاتها في العشيِّ والإشراق ، ولكن هذه الدول التي تدّعي المحافظة على الحقوق الإنسانية ، وتزعم أنها تعلِّمُ الناسَ قواعد المدنية ؛ عرفتْ بجميع فظائع البلقانيين بحق المسلمين وما أتت بأدنى حركة[1] .

ولي في ذلك الوقت برقية شديدة إلى السير إدوار غراي ناظر الخارجية الإنكليزية أبيّن له فيها دهشة العالم من وقوفهم بدون أدنى اكتراث لما هو واقع على مسلمي الروملي الوادعين في بيوتهم من اعتداءات الدول البلقانية ، على حين أنّهم كانوا يقيمون القيامة لو كان الاعتداء واقعاً من المسلمين على البلقانيين ، وبعد إرسال البرقية طلب كامل باشا الصدر الأعظم صورتها وأُعجِبَ

---

(١) وها هو التاريخ يعيد نفسه، فقد ارتكب الصرب من المجازر في البوسنة والهرسك وكوسوفو ما تشيب من هوله الولدان تحت سمع العالم وبصره، ولم يحرك الغرب ولا الشرق ساكناً !!

بها ، وجرى حديثٌ بيني وبين ڤيسموريس مستشار السفارة الإنكليزية في الأستانة في هذا الموضوع ، فلم يقدِرْ أن يعترِضَ بكلمة واحدة ، وغاية ما قَدِرَ أن يقولَ لي : إن الصربيين كانوا أقل أذًى للأهالي المسلمين من غيرهم .

ولما سقطت سلانيك في أيدي البلقانيين ، كان قد اجتمعَ فيها جميعُ المسلمين الذين في جوارها ، والذين فروا من وجه جيوش الأعداء ، فدخل اليونان والبلغار إلى سلانيك ، وفيها مئة وخمسون ألف نسمة من المسلمين اللاجئين إليها ، فضلاً عن المسلمين الذين هم من أهلها ، وقد ضبط الأعداء جميعَ الأقوات والأرزاق التي في البلدة لأجل جيوشهم ، فصار المسلمون على شفا الهلاك جوعاً ، وحرص اليونان والبلغار على قطع أخبار سلانيك عن العالم ، حتى لا يعلم أحدٌ ماذا يجري فيها ، وقد كان هذا من أسوأ أعمالهم ، وكأنّهم أرادوا أن يمحوا هؤلاء المسلمين الذين اجتمعوا هناك بواسطة الإجاعة ، فلم يجدوا وسيلةً أحسن من قطع أخبار سلانيك عن العالم ، حتى لا يعرفَ المسلمون ماذا جرى ، ولا يرد منهم أدنى مدد إلى مسلمي سلانيك ، ولكن أبى الله إلّا أن يُغاثوا ، فجاء رئيسُ أطباء الجيش العثماني في سلانيك إلى الأستانة ، واسمه سلامي باشا ، وكان خروجه من سلانيك بمجرد دخول العدو ، فلم يطأ أرض الأستانة حتى اجتمعنا به ، ومنه أخذنا الخبر عن سقوط تلك البلدة ، لأنّ البلقانيين كانوا قطعوا الأسلاك التلغرافية ، فكان لم يمضِ على سقوطها غير ثلاثة أيام ، وهو الذي أخبرنا بأنّ في سلانيك مئتي ألف مسلم على الأقل ، إذا مضى عليهم عشرة أيام ولم تأتهم أقوات يموتون كلُّهم جوعاً . فسرعان ما حرّكتُ قلمي بالإبراق إلى مصر ، سواء إلى الأمير عمر طوسون أو إلى الهلال الأحمر ، وحيًّا الله لجنة الإعانة المصرية والهلالَ الأحمر المصري ، فإنّه ما مضى أسبوع حتى كانت البواخر دخلت مرفأ سلانيك ، ملأى بالأقوات والأرزاق والأكسية وجميع اللوازم الضرورية ، ومعها الرجال الموكلون بها ، فأغاثوا المسلمين ، وانتشلوهم[1] من خطر الهلاك جوعاً ، وكذلك سمعت أنّ الخديوي السابق أرسلَ بواخر إلى مرسى قَوَلَة موقرةً أرزاقاً ، لأنّ قَوَلَة هي موطنُ محمد

---

(١) في الأصل (انتاشوهم) .

علي باشا جدُّ العائلة المالكة في مصر ، وكان اجتمع إليها أيضاً عشرات ألوف من المسلمين الفارين من وجه البلقانيين .

وخلاصةُ القول : إنّ المقام الذي قامه أهلُ مصر أبقاهم الله ركناً للإسلام من إغاثة مسلمي البلقان في الحرب البلقانية يبقَى لهم مأثرةً خالدةً لا تبليها الأيام في تاريخ الإسلام .

ونعود إلى وقائع الحرب فنقول : إنّ الحكومة العثمانية بعد أن تولّى الوزارة محمود شوكت باشا كانت ترغبُ في الصلح ، ولكنّها لم تكن ترضاه على أي [وجه من] الوجوه ، وكان رجال الاتحاد والترقي يريدون استمرارَ الحرب على أمل الكرَّة على البلغار ، وأخذِ الثأر منهم ، لأنهم كانوا جميعاً يعتقدون أنّ الهزيمة التي انهزمها الجيش العثماني في الحرب البلقانية كانت حادثة على خلاف القياس ، ولكنّ الدول بدأت تضغط على الدولة في أمر الصلح ، وفي (٣١) مارس ـ آذار سنة (١٩١٣ م ـ ١٣٣٠ هـ) أرسلت الدول مذكرةً إلى الباب العالي تلحُّ في عقد الصلح ، ولكنها تصرِّحُ بأنها لا تدعو الدولة إلى دفع غرامة حربية ؛ أما الخط الفاصل بين الأملاك العثمانية والمملكة البلغارية فكان خطاً ممتداً من البحر الأسود إلى بحر الأرخبيل يقال له خط ميديت ـ أنوس ، وهو في الواقع خطُّ لا يبعدُ كثيراً عن شطلجة ؛ وكان مؤتمر الدول في لندرة قرر إرسال لجنة عسكرية لتحديد الخط المذكور بالفعل على قدر ما تسمح حالة الأراضي من تقويمه .

وأما ألبانية فقرَّرَ المؤتمرُ سلخها عن تركية ، وجعلها مملكة مستقلة ، وكذلك جزائر بحر الأرخبيل ، كان المؤتمر يريدُ أن يجعل لها نظاماً خاصاً ، ما عدا كريت ، فكانوا قرّروا إلحاقها ببلاد اليونان .

وكلُّ ما جرى على الدولة من المصائب لم يضع حداً للشقاق في الأستانة ، فَقَتْلُ ناظم باشا ناظر الحربية بأيدي الاتحاديين أثارَ غضب أضدادهم حزب الحرية والائتلاف ، فصاروا يكيدون في الخفاء للانتقام وإسقاط الوزارة الاتحادية ، وبلغ الخبرُ الاتحاديين ، فأهملوا الاحتياط اللازم ، وقيل لمحمود شوكت باشا : إنّ أناساً يأتمرون بك ليقتلوك ، فهزّ أكتافه ، لا لكونه لم يصدِّق الخبر ،

بل لأنه لم يبالِ بالحياة ، وكان متوكلاً معتقداً قوله تعالى : ﴿ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] وهكذا تمّ لحزب الحرية والائتلاف ما أرادوا من الكيد ، وكان المتآمرون محيي الدين بك مدير الأمن العام في وزارة كامل باشا ، ورشيد بك ناظر الداخلية السابق ، وصالح خير الدين باشا ابن خير الدين باشا التونسي ، الذي كان صدراً أعظم ، وكان صالح باشا من أصهار العائلة السلطانية ، وكان في هذه المؤامرة أيضاً صباح الدين بك ابن أخت السلطان ، فانتدبوا بعضَ الأشقياء وبعضَ الجناة من أصحاب السوابق في القتل ، ورشوهم ، وكانوا يعتقدون أنهم بمجرد قتل محمود شوكت باشا يستولون هم على الحكم حالاً ، ويقتلون رفاقه مثل أنور وطلعت وجمال وغيرهم ، فذهبت هذه العصابة ، وترصّدت لمحمود شوكت باشا عند مروره بسيارته من ساحة بايزيد آتياً من نظارة الحربية إلى الباب العالي ، وكان ذلك في (٢٨) يونيو ـ حزيران سنة (١٩١٣ م ـ ١٣٣٠ هـ) نحو الساعة العاشرة والنصف قبل الظهر ، فقتلوه وهو في سيارته ، وقتلوا معه ياوره إبراهيم بك .

وأما الياور الآخر أشرف بك فأمكنه الخلاص ، وذهب مستنجداً بالبوليس ، فنُقِلَ محمود شوكت باشا إلى نظارة الحربية ، حيث مات بعد عشرين دقيقة من الواقعة ، لأنه كان [قد] خرقت جسمه خمسُ رصاصات . فكان بين قَتْلِ ناظم باشا وقتل محمود شوكت باشا أقل من ستة أشهر بخمسة أيام ، وأفظعُ شيء في قتل محمود شوكت باشا أنّ اثنين من الذين تآمروا على قتله كانا سيُقتلان بعد واقعة الثورة على الدستور ، ومجيء جيش الحرية من سلانيك إلى الأستانة ، فعفا عنهما محمود شوكت باشا القائد يومئذ ، وأنقذهما من القتل ، وعفا عن مجرمينَ سياسيين كثيرين ، برغم [معارضة] جمعية الاتحاد والترقي ، التي كانت تريدُ الاقتصاص منهم ، فكان الذين عفا عنهم محمود شوكت باشا هم أنفسُهم المتآمرين على قتله ، ولكنهم لم يبلغوا هذه المرة أمنيتهم ، فما أغمض محمود شوكت باشا عينه حتى تولّى الحكم الأمير سعيد حليم باشا مكانه ، وهو ابن الأمير حليم باشا المصري ابن محمد علي باشا والي مصر ، وكان الأمير حليم باشا يسكنُ الأستانة وأولاده نشأوا فيها ، وانضم كبيرُهم الأمير سعيد حليم وأخوه الأمير عباس إلى جمعية الاتحاد والترقي ، وكانا من أماثل الرجال ، وكان

الأمير سعيد واسعَ العلم ، ثابتَ الجنان ، عظيمَ الحمية ، وفي أيام صدارته استرجعت الدولة نشاطها ، وزال ما كان طرأ عليها من الوهن[١] ، وتعيّن طلعت بك ناظراً للداخلية ، وكان هو روح الاتحاد والترقي ، وهو أجرأ الاتحاديين ، وأشدُهم إقداماً ، وأسرعُهم فهماً ، وأمضاهم في الأمور ، وقد جمع إلى الذكاء والحزم عِفّة النفس ، فإنّه كان مأموراً في التلغراف من الدرجة الثانية ، فلما صار الانقلاب ، كان من أشد الاتحاديين مضاءً ، وأعظمهم أثراً بالجمعية ، فصار ناظراً للتلغراف ، ثم صار ناظراً للداخلية ، وفي الحرب العامة تولّى الصدارة ، وبقي فيها إلى نهاية الحرب ، ودخل في الحكومة فقيراً ، وخرج منها فقيراً ، وكان يقول : ألا يكفي أنّ هذه الأمة تحمّلت جهلي ، أفأجعلها تتحمل انحطاط أخلاقي ؟ كان يتكلّم عن جهله ، لأنه لم يكن من العلماء ، أو ممن لهم تحصيلٌ للعلم كاف ، ولكن كان ذكاؤه الفطري أعجوبةً ، وكانت جرأته خارقةً للعادة ، فصار سيّد الاتحاد والترقي بدون منازع . وكانت نهايتُه في برلين قتيلاً بيد أرمني ، أرسلته جمعيات الأرمن لاغتياله ، وكنا في ذلك الوقت في برلين ، وكنتُ بالمذاكرة معه أسّستُ نادياً يجمعُ جميعَ الشرقيين ، وانتُخِبْتُ رئيساً له باتفاق الكلمة ، فاحتفلنا له باسم النادي الشرقي بمأتمٍ عظيم ، وأبقينا تجاليده[٢] في مكان خاص بالجبانة الإسلامية في برلين .

وكانت الجبانة قد ضاقت جداً ، ولم يبق فيها مكان للدفن ، فراجعتُ الحكومةَ الألمانية ، فسمحت لنا بألف وخمسمئة متر مربّع أضفناها إليها ، وأدرنا حولها جداراً ، وبنينا فيها مسجداً صغيراً لإيواء المصلين على الجنائز في أيام المطر والثلج ، وأنشأنا بجانبه منزلاً لأجل حارس الجبانة ، فجعلنا جثةَ المرحوم طلعت باشا في غرفةٍ من ذلك المحل ، وجرى تحنيطُها حتى يتيسّرَ نقلُها إلى الأستانة ودفنها هناك .

فلما استقلّت تركية ، وجاءت الحكومة الكمالية الأنقروية ، لم تسمح بدفن طلعت في تركية ، فكان من الغرائب أن أعظم الأتراك حميةً على وطنه لم يمكن

---

(١) في الأصل (الوهل) .
(٢) جثمانه .

دفنُه فيه ، وما أبت الحكومة الكمالية دفن طلعت في الأستانة إلا خوفاً من أن يكون له مأتم تقوم له تركية وتقعد ، وتتجدّد فيها قوة الاتحاد والترقي ، فسبحان الله الذي جعل طلعت ممن يخافُه النّاسُ في حياته وبعد مماته! وكان مع هذا من ألطفِ الناس خُلُقاً ، وأحلاهم عِشْرةً ، وأودعهم نفساً ، وأيام كنا في برلين سنة (١٣٣٩ هـ ـ ١٩٢٠ م) كنا نجتمع كل يوم تقريباً ، وقد ترجمتُه في حواشي « حاضر العالم الإسلامي » ترجمةً وافية[1] .

هذا ودخل في الوزارة أحمد عزت باشا الأرناؤوطي ناظر للحربية ، وقائداً للجيش ، وعثمان نظامي باشا للأشغال النافعة ، وبقي أكثر النظار الآخرين في مناصبهم ، وبدأت الوزارة بمحاكمة الذين قتلوا محمود شوكت باشا ، والذين دخلوا في مؤامرة قتله ، فحكموا على (٢٤) شخصاً منهم بالقتل ، منهم مَنْ كانوا فرّوا من الوجه ، مثل صباح الدين بك ابن أخت السلطان ، ورشيد بك ناظر الداخلية السابق ، وإسماعيل بك مبعوث كوملجنة ، ومنهم مَنْ وقع في اليد ، مثل صالح باشا خير الدين صهر العائلة السلطانية ، وجماعة يبلغون عشرةَ أشخاص ، فشنقوهم ، وصلبوهم في ساحة بايزيد .

وقد اجتمعت سنة (١٣٤٥ هـ ـ ١٩٣٦ م) بإسماعيل بك مبعوث كوملجنة في جنيف ، وروى لي كيفية فراره في تلك الحادثة ، وتخلّصه من أيدي الاتحاديين .

ثم إن الدول البلقانية اختلف بعضها مع بعض ، فالحكومة البلغارية تنازعت مع الحكومة الصربية والحكومة اليونانية على اقتسام الأسلاب التي أخذوها من تركية في الروملي ، ووصل الأمر بينها إلى القتال . وكانت رومانية أرادت أن تستفيدَ من قتال هؤلاء الحلفاء ، فطلبت تعديل حدود الدبروجة بينها وبين بلغارية ، فوقع الخلاف بين رومانية وبلغارية ، فرأت تركية الفرصة سانحةً لاسترداد ولاية أدرنة ، وفي (٦) يوليو ـ تموز أرسلت تركية بواسطة عثمان نظامي باشا إلى الحكومة البلغارية إنذاراً بوجوبِ تخليتها الأراضي التي كان البلغار قد

---

(١) انظر ص (٤٩٩) من هذا الكتاب .

احتلوها ، وكانت الوقائع الحربية قد انتهت من شهر إبريل - نيسان بموجب متاركة بين البلغار والعثمانيين ، ولكن بقيت الجيوش البلغارية محتلةً جميعَ ولاية تراقية التي يفصِلُها عن تركية خط أنوس ـ ميدية ، الذي قرره المؤتمر الدولي بين الفريقين ، فأرسلت الحكومة البلغارية المسيو نتشيڤيتش معتمد بلغارية سابقاً في الأستانة ، لأجل الاتفاق مع تركية ، لا سيما أنّه كان من أنصار التقارب بين تركية وبلغارية ، فرضي نتشيڤيتش بتغيير خط أنوس ـ ميدية ، الذي كان الأتراك غيرَ راضين به ، وجعل الفاصل خطاً ماراً بقصبة شورلو ، ولكنّ الأتراك طلبوا أن تقبلَ بلغارية النصيبَ المفروض عليها من الدَّيْنِ العثماني ، على نسبةِ ما أخذتْهُ من أملاك تركية ، وتقبلَ أيضاً بإعطاء تأمينات متعلقة بحقوق المسلمين الذين في المملكة البلغارية ، والبلاد التي استولت عليها هذه المرة ، وتتعهّدُ بعدم تقاضي تضمينات[1] حربية ، فلم يقدر نتشيڤيتش أن يتعهّدَ صريحاً بقبول هذه المطالب ، فزحف الجيش العثماني بقيادة أحمد عزت باشا من جهتين ؛ شطرٌ منه سار من جهة رودوستو ، والآخر من جهة شورلو ، وفي (٢٢) يوليو ـ تموز وصل المتطوعون وخيالة العرب والأكراد إلى أدرنة تحت قيادة أنور باشا .

وأما البلغار ، فلما وجدوا الجيش العثماني زحف عليهم ، نكصوا بدون قتال ، ولم يباشروا إلّا مدافعات جزئية ، قتل فيها صاحبنا رشيد بك ابن المشير فؤاد باشا ، كنا معاً في حرب طرابلس ، ولم تكن من البلغار مقاومة إلا بعد أن وصلوا إلى حدود بلغارية الأصلية ، ولكنهم لم يقدروا على مقاومةٍ تذكر ، ولو شاء العثمانيون يومئذ أن يتوغلوا في نفس بلغارية الأصلية لأمكنهم ذلك ، لكنّهم كانوا يخشون اعتراض الدول ، فأرسل الباب العالي إلى الدول مذكرةً يقول فيها : إن الدولة أبلغت بلغارية بوجوب سحب عساكرها من الأراضي التي احتلّها جنودها ، وذلك لأجلِ وضعِ حدودٍ تتمكّنُ بها تركية من المحافظة على الأستانة وعلى الدردنيل ، وهذه الحدود غير ممكنة إلا باتباع مجرى نهر المريج ، بحيث يبقى كلُّ ما هو جنوبيٌّ هذا النهر لتركية .

---

(١) غرامات .

فلما لم يجب البلغار [على] طلب تركية اضطرت الدولة إلى احتلال هذه الأراضي تاركةً تعيينَ الحدود الموافِقَةِ للمذاكرات السياسية ، فغضبت الدول من أجل إخلال تركية بقرار مؤتمر لندرة ، الذي عين خط أنوس ـ ميدية فاصلاً بين تركية وبلغارية ، وأرسلت إلى الدولة تنذرها بأنها إن لم تسحب عساكرها من أدرنة ، فإنها تتخذ جميع التدابير اللازمة لأجل تثبيت قرار المؤتمر ، فهذا الجواب لم يَرِعْ تركية وقتئذٍ ، وذلك لأن الأتراك كانوا يرون الدول متمسِكاتٍ بالقرار الذي يصدرنه في مصلحة أعداء تركية ، ويقلن : [إنه] لا يجوز تبديلَ هذا القرار بوجهٍ من الوجوه ، بخلاف ما لو كان القرار في مصلحة تركية ، فإنه يتبدل حالاً .

وقبل الحرب البلقانية أبلغت الدول الفريقين بأنّ هذه الحرب يكون الغالبُ والمغلوب فيها سواء ، وتبقى الحدودُ مكانها ، فلما تغلَّبَ البلقانيون على الأتراك نسيتْ الدولُ بلاغَها هذا ، كما تقدم الكلام عليه ، فلهذا لم يكن لإنذار الدول هذه المرة موقع خوفٍ في قلوب الأتراك ، وأبرقَ عزّت باشا قائد الجيش من أدرنة يقول : إن الجيشَ لا يمكنُ أن يتخلّى عن أدرنة .

وكان بالفعل لو ضغطت أوربة على تركية ، والحكومة ضغطت على الجيش والأهلين ، لجرت ثورة دموية ، فأجابت تركية الدول بأنّ مذكرتها إلى الباب العالي تشيرُ إلى أن الدول حاضرة للمذاكرة مع تركية في الشروط اللازمة لتأمين حدودها ، والحال أن خط أنوس ـ مدية لا يتأمن به شيء ، وأن تركية إنما احتلت البلاد التي كان احتلها البلغار محافظةً على حياة الأهالي ، الذين كانوا صائرين لا محالةَ إلى الانقراض ، فتركية ترجو من الدول إعادةَ النظر في قضية الحدود ، فلما وصلت هذه المذكرة إلى الدول خطب السير إدوارد غراي خطبةً فيها شيءٌ من التهديد لتركية إذا أصرّت على استرداد أدرنة ، وأما روسية فأشارت بمنع كل معاملة مالية بين أوربة وتركية ؛ ولكن كلُّ هذا لم يرعبْ التركَ ، لأنّ قضية أدرنة هي لهم قضية حيوية ، فأدرنة مفتاح الأستانة كما لا يخفى ، وفي ولاية أدرنة مئاتُ ألوف من المسلمين ، كانوا سينقرضون أو سيرحّلون بأجمعهم لو بقي البلغار هناك ، لما كان عند البلغار من الوَجْدِ لاستئصال الإسلام من تلك

البقعة ، فالأتراك كانوا مصممين على عدم الرجوع عن أدرنة ، وهددوا البلغار بإعلان الحرب عليهم إذا لبثوا يطالبون بأدرنة ، فخاف البلغار من أن ينهزموا ، ويفقدوا ثمرات طوائلهم[١] في أول الحرب ، فجنحوا إلى السلم ، والتمسوا من تركية المذاكرة رأساً .

وكان مسلمو تراقية الغربية قد ثاروا ، وأسّسوا حكومةً مستقلّة لأنفسهم مركزها كوملجنة .

ففي (١٨) سبتمبر ـ أيلول سنة (١٩١٣ م ـ ١٣٣٠ هـ) تقررت شروطُ الصلح بين الفريقين ، واستعادت تركية بموجب هذا الصلح أدرنة ، وقرق كَلِيسة ، وديموطقة ، وأعيدت الحدودُ الأصلية التي كانت بين تركية وبلغارية قبل الحرب البلقانية ، سوى بعض قرى إلى جهة البحر الأسود أكثرُ سكانها من البلغار ، فهذه سمحت بها تركية لبلغارية .

وكذلك خسرت بلغارية الخط الحديدي من أدرنة إلى دده آغاج البلدة التي على ساحل بحر الأرخبيل ، وكان البلغار سيجعلونها منفذاً لهم إلى البحر المتوسط ، وكذلك تقرر بين الدولتين أن يضرب أمد لسكان مكدونية وتراقية أربع سنوات ، ليختاروا التابعية العثمانية ، أو التابعية البلغارية ، فإذا مضت السنوات الأربع ، ولم يختاروا التابعية العثمانية يصيرون رعايا بلغارية ، وإلا فيبقون كأجانب مرجعُهم الدولة العثمانية ، وإذا كان في هذه البلدان يسكن عثمانيون من ولايات أخرى تابعة لتركية ، فيبقون على تابعيتهم العثمانية ، ثم حصلت مذاكرات في قضية الأوقاف الإسلامية ، وتقرّرَ أنّ تكونَ إدارتُها بأيدي الجماعات الإسلامية ، وفقاً للاتفاق التركي البلغاري المنعقد سنة (١٣٢٧ هـ ـ ١٩٠٩ م) بحق الأوقاف الإسلامية في بلغارية القديمة ، فاشترطت تركية أن تكون الأوقاف الإسلامية في الأراضي الملحقة جديداً ببلغارية تحت إشراف شيخ الإسلام في الأستانة ، بخلاف الأوقاف في بلغارية القديمة ، التي كان للحكومة البلغارية حق الإشراف عليها . ثم تقرر أن يكون مسلمو البلغار تابعين للشرع

(١) انتصارهم .

الشريف في أحوالهم الشخصية ، فيحكم بينهم فيها قضاتهم كما في تركية ؛ ويكون للمسلمين في بلغارية مفتون تنتخبهم الجماعات الإسلامية بتمام الحرية ؛ ويجرى تصديقُ انتخابهم بمعرفة شيخ الإسلام في تركية ، وتقرر أن تكون المدارس والمكاتب الإسلامية في بلغارية معدودةً من مؤسسات الحكومة البلغارية التي يجبُ أن تنفقَ عليها .

واستغرب الناس تساهُلَ بلغارية هذا مع تركية ، وقد كانت هي الظافرةُ في الحرب البلقانية ، والحقيقة أن قواد الجيش البلغاري وجدوا أنفسهم لو أصروا على العناد لكرّ الترك عليهم ، وكانوا مِنْ بَعدِ غلبهم سيُغْلبون ، لأن الجيش التركي في المدة الأخيرة كان غير الجيش التركي في أول الحرب ، ثم إنّ البلغار كانوا اقتتلوا مع الصرب من أجل مناستر ، التي كان البلغار والصرب يتنازعون عليها ، وكذلك كانوا اقتتلوا مع اليونان من أجل مكدونية ، فصارت بلغارية مضطرةً بحكم الضرورة أن تسالم تركية .

وانعقدت معاهدة الصلح النهائي بين تركية وبلغارية في (٢٩) سبتمبر ـ أيلول سنة (١٩١٣ م ـ ١٣٣٠ هـ) واتفقت الدولتان على عدم اعتبار المعاهدة السابقة المنعقدة في لندرة في كلِّ المواد المخالفة فيها للمعاهدة الأخيرة .

ثم جرت المذاكرات بين تركية واليونان لأجل الصلح ، ولم تصل الدولتان إلى وفاق .

أولًا : لأن اليونان طلبوا التمتع بالامتيازات الأجنبية التي كانت الدولة حرمت اليونان إياها عندما كسرتهم سنة (١٣١٥ هـ ـ ١٨٩٧ م) فتركية أبت إرجاعَ الامتيازات ، وقالت : إنّ الدول العظام أنفسُها أصبحت مستعدةً لإلغاء هذه الامتيازات .

ثم إنّ تركية طلبت الحرية التامة في اليونان لشعائر الدين الإسلامي ، وأن تكونَ إدارةُ الأوقاف الإسلامية في بلاد اليونان تحتَ مراقبة شيخ الإسلام ، ويكون قضاة المسلمين هم الحاكمون في الأحوال الشخصية ، فطلب اليونان بمقابلة ذلك أن تعادَ إلى بطريرك الروم في الأستانة الامتيازات الدينية القديمة التي كان منحها السلطان محمد الفاتح ، فأجابت تركية بأنْ لا مدخلَ لدولةٍ

أجنبية في أمور داخليةٍ في تركية .

ثم اختلفوا في قضية الأوقاف ، لأنّ اليونان رضوا بالاعتراف بالأوقاف العائدة إلى المساجد رأساً ، فأما الأوقاف التي يُقال لها أوقاف ذريةٍ ، فادّعت دولة اليونان أنها تحل فيها محل الدولة العثمانية .

واختلفوا أيضاً في قضية الخدمة العسكرية ، فاقترحت اليونان إعفاء الأروام الذين في تركية من الخدمة العسكرية ، على أن تعفي اليونان المسلمين الذين في بلادها من الخدمة نفسها ، فرفض الباب العالي ذلك ، فاقترحت اليونان وجهاً آخر ، وهو أن يكونَ للأروام في تركية طوابير مخصوصة ، لا يدخلون فيها مع سائر العسكر ، وأن اليونان بمقابلة ذلك تجعل لمسلمي بلادها طوابير خاصة ، ولا تجبرهم على نزع الطربوش ، فرفض الباب العالي هذا أيضاً .

وطلبت اليونان العفو العام عن الأروام العثمانيين ، الذين ساعدوا اليونان ، فأجابت تركية هذا الطلب ، ثم طلبت اليونان ثلاثة ملايين جنيه عثماني تعويضاً لها عن ضبط مئة سفينة يونانية قبضت عليها تركية في أول الحرب ، فأبى الباب العالي دفعَ شيء .

وانقطعت المفاوضات مدة ، ثم استؤنفت بميل الفريقين إلى الصلح ، وانعقدت المعاهدة في (١٤) نوفمبر ـ تشرين الثاني سنة (١٩١٣ م ـ ١٣٣٠ هـ) وفازت تركية بتأييد كلمتها في قضية الامتيازات ، وفي قضية الأملاك السلطانية ، وكذلك فازت في معاملة الجماعات الإسلامية في أحوالهم الشخصية بموجب الشرع الشريف ، كما جرى الاتفاق مع البلغار ، ولكن لم تتمكن تركية أن تنالَ من اليونان حقَّ إشراف شيخ الإسلام على الأوقاف الإسلامية في اليونان ، بل طلبت اليونان أن تكونَ إدارة هذه الأوقاف بأيدي مسلمي بلاد اليونان ، وهكذا تم .

وبقيت مسألةُ الجزر معلقةً ، وكانت الدول تريدُ إلحاقَ جميع الجزر باليونان عدا تَنَدُس وإيمروز وكستيلوريزو ، وذلك لقربها الشديد من السواحل العثمانية .

وبينما الدول تفكّر في فض الخلاف بين تركية واليونان إذ وقعت الواقعة

الكبرى ، وهي الحرب الكبرى ، فتوقف كلُّ شيء منذ سنة (١٣٣١ هـ ـ ١٩١٤ م) إلى سنة (١٣٤١ هـ ـ ١٩٢٣ م) أي مدة تسع سنوات ، في خلالها جرت الحرب العامة ، تم تبعتها حربٌ أخرى بين تركية واليونان ، التي سلمتها إنكلترة قسماً من بلاد الأناضول ، فاستمرت الحرب بين الأتراك والأروام من سنة (١٣٣٧ هـ ـ ١٩١٩ م) إلى سنة (١٣٤٠ هـ ـ ١٩٢٢ م) وانتهت بانهزام اليونان ، فعند ذلك انعقد بين الدول وتركية مؤتمر لوزان ، وتقرر الصلح ، وبموجبه أُلحقت جميعُ الجزائر في الأرخبيل إلى اليونان ، إلا الجزر التي أمامَ الدردنيل مثل لمنى وتندس ، ولكن تقررت أيضاً مبادلة الأراضي والسكان ، فجميعُ المسلمين الذين في بلاد اليونان جاؤوا إلى تركية ، كما أنّ جميعَ الأروام الذين في تركية أُخرِجُوا إلى بلاد اليونان ، وأخذت تركية أملاك اليونان فيها ، وبمقابلة ذلك أخذت اليونان أملاك المسلمين فيها ، واستلحقت إيطالية رودس والجزر العشر التي حولها . ولم يبقَ في مملكة اليونان سوى مسلمي تراقية الغربية ، فقد جرى استثناؤهم من المهاجَرة ، ولم يبق من الأروام في تركية غير الأروام الذين في القسطنطينية ، إذ أن الدول في لوزان جعلت هؤلاء في مقابلة هؤلاء .

وهذه مسائل عائدة إلى الحرب العامة وذيولها ، ونحن أحببنا الوقوفَ في « **تاريخ الدولة العثمانية** » عند هذا الحد ، لأننا لو دخلنا في موضوع الحرب العامة لطال بنا الموضوع جداً .

ولما كنّا نريدُ أن نفرِدَ الحربَ العامة وذيولها إلى أن انعقدت معاهدة لوزان سنة (١٣٤١ هـ ـ ١٩٢٣ م) بتأليفٍ خاص ـ إن شاء الله ـ لم نجد لزوماً للدخول في هذا التاريخ بموضوعِ أكبرِ حربٍ عرفها العالم ، مما يجبُ أن يفردَ بتأليفٍ على حدة[1] .

ورُبما يُؤْخَذُ علينا في هذا الكتاب كوننا تكلّمنا عن نفسنا في بعض وقائعَ

---

(١) تحدث المؤلف عن الحرب العامة بالتفصيل في كتاب « الأمير شكيب أرسلان بقلمه » وقد وضعت كلامه بتمامه بعد هذا الفصل .

٣٥ ـ محمد رشاد

شهدناها بأعيننا ، وربما عَدَّ ذلك بعضُهم من قبيل تزكية المرء نفسه ، والله يعلم أننا من أبعدِ الناس عن هذا الأمر ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٩] ، وإنما قصدنا بذلك زيادةَ توثيقِ الوقائعِ التي نرويها بذكر ما شهدناه منها عياناً ، إذ هناك فرقٌ كبيرٌ بين السماع والعيان ، وكثيراً ما روى المؤرخون أخباراً لم يكن لها أصل ، أو كان لها أصلٌ ضعيف ، وذلك بسبب تلقفهم هذه الأخبار من أفواه الناس ، أو نقلهم لرواياتٍ غيرِ ممحَّصةٍ . فأنا إذا رويتُ ما شهدتُه بعيني ، وما سمعتُه بأذني ؛ فإنما يكون مقصدي في ذلك زيادة التحري ، والانتهاء إلى أقصى درجات التوثيق « وما راءٍ كمن سمعا »[1] ، وهكذا تظهر الوقائع بشكلٍ بارزٍ ، حتى كأنَّ الإنسانَ يراها بالعيان ، وليسَ هذا بمذهب لم يسبق إليه المؤرخون ، والله تعالى وحدَه مِنْ وراء السداد[2] .

* * *

(١) عجز بيت أوله :

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصرَ ما قد حدّثوك فما راءٍ كم سمعا

(٢) كتب هذا القسم عام خلال عامي (١٩٣٥ ـ ١٩٣٦) .

الحرب العامة

١٩١٤ ـ ١٩١٨

وفي أحد الأيام جاءنا الخبرُ بأنّ الأرشيدوق فرنتز فرديناند (Franz Ferdinand) وليّ عهد النمسة والمجر قد قُتِلَ غيلةً في مدينة بوسنة سراي[1] فراعنا هذا الأمرُ . وحسبنا حسابَ الحرب العامة ، ولا سيّما أنا ، فقد كنتُ كما سبقَ الكلام عليه نشرتُ مقالةً في جريدة « الشعب » المصرية قبل ذلك التاريخ بسنة ونصف ، أقولُ فيها : إنّ الحربَ العامة آتيةٌ لا ريبَ فيها ، وأنّ شرارتها ستنبعثُ من الخصام بين النمسة وصربية ، فلما قُتِلَ وليُّ عهد النمسة قلتُ : إنّه قد تحققَ القسمُ الأوّلُ من كهانتي ، وسيتحقّقُ القسم الثاني ، فأخذنا نترقّبُ الحوادثَ . وصارت المفاوضات بين الدول والمساعي لأجلِ منعِ الحربِ مما ليس هنا مكانُه ، لأنّه يستغرقُ المجلداتِ العديدةِ ، وخلاصتُه أنّ الدول كانت منقسمةً إلى قسمين ، وأنّ كلاً منها كانت ذاتَ غرضٍ ، ومتأهبةً للحرب من قَبْلُ ، وأنّ إنكلترة برغم ميلها للسلم من أجل تجارتها كانت متخوفةً من نمو الأسطول الألماني ، فعقدتْ اتفاقاً بينها وبين روسية وفرنسة لتوقيف نمو ألمانية الذي إنْ لم يتوقّفْ قضى على سيادة إنكلترة في العالم . فمن هذه الجهة كانت إنكلترة تريدُ سحق ألمانية ، كما أنّ فرنسة كانت تريدُ الأخذ بثأرها عن هزيمة سنة (١٨٧٠) واسترداد الألزاس واللورين .

كما أنّ روسيةُ كانت تريد تفكيك أوصال النمسة والمجر تحريراً للشعوب السلافية ، التي كانت أكثر من النصف في الإمبراطورية النمسوية ، وهي تريد الإنفصال عنها .

وأما إيطالية فكانت في الظاهر حليفةً للنمسة وألمانية منذ ثلاثين سنة ،

---

(١) سراييفو .

لكنّها عقدت سراً اتفاقاً مع فرنسة ، يعاكس الاتفاق الأوّل ، الذي كان يُقال له : الحلف الثلاثي ، وتراضت مع فرنسة وإنكلترة على طرابلس الغرب .

وكان رجالُ السياسة في إيطالية قسمين :

قسمٌ يريدون التربُّصَ حتى يتعب الفريقان المتحاربان ، فتأخذ إيطالية ما تريدُ عند نهاية الحرب الطاحنة ، التي تكون الدول قد انتهت منها منهوكةَ القُوى .

وقسم آخر كانوا يريدون الانضمام إلى إنكلترة وفرنسة أملاً بسحق النمسة وألمانية ، والاستيلاء على البلدان الطليانية من النمسة .

وأما ألمانية ، فكانت ترى أنّ إنكلترة قد طوقتها من الشرق والغرب ، وأن الحرب آتيةٌ لا مناصَ منها ، وأنّ كلَّ يومٍ تتأخّرُ فيه الحرب ، يكونُ زيادةً في قوةِ دولِ الحلفاءِ ، أي عصبة إنكلترة وروسيةَ وفرنسة .

وكذلك النمسة كانت ترى أن صربية بعد أن توسّعت من أرض تركية أصبح جميعُ همِّها استلحاق البوسنة والهرسك وكرواتية وسلاف الجنوب .

فجميعُ الدول إذن كانت مستعدةً للحرب ، وجميعُها كانت مسؤولةً عن هذه الأنهار من الدماء .

* * *

وأمّا تركية فقد اختلفَ الناس في صواب دخولها في الحرب العامة وعدمِه .

فالفريقُ الذي كانوا يرون دخولها فيها خطأً يقولون : إنّها لو وقفت على الحياد ، مكتفيةً بتجهيز جيشها ، لما كان مسَّها سوء ، وكان كلٌّ من الفريقين المتحاربين يجتهدُ في استمالتها إلى جهته ، وكانتْ الحربُ تبلغُ من إنهاك قوى الدول مبلغاً لا يمكنها معها الاعتداء على تركية في بلادِها ، ومن هذا الفريق المشير عزت باشا الأرنؤوطي ، المشهور بالعقل والعلم والاستقامة ، وهو من أعزّ أصدقائي ، بيني وبينه مودة وإخاء منذ أكثر من ثلاثين سنة ، ومن هذا الفريق أيضاً محمود باشا جورك صو الكرجي ، وهو أيضاً من العقلاء ، ورجال العسكرية الممتازين بالمعارف ، وجاويد بك ناظر المالية الذي شنقه مصطفى

كمال منذ ثلاث سنوات بحجة المؤامرة على حياته، والأرجح أنّه لم يكن ذا يدٍ في المؤامرة ، وأنّه ذهب بريئاً ، ولكن شنقوه لأنه لم يكنْ من حزب مصطفى كمال.

وأما الفريق الآخر ، فمنهم طلعت وأنور ، وكانوا يذهبون إلى أنّه لا بدّ لتركية من دخول الحرب ، وأنّ بقاءَها على الحياد يعرِّضُها لاتفاق الدول على تقسيمها ، ويستظهِرُون على هذا الرأي بقولهم : إنّ إنكلترة عرضت على ألمانية أن تترك لها الأناضول ، بشرط أن تسكت ألمانية لإنكلترة عن العراق وجزيرة العرب ومصر ، ولفرنسة عن سورية .

وهذا الكلام صحيح لأنّ إنكلترة اقترحت هذا التقسيمَ على غليوم قبل الحرب العامة ، وقد رفضه الإمبراطور ، وكان هذا الرفض من جملةِ ما عدَّهُ عليه بعضُ الألمان من سيئاته ذهاباً إلى أنّه ربما كان هذا التقسيم مانعاً من هذه الحرب الطاحنة التي أودت بجميع قوة ألمانية .

ثم إنّ هذا الفريق كان يقول : إنّنا إذا لم نمش مع ألمانية ، فلا بد لنا أن نمشي مع الحلفاء ، حتى لا يعودوا بعد الحرب فينقضوا علينا ، والحال أنّ دول الحلفاء أي إنكلترة وفرنسة وروسية لا نراها تريد أن تعقدَ معنا حلفاً ، وهذا الكلام هو صحيح أيضاً ، فإنني أنا حضرت هذه المذكرات ، وعندما قُتِلَ وليُّ عهد النمسة ، انعقد القلم العمومي تحت رئاسة طلعت ، وكنت أنا حاضراً ، وصار كلٌّ منّا يبدي رأيه ، فقال سيد بك لطلعت : أرى الأَولى أن تتخذَ سياسةً متوسطةً ، فأجابه طلعت : نحن بين الحياة والموت ، ولا توسُّطَ بين الحياة والموت ، فإمّا أن نمشيَ مع ألمانية حتى يكون لنا ظهيرٌ قوي ، وإما أن نمشيَ مع **الحلفاء حتى نتقي شرهم . ولكنّنا لا نرى الحلفاء يريدون أن يمشوا معنا ، ولا أن يقبلوا عقدَ محالفةٍ يتعهّدون لنا فيها بصيانة السلطنة العثمانية ، وقد أشاعَ بعضُهم أنّ دول الحلفاء عرضن على تركية التحالف ، وليس ذلك بصحيح ، فإنهنّ كن ناوياتٍ تقسيمَ تركية ، وكنّ يعلمنَ أنهنّ إن اتفقنَ معها امتنع التقسيمُ .**

ولقد اعترف المسيو بوانكاره في مجلس الشيوخ الإفرنسي جواباً للمسيو فكتور بيرار بأنّه منذ سنة (١٩١٢) اتفقت فرنسة وإنكلترة على تقسيم سورية وفلسطين ، وهذا قبل الحرب العامة بسنتين .

إذنْ لم يكن ممكناً لدول الحلفاء أنْ يتحالَفْنَ مع تركية تحالفاً يلغي معاهدات تقسيمها التي كانت انعقدت فيما بينهن سرّاً . ولقد كان في الأستانة لجنة اسمها لجنة التوادّ التركي الروسي ، أي لجنة تسعى لتقريب هاتين الدولتين كلٍّ منهما للأخرى ، وكنت أنا فيها ، وكان فيها أحمد نسيمي بك ، وعصمت بك مبعوث الأستانة وأمين البلدة ، الذي مات غريقاً في أثناء الحرب ، وكان من الروس بعضُ أشخاصٍ ، وعندما نشبت الحرب العامة ، وقبل دخول تركية فيها ، كان هؤلاء يجتهدون في إقناعنا بالتزام الحياد ، لكنّهم لم يجتهدوا قط في أن نكونَ حلفاء معهم .

وكانت إنكلترة عند نشوب الحرب قد أمسكت البارجة الدردنوت المسماة رشادية ، التي كانت قد أوشكت تركية أن تتسلّمها من دار الصناعة الإنكليزية ، فاعترضت تركية على ذلك ، وقالت : إنّ استبداد إنكلترة في هذه المسألة نوعٌ من العدوان ، وهو من الأسباب التي تحمِلُ تركية على الميل إلى ألمانية ، ولكنّ إنكلترة بقيت مصرَّةً على عدم تسليم الدردنوت لتركية ، خشيةَ أن تدخل تركية في الحرب .

فجاء هؤلاء الروس يقترحون علينا البقاء على الحياد ، ويتعهّدون بإقناع الإنكليز بتسليمنا الدردنوت ، فأجبناهم بأنّ هذا غيرُ كاف ، وأنّ تركية لها مطالب كثيرة ، لأنّ اعتداءات دول الحلفاء عليها لا تعدُّ ولا تحصى ، وهذه هي الفرصة لتركية أن تستردَّ حقوقَها ، وأهم مسألة هي المسألة المصرية ، فتركية تطلب جلاء الإنكليز عن مصر ، وإبقاء مصر مستقلة في داخليتها تحت سيادة السلطان الخليفة ، وطلبنا أيضاً تعهُّدَ روسية بعدم التجاوز على تركية في المستقبل ، فهذا لم يتعهدوا به ، وكلّ ما تعهدوا به هو إقناع إنكلترة بتسليم الدردنوت لتركية ، وعقد قرض مالي لها ، وقد بلغني - ولا أعلم إلى أي درجةٍ صحة هذا الخبر - أنّ الإنكليز عرضوا على الدولة أن تبقى على الحياد ، وأن يعطوها قرضاً مالياً ، وأن يأخذوا من روسية تعهداً بعدم محاربة تركية إلى مدة

ثلاثين سنة ، ولكنّهم أبوا أن يدخلوا في مكالمةٍ[1] بشأن المسألة المصرية ، وهذا ما كانت تصرُّ عليه تركية . **فالمسألة المصرية كانت بحسب رأيي العاملَ الأعظم في دخول تركية في الحرب** ، وبعبارةٍ أخرى لولا إنكلترة وتوالي اعتدائها على تركية من مدة طويلة ، لربما كانت تركية رضيت بالبقاء على الحيدة[2] .

ثم إن الحرب ابتدأت بين الدول ، وصارت ترد إلينا الأخبارُ اليومية عنها ، وكان السرور في الأستانة عظيماً لضم الأروام والأرمن الذين لم يكونوا مسرورين أصلاً ، ثم إنّه كانت وقعت المعارفة بيني وبين البارون فانكنهايم سفير ألمانية في الأستانة ، وصارت صداقة ، وكان من رجال الألمان المعدودين ، فلما نشبت الحرب ، وقع في أيدي الألمان نحو ألفُ وخمسمئة أسير من المغاربة الذين في الجيش الإفرنسي ، فجئتُ أنا إلى سفير ألمانية ، واقترحت عليه إرسال أسرى المغاربة إلى الأستانة ، لأنّهم يصيرون بذلك إلى بلاد الإسلام ، وقد أعجبه هذا الرأي ، وأبرق به إلى برلين ، ورضوا بذلك ، وأرسلوهم إلى الأستانة ، ولكن الأتراك لم يحسنوا معاملتهم مع الأسف ، فقيل لي : إنّ الكثيرين منهم فروا من سوء المعاملة ، وتفرّقوا في الأقطار ، وأنّ أناساً ذهبوا إلى العراق ، ومن هناك إلى الجيش الإنكليزي ، وطلبوا من قواد الإنكليز أنّ يتوسّطوا لدى فرنسة لرجوعهم ، والعفو عنهم . والله أعلم .

ثم إنّ بارجتين ألمانيتين غوبن وبرسلاو كانتا في البحر المتوسط عند إعلان الحرب ، فاجتمع الأسطول الإنكليزي في مالطة ، وبوارج إفرنسية ، وطاردت هاتين البارجتين ، فأسرعتا في المسير صوبَ الدردنيل ، ودخلتا حيث لا يمكن لأسطول الحلفاء أن يتعقّبهما ، فاحتجّ الحلفاءُ على الدولة لقبولها دخول بارجتين ألمانيتين ، وقالوا : إنّ هذا خرق لقواعد الحياد ، ولكنّ الدولة وألمانية اتفقتا على حَلٍّ لهذه المسألة ، وهو أن تقول تركية : إنّها اشترت الباخرتين ، وبالفعل تقرَّرَ شراؤها لهما .

---

(١) محادثات .

(٢) الحياد .

ثم إنّ البحّارة الألمان الذين فيهما خلعوا البرانيط ، ولبسوا الطرابيش ، زاعمين أنّهم صاروا في خدمة تركية .

وليلة وصول هاتين البارجتين كنتُ أنا عند الصدر الأعظم الأمير سعيد حليم ، وكان عنده إبراهيم بك ناظر العدلية ، وغيره من رجال الدولة ، وكنت أرى أنّ الدولة لا بدَّ أن تدخلَ في الحرب ، ولكن الأمير سعيد حليم شخصياً كان متردِّداً خائفاً من تحمّل هذه المسؤولية ، وقد اجتمعتُ مرةً بسفير ألمانية ، فشكا لي من الأمير سعيد حليم تردَّده ، وقال لي : إنّه يراعي الإنكليز من أجل أملاكِهِ بمصرَ .

وكان الأمير عمر طوسون في فرنسة عند نشوب الحرب ، فخطر في بال الفرنسيين أن يمنعوه من الرجوع إلى وطنه ، وبلغني هذا الخبر ، فنظراً لمحبتي للأمير عمر ، ومزيد حرمتي له ، نظراً لخدماته للإسلام ، ذهبتُ إلى الأمير سعيد حليم ، وسألتُه عن هذه القصة ، فأجاب بأنَّ الخبرَ صحيحٌ ، فقلت له : يجبُ عليك أن تتكلَّمَ مع سفير فرنسة بكل شدة ، ففي يدك رهائن كثيرة يمكنك بها أن تحملَ فرنسة على ترك الأمير عمر طوسون يعودُ إلى مصر ، وقد كان الأمير إبراهيم حليم أخو الأمير سعيد حاضراً حديثي مع أخيه ، فشكر لي هذه الشدة التي تكلمتُ بها مع أخيه .

ثم إنّ سفير ألمانية أبلغني أنّ بينهم وبين تركية اتفاقاً يريد من الأتراك أن يحافظوا عليه ، ولم يقل لي مآل هذا الاتفاق ، وإنّما ترجّاني أن أقولَ للأمير سعيد حليم بأن يتذكّروا الاتفاق الذي بينهم وبين ألمانية ، وقد أبلغتُ الأمير سعيد بذلك ، فأجابني الأمير سعيد أنّه ليس بيننا وبين الألمان اتفاقٌ على أن ندخلَ إلى جانبهم في حرب ، فلحظتُ أنّ هناك اتفاقاً ، ولكن لم يكن إلى درجة الحرب ، ولحظتُ ثانياً أنّ سفيرَ ألمانية لم يكن هو بنفسه في أول الأمر ممن يرى وجوب اتحاد تركية مع ألمانية ، فإنّه كان يتجنّبُ ذلك خوفاً من كثرة مشكلات تركية ، ومن كثرة ما لإنكلترة من المطامع في المملكة العثمانية وفي مصر . فكان يرى أنّ الأَوْلى إبقاءَ تركية خارجةً عن الاتحاد مع ألمانية ، فراراً من ثقل حملة تركية ، ولم يكن السفيرُ يصرِّح لي بذلك كما هو بديهي ، ولكنّه كان

يقول : إنّ الأَوْلى بتركية أن تبقى على الحياد ، إلا أنّه بعد أن تراجع العسكر الألماني من فرنسة في وقعة المارن ، بعد أنْ تقدَّمَ الجيشُ الروسي صوبَ النمسة ، وكاد يهلكها لولا نجدة الألمان ، تغيرت آراء البارون فانكنهايم ، فأخذ يلحُّ عليَّ في قضية التحالف مع تركية ، ودخول تركية في الحرب إلى جانب ألمانية ، ولعلّه كانت قد وردته أوامر من الإمبراطور بأن يحثَّ السعيَ في ذلك .

وفي أحدِ الأيام طلب مني السفير أن أبلغَ الأمير سعيد حليم وطلعت وأنور ما قاله لي بشأن التحالف ، فوقعتُ في حيرةٍ ، لأنني من جهة لم أكن أريد تحمُّل هذه المسؤولية الثقيلة ، ومن جهة أخرى خشيتُ أيضاً أنّني إنْ لم أبلّغ رجال الدولة ما قاله لي السفير الألماني تكونُ عليَّ مسؤولية أيضاً ، إذ لا يعلمُ أحدٌ كيف تكونُ النهاية .

فذهبتُ إلى أحمد نسيمي بك ، وكانت بيني وبينه صلة الأخ مع أخيه ، فرجوته أن يقولَ لطلعت ما قاله لي سفير ألمانية ، فقال لي نسيمي بك : لماذا لا تقولُ له أنت رأساً ؟ فقلت له : لا أريدُ أن يظنَّ طلعت أنّي راغبٌ في الحرب ، أو أنّي أريدُ أن أؤثّر في هذا الموضوع شيئاً .

فأما الأمير سعيد حليم فلما أخبرتهُ بقي متردداً ، وأما أنور فرأيتُه جازماً ، يريد الدخول في الحرب إلى جانب ألمانية، فقال لي: قل للسفير إنني سأواجهه.

وفي تلك الأيام اغتنمت الدولةُ الفرصةَ ، وألغت الامتيازات الأجنبية ، وعملت لذلك مهرجاناً في كل المملكة ، فاحتجَّ السفراءُ بأجمعهم ، برغم الشقاق بين عصبتي الدول المتحاربتين ، وجاء صلاح جمجوز بك ، وقال لي : إنّ صاحبَك سفيرَ ألمانية يحتجُّ علينا أيضاً ، مع أنّه لم يكن منتظراً من ألمانية أن تنضم إلى أعدائها في هذا الموضوع ، فقلت له : ما أظنُّ هذا إلا سياسة من السفير ، يقصد بها إفهامَ تركية أنّ ألمانية لا تصادِقُها مجاناً .

وبعد ذلك ذهبت إلى ترابية في البوسفور ، حيث سفارة ألمانية في فصل الصيف ، وسألت السفيرَ عن خطته في مسألة الامتيازات فأبدى وأعاد ، وقال : إنّ إلغاء الامتيازات كلّها لم يجىء وقتُه بعدُ ، وما أشبه ذلك ، وفي الحقيقة كان مقصده المساومة .

وفي أثناءِ وجودي عنده جاءه سفير إيطالية ، ثم سفير إسبانية ، فترجاني أنْ لا أذهبَ ، وأن أتنزَّهَ قليلاً في الحديقة إلى أنْ يكونَ انتهى من الحديث مع هذين السفيرين ، فانتظرتُ ريثما انصرفا ، ثم رجعنا نتكلّم ، وكانت خلاصةُ كلامِهِ أنّه لا يعلم لأيِّ سببٍ يجبُ أن يضحي بهذه الامتيازات ما دامت تركية متوقفة عن الدخول في الحرب إلى جانب صديقتها ألمانية .

ثم إنّه خرجت الدارعة غوبن إلى البحر الأسود ، وقيل : إنّ مقصدَ قائدِها الألمانيّ كان أن يتحكك بدوارع الروس ، التي كانت تتظاهَرُ أمامَ البوسفور ، وبذلك يقع حادثٌ يجرُّ تركية إلى الحرب .

فأرسل الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم إلى سفير ألمانية يرجو منه أن يأمرَ قائد غوبن بعدم إحداثِ شيءٍ يجرُّ إلى الحرب ، وصادف أنّي زُرْتُ ذلك اليوم السفير ، فوجدتُه يضحك ، وقال لي : أبلغهم أن لا يخافوا ، فإنّي لا أريدُ أن أُدخِلهم في الحرب بالرغم منهم .

وفي ذلك الوقت كانت الاستعدادات الحربية في المملكة تتقدَّمُ ، وكان أنور جاعلاً نصب عينيه ترعة السويس ، آملاً باجتيازها إلى مصر ، فأرسل ضباطاً يرودون له ، ويستكشفون ، ولكنّه سامحه الله تأخَّرَ كثيراً في التجهيز ، والدولةُ بتريُّثها عن الدخول في الحرب لم تأخذ الأهبةَ اللازمة لتجريدة كتجريدة السويس ، فاتّسعَ الوقتُ للإنكليز أن يحشدوا هناك قوةً عظيمة ، ثمانينَ ألف عسكري أو أكثر ، ويُحْكِمُوا مراكزهم في وجه الأتراك إذا زحفوا ، وكان قائد الفيلق الشامي زكي باشا الكردي ، فأبرق إلى أنور بأنّه في مثل هذه الأوقات يجب أن يكونَ عبد الرحمن باشا اليوسف ، وهذا العاجز في سورية نظراً لعلاقاتنا بالعرب والدروز والعشائر ، ورئاسة عبد الرحمن باشا في الأكراد ، فاستدعى أنور عبد الرحمن باشا ، وأبلغه ذلك ، فسافر هو والشيخ أسعد الشقيري ، الذي كان يعمَلُ عبد الرحمن دائماً برأيه . ثم استدعاني أيضاً ، وأبلغني ما أبرقَ به زكي باشا . فأشرتُ عليه بأن يستدعي غيري أيضاً من المبعوثين ، الذين كانوا لم يسافروا إلى سورية بعد انتهاء مدة اجتماع المجلس ، وكان الذين لم يسافروا منهم المرحوم كامل بك الأسعد ، و[سليم سلام] مبعوث بيروت ، والحاج

توفيق حماد مبعوث نابلس ، وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن ، فأبلغتهم بوجوبِ مواجهة أنور ، فواجهوه ، وتكلَّمَ معهم في الانتباه والسهر ، وجمع الكلمة ، هذا والدولة لم تكن دخلت بعدُ في الحرب .

وسافرت أنا من الأستانة إلى سورية ، ولمّا تدخل الدولةُ في الحرب ، ولما جئتُ إلى الشام ، كان عارف بك المارديني الوالي قد صُرِفَ عن ولاية الشام ، وتعين مكانه خلوصي بك ، **وكان هذا الوالي من قَبْلُ مديراً للسكة الحديدية الحجازية وهو من علماء الرياضيات والهندسة ، وكان أيضاً من ذوي الوجدانِ وحريةِ الفكر .**

ولما وصلتُ إلى الشام ، وجدتُ بين الوالي المذكور والقائد زكي باشا شيئاً من الخلاف ، فاجتهدتُ في إزالته .

ثم جاءت الأخبارُ بأنّ الحزبَ الألمانيَّ بين رجال الأستانة قد تغلَّبَ على الحزب الآخر ، وأقنعه بوجوب الدخول في الحرب إلى جانب ألمانية ، وكان السبب في ذلك ما لحظوه من دول الحلفاء ، لا سيما إنكلترة وروسية من أنهنّ يردْنَ بقاءَ تركية على الحياد ، لكنْ بدون أن يقبلوها حليفةً لهن ، مما استدلَّ منه الأتراكُ على نيةِ الغدرِ في المستقبل ، ومع هذا فإنّ كثيرين لبثوا حتى يروا كيفَ يكون مجرى الحرب ، فيستفيدوا من سياسة الحياد[1] ، وآخرون كانوا يريدون تربص الفرصة ، وسمعتُ أنّ رأي جمال باشا كان أنْ تنتظرَ الدولة تَضَعْضُعَ روسية بعد معارك كثيرة ، ثم تنقض عليها من جهة القوقاز ، ولكنّ الألمان كانوا مستعجلين ، لأنّ الحملة على ظهرهم كانت ثقيلة جداً .

تركية تدخل الحرب العامة

ففي أحد الأيام ، خرجت البوارج الألمانية التي قيل إنّها قد اشترتها تركية كما ذكرنا آنفاً، وتحرّشتْ بالبوارج الروسية في البحر الأسود ، ومن ذلك أطلقت النيران على الساحل في أوديسة . والمظنون أنّ أنور كان ذا يدٍ في هذه المسألة .

---

(١) في الأصل (من المستمسكين بسياسة) .

وبلغني أنّ جمال باشا ناظر البحرية وقتئذٍ أنكرَ أنْ يكونَ ذا علم بهذه الحادثة .

واختصار القول : إنّ تركية دخلت من ذلك اليوم في الحرب فعلاً ، ولم يكن الأميرُ سعيد حليم راغباً في الحرب ، كما أنّ جاويد بك استعفى من نظارة المالية ، ومحمود باشا جوروك صو استعفى من نظارة النافعة[1] احتجاجاً على الدخول في الحرب .

وعندما دخلت الدولة في الحرب خاف أهالي السواحل السورية من المسلمين ، لا سيّما مسلمي بيروت أن تدمر دول الحلفاء بيروت بالقنابل ، فأخذوا ينزحون عن بيروت إلى الشام وغيرها من مدن الداخل . وكان الوالي في بيروت بكر سامي بك ، ولا يزالُ على قيد الحياة ، وهو من أماثل الرجال في العقل وحسن السياسة واستقامة المبادىء ، فكانت إدارتُه في ذلك الوقت مرضية ، وكان الجميعُ بدون استثناء راضين عن سياسته .

ولما أعلنت الدولة الحربَ كنتُ في بيروت ، فاجتمعت الأهالي في الثكنة العسكرية ، وخطبتُ هناك في الجمع ، وحرّضت كثيراً على التزام السكون في داخل البلاد ، ولا سيّما على حسن معاملة المسلمين للمسيحيين ، وأذكر أنّ كثيرين من المسيحيين ، ومنهم نجيب باشا الملحمة ، وناصيف بك الريس ، ونخلة بك التويني ، قد شكروا لي هذا الخطاب شكراً وافراً .

وقد ذهبت الجموع من القشلة[2] العسكرية إلى قنصلية ألمانية وقنصلية النمسة ، وخطبت هناك أيضاً .

ثم إن زكي باشا قائد الفيلق الشامي تكلّم معي في لزوم جمع سلاح المسيحيين في جبل لبنان ، فأجبته أنّه ليس عندهم سلاح كما يظن ، وأنّ مباشرة جمع سلاحهم تجعلهم في حذر عظيم ، وقد يظنون أنّ المقصود من ذلك الفتك بهم ، فلا أرى حاجة إلى إثارة أفكارهم وهواجسهم ، وانتهى الحديث بيني وبينه

---

(١) الأشغال العامة .

(٢) الثكنة .

على هذا ، لكنّه عاد فكتب إليَّ رسمياً قائلاً : إنّه يرى وجوب جمع سلاح المسيحيين في لبنان ، إذ يجوز أن يقوموا بثورة عملاً بإرادة الحلفاء ، فيتعبوا الدولة ، وأنّه إذا كنتُ أنا لا أزالُ معارِضاً في جمع سلاحهم ، فإذا حصل شيء من المسيحيين أكون مسؤولاً ، فجاوبتُه فوراً : إنني لا أرى أدنى استعداد عند المسيحيين للقيام بثورة على الدولة ، وما يبغون إلا رضاها ، على أنه لو ظهر منهم شيءٌ فإنني أمشي بالدروز الذين في جبل لبنان لمحاربتهم قبلَ أنْ تمشي العساكر الشاهانية ، وتعهدتُ للقائد بذلك ، لكنني راجعتُ الرجاء بعدم التعرض لقضية جمع أسلحتهم ، ولما كان ذلك سِرّاً من أسرار الدولة ، لم أقدر أن أُفشيه لأحدٍ ، ولكنني أفشيتُه لوالي بيروت بكر سامي بك ، قائلاً له : ماذا ترى من هذا الرأي ، أأصبت أم أخطأت ؟ فقال لي : أصبتَ جيداً ، إذ لا لزوم أصلاً لإثارة هذه المسألة ، التي كان يقلق لها المسيحيون قلقاً عظيماً .

وكانت لي صداقة شديدة مع المطران باسيليوس الحجار مطران الكاثوليك في صيدا ، وكان يحبني حبّاً جماً ، ويشاورني في كل أمر ، فأخبرتُه هذا الخبر ، وأوصيتُه بكتمانه ، قائلاً له : إنّ هذا من الأسرار التي إفشاؤها يلحق بي أشدَّ الضرر . فكان يقول لي : أوّاه لو يعلم المسيحيون الذين منهم أناسٌ يتهمونك بالتعصب ماذا تصنعُ لأجلهم ، ولكنّهم سيعلمون كلَّ شيء بعدَ الحرب .

ثم إنّ هذا المطران توسَّطَ لديَّ في إبقاء الراهبات العازريات في بيروت ، إذ كان صدر الأمرَ إليهنّ بالسفر نظير جميع رعايا الدول المحاربة ، فترجيتُ بكر سامي بك في أمرِ إبقائهنّ في بيروت ، وكان سامي بك عاقلاً ، محباً للخير ، فسمحَ لهنّ بالبقاء ، وشكرنَ لي ذلك .

تفتيش قنصليات الدول المحاربة

ومن جملة ما تكلّمتُ به مع بكر سامي بك أنّه قد بلغني كون الدولة تريد تفتيشَ قنصليات الدول المحاربة ، لتطلع على ما فيها من الأوراق ، وتعلمَ الأشخاص الذين من رعاياها ممن كانوا يترددون على الأجانب ، ويحطبون في حبالهم ، فقلتُ لبكر سامي بك : إنّني أنا شخصياً لا أخافُ تفتيشاً كهذا ، بل

العكس ، أود لو تطَّلِعُ الدولةُ على ما عند القناصل من الأوراق ، التي تدلُّ على شدة عداوتي للأجانب ، وشدة عداوتهم لي ، ولكنني أخالفُ رأي إخراج هذه الأوراق من أماكنها ، لما في ذلك من إقلاق أفكار أناس كثيرين ، هم الآن يخدمون الدولة ، ويتمنون رضاها ، فإذا علموا أنّ الدولة قد اطلعت على دخائلهم ، وعلاقاتهم الماضية بالأجانب ، ينقلبون أعداءً للدولة ، ويضرون بالدولة في أول فرصة تقع لهم .

فرأيت بكر سامي بك موافقاً لي تمام الموافقة على هذا الرأي ، وقال لي : إنني أنا قد طولعت بهذه الفكرة ، فلم أوافقْ عليها ، وما دُمْتُ والياً في بيروت ، فلن أوافقَ عليها .

وبعد ذلك نقلت الدولةُ بكر سامي بك إلى ولاية حلب ، وأرسلتْ مكانه عزمي بك ، الذي لا يزال حياً أيضاً ، ففي زمان عزمي بك فتشت الدولة القنصليات المذكورة ، واطّلعتْ على وثائق كثيرة ، لا سيّما في قنصلية فرنسة ، تثبت علاقات الكثيرين بالقناصل قبل الحرب ، ومن أجل ذلك شنق جمال باشا الكثيرين ، ونفي الكثيرين .

نعم إنّه لم يشنق جميع مَنْ شنقهم ؛ ولم ينفِ جميعَ من نفاهم بحق ، بل كان جمٌّ غفيرٌ من هؤلاء مظلومين ، لكننا نكون مكابرين في المحسوس إذا قلنا : إنَّه لم توجَدْ في قنصلية فرنسة بنوع خاص أوراق كثيرة توجِبُ أشدَّ المسؤوليةِ على الأشخاص الذين تتعلق بهم من العثمانيين . ولا أُنكرُ أنّ عزمي بك المذكور لم يكن سَيِّءَ النية ، ولكنّه لم يشأ أن يسير على خطة بكر سامي بك في إغضاءِ الطرف ، واستعمال سياسة الرفق ، بل أراد أن يلقى كلُّ إنسانٍ جزاء عمله ، وربّما توسط بالخير ، وبذل جهده في العفو ، ولكنْ بعدَ تحقُّقِ الذنب .

هذا وكانت الدولة لما صممت على الهجوم على ترعة السويس لدخول مصر رأت أنّ زكي باشا غير كفؤ لهذه الحملة ، فأرسلتْ جمال باشا ناظر البحرية ، وأرسلتْ مهمات ، وقوة كبيرة ، وضباطاً من الألمان ، وكان الكولونيل فون كريس رئيساً لأركان حرب جمال باشا ، وهو الذي صار فيما بعد جنرالًا ، وكان نائب رئيس أركان الحرب علي فؤاد بك ، الذي هو اليوم علي فؤاد باشا قائد

موقع أزمير . وكلٌ من الجنرال كريس وعلي فؤاد باشا من أفضل رجال العسكرية في العلم والنزاهة وشرف المبادىء ، فكان جمال باشا موفَّقاً بهذين الرجلين ، وكان من جملة القواد في جيش الشام جمال بك المرسيني ، الذي صار فيما بعد أمير لواء ، ثم ناظراً للحربية في الأستانة بعد الحرب . وهو أيضاً من أماثل القواد .

وصول جمال باشا إلى الشام

ولما جاء جمال باشا إلى الشام كنتُ فيمن استقبلوه في محطة البرامكة ، فعندما سلمتُ عليه قال لي : إنّ أنور باشا تكلَّم معه كثيراً عني ، وأرادَ بذلك تطييبَ خاطري .

ثم نزل في أوتيل دماسكوس بالاس ، فدخلنا للسلام عليه ، وكان نجيب باشا الملحمة أرادني أن أكونَ وإياه في السلام على جمال باشا ، وكنتُ في الأستانة جعلت علاقة بين نجيب الملحمة وأنور باشا ، وكان نجيب الملحمة داهيةً خبيراً بالسياسة ، محنكاً مقتدراً على النفع والضرر ، فأُعجب أنور باشا بخبرته ومعلوماته ، ورتَّبَ له معاشاً كان يأخذُه سرّاً ، وإنما كان يأخذه سرّاً ، لأنّ الاتحاديين كانوا يكرهون الملحمة كرهاً شديداً ، لا سيما طلعت .

فلما أعلنت الدولة الحرب جاء الملحمة إلى أنور ، وقال له : إنّه حاضر للذهاب إلى سورية ، ونُصْحِ المسيحيين بالتزام سياسة الدولة ، فأذن أنور له في ذلك مع الشكر .

ولما جاء جمال باشا إلى الشام أحبَّ الملحمة أن يستعطفَ خاطِرَهُ ، وأن يذهبَ معي للسلام عليه ، فعندما دخلنا إلى الأوتيل ، أمر جمال باشا ياوره بإدخالي إلى مكانِ الاستقبال ، وأبى أن يستقبل[1] الملحمة ، ولكن بعد أن راجعتُه ، وألححتُ عليه ، وقلت له : إنّه آتٍ معي رضي أن يقابله[1] مدة خمس دقائق فقط ، فخرج الملحمة منقبضاً ، وكنت أنا في خجل منه .

---

(١) في الأصل (يقبل ، يقبله) .

دفع الأذى عن بطريرك الموارنة

ثم إنّ جمال باشا كاشفني سرّاً بعزمه على أن يستدعيَ أوهانس باشا متصرف لبنان ، وبطريرك الطائفة المارونية إلى الشام ، ويأمر بإبقائهما في الشام ، فقلت له : أما من جهة متصرف لبنان فهو مأمور له ، وليس لي أن أقولَ بشأنه شيئاً . ولكنّ البطريرك رجلٌ شيخٌ طاعنٌ في السن ، وبلغني أنّه مريض ، وإذا أمرتَ بمجيئه إلى هنا الآن ، ينكسِرُ خاطر الطائفة المارونية ، التي لا أرى موافقاً الإتيانَ بعملٍ يوجِبُ كَسْرَ خاطرِها ، فالجميعُ الآن يبغون رضا الدولة ، والأوفق تطييبُ خاطرِ الجميع .

فأجابني جمال باشا بما يفيدُ تصميمَه على إجراء فكرته هذه ، فراجعته بإلحاحٍ بأنْ يرجعَ عن رأيه ، فقال لي أخيراً : تعال غداً لنتذاكرَ في هذه المسألة . ففي اليوم التالي جئتُ وراجعتُه ، فقال لي : أفلا يريدُ البطريرك أن يسلِّمَ عليَّ ؟ فقلتُ له : لا شك أنّه متى برىء من مرضه يأتي للسلام عليك ، وأمّا الآن فيرسل مِنْ قبله مطارين . فقال : لا أقبلُهم إلا إذا كانوا من الدرجة الأولى . فقلتُ له : لا ينبغي أن تتصوَّرَ أنّ عدم مجيْءِ البطريرك هو عن إخلالٌ بحقوق مقامك ، بل هو عن عجزٍ .

ولما اقتنع جمال باشا بأنْ لا لزومَ لاستقدام البطريرك إلى الشام خرجتُ من عنده مسروراً ، فلما رآني نجيب باشا الملحمة قال لي : أمسُ عندَ خروجِكَ من عندِ جمال باشا كنتَ غيرَ منشرحِ الصدرِ ، واليومَ أراك بعكسِ ذلك ، طلقَ الوجهِ ، فما عدا مما بدا ؟ وسألتك أمس ، فلم تقل لي السببَ في كآبتِكَ . فقلت له : الآن يمكنني أن أقولَ لك ، أمس كان جمال باشا مصمِّماً أن يستدعيَ بطريرككم إلى الشام ، وأن يبقيه في دمشق ، وكان لو فعل ذلك ينكسِرُ خاطر الطائفة المارونية ، وكان بعضُ الناس يظنونَ أنّي كنتُ قادِراً أنْ أمنعَ جمال باشا من هذا العمل ، ولكنني لم أستعمل نفوذي لصرفِ نظره عنه ، وحقيقةُ الحال أنّني لا أقدرُ أنْ أعملَ شيئاً ، وإنما أقدِّمُ بعضَ الآراء لرجال الدولة ، وهم يعملون ما يريدون ، فاليومَ راجعتُه بإلحاح ، واقتنع مني بعدم استدعاء

البطريرك ، نظراً لمرضه ، وبالاكتفاء الآن بمجيء مطارين مِنْ قبله ، فشكر لي نجيب باشا هذه اليد كثيراً ، وأبرقَ إلى البطريرك بإرسال المطارين للسلام على جمال باشا ، وأظنُّه كتبَ له بعد ذلك مكتوباً يخبِرُه فيه بما فعلتُه ، لأنّني بعد أيامٍ قلائل جئتُ إلى بيروت ، فرأيتُ كثيرينَ من الموارنة يتشكرون لي ما فعلتُه من أجل البطريرك ، وقال لي حبيب باشا السعد : نشكرُك لأجلِ محافظتِكَ على شرف بطريركنا ، وكذلك سمعتُ الثناءَ الجميل عن لسان البطريرك نفسه ، وعندي منه كتابات كثيرة فيها مزيد الشكر ، وتأكيد المودة ، لأنّ المعرفة بيني وبينه قديمة منذ كان مطراناً ، أي منذ أكثر من ثلاثين سنة ، ولكن مع الأسف لما دارت الدائرة في الحرب العامة على الدولة ، واحتلت فرنسة البلاد لم يعدْ أحدٌ من الموارنة إلا القليل جداً يذكر المساعي التي سعيتُها أيّام نفوذِ كلمتي في دفع الأذى عنهم ، بل رأيتُ من كثيرين منهم عكسَ ذلك . وأتذكَّرُ أنّي قرأتُ في جريدةٍ مارونيةٍ تصدُرُ في أميركة الجنوبية كلاماً ينفي كوني السبب في عدم استدعاء البطريرك إلى دمشق ، ويزعُمُ أنّ ذلك كان بتوسط البابا ، وأشياءَ من هذا القبيل ، ليس لها أصل ، لأنّه لم يكن بين عشية وضحاها قد وصل خبر هذه القضية إلى البابا ، ولكنّ هذا الخبر له أصلٌ من جهة مساعٍ وقعت من البابا فيما بعدُ أي في سنة (١٩١٧) ، فقد كان جمال باشا أصدرَ الأمرَ بمجيْءِ البطريرك إلى الشام ، أو زحلة ، ووصل الخبر بواسطة قاصد رومة في بيروت إلى البابا ، فاتسع الوقتُ لأجلِ مراجعة البابا للدولة في ذلك الأمر .

أما المسألة الأولى ، فلم يكن للبابا ولا لغيره علمٌ بها ، ولا اتسع الوقتُ لوصولِ الخبر إلى رومة ، ثم إنني أنا يومَ دخول الدولة في الحرب أبرقتُ إلى أنور باشا ذاكراً صداقة البطريرك الماروني للدولة ، وحسن استعداده واستعداد طائفته لخدمتها ، وأنّ المسيحيين عموماً سالكون طريق الإخلاص في أثناء الحرب العامة ، وبرقيتي هذه لا شكّ أنها محفوظة في سجلات التلغراف في بيروت . هذا عدا ما كنتُ آخذه بيدِ كلٍّ من راجعني منهم في تلك الأيام بقضيةٍ لدى الحكومة ، وعدا دوام نصائحي للمسلمين والدروز بحسنِ معاملةِ المسيحيين ، فإنني لما جئتُ من الأستانة وفدتْ عليَّ الوفود من جميع قرى الجبل حسب العادة، وكنتُ ألقي التنبيهات وهذه النصائح عليهم جميعاً، وأشيرُ

إلى أنّ الدولة تغضب على كل من يأتي منهم بأدنى عملٍ يسوء المسيحيين، لأنّها لا تبغي غيرَ السلام والوئام في داخل البلاد ، ولم أكن لأريدُ بالكلامَ في هذا الموضوع مناً على أحد منهم ، أو افتخاراً بالقيام بواجب وطني قمتُ به ، ولكن ظهورُ ما ظهرَ من بعضهم بعد الحرب العامة من إنكارِ هذه المساعي التي سبقتْ لي في دفع الأذى عنهم ، هو الذي يحملني على الإشارة إليها ، ولا أقدرُ أن أقولَ إنّ جميعَهم أنكروا ما عملتُه من الجميل ، بل أعرفُ أناساً منهم دافعوا بأقلامهم، وآخرين بألسنتهم ، ولولا كوني مطالِباً باستقلال سورية في وجه فرنسة لكان الذين يجاهرون بالدفاع عني منهم ، وبالشهادة بحسن ما أسديتُه إليهم عدداً كبيراً ، ولكن السياسة قبَّحها الله ، طالما حالتْ دونَ المرء وإعلانِه ما في ضميرِه .

حملة السويس

وأعود إلى موضوع الحرب ، فأقول : لما أرادت الدولةُ الزحفَ على الترعة[1] ، أردتُ أن أذهبَ أنا بزمرةٍ من جماعتي ، وأشتركُ في القتال ، واستأذنتُ رئاسة مجلس المبعوثين ، فصدر لي الإذن بقرارٍ من المجلس ، الذي صفق لذلك بأجمعه احتراماً وإعجاباً ، وسألت القائد الكبير أي جمال باشا ، كم ينبغي أن استنفرَ من المجاهدين ، فقال لي : يكفي مئة شخص ، وكان يظنُّ أنّ المتطوعين بغير نظام لا يكونُ لهم نفعٌ عظيمٌ في الحرب ، فأنا كان يمكنني في ذلك الوقت أن استصحبَ خمسمئة مجاهدٍ من دروز لبنان وحوران ، ولكنني وقفتُ عند الحد الذي رسمه جمال باشا ، وجمعتُ نحو مئة وعشرين شاباً من الجرد ، والغرب ، والمتن ، والعرقوب ، والشوف ، والمناصف ، وذهبت بهم إلى الشام ، وهناك أرادت العسكرية أن تعلمهم الرمي في ميدان المزة ، وقال أمراء الجيش العثماني : يلزم لهم التعليم نحو شهر حتى يحسنوا الرمي بالرصاص ، ولكن من أولِ يوم عرفوا أنّه لا يلزم لهم تعليم رماية ، وأنّهم أدرى

---

(١) قناة السويس .

بها من العسكر نفسه ، فقد وضعوا هدفاً ، وأروهم بالرمي عليه واحداً واحداً ، فمن المئة والعشرين شخصاً لم يوجد غير بضعة أشخاص لم يصيبوا الهدف . فعند ذلك أبلغوا القائد العام ، وكان هو نفسه وأمراء العسكرية قد حدقوا الأنظار فيهم بحسب عادتهم من معرفة الرجال بالفراسة ، فقالوا لي : هؤلاء محاربون بالفطرة ، ولا يلزمُ لهم تعليمٌ ، فيمكنك أن تذهبَ من الغد ، ففي اليوم التالي تأهبنا للسفر ، وكان رحيلُنا بالسكة الحديدية إلى معان ، حيث كان يجتمِعُ الجيش العثماني الحجازي تحت قيادة وهيب باشا ، الذي كان والياً وقائداً للحجاز ، وقد جاء من مكة ومعه تسعة آلافِ جندي ، فانضممنا نحن إليه .

وكان هناك أيضاً زمرة من المتطوعين من أهل المدينة المنورة ، وزمرة أخرى مختلطة من أتراك جاؤوا من رومانية ، وعرب سوريين ، وأرناؤوط ، وغيرهم ، وكانتْ هذه الفئة أكثر من جميع المتطوعين ، أي كانت وحدَها أربعمئة مقاتل ، وكان يقودُها ضابط شاب اسمه نور الدين بك .

ثم إنه كان أيضاً كوكبة من فرسان الأكراد من صالحية الشام وغيرِها أرسلهم عبد الرحمن باشا اليوسف ، فاحتشدَ هذا الجمعُ كلُّه في معان ، وبقينا في تلك البلدة التي لم أجدْ أصحَّ منها مناخاً مدة خمسة عشر يوماً ، ثم زحف بنا وهيب باشا قاصداً قلعة النخل ، لأنّ الجيشَ المذكور كان هو الجناح الأيسر للفيلق العثماني المهاجم للترعة ، وكنّا إثني عشر ألف مقاتل ، فسرنا أولَ مرحلةٍ إلى خربةٍ في جبال الشراة اسمها الصدقة ، من بقايا القرى العربية التي كانت عامرة في صدر الإسلام ، وفي اليوم التالي اجتزنا مرحلةً أخرى ، وبتنا على نهر ماء اسمه الدلاقة ، وكلُّ هذا في الجبال الشاهقة ، ثم ابتدأنا ننحدر ، فالمرحلة الثالثة كانت في سفح جبلٍ اجتزنا إليها عقاباً صعاباً ، وأما المرحلة الرابعة فكانت من ذلك المحل إلى منتهى الجبل ، وأول السهل في مكان يقال له الغرندل ، وقد بحثتُ عنه ، فوجدتُ أنّه العرندل بالعين المهملة ، قد ذكره جغرافيو العرب ، وهو في أسفلِ جبالِ الشراة ، وهو وادٍ فيه مياهٌ جارية ، وقد زارنا إلى هناك مشايخ المجالية وجوه الكرك ، ثم رحلنا إلى محلٍ في الصحراءِ ، ونزلنا على مياه متجمعة من المطر بين الصخور ، وهو مما تسميه العربُ بالإقلات ، ثم

رحلنا إلى محلٍ يقال له خان التلة ، وهو بناء على رأس أكمةٍ عالية ، ثم رحلنا إلى مكانٍ آخر في الصحراء ، ثم المرحلة التي بعدَ تلك انتهت عند بئر يقال لها بئر الثمد ، وهي بئرٌ ماؤها قليل ، كما يدلُّ عليه اسمها ، فإنّ العساكر التي اجتمعت هناك نزحتها ، حتى كنّا ننتظر لتتجمع المياه ونرتوي منها ، ومن بئر الثمد إلى قلعة النخل ثلاث مراحل ، فجملةُ المراحل من معان إلى قلعة النخل كانت إحدى عشر مرحلة .

وأما الأرض من العرندل إلى قلعة النخل أي مسافة سبع أو ثمان مراحل فهي الصحراء ، لا تصلح لشيءٍ ، فيها مسايل مياهِ أيام الشتاء ، ينبت فيها بعض العشب ، وبعض الشجر الصغير ، وفي جوانبها ، فترعى فيها مواشي الأعراب الذين يهبطون من جبال الشراة في أيام الشتاء .

وأما قلعة النخل فهي عبارةٌ عن قلعة قديمة ، بناها السلطان أحمد خان العثماني في طريق الحج المصري ، لأنّ طريقَ الحج من مصر كانت على هذا المحل ، وبعد ذلك انقطعتْ طريقُ الحج من هناك ، فبقيت القلعة فقط ، وجعلت فيها الحكومة المصرية نقطة عسكرية ، وأقامَ بها بعضُ التجّارِ يبيعون لوازمَ العرب ، فوصلنا إلى هناك ، وضربنا خيامنا بظاهرِ القرية ، وكان يشتدُّ البردُ ليلاً إلى حد أنّ الماءَ يجمَدُ ، وكانَ يزيدُ البردَ قلةُ وسائِلِ الدفءِ ، لأنّ الحطبَ مفقودٌ تقريباً ، وكل ما كنا نوقده للاصطلاء كان من الحشائش اليابسة والهشيم ، ثم إنّ القائد وهيب باشا قال لنا بأن نتربص إلى أن يأتيَ خبرٌ منه لنا ، وسار هو صوب الترعة ، وسيّرَ أمامَهُ الأرزاقَ ، وسألنا عن المسافة بين قلعة النخل والترعة فقيل لنا : ثلاث مراحل ، ثم إنّه ثاني يوم مسير وهيب باشا ، وبينما نحنُ ننتظِرُ الأمر بالزحف ، جاء من يخبرني بأنّهم رأوا قافلة الجمال التي تحمل الأرزاقَ راجعةً ، ولم يفهموا لذلك معنى . فتطيرتُ من هذا الخبر ، وقلت : ليس هذا علامة خير ، لأنّ رجوعَ قافلةِ الأرزاق معناه أنّه لن يحصل تقدُّمٌ إلى الأمام ، وبينما أنا أفكِّرُ وأنا في خيمتي في هذه المسألة ، إذا جاء من قِبَلِ وهيب باشا مَنْ يقول لي : إنّه يستدعيني إليه ، فذهبتُ مندهشاً ، فأخبرني أنّ الواقعة حصلت في الجهة الشمالية بين جيش جمال باشا والإنكليز ، وأنّه كان

اجتاز الترعةَ ليلاً أربعمئة جندي ، ونزلوا بالضفة الغربية ، ولكن قبلَ أن تتوافى الجنودُ العثمانية شعر الإنكليز من هرير الكلاب وغيرِه باجتياز العساكر العثمانية ، فهبوا ، وهجموا على الموقع الذي حصل فيه الاجتياز خفيةً ، فاخذوا العساكر أسرى ، وبدأت الحرب في الليل ، فوجد جمال باشا أنّ القوةَ التي معه لا تكفي لاجتياز الترعة ، ورجع بالجيش قاصداً التأهُّبَ والكرة مرة ثانية بقوة أكبر من الأولى ، متخِذاً تدابير أخرى يرجو بها المرور ، قال لي هذا وهيب باشا وصرح بأنّه استحسنَ رأي جمال باشا في الرجوع ، وأنّه كان هو شخصياً لا يُحِبُّ جمال باشا ، فساءني أنا هذا الخبر من وجهين : الأول : عدم النجاح باجتياز الترعة ، والثاني : اضطرارُنا للبقاءِ في قلعة النخل متربصين بدون عمل .

ثم إنّه في اليوم التالي جاءت أوامِرُ من مركز القيادة العامة إلى وهيب باشا بأن يذهبَ إلى معان ، ولا يبقي في قلعة النخل سوى طابورين من الجند فقط ، فارتحلَ وهيب باشا ، ومعهُ الجيشُ ، قافلاً إلى معان ، نظراً لسهولة تسريب الأرزاق إلى العساكر بواسطة السكة الحجازية المارَّةِ بها . وكنّا نحنُ أيضاً من الراجعين إلى معان ، وبعد أنْ سِرْنا نحو ساعتين ونصف من قلعة النخل ، جاء أمرٌ آخر يقول : أمّا شكيب أرسلان بك فهو حُرٌّ مختار ، إذا شاء يسير إلى معان ، وإن شاء يبقى في قلعة النخل ، فاخترتُ أنا الرجوعَ إلى قلعة النخل ، لعلّنا في أثناءِ مقامنا بها نقوم فيها بشيءِ من العمل ، أو تحصل وقائع أو مناوشات نقوم فيها بالواجب ، لأننا لم نذهب إلى هناك لمجرد أنْ يُقال إننا متطوعون للحرب ، بل لأجلِ أن نخوضَ غمراتِهَا ، وقد كنّا بغايةِ الكآبةِ ، لأن الأقدارَ لم تساعدنا على الوصول إلى الترعة قبل نهاية الوقعة التي تراجع بها جمال باشا .

إذن رجعتُ إلى قلعة النخل ، وبقيتُ هناك خمسة عشر يوماً ، فلم تحصل في خلالها لا وقعة ولا مناوشة ، لأنّ العدو كان في الضفة المصرية من الترعة ، ولم يعبر إلى الضفة الشرقية .

وكان قائد القوة الباقية في قلعة النخل أميرالاي جركسي اسمه موسى كاظم بك ، أسره الإنكليز فيما بعدُ بغتةً في جهات غزة ، وكان رجلاً شهماً صادقاً ،

فقال لي ذات يوم : إنني سعيد بأن تكونَ قريباً مني ، لأنّه لا يوجَدُ عشيرٌ لي أحسنَ منك ، ولكنّي لا أرى ضرورةً داعيةً لأن تبقى أنتَ وجماعتك في قلعة النخل ، وذلك لأنّ أمرَ الإعاشة هنا صَعُبَتْ جداً ، وأنت ترى الأرزاق تأتي من معان على مسافة اثنتي عشرة مرحلة ، فإذا انقطعت الأرزاق ، أو تأخرت ، مات الذين في قلعة النخل جوعاً ، فنحن عسكر يجب أنْ نتحمَّلَ كل هذا ، ولكنّك أنت متطوع ، والذين معك هم رجالُك ، وأنتَ تعزُّهم كأولادِك ، فلا تريدُ أن يتعرّضوا للجوع وللمشقة ، ولو كانت هناك حربٌ لما كنتُ أشيرُ عليك بالرجوع ، ولكنَّك كما ترى قاعِدُ مثلنا بدون عمل ، فلما سمعتُ منه هذا الرأي رجعتُ إلى معان .

وكان وهيب باشا بما حصل بيني وبينه من المحبة ألحَّ علي كثيراً أن آتي إلى معان ، لنقيمَ معاً ، فلما أتيتُ هذه المرة إلى معان وجدتُه قد فارق معان ، إذ صدر الأمرُ بجعله قائداً في منطقة أرضروم ، فأقمتُ بمعان نحو شهر ، كان قائد القوة هناك أميرالاي اسمه علي نجيب بك ، وفي تلك الأثناء جاء جمال باشا ، فاستعرضَ الجيشَ الذي بمعان ، وأمرني بأن آتي بجماعتي إلى القدس ، فجئتُ بهم إلى القدس ، وأنزلونا في بنايةٍ كانت مدرسةً في بيت لحم ، وبقينا هناك نحو عشرين يوماً ، ثم إنّ جمال باشا أصدرَ لي أمراً يقول فيه : إنّه لما كانت الزحفة على الترعة قد تأخرت ، فيجب أن نعودَ الآن إلى بيوتنا ، حتى إذا تمت التأهبات اللازمة للزحف ثاني مرة ، تصدُرُ لنا الأوامِرُ ، فنعود إلى ميدان القتال .

وهكذا رجعنا من القدس إلى الشام ، ومن الشام جئنا إلى جبل لبنان ، وبعدَ رجوعنا بقليل استعرضَ جمال باشا الجيشَ في غابةِ الصنوبر في بيروت ، وكنت أنا أيضاً في الاستعراض مع جماعتي بالزي العربي الكوفية والعقال والعباءة ، وبعد أن أتمَ جمال باشا الاستعراض ألقى خطبةً وهو على ظهر جواد أمام الألوف من أهالي بيروت ولبنان ، ووجه الخطابَ إليَّ قائلاً : إنَّ الدولة لن تنسى قدر خدمتك لها وللوطن ، ولقد أثبتَّ بفعلِكَ أنّكَ رجلٌ كريمُ الشِّيَمِ .

فأجبتُه : إنني إلى الآن لم أقم بشيء يذكر ، ولكنني مستعدٌّ أن أفديَ الدولةَ والوطنَ بحياتي ، وأرى ذلك فرضاً على الجميع .

قضية المبعدين اللبنانيين إلى القدس

ولا بدَ لي من أن أذكرَ حادثاً وقع لي أثناء ما كنتُ في القدس ، وذلك أنّني وجدتُ فيها نحو عشرين شخصاً من كبار اللبنانيين وأفاضلهم ، مثل جرجس أفندي صفا ، وإبراهيم بك عقل ، وخليل بك عقل شديد ، وجورجي تامر ، ونمر شمعون ، وغيرهم ممن نفاهم جمال باشا من لبنان إلى القدس ، وأمرهم بالإقامة هناك ، يذهبون كيف يشاؤون ، لكن بدون إذنٍ لهم في مبارحة القدس ونواحيها ، فلمّا علموا بقدومي إلى القدس ، أقبلوا عليَّ جميعاً إلا شخصين منهم ، مصطفى بك العماد ، ورشيد بك نخلة ، ولما كانتْ تربطني ببعضهم مودة أكيدة ، وكنت من جهة أخرى اغتنمت فرصة نفوذي في أيّام الحرب لإسداء كلِّ جميلٍ أقدِرُ عليه ، حتى نحو الذين سبقت لهم إساءةٌ إليَّ ، فقد اجتهدتُ يومَ كنتُ في القدس بأخذ الإذن لهم بالرجوع إلى أوطانهم ، ولما كلّموني هم في هذا الصدد أجبتهم بأنني لا أنتظر منهم رجاءً ، وسأعمل كلَّ ما أقدِرُ عليه ، وعهدي بكثيرين منهم لا يزالون على[1] قيد الحياة ، وهم يشهدون بما أقول ، فقد ذهبتُ إلى جمال باشا بمكانه في القصر الألماني الذي في الطور ، وتكلمتُ معه بكلِّ إلحاح بشأن الوجهاء اللبنانيين ، الذين أبعدهم إلى القدس ، فأجابني بأنّه أبعدَهم بسبب علاقتهم المحققة عندَهُ مع قنصليات الدول المحاربة للدولة ، وذلك من قبيل الاحتياط الذي لا بدّ منه في أيّامِ الحرب . فقلتُ له : إنني حاضر أن أكفلَهم جميعاً بأنْ لا يبدو من أحدٍ منهم أدنى شيءٍ يخالِفُ مصلحةَ الدولة ، فقال لي : إنّهم هنا غير موضوعين في السجن ، وأنّهم يذهبون ويجيئون بتمام الحرية ؛ فلا يقدرون أن يتشكّوا من سوءِ معاملةٍ ، ولذلك هو مصمم على إبقائهم في القدس في الوقت الحاضر . فرجعتُ وأخبرتُهم بجوابِ القائد العام ، ووعدتُهم بأنني لن أتركَ مسألتهم هذه ، فليصبروا عليَّ مدة شهرٍ أو شهرينِ بالكثير .

---

(١) في الأصل (في) .

وبينما أنا في القدس ، جاء الخبر بأنّه قادم إلى القدس للإقامة بها أيضاً خليل بك الخوري رئيس القلم العربي في لبنان ، وسليم بك المعوشي قائم مقام جزّين ، فلما سمعتُ بهذا الخبر ذهبتُ ثانيةً إلى الطور ، وقلت لجمال باشا : قبلاً رجوتُك بشأن اللبنانيين المبعدين إلى القدس ، ولم تقبل رجائي في الإذن لهم بالعودة إلى أوطانهم ، ولكن بلغني أنّه قادمُ أيضاً خليل بك الخوري ، وسليم بك المعوشي ، وهذان الشخصان ليسا من أصدقائي فقط ، بل عائلة كل منهما صديقةٌ للعائلة الأرسلانية من قديم الزمان ، فليس لي إذن مهرَبٌ من التوسط بشأنهما ، وإنني أعدُّ عدم إجابتك لرجائي فيهما كسراً لخاطري ، وكان جمال باشا منذ جاء إلى سورية إلى ذلك الوقت مسروراً جداً من سياستي وحسن خدمتي للدولة ، بحيث لا يعامِلُ أحداً من السوريين بالرعاية التي كان يعاملني بها ، ولم يطرأ بيني وبينه خلافٌ إلا فيما بعدُ ، أيْ عندما بدأ بسياسةِ الشدّةِ والإرهابِ ، وأخذَ يشنقُ وينفي ، فلما سمعَ مني ما قلتُه عن صداقتي مع خليل الخوري وسليم المعوشي أسرعَ بإعطاء الأوامر بعدم إبعادهما إن كانا لا يزالانِ في لبنان ، وأنّه إن كانا قد خرجا من الجبل قاصِدَين القدس يبلّغانِ في الطريق أمرَ الرجوع ، وصادف أنّني سافرتُ بجماعتي المتطوعين ثاني يوم كلامي هذا مع جمال باشا ، فبينما أنا في الطريق بين القدس ونابلس صادفتُ خليل بك الخوري ذاهباً ومعه ولده فؤاد بك إلى القدس بحسب الأمر ، فلما شاهدتهُ وقفتُ ، وألقى بنفسه عليَّ ، وأخذَ بالبكاء لما بيننا من الصحبة ، فأنا بادرتُه بالتسكين لروعه ، وقلتُ له : إنّ القائد العام أمرَ برجوعك إلى بيتك ، وكان هو لا يعلم ذلك ، فكررتُ عليه القولَ حتى سكنَ روعُه ، ولكنّه كان يخشى أن يغضبَ عليه الباشا إن لم يتقدّم إلى القدس ، فقلت له : تعال معي إلى نابلس ، فإنْ لم تجد الأمرَ قد صدر لك بالرجوع إلى بيتك فيمكنك حينئذ أن تذهبَ إلى القدس ، وتواجه الباشا ، فجاء معي إلى نابلس ، حيث نزلنا في بيت المرحوم الحاج حافظ طوقان صديقي ، فلم أكدْ أجلِسُ ، ويستقرُّ بي المقامُ ، حتى جاء يوسف ضيا بك متصرف نابلس يسلِّمُ عليَّ ، وما جلس إلا وأخرجَ من جيبه تلغرافاً صادراً له من جمال باشا بإرجاع خليل بك الخوري إنْ كان مرَّ بنابلس ، وكان المتصرِّفُ لا يعرف خليل الخوري شخصياً ، فسألني عنه ، فقلت : هو ذا الذي

بجانبي ، وقلت لخليل بك : آآمنت الآن أنّه صدر الأمرُ برجوعك .

وثاني يوم ركبنا القطار ، ورجعنا إلى لبنان عن طريق دمشق . فأما سليم بك المعوشي فكان قد تأخر عن السفر مع خليل بك ، ولكنّه وصل إلى الشام ، فأبلغه الوالي الأمر بالرجوع فرجع إلى وطنه جِزِّين ، ولم يعلم بسبب رجوعه إلا فيما بعد .

وجاءني إلى الشويفات يسلِّمُ عليَّ ، وقال لي : إنّك لا تنتظر مني شكراً بدون شك ، ولكن دعني أذكر أنّك أعدتني إلى بيتي بدون أن أحتاجَ إلى أن أراجعك بشأني ، فهذا الأمرُ الذي أجراه وقتئذٍ جمال باشا مكارمةً لخاطري ، وانتشر خبرهُ في البلاد ، اتخذه أعدائي وسيلةً للمبالغة في وصف نفوذي لدى رجال الدولة ، وللتأكيد للناس بأنني أفعلُ ما أشاءُ ، وأني لو شئتُ أخذت إذناً برجوع جميع المبعدين لا خليل بك الخوري وسليم بك المعوشي فقط ، وأنهم إنْ لم يكونوا قد أعيدوا إلى أوطانهم فهذا لأنيّ أنا لم أكن أريدُ ذلك فعلاً ، أفلا ترى أنني عندما أردتُ إرجاع خليل بك الخوري وسليم بك المعوشي أرجعتُهما من الطريق ؟ وهذا الكلامُ مَحْضُ تعنُّتٍ وسفسطةٍ ، فإنّه يجوزُ أن يسمع جمال باشا رجائي في اثنين ، ولا يسمعه في عشرين شخصاً ، وإذا كارمني أولياءُ الأمور في مسألة أو مسألتين ، فلا يكون معنى ذلك أنّهم لا بدَّ من أن يكارموني في جميع المسائل ، وأنّه يجب أن يكونَ الأمرُ بيدي من الباب إلى المحراب ، وأي شخص مهما عَظُمَ نفوذُه ، لا يقدِرُ أن ينفذ كلمتَه في كلِّ ما يريدُ ، وفي أي وقتٍ أراد ، فهذه مسألةُ المبعدين من اللبنانيين إلى القدس ، قد جرتْ كما ذكرتُ ، وهي أنّي أخذتُ العفو عن خليل بك الخوري ، وسليم بك المعوشي ، ورجعتُ أسعى في أخذِ العفو عن الباقين ، وبعدَ مضيٍّ شهرٍ أو زيادةٍ على رجوعي من القدس ، جاءني خليل بك الخوري ، وكنتُ بائتاً عند المطران باسيليوس حجار في بيروت ، فقال لي : إنّ أوهانس باشا متصرِّف لبنان يريدُ أن يزورك ، فقلت له : إنّه جاءني تلغراف من عاليه لأصعدَ إليها الآن لمواجهة القومندان رضا باشا ، فلا يمكنني أن أتأخرَ حتى يأتي أوهانس باشا ويزورني ، وإنما أمرٌ أنا عليه ، فركبت أنا وخليل بك في العربة معاً ، وذهبنا إلى أوهانس

باشا ، فعلمنا منه أنّه ورد تلغراف من جمال باشا إلى رضا باشا في عاليه يقول له فيه : إنّه يريد أن يعفوَ عن نصف المبعدين في القدس ، وأن يبقيَ النصفَ الآخر في الوقت الحاضر ، وأنّه يريدُ من رضا باشا أن يسألني عن الأشخاص الذين يوافِقُ التعجيل في العفو عنهم ، فأوهانس باشا قد اطلع على هذا التلغراف ، لكون مأموري التلغراف سلّموه إياه بطريق الخطأ ، فعرفَ على كلِّ حالٍ أنّي أنا مرجعُ تعيين الأشخاصِ الذين يريدُ جمال باشا العفوَ عنهم ، فهو يرجو مني أن أذكر من هؤلاء الأشخاص الأمير فائق سعد شهاب ، الذي كان أيضاً من جملة المبعدين في القدس ، فأنا أجبتُ أوهانس باشا بأنني ساعرضُ قضيةَ العفو عن الجميع بدون استثناء .

ثم صعدت إلى عاليه، وأبرقتُ إلى جمال باشا جواباً على البرقية الصادرة منه بأنني أرى الأوفق العفو عنهم جميعاً ، وأنني كفيلٌ لهم جميعاً ، إلا أنّ جمال باشا أصرَّ على رأيه الأول ، فعفا عن النصف فقط ، وجاء منهم الذين صدر العفو عنهم ، وتشكّروا لي على توسطي بشأنهم ، وكان منهم خليل بك عقل شديد ، ولا تزالُ المودة بيني وبين آل عقل شديد أكيدة إلى الآن .

ثم إنه بعد ذلك أخذَ أقارِبُ المبعدين الباقين بالقدس يلحّون عليَّ في نيل العفو عنهم ، فصرتُ أراجعُ جمال باشا ، ولا سيما في أمر محمد زين الدين ، ورشيد نخلة ، وكان جمال باشا يريدُ أن ينفيَ سعيد زين الدين شقيق محمد زين الدين لأنّه كان يعرفه من أضنة ، وكان جمال والياً ، وسعيد زين الدين مدعياً عمومياً ، فأبغضه هناك جمال بغضاً شديداً ، ولما جاء جمال باشا قائداً إلى سورية في الحرب العامة أراد أن ينتقمَ من سعيد زين الدين ، وكاشفني برأيه ، وكان ذلك في أولِ مجيئه ، والأمورُ لا تزالُ بيننا على صفاء تام ، فأنا رجوتُه بصرفِ نظره عن ذلك ، وألححتُ عليه إلحاحاً شديداً حتى تركَ قضيةَ نفي سعيد زين الدين ، ثم بدون علمي أرسلَ أخاه محمد وين الدين في جملة المبعدين إلى القدس . فرجعتُ أنا أتوسَّطُ عنده في أمرِ محمد زين الدين أيضاً .

وجاء كامل بك الأسعد إلى صوفر ، فدعا جمال باشا إلى جبل عامل حيث أرادَ أن يجمعَ له أهالي البلاد في بلدته الطيبة ، وقد دعاني المرحوم كامل بك ،

وكان من أعزّ أصدقائي لأكونَ مع جمال باشا في تلك السياحة ، فذهبنا من صوفر إلى عين زحلتة ، إلى بيت الدين ، إلى المختارة ، إلى جزين ، إلى النبطية ، إلى الطيبة ، ولما وصلنا إلى المختارة ، وتغدينا عند فؤاد بك جنبلاط ، جاء سعيد بك زين الدين ، ودعا جمال باشا أن يمرَّ على بيتهم في قرية عين قنية ، وهي على طريقنا ، فمر جمال باشا على بيتهم ، وهناك صارت مناسبة للكلام في العفو عن محمد زين الدين ، فأصدر جمال أمره لعلي فؤاد بك رئيس أركان الحرب بأن يبرِقَ الأمرَ بالعفو ، فجئتُ أنا وتكلمتُ معه في أنْ يكونَ أمرُ العفو شاملاً جميعَ الذين كانوا مبعدين في القدس ، وكان جمال باشا قد سمع من بعض اللبنانيين أنّ رشيد بك نخلة كان في الأصل من المخصوصين بي ، وأنني سعيتُ كثيراً في ترقيته ، وأنه انقلب علي ، وصار لي عدواً ، وكافأني على الإحسان بالإساءة ، فيظهر أنّ جمال باشا اعتقد أنّ العفو عن رشيد نخلة ربما لا يسرُّني ، فقال لعلي فؤاد : اكتب الأمرَ بالعفو عن الجميع ما عدا رشيد نخلة ، فقمت أنا ، ودنوت من الباشا ، وهمست في أذنه قائلاً : أرجو منك أن تعفو أيضاً عن رشيد نخلة ، لأنك إن لم تعفُ عنه يظنُّ الناسُ أنّ ذلك من أجلِ خاطري ، لأنّ هذا الرجل كان من أخصائي ، ثم انقلب من أعدائي . وأنا لا أريدُ أن يقالَ : إنّي اتخذت حظوتي لديك واسطة للانتقام من أحد ، فعند ذلك أمرَ جمال باشا بالعفو عن رشيد نخلة أيضاً ، فهذه قضية المبعدين الذين أبعدهم جمال باشا إلى القدس .

قضية المبعدين إلى الأناضول

فأما قضيةُ المبعدين إلى الأناضول ، وهي القضية الكبرى ، فقد حصلتْ فيما بعدَ الأولى بنحو سنة ، والذي يلوحُ لي أنّه بعدَ واقعةِ الدردنيل[1] ، التي ظفرتْ فيها تركية بجيوش الحلفاء ، حصل عندَ رجال الاتحاد والترقي نشوة ظفرٍ غيرُ معهودة ، ولعبت خمرةُ النصر برؤوسهم ، فسكروا ، وأبرموا قرارات الحرب

---

(1) المسماة چنه قلعة .

كثيرة ، من جملتها سفورُ النساء ، الذي كان إلى حدٍّ ذلك الوقت ممنوعاً . ومن جملتها نقلُ المحاكم الشرعية من المشيخة الاسلامية إلى نظارة العدلية ، وترك المشيخة بدون عمل تقريباً ، ومن جملتها القضاء على الروح العربية في سورية . وقد ظنّوا أنّه بعد أن يثبتَ كونُ تركية تغلّبتْ على هذه الجيوش الجرارة في وقائع الدردنيل ، فهي لا تعجَزُ عن أيِّ عملٍ تريدُه في المملكة إذا أخذت بالحزم .

ويظهر أنّ جمال باشا تعهّدَ لهم بأن يقضيَ على الروح العربية في سورية ، على شرط أن يتركوه حرّاً في العمل ، وأن لا يعرقلوا مساعيه ، فلذلك بدأوا بسياسة جديدة لم تكنْ معهودةً من قبلُ .

في أول الحرب كان جمال باشا أبعدَ بعضَ أشخاصٍ إلى القدس ، وآخرين إلى الأناضول ، ثم لم يلبث أن عفا عنهم ، وأعادهم إلى أوطانهم . فظهر أنّه لم يكن للدولة يومئذٍ سياسةٌ سوى تخويف الناس المتصلين بالأجانب ، ولكنّ التخويف إلى حد محدود . أما بعد ذلك بسنة فرجع جمال باشا بنفسه ، وقبض على الأشخاص الذين كان قد عفا عنهم من قَبْلُ ، وعلى غيرهم ، وبدأ ينفيهم بالعشرات وبالمئات ، ويقال : إنّه بلغ عدد المنفيين حينئذٍ إلى الأناضول نحو ألفي شخص . وقد أصحبوا المنفيين هذه المرة عائلاتهم ، ثم أخذوا يستقصون عن أملاكهم ، وتألّفتْ في دمشق لجنة اسمها قومسيون التهجير ، تحت رئاسة مكتوبجي الولاية ، وكانت مهمةُ هذه اللجنة سوقَ المنفيين مع عائلاتهم ، وأخذ قيدٍ بأملاكهم وأراضيهم .

وشاع أنّ المقصودَ بتقييد أملاكهم هو إعطائهم ما يقابلها في الأناضول ، وجلب عائلاتٍ أخرى من الأتراك إلى سورية ، تحلُّ محلَّ العائلات المنفية منها .

والخلاصة أنني وإن لم أكنْ مطلعاً تمامَ الاطلاع على سر هذه المسألة ، لأنّي كنتُ حينئذ في سورية ، فعندي قرائنُ قوية على أنّ ما كان يُشاع عن نيةِ الأتراك هذه بشأنِ سورية كان له شيءٌ من الأصل ، وذلك لأنّ قضية النفي بعد حرب الدردنيل قد تجدَّدَتْ بدون أدنى سبب جديد ، وقد تجددت بصورة غير الأولى ، أي النفي مع الأهل ، وتمهيد المبادلة بالأراضي والأملاك .

ثم إنه كان يغلِبُ على الظن أنّ هذه المسألة لن تقفَ عند حد نفي ألفي

شخص ، بل تستمر تدريجاً ، حتى يحول إلى الأناضول عشرات ألوفٍ من السوريين ، لا سيما من أبناءِ البيوتات الوجيهة .

فقد ظهر أنّهم كانوا يريدون القضاء على الوجاهة القديمة ، ومحوَ نفوذ أبناء الأصالة ، لأنّ الأتراك كثيراً ما يتحدثون بكون العرب هم أمة أرستوقراطية ، وأنّ هذا هو السبب في عدم امتزاجهم مع الأتراك، الذين هم أمة ديمقراطية بطبيعتها ! !

والخلاصة أن استئناف النفي والتغريب وبمقياس أوسع جداً من ذي قبل لم يكن إلا نتيجةَ قرارٍ جديدٍ حصل بعد الفوز العظيم الذي فازته تركية في حرب الدردنيل ، ومثل ذلك قضيةُ شنق الأشخاص الذين شنقهم جمال باشا ،فإنّني أظنُّ أنّه لولا ظفر الدردنيل لما كان أقدمَ على هذا العمل ، وكانت المسألة انتهت بحبس بعض ، واعتقال بعض ، ونفي بعض ، وما أشبه ذلك .

فأنا بقيتُ على صفاءٍ تامٍّ مع جمال باشا إلى أن بَدَأَتْ منه هذه السياسةُ الجديدةُ سياسةُ الإرهابِ والإرهاقِ ، التي كنتُ أرى منها خطراً عظيماً على مستقبل الدولةَ العثمانية .

ولم يكن ظفرُ الدردنيل ليغيِّرَ شيئاً من أفكاري ، وهي أنّ الدولةَ لا تزالُ تحتَ الخطر ، وأنّ أعداءَها لا يزالون في قوتهم ، وأنّه لا يوافِقُ سياستها استعمالُ العنف والإرهاب وإثارةُ الأحقاد بين العرب والترك .

فأول ما بدأ جمال باشا بهذه السياسة لم نكن نتوقَّعُ أن يتوسع بها ، وأنّها تنتهي إلى ما انتهت إليه .

كنت يوماً في عاليه ، فجاءني الخبر بأنّه قد قبضتْ الحكومةُ على رضا بك الصلح ، وأتوا به من صيدا ، وقبضَتْ على عبد الكريم الخليل من برج البراجنة ، فلم نفهم في البداية السبب في هذا ، ثم قيل إنّ هناك مؤامرة اطلعوا عليها ، وأنّ أحدَ رجال الشيعة في جبل عامل قد أوصلَ الخبر إلى الشيخ أسعد الشقيري ، وأنّ الشقيري قد أخبرَ جمال باشا ، ثم قبضوا على أولاد المحمصاني ، وابن الخرسة ، وأشخاص آخرين من بيروت ، ثم أرسلوا إلى بعلبك ، فقبضوا على صالح حيدر ، وإلى نابلس ، فقبضوا على سليم عبد الهادي ، وكلُّ هذا لم نعلم أسبابه إلا فيما بعد ، إذ ظهر أنّ جمال باشا اطلع على

مكاتيب مرسلة من حقي العظم يومَ كان بالقاهرة سكرتيراً للجنة العربية التي كانت تعمل لفصل العرب عن الترك ، وأنّ هذه المكاتيب كان فيها ذكر أسماءِ هؤلاءِ الأشخاص ، فانتهز جمال باشا هذه الفرصة لمحاكمة هؤلاء الأشخاص ، والبطش بهم ، ليقضيَ على الحركة العربية بهذه الواسطة ، وقد كان هذا تهوراً منه ، وغفلةً ممن وافقوه من رفاقه في الأستانة . ولقد كتبتُ عن هذه المسألة ما فيه كفاية في حواشي « حاضر العالم الإسلامي » وفي مجلة « المنار » وفي جريدة « مرآة الغرب » في نيويورك ، وفي جريدة « العهد الجديد » في بيروت ، وغيرها ، بحيث لا يلزمُ أن أعيدَ الموضوع نفسه .

غرور جمال باشا

وبالإجمال لم يكن جمال باشا بذلك الرجل الذي يعهد إليه بسياسة مدنية داخلية ، وجميع مزيته أن كان ماضياً في العمل مُهاباً صارماً ، يجوز أن يكونَ ذا نصيب من النجاح في الأمور العسكرية ، أو الأمور العمرانية ، أو الإصلاحات التي تقتضي السرعة والنجاز . فأما السياسة ، فإنّه مع شدة ذكائه كان بعيداً عنها ، لأنّه لم يكنْ ممن يتغلّبُ على أهوائه ، وكان الغرورُ مستولياً عليه . فالذين أوقفهم وحاكمهم ، ثم شنق منهم قسماً ، لم يكونوا جميعاً مستحقين للعقاب الذي أنزله بهم .

وإنما الخطأ لم يكن من جهة القانون الذي لو راعينا فيه حالةَ الحرب لكانَ ثمةَ مبرر لكثير مما فعله جمال باشا ، ولكنّه كان من جهة السياسةِ ، إذ لم يكن من مصلحة الدولة إثارةُ قضيةِ الخلاف بين العرب والترك في أثناء الحرب ، وهي لا تعلمُ كيفَ تكون نهايتها ، ولم يكن من الحكمة أيضاً أن يُتركَ جمال باشا وشأنه في سورية ، وأن يحاكم في ديوان عسكري رجالًا متهمين بجرائم سياسية صرفة ، ومما تحققتُه بنفسي أنّ جمال باشا عندما أنفذَ الحكم بقتل مَنْ قتلهم ، لم يكن جميعُ مجلس الوزراء على علم بشيءٍ ، سوى أنَّهم تحت المحاكمة ، **ولهذا كان احتجاجُ الصدر الأعظم سعيد حليم باشا على جمال باشا بغاية الشدة ، فإنّه أبرق إليه قائلاً له : إنّ هذه المسألة سياسية محضة ، وأنّه ليس له أن ينفِّذَ حكم**

القتل فيها بدون قرار مجلس النظار ، وبدون الإرادةِ السلطانية ، ولذلك هو يجعله مسؤولًا عن هذا العمل ، والسلطان محمد رشادنفسه كان يقول : إنني أنا بريءٌ من دم الذين قتلهم جمال باشا في سورية .

ولست متعرِّضاً الآن للتفاصيل عن هذه الحوادث ، لأنه شيءٌ يطول ، وغاية ما أقولُ : إنّ سياسة جمال باشا في سورية كانتْ من أعظم المصائب على الدولة العثمانية وعلى الأمة الإسلامية ؛ وأنّه هو المسؤول عنها بالدرجة الأولى ، وأن طلعت وأنور كانا مسؤولين أيضاً ، لكونهما تركاه يفعل ما يشاء ، فإن كانا مقتنعين بصواب عمله ، مع أن خطأه ظاهر ، فيكونان مسؤولين ، وإن كانا معتقدين خطأه ، وتركاه يفعل ما يشاء ، على نية إسقاطه في المستقبل ، كما هو المظنون ، فيكونان مسؤولين أيضاً .

أقول هذا مع أنّي صديقٌ لكلٍّ منهما ، ولم يكن لي صداقة مع أحدٍ من الأتراك سواء في أثناءِ الحرب أو بعدَ الحرب كما كان بيني وبين هذين الشخصين ، وقد بقيتْ علاقتي بكل منهما إلى أن ماتَ هذا قتيلاً في برلين بيدِ أرمني ، وذاك شهيداً في تركستان ، في محاربة البلاشفة ، وسأذكر ذلك فيما يأتي[1] . ولكن من واجباتي أمامَ ذمتي أنْ أقول ما أعتقدُه : وهو أنّهما قد أرخيا العنان لجمال باشا في سورية عمداً ، ليكونَ مسؤولًا في المستقبل عن تلك الأعمال ، التي لا تجوز في عقلٍ ولا عرفٍ ولا قانونٍ ولا سياسةٍ .

قبض جمال باشا على رضا بك الصلح ، وعبد الكريم الخليل ، وأولاد المحمصاني ، وصالح حيدر ، وسليم عبد الهادي ، وغيرهم ، وأنا لا أشكُّ في أن مسألتهم ستكون عبارة عن اعتقال مؤقت ، أو عن نفي بالكثير ، وقد كان السيد حبيب العبيدي مفتي الموصل الآن جاء إلى صوفر ، فجرى بيني وبينه حديثُ هؤلاء المعتقلين ، فقال لي : أو تظن أنّه يحكم عليهم بالقتل ؟ فقلتُ له : حاشا . هذا لا أظنُّه أبداً ، وقصارى ما أظنه سيفعلُ بهم النفيُ إلى الأناضول .

ولما ذهبنا مع جمال باشا بدعوةِ كاملِ بك الأسعد ، كانت مرحلتنا الأولى من

---

(١) ص (٤٨٣ ـ ٥٠٩) .

صوفر إلى بيتِ الدين ، فبتنا تلك الليلة فيها ، ولما جلسنا للعشاء في سراي بيتِ الدين ، يرأسُ جمال باشا المائدة ، وكان رئيس أركان الحرب على يمينه ، وكنت أنا على يساره ، قال لي جمال باشا : هل عرفتَ بحادث اليوم ؟ وكانت إيطالية قد دخلت في الحرب العامة ، فقلت له : نعم عرفت ، وهذا حادثٌ مهم يقلِقُ البال ، لأنّ إيطالية دولة عظيمة ، تقدِرُ أن ترجِّحَ الميزان . فقال لي : لا أعني بذلك خبر دخول إيطالية في الحرب . فقلت له : وماذا تعني إذن ؟ فقال لي : أفلم تسمع بالحادث الذي جرى في بيروت ؟ وكنتُ أنا لم أعرف شيئاً مما جرى في بيروت ، فقلت له : ماذا جرى في بيروت ؟ أجابني : جرى شنق الأشخاص الذين كانوا موقوفين بعاليه . فعندما سمعت هذا الخبر اسودّ وجهي ، ولم أقدِرْ أن أكتمَ غضبي ، فقال لي : رأيتُك اضطربتَ كثيراً من هذا الخبر ، فعند ذلك حاولتُ أن أكْظِمَ ما في نفسي ، حتى لا أقعَ معه في جدال عنيف ، تسوء عاقبته ، فقلت له : إنني أنا رجل غير عسكري ، فالقتلُ له عندي أهمية غير التي عند رجال العسكرية ، فلذلك اضطربتُ لهذا الخبر . فقال : مَنْ [مِنْ] هؤلاء الذين جرى شنقهم يعزُّ عليك أكثر من الجميع ؟ فقلت له : يعزُّ عليَّ الجميع ، ولكنني كنتُ رجوتُك في صوفر بشأن صالح حيدر ، لأنّ أهلَه كانوا راجعوني بأنّه بريءٌ من كلِّ ذنب ، وأنا عرضتُ لك ذلك ، وأنتَ قلتَ لي : إذا كان بريئاً فلماذا يتوارى من وجه الحكومة ، فأنا أخبرتُ مصطفى حيدر عم صالح حيدر بأنّه ما دام بريئاً فلا محلَّ لفراره ، فالآن بعد أن علمتُ أنّ صالح حيدر هو أيضاً من المشنوقين ندمتُ على دخولي في هذه المسألة ، فلم يكن ينبغي لي أن أشيرَ عليهم بتسليمه .

فقال جمال باشا : لو لم يسلموني إياه لقبضتُ عليهم جميعاً ، ثم قال : ومَنْ غيرُ صالح حيدر عزّ عليك . فقلت له : كنتُ أعرِفُ سليم عبد الهادي شخصياً ، وأخوه أمين عبد الهادي مبعوث نابلس ، وهو رفيقي في المجلس ، ولي أصدقاء كثيرون من هذه العائلة . فقطع عند ذلك الكلام من هذا الموضوع .

وأنا بعد العشاء استأذنت منه قائلاً : إنّ مرادي الصعود إلى كرسي مطران الموارنة لأبيتَ عنده . فقال لي جمال باشا : إنّه قد تهيأتْ لك هنا غرفة تبيتُ

فيها ، فقلتُ له : إنّ المطران بصبوص قد دعاني للمبيت عنده ، ووعدتُه بذلك ، وأصررتُ على الانصراف ، وخرجتُ متشائماً جِدّاً ، لأنني لم أكنْ أتوقَّعُ أنّ جمال باشا سيقتلُ مِنْ هؤلاء أحداً .

نعم سرني في جانب ذلك الحزن كون رضا بك الصلح نجا من القتل ، وأنّهم اكتفوا له بالنفي إلى الأناضول ، وقد كنتُ تكلّمتُ معه في دمشق بشأن رضا بك بإلحاح زائدٍ لأجل تخليةِ سبيله ، وجاء ابن عمي الأمير أمين مصطفى ، وألح عليه أيضاً ، وعرف جمال باشا أنّ رضا بك يعزُّ علينا كأحد أعضاءِ عائلتنا ، وأنّه يعزُّ على الجميع أيضاً ، وسمعتُ فيما بعدُ ، أنّ عزمي بك والي بيروت الذي جاء خلفاً لبكر سامي بك ، قد توسط أيضاً بشأن رضا بك الصلح والله أعلم .

التطوع للدفاع عن لبنان

ثم إنّ جمال باشا أصدر أمره إلى رضا باشا قائد لبنان بتأليف كتيبةٍ متطوعين من اللبنانيين ، للدفاع عن وطنهم فيما إذا تعرّض العدو لسواحل سورية ، فحاول رضا باشا اقناع الناس بالتطوع ، فلم يتمكّنْ من إقناع أحدٍ ، واستدعى بعضَ مشايخ الدروز ، وحثّهم على قيدِ أسمائهم ، واستنهض همتهم ، فقال له بعضهم : نحن حاضرون بأشخاصنا للتطوع ، فأما أن نقنعَ الأهالي بذلك فليس في استطاعتنا ، فذهب رضا باشا إلى المختارة ، وجمع أهالي الشوفين ، ولم يخبرهم بمقصده من جمعهم ، فاجتمعوا ، وإذا به يدعوهم إلى التطوع ، فلما سمعوا خطابه ، تسللوا جميعاً ، ولم يجاوبوه بشيء ، ورجع بخفي حنين .

ولم يكن ذلك من الأهالي ناشئاً عن الخوف من الحرب ، لأنّ أهالي لبنان موصوفون بالشجاعة ، لا يهمهم القتال أصلاً ، لكنهم يكرهون العسكرية ، ويعتقدون أنّ التطوعَ عبارةٌ عن انتظام في الجندية ، التي يعلمون صرامة قوانينها ، فإنّ نفورَهم من التطوع ناشىءٌ عن هذه النقطة ، فعند ذلك كتبَ لي جمال باشا من قِبَلِهِ رأساً ، واستكتب علي فؤاد بك رئيس أركان الحرب لمعرفته أنّه صديقي ، وذلك لأجلِ أن أؤلِّفَ كتيبة ، ألفاً وخمسمئة رجل ، يكونون حاضرين للقتال في منطقة لبنان إذا مست الحاجة .

فلما تلقيت الأمر ، اضطررت أن أجري بموجبه ، لأنّ الاستنكاف عن ذلك ، كان يمكن أن يَحْمِلَ جمال باشا على سوق الأهالي إلى الجندية جميعاً ، إذ لم يكن يومئذٍ طاقة للأهالي بمقاومة الدولة ، فنظرتُ إلى هذا الأمر بعين التأمل ، وعلمتُ أنّه لا يخلّصُ الأهالي من هذا المحظور سوى قبول الأمر بالتطوع ، ولكنّ إقناعَ الأهالي لم يكن سهلاً ، فإنّ العوام لا يدركون حقائق الأمور ، وكان يوجَدُ من المفسدين مَنْ يُخَيِّلُ لهم أنّ التطوعَ هو تقيدٌ بالعسكرية ، وأنّه يجوزُ أن تسوقَهم الدولةُ إلى حرب الدردنيل وغيرها . فحامتْ حولَ هذا الموضوع مخاوفُ كثيرةٌ . إلا أنّني تغلبتُ عليها بقوة الحجة ، وبثقة الأهلينَ بي شخصياً ، فأخذتُ أطوفُ على القرى ، وأقيّدُ أسماءَ المتطوعين تحت قيادتي ، التي كانتْ هي العاملُ الأكبرُ في طمأنينتهم .

وبالاختصار لم يمض شهر ونصف حتى قيدتُ في دفتر التطوع نحو تسعة آلاف رجلٌ ، وبقيتْ ناحيتان لم أكن طوّفتُ فيهما ، وهما ناحية المناصف ، وناحية إقليم الخَرُّوْب ، وكنتُ كلّما أكملتُ تأليف آلاي[1] عرّفت جمال باشا إلى القدس برقياً ، والذي ظهر لي أنّه كان يريدُ بذلك أن يمتحنَ صداقةَ أهل الجبل للدولة ، فلما رآني تمكنتُ من قيد هذا العدد الكثيرِ الذي هو أكثرُ مراراً من العدد الذي طلبه ، علم أنّ المسألةَ لا تحتاجُ إلى امتحان . فأبرقَ لي أخيراً بأنّ العددَ الذي حصل هو كافٍ ، وأنّه لا ينبغي لي أن أكملَ التجوال في سائر النواحي ، وربما كان قد رأى أخيراً أنّ انقيادَ الأهالي لي إلى هذه الدرجة غيرُ موافقٍ لسياسته ، فأصدر الأمرَ بالتوقُّفِ ، وأنا كنتُ بهذا العمل قد أنقذتُ اللبنانيين من خطر سوقهم إلى العسكرية بالقوة ، وقد كان الأمرُ الصادر لي قاصراً في التطوع على الطوائف الإسلامية ، فلاحظتُ أنّ المسيحيين استشعروا من ذلك شيئاً من الريبة ، وواجهني حبيب باشا السعد ، وقال لي : نحن أيضاً حاضرون أنْ نتطوّعَ تحت قيادتك ، فلماذا لا تقيّدُ أسماءَ من يريدُ التطوّعَ من المسيحيين ؟ فقلتُ له : إنّ الأمر كان قاصراً على المسلمين والدروز ، ولكنني سأراجِعُ جمال باشا ، وأقولُ له : إنّ إخواننا المسيحيين حاضرون للتطوع نظير المسلمين ،

---

(١) لواء .

فأبرقتُ إلى جمال باشا بما قاله لي حبيب باشا السعد ، فجاءني الجواب بالاكتفاء بالمسلمين والدروز ، غيرَ أنّي أنا لم أستحسن هذا الاكتفاء ، خوفاً من أن تحصلَ عند المسيحيين هواجس ، وأن يحملوا عدمَ قبولهم في سلك التطوع على قلة الثقة بهم ، فأجبتُ جمال باشا بملاحظتي هذه ، وقلتُ له : إنني أرى أنْ أبلِّغهُم ذلك ، وهو أنّ التطوع الآن لم يدخل في دور عملي ، فإذا حصل قتالٌ بالفعل ، وانتدبنا المتطوعين للحرب ، فإننا ننتدبُ من المسيحيين أيضاً ، فوافق جمال باشا على كلامي .

وقد كانت المجاعةُ ابتدأت ، وغلت أسعارُ الحنطة ، وصار الناس يرحلون إلى حوران وإلى الداخل ، ولما كانوا مضطرين أنْ يحمِلُوا السلاح في طريقهم ، فقد كانوا يأخذون مني إذناً بتقلُّدِ السلاح ، وكنتُ أعطيهم ورقةً مشعرةً بهذا الإذن ، فكانوا يمرون في أرض البقاع والشام ومعهم الأسلحة ، ولا تتعرّض المخافِرُ العسكرية لهم بسوء ، لأنّهم كانوا إذا سألوهم أبرزوا الشهادات التي معهم مني ، بأنهم متطوّعونَ تحت قيادتي ، وكان في هذا التدبير رِفْقٌ كثيرٌ بالأهالي ، لأنَّ أكثرُهم التزموا الرحيلَ إلى حوران ، ولم يكن لهم بدٌّ من حمل أسلحتهم إلى بلادٍ كلُّ النّاسِ فيها مسلحون .

وصول أنور باشا إلى سورية

وبعد أن أكملتُ تشكيلَ أليات[1] المتطوعين ، جاء أنور باشا من الأستانة ليزورَ البلاد السورية ، ولما وصل إلى حلب ، ذهب جمال باشا لملاقاته ، ولكنّه حرص على أن لا يخبرني بأنّ أنور باشا وصل إلى حلب ، لأنّه كان يعلم شدة العلاقة بيني وبين أنور باشا ، ويخشى أنْ أحدّثه بأمورٍ تخالِفُ نياته ، وربّما كان لا يريدُ أن أعمل لأنور باشا احتفالًا كبيراً يكون أنور مسروراً به ، وبينما أنا في دمشق ، جاءتني برقيةٌ من أخي عادل ، وكان تعيَّنَ قائمَ مقامٍ لقضاءِ الشوف في أيام المتصرف علي منيف بك ، فأخي عادل يقول بهذه البرقية : إنّه يجبُ

(١) ألوية ، وأليات جمع ألاي .

حضوري إلى عاليه لتنظيم الاحتفال بقدوم أنور باشا ، فأسرعتُ بالذهاب من دمشق إلى صَوْفر ، ثم إلى عاليه ، وفي الحال دعوتُ جميعَ الأهالي ، ولا سيما المتطوعين ، وأفهمتهم أنْ يكونوا جميعاً تحتَ السلاح ، فلما جاء أنور باشا ومعه جمال باشاوكثيرٌ من قوّادِ الألمان والأتراك وجدوا في محطة صوفر نحو ألفي شخص تحت السّلاح ، فابتهجوا بهم كثيراً ، ثم لما وصلوا إلى عاليه استقبلتُهم بحشدٍ لا يقلُّ عن عشرة آلافٍ كلُّهم مسلحون ، فكان سرورُهم لا يوصَفُ ، وأخذَ أنور باشا يمرُّ على صفوفهم ، ونظراً لكونه تعلّم شيئاً من العربية أيام وجوده في الجبل الأخضر ببرقة ، كان يتكلّمُ معهم بالعربية ، وقد شهد هو ومن معه من الألمان بأنّ هذه الجماهير كلُّها هي من أهل الشجاعة والحمية والبصر بالحروب ، لأنّ رجال العسكرية لكثرةِ ممارستهم يعلمون الرجالَ بالفراسة ، ثم إنّ أنور باشا قال لي : إنّه يحبُ أن يجري امتحان رمايةٍ فلننتخبَ له بعضَ أشخاصٍ من هذه الجماهير نمتحن مقدرتَهم على إصابةِ الغرض ، فقلت له : ماذا تريد أن ننتخبَ ، لأنّه قد يوجد من هؤلاء نحو ألف شاب أو أكثر ، يرمون الطير وهو طائر ، فابتهج بكلامي كثيراً ، وكنّا عزمنا على نصب غرض وامتحان الرماة ، ولكن حال دون ذلك نزول الأمطار .

ثم ذهب أنور باشا إلى دمشق ، وذهبتُ أنا أيضاً ، ورافقناه إلى القدس ، إلا أننا لما صرنا إلى محطة أذرعات[1] لحظتُ أنّ جمال باشا لا يريدُ أن أكونَ معهم في هذه الرحلة ، وذلك خوفاً منه أن أجتمعَ بأنور ، فأحدِّثُه بأشياءَ لا يريد جمال أن يطّلِعَ عليها أنور ، فقال لي جمال في محطة أذرعات : هنا تنتهي دائرة انتخابك . يريدُ أن يقولَ : إنّها تنتهي [بانتهاء] حدود حوران ، التي كنتُ مبعوثاً عنها ، فينبغي رجوعي ، إلا أنّ أنور أجابه أنّ هذا لا يمنعُ مِنْ أن أذهبَ معهم إلى فلسطين ، وكان يودُّ أن أرافقه أيضاً إلى المدينة المنورة ، فلما وصلنا إلى القدس ، اخترع جمال علةً أخرى حتى يمنعني من الذهاب مع أنور إلى المدينة المنورة، فقال لي : إنّه يوافق أن أذهبَ إلى الشام حالًا حتى أُصْدِرَ جريدةَ « الشرق » بينما أنور باشا لا يزالُ في سورية ، فعلمتُ أنّه يكرَهُ وجودي مع أنور

---

(١) هذا هو الاسم الصحيح لمدينة (درعا) قاعدة حوران .

في هذه الرحلة ، فعندَ ذلك انصرفتُ بدون أن أودّعَ أنور ، ورجعتُ إلى دمشق .

رئاسة تحرير جريدة « الشرق » العربية

وأما قضية هذه الجريدة ، فهي أنّهم كانوا أرادوا إنشاءَ جريدةٍ عربيةٍ كُبرى في دمشق ، وكان هذا رأيُ الألمان على الأتراك ، ولما جاءوا لتأسيسها ، تحيّروا في اختيار الرجال الذين يعهدون إليهم بالقيام بهذا المشروع . فسألوا أناساً كثيرين ، فأشاروا عليهم بهذا وذاك ، ولكن الأكثرين ذكروا لهم اسم هذا العاجز . فكان جمال باشا من جهةٍ وخلوصي بك والي سورية من جهة أخرى ، يتكلّمان معي في الدخول في مشروع هذه الجريدة التي يريدونها أحسنَ جريدةٍ عربية ، وكنت أعتذِرُ عن ذلك ، متعللاً بعلل كثيرة ، وما زالا بي هما وصديقي البارون أوبنهايم الألماني إلى أن اقنعوني بالقبول ، على شرط أن لا أدخل في شيءٍ من الإدارة ، وأن يكونَ عملي قاصراً على تحرير المقالة الافتتاحية فقط .

وأما قول جمال باشا لي في القدس : إنّه يريدُ أن تصدرَ الجريدة وأنور لا يزالُ في الشام ، فهو لكونهم قد أخذوا لي من أنور توصيةً خاصة ، بأنْ أقبلَ رئاسة تحرير الجريدة ، وهذا لعلمهم أنّ أنور كان صديقاً لي ، وكنتُ أرعى خاطره أكثرَ من الجميع ، ولقد بقيتُ في تحرير هذه الجريدة عِدّةَ أشهرٍ ، استعفيتُ في أثنائها من العمل لعدم امتزاجي مع مدير الجريدة ، الذي أتَوْا به من الأستانة ، وهو حكمت تاهيد بك ، وكان من زملائي في التحرير محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي وناظر المعارف بدمشق الآن ، والشيخ عبد القادر المغربي أحد أعضاء المجمع المذكور ، وقد بدأتْ هذه الجريدة كبيرةً وافيةً راقيةً ، محيطةً بالمواضيع ، وملأتْ أعينَ الجميع ، ومن جملتهم مستشرقو الألمان ، الذين قدَّروها قَدْرَها ، لكنّها لم تلبثْ أن أخذتْ بالتراجع ، أولاً : لأنّ الورقَ أعوزها ، فبعد أنْ كانتْ ثماني صفحات ، رجعت إلى أربع ، وأحياناً إلى اثنتين . ثانياً : لكوننا التزمنا أن نجعلَها جريدةً حرّةً غير مقيّدةٍ بخاطرِ السلطة ، فسارت على هذه الخطة نحو شهرٍ من الزمن ، ثم لم تلبث السلطةُ أن مدّتْ يدها إليها ، وصارت تعارِضُ في بعض النشريات ، فأنزلَتْها عن مكانتها الأولى ، ثم

إنني عندما تركتُ سورية ذاهباً إلى الأستانة في أواخر سنة (١٩١٦) قطعتُ علاقتي بالجريدة ، واسترحتُ منها .

جمال باشا يتخوف من اجتماعي بأنور باشا

أما السبب الذي لأجله التزم جمال باشا أن يحولَ دون اجتماعي بأنور باشا يوم جاء إلى سورية ، فكان خوفه أنْ أقنعَ أنور بأمورٍ كان جمال مصمماً عليها ، وأهم هذه الأمور هو قضية الزعماء الذين كان جمال اعتقلهم في عاليه ، وكانتْ محاكمتُهم جاريةً ، وانتهى الأمر بشنق (٢١) شخصاً منهم ، وهم : عبد الحميد الزهراوي ، وشفيق المؤيد [العظم] ، ورشدي الشمعة ، وشكري العسلي ، وعبد الوهاب الإنكليزي ، والأمير عمر الجزائري ، وسليم الجزائري ، وأنيس [رزق] سلوم ، وعبد الغني العُريسي ، والأمير عارف الشهابي ، والشيخ أحمد طبارة ، وتوفيق البسّاط ، وعمر حمد ، وسعيد عقل ، وجلال البخاري ، وجورجي الحداد ، وغيرهم .

فإنّ جمال باشا كان يعلمُ أنّي معارضٌ أشدّ المعارضةِ في فتح هذه المسألة ، وقائل بضررها ، وبأنّها ستكونُ سببَ الانفصال بين العرب والترك ، وكنتُ تكلّمتُ معه مراراً في أمرِ العفو عن هؤلاء المعتقلين ، وحاولتُ إقناعه بأسباب سياسية فلم يقتنع ، ثم حاولتُ إقناعه إن كان ولا بدَّ من المحاكمة بالاكتفاء بإبعاد المذكورين بدون قتل أحد، [لا] كما وقع بالشلّة[1] الأولى الذين قتلهم في بيروت ، كما تقدم الكلام عليه[2] ، وكان يجيبني بأنّه تارِكٌ هذا الأمرَ للديوان العرفيّ في عاليه ، وأنّه إذا برّأهم الديوانُ ، أو لم يحكم عليهم إلا بالنفي ، فليس له اعتراضٌ على ذلك ، وكنتُ أنا أعلمُ أنّ ما يقولهُ غيرُ صحيح ، وأنّه هو الذي ينوي قتلَ عددٍ من الشلّةِ الثانية ، كما قتل الشلّةِ الأولى ، ففي إحدى المرار ، قلت له : إنّ الصفحَ عن هؤلاء هو أقتلُ لهم من القتل ، وذلك أنّ الناسَ إذا رأَوْا رأفةَ الدولةِ بهم ؛ وعَفْوَها عنهم ، بعد أنْ يثبتَ عليهم ، أو على

---

(١) من العامية الشامية بمعنى (الثُلّة) .
(٢) ص (٤٣٤) .

بعضهم ، أنّهم كانوا أضداداً للدولة ، فإنّ غضبَ الجمهور يحلُّ عليهم ، ويفقدون كلَّ مكانةٍ لهم في البلاد ، وبعكس ذلك إذا قتلتهم فإنّهم يصيرون شهداء جميعاً ، البريء منهم والمجرم ، وتعدُّهم الأمةُ العربية قد ذهبوا في سبيلها ، ويصيرُ ذكرهم رمزاً لحريتها الخ . وأبديتُ وأعدتُ كثيراً في هذا الموضوع ، ومما أتذكره أنّي أنشدتُه بيتاً لأحدِ الشعراء ، وفسرته له بالتركية ، وهو :

صفوحٌ عن الجاني وصَفْحَةُ سَيْفِهِ إذا هي لم تَقْتُلْهُ، فالصَّفْحُ قَاتِلُه

فلما سمعَ تفسيرَ هذا البيت ، قال لي : وأنا أقابلك عليه ببيتٍ آخر ، ثم تلا بيتاً من التركية معناه : إنّ العفوَ لا يؤثِّرُ في الخائن ، كما أنّ الماءَ إذا جرى في الصخر لا يطفىءُ الزّبدَ الكامِنَ فيه . فعلمتُ من هنا أنّه مصمِّمٌ على قتلِ أناسٍ من أولئك المعتقلين .

ولما كنتُ معتقداً سوءَ عاقبةِ هذا العمل على الدولة ، وعلى الأمتين العربية والتركية معاً ، وكنتُ أرى أنّ هذا الرجل إذا صمَّمَ لا ينثني عن عزمه ، وأنه مصمِّمٌ على ذلك ، وأنّني إذا لم أبذُلْ كل ما بوسعي لمنعه عنه ، يبقى وجداني مضطرباً طوال حياتي ، وأبقى لائماً نفسي ، وقد يلومني غيري ، ويقولون : لولا بذلتَ جهدك يومئذٍ في منع هذا العمل لربّما كنتَ وُفِّقْتَ إلى منعه ، ولم يقعْ ما وقع بين العرب والترك من الخلاف الذي كانتْ نهايتُه انحلالَ الدولة العثمانية ، فكنتُ في حَيْرةٍ شديدةٍ طوال تلك المدة .

وبعد أن راجعتُ جمال باشا لاقناعه بالعفو ، ولم أحصلْ [منه] على أدنى وعدٍ به ، تكلّمتُ مع علي فؤاد بك ، رئيس أركان الحرب ، لعلّه يتمكن من إقناعه ، فتكلّمَ معه ، فلم يفلح أيضاً ، لهذا لما جاء أنور إلى سورية رأيتُها أحسنَ فرصة لهذا الأمر ، وقلت : إنْ كان أنور لا يقدِرُ على إقناع جمال ، فلن يقدِرَ أحدٌ على إقناعه ، ولكنني أؤمل أنّ يتمكَّنَ من صَرْفِهِ عن تلك الفكرة المشؤومة . كما أنّي كنتُ واثقاً بإقناع أنور بالتوسط ، نظراً لما بيننا من الصداقة ووحدة الحال ، وقد شافهت بمرادي المرحوم محمد فوزي باشا العظم ، وقلتُ له : أريدُ أن أسعى هذا المسعى الأخير ، فإنْ نجحَ نكونُ دفعنا هذا الشر

المستطير ، وإنْ لم ننجَحْ أكونُ أرحتُ وجداني ، وعملتُ الذي عليَّ تجاه ملتي ووطني ، فمحمد باشا أجابني شاكراً ، وأوصاني بكتمان حديثي مع أنور ، لعلمه بخطورة هذا المسعى ، وسوءِ وقعه على جمال .

محاولتي الاجتماع بأنور باشا في دمشق

فلما رجع أنور من المدينة المنورة إلى دمشق ، وكان مرادُه السفر ثاني يوم إلى إستانبول ، وكان وقتُه ضيِّقاً ، قلت لياوره ممتاز بك : إنّي أريدُ أن أواجهه بضع دقائق بدون أن يكون معنا أحد ، وكان ذلك في فندق فكتورية في دمشق ، فذهب ممتاز بك إلى أنور باشا ، وأخبره بما قلتُه له ، ثم جاء وبدون أن يلاحِظَ قضية الكتمان اللازم قال لي أمامَ أشخاصٍ كثيرين ، منهم الشيخ أسعد الشقيري : إنّ الباشا ينتظرُك فتفضَّل . فعلمتُ أنا بتلك الدقيقة أنّ السعيَ قد أحبط ، وذلك لأنّ الشقيري سيخبِرُ جمال باشا الذي كان في نفس الأوتيل ، ويأتي جمال باشا ، فلا نقدِرُ أن نتحدَّث مع أنور سرّاً ، فدخلتُ على أنور مسرعاً ، وبادرتُه بالكلام قبل أن يأتيَ جمال باشا ، ولم أتمم بضع كلماتٍ حتى دخل جمال باشا علينا قائلاً لأنور : إنّ الذهاب إلى العشاء عند فخري باشا قد جاءَ وقتُه ، فظهر من هنا أنّ الشقيري بمجرد ما سمعَ كلام ممتاز بك إلي أسرعَ إلى جمال ، وأخبَرَهُ ، فأسرعَ جمال بالمجيء ، حتى لا يبقي لي فرصةً أقولُ فيها لأنور ما أريدُ أن أقوله ، **فلما رأيتُ جمال قد دخل ، وكنتُ أعلم أنّ جمال يعلمُ مرادي من هذه النجوى مع أنور ، لم أُرِدْ أن أظهرَ أمام نفسي جباناً ، ولا أمامَ جمال نفسه ، ولا أمام أنور ، فقلت لأنور بالتركي : « ايرجه برقاج سوزم واردر » أي لي معك كلام خاص ولا أريد أن يكونَ غيري وغيرك ، ومعنى ذلك أنّي أقولُ لجمال : لا ينبغي أن تحضُرَ الكلام الذي أريدُ أن أقوله لأنور ، فجمال لم يكن يتصوّرُ أنني أجرؤ أن أقولَ كلاماً معناه الإشارة إليه بالخروج عنا ، لأنّه كان جباراً قد بطش بالخلق ، ورجفتْ منه القلوب ، وتعوَّدَ أن لا يقفَ في وجهه أحدٌ . أما أنا ، ففي تلك اللحظة أحسستُ أنّي لا أريدُ أن أعرف جمالًا ولا بطشه ولا جبروته ، وأنّ عليَّ مسؤوليةٌ كبرى تتعلَّقُ بملتي ووطني إذا تهيبتُه ، فلذلك**

قلتُ لأنور تلك الجملة أمامَ جمال ، وانصرف جمال ، وقد علت وجهه صفرةً كصُفرةِ الكهرباء من شِدَّةِ غيظه ، ولكنّ أنور لحظ غيظَ جمال ، فوقف يستمعُ لي ، وكأنهُ يقول لي ؛ يجب أن تختصِرَ الكلام ، حتى لا يظنَّ جمال باشا أننا نتحدث بأمور هي ضِدُّ مشربه ، فأنا استعجلتُ بقدر الإمكان ، ولخصتُ مرادي بهذه الجملة ، أقولها حرفياً ، والله يشهد عليَّ ، لأنه هو الشاهد الوحيد على هذا الحديث ، ولو كان أنور اليوم حيّاً ، لكان هو الشاهد الثاني على كلامي . قلتُ لأنور : إنّ الأشخاص المعتقلين في عاليه ليسوا جميعاً بأصدقائي حتى يكون توسطي من أجلهم مبنيّاً على مجرد صداقة ، بل المسألة بالعكس ، فمنهم أناسٌ هم من أعدائي ، ولكنّي الآن لستُ في باب الصداقة والعداوة ، بل في باب مصلحة الدولة والملة فقط ، فهؤلاء أنا أرى وجوبَ العفو عنهم ، وإنْ كان لا بدّ من المحاكمة والحكم ، فأرجو منك باسم مصلحة الدولة أن تتوسّطَ في شأنهم ، بحيث لا يجري قتل أحدٍ ، وبحيث يبدل بالقتل النفي هذه هي الجملةُ التي قلتها لأنور ، وكنا نحنُ الاثنين واقفين .

أما جواب أنور فكان حرفياً بالتركي : « توصيه إيده جكم » ، أي سأوصي ، وإنما قالها وقد علتْ وجهَه غبرةٌ ، ظهر لي منها أنّه كان لا يقدِرُ أن يعملَ شيئاً ، وأنّه لم يكنْ يؤمِّلُ أن يصرِفَ جمالاً عن عزمه ، ولم يكنْ له بالفعل قوة على جمال ، فإنّ جمال كان مستقلاً تمامَ الاستقلال أيام كان في سورية ، وكان الحزب التركي الطوراني مؤيِّداً له في إستانبول ، بحيثُ كان أنور وطلعت والجميع يومئذٍ يتجنّبون المساس بجمال ، خوفاً من الفئة الطورانية .

ثم فتحنا الباب لنخرجَ أنا وأنور ، فإذا بجمال واقفاً أمامَ الباب يسترِقُ السمع ، ولا تزال على وجهه علاماتُ الانفعال ، فقلتُ له حينئذ : إننا نحنُ في جبل لبنان قد مسّنا الجوع ، فنريدُ منكم طريقةً لمؤونتنا ، وكأنّي أردتُ بهذا القول أن أفهِمَهُ أنّ كلامي مع أنور إنما كان من أجلِ هذه المسألة ، فأيَّدَ أنور كلامي قائلاً له : « شكيب بك ذخيره إيجون سويليور » أي : « شكيب بك يتكلّمُ في مسألة الحنطة » . فجمال لم يجاوبني ، ولم يجاوب أنور ، وكان كأنّه يقولُ لنا : أتريدان أن تضحكا مني ؟ فالحديثُ الذي كنتما فيه هو غير ذلك ، ثم إنّ

جمال قال لأنور : قد آن ميعادُ الذهاب إلى فخري باشا ، وكنتُ من المدعوين للطعام عنده تلك الليلة ، فقصصتُ أنا فيما بعدُ ما وقع معي بتمامه للمرحوم محمد باشا العظم ، فقال لي : قد عملتَ ما عليك ، فينبغي أن لا تورِّطَ نفسَك بأكثرِ من هذا ، لأنّ القضية خطيرة ، وأما أنا فلم أكتفِ بتلك الجملة مع أنور ، بل ذهبتُ إلى ياورِه الأول كاظم بك ، وكان صهرَه نظيرَ أخٍ له ، وهو اليوم كاظم باشا ، ومن رجال حكومة أنقرة ، فقلتُ لكاظم بك جميعَ ما أريدُ أن أقولَهُ بشأن المعتقلين في عاليه ، واتّسعَ لي الوقتُ أن أشرحَ له جميعَ الأضرارِ التي ستنشأُ عن هذه الدعوة إذا اقترنَ الحكم فيها بالقتل ، وبقيتُ نحو ساعة أتكلّمُ ، وهو يستمعُ لي ، ويعدِنُي بأنّه ثاني يوم يقول لأنور باشا في الطريق جميعَ ما قلتُه بالحرف .

توسط عزمي بك

وكان في الشام والٍ يُقال له : عزمي بك ، غير عزمي بك الذي كان والياً في بيروت ، وكان جمال باشا يكره هذا الوالي ، الذي جاء عقب خلوصي بك ، ولم يكن جمال قد استُشِيرَ في تعيينه ، فغضب ، وطلب من الباب العالي تبديلَه ، فانتهى الأمرُ بأن يسافِرَ عزمي بك إلى إستانبول ، ويستعفي من ولاية الشام ، وكنتُ أنا عارفاً كلَّ ذلك ، فذهبتُ إلى عزمي بك ، وطلبتُ منه جلسة سرية نحو نصف ساعة ، وأن يأمرَ الياورَ بعدم الإذن لأحدٍ بالدخول ، ثم أخذتُ أبيِّنُ له أضرارَ السياسة التي كان جمال سائراً عليها ، وسوءَ التأثير الذي حصل عند الأمة العربية لقتله صالح حيدر ، وسليم عبد الهادي ، وعبد الكريم الخليل ، وأولاد المحمصاني ، ورفاقهم . وأنّه مسموعٌ الآن كونه يريدُ أيضاً قتلَ الجماعة المعتقلين في عاليه ، أو أناسٍ منهم ، فهذا العملُ إذا حصلَ قد يكون سبباً لخطبٍ كبيرٍ ، وشرٍّ مستطير ، بينَ العرب والترك ، وأبديتُ وأعدتُ في هذا المعنى .

فعزمي بك أصغى لكلِّ كلامي ، ولكنّه في آخر الأمرِ قال لي : إنّه لا يقدِرُ أن يعملَ شيئاً .

فقلت له : إنّه فيما بلغني ذاهبٌ إلى إستانبول ، وأنّه لا شك سيقابلُ هناك طلعت ، فنرجو منه أن يأخذَ من طلعت توصيةً مشدَدةً إلى جمال ، لأجلِ تغيير سياسته هذه ، نظراً لسوء عواقبها .

فأجابني : إنّه لن يقولَ هذا أيضاً لطلعت ، لأنّه يكون أشبهَ بانتقاد لسياسة جمال باشا ، والحال أنّه هو يحترمُ جمال باشا جداً . فلحظتُ من هنا أنّه خشي أنْ يصلَ هذا الحديث إلى جمال باشا ، فيغضب عليه ، أو يزدادَ له بغضاً ، لأنّ جمال باشا كان يكرهه من الأول .

فلما رأيتُ أنا هذا الرجل بهذا الجبن وهذه النذالة ، عرفتُ أنني نفختُ في غير خرم ، ورأيتُ أنني وقعتُ في الخطأ ، وأنّ الجبنَ لا يصلِحُ الخطأ ، بل يزيده . فقلت له : جيد ، إنْ كنتَ لا تريدُ أن تتكلّمَ مع طلعت ظناً بأنّ كلامَك هذا يُعَدُّ طعناً في جمال ، فتكلّمْ مع جمال نفسه ، وقل له : إنّ الناس لا يخبرونه بالحقيقة خوفاً منه ، ولكن الحقيقة أن جميعَ الناس غيرُ راضين عن هذه السياسة ، وأنّ المستقبَلَ مظلمٌ . فقال لي : (هاي هاي) وهي بالتركية تفيدُ التصديق التام ، ووعد أن يتكلّم مع جمال ، ويطيل الكلام . **أما أنا فعلمتُ أنّ هذه الحادثة ستكون سبباً لغضب جمال عليَّ ، ولم يكنْ يهمُّنِي غضبُ جمال في جانب هذه النصيحة ، التي كنت أراها ضروريةً ، وكنتُ أرى السكوتَ عنها نذالةً وسقوط همة .**

المواجهة مع جمال باشا

ولم يمض إلا يومان حتى استدعاني جمال باشا لا بواسطة ياوره كما جرت له العادة ، بل بواسطة أحد رجال البوليس ، فلما ذهبتُ إلى أوتيل فكتورية ، ودخلتُ عليه في الغرفة التي اجتمعتُ فيها مع أنور ، حسبما تقدّمَ الكلام ، رأيتُ جمالًا عبوساً منقبضاً مني ، لم يمدَّ يدَهُ لمصافحتي بحسب عادته ، ثم جلسنا ، فقال لي كلاماً خلاصته ما يلي :

إنني منذ جئتُ إلى سورية عاملتُك باحترام ، لم أعامِلْ به أحداً من أهالي سورية ، وذلك لا لأنك ابن أرسلان ، بل لحسن أخلاقِكَ ، ولصداقتك للدولة ، ولكنّك في المدة الأخيرة ، شرعتَ تنتقدُني علناً .

فعند ذلك قلتُ له : أأنا تكلمتُ بحقك شخصياً ؟

قال : لا ، وإنما تنتقدُ إجراءاتي ، وتقولُ إني أظلمُ ، وإنني متخذٌ سياسةً مضرَّةً بالدولة .

فقلت له : إنّي لم أقل شيئاً سوى أنَّ سياسةَ الشدة هذه غير موافقة لمصلحة الدولة ، وأنّي خائفٌ من عواقبها .

فقال : لقد تكلّمتَ معي كثيراً في هذا الموضوع ، ثم تكلّمتَ مع علي فؤاد بك ، ثم لما جاء أنور باشا تكلمتَ معه أيضاً ، وقد كان في وسعك أن تكتفي بهذه المساعي كلِّها ، لا سيما أنّ المسؤولية هي عليَّ وحدي ، وإنّي أنا الذي عَهِدَتْ إليَّ الدولةُ بإدارة شؤون البلاد ، فلم يكنْ منك إلا أَنْ ذهبتَ أيضاً إلى عزمي بك ، وتكلّمتَ معه بحقي .

وكان جمال باشا منتظراً أن أقولَ له : كلا لم أتكلَّم بحقك شيئاً ، لكنّه سمعَ غير ما كان ينتظِرُ ، فقلت له : نعم تكلمتُ مع عزمي بك ، ولا أنكِرُ ذلك ، ولكنّني أريدُ أن تقولَ لي الكلمات التي نقلها لك عزمي بك ، حتى أخبرَك إذا كان نقلَها بتمامها ، أم زاد عليها .

قال لي : قلتَ له : من حيث إنّك ذاهبٌ إلى إستانبول ، ولا بدَّ أن تجتمعَ بطلعت ، فأخبره عن شدة هذا الرجل ، واجتهد أن تأخذَ منه كتابةً إليه ، ليخفِّفَ من شدته .

قلتُ له : نعم ، هذا ما قلتُه بالحرف ، وأيُّ شيءٍ في هذا مما يمس مقامك ؟

فتلبَّكَ جمال في الجواب ، وقال : أتظنُّ أنني أنا في سياستي هذه غيرُ متفقٍ مع زملائي ؟

قلت له : يجوزُ أن تكونَ متفقاً مع زملائك ، ولكن يجوز أيضاً أن تكونَ بعضُ المسائل مما يستدعي إعادةَ النظر ، وتعديلَ الخطة ، ومسألةُ المعتقلين في

عاليه أنا رأيتُها ولا أزالُ أراها خطيرةً ، ولما كنتُ أعلم أنكم أنتم الثلاثة ، أنت وطلعت وأنور ، تديرون الآن شؤون المملكة ، فكان من الطبيعي لَننا نستعين على الواحد منكم بالآخر ، فلو جدَّ لنا شغلٌ عند طلعت لأخذنا منك أنتَ إليه توصية ، وكذلك عند أنور ، نحن الآن نريدُ أن نأخذَ من طلعت توصيةً لك ، فليس في هذا أدنى مساس بحقك ، لا سيما أنّ الأمر جلل .

فعلم جمال ـ وكان ذكياً جداً ـ أنه لم يبقَ له جواب يحتجُّ به ، فترك الأخذَ والرد ، وقال لي : شكيب بك قد عملتَ كلَّ ما عليك لتخليصِ هؤلاء الجماعة ، وقد راجعتَ عدَّةَ أشخاصٍ ليتكلّموا معي ، وقد قدمتَ لي عدةَ تقارير فيجبُ أن يكونَ وجدانُك مستريحاً بأنّك عملتَ كلَّ ما عليك ، وأنّك إن كنتَ لم تنجَحْ فلا يكونُ الذنبُ عليك ، بل يكونُ ذلك علي ، أنا المسؤول وحدي عن هذا الأمر ، فالآن أنا أرجو منك أن تمسِكَ عن التمادي في هذه المسائل ، التي لا يخصُّكَ من مسؤوليتها شيء ، وإنْ كنتَ مستمراً على ذلك ، فأنا لا أعمل معك شيئاً ، ولكنني أقطع مناسباتي معك تماماً ، قال هذا ، وقام ومدَّ يدَهُ لمصافحتي ، كأنّه يريدُ أن يصالحني ، ويزيلَ ما بنفسي من أثرِ انقباضِه الأول، فأنا لم أقلْ له إنّي سأتركُ السعيَ، كما أنّي لم أقل له إنّي سأداومه، ولا أرجع عن خطتي ، بل وجدتُ السكوتَ المطلَقَ هو الأولى وانصرفت (وكنتُ قدمت له عدة تقارير بشأن المعتقلين ، وبشأن المنفيين ، وأتذكرُ منها تقريراً لأجلِ العفو عن إكليل بك المؤيد ، وتقريراً لأجل العفو عن سليم العنحوري ، ولو علمتُ أنّ الحساد سينكرون في يوم من الأيام هذه المساعي ، لكنت حفظتُ صورَ هذه التقارير ، ولكنْ لم يخطر على بالي أنّ إنكار الجميل يصِلُ إلى هذا الحد ، ولا قدَّرْتُ أنّ الأعداء سيرمونني بعكس ما عملتُه على خط مستقيم[1]) .

وبعد ذلك قطعتُ الذهاب إلى المقرّ العام ، ثم نشرت جريدة « سورية الرسمية » إعلاناً من القائد العام بأنّ بعض ذوي النفوذ يتدخّلون بأمر العفو عن المنفيين ، وأنّه غيرُ مسموحٍ لأحدٍ بالتدخل في هذه الشؤون ، وما أشبه ذلك ،

(١) أي مهما كان الأمر .

فكان مرادُ جمال باشا بهذا الإعلان الإشارة إليَّ ، وهكذا قال مكتوبجي الولاية فوزي بك لمحمد باشا العظم ، فإنني أنا كنتُ قد توسطتُ في شأنِ العفو عن كثيرين ، غير إكليل المؤيد وسليم عنحوري ، حتى إنّي توقفتُ برغم هذه التنبيهات الشديدة إلى تأخيرِ سفرِ بعضهم ، وذلك بواسطة علي فؤاد بك ، وبدون أن يعلمَ جمال باشا أنّ ذلك هو منّي ، وكانت الصداقةُ متينةً بيني وبين علي فؤاد ، وكنتُ أحترمه أكثرَ من الجميع ، **وكان الجميعُ في سورية يشهدون بأنّه لم يأتِ إلى سورية رجلٌ بقي شريفاً نظيفاً لا تشوبه شائبة مثل هذا الرجل .** وهو الآن قائدُ موقع أزمير .

وبعد أن حصل بيني وبين جمال هذه المعاتبة ، وأمسكتُ عن التردد عليه ، عرف الناس المنصفون بأنّ هذه الوحشة لم يكن لها سبب إلا توسطي بالخير ، ومداومتي على السعي لمنعه من القتل والنفي ، وكان أسبر أفندي شقير منفيّاً في القدس ، ثم أذن له جمال في الرجوع إلى دمشق ، ورأيتُه فيها ، ومع أنّه كان بيني وبينه نفورٌ شديدٌ في الماضي ، سعيتُ لدى جمال باشا ، ولدى علي منيف بك متصرف لبنان ، ولدى عزمي بك والي بيروت بإعادة أسبر أفندي إلى بيته في بيروت ، ولكنَّ جمال باشا بقي مصرّاً على إبقائه في الشام ، فكان أسبر أفندي شاكراً لي مسعاي ، الذي أغضبَ في ذلك الوقت جمال باشا ، ولما بلغه أنّه قد جرى بيني وبين جمال ما جرى ، جاءني ونصحني بعدم التمادي ، وقال لي : إنّك الآن في مركز حرج ، وإنّ هذا الرجل مطلقُ اليد في سورية ، فلا تندفعْ كثيراً في مقاومته ، فإننا نخشى عليك غدرَهُ ، وكذلك عندما صدر الأمرُ بنفي عدد كبير من اللبنانيين ، ومن جملتهم حبيب باشا السعد ، جاءني إلى دمشق ، وقال لي : لقد علمتُ ما وقع بينك وبين جمال باشا ، فأنا لا أرجو منك أنْ لا تتكلَّمَ معه بشأني ، ولكنّي أريدُ منك كتاباً إلى علي منيف صديقك ، حتى يكتبَ إلى والي أضنة بإبقائي فيها ، فإنّها أهونُ عليَّ من الأناضول ، فكتبتُ له ما أراد ، وبقي حبيب باشا في أضنة .

وكان أسبر شقير وحبيب السعد وجميعُ العقلاء الذين يخجلون من المكابرة في الحقائق ، يشهدون بما سعيتُه لأجل دفع الشرور عن أبناء وطني ، وتخفيف

ويلات المصابين ، ولأجل منع جمال باشا بالطرق المختلفة من القتل والنفي وإرهاف الحد ، ولكنّ الحسادَ والأعداءَ الذين لا تهمهم الحقيقة ، وإنما يهمهم شفاء صدورهم بالافتراء والبهتان ، لم يكونوا يريدون أنْ يسمعوا شهادة الحق ، ولا يزالون يقولون ما لا يعتقدون .

وأما نفي اللبنانيين فقد حصل عندما كنت في دمشق ، وجاءني خبرُه وأنا لا علم لي بشيء ، بل بينما كنت أسعى في العفو عن المنفيين من الشام ، جاءني العلم بأنّه قد اعتقل في عاليه عدد كبير من رجال لبنان ، من جميع الطوائف ، وبينهم نفس الأشخاص الذين كانوا في القدس قبل ذلك بسنة ، وتوسطتُ أنا في العفو عنهم ، ولما كان قد أنذرني جمال بعدم التدخل في هذه المسائل ، لم يكن لي سبيل إلى مراجعته بأمر المنفيين اللبنانيين ، ولا لمراجعة علي منيف بك متصرف لبنان ، لأنّني كنتُ أعلمُ أنّ علي منيف لا يقدر على شيء ، وأنّ الأمر قطعيٌ صادِرٌ من جمالٍ ، بل لحظت أنّ النفيَ هذه المرة كان نتيجةَ قرارٍ عامٍ حصل في الأستانة بعد أن استراحت الدولة من خَطْبِ الدردنيل .

انتصار الدردنيل وما جره من مصائب

فقد أحدثَ ظفرُ الدولة في الدردنيل[1] نشوةَ ظفرٍ عند رجال الاتحاد والترقي ، حملتهم على قرارات غريبة عجيبة ، من جملتها سفور النساء بعد أن كان ممنوعاً ، فإنّهم بدؤوا به بعد انتصارهم في الدردنيل ، ومن جملتها تتريكُ سورية ، واقتلاع الفكرة العربية منها . وقد وجدوا أول واسطةٍ لذلك نقل عدد كبير من العائلات المعروفة رجالًا ونساءً ، ووجهوا أفكارهم إلى إسقاطِ البيوتات القديمة ، وظنّوا أنّهم بذلك بالغون مرادَهم من التتريك ، ولم يكن أنور مشارِكاً في هذه الفكرة ، بل كانت هذه فكرة جمال ، وقد وافقه عليها الأكثرون ، لأنّ جمال كان إلى ذلك الوقت نجمُه لامعاً ، وكانت الناس في الأستانة تعقد عليه الآمال ، ولم يكونوا يريدون حصر النفي فيمن سبقت لهم أفعال مضرة ، أو

---

[1] هي معركة چنه قلعة كما يسميها الأتراك أو معركة كاليبولي كما يسميها الحلفاء .

مداخلاتٍ مع الأجانب ، بل لحظنا أنهم نفوا رجالاً وعائلاتٍ كثيرةً لا ذنبَ لها إلا نفوذها ووجاهتها في البلاد ، بل إنّ من هذه العائلات من خدم الدولة كثيراً من قديم الزمان .

محمد باشا الجيرودي

وقد كنتُ في الأستانة قدّمت إلى طلعت باشا ، وهو في الصدارة ، محمد باشا الجيرودي ، الذي نفاه جمال هو وعائلته إلى الباب العالي ، ودخلتُ به على طلعت ، وهو شيخٌ عاجز ابن خمس وثمانين سنة ، وقلتُ لطلعت : هذا [الرجل] بقي في خدمة الدولة نحواً من خمسين سنة محافظاً للبرية[1] ، وجميعُ الولاة الذين تعاقبوا على سورية اتفقوا على إبقائه بهذا المنصب ، نظراً لثقتهم به ، ولا يمكنُ أنّ [يكون] عشرون والياً كلهم يضلون السبيل ، ثم إنّ هذا الرجلَ قد قتل أبوه في خدمة الدولة أيضاً ، وهو خادم الدولة أباً عن جد ، وقد بلغ من الكِبَرِ عتيّاً ، وهو بعدَ هذا كله ، رجلٌ ساذَجٌ لا يعرفُ القراءة ولا الكتابةَ إلا وضعَ إمضائِهِ ، فما معنى نفيُ جمال باشا له مع جميع عائلته بني الجيرودي رجالاً ونساءً ، بحيث ماتَ منهم عددٌ غيرُ قليل في المنفى ؟ فصدر أمرُ طلعت بإعادته هو والباقي من عائلته إلى وطنهم جيرود ، واقتنع بكونهم مظلومين .

نفي أعيان لبنان إلى الأناضول

وأعودُ إلى موضوع المنفيين اللبنانيين ، فأقولُ : إنّه لما بلغني الخبر عن جمع عددٍ من أعيان لبنان في عاليه ، لأجل نفيهم ، ومن جملتهم من أبناء عمي الأميران توفيق وفؤاد مجيد أرسلان ، كتبت في الحال إلى ابن عمي الأمير مصطفى قائلاً له : إذا كان بين المنفيين أناسٌ من حزبنا فأسرع بتعريفي ، وذلك أنّني كنتُ أعلمُ أنّ توسطي أصبحَ غيرَ ممكن ، لا سيّما إذا كان الأشخاص الذين يرادُ نفيهم هم من ذوي العلاقات بالأجانب ، فكنتُ أريدُ أن أعرفَ إذا كان جمال

---

(١) للبادية .

باشا سينفي أحداً من الحزب الأرسلاني الذي باتفاق الجميع لم يكن له علاقة مع الأجانب ، فلو علمت أنّه نفى أحداً من هذا الحزب ، لكان مرادي أنْ أذهبَ بأيِّ وجهٍ كان إلى استانبول ، واحتجَّ على هذا العمل ، وأفتحَ المسائل كلَّها ، فعلمتُ بعد ذلك أنّ جمال باشا لم يتعرَّض لأحدٍ من الحزب الأرسلاني ، بل بدأ بالجماعة الذين تنسب إليهم العلاقات مع الأجانب كما هو متواتر .

وقد كان يومئذٍ أخي عادل قائم مقام قضاء الشوف ، فاجتهد بواسطة علي منيف بك بتخليص بعض أشخاصٍ بحجة أنّهم مرضى ، وشفع في أشخاصٍ آخرين ، ولكنه لم يتوفق لتخليصهم .

وجئتُ أنا إلى عاليه بعد ذلك ، فكان علي منيف بك يريدُ تسفير رشيد بك نخلة ، وكان أخي عادل تشفّعَ فيه ، وكذلك ابن عمي أمين مصطفى ، فاعتذر علي منيف بأنّه لا يقدِرُ على تركه مع الأوامر الصارمة الصادرة من جمال باشا ، فلما جئتُ أنا ورجوتُه تركه بحجة أنّ رشيد مصاب بمرض السكر ، ضربَ صفحاً عن المسألة ، وأعدناه إلى بيته .

ثم إنني بعدَ أن جئتُ إلى الأستانة ، جعلتُ أكثرَ شغلي مسألة المنفيين المذكورين ، فأوّلُ شيء عملتُه هو أنّي قدمتُ تقريراً إلى الباب العالي ، سلمتُه إلى جاويد بك ناظر المالية مغزاه طلبُ العفو عن المنفيين جميعاً ، بحجة أنّ نفيهم لا يفيدُ الدولةَ شيئاً ، بل يخسّرها مبلغاً لنفقاتهم اليومية ، ويخسّرها أيضاً صداقة أهل سورية ، وأنّه إذا كانت الدولة تخشّى مغبةَ رجوعهم إلى سورية ، فإننا نقدِّمُ لها الكفالات اللازمة ، كفالة عن كل شخص منهم ، بأنّهم لا يخرجون عن طاعة الدولة ، ولا يحيدون عن جادة الصداقة لها ، وإنني أنا أكفلُهم بنفسي .

وأما الشيء الثاني الذي عملتُه فإنني كنتُ في آخر كلِّ شهرٍ ، أذهب إلى الباب العالي ، وآخذ الأمر اللازم بصرف معاشاتهم الشهرية ، حتى لا يصيبَ المنفيين ضيقٌ في معيشتهم ، وبقيتُ على هذا المنوال استخرجُ لهم بنفسي الأوامرَ المعجلة بدفع معاشاتهم جميعاً إلى آخر الحرب .

وثالث شيء عملتُه لأجلهم أنّي راجعتُ أنور باشا بشأن العفو عنهم ، فقال

لي : إنّه لا يستطيع ذلك ما دام جمال باشا في سورية ، ولكنّه يقدر أن يخفِّفَ من عناء بعضهم ، فإذا كان لي بينهم أصحابٌ فهو يقدِرُ أن يزيدَ معاشاتهم من دائرة التشكيلات التي في نظارة الحربية ، فعندها قدمت له جدولاً بأسماءِ نحو ثلاثين شخصاً منهم لبنانيون مسيحيون ودروز ، ومنهم من أهالي المدينة المنورة ، وطلبت لكلٍّ منهم زيادةَ شيءٍ على معاشه بحسب درجات احتياجهم ، فمنهم من زدناه ثلاث ليرات ، ومنهم من زدناه أربعاً أو خمساً إلى عشر ليرات ، وهكذا خففنا عناء قسم منهم .

ورابع شيء عملته لأجلهم أنّي بواسطة طلعت الصدر الأعظم أخذنا أمراً بأنّ المنفيين يقدرون أن يتنقلوا من محل إلى آخر ، وأن يأتوا إلى الأستانة ، وقد كان ذلك من قبلُ ممنوعاً ، فحصل لهم من هذا فرجٌ كبير ، والكثيرون منهم جاؤوا إلى الأستانة ، وأخذتُ أمراً بتسفير سليمان بك كنعان وعائلته من مدينة آق شهر إلى الأستانة على نفقةِ الحكومة .

وخامس شيء تمكنتُ منه هو أيضاً الحصول على أوامر من طلعت بإعادة النساء جميعاً إلى سورية ، والعفو عن الرجال الذين تجاوزوا سن الستين .

فبهذه الواسطة رجع قسمٌ كبيرٌ ، وحصل فرجٌ عظيمٌ ، ومنهم من حصلوا على مضابط بأنّهم تجاوزوا الستين ، ولم يكونوا بلغوا الخمسين فتخلّصوا بهذا السبب .

وأخذتُ أمراً لابن عمي الأمير توفيق مجيد بالرجوع إلى وطنه ، وأمراً آخر بمجيْءِ المرحوم أخيه فؤاد إلى الأستانة ، وقد كانوا توهّموا في أولِ الأمر أنّ لي يداً في مسألة النفي ، ولكن بعد أن جئتُ إلى الأستانة أواخر سنة(١٩١٦) وأخذتُ أسعى هذه المساعي كلّها لأجل المنفيين ، وأكاتبهم جميعاً ، ويكاتبونني ، تحققوا أنني كنتُ بريءَ الساحة مما تقوّلَهُ عليَّ الحساد ، وكان من جملة من أخذتُ لهم الأمرَ بالرجوع إلى الوطن سعيد بك البستاني ، قائد الجند اللبناني سابقاً ، وأشخاصٌ آخرون من بلاد مختلفة .

مسألة مبادلة أملاك المنفيين

ثم إنّ هناك مسألةٌ مهمةٌ جداً ، صرفها الله على يدي بواسطة طلعت ، وهي مسألةُ مبادلة أملاك المنفيين ، فقد كان جمال باشا نفى نحوَ ألفي شخص مع عائلاتهم ، وأنشأ لجنة سمّاها قومسيون التهجير ، فأخذتْ قيدَ أملاكهم ، حتى يعطوهم بدلًا عنها في الأناضول ويعطوا أملاكَ السوريين المنفيين إلى أناسٍ آخرين ، لم يتقرَّرْ شيءٌ عنهم ، هل يكونون أتراكاً أم أرمناً أم عرباً ؟ ولكنّه تقرَّرَ أن لا يُعاد أحدٌ من المنفيين ، وذلك بدليل أنّهم كانوا يريدونَ إعطاءَهم أملاكاً في الأناضول ، بدلًا عن أملاكهم في سورية .

فلما ذهبتُ إلى الأستانة ، كان أول عملي أنّي ذهبتُ إلى طلعت ، في أوائل صدارته ، وقلتُ له : قد بلغني من بعض زملائي المبعوثين أنّه موجودٌ اقتراحٌ سيلقيه حامد بك مبعوث حلب في المجلس ، مآله إعطاءُ المنفيين أراضٍ في الأناضول ، فإذا جاء هذا الاقتراحُ إلى المجلس كنتُ أنا أوّلَ المعترضين عليه ، وإذا اعترضتُ أنا عليكم أعترضَ سائرُ مبعوثي العرب ، وربما اعترض قسمٌ كبير من الأتراك ، **ولقد سكتنا إلى الآن عن أعمالٍ كثيرة جائرة منتظرين نهاية الحرب حتى لا نعمل شقاقاً في أثنائها بين هذه الأمة** . ولكن إن جاءت هذه المسألةُ إلى المجلس ، فلن نسكتَ عنها ، وأردتُ أن أُكمل كلامي ، فقال لي طلعت بعجلة : كُنْ مستريحاً ، فهذه لن تذهب إلى المجلس ، وبالفعل انطوتْ تلك المسألةُ من هاتيك الدقيقة .

وهذه القضية كنتُ أنا المستقل بإجرائها ، لم يساعدني بها أحدٌ من مبعوثي سورية ، وإنما كان بديع بك المؤيد والمرحوم سعد الله بك الملا هما اللذان أخبراني بخبرها عند وصولي من سورية إلى الأستانة .

ثم إنني رجعتُ فقلت لحامد بك مبعوث حلب ، الذي كان الاقتراحُ تحتَ يده ، بأنْ لا يطرحه في المجلس قبلَ أن يستشيرَ الصدرَ الأعظم . فقال لي حامد بك : إنّه هو كان السبب في تأخير طرحه إلى ذلك الوقت .

والحال أنّ بديع بك المؤيد وسعد الله بك الملا قالا لي : إنّهما كانا ترجّياه

كثيراً في أمر تأخير ، فقال لهما : إنّه لا يقدرُ على ذلك ، وأنّ قضيةَ طرحِهِ في المجلس مقررة .

فمسألة إعطاء المنفيين أراضٍ في بلاد الأناضول ، وأخذُ أملاكهم التي في سورية بدلاً عنها ، لإعطائها إلى مهاجرين أتراك ، أو غيرهم ، لم يشاركني أحدٌ في إبطالها .

فأما مسألة المنفيين من حيث هي ، فإنني عندما مررت بالأناضول واجهتُ أناساً منهم ، وحصلتْ لي وعكةٌ من السفر ، نزلتُ من أجلها في أسكي شهر ، وأقمتُ بها بضعة أيام ، فواجهتُ منم كثيرين ، ووعدتهم ببذل كل ما في وسعي لنيل العفو عنهم .

وعندما وصلتُ إلى الأستانة قدمتُ تقريراً في هذا الموضوع ، وسلمتُه ليد جاويد بك ناظر المالية ، وعززتُه بكلٍّ ما يلزم من الكلام ، لمساعدتي في أخذِ العفو المذكور بما عنده من قوة الإقناع ، فتسلّمَ التقريرَ وقدَّمهُ إلى مجلس النظار .

وكنتُ في هذا التقرير قد قدمتُ نفسي كفيلاً لجميع المنفيين بدون استثناء ، بأنّه لا يحصلُ منهم أدنى شيء في البلاد إذا صدر العفو عنهم ، وعرضتُ فيه أيضاً ، أنّه إذا طلبت الدولة لكل واحد منهم كفيلاً ، فإننا حاضرون أن نقدِّمَ هذه الكفالة أيضاً على الوجه الذي ترومه الدولة .

وقد كان هذا الأمر في أواخر سنة (١٩١٦) فتذاكر مجلس النظار في هذه المسألة ، وقرروا أنّه لا يمكن العفو ما دام جمال باشا قائداً عاماً في سورية . وكان جمال باشا إلى ذلك الوقت لم يصبه أدنى فشل عسكري ، بل كان الجيشُ العثماني دحر الجيش الإنكليزي مرتين عن غزة ، وألحقَ به خسائرَ فادحة ، فكان ذلك سبباً للمعانِ جمال باشا في الأستانة . فكانوا يقولون : إنْ أخطأ كثيراً في سورية بسياسته الشديدة ، ولكنه قد حفظ سورية من العدو ، وكانوا يقابلون[1] حالة سورية مع حالة العراق ، الذي كان الإنكليز قد تقدّموا فيه ، واستولوا على

---

(١) يقارنون .

قسم منه ، فكان مركز جمال باشا في هذه المقابلة بين سورية والعراق يزداد علواً ، ومن أجل هذا امتنعت الدولةُ عن تسريح المنفيين وإعادتهم إلى أوطانهم بحسب طلبهم ، ورأوا الأولى إقناعَ جمال باشا بدون كسر كلمته .

فأرسلوا إليه مدحت شكري ، فذهب إلى سورية محاولاً إقناعَ جمال باشا في أمرِ العفو عن المنفيين ، فبقي جمال باشا مصرّاً على عناده ، ورجع مدحت شكري بخفي حنين .

ولما رجع مدحت شكري أخبرني بديع المؤيد مبعوث الشام بأنّ مدحت شكري قد عاد من سورية خائباً في مسألة العفو ، وكنّا ساعة ما أخبرني بهذا الخبر في جلسة بمجلس المبعوثين ، وكان طلعت الصدر الأعظم جالساً في المحل الذي يجلس فيه النظّار . فقمتُ من فوري ، فسألتُ طلعت عن حقيقة الخبر ، فقال لي هكذا : اترك هذه المسألة لي ، وكنْ مطمئناً ، فإنّني لا بدّ أن أسويها على وُفْق ما يرضيك ، فرجعتُ إلى مكاني . ثم أشار إليَّ أن أعود لإكمال الحديث معه ، فقال لي : لا تقل لأحدٍ من زملائك : إنّ جمال باشا رفض العفو ، وإنه لا أمل فيه ، فإنّي قد قلتُ لك بأنني لا بدّ أن أسويَ هذه المسألة من الآن إلى شهرين بالكثير .

ثم سألني زملائي المبعوثين فأخبرتُهم بأنّ الأمل لم ينقطع بالعفو عن المنفيين ، ولو كان مدحت شكري عاد الآن خائباً ، وفي ذلك الوقت قابلتُ أنور ، فتكلمتُ معه في قضية المنفيين ، فقال لي : إنّني مع الأسف لا أقدِرُ في الوقت الحاضر أن أعمل فيها شيئاً ، ولكنّي لأجل خاطرك أقدر أن أزيدَ في رواتبِ بعضهم ممن بينك وبينهم صداقة ، نعم إنّهم هم يأخذون يوميات من الحكومة ، ولكن لا شكّ أنهم لا يكرهون الزيادة عليها ، ويكون هذا تطييباً لخواطرهم إلى أن يتسنّى لنا إطلاق سراحهم ، وإعادتهم إلى بيوتهم .

فعند ذلك قدمتُ له جدولاً بأسماء عدد من المنفيين من المدينة المنورة ، وعدد آخر من المنفيين اللبنانيين ، مثل أبناء عمي الأميرين توفيق ، وفؤاد ، ومحمود بك تقي الدين ، وملحم عيد البستاني ، وولده خليل ، والياس شاهين الخوري ، وأمين الغريب ، وأمين السعدي ، وعبد الحميد أبي غانم ، وعجاج

غرس الدين ، وغيرهم ، وطلبتُ لهم زيادة في شهرياتهم على حسب درجاتهم ، من ثلاث ليرات إلى عشر ليرات .

وكنت في كلّ شهر أذهبُ بنفسي إلى دائرة التشكيلات التي كانت تابعة لنظارة الحربية ، وأتقاضى من الدائرة المذكورة إرسالَ هذه الزيادات ، كما أنّي لم أحصر عملي في أخذ الزيادات المذكورة ، بل كنتُ أذهبُ في رأس كل شهر إلى دائرة قومسيون المهاجرين في الباب العالي ، واستعجلُها في إرسال الأمر اللازم في دفع معاشات المنفيين أجمعين .

وبقيت على هذه الحالة آخذ لهم الأوامر شهرياً بتأدية المعاشات إلى نهاية الحرب .

ولم أكن أعرف عددهم بالتمام ، فقد كانوا يخمّنون عددهم بألفي نسمة ، وكان منهم أناسٌ في أزمير ، وآخرون في مغنيسة وإزميد ، وآخرون في بروسة ، وأسكي شهر ، ويني شهر ، وآق شهر ، وتوقات ، وسيواس ، ومنهم في جهات أدرنة من الروملي ، ومنهم في قونية ، وكانوا يكاتبونني من جميع تلك الجهات ، ولا يزال عندي رزمة كبيرة من مكاتيبهم ، وكنتُ أجيبُ كلاً منهم ، وأخبرهم بالمساعي التي كنت أبذلُها لإعادتهم إلى أوطانهم ، ولم تكن مكاتيبي إليم تخلو من تقبيحِ لسياسة جمال باشا ، فكان بعضُهم يتعجّبون في البداية من مجاهرتي بانتقاد جمال باشا ، حتى بلغني أنّ بعض المنفيين في قونية اشتبهوا في أن تكونَ تلك المكاتيب هي مني ، وذلك لسذاجتهم ، وظنّهم أنني لا يمكنني أنْ أتجاسَرَ على انتقاد جمال باشا بإمضائي وبخطي ، ولكنهم فهموا فيما بعدُ الحقيقةَ ، وعلموا أنّني لم أكن مبالياً بخطر مقاومة جمال باشا ، وأيقنوا جميعاً بأنّ كلام المفسدين بأنّه كان لي يد في نفيهم ليس له أثرٌ من الصحة .

وقد كان ولدا عمي الأميران توفيق وفؤاد ممن اشتبهوا في البداية في هذه المسألة بسياستي ، وبالخصوص كتاباتي إليهم بما يفيدُ مقاومتي لسياسة جمال باشا ، عرفوا أنّ سوءَ ظنهم لم يكن في محله ، وكان ذلك سبباً في التقارب بيني وبين أبناء عمي وغيرهم ، ممن كانوا من قبلُ يظنّون أنّ لي مدخلاً في نفيهم ، فانقلبوا إلى أصدقاء ، بعد أن كانوا أعداء .

ثم لم أزلْ أراجِعُ الصدرَ الأعظم بما كان بيني وبينه من الصداقة ، حتى بدأ يُفرِجُ عن المنفيين تدريجاً ، برغم إرادةِ جمال باشا . وذلك أنّ الصدرَ أصدرَ قراراً بإعادة النساء والأولاد جميعاً إلى أوطانهم ، فقد كان جمال باشا نفى أولئك الأشخاص مع عائلاتهم ، لما سبق مِنْ أنّه كان ينوي إيطانهم بلادَ الأناضول ، ويقطع كل علاقة لهم بسورية ، فهذا المشروعُ قد أحبطناه تماماً ، وتمكنّا من إعادة العائلات بأجمعها ، وكذلك أخذنا قراراً آخرَ بالعفو عمّن تجاوز الستين من العمر ، فعاد منهم بهذه الوسيلة عدد كبير ، ومنهم أناسٌ لم يكونوا وصلوا إلى سن الخمسين ، فحصلوا على شهادات بأنّهم تجاوزوا الستين ، ورجعوا إلى أوطانهم ، ثم أخذتُ قراراً لجميع المنفيين بإمكان التنقل من بلدة إلى بلدة أخرى في الأناضول ، والمجيء إلى الأستانة ، وكان ذلك محظوراً عليهم في الماضي .

وكان جمال باشا إذا علم بأنّ منفيّاً انتقل من محل إلى آخر يبرِقُ إلى الأستانة معترضاً على ذلك ، فهذا الحصر أيضاً قد أبطلناه .

وبهذه الوسيلة جاء منهم جماعة إلى الأستانة مثل ابن عمنا الأمير فؤاد ، وسليمان بك كنعان ، وسعيد بك البستاني ، وغيرهم .

وفي ذلك الوقت أيضاً أخذتُ العفو القطعيَّ عن ابن عمنا الأمير توفيق مجيد ، فرجع إلى بيته .

وقد كانت المجاعة ابتدأت تشتدُّ في سورية ، وكان الأناضول أهونُ عيشاً ، ولم يبدأ فيه الجوع إلا في حدوده الشرقية ، حيثُ زحفَ الجيشُ الروسي ، وفرَّ الأتراك من وجهه ، ملتجئين إلى المدن ، التي لم تدخل تحت استيلاء الروس ، فكانت هذه المجاعة في سورية سبباً في إيثار بعض المنفيين البقاءَ في الأناضول على نيل العفو والرجوع إلى سورية . وقد كتب إلي بعضُهم يلتمسون مني أن لا أسعى في العفو عنهم ، وذلك ليتمكنوا من البقاء في الأناضول ، حيث لهم معاشات إذا ذهبوا إلى سورية يخسرونها .

وما زلت ساعياً في إعادة المنفيين واحداً بعد الآخر ، حتى عاد أكثرُهم إلى سورية ، وبقي منهم من كان هو مِنْ نفسِه لا يرغبُ في الرجوع إلى وطنه ، نظراً للضيق الذي كان في سورية من جهة المعيشة .

سقوط جمال باشا

وكان يسألني بعضُ الناس من السوريين عن قضية جمال باشا ، وإمكانِ التخلُّصِ منه وعدمه . فكنتُ أقولُ لهم : إنّ التخلصَ منه تماماً لا يُرجى مع الأسف، إلا إذا انكسر جيشُه، ولكن لا ينكسر جيشُه إلا بدخول العدو إلى البلاد.

وقد وقع ذلك فعلاً ، فإنه لما ابتدأ الجيشُ العثماني يتقهقرُ في فلسطين ، وزالتْ تلك المكانة التي كانت لجمال باشا في أذهان الأتراك ، ورأَوْا أنّه قد أصاب سورية ما أصاب العراق ، و [لما] ظهر عَجْزُ جمال باشا عن مقاومة العدو ، لم يبقَ أحدٌ في الباب العالي مبالياً برضى جمال باشا وعدمه ، فصاروا يصدرون جميعَ الأوامرِ التي نحن نطلبها ، وأصبح هو لا يجرؤ أن يراجعَ في شيءٍ لتأييد كلمته ، لأنّ كلمتَه كانت قد انكسرت بانكسار الجيش الذي كان يقوده ، كما هو بديهي .

واضطرت الدولة إلى إرسال الجنرال فالكن هاين الألماني ، فتسلم هذا الجنرال القيادة في سورية ، وبقي عمل جمال باشا قاصراً على الإدارة وتقديم اللوازم ، فانحطت منزلتُه كثيراً .

وأخيراً قبل أن أوشك الإنكليزُ من دخول القدس أُقيلَ جمال باشا من القيادة ، وجاء إلى الأستانة ، وجلس في نظارة البحرية التي كانت لا تزال في عهدته ، وزال نفوذه ، وأخذ يسعى في استعطاف أعدائه ، وحصل له مصداق المثل المشهور : « زالت السكرة وجاءت الفكرة » ، فقد كان وهو في سورية سكران بخمرة العز ، لا يَقْدِرُ أحدٌ أن يقنعه بالرجوع عن شيء من أفكاره ، ثم لما تحوَّلَ طالعُ الحرب ، وبدأ تقهقرُ الجيش العثماني ، وزالت بهذا السبب تلك المكانة التي كانت له في أنظار الأتراك ، شعر بعظمة الخطيئات التي أخطأها ، وتذكّر جميعَ الكلام الذي كنت أنصحه به عندما كان في سورية ، فأوّل ما فكر [به] بعد رجوعه إلى الأستانة هو في التقرب مني ، مع أنّه قبلَ ذلك بأشهرٍ كان [قد] جاء إلى الأستانة لقضاء بضعة أيام ، فكان يتأجج صدرُهُ غضباً علي ، مما بلغه من معاكستي لأعماله ، واشتكائي من سياسته إلى الباب العالي ، وإلى

جمعية الاتحاد والترقي ، وإلى جميع المقامات العالية .

ولقد كان بعضُ الناس من الأتراك أنفسِهم حذّروني من غيلة جمال باشا لي ، بواسطة أعوانه ، فقد بلغهم ما كان عليه من الحقد عليَّ ، وقد بلغ ذلك أيضاً أُناساً من أصدقائي من أبناء العرب ، مثل نجيب الملحمة ، ونجيب شقير ، ونقلوا لي عن لسانه أنّه قال عني : « اه بو ادم اله كجمر سه الخ » أي إذا وقع هذا في اليد . . إلخ . ومعناه أنّه كان مترصِّداً إيقاعي في اليد ، حتى يفتِكَ بي ، فأنا لم أبالِ بما سمعته ، وقلتُ لهم : لو كنتُ أفكِّرُ بأمورٍ كهذه ما كنتُ أقدمتُ على عملٍ من الأعمال ، إلا أن تلك المكانة وتلك العُنجهية اللتين كانتا لجمال لم تلبثا أن سقطتا بعد تقهقر جيشه في فلسطين ، فبدلًا من أن يرغي ويزبدُ مثل ذي قبل ، رجع يتزلّفُ إلينا ، حتى نكفَّ عنه .

وكان أول من شرع في ذلك مستشارُه الشيخ أسعد الشقيري ، الذي كان من قَبْلُ يكرهني أشدَّ الكراهية ، ويكيد لي بجميع ما يستطيع من الوسائل ، فلما جرتْ إقالةُ جمال باشا من القيادة في سورية ، أخذ يتزلّفُ إلي ، ويقول لي : هذا هو الوقتُ الذي يحسُنُ بكَ فيه أن تنسى الماضي ، وتصطلِحَ مع جمال ، وهذا أليقُ بشيمتك ، وبه يذكر جمال باشا علوَّ جنابِكَ .

ثم إن عاصم بك باش كاتب مجلس المبعوثين كانت بينه وبين جمال باشا صحبة ، وبينه وبيني أيضاً مودة ، فتكلَّمَ معي في الموضوع ، وتكلّم أناسٌ آخرون ، ذهب من بالي أسماؤهم ، وأقنعوني بأن يكونَ من كرم الشيمة بعد أن سقطَ جمال باشا سقوطاً معنوياً أن أسلِّم عليه في نظارة البحرية .

وكنت علمتُ أنّ بعض زملائي المبعوثين ومنهم المرحوم محمد باشا العظم وبديع بك المؤيد وغيرهم قد سلّموا على جمال باشا ، برغم أنه كان قد قتل شفيق بك المؤيد عم بديع بك ، فعند ذلك عوّلت على زيارة جمال باشا في نظارة البحرية ، فذهبت ، فلم أجدْه ، فرجعت ، وعددت أنّ الزيارة قد حصلت ، وكان مرادي التخلُّصَ من أصحابي الذين كانوا يلحّون علي بهذه الزيارة ، بناء على أنّ القادِمَ يزارُ ، وأنّ جمال باشا جاءَ من سورية ، واستقرّ في منصبه في الأستانة ، إلا أنّ القادم أسعد الشقيري رجع فسألني ، فقلت له : ذهبت فلم أجد

جمال باشا ، فقال لي : إنّك قصدتَ أن تزوره للتخلص من اللوم بعدم زيارته ، ولكن ليس هذا المقصود ، فنحن إنما نريدُ أن تنجليَ الوحشةُ التي بينكما ، ولم يبقَ سببٌ بعد إقالةِ جمال من سورية في أن تبقى هذه الوحشةُ .

والخلاصة أنهم اقنعوني بالذهاب مرةً ثانية في وقت انتظرني هو فيه ، فلما ذهبت إلى نظارة البحرية ، وقابلته قال لي : إنّ جميع من قاوموني وعاكسوني وطعنوا بي في دوائر الدولة لم يهمني أمرهم ، لأنني كنتُ أدافع عن نفسي ، وأبيّنُ أنّهم ذوو أغراض شخصية ، وأنّ منهم من ليس مخلصاً للدولة ، وأما أنتَ فحملتُك عليَّ في الأستانة أثّرت بي جداً ، لأنني لا أستطيعُ أن أقولَ لأحدٍ من زملائي ، ولا من رجال الدولة إنّك ذو غرضٍ شخصي ، أو أنّك غيرُ مخلصٍ للدولة العثمانية .

فقلت له : **إنّه مع الأسف قد نفذ السهم الذي طالما رجوتُكَ أن تتجنّب رميَهُ ، فقد رجوتُك مراراً أن تتجنب القتل ، وقلتُ لكَ : إنّه غيرُ قابل للتلافي ، وأنّ النفي والحبسَ وما أشبه ذلك أمورٌ كان يمكِنُ تلافيها ، لكنّك لم تسمع لي .** وكنتُ أقولُ لك : لا تعتمِدْ على تحريض من يحرضونك من الأتراك في الأستانة ، فإنّها إذا وقعتْ الواقعةُ ، ورأوا سوءَ عواقبها ، تبرأوا منك ، ولن تجدَ لك أنصاراً ، فتبقى أنتَ وحدك ، وهذا أيضاً لم تسمعه مني .

فأخذ يدافع عن سياسته ، ويحتج بكون الحالة الحربية قضت عليه باستعمال الشدة ، وأنه لولا تلك الشدة لكانت حصلت ثورة في نفس سورية شغلت الجيش العثماني عن مقارعة العدو ، فكانت سورية تحت الاحتلال الأجنبي من أول الحرب ، وأخذ يبدي ويعيد في هذا الموضوع .

فقلت له : **إنني على كل حال لا أطمعُ أن آخذ منك إقراراً بخطئك في تلك السياسة التي اتبعتها في سورية من جهة الشدة وإرهاف الحدِ ، ولكنني لا أستطيعُ إلا أن أذكّرك ببعض أمورٍ ترى منها أهمية تلك الأغلاط** : مثلاً الزهراوي ، عندما أتيتم به من باريز يوم دخل في ذلك المؤتمر المنعقد في عاصمة الفرنسيس ، وجعلتموه عضواً بمجلس الأعيان ، كنتُ أنا منتقداً سياستكم هذه ، أقول : إنّها تنشيط للناس أن يخرجوا على الدولة ، ولكن بعد أن جعلتموه من الأعيان ،

ومضى على ذلك ثلاث سنوات ، تأتونَ به من مجلس الأعيان إلى الديوان العرفي بعاليه ، ثم تشنقونه ، هذه وجدتُها فظيعةً من الفظائع ، لأنّها مما يسلُبُ كلَّ ثقةٍ للرعية بالدولة ، ثم لو أردتَ أن تقنعني ، وذلك محال بأن هذا العمل كان سديداً في نفسه ، فوالد الزهراوي البالغ من العمر تسعينَ سنة لا أفهمُ سببَ نفيهِ ؟ وماذا يمكن أن تصدر من الحركات من رجلٍ ناهز التسعين ؟ وأخذتُ أسردُ أمثلةً ، فقال لي وقد كادَ يختنِقُ مما حلّ به من الندم : ألا تعلمُ أننا إذا فرَّ أحدٌ من العسكرية نأخذُ أهلَه ، ولو كانوا طاعنين في السن ؟

فقلت له : هذا لا يقاسُ بذاك ، ولسنا هنا في مسألةِ فرار من العسكرية .

ثم قطعتُ الحديثَ في هذا الموضوع ، ورجعتُ إلى الكلام في أمورٍ أخرى ، لأنّ الكلام في الفائت ضرب من العبث .

ولما جاء ابن عمي الأمير فؤاد إلى الأستانة أراد جمال باشا أن يقابِلَهُ ، وكان بين فؤاد وأخيه توفيق وبين جمال مودة ، وكانا يترددان عليه في سورية ، فقلت لفؤاد : ليذهب إلى جمال باشا من حيث إنه يريد أن يواجهه ، فالتمس مني أن نذهبَ معاً ، فاعتذرتُ له بموعد آخر ، وحقيقة الحال أنني أحببتُ أن يقابلَ فؤاد جمال باشا ، وأن لا أكونَ حاضراً بينهما ، لأنّه بعد أن كان اشتبه بعضهم بأنّ لي يداً في مسألة النفي ، ومن الجملة نفي أبناء عمي ، كنتُ أريدُ أنّ يخلو فؤاد بجمال ، ويسأله عن كيفية النفي وأسبابه ، فكان جمال يقول له الحقيقة على وجهها ، فإنْ كان لي أنا يدٌ في النفي فلم يكن جمال ليتأخر عن أن يقولَ له : إنّ ابنَ عمك هو الذي أغراني بنفيكم ، أو تكلّم بكلام الموافقة على ذلك .

فذهب فؤاد وحدَه وتقابلا ساعة من الزمن ، وعاتب فؤاد جمالاً على ما صدر منه بحقه وحق أخيه من الصحبة بينهما وبينه ، فصرَّحَ له جمال بأنّه كان آسفاً لنفيهما ، وأنّه مضى الأمرُ ، وهو في نفسِه متألمٌ من اضطراره إلى تدبيرٍ كهذا ، وذلك لأنّه لا يقدِرُ أن يعمل استثناءً لأحدٍ ، وقد جاءت أسماؤهما في جملةِ أسماءِ الأشخاص الذين كانوا يترددون على قناصل الدول قبل الحرب ، ويعملون بإشارتهم .

فرجع فؤاد ، وأخبرني بما حصل بينه وبين جمال باشا ، وكنت مسروراً بأنّ

جمال باشا لم يقدِرْ أن يذكرَ اسمي في هذه القضية ، ولا في غيرها .

ومن الغريب أنّ أناساً من الحسّاد يصرُّون على أنّي كنتُ مشتركاً مع جمال باشا في هذه الأعمال ، على حين أنّ جمال باشا نفسَه قد حرَّر مذكراتٍ طبعَها بجملة لغاتٍ ، وأوضحَ فيها سياستَهُ في سورية ، وأشار إلى أكثر ما قامَ به من الأعمال ، وذكر قضيةَ الذين شنقهم ، والذين نفاهم ، وذكر أسماءَ الذين أخبروه بحوادثَ أدّتْ إلى تلك المحاكمات في الديوان العرفي في عاليه ، ومن جملتهم الشيخ الشقيري صديقه الحميم ، ولم يقدِرْ أن يذكرني بكلمة واحدة في كلِّ هذه المذكرات ، لأنني طول مدة وجوده في سورية لم أذكر أمامه كلمةَ سوءٍ بحق أحدٍ ، حتى بحقِّ الذين أعتقدُ خيانتهم ، أو سوءَ أحوالهم ، وذلك خشيةً من أن يبطشَ بهم ، ويستندَ على كلامي فيهم ، وأن أكونَ أنا سبباً في سفك الدماء .

والحال أنّ ذلك خارج عن عهدتي ، وغير متعلق بي ، فضلاً عن منافاته لطبيعتي ، وكان الناس لو فعلتُ هذا الأمرَ يجعلونني أنا السبب في قتل ذويهم ، أو نفيهم ، بينما الأتراكُ يكونون قد صاروا خارج البلاد .

وإذا فرضنا أنّ سورية بقيت في أيديهم ، فلم يكن أهلُ القتلى والمنفيين يومئذٍ ليقدروا على التشفي منهم ، بل كانوا ينسبون هذه المصائب التي حلَّتْ بهم إليَّ ، وإلى غيري ممن كانوا ذوي مكانة عند الدولة وعند جمال باشا ، فلأجل هذا تجنبتُ ذِكْرَ أيِّ أحدٍ بسوء أمامَ جمال باشا ، وكان دأبي أن أدافِعَ عن الجميع ، حتى عن الذين لا أعتقدُ فيهم الخير .

ومن الغريب أنَّ أعدائي وحسادي لو كانوا عثروا في « مذكرات جمال باشا» على أقل كلمةٍ تدلُّ على أنني دخلت معه في موضوع قتلٍ أو نفي أو وشايةٍ على أحدٍ من أهل سورية ، أو إخبارٍ عن حادثة من الحوادث ـ لكانوا طبّلوا لها وزمّروا ، وقالوا : إنّ هذا هو الحق المبين ، وإنّ شهادة جمال باشا في حقي لا يمكنُ أن تكونَ مبنيةً على غرض ، وكان جميعُ ما أقولُه في دفع كلامهم عبثاً ، فأما وقد ظهرت « مذكرات جمال باشا » وفيها جميعُ ما أراد هذا الرجل أن [يقوله] ، وليس فيها أدنى إشارة إليّ ، ولا رواية عني ، مما هو دليل كاف على عدم صحة أقاويلِ الحُسّاد والأعداء ، وبرغم هذا فلا نجدُ هؤلاء مقلعين عن

الافتراء بحقي ، مع أنّ هذا الشاهد محسوس لا يقبلُ المكابرةَ .

والحقيقة أنّه لولا مذهبي في السياسة ، ولولا مقاومتي للسيطرة الأجنبية ، ولولا مجاهرتي بآراء ومبادىء تغيظُ كثيرين في سورية ، ولولا أنّ الحساد يغصون بنظرتهم بمكان كلّ رَجُلٍ ذي شهرة ، لما كان أحدٌ من هؤلاء الحاسدين يتكلّمُ بكلمة من هذا القبيل ، وأزيدُ على ذلك أنّ الخصام وصل بيني وبين جمال باشا إلى أنّه طلب من الدولة في أوائل سنة (١٩١٧) ببرقيات أبرقها إلى الباب العالي الأذنَ له باتخاذ التدابير الشديدة بحقي ، وبحق أخي عادل ، ولما حصلتْ معاركُ غزة بين الإنكليز والعثمانيين أولَ مرة ، وكانت نتيجتُها فوزُ العثمانيين في تلك المعارك ، انتهز جمال باشا فرصة لمعانه على أثر تلك الوقائع ، لينتقمَ مني ومن أخي ، وظنّ أنّه في تلك الفرصة ينالُ من الدولة الإذن بالبطش بي وبأخي .

وقد جاء ذلك في « مذكرات إحسان بك الجابري » اليومية ، التي هو مثابرٌ عليها منذ بضع عشرة سنة ، لا سيما عندما كان كاتباً ثالثاً للسلطان محمد رشاد ، وذلك أنّ الصدر الأعظم طلعت تلفنَ إلى إحسان بك يخبرُه بفوزِ الجيش العثماني في غزّة ، ويقول له ليبشّرَ بذلك السلطان ،وبعد أنْ أخبره بهذه البشرى ، قال له : إلا أنّ جمال باشا طالِبُ اتخاذَ تدابيرَ شديدةٍ بحقٍّ بعض أشرافِ سورية ، فشغل هذا الكلام فكر إحسان بك، وظنَّ أنّه يعني بذلك أناساً منهم آل الجابري في حلب ، فسأله : هل بين هؤلاء أحدٌ من أقاربي ؟ فأجابه : لا ، فسأله إحسان بك : هل يمكنك أنْ تذكرَ لي أسماءَ أولئك الأعيان السوريين الذين يريدُ جمال باشا اتخاذَ التدابير الشديدة بحقهم . فأجابه طلعت : نعم هم شكيب أرسلان بك ، وأخوه عادل ، وآخرون من جملتهم أنت .

وقد جاء في « مذكرات إحسان بك » المحررة بالتركية ، والتي كتبها بتلك الساعة أنّه بينما يريدُ أخذ تفاصيل من طلعت عن هذه المسألة ، انقطع التلفون بطروء شغل على الصدر الأعظم ، فلم يعدْ ممكناً أن يستكملَ الاستعلام منه عن هذه المسألة ، غير أنّ إحسان بك يذكر في « مذكراته » في محل آخر ، أنّه لما كان في المابين الهمايوني في تلك المدة جاء جمال باشا إلى الأستانة ، وانعقد مجلس النظّار في المابين ، واطلع ممن حضروه على أنّه حصلت فيه مناقشة

شديدة بين جمال باشا وأنور باشا بشأني ، لأن جمالاً أصرّ على الإذن له في الإيقاع بي ، ولكنّ أنور باشا خاصمه في ذلك خصاماً شديداً ، وهذا معقول جداً نظراً لما كان بيني وبين أنور من المحبة ووحدة الحال ، ولكني أعتقدُ أنّ أنور لم يكن وحيداً في الدفاع عني ، وأنّه لا طلعت ولا خليل ولا نسيمي ولا موسى كاظم ولا أحد من النظار كان ليطلقَ اليد لجمال باشا في البطش بي . على أنّ الأخبارَ تواترت إليَّ من جملة مصادر على أنّ جمال باشا كان ينوي السوء . وأخيراً صرّح بعدَ عجزه عن الايقاع بي بأنّه لولا أنور باشا لكان أعدمني الحياة ، فقد كان قابله الدكتور أحمد فؤاد المصري ، الذي كان من كبار مأموري الأمن العام في أثناء الحرب ، ومشهورٌ بالجرأة وحرية الفكر ، ففاتحه جمال في قضيتي ، وقال له : إنني أعاكسه ، وإنني انتقدُ إجراءاته ، وأنه لولا أنور باشا لكان شنقني ، فالدكتور فؤاد لم يسكت لجمال على هذا الكلام ، بل قال له : إنّ مثل شكيب أرسلان لا يجوز التعرضُ له بأدنى سوء ، لأنّه عندما كانت سورية بأسرها تقريباً قائمة على الدولة ، كان هو وحده فيها نصيراً للدولة . فقال جمال باشا للدكتور فؤاد : إذا كان يهمُك أمرُ هذا الرجل فينبغي أن تنصحَه ، وأن تكتبَ إليه بأن يغيِّرَ خطته معي ، ويكون معي كما هو مع أنور باشا ، فالدكتور فؤاد حدّثَ بما سمعه المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ، وكان من أعزِّ أصدقائي ، فقلق الشيخ جداً لهذا الأمر ، وكنتُ حينئذ لا أزالُ في سورية ، فأرسل إليَّ الشيخ جاويش بأنْ أغادِرَ سورية بأيِّ وجهٍ كان ، وصادف أنني جئتُ بعد ذلك بقليل إلى الأستانة ، بدون أن أخبرَ جمال باشا ، ولا أن أستأذنَه ، مستنداً على كوني مبعوثاً ، وكون مجلس المبعوثين أعطى قراراً بوجوب حضوري في تلك الدورة ، وإلا أسقطُ من المبعوثية ، فلما جئتُ إلى الأستانة ، أخبرني الشيخ جاويش والدكتور فؤاد بما قاله جمال باشا ، وبما حصل لهما من المخاوف ، واستقبلني الشيخ جاويش استقبال أخٍ أمنَ على حياةِ أخيه .

أما أنا فاستقبلتُ هذه المسألة ببرودة الدم ، وبعد ذلك قدم جمال باشا قدمته التي تشاحن فيها مع أنور في مجلس النظار من أجلي ، ثم تغيرتْ الأحوال الحربية بعد بضعة أشهر ، وتقدّمَ الإنكليز في فلسطين ، وأصبحتْ أمور جمال باشا تسير إلى الوراء ، فأُقيل من قيادة الجيش في سورية ، وجاءَ إلى الأستانة ،

وانقلب يلتمس مصافاتي ، وسبحان من يغيِّرُ ولا يتغيَّرُ ، وهذه القصة قد نشرها المرحوم الشيخ جاويش في جريدة « الشورى » سنة (١٩٢٧) وكذلك الدكتور فؤاد، سأله صاحب جريدة « الشورى » عما يعرفه عن هذه الحادثة ، فأجابه تفصيلاً ، وصرّحَ له أمام الناس بأنني كنتُ وجمالَ باشا في خصام شديدٍ من أجل السياسة الشديدة التي كان اتبعها في سورية ، وأنه لو قَدِرَ عليَّ لما تأخر عن الإيقاع بي ، وقد نقل محمد علي الطاهر صاحبُ جريدة «الشورى» كلامَ الدكتور فؤاد هذا في جريدته.

ثم إنّه في سنة (١٩١٦) أرسلتْ الدولةُ من الأستانة وفداً مؤلفاً من بضعة عشر شخصاً من أعيان الأتراك وفضلائِهم وأعضاءِ مجلس الأمةِ لأجل زيارة سوريةِ، وتطييبِ خواطرِ العربِ على أثر ما وقع من جمال باشا من القتل والنفي، وكان من جملةِ أعضاءِ هذا الوفد اثنان من أعزِّ أصدقائي ، وهما صلاح جمجوز بك ، من أكابر رجال الأتراك ، ومن أشهرهم بحرية الفكر وصدق اللهجة ، وهو اليوم من أعضاء المجلس بأنقرة ، والثاني عصمت بك ابن حسين رضا باشا ، الذي كان والياً للأستانة ، وتوفي رحمه الله غريقاً في البوسفور في آخر الحرب ، فلما حضر هذا الوفدُ إلى الشام ، عقدت الحكومة حفلات ، وأقامت مآدب ، ودعت إليها أعيان الشام ، وتكلَّمَ كلٌّ من أعضاء الوفد التركي المذكور في أثناء تلك الحفلات في موضوع الوحدة العثمانية والاسلامية ، وظهر أنّ المقصود كلّه ترميمُ ما خربته سياسة جمال باشا ، واستلالُ أحقادِ العرب مما فعله جمال .

وقد طَلَبَ مني تحسين بك والي الشام أن أنظُمَ قصيدةً أتلوها في إحدى تلك المآدب ، فنظمتُ قصيدةً تلوتُها أمامَ الجمهور مطلعُها[1] :

قِفْ بينَ مُشْتَبَكِ الأغصانِ والعذب   بِأَرْضِ جَيْرُوْنَ ذاتِ الكَوْثَرِ العَذِبِ

ومنها بشأن الوفد :

في ساحةِ المَسْجِدِ الأقصى يُقالُ لهم: أهلاً ، وفي عتباتِ المُصْطَفَى العربي

وقد أشرتُ في هذه القصيدة إلى ما يجمَعُ بين العرب والترك من وحدة الإسلام ، التي ينبغي أن تسودَ على الضغائن والاختلافات فقلت :

---

(١) ديوانه : ١٢٩ .

أحبُكُم حُبَّ مَنْ يدرِي مواقِفَكُم ... في خدمةِ الدينِ والإسلامِ مِنْ حِقَبِ
أحِبُّكُم حُبَّ مَنْ يَسْعَىٰ لطيتِهِ ... في طاعةِ العقلِ لا في طاعةِ الغَضَبِ

ومنها :

وَمُذْ تَوَلَّيْتُمُ أَمْرَ الخلافةِ قَدْ ... آويتمُ مِنْ بَنِيْهَا كُلَّ مُغْتَرِبِ
لَقَدْ ضربتُم لَعَمْرِي في حياطَتِهَا ... بكلِّ سَيْفٍ رَهِيْفِ الحَدِّ ذِي شُطَبِ
فكلُّ غِرٍّ يُمارِي في فَضَائِلِكُم ... لا يَعْرِفُ الحَشَفَ البالي مِنَ الرُّطَبِ
مهما يكنْ مِنْ هَنَاتٍ بيننا فَلَنَا ... معكم على الدَّهْرِ عَهْدٌ غيرُ مُنْقَضِبِ
كَفَى الشهادةَ فيما بيننا نسباً ... إنْ لم تَكُنْ جمعتْنا وحدةُ النَّسَبِ
مَجْدِي بعثمانَ حامي مِلَّتِي ، وأنا ... لَمْ أنسَ قحطانَ أصلِي في الوَرَى وأبِي

فصفَّق الجمهورُ تصفيقاً شديداً لهذه القصيدة ، لا سيما عند ذكر قحطان ، وافتخاري بالانتساب إلى العروبة ، وسأل جمال باشا عن سبب شدة هذا التصفيق ، وكان بجانبه الشلبي إمامِ الطريقة المولوية ، وهو ممن يتقنُ العربية ، فأخبره بمعنى البيت ، وأظهر له إعجابه بالقصيدة ، فلم يرقْ ذلك لجمال باشا ، وقال : إنّ كلَّ ما جرى من الثناء على الأتراك لا يوازي ذكر قحطان أمامَ هذا الجمهور ، **وذلك أنَ جمالاً كان بغروره معتقِداً إمكانَ محو العاطفة العربية في سورية بالبطش والقتل والتشريد ، وكان مذهبُه تتريكَ الأهالي .**

وبلغني أنّه في إحدى المرار ، كان يتكلم مع قنصل النمسة ، وقد بلغه منه أنّ كثيرين من الجنود الذين ينتسبون إلى أمة التشيك قد التحقوا بالجيش الروسي ، نظراً للجامعة السلافية بين التشيك والروس ، فأخذ جمال باشا يقول لقنصل النمسة : إنّ حكومة النمسة والمجر هي المخطئة في سياستها ، وإنّ انضمام رعيتها السلاف إلى الروس نتيجة تسامحها في بلادها ، وإنه كان ينبغي أن تقوِّمَ هؤلاء السلافيين وغيرهم من العناصر التي ليست من العنصر الألماني ، وقد كان ذلك القنصل يبيِّنُ له استحالةَ هذا التحويل ، وما يفضي إليه من الثورات التي كانت لو جرت تعجِّلُ بسقوط النمسة ، فكان جمال باشا يجيبُه بأنّ هذه السياسة التي يشير إليها ممكنةٌ بالحزم والعزم ، وأنّ النمسويين يعوزهم الحزم والعزم ، **فمن هنا يعلم القارىء أنّ جمال باشا كان معتقِداً إمكانَ تتريكِ أهل**

سورية بالقوة ، حتى إنّه ثَقُلَ عليه أنْ أذكرَ أنا لفظة قحطان أمام الجمهور .

ثم إنني خلوت بصلاح جمجوز بك والمرحوم عصمت بك ، نظراً لما بيننا من الصداقة ووحدة الحال ، وبثثتُ إليهما شكواي من أعمال جمال باشا وقسوتِه ، وقلت لهما : إنّ نصحَه عقيمٌ ، لا يأتي بأدنى فائدة ، وإنّ الناسَ في المستقبل سينحون عليَّ باللائمة ، ظناً بأنني قد كنتُ قادِراً أن أُقلعه عن هذه الأعمال ، وأني لم أفعل ، وربما يتخذ الحساد ذلك وسيلةً للطعن والوقيعة بي ولو علموا الحقيقة ، فإنّ الحاسد لا تهمه الحقيقة ، وإنما تهمه فرصة التشنيع ، فلهذا أنا أريدُ الذهاب إلى الأستانة عند افتتاح المجلس ، وأرجو منهما أن يتوسّطا لي لدى جمال باشا بأن يسمح لي بالذهاب تلك المرة ، لأقوم بوظيفتي في مجلس المبعوثين ، وقد كان جمال يأبى الأذنَ لي بالذهاب إلى الأستانة ، زاعماً أنّ وجودي في سورية أثناء الحرب من ضروريات المصلحة ، وقد أبرق مرةً إلى رئاسة مجلس المبعوثين ببرقية طويلة أوسعها ثناءً وإطراءً وإطناباً بما أنا قائمٌ به من خدمة الدولة في أثناء الحرب بقلمي وحسامي ونفوذِ كلمتي . . الخ . وكان في الحقيقة إنّما يقصِدُ من منعي من الذهاب إلى الأستانة أمرين :

الأول : الاستعانة بي في تذليل المشكلات التي يصادِفُها في مهمته العسكرية ، فإذا نجح يكونُ الفضل له ، وإذا فشل يجعلني أنا مسؤولاً عنها .

والثاني : أنه كان يعلم استيائي من سياسته الشديدة ، وأنني لو كنت في الأستانة لتكلمتُ في دوائرها ، بخلاف ما يريدُ ، بل كنتُ حملت عليه حملةً منكرة ، وقد صرّح للدكتور فؤاد المصري بأنّه منعني من الذهاب إلى الأستانة من أجل ذلك .

والخلاصة أن صلاح جمجوز بك وعصمت بك لما بيني وبينها من الصداقة خَلَوَا بجمال باشا ، والتمسا منه أن يسمحَ لي بالذهاب إلى الأستانة عند افتتاح المجلس ، لأنّه قد مضت دورتان ولم أحضر جلسات المجلس ، وقالا : إنّه لا يمكن تخلُّفِي المرة الثالثة ، فجمال باشا فَهِمَ أنّي أنا قد وسطتهما في الأمر ، وأنني أريدُ التخلُصَ من البقاءِ في سورية ، ما دام هو قائداً عاماً فيها ، فقال لهما : إنني أعلمُ مقصودكما ، وأعلمُ الذي حملكما على هذه الوساطة ، وينبغي

أن تعلما أنني أحب شكيب أرسلان وأُجلُّه أكثر من كل أحدٍ هنا ، ولا أستغني عنه ، وإذا كان يقع بيني وبينه اختلاف في بعض الأمور ، فهذا من قبيل ما يقع بين الأخ وأخيه ، والأب وابنه ، وأنه مع هذا ما وقع بيني وبينه شيء ذو بال ، بل كان جُلُّ شكواي منه أنه يتوسط للخائنين ، ويشفع في الذين عندي وثائق على دسائسهم بحق الدولة ، وهو يندفعُ في هذا الأمر بسائق رقة عواطفه ، والحال أنّ السياسة شيءٌ والرأفةُ شيءٌ آخر ، وإنني مع اختلاف نظري ونظره في هذا الموضوع أنا اعترفُ بما أبداه من علو النفس في شفاعته لديَّ في أناس كنتُ تحققتُ يقيناً أنّهم كانوا ينوون قتله لو قدروا عليه ، وقد قال جمال لهم ذلك بهذا التعبير باللغة التركية : (جوق بيوكلك كوستردي) ومعناه إنّه أظهر كبارة عظيمة في هذا الأمر ، أي كبر نفس زائداً ، وقال لهم : حتى إنني قلتُ له : إنّ الذين تشفعُ أنتَ فيهم عندي أوراق ووثائق تثبت كونهم قصدوا اغتيالك . فأجابني فوراً : « آه أيها الباشا ، لو كنتَ تعلم اللذةَ التي يجدُها الانسانُ إذا تمكّنَ أن ينجيَ من القتل أناساً كانوا يريدون قتله » وهذا صحيح ، وهذه الجملة كنتُ قد قلتُها لجمال باشا في أثناء جدالٍ طويلٍ جرى بيني وبينه بشأن الذين حاكمهم في عاليه ، وقتلَ بعضَهم ، فرواها جمال باشا لصلاح جمجوز بك وعصمت بك ، وهما نقلاها في الأستانة مراراً ، ورواها صلاح جمجوز بك في غرفة الإدارة بالمجلس أمام جَمعٍ من المبعوثين ، وهو لا يزال حيّاً يرزق .

وأما ادعاء جمال أنّ بعضَ هؤلاء كانوا ينوون اغتيالي فلم أسأله عنه ، ولا اهتممتُ بمعرفة تلك الوثائق التي قال إنّها بيده ، وغايةُ ما سمعتُ أنّهم وجدوا كتابات من حقي العظم يحرِّضُ فيها على قتلي .

ومن هنا يعلم الإنسانُ درجةَ افتراء المفترين عندما ينسبون إليَّ كوني حرضتُ جمال باشا على أعماله تلك ، وأنّه كان عمل ما عمله بمعرفتي ، فكما قلتُ سابقاً : لو كنتُ نطقتُ أمامه بأدنى كلمة تفيد تحريضاً كهذا لما تأخر عن أن يقولها لرجال الدولة عندما كانوا يلومونه على شدته ، ويستشهدون بكلامي ، ثم لكان ذكرها في « مذكراته » المشهورة .

هذا ولا بد لي أن أروي أيضاً قصة أخرى عندي عليها وثيقة بخط جمال

باشا ، وقد كانت عندي وثائقُ كثيرة على ما قمتُ به في أيام الحرب الكبرى من مساعدة أبناء وطني بدون استثناء قد فُقِدَ أكثرُها بكثرة الأسفار ، وبقي كثيرٌ منها عندي ، وإنني سأنشرُ ما بقيَ من هذه الوثائق في الكتاب الذي أريدُ إخراجَه تحت اسم « البيان عما شهدتُ بالعيان وعمّن شاهدتُ من الأعيان من إعلان الدستور العثماني إلى الآن » . فأما القصةُ التي أريدُ أن أذكرها هنا فهي أنّي كنتُ مرةً عند جمال باشا في المقر العام ، وكان الشريف حسين قد رفع لواءَ الثورة على الدولة ، فالتفت نحوي جمال باشا وقال : إنّني أرى العرب راضين بالدخول تحت حماية الكفار ، وأخذ يتكلّمُ في وجوب القصاص ، زاعماً خيانة العرب ، فلم أدعه يكمل هذه الجملة حتى بادرته بالاعتراض ، ونسيتُ أنّه جمال باشا ، وأنه صاحب ذلك الجبروت المشهور ، وأنّ السيف مسلط في يده . فقلتُ له : ولماذا تقول هذا ؟ فليس الشريف حسين هو كلُّ العرب ، وأنتَ ترى هؤلاء العرب في سورية والعراق قاتلوا معكم بمئاتِ ألوفٍ من العساكر ! وأردتُ أن أكملَ الحديث ، فرأى أنّه ربما يقع بيني وبينه جدال شديد ، فنهض وتركني ، وانصرفتُ أنا منفعلاً مما سمعته ، وجلستُ في ذلك النهار ، وكتبتُ له إحدى عشرة صفحة ، عدّدْتُ له مواقف العرب في خدمة الدولة ، مما خطر ببالي تلك الساعة ، مثل ما قام به أهالي طرابلس الغرب منذ ابتدأت الغارة الإيطالية ، ومثل جهاد الإمام يحيى في جانبهم ، مع أنّه كان لهم عدوّاً ، وكانوا له أعداءً قبل الحرب العامة ، ومثل جهاد ابن الرشيد ، ومثل موقف مصر في أثناء الحرب العامة ، مما اضطر إنكلترة إلى أن ترصدَ سبعين ألف عسكري بصورة دائمة لتسكين أهالي مصر ، وغير ذلك من الشواهد ، وختمتُ كتابي ذاك بقولي له : إنّ تلك السياسة التي يسير عليها هو ليس من شأنها التقريب بين العرب والترك ، وإنّهم إنْ كانوا يعتمدون على بعض أشخاصٍ من محبي الدولة نظيري ، فإنَ هذا لا يكفي لإزالة النفور الواقع بين الأمتين ، بل يجب أن يكون نظيري مئاتٍ وألوفاً ، وأن تكونَ السياسةُ التركيةُ نحو العرب غير ما أنا مشاهده ، وذلك حتى تصفو القلوب ، وتعود الأمتان كتلة واحدة . . الخ . فلما تلقّى هذا الكتاب استشاط غضباً ، ولحظتُ غضبه من جوابه الذي كتبه إلي بخط يده قائلاً لي : « إنني قلتُ لك كلمة في موضوع خاص ، وأراكَ تريدُ أن تصرفَها عن معناها ،

وتجعلها عامةً في العرب ، وإنني أمنعُك من الكلام فيما بعدُ في هذه الموضوعات ، وأرجو منك أن تمسكَ في المستقبل عن هذه المهازل ، كأنّه يريدُ أنه يعدُّ كلامي هذا من قبيل الهزل ، والحقيقةُ أنّه كان يفهم جيّداً أهميةَ ذاك الكتاب ، وأنه جدٌّ ليس بهزل .

ولقد تحامل علي بعض من لا أخلاقَ لهم في جريدة « الأحرار » في بيروت بترجمة كتاب لجاسوس تركي زعم عمداً أنّي كنت ممالئاً لجمال باشا ، فرددتُ عليه بسلسلة مقالات في « العهد الجديد » ، ونشرتُ وثائق من جملتها هذا المكتوب ، وردَّ عليه عِدَّةُ رجال من العارفين بهذه الحوادث ، مثل حسين بك الأحدب ، وملحم بك حمادة ، من أعضاء الديوان العرفي أيّام الحرب وغيرهما .

وبعد أن جئتُ إلى الأستانة بمدة حضر جمال إليها ، فسمع بحملاتي عليه في دوائر الدولة ، فكان يحرق الأرم عليَّ ، ويتوعد ، وسمعتُ ذلك مراراً ، وما باليتُ بوعيده .

ثم إني جئتُ إلى ألمانية سنة (١٩١٧) وكان هو قد جاء قبلي بأيامٍ قلائل ، وزار إمبراطور النمسة ، ثم إمبراطور ألمانية ، فلمّا وصلت إلى برلين نزلتُ أدلون ، وهو الأوتيل الذي كان جمال نازلًا به ، فلما رآني امتقع لونُه لعلمه أنّي سأتكلَّمُ عن أعماله في دوائر برلين الرسمية ، ولم يكن مخطئاً في ظنه الذي دلّني عليه امتقاعُ لونه بمجرد ما رآني ، فإني ذكرتُ هناك وجوبَ التبديل في سورية ، وقلتُ : إنّه ما دام موجوداً فلا أملَ بإصلاح الأمور بين العرب والترك ، وقد رأيتُ الألمان في أنفسهم عارفين هذه الحقيقة ، ولكنّهم كانوا يدارونه أكثر من كل رجال تركية ، ويعتقدون في أنّه منقادٌ لهواه ، لا يثنيه شيءٌ عما يريده ، وأنّ له بعضَ الميل إلى فرنسة ، وربما كانوا قد سمعوا أشياءَ تتعلّقُ بمراسلات سرية بينه وبين الفرنسيس في أثناء الحرب نفسها[1] فكان ذلك باعثاً للألمان على

---

(١) يقال : إنّه راسل فرنسة على أن ينفصلَ عن الدولة ، ويصطلح مع الحلفاء ، على أن يجعلوه أميراً مستقلاً في الشام وفلسطين ، وأن الفرنسيس مالوا إلى هذه الفكرة لولا معارضتة الإنكليز لها ، والله أعلم . المؤلف . =

المبالغة في مداراته ، ولهذا كانوا يقولون لي : إنّهم في حالة سياسية تحملهم على الصبر على جمال باشا ، لئلا يقعوا في شرٍ أعظم ، وإنما كان يظهرُ لي أنّهم إذا لاحت لهم الفرصة لا يتأخّرون عن نصح تركية بصرفه عن القيادة العامة في سورية ، وقد وقع ذلك بالفعل إذ لما أخذت جنود الإنكليز تتقدّمُ في فلسطين ، وسقط بهذا السبب نفوذُ جمال باشا ، وافتضح عُواره ، أسرع الألمان إلى نصح تركية في الحرب في وجوب تغييره .

وقد كانت تركية طلبت منهم إرسالَ جيشٍ ألماني إلى فلسطين ، فلبوا طلبها ، وأرسلوا الجنرال فالكن هاين بشرط أن يكونَ قائداً مستقلاً عن جمال باشا ، وأن لا يبقى لجمال باشا مهمة سوى إمداد ذلك الجيش بالمؤونة ، ولما رأى جمال باشا سقوطه عن منصب القيادة إلى منصب ميرة الجيش ، وكان الإنكليز أشرفوا على أخذِ القدس بادر إلى الاستعفاء ، وقفل إلى الأستانة مخذولًا ، وانكسف لمعانُه السابق[(١)] .

نشاطي في مجلس الأمة العثماني

وهذا وبقيتُ في الأستانة [من] سنة (١٩١٧) [إلى] سنة (١٩١٨) شاغلاً منصبي في مجلس الأمة العثمانية ، لأنني كنتُ مبعوثَ حَوْران في ذلك المجلس ، ولقد كان الناسُ يراجعونني في أشغالهم من جميع أقطار سورية ، حتى الذين لا يعرفونني كانوا يراجعونني في حوائجهم بالتلغرافات والمكاتيب . وكانوا يتركون مبعوثي الجهات التي هم منها ، ويحمّلونني أنا وحدي أثقالهم ، لمعرفتهم أنني لم أكنْ أتأخَّرُ عن السعي في خدمة الناس ، وأنيّ قضيتُ معظم حياتي أخدمُ الناس مجاناً حباً بالإنسانية ، وشغفاً بإغاثة المكروبين .

وكان يأتيني كلَّ يوم من جميع أنحاء سورية برقيات متعددة ، لا تقلُّ عن

= [قلت : وقد شك في هذه الرواية ساطع الحصري في كتابه « يوم ميسلون » ص (٤٤١) ط دار الاتحاد بيروت] حسن السماحي سويدان .

(١) وعين بدلًا منه جمال باشا المرسيني المعروف بجمال باشا الصغير ، وكان على النقيض من سلفه وسميّه .

عشر برقيات في النهار الواحد ، وقد تَصِلُ إلى خمس وعشرين برقية ، هذا عدا المكاتيب المسجلة وغير المسجلة ، وجميع هؤلاء المراسلين كانت لهم أشغالٌ في أبواب الدولة ، فكنتُ أنا أراجع النظارات كلَّها لأجل هذه الأشغال .

ولما كانت مسافات الأستانة بعيدة ، لم يكن يتسنّى لي أنْ أراجِعَ كلَّ نظارةٍ في كلِّ يوم ، بل جعلتُ لكلِّ نظارة يوماً من الأسبوع ، ففي يوم الإثنين مثلاً أتوجّهُ إلى نظارة العدلية ، وفي يوم الثلاثاء إلى الصدارة العظمى ، وفي يوم الأربعاء إلى مشيخة الإسلام ، وفي يوم الخميس إلى نظارة الداخلية ، وهلم جرّا .

وكنت مخصصاً أوقات الصباح لقضاء تلك الأشغال ، وأما بعد الظهر ، فكنتُ أجيءُ إلى المجلس .

ولما كان الذين يراجعوننا بأشغالهم ينتظرون منا الأجوبة [فقد] كنتُ مضطراً إلى مجاوبتهم برقياً كما خاطبونا برقياً ، ونظراً لكثرة البرقيات ، كنتُ أنفقُ راتبي الشهري كلَّه أجرةَ برقيات ومكاتيبَ ، وربّما كنتُ أدفع فوق الراتب شيئاً من كيسي ، إلى أنْ ضجَّ أصحابي ، ونهوني عن هذا العمل ، فصرتُ فيما بعدُ أجيب على بعض البرقيات بالمكاتيب لأجل الاقتصاد ، هذا فضلاً عما كان يستلزم ترددي على النظارات من نفقات الركوب ، فكانت الأشهر الأولى من مبعوثيتي عذاباً واصباً لي .

ولما نشبت الحرب العامة تناقصت تلك الأشغال الخاصة بسبب النفير العام ، وانهماك الدولة بقضية الحرب ، وما يترتب على ذلك من تعبئة ، كما لا يخفى ، ولكن الحرب أيضاً كانت لها أشغالٌ أخرى ، وكان لا بدَّ لنا من خدمة الدولة فيها ، فأما المطالعة والكتابة في تلك المدة فلم أكن أستطيع شيئاً منهما نظراً لانهماكي بأشغال الناسِ وبأشغالِ المجلسِ وبالقضايا السياسية .

مهمة في ألمانية

وفي سنة (١٩١٧) بأوّلِ الصيفِ ، رغب إليَّ المرحوم أنور باشا أن أذهبَ إلى ألمانية ، وأستطلعَ أحوالها ، وأفيده الحقائق الراهنة هناك ، فذهبت إلى

برلين ، ونزلت في أوتيل أدلون، وهو فندق من الدرجة الأولى ، أكثرُ من ينزله الغرباء . وكتب المرحوم أنور إلى سفير الدولة في برلين إبراهيم حقي باشا بشأن مهمتي في ألمانية ، فقابلني السفير المشار إليه أحسنَ مقابلة ، وأَدَبَ لي مأدبةً حافلةً ، دعا إليها عدداً من كبّار نظارة الخارجية ، ثم إنني أَدَبْتُ للسفير ولرجال الخارجية مأدبة في أوتيل أدلون ، جمعتُ ثلاثين مدعوّاً ، وكان صديقي البارون أوبنهايم الذي عرفته قبل الحرب بعشرين سنة يقيم لي المآدب ، ويدعو إليها أصحابَهُ من أعيان الألمان وعلمائهم ، ورجال حكومتهم .

وصار الناس يتردّدون عليَّ يومياً في أوتيل أدلون ، وكانت نظارة الحربية قد نقدتني ألفاً وخمسمئة ليرة بعملة الورق لأجل نفقات الرحلة ، فما مضى شهران حتى نفدت كلها ، بسبب تردد الناس عليَّ ، وإيلام الولائم ، وكانت نظارةُ الخارجية الألمانية انتدبت البارون راين باين من كبار موظفيها لأجل أن يدعونا لسياحةٍ أطوفُ بها على عواصم ألمانية ، وذلك بقوله : إنّ ألمانية لا تنحصر في برلين ، بل كلُّ مملكة منها هي ذاتُ خصائص وميزات لا توجد في الأخرى ، فالحكومة الألمانية تدعوك إلى هذه السياحة على نفقتها ، فلم يسعني إلا إجابة هذه الدعوة ، وليس للكريم أن يأبى الكرامة . وأرسلتْ نظارةُ الخارجية مأموراً صحافياً بمعيتي ، كان يعرفني من الأستانة اسمه أوبلهوور .

فبدأنا السياحة بمدينة هامبورغ ، وهناك أقامت لنا جمهورية هامبورغ ، مأدبة ، ولم تقصّر في شيء من إكرامنا وإطلاعنا على ما في البلدة من مدارس ومتاحف ومنتزهات ، وشاهدنا أيضاً ميناء هامبورغ العظيم .

ومن هذه البلدة انتقلنا إلى كولونية ، وهي من حسنيات حواضر ألمانية ، وفيها الكنيسة الكبرى التي لا مثيل لها في العالم ، يقصدها السياح من جميع الأقطار ، فقام رئيس بلدية كولونية الهر أدِيْنَوَر بكل ما يمكن من إكرامنا والحفاوة بنا ، وكذلك طفنا على المتاحف الكثيرة التي في تلك البلدة ، وممن بالغ في الحفاوة بنا البارون ماكس أوبنهايم صديقنا المتقدم الذكر ، لأنّ بيته الأصلي هو في كولونيا ، ووكذلك بيوت إخوته وابن عمه ، وأهدانا رئيسُ البلدية جميعَ

صور مناظر كولونية ، وفي أثناء المأدبة التي أدبتها لنا البلدية تبادلنا الخطب في موضوع الاتفاق بين الأمتين الجرمانية والعثمانية .

وبعد ذلك ذهبنا إلى بلدة آخن ، وهناك شاهدنا معمل كروب الشهير ، واحتفلوا بنا كاحتفال كولونية ، لأنّ الحكومة الألمانية كانت أبرقت إلى جميع المدن التي تقرَّرَ سفرنا إليها تشيرُ بوجوب الاستقبال اللائق ، وتثنى [علينا] الثناءَ الطيب ، فلم نذهب إلى مكانٍ إلا وجدنا رئيسَ البلدية ورؤساء البلدة والأعيان والصحافيين منتظرين في المحطة .

ولنا عن هذه السياحة رسالة خاصة ربّما نطبعُها . وإنما نشير إليها الآن على وجه الإجمال ، فنقول : إننا ذهبنا من آخن إلى بروكسل ، التي كانت تحت احتلال الألمان ، وهناك احتفل بنا الوالي الألماني العام احتفالًا كبيراً ، وجعل معنا مرافقين الكونت مولتكه والبارون هونه ، فبقينا في بروكسل أسبوعاً واحداً ، ومنها ذهبنا إلى متز ، ومنها إلى ساحة الحرب ، حتى وصلنا إلى مقربةٍ من مواقع الفرنسيس .

ثم رجعنا من بلجيكة إلى ألمانية ، وذهبنا إلى فرانكفورت ، وهناك وجدنا الاحتفال نفسه ، وطفنا على متاحف البلدة والمنازه التي فيها ، ومن جملة ما رأينا فيها بيت غوته شاعر الألمان الأكبر ، ولما قدّموا لنا الدفتر الذي تكتب فيه أسماء الزائرين بحسب العادة كتبنا هذه الأبيات مع تضمين البيت الأخير وهي :

مُذْ قِيْلَ هذا بَيْتُ (غوتا) زُرْتُهُ ... إذ كـانَ للشّعـراءِ كعبـةَ قـاصـدِ
هــذا أميــرُ الشِّعْــرِ عنــدَ قَبِيْلِــهِ ... مِنْـهُ بِجِيْـدِ الـدَّهْـرِ عِقْـدُ فـرائـدِ
طَأْطَأْتُ رأسَ قَرِيْحَتِي في بابِهِ ... ولَكَـمْ رَأَتْ عتبـاتُـه مِـنْ سـاجِـدِ
إنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أُسْرَتي وعَشِيْرَتي ... فـالنَّـاسُ فـي الآدابِ أمـةُ واحـدِ
(أَوفـاتَنَـا نَسَـبٌ يُـؤَلِّـفُ بيننـا ... أدبٌ أقمنـاهُ مَقَـامَ الـوالِـدِ)

وبعدَ أن كتبتُ هذه الأبيات استدعتْ البلديةُ الأستاذ المستشرق المشهور

هورفتز ، وقد كان مدرساً للغة العربية في [جامعة] علي كره[1] ، وسبقت له ترجمة شعر عربي كثير،من جملته ديوان الكُميت ، فترجمَ هذه الأبيات إلى الألمانية ، ونشرها في الجرائد ، وجعل لها مقدمة تكلَّمَ فيها عن زيارتي لألمانية ، وأطراني بما يزيدُ كثيراً على الحقيقة ، وجعل عنوان مقالته « تكريمُ شاعر الشرق لشاعرِ الغربِ » وتناقلت ذلك الصحفُ الألمانية .

ثم إنّني زرتُ ميونخ ، وهناك احتفلوا بي كما في سائر العواصم ، وأَدَبت لي البلديةُ مأدبةً جمعت خمسين أو ستين شخصاً من أعيان ميونخ ، وألقيت فيها الخطب .

محاضرتي عن المجاعة في سورية

وكانوا قد طلبوا مني محاضرة ألقيها في المساء ، فأجبتُ طلبهم ، وجعلتُ موضوعَ المحاضرة المجاعة التي عضَّتْ سورية بأنيابها في أيّامِ الحرب بسبب سدّ دول الحلفاء جميعَ الطرق البحرية على سورية ، وكون غَلّةِ سورية وحدَها لا تكفي أهلها ، لا سيّما والزمانُ زمانُ حرب .

وقد سمع هذه المحاضرة نحواً من خمسمئة شخص من أعيان البلدة ورجال السياسة والصحافيين ، وجاء أيضاً ملك بافارية ، وسلم عليَّ ، وتحادثنا قبل المحاضرة بضعَ دقائق ، ثم سمع المحاضرة إلى آخرها ، ولما انتهيتُ منها ، نهضَ وصافحني ، وشكر لي ما قلتُه .

وثاني يوم التمس مني الدكتور كمريخ قنصل تركية في ميونخ أن أكتبَ تقريراً عن حالة المجاعة في سورية ، حتى يرسلوه إلى البابا ، فقد كنتُ ذكرتُ في محاضرتي أننا سعينا باستجلاب أرزاقٍ من الخارج بواسطة الجميعات الخيرية ، وبواسطة الفاتيكان ، وبواسطة ملك إسبانية ، وتكلمنا مع أنور باشا في هذا الشأن ، واستدعى هو القاصد البابوي المقيم بالأستانة ، والتمس منه أن يكتبَ إلى البابا بأنّه إذا تمكن من إيصالِ أرزاق وحوائج إلى سورية ، فإنّ أنور باشا

---

(1) في الهند ، وعلي كره اختصار لكلمة علي كرم الله وجهه .

يتعهّدُ بدفع ثمنها من نظارة الحربية ، فلا يتكلّفُ البابا شيئاً من كيسه ، ثم إنّه إذا كانوا يخشون من أنّ هذه الأرزاق وهذه الحوائج تتصرف بها الحكومة العثمانية ، فإنّ الحكومة المشار إليها تتعهد بأن لا تمس شيئاً منها ، وأن تتركَ أمر توزيعها على الأهالي للرؤساء الروحانيين ، أو لمن شاء حضرة البابا أن يعينهم أمناء على التوزيع ، وأنّ القاصد البابوي كتب إلى الفاتيكان بما اقترحه أنور باشا ، ولم يرد جواب ، ثم راجع أنورُ باشا القاصد قائلاً له : إننا نخشى أن تقولوا في يوم من الأيام إننا قصرنا في إغاثة المسيحيين ، وإننا لم نكفلْ لهم أرزاقهم ، والحال أنّ المجاعة عامة في سورية ، ونحنُ لا يمكننا أن نقومَ بميرةِ الأهالي معاً ، فلذلك جئنا نخبركم بالواقع من الآن ، حتى تعملوا جهدكم لأجل إغاثة المسيحيين على الأقل ، **فإنّ الحصار البحري الذي يقوم به الحلفاء على سواحل سورية هو السببُ في هذه المجاعة** . فلو سعى حضرة البابا لدى دول الحلفاء لأجل فك الحصار البحري ، وإرسال باخرة واحدة كلَّ شهر ، لأمكن إنقاذ عشرات ألوفٍ من المسيحيين من الموت جوعاً ، وهكذا يستفيدُ المسلمون أيضاً ، لأنّ القليل الذي يتوزع على الجميع يصيرُ أوفر من ذي قبل ، كلُّ هذه القصة ذكرتُها في محاضرتي أمامَ ملك بافارية وأعيان ميونخ ، ونشرتْها الجرائد .

دور الحلفاء في مجاعة لبنان

وذكرت أيضاً أنّ السوريين الذين في أمريكة كانوا أرسلوا باخرتين مشحونتين أرزاقاً وملابسَ إعانةٍ للجياع والبائسين من أهل سورية ، ولا سيّما أهل لبنان ، وهاتان الباخرتان جاءتا إلى الشرق ، ولما وصلتا إلى الإسكندرية قاصدتين بيروت ، منعتهما السلطة الإنكليزية من السفر .

وبعد أنّ وصل الخبرُ إلى بيروت ، واستبشر الناس ، وظنوا [أن] المجاعة قد انتهت ، شاع أنّ الباخرتين توقفتا في ميناء الإسكندرية ، وذلك بسبب الخلاف بين الحكومتين العثمانية والأميركية على كيفية توزيع هذه الإعانات ، فعند ذلك ، ونظراً لكوني مبعوث الأمة ، جئتُ إلى الأستانة ، وتكلمتُ مع طلعت باشا الصدر الأعظم ، حتى لا تبدي الحكومة العثمانية أقلَّ تصعيبٍ في

كيفية التوزيع ، وتترك لقنصل أميركة في بيروت أن يوزّعَ الإعانةَ بحسب معرفته ، حيث إنّ الأهالي في ضنكٍ عظيم ، والفقراء يموتون من الجوع ، فأجابني طلعت باشا إلى كلِّ ما طلبتُ ، وأعطاني كتاباً إلى سفير أميركة ، أخذتُه إليه ، وناولته إياه بيدي ، وهذا السفير كنت قد قابلته ، وزعم أنّ سبب تعويق مجيء الباخرتين لم يكن من الإنكليز ، بل من الحكومة العثمانية ، لأنها أرادت أن تستولي على تلك الأرزاق ، فلما عدتُ إليه وبيدي من طلعت باشا المكتوب الذي تفوِّضُ فيه الحكومةُ العثمانية قضيةَ توزيع الأرزاق إلى قنصل أمريكة في بيروت ، انقطعت حجته ، وأخذ يلوك أعذاراً أخرى لا طائلَ تحتها ، وكان هذا السفير يهودياً أميركياً ، إلا أنّه كان خادماً لسياسة إنكلترة ، وكانت إنكلترة هي التي تلتزم حصار سورية ، ومنع الأرزاق عنها ، حتى يضجَّ الأهالي ، وينحازوا إلى الإنكليز ، فهذا السفير الخبيث أجابني بخلاف ما كان زَعَمَه في أول جلسة بيني وبينه ، فقد كان جعل السبب في عدم مجيء الباخرتين إلى بيروت عناد الدولة العثمانية في قضية التوزيع ، فلما أتيناه بذلك المكتوب من الصدر الأعظم زعم أنّ هذه المسألة لا يمكن بعد أن دخلت أميركة في الحرب ، فقلتُ له : إنّ أميركة لم تشهر الحرب على تركية ، بل على ألمانية وحدها ، ثم على فرض أنها أشهرت الحربَ على تركية ، فهذه المسألة مسألة إنسانية محضة ، لا تعلُّقَ لها بالحروب ، فإذا أرادت أميركة ودول الحلفاء إنقاذَ أهالي سورية من الموت جوعاً ، فإنهنّ يتفاوُضن مع تركية وألمانية ، ويتفقن على إيجاد طريقة لأجل إغاثة الجياع من أهل سورية بالقوت الضروري ، بدون أن يتحوّلَ شيءٌ من هذا المقدار المخصص للجياع إلى الجيش العثماني ، أفلا ترى أنّه عندما احتل الألمان بلجيكة ، ووضعوا أيديهم على غلال أراضي هذه المملكة ، وقالوا للحلفاء : نحن لا نعطي الأهالي هنا إلا فضلة الرزق اللازم لعسكرنا ، فاتفق الحلفاء أنفسُهم مع ألمانية على تأليف لجنة محايدة من إسبانيول وهولنديين وغيرهم ، وقامت هذه اللجنة بميرة الأمة البلجيكية إلى أن انتهت الحرب ، وهكذا لم تصب البلجيكيين أدنى ضائقة في معيشتهم ، فإذا كان الحلفاء ومعهم أميركة يهتمون بأهالي سورية وبالمسيحيين منهم خاصة ، كما يهتمون بأهالي بلجيكة ، فمثل هذا الاتفاق بينهم وبين تركية سهل جداً ، وإن لم يكونوا يفعلونه

فلا يكونُ عندَهم أدنى اهتمام بحياة أهالي سورية ، المسلمون في ذلك والمسيحيون سواء .

فالسفير الأميركي الذي لم يكن يريد إلا خدمة مآرب إنكلترة شرع يبرىءُ الحلفاءَ وأميركة من تبعة تجويع السوريين ، وزعم أنّ عدم مجيء الباخرتين من الإسكندرية إلى بيروت إنما هو ناشىء عن خوف بطش الغواصات الألمانية بهاتين الباخرتين ، فقلت له : إننا حاضرون لأخذ الأوامر اللازمة من الحكومة الألمانية بعدم تعرّض غواصاتها لتينك الباخرتين ، وذهبت إلى سفير ألمانية ، وذاكرتُه في الموضوع ، وكان هذا السفير هو الدكتور كولمان ، الذي صار فيما بعد ناظراً للخارجية ، فلما ذكرتُ له الموضوع سار بي إلى غرفة الملحق البحري في السفارة ، وكان اسمه الكابتن هومان ـ وصار بعد الحرب رئيساً لتحرير جريدة « الدويتش الجيمين تسيتونج » وبقيت الصحبة بيني وبينه منذ ذاك الوقت إلى أن توفيَ في السنة الماضية ـ فأفهمتُه القضيةُ ، وطلبت منه أن يكتبَ إلى قيادة الجيش في ألمانية لتعطي الأوامر اللازمة إلى الغواصات حتى لا يقع منهنَّ شيءٌ على البواخر الآتية بالأرزاق لمعونة أهل سورية ، فكتب هومان إلى ألمانية ، وبعد أيامٍ قلائلَ بعث إليَّ حتى أجيءَ إلى السفارة ، وأعطاني صورة الأوامر الصادرة حتى أبلغَ سفيرَ أميركة ، ففي الحال ذهبتُ إلى هذا السفير ، وأطلعتُه على صورة الأوامر ، وطلبت منه أن يبرقَ إلى مصر حتى يطلق الإنكليزُ سراح الباخرتين ، فاعتل ثالث مرة بأنّه يريدُ أوامر أيضاً لغواصات النمسة ، التي يخشى منها أن تغرِقَ البواخر ، ومع أنّه لم يكن غواصات للنمسة جائلة في غير بحر الأدرياتيك ، ذهبت وتكلّمت مع سفارة ألمانية ، وهي حصلت من جهة النمسة على الأوامر نفسها ، وأبلغتنا صورةَ الأوامر ، فجئنا إلى السفير ، وكانت هي المرة الخامسة التي قصدتُه بها ، فوجدته لا يزال يعتلّ بعللٍ فارغة ، فاسمعتُه كلاماً لا يرضيه ، بعد أن علمتُ عدم استقامتِه ، وقلتُ له : قد ظهر لي صحة ما قاله لي طلعت باشا من أول الأمر ، وهو أنّ الإنكليز لا يريدونَ توزيع هذه الأرزاقِ في سورية لأغراضٍ سياسية ، وأنّك أنتَ تخدم سياسةَ الإنكليز ، ولا تهمك الإنسانية بوجه من الوجوه ، وتركتُه وانصرفتُ .

ولما سافرتُ إلى أميركة ، علمت أنّ هذا السفير واسمه الكوس ، لا يزال حيّاً ، فأردتُ تذكيرَه بهذه الحادثة ، وذهبتُ ومعي الأديب حبيب كاتبة ، وزرته في مكتبه في نيويورك ، لأنّه خرج من الحكومة ، وصار يتعاطى المحاماة ، فلما دخلتُ عليه ، وسألته أن يتذكَّرَ زياراتي له المتتابعة لأجل فك العقال عن الباخرتين المشحونتين رزقاً لأهل سورية ، واللتين منعَ الإنكليزُ وصولهما إلى ميناء بيروت ، أبلسَ وتحيّرَ ، ووضع رأسه في الأرض ، وزعم أنّه لا يتذكَّرُ ذلك ، وظهر لنا أنّه كان قد خَدَعَ حكومتَه ، وكتب لها أشياءَ غير صحيحة عن طلب الحكومة التركية توزيعَ الأرزاق عن يدها ، فلما جئتُ أنا بنفسي إلى أميركة سنة (١٩٢٧) خاف أن أفضحَ عمله الذي اطلعتُ عليه في الأستانة ، وأن أوقعه في المسؤولية تجاه حكومته ، فلاذ بالإنكار البحت ، ولكنه لم يكن يجرؤ أن يرفعَ نظره نحوي ، فلحظ ذلك حبيب كاتبة ، وقال لي : هذا الرجل ظهر أنه يعرف نفسه مسؤولًا ، فلا يمكن أن يعترفَ بأنك سعيتَ عنده بفك عقال البواخر ، وأنّك ذهبتَ إليه خمسَ مرات لأجل هذه المصلحة ، وأنه لم يروجها .

فانصرفنا من عنده ، ونحن نأسَفُ مِنْ أنّ حكومة كحكومة أميركة تستخدم في منصب سياسي مهم رجلاً منحطاً إلى هذا الحد ، وبعد ذلك تلفنَ إلى حبيب كاتبة قائلاً له : إنّه بينما كان يبحثُ في أوراقه وجد ورقة استدل منها على أنّي زرته في الأستانة مرة واحدة ، ولا يتذكر سبب هذه الزيارة !

وبالاختصار ظهر من سياق هذا الحديث الذي رويتُه من قبلُ في الجرائد العربية أنّ دول الحلفاء اللائي يزعمن العطفَ على أهل سورية ، ولا سيما على المسيحيين منهم ، هنّ المسؤولات عن موت عشرات ألوفٍ منهم بالجوع ، وهنّ اللائي منعنَ وصول الأرزاق التي أرسلت من أميركة إلى الشرق لتوزيعها [على الأهالي] في سواحل سورية ، ولو كانت هذه الدول أرادت الخير لأهالي سورية بل للمسيحيين الذين تزعم هذه الدول أنّها تحافِظُ عليهم ، لكانت اتفقت مع تركية على ميرتهم ، كما اتفقت مع ألمانية على ميرة أهل بلجيكة ، وكان هكذا جرى إنقاذُ مئات ألوف من الموت في سورية ، لأنّ المجاعة مع الأمراض التي نشأت

عن الفقر ، وفقد الوسائل اللازمة للحياة ، قد جرفت مئات ألوفٍ من السوريين .

ومما يدل أوضح الدلالة على كون هذه الدول هي المسؤولة عن تلك المصائب ، وليست تركية ولا ألمانية هو أنّه قد كان السوريون في مصر جمعوا حينئذ إعانات لأبناء وطنهم ، وأرادوا إرسالها إليهم ، فحالت السلطة الإنكليزية دونَ إجراء هذا الطلب ، ولم تسمحْ لهم بتوزيع هذه الإعانات إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وعند ذلك جاء رفيق بك العظم وميشيل بك لطف الله إلى سورية ، ووزعا الإعانات ، وهذا ما اعترف لي به ميشيل بك لطف الله ، فأيُّ دليل أوضح من هذا ، على أنّ المانع كان من دول الحلفاء لا من الدول الأخرى ؟

ومن الغريب أنّ المسيحيين إلا ما ندر لا يعرفون هذه الحقيقة ، ولا يريدونَ أن يعرفوها ، ولا يزال الكثيرون منهم يعتقدون أنّ سبب المجاعة قد كان تعمد تركية عدم إعاشتهم ، وأنّه كان في وسعها أن تميرهم ، ولم تفعل .

وعلى كل حال لا تجدهم ـ إلا أفراد قلائل لا تخفى عنهم الحقائق ـ مؤاخذين فرنسة ولا إنكلترة على الحصار البحري الذي شدّدتاه هاتان الدولتان على سورية ، ولا على عدم سماحها لأميركة بإيصال الأرزاق إلى المحل الذي أُرسلتْ إليه ، ولا على عدم معاملة السوريين كمعاملة البلجيكيين الذين اتفقت الدول على ميرتهم برضى الفريقين المتحاربين . كلا بل نجدُهم يعتقدون في أولئك الذين كانوا السبب الوحيد في تجويع سورية أحسنَ الاعتقاد ، ولا يوجهون إليهم في هذا الموضوع أدنى انتقاد ، وحبُّك الشيء يعمي ويصم .

دليل آخر على مسؤولية الحلفاء عن المجاعة

وعندنا دليل آخر لا يقبل المكابرة على مسؤولية دول الحلفاء عن هذه المجاعة ، وذلك أنني عندما ألقيتُ تلك المحاضرة في ميونخ ، وذكرتُ ما أصيبَ به السوريون أثناء الحرب ، وشرحتُ المسألة بجميع صفحاتها ، وأوضحتُ كونَ المجاعة إنما نشأت عن الحصار البحري ، وأنّ الحصار البحري إنما جاء من قبل دول الحلفاء ، وأنّه لا يرجى غوث السوريين إلا عن طريق جمعيات الصليب الأحمر ، ولا سيما عن طريق الفاتيكان كما تقدم الكلام عليه ـ

جاءني الدكتور كمريخ قنصل تركية ، وأرادني على تقديم تقرير بالواقع إلى البابا ، ففي الحال كتبتُ تقريراً وصفتُ به الحالة التي تفتتُ الأكبادَ ، والتي يخشى منها أن يأتيَ الموتُ على أكثر السوريين إذا استمرت ، وقلت في هذا التقرير : إننا نحن المسلمين حاضرون لنجدة إخواننا المسيحيين بكل الوسائل ، وإنّ مسلمي البلاد الداخلية من سورية قد أغاثوا المسيحيين الذين التجأوا إليهم ، ولم يفرقوهم عن أنفسهم ، ولكن الفقر عمَّ الجميع ، وأصبح كلُّ إنسانٍ مشغولاً بنفسه وأولاده ، وأكثر اشتداد الأزمة إنما وقع في سواحل سورية ، لعدم وجود الأراضي الواسعة التي تخرج منها الحبوب ، فنحن نتعهد للحضرة البابوية بأنّه إذا وردت إعانات لمسيحيي سورية ولبنان لا نشاطر فيها إلا بالمقدار الذي تسمح به الحضرة البابوية ، وإن أرادت حصر هذه الإعانة في المسيحيين فإننا نشكرها عليها ، ولا نمدُّ اليد إليها ، وإذا كان البابا لا يغيثُ المسيحيين الشرقيين في أزمةٍ كهذه ، فلا نعلم في أي وقتٍ يحتاجون إليه أكثر من احتياجهم في هذا الوقت ؟

وبعد أن رجعتُ إلى برلين ، وبينما أنا في أوتيل أدلون ، إذ جاءني مكتوبٌ من الهر كمريخ يخبرُني فيه بأنّ الجواب من الحضرة البابوية قد ورد إلى القاصد البابوي في ميونخ ، وهو ينقل لي العبارات المهمة التي في هذا المكتوب ، ويجعل هذه العبارات بين قوسين وهي : « إنّ الحَبْرَ الأعظم لم ينس ولن ينسى مسيحيي سورية ، وإنه قد سعى مراراً لإغاثتهم ، وبأخذ الرخصة من الحلفاء لأجل إرسال الأرزاق التي تخفِّفُ من أزمتهم ، ولكن إنكلترة حالتْ دون إجراء رغبته هذه ، ولذلك قَلْبُ قداستهِ مجروحٌ من عمل إنكلترة هذا ، وسيعلم المسيحيون في الشرق فيما بعدُ أنّ الحَبْرَ الأعظم لم يهملهم » .

هذا المكتوب له أهمية لا تنكر ، وإنْ لم يكن من الفاتيكان إليَّ رأساً ، فإنّ الشاهد الهر كمريخ هو الذي يكتب إلي ، وينقل العبارات الواردة من الفاتيكان إلى القاصد البابوي في ميونخ .

وبعد ورود هذا المكتوب بقليل قصدتُ العودة إلى الأستانة ، ووضعتُ المكاتيب المهمة التي كانتْ عندي في ظرفٍ ، وأبقيتُه على مائدة الكتابة في

غرفتي في أوتيل أدلون ، وفي أثناء غيابي حضر أحد أولاد الأمراء من العرب ، وكان يطلبُ العلم في برلين ، وطرأ على عقله خل ، فدخل إلى غرفتي ، ووجد هذا الظرف ، وذهب به ، ولما رجعت وفقدته بحثت كثيراً فلم أعرف الذي سرق هذا الظرف إلا بعد أن رجعتُ إلى الأستانة ، وذلك أنّ عبد الرحمن بك عزام[1] ـ أحد النواب في مصر الآن كان وقتئذ في برلين ـ علم من إقرار الأمير الذي أُصيب بالخبل أنّه هو الذي أخذَ الظرف بما فيه من الأوراق ، ولو كان ذلك المكتوب لا يزال بيدي لأوردتُ صورته هنا .

وبقيتُ في برلين إلى أواخر سنة (١٩١٨) وكان سقوط القدس الشريف في يد الجيش الإنكليزي أثناء وجودي في برلين ، فبقيتُ أياماً لا أعي من الغَمِّ لذهاب هذا البلد المقدس من يد الإسلام بعد أنْ بذلَ المسلمون ما بذلوا من دماءٍ وأموالٍ حتى استخلصوه من أيدي الصليبيين .

انتهاء الحرب العامة[2]

إنه لما أخلى الجيشُ البلغاري جبهةَ الحرب أواخر صيف عام (١٩١٨) طلب البلغارُ الصلحَ من الحلفاء ، وتقدمت جيوشُ هؤلاء نحو البلقان بالغةً خمسمئة ألف مقاتل ـ سقط في يد دولة النمسة والمجر ، فأسرعت أيضاً بطلب الصلح ، وبلغ ذلك تركية ، فخافت أن يتحول جانب من تلك الجيوش على الأستانة ، فأخذ أنور باشا ناظرُ الحربية يحشِدُ من بقي من العساكر للدفاع عن العاصمة واسترجَعَ إليها أكثرَ العسكر الذي كان أرسله إلى القوقاز ، وفتح به باكو وبلاد أذربيجان ، وكان من رأيه المقاومة والبقاء بجانب ألمانية إلى أن يتيسَّر صلحٌ خفيفُ الوطأةِ على الأقل ، ولكنّ انهيار الجبهة البلغارية ، ثم النمسوية ، واستيلاء الوهل[3] على القلوب ، واعتقاد معظم الأتراك ؛ بل معظم الناس

---

(١) أول أمين عام للجامعة العربية توفي عام (١٩٧٦) .

(٢) الحديث عن انتهاء الحرب ومصير قادة الاتحاد والترقي مأخوذ من حواشي «حاضر العالم الإسلامي» (٤ : ٣٦٤ ـ ٣٩٣) .

(٣) الدهشة .

يومئذ ؛ أنّ الصلح سينعقد على موجب برنامج ويلسون[1] ، فتبقى كل أمةٍ مالكةً للبلاد التي أكثرُ سكانها هم منها ، كل ذلك أحبطَ مساعي أنور اشا في الاستمرار في المقاومة ، ومال الرأي العام حتى من الاتحاديين أنفسِهم إلى طلب الهدنة ، فاستعفت وزارة المشير أحمد عزت باشا الأرناؤوطي ، ومعه رؤوف بك ناظر البحرية ، وفتحي بك ناظر الداخلية ، والتمس الباب العالي الهدنة ، وكان السلطان وحيد الدين محمد السادس من قبلُ كارهاً للحرب ، راغباً في عقد الصلح ، فحمل حكومتَه على إتمام ذلك بأسرع ما يمكن ، فأنفذت الوزارةُ الجديدة وفداً فيه رؤوف بك إلى جزيرة مودورس أمام الدردنيل ، لعقد المتاركة[2] مع الإنكليز ، وانعقدت حينئذٍ على شرائط ظهرتْ ثقيلةً جداً في أول الأمر ، لكنّها صارت خفيفةً جداً فيما بعدُ ، عندما دخل الحلفاء الأستانة واحتلوا البلاد ، وصارت تركية تعد نفسها سعيدة فيما لو بقي الحلفاء على شروط مودورس بعينها ، وظهر لها أنّ الحلفاء نسوا كل ما كانوا وعدوا به أثناء الحرب ، وما تعهّدوا به في نص المتاركة ، وأنّ برنامج ويلسون صار نسياً منسياً ، وكان من جملة ما قرّره الاتحاديون أثناء الهدنة برأي رئيسهم طلعت باشا إلغاء جمعية الاتحاد والترقي ، وتأليف حزب جديد اسمه تجدُّدُ ، وكان ذلك من جملة فنون طلعت لأجل حفظ كيان الاتحاديين السياسي ، بدون إبقاء الاسم الذي كان من شأنه تنفيرُ الدول الغالبة ، وتجفل الرأي العام في ذلك الوقت ، وكان مرادُهم اعتزالَ الحكومة مؤقتاً إلى أن تكون انتهت تلك الأزمة .

هروب زعماء الاتحاديين ومصيرهم

وانعقد الصلحُ على وجهٍ من الوجوه ، ولكن لمّا قارب أجلُ دخول الحلفاء إلى البوسفور ، واستيلائهم على الطرق برّاً وبحراً ، جاء من أنبأهم بأنّ السلطان وحيد الدين ـ الذي كان في الأصل ناقماً عليهم يتربّصُ بهم الدوائر ـ قد يتفق مع الإنكليز ، فيلقي القبض عليهم ، وقد يحاكمون ، ويصلَبُون ، بحجة قتل

---

(١) الرئيس الأمريكي آنذاك .

(٢) الهدنة .

الأرمن وما أشبه ذلك . فعقدوا اجتماعاً في بيت أنور حضره أركان جمعية الاتحاد والترقي ، والذين كان بأيديهم الزمامُ عند نهاية الحرب ، وبعد المذاكرة الطويلة ، عزم منهم ثمانية نفر على الهجرة ، وهم الذين كان عليهم أكثر سخط الحلفاء : طلعت ، وأنور ، وجمال ، وعزمي والي بيروت الأسبق ، وبدري مدير البوليس الأسبق ، والدكتور ناظم ، وبهاء الدين شاكر ، ومدحت شكري ناموس جمعية الاتحاد والترقي ، وكان هذا صديقاً حميماً لطلعت ، وألصق الناس به ، فلحظ طلعت منه أنّه في نفسِه لا يميلُ إلى السفر ، وإنما أراد أن يرافقه حباً ووفاءً ، فقال له : « إنْ كنتَ لا ترغَبُ في الباطن في هذه الهجرة فلا تفعل ذلك من أجلي » . فبقي مدحت شكري بك في الأستانة ، وسافر السبعة الآخرون على نسافة ألمانية ، جاعلين وجهتهم القرم ، ووقع ذلك في أوائل نوفمبر ـ تشرين الثاني سنة (١٩١٨) وبلغني من أحدِهم أنّهم في الطريق تذاكروا فيما يجب أن يعملوه بعد هذه الطامة الكبرى التي حاقت بهم ، وبالأمة العثمانية بسببهم ، إذ كانوا لا يشكّون في الأهوال التي ستبطش بالأتراك وسائر المسلمين على أثر هذه الدائرة العظمى التي دارت على ألمانية وحلفائها ، فذهب أنور إلى أنّه يجب أن ينضمّوا إلى البلاشفة ، ويثيروا تركستان ، والقوقاز ، ولا يفتأوا يقاتلون حتى يأتي الله بالفرج أو يموتوا .

فخالفَهُ طلعت في هذا الرأي وقال : « نحن قوم قد انتهت حياتُنا السياسية ، واستحققنا غضبَ الأمة ، سواء كان ذلك بحق أو بغير حق ، فأقصرُ الطرقِ أمامَنا هو أن نذهبَ إلى أوروبة ، ونقبع في زوايا العُزْلةِ ، ولا نأتي بأدنى حركة ، ولا نطمع في شيءٍ ، بل ننظر إلى ما يأتي به الدهر ، فإن لاحت لنا فرصة بعد مرور الأيام اهتبلناها ، ولكنّنا في الوقت الحاضر لا يليقُ بنا إلا الانزواء والاعتزال ، فقد أردنا أن ننقذَ أمتنا ، ونقي وطنَنا ، فلم يسعفنا القدر ، فلنتركْ هذا الأمر لغيرنا .

ويظهر أنّ الباقين أجمعوا على رأي طلعت ، وما زالوا يدوكون في ذلك طول الطريق حتى نزلوا ببر القرم . وكانت الجنود الألمانية محتلة تلك البلاد ، فهيّأوا لهم قطاراً ساروا به قاصدين ألمانية ، فوصلوا إلى محطةٍ كان لا بدّ لهم أن

يبيتوا فيها ، فلما أصبحوا لم يجدوا أنور بينهم ، وعلموا أنه استقل قطاراً يأخذُه إلى الشرق ، مصمماً على ما كان اعتزمه من الاستمرار على المقاومة . وكانتْ وجهةُ أنور القوقاز ، حيث كان أخوه نوري ، ومعه طائفةٌ صالحة من الجند ، وكان يؤمِّلُ إثارةَ المسلمين الذين في أذربيجان وفي الطاغستان .

وقد قال لي عزمي بك والي بيروت : « لو كاشفني أنور بما في نفسه من الانفصال عنا ذاهباً إلى القوقاز لرافقتُه ، ولكننا أصبحنا فوجدناه قد مضى » .

وأما الستة الباقون فجاءوا إلى ألمانية كما سيأتي خبرُ ذلك في محله .

مصير أنور باشا

وأما أنور فبعد أن سار مسافةً في البر ، وصل إلى مرسى من مراسي القرم ، ولمّا لم تكن هناك بواخر ولا سفن شراعية كبيرة ، استقلّ قارباً بقلع صغير ، وسار به قاصداً القوقاز ومعه خدمه ، وفي أثناء الطريق ، ثار البحرُ ، وكاد يقلد[١] عليهم ، بحيث اضطروا لصِغَرِ الفُلك أن يقذِفوا في اليمِّ جميعَ الحقائب التي كانت معهم ، ورجعوا أدراجهم إلى ساحل القرم ، فنزل أنور ملتاثَ المزاج مما أصابه من الريح والبرد والمطر ، وبقي متخبئاً في تلك البلاد إلى أن أبلَّ من ذاتِ الرئة التي حصلتْ له ، فجاء أولّاً إلى ألمانية ، لم يعلم به أحدٌ إلا اثنان أو ثلاثة ، بل عمّس[٢] خبرَه حتى عن رفاقه طلعت وجمال وعزمي الخ . وكان أنور كتّامةٌ ، لا يوجَدُ أقدر منه على إخفاء ما في نفسه ، وكتم حركته ، وذلك بخلاف طلعت ، الذي وإن كان أدهى من أنور ، وأعلى كعباً منه في السياسة ، فقد كان فاووهةً ، يبيحُ كلَّ ما في نفسه .

وبقي أنور متخبئاً تارة ببرلين ، وطوراً بإحدى المزارع في أرباضِها ، طلع سنة[٣] ، والناسُ لا يعلمون من أمرِه شيئاً وثيقاً ، والجرائدُ الإنكليزية تكتُبُ أنّه

---

(١) [يقلدهم : يغرقهم] .

(٢) [أخفى] .

(٣) مدة عام .

ظهر في القوقاز ، وأحياناً أنه في التركستان ، وآونة أنّه في كردستان ، وغير ذلك ، وهو في الحقيقة في ألمانية لم يبرحها بعدُ ، إلى أن جاء رادك الزعيم البولشفيكي المشهور إلى برلين ، فعرف به أنور وطلعت ، وتلاقيا معه ، وأجمعا على الحركة مع البولشفيكي ، ولما كانت الطرق يومئذٍ بين ألمانية وروسية مسدودة ، استصحب أنور الدكتور بهاء الدين شاكر ، واستقلا طيارةً قاصدَيْنِ روسية ، فقبل أن يصل بهما ربان الطيارة إلى روسية ضَلَّ الحدودَ ، ونزل بهما إلى الأرض ، ظنّاً بأنّه نازلٌ بأرض روسية ، فإذا بهم نزلوا بأرض لتوانية ، وكان الحلفاءُ وقتئذٍ مسيطرين على كل تلك الديار ، فقبضت الحكومة المحلية عليهم ، وأوقفتهم ، فادّعى بهاء الدين شاكر أنّه طبيبٌ ذاهب إلى روسية من قِبَلِ الهلال الأحمر العثماني لمعالجة أسرى الأتراك ، وقال أنور : إنّه ممرِّضٌ من مستخدمي الهلال الأحمر ، فعرّف أولو الأمرِ في لتوانية عنهما المؤتمر الذي كان منعقداً بباريز ، فورد الجواب من المسيو كليمنصو رئيس المؤتمر بأن يأخذوا صورتيهما بالفوتوغراف ، ويرسلوا ذلك إلى باريز ، فأخذوا الصور والأجوبةَ التي جاوباها ، واعتقلوهما ، منتظرين ورودَ الجواب من كليمنصو .

وفي أثناء ذلك كان أنور بعثَ إلى الألمان يخبرُهم بما وقع معه ، وكان قسمٌ من العساكر الألمانية لا يزالُ محتلاً بلاد البلطيق ، فأجابوه بأنّهم يرسلون إليه طيارةً يمكنُه أن يفرَّ بها مع رفيقه ، وعينوا لهما المكان والزمان ، وكان أنور وبهاء الدين شاكر يخرجان كل يومٍ للنزهةِ بعد الظهر بخفارة شرطي مسلح ، فلما كان اليوم المعين ، خرجا على عادتهما للنزهة ، وتوجها إلى المكان الذي ستأتي إليه الطائرةُ بحسب تعريف الألمان سرّاً ، فأبطأت الطيارة في الوصول ، حتى كادا يقطعان الأمل من مجيئها ذلك النهار ويرجعان ، وإذا بها قد ظهرتْ في الجو ، ثم أسفَّتْ ، ولمستْ الأرضَ فأقبلا عليها هما والشرطي الذي كان معهما ، كأنّهما ينظران ما خطبها ، ولما قربا منها وجدا فيها جندياً معه بندقية ، ثم أخذا يتأملان في أدواتها ، ويتخللان داخلها ، والشرطي لا يشكُّ في كونهما محبين للاستطلاع ، إلى أن استقلا مقعدَها ، وبدأت تنطادُ[1] ، فعرف الشرطي

---

(١) [ترتفع] .

أنهما قد فرا ، وأنّ الأمر مدبرٌ ، ففي الحال صوَّب نحوه أنور البندقية منذِراً إيّاه بالرمي إنْ أتى بحركة ، فأبلس الشرطي أولّا ، ثم أصلى عليهم فيما بعدُ بندقيته ، ولكنّ الطيارةَ كانت قد علت في الهواء أمداً بعيداً ، وبهذه الكيفية نجا أنور تلك النوبة ، وعادت به وبزميله الطيارة إلى ألمانية ، ولما وصل خبرُ فرارهما إلى المؤتمر بباريز ، كتموا الخبر جيداً عن الجرائد ، حتى لا يتهمَ الحلفاء بالتفريط ، ويُهْزَأَ بهم ، مع أنّ الجرائد كلها كانت قد نشرت الخبرَ قبل أن يتحقَّقَ من هما ، ثم ركب أنور طيارةً ثانيةً قاصداً موسكو ، ولم يكن معه هذه المرة سوى الطيار ، فحصل للطيارة عَرَضٌ في الجو ، وكادا يهلكان ، فأسفّا إلى الأرض ، ثم استقلَّ طيارةً ثالثةً ، وذهب بها إلى موسكو ، حيث وصل سالماً ، وأنزله البولشفيك في قصر قبالة الكرملين ، لا أظنُّ يوجَدُ مثلُه في أوربة فخامةً وأُبهةً ، واتفق معهم على العمل يداً واحدةً لمقاومةِ الحلفاء ، لا سيّما إنكلترة ، ثم جاء إلى موسكو جمال وبدري ، فدخلا فيما اتفق عليه أنور مع البولشفيك من الألب (التدبير على العدو من حيث لا يعلم) على إنكلترة .

وفي هاتيك الأيام جاءت عائلةُ أنور إلى برلين من الأستانة ، فجاء هو من موسكو إلى برلين ، وشاهد حليلتَهُ التي هي ابنةُ أخي السلطان ، ولم يلبثْ أن عاد إلى موسكو ، ولكنّه هذه المرة ذهب في البر من طريق ريفال (Reval) عاصمة أستونية ، وكان معه رجل روسي شيوعي ، فقبض عليهما في ريفال ، وطلس بهما في السجن ، تحت شبهة أنّهما من دعاة البولشفيك ، وادّعى أنور أنّه من مأموري الهلال الأحمر التركي ، فلم يثقوا في قوله ، وأخذوا يضربون رفيقه المسكوبي ضرباً أليماً حتى يقرَّ مَنْ هو هذا التركي الذي معه ، فتجلَّدَ على كلِّ ذلك الجلد والضرب ، ولم يقرَّ بشيء ، ولكن كانت نظارةُ الشرطة ترى من سيماء أنور ، وشمائله ، وحسن صورته ، شيئاً ينبئها أنّه ليس بمأمورٍ بسيطِ الحال كما يقولُ ، ولذلك كانت تُلِحُّ عليه في الإبانة عن حقيقة أمره ، وكان هو مصراً على الكتمان ، إلى أن خطر لهم أن يضربوه يوماً كما ضربوا الروسي رفيقه ، وبينما هم يهمون بضربه اعترضهم رجل من البعثة الإنكليزية التي كانت هناك ، تفرَّسَ فيه النجابة والكرامةَ ، فقال لهم : مثل هذا لا يجوزُ ضربه . فخلوا بعد ذلك سبيله ، وكانت مدةُ إقامتِه بسجن ريفال نحو شهرين ، وجعلوه

مع السجناء الآخرين من الجناة والمجرمين ، ولم يكونوا يطعمونهم سوى الخبز اليابس ، وجاء إلى موسكو ، فأقام بها مدة ، ثم عاد إلى برلين لصلة الرحم ، وتلاقيتُ به هذه المرة بعد مكاتبةٍ سبقت بيني وبينه حيما كنتُ في سويسرة ، ثم ذهب أيضاً إلى موسكو ومعه بضعة نفرٍ من الأتراك ، وكانت سفرتُه هذه في أوائل يوليو ـ تموز سنة (١٩٢٠) ثم عاد إلى برلين أوّلَ مرة ، ثم ذهب ، وعاد ثاني مرة ، وذلك في أواخر يونيو ـ حَزِيران سنة (١٩٢١) وهذا آخر عهده رحمه الله بأسرته ، وولد له مولودٌ ذكر بعد سفره بنحو ثلاثة أشهر ، وذهب من هذه الدنيا ولم يشاهِدْه ، وذلك انه اختلف في آخر الأمر مع البولشفيك ، وأثار التركستان عليهم ، واستُشْهِد في هذه الحرب في أوائل أغسطس ـ آب سنة (١٩٢٢) .

وتحريرُ الخبر أنّه كان بين أنور ومصطفى كمال وحشةٌ من قبل ، فلما أسس مصطفى كمال حكومةَ أنقرة ، كان أنور بدأ بتشكيل جمعيته بمعاونة الروس ، وحاول أن يجعلَ لها فروعاً في الأناضول ، فعارضَ مصطفى كمال في انتشار هذه الفروع ، بحجةِ أنّها قد تؤدي إلى الخلاف والشقاق ، حال كون الدفاع الوطني يقضي بتوحيد الكلمة ، فنقم أنورُ عليه هذه المعارضة ، وعدَّها استبداداً ونفاسةً[1] ، وازداد الجو بينهما سفوراً ، بحيث إنّه لما جاء عمه خليل باشا قائد جيش العراق سابقاً إلى طرابزون ، بادر مصطفى كمال بإخراجه منها ، وكذلك عندما ورد عزمي بك والي بيروت الأسبق مدينة أرضروم ، أرسل إليه بأنْ يبرحَها حالاً ، ثم يقال : إنّ مصطفى كمال أقصى من الجيش القواد المعروفين بالإخلاص لأنور ، فكان أنور يحقد عليه لهذه الأمور كلها ، وكنا ننصحه أن لا يوسِّعَ هذا الخلاف ، ولا يدع للقالة سبيلاً .

وإحدى المرار ، كنا عنده مجتمعين بمنزله في غرونفالد بظاهر برلين ، فبينتُ له وجوبَ الوئام مع مصطفى كمال ما دامتْ هذه الحرب بين الأتراك والحلفاء قائمة ، وكون خبر هذه المنافسة يسوءُ وقعه في العالم الإسلامي جميعاً ، وأيدَّ كلامي هذا الدكتور ناظم ، فلم يجاوِبْ أنور لا سلباً ولا إيجاباً ،

---

(١) (منافسة) .

وكان من أقدرِ خلق الله على كتمان ذاتِ صدره كما سبق ، ولم يكن أنور ممن يستطيرُه الغضبُ ، ولا ممن ينطلِقُ لسانُه بطعنٍ ولا لعنٍ ، ولا قذيعةٍ ، ولم يعهد أحدٌ أنْ رآه غضبان ، ولا سمعه شاتماً ، وكان عجيباً في هذا الأمر ، لا يباريه أحدٌ فيه ، وإذا أراد أن يتشكّى لاذ بالمعاريض ، وعمد إلى الإشارات ، بدون سلاطةِ لسانٍ ، فكان قُصارى قوله في مصطفى كمال : إنّ الإرادةَ في الأناضول غيرُ سائرة على مبدأ العدل والمساواة ، وإنّ الأمةَ لم تتحمّل استبداد السلطان عبد الحميد وهو ابن عثمان ، حتى تتحمّل استبدادَ غيره .

وكان بعضُ أخصائه يكتبون إليه من هذا القبيل ما يثيرُ حفيظتَهُ ، فكنتُ أبيِّنُ له دائماً ما يلحق مخاصمته لمصطفى كمال من سوء الأحدوثة ، ولو كان على حق في بعض ما يشكو منه .

ولما فارقته في موسكو في أوائل يوليو ـ تموز سنة (١٩٢١) لم أنس وأنا على ثنية الوداع الأخير أنَّ أحذّرَه من التهور في الخلاف مع مصطفى كمال باشا ، وإيقاد فتنة في ذلك الوقت الذي يتحتّمُ فيه الاتحاد التام بين الأتراك ، ويظهر أنّ مصطفى كمال نفسَه أرسل إلى حكومة موسكو يشكو من حركات أنور ، ويلتمسُ منها أن لا تمدَّ أنور بشيءٍ مما كانتْ وعدتهُ به من مالٍ وسلاحٍ ، فأمسك السوفييت بعد ذلك عن إجابةِ طلبه من هذه الجهة ، وجعلوا ذلك عذراً لهم بعدم الإمداد ، وأنا ما صدّقْتُ أصلاً منذ البداية أنّ البولشفيك كانوا يريدون الجذبَ بِضَبْعِ أنورَ فعلاً ، وتمكينه من القتال والنضال ، وإنّما كانوا يأخذونه بالرويغة ، ويمنّونه الأماني ليبقى في يدهم ، وليهددوا به إنكلترة ، وينالوا منها وطرَهُمْ على ظهر اسمه ، مع التيقظ التام لحركته وحركة أعوانه ، والحذر من سريانها إلى مسلمي روسية الكثيري العدد ، لا سيّما أنّ أنور أعلن للحكومة الحمراء مراراً أنّه هو ومن معه ليسوا شيوعيين ، وأنّ النقطةَ الجامعةَ بينه وبين البولشفيك هي مقاومة الحلفاء لا غير ، والحال أنّ البولشفيكيين لا يركنون إلّا إلى مَنْ كان شيوعياً مثلهم قولاً وفعلاً .

وكنتُ نبهتُه مراراً إلى خطر إقامته بموسكو قائلاً له : « إنّ الحمرَ لا يجهلون أنك أكبرُ دعاة الجامعة الإسلامية اليوم ، وهم يناهضون هذه الجامعة مثل

مناهضةِ الإنكليز لها أو أكثر ، لأنّ في روسية لا أقل من (٣٥) مليون مسلم جميعُهم متصلة بلادهم بعضُها ببعض وبسائر بلاد الإسلام ، وهم يذكرون ماضيَ ملكهم وسابقَ عِزِّهم ، فلا شكَّ أنّ الروسَ يحسبون ألف حساب للحركة الإسلامية بين هؤلاء ، ويحذرون منها ومنك بنوع أخصّ . وهم إذا كانوا يعلنون للعالم الآسيوي استعدادهم لمناصرته ، وتحفزهم لمعاضدته ، في موقف تحريره هذا ، فلا يعملون ذلك إلا على شرط البلشفة ، ولا ينصرون الإسلام وهو على قواعده الحاضرة ، إذ يرون فيه من الخطر على التركستان الروسي ما يرى الإنكليز على الهند ، فكان أنور يجاوبني : « إنني تعهدتُ لهم بأن لا آتي بحركة إسلامية في أرضهم ، وأقنعتُهم بأنّ عندنا شغلاً آخر مع غيرهم ، وحسبُنا أن نخلِّص أنفسنا من سيطرة الإنكليز ، ولقد علموا أنّه لما ثار بهم أخي نوري في القوقاز وقاتلهم وقاتلوه نهيتُه عن قتالهم ، وأعلنتُ عدم رضائي عن عملِه ، حتى أجهضتُه عن تلك الثورة » . فكنتُ أقول له : « ألا إنّ ذلك لا يمنع حذرهم منك ، ووقوفهم لك بالمرصاد ، ومن باب الرأي عندي أن تبرحَ موسكو إلى بلادٍ أخرى قبل أن يقع الخلافُ بينكَ وبينَهم ، فإمّا أن تقيمَ هذه المدة بألمانية ، وإما أن تذهبَ إلى بلدٍ مثل أفغانستان ، حيث يستقبلُك أميرُها براً وترحيباً » .

وكان الأمير أمان الله خان قد أرسل إلى أنور بأعلى رتبة في مملكته مع نفحة مالية ، وكتاب أطلعني هو عليه قد أوسعه به لطفاً وتشريفاً ، فلم أقدر على إقناعه بترك موسكو ، ووقع الذي حذرناه ، إذ لما يئس أنور من حمل الروس على إمداده بالمال والسلاح ، ورأى أنّ كلَّ ما وعدوه به من هذا الضرب كان برقاً خلباً ، وكانت غايتُهم منه أن يهددوا به الإنكليز ، ويجعلوه رقيباً لمصطفى كمال ، حتى إذا خرج هذا من يدهم رموه بأنور ، بدأ أنور يضمِرُ العداوة للحمر ، وفتح أذنه لأقوال المسلمين التتر ، الذين كانوا يطالعونه بما في أنفسهم من السخط من جرّاء نهب البولشفيك لأملاكهم وأموالهم ، وسعيهم في بلشفة المسلمين ، وإهدارهم دماء الألوف ، وعشرات الألوف منهم ، في أذربيجان ، وقازان ، وتركستان ، وطاغستان ، ثم مِنْ كونهم بعد جميع تلك المواعيد التي بذلوها بإعطاء هذه البلاد الإسلامية استقلالها ، عادوا فاسترجعوا كل ما كانوا سمحوا به ، واستأنفوا سياسة روسية القومية ، وبطشوا بمن قاومهم من

المسلمين بطشةَ جبارين ، إلى غير ذلك مما وقر في نفس أنور ، وحداه على تغيير سياستِه ، والرجوع إلى سياسة أخيه نوري ، الذي كان يعذله على ممالأته للبولشفيك .

صار أنور يترقِبُ فرصةً للتملص من موسكو ، وينظر [إلى] ذلك القصر المنقطع النظير الذي أنزلوه به حبساً ، إلى أن زحف اليونانيون نحو أنقرة ، وصار الأتراكُ يتقهقرون إلى الوراء ، وخِيْفَ من دخول اليونان أنقرة ، فاستأذن أنور البولشيفك بالسفر إلى القوقاز قائلاً : « إذا دام تقهقر الأتراك على هذا الشكل ، أو سقطت أنقرة ، فلا يسعني إلا تجنيد من يمكنني تجنيدهم ، واستنفارهم من جهات القوقاز ، والزحف بهم لمصادمة اليونانيين » . فساعده البولشفيك بالسفر ، وانخدعوا بكلامه ، فهبط مدينة باطوم ، وأقام بها مترقباً الأخبار عن الأناضول ، فلما ورده خبر ظفر الترك في معركة سقارية ، وارتداد اليونان إلى الوراء ، علمَ أنه لم يبق محل لدخوله الأناضول ، فولّى وجهَهُ شطرَ تركستان ، وذهب إلى هناك ، وهو يعلم أنّه سينهض ببزلاء ، ويعالج مرتقى عقبة كأداء ، إذ لما فصل من باطوم ، كتب إلى جمال عزمي بك والي طرابزون الأسبق (وهو الذي اغتاله الأرمن مع بهاء الدين شاكر شتاء سنة (١٩٢٢) في برلين) يوصيه بتعهد أمور عائلته ببرلين ، ويقول له : إنّه لا يعلم هل يتيحُ له القدرُ الإيابَ إلى أهله أم لا ، وهذا دليل على أنه كان موطّناً نفسَه على الموت ؟ وكان ذهابه من باطوم في أواخر أغسطس ـ آب سنة (١٩٢١) متنكراً ، ومعه رفيقٌ واحد .

وأما البولشفيك فلم يحسوا بذهابه إلا بعد أيام ، وكان هو أجمعَ في نفسِه على الانفصال عنهم ، ولستُ أعلم ماذا جرى معه في تركستان تفصيلاً ، ولا أي طريق سلك إلى هناك ، وقصارى ما علمتُ من خبره بعدَ بلوغِه تلك الديار ، أنّه دخل بخارى ، وعضّدَ فيها الحزبَ الأميري ، وبطشَ بدعاة البلشفة ، وأولئك الذين يقال لهم مجددي أي الحزب الجديد ، الذين يمشون بين أيدي الحمر ، وأنّها استجمعتْ له هناك جميعُ الأمور ، وأخذ الأمر كلَّه بيده ، وانضم إليه السواد الأعظم من الأمة ، وأرسل في تلك الأثناء صورتَهُ بالزي البخاري إلى أهله ، وشاهدتُها عندهم ببرلين ، وكان في نيته أن يستقدِمَ السلطانة امرأته عن

طريق الهند وأفغانستان ، ولكن لم يكن زال الخوفُ من كره البولشفيك ، بل بعد أن استوثقت له أمورُ مملكة بخارى ، وأزال البولشفيك وأشياعهم منها ، مد الصارخة إلى خيوة ، وإلى فرغانة ، التي كانت فتنتُها لم تخمد من أول انحلال القيصرية ، فعمت الثورةُ أكثرَ التركستان ، وهاجم أنور عساكر البلاشفة في مواطن عديدة ، وظفر بهم ، وغنم منهم مدافع وأعتاداً حربية ، ونشرت الجرائد الأوروبية أخبار مغازيه وفتوحاته ، وفرح بها أولياؤه وأحبابه ، لا بل المسلمون جميعاً ، وظنَّ كثيرون أنّه قد استتبَّ له الفتح ، ولكنني كنتُ متوجِّساً عليه خيفة هذا الطموح ، معتقداً صعوبةَ موقفه ، وقلق وضينه ، وفي هاتيك الأيام شاع أنّ البولشفيك دعوه إلى الصلح ، فقيل : إنّه أبى ، وقيل : بل اختلفَ معهم على الشروط . وعلى كلِّ حالٍ كنتُ أرى الصلحَ أولى ، لعلمي بما ينقصُه من السلاح والعتاد .

ولذلك عندما كنّا في جنوة لمراجعة مؤتمرها المنعقد سنة (١٩٢٢) قابلت تشيتشرين الذي كان رئيسَ الوفد الروسي في المؤتمر ، وكنتُ عرفتُه بموسكو وتحادثتُ معه مراراً ، وبعد أنْ أبدينا وأعدنا في القضية العربية ، سألتُه عن خطبِ أنور ، ولم أكتم عنه أنّه لم يكنْ من الحكمة أن يُفْلِتُوا مثل أنور من أيديهم ، وأنّه كان من الممكن إرضاؤه بشيء من الأشياء ، فأخذَ يشرحُ لي عما فعله أنور من مقاومة مصطفى كمال ، والكيد على حكومة أنقرة ، وما أقامه وأقعده من أحوال تركستان ، وكيف ألقى الفتنة بين المسلمين والروس ، وكان سبباً في هذه المصائب التي سالت فيها الدماء الخ فتكلمتُ معه فيما لو كان ممكناً تأليفُ ذات البين ، فأجابني أنّ أحبَّ شيء إليهم الصلحُ .

قلت له : « ولكن مثل أنور لا يرضى بصلحٍ شرطكم فيه عليه تَرْكُ البلادِ ، ومجرد الانصراف » .

قال : « وماذا يريدُه أنور » .

قلت : « الله أعلم ماذا يريد ، وليس بيني وبينه مراسلة ، ولا أعلم شيئاً من أحواله الراهنة اليوم ، وإنما أقرأُ أخبارَه في الجرائد ، فكلامي هو رأي من عندي أقدِّمُه لكم حباً بحقن الدماء ، واستبقاء المودة بينكم وبينه لا غير ، وهو :

أنّكم قد اعترفتم لبخارى بالاستقلال داخلاً وخارجاً ، فتتركون أنور يصلِحُ أمور بخارى ، لأنّه رجلٌ عظيمٌ من جهة الإدارة والترتيب ، ويتم الاتفاق بينكم وبينه على أن لا يتعرّضَ للتركستان الروسي ، وتؤخذ عليه بذلك المواثيق .

قال تشيتشرين : « وماذا يكون منصبه في بخارى أأميراً أم وزيراً ؟ » .

قلت له : « هذا عائدٌ لرأي أهالي بخارى ، فإن لم يكن أميراً ، يكون رئيساً للوزارة ، وقائداً عاماً ، أو يصطلحُ أهلُ بُخارى على جمهوريةٍ يكون هو رئيسَ الجمهورية » .

قال : « لا لا . هذا خطر عظيم » . ولم يزد على ذلك .

فلم أراجعه من بعدها في هذه القضية ، ولكنني سمعتُ من أحد أصحابي الذين كان لهم معرفة ببعض رجال البولشفيك أنّهم كانوا يَسْعَوْن في دعوة أنور إلى الصلح ، ويقال : إنّ بعض الذين توسطوا في هذا الأمر كانوا يقولون للحمر في موسكو : « مهما بذلتم في مرضاة أنور فلا يكون كثيراً ، لأنّه هو روح هذه الحركة إن شاءَ سكّنها ، وإن شاء هيّجها ، وهي قائمةٌ به وحدَه » . وكلامٌ كهذا كان من باب الخرق والحماقة ، لأنّه جعل البولشفيك يعتقدون أنّ الأهالي كانوا راضين بحالتهم مهما كانت عليه من السوء ، وأن حركتهم إنما جاءت من قِبَلِ شخصيةِ أنور ، فلذلك وجهوا معظم قوتهم للقبض على ذلك الشخص ، الذي تسببَ لهم بمجرد إرادته بكل هاتيك الخسائر ، وأخرج أكثرَ تلك الأقاليم من طاعتهم ، ولستُ على ثقة من خبر القوة التي ساقوها على أنور ، ولكن الناس الذين جاءوا من هنالك بعد [تلك] الوقائع يبالغون في الكلام على الجحافل الجرارة التي بثها الروس في التركستان لإخماد نار الثورة ، ولخضد شوكة أنور .

وما مضت مدة حتى روت الجرائد أنّ أنور تقهقر إلى الوراء أمام القوة الجسيمة التي لم يكنْ له قِبَلٌ بها ، ولما علم أميرُ الأفغان بوفرة الجيوش الروسية الناهدة إلى أنور أسرع بدعوته إليه ، وبعث يقول له : « أنا محتاج إلى مثلك لأجل رئاسة جيشي ، فاقدم علي ، فلن تجدَ عندي أعزَّ ولا أغلى منك » . ولكنَّ أنور كان مغرَماً بالحرب ، وكما قال علي فؤاد بك رئيس أركان الحرب في سورية ، أثناء الحرب العامة ، وذلك في كتابٍ له عن حملة ترعة السويس عرّبه

الكاتب الأديب نجيب أفندي الأرمنازي : « إنّ حال السلم عند أنور عدد منفي ، وقصارى حياة المرء عند أنور أن يقومَ في ميدان الحرب بحملاتٍ باهرة برؤوس الحراب ، ويموت فيها شريفاً » .

ولقد أصاب علي فؤاد بك في قوله هذا ، كما أصاب في أكثر ما أورده في كتابه ، فإنّ أنور كان حلس قتالٍ لا يمله ، ولكنّه كان من أقدر الناس على الإدارة والتنظيم ، وكل من شهد ترتيبه في الجبل الأخضر بطرابلس حيثُ كان مطلقَ اليد في العمل ، يعلم أنّه يندُرُ مَنْ يبلغُ شَأْوَهُ ، أو يدرك نبوغه في التدبير والترتيب وأساليب العمارة ، فكان في هذه الساحة فذًّا ، إلا أنه لم يكن سياسياً كبيراً مع فرط ذكائه ، وأتذكر أنّه عندما رغب إليَّ أن أذهبَ إلى ألمانية لمعرفة حقيقة الحالة سنة (١٩١٧) فلما ودعتُه قال لي : « لا يكفيني أن تخبرني بما هو كائن هناك ، بل أعطني على ما تشاهده رأيك الخاص » . فكان هو نفسُه لا يركن إلى نفسه في السياسة ، وهذا دليل على ذكائه وعقله ، فإنّه لا توجدُ آفةٌ على العقل مثل الدعوى والغرور .

وفي أوائل أغسطس ـ آب من عام (١٩٢٢) كان أنور ـ كما سبق القول ـ في بلدة يقال لها بانجوان ، شرقيّ بخارى ، وكان أكثرُ جنده تفرقوا عنه بسبب العيد الكبير ، وبقي في شِرذمة من أعوانه ، فهاجمتُه خيالة الروس في عسكر مجر ، فخرج بنفسِه ، وما زال يقاتلُ حتى قُتِلَ رحمه الله ، وكان لم يتجاوز الأربعين من العمر ، ومن رآه يظنُّ أنّه في نحو الثلاثين ، لوضاءة جماله ، ورونق شبابه .

وانتشر الخبرُ في الدنيا كلِّها ، ولولوع الشرقيين بأنور ، وحرصهم على حياته ، لم يريدوا أن يصدّقوا الخبر ، ومالوا إلى تكذيبه ، لا سيّما أنّه وردت من القوقاز برقية بأن ذلك الخبر كان من أراجيف الروس ، وبلغنا ذلك إذ كنا في رومة ، فقلتُ لأوّل وهلةٍ : هذا الذي كنتُ أتوقعه له ، وكما قال لي عزمي بك والي بيروت : أنور هذه المرة إما أن يعلو كثيراً ، أو يموت ، على أنّ موته شهيداً في سبيل تحرير قومه هو أشرف ميتةٍ ، وأَنْوَهُ منيةٍ .

ثم لما ورد نبأ التكذيب قلت : عسى ذلك صحيحاً ، ولكنني كنتُ غير مطمئن البال ، فلما عدتُ إلى برلين ، سألت أخاه كامل بك وأهلِه ، فوجدتُهم

مطمئنين ، ينتظرون البريد الأفغاني ، وهم لا يشكون أنّه آت بمكتوبٍ منه ، فسألتُهم عن مصدر التكذيب لخبر القتل ، ظاناً أنّه بُنِيَ على كتابٍ جاء من نفس أنور بعد تلك الإشاعة ، فعلمتُ أنّه لم يرد منه بعد الإشاعةِ شيءٌ ، فعندَ ذلك هجسَ في فكري أنّه لو كان حيّاً لأسرعَ بالكتابة إلى أهله تكذيباً للإشاعة ، إذ لا بدّ من أن يكونَ بلغه ما قيل ، ثم كلّفوني أن أستقصيَ لهم الخبرَ من سفير أفغانستان ، الذي كانوا سألوه فلم يخبرهم بسوء ، فأحفوني على سؤاله من قبلي أنا ، فلما سألته بصورةٍ خاصة ، قال لي : إنّ الخبر صحيح ، ولكنه لا يريدُ أن يصرِّحَ لهم به ، ويكون ناعياً لأنور ، وهو الذي أخبرني عما أصاب الأميرَ أمان الله خان ملك الأفغان من الحزن لفقد أنور ، لا سيّما أنّه كان بعث إليه يستقدمه بإلحاح إلى كابل فأبى .

فلما عادوا يسألونني عما سمعتُ من سفير الأفغان ، أجبتُهم أن السفير لا يقول شيئاً ، ولكنني أنا شخصياً في قلق من سكوته المطلق ، وأرى أنّه ما دام الباشا لا يكتُبُ كالعادةِ بخطه إلى السلطانة ، فيُخشى من أن يكون هناك قضاء واقع ، وما زالوا يعللون أنفسهم بالآمال ، ويسمعون لأقوالِ من يروي لهم عن الجريدة الفلانية أنّ أنور حي ، وعن القادم الفلاني من تلك الديار بأنّه وقع تشابه بينه وبين قتيل آخر ، وأنّ الذي وجدت جثته ، وكان ظُنَّ أولاً أنه أنور ، ظهر بالتالي أنّه غيرُ أنور ، إلى غير ذلك من الأخبار المبنيَّةُ على « بشروا ولا تنفروا » إلى أنْ قَدِمَ ضابط من القوقاز لقيني في لوزان في هذا الشتاء ، وأخبرني بالقصة التي كنت عرفتُها من سفارة الأفغان ببرلين قبلَ مجيءِ هذا الضابط بأشهرٍ .

ومع هذا فغرام الشرقيين بأنور كان يحدو جرائدهم على ترجيح خبر بقائه حيّاً ، وما زالوا يلهجون بذلك ، حتى أعلنَ أمير ألاي علي رضا بك نائب أنور بياناً في الجرائد الهندية يقول فيه : « مضى زمنٌ على شهادة الغازي أنور باشا ، الذي كان يجاهِدُ لتحرير تركستان ، فهو اليوم ليس في أفغانستان ولا في إيران ، ولا على حدود الهند ، بل قد انتقل إلى جوار ربه ، الذي جاهد لمرضاته بماله ونفسه ، وقد انتقلنا نحنُ بعد هذه الفاجعة إلى كابل ، وعسى أن نرجع قريباً إلى

أنقرة ، فرجاؤنا من مسلمي الهند أن لا يجدِّدوا أحزاننا بنشر الأخبار الكاذبة عنه ، بل أن يسألوا الله تعالى له المغفرة والجنة » .

هكذا انتهت حياةُ ذلك الرجل ، الذي مهما قيلَ عن هناته وأغلاطه ، فلم تخرجه عن كونه عظيماً ، وأنّ فيما ختمه الله له من الشهادة في سبيل أمته ما يكفِّرُ عن سيئاته إن كانت هناك سيئات تذكر ، لا سيّما أنّه قد دعاه أميرُ الأفغان لأعظم منصب في دولته ، فأبى وآثر الجهاد ، وهو يعلم مقدار قوةِ الدولة الروسية ، التي وقف في وجهها ، وقد اتفق الناس على كون أنور بطلاً من الأبطال ، ليس في هذا العصر بين المسلمين من يدانيه في علو الهمة ، وبعد مرمى العزم ، واتقاد الحمية .

وكان يعجب جميعُ من عرفه من جمعه بين البطولة والغشمشمية من جهة ، والحياء والرقة والتواضع من جهة أخرى جمعاً مستولياً على الأمد ، يتمثّلُ الإنسانُ فيه وداعة الحمام ، في شكاسة الأسد ، وقلّما عرف أحدٌ أنور حتى من أشد الناس عداوةً لمشربه إلا أحبه ، وهفا قلبه إليه ، وكثيراً ما صرّح لنا أناسٌ أنهم قبل أن يشاهدوه كانت صدورهم تتأجج عليه بغضاً وشنآناً ، فلما شاهدوه وجالسوه عادت تلك النار في صورهم برداً وسلاماً ، وكان أنور يؤثر الفعل على القول ، ويكره التبجح والبأو ، وكان يقول لي : أكره الكلام الكبير .

وأكثر ما نقم الناسُ على أنور كونه من أعظم أسباب دخول الدولة العثمانية في الحرب العامة ، وكان أنور يرى أنّ الحلفاء تقاسموا بلاد الدولة فيما بينهم شق الأبلمة قبل الحرب العامة . ففرنسة وإنكلترة تقاسمتا سورية وفلسطين منذ سنة (١٩١٢) كما اعترف بذلك المسيو بوانكاره في مجلس الشيوخ الفرنساوي جواباً على المسيو بيرار في العام الماضي ، وكذلك لم يكن بعيداً عن العقل ، أنّه لو خرجت روسية من الحرب العامة غالبة لكانت السلطة العثمانية أثراً بعد عين ، لأنّه مما لا ينكر أنّ الاستيلاء على الأستانة كان أول أهداف روسية في دخولها هذه الحرب ، ومع ذهاب الأستانة يذهب الأناضول .

ولقد اعترف الحلفاء أنّه لو لم تدخل تركية الحرب ، وبقي الدردنيل مفتوحاً بين روسية وحلفائها لما انهارت روسية .

وكذلك ثبت أن بعضَ الدول الغربية الكبرى كانت عرضت على ألمانية تقسيمَ السلطنة العثمانية ، وأن تكونَ حِصة هذه الأناضول ، فهذه الأسباب كلها ، مع غيرها مما ليسَ هنا محلُّ شرحِه ، جعلتْ أنور وطلعت أمامَ هذه القضية يقولان : إن تأبينا الإنضمامَ إلى ألمانية ، نخشى إما أن تنتهي الحرب بالاتفاق علينا وألمانية من الجملة بما نكون قد تركناها . وإما أن يتمَّ النصرُ للحلفاء ، وحينئذ يقعُ تقسيمنا بين هؤلاء ، فعلى الحالين نكون من الغابرين .

أما إذا انضممنا إلى الألمان فنحن بين أمرين : إما أن تفوزَ ألمانية ، فنخلص من الخطر الذي يتهددنا من جهة الحلفاء ، وإما أن تنكسر ألمانية ، فلا يصيبنا شيءٌ أكثر مما سيصيبنا لو أهملنا الانضمام إليها ، هذا مع كونهما لم يتوقعا لألمانية الدائرة التي دارت عليها ، إذ لم يكن متوقعاً دخول أميركة في الحرب .

وربما قيل : إنّ الحلفاء عرضوا على تركية شروطاً مفيدةً تؤمن لها استقلالها فيما لو لزمت الحياد .

والجواب : أنّ تلك الشروط التي عرضها الحلفاء لم يكن فيها شيءٌ من الأهمية ، ولا تعهدت روسية بعدم مهاجمة تركية فوق ثلاثين سنة ، ولعمري لو عقد الحلفاء مئة عهد لتركية ، ثم خرجوا من الحرب ظافرين ، فمن الذي كان في استطاعته إقامتُهم على عهودهم ، أفلم يعاهدوا الشريف حسيناً على استقلال جميع بلاد العرب ؟ فماذا جرى ؟!!

كانت معرفتي بأنور يوم التقينا في ظاهر درنة في حرب طرابلس ، ويظهر أنني لما فَصَلْتُ من مصر قاصداً طرابلسِ ، أبرق أناسٌ إلى أنور ـ ولا يوجد أكثر من السعاة والمفسدين ويا للأسف ـ يحذّرونه مني ، ولا أعلم إلى الآن ماذا زينوا له ، بل علمتُ فيما بعد أنّه بناءً على هذه البرقيات المتواردة عليه أصدر أمره إلى أدهم باشا الحلبي قائد معسكر طبرق ، بأن يردَّني من طبرق إلى السلوم ، ولما كان أدهم باشا رجلاً منجذاً قديماً ، أجابه بأنه لا يعتقد أنني مظنةُ سوء ، وأنّ ردَه إياي بعد أن وصلتُ إلى المعسكر ، والتف حولي العرب ، **قد يؤثر على هؤلاء** تأثيراً سيئاً ، فالأحسن إن أمكن هو الوصول إلى معسكر أنور بعين منصور ، فأكون هناك تحت مراقبة القائد العام نفسه ، **فإن رأى هو ما يريبه مني كانت معه**

سعة من الوقت لإخراجي من هناك ، فاقتنع أنور بهذا الجواب ، وتركني أكمل السير إلى عين منصور ، وأنا لا عِلْمَ لي بشيء مما وقع .

وبعد أيام من وصولي وملاقاتي به مراراً ، وأخذنا بأطراف الأحاديث من كل موضوع ، علم أنّ الأخبار التي وردته هي دسائس محضة ، أو ناشئة عن خدعة وحيلة من أناسٍ قصدوا أن يدسّوها لأغراضٍ لهم ، ومن ذلك الوقت انعقدت بيننا صحبة أكيدة ، واستمرت إلى أنْ صار ناظراً للحربية ، فكان كلّما علا رتبة ازداد تواضعاً ، بعكس ما عليه كثيرون من قومه .

وفي تضاعيف الحرب رغب إليَّ أن أذهب إلى ألمانية أول مرة لمراقبة الأحوال ، وما مضت مدة وجيزة حتى قال أنور لأحمد نسيمي بك ناظر الخارجية : « كم أنفذنا إلى ألمانية رجالًا من نخبة رجالنا ليقفوا لنا على حقائق الأحوال ، وأقاموا أشهُراً ، فلم يقم أحد منهم ، ولا جميعهم ، بما قام به فلان (يشير إليّ) في (١٥) يوماً » .

ثم لما رأى ما رأى من الحفاوة التي أظهرها الألمان بي عندما زرت ألمانية سنة (١٩١٧) اعتقد أنني أَقْدَرُ من غيري على حل المشكلات المتعلقة بينهم وبين الأتراك ، فلمّا وقع الخلاف بين الفريقين من أجل باكو والقوقاز والأسطول الروسي في البحر الأسود ، قال لي : « إنّ هؤلاء القوم يجلونك كثيراً ، ويعتقدون ميلك الخاص إليهم ، فأرجو منك أن تذهبَ إلى برلين ، وتسعى في نظارة الخارجية فيها لاعتراف ألمانية باستقلال أذربيجان والطاغستان ، كما اعترفتْ باستقلال كرجستان ، وأسرّ إليَّ غيرَ ذلك من الأمور . فقلت له : « كنت عازماً على الذهاب إلى سورية ، ولكن لأجل خاطرك هذا أذهبُ إلى ألمانية أولًا » .

فقال لي : « يكفيك في برلين لهذه المهمة شهر أو عشرون يوماً ، ثم تعود إلى هنا ، وتسافر إلى سورية » .

ففصلت من الأستانة في أوائل يونيو ـ حزيران ، وأنا عازم على أن لا أمكثَ في برلين فوق (٣٠) يوماً ، وها أناذا في أوربة منذ ذلك الوقت ، وهي مدة تزيد على الخمس سنوات ، لم يتيسّر لي فيها أن أضعَ رجلي في

الشرق ، ومجنون من يظنُّ أنّ المرءَ في حياته مخيَّرٌ لا مسيّرٌ[١] .

أما قضية الخلاف بين ألمانية والأتراك ، فكنا على وشك إنهائها ، لا بل قرر الألمانُ إجابةَ الترك إلى طلبهم من جهة الاعتراف باستقلال أذربيجان ، وألححتُ عليهم أنا بناء على طلب الوفد الطاغستاني ، الذي كان اعتمد عليَّ في قضيةِ بلادِه ، أن يسووا في هذا الاعتراف بين كرجستان والطاغستان وأذربيجان ، بل يعترفوا أيضاً باستقلال جمهورية أريفان الأرمنية ، وبينما نحنُ في هذا ، إذ دهمنا خبرُ طلب البلغار المتاركة ، وإرسالهم وفداً إلى معسكر الحلفاء بسلانيك ، وكان ذلك مبدأ انهيار الجبهات الحربية الألمانية والنمسوية والعثمانية ، فطلبتْ كل من النمسة والمجر وتركية الهدنة ، وتبدّلت الوزارةُ بالأستانة .

وقبل تبديل الوزارة بقليل ، جاءتني إلى برلين برقية رقمية[٢] من أنور ، بواسطة السفارة العثمانية ، يستحثُّ بها رجوعي إلى الأستانة ، فلم أبادر إلى السفر مترقِّباً سير الحوادث الهائل يومئذ ، إذ في تلك الأيام كان من تتابع النوازل أعظم مشهد تاريخي يتهيأ للإنسان ، وكان يتمُّ في الجُمَع مالا يتمُّ في الحُقَبِ ، ولا في القرون . ففي نحو خمسة عشر يوماً رأيتُ سلطَنة النمسة والمجر التي كانت (٥٥) مليون نسمة ، قد تساقطت حتاتاً ، وتفرقت أشتاتاً .

وبعد مضي عشرين يوماً على برقية أنور قصدتُ الأستانة من طريق رومانية ، وركبت الباخرة من برايله ، فلما وصلت بنا الباخرة إلى كوستنجة ، وردها الأمرُ بأن لا تكمل سيرها إلى الأستانة ، وأن تنقلِبَ على عقبيها ، قاصدة أوديسة ، فشقَّ ذلك عليَّ ، ولكن عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . فإنّ عدم تمكني وقتئذ من دخول الأستانة ، أنقذني مما وقع فيه أكثرُ زملائي الذين نفوا وغُرِّبوا ، وشربوا مياه مالطة ، فلما وصلنا إلى أوديسة سألنا عن باخرة تذهب إلى الأستانة ، فقيل لنا : إنّ باخرة ألمانية اشتراها الأتراك ، أتت من الأستانة بعساكر ألمانية ، كانتْ بدأتْ تعودُ إلى بلادها بحسب شروط الهدنة التي انعقدت في

---

(١) [هو ميسر ، والتيسير خليط من التخيير والتسيير] .
(٢) [مشفّرة] .

مودورس ، فهذه الباخرة ستذهب لإنزال العساكر المذكورة في نيقولايف ، وتعود إلى دار السعادة ، فتحولنا إلى تلك الباخرة ، وذهبنا بها إلى مرسى نيقولايف ، فنزل العسكر الألماني الذي فيها إلى البر ، وبتنا هناك على أن نقلع ثاني يوم إلى الأستانة ، وفي اليوم التالي ، بينما الباخرة على وشك السفر ، إذ وقع مني نظرة على رصيف الميناء ، فبصرت بعمائم بيض ، فأسرعتُ لأرى من هناك ، فإذا بالمرحوم الأستاذ الشيخ محمد صالح الشريف التونسي ، والأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ، والأستاذ الشيخ خضر حسين التونسي ، وعبد الحميد بك سعيد المصري ، والدكتور أحمد فؤاد المصري ، وإبراهيم بك راتب ، ويوسف بك مصطفى ، وغيرهم من مصريين وتوانسة جملتُهم ستة عشر شخصاً ، يقصدون ألمانية وسويسرة ، منهم من توارى من وجه الحلفاء ، الذين كان يمكن أن يقبضوا عليه ، ومنهم من كان يعلِّلُ نفسَه بعقد صلح على مبادىء ويلسون ، إذ لم تكن ظهرت ماهية ذلك الرجل وقتئذٍ ، وقد علمتُ من بعضهم أنّ الحكومةَ الجديدةَ في الأستانة كانت تعلم سفرهم ، وترى ذلك أحزم وأحوط ، إذْ لو تعرَّضَ لهم الحلفاء بحجة أن هذا مصري وذاك تونسي ، ما كان يمكن للحكومة العثمانية في هاتيك الأيام الصعبة أن تحميهم ، كما أنّ واحداً منهم أسرَّ إليَّ بإشارةٍ من رأس الحكومة الجديدة بأن أبقى في أوروبة تلك المدة ، وأجاهِدُ في القضية العربية على موجب برنامج ويلسون ، فأطلعتُ هذا الواحد على برقية أنور الواردة إليّ .

فقال لي : وأينَ أنور ؟ قد انسلوا من الأستانة خفيةً : أنور وطلعت وجمال الخ .

فبعد هذا الحديث قررتُ السفر آيباً إلى ألمانية ، ومنها إلى سويسرة ، وجئنا جميعاً من طريق روسية إلى برلين ، ومن برلين قصدنا سويسرة ، فبقيت فيها من أواخر (١٩١٨) إلى أوائل سنة (١٩٢٠) . وعدتُ إلى ميونخ فبرلين ، وهناك التقيت بأنور عائداً من موسكو ، وكان يلحُّ عليَّ دائماً في الذهاب معه إلى موسكو ، وأنا أعتذِرُ له عن مشقة ذلك عليَّ ، إلى أن رضيتُ أخيراً بأن أذهبَ على شرط أن لا أقيمَ فوق جمعتين ، وكان مرادي مشاهدة حالة الحُمْرِ بنفسي ،

والفحص عما إذا كان يصحُّ الاعتماد عليهم في المسائل التي نحن فيها أم لا ؟ وعما إذا كان هناك من أملٍ بأنْ تستفيدَ منهم البلاد الشرقية والأمم المستضعفة أم لا ؟ فأقمتُ بموسكو شهراً ، أجريتُ فيها بنفسي التحقيقات التي أردتُها ، وفي أوائل يوليو - تموز سنة (١٩٢١) فارقتُها ، وودعت أنور ، وهذا آخرُ عهدي به .

يُوَدِّعُ بعضُنا بعضاً ويَمْشِي أَواخِرُنا على هامِ الأوالي

مصير طلعت باشا

أما خبر طلعت ، فإنّه وصل إلى برلين ، وتوارى في مصحة ساناتوريوم بظاهر تلك العاصمة ، وكان عقب فرارهم من الأستانة حصل هَيَجانٌ بين الطلبة الأتراك في برلين ، والتمسَ هؤلاء من الحكومة الألمانية تسليمهم إلى الحكومة العثمانية ، وأخذ هذا الهياج بين الطلبة يتزايد ، إلى أن صاروا يبحثون عنهم ليضربوهم أو يهينوهم ، فأما أنور فلم يكن هناك ، وأما طلعت فأرسلَ إلى الطلبة أنّه حاضرٌ لمقابلتهم ، وجاء فيما بلغني منهم جماعة ليوبِّخوه على سوءِ إدارته ، وأسباب سقوط الدولة على يده وأيدي رفاقه ، وكانوا يحرقون عليه الأرم ، فلما شاهدوه ، وسمعوا الدفاع الذي دافعه عن نفسه ، والأساليب التي بسطها لهم سكتوا ، وكان سريعَ الدمعة ، لا سيما إذا تكلَّمَ في المسائل الوطنية غلب عليه البكاء ، فلما أجهشَ أمامهم زال ما كان من حدتهم ، وانصرفوا عنه .

وأما الحكومة الألمانية فإنّها كانت تعلم أنّ الحلفاء لا بدّ أن يطالبوها بتسليم هؤلاء ، فأعلنتهم جميعاً وجوبَ مفارقة ألمانية ، ولم تستثن إلا طلعت وأنور .

وكنتُ لقيتُ تصادفاً كلاً من عزمي وبدري في ميونخ ، فعلمتُ منهما أنّ الحكومة في برلين أنذرتهم بأنّهم إنْ لم يبرحوا أرضها سلّمتهم إلى الحلفاء ، وسألت عن أنور وطلعت فأجابني عزمي : « بونلر مستثنى » أي أنهما مستثنيان ، ويظهر أنّ الحكومة الألمانية أبلغت جمالاً وعزمي وبدري والدكتور ناظماً والدكتور بهاء الدين شاكر أسبابَ سخطها عليهم ، وعينت لكل واحد ذنوبَه ، فجمال وعزمي بك غضبت عليهما لأجلِ المسألةِ العربيةِ ، لأنّ عزمي استشهد بي ، وقال لي : أنتَ كنتَ في سورية ، فهل علمتني مسؤولاً عن شيءٍ مما أجراه

جمال ؟ قلت : لا ، ولكنني عاتبته على أمورٍ أخرى ليست من هذا الباب ، وكان مرادهم استعمال وسائل يتمكنون بها من دخول سويسرة ، ويظهر أنّ جمالاً دخل سويسرة متنكِّراً ، ولم نشعر بذلك وقتئذٍ ، بل علمناه من « خاطراته »[1] التي نشرت مؤخراً ، ثم إنّه رجع إلى ألمانية بعد أنْ سكنت الزعازع ، وأقام بميونخ ، حيث كان بعضُ قواد الألمان الذين كانوا بمعيته في سورية هم من ذوي الأمر والنهي بميونخ .

وبقي طلعت متوارياً عن الأنظار مدة ، ثم بدأ يخرج ، وذهب إلى هولندة ، ومعه نسيم مازلياح من الاتحاديين اليهود ، الذي كان مبعوثاً عن أزمير ، وكان يلازم طلعت في غربته ، ثم تلاقى طلعت مع هويمانس (huymans) الاشتراكي البلجيكي، وحصل بينهما حديثٌ طويل، فسأله عن قضية الأرمن، فأجابه طلعت بالواقع، ولم يجتهدْ أن يتنصّلْ مما فعل، فقال له هويمانس: « كان يجب أن تكتبَ هذه القصة كلَّها وتنشرها، لتنير الرأي العام الأوروبي عليها، لأنّه لا يعرفها كما تقول » فوقع في نفس طلعت أن يحرِّرَ « خاطراته » ، فحررها من الأول إلى الآخر بالتركية ، ولم يغبب في الأمور التي قصها ، ولا تستر حتى على إخوانه ، ونال فيها من أنور ومن جمال في بعض المواضع ، ثم طُبع الكتاب ، وقبل أن يوزعه كان أنور قَدِمَ إلى برلين ، فبلغه الأمرُ ، فأخذ عليه ما كتب ، فأجابه طلعت : إنه هو لم يكتب هاتيك العبارات التي فيها نيلٌ من أنور، وإنما أضافها أحدُ أصحابه، وطبع الكتاب بدون أن يقف هو عليه، ومع هذا فإنّه سَيَجْمَعُ نسخَ الكتاب ويحرقها، وجمعها طلعت يومئذٍ ولم يوزعها، ولكنّ أنور لم يقبل منه ذلك التعليل ، ووقعت الوحشة بينهما باطناً ، وأسرّ إلي أنور بعضَ أمورٍ عن طلعت ، علمتُ منها غيظَه منه ، وكنتُ أهوِّنُ الأمرَ عليه ، ولكن لم تنقطع بينهما الزيارات ، وبقي طلعت يجالس أنور ويحالسه .

وكان طلعت يراسل مصطفى كمالاً ، ويؤازر سياسته من بعيد ، بخلاف أنور ، ووروده من مصطفى كمال كتاب قبل قتله بقليل يفوِّضُ إليه أمر السياسة في أوروبة ، ويؤكِّدُ له ثقته فيه .

---

(١) مذكراته .

ولم يقعد طلعت بدون حركة في برلين ، فأقام في شارع هاردنبرغ نمرة (٤) و (٥) تحت اسم ساعي بك ، وكان يختلِفُ إليه كثيرٌ من أصحابه الألمان ، ومن رجال السياسة مِنْ غيرِهم ، وكان يأتي أحياناً إلى سويسرة وإلى رومة ، ويقابِلُ فيهما مَن بينه وبينهم موعد ، وأسس محلاً خاصاً أشبه بدار قراءة ، كان يختلف إليه هو وأصحابه الدكتور ناظم وبهاء الدين شاكر والدكتور رسوخي ، وغيرهم للمذاكرة والمطالعة ، وكنا نذهب إلى هناك أنا والأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش ، والمرحوم محمد الباشهانبه التونسي ، الذي فقدناه ونحنُ أحوجُ ما كنا إليه ، إذ كان من أفراد شبان العالم الإسلامي علماً وذكاءً ، وعلوَّ همةٍ ، وطهارةَ أخلاقٍ ، وكنّا قبل ذلك بسنة فقدنا أخاه علي الباشهانبه ، الذي كان رئيس دائرة التشكيلات في نظارة الحربية ، وكان على طراز أخيه في كل مزية ، فكان هذان الصنوان من مفاخِرِ تونس ، وماتا في الغربة ، وهما يندبان وطنهما ، كما أن وطنهما يندبهما .

وكان طلعت قد مال بادىء ذي بدء إلى البولشفيك ، وحصلت له صلة مع رادك أحدِ زعمائهم ، وتفاءل خيراً بالعمل معهم ، حتى حدثتْهُ نفسُه أن يذهبَ إلى موسكو ، ولكن قبل قتله بقليلٍ رأيتُه زاهداً في مودتهم ، وصرَّحَ لي قائلاً : إنّ هؤلاء نقضوا كلَّ ما كانوا وعدوا به المسلمين من الاستقلال والحرية ، واستأنفوا سياسة بلادهم القومية ، أفلا ترى كيف فعلوا بأذربيجان ، وضموها ثانيةً إلى روسية ، بعد أن كانوا اعترفوا باستقلالها .

وبناء على اقتراح طلعت تأسس في برلين النادي الشرقي ، ليكون مجمعاً للشرقيين قاطبةً ، بدون تفريق بين الأجناس والأديان ، وعقد طلعت مجلس مؤسسين في البداية ، واقترحَ أن يكونَ هذا العاجِزُ رئيسَ المؤسسين ، ووافقه الجميع .

ثم لما انتظم عقد النادي ، والتأمتْ الجمعيةُ العمومية لانتخاب مجلس الإدارة بالاقتراع السري ، انتُخِبْتُ رئيساً باتفاق الآراء ، وكان طلعت ممَّنْ سعى في ذلك ، ثم اجتمعنا في النادي للمذاكرة في أمر بناء المقبرة الإسلامية ببرلين ، فانتخب الجمهورُ لجنة ، وأول من اقترح أن أكون أنا رئيسها كما حصل هو

طلعت ، وكان لا يصدر عن رأي إلا شاورني فيه أثناء مقامنا بعاصمة الألمان ، وكان يختلِفُ إلى صاحب بولوني كان أبوه ياوراً للسلطان عبد العزيز خان ، وأتاح له الزمن المجيءَ إلى سورية ولبنان ، وتعرّفَ بآل أرسلان منذ أكثر من (٤٥) سنة ، فلما شاهدني ببرلين ، وهو مهاجر إليها من روسية ، وأنا مهاجر إليها من الشرق ، صار يتردَّدُ عليَّ هو وابنه ، ثم توفي الوالد وبقي الولد على العهد ، وكان بين هذا وبين بعض رجال البعثة البريطانية ببرلين صحبة وصلة ، فشرع يرغّبني في الملاقاة مع بعضهم ، ويبيِّنُ لي ما في ذلك من الفوائد لمصلحة بلادي . فكنتُ أجاوبه : لا أرى في ذلك مصلحة ، ولا أعتقدُ أنّهم يريدون من مواجهتي سوى الاطلاع على الأخبار . وبقيتُ متأبياً الاجتماع معهم مدة ، والبولوني يغاديني ويراوحني ، إلى أن شاورتُ طلعت ، فأشار عليَّ بأن أقبلَ الملاقاة معهم ، لنرى ماذا يريدون ، ولعلّ هناك خيراً ، فلما عاد البولوني إليّ أجبتُه إلى الملاقاة ، وذلك في فندق كونتيننتال الذي يسكنُه البولوني نفسُه ، وحصلت المواجهة ، وطالت نحو ساعتين ، وقد جرى البحث في المسألتين العربية والتركية ، فأبديتُ أفكاري في كل منهما ، وصرّحتُ بما يخالج ضميري من التعجب لسياسة بريطانية العظمى ، الموصوفة عند الخلق بسداد الآراء ، كيف لم تُرِنَا شيئاً بعد الحرب العامة من هذا السداد ، وكيف أنّها تخدِمُ بعكس ما تنوي السياسة البولشيفيكية في الشرق .

وليسَ هنا محلُّ سرد ما دار بيننا وبينهم من المناقشات ، إذ ذلك يطول ، ولكن هناك نقطة لا بدّ من تعيينها ، كان الإنكليز يريدون أن لا يرجعوا إلى الوراء في مسألة معاهدة سيفر التي كانت بنت فكر لويد جورج رئيس الوزارة ، ولكنّهم كانوا بدأوا يدركون صعوبة تنفيذها ، فكانوا يحاولون إقناع الترك بقبول المعاهدة مبدءًا ، ثم تعديل ما يلزمُ تعديلَه منها فيما بعدُ ، لكن على شكلٍ يقال له : تعديل في كيفية التطبيق ، فأخذوا يبينون لي استحالة النكول عن معاهدة سيفر ، وإصرار إنكلترة عليها مع قبول تعديلات كثيرة فيما لو سلمت تركية مبدءًا بها .

فأجبتُهم أنني لا أرى إمكاناً لإمضاء الترك هذه المعاهدة ، إذ لم تبقَ لهم من أدوات الاستقلال شيئاً ، وكان يمكِنُ للدول أن تقول للأتراك : إنْ كنتم

لا تمتثلون لهذه المعاهدة ، فإننا نسلب من يدكم البقية الباقية ، فعليكم أن تختاروا أهون الشرين ، هذا فيما لو كان ثمة بقية باقية ، وكانوا يخافون قبل هذه المعاهدة على شيء تسلبونهم إياه ، فأما وقد جردتْهم هذه المعاهدة من كلِّ أسبابِ المُلك ، فلا تقدرون بعد الآن أن تهددوهم ، ولا أن تنذروهم بخطرٍ أعظم ، إذْ يكونُ جوابهم : لن نفقد بالمقاومة شيئاً زيادةً على ما سنفقدُه بقبولِ هذه المعاهدة ، لكن بالمقاومة نحفظ على الأقل شرفنا .

فكان جواب الإنكليز لي : كيف يقال هذا وقد تركنا لهم الأستانة ، وكان ممكناً إخراجهم منها .

فقلت : بموجب هذه المعاهدة لا يبقى للأتراك حكم حقيقي لا في الأستانة ولا في غيرها ، ثم قلت لهم : إنكم تناقشونني في أمر معاهدة سيفر ، فأنا أقول لكم بصراحة تامة إنّه لما دار البحث في المسألة العربية ، جاوبتكم جوابَ رجلٍ ذي علاقة وصلاحية ، لأنني عربي ، وكثير من العرب يوافقون على ما أقول ، وقد كنتُ من نوّاب الأمة العربية في الندوة[1] العثمانية ، فأما الجواب على المسألة التركية فمهما كان من ارتباطي مع هؤلاء الجماعة سواء برابطة الإسلام ، أو بالرابطة الشرقية ، فأقول لكم : ليس لي أن أبدي فيها رأياً ، والرأي فيها إنما هو للأتراك أنفسهم .

قالوا: وهل يوجد من نقدر أن نتذاكر معه من الأتراك ذوي الصلاحية للكلام؟ .

قلت : وهل تريدون ذا صلاحية أكثر من طلعت ؟ وقد كانوا يعرفون أنّه في برلين ، ويعلمون علاقة أحدنا بالآخر ، ولكنهم كانوا يتجاهلون ذلك تجاهل العارف ، فقالوا : وهل يمكنك أن تجعل بيننا وبينه ملاقاة ؟ قلت : ينبغي أن أسأله أولّا ، ثم أجاوبكم .

وبعد أيام دعوتهم ودعوت طلعت إلى الغداء عندي ، ودار بحثٌ طويل ، وسألوا طلعت في نهاية الحديث هل إذا أعيدَ إلى الصدارة العظمى يقدِرُ أن ينفِّذَ معاهدة سيفر ؟

---

(١) مجلس المبعوثين .

فأجاب : إنْ بقيَ الكلام على معاهدة سيفر هذه فلا أنا ولا غيري يقدِرُ على إنفاذها ، وإن كان يمكن تغييرها فلا تبقى حاجة إلى دعوتي إلى الصدارة لأجل تقرير الصلح .

نعم وعدهم طلعت أنّه إذا رضيتْ إنكلترة بتغيير المعاهدة يذهب هو إلى أنقرة ، ويجتهد في إقناع الكماليين بالصلح ، وأتذكر أنّه شاورني بعد انصراف الجماعة قائلاً : هل تذهب معي إلى أنقرة فيما لو رضي الإنكليز بتغيير المعاهدة ، وتساعدني على إقناع الحكومة الملية بالصلح ؟

قلت له : أذهبُ معك بشرط أن يعطينا الإنكليز ورقةً رسميةً بأنهم أصبحوا راضين بتبديل معاهدة سيفر ، وأنّهم يدعون تركية الملية إلى الصلح، وإلا لا يجوز أن نذهب بناء على مجرد القول ، لأننا نعلم أنّ رجال الدولة يفاوضون ويفوضون ، ثم لأقلِ سبب يتنصلون مما فوضوا به ، وينكرون ما فعلوه ، فليكن بيدنا وثيقة نتوكأ عليها في أنقرة ، فقال : هذا لا ريب فيه .

ويظهر أنّ الإنكليز وقتئذٍ لم يكونوا قطعوا أملهم من تنفيذ معاهدة سيفر ، وكانوا يظنّون أنّ اليونانيين غالبونَ للترك لا محالة ، فلويد جورج الذي كان يرى النكوص عن معاهدة سيفر مسقطةً له ، كان لا يزال منتظراً نتيجةَ الحرب الأناضولية ، فلذلك كتب الإنكليزُ الذين واجهونا كل ما دار بيننا وبينهم إلى لندن التي كان منها صدورُ الأمر بمقابلتِنا ، ولكن لم يردهم جواب صريح بقبول التعديل لمعاهدة سيفر .

أما نحن فأرسلنا إلى مصطفى كمال نخبره بما وقع معنا من المفاوضة ، وبقي المأمور الإنكليزي يجتهدُ بإبقاء الحبل معنا موصولاً ، فتوالت الولائم ، وتبودلت الزيارات ، وارتاح طلعت كثيراً إلى هذه العلاقة ، واغتبط بهذه المعرفة ، وصادف أثناء ذلك إحدى جيئات أنور إلى برلين ، فلم يسعني ولم يسع طلعت إلا إيقافه على ما جرى بيننا وبين البعثة البريطانية ، فلم يتلق أنور ذلك بالارتياح وقال : كل هذه المفاوضات خداعٌ في خداع . وأظهر إصراره على العمل بالاتفاق مع الروس .

ولما رجع إلى موسكو قال للبلشفيك : إنّ طلعت اتصل بالإنكليز ، وعوّلَ

على صحبتهم ، وفعلاً كنتُ أرى طلعت في تلك المدة مقلعاً تماماً عن فكرة البلشفة ، يراها مضرة بالترك والإسلام ، كضرر الاستعمار ، لا سيما بعد أن ثبتَ له أن الحمر عادوا فاستردوا الحرية التي كانوا أعطوها للأمم التي أعلنت استقلالها عن روسية ، ولم يقنعوا بسلب الحرية السياسية ، حتى نهبوا معها الأموال ، وقتلوا الرجال ، وأهلكوا الحرث والنسل .

وكان لطلعت صاحبٌ بمجلس نواب إنكلترة مُحِبٌّ لتركية منذ القديم ، يناضِلُ عنها كلّما لاحتْ له فرصة . فلما فرَّ طلعت إلى ألمانية بعد الكسرة ، أرسل إلى هذا الصاحب يلتمس ملاقاته في ألمانية أو هولندة ، آملاً بحمله على السعي في مصلحة تركية ، فأجابه الإنكليزي : إن التَيَرَان[1] الآن على تركية شديد ، فلا أقدر أن أصنعَ لكم شيئاً ، ولكن بمجرَّدِ ما أحسُّ استعدادَ القوم لقبول الكلام ، لا أتأخَّرُ عن الدفاع عنكم ، فلما رأى طلعت أنّه قد حصلت بينه وبين الإنكليز هذه الصلة ، كلَّف المأمورَ الإنكليزي الذي كان يختلف إلينا أن يسبرَ له غور هذه المسألة ، ويعرفَ له : هل يمكنه أن يلتقى[2] ذلك السير الإنكليزي صاحبه ، وكان هذا الكلام أمامي ، لأنّه من الأول إلى الآخر ما جرى منهم إليه ولا منه إليهم حديثٌ إلا كنتُ حاضره والقسيم المشارِكُ لطلعت في الرأي فيه ، فأبرق الإنكليزي إلى نظارة الخارجية بما وقع ، فاستدعوا ذلك المبعوث ، وأوعزوا إليه بأن يجيز المانش ، ويقابل طلعت في جهات الرين ، وضربوا موعداً للمقابلة ، وأبرقوا بالجواب إلى الرجل الذي كان الكلام معه في برلين ، فجاء هذا إليَّ ، وطلب مني إبلاغَ مآل البرقية إلى طلعت باشا حالاً ، إذا كان لا يريد إن يخلِفَ الميعاد ، وكان طلعت ذهب إلى ميونخ لتبديل الهواء ، وأبقى عندي عنوانه ، موصياً إذا جدَّ نبأ مهم أنْ أبرقَ إليه بالأَوْبَةِ ، فأبرقتُ إليه بأنّ صاحبه الإنكليزي الذي يبغي هو لقاءَه جاء إلى مدينة هام في الرين ينتظر مجيئه ، فخفَّ طلعت إلى برلين ، وجاء رأساً إليَّ ، وذهبنا إلى الإنكليزي الذي كان هو الوسيط ، فكرَّرَ له مآل البرقية التي وردتْهُ ، وذهب طلعت إلى هام ،

---

(١) الغضب .

(٢) في الأصل يتلاقى .

والتقى مع صاحبه المبعوث ، وعقدا جلستين طويلتين وتفارقا ، وعاد طلعت إلى برلين ، فأعاد عليَّ كلَّ ما جرى بينهما من المذكرات ، وكان من جملةِ كلام المبعوث الإنكليزي قوله هذا : إنني أشهدُ أنّ حكومتي اتبعتْ مع تركية سياسة خاطئة قبل الحرب ، وأثناء الحرب ، وبعد الحرب ، وأنّ سياسة إنكلترة العوجاء نحو تركية في السنين الأخيرة هي التي ساقت الأتراك رغماً [عنهم] إلى محالفة الألمان ، ولقد بينتُ لقومي مراراً خطل هذه السياسة ، فلم يُسْمَعْ - ويااللاسف - لقولي ، لأنّ الأكثرية هي ضد تركية ، والآن لستُ آتياً من قبل حكومتي ، ولا أنا منها ، ولكنّني أقدر أن أبلغها مطالبكم ، وأن أعضدها بقدر استطاعتي ، ولا لزوم لإيراد ما نوه إليه طلعت ، لأنّه معروف أنّه كان يطلب إلغاءَ معاهدة سيفر ، وإعادة استقلال تركية مع تراقية وأزمير ، وكل بلاد أكثرية أهلها ترك ، وينزل عن كل حق للدولة العثمانية في مصر وبلاد العرب ، وبعدَ ذلك تمشي تركية مع إنكلترة بحسب مبادىء الصداقة القديمة ، وإنْ لزم عقد محالفةٍ فتركية متهيئة لذلك ، ووقعت هذه المقابلة في أواخر فبراير - شباط سنة (١٩٢١) .

وفي مارس - آذار عقد الطلبة المصريون احتفالاً كبيراً بتذكار الثورة المصرية ، وكان طلعت فيه ، وخطبتُ أنا خطبة هنأني عليها ، ولم أشاهده بعدها ، إذ في (١٥) مارس - آذار نحو الظهيرة تلفنَ إليَّ أحدُ أصحابي من رؤساء الدوائر بنظارة الخارجية في برلين قائلاً : إنّ رجلاً أرمنياً قتل الصدر الأعظم الأسبق نحو الساعة الحادية عشرة من ذلك النهار ، وما مضى دقيقة حتى دخل علي الشيخ عبد الرحمن سيف الإيراني صاحب مجلة « آزادي شرق » ومعه اثنان أفغانيان ، ليخبراني بالحادثة ، ثم وصل الشيخ عبد العزيز جاويش ، وذهبنا إلى محلّ الفقيد معاً ، وكان لا يبعدُ عن منزلي أكثرَ من عشر دقائق ، كما أنّ القتلَ وقع في نفس الشارع الذي كان يسكنُ فيه طلعت ، غير بعيدٍ عن بيته ، إذ كان هو يسكن في نمرة (٤) إلى (٥) والقتل حصل أمام نمرة (١٧) وكان لذلك وقعٌ عظيم ببرلين ، فبعض الجرائد المنسوبة للحزب الإمبراطوري ندبتْ طلعت ، وتأسّفتْ عليه ، وذكرت مزاياه ، وأنه كان مع أنور السبب في محالفة تركية لألمانية .

وأما الجرائد الديموقراطية واليهودية فغمزته ، وعرّضتْ بمسألة الأرمن ، ونسيت صداقته لألمانية .

وأقيم له مأتم حافل ، حضره كثير من الألمان مع الجالية الشرقية ، وأودعت جثته محلاً في مقبرةٍ ألمانية إلى أن أكملنا المسجد والأبنية التي أنشأناها في الجبانة الإسلامية ، تحت نظارة هذا العاجز ، وبمساعي إمام السفارة العثمانية حافظ شكري أفندي ، فنقلت التجاليد[1] إلى مستودع الأجساد الذي بنيناه فيها ، لأجل إيداع الأجساد التي يُرادُ نقلها إلى وطنها الأصلي ، فهي هناك مع تجاليد جمال عزمي بك ، والدكتور بهاء الدين شاكر بك ، اللذين اغتالهما الأرمنُ بعد واقعة طلعت بعدة أشهر عفا الله عنهم جميعاً .

أما قتل هؤلاء كلهم فكان كله غِيْلَةً وخِلْسَةً من الوراء ، بحيث لم يكونوا يشعرون إلا وهم صرعى ، وقد كان طلعت في البدء بلغه ترصُّدُ الأرمنِ له ، فكان يداري ، ويرامق ، ولا يخرج وحده ، ولكن ما مَضت أشهر حتى استرسل واستهتر ، وأخذ يخرج وحده في النهار الواحد مرتين وثلاثاً ، فلما بلغ الأرمن ذلك أرسلوا إليه شاباً مصاباً بالسل ، موتوراً فيما يقال بقتل أهله ، اسمه تاليران ، فقالوا له : أنتَ لا تعيش أكثرَ من سنة ، فإذا كان لا بدّ من أن تفارقَ الحياة قريباً فالأحسن أن لا تفارقها قبل أن تقتل طلعت ، هذا الذي قَتَلَ أمةً بأسرها من الأرمن ، وقيل : إنّهم تعهدوا له إذا قَتَلَ طلعت بتخليصه من القتل بل من الحبس ، وذلك بواسطة إحدى الدول الكبرى ذات الكلمة العليا ، ومن المحقق أنّهم سعوا في ذلك لدى تلك الدولة العظمى ، كما أنّه يقال كثيراً إن سفير هاتيك الدولة سعى بمزيدِ نفوذهِ في برلين بتخلية سبيلِ القاتل المذكور ، وأخلي سبيله لشهرين من حبسه ، فنقم الترك ذلك على الألمان إلى هذا اليوم ، وعندما طلب الحلفاء في مؤتمر لوزان بهذه الأيام تصفية أملاك الألمان التي في تركية لحساب الحلفاء أجابوهم حالاً إلى طلبهم ، ولما عُوتبوا على ذلك من جهة الألمان أجابوا : إننا لم ننسَ إطلاق سبيل تاليريان قاتل طلعت لشهرين من حبسه .

---

(١) الأجساد .

ويكون من باب الفضول أنْ نقولَ : إنّ طلعت كان عصامياً ، فكل أحدٍ يعلم أنّه رُقِّيَ في مدة عشر سنوات أو أقل من مأمورية تلغراف سلانيك ، بمعاش ألف وخمسمئة قرش في الشهر ، إلى الصدارة العظمى ، ولا جرم أنّ سرعة هذا الترقي كانت بسبب الانقلاب وإعلان الدستور ، ونفوذ جمعية الاتحاد والترقي ، التي كانت هي سبب الانقلاب ، وكان طلعت من أعضائها ، ولكن لو لم يكن محمد طلعت رجلاً خارِقَ العادة في ذكائه ومضائه ، وحزمه وعزمه ، لما أصبحَ هو رئيس جمعية الاتحاد والترقي بلا منازع ، فقد تصرفتْ هذه الجمعية بزمام السلطنة العثمانية عشرَ سنواتٍ تامة ، وتصرف طلعت بزمام هذه الجمعية ، جميع هذه المدة ، وكان هو دائماً روح هذه الجمعية ورئيسها الفعلي ، ولو لم يكن كل الأحيان رئيسها الرسمي ، وكان هو المرجع الأول والأخير للدولة من قبل أن يتولى الصدارة ، بل لحظتُ أنّ الصدارة لم تزده نفوذاً ، بل بالعكس أظهرتْ شيئاً من ضعفه ، وخطأت في نفسي رأيه بقبولها . وأظنُّ أنّ الذين حفزوه إلى ذلك هم رفاقه مدحت شكري ، والدكتور ناظم ، والبهاء شاكر ، وضيا كوك ألب ، والدكتور رسوخي ، هؤلاء الذين كانوا أثناء الحرب عماد المركز العمومي للجمعية .

وبالجملة فلو كان في جميع أعضاء هذه الجمعية مَنْ يضارعُ طلعت أو يقادره ، مع كثرة عددهم ، وطموح الكثيرين منهم إلى المعالي ، لما انفرد هو بالرئاسة على جميعهم ، وقد قلتُ لما مات : إنّ هذه الجمعية ماتت بموته ، والحق أنّهم لم يجدوا من بعده رئيساً يتّفقون عليه ، ويضم شملهم .

ولم يكن طلعت ممن حصلوا العلم في المكاتب العالية ، بل كان جميع عرفانه شدواً من هنا وهناك ، والتقاطاً من عشرائه الذين كان منهم عِدّةُ نفرٍ من أتمِّ الناس تحصيلاً ، ولكن كان طلعت يجبِرُ ما نقصَه من العلم المسموع بالعلم المطبوع ، ويسدُّ جورة جهله ، بغزارة فهمه ، وسرعة لحظه .

وهناك مزية أخرى ضَمِنَتْ له حفظ تلك الرئاسة على أقرانه ، وهي معرفتُه أن يعصمَ نفسه من المطامع الدنيئة ، والمطاعم الوبيئة ، وعدم استخدامه شيئاً من نفوذه الطائل في جمع ثروة ، بحيث سطع له من حالة فقره برهانٌ دائم على

نزاهته ، ومكن له ذلك دعائم رئاسته ، بينما كثيرون من زملائه قد غمسوا أصابعهم في أدهان المنافع ، منهم من اشتط ومنهم من اقتصر . وكان يقول : أفلا يكفي كون هذه الأمة تحملتني على جهلي ، أفأحمِلُها أيضاً على سرقتي وإغلالي ؟ .

نعم تولى طلعت أمور الدولة العثمانية عشر سنوات ، لم تشبه فيها شائبة إغلال ولا إسلال ، وستر كثيراً من عيوبه ، وكفّر عن كثير من أغلاطه ، بعِفَّةِ نفسه ، ونزاهةِ طبعه ، ولما وصل إلى ألمانية سنة (١٩١٨) كان في جيبه (٥٠) ألف مارك ، فلما نفدتْ أرسلَ إليه أحدُ أصحابه ممن أثرى بسبب انتسابه إلى طلعت مبلغ (٢٠٠) ألف مارك ، كان ينفق منها ، فلما مات كان باقياً منها شيءٌ يسير ، ووجدتُ عندَه بعضَ عُلَبٍ ذهبية ، وقِطَعٍ نفيسة ، منها ما أنعم عليه به السلطان ، ومنها تذكارات من بعض إخوانه ، كانَ قد ادخرها للبيع فيما لو أنبتَّتْ به أسبابُ المعيشة .

أما « خاطرات »[1] طلعت ، فقد كانت إحدى شركات الطبع بألمانية تقدّمتْ لشرائها بعد موته ، حتى تنشرها بالتركية ، وتنقلها إلى سائر اللغات ، ولكنَّ أرملة طلعت لم تبت إلى اليوم في أمر هذه « الخاطرات » شيئاً .

نهاية جمال باشا

أما جمال فقد تقدم شيء من ذكره ، وكيف كانت حركتُه بعدَ الحرب العامة ، وكيف ذهب إلى أفغانستان ، وحظي عند ملك الأفغان بمنزلة سامية ، وذلك أنّه تولّى تنظيمَ الجيش الأفغاني ، واستجاد لذلك ضباطاً من الجيش العثماني ، وأفلح في ترتيب الجيش وتدريبه ، ووزعه على الأنماط العصرية الحديثة ، بحيثُ كان عند حسن ظن الملك فيه .

وبعد أن أقام بكابل نحو سنة جاء إلى أوربة لمشاهدة عائلته التي كان تركها في ميونخ ، وقضاء بعض المهام المتعلقة بدولة أفغانستان ، وكان قد انتدب

(١) مذكرات .

مايسنر باشا الألماني ، رئيس مهندسي السكة [الحديدية] الحجازية سابقاً ، للذهاب إلى أفغانستان ، ومعه رهط من المهندسين والاختصاصيين ، لفحص البلاد فحصاً مدققاً ، وعمل برامج للطرق الحديدية ، والأعمال الكهربائية ، والمشروعات الزراعية ، وعمليات استخراج المعادن ، وغير ذلك ، وقد لبّى مايسنر باشا الطلب ، وانتدب لكلِّ فنٍ من أربابه مَنْ يُوْثَقُ بعلمه وعمله ، وليس أسهل من وجود هذه الطبقات في ألمانية ، لا سيّما بعد الحرب العامة ، التي قلت فيها الأعمال ، وتوفّر العمال ، ولكن أبتْ الحكومةُ الألمانيةُ أن تنفِقَ على هذه البعثة من مالها ، أو ترسلها من قبلها ـ ربما كان ذلك خوفاً من إنكلترة ، التي تحذر جداً من تثقيف الأفغان على الطرق العصرية ـ فذهب جمال إلى ميونخ ، واتخذ واسطةً للدخول إلى فرنسة ، وسمحوا له بالذهاب إلى باريز ، وقيل : إنّه قابل المسيو بوانكارهْ ، وعرض المشروع المذكور على الحكومة الفرنسوية ، بشرط أن ترضى هي بالإنفاق على البعثة الفنية من مالها ، ويكون للفرنسيس فيما بعد حق الرجحان على غيرهم في العمل ، فرضيتْ الحكومةُ الفرنسوية باقتراح جمال ، كما أخبرني هو نفسُه حيث لقيتُه ببرلين بعد إيابه من فرنسة ، وإن كنتُ لم أسمع إلى هذا اليوم بأن بعثة فرنسية ذهبت إلى كابل لهذا الغرض ، بل سمعتُ بذهاب بعثة فنية إيطالية .

ثم إنّ جمال عاد قاصداً أفغانستان من طريق موسكو ، وكان ذلك بعد أن تولى أنور كبر الثورة في تركستان على الروس ، فلم يتوقّفْ جمال عن المرور من روسية اتكالاً على كونه من رجال الحكومة الأفغانية لا يقدر الروس أن يمسّوه بسوء ، ولكنّ السوفييت وضعوه تحت المراقبة ، كما كانوا وضعوا الدكتور ناظماً وخليلاً عم أنور ، فتمكن جمالُ بذكائه أن يقنعَهم باستيائه من حركة أنور ، وأعلنَ ذلك في الجرائد ، وطعنَ في سياسة أنور ، ثم اتفق معهم على أن يذهبَ هو إلى أنقرة ، ويتكلّم مع الحكومة الملية في عملِ قرارٍ يمنعُ أنورَ من الاستمرار في عداء روسية ، فذهب جمال قاصداً الأناضول ، وهبط أولاً في تفليس عاصمة كرجستان ، وأخذ يجولُ في الشوارع مطمئناً ، ظاناً أنّه باستصحابه مرافقين يأمن شر الغيلة ، فإذا الأرمن هيأوا له من يغتاله ، هو وصاحبيه ، وجاء خبرُ قتله إلى أوروبة في نحو (٢٥) يوليو ـ تموز عام (١٩٢٢) على أنّ قتلَه وقع في (١٨) أو

(١٩) من ذلك الشهر ، وأتذكر أننا كنا يومئذ في لندن ، نحتجُّ على القرار الذي أصدره مجلس عصبة الأمم بتأييد منطوقِ المعاهدةِ السرية التي بين إنكلترة وفرنسة ، بشأن سورية وفلسطين ، تلك المعاهدة التي أعطوها اسم انتداب فدخل جنرال إنكليزي علينا ونحن في فندق سسيل ، وهو فَرِحٌ مستبشرٌ قائلاً : لقد قتل جمال باشا ، وعسى أن يلحقَ به أنور ، فلم أُرِدْ أن أعرّفه بنفسي ، لأعلم ماذا يقول ، وإنما علمتُ منه ومن غيره من الإنكليز ، ومن لهجةِ الجرائدِ أنّه مع كل بغضاءِ الإنكليز للروس ، وعلى الخصوص للبولشفيك ، كانوا في المصارعة التي وقعت بين أنور وموسكو ، يفضلون انتصار البولشفيك على انتصار أنور . هذه هي الحقيقة .

وبعبارة أخرى يرونَ في إنكلترة [أنّ] الخطر الإسلامي أعظم من الخطر البلشفي ، فيجب على المسلمين والشرقيين أن لا يتجاهلوا هذه الحقيقة ، لأنّ لها معنىً كبيراً .

فيكون بين موت جمال وموت أنور ، نحو جمعتين فقط ، وبينهما وبين طلعت نحو سنة وأربعة أشهر ، إلى سنة وخمسة أشهر . وهكذا هؤلاء الثلاثة الذين تصرّفوا بأزمَّةِ الدولة العثمانية طوال الحرب العامة ، وكان لهم دور في التاريخ العام كله ، أصبحوا في مدة سنة وأشهر كهشيم المحتظر ، والبقاء لله وحده .

واختلفت الروايات في كيفية غيلة جمال ، فقيلَ : إنّ البلاشفة وإنْ كانوا أذِنوا له بالذهاب إلى الأناضول ، فقد كانوا غيرَ واثقين به ، ويخافون أن ينقلِبَ عليهم كما انقلبَ أنور ، أو أن يقاوِمَ سياستهم في أفغانستان بعد رجوعه إليها ، فأذنوا له بالمسير إلى أنقرة من جهة ، ودبروا له مكيدة القتل من جهة أخرى بواسطة الأرمن ، الذين لهم علاقة بهم ، وهكذا استراحوا من غوائله .

وقيل : بل جمعيات الأرمن التي قتلت طلعت وجمال عزمي والبهاء شاكراً والأمير سعيد حليماً الصدر الأعظم الأسبق ، هي التي قتلته .

وترى البلاشفة يتنصّلون كثيراً من تهمة قتله قائلين : لماذا نسعى في قتلِ رجلٍ كان يسعى في مصالحنا ؟ وقد قبضوا على أناسٍ كثيرين من المتهمين بقتل

جمال ، ولكنني ما سمعتُ أنّه قُتِلَ منهم أحدٌ إلى اليوم .

وكان جمال ذكي الفؤاد ، متوقِّدَ الذهن ، سريعَ الفهم ، ماضيَ العزم كالسيف الصارم ، مهابَ الطلعة ، لائقاً بأن يكون قائداً عسكرياً كبيراً لمضائه ، وسدادِ تدابيره ، ولكنه كان سريع الانفعال جداً ، متكهربَ الأعصاب ، شديد الخنزوانة[1] ، مغرماً بالمجد ، مولعاً باكتساب دوِيِّ الذكر ، متنفِّجاً ، متغطرساً ، جبّاراً ، مفتوناً بأن يوصَفَ بالجبروت ، محباً للانتقام والبطش ، جنت الدولة جناية كبرى على نفسها وعلى العرب والترك معاً بأن سلمته زمام سورية مدة الحرب تسليماً مطلقاً ، مع ما في نحيزته من الاستعداد للاستبداد ، والنشوة بخمرة النهي والأمر ، فمضى في شهواته وأهوائه ، غير حاسب ولا مراقب ، ولا ناظر إلى شيء من العواقب .

وكان بعض المتملقين له وبعض المتهورين في السياسة التركية الطورانية ، يزيِّنون له أعماله ، ويثيرون من نخوتِه ، بقولهم له : إنّ الآمال إنما هي منعقدة به لا بغيره ، فكانت تزيدُه هذه الأماديحُ طغياناً وجبروتاً ، ولم يكن يشكُّ مع هذا في كون الحرب ستنتهي إن لم يكن بظفر ألمانية وتركية ، فبصلح يضمَنُ لكلِّ فريقٍ مكانه .

ولم يكن من غروره يعتقد أصلاً بأنّ بلاد العرب يمكن أن تخرجَ من يد تركية ، فكان ذلك من الأسباب التي حملته على الجور ، والعسف ، وإرهاف الحدّ ، وإرهاق الخلق .

ولما خرج الشريف حسين على الدولة بقي مدةَ أيام وهو لا يصدِّقُ الخبر ، ويظنُّ أنّ أولاده إنما خرجوا من المدينة ، وشنوا الغارة على سكة الحديد ، بدون علمه ، وأنه متى بلغ الشريف الخبر يردهم إلى الطاعة ، وكان يعلل ذلك بكون الشريف لا يجسر على هذا الأمر ، وأنّ رهبة الشريف من جمال تمنعُه منه .

والحاصل أنّه كان مغروراً بنفسه ، وقد زاده تمامُ حريته في العمل ، وانطلاقُ يده بما شاء ـ غروراً وسُكراً أيّام كان في سورية ، فخرج عن دائرة المعقول في

---

(١) [التكبر] .

كثير من الأمور ، ووصل [به الأمر] إلى أن صار يجمعُ أعيان [البلاد] بلدةً بلدةً ، ويحصي عددهم ، وينفي منهم (١٠) في المئة آخذاً إياهم بالقرعة، أو ترتفع الأوراق إلى قيمة الذهب .

الشريف حسين وصلاته بالإنكليز

أما كون سياسته هذه هي التي أحدثت المسألة العربية ، ولولا قتله من قتل من كبار السوريين وأدبائهم لم يكن ثار الشريف على الدولة ، ولا انشقَّ العربُ عن الترك ، فليس بصحيح ، إذ علاقةُ الشريف بالإنكليز وتحفُّزه للقيام على الدولة في أول فرصة تلوح يرجعان إلى أيّام السلطان عبد الحميد نفسِه ، الذي كان يعلم ذلك .

ولما أخذ الاتحاديون على يدِ السلطان ، وأجبروه على نصب الشريف حسين أميراً على مكة ، مكان الشريف علي ، قال لهم : إنني أبرأُ من تبعةِ كل ما سيعمله هذا الرجل ، لأنني أعرفُ حقيقتَهُ .

وقد كانت مداخلات الشريف لإنكلترة في أمر الثورة من قبل الحرب العامة ، وسنة (١٩١٢) توجَّهَ أحدُ الأمراء المصريين إلى لندرة مفوَّضاً منه أن يسعى في اتفاق بين الإنكليز والعرب ، على أن تقدم إنكلترة للعرب السلاح ، وهم ينتقضون على الدولة ، ويكونون حلفاء لإنكلترة في المستقبل[(١)] .

ولما عرض ذلك الأميرُ المصري هذا الاقتراح على الإنكليز تلكأتْ نظارةُ الخارجية بلندرة عن قبوله ، ولم تكتم السبب في رفضها هذا المشروع ، وهو : أنّ إنكلترة تريدُ هي الاستيلاء على بلاد العرب ، فلا يوافقها أن تعطيَ جزيرةَ العرب سلاحاً .

وبالفعل كان الإنكليز منذ سنين قد بدؤوا يمنعون تجارهم من بيع السلاح إلى

---

(١) وممن شكك في نوايا الشريف حسين من ثورته التي زعمها وتزعمها لغايات في نفسه الزعيم الجزائري محمد البشير الإبراهيمي ، والأستاذ محب الدين الخطيب . انظر كتابي «من سير الخالدين بأقلامهم» ص (٥٤ و١٥٦) .

عرب اليمن ، وعرب عمان ، وعرب العراق ، بل كانوا شرعوا يبثون أناساً يشترون البنادق التي في أيديهم بزيادةٍ على ما تساوي ، وكلُّ هذا حتى إذا أرادت إنكلترة احتلال تلك الأقطار ، وجدتْ أهلها عزلاً مقلّمي الأظفار .

ثم إنّ الشريف راجع إنكلترة في مشروع التحالف العربي الإنكليزي لأول الحرب ، فلم يجيبوا نداءَه ، أملاً باستغنائهم عنه ، فلما تمطّتْ الحربُ عليهم بِصُلبها ، وناءَتْ بكلكها ، شعر الإنكليز بالاحتياج إلى العرب ، فعادوا إلى قبول اقتراح الشريف .

وعلى كل حال فليست قسوةُ جمال في سورية وقتلِه مَنْ قتل هما سبب ثورة الشريف .

وعلى فرض أنّ جمالاً لم يفعل ما فعله ، فكانت الثورة واقعة ، وكان ما ظهر من نفور الأهالي من الترك ، وشماتة كثير من العرب بالتركِ يومَ دارت الدائرة على ألمانية وتركية ، لا سيّما فريقُ الشبان منهم ، بانتصار الحلفاء على الدولة العثمانية ، النصارى الكاثوليك بانتصار فرنسة ، والنصارى الأرثوذكس بانتصار إنكلترة ، والمسلمين أيضاً من ذلك الحزب الممالىء للشريف بظفر الحلف العربي الإنكليزي . كلُّ هذا كان وقع كما وقع ، سواء قتل جمال مَنْ قتلهم ، أو لم يقتلهم ، ينبغي لنا أن نعترفَ بذلك إن كنّا نتوخّى حقيقةً وتاريخاً .

جنايات جمال باشا

ولكنّ خطأ جمال في رأيه،وجنايته الكبرى على العرب والترك في فعله هما من الوجوه الآتية :

أولاً : إنّ فريقاً من الذين قتلهم أبرياء من خيانة الدولة ، ولم يكنْ لهم ذنبٌ سوى وجودهم في الحزب المعارض لجمعية الاتحاد والترقي ، والقانون العثماني لا يَعْرِفُ الاتحاد والترقي ، بل السلطنة العثمانية .

ثانياً : إنّ فريقاً آخر منهم لم يوجد عليهم وثائق خطية ، ولا قرائنَ قطعية تذهَبُ في جزائهم إلى درجة القتل ، وقد برَّرَ جمال هذا العمل فيما بلغنا من

نفس رئيس الديوان العرفي بأنّه من باب القتل السياسي ، مع أنّه كان الأولى بهؤلاء أن يُتركوا إلى حكم القانون ، فيحكم عليهم بحبس أو نفي على حسب درجة جرمهم .

ثالثاً : على فرض غير الواقع ، وهو أنّ هؤلاء مجرمون أعداء للدولة ، فلم يكنْ من بابِ السياسة ، ولا حسن الرأي فتحُ هذه المسألة أثناء الحرب ، ومجازاةُ أناسٍ قد عُفِيَ عنهم ، ونكؤ القروحِ التي كانتْ قد سكنتْ نوعاً ، وإثارةُ عواطف العرب وحفظائهم ، وإظهارُ كون الترك يريدون الانتقام في هذه الفرصة التي سنحتْ لهم للبطش ، وتعزيزُ النزعة الأجنبية بهذه السياسة .

رابعاً : إنّ الألوف الذين نفاهم إلى الأناضول مع عيالهم وخرّبَ بيوتهم ، وأمات كثيرين منهم في الغربة لم يكن منهم مئةُ شخص يدرون ما هي السياسة ، فضلاً عن أن يكونوا خائنين للدولة ، فكان تغريبُهم عن أوطانهم مجردَ عذابٍ وقهر ، بدون أدنى فائدة سوى النفور ، مع تكليف الدولة عليهم (١٥٠) ألف ليرة شهرياً ، فكان خطأ جمال أنّه سلّحَ أعداءَ السلطنة العثمانية ، وأنصارَ الشقاق بين العرب والترك ، وروّادَ السياسة الأجنبية الكثيرين في الشرق ـ بسلاحٍ من البراهين ، لم يكونوا يملكونه فيما لو كان الأتراك انصرفوا من بلاد العرب بدون أعمالِ جمال وموبقاته ، فإنّ الذين يتذكّرون فضل الدولة العثمانية اليوم وبضدها تتبين الأشياء ، لا يجدون الأجوبة التي يجاوبها الآن سعاةُ السيطرة الأجنبية ، المديونون بهذه الأسلحة المعنوية لأحمد جمال وحده ، **فجمال خدم الحلفاء في بلاد العرب أثناءَ الحرب ، كما أنّ الحلفاء خدموا الأتراك في بلاد العرب بعدَ الحرب . . .**

هذا هو أهم أخطاء جمال وجنايته على هاتين الأمتين . ولقد خصصنا لهذه المسألة كتاباً عن الحرب العامة نشرنا منه بعض مذكرات مؤخراً تناقلتها الجرائد ، ، فلا نجدُ لزوماً أن نزيدَ هنا من هذا الموضوع على ما ذكرناه[١] .

وقد نشر جمال أثناء وجوده بسورية كتاباً بالتركي والعربي شرح فيه الأسباب

---

(١) هي منشورة في هذا الكتاب من صفحة (٤٠٥ ـ ٤٨٥) .

التي دعته إلى محاكمة الذين قبض عليهم ، وقَتْلِ من قتلَ منهم ، ونفي من نفى . واستظهر على أحقية ذلك بالوثائق والشهادات مما رآه كافياً للقصاص ، وإن كان من يَقْرَأُ الكتاب لا يرى كلَّ تلك البراهين نواصع ، ولا جميعَ أولئك الشهود مقانع .

كما أنّه قبل موته بقليل كان نشر « خاطراتِه » ، وتكلَّم فيها على الحرب العامة ، وعلى ثورةِ ملك الحجاز ومقدماتها ومصائرها ، وعلى مسألة سورية ، والأسباب التي حملتُه على القتل ، والصلب ، والنفي من الأرض ، ومآلها خيانة هؤلاء للجامعة الإسلامية ، وتألبهم مع الأجانب أعداء ملتهم على ملتهم ، وتمهيدهم للأجانب الاستيلاء على أوطانهم ، وربّما كان بعضُ ما قاله صحيحاً إن لم يكن كله ، وكان هناك من العرب من لم يكن يبالي بجامعة إسلامية ولا شرقية ، ومن يعتقد أنّ انتصار إنكلترة هو انتصار العرب ، ولكن ليس للطورانيين الذين هم أنفسهم قد نبذوا هذه الجامعة ظهرياً ، وقالوا بالقومية التركية البحتة ـ أن يعاقبوا بالقتل من العرب من نبذ الجامعة الإسلامية ، وقال بالقومية العربية البحتة ـ ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٤] .

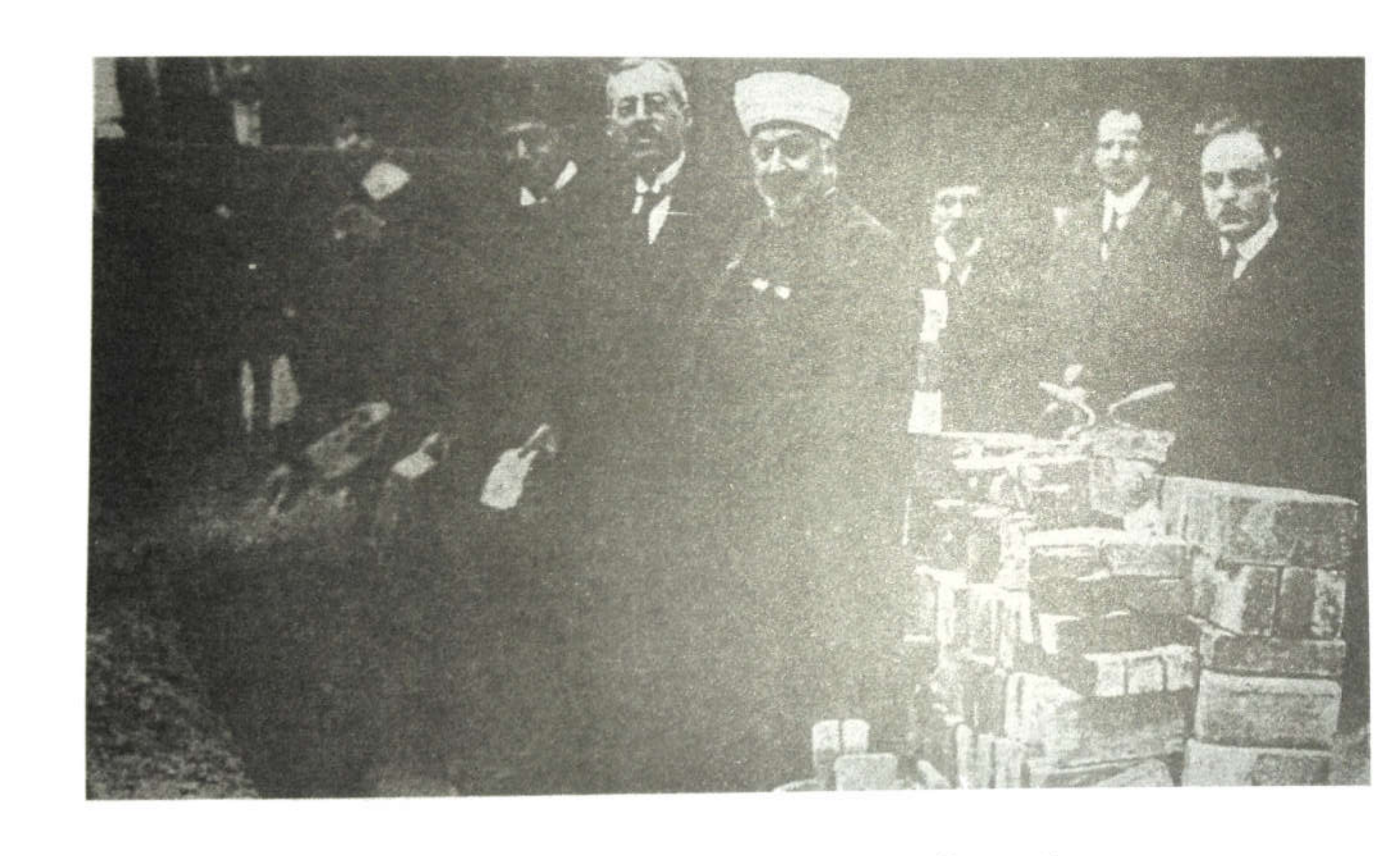
هذا ما اخترنا ذكره من خبر هؤلاء القوم مما عرفناه بالذات ، وشاهدناه بالعين ، وسمعناه بالأذن ، فيكون ذا قيمة عند الخلَفِ ، الذين يهمهم أن يعرفوا حقائق ما جرى في الحرب العامة وفيما بعدها ، لأنّه بيانٌ عن عيان . وقد علَّمتْ الخلقَ التجاربُ أنّه كلّما تطاولت الأيام ، وتراخت الآماد على الحوادث ، زِيْدَ في الأخبار ، ونقص منها ، وما زالتْ تعتورُها التصورات بالقَلْبِ والإبدال ، إلى أن تصبحَ الأخبارُ في وادٍ ، والحوادِثُ الحقيقيةُ في وادٍ ، ويعود التاريخ قصصاً موضوعة .

فالخبر أمانة في ذمة المعاصر للحادث ، ولا سيّما المطلع والمشاهد ، ينبغي أن تؤدى تلك الأمانةُ على أصلِها ، نصحاً بالرواية ، وحرصاً على التحقيق ، والله تعالى وحده من وراء العلم .

***

الملاحق

١ ـ إلى العرب : بيان للأمة العربية عن حزب اللامركزية — للأمير شكيب أرسلان
٢ ـ حصارات العرب للقسطنطينية وفتح الترك لها — للأمير شكيب أرسلان
٣ ـ خطط إستانبول — للأمير شكيب أرسلان
٤ ـ نص القانون الأساسي العثماني (الدستور) .
٥ ـ نص خطبة السلطان عبد الحميد الثاني في افتتاح مجلس المبعوثين العثماني (البرلمان) .
٦ ـ أسماء سلاطين آل عثمان وبيان مدة حكم كل منهم .
٧ ـ ولاة دمشق في العهد العثماني وبيان مدة حكم كل منهم .



الامير شكيب ، والى يساره الشيخ عبدالعزيز جاويش ،
اثناء تدشين مقبرة المسلمين في برلين عام ١٩٢١ .

الى العرب

بيان

للامة العربية

عن

حزب اللامركزية



بقلم

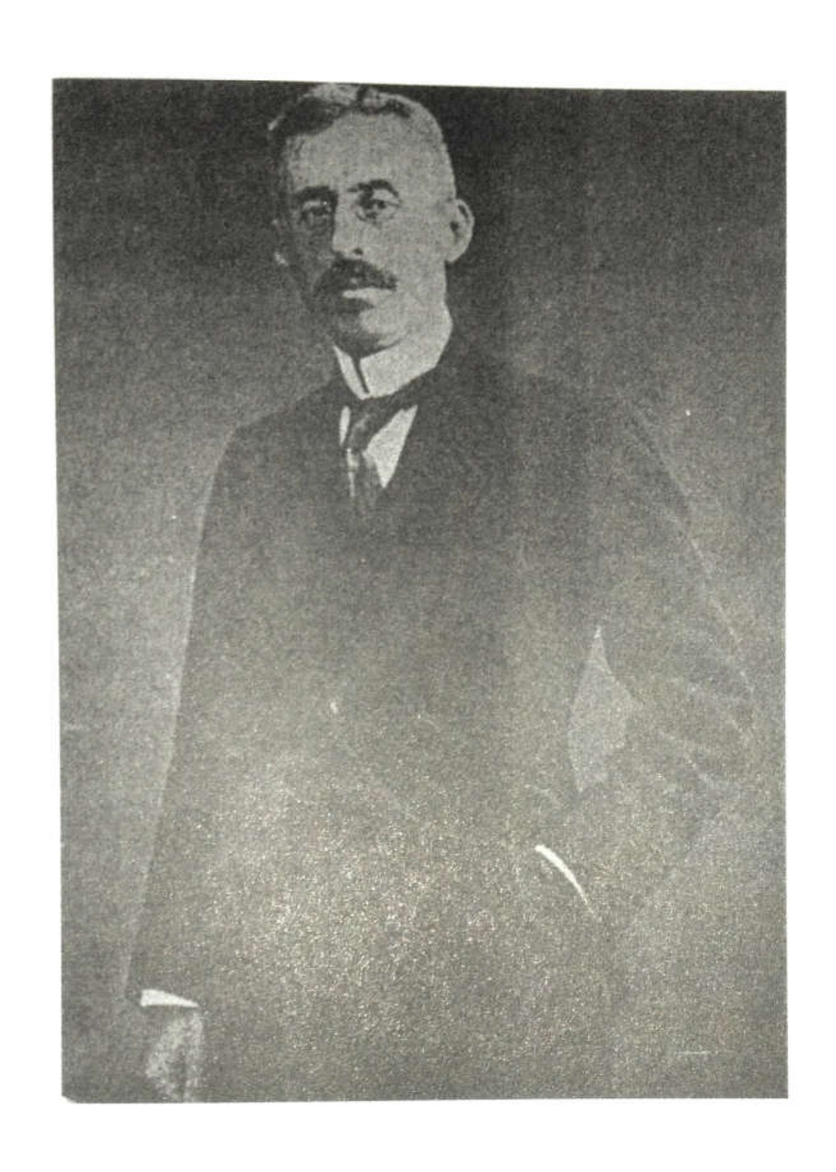
فرع الشجرة اللخمية القحطانيه الأمير

شكيب ارسلان اللبنانى

(قيمة النسخة الواحدة خمسة قروش)

طبع بمطبعة « العدل » بدار السعاده

١٣٣٢ هـ



الأمير شكيب أرسلان : مبعوث حوران وصاحب هذا الأثر

(١)

إلى العرب
بيان للأمة العربية عن حزب اللامركزية

بقلم أمير البيان والمجاهد الكبير (١)

الأمير شكيب أرسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على النبي العربي الكريم

وبعدُ : فإنّه ما زال التنافسُ من شأن النفوس البشرية ، ينافس الأخُ أخاه ، وكلاهما ابنَ عمه ، والبطنُ الواحد من العشيرة البطنَ الآخر ، والقبيلةُ الواحدةُ القبيلةَ الثانية ، وهما من شعبٍ واحدٍ ، وأرومةٍ فردة ، وعلى مذهبٍ جامعٍ ، وإلى غايةٍ غيرِ مختلفةٍ .

وقد امتازت الأمةُ العربية ، وهي أمةٌ واحدةٌ بين جميع الأمم بالغلوّ في العصبيات ، والتمسك بالكلالات[٢] ، فهي تجعل هذا الأمرَ فوق كلِّ أمرٍ ، وتجدُ من غَضَبها لأنسابها ، وحميتها لأصولها ، مالا تجده في أمةٍ أخرى من الأمم الشرقية ولا الغربية ، وما ترى الغارات لأجلهِ متصلة ، والثارات غير نائمة لحظةً إلى يومنا هذا ، فهذه سنةُ الله في خلقه على تفاوتٍ في درجات التمكن ، غلب سلطانها على الأمم البادية ، ولم تخلص من تأثيرها الأمم الحاضرة ، بل

---

(١) كتب الأمير هذا الكتاب وهو في طريقه إلى المدينة المنورة عام (١٣٣٠ ـ ١٩١٣) وأرسل به للطبع في الأستانة . وهو كتاب يصور الصراع الفكري السائد في المجتمع العربي عشية الحرب العالمية الأولى ، وهو يمثل الاتجاه العثماني،وقد حققتُ مذكرات محب الدين الخطيب التي تمثل الاتجاه القومي المناهضَ للعثمانيين،ونشرتها في كتابي « من سير الخالدين بأقلامهم » وحرصاً على أن يقفَ القارىء على رأي الفريقين أنشر كتابَ الأمير شكيب أرسلان،ومن الجدير بالذكر أنّ الأميرَ ينطلِق في موقفه المؤيد للدولة من حرصٍ على مصلحة العرب أولاً .

(٢) [القرابات] .

الأمم المتمدنة الراقية ، فترى في أوربة أشد المناظرات قائماً بين أقسام الشعب الواحد ، الذي تجمعُه جامعةٌ واحدةٌ ، ويظله لواء فرد ، نظير الممالك الألمانية ، ونظير النمسة والمجر ، ونظير غيرها من الممالك التي تنطوي أحشاؤها على نزاع كثير ، ولا يأخذُ بحجزاتها عن إعلانِ الانفصال سوى الخوف من شرٍّ أعظم ، والاستهداف لسهمٍ أنفذ ، بل تجدُ الدولَ العظامَ ، التي بينها من الإحن[1] القديمة العصور ، والحزازات المتراكمة في صدور ، مالا يكاد يسعه التاريخ - قد سبقت إلى الاتحاد من جهةٍ أخرى ، حفظاً للتوازن الذي هو أقوى شرط للسلام ، ودفعاً لتسلُّطِ الراجح على المرجوح ، وهي في الواقع ماشيةٌ في ذلك على حدِّ قول القائل من شعراء الحماسة[2] :

وذوي ضبابٍ مُضمرينَ عداوةً ... قَرْحَى القلوبِ مُعَاوِدي الأفنادِ
ناسَيْتُهُم بغضاءَهم وتركتُهُم ... وهمُ إذا ذُكِرَ الصديقُ أعادي
كيما أُعِدَّهُمُ لأبعدَ مِنْهُمُ ... ولقد يُجَاءُ إلى ذَوِي الأحقادِ

ولقد وجدت السلطنة العثمانية أكثرَ الممالك أجناساً ، وأحصاها طوائف ، وأغربها عناصر ، وفيها العرب ، والترك ، والكرد ، واللاز ، والأرناؤوط ، والروم ، والأرمن ، واليهود ، وغيرها ، وكلٌّ من هذه الشعوب قائمٌ بنفسه ، مستقل بلغته ، حافظ لقديمه ، متمسك بأحاديثه وتواريخه ، لم تكن الدولة العلية أيّدها الله لتزعجه في شيء من جهة قوميته ، ولم يعهد أنّ دولةً بلغت مدى هذه الدولة من جهة إعطاء الحرية للأديان والألسنة ، حتى جعل كثيرٌ من علماء الاجتماع ذلك هو السبب في كثرة مشكلاتها ، وتوالي فتوقها ، وما أنهك قواها من مصائبها .

وبديهي أنّ اختلاف الأديان واللغات ، وافتراق الأصول والأجناس هما مما يورِثُ المناظرات والمنافسات ، ويقفُ حائلاً دون الالتحام التام ، والالتئام الذي يكمُل به النظام ، ومما يوجِدُ الوحشة بين القلوب ، ويمنع أنسة الأجناس بعضها ببعض ، فلذلك طرأ على عصبية الدولة العثمانية من الوَهَن ، وداخلها

(١) [الأحقاد] .
(٢) [« الحماسة » بشرح الشنتمري (١ : ٦٥٥)] .

من الاسترسالِ ما تظهرُ لنا آثاره يوماً بعد يوم ، ما لوكان في مملكةٍ أخرى لا نحلَّ نظامُها ، وانتثر سلكُها ، ودخلت في خبر كانَ منذ أزمان ، ولكنّ الذي نسأَ في أجلِ الدولة العثمانية ، مع ما هي مصابةٌ به من أمراض الداخل ، ومحاطة به من دسائس الخارج ، **هو كونُ مادتها الكبرى هي الإسلام ، وأنّ المسلمين مهما افترقتْ أجناسُهم ، وتباينتْ لهجاتُهم يجمعُهم الدين جمعاً لا يجمع أمةً غيرَهم ، ويزيلُ من الفروق العميقةِ والأبعادِ السحيقة بينهم ما لا يزيلُه شيءٌ ، وأنّ المسلمَ العربيَّ يرى المسلمَ التركيَّ والمسلم الأرناؤوطي أخاً له نظيرَ أخيه العربي ، بدون فرقٍ ، عملاً بمحكم الكتاب الذي نزل فيه ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾** [الحجرات : ١٠] **واقتداءً بسُنة الشارع الأعظم ﷺ القائل : « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى »**(١) .

[فضل الإسلام على العرب]

وكذلك غلبت العصبيةُ الدينية في الإسلام على كلِّ عصبية سواها ، وطمستها ، فلا تكادُ تَجِدُ لغيرها أثراً بين المسلمين ، لأنَّ هذه الشريعة السماوية وإنْ جاءَ بها أعرب العرب ، ونزل كتابها بأفصح لغات العرب ، هي شريعةٌ عامةٌ ، مبنية على المساواة التامة ، وبعيدةٌ عن الأثرةِ الجنسية ، وصاحبُها يقول : « ليس منا من دعا إلى عصبية »(٢) ويقول أيضاً : « إنما بعثتُ إلى الأحمر والأسود »(٣) .

ولو كان في الإسلام أدنى أثرٍ للأثَرَةِ الجنسية ما انتشرت شريعتُه في الأرض ، ولا اتبعها الأحمرُ والأسودُ ، ولا ضربتْ من المشرق إلى المغربِ ، حتى ولا اجتمع عليها العرب أنفسُهم ، الذين هم قبيلان كبيران ، متناظران متنافسان ، قحطان وعدنان ، فإنّ الأثرة الجنسية كان يمكن أن تلقي العداوةَ والنفاسةَ لقحطان على عدنان ، بمكان هذه مِنْ قرابةِ النبي ﷺ ، وكونهِ من سُرَّةِ بطحاء قريش ، والعربُ أشدُّ الناس حميةً للعصبيات ، **فلا يُعْقَلُ أن تطيعَه العربُ**

(١) تقدّم تخريجه .
(٢) أخرجه أبو داود رقم (٥١٢١) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه .
(٣) أخرجه مسلم رقم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

بأجمعها ، لو لم يكن نبياً مرسلاً إلى الكافة ، ناشراً دعوةَ المساواة ، صادعاً بآية ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] **ولو لم يكن نزل عليه من ربه ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾** [الأحزاب : ٤٠] .

فكونُ الشريعةِ المحمدية السمحاءِ شريعةً عامةً للبشر ، مبنيةً على أتم المساواةِ ، سائرةً في أمور الدنيا على قاعدةِ العدل ، الذي يوفِّرُ لكلِّ أحدٍ حقه ، بدون نظرٍ إلى أصله وفصله ، وفي أمور الآخرة على قاعدة تقوى الله تعالى ، الذي يحاسبهم بأعمالهم يوم لا أنسابَ بينهم ولا هم يتسآلون ـ هو الخصلة الكبرى التي نشرتها هذه الشريعة في مشارق الأرض ومغاربها ، حتى دان بها إلى يومنا هذا[1] أكثر من ثلاثمئة مليون نسمة من بني آدم ، لا يعلم الواحدُ منهم نفسه مسلماً حتى يرى نفسه متحققاً بأخوة محكمة ، متينة العرى ، تربطه بهؤلاء الثلاثمئة مليون من أصنافِ السلائل البيضاء والسوداء والصفراء، يشعر بشعورَهم في السراء والضراء ، ويشاطرُهم وجدانهم في الشدة والرخاء ، وهذا المبدأ المقدس هو الذي جمع في صدر الإسلام هذه الأمة العربية مع إغراقها في تقديس عصبياتها ، وإطاعتها دواعي أحقادها على كلمةٍ واحدة ، خرجوا بها من هاتيك الجزيرة القاحلة ، ففتحوا الأقطار ، ودوّخوا الأمصار ، وملكوا ما وراءَ البحار ، ووطئوا مناكب الملوك الكبار ، وثلّوا عروشَ كسرى وخاقان وقيصر ، وورثوا أراضي العجم والروم والزنج والبربر ، ولو لم تتلاشَ العصبيةُ الجنسيةُ بالعصبيةِ الدينيةِ لبقيَ العربُ محصورين في جزيرتهم ، لا تعلم بهم الأمم ، ولا يذكرُهم التاريخُ إلا لماماً ، ولكانوا إلى يومنا [هذا] طرائقَ بدداً ، خضعاً رقابهم لعدوٍّ يأتيهم من طرف العراق باسم كسرى، ومن طرف الشام باسم قيصر .

فقد ذكر المؤرخون ، ومن جملتهم ابن الأثير الجزري : أنّ العرب لما قصدوا بلادَ الفرس بعد الإسلام ، ما زالت الفرسُ تقول لهم عند محاورتهم ومراسلاتهم في حروبهم : كنتم أقلَّ الأممِ وأذلَّها وأحقرَها .

ثم إنّه لما ملكت الحبشةُ اليمن ، وهزموا ذا نواس ملكها ، قتلوا ثلث رجالها ، وأرسلوا ثلث سباياهم إلى النجاشي ، ولما اختلف أرياط قائد جيش

---

(١) (١٩١٣م) .

الحبشة مع أبرهة الأشرم الحبشي ، وتبارزا ، وحمل عَتْوَدَةُ غلام أبرهة على أرياط فقتله ، قال له أبرهة : احتكم . فقال : لا تدخلُ عروسٌ على زوجِها من اليمن حتى أصيبَها قبلَه .

قال ابن الأثير : فبقي يفعلُ بهم هذا الفعلَ حيناً ، ثم عدا عليه إنسانٌ من اليمن فقتلَهُ .

وأخيراً لما لم يقدر العرب على دفع الحبشة عن اليمن وفدوا على كسرى أنوشروان يستنصرونه على الأحباش ، ويطمِّعونه في مُلْكِ اليمن ، وكثرة مالها ، فاعتذر لهم بصعوبة المسالك .

ولما وفد النعمانُ بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، ودارتْ المفاخرةُ بين الأمم ، قال كسرى : يا نعمان ! لقد فكرتُ في أمر العرب وغيرِهم من الأمم ونظرتُ في حال من يقدم عليَّ من وفود الأمم ، فوجدتُ الرومَ لها حَظٌّ في اجتماعِ أُلفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها وأنّ لها ديناً يبيِّنُ حلالهاَ وحرامها ، ويردُّ سفيهها ويقيم جاهلها .

ورأيتُ الهندَ نحواً من ذلك في حكمتها وطبها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيبَ صناعاتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها .

وكذلك الصينُ في اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها في آلة الحرب ، وصناعة الحديد ، وفروسيتها وهمتها ، وأنّ لها مُلكاً يجمعُها .

والتركُ والخَزَرُ على ما بهم من سوءِ الحال في المعاش، وقلّةِ الريف والثمارِ والحصونِ ، وما هو رأس عمارةِ الدنيا من المساكن والملابس ، لهم ملوكٌ تَضُمُّ قواصيهم ، وتدبِّرُ أمرهم ـ ولم أرَ للعرب شيئاً . . . إلى أن يقول : ما خلا هذه التنوخية (التي أسس جدي اجتماعَها، ومنعها من عدوها) وأنّ لها مع ذلك آثاراً ولبوساً ، وقرى وحصوناً تشبه بعضَ أمورِ الناس يعنى اليمن إلى آخر ما قال .

فأجابه النعمان عن كل ذلك وقال له عن مسألة تحارُبِ العرب وأكل بعضِها بعضاً : إنّه يكونُ في المملكةِ العظيمةِ أهلُ بيتٍ واحد ، يُعْرَفُ فضلُهم على سائرِ غيرهم ، فيلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمّتهم . وأما العربُ فإنّ ذلك كثُرُ فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين ، مع أنفتهم من أداءِ الخراج .

وأما اليمن التي وصفها الملكُ ، فإنما أتى جَدَّ الملك الذي أتاه عند غلبة الحبش له ، على ملكٍ متسق ، وأمر مجتمع ، فأتاه مسلوباً طريداً ، مستصرِخاً ، ولولا ما وتر به من يليه من العرب ، لمالَ إلى مجالٍ ، ولوجَدَ من يجيدُ الطعان ، ويغضب للأحرار من غلبةِ العبيد الأشرار انتهى[1] .

ومن مثل هذا يظهر ما كان من تفرُّقِ أمرِ العرب قبلَ الإسلام ، وتَغَلُّبِ الأمم عليهم ، ولم يكن مقصدُنا من نقلِ هذه الأمور تصغيرَ شأنِ العرب ، الذين نفتخر بكوننا منهم ، ونعتقد أنهم خير أمةٍ أُخرجت للناس نسباً وحسباً ، وصفاءَ قريحةٍ ، ووفاءَ سجيةٍ ، وعلوَّ همةٍ ، ولكنْ قصدُنا أن نُظْهِرَ درجةَ ما أبرزَ الإسلامُ من معادنهم النجيبة ، التي كانتْ محجوبةً بظلماتِ الجاهليةِ ، وأنّه نقلهم من الحضيضِ الأوهدِ ، إلى السنام الأمجدِ ، وأنه لولا الإسلام لبقوا ممزقين كلَّ ممزَّقٍ ، وحقاً لولا اتساعُ فلواتِهم الضاربة في شماليِّ جزيرتهم بالمفاوز والسباسب ، والمتصلة إلى باطن بلادِهم بالمعاطش والمجادب ، لكانوا قد أصبحوا تحت استيلاءِ الأمم المجاورة لهم ، وكانوا ضربوا عليهم الذل والمسكنة ، كما ملك الحبشةُ السودُ اليمنَ ، وهو أعمرُ إقليمٍ لهم ، وأقدمُه مُلْكاً ، وأحصنُ بلادِهم موقعاً ، وأصعب مرتقىً ، فبعد أن كان مثَلُ الأحابش من سود أفريقية يغزونَ العرب في عُقْرِ دارهم ، ويقومون في وسط أوطانهم من إلى صغارهم ، ويهدِّدون كعبتهم بفيلتهم ، ذلك لعدم انتظام كلمتهم ، وبتفرق أهوائهم ـ جاء الإسلامُ ، فجعلهم بوحدته الدينية ، وبنهيه عن العصبية أمةً واحدةً ، وكتلةً فردةً ، اندمج فيها المصريُّ باليماني ، وامتزجَ القحطانيُّ بالعدناني ، فكانت أعرافُ السَعْدِ ذالةً لهم ، ومناكب المجد موطأةً لأقدامهم ، وأبواب الفتوحِ مشرعةً أمامهم ، وصارت الأممُ الحاكمةُ عليهم خولًا لهم وأتباعاً ، وأصبحَ الحبشُ لهم عبيداً .

ولما ضعفتْ فيهمُ الملكةُ الدينيةُ ، وبَعُدَ عهدُهم بعصر النبوة وبخلافة الراشدين ، عادت تحيا فيهم عصبياتُ الجاهلية ، وتتجدَّدُ مناظرات القيسية مع اليمانية ، حتى عادَ بدرُهم عُرْجوناً ، ورجعَ كوكبهم نوراً ضئيلاً .

---

(١) « العقد الفريد » (٢ : ٤ ـ ٩) .

ومع هذا فإنّ الإسلام كان أثَّرَ تأثيرَه في العالمين ، ودخلتْ فيه الأممُ أفواجاً ، ووجدوا في شريعتِه من آثارِ عدم الإيثار ما زادهم فيه رغبة ، وعليه إقبالًا ، فلما ضعف العرب بتشظّي عصاهم عن الاستقلال بحمايته ، قام مقامهم الترك والديلم والجركس والعجم ، وغيرهم من الأمم ، فلم يكن لعربي أن يعترضَ على خضوع المسلمين حتى العرب منهم لسلطانٍ من غيرهم ، ما دام قائماً بأمرِ الإسلام ، حافظاً لحدودِ شريعةِ سيِّدِ الأنام ، وكانتْ في الإسلام منذ القرون الأولى دولٌ في الشرقِ كالدولة البويهية ، والدولة السامانية ، والدولة الغزنوية ، والدولة السلجوقية ، والدولة الأيوبية ، قد فتحوا الفتوحات ، ونشروا كلمةَ التوحيد في قاصية الأرض ، ووقفَ كثيرٌ منهم مواقفَ الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهدين .

وكذلك في الغرب ، قامتْ دولةُ المرابطين العريقة في البربرية ، فكان لها من الأثر في الذبِّ عن بيضةِ الملة ، والنَّشْرِ لكلمة الإسلام في المغرب والأندلس ما لايحتاج إلى بيان في مثل هذه العُجالة .

ولو لم تكن عصبيةُ العرب الدينية هي الغالبةُ ، ولو كان قد قام العرب ينافسون ابن سلجوق لكونِه تركياً ، وابن أيوب لكونه كردياً ، وابن تاشفينَ لكونهِ بربرياً ، وأوصى علماؤهم بخلع طاعةِ هؤلاء الملوك لمخالفتهم لهم في الجنس ، أو سمحوا بنقض بيعتهم ، أو قيل لأهالي مصر والشام ما لكم تطيعون هذا الكردي وأنتم عرب وهو ليس منكم ، ولا ممن يفتخر بقحطان ، بل ممن يعتزُّ بالإسلام ـ لكان وقعُ الخُلْفُ ، وتفرّقَتْ الكلمة ، ولكان الإفرنج أخذوا جميعَ بلاد الإسلام وغيرَ الإفرنج أخذَ الباقي ، وصيَّروا المسلمين خولًا ، وطمسوا معالم الإسلام من كلِّ بقاعِ الأرض ، وصارت هذه الأمةُ أثراً بعد عين .

وربما قال بعض أولئك الذين نعلم ما هي مبادئهم : وماذا هناك من المصيبة بزوال الإسلام ، وسيبقى لنا قحطان ، وما أشبهَ ذلك من الأقاويل .

فعندها نقول لهؤلاء : نحن إنما نتكلَّمُ مع مَنْ يُريدُ أن يبقى مسلماً ، فأما الذين يقولون علناً إننا نفضِّلُ عربيتنا على الإسلام ، وإننا عربٌ في الدرجة الأولى ، ومسلمون في الدرجة الثانية ، كما أخذَ يشيعُ ويذيعُ الآن ، ولو كانَ

ذلك القولُ خلافاً للشرع ، فلا كلامَ لنا معهم حينئذ .

وإن أردنا أن نجودَ عليهم بجوابٍ قلنا لهم : إنه لولا أولئك الذين أسلموا من الترك وسائرِ الأعاجم لم يكن فقط سقط الإسلامُ ، بل لسقط قحطان الذي تفتخرون به نفسُه ، وأصبحَ من ينتمي إليه أذلَّ من النقد[1] ، نقول لهم ذلك ولو ثَقُلَ عليهم الأمر ، لأن الحقيقةَ مقدمةٌ على كلِّ شيء ، والحقُّ من ربك فلا تكوننَّ من الممتَرين .

لو قال عرب الأندلس أصحُ العربِ الطارئينَ على الآفاق نسباً للمعتمد بن عباد صاحبِ إشبيلية : مالك تستصرِخُ ذلك البربري[2] ، الذي لا يفقهُ من العربية حديثاً ، وهو إذا ملك الأندلسَ انتزع من يدك ملككَ ، ولو أطاعهم ابنُ عباد في هذا القول لما كان ظهر المسلمون في وقعةِ الزلاقةِ ذلك الظهورِ الهائل[3] ، ولما تأخر إخراجُ المسلمين من الأندلس مئات من السنين ، ولكنّ ابنَ عبادٍ العربيَّ القحطانيَّ اللخميَّ اليمانيَّ آثرَ دينَهُ على دنياه ، وفضَّلَ أن يأخذَ بلادَه البربرُ ، وهم مسلمون ، على أن يبقى هو تحت سيطرةِ الإفرنج ولو ملكاً ، وقال : فإنْ كنتُ مأكولًا فكنْ أنت آكلي ، ورويت عنه تلك الجملةَ السائرةَ عندما نبهوه إلى ما يُخشَى عليه من ذهاب مُلْكِه لو استصرخ أفريقية وهي : رَعْيُ الجمالِ خَيْرُ من رعي الخنازير[4] .

بلغت الوحدةُ الدينيةِ بالمسلمين أنّ التتار الذين خرّبوا جميعَ بلادِ الإسلام في المشرق ، عندما دخلتْ ملوكُهم في الإسلام أطاعوهم حالًا إطاعةَ الأئمةِ من قريش ، بناءً على كون الإسلام يجبُّ ما قبله ، كما لا يخفى ، وأنّه كان يأتي المملوك الذي أصلُه جركسي ، بل رومي ، أو أرمني فينشأ في الإسلام ، ويقرِّبُه مولاه ، ويقدمه ، حتى يصير وزيراً ، ثم إذا مات مولاه بدون عقب بويع مكانه

---

(١) [صغار الغنم] .

(٢) [يوسف بن تاشفين أمير المرابطين] .

(٣) انظر أخبار هذه المعركة في كتاب « المعتمد بن عباد » للأستاذ علي أدهم (٢٠٣ - ٢٤٨) .

(٤) انظر « المعتمد بن عبّاد » للأستاذ علي أدهم ص (٢٠٧) .

سلطاناً ، فكان من هؤلاء المماليك دول عظيمة ، ونبغ منهم أعاظم الرجال ، ولا سيّما في مصر ، كالظاهر بيبرس ، والناصر قلاوون وغيرها ، ممن لهم الآثار الباهرة في إحياء المدنية ، والمواقف الجليلة في دفع الأعداء عن بلاد الإسلام ، وحسبُكَ أنّهم رضوا بإمارة كافور الإخشيدي ، وهو خصيٌّ أسود من أبناءِ حام ، ولم تثقل عليهم إمارته ، ما دام قائماً بأمر الدين ، ذلك عملاً بمبدأ المساواة المطلقة ، الذي وضعه القرآن الكريم ، واقتضاءً لسياسة نبينا ﷺ : « اسمعوا وأطيعوا وإن استُعملَ عليكم عبدٌ حبشيٌّ كأنّ رأسه زبيبة »[1] .

وبالجملة فلم يَدُرْ في خلدِ أحدٍ أن يخلعَ بيعةَ هؤلاءِ الملوكِ ، الذين كانوا مماليك، والذين أصلُ كثيرٍ منهم إما من الروم، أو من الأرمن، ما داموا قد نشأوا في حِجْرِ الإيمان، وشبّوا على خدمةِ هذه الدعوة، فكانت العربُ تنقادُ لهم انقيادها لساداتها وأمرائها ، وتحوط بهم شملَها ، وتصل حبلها ، لا لجهلها بأنسابهم وأصولهم ، بل لأنّ الإسلامَ محا كُلَّ عصبيةٍ جنسيةٍ مِنْ أهلِه ، وقام هو مقامها .

إذا كان هذا شأنُ الملوك من أبناء المماليك ، الذين لا يعرَفُ لهم أصلٌ ولا منبتُ أسلةٍ ، فما قولُك بأسرةِ آل عثمان ، أقدمِ أسرةٍ مالكة في هذا العصر ، وهي التي حاطتْ الإسلام منذ ستمئة سنة ، وقامتْ بدفع دول أوربة عن المشرق بأسرِه منفردةً بنفسها ، قد اتفقت عليها دول النصرانية تسعاً وأربعين مرةً ، مثنى ، وثلاث ، ورباع ، وخماس .

وكان العجم في أيام الدولة الصفوية ومَنْ بعدَهم يهاجمونها من الوراء عند كلِّ حربٍ صليبية تصليها عليها أوربة ، وهي تقوم في وقتٍ واحدٍ بدفع أعداءِ الإسلام من الأمام ، ودفع العجمِ من الوراءِ ، وقمعِ الفتنَ الداخليةِ من الوسط ، وتوغل في الفتوحات حتى تبلغ عاصمة النمسة ، وحتى ينزلَ جنودُها في سواحل إيطالية ، وفي نيس من فرنسة ، فلا جرم أنّ دولةً هذه آثارُها في حفظِ البيضة المحمدية ، لا تكونُ إلا محمودةً ، بل مقدسةً عند العرب ، الذين درج هذا الدين مِنْ وَكْرهم ، وترعرعَ في حِجْرِهم ، فأحبُّ الملوكِ إلى العربِ مَنْ نصر هذه الدولة التي أصلُها مِنَ العرب ، ومَرْجِعُ قوتها إلى العرب ، وإلى من دانوا

---

(١) أخرجه البخاري عن أنس .

بدين العربِ ، **ومن قرأ تاريخَ آلِ عثمان علم أنّ لهم من تعظيم شعائرِ الدين ، ومن التمسُّكِ بحبال الدعوة المحمدية ، ما لم يَفقهم فيه أحد من ملوك العرب أنفسِهم** ، بل ما فاقوا فيه الجميع حاشا الخلفاء الراشدين .

ومن شاء أن يعلم درجةَ خدمتهم للحرمين الشريفين ، وبرهم بأهلِ الحجازِ ، فليقرأ تواريخَ علماءِ العرب ، كتاريخ « الفتوحات الإسلامية » لخاتمة المحققين لسان الصدق السيد أحمد [زيني] دحلان المكي ، الذي لا يجسر أحدٌ أن يتهمه بالملق ولا بالمبالغة ، ولهذا حامتْ حولَ بني عثمان قلوبُ جميع المسلمين ، عرباً وعجماً ، والتفّت عليهم وشائجُ القلوب والأفئدةِ ، وتوسّموا في دولتهم مجدَ الإسلام وسعادته ، منذ كانوا بعدُ في الروملي والأناضول ، وكان الغوري سلطانَ مصر ، يقول : أنا لا يهمني الإفرنج ، لأنّهم إذا زحفوا إلى بلادي كان الإسلام كلُّه معي ، ولكن أخوفُ ما أخاف هو من ابن عثمان ، الذي لو قصد بلادي مال إليه المسلمون ، ولم أقدرْ أن استعديهم عليه ، وقد كان الغوري محقّاً عند خوفه من ابن عثمان ، لأنّه لما سار السلطان سليم لفتح البلاد العربية ألقى أهلُها إليه بالمقاليد، وتلقّوه براً وترحيباً ، ونزل له الخليفةُ العباسي ـ الباقي كان بمصر ـ عن الخلافة الكبرى ، واتفقت الأمةُ الإسلاميةُ على مبايعته بالأمر الأعلى، الذي لا يقومُ إلا بمثل عصبية ابن عثمان في وقته، ولا تزالُ هذه العصبية إلى يومنا هذا هي العصبية الوحيدة التي يمكنُ إسنادُ هذا الأمر العظيم إليها.

طالما نفخَ المفرّقون في نفير العصبية الجنسية ، وحاولوا إثارةَ العرب على الدولة ، بحجةِ أنّها دولةٌ تركيةٌ ، واتخذوا من حوادثِ الزمان أسباباً ، ومن غلطة بعض إخواننا الأتراك أوتاداً ، وأرادوا تغليبَ العصبية الجنسية على العصبية الدينية ، وأنْ يوقدوا هذه الفتنة بين ذينك الشعبين الكبيرين ، اللذين هما قوام الدولة الإسلامية ، فصدَّهم عن ذلك لا حُبُّ العرب لسواد عيونِ الترك ، ولا ذلُّهم لسلطانِهم ، وهم أقلُّ الأمم قراراً على الضيم ، وأسرعُهم إلى السيف ، ولكن حبهم ببقاءِ الخلافة الإسلامية ، **وخوفَهم من تسلط الأجانب عليهم ، يمحون استقلالهم ، ويعارضونهم في أعزّ شيءٍ لديهم ، وهو دينهم ، ويسومونهم سوء العذاب ، ويبتزونهم أراضيهم ، ومرافق بلادِهم بالطرق المتنوعة ، والحيل المتعددة ، فآزروا الترك ، الذين لا تجمعهم معهم إلا رابطة**

الدين على الأوربيين، الذين لا تجمعهم وإياهم رابطة ما ، والذين يخشى منهم على الدِّين والدنيا معاً ، وما أكثرَ الشواهد على ذلك بين أيدينا .

[الفقر مع الاستقلال خير من الغنى مع الاحتلال]

وعلى فرض أنّه كان هناك مهانىء من العيش البهيمي تحت سلطة الأجانب ، وهو ما لايزالُ يمنّي به سماسرةُ الدعوة الأجنبية أهالي البلاد العربية منذ قديم ، فإنّ الاستقلال مع الفقر خيرٌ من الاستذلال مع الثروة ، وإنّ الاستقلال هو الحياة الحقيقية ، وهو مصدرُ العزِّ والقوةِ ، ومنجمُ المالِ والثروةِ ، وأصلُ الصدق والفضيلة ، وإنّ الأمر لكما قال السيد جمال الدين الأفغاني غفر الله له : وهو أنّ شرف النفس يقودُها لاختيار الموتِ الفاضلِ على الحياةِ تحتَ سلطةٍ أجنبيةٍ ، وإنْ اقترنتْ برغدِ العيشِ وطِيْبِ المطعمِ والمَشرَبِ .

[ولاء المسلمين للدولة العثمانية]

ولنجتزىء من الشواهد كلِّها بمثل طرابلس الغرب ، التي يعلمُ كلُّ أحدٍ أنّها كانت أشدَّ ولاياتِ الدولة فقراً ، وأعظمَها إهمالاً ، وطالما استغاث أهلُها بالباب العالي ، طالبين تحكيم أسباب دفاعهم ، وتحصين ثغورِ بلادهم ، وإمدادهم بالسلاح والعدة ، وتدريب شبانهم على الحركات الحربية ، وطالما كتب عمّالُ الدولة أنفسُهم إلى الأستانة بوجوب تأسيس معامل للخرطوش في نفس البلاد ، خوفَ أن تسطو عليها دولةٌ بحريةٌ ، فيحول دونها ودون الدولة المتبوعة لضعف الأسطول العثماني اليوم ، فذهب كلُّ هذا الصريخ صرخةً في واد ، ونفخةً في رماد ، فكان أهل طرابلس الغرب أحقُّ رعيةِ الدولةِ بالنفورِ منها ، والحقدِ عليها، وكانتْ أحوالُ بعض عمّال الحكومة العثمانية مما يزيد لها البغضاء ، ويوجِبُ الجفاء ، ورأى الطليانُ هذه الحالة هناك ، فتوهّموا أنّهم يستثمرونها لفائدتهم ، وأنّهم يوقِدون نارَها لهداهم ، وأنفقوا الأموال ، واشتروا ذِمم الرجالِ ، وسعى بعضُ سماسرتهم من أبناء ذلك الوطن بأخذِ تواقيعَ بعضِ الرؤساء والمشايخ بقبول سيادة إيطالية ، كما يسعى الآن ويا للأسف ويا للخجل بعض سماسرة

سورية لاستجلاب قلوب المسلمين إلى جهة فرنسة ، ويسعى آخرون باستمالتهم إلى إنكلترة ، وكل فئة لها جواسيس ورواد وسماسرة على البلاد .

فماذا ظهر بعدَ ذلك لإيطالية وغير إيطالية ؟ ظهر أنّه لما أجلبت إيطالية على طرابلس ، ووصل أهلُها إلى حيّزِ العمل ، ونظروا ، فرأوا علم الهلال قد غاب عن أبصارهم ، وحلّ العلمُ الإيطالي محله ، بكى منهم حتى النساء ، ونهضوا بدون زاد ولا سلاح ، وقالوا : مهما بلغَ من بغضِنا للأتراك ، فإنهم إخواننا في الإسلام ، ومهما أهملتنا الدولة بغرور بعض رجالها ، فلن يحملنا ذلك على ترك وطننا للأجنبي انتقاماً من الدولة ، وما زالوا يكافحون الطليان في إقليمي طرابلس وبرقة منذ (٣٦) شهراً ، ولم يسكنوا في إقليم طرابلس نوعاً إلّا من نفاد العدة والذخيرة ، كما أنّهم في برقة لا يزالون إلى ساعتنا هذه يُجاهدون في عدوهم ، الذي يربَى عددُ عسكرِه على ثمانين ألفاً ، وهم في أشدّ حالٍ من الجوع والحاجة إلى كلّ شيء ، وذلك كلُّه بفضل السيد [أحمد] السنوسي الكبير ، الذي أبى أن يسلِّمَ وطنه إلى العدو المعتدي ، وفيه وفي العصابة السنوسية الفاضلة رمق من الحياة .

كم حاول الطليان في أثناء هاته السنوات أن يستميلوا عرب طرابلس وبرقة ، وأن يخدعوهم بالأماني والمواعيد ، وأن يستسلوا حقودهم بالعطايا والألطاف ، فلم يقدِرُوا أن يملكوا قلوبهم ، ولا أنْ ينزِعوا ما فيها من غلٍّ عليهم ، حتى ولا أن يسلوهم محبة الدولة العثمانية ، التي سلطانها يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويتولّى القبلةَ الشريفة ، كما يقول ويتولى عرب طرابلس وسائر العرب .

جميعُ السادة السنوسية يروون عن مؤسس طريقتهم العالية سيدي محمد بن علي السنوسي جدّ سيدي أحمد الشريف ، الأستاذ الحالي ، أنّه رأى النبيَّ ﷺ في المنام ، فقال له : ما قولك يا رسول الله في بني عثمان ؟ فرفع رسول الله ﷺ بيده الشريفة بساطاً ظهر من تحته بابُ جهنم بأهوالِها ، فقال له : هذا مقعدُ من يريدُ بالدولة العثمانيةِ سوءًا ، والذي نفس محمد بيده ما رأيتُ لهذه الأمة أرحمَ من بني عثمان .

سيقول أولئك الجماعة من المفرقين المكذبين المستهزئين بالدين وآياته كما

تدل عليه كتاباتهم ، وتنم حركاتهم وأقوالهم : أفننبني أحكامنا على المنامات ، ونحن الآن في عصر الحقائق ، فنجاوبهم على هذا بأنّهم إن لم يكونوا مؤمنينَ بصحة الرؤيا مثل رؤيا ذلك الولي الصالح لجدِّه المصطفى ﷺ ، فإنّه لا بدّ لهم من التسليم بأنّ تناقل هذا القول بين السنوسيين وعملهم به الظاهر المحسوس إلى اليوم ، وإلى ما شاء الله دليلٌ واضحٌ على كون افتراقِ غرب أفريقية عن الدولة العثمانية بالجنسية لم يكنْ له تأثيرٌ في شدة ارتباطهم بها ، وأنّهم يرون بهذه العين مبآءة مَنْ يكره هذه الدولة ، ويعدون مقعده جهنم وساءت مصيراً .

فالشيخ [أحمد] السنوسي ، الذي يسمح له هؤلاء الدعاة الأدعياء إلى العربية بأنْ يكون عربياً ، والذي نظنهم يحكمون لقومه بالأهمية مع استقلالهم وحدهم بدفع دولةٍ قاعدةٍ في صف الدول السبع العظام ، هو الذي يدعو جميعَ عرب أفريقية إلى تفدية الدولة العثمانية بأنفسهم وأموالهم . وإيطالية قد عرفت ذلك ، وعلمت أنها عندما صدَّقت بأنّ العرب يكرهون الترك لم تكن إلا في غرور ، وفرنسة نفسها تقرُّ بأنّ جميع تبعتها من المسلمين يسؤهم ما يسوء الدولة العثمانية ، ويسرهم ما يسرها ، وأنّه لا شيءَ يفك عروة حبها من قلوبهم ، مع أنّ عرب شماليّ أفريقية اليوم ، ومن جاورهم من البربر المستعربين لا يقلون عن (٢٠) مليوناً ، وهم جميعاً بهذه الدرجة من الارتباط بالدولة العثمانية ، فهل يسمحُ لنا السادةُ المصلحون دعاةُ اللامركزية ، وورثة علوم حمورابي بأن نَعُدَّ هذه العشرين مليوناً عرباً ، أم يسقطونهم من عداد العرب ، كما أسقط بنو العباس نسب زياد بن أبيه من دفتر قريش ، ولا يبقى معدوداً في العرب إلا بعضُ من أصلُهم تركٌ أو جركسٌ ورومٌ أو أرمن ، إذا انصدعتْ لم يبقَ هناك عربٌ ولا عجم ، وأخنى على الجميع الذي أخنى على لبد .

[أوربة تشن حرباً صليبية على الدولة العثمانية]

ما زالت أوربة منذ قرونٍ تقابلُ الدولة العثمانية من أمامها ، وعن يمينها ، وعن شمالها ، وتناجزُها الحروبَ صليبيةً وسياسيةً وتجاريةً ، وتهاجِمُها منفردةً ومجتمعةً ، فكان للدولة في البداية الكرةُ على أوربة ، والريح الهابة في البحر

المتوسط ، وكان الأعداء يكافحونها كفاحَ الضعفاء ، الذين عدا تماسك بعضهم ببعض للمقاومة كانوا يلجأون إلى إثارة الفتن في داخل بلاد عدوهم ، ليشغلوه عنهم ، فكانوا يدسون الدسائس تارةً في البلقان ، وطوراً في سورية ، وأحياناً في بلاد العرب ، ويمدون أيدي المصافحة إلى العجم ، وكانت الحروب داخلاً وخارجاً تتوالى على هذه الدولة الفريدة الغريبة في أوربة ، إلى أن أفقرت دمَها ، وأنهكت مع تتابع الأعصر على هذه الحال قوتها ، واستغرقت أموالها في الإعدادات الحربية ، وحالت دون ترقيها في العلوم والصناعات ، وأخذ السيفُ حصةَ القلم ، فغلب على الأهالي الجهلُ ، وخبا نورُ العلم ، فضعفت التربيةُ العامةُ ، وانقرض الأعلام ، الذين يحثون على الفضائل والمكارم ، فنزلت الهمم ، وفترت العزائم ، وعمَّ فسادُ الأخلاق ، وصار الضعف يجلِبُ بعضُه بعضاً .

وكلما آنست أوربة فينا ضعفاً من جانب ، حملت علينا حملةً شعواءَ خلال الضعف، واتخذت قاعدة سارت عليها، ولا سيّما أمة السلاف، وهي عدم إمهالنا إلى أن نلمَّ شعثنا ، ونرأبَ صدعنا أبداً ، لئلا نرتاش ونقوى ، وتصعب إزالتنا من الوجود، فيقال: إنّ بطرس الأكبر عاهل روسية أوصى بحربنا كلَّ (٢٠) سنة، وقد قام السلاف بهذه الوصية تماماً، فضلاً عما قام به غيرُهم من أصناف الأروبيين.

فكان ضعفنا بهذه الوسيلة متصلاً ، وسكوننا محالاً ، وكان توفرنا على نشر المعارف في بلادنا كما هي في بلاد غيرنا متعذراً ، وصارت بلادُنا ميداناً للفتن والهزاهز ، وصار الأوربيون يسمّون هذه الحالة بالمسألة الشرقية ، والحقيقة أنّها مسألة محمد عليه الصلاة والسلام ، فأتباعه أخذوا الشام ، ومصر ، وأفريقية ، والأناضول ، والقسطنطينية العظمى ، والبلقان من أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام ، فهؤلاء يريدون أن يسترجعوها ، ويتمكنوا فيها لا أكثر ولا أقل ، ويلقون على هذه المقاصد ، بعد أنْ اصطبغوها ظاهراً بصبغة التمدين أستاراً من السياسة ، تخفى على الغبي أسرارُ مساعيهم ، ويتجانفون عن استعمالِ الألفاظ المثيرة للعواطف ، المحركة للحفائظ ، ففي الأعصرِ الغابرة ، عندما كانوا أصدقَ لهجةً ، وأصرحَ ضميراً ، كانوا يسمون هذه الحروب

المتواصلة مع الدولة العلية حروباً صليبية ، وفي هذا العصر صاروا يسمونها بالمسألة الشرقية ، لكنّ الصغار منهم ، مثل ملوك البلغار ، واليونان ، والصرب ، والجبل الأسود قد صرّحوا في الحرب الأخيرة بما كان يصرِّحُ به ملوك أوربة سابقاً ، وأبوا هذا الرياء كلَّه ، وسموا الأشياء بأسمائها ، وفعلوا الأفعال التي حققت الأسماء ، وأوربة تصفِّقُ لهم من ورائهم ، وناهيك أن ملك رومانية الذي مملكته صديقة موالية للدولة العثمانية ، ومشهورة باعتدالها مع المسلمين ، قد صرّح أخيراً لبعض مراسلي الصحف أنّ سكوت رومانية في أول الحرب البلقانية مع الأتراك لم يكن من مصلحتها ، لكنّها اضطرت إليه خدمةَ للنصرانية ، لأنّ الدولَ الأربعَ اللائي كنّ يحاربنَ الدولة العثمانية كان مقصدهنَّ إنقاذَ النصارى من سلطة المسلمين ، فلم يكنْ يليقُ بدولةِ نصرانيةٍ كرومانية أن تشاغلهم عن إتمام هذا الأمر ، ولو خالفَ ذلك مصلحتها الخاصة ، فإذا كان هذا إعلانُ الملك الصاحب ، فماذا نقول عن المحارب !!.

ولقد تمكنت أوربة بعد مصارعة ستة قرون من استرجاع جزء كبير مما كان أخذه المسلمون من ممالكها ، وتقدَّمَ الصليبُ ، وتأخَّرَ الهلالُ ، وهكذا حالُ الدنيا ، يوم لك ، ويوم عليك ، والله تعالى يقول : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

ولم يكن تأخر الدولة العلية أخيراً ، ونكوصها أمام دول أوربة عن ضعفٍ في المنعة ، أو سقوطٍ في الهمة ، أو فقرٍ في معادن النجابة والشجاعة ، بل جاء بأجمعهِ من انفرادها وحدَها مع شدةِ اختلافِ سكانها ، وتخاذلهم عنها ، وتألبهم أي الأوربيين عليها لبداً ، وإذا اختلفوا فيما بينهم تراضوا ، فيما بعد من أملاكها ، وتقسطوا من حقوقها .

وقد جاء في المثل : ضعيفان يغلبان قوياً ، فما قولُك إذا كان ثمةَ عدة أقوياء ، وكلٌّ منهم يحارِبُ بسلاح ، والساكتُ منهم ردء للمتحرك ، رابضٌ للوثبةِ عند الحاجة ، والجميعُ يمشون نحو غايةٍ واحدةٍ .

فلو انتصرت الدولة على البلقانيين في هذه الحرب ، لكان قصارى ما تمكنت منه حمل البلقانيين على جزء من نفقات الحرب ، فلما أدال الله لهم

علينا أسرعتْ أوربة بإعلان تمكينهم من اجتناءِ ثمرات انتصارهم ، وإباحتهم الولايات الست التي كانتْ لنا في الروملي ، مع ولايتين في جزر البحر الأبيض ، وذلك خلافاً لإعلانٍ كانت أعلنته في أول الحرب ، بأنْ ليس للمنتصر أنْ يضمَ إلى ملكه أراض جديدة أياً كان .

ثم اعترفت أوربة أنّ إعلانها الأول وقع منها على ظنٍّ أنَّ النصر سيكون للدولة العثمانية ، فأيُّ حربٍ تكونُ أظلمُ وأعقُّ من هذه الحرب ، وأيُّ حيادٍ حفظْتهُ الدولُ ، وهنَّ لا يلزمن الحياد ، إلا إذا كنّا نحن المغلوبين .

وهذا ما نذكره من جهة الحرب المادية التي هي عبارة عن طعن ، وضرب ، وفتك ، وهتك ، وتجريد جيوشٍ ، وسوقِ أساطيل .

وهناك حرب أخرى تثيرها علينا أوربة ليست بأقلَّ تأثيراً من الأولى ، ألا وهي الحرب السياسية ، والعلمية ، والاقتصادية ، أي الحرب المعنوية .

فمن جهة **الحرب العلمية** فمدارسُها ومكاتبُها حتى مسشفياتُها في الشرق كلُّها مواقِدُ إثارةٍ على الدولة، ومنافخُ نارٍ، يخرجُ منها التلاميذ كارهين كلَّ شيءٍ عثماني، بل كل شيءٍ إسلامي ، وما شذَّ عن ذلك فيكونُ من متانة تربية الأولاد ، وتأثير والديهم فيهم في البيت ، لا من توقي أساتذة تلك المدارس الطعنَ في دينهم ودولتهم، بل هم يطعنون ما يطعنون في أهلِ الإسلام، ويشوّهون ما يشوهون من محاسنه، ويغمطون ما يغمطون من أياديه البيضاء على الإنسانية، ويقلبون الحقائق التاريخية والعلمية ، وإذا عاتبتهم على صنيعهم هذا قالوا لك : إنما نريدُ أن نعلِّمَ الناشئة الحقائق ، فكيفَ تريدُ أن يخرج من تخرَّج من هاتيك المدارس، لا جَرَمَ أنّه يخرجُ حرباً على دولته وملته ، بل وعلى والديه اللذين ربياه صغيراً .

وأما **الحرب الاقتصادية** ، فهي الآن أهمُّ حربٍ عندهم ، وأمضى سيفٍ في أيديهم ، فإنّ الشرقيَّ في أكثر البضائعِ لا يقدِرُ أن يبارِيَهم ، ولا أن يزاحمهم ، والشرقيون عيال عليهم في استمداد النقود ، فهم لا يستطيعون معهم قبضاً ولا بسطاً ، وتراهم يقتلون كلَّ مزاحمة لهم في أية صناعة ، وفي أيةِ تجارةٍ إلا النادر الذي لا يعتدبه ، وعدا هذه الحرب الاقتصادية التي هم مصلوها أممَ إلى الشرق، فإنهم يثيرونها أحياناً على الدولة نفسها، ولولا شدة تزاحمهم فيما بينهم، وما يفضي من ذلك إلى خلافهم وسباقهم إلى المرافق، لكانوا يسدون على الدولة كلَّ بابٍ اقتصادي، ويخنقونها في أرضها ، ولكنْ وجدوا دونَ ذلك عوائق جمة،

كما حصل في مسألة أدرنة أخيراً، فلقد قطعت الدولُ عنها كلَّ مددٍ مالي هذه المدة كلها ، وعاشت الدولة بواردها الخاص ، وأعاشت الجيش الذي كان مرابطاً أمام البلقانيين بدون أن تعقِدَ قرضاً، حتى لقد قال كاتب إيطالي عظيم في جريدة « إستامبا »: إنّ تركية ذات حياة قوية، لم يستطع شيءٌ ما أن يتغلَّبَ عليها ، وهي لا تعرفُ الفناءَ، وتتعود ضنك العيش، وتتحمل الظروف القاتلة ، فتهديدُ الدول لها بقطع المال عنها لم يُخِفْ أحداً ، وفَضْلُ عدولِ الدول عن التضييق المالي لا يرجع للدول، فإنّ هذه تعملُ جُهْدَ استطاعتها على فناء الدولة ودمارها، وقدر أن تركية حتى اليوم مغبونة من الدول المسيحية ، لأنها لا تعاملها معاملة الكفء للكفء ، بل تعاملها بعدم المساواة والظلم ، انتهى كلام الكاتب الإيطالي .

وأما **الحرب السياسية** ، فإنّها على شقين : منها مواطأة بعضهم مع بعض علينا في الخارج ، ومنها دسائسهم علينا في داخل بلادنا .

فأما المواضعات والمواطاءات على ابتلاع بلدانا ، فكاتفاق فرنسة وإنكلترة على مصر ومرّاكش والسودان ، واتفاقهما مع إيطالية على مسألة طرابلس الغرب ، واتفاق النمسة وألمانية وإيطالية على مسألة البوسنة ، واتفاق دول البلقان الأربع بإرشاد دولة روسية على اقتسام ولاياتِ الروملي ، وكاتفاق إنكلترة وروسية على فارس ، وهلم جرّا .

ومنها دسائسهم في داخل بلادنا ، وذلك كدسائس السلاف في الروملي منذ أعصر ، ودسائسهم مع الأرمن في الأناضول ، وتحريك إيطالية للإدريسي في عسير ، وما كانت تدسُّه في طرابلس قبل دخولها إليها ، ومنها تحريكات النمسة وإيطالية في البلقان ، ومداخلات فرنسة في سورية ، وهذا في سورية أمرٌ قديمٌ ، يبتدىء منذ أيام الصليبيين ، وقد كانت أصابع الأكثرين منهم تلعب في سورية ، بسبب كثرة المسيحيين فيها ، واتخاذ أوربة مسألة المسيحية متسلَّقاً لمداخلاتها ، ولو لم يطالبها المسيحيون بذلك .

وفي أيام الأمير فخر الدين المعني عقدوا معه حلفاً ، وسافر هو إلى توسكانة في إيطالية ، وكذلك كانت كاترينة إمبراطورة الروس تداخل[1] ظاهر العمر الزيداني في عكا .

---

(١) تساعد .

[مسألة اللامركزية]

ولسنا هنا في [صدد] تعداد الدسائس الأجنبية في بلاد الدولة وسائر أصقاع الشرق ، فإنه يطولُ جداً ، ولكننا نريدُ من هنا الوصول إلى مسألة الحركةَ اللامركزية ، التي قامت في إبان حرب البلقان ، فإنّها من بعض الدسائس الأجنبية أيضاً ، ومن جملة الحرب السياسية المثارة على الإسلام ، والأشراك الموضوعة لسقوط الشرقيين الأخير ، والغاية من هذه الحركة مشاغلة الدولة عندما تكون مدهوشةً بحرب البلقان ، منصرفة إلى الدفاع عن عاصمتها ، حتى تضطر إلى إعطاء الولايات العربية الإدارة اللامركزية رغم أنفها ، خوف انتقاضِ العرب عليها ، فتكون اللامركزية هي الخطوة الأولى نحو الانفصال ، ثم تحدثُ حوادثُ أخرى ، وتثورُ مشاكِلُ جديدة ـ والمشاكل إلى الدولة العثمانية بفضل أوربة أسرعُ من الماءِ إلى الحدور ـ فتعطَى الإشارةُ إلى أولئك الدعاة أنفسهم ، بإعلان الاستقلال تماماً في أثناء ذلك البحران ، التي تكونُ حكومة الأستانة قد وقعت فيه ، وتكون هذه هي الخطوة الثانية بأن يخدع أولئك السماسرة قسماً من الأهالي ، كما هم خادِعُوهم الآن بألفاظ الإصلاح والفلاح والنجاح ، وما أشبه ذلك ، ويكون الميدان يومئذٍ أصبحَ أوسع للجولان ، لأنّه مما لا مشاحةَ فيه أنّ نفوذ الحكومةِ المركزيةِ يكونُ أضعفَ في الولايات المستقلة بإدارتها ، اعتبرْ ذلك في جبل لبنان ، وقِسْهُ ببقية الولايات ، فتعرف الفرقَ ، فهذا ما يمنِّي الأجانبُ أنفسهم به من اللامركزية ببلاد العرب العثمانية ، لتكونَ الحربةُ أوسعَ ، والمقاومةُ أسهلَ ، وتصيرَ الأساليبُ أطلَى ، والفتن والألفاظ أعظم وأضخم ، ويقال حينئذٍ : الخلافةُ العربية ، والدولة القحطانية ، والاستقلال القومي ، والتحرير الوطني ، وخلع الربقة ، ورفع العبودية ، وغير ذلك من الألفاظ الطنانة ، والكلمات المستعذبة ، خصوصاً عند الشبان ، فيتحمس لها بعضُ من لا يعلمون عواقبَ الأمور ، ويرفعون لواءَ الثورة ، ويتبعون مثل البلغار عند استقلالهم عنا ، فتقع بينهم وبين الحكومة المتبوعة الواقعات ، وتسيل الدماء ، وينتصر للحكومة فريق الأهالي ، الذين لا يعلمون ما وراء الأكمة ، فتموجُ الأمة العربية بعضُها في بعض ، وتفجر الدماء بعضها بعضاً ، ويعاد في بلادنا ـ والعياذ

بالله - تمثيل رواية الروملي ، ولا يتمارى اثنان في كون انقلابٍ كهذا في بلاد العرب لا يمكنُ أن يحصلَ بدون حرب داخلية دموية ، تكون هي القاضية على استقلال العرب بدلاً من أن تكونَ هي مبدأ استقلالهم ، فتأتي الدول الاستعمارية بأساطيلها ، وتدّعي كلٌّ منها وقاية مرافقها ، وينتهي الأمرُ فيما بينها بإنزال عساكرها ، كلٌّ عسكر في منطقة ، ليتم التراضي بينهن ، فيكون نزول عساكر الإنكليز في يافا للمحافظة [على] الأمن في فلسطين ، والفرنسيس في بيروت للمحافظة [على أمن] سورية ولبنان ، والألمان في مرسين وإسكندرونة إرضاءً لهم ، وثمناً لسكوتهم .

هذه نتيجةُ حركات اللامركزيين ، الذين يزعمون أنّهم قائمون لأجلِ تقوية الوطن ضدَّ الغارة الأجنبية ، وهم يمهدون سُبُلَ الغارة الأجنبية ، ويداوون العلة بالتي كانت هي الداء .

والخصال التي دعت هؤلاء الجماعة إلى هذا العمل عديدةٌ ، والأسباب متنوعة ، ولكنّ المرجعَ الأصلي هو طمعُ الأجانب في بلادنا ، والتحريك المتواصل سرّاً فيها ، والمبالغ السرية التي تتسرَّبُ من صناديق وزارات الخارجيات إلى جيوب الصحافيين والمكاتبين ، مما لا ينكره إلا كل مَنْ على بصره غشاوة ، أو في قلبه مرض .

وإنّ فريقاً من الذين قاموا بهذه الحركة إنْ لم يكونوا يأكلون من مال الأجانب ، فإنّهم ناقمون على الاتحاديين إهمالَهم إياهم بعد إعلانِ الحرية ، مع أنهم كانوا من أنصارهم على [عهد] عبد الحميد في أيام الاستبداد ، فلا يريدون أن يغفروا لهم زلة تكبرهم وتجبرهم عليهم بعد الفوز ، وعدم تذكرهم مَنْ كان يألفهم في المنزل الخشن .

وإنّ آخرين وُعدوا بأشياء لم تُنْجَزْ لهم ، وآخرين تطاولوا إلى مناصبَ عالية ، فضن الاتحاديون بها عليهم ، فشمخوا بأنوفهم ، وصاحوا ياللانتقام !! وصاروا يتربّصون بالدولة الدوائر ، ويتوقعون الفرصَ الملائمةَ للقيام ، فأقصتْ الدولةُ بعضَهم ، وعزلت بعضَهم ، وأسقط الاتحاديون ترشيحَ بعضهم لمجلس الأمة ، فهناك اشتد الحنق ، وغلت مراجل الحقد ، وتنازعت الريحُ مع

السفينة ، فدارت الدائرة على البحرية . كما يقال .

[الخلط بين المسائل العمومية والمسائل الشخصية]

ونحن في هذه البلاد التاعسة لم نقدر إلى الآن أنْ نفصِلَ بين المسائل العمومية والمسائل الشخصية ، كما هو في البلاد الأخرى .

فعندنا مثلاً إسماعيل كمال بك الأرناؤوطي مواطىء اليونان منذ مدة طويلة على دولته ووطنه ، ومعلوم أنّه لم يكن يدعُ فرصةً حتى يتوردها لأجل إثارة بني جلدته على الدولة وسفك الدماء ، فكل منْ غَضِبَ من طلعت بك أو جاويد بك أو غيرهما من رؤساء جمعية الاتحاد والترقي تراه ينضم إلى إسماعيل كمال ، ويصفق لعمله طرباً ، ويستزيدُه مما هو فيه ، بدلاً من أن يقولَ : **إنني ولو كرهتُ طلعت أو جاويد ، أو أي رئيسٍ كانَ من رؤساء الجمعية ، فلا ينبغي أن أستحسنَ الحركات الموجهة ضد دولتي وبلادي ، ولا أن أصافحَ الأيدي العاملة في خراب بيتي وبيوت إخواني ، ويمكنني أنْ أكونَ عدوَ الاتحاديين ، مع بقائي عثمانياً صادقاً ، عدواً لكلِّ مَنْ يمَسُّ العثمانية بسوء .**

وعندنا صادق بك ، الذي طالما وضعه أعداء الاتحاديين في صفِّ أعاظم العثمانيين ، قد تكررت منه مؤخراً التلغرافات إلى قيصر الروس ، في معنى دعوته للتدخل في شؤون الدولة العثمانية ، ولو كانَ في ذلك من فقدِ الحقوقِ ومَسِّ الاستقلال ما فيه .

وعندنا شريف باشا ، سفير الدولة السابق في استوكهولم بعد سقوط وزارة كامل باشا ، كتبَ في الجرائد طالباً من فرنسة وإنكلترة إرسال أساطيلهما لإسقاط محمود شوكت باشا من الباب العالي بالقوة ، في وسط الأستانة ، فانظروا إلى درجة صدق هذا العثماني ، ومبلغ وطنيته ، وتأملوا واحكموا !!.

وأغربُ من هذا أنّه كتب إلى صديقٍ له في مجلس نواب فرنسة كتاباً يعاتِبُ فيه الحكومة الفرنسية على تساهلها مع ضباط الاتحاديين ، في المرور من تونس إلى طرابلس، وقد قام ذلك النائب يتلو كتابه هذا في بهو المجلس، حتى تحيَّر من عمله الفرنسيس أنفسهم ، **الذين يقدرون قدر الوطنية ، فانظروا أيضاً إلى هذا العثماني ،**

الذي لا يهمه الدفاع عن طرابلس ، وعن الشرف العثماني ، بل يهمه سرعة استيلاء الطليان على طرابلس غيظاً بالاتحاديين، وهو يغري الفرنسيس بالمجاهدين .

ويقال : إنّ كثيراً من الحزب المعارض للاتحاد والترقي وردَ مصر في أثناء حرب طرابلس ، فعذل الحكومةَ الإنكليزية على إغضاء الطرف على ذهاب الضباط العثمانيين إلى الجبل الأخضر ، وشدد في قضية منع الإمدادات عن مجاهدي العرب ، ليسقط في يد الاتحاديين من جهة طرابلس ، وينكسر نفوذُهم ، واستدلَّ الناسُ على ذلك بكون الإنكليز شددوا المراقبة جداً على الحدود من بعد مجيء ذلك الكبير إلى مصر .

ومن أجلِ هذا وأمثالهِ نفر كثير من الحزب المعارض للاتحاد والترقي ، **وأكبروا خلطَ الأحقاد الحزبية بالمصالح الوطنية العمومية** ، وعادوا يثنون على الاتحاديين جميلاً ، حتى لقد ألّفَ أحدُ هؤلاء المعارضين في هذه المدة كتاباً سمّاه « إفلاسُ المخالفة » بينَ فيه بهذه الشواهد أنّ الحزب المعارض أسقطتهُ أعمالهُ المخالفة للعثمانيين عامة ، لا للاتحاديين خاصة ، وهناك أمورٌ أخرى لا تعدُّ ولا تحصى من هذا القبيل .

فهل يظنُّ القارىء أنّ دعاة اللامركزية الذين يدّعون الآن الإخلاصَ للدولة العلية ، والقيام لمجرد الإصلاح فقط ، ينكرون شيئاً من هذه الأعمال ، أو يقبّحونَ هذه الحركات ، التي لا يمكنُ أن ينطبقَ عليها إلا اسم الخيانة ، أو يبرأونَ من هؤلاء المعارضين يوماً ، كلا والله ، إنّ أكثر مَنْ نعرف من رؤساء هذه الحركة هم يدٌ واحدةٌ مع هؤلاء ، وأنّهم يلتمّسونَ لهم الأعذار ، ويقيمون على صحة مبادئهم الأدلة ، وإنْ قَبّحَ منهم أحدٌ أفعالهم ، فيكونُ ذلك رياءً وسمعةً ، وخوفاً من غضب الأمة فقط .

وهل يوجد دليلٌ على كون وجود هذه الإحساسات الخبيثة في صدورهم أوضحُ مما ظهر منهم أثناء الحرب[1] ، وما بَدَرَ على ألسنتهم وأقلامهم يومَ استردادنا أدرنة ، فقد كان ذلك اليوم عند الأمة عيداً ، وعند بعض أولئك المجانين مأتماً ، شق فيه عليهم دخولُ العثمانيين إلى أدرنة أزيدَ مما شقَّ على

---

(١) [حرب البلقان] .

البلغار، الذين خسروا فيها (٢٠) ألف رجل ، وذلك خوفاً من فوز الاتحاديين، وارتفاع شأن الدولة بعدَ أن انخفضَ في عيون الأمة الإسلامية ، ولم ينسَ النّاسُ ما كانتْ تكتُبُ في هذا الصدد جرائدُهم ، التي بقيتْ تأملُ أنّ أوربة تطرد العثمانيين من أدرنة ، إلى أنْ أتى سفراءُ البلغار إلى الأستانة ، يطلبون الصلحَ ، فأيقنوا بفوزِ الدولةِ ، وكان ذلك لهم خذلاناً عظيماً .

ولقد بلغ بعضُهم من التهور في البغض والانحطاط في الأخلاق إلى أنْ كانوا يشمتون بانهزام العسكر العثماني ، الذي بانهزامه أهين كل عثماني ، بل كل مسلم على وجه الأرض ، وكانت تبدو عليهم لوائح السرور بأخبارِ البلقان ، حتى في أيام الوزارة الكاملية ، مما يدلُّ على أنّ عداوتهم هذه لم تكن للاتحاديين وحدَهم ، بل للأتراك ، بل للمسلمين أجمع .

ولا شكَّ أنَهم ينكرون كلَّ هذه المسائل ، ولكنّ إنكارَهم هذا لا يفيدهم أصلاً ، لأنّه مما نمّتْ عليه خوائنُ الأعين ، وخوافي الصدورِ ، وهم يخطئون جداً إنْ كانوا يظنون أنّ حقائقَ أمورِهم مجهولةً عند الناس .

ومهما يكنْ عِنْدَ امرىءٍ مِنْ خليقةٍ   وإنْ خالها تخفَى على النّاسِ تُعْلَمِ

والحاصل أنّ عداوة الحزب تنقلِبُ عندَ كثيرٍ من أبناء هذا الوطن التاعس إلى عداوة الدولة نفسها ، وبغضُ الأتراك يتحوّلُ إلى بغض الخلافة والإسلام ، حتى لقد سجلوا على العرب عار الإجحاف بالدولة، والمقاومة للخلافة في إبّان الشدة، التي يأبى العدو أن يشاغِبَ فيها فضلاً عن الصديق ، مع أنّ العرب هم أولى الأمم كلِّها بالالتفافِ حول الخلافة، وأنّ الأتراك هم تلاميذ العرب بالإسلام.

[دوافع اللامركزيين]

وعليه ، فهذه الفئة من العثمانيين هي التي وجدها ولا يزال يجدها الأجانب أحسنَ آلة في أيديهم لقضاء أوطارهم الاستعمارية ، وهي التي لا يزالون يتقدّمون إليها في نقض بنيان الجامعة العثمانية ، وفكّ عُرى الرابطة الإسلامية ، فمنهم من يَسْتَعْدُوْنَهُ على الدولةِ بتحريك الجنسية ، ومنهم من يستميلونه بالمال ، ومنهم من يؤكّدون له مصيرَ هذه البلاد إليهم ، فهو يريدُ أن يزرعَ منذ اليوم عندهم مودةً تحفظ عليه مصالحه عندما يصيرون هم أصحابَ البلاد لا سمحَ الله.

ومنهم يائِسٌ قانط من رحمة ربه ، نظر في وجوه الوسائل لنهوض الإسلام فوجدَ الفرق عظيماً في القوة ، فلم يقدر على حل هذا المشكل بعقله وعلمه وإيمانه ، فاستسلم إلى اليأس ، وذهبَ به الخوفُ أن يظنَّ أن الأوربي لو شاء أن يمنعنا ورودَ الماء على الفرات ، ونحن معطشون لخمس ، لأمكنه ذلك بمجرد الفكر ، فرمى بنفسه في حضن هذه الفئة من شدة اليأس .

ومنهم ناقم على الاتحاديين أو على الأتراك أموراً شخصية ، وسفاسفَ لا طائل تحتها .

ومنهم معتقدٌ أنّ تعينَ المأمورين من الأستانة مانعٌ من تقدمه ، فاللامركزية في الولايات هي التي تكفَلُ له رقيه وصعوده .

ومنهم طائفة لم يبلغُ بهم سوءُ الظن أن يعتقدوا في أولئك الدعاة التغريرَ بالوطن ، فحملوا حركتهم هذه على مجرد الاصطلاح ، واستبدال شكل الإدارة ، الذي لا شك في وجوب تبديله ، وحفظوا محبتهم للدولة ، وحميتهم على الوطن ، وهؤلاء هم الفئة الوحيدة الصادقة من أصحاب هذه الحركة ، وهم في حقيقة الأمر متفقون معنا ، بل مع الباب العالي نفسه على أكثر النقط ، وإنْ كان ثمة اختلاف في الأنظار ، فيكون على أعراضٍ غيرِ ذاتِ بالٍ ، وتكونُ الطرق كلُّها إلى وجهةٍ واحدة ، هي تمكينُ الدولة ، ووقاية الاستقلال العثماني .

نعم عند هذه الفئة بعض أغلاطٍ في القياس ، مثل تجويزهم إعطاءَ سورية في حالتها الحاضرة والعراق إدارةً لامركزيةً ، بناءً على كون ألمانية مثلاً هي ذات إمارات وإدارات متعددات ، ولم يمنعْ ذلك من وحدتها الألمانية ، ولا أوهنَ ما بينها من الرابطة العامة ، أو أنّ أسترالية مع استقلالها الداخلي ، لا تزالُ شديدةَ الارتباط بأمها إنكلترة ، وغير ذلك مما يلقيه أولئك المغالِطون ، فيلقفه هؤلاء بدون رويّة ، ولا يفكرون أنّ بين ألمانية والبلاد العربية بوناً شاسعاً من جملة وجوه ، وأنه كلّما كانت الرابطةُ المعنوية ضعيفةً ، **لزم أن تكون الرابطةُ الماديةُ قويةً ، ومتى تقوّت الرابطةُ المعنوية ، وقامت المعاني التي في الصدور مقام الأوامر والقوانين ، فعند ذلك لا يبقى مانعٌ من الاستقلال الإداري ، لأنّه يُسْرِعُ بحركةِ التقدم، دون أنْ يضرَّ بالوحدة الضرورية لبقاءِ الدولة، ونجاةِ الوطن.**

ومما ينزعُ إليه الصادقون من طلاب الإصلاح ، ولا يخالفهم فيه أحدٌ يحبُّ الحق ، ويتوخّى المصلحة ـ هو المساواة في الحقوق بين الأجناس ، وإعطاء الولايات أقساطها من الإصلاحات على سُنة واحدة ، فهذا مطلبُ حقّ لا يقدِرُ أن ينازعَ فيه تركي ولا عربي ، ولا يجوزُ للدولة العلية أن تنحرفَ عنه قليلاً ولا كثيراً ، ولا سيّما بإزراء أمةٍ نجيبة كالعرب ، قد آتاها الله من معادن الفضل ومدارج النُبلِ ، ومطالِعِ الذكاء ، ومنابت الشجاعة ، ومقاطع الكرم ، مالم يؤتِهِ غيرَها من أمم البسيطة ، فالدولةُ العثمانيةُ خليقةٌ بأن تستورِي زنادَ العرب الأذكياء في إدارةِ أمورِها ، وأن تنتلَ لحياطةِ هذا الوطن العثماني كنائنِ القرائحِ القحطانيةِ، والعزائمِ العدنانيةِ ، ، وهي هي الملومةُ على إهمالِ هذا الأمر دونَ غيرِها .

ولكنّ هناك أمورٌ لا بدَّ لنا أن نستوقفَ عندها أنظارَ المعارضين والمعترضين، سواءً كانوا من الفئة الصادقة المعتقدة صحة مذهبها ، أو من الفئة المفسِدَةِ الرائدة للأجانب ، أو الفرقة الضالة على علم ، ليعلمَ الجميعُ ما لنا وما علينا .

[أحوال العرب خير من أحوال أتراك الأناضول]

إنّ هؤلاء جميعاً يقولون : إنّ العربَ غيرُ متمتعين بنعمة المساواة مع إخوانهم الأتراك ، غير مشاركين لسائر الأمة العثمانية في إدارةِ المملكة ، وإنّ الولايات العربية مهملاتٌ تمامَ الإهمال ، عاطلاتٌ من حلي الإصلاح ، تأخذُ الدولةُ ريعَها ، وتصرفُه في تنظيم الولايات التركية جزافاً ، وإنّ أكثرَ عُمّالِ الدولة هم من الترك والجركس والأرمن وغيرهم ، وإن أكثرَ الوظائف هي لهم ، وإنّ أكثر الأرزاق هي دارّةٌ عليهم ، إلى غير ذلك مما يكرره هؤلاء الناس بكرةً وأصيلاً ، ولم يبق عثماني ولا أجنبي إلا وقد سمع به .

فالجواب على ذلك : أنّ المملكة العثمانية هي على مستوى واحدٍ ، وأنَّ حاجتها إلى الإصلاح هي في كل الولايات بدون استثناء، وذلك ـ كما قلنا ـ بسبب الحروب والفتن ، والمشاكل الداخلية والخارجية ، التي استنزفت ثروتها وأفرغت خزانتها ، والتي مصدرُها مطامع أوربة المتكالبة عليها من كل جهة ، ومناصبتها إياها [العداء] منذ (٦٠٠) سنة .

وإذا نظرنا إلى ولايات الدولة رأينا الولايات العربية مع فقرها أسعدَ حالًا ، وأرقى في درجة المدنية من ولايات الأناضول ، التي هي عُشّ الأتراك ، ومضرب عسلتهم ، ورأينا الأناضول أحطَّ ولايات المملكة في كلِّ ضربٍ من ضروبِ المدنية ، مع أنّه في الحقيقة هو مادة الدولة ، التي تستمد منها الحياة ، وهو القلب الذي يدفعُ دمَ القوةِ إلى الأطراف ، وهو الذي عليه المعوَّلُ في النائبات ، فكيفَ بعد هذا يقال : إنّ الدولةَ تُؤْثِرُ الأناضول على بلاد العرب ، وتسأْثِرُ بريعِ الولايات العربية لتصرفه في الولايات التركية ، وهل يجوزُ رميُ الكلام بدون تحقيقٍ ، وتضليلُ الأفكارِ على علمٍ ، وإغضابُ العامةِ بدون أساسِ صدقٍ ، والمشي بالخُلف بين هاتين الملتين اللّتين إذا افترقتا سقطتا جميعاً ، وهل يسامحنا الله في أن نزعمَ كون الترك ينظّمون ولاياتهم من ريع ولاياتنا ، وأن نهيِّجَ بالزور والبهتان حفائظَ العرب ، وتكونَ بلادُ الترك هي بالنسبة إلى بلادنا في العمارة كما هي بلادنا بالنسبة إلى أوربة وأميركة ، ومن شاء الاطلاع على ذلك ، فما عليه إلا بالسير والنظر في البلدين .

كذلك طالما سمعنا من جملة أوضاعهم أنّ نظارة الأوقاف تأخذُ ريعَ أوقاف العرب ، لتصرفها في الأستانة والأناضول ، وهي فريةٌ ما زالوا يُغيِّرونَ بها قلوبَ العرب على دولتهم ، ولا يرقبون وجه الله فيما يقولون ، ولا مصلحة الأمة فيما يغيّرون ويوغرون ، والحال أنّ الحقيقةَ هي خلافُ ذلك .

وهاك وارداتُ مصروفاتُ أوقاف ولايات برّ الشام بموجب جدول رسمي مصدَّقٍ من نظارة الأوقاف :

ولاية	مصاريف السنة الحالية		الواردات بحسب إجمالات سنة (١٣٢٧) المالية		التحصيلات من إجمالات سنة (١٣٢٧) المالية	
	پاره	غروش	پاره	غروش	پاره	غروش
بيروت		١١٢٧٤٨٥	٢٥	١١٧٢١٦٦	١١	١٠١١٤١٩
حلب	٢٤	٢٠٢٩٦٧٥	١٦	١٥٧٩٣٦١	٠٨	١٤٤١١٢١٦
سورية	٣٧	١٦٥٢٦٦٩	٢١	١٢٤٣٢٢٨	٣٤	١١٠٣٢٠٢٩
قدس	٢٦	١٥١٢١٨٥	٠٧	٣٢٥٦٣٩١	٣٠	١٣١٤٤٠٦
	٠٧	٦٣٢٢٠١٦	٢٩	٦٢٥١٢٤٧	٠٣	٤٨٦٩٠٧٢

بقيت هناك مسألة العمال والمأمورين ، والوظائف والمعاشات ، وهذه لا ينكَر أنّ الترك مستأثرونَ فيها بالشِقّ الأوفر ، وأنهم قلّما يتعاطون التجارة والصناعة والزراعة ، بل جلُّ معولهم لسوءِ الحظّ على وظائف الدولة ، وهي بليةٌ من بلايا المملكة العثمانية ، ومرضٌ من أعضلِ أمراضها ، نرجو الله أنْ يصحه منها ، ولو تدريجاً ، لأنّ انصرافَ الترك إلى الوظائف ، ودوران معايشهم على محور الاستخدام ، جعلَ جميعَ متاجر الأستانة ، وأخذَها ، وعطاءها ، وحرفها ، وصناعاتها ، في أيدي الأرمن والروم والإفرنج[1] ، ولم يكنْ منه في أيدي الترك إلا سدادٌ من عِوَزٍ ، فأموال الدولة تدخلُ على الأستانة ، والجانبُ الأكبر منها يدخلُ على الأرمنِ والروم والأوربيين .

ولكنّ هذه الحالة هي في الحقيقة خاصة بأتراك الأستانة ، نظراً لمجاورتهم الباب العالي ، ولاعتيادهم الوظائف ، والتعيش من خدمة الحكومة ، فأما أتراك الأناضول فإنّ نصيبَهم من الوظائف نصيبُ سائرِ المملكة ونصيبُ العرب أنفسِهم .

إذاً فليس استئثار الترك بالوظائف هو لمجرد بغضهم العرب ، أو لكونهم لا يريدون أن يستخدموا إلا أبناء جلدتهم ، ولو كانَ ذلك كذلك ، لوجبَ أن يتساوى أهل الأناضول مع أهل الأستانة في هذا الأمر ، لأنّ جميعَهم أتراك ، وإنما غلب على الوظائف أتراكُ العاصمة ، بسبب الجوار والأُلفة كما قلنا .

ونحن نعلم أنّ سكانَ مركز الولاية في كلِّ الولايات يكونُ عدد المستخدمين والمأمورين منهم أكثرُ من سائر الولاية بأسرِها ، فإذا نظرتَ إلى ولاية الشام مثلاً ، وجدتَ أكثر مأموريها هم من نفس دمشق ، أو ولاية حلب ، كان أكثرُ مأموريها من نفس حاضرة الشهباء ، وكذلك الألوية أكثرُ مأموري اللواء يكونون من نفس مركز اللواء ، لملازمتهم بابَ الحكومة ، وكونهم أقرب إلى الدوائر الرسمية من أهل القصبات والقرى .

فإذا قلنا : إنّ العرب مظلومون أو مهضومون من هذه الجهة ، فلا يكونون مظلومين أكثر من أهالي الأناضول ، مع مراعاة النسبة في عدد الولايات ، وإذا

---

(١) [كحال العرب في العصر الأموي] .

أخذنا حاضرة الشام ، أو حاضرة بغداد ، أو حاضرة حلب ، وقسنا من له اتصالٌ فيها بخدمة الحكومة إلى أمثالهم من مركز ولاية سيواس أو أزمير أو أضنة مثلاً ، لم نجد أهل هذه المراكز أكثر مأمورين أو أوفر رواتب من أهالي دمشق والزوراء[1] والشهباء ، وقِسْ عليه البواقي .

نعم المزية في الاستكثار والاستئثار لأهل الأستانة نظراً للمجاورة والمعاشرة.

ولدينا مثلٌ أوضح وأجلى ، وهو أنّ أهالي جبل لبنان يناهزون خمسمئة ألف نسمة ، وأهالي قصبات دير القمر مصيف المتصرفية ، وقرية بعبدا مشتاها ، لا يكادون يبلغون خمسة آلاف نسمة ، ومع هذا ، فإنّ ثلث مأموري لبنان هو من هاتين القصبتين ، فإنْ قلنا : إنّه يجب توزيع الوظائف على نسبة العدد ، فإنّ الخمسة آلاف لا يمكن أنْ تكونَ ثلث الخمسمئة ألف ، وما الأصل في ذلك إلا امتيازهم على بقيةِ أهلِ الجبلِ ، فأهل الجبل متساوون في كلِّ الحقوق ، ولكنّ الأصل فيه قربُهم من مركز الحكومة ، واعتيادُهم على خدمتها ، ومن الأمور البديهية أنّ الأقربَ داراً إلى النهر يكون أقربُ وروداً ، وأيسرُ ماءً .

ومع هذا فليس منّا من يجادِلُ أو يكابِرُ في وجوبِ توفيرِ حقوق العرب، وعدم بخسِهم ميزانَهم ، لأننا إذا كنا ناقمين على بعض العرب التكلُّمَ في الجنسية ، والدعوة إلى إيثار أنفسنا على الأتراك ، بكونهم إخوانُنا في الإسلام والعثمانية ، فنحنُ بالأولى ننقم على الأتراك إيثارَ أنفسِهم على أبناء جلدتنا ، مع كونهم لا يفضُلَوْنَ العربَ في شيء ، لا أصلاً ، ولا فصلاً ، ولا كفايةً ، ولا فضلاً .

[طبقات العرب في العهد العثماني]

وهناك أمرٌ آخر لا بدّ أن نسترعي له أسماعَ أبناء السلالة العربية ، وهو أنّ العربَ إلى يومنا هذا ، لم يقفوا في جانب الدولةِ موقفَ الأتراك ، ولا رضوا أن يستأنسوا بالحكم والنظام جميعاً ، بل إذا عددنا العرب العثمانيين اثني عشر مليوناً أوخمسة عشر مليوناً من الأنفس مثلاً، لزم أن نقسمهم إلى ثلاث طبقات :

---

(١) بغداد .

الأولى : **البوادي** : وهم أكثرُ من ثلث هذا العدد ، وربّما ناهزوا نصفَه ، والدولة لا تستفيدُ منهم سوى شن الغارات ، وإفساد السابلة ، وإقلاق راحة المعمورة ، **وهي لا تأخذُ منهم عسكراً ولا خراجاً** ، وإذا استوفت بعضَ رسوم على مواشيهم فبالمقدار الزهيد ، الذي لا يوازي الوظائفَ والجعائلَ المعينة لمشايخهم .

والخلاصة أنّ هؤلاء خارجون عن الدائرة التي الكلامُ فيها ، فليس لهم إلا الفائدة المعنوية من إطاعتهم للخلافة ، وكونهم من جملةِ الرعيةِ ، **نعم هم سياجُ المملكة الذي لا تُخْتَرَقُ نواحيه ، وعضدُ الدولة الذي لا يفتُّ فيه إذا وقعتْ لا سمحَ الله غارةٌ أجنبيةٌ** .

الطبقة الثانية : **حضرُ جزيرة العرب** ، كاليمن ، والحجاز ، ونجد ، والبحرين ، وما ماثلها ، فإنّه لا يقدرُ أن يقولَ أحدٌ : إنّ الدولة تستفيدُ من هؤلاء فائدةً مادية أصلاً ، بل هي تخسرُ على تأمين بلادِهم وإدارة أمورهم أموالاً طائلة كلَّ سنة ، فاضلةً على ما تأخذه من خراجهم ، ومعلوم أنّ الحجاز معيشتُه من الدولة العلية والعالم الإسلامي ، وهذه طبقةٌ لا تقلُّ عن أربعة ملايين ، ليس منها للدولة سوى الدعاء لمولانا السلطان ، والتأييد المعنوي الذي لا شكَّ فيه .

الطبقة الثالثة : **الحضر الذين في بر الشام وفي العراق والجزيرة** . وهؤلاء هم الذين تجنِّدُ منهم الدولة العساكر ، وتأخذ الجبايات كسائر أهلِ السلطنة ، لكنهم لا يزيدون على ثلاثة ملايين ، ولذلك كانت دعوى بعض إخواننا العرب بأنهم هم أكثر من نصف المملكة صحيحةٌ من جهة العدد ، وغيرُ صحيحةٍ من جهة التكاليف الأميرية ، وكان على بعض العرب قبلَ عرض هذه الدعوى أن يشمِّروا على ساق الجد ، ويدخلوا في المدنية ، وينشروا العلم في طبقاتهم ، ويتقرّبوا إلى الدولة بإحصاء نفوسهم ، وبقبول الخدمة العسكرية في صنوف الجيش ، بعدَ ذلك يصيرُ لهم الحقُّ بالمطالبة والمحاسبة حسبما يقولون الآن ، وينتخب لهم نواب في مجلس الأمة بنسبة عددهم .

ولنفرضْ أنّ كلَّ هذه الدعاوى صحيحة ، **وكل هاتيك الاعتبارات وهمية ، فما معنى القيام للمطالبة بالحقوق بهذه النعرة الجنسية المشعرة بالمقت**

والانشقاق ، الطالعة بالجفاء والإزورار ، وما فائدةُ فكّ رابطة الإسلام لإقامة رابطة الجنس مقامها ، وما مدخل العصبية القومية في قضية فتح مدرسة أو عقد قنطرة أو مدِّ سكةٍ ، أو إتمام إصلاحٍ ما ، إلا أن يكونَ هناك سببٌ هو غير داعي الإصلاحات ، ودسيسة خارجية هي عبارةُ إفسادٍ لا إصلاحٍ .

فعلى الأمة العربية أن تحذَرَ من الحركات الماشية بين ظهرانيها ، وتنتبه إلى السم المدسوس في طعامها .

[الأوربيون والإسلام]

إنّ الاوربيين مع ما بلغَ بالإسلام من الضعف والتلاشي ، ومع سقوطِ أكثرِ الحكومات الإسلامية المستقلة ، لا يزالون ينظرون إلى الإسلام نظرَهم إلى القِرْن المصارِع ، والخصم المضارع ، يتذكرون ماضيَ الإسلام ، ويخشون كرَّاته ، وربما وضع بعضُ مؤلفيهم الكتبَ في التحذير من مستقبل الإسلام ، والتنبيه إلى اتقاء خطر الجامعة الاسلامية أو الاتحاد الإسلامي المسمّى عندهم بالبانيسلاميسم[1] ، والذي إذا تمثَّلَ طائفةُ في النوم لأحدِ قياصرتهم أو رجالِ سياستهم هبَّ مذعوراً .

وقد أصبح عند إنكلترة مئة وعشرون مليون مسلم، وعند فرنسة نحو أربعين ، وعند روسية ثلاثين ، وعند هولندة نحو خمسة وثلاثين ، هذا عدا ما عند النمسة في البوسنة ، وألمانية في أفريقية ، وما تحاول إيطالية أخذَه في طرابلس ، وإسبانية في شماليّ المغرب الأقصى ، وعدا مسلمي البلقان ، وإنّ ألطفَ الدول المسيحية معاملةً للمسلمين هي أميركة في الفيلبين ، والحبشة في بلادها .

فهذه الدول لا سيما الأربع اللاتي عندهن القسمُ الأكبر منهم ، لا تخشى من شيء كخوفهن من الرابطة الدينية ، التي تربط جميع المسلمين بعضهم ببعض ، كما أنّها تربطهم جميعاً بالدولة العلية ، ولا ترينَّ يوماً أسعدَ من اليوم الذي تجدنَ

---

(١) كما هو الحال اليوم .

فيه خطباً[1] حلَّ بالدولة العثمانية . ولم يكرث[2] هؤلاء المسلمين الذين تحت سلطتها ، ولا أقام قيامتهم .

ولقد استعملتْ ضروبَ الحيل في إبعادِ هذه الأمم عن الدولة ، وإقامة الحواجز والسدود [بينهم وبينها] ، ودخلت عليهم من أبواب عديدة ، واجتهدت في تقطيع آمالهم من الدولة أقصى الاجتهاد ، فلم تستفد من كل مساعيها فائدةً تُذْكر ، ولم يفتأ أولئك المسلمون يذكرون الدولة العثمانية ، ويدعون للسلطان العثماني على منابرهم ، وإن منعوهم من الدعاء له جهراً ، دعوا له سراً ، وأوربة ترى أنّ هذه الحركة بدلًا من أن تضعَف بضعف الإسلام ، قد أخذتْ تزدادُ وتنمو ، وأنّ المسلمين قد ابتدأوا يشعرون شعوراً عاماً ، ويستيقظون من سباتهم العميق، وصارت تبدو منهم أمائر النزوع إلى وحدةٍ تجمع شملَهم ، وتمنعُ ذلهم ، وتقيهم خطر السقوط التام ، الذي يتهددهم ، فكان لهذه الحركة الروحية التي تختلج بالمسلمين ما يقيم أوربة ويقعدها ، ويحفزها على تدارك عواقبها ، فهي ترى المسلمَ الصينيَّ يتلاقى بالمسلم المرّاكشي ، والمسلمُ الفيلبيني يتصافَحُ مع المسلم الهندي ، كأنّهما شقيقان ولدهما أبٌ واحدٌ ، وأمٌ واحدةٌ .

ولا تجدُ هذه الأخوةَ حيةً في حي من الأحياء ، أو شعبٍ من الشعوب ، كما تجدها بين المسلمين ، ولا تعلم لها سبباً سوى جامعة هذا الدين الحنيف ، إذ كانت عناصرُ هذه الأمم متباعدة فيما بينها تباعدَ الأرضِ عن السماء .

فأوربة بعد أنْ حاربت الدولة العلية بجميع أنواع الحروب ، جاءت تحاربها الآن بحرب جديدة ، هي إحياء الجامعة الجنسية بين الأمم الإسلامية ، لأجلِ أن تتفككَ بها أوصالُ الإسلام ، ولا يبقى محلٌّ لحنينِ المسلم الصيني إلى الهندي وإلى التركي وإلى العربي ، ولهذا لا تكونُ كتلةً واحدةً .

[الجامعة القومية ذريعة للقضاء على الدولة العثمانية]

ولما وجدتْ بعضَ العربِ أو المستعربين مستعدين لقبولِ هذا الفساد ،

---

(١) بلاءً .

(٢) أي الخطبُ .

وكانت ترى أنّهم هم الذين يقدِرون على مشاغلةِ الدولة أكثرَ مِنْ سواهم ، وأنهم هم الذين يمكنهم إحياء العصبية الجنسية ، ومهاجمة الدولة بها ، فتصير الدولة مشغولةً في بلادها بالمسألةِ العربيةِ ، كما أنّ تلك الدول مشغولةٌ في مستعمراتها بالمسألة الإسلامية ـ أخذت تدسُّ إلى بعض الصحافيين في المشرق بأن يتكلّموا في الجامعة القومية، ويحيوها في صدور العرب، وشرعَ رجالُ السياسة الأوربية، ومن يبث دعوتهم من الشرقيين ، يضربونَ على هذا الوتر في عرض النصيحة ، قائلين : إنّ المسلمينَ لا يبلغون من النجاح غايةً يبنونَ عليها حتى يضارعوا الأوربيين في ترك الدين ، والتمسك بالجنس ، وأنّ الأمم المتمدنة الراقية اليوم لا تقيمُ للدين وزناً ، وعلى فرض أنّها احترمت الأديان ظاهراً ، فإنّها لا تعملُ بها ، ولا تبني سياستها عليها .

وآمن كثيرٌ من الأغبياء بأقوال الأجانبِ هذه ، وتمويهات سماسرتهم ، وذلك لقصور اطلاعهم ، وركاكة عقولهم ، وأخذوا يقلّدون أولئك النفر في الكلام تقليداً أعمى ، ويقولون : لا أملَ بالرقي بواسطة الدين الإسلامي ، فما علينا إلا أن نعودَ إلى الرابطة القومية ، بدون نظرٍ إلى العقيدةِ الدينية اقتداءً بأوربة ، التي أصبحتْ الرابطةُ الدينيةُ عندها نسياً منسياً .

[أوربة لم تتخلَّ عن الرابطة الدينية]

ولو كان أولئك المساكين على أثارةٍ من علم ، لكانوا علموا أنّه لم يأتِ يومٌ واحدٌ نبذتْ فيه أوربة الرابطة الدينية ، أو قصّرت في حرمتها ، وأنّ الإنكليز الذين يحسبُهم الشرقيون مثالَ التمدن والارتقاء هم أشدُّ الأمم تمسكاً بالدين المسيحي ، وإنْ كان تمسكهم مقروناً بالمدنية ، لا كنصرانية الأمم السلافية ، التي أفعالُها ظاهرةٌ للعيان .

ومن الغريب أنْ نكونَ نحنُ قاصدين الاقتداءَ بأوربة ، قائلين : حسبنا من الرقي نصفَ ما بلغتْه منه ، وعندما نصلُ إلى مسألة الدين ، نحسب أنفسنا أرقى من أوربة ، ونطالِبُ أقوامنا بإطراح الجامعة الإسلامية عندما لا تكون أمة من أمم أوربة رضيت سرّاً أو علناً بإطراح الجامعة المسيحية ، التي لا تزالُ هي مدارُ سياسةِ أوربة إلى يومنا هذا .

ومن أوهى الاعتراضات على وجودِ الجامعة المسيحية بينهم قولُ المغالِطِين المضلِّلين : إنّ الدول لا تستنكِفُ عند اقتضاء سياستها من أنْ تعاضِدَ دولةً إسلاميةً على دولةٍ نصرانيةٍ ، كما حصلَ في حرب القرم مثلاً .

والجواب : إنّ الجامعة الدينية لا تنفي وقوعَ الخلاف بين أبنائها[1] ، فالنصارى يتشاجرون ، والمسلمون أيضاً يتشاجرون ، والصحابة الكرام رضي الله عنهم تشاجروا ، وهم أساتذةُ الإسلام ، وكلّهم مجتهدون ، وإنّ البابوات المعصومين من الخطأ في الكنيسة الرومانية كانوا يختصِمون ، فيقوم اثنان ، فيدعي كلٌّ منهما أنه هو البابا الحقيقي ، وكلُّ هذا لا يمنعُ من أن تكون بين المتشاجرين جامعةٌ تجمعهم على من هو خارجٌ عنهم .

ولا يصحُّ أن يُقال : إن أوربة أصبحت غيرَ ذاهبةٍ مع التعصب الديني ، وأنّها لا تعرِفُ إماماً لها إلا الإنسانية ـ إلا متى صارت تنظرُ إلى المسلمين نظرَها إلى المسيحيين بالتمام ، ومتى أبطلتْ صحفُها الشهيرة ورجالُ سياستها القولَ بدول النصرانية ومصالح النصرانية ، إلى غيرِ ذلك ، وأثبتتْ بالدليل تلوَ الدليلِ على أنّ المسلمَ والمسيحي واليهودي عندَها سواء ، لا فرق بينهم ـ عند ذلك نقول : بطلت الجامعةُ الدينية من بينهم ، هذا بدون[2] نظرٍ إلى مسألة ما إذا كان جائزاً تركُ الرابطةِ الدينية مع الاعتقاد بالدين .

[نصرانية أوربة بعيدة عن تعاليم المسيح عليه السلام]

فأوربة لم تترك من النصرانية إلا المبادىء الإنجيلية الشريفة المبنية على محبة القريب ، وترك الطمع والزهد في الدنيا ، والصدق في المعاملة ، ولم تعرف النصرانيةَ إلا في الشكل الذي أتى به بطرس الناسك ، أي شكل إبادةِ المسلمينِ ، مع أنّ النصرانية الصحيحةَ هي الشقُّ الأول الذي تركته أوربة ، وأما الشق الثاني فهو متناقِضٌ مِنْ جميع الوجوهِ لتعاليم المسيح عليه السلام ، وإنّ كثيراً من فضلاء النصرانية في الشرق والغرب يقرّون بكون أفعال أوربة منافية للنصرانية

---

(١) [وكذلك الرابطة القومية لا تمنع التشاجر ، والحال أبلغ شاهد ، فأين واقع العرب اليوم تحت راية القومية منهم تحت راية الإسلام !!] .

(٢) [بغضّ] .

رأساً ، ولقد تألفت كتبٌ كثيرةٌ في أوربة تشهَدُ عليها بظلمها للمسلمين ، ومؤخراً صدر كتابٌ باسم « الحرب الصليبية البلقانية » لبعض أفاضلِ الفرنسيس من الحزب الاشتراكي ، وفيه مقدمةٌ لأحدِ نواب الأمة الفرنسية ، ورد فيه من هذا الباب ما فيه مقنَعٌ لمن يريدُ أن يكونَ ريان من هذا الموضوع ، وقد جاء في كتابٍ واردٍ من رئيسِ نقابة المحامين في جنيف ، إلى لجنة المحامين في أثينة الجمل الآتية :

« إننا تتبعنا بألمٍ شديدٍ حوادثَ القسوةِ والتوحُّشِ البربري ، التي جرتْ في البلقان أثناء الحرب ، وقد رمى المتحاربون بعضَهم بعضاً بها ، وأظهرَ كلٌّ منهم وثائقَ وأدلى بحججٍ مما أصبحنا لا نقدر معه على تعيينِ درجةِ المسؤولية ، ولكننا نقولُ على وجه الإجمال : إننا شهدنا مشهداً هو من الفظاعة في عصرنا ؛ ومن المخالفة لدين المسيح ، الذي باسمه أُريدَ طردُ الأتراك من أملاكهم التي في أيديهم منذ مئات من السنين ، بحيث يمكننا أنْ نتساءل عما إذا لم يكن المغلوبون هم الذين ساروا في أثناء هذه المجازر الفاجعة بأحسن سيرة إنسانية جديرةٍ بأن تستميلَ عواطِفَ العالم المتمدن » .

أما ظنُّ هذا الفاضل بأنّ سيرة الأتراك جديرةٌ بأن تعطِفَ عليهم العالم المتمدن ، فالحقيقةَ أنها لا تعطِفُ منه سوى نفرٍ من الأحرار المتحققين بالفضل ، وفئات من الاشتراكيين الكارهين لهيئة أوربة الاجتماعية الحاضرة ، وما بقي فإنهم لا يبالون بأي شكلٍ قتلوا الأتراك ، ولا على أي شكلٍ صلبوهم ، وكذلك ليسوا أعطفَ على العرب مما هم على الأتراك ، وهذه حروب أفريقية الحاضرة لدينا ، والعرب يسامون فيها أنواعَ البلاء من كل جانب ، والسيفُ واقعٌ فيهم من كل صوب ، ومالهم عن حياض الموت تهليل ، فالحرب الصليبية لسوء البخت لا تزالُ قائمةً من أوربة .

وإذا قام مِنْ كتّابنا من يستغيثُ منها ، ويلتمِسُ الانصافَ ، ويدعو قومَه إلى التماسك والتعاضد ، ويقول : ما دام هذا التحامل واقعاً في كلِّ بقعةٍ على المسلمين ، فأحرى بهم أن يتعارفوا ، وأن ينهضوا يداً واحدة ، لوَقْفِ هذا الاعتداء عند حد ـ قام بعض رواد الفرنجة من الشرقيين يسلقونه بألسنة حدادٍ ، ويرمونه بالتعصب الديني ، ويتهمونه بالتفريق بين المسيحيين والمسلمين ، وقام

بعضُ المسلمين يجارونهم في هذا الافتراء ، ويوافقونهم على هذا القول ، ليثبتوا لهم أنّهم قوم متمدنون ، متهذّبون ، وأنّهم والحمد لله من الطبقة الراقية ، وأنهم من العلماء الاجتماعيين .

فكأنّه من الواجب أن تأخذَ إيطالية طرابلس ، وترتكبَ فيها ما ارتكبت ، وأن تغزوَ فرنسة مرّاكش ، وتقتلَ القومَ في وسط ديارهم ، وتزحفَ روسية إلى العجم ، وتقتل كبارَ مجتهديهم في أوائل المحرم ، وتصلبَ صاحبنا الإمام ثقة الإسلام التبريزي في يوم مأتم الحسين رضي الله عنه ، وتضع خيولها في مساجدهم المقدسة ، وأن يستأصلَ البلقانيون مسلمي الروملي قتلاً وأسراً ، ويهتكوا أستارهم ، ويسبوا ألوفاً من نسائهم ، ويحملوا منهم نحو (١٥٠) ألفاً على النصرانية بالسيف ، ويقلبوا مساجدَهم كنائس ، ويستبيحوا فيهم كلَّ محرَّم ، ولا يجوز أنْ يرفعَ مسلمٌ أو إنسانٌ مطلقاً صوتَه بشكوى ، ولا أنْ يتلفظَ بذكر هذه الفظائع ، حتى [لا] يقامَ عليه النكير ، وينسَبَ إليه التعصبُ الديني الذميم ، وهذه لعمري نهاية النهايات في احتقارِ عقولِ الناس وأحلامِها والهزؤ بحقوقها .

ولقد شاهدنا بعضَ الجرائد المأجورة للأجانب من الجرائد العربية ، قد سكتت سكوتاً تاماً عن فظائع البلقان ، مع تواترها ، حتى في صحف أوربة ، ورأينا جريدةَ « المقطم » أحياناً تحاوِلُ إنكارها ، لأنَّ ثبوتَ هذه الأفعالِ الوحشية ، مع سكوتِ الدول العظام عنها عبارةٌ عن إعلان أوربة الإفلاس الأدبي ، وسقوط الأوربيين العالين في نظر أهل الشرق من جهة الأخلاق ، كما هم ساقطون في نظر أهلِ الصين ، الذين يسمون الأوربيين برابرة ، فلا ينتظم ذلك مع مبدأ الصحف التي تدعو إلى قبول السيطرة الأوربية ، والتي لا تزالُ تترنَّم بمنازع العدل الأوربي ، ولكن قد افتضح هذا الأمرُ رغم سكوتها ، وظهر للناس عدمُ تحرّي هذه الجرائد الحق ، وإنما ذكرنا « المقطم » في هذا الباب دونَ غيرِه ، لأنّه يستحقُ الذكر ، ويصح أن يوجَّهَ إليه الملام ، بخلاف غيره .

ولقائلٍ أن يقول : ما مدخل هذا البحث الذي هو إثباتُ تحامل أوربة علينا في قضية طلب الإصلاحات من الدولة العثمانية ، على قاعدة اللامركزية ، وإننا مسلمون مؤمنون بوقوع هذه الحرب الصليبية علينا ، ولذلك نحنُ نطلبُ

الإصلاحات ابتغاء تحصين الوطن في وجه العدو الطامح إليه .

والجواب : سترون أنّ البحثَ واحدٌ ، وأنّه سلسلةٌ آخِذٌ بعضُها برقابِ بعضٍ ، ولسنا نقبلُ منكم المغالطة ، فأنتم لم تقوموا فقط لطلب إصلاحاتٍ ، واستفتاح مدارس ، واستثمار مزارع ، واستخراج كنوز ، واستنباط عيون ، بل قمتم من أولِ ما قمتم بالعصبية العربية الجنسية ، وصحتم بالنعرة القومية ، ودعوتم إلى حميةِ الجاهلية ، المنهيِّ عنها في الشرع الإسلامي ، وأخذتم تسدون وتلحمون في موضوعِ تنفير العرب من إخوانهم الترك ، مما لم تخلُ منه كتابةٌ من كتاباتكم ، وكذلك كنتم تشيرونَ من طَرَفٍ خفيٍّ إلى وجوبِ اطراحِ الجامعةِ الدينية الإسلامية ، والعروج إلى المعالي بمدارجِ الجامعة العربية فقط ، وهذا قد نمَّ عليه كثيرٌ من أقوالكم وحركاتِكم ، وإن كنتم لم تصرّحوا به إلى غاية ما في نفوسكم فإنما هو مداراة للعامة، وخوفاً من سخط الدهماء، التي لا تزالون تخدعونها بزخرف الإصلاحات، وتنكرون عليها حقيقة مقاصدِكم من جهة الدين، ومع هذا فأيُّ تصريح تريدون أعظمَ من استشهاد رفيق بك العظم رئيس حزب اللامركزية بقصيدةِ اليازجي السينيةِ، التي اختارَها له من بين جميعِ قصائدهِ في حفلة تشييع رفاته بمحطة مصر ، وهي القصيدةُ التي يقول اليازجيُّ فيهَا :

دَعْ مجلسَ الغِيْدِ الأوانسْ وهوى لواحِظِهَا النَواعِسْ
واسلُ الكؤوسَ يديرُها رشأٌ كغُصْنِ البانِ مائِسْ
وذَرِ التَنَعُّمِ بالمطاعِمِ والمشَارِبِ والملابِسْ
أينَ النعيمُ لمن يبيتُ على بساطِ الذُّلِ جالِسْ
ولمن تراهُ بائساً أبداً لِذَيْلِ التُرْكِ بائِسْ

إلى أن يقول :

فإليكمُ يا قومِ فاطرحوا المدالِسَ والموالِسْ
وتشبّهوا بفعال غيركمُ مِنَ القومِ الأحامِسْ
بعصائِبِ جاؤوا فجادُوا بالنفوسِ وبالنفائِسْ
هبّتْ طلائعُهم يليها كلُّ صنديدٍ ممارِسْ
تركوا جميعَ الترك تَعْصِفُ حولَها النُكْبُ الروامِسْ

ملؤوا البطاحَ بهم ، فداسَ على الجماجمِ كلُّ دائِسْ

يشير إلى حرب الروس للعثمانيين سنة (١٨٧٧) :

فاستوقدوا لقتالهم ناراً تشِبُّ لكلِّ قابِسْ

وعليهمُ اتحدوا فكلكمْ لكلكمُ مجانِسْ

أولستمُ العُزْبُ الكرامُ ومنهم الشمُّ المعاطِسْ

ودعوا مقالَ ذوي الشِّقاقِ من المشايخ والقمامِسْ

يمشونَ بين ظهورِكُمْ تحتَ الطيالس والأطالِسْ

ما همُ رجالُ اللهِ فيكمْ بل همُ القومُ الأبالِسْ

فالشرُّ كلُّ الشرِّ ما بينَ العمائمِ والقلانِسْ

فنحنُ نوافق على مضمونِ قول اليازجي :

أينَ النعيمُ لمن يَبِيتُ على بساطِ الذُّلِ جالِسْ

ولمن تراهُ بائساً أبداً لِذَيْلِ التُرْكِ بائِسْ

وَلِمنْ يَرى أوطانَهُ دِمَناً وأطلالاً دوارِسْ

كسبت شحوبَ الثاكلات وكنَّ قبلاً كالعرائِسْ

عُجْ بي فديتُك نادباً ما بينَ أرسُمِها الطوامِسْ

واستنطِقِ الآثارَ عمّا بينَ هاتيْكَ البسابِسْ

عنْ عِزَّةٍ كانتْ تَذِلُّ لها الجبابرةُ الأشاوِسْ

ومدائِنٌ غناءُ قد كانت تحفُّ بها الفَرَادِسْ

أينَ المكاتِبُ والمصانِعُ والمدارِسُ والمغارِسْ

بل أينَ هاتِيْكَ الألوفُ بها فَسِيْحُ البرِّ آنِسْ

ونرفض الذل، ونطلب المساواة، وننشد الإصلاحات، ونبغي عمران الأوطان، ولكننا لا نجعلُ السببَ في انحطاط هذه الأوطان سوى صليبيات أوربة ، وتحاملها إلى يومنا هذا على الإسلام ، وعدم إمهالها الدولةَ العثمانيةَ فواقاً أن تنهضَ أو تتنفَّسَ ، وعدَّها عليه أنفاسها ذنوباً ، وحسناتها عيوباً ، وزحفَ أمثال أولئك الذين جاء وجادوا بالنفوس وبالنفائس ، وداس منهم على جماجمنا كلُّ دائس ، كلَّ مدة بضع سنين مرة ، بحيث لم تقدِرْ هذه الدولة أنْ ترمم شيئاً من ذلك الخراب الواسع إلا بشِقِّ الأنفس .

ولكننا لا نوافق على مضمون الشماتة بالترك ، الذين هم إخواننا في الدين والتابعية ، والذين نذل بذلهم ، ونعتزُّ بعزِّهم ، شئنا أو أبينا .

فأما رفيق بك أستاذ اللامركزية ، فقد أقرَّ بأنّه قال : إنّ هذه القصيدة ما قرئت على ملأ إلا وجمعتْ بين الشتيتين ، يشيرُ بذلك إلى مسلمي العرب والنصارى منهم ، وهو مقصدٌ حسن ، لو وقف عند هذا الحد ، ولم يجىء مقروناً بالعدوان على الدولة ، والافتراق عن الترك .

[اتحاد العرب مسلمين ونصارى لا يعني التنكر للرابطة الإسلامية]

وهنا أيضاً موقف آخر مهم ، وهو أننا لا نفكِّر أبداً في الانفصال عن نصارى العرب ، بدون نظرٍ إلى قضية كونهم عرباً أو مستعربين أو أصلُهم من أمم مختلفة ، أو كونِ جزء يسير منهم عرباً ، والباقي قد استعرب بكرورِ الأيام ، فإننا نعلم [أن] كلَّ النصارى الذين يتكلّمون العربية عرباً ، ونريدُ أن يبقى الاتحاد بيننا وبينهم ، وأن تكونَ المساواة شاملةً لنا ولهم ، وأن لا يمتازَ المسلمون عنهم بشيءٍ من الحقوق ، ولكنْ على شرط أن لا يدعونا ذلك إلى ترك رابطتنا الدينية بالأتراك وسائر مسلمي المعمورة ، وأن لا نزعُمَ كوننا نحل الجامعة الجنسية العربية محلَّ الجامعة الإسلامية ، وأننا أصبحنا لا نعرِفُ المسلمَ التركي ، ولا الفارسيّ ، فليصبْهُ ما أصابه ، فلا شأنَ لنا به ، ولتُهْتَكْ أعراضُ مسلمي الروملي ، فأيُّ علاقةٍ لنا بهم ، هم ترك ، وبلغار ، وبشناق ، ونحن عرب ، ولينصِّرهم البلقانيون ، فلا يعنينا من هذا الأمرِ شيءٌ ، فإنّ هذه الأمور لا نقدِرُ أن نسلِّمَ بها طرفة عين ، وليستْ هي شرطاً لازماً للإخاء مع نصارى العرب ، فقد كان العرب نصرانيهم ويهوديهم ووثنيهم قبل الإسلام يجتمعون على قتال الأعاجم ، كما حصل في وقعةِ ذي قار ، واليوم يمكن أنْ نكونَ يداً واحدة مع نصارى البلاد العربية ، لأجلِ الدفاع عن أوطانٍ هي لنا ولهم معاً ، ويبقون هم نصارى ونبقى نحن مسلمين ، لأنّه ليس في ديننا ولا في دينهم ما يمنعُ من الإخاء فيما بيننا ، والاجتماع على غايةٍ واحدة .

ولكن لما كانت أوربة نفسُها لم تنكر إلى اليوم الرابطة الدينية ، وكانت فرنسة أمُّ التمدن تدّعي حمايةَ الكاثوليك في الشرق ، بحجة اجتماعهم معها في

كنيسةٍ واحدة ، مع أننا لو نظرنا إلى العنصر ، لوجدناهم أقربَ إلى المسلمين نسباً، وأمسَّ رحماً مما هم إلى الفرنسيس، إذ كانوا والعرب من السلالة السامية، كما أنّ الأتراكَ أقربُ إلى المجر والبلغار نسباً ومحتداً ، وهم مع ذلك أعداءٌ لهؤلاءِ ، وأخوانٌ للعرب بالرابطة الدينية ، فإننا لا نريدُ أن ننكِرَ هذه الرابطة ، ولا أنْ نعملَ على توهينها ، ونجعل فرنسة أقربَ منا إلى التدين ، ويا ليتَ شعري ، لو لم تكن الدولة العثمانية في الوجود ، فمن ذا الذي كان يضطر البلغار إلى ترك البوماق المنصرين جبراً يرجعون إلى الاسلام ، ومن يقسر البلغار على إعادةِ الألوف من السبايا إلى آبائهن كما اشترطت الدولة ذلك في عقد الصلح مع البلغار أخيراً ، ومن ذا الذي كان يجبر البلغار على إنزالِ مئات من النواقيس من رؤوس المآذن ، وإعادتِها إلى النداء بكلمة لا إله إلا الله كما كانت .

وإن قال أولئك القائلون بالجنسية دون غيرها : وماذا يهمنا من أمر البوماق والبوشناق والترك ما دام هذا الأمرُ لم يقع مع العرب ؟

أجبناهم : فلو خطر في بال فرنسة أو إيطالية أن تنصِّرَ العرب في أفريقية جبراً ، كما فعل البلغار مثلاً ، فهل يوجدُ مانعٌ يمنعُ هذه الدول من ذلك غير الدولة العثمانية التركية ، أفلا يرى الناس إلى أعمال المبشرين البروتستانت في مصر وإهانتهم للدين الإسلامي وصاحبِه علناً في الشوارع(١) ، مع أن مصرَ لا يزالُ يقالُ : إنها عثمانيةٌ ، ولا تزالُ ملكَ الدولة العلية ، فكيفَ لو خرجتْ من ملك الدولة ، أفلا ترونَ أنّ أهم شروط معاهدات الصلح بينها وبين إيطالية هو حفظ الحرية الدينية الإسلامية والأوقاف ، ومع البلغار كان المحافظة على الجماعات الإسلامية في بلاد البلغار ، وعلى أوقافهم ومساجدهم ، وتأمين حريتهم الدينية بأوسع ما يتصور العقل ، وأنّ الذي يؤخِّرُ عقد الصلح بينها وبين اليونان ما هو إلا طمعُ اليونان في اعتراض المسلمين الذين عندها في أمورهم الدينية ، بل محاولتها الاحتفاظ ببعض شؤونٍ تخالِفُ الوجهَ الشرعي .

---

(١) [كما فعل القس زويمر ، الذي اقتحم الأزهر ، وهو يتهجم على الإسلام ، ومن الجدير بالذكر أن زويمر هذا هو أخطر مبشر نصراني في العالم ، ولما مات دعا بحاخام ليشهد موته ، وأوصى بأن يدفن في مقابر اليهود !!] .

وإنْ ظنّ بعضُ سفهاءِ [أهلِ] الإسلام كونَ الدولة العلية لا تقدِرُ على حمايةِ دين الإسلام لو تألبت أوربة عليه ، وأنّ ترك أوربة للإسلام حريته الدينية هو مِنْ بعضِ مظاهر العدل الأوربي ـ فهو وهم باطل .

فإن أوربة تفهم أنّه مهما بلغ الضعف من المسلمين ، فإذا مدت يدها إلى دينهم وعرضهم نهضوا نهضةَ رجلٍ واحدٍ ، واستماتوا ، لا يلوون على شيء ، وجعلوا مستعمرات أوربة في خطر الضياع ، وكان لهم من الدولة العثمانية رأسٌ تنتظِمُ به كلمتهم ، وتتحد حركتهم ، فهي لا تهدأ عن هذا الأمر ما دامت الدولة العثمانية في الوجود ، لأنّ قطعَ الأعضاء مع بقاءِ الرأس لا يمنعُ وجودَ الجسم وحياتِه .

ولقد شهدنا أنّ رجلاً كسيدي أحمد الشريف السنوسي صفتُه شيخُ طريقةٍ من طرقِ الإسلام ، قاوم دولة عظيمة (٣٦) شهراً ، ولا يزالُ يقاومها ، ويوالي على جيوشها الهزائم، وذلك بسبب كونه رأساً مطاعاً في بلاده، تجتمع عليه كلمةُ العرب هناك ، فكيف يكونُ شأن السلطان العثماني إذا اشتدّ بالمسلمين الخناق ، والتفوا حوله ، لا جرم أنّ وجودَ الدولة هو الذي وقف بمظالم أوربة للإسلام عند هذا الحد فقط، مترقبة زوالَ الدولة لا سمح الله ، لتأخذ في المسلمين حريتها التامة .

وقد يعترِضُ حزب المتمدنين المتهذبين ، والذين ليسوا نظيرنا من المتعصبين ، بأنه ما شأننا بالدين ودعوته ، وماذا يهمنا من حفظه وعدمه ، ونحنُ دعاةُ مدنية ، لا دعاةُ دين .

فنجاوبهم : هل يسلِّمون بأن دول أوربة دول مدنية أم لا ؟ فإن كانوا ولا شك يسلّمون بكون دعوتها للمدنية فقط . قلنا لهم : هل إذا قامتْ الدولةُ العثمانية بحمل نصارى أقل قريةٍ من قرى الشام على الإسلام قسراً تسكتُ أوربة عن هذاالعمل ، أم تتوسط بالأمر بالنصيحة أولّاً ، وإنْ لم تنجع النصيحة فبالسيف ثانياً ؟ .

فإذا قالوا : كلا لا تقبل أوربة ذلك .

أجبناهم : إنّ المدنية لم ترفع الدين إذاً .

نعم إنّ وجودَ الدولة العثمانية هو الحافظُ الوحيدُ للمسلمين في المعمور كلّه ، دينهم وعرضهم ، وإذا تأذّنَ اللهُ بزيالها ـ لا قدر الله ذلك ـ رَفعت دول

الاستعمار القرآنَ الكريم حالاً من أيدي المسلمين ، وحملتهم على النصرانية قسراً ، وأنشأت لهم برنامجاً خاصاً للتعليم ، ينشأ نشؤهم الجديد عليه ، حتى ينسوا معنى الإسلام بالكلية ، وتذهَبَ منهم روحُ المقاومة ، وتأمن أوربة على مستعمراتها ، وتنتهي مصارعةُ الهلالِ للصليب ، بعد أن استمرّتْ بضعةَ عشر قرناً ، هذا ما ستبادِرُ إليه أوربة إذا زالت دولةُ ابن عثمان ـ لا سمح الله ـ وهذا ما تتوخاه كلُّ دولة منها بمفردها ، وينوب[1] المسلمين من كلِّ دولة يومئذٍ ما نالهم في الروملي من البلغار واليونان والصرب والجبل الأسود في الكائنة الأخيرة ، التي لم يَقَعْ في تاريخ الإسلام ما يضاهيها ، سوى ثلاث مصائب :

الطامة الأولى : **الحرب الصليبية** التي أُخِذَ بها بيتُ المقدس ، وأكثر الشام ، وأصبحَ الحجاز تحت الخطر .

الثانية : **الحرب التترية** ، التي خرَّبت جميع بلاد المسلمين ، ما خلا مصر وأفريقية ، وسقطت بها خلافةُ بغداد ، وبقي بعدها الناسُ ثلاث سنين بدون خليفة .

الثالثة : **المصيبة الأندلسية** ، التي زال بها مُلْكُ الإسلام في تلك الجزيرة ، بعد أنْ استمرَّ فيها نحو (٨٢٠) سنة .

وهذه **الفادحة البلقانية** ـ هي الرابعة .

إذا كانت صدورُ الأمورِ مؤذناتٍ بأعجازها ، فهذا ما ستفعله أوربة في ذلك اليوم ، لا أراها الله إياه ، ولا ينكر ذلك إلا من سفه نفسه ، وكذَّب حسه ، وكابر في المحسوس ، وتناكر مطالع الشموس ، فإنّ تحامل أوربة على الإسلام والدولة العثمانية قائمةٌ ، والدولُ المتناظرة تتشطر أضرعها في طلب المرفق ، وينافس بعضُها بعضاً عليه ، [و] هو ما نراه وما نحسه في كلِّ نبأة ، فما ظنُّكَ به وقد فقد الإسلام حاميه وراعيه ، وأصبحَ أبناؤه هملاً ، وانقلبوا لغيرِهم خولاً ، والعياذ بالله ، هل تنفعنا يومئذ اللجنةُ العليا لحزب اللامركزية في كشف تلك الغمة ، أم نلجأ إلى عمون ورينيه وغانم ونجار وخير الله ومن على شاكلَتِهِمْ ، مناشدين إياهم باللحمة العربية العزيزة عليهم ، أن يشفعوا لنا لدى دول أوربة بما

---

(١) ينوب : يصيب .

لهم من دالةِ اللحمة الدينية معها ، في الكفّ عنا ، والرفق بنا ، وإعطائنا حريتنا ، والمحافظة على عقائدنا وعاداتنا .

لا أظنُّ نصارى العرب وحدَهم عاجزين عن إدراك تلك الغاية ، بل لو توسّط الأمرَ حضرةُ البابا نفسُه ، ومن ورائِهِ الكرادِلةُ والبطارِكَةُ وصاروا وكلاءَ عنا ، ما سمعوا لهم كلاماً ، ولأصرّوا على اقتلاع جرثومة هذا الدين ، الذي يعلِّمُ أبناؤه إباءَ الضيم ، ومحبةَ الاستقلال .

نعم المسلمون سيقومون بحفظ دينهم ، وعِرضهم ، ومُلكهم ، مهما بلغَ منهم الضعف ، ما دام سلاحهم بأيديهم ، أو قامت دولة ابن عثمان مِنْ فوقِ رؤوسهم ، فلا تكف أوربة عن إرهاقهم إلا إذا قام لها وازعٌ من نفسها ، كأنْ يقوى الحزب الاشتراكي مثلاً قوةً يقبِضُ بها على زمام الأمور ، ويتولّى زعامةَ الجمهور ، وذلك لا يزالُ بعيداً جداً ، أو كأنْ تقعَ الحربُ العامة فيما بينهم ، فيسكتون عن الإسلام مؤقتاً ، وبقدر مقدور .

[الإسلام هو الذي وحّد العرب]

وبعدُ فإنّ الرابطةَ الجنسيةَ التي يطبِّلُ ويزمِّرُ بها اللامركزيون ويقولون : هي حسبُنا ، ولا حاجةَ بنا إلى غيرها ، لا يمكنُ أن تأتيَ بالفائدة مع العرب ، مهما تعبَ اللامركزيون في بثّ هذه الدعوة ، لأنّ العربَ بدواً وحضراً هم أبعدُ الناس عن الخضوع بعضهم لبعض ، والاجتماع على طاعة رئيسٍ واحد منهم ، وإننا عهدناهم الآنَ في سورية ، بواديهم لا تنقطِعُ عن أكل بعضها بعضاً ، وحواضرُهم ملأى بالأحزاب والفِرَقِ ، حتى لو أرادوا انتخاب مختارٍ في قريةٍ لدخلت في ذلك العصبياتُ ، ولم يتفقوا إلا بأن توفّق بينهم الحكومة ، ولهذا الطبع المتأصل فيهم مِنْ على عنق الدهر قال النعمان بن المنذر لكسرى : إنَّ العربَ مِنْ أنفَتِهم يكادون يكونون كلّهم ملوكاً ، ولا يطيعُ أحدُهم الآخر ، بخلاف الأعاجم التي إذا وجدت فيها بيتاً عظيماً أطبقتْ على طاعتهِ ، ولم تسمُ إلى منافستهِ ، ومن أجلِ هذا الخُلُق أيضاً كانوا لا يجتمعون إلا بدعوة دينية ، تأتي فوق القبائلِ والعمائر ، وتتأطىءُ لها الرؤوس من الجميع ، حتى قال ابن خلدون أعظمُ فيلسوفٍ اجتماعي ، وواضعِ فَنِّ حكمةِ التاريخ بدونِ مثالٍ سابقٍ ، وصاحبِ

« المقدمة » التي لم يؤلَّفْ قبلَها ولا بعدها مثلُها : إنّه محالٌ اجتماعُ العربِ إلا على عصبية دينية .

ولعمري لا بأس من تقوية الرابطة الجنسية العربية . وإحياء موات معارفها ، وتجديد ذكرى أنسابها ، وعمارة صدور العرب بمعرفة أصولها ، التي تذكرها بوحدتِها ، لكن بشرط أنْ لا يبتدأ في ذلك بالنفور والتنفير من الترك ، وبالقدح في الدولة ، وهياج خواطرِ العرب عليها ، لا سيّما في هذه المآزق ، التي ينبغي أن يتناسى الناسُ فيها جميعَ الأحقاد ، ومع تتابع المحن التي من عادتها القضاءَ على الإحَنْ ، فإنّ الترك أنفسَهم ألّفوا جمعيةً سموها ترك يوردي ، يقصدون بها إحياءَ الجنسية التركية ، المنبثة في شماليِّ آسية إلى أقاصي الصين ، لكن بدون تحامُلٍ على العرب ، وبلا سعيٍ في كسر شوكتهم ، بل تراهم بالعكس ، يتمنّونَ أن يتوفَّقَ كلٌّ من القبيلين إلى ترقية عنصره ، بشرط أنْ تكونَ غايتُهما صيانةَ هذه الدولة الوحيدة للإسلام وللشرق أجمع .

وعدا ذلك فما هي الفائدةُ مِنْ أنْ نأذنَ الأتراكَ بحربنا ، ونحذِّرُهم كيدنا ، ونجعلهم أعداءً لنا ، وهم بحسب زعمنا أصحابُ البلاد ، والمستبدون بأمورها من دوننا ، فإنْ كانتْ حركتُنا هذه هي لأجلِ التهويل عليهم ، والانتصاف منهم ، فأشرفُ منها وأنجعُ ، وأجملُ في الأحدوثةِ وأنفعُ ، أن نطالبهم بحقوقنا الضائعة عندهم ، ضِمْنَ الدائرةِ العثمانية ، وبدون مراجعة دولة من دول أوربة ، وبأنْ نتداعى من جميع بلاد العرب ، ونعقدَ اجتماعاً في نفس دار الخلافة ، ونقدِّمَ مطالبنا بعد الدرس والتمحيص والتأمُّلِ في الظروف والأسباب إلى الباب العالي ، الذي هو مرجعنا جميعاً ، فإنّ الدولةَ مهما بلغ مِنْ ضعفها واضطرارها إلى المداراة وإرضاء المتعنتين ، وإعتاب المتجنين ، فإنّها كانت تُهابُ من جانب العرب المجتمعين من كلِّ فجٍ في دار الخلافة بطلب الإصلاح والنصفة أكثر مما تهاب من حركة بعض شبانٍ جاءوا من بيروت ، وبعض جهاتٍ من الشام ، ومن جبل لبنان إلى باريز ، وأخذوا يتكلّمون باسم العرب ، وعقدوا مجمعاً سموه مؤتمراً ، وليس من العرب أميرٌ مطاعٌ ، ولا سيّدٌ في عشيرةٍ ، ولا زعيمٌ يلقَى إليه بالمقاليد فَوَّضَ إليهم حقَّ الكلام عنه ، أو عن قومه ، فهذه أشرافُ مكة ، وهذا الإمامُ يحيى ، وهذا ابن مسعود ، وهذا ابن رشيد ، وهؤلاء

زعماء بوادي الشام والعراق ، وأعيان حواضرهم ، وأمراء عشائرهم ، ومنهم أهل السنان والعنان ـ لا يعلمون شيئاً من خطب هذا المؤتمر ، الذي سموه بالعربي ، وهؤلاء علماء الأمة العربية ، وأهل الفُتيا فيها ، لم يجوِّزوا شيئاً من أعماله ، ولذلك تصدَّى أكثرُ سراةِ الأمةِ وأعيانها لتكذيبهم في النيابة عن العرب ، والتكلُّمِ باسم الأمة ، وقال بعضهم : إنّهم لا يملكون حقَّ الكلام إلا عن أشخاصهم ، وسكت أناسٌ عنهم ، لا ارتياحاً لعملهم ، بل حبّاً بالسكون والتسكين فقط ، وأكبرَ الجميعُ عقدَهم هذا الاجتماع في عاصمةٍ أجنبيةٍ ، ومراجعتهم وزارات خارجيات أوربة في مسألةٍ عثمانية صرفة ، لا مدخل للأجنبي فيها ، مما دلَّ على سوء النية ، عدا ما دار حول هذه المسألة من الكلام على المبالغ السرية التي أنفقتها في هذا السبيل بعضُ الدول ، مما نمسك عن الخوض فيه ، حفظاً لكرامة بعض أعضاء ذلك المؤتمر ، الذين نجلُّهم عن هذه التهمة .

كما أننا نمسِكُ عن الخوض في حديث مشروع الأصفر الشهير ، الذي دخل فيه بموجب مقاولة بعض أصحاب الجرائد في سورية ، ثم شاع الخبر ، وتساءل الناس عن كيفية هذه المقاولة السرية ، وأخبرهم بعضُ من اطلع عليها بما تضمنته من بيع مرافق الوطن ، وقامت القيامة على أولئك الوطنيين ، الذين اتخذوا الوطن آلةً لدريهمات يكسبونها ، وبقي الحديثُ في هذه المسألة إلى أنْ وقعتْ حرب طرابلس ، فأدهشتْ الخَلْقَ عن مشروع الأصفر وغيره ، ولم يكف أهالي سورية وفلسطين عنهم إلا بمصيبةٍ عامةٍ تلهي الأمَّ عن ولدها .

وما كفاهم ذلك حتى قاموا في السنة التالية بمشروع أعظمَ وأفظعَ ، وهو طلب الإصلاحات على قاعدة اللامركزية، والسعي في انفصال العرب عن الترك ، والنداء إلى ذلك من باريز، أيام وجود البلقانيين على أبوابِ دار الخلافة .

كانت هذه الحركة عبارةً عن استعدادٍ في نفوس كثيرين من أبناءِ الوطن السوري ، من ناقم ومضغن ، وكارهٍ وطامع ، ورائد لأجنبي يرجو بالانفصال تمهيدَ السبيل للاحتلال ، إلى غير ذلك .

وكانت قوةُ الدولة تخفي هذه الحزازات الحائكة في الصدور ، وهؤلاء القوم يتناجون بما يتمنونه سراً ، ويتوقعون لإبرازِه إلى حيِّزِ الفعل فرصةً ، فلما دارتْ

الدائرة على الجيش العثماني في الروملي ، وضعف شأن الدولة داخلاً وخارجاً ، وأصبحَ موقعُها لا يساعدها على الشدة مع رعاياها ، أسرعَ هؤلاء الذين في نفوسهم تلك الأشياء إلى انتهاز هذه الفرصة ، وقالوا : هذه الفرصةُ الوحيدةُ لنيلِ أمانينا ، فمن أعجزِ العجز وأفظعِ التفريطِ أن نضيّعَها .

[قضية اللامركزية وخباياها]

وأوّل ظهورِ هذه الحركة كان في بيروت ، وكذلك في القاهرة ، بواسطة بعض السوريين المقيمين بمصر .

فأما في بيروت فكانوا يقولون : إنّ الدولة أفلست من كل شيء ، ولم يبقَ فيها أدنى أملُ ، وأيقنوا بدنوِّ أجلِ سورية ، وجاءت بعضُ الصحف الفرنسية التي يستطيرُها أقلُّ شيء ، فأخذت تحوم حولَ الموضوع ، وكتبتْ أنّ فرنسة لها من المرافق في الروملي ما سيضيع بعد ذهابه من يد الدولة ، فالعدلُ يقضي بالتعويض عليها من جهة سورية .

وزعمَ بعضها أنّ إنكلترة اعترفت لفرنسة بمركزٍ مخصوص في سورية ، وكان الأسطول الفرنساوي أيضاً واقفاً في مرسى بيروت كما هي العادة إذا حصلت حروبٌ في الشرق ، بأنّ كلَّ دولةٍ ترسلُ إلى بحر الشام بعضَ أساطيلها ، وأخذ روّادُ الأجانبِ وسماسرةُ بيعِ الأوطان يتكلّمون في موضوع تقسيم المملكة العثمانية .

ومن الأمور المعلومة أنّ الدولةَ عند الأهالي الذين هم في تلك البقعة مكروهةٌ وهي قويةٌ عزيزةٌ، فكيف إذا كانتْ مغلوبةً ضعيفةً ، فظنَّ أهلُ بيروت أنْ قَدْ قُضِيَ الأمرُ، ولم يبقَ بينهم وبين الاحتلال الفرنساوي إلا قيدَ شبرٍ ، وانقسموا إلى قسمين :

قسم منهم ـ وهم المسلمون وبعض أفراد من النصارى ـ يرجّحون إنكلترة ، والمسلمون يلتمسون إلحاق سورية بمصر إذ بذلك تسعد أحوالها ، وتروج تجارتها ، وتكون في حِرْزٍ حريز من المهاجمات والحروب ، التي تتعطل بها الأشغالُ ، وتقفُ حركة التجارة ، ويكون الحكم الأجنبي أخفُّ وطأةً بظهوره في شكل حكومة إسلامية ، ولو على الأعين ، بخلاف ما لو جاءت فرنسة ، واستولت رأساً ، فتكونَ المصيبة أعظم .

وأما النصارى فرجحوا فرنسة على إنكلترة .

وصار كل من الفريقين يتطلّع إلى سير الحوادث ، ويتذرّعُ بالأسباب الموصلة إلى غرضه .

وقيل : إنّ بعضَ المسلمين قدّموا سرّاً عرض حالٍ إلى قنصل إنكلترة في بيروت .

وأما العقلاء ، فإنهم وقفوا عن كل حركة مترقبين نتائج الحرب ، وعارفين أنّ الأمر ليس من السهولة بالدرجة التي توهّموها ، وأنّ وراءَ هذا التقسيم ؛ وهذا النزول بالشام أهوالاً .

ولما كان في نفوس الفريقين أشياءُ كثيرة من الدولة ، ومن طرُزِ الإدارة ، منه ما هو بحق ، ومنه ما هو بغير حق ، وكانت القوة في الماضي مانعةً من إظهاره ، فقد تمكّنوا من إظهار ما في ضمائرهم في فرصةِ ضعف الدولة بالحرب البلقانية ، وهبّوا للمطالبة بالاستقلال الداخلي ، تحت عنوان الإصلاح .

والحقيقة أنّ الإصلاح هو غير الاستقلال الداخلي ، ويكونُ كلٌّ منهما بدون الآخر ، لكنّ بعضَ القائمين لا يهمهم الإصلاح بقدر ما يهمهم فصل سورية عن الأتراك ، هذا هو غرضهم الأصلي .

وآخرون ظنوا الإصلاح لا يتمُّ إلا إذا صارت الإدارةُ منفصلةً عن الباب العالي .

وكلٌّ من الفريقين اتفقوا على أنّه لا أمل أصلاً في الشرقيين أتراكاً كانوا أو عرباً ، فلا بد من تسليم هذه الإصلاحات إلى مفتشين أجانب ، يتولّون إنفاذها .

وانعقدت الخناصر على أنّ سيطرةَ الأجنبيِّ هي السعادةُ بعينها ، والحياة الطيبة بحذافيرها ، وأننا نحنُ قومٌ أشبهُ بالقاصرين ، ينبغي لنا أوصياء من الأجانب ، يتولّونَ تربيتنا ، إلى أنّ نكونَ بلغنا رُشْدَنا ، فنتسلَّمَ حينئذٍ أموالنا .

فأما العصابة التي في القاهرة ، فليس لها من الأمر شيءٌ بسورية ، وجلُّ ما في يدها النشرُ في الجرائد ، والمكاتبة إلى الجهات ، فأخذتْ تراسِلُ أهلَ بيروت وغيرهم ، فلم يخرج إلى العمل سوى هؤلاء ، لأنّ كثرةَ الأجانبِ في بيروت ، ومجاورتها جبلَ لبنان ، جعلت لأهلِ بيروتَ على الحكومة دالة

مخصوصة ، وصارت المراسلة بين الفريقين ، واتفقا على أنّ هذه هي الفرصة الوحيدة للطلب ، والثلمة الفريدة لرجاء النفوذ ، وأنه إذا انعقد الصلح ذهبت الفرصة ، فيجبُ القيام بالمطالبة في أثناء الحرب والمصائب والنوائب ، وترك سياسة العواطف والحياء ، وعدم الذهاب مع عامل الحنو ، الذي يقضي بإمهال الدولة ريثما تنفضُ عن نفسها غبرةَ الموت .

ولما رأى الذين في القاهرة أنّ في بيروت مَنْ يخرج من النظر إلى العمل ، وأنّه ربما اقتفت بيروتَ مدنٌ أخرى ، أسرعوا بتأليف لجنة سموها : اللجنة العليا لحزب اللامركزية ، وجعلوها مركبةً من بعض أدباء السوريين وفضلائهم وكتابهم من مسلمين ومسيحيين ، وأفهموا أهالي بيروت القائمين بالحركة أنّ ما هم فيه اسمه اللامركزية الإدارية ، وحاولوا أنْ يلقوا عليهم دروساً ، إلا أن البيروتيين لم يتقيَّدوا بآرائهم من حيث التفاصيل ، وإن وافقوهم في الجملة ، ومضوا في عملهم ، وهيأوا لجنةً للنظر في وجوهِ الإصلاح المطلوبة ، وبعد مناقشات طويلة قدّموها إلى الوالي يومئذٍ أدهم بك ، والوالي كان يساعدُهم ، أو يوهم أنّه يساعدهم ، حذراً من أنْ يشاغبوا على الدولة في أثناء الحرب ، فلما رفع الوالي مطالبهم إلى الباب العالي ، أجاب كامل باشا الصدر الأعظم أنّ في نية الدولة إنفاذُ الإصلاحات في جميع الولايات ، لا في بيروت فقط ، ولكنْ لا بدَّ لمباشرة العمل من تصديق مجلس الأمة ، وهذا يكونُ بعد عقد الصلح ، وقابل كامل باشا يومئذٍ بعضَ السوريين في الأستانة ، فالتمسوا منه تلبية ما يمكن من المطالب الإصلاحية ، وكنّا نحنُ أيضاً ممن طالبوه من أبناء العرب بمطالبهم ، فأجاب بأنّ الدولة تريدُ إدخالَ إصلاحات عديدة ، لكنّ هذا التهور الذي فيه بعضُ أهلِ بيروت هو مما لا ترضاه الدولة ، هذا كلام كامل باشا الذي يتخذُه اللامركزيون الآن إماماً ، ويستشهدون بكلامه ، وحقاً قد كان التهور ، بحيث أرادوا اشتراط وضع الإصلاحات تحت مراقبة السفراء ، ولم يبالوا بكون ذلك يفضي إلى فقد الاستقلال ، الذي هو أساسُ كلِّ شيء ، لأجل حياة أمة .

[الإصلاح المزعوم والنفوذ الأوربي]

وأغربُ من هذا أنهم لم ينظروا إلى جيرانهم أهلِ جبل لبنان ، وما هم عليه

من العبودية للقنصليات في بيروت ، مما قد أثَّرَ في أخلاقهم وأوضاعهم ، وجعل جميعَ العقلاء وذوي الشهامة في لبنان يتألّمون من هذه الحال ، بل إنّهم مالوا بأجمعهم إلى تسليم أزمةِ أمورهم إلى مراقبين أجانب .

وبعد أنْ كانوا صمموا على تفويض مسألة الإصلاحات إلى سفراء الدول بالأستانة ، وُجِدَ من نصح لهم بالعدول عن هذه الجناية ، وذكّرهم ما يترتّبُ عليها من الفجائع في المستقبل ، وأنّ الباب العالي مهما بلغ من الضعف ، واكتنفته المشاكل ، فلا يمكن أن يقبلَ هذا الاقتراح بوجهٍ من الوجوه ، فوقفوا عن هذا الطلب .

ولكنّهم أُشربوا [حب] الأجانب في قلوبهم ، فاقترحوا جعلهم مسيطرين على الولاية بما خصّهم الله تعالى بنعمة لبس القبعة ، جزماً بأنه لا إصلاح بدون ذلك ، وحيثُ إن بعضهم فكر في استحالة قبولِ الدولة سيطرةَ الأجانب الرسمية ، وكان لا يرى مندوحةً من إطلاق أيديهم في الأعمال ، ويزعم أنّ استخدامهم بصفة أُجراء خاضعين لإرادة الحكومة لا يأتي بنتيجة ، وأنه لن تكونَ ثمرةٌ للإدارة المرؤوسة بالأجنبي إلا إذا كان فيها حراً مُطْلَقَ التصرف ـ لجأوا إلى طريقةٍ أخرى ، جمعوا فيها بين الأمرين ، وهي إطلاق يد المستشار الأجنبي في العمل ، وعدم وضع البلاد تحت سيطرة أوربية رسمية ، وذلك بعقد مقاولة مع المستشارين الأجانب ، بتولي هذا الأمر إلى مدة خمس عشرة سنة ، لا ينازعهم في أثنائها منازعٌ ، ولا يعارضهم معارض .

وجعلوا للمستشارين الأجانب الحق في عزل أعضاء المجلس العمومي ، أي أنّهم سلطوهم أيضاً على أنفسهم ، ولم يبالوا بما يمكن أن يقعَ مع المستشار الأجنبي من المداخلات من بعض أبناء الوطن ، وما يُحْدِثُ ذلك من الاضطراب في حبل الإدارة ، وما يجوز أنْ يكونَ ذلك الأجنبي بعيداً عن العصمة التي توهموها فيه ، ويبقى التخلُّص منه صعباً ، ولم ينظروا إلى من حولهم من الأجانب ، ومن يليهم من التراجمة ، وماذا هناك من الأمور المفتتة للأكباد التي لا يدريها إلا مَنْ بلاها ، واصطلى لظاها ، بل وضعوا نُصْبَ أعينهم قضيةً واحدةً، وهي أنّ الشرقيين عرباً أو تُركاً أو عجماً لا يصلحون للإدارة، ولا صلاح للإدارة إلا بالمصلح الأجنبي على شرط أنْ يكونَ حرّاً مطلقَ اليد في التصرف .

ولما كان يتعذَّرُ في الوقت الحاضر إعطاءُ هذا المصلح سلطةً رسمية من قِبَلِ أوربة ، لعدم اتفاق دول أوربة على هذا الأمر ، الذي لا بدَّ له من تقسيم المملكة العثمانية ، وكان الباب العالي يرفض ، ولا يزال يرفض هذه السيطرة الرسمية ، ما دامت هذه الدولة قائمة ، فإنّ الجمعية الإصلاحية في بيروت ، قررت الاكتفاء الآن بمصلحين أوربيين ، تنعقد معهم مقاولات إلى بضع عشرة سنة ، لا يزعجون أثناءها في شيء ، ونظّموا لائحةً قدموها إلى الباب العالي بمطالب وأنظمة عديدة ، وأنذروا الباب العالي بأنْ يجيبهم إليها حالًا ، وبدون تردد .

وكان كلامهم الدائر فيما بينهم وفي جرائدهم أنّهم يطلبون الإصلاح على أي شكل كان ، وبأي واسطة كانت ، فإن لم يأتهم الإصلاح من طريق الباب العالي ، اضطروا أن يطرقوه من جهة الأجانب ، وتكلّموا كثيراً في هذا المعنى .

وليس من غرضنا هنا أن نذكُرَ كلَّ ما قالوه ، ولا أَنْ نَسْرُدَ اللائحة التي قدّموها ، ولكن كما كانت فيها أشياء كثيرة لا خلاف فيها بين العثمانيين ، ولا خوف منها على مستقبل ، فإنّ فيها أشياء بعيدةً جداً عن الصواب ، مجحفة بحقوق العثمانيين عامة ، والمسلمين منهم خاصةً ، نظير جعل نصف أعضاء المجلس العمومي مسلمين، والنصف الآخر مسيحيين ، وجعل عضوٍ إسرائيلي، إذا انضم إلى المسيحيين زاد فريقهم على النصف ، ولم نعلم بناءً على أي قاعدة ارتضت هذه الجمعية أنْ تجعلَ كلَّ خمسة مسلمين بمسيحي واحد ، ولا بناءً على أيِّ تفويضٍ من المسلمين جاز لها أن تبيعَ حقوقهم ، **فإنّه ما من مسلم يحبُّ الحق ويسعى لمصلحة بلاده يجادِلُ في وجوب إعطاء النصفة التامة للمسيحيين ، والإقساط التام بينهم وبين المسلمين، وتمكين عرى الإخاء بين الفريقين ، وتحرى العدل الذي هو أساس العمران ، وتوخى المساواة المطلقة بين جميع الطوائف .**

فأما اشتراط مشاطرة المسيحيين للمسلمين بالنصف في المجلس العمومي، مع كون المسيحيين هم أقلُّ من الربع في مجموع سكان ولاية بيروت ، **بل هم نحو (١٨) من المئة** ، فذلك لا ينطبِقُ على عدلٍ ولا على مساواةٍ ، وليس من شأنه أنْ يزيدَ الأُلفة ، ولا أن يزيلَ الوحشةَ التي لا تزولُ إلا بالإنصاف ، ولا نظنُّ عقلاءَ المسيحيين يرون ذلك الإجحاف بأبناء وطنهم ضربة لازب لإتمام الإصلاح .

وعلى فرض أنّ مسلمي الجمعية الإصلاحية أرادوا أن ينزلوا عن حقوقهم ، وحقوقِ من يلفُّ لفهم من الأهالي ، فبأي سلطان وهبوا حقوقَ غيرهم ممن ليس تابعاً لهم ، ولا قائلاً بقولهم ، فإنّ مسلمي بيروت أنفسِهم لا يقبلون جميعاً هذا الحكم ، وما يرضاه إلا النزر اليسير من عامتهم ، وأما مسلمو الألوية التابعة لبيروت كعكا ونابلس واللاذقية وطرابلس فإنّهم فضلاً عن كونهم لا ينزلون عن حقوقهم ، فإنّهم لا يعلمون أهالي بيروت أوصياءَ عليهم ، يتصرفون بشؤونهم العامة كيف يشاؤون .

وهناك طوائف إسلامية ثانية ، تعتدها الدولة دائماً من جملة الفرق الإسلامية المندمجة في مجموع الأمة ، كالمسلمين الشيعة ، وكالدروز ، وكالإسماعيلية ؛ وكالنصيرية ، وكلٌّ من هذه الفرق موجودٌ منه قسمٌ كبيرٌ في ولاية بيروت ، بل الشيعة هم العنصر الغالب في ملحقات مركز الولاية ، وعليهم المعول في انتخاب مبعوثي بيروت ، والنصيرية هم العنصر الغالب في لواء اللاذقية ، فهؤلاء لا يتركون أيضاً الحقوقَ الثابتة لهم على نسبة عددهم ، ولا يفوّضون أمورَهم إلى فرقة من مسلمي بيروت ، ولا إلى غيرهم .

وقد كان جواب مَنْ قرروا هذا القرار بأنّهم أعطوا المسيحيين النصف نفياً للتعصب الذميم ، الذي يريدون إزالته من بين الطوائف ، مع أنّهم بهذا لم يزيلوا شيئاً من التعصب ، بل خلقوا له بعدم الإنصاف أسباباً جديدةً ، وفتحوا أبواباً كانت مسدودة ، وكان عليهم لو شاءوا ترك الكلام في الطوائف والمذاهب ، أن لا يشترطوا انتخابَ عددٍ معين من هذه الطائفة أو من تلك الطائفة ، بل وجب أن يتركوا الانتخاب شائعاً بين الجميع ، موقوفاً على الكفاية والاستعداد ، بحيث لو انتخب الأهالي ثلثي المجلس من المسيحيين بدون أن يكونَ ذلك عليهم حقاً واجباً لما اعترضَ أحدٌ ، وحينئذٍ كان يمكن أن يقال حقاً : قد ارتفع التعصب ، وصار النظرُ إلى مَنْ فيه الأهليةُ والمصلحةُ الوطنيةُ .

ويا ترى لو كان المسيحيون هم العنصر الأغلب في الولاية ، فهل كانوا يرضون بالنزول عن حقوق الأكثرية ، وهل هم راضون الآن في جبل لبنان ، الذي هو بجوار بيروت ، وأمام أعين أهل بيروت ، بأن يكون للطوائف الإسلامية

التي فيه نصف أعضاء مجلس الإدارة ، كما هو للمسيحيين ، وهل هم ناظرون في انتخاب الأعضاء إلى الأهلية والكفاية أم إلى ميل الطوائف في لبنان ، فإنْ كان الجوابُ على كل هذا سلباً ، فلماذا يرضخُ بعضُ مسلمي بيروت من حقوق الإسلام بدون أدنى مسوِّغٍ ، ولماذا يجدحون من سويق غيرهم .

ولقد سمعنا لهم جواباً آخر وهو أنهم اقتفوا في ذلك أثر الدولة نفسها ، التي ساوت بين المسلمين وبين المسيحيين ، وأنها في المحاكم تأمر دائماً بأن يكون نصف مسلم ونصف غير مسلم ، إلى غير ذلك ، وهي في الحقيقة مأثرة من مآثر حلم الدولة العثمانية، ورفقها بالطوائف الضعيفة في بلادها، مع عدم رِفْقِ الدول الأوربية بالمسلمين الذين يقعون تحت سلطتها ، وهي مع ذلك لا تملُّ الرفقَ ، ولا تسأم من النصفة في بلادها ، مع مشاهدتها الظلم والهضم لأبناء دينها في غير بلادها ، وليس منا من يزهِّد الدولة في هذا المنزع العالي من كرم الأخلاق ، ولا من يرغب بها عن إعطاء الضعيف أكثرَ مما له من الحق تقويةً له وتمكيناً .

وإنك لترى لواء نابلس فيه (١٦٠) ألف مسلم ، و(٢٥٠٠) مسيحي ، وتجد الأعضاء المنتخبين في مجلس الإدارة هناك ثلاثة من المسلمين ، واثنين من النصارى ، أي بزيادة واحد فقط للإسلام ، مع أنه لو روعي العدد ، لما أمكن أنْ يخرجَ للنصارى عضوٌ في مثل هذا اللواء .

وأغرب من ذلك أنّ قضاء طبرية مثلاً ، فيه بضعة عشر ألفاً من المسلمين ، وكذلك اليهود ، ونحو (١٠٠) مسيحي ، منهم (١٠) روم أرثوذكس ، والباقون كاثوليك ، وللمسيحيين عضوان ، أحدهما بمجلس الإدارة ، والآخر في المحكمة ، وقد تكون النوبة للأرثوذكس ، فيكون لهم عضو نائب عن أولئك العشرة الأشخاص لا غير .

وإذا استقرأت ولايات الدولة شرقها وغربها وجدتَ من هذه النظائر ما لا يدخُلُ تحتَ حصر ، فلا نتعرض إلى هذا الموضوع إلا من قبيل الإيماء ، ولكنّ الدولة في هذا لم تقصد إلا تأمين حق الضعيف مع كونها هي المهيمنة على حقوق المسلمين إذا خيف عليها الاهتضام فعلاً ، ومع كون أمر الإدارة المركزية منوطاً بالباب العالي وحده ، الذي هو ديوان الخلافة ، فأما إذا صارت في

الولايات الإدارة اللامركزية ، فقد انتقلت الإدارة من المركز الأعلى إلى مركز الولاية ، ومن الحكومة إلى أعيان الولاية ، وصار المجلس العمومي هو الآمر الناهي ، وقام هو مقام الحكومة ، فأصبحَ إعطاءُ حق النصف لمن ليس نصفاً ليس فيه شيء من النصفة ، فالمسألة لا تقبل القياس .

ومن الغريب أنّ هؤلاء الجماعة لم يكن يعجبهم شيءٌ من مناحي الدولة ، فلما وصلوا إلى هذه القضية زعموا أنّهم إنما يقتفون أثرها ، ولا يحيدون عن طريقها ، ولكنّهم أخطأوا القياس ، فالمجلس العمومي لا ينظر بغيره ، لا سيما بعد تصورهم وضعه تحت مراقبة المفتشين الأجانب .

ومما كانوا يطالبون به **عدم استخدام العسكر في غير أوطانهم** إلافي زمن الحرب ، وقد قيل لهم في ذلك ، فأصرّوا على طلبهم ، فقيل لهم : إنّ ولاية الحجاز لا تعطي الدولةَ عسكراً ، فبأي عسكرٍ تحافِظُ الدولةُ على الحرمين الشريفين ، وتؤمِّنُ طرقَ الحجاج إن لم يكن بالعسكر الآتي من الولايات الأخرى ، فلم يحك[1] هذا الكلام فيهم ، ولم ينظروا في صيانة الحوزة ، وبلغ مِنْ بعض العامة التهورُ أنْ ظنوا أنّ اللامركزية تكونُ سبباً للإعفاء من الخدمة العسكرية بتاتاً ، فقال لهم بعضُ أعيانهم : فمن يدافع إذاً عن هذا الملك ، ومن يصون ذماركم إن انتبذت كل ولاية ناحية ، وقالت : لا نعرِفُ إلا الوطن الخاص ، لا جرم أنّ الوطن الخاص أيضاً يذهب في ضمن الوطن العام إذا بقي هذا بدون حامية ، فكان ذلك لا يهمهم .

وإذا عاتبتهم من هذه الوجهة قالوا : لم نقل : فليكن لنا جيشٌ قائمٌ بذاته ، منفصلٌ عن سائر الجيش العثماني ، وإنما قلنا : لا يحمل العسكر على الخدمة في غير ولايتهم إلا في وقت الحرب ، ولقد رضيتْ الدولة أخيراً باستخدام العسكري في منطقة وطنِه ، لكن بعد إجراءِ قانون أخذِ العسكر الجديد ، الذي ليس فيه استثناء أَحد .

ولعمري لو كانت التربية الوطنية والمعرفة بالواجب هما كما هما في النمسة

---

(١) كذا في الأصل ، والمعنى (لم يؤثر) أو (لم ينفع) .

والمجر ، أو في ممالك ألمانية مثلاً ، لما كان ثمة محلٌ للاعتراض ، إذ ينهض الأهالي من تلقاء أنفسهم ، ويطيرون إلى الثغور زرافاتٍ ووحداناً ، للدفاع عن الوطن ، لا فرق عندهم بين أنْ يكونَ ذلك فرضاً عليهم أو تنفلاً .

فأما والمعارف عندنا لا تزال قاصرة ، والوطنية اسم بلا مسمى ، والقلوب شتى ، والأفكار متسممة ، واليأس مستحكم الحلقات ، والعناصر لا يهادِنُ بعضُها بعضاً ، فلا يرجى إذا امتازت الولايات العربية بالخدمة العسكرية كما تريدُ ، أن تنهضَ لأداء واجبها العسكري في أيام الحرب أيضاً .

وكيف ترى إذا كانت الدولة تستنفِرُ إحدى هذه الولايات للحرب مع أجنبي روادُه مالئون الولاية ، وأمواله متسربة إلى الجيوب من الشمائل والجنوب ، وأنصارُه في نفس الولاية يُحْصَوْنَ بالألوف ، لا مريةَ في أنّ الدولةَ تصير يومئذٍ بإزاء حربين لا حربٍ واحدة ، إحداهما مع ذلك الأجنبي ، وأخرى مع الأهالي أنفسِهم أو مع قسم منهم ، ممن تشبّعوا بأفكار الانفصال عن الدولة ، وقرأ عليهم أولئك السماسرةُ تلك الرُّقى والشعوذات ، وحكوا لهم قصةَ أنَّ الوطن اليوم قائم بالنزعة الجنسية ، فلا مجانسةَ بيننا وبين الأتراك تحدونا إلى القتال معهم صفاً ، ولا يزالون بهم، حتى إذا هوى هذا الوطن التاعِسُ الجدِّ في هاوية السلطة الأجنبية، وقالوا لهم : أين نعراتكم للجنس العربي ، ونبراتكم في وحدة كلمةِ أبناءِ يعرب على مَنْ قَصَدَ بلادهم بسوءٍ أو طمعٍ في الاستيلاء عليهم ، قالوا : قضي الأمرُ ، ليأخذَ بعضُكم بيد بعضٍ إلى قبول هذه السلطة ، ولا تطمعوا في أبناء أوربة بما كنتم تطمعون فيه مع الترك ، فليس الأمرُ متشابهاً ، وربما هزأ بهم مَنْ هزأ قائلاً : نحن خدعناهم سعياً إلى غايةٍ هي غايتنا من قَبْلُ ، فكان عليهم أنْ لا ينخدعوا .

وربما كان بعضُ النافخين في بوق الانفصال غير منافقين ، بل معتقدين في الوطن الكفاية للاستقلال ، فإذا أدّتْ هذه القلائلُ والهزاهِزُ إلى سقوطه ، واستيلاء دولةٍ أوربيةٍ عليه ، لا يكون مغتبطاً بها ، ولا سعيداً ، ولكن ماذا يفيدُ الندمُ إذا زلّتِ القدمُ ، وماذا يغنينا يومئذ صِدْقٌ قائم في قيامه بعد نفوذ سهامه[1] ،

---

(١) كما حدث عندما احتلت فرنسة سورية عام ١٩٢٠ .

ونحن نعلم ما عندنا من افتراق كلمة المسلمين من جانب ، وافتراق كلمة المسيحيين أنفسهم من جانب آخر ، ومن تشتت القلوب ، وتضارب النيات ، ومن قوة الفرنجة في بلادنا ، وضعفنا معهم ، وكونهم يقدرون أن يستظهروا علينا بأنفسِهم وبإخواننا وبأعزِّ الناس لدينا ، ولا يفوتهم منا مطلب ، وليس عندنا سنوسي تجتمِعُ عليه كلمتنا ، وتخلص له طاعتنا ، بل كلّنا سنوسي ، وكلنا قائد ، وكلنا رئيس ، وليس منا رئيسٌ يقرُّ لآخرَ بإمامةٍ ولا زعامةٍ[1] ، وما ضمَّ شملنا إلى يومنا هذا إلا الحكومة العثمانية ، مع ما هي فيه ، فإذا تركتنا وشأننا ، تفرقنا طرائِقَ بدداً ، وصرنا حزائق قدداً .

وأما تخويل المجلسُ العمومي في الولاية تلكَ الحقوق والاختصاصات التي تكادُ تكونُ هي الحكومة بأسرِها ، فكلُّ عاقلٍ يقرُّ بأنه على الحالة الحاضرة هو أمرٌ فوق الطاقة ودون المصلحة ، ولذلك وضع مصلحو بيروت المجلسَ العموميَ تحت سيطرة المستشارين الأجانب ـ **إقراراً صحيحاً** بكون البلاد لم تستعد إلى الآن لمثل هذه الدرجة ، ولم تتوفّر فيها الكفايةُ لإدارة الأمور العامة .

فأما اللجنةُ اللامركزية العليا في مصر ، فإذا كانت هي العليا ، وكل اللجان من دونها ، وكان فيها أساطينُ الحكمة ، وفحول الإدارة ، وقروم المعرفة ، فقد انتقدت تسليطَ أهلِ بيروت المفتشينَ الأجانبَ على أنفسهم ، وصرّحَ الشيخ رشيد رضا في مقالةٍ مشبَعةٍ بكون أهالي بيروت حسبوا أنّ المفتشين الأجانب هم الخلفاء الراشدون ، مع أنّه ينبغي أن يعلموا علمَ اليقين **أنه لم يوجد سياسيٌّ واحد في أوربة رضي بأن تجري المساواة بين الأوربيين والشرقيين** ، بل عندهم **أنّ جميعَ الشرقيين لا يساوون صعلوكاً أوربياً**، هذا هو إقرار الشيخ رشيد رضا بعينه ومينه .

ومن هنا يظهر أنّ برنامج اللجنة العليا ـ زاد الله علوها في مصر ـ لم يكن برنامج الجمعية الإصلاحية في بيروت ، وأنّ كلاً منهما انفردت بخواطر وأفكار عن الأخرى ، ولكنهما كانتا متفقتين في وجه الحكومة المركزية ، وكانت لجنة « السبلانددیار » هذه التي بمصر تتحكَّكُ بلجنة بيروت ، لتعظيم شأن حركتها ،

---

(١) كما هو حال العرب اليوم .

واكتساب الاسم والسمعة بها ، لكون هذه الحركة لم تخرج من الكلام إلى الفعل إلا في بيروت ، وفي مدينة بيروت .

ومن الغريب أنّ الباب العالي نفسَه ندب أهالي سائر البلاد العربية لبيان مطالبهم ، وكان ذلك في أواخر وزارة كامل باشا ، فبعضُ الولايات أجاب أنّهم لا يفتحون هذا الباب في أثناء الحرب ، ولا يقدرون أن يفتكروا في شيء قبل عقد الصلح ، الذي هو الشرط الأول لإمكان الإصلاح .

وأنّ بعض الولايات نظير الشام ، اجتمع أعيانُها ، وقرروا مطالبَ متباعدةً جداً عن مطالب بيروت ، وقد بذل دعاة اللامركزية أقصى جهدهم في تحريك أهالي دمشق للمطالبة بمثل اقتراحات هذا الفريق من أهل بيروت ، فكان ذلك سهماً في الهواء ، وكتابةً على صفحات الماء ، ولم يتبع وساوسَهم إلا أفراد قلائل من دمشق وحمص ، لا يرجح بهم ميزان الولاية ، ولا يقدرون على الاستقلال بعملٍ عمومي .

وكذلك مدّوا الصريخ إلى حلب الشهباء ، فلم يسمعوا لهم نداءً ، ولا انتطح فيها عنزان .

وقد حاولوا أن يثيروا ثائر فلسطين ، وكاتبوا من يعلمونه ناقماً من أهلها ، فلباهم شذّاذٌ مثل حافظ بك السعيد في يافا وغيرِه ، لكنّهم في قلة بالقياس إلى أنصار الحكومة ، فلهذا لم يمكنهم أيضاً إحداث حدثٍ في القدس الشريف ، ولا عقد لجان خاصة ، فعادوا يبثون الدسائس في جزيرة العرب ، مشاغلةً للدولة ، وزيادةً في خطوبها ، غير ناظرين إلى خناق الدولة بالحرب الطاحنة التي استهدفت لها لأجل الإسلام والأوطان ، وغير عاطفين إنْ لم يكن على عساكر الترك فعلى عشراتِ ألوفٍ من عساكر سورية ، يتساقون كؤوس المنايا بين شطالجة وبولايير ، وغير متذكّرين أنّ الشغبَ والتحريكَ في البلاد العربية هما مما يزيد قوة الأعداء المعنوية ، ويجرّؤهم على مهاجمتنا ، ويجعل لأوربة سبيلاً علينا في إيجاب الرضى بأيّ صلحٍ تيسَّرَ ، وأننا بهذه الدسائس نكون كمن ذبح ولده بيده ، وغير راقبين في دولتهم ولا في وطنهم إلًّا ولا ذمةً .

فتراهم أبداً يدسّون إلى الإدريسي في عسير أنْ لا يرضى ولا يصالح ،

ولا يأمن غدر الترك ، وكلّما نامت الفتنة أيقظوها ، وتهللت وجوههم بأخبار تجدُّدَها ، مع أنّه سفك دماء الإخوان المذخورة لفداء الأوطان .

ونراهم ناقمين على الإمام يحيى ائتلافه مع الدولة ، ووضعه حدّاً لهاتيك الفتنة الصماء في اليمن .

ولا يبعد أن يكونوا هم الذين زيّنوا لابن سعود أنْ ينتهزَ فرصةَ الحرب البلقانية ، وخطب أدرنة ، ويهجم على الإحساء ، ويأخذ لواء نجد ، ولا يبعدُ أن يكونوا الآن ناقمين عليه اتفاقه مع الدولة ، وتسميته والياً وقائداً على ولاية نجد من قِبَلِ السلطان .

ولا شبهةَ في كونهم هم الذين يغرون السيد طالب الرفاعي ابن نقيب أشراف البصرة بالخروج على الحكومة ، ورفع لواء الثورة ، فإنْ لم يكن فعل إلى الآن ، فيكون اتئاداً منه ، وحِساباً للعواقب ، أو وقوفاً عند خاطر أبيه .

وما فتىء أولئك القساة الذين لا يخافون الله ، ولا يشفقون على عباد الله ، ولا يهمهم خرابُ بيوتِ الخلق من أقصاها إلى أقصاها ، وينضم إليهم كلُّ ناقمٍ بسبب شخصيٍ ، أو نزعة حزبية ، أو نزغة شيطانية ، حتى يتمكنوا من إيجاد مسألة يقال لها : المسألة العربية ، مع أنّ العرب لا يعرفونها ، ولو عرفوها للزمَ أن تتفي أثرَ أهلِ بيروت سائرُ مدن سورية بالفعل ، أو على الأقل أهلُ دمشق وحلب والقدس .

والحال أنّه لم يكن شيءٌ من ذلك ، وأنّ الجعجعة عظيمة ، والطحن أقلُّ من القليل ، وإذا خرجتْ الحركةُ من الجرائد لم تكد تحس لها رِكْزاً ، فلهذا اعتنى أولئك النفر أن يهوِّلوا في الصحف العربية ما شاءوا ، يصورون بلاد العرب بصورة أطمة منتفخة ، أو حرجة مشتعلة ، وأشاروا إلى أرباب الصحف العربية في سورية ، والصحف السورية في مصر ، والصحف العربية بأميركة أن يشعلوا النار من كل مكان ، **وأجازوا لهم الافتراء والاختراع في سبيل الوصول إلى الغاية**، فاندفعت هذه الجرائد اندفاعاً يعلمه كلُّ مَنْ اطلع عليها، أو على بعضِها، وأرسل بعضُها عنان الاختلاق بقدر ما سمح له وجدانهُ ، وصارت الدولة العثمانية هي المقصودة بالعداوة لا البلغار ولا اليونان ولا الصرب ، ولم يبقَ لنا

شغلٌ في إبّانِ هذه الأزمة إلا تهيجَ العرب على الترك ، مع أنّ الأزمةَ لم تخصَّ الترك دون العرب ، بل هي مأتم الفريقين ، ونعش الجنازتين ـ لا سمح الله ـ وإذا أصاب التركَ شيءٌ فلن نبيتَ نحنُ على فراشٍ من حرير ، وقد كانتْ طلائعُ هذه الحركات بدت كما أسلفنا في وزارة كامل باشا ، وهو نفسه أفهمَ أهلَ بيروت استحالةَ إجراءِ مطالبهم قبل التئام مجلس الأمة ، ففي تلك الأثناء صارت مسألة أدرنة ، وهجم الاتحاديون على الباب العالي ، فحاول حجاب الصدر معارضتهم بالقوة ، فتبادلوا الرمي بالرصاص ، وقتل من الفريقين أناسٌ ، ووقع في هيعة ذلك ناظم باشا صريعاً ، واستقالت وزارة كامل باشا ، وجاءت وزارة محمود شوكت باشا ، فهناك قامت القيامة ، وانضاف إلى بغضاء الترك بغضاء الاتحاديين ، ترك الترك[1] والسد الحائل دون تفكيك أوصال الملك ، وكأنّك ذررتَ على الجرح مِلْحاً ، وكأنّك صببتَ على النار زيتاً ، وصار ناظم باشا مع كونه باتفاق الأراء مسؤولاً عن أكثرِ مصائب الروملي هو الفقيد الأعز ، والبطل الأكبر ، الذي انهدّ به ركنُ الدولة ، وهوى نجم سعدِها ، وأمسى عفا الله عنه قد ناحت عليه نوادبُ اللامركزيين والائتلافيين بدموعٍ غزارٍ ، ولطموا خدودَهم من أجلِ مصرعه ، حتى إذا جاء غريبٌ ، وشاهد حالَ هذه الفئة بعد تلك الواقعة ، ولم يكن عنده تفصيلُ أخبارِ الحرب البلقانية ، ذهبَ به الظنُّ إلى اعتقاد الدولة بحسن تدبير ذلك القائد الأعظم قد طحنت جيوشَ الدول الأربع المحاربات ، ودخل الجيش العثماني عواصمهنَّ ، وأنّ الاتحاديين حسداً له وبغضاً جاؤوا ففتكوا به عمداً ، مع أنّ قتله وقع بدون عمدٍ ، بل في أثناء الترامي ، وقد ساء قتله كل إنسان مع كل ما سبق من خطيئاته ، لأنّ سفك الدماء مذموم بكلِّ الأحوال ، ولكنّ هؤلاء الجماعة من شدة تغلبِ هواهم على عقولهم جعلوا مصرع ناظم كمقتل الحسين بن علي رضي الله عنه ، أو كمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهو الذي اتخذه بنو أمية وسيلةً للمنازعة على الخلافة ، وسُلّماً للارتقاء .

ومن العجيب أنّهم كانوا يتميّزون غيظاً من تصدر محمود شوكت باشا في الباب العالي ، وما زالوا ناقمين على الدولة وزارته ، حتى مضى لسبيله

---

(١) كذا في الأصل ، ولعل الصواب : وترك الترك .

رحمه الله شهيدَ حميتهِ على وطنه ، وضحية صفاء سريرته ، فكان قتله عندهم عيداً ، مع كونه معدوداً من العرب ، ومولده ومنشأوه بغداد ، وسلفه في مدينة السلام منذ (١٥٠) سنة ، على حشمة وسراوةٍ ، كما يشهد بذلك كلُّ العراق ، فلا يعرف الناس محمود شوكت إلا عربياً ، وهم يدّعون الحميةَ إلى العرب والعربية ، وعلى فرض أنّ أصله تركي أو كرجي ، فالمرء من حيث يثبتُ ، لا من حيث ينبتُ ، ممَّنْ لا يعرف لهم الناس في العرب قديماً ثابتاً ، ولا جديداً نابتاً ، وقد أصموا الآذان بصراخهم في شأن العرب ، ولو كان ناظم باشا عربياً ، أو فيه أقلُّ عرقٍ من العربية لقالوا : إنّ الأتراكَ قتلوه بغضاً بالعرب ، ولم يطيقوا أنْ يروا منا ناظراً للحربية ، وكانوا أشعلوا نار الثورة .

وأغربُ من شدة غضبهم لقتل ناظم باشا الذي ليس فيه مسوغ للغضب ، وأعجبُ من شدة حزنهم على المصاب به (ولو كان رصيفُه جمال الدين أفندي شيخ الإسلام السابق يقول : إنّه مسؤول أمام الله عن أكثرِ المصائب التي وقعتْ على الجيش العثماني ، وأنّه مستحقٌ للقتل) ما كان يظهر منهم من الغيظ والتحرق على أنور بك ، الذين يندُرُ أنْ يوجَدَ مثله في شبان الدنيا بأسرِها في عقله وحزمه وذكائه ومضائه وشرف نفسه .

فإذا سألتهم عن سبب هذا المقت لبطل نظير أنور قدّرتْ قدره أوربة بجميع أصنافها أجابوك : أفلم يكن هو السبب في سقوط كامل باشا ، ذلك الشيخ المحنك ، وفي ذهاب أدرنة ، وفي قتل ناظم باشا ، إلى غير ذلك ، وحقيقةُ الحال أنّه لا يوجَدُ أدنى سبب للأسف على فراق وزارة ذلك الشيخ المحنك قطب السياسة ، لأنه مع مزيدِ حنكتهِ ، ودوران السياسة على آرائه ، لم تجد الدولةُ في أثناء وزارته إلا أفظعَ الفظائع ، وأفجعَ الفجائع ، ولم تكن أدرنة لتبقى لنا بواسطته ، ولا قال ذلك أحدٌ من رجال السياسة .

وأما قتل ناظم باشا ، فقد وقع في معمعةِ الهجوم بعد سقوط مصطفى نجيب قتيلاً ، وأثناء فورة الدم ، وكان أنور ساعتئذٍ داخلاً يفاوضُ الصدرَ الأعظم ، كما شهد بذلك نورادونكيان أفندي ناظر الخارجية .

وبعدُ فهل نسي العثمانيون خدمةَ أنور العظيمة في إعلان الدستور ، وهل

نسيت الأمة العربية خاصةً أعمال أنور والفريَ الذي فراه في الجبل الأخضر ، والتدابيرَ الرشيدة والوقائعَ الشديدة التي عقدت له من محابِّ قلوبِ العرب ما لم ينعقدْ لأحدٍ قبلَهُ ، أو هل انحصرت الأمةُ العربية في أشخاص معدودين من متعنتي سورية ومفسديها ، ولم يبقَ لعربِ أفريقية ؛ ولا لعربِ الجزيرة ؛ ولا لسائر عرب الشام حق في الكلام باسم العرب ، وهل أصبحت الحميةُ العربيةُ مقصورةً على مشاقة الترك ، ومخاصمة الدولة ، حتى إذا وُجِدَ العربُ بإزاء دولة أجنبية كان قصارى سعي اللامركزيين أنْ ينصحوا لهم بالاستسلام لها ، وتركِ المقاومة ، كما فعل أعضاءُ اللجنة العليا ، فمن لم ينصحْ لهم بالخضوع منهم لم يأتِ بأقلِّ حركةٍ لمعاونةِ مجاهديهم ، الذين بنوا من الشرف للعرب ما لم يبنه قبلٌ عربيٌّ سواهم ، لأنّهم كافحوا دولةً عظيمة كإيطالية ، واستظهروا عليها في وقائعَ لا تكادُ تحصى ، وغنموا من عساكرها المدافع والبنادق والملابس والذخائر ، وحفظوا أكثر مراكزهم أمامها ، ولم تتقدَّمْ خطوةً عن البحر إلا بدينارٍ تعطيه ، أو شقاقٍ تلقيه ، وهم قومٌ مجرّدون من أسبابِ الدفاع ، محصورون من البر والبحر ، فبمثلهم فليفخر العرب ، وبأعمالهم فليعتبر الذين لا يبرحون نادبين نائحين ، وصاخبين صائحين ، يقولون لأهل الشرق : انقطع الأملُ ، وانقدَّ في البطن السَلَى ، فليس أمامكم إلا الرمي بقيادِكم إلى أمة أوربية !! .

[بغض اللامركزيين للاتحاديين]

ولما تصدّرَ محمود شوكت وجاء الاتحاديون ، امتدت الشحناء ، واشتعلت في القلوب اشتعال النار في يابس العرفج ، وبلغ من حقد بعض تلك الفرقة أنْ صاروا يعترضون على جميع أعمال وزارة محمود شوكت ، حتى على استلافِ بعض أموالٍ من مصارف أوربة لميرةِ الجيش العثماني المرابط على أبواب دار الخلافة ، والذي فيه نحو (٦٠) ألفاً من العرب ، فكانت حميتُهم على أبناء جلدتهم أنْ يسْعَوْا في منع الرزق والذخيرة عنهم ، وفي إماتتهم جوعاً ، وقد أنكروا هذه الأفعال خوفَ أن يفتضحَ أمرهم ، وينهتِكَ سترُهم ، ولكنْ لا يفيدُهم الإنكار ، وفي الصحف المنشورة مقالات تحت توقيع بعضِ أعضاءِ لجنتهم العليا ملأى بالاعتراض على استلاف الوزارة المال لمتابعة الحرب ، وبعضهم وضع

مسألةَ القرض موضعَ البحث القانوني ، هل يجوز لوزارة متغلبة بالسيف أن تعقِدَ باسم الدولة قروضاً أم لا ؟ وأعرق في الغرابة من ذلك أنّ بعضَهم سأل كامل باشا نفسه بعد انقلابه من الوزارة ، ومجيئه إلى مصر : هل تعد وزارة محمود شوكت الجديدة وزارةً مشروعةً ؟ وهل عقودُها ماضيةٌ ، وأعمالُها نافذةٌ ؟

فكان جواب كامل باشا بالإيجاب قائلاً : لا محل للاحتجاج على مشروعيةِ الوزارة الجديدة ما دام السلطانُ قد أمر بذلك . فبلغ بعضُهم من الشحناء ما لم يبلغه كامل باشا نفسُه ، وهو لما ينفضُ بعدُ غبرةَ الموت من وقعة الباب العالي .

على أنّ محمود شوكت باشا بمجرَّدِ وصوله أعلنَ أنّه لا يريدُ مخالفة الوزارةِ السابقةِ فيما كانتْ شرعت به من تبديل شكل الإدارة الداخلية ، بل ينوي توسيعَ دائرة الإصلاحات عمّا كان قرّرَ سلفه ، وتقسيم المملكة إلى مناطق ، تدارُ كلُّ منطقةٍ على أصولٍ مختصةٍ بها ، فلم يرقْ ذلك في أعين دعاة اللامركزية ، ومن هناك من الإثني عشر نقيباً والمئة والأربعة والأربعين نجيباً ، ولبثوا يحذِّرون الأمة من الاتحاديين ، ويذمّرون عليهم ، ويرجفون بأحوالِ الدولة ، ويقطعون آمال الناس ، ويُوغِرون على الدولة صدور أهلِ الشام وأهلِ العراق .

كان يكتب رفيق بك العظم في جريدة « المؤيد » مثلاً ، أنّ الباب العالي يساوِمُ بعض الشركات الأجنبية على بيع بعض مرافقِ سورية ، وأنّ الدولةَ باعت الكويت للإنكليز ، والحالُ أنَّ هذه الفئة عينها هي التي طالما انتقدت الدولة في جمودِها وتعصبِها وتجافيها عن معاملة الأجانب ، الذين لا يُرْجى إصلاحُ البلاد إلا بهم ، وبما لهم ، ورؤوسُ هذه العصابة هم الذين كانوا أولَ من تواطأ مع نجيب الأصفر في مقاولةٍ سرية على أخذ جفتلك (قضاء) غوربيسان لحسابِ شركةٍ باريزيةٍ ، وليسَ ذلك مما يطابقُ خطةَ الانتقاد ، الذي عاد ينتقدُه رفيق بك في شيء .

وأما الكويت وما أدراك ما هو ؟ فإنّ الدولة لم تحكم في الكويت في وقتٍ من الأوقاتِ إلا على الشكلِ الذي تحكمه الآن ، ولكنّ سوءَ تصرُّفِ بعضِ الولاة ، والشقاقِ الذي لا يزالُ مصدرَ مصائب العثمانيين ، وكلِّ أمةٍ حلت بها المصائب ـ حملا أمير الكويت على مصانعة إنكلترة ، التي عقدتْ معه

مقاولاتٍ[1] تتعهّدُ بها أن تحميه من الدولة فيما لو أرادت عزله من هناك ، وكانت الدولة إلى هذه السنةِ لا تريدُ أن تعترفَ بهذه المقاولات ، ولما بلغَ منها الجهدُ ، وأحاطَ بها الخطرُ من كلِّ مكان ، واحتاجت إلى المال ، واضطرت إلى تقوية الأسطول ، وأدركتْ الضررَ البليغَ الذي أصابها من ضعفه ، ونزول درجته عن درجة الأسطول اليوناني ـ مدتْ يدّها إلى مصالحةِ إنكلترة ، ومالت إلى تصفيةِ كثيرٍ من المسائل المعلقة بينهما في العراق ، كمسألةِ سكةِ حديدِ بغداد ، ومسألة الكويت ـ فقرَّ القرارُ على إقرار إنكلترة بسيادة الباب العالي على الكويت ، وبإقرار الباب العالي بمقاولات إنكلترة مع مبارك بن صباح أميرِ الكويت ، وبأن لا يمدد خط الحديد من البصرة إلى الكويت إلا برضى إنكلترة ، واستعهد البابُ العالي الحكومةَ البريطانية بمصالح جسيمة سياسية ، وقروض مالية في مقابلة هذا العهد ، وإنني لأضحكُ من هؤلاء القوم ، وأحياناً أبكي من حركاتهم في مشاكستهم الدولة كيفما فعلت ، وكيفما تفعل ، فأنا أناشدهم الله ما دامت أوربة لا تعرفُ عرباً ولا تُركاً ، ولا تعرف إلا اسم عثماني ، والبلاد هذه من أولِها إلى آخرها لابن عثمان ، الملك الشرعي لها ، وبمجرد وضع توقيعه على ورقة ينتهي الأمر ، فلماذا نقومُ بمشاكسة الدولة في إبان ضيقها وأخذِ العدو بمخنقها ، ونجتهدُ أن نُفْهِمَ إخواننا الأتراك أنّ مصيبتهم بعيدةً عنا ، وأن بثقتهم[2] غير مفض إلينا ، وأننا لسنا شركاءهم في السراء والضراء ، أفلا نخاف أن يحملَ الدولةَ ما تراه من إصرارِنا هذا على الرضيخةِ بحقوقِنا ، والتساهلِ بمرافقِ بلادنا ، أفلم يكن الأولى أن نسلكَ إلى صيانةِ حقوق بلادنا غير طريقِ المشاكسةِ مع الدولة ، التي بيدها الزمامُ ، أفترى إنكلترة سألت اللجنة العليا لحزب اللامركزية عما إذا كانتْ تجيزُ لها مقاولةَ الكويت مع الباب العالي ؟ أم سألتْ أحداً من عظماءِ العرب ؟ وهل سألت فرنسة مؤخراً أحداً من أهل سورية عندما اتفقت مع جاويد بك على الامتيازات التي أخذتها في سورية ؟

فإنْ كان الجوابُ على كلِّ ذلك سلباً ، فما معنى هذا الصخب ، وهذه

---

(١) معاهدات .

(٢) كذا في الأصل ، ولعل الصواب (بثهم) أي حزنهم .

الصيحة في الجرائد ، سوى مقصد إلقاءِ الوحشةِ ، وتمكينِ النفرةِ ، سواءٌ استفادَ بذلك العربُ ، أم لحقهم الضررُ .

[محاولة الإضراب في بيروت]

قلنا : إنّ مجيء الاتحاديين إلى الوزارة زادَ الطين بلة ، ولو كانوا أسرعوا بالمواعيد في إتمام الإصلاحات ، وذلك لأنّ تلك الفئة لا ترضَى عن الاتحاديين مهما فعلوا ، ومهما أحسنوا ، وأنّها تقلِبُ حسناتهم سيئات .

فلما لَحَظَ البابُ العالي أنّ الحركة ازدادت عن ذي قبلُ ، وكانت الحركة الفعلية في بيروت ، صرفَ الوالي أدهم بك من هناك ، وأعاد حازم بك الوالي السابق ، فحضر ظاناً أنّه يسلك مع العصبة طريقَ الملاينة والمسالمة ، وأنّهم بذلك ينبهون عما هم فيه ، ويعتدلون في مطالبهم ، ويمهلون الدولة حتى تكون نشقت نفَس الفرج ، فوجدهم كلّما ازدادَ ليناً ازدادوا شدةً ، واعصوصبوا على الحكومة ، ورأى الأمرَ سينتشر ، وأنّه لا يبعدُ أن تتألّفَ لجانٌ أخرى يعصوصبُ حولها الناس في سائر مدن سورية ، فيتسعُ الخرقُ على الراقع ، ولا ينفع الندم فيما بعدُ ، فأمر حينئذٍ بإقفال النادي الذي سمّوه نادي الإصلاح ، فأقفلته الرابطة ، فلم يكن من الإصلاحيين إلا أن ألّبوا بعض التجار وأصحابَ المخازن، واتفقوا معهم على إغلاقِ دكاكينهم وحوانيتهم ، ظانين أنّ ذلك في هذه الأوقات الحرجة يوقِعُ الرعبَ في قلوبِ رجال الدولة ، فيسرعون بإعطائهم اللامركزية حالًا، بل أبعدوا في النُكْرِ أكثر من ذلك، وهو أن إغلاق الحوانيت يضر بالمصارف الأجنبية ، فتضطر الدول إلى التعرُّض [للمساءلة] ، وتحمي جانبهم .

والحاصل [أنهم] أقدموا على هذه الحركة على أملِ توسيعِ الخرق ، فلم تنتظم معهم ، لأن قسماً كبيراً من أصحاب الدكاكين والحوانيت أبوا التعطيل ، والحكومة لم تتزعزع عن عزمها ، وشددت في حفظ الأمن ، بحيث لم تكن بيروت في يوم من الأيام أسكنَ مما كانت أثناء حركةِ اللامركزية ، فاضطر محمد أفندي بَيْهُم ، ويوسف أفندي سُرْسُق كبيرا المسلمين والنصارى إلى الإعلان على الملأ بوجوب فتح الحوانيت ، على أنّه لو لم يعلنا ذلك لما أمكن استمرارُ

التعطيل ، لأنّ التجارة تتوقف ، والضرر يفدَحُ ، فعاد الناس سريعاً إلى فتح مخازنهم ، وفشل مشروع الإغلاق والإقلاق .

وانتهت المسألة بتلغرافات إلى الجهات بتجسيم الحركة ، وتعظيم الخَطْبِ، وبرسائل إلى « المقطم » وإلى « الأهرام » يتخيَّلُ من مطالعتها الإنسانُ أنّ سورية قائمةٌ قاعدة ، وأنّ البركانَ على وشك الانفجار ، ولو تأمّلَ أصحابُ تلك الجرائد قليلاً ، لكانوا مع خدمتهم الغرض المعلوم الذي يخدمونه يأنفون من نشر رسائل تتوالى في وصف القلق والاضطراب ، واستمرار الحوادث ، والاحتفاز للثورة ، وغير ذلك مما لا ينقطع الكلام عنه ، وليس هناك أثر فعلٍ يؤيده، بل لم يخيم السكون على آفاق برِّ الشام تخييمه عليها في هذه السنة، مع اجتهاد كثيرٍ من ذوي الضمائر الخبيثة بأن يحدِثوا أحداثاً ، ويضرِمُوا فتناً .

وكان يلزمُ أصحاب تلك الجرائد أنْ يفكّروا في أنّ الطريقَ غير مقطوع بين سواحل الشام والإسكندرية وبورسعيد ، ففي كلِّ يوم تخرجُ البواخر بمئات من المسافرين قد غادروا برَّ الشام ، وليس فيه قليلٌ ولا كثيرٌ مما يصفه مراسلو هاتيك الصحف ، وأنّ عند أولئك النفر مبدأ لا يزالون يتعقبونه ، وهو أنّ الحرب أولها الكلام ، وأنّ التهييجَ لا بدَّ أن ينبتَ زرعَهُ ، فتخرجَ الأمورُ من طورِ القولِ إلى طورِ الفعلِ ، ويقعَ الهَرَجُ والمَرَجُ ، اللذان هما وسيلتا الخلاص من الحكومة العثمانية .

هذا وبعد إقفالِ نادي الإصلاح البيروتي بقليلٍ اعتدى سفيهٌ من شبّانِ بيروت على المرحوم زكريا طبارة ، فقتله لأسباب غرامية ، تحققت من إقرارِ القاتل والمقتول ممن أجلها في قصة ليس هنا موضعها ، فوصلَ الخبر إلى مصر بأنّ زكريا طباره قُتِلَ في بيروت ، فرقص بعضُ اللامركزيين طرباً ، وقالوا : خرجتْ الحركةُ إلى حيّزِ الأفعال ، وصارت تتعاظمُ مِنْ الآن فصاعداً ، وأرسل كاتب اللجنة العمومي تلغرافاً إلى بيروت يقول فيه : نعزي أهلَ بيروت ، أفيدونا تفاصيلَ الجناية .

إلا أنّه لسوءِ حظ اللجنة العليا ، ورد الجواب من بيروت بكون الجنايةِ غير سياسية ، فعادت دلوهم بغير ماء ، واسودت وجوههم خيبة .

ولقد كان لهذه اللجنة العليا القدح المعلى في تهييج أهلِ بيروت ، والتغرير بهم في ميدان مخاصمة الدولة ، وإقناعهم بأنّ إمهالَ الباب العالي إلى ما بعد الحرب رأيٌ فائل ، وذهاب باطل ، لأنّ الباب العالي إذا تنسّمَ أريجَ الفرجِ نقضَ ما كان وعد به قبل الصلح ، فلا ينبغي أنْ يُؤْخَذَ بأقوالِ الأتراك ، فإنّه لا يوثَقُ بسيل تلعتهم .

وكان إذا اعترض معترض بأنّ المروءة والفتوة والإسلام والإنسانية والشرف والوطنية وكلَّ ذلك يمنع من وضع اليد في مخنق الدولة ، ومطالبتها ومشاغبتها ، وهي لا تكادُ تعي من دهشة الحرب .

أجابوك : إنّ الوقتَ أضيقُ من أن نستمهلَ يوماً واحداً ، وزعموا للمسلمين أنّ فرنسة هي على وشك احتلالِ سورية ، وأنّه لا يقيها الغارة الفرنسوية إلا حرز اللامركزية ، ولما أكبر الناسُ حركتهم هذه ، وقالوا : يا للخجل من إخواننا الترك !! بل يا للخجل من إخواننا العرب !! بل يا للخجل من أنفسنا لاختيار هذه الأزمة ظرفاً للطلب ، وعدم مبالاتنا بما الخلافة فيه من الخطر ، وإظهارنا من العمل ما لايصدر عن الأعداء فضلاً عن الأولياء ! عادوا يموّهون عل الخلق بأنّهم إنما تكلّموا في تلك المطالب على أن تكونَ بعدَ وضع الحرب أوزارَها ، مع أنّهم قد كتبوا كتاباتٍ تحت تواقيعهم بأنّه لا يجوزُ الإمهال ولا يوماً واحداً .

ولمّا لزمتهم الحجةُ بأنّهم لم يقبلوا الإمهال ، ولا الفسحة إلى ما بعد وضع الحرب أوزارها ، وعلموا أنّ التمويهَ غيرُ مجديهم ، رجعوا يقولون : نعم نعم ، أصررنا على إعطاء الإصلاحات في وقت الشدة ، لأنّ المريضَ إذا اشتدَّ به الداء ، كان ذلك أدعى إلى سرعةِ العلاج ، وهي سفسطةٌ لا تنطبِقُ على ما نحن فيه أصلاً ، وإنما ينطبقُ على حالة المملكة مثلٌ آخر ، وهو أنّ مريضاً اشتدتْ به العلة ، وأصبح جسمه مضطرباً لأقلّ سبب ، فجاؤوا يعطونه الدواء دفعةً واحدة ، غيرَ ناظرين إلى درجةِ تحمُّل جسمه ، ولا مدققين في فحص أعضائه ، ومما لايختلف فيه اثنان من الأطباء أنّ الجسمَ الضعيف لا يتحمَّلُ الدواء ، ولو كان ترياقَ الحياة ، إلا جرعات متقطعةٍ في أوقاتٍ معينة ، وأنّه إذا أُعطي الدواءَ وهو على تلك الحالة بالمقدار الفاضل عن درجة التحمل أشرفَ به على الهلكة .

ونحنُ لا ننازعُ في كون المريض مريضاً ، وفي كونِ العلاج متحتماً ، وإنما نخالِفُ في جواز المعالجة بطريقةِ اللامركزية رأساً بلاداً كان يكفيها الآن توسيعَ اختصاص الولايات ، وإطلاق حرية التعليم ، والتدريس باللسان العربي ، وإنشاء الطرق، وتعيين صغار المأمورين في مركز الولاية ، وهي درجةٌ أعلى جدًّاً مما كنّا فيه ، فكان ينبغي أن نرقاها أولًا ، ثم نعرِّجُ منها إلى ما هو أعلى منها .

فأما رقي الدرج دفعةً واحدةً فيوشِكُ أنْ يكونَ سببَ الدهورةِ ، لأنّ كلَّ عاقلٍ خبيرٍ مطلعٍ على أحوالِ البلاد يعلم أنّ مجالسنا العمومية ليس فيها الكفايةُ لحمل العبءِ الذي يرادُ تحميلها إياه ، وأنّ اعطاءَها كلَّ هذا الاختصاص يكونُ عبارةً عن فتحِ أبوابِ النزاع الذي لا ينتهي إلا بالفوضى ، ولا تنتهي الفوضى إلا بالغارة الأجنبيةَ .

[اللامركزية مقدِّمة للفتنة والفوضى]

فاللامركزيةُ مقدمة للشجار ، ومشحذة لضروب الضغائن ، والشجار والضغائن مقدمة للفتنة والفوضى ، وهاتان مقدمتان للاحتلال الأجنبي ، سلسلةٌ بعضُها آخذٌ بعض ، لا يتمارى فيها إلا مَنْ رانتْ الضلالةُ على عقله ، ولم يعتبر بغيره من أمثاله ، ولينظروا يمنةً ، وليعطفوا يسرةً ، فهل يجدون إدارةً داخليةً مستقلة نالها أهلُها دفعةً واحدةً ، وطفروا إليها طفرة ؟ أفلا ينظرون إلى إيرلندة ، وكيف كان معها سيرُ بريطانية العظمى ؟ أفلا يعلمون كيف أنّ البلاد الشرقية اليوم لا تقاس بأوربة ؟ وأنّ الشرقي لا يزال غير الأوربي ، فحسب البقعة من بقاع الشرق أن تُحدِثَ حركة واحدة ، حتى تأتيَ دولةٌ فتدعيَ الخسارة في مرافقها ، وتأخذَها أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ .

أفلم يروا إلى مصر ، كيف كان احتلالُها ، وبأيّةِ وسيلةٍ دخلها الإنكليز ، مع أنّ مصرَ كانت تُعَدُّ دولةً من الدول العظيمة ، ذات جيشٍ يبلغُ مئة وعشرين ألفَ مقاتلٍ ، وكانت قادرةً أنْ تستقلَّ بأسطولٍ ، وكان عددُ أهلها مع توابعها يناهِزُ (٢٤) مليوناً ، ولها حكومة مستقلة غنية ، كما يعلم كلُّ أحدٍ ، فلم تنبضْ فيها عروقُ الفتنة عشرةَ أيامٍ حتى أصبحتْ تحتَ استيلاء الأجنبي .

فقول اللامركزيين : **إنّ استقلالَ البلادِ بإدارتها الداخلية يقي منْ خطرِ الاحتلال الأجنبي كلامٌ في كلامٍ ، ولا يقي البلادَ من الاحتلال الأجنبي سوى** انضمامُ الرعية حول الدولة ، **وتفدية الوطن بالنفس والنفيس ، ونشر العلم ،** وتوفير أسباب الثروة ، **مما ليست اللامركزية شرطاً لحصوله .**

وأما **جلب مفتشين من الأجانب** ، وتسليمهم أزمَّةَ الأحكام ، وقصرُ كل شيء على إرادتهم ، ظناً بأنّ ذلك يكفي الأجانبَ ، ويغنيهم عن الاحتلال ، ونكون نحنُ تدرّعنا دونَ المرض بنوعٍ من التلقيح ، الذي هو جزءٌ من المرض ، فهو أيضاً خيالٌ باطِلٌ ، لأنّ دولةً منْ دول أوربة إذا أمكنتها الفرصة ، لم تقنع بما دون الاستيلاء، ولم يكفِها وجودُ المسيو جول ، والمستر جون ، مفتشين في إدارتنا .

وأما قول اللامركزيين : **إنّ المقصد من اللامركزية هو رفع سلطة الأتراك من البلاد العربية** ، كما قالوه في اجتماعٍ عقدوه مع بعض السوريين في الإسكندرية ، فلم يكن عليه غبارٌ لولا خوفُ حلوِل سلطة الإفرنج محلَّ سلطة الأتراك ، **فإنّ سلطةَ الأتراك حفرةٌ محدودة** ، **وأما سلطةُ أولئك فهي هاويةٌ أبديةٌ** ، وإذا استعملنا الحكمة ، ونصبنا ميزان النصفة ، أمكننا أنْ نصعدَ إلى مستوى الأتراك في الحكم تدرجاً بدون اضطرار إلى شغب ، وبدون خطر على الاستقلال ، **ولكنّ الغرضَ مرضٌ ، ومحبةَ الشهرةِ ولذَّةَ الانتقام قد تتمكنان من المرء إلى أنْ يغرِّرَ بقومه ، ويلعبَ بأغبيائهم ، ويجرَّهم إلى هلاكهم .**

نتائج المسألة الأرناؤوطية

وكان يلزم أن نكتفي بالدرس المؤلم الذي ألقتْهُ علينا مسألة الأرناؤوط ، التي لا تـزالُ أعقابها تتجرجـر إلى الآن ، فقد كان الأرناؤوط قبل الدستور يفعلون ما يشاؤون ، والسلطان السابق عبد الحميد يتحمَّلُ دلالهم ، ويغضي على سيئاتهم، ويداوي جـرح انتقاضهم بالعطاء ، ويجبرُ وَهْنَ إخلاصهم بالتعهد والالتفات ، ويسني لرؤسائهم الرتب ، ويجزل الرواتب ، لا جهلاً بأحوال كثيرٍ منهم ، بل استصلاحاً لقلوبهم ، ومع ذلك كان منهم أناس مثل إسماعيل كمال بـك وغيره لا يفتأون يداخلون اليونان والصرب والجبل الأسود ، ويطمعونهم

في ملك آل عثمان بالروملي ، على شرط أن يعرفوا لألبانية استقلالها .

فلما أُعلن الدستور ، انقطعت تلك الجعائل التي كان رؤساء الأرناؤوط يتمتعون بها ، وأراد فتيانُ الأتراك إقامةَ الحكم المشروط (الدستوري) في كل أقسام السلطنة على وتيرة واحدة ، فكان رؤساء الأرناؤوط ناقمين من تغيُّر نسق الحكم عليهم ، وصاروا يخدعون عامتهم بمكان هؤلاء من الجهل ، ويزرعون في قلوبهم بغضاء الدولة ، ويشيعون عنها الأراجيف التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وتارة يقولون لهم : إنّ الدولة باعتْ بلادكم إلى الصرب ـ كما يقول المفسدون عندنا اليوم بأنّها تبيع بلادَ العرب ، وطوراً يقولون لهم : إنّها اتفقت عليكم مع اليونان ، وأحياناً يقولون لعامتهم : إنّ الدولةَ تفكِّرُ في وضع ضريبة على اللِّحَى ، فيصدقون ، وهلم جرا من الأقاويل التي غيرت قلوبَهم ، وأوغرتْ صدورَهم ، فثاروا على الدولة ، وعَصَوْا الأوامر ، وخلعوا الطاعة ، وكان ذلك في مبدأ الدستور ، فاضطرت الدولة أن تسوقَ عليهم العساكر ، وجرت بينهم وبين العساكر الوقائع ، وسالت الدماء ، وأَسِفَ كلُّ عثماني محبٍّ لوطنه من هذه الحال ، وسُرَّ زعماءُ الثورة ومحركوا الفتنة منهم بوقوع العداوة بين الأرناؤوط وبين دولتهم المتبوعة ، ثم قاموا ينفخون في بوق الجنسية ، شأنَ مفسدي العرب اليوم ، وزعموا أنّهم مسلمين كانوا أو نصارى لا يعلمون سوى جنسهم وعرقهم ولسانهم .

ولما كان الأتراك يريدون أن يحملوهم على الكتابة بالحروف العربية حروفِ إملاء القرآن العظيم ـ وكان قسمٌ كبير منهم يكتبُ بهذه الأحرف ـ جعلوا هذه من جملةِ المناقم ، وأصرّوا على الحروف اللاتينية ، وعضّوا عليها بالنواجذ ، وطلبوا إدارةً مستقلةً ، وبعبارة أخرى لا مركزية ، ونادوا بالإصلاح ، وزعموا أنهم أَكْفَاءُ لإدارةِ بلادهم بأنفسِهم ـ كما يزعم الآن أصحابُنا ـ ولعب الدينارُ الصربي واليوناني لعبه في أثناء الثورات المتتابعة ـ كما هو لاعبٌ دينارُ أوربة ببعض القوم عندنا ـ وتواطأ إسماعيل كمال وجماعتهِ مع اليونان والصرب على حدودٍ معلومةٍ بينهما وبين ألبانية الجديدة ، إلا أنّ الدولة قهرتْ ثوارَ الأرناؤوط ، وأخمدت الفتنةَ أولًا وثانياً ، وبقيتْ الحربُ ناشبةً مع الماليسور ، وهم نصارى الأرناؤوط ، الذين في جوار الجبل الأسود .

[مسؤولية الأتراك عن ضياع الدولة]

فبينما الدولة تدخلهم في الطاعة إذ شنَّتْ إيطالية الغارةَ على طرابلس بغتةً ، واشتغلت الدولة بحرب إيطالية ، وطالت المقاومة ، واضطرت إيطالية لإعمال أسطولها أيضاً ، فاشتد بالدولة الضيق ، وارتجَّ مركزُ الوزارة ، وتقوّى الحزب المعارض للاتحاديين ، فانتهزوا فرصة الحرب مع الطليان لإلقاء الفتنة في بلاد الأرناؤوط ، ولقسمةِ الجيش العثماني على ذاته ، ولم يبالوا بما هي فيه طرابلس من الضنك ، ولا بما عليه الدولة كلُّها من الضيق ، ولا بما تجره قسمة الجيش من الوبال ، ولا نظروا إلى عواقب عملهم من تعريض وجود السلطنة كلِّه إلى الضياع ، بل جعلوا هدفَ رمايتهم أمراً واحداً ، وهو إسقاطُ وزارة الاتحاديين ، والركوب محلّها بأي وجهٍ كان ، وبئس ركوب البعض إذا سقط الكل .

فلما استفحلتْ ثورةُ الأرناؤوط ، ولحق بعضُ ضباط الجيش ـ المجرّدين[1] لإدخالهم في الطاعة ـ بالعصاة أنفسهم ، وبدت أمائرُ المصائب ، استولى القنوط على محمود شوكت باشا ، لكنّه صبر على البلاء ، لعله ينقذ المملكة من التهلكة ، ووقعت المراسلة بين الحكومة وبين الأرناؤوط ، فاشترطوا للطاعة تنحِّي محمود شوكت رحمه الله عن نظارة الحربية ، فأسرع بالاستعفاء ، فلم يزدادوا إلا عتواً ، وانتشر الأمرُ ، واستفحل الخطبُ ، واستولى (٣٠) ألفاً من الأرناؤوط على أسكوب ، وهدّدوا مناستر .

ولما رأت وزارة سعيد باشا هذه الفتنة الصماء في وجهها مع وجود حرب طرابلس ، وأنّ أصابع الحزب المعارض في الأستانة تشتغل بها ، تنحَّتْ أيضاً ، مقتفية أثر محمود شوكت ، فقلّد مولانا السلطان مختار باشا رئاسة الوكلاء ، وجعل معه كامل باشا ، وحسين حلمي باشا ، وناظم باشا في رئاسة الشورى والعدلية والحربية ، وجعل جمال الدين أفندي شيخاً للإسلام ، وتعين محمود مختار باشا للبحرية ، وتعين محمد فوزي باشا العظم من عيون أعيان سورية

---

(١) في الأصل (المجرد) . والمجرد هو الجندي المرسل في مهمة حربية .

ناظراً للأوقاف ، وأرسلتْ الوزارة الجديدة المشير كاظم باشا لاستصلاح المايسور من جهة أشقودرة ، والمشير إبراهيم باشا إلى أسكوب ، لأجل تأليف الأرناؤوط مع الحكومة .

فأما كاظم باشا فلم يجتمع مع الماليسور ، الذين كانوا انضموا إلى الجبليين ، وواصلوا الحرب جميعاً على الدولة .

وأما إبراهيم باشا فأجابَ الأرناؤوط إلى جميع مطالبهم ، التي منها تبديدُ مجلس المبعوثان ، وأُقفِلَ المجلسُ بطلبهم ، وصاروا من دلالٍ إلى دلالٍ ، حتى لم يبقَ للحكومة العثمانية في ولايات الأرناؤوط ظلٌّ ، ولا للنظام رائحة .

حرب البلقان

ورأتْ دولُ البلقان الأربع هذه الحالة ، وخروج الأرناؤوط على دولتهم ، وانقسام الجيش إلى حزبين ، فمع كلِّ ما بين البلغار والصرب من تباعد الأنظار ، وما بين هذين العنصرين والعنصر اليوناني من تباين الأفكار ، جمعتْهم المصلحةُ العامة ، وأطمعتهم في الوفاق سهولةُ المغنم ، وقرب إدراك الغاية ، بما رأوه من عمايات العثمانيين ، واسترسالهم في أهوائهم ، وتناحرهم بإزاء أعدائهم ، وبما علموا من كون كثير من أركان الوزارة الجديدة هم الذين كانوا المحركين لانتقاض[1] الأرناؤوط ، وعلى قسمة الجيش في أثناء الحرب مع إيطالية ، بينما الأسطول الإيطالي سادٌّ على العثمانيين طرقَ البحر ، وفعلاً لو أحجمَ البلغار واليونان والصربيون عن الاتحاد على الدولة ، وهذه هي أحوالها ، وهذا هو ما يسدي عليها وزراؤها ورجالها ، لكانوا أولى بالإقامة بالبيمارستانات من الإقامة بالدواوين ، فلما لم يكونوا مجانين ، بل كانوا عقلاء متيقظين ، ساهرين على مصالح بلادهم ، تواثقوا بمعرفة قيصر روسية على مهاجمة الدولة ، وكان أساسُ هذا التواثق بينهم فتنة الأرناؤوط ، التي أثارها بعضُ كبارِ العثمانيين بأيديهم ، ونفخوا نارها بأفواههم ، فيكون الاتحاد البلقاني الذي أدى

---

(١) في الأصل (على انتقاض) .

إلى ما أدى إليه من خرق ستار الإسلام ، وإسقاط مهابة الدولة ، وخسارة ثماني ولايات ، ـ نُكِبَ المسلمون فيها بما لم يُنْكَبْهُ بنو إسرائيل في سبي بابل ، ولا في أخذ تيطش لأورشليم ـ هو من جملة ما أسداه الحزب المعارض لأجلِ إسقاط الاتحاديين ، والتربع في الدست محلَّهم ، وتكونُ هذه النكبة العظمى للدولة العثمانية قد تأسست في نفس الأستانة ، بأيدي رجال العثمانية المعول عليهم في الشدائد .

ومما لا مشاحة فيه ، ولا خلاف بين جميع رجال السياسة عليه ، أنّه ما عجل هذا الاتحاد بين البلقانيين ، وجعلهم يوفضون إلى الحرب في أول فصل الشتاء ، وبدون انتظار فصل الربيع ، كما كان القرارُ بينهم ، إلا استمرار الحرب مع إيطالية ، وانسداد مسالك البحر على الدولة العثمانية ، وخوف البلقانيين من عقد الدولة الصلحَ مع إيطالية بما يفتح للدولة طريق البحر ، ويساعدها على حمل جيوش سورية إلى الروملي .

وفي الواقع لو كانت الدولة قد صالحت إيطالية ، وانفتح أمامها البحر ، لنقلت من ولايات أضنة وحلب وسورية عساكر أوقفتْ زحفَ البلقانيين ، الذين نالوا ما نالوه من الفوز بكثرة العدد ، وسرعة الحركة ، وعلى كلٍّ حالٍ كانتْ عساكر الشام وجنوبي الأناضول حفظت ولايتي سلانيك ويانية من غارة اليونان ، لأن هاتين الولايتين لم يكن فيهما أزيد من (٢٥) ألف جندي عثماني في مقابلة (١٨٠) إلى (٢٠٠) ألف جندي يوناني ، ولكن الدولة التي يتهمها مفسدو بلادنا ، وسماسرة الأجانب ، بإهمال حقوق العرب ، بقيتْ أكثرَ من سنة تناضل عن طرابلس الغرب ، وتحملتْ كلَّ ما تحملتْه تمسكاً بتلك الولاية العربية ، ولم تسمعْ في هذا الدفاع لومةَ لائم ، فبدلاً من أن يقدِّروا قدر مفاداتها في الدفاع عن بيضة الإسلام ، وتعريضها الروملي والجزر للذهاب ، والأستانة نفسها لأشدِّ خطر ، خطرِ السقوط من أجل الأمة العربية الكريمة التي فتَّ في عضدها خطب طرابلس ، قاموا يَشْغَبون عليها ، ويرمونها بِبُغْضِ العرب ، وأنّها تبذُلُ بلادَهم فداءً لبلاد الترك ، مع أنّ الدولة معذورةٌ بعدم الإصرار على حرب الطليان ، مع هجوم أربع دول عليها ، وكونها تعلم أنّ حفظ طرابلس مع انقطاعها عنها من

وراءِ البحر أمرٌ مستحيل ، فصار الأَوْلى أنْ تدعَ ما لا تستطيع وما لا بدّ منه لحماية قلب المملكة وإلى ما تستطيع ، وإلى ما هو أشدّ ضرورة .

ولولا ثورة الأرناؤوط التي جرّت حرب البلقان واتحاد الدول الأربع ، لما خطر على بال الدولة قط مصالحة إيطالية ، بل كانت الدولة مصممة على المقاومة والمدافعة عن طرابلس مهما بلغ منها الجهد ، وكانت إيطالية قد داخلت الدولة في عقد الصلح على شروط أشرف جداً مما عقد الصلح عليه كامل باشا فيما بعد ، ولكن انفجار بركان البلقان ، هو الذي أطمعَ إيطالية إلى حد أنّها عادت لا ترضى ببقاء أيةِ سلطة سياسية للسلطان في تلك الديار ، وأنّها أرسلت أسطولها وجيوشُ البلقانيين زاحفة نحوها ، وأخذت تنذرنا بإنزال العساكر في سواحل الروملي ، والانضمام إلى البلقانيين ، أو نوافقها على مرادها حالاً بدون مطل .

والمراد من هذا الشرح كله أنّ فتنة الأرناؤوط لم تكن فقط مبدأ ضياع ست الولايات التي كانت لنا في الروملي وولايتي جزر البحر الأبيض ، وولاية جزيرة كريت ، بل سبب ضياع ولايتي طرابلس الغرب وبني غازي ، وهما في درجة الحجاز واليمن ونجد من جهة العربية والعروبية ، والركن الأخير الذي كان للعرب والإسلام في أفريقية .

فكان ينبغي لكل عثماني ، بل لكل مسلم ، بل لكل شرقي أن يلعنَ الرؤساء الخائنين المارقين ، الذين قاموا بتلك الفتنة ، والذين منهم من كان متواطئاً مع الصرب واليونان على حدود معينة بينهم وبين الألبان ، وأنْ يلعنَ أيضاً أولئك الوزراء ، الذين كانوا يراسلون الأرناؤوط بالإصرار على مطالبهم ، ويشددونهم من نفس الأستانة ، ويسوِّلون لهم كلَّ عملٍ مهما كان هادماً لأركان الدولة ، على شرط أن يؤول إلى سقوط الاتحاديين .

هذا ما كان يجبُ على كل من يدعي العثمانية ، ويزعم المحافظة على شرف وطنه .

والحال أنّ أصحابنا هؤلاء إسماعيل كمالي العرب لا يريدونَ حتى ساعتنا هذه أن يقبّحوا عملَ محركي الأرناؤوط ، ولا أن يقروا بخيانة أولئك الرؤساء ،

الذين قضوا على بلادهم وبلادِ غيرهم ، وجلبوا الويلات ، وهتك الأعراض ، وسفكِ الدماء على أبناءِ جلدتهم ، وعلى مَنْ جاورهم ، حتى وعلى عرب طرابلس .

ومهما يكن من حديثٍ في أمر ثورات الأرناؤوط المدبَّرات بدسائس أولئك الرؤساء ، فإنّ كلامَ أصحابنا فيها أنّهم قد سيقوا إليها قسراً بظلم الاتحاديين لهم ، وأنّهم معذورون وغير ملومين ، كما أنّ الإدريسي معذور وغيرُ ملوم في الاتفاق مع إيطالية على دولته .

اللامركزيون يدعمون الانفصاليين

والحاصلُ أنّ أصحابنا اللامركزيين كانوا قبل حرب البلقان مداخلين إسماعيل كمال وأعوانه ، ومتواثقين معهم على خطة واحدة ، بل كانوا متفقين مع مبعوثي الروم والبلغار والصرب ومع بوشو وقوزميدي ، وكلّ من يعلمونه نازِعاً إلى الانشقاق عن الدولة ، ومع ادّعائهم النصرة للعربيةِ ، وكونُهم يقرأون دروسَ التعصُّبِ للعرب على الشيخ السنوسي ، وعلى ابن رشيد ، وعلى أمير مكة ، وعلى الإمام يحيى ، فإنّهم لم يأنفوا من مظاهرة الحزب الألباني الذي كان يرفضُ الكتابةَ بالحروف العربية ، وذلك لأنّ المحور الذي تدورُ عليه جميعُ أعمالهم هو محاربةُ الدولة عامةً ، والاتحاديين خاصةً ، بأي وسيلةٍ كانتْ ، ولو كان في الوسائل التي يلجؤون إليها سقوطُ العرب جميعاً .

أفلا ترى أنّهم كانوا يثبّطون الناس عن معاونة طرابلس ، وأنّ رفيق العظم كان يقول علناً : إننا لا نتركُ سوريةَ لأجل صحارى أفريقية !! مع أنّه لا ضرر على مسألة سورية من أفريقية ، بل كلما حمي الوغى ، واستحر القتل ، وطال الطعن والضرب في أفريقية امتنع جانبُ سورية ، وعَزّ حماها ، وتأخّر الطالب عن اجتياحها .

أفلا ترى أنّ بعض الشيوخ الذين يتصدّرون لتعليم الناس الشريعةَ الإسلاميةَ ، وتفقيههم في الدين في مجلاتهم ، كانوا يحذّرون روسية من دسائس الاتحاديين ، فهل يجوزُ هذا في شرع دينٍ أو في شرعٍ وطنية ، أفلا ترى أنّ هذه

الفئة اللامركزية من العرب كانت تصافحُ الأرمنَ الطالبين الانشقاق عن الدولة ، وأنّهم اتخذوهم بطانةً ، فهل بعدَ هذا وأشباهِهِ تبقى شبهةٌ في سوءِ نيةِ هذه الشِّرْذِمة ، وعملِها على اضمحلال العثمانية ، والعبث باستقلال الوطن ، وهي مع كلٍّ ما جرى في الروملي من نتائج مشاقة الدولة ، وتفريق الكلمة ، تجدُها تابعةً أثر محركي الأرناؤوط حذوك النعل بالنعل ، لا يكفيها ما صار في البلقان ، حتى تريدَ نقلَه إلى الشام ، فياليتَ شعري إلى متى يجدُ هؤلاء المفسدون مستمعينَ لهم ، ومصوبين لحركاتهم ، وحاطبين في حبالهم ، بعد أن ظهرت أعمالُهم ، وتحقق ضررُهم ، وعلم كلُّ منصفٍ أنّهم ما يبتغون إلا الشهرة ولو بخراب أوطانهم ؟!! حقاً إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور .

قد يعترضُ المتعنِّتُ المكابرُ ، وينكِرُ المغالِطُ المناكر ، قائلين : إنّه لا مشابهة بين عمل بعض رؤساء الأرناؤوط القائمين بالثورة ، وبين عمل المصلحين من اللامركزيين ، الذين لا يبتغون سوى حمل الدولة على الإصلاحات ، التي هي الجُنَّةُ الواقية من سقوط الوطن ، والذين لم يأتوا أقل عمل يخل براحة الدولة ، وبالأمن في داخل سورية ، فكيف يكونون هم ساعين في سفك الدماء ، وجرِّ المصائب على البلاد ؟ وأين هذا من مسألة الروملي ؟ وما وجهُ المشابهة . . إلى غير ذلك مما لا نزال نسمعه ونقرأه ؟ .

والجواب عليه ما يأتي : إنّ كل حركة داخلية في أثناء حرب خارجية هي مضعفةٌ للدولة ، فحركتُهم هذه حركة داخلية في أثناء حروبنا مع البلقانيين ، فهي مضعفة للدولة بلا نزاع ، فهي جناية لا تغتفر ، كما أنّ كلَّ حركةِ قيامٍ ، ولو لم يتخللها سفك دماء تقعُ منا في الداخل من شأنها تقوية عزائم الأعداء المتواقفين مع عساكرنا في ميدان الحرب ، فعمل اللامركزيين هو قوة أعطوها لأعدائنا على أبنائنا ، وأسلحةٌ سلّموها لأضدادنا على أولادنا ، فليختر لنا اللامركزيون لفظةً تليقُ بهذا العمل . . .

إنّ رؤساء الأرناؤوط في أول ثوراتهم لم يكونوا يقولون سوى ما يقولُ اللامركزيون اليوم ، وهو طلب الإصلاح والاستقلال بإدارة الداخلية ،

والمحافظة على الجنس الأرناؤوطي ، وقد أدت هذه الحركة الإصلاحية إلى ما أدت إليه ، ولا تزال مصائب الأرناؤوط متوالية ، فكان منْ هذا أنّ مطالبتهم بالحفظَ كانت عينَ الضياع .

ورجع الأرناؤوط الآن نادمين يرفعون العلم العثماني ، ويَقْتُلون ويُقْتَلون من أجله .

فمع وجود البلاد الآن بحالة الانشقاق والعداوات في كل محل ، ومع ضعف التعليم وقصور التربية الوطنية عمّا يجب أن تكون عليه(١) ، فاللامركزية مبدأ الفوضى ، ومن ثمة فمبدأُ الخراب .

إنّ مجيءَ صرخةِ اللامركزية مصحوبةٌ بنعرة الجنسية ، والنداء بتفريق العرب عن الترك علناً ـ هو عينُ ما كان [يدعو] له رؤوس فتنة الأرناؤوط ، لا يختلِفُ عنه بشيءٍ ، فقد آن للعثمانيين أن يعتبروا ويرعووا ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٦] .

إنّه على فرض وافقهم بعضُ العرب على طلب اللامركزية ، فالفريقُ الآخر لا يـوافقهم إلا على الإصلاح بدون تفريق ، وعلى ترقية المعارف والأمور النافعة على قاعـدة توسيع اختصـاص الولايات فقط ، فالنزاعُ [الذي] ينشَبُ بين الأحزاب من أجـلِ المركزية يخشى منه كثيراً على الأمن والسكون في البلاد ، ويجوز أن يفضي إلى اختراط الحسام ، لأنّ الحرب كما يقال أولُها الكلام .

إنّه لا يرجى أنْ يرضى الباب العالي بإعطاء استقلالاتٍ إداريةٍ لبعض ولاياته قبل أن يجدها كَفؤاً لحمل تلك الأعباء ، وقبل أن تعمَّ فيها المعارف ، فلا يرجى أن يعطي سورية هذا النظام الخطير ، الذي لم يطلبه إلا بعضُ أفرادٍ من أهلها ، ويخشى إذا استمرّتْ هذه الحركات أن تضطر الدولة إلى إرهافِ الحسام ، فتسيلَ الدماء ، ويقتل أبناؤنا بعضهم بعضاً ، فيكفي هؤلاء النفر لعباً بالنار .

---

(١) في الأصل : هي .

[التحذير من أخطار الانفصاليين]

بناءً على ذلك حذرنا ، ولا نزالُ نحذر أبناء وطننا من السماع لوساوس هؤلاء ، الذين يتاجرون بالوطن من بعيد ، [والذين] هم بنجوةٍ عن كل ما يقع فيه من خطب ، وما يبتغون إلا الشهرةَ وكسبَ الاسم والصيت ، مع الانتقام من الاتحاديين ، الذين لم يوفّروا لهم حقَّ التعظيم اللائق بمقاماتهم السنية بزعمهم ، **فليقاوموا الاتحاديين بما شاؤوا ، ولينتقموا كما أرادوا ، بشرط أن لا يجعلوا سورية آلةً لانتقامهم ، وغرضاً لسهامهم** ، فإنّ في سورية إحناً كثيرةً يعلمُها من يعملُها ، فهي لا تتحمل زرع دسائس ، ولا تطيق مكائد ، ولا تصلح للهزاهز ، وإذا وضعت سورية حملها اهتزتْ له الدنيا بأسرها ، فليتقِ اللهَ أولئك النفر الجالسون في « السبلاندد بار » في القاهرة في أبناء وطنهم وإخوانهم ، وليدعوننا وشأننا ، فإننا نكادُ نرى الفتنة بأعيننا ، ونلمسها بأيدينا إذا استمروا ماضين في دسائسهم هذه ، وإذا لم تضع لها الدولة حدّاً حازماً ، وتدعْ الحلمَ جانباً ، فإنّ وقايةَ الوطنِ من الخطر مقدمةٌ على كل شيء .

ولعلّهم يقولون : إننا لو شئنا لما أعيتنا الفتنةُ ، ولكان من أيسر الأمور علينا أن نغرِي بعضَ العامة الجهلاء بالأجانب أو بالمسيحيين ، فتكونَ من وراء ذلك فتنة ، ومشكلة أجنبية ، ويتم ما نريد .

والجواب : إنّ بعضهم لم يألُ جهداً في الخِبِّ والإيضاع في الحركات ابتغاء الفتنة ، والتعرض الأجنبي ، ولكن قصرت أيديهم عن بلوغ المآرب ، ووقفت العامة عن قبول وساوسهم حفاظاً على حوزة الإسلام ، ورعياً لذمام الدولة ، ولما كان شيوخ الشباب في بيروت قد لبثوا معتصمين بحبال الدولة ، وكان المحرّكون عاجزين عن إيقاع الحوادث بدون هؤلاء ، فقد حاولوا استمالتهم إليهم ، وضمهم إلى حزبهم ، وجاؤوهم من طريق العصبية العربية ، واستعملوا معهم تارةً الوعد ، وطوراً الوعيد ، فلم يفوزوا منهم بطائلٍ ، وبقي هؤلاء العامة على صداقتهم لدولتهم ، وخوفهم على وطنهم ، على أنّه لو أراد محرِّكٌ أن يقدم على الأعمال التي تخلُّ براحةِ الوطن لم يكن ليسهل عليه الأمر مع وجود الإدارة العرفية ، ومع انتباه الحكومة لأقلِّ نبأةٍ ، وتحفزها للبطش بأي مفسد ينتقل من

طور القول إلى طور الفعل ، كما أنّ الاعتداء على الأجانب أو على المسيحيين عمداً لم يكن ليخفى على أوربة ، فلو صدر ذلك من أضداد الحكومة أملاً بإحراج مركزها لم تحصل الغاية المقصودة ، بل انعكس الأمر عليهم ، وهناك جمٌّ غفير من الحزب المعارض للحكومة نفسه كانوا يقفون سداً منيعاً في وجه مريدي الفتنة ، إشفاقاً على الوطن ، وتخلصاً من التبعة .

ولقد سرت هذه الأفكار المتعلقة بإشعال فتنةٍ لدخول الأجنبي إلى بعض جهلاء المسيحيين ، فأخذوا يتحرّشون قصداً وعمداً تارةً بمسلمي بيروت ، وطوراً بدروز لبنان ، ويوالون عليهم الاعتداء بدون سبب ، أو بسبب طفيفٍ ، رجاء أن تتولّد من هناك فتنة عامة ، تنزل من أجلها العساكر الأجنبية في بيروت ، إلا أنّ **عقلاء المسيحيين ورؤساء الطائفة المارونية في الجبل** كانوا معارضين لهذه الحركات ظاهراً وباطناً ، ولا سيما البطريرك إلياس الحويك المطاع في قومه ، فقد خدم استقلال الوطن أجلَّ خدمةٍ ، وصادف وجودَ حرب طرابلس ، ثم حرب البلقان خلو لبنان من متصرف ، وإسناد وكالة المتصرفية إلى سعد الله بك الحويك ، شقيق البطريرك ، فأحسنَ الإدارة ، وسهر على راحة الجبل ، ومنع الحوادث ، وكيف كان الأمر فإنّ عقلاء المسيحيين يخالفون بعض الشبان ، الذين منهم [من] لا يزالون يرون في الأحلام أعلامَ فرنسة أو إنكلترة خافقةً فوق جبال الشام !! .

فأنت ترى أنّه ليس في هذا السكون الذي امتدّ رواقه على البلاد أدنى فضلٍ لنقباء اللامركزية ، وأنّ الفضل كان فيه للحكومة ولعقلاء الملتين ، ممن لا يستخّفون حمل الدماء ، ولا يستسهلون احتقاب الأوزار .

[قصة المؤتمر العربي في باريز]

وأما اللامركزيون ، فكان قصارى سعيهم أنْ جعلوا القلق يسودُ على الأفكار ، وزرعوا بذور النفور بين العرب والترك ، وفتحوا مجالاً للصحف الأجنبية للخوض في مسألة سورية ، وإذا دققتَ في جميع حركاتهم وسكناتهم تجدُها راميةً إلى غرضٍ واحدٍ ، وهو **إيجاد مسألة أوربية في سورية ، أو مسألة سورية في أوربة** .

ومن أنصع الأدلةِ على ذلك أنّه لما أقفلَ والي بيروت نادي اللامركزية المسمّى نادي الإصلاح ، أسرعت اللجنة العليا في مصر بإرسال التلغرافات إلى الجرائد الأوربية الخطيرة كالطان وغيرها تطلبُ فيها تدخل الدول في القضية بين الباب العالي وأهل سورية ، وهذه التلغرافات غيرُ قابلةِ الإنكار ليماحكَ اللامركزيون بشأنها ، فإنْ كانوا صادقين في العثمانية إلى تلك الدرجة ، فكيف يخيّطون[1] لنا هذه المراجعات لدول أوربة مع الصداقة التي يدّعونها لدولتهم المتبوعة .

ودليلٌ آخر أنّهم قرروا عقد مؤتمر نحلوه اسم المؤتمرِ العربي ، وعينوا مركزَه باريز ، ولسنا نريدُ الآن بيان كيفية عقد ذلك المؤتمر الباريزي ، وما في أحنائه من الأسرار ، التي لو انكشفت كما هي لم يعد كثير من أعضائه قريري الأعين ، ولافتضحت السريرةُ عند كلِ ناطقٍ بالضاد ، بل نكتفي بأنْ نقولَ : إنّهم تداعوا إلى هذا المؤتمر في باريز من جهاتٍ مختلفة ، فمنهم طلبة علم في باريز صادقون في سعيهم ، خالون من المآرب السياسية ، يرون الإلحاح على الدولة في تطبيق الإصلاح حباً بالوطن ، ومنهم ناقمون على الدولة إقفالَ نادي الإصلاح في بيروت ، ومنهم دعاة افتراق وانفصال لا غير ، ومنهم من همُّه دريهمات يأخذها في هذا السبيل مهما كانت النتيجة ، ولكنهم جميعاً غير مفوضين عن الأمة العربية ، ولا حقَّ لهم في الكلام باسم الأمة ، وليس بيدهم تفويضٌ لا من الشام ، ولا من حلب ، ولا من القدس ، ولا من [أي] مدينة من مدن سورية بأسرِها ، حتى ولا من كلِّ أهل بيروت أنفسهم ، فلم يكتفوا بالكلام باسم عموم بيروت حتى تكلّموا بلسان عموم سورية وبر الشام ، بل تكلّموا بلسان كل ناطقٍ بالضاد من شرق الأرض إلى غربها ، هذا وجزيرةُ العرب والشام والعراق فيها الأمراءُ والأشرافُ والسادات والرؤساءُ والعرفاء ، لا يعلم منهم أحدٌ بخطب المؤتمر الباريزي الذي أقامَ نفسه وصياً على هذه الأمة العظيمة بدون صك وصايةٍ ، ولا يزالُ إلى يومنا هذا أعضاؤه وأصحاب الجرائد التي لهم يتكلّمون بالنيابة عن العرب أجمع بدون أدنى تحرّج .

---

(١) أي كيف يرقعون ويرتون هذا الخرق الذي كشف عوراتهم ؟!.

[أعيان العرب يحتجون على المؤتمر]

ولما وقع ذلك منهم وأوشكوا أن يفتتحوا أولَ جلسة في باريز ، اجتمع أعيان دمشق في منزل عبد الرحمن بك اليوسف ، وتذاكروا في أمرِ أولئك المتآمرين على العرب بدون تفويض منهم ، فاتفقوا جميعاً على إنكار ذلك المؤتمر باسم الأمة العربية وباسم الوطن ، إلا أنّهم اختلفوا على صورة الاحتجاج ، فبعض الحاضرين من الحزب المعارض مثل أحمد بك الشمعة ، وعبد القادر بك المؤيد وغيرهما رأوا الاكتفاء بإنكار خطة المؤتمر ، مع المطالبة بالإصلاحات التي كان قدَّم أهالي دمشق لائحةً بها إلى الباب العالي مباينةً للائحة بيروت .

وأما الآخرون ممن هواهم مع الاتحاديين ، فلم يقفوا عند حَدّ الإنكار والإكبار ، بل تجاوزوه إلى جرح المتآمرين ، الذين أقدموا على هذا العمل في أثناء الحرب ، فلذلك كتب إلى الباب العالي صورتان للاحتجاج ، ختم على كل منهما فريقٌ ، واتفق الفريقان على مآل واحدٍ في الغاية ، وقد تبع دمشق أكثر المدن كحلب والقدس وبيروت ونابلس وغزة ويافا وعكا وصيدا ، ولم يخالِفْ في هذا الاحتجاج إلا فئة ضعيفة في كلّ محل ، وعرف الناس حتى في أوربة أنّ هذا المؤتمر لم ينعقد باسم الأمة العربية ، وأن هذه الأمة لا تعرفه .

وأما هم ، فملاؤوا الدنيا كلاماً بكون كلِّ مَنْ وقّعَ على هذه البرقيات إنما يقصد التزلف والتملُّق إلى الحكومة ، وأنّهم أحرارٌ لا يتوخّون غيرَ المصلحة العامة ، وهذه عادتهم مع كل معارض يعارضهم ، أو مقاوم يقف في وجههم ، فإنّهم هيأوا لكلٍّ واحدٍ من معارضيهم والمحذرين منهم تهمةً يتهمونه بها ، فهذا يقولون : إنّه خائف من الدولة على مصالحه ، وذاك طامِعٌ في منصب يناله منها ، وزيدٌ عبد لساداته الاتحاديين ، وعمرو تُنْقدُه الجمعيةُ راتباً شهرياً ، وبكر ظالم مستبد ، لا يريدُ الإصلاح خشية حصول المساواة ، ومَنْ لم يمكنُهم أن يرموه بنقيصةٍ، أو يلصقوا به تهمةً قالوا : إنه أبله أو غبي تغفلتْهُ الحكومة ، وهلم جرا .

والحقيقة أنّ المعارضين هم في التفصيل فضلاً عن الجملة أشرفُ منهم

أخلاقاً ، وأعلى نفوساً ، وأطهر سيرةً ، وأشد على أوطانهم حمية ، وأنّهم هم أصحاب المصالح المهمة في البلاد ، والذين يهمهم ارتقاؤها ، وسداد إدارتها ، وأنهم هم حماتها ، والحاملون حملاتها ، إذا لا سمح الله ناب البلادَ خطبٌ ، أو نزل بساحتها بلاءٌ ، وأنّ القائمين بحركة اللامركزية حاشا أفراداً قلائلَ ليسوا في العير ولا في النفير ، ولا ممن يخسرُ شيئاً إذا وقعت الوقائع ، لا من مال ، ولا من رجال ، وأنّ أكثر رجال اللجنة لا يملكون في سورية شبرَ أرضٍ ، وأنّ أكثر معارضيهم في حركاتهم لم يستفيدوا من الدولة شيئاً ، ولا هم ممن يطالبونها برتبة ولا راتبٍ ، وإنما يطالبونها بأن تصلِحَ الإدارةَ في ولاياتها ، وتهون أمور الفلاح خصوصاً ، وأن تُجري المساواة التامة ، وتمنع التعصب للجنسيات ، وتقطع ألسنةَ المفسدين ، وتشتدُّ على أصحاب الدسائس ، الذين يريدون بالوطن السوءَ ، نظيرَ كثيرٍ من عصابة اللامركزية ، الساعين في دمارِ الوطن ، وإنزلاقه بين يدي السلطة الأجنبية .

ولما سألهم بعضُ معارضيهم : هل يا تُرى لو وقع خلافٌ بين إحدى ولايات فرنسة وبين الحكومة الفرنساوية أكان يراجع أهالي تلك الولاية دولة إنكلترة أو ألمانية أو الباب العالي لأجلِ الدخول بينهم وبين حكومتهم كما أخذوا هم يُبْرِقون من باريز إلى وزاراتِ الخارجيةِ في كل دولة ؟

أجاب حضرةُ رئيس اللجنة العليا : بأنّ الأتراك لهم عادة أن يفعلوا ذلك ، ويطلبوا تحكيمَ الأجانب في أمورٍ عثمانية صرفة ، واستشهد على ذلك بطلب مراد بك الداغستاني أن تكون إصلاحات الأرمن تحت سيطرة السفراء . فانظروا أيها القوم واحكموا وانصفوا هل يكون عمل مراد بك الداغستاني أو غيره ممن هم في الأتراك ، كما هم هؤلاء في العرب ـ حجةً يُحتجُّ بها ، ومثلاً يقاس عليه ، وأصلاً يرجَعُ إليه في إدخال الأجنبي بيننا وبين حكومتنا ؟! وهل اقتنعتم أيّها العثمانيون وأيّها العرب خاصةً ، بأنّ العار ارتفع عنكم بمراجعةِ الأجانب فيما هو من خصائص دولتكم وحدها بكون مراد بك الداغستاني فعل مثل هذا الفعل ، وبكون الاتحاديين عقدوا بعضَ اجتماعاتهم في باريز قبل إعلان الدستور ؟! فهل راجعَ فتيانُ الأتراك دول أوربة بصورة رسمية أن تدخلَ بينهم وبين الباب العالي ، كما فعل أعضاء هذا المؤتمر ؟ وهل تحككوا بأوربة فيما

يعودُ بمس استقلالهم ؟ أفلم تكن مراجعة هذا المؤتمر لدول أوربة برهاناً كافياً على ما هناك من المقاصد الحائدة عن منهج العثمانية، التي لا يزال يدّعيها هؤلاء النفر ، ويؤكدون دعواهم فيها بكرة وأصيلاً وقولهم في واد ، وفعلهم في واد؟

وإذا سألتهم : ماذا حملكم على عقد هذا المؤتمر في عاصمة أوربية ؟

أجابوك بأنّ الدولة قد أقفلت نادي الإصلاح في بيروت ، واعترضتهم في حرية الاجتماع ، فلم يبقَ أمامهم إلا باريز ، فاختاروا الاجتماع والائتمار فيها .

والحقيقة أنّهم لو لا نزعة الافتراق التي قاموا بها في بيروت ، وطفقوا يبثونها في سائر الشام ، وخشية الحكومة أن يستفحلَ الفسادُ ، ويضطرها الأمرُ إلى استعمال القوة ، لما كانت أقفلتْ لهم ناديهم في بيروت ، وهي لم تكن تمنعهم أن يجتمعوا في دار السلطنة لو جاؤوها فعلاً بغاةَ إصلاحٍ ، وتراها مع ذلك قد أطلقت الحرية لجرائدهم تكتبُ ما شاءت ، فلا تجد منها عدداً واحداً إلا وهو من أوله إلى آخره أراجيفُ بالدولة العثمانية ، وحطٌّ من مقامها ، وازدراءٌ بأحكامها ، ونعي لوجودها ، ونثر لعقودها ، إن لم يكن تصريحاً فتلويحاً ، وما على المكابر أو المناكر إلا أن يأخذ أيَّ عددٍ من تلك الجرائد ، ليرى أنّ المكابرة لا تفيدُه شيئاً ، فقد بلغ من الأمر أنّ جريدةً في دمشق قالت عن الأتراك : إنّهم شرُّ خلق الله ، وكانت تلك الجريدةُ نفسُها تحثُّ الناس على موالاةِ فرنسة ، وتقول : نحن في البلاد الفرنساوية ، وتدعو أهل سورية إلى التخاطب والتكاتب بالفرنساوي في التجارة والسياسة ، وتعلِنُ أنّ من ينكر فضل فرنسة فهو لئيم ، وتردِّدُ مثل هذه الأقوال كلَّ صباحٍ ، وهي تدّعي كونها عربية منتصرة للعرب ، وأصحابها مسلمون ، وحسبُك من البغضاء والشنآن ، بل من الحطة والتهور ، أنّ تلك الجرائد كانت تقبِّحُ استردادَ الدولة لأدرنة ، وبعضها يدعو الدولَ لا سيّما إنكلترة إلى إخراج العثمانيين منها بالقوة ، وهي جرائد إسلامية عثمانية بزعمهم !! وناهيك أنّها لا تترك خبراً يسوءُ المسلمين إلا نشرته ، وإذا سقطتَ على خبرٍ يسرُّهم بطريق التصادف نشرتْهُ محرّفاً ومخففاً .

ومن أغربِ ما وقع من بعض هذه الجرائد أنّ العالم الأوربيَّ كلَّه أقرَّ اضطراراً بتوحش البلقانيين ، وما أجروه من الفظائع بمسلمي الروملي ، ونشر كثيرٌ من

الكتّاب الأحرار ، حتى من الروس أنفسهم تفاصيلَ تلك المظالم والنكبات والفجائع بالعِرْض والدين ، والدم والمال ، وبعضُ هذه الجرائد كانت لا تنشرُ منْ ذلك حرفاً واحداً ، بل إذا عثرتْ على قولٍ لأحدِ البلقانيين بنفي هاتيك الأفعال ، وردٌ تلك التهم أسرعتْ إلى نشره ، وإذا سقطتْ على كلامٍ لأحدِ أعدائنا بأنّ اليونان لم يرتكبوا شيئاً مما عُزي إليهم في ولاية سلانيك تهافتت على التنويه بذلك البهتان تهافت الذباب على الحلواء ، مع أنّ واقعَ الحال يكذّبه ، ومع أنّ قناصلَ الدول في نفس سلانيك ، وجمعاً لا يُحصى من الفرنجة تشهد بعكسِه ، فأنتَ ترى أنّهم أَصبحوا أعدى على الدولة والأمةِ من الإفرنج أنفسِهم ، وأغربُ مِنْ هذه المنازع الغريبة التي ظهر بها هؤلاء القوم ـ وإنْ هي إلا أمراضٌ اجتماعية تظهرُ في الأمم عند حلول الطامات الكبرى ، وتكونُ أشدَّ عليها من هجمات الأعداء ـ فرحهم بكلِ نكبةٍ تصيب العثمانيين ، بل تصيبُ المسلمين عامةً ، فقد كان كثيرٌ من الناس يقرأون أخبارَ الحرب على صفحات وجوههم ، فإن وجدوا وجوههم ناضرة مستبشرة كان ذلك اليوم خبرَ سقوط يانية أو أدرنة ، أو إشقودرة ، وإلا فإنْ كانت وجوههم عابسةً باسرةً ، كان ذلك اليوم ورود خبر دحر العدو عن شتالجة ، أو انهزام البلغار أمام أنور بك في كاليكاتريا ، أو عدم تمام نكبة أو نفوذ كيدٍ دُبِّرَ للمسلمين .

وقد كان بعضُ هؤلاء يقول لبعض : إنّ فوزَ الدولة على البلغار هو فوز لها علينا ، وإن هؤلاء الأتراك إذا انتصروا على البلقانيين يرجعون بالضرر إلينا ، ومؤداه أنّهم يتمنون انكسار العساكر العثمانية هذه ، الحامية الأخيرة الباقية للإسلام كله ، والتي منها جيشٌ عظيمٌ من فتيان العرب ، ومن أبناء الشام ، عدا مَنْ غشيَ الحرب من متطوعي العرب من الشام والحجاز والعراق ومصر وأفريقية من تلك البقاع التي تحقق أهلها العربية الصحيحة ، ولم يتلبّسوا بالعربية الكاذبة ، التي ما يقصدون بها إلا الفتنة .

فليعلم الناس مبلغ صحة دعواهم من العربية ، ولا يخدعوا أنفسهم بهم .

ومما يلحق بهذا الباب مقدار تلك الحمية التي كانت تظهر منهم على السنوسي وعرب طرابلس وبرقة ، فمنهم فريقٌ بقي يستتر نوعاً ، وينشر بعضَ أخبار الوقائع التي كان الفوز فيها للمسلمين ، كما ينشر دعاوى إيطالية بالفوز ،

ولكن قسماً منهم سكتَ سكوتاً تاماً عن هذه الأخبار ، لا يريدُ أن ينشر منها شيئاً ، إلا إذا كان هناك تلغراف من رومة بأنّ الطليان فقدوا في وقعة تاكنست مثلاً (٢٧) قتيلاً فقط والجنرال تورلي ، مع أنُه يكون الطليان قد فقدوا ذلك اليوم بضعة آلافٍ ، وتكون النقالات الإيطالية قد حملت ألوفاً من الجرحى ، ولا يكون راكباً في العقل أنّ الجنرال يقع قتيلاً ، وهو في ساقة الجيش ، إلا إذا أتت الهزيمةُ على الجيش كلِّه ، ويكونُ بعضُ جرحى الطليان أقرّوا بالحقيقة ، سواء عن وقعة تاكنست ، أو وقعة الصفصاف ، أو وقعة وادي درنة التي غنم العرب فيها مدافعهم .

ولكنّ هذه الجرائد تعلمُ أنّ نشر هذه الأخبار ، ولو عن الصحف الأجنبية فيه تشديدٌ لعزائم المسلمين ، فهي تتجنب هذا الباب كله ، كما أنّها تعلم أنّ تصديقَ الفظائع البلقانية مع وجودِ الدول العظام مهيمنة اليوم على العالم وكافلة لدول البلقان يؤدي إلى نتيجة أنّ الحرب صليبية ، وأنّ أوربة بعيدةٌ عن أن تكون متحرِّيةً العدلَ والمساواة ، متحليةً بحلية التمدن التي تنحلها إياها هذه الجرائد ، وتدعو من ذلك أهالي الشرق إلى اتباع نورها .

ويا ليتهم اقتصروا فقط في مسألة السنوسي على هذا ، فلو كان ذلك لكان المرض أخفّ سلطاناً ، ولكنّهم كانوا لا يرتاحون أيضاً إلى أنْ تَصلَ إلى السنوسية الإمدادات من إخوانهم المسلمين ، ولما حضر سيدي عبد العزيز العيساوي وكيل الشيخ السنوسي إلى الأستانة مِنْ قِبل سيده ، وتشرَّفَ بمقابلة الحضرة السلطانية ، ثم جاء إلى سورية قاصداً زيارة المدينة المنورة ، قابلتْ قدومَهُ تلك الجرائد الإسلامية بكل فتور ، وكادت تتهكَّمُ به ، وتغمز فيه ، وبعضُها تجاهل أنّه وكيل الشيخ السنوسي ، وزعم أنّه لم يتحقق صحة هذه الدعوى حالَ كونهِ محققاً عندها أنه جاء من قبل سيدي أحمد الشريف السنوسي ، وأنَّه لا يقابِلُ الخليفةَ الأعظمَ رجلٌ مجهولٌ غيرُ محقق أصلُه وفصلُه .

ولما نزل سيدي العيساوي في بيروت شاع أنّه قبض ألفي ليرة إحساناً من الحضرة السلطانية ، فأسرعَ بعضُ أولئك الصادقين بإخبار بعض هذه الجرائد بذلك ، فكتبت الخبر من باب الاعتراض والانتقاد ، وأعقبته بأنّ الدولة تدفعُ مثل هذا المبلغ للسنوسي ، مع أن المأمورين منذ بضعة أشهرٍ لم يقبضوا

رواتبهم ، فأخذ قنصلُ إيطالية تلك الجريدة ، وأرسلَ بها إلى سفارته للاحتجاج على الدولة ، فانظروا إلى ما بلغ هؤلاء القوم من كراهيةِ الدولة ، فقد أوصلتهم إلى بغض كلِّ من يلتف حولَ الخلافة من مسلمي الدنيا، وإلى إشاعة الأخبار المضرةِ بالمجاهدين السنوسيين، الذين لو فرض أنّ السلطان بصفةِ الخلافة أحسنَ إلى شيخهم بألفي ليرة لا تُسْمِنُ ولا تغني من جوع ، فليس في ذلك محلٌّ للكلام ، حتى ولا لإيطالية التي تعلم أنّ الحربَ لا تكفيها ألفا ليرة ، وهذا مما جعلنا نقول : إنّ هذه الدعوى التي قاموا بها هي دعوة مضرة بالإسلام كلِّه عرباً وعجماً .

ومن دواعي الأسف أنّ الجريدة التي أقدمتْ على هذه الكتابة هي أكثرُ جرائدِهم اعتدالاً ، وأحسنها مسلكاً ، ولكنها انقادت في ذلك لوسواس رجلٍ من نفس رجال الحكومة ، جاء إلى إدارة الجريدة ، فأخبرها بالخبر ، واستكتبها إياه ، فبدلاً من أن يقال : إنه كان يجبُ إجزالُ صلةِ هؤلاءِ الإخوان المجاهدين الأبطال من الملة بإضعاف هذا المبلغ مراراً جزاءَ باهرِ ثباتهم ، الذي حيَّرَ عقول الأوربيين ، وإنْ لم تقدر الدولة على رفدهم ، فكان ذلك حقاً على الأمة ذاتها ، ـ حصل الاعتراض على صلة وكيل الشيخ السنوسي ، بألفي ليرة ، هذا المبلغ الزهيد بالنسبة إلى عظيم أعماله ، فإلى هنا وصلتْ الحالة الروحية بهؤلاء القوم ، وإنْ كان هذا فِعْلُ خيارهم ، فما قولك بسفلتهم وأشرارهم .

ومِنْ أفظعِ ما سمعنا في هذا الباب أنّه لما خرجتْ البارجةُ حميدية من الدردنيل ، وفعلت الأفعال المدهشة التي عرفها القاصي والداني ، وأغرقتْ نحو اثنتي عشرة سفينةً للعدو ، وتأثّرها[1] الأسطول اليوناني مدةَ ثلاثةِ أشهر وزيادة ، فلم يفزْ منها بطائلٍ ، حتى ورد في « تاريخ الحرب البلقانية » لأحد الفرنسيس ، أنّه إذا كان هذا فعل طرّادٍ عثماني واحدٍ ، فكيف لو كان لدى تركية أسطول تام ؟ وماذا كان يعمل ذلك الأسطول ؟

وشاع يومئذٍ أنّ اليونان ظفروا بحميدية وأغرقوها ، وهلك قائدها رؤوف البطل ، الذي استحقَّ هذا اللقب بالفعل ، فكان لهذا الخبر رنةُ فرحٍ عند بعض

---

(١) تعقب أثرها .

هذه الفرقة ، لا يمكن أنْ توجَدَ إلا عندَ إخوانهم اليونان ، وعُزِيَ إلى بعض مأموري الحكومة في بيروت من عبارات التشفّي بحميدية ما يدلُّ على الدَرْكِ الأسفل الذي وصلت إليه أخلاق بعض العثمانيين في هذه الأيام السوداء .

ووالله قد عهدنا بعضهم يكرهون الدولة من قبلُ ، ولا يبالون بأي مصيبةٍ انتهى بها الأمرُ ، ولكن لم نعهد فيهم هذا التوهجَ كلَّه في البغض، وهذا المروقَ الفظيع الشأن الذي هو عبارة عن خلع الرسن بالكلية إلا مِنْ بعد إدبار الطالع العثماني في حرب البلقان . فإذا كانت الدولة قد حقت عليها الغلبة بإحتوائها على الأمة الممزقة ، والتي فيها أمثالُهم ، فكان يجبُ أن نزداد عليها حنواً ، وبها استمساكاً ، إذ كان هذا الوقت أشدَّ ما تتنبه فيه أعصابُ الولاء ، وتشتدُّ فيه أوتار العصبية ، ولعمري فما هي أولُ هزيمةٍ وقعتْ ، ولا هي بأولِ قارورةٍ كُسِرَتْ ، وما زالت الدولُ تقبِلُ وتدبِرُ ، وتسعد وتشقى ، والأيام هي كما قال الشاعر :

فيـومٌ علينـا ، ويـومٌ لنـا   ويومٌ نُساءُ ، ويوم نُسَرّ

ولقد قهرت ألمانية فرنسة ، وأخذت سلطانها أسيراً مع مئة ألف عسكري دفعةً واحدة ، وتوجت عاهلها في بهو ملوك الفرنسيس بفرساي ، ودخلتْ عاصمةَ الفرنسيس ، وهم من أعظم أمم الأرض في كل معنى ، فلم يوجِبْ ذلك بغضاء الفرنسيس لوطنهم ، ولا يأسهم منه ، ولا تقصيرُهم في الدفاع والمراماة من دونه ، بل بذلوا النفوس والنفائس ذياداً عن حوزتهم ، وحفظاً للشرف الفرنساوي ، ودفعوا الغرامة الحربية في أقصر مدةٍ ممكنة ، مع أنّ انكسارهم كان أشبهَ بإنكسارنا نتيجةَ غرورهم بأنفسهم ، واتكالهم على عظمة اسمهم ، ونومهم عن الحيطة اللازمة ، والأعداء قد سهروا ، ولهوهم بالمشاغبات الداخلية ، والآخرون قد اتحدوا .

وكذلك دولة وثنية من أقصى المشرق ، أهلُها من أصغر البشرِ جسوماً ، وأضعفهم عضلاً ، وأنباهم عن القسامة وجوهاً ، قهروا أعظمَ دولةٍ نصرانيةٍ في العالم قهراً لم يحدِّثْ عن مثله التاريخُ ، لأنّهم بطشوا بالروس في جميع الوقائع برّاً وبحراً ، وسهلاً وجبلاً ، وكان الروس الذين يصدونهم أحصى منهم عدداً ، وعليهم كوروباتكين أفضل قائد روسي ، ومن أشهر قواد أوربة ، وهو الذي كان

يبشِّرُ الروس بأنّه لا بدَّ أن يعقدَ الصلحَ في طوكيو عاصمة اليابان ، فأكذبه الله ، وخيَّبَ آمال أوربة بأجمعها في هذه الحرب ، ومع هذا فلم يكره الروس دولتهم ، ولا مقتوا حوزتهم ، ولا ضنّوا على حكومتهم بشيء ، ولا تمنوا لها الكسر والخذلان، إلا إذا كان ثمةَ بعض العدميين الذين لا يهمهم دين ولا وطن، ولا دولة ولا عزة قومية ، ولا غير ذلك ، فهل يريدُ أن يكونَ هؤلاء الجماعة عندنا بمثابة أولئك في روسية ، ليقولوا لنا ذلك .

ولعلّهم يقولون : إنّ الروس بعد هزيمتهم أمام اليابان نهضوا لإصلاح أمورهم المختلة ، ومعالجة إدارتهم المعتلة ، ونحن إنما نطالبُ بالإصلاح ، وننادي بالإصلاح ، لأجل هذه الغاية .

والجواب : لو كان ذلك كذلك لكانت المسألةُ مقصورةً على طلب إصلاح ومناقشة حساب ، بدون سنان وبغضاء وشماتة بانتصار الأعداء على الأولياء ، لا بل على الأبناء، وكان الإخلاصُ للدولة لا يخفى، ولو تحت جعجعة الانتقاد.

ثم إنّ الفرنسيس والروس جادوا بالأموال والمهج ، وأنفقوا مما يحبون ، حتى أنقذوا دولتيهما من الورطة ، ونفّسوا عنهما مما كانتا فيه من الضغطة ، فليخبرنا أصحابُنا ماذا فعلوا هم غيرَ الطعن والتنفير ، والتهكم والازدراء ، وهل كان الإصلاح عبارةً عن هذا فقط ، أم كان على الأمةِ ـ طالبة الإصلاح ـ واجبات أخرى من بذل الأموال ، والجود بأنفس الأعلاق والذخائر ، لأجلِ وقايةِ الوطن من الخطر ، وتخليصِ الأمةِ من ربقة الذل ، التي تتهدَّدُها ، فمَنْ منهم يَقْدِرُ أن يقولَ إنّه : قام بأقلِّ جزءٍ مِنْ هذا الواجب ، بعد تأخر الدولة في هذه الحرب ؟

ولقد عهدنا وزارةَ محمود شوكت أصدرتْ سنداتٍ بقرضٍ داخلي لميرةِ العساكر الذائدة عن حياض الوطن ، بعد أن حبس الأوربيون عنها الأموالَ ، وتواطؤوا على منعنا القروضَ إجباراً لنا للرضيخة بكلِّ شيء ، وعقد الصلح مع البلقانيين بأي وجه كان ، فهل اشترى أحدٌ منهم شيئاً من سندات ذلك القرض الداخلي ، أو حثَّ أحدٌ عليه مع علمهم بأنّه هو الوسيلة الأخيرة لحفظ الشرف العثماني ، وعقد الصلح على وجوهٍ أقلّ بشاعةً من ذي قبل ، فلو كانت انتقاداتهم تلك وسخرياتهم وأراجيفهم بالدولة مقرونةً بالإعانة للجيش ،

والمساهمة في القرض عن أيدٍ سخية ، وأيدٍ مؤزرة ، لصدقت دعواهم بأنّهم إنما يكرهون شكلَ الحكومة ، ولا يكرهون الدولة نفسها .

ولكننا نراهم راجلين في الإعانات ، فارسين في الإهانات ، مقصّرين في الذبّ عن الوطن بالفعل ، ومناصرة الدولة بالعمل ، مبرِّزين في انتقادها بالأراجيف ، ونشدان الإصلاح من طريق الطعن والقذف ، ولم نجد لهم رأس مال لهذه الإصلاحات التي يبتغونها بدعواهم لأجلِ حفظ الوطن ، سوى تنفير العرب من الترك ، وحط مقام الدولة في أعينِ الأمةِ ، والمداخلةِ مع الأجانبِ لزيادة علوِّ كلمتهم في بلادنا .

كما أنّه لا شكَّ يكونُ عقد ذلك المؤتمر المعهود بباريز [قد] نفع فرنسة كثيراً في مصالحها الاقتصادية والسياسية في سورية ، وحمل الدولة لأجلِ فضِّ ذلك المؤتمر المنعقِدِ باسم العرب على التساهل معها في مطالب كثيرة لم تكن لتتساهل بها لولا استظهار فرنسة عليها بالمؤتمر في عاصمتها ، وبرجاله يطالعونها بأسرار بلادِهم ، ويجعلونها مرجعاً بينهم وبين حكومتهم ، هذا ما رأيناه منهم إلى الآن .

ومما يلجأ إليه بعضُ أولئك المسفسطين في الاعتذار عن عدم حميتهم على الوطن ، وتخلفهم عن رفد الدولة بأموالهم : إنّ أمثالَ الروس والفرنسيس يجودون على حكوماتهم لكونهم موقنين بأنّ أموالهم ستستعمل فيما دفعت لأجله ، وأنّه لا يذهب منها شيءٌ سدى ، ولا تدخل بطون القائمين عليها من أولياءِ الأمور ، وأنّه ما ثبطهم عن الرفد والبذلِ سوى معرفة ابتلاع رجال الأستانةِ لتلك الأموال .

وهذا عذر المتخلف ، الذي لا يريد أن يقرضَ ، ولا أن يتبرعَ ، ولا يهمُّه الشرف العثماني ولا غيرُه ، ولكنه يخجلُ من الناس لكزازةِ نفسِه ، وقلةِ حميته ، فيظنُّ أنّه أتى بشيءٍ في تشبثه بذيل ذلك العذر ، الذي هو أوهى من بيت العنكبوت ، وأدقُّ من خيط باطل ، فإنّه لو شاء بعضُ أبناء العثمانية التبرعَ للدولة بمبالغ تبتاع بها بارجة حربية لما تعذَّرَ عليهم ابتياعها رأساً ، وتقديمها للأسطول العثماني الذي فيه أبطالٌ كرؤوف ، ودارعة تفعل أفعالَ حميدية .

ولو أراد أحدٌ إعانة الجيش بمالٍ أو بلباسٍ لما تكآده إيصالُ ما تسخو به نفسه

إلى أفراد الجند بدون إطالة الأخذِ والردّ في المعاملات الرسمية ، وهذا لا يصعبُ على من أراد العمل ، وصحتْ نيته .

ولكننا لم نعلم من أبواب إصلاح الوطن إلا باب التهكم بحكومتنا ، والإزدراء بشأن دولتنا ، وتدمير إخواننا ، والتفريق بين عناصرنا ، وادعاء ما ليس فينا ، فإذا جئنا إلى العمل تسللنا لواذاً ، وتفرقنا أفلاذاً ، وظهرت هجنة أقوالنا بجانب قلة أفعالنا ، وعلم أنّ انتقادنا حكومتنا ليس انتقادَ نصحٍ ، وأنّ مخالفتنا ليست اجتهاداً في المصلحة كما نقول ، بل إن انتقادنا إنما كان طعن عدوٍ في عدوه ، وإرجافَ شامتٍ بضده ، وأن مخالفتنا إنما كانت شقاً للعصا ، وتفريقاً للجماعة ، وأننا نحنُ في الحقيقة غير ما ندعيه ، وأننا في الرقمتين ، وأن غيرنا في وادي الغضا ، فبين الفريقين بون بعيد .

ولو كانت مسألتنا مسألة انتقاد ونصح ومعارضة من باب الاجتهاد لما خفيتْ علامات النصح ، ولوَضَحَتْ غرر الصدق وحجوله ، ولتفجّرت ينابيعُ الإخلاص من خلال الحركات والسكنات .

فقد عهدنا كثيرين من الفرقة الائتلافية أعداء الاتحاديين ، عندما أحسوا بإحداق الخطر بالدولة والوطن ، وضعوا أيديهم في أيدي الاتحاديين ، ودخلوا في جمعية المدافعة الملية ، وقالوا : لا يصل بيننا وبينكم الخلاف إلى ما يمسّ وجودَ الدولة نفسها ، وهؤلاء مثل المشير فؤاد باشا المعروف بالمصري . وأمثاله من أسودِ الإسلام .

كما أننا وجدنا منهم من صار يراجع قيصر روسية وفرنسة وإنكلترة لمضافرته على الدولة ، ولو بمس استقلاله .

وهذه الطبقة تقرُبُ جداً من بعض أفرادِ اللامركزيين الذين عندنا ، وهم يظنّون أنّهم يكنون سرائرهم ، ويخفون ضمائرهم ، ولكن عند الاحتكاك تلمع الحقائق ! !

إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ   تبيَّنَ مَنْ بكى ممَّنْ تباكى

[دعاة الانفصال دعاة للتغريب]

ولا يخفى أنّه كما كان في الشام فرقة تدينُ بالفرقة والانفصال ، ورفض

الوحدة العثمانية والإسلامية ، فإنّ في مصر أيضاً نفراً ينطوون على هذه المبادىء ، ويدعون إلى الامتزاج بالأوربيين تحت ستار الدعوة إلى المدنية ، ويثبّطون عن مشاركة بقية المسلمين الخارجين عن مصر في شيء بحجة التمحض في الجنسية المصرية ، وهؤلاء هم في المصرية أشبه بأصحابنا في العربية ، لا تدعو كلُّ فرقةٍ إلى ما تدعو إليه إلا تفكيكاً لأوصالِ الإسلام ، ونثراً لهذا النظام البديع ، الذي هو عليه ، ولا يخشى الأجانبُ شيئاً خشيتهم من إجراءِ أحكامه ، فلما وقعت غارة إيطالية على طرابلس ظلماً وعدواناً ، وهاجمتها بغتةً ، وقام أهلها ينضحون عن استقلالهم ، توجَّعَ لهم العالم الاسلامي بأسره ، ورفدهم أناسٌ بالأموال ، وأناسٌ بالأبدان ، وأناسٌ بالمعارف ، وأناسٌ بالمساعي ، وكان لمصر من ذلك النصيبُ الأكبر ، لتقدُّمها على غيرها مادةً ومعنى ، ولكونها أمُّ أفريقية ، ومن مصر امتدت فتوحات الإسلام في أفريقية جميعها ، ولكون عرب مصر خاصة هم أبناء عمومات عرب برقة والجبل الأخضر ، والكلالات[1] بينهم متشابكة ، والأرحام متصلة ، فقامتْ مصرُ وقعدت لهذا الأمر ، وجمع أربابُ الحمية فيها الأموالَ الطائلة ، وعاونوا بها إخوانهم الطرابلسيين في مصيبتهم هذه ، فلم يوجد معترض على هذه الهزة الكريمة ، سوى بعض تلك الفئة المصرية في كتاباتٍ نشروها في الصحف ، ساءت الناسَ عامتهم وخاصتهم ، وعادت على أصحابنا بالندم .

إلا أنّ بعضَ هذه الفئة التي منها نجم اللامركزيون فيما بعد ، تلقّوا ذلك من الاعتراض المصري بالقَبولِ ، وحاولوا بثه بالشام ، فصادفه من التقبيح والتشنيع ما صادفَ في مصر أخاه من قبلُ .

ولقد نزل التهوُّرُ بأولئك الأغرار إلى رقاعاتٍ هي مع تفاهتها تدل على روحٍ لا يرضاها كريم ولا عاقل لهذه الأمة ، فكان حازم بك والي بيروت يضع إمضاءه أبو بكر حازم ، فلبثتْ تلك الجرائدُ تقول : [جاء] أبو بكر ، ورأينا أبا بكر ، وهذه أفعال أبي بكر ، مما يُشَمُّ منه رائحة التهكم بكنيته لكثرة ما كرروا ذلك

---

(١) القرابات .

صباحَ مساءَ ، إلى أن اضطرتْ إحدى الجرائد الإسلامية أن تقولَ لأولئك : ما بالكم تجاوزتم حدودَ الدولة ، والآن تجاوزتم حدودَ العقيدة ، فإنّ الكنيةَ التي جعلتموها هدفاً لسخرياتكم هي كنيةُ رأسِ الخلفاءِ الراشدينِ أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قامع المرتدين ، فحسبكم من التهكم الهزؤ بحازم بك نفسِه ، فأما بكنية أبي بكر فلا ، فإنّ القليلَ من الإزدراء في هذا المقام كثيرٌ .

وأغرب من هذا أنَّ الجمعية الخيرية الإسلامية في دار الخلافة انتدبت بعض المتقنين من حفاظ كتاب الله في مصر لعلم التجويد في جامع الفاتح ، وفي بعض مساجد أسكدار ، ولتصحيح قراءة حفّاظ الأتراك ، وتعليمهم اللفظ العربي بالنغمة العربية ، فكان مِنْ بعض جرائدِ تلك الطبقة أيضاً أنْ نشرت شيئاً يُشْعِرُ بالاستهزاء بعمل الجمعية الخيرية هذا ، وقالت : إنّهم طلبوا مَنْ يقرأ القرآن على اللحن المصري ، وكأنّ الاعتناء بحفظ القرآن وتجويدِه وتعليمِه الأتراكَ [من] سفساف الأمورِ[1] يوجبُ تهكم تلك الطبقة العالية ، التي تدّعي المدارك البعيدة ، والمعارف الزاهرة ، وكأنّ أصحابَ هذه الصحف هم أعرق في العربية نسباً وأوفر في اللغة أدباً من أعضاء الجمعية المشار إليها التي فيها من أمراء العرب وغطاريفهم وفضلائهم وأساطينهم ما لايوجَدُ في جمعيةٍ سواها.

يدعون العثمانية ، ويتنصّلون من تهمة النزوع إلى الانفصال عن الدولة ، وأحدُ كبار المشتركين معهم ، المعارضين للحكومة ، صرّحَ لأحدِ أقاربه من وزراءِ الدولة في الوزارة السابقة ، أنّه كان مصطافاً في قرية عالية ، فجاءه فلان وفلان الخ من الوفد الذي ذهب إلى باريز ، ودعوه إلى الذهاب معهم ، فقال لهم : لماذا يجبُ السفر إلى باريز ، فنحن نقدِرُ أن نذهبَ إلى الأستانة نفسها ، ونطالب بالإصلاحات هناك ، فلم يوافقوه على رأيه ، وبعد الأخذِ والردِّ قالوا له : نحن في الحقيقة إنما نريدُ الانفصال عن الأتراك ، هذه شهادة رجل منهم عليهم ، لا يقدرون أنْ يطعنوا فيه ، وهو إلى الآن معهم .

ولقد شاع نقلاً عن أناس منهم أنّهم كانوا تحككوا بالإنكليز ، وعرضوا عليهم إضافة سورية إلى مصر ، فأجابوهم بأنّ ذلك بعيدٌ عن فكر إنكلترة ، فقالوا

---

(١) في الأصل : (الأمر) .

لهم : إنّ سورية ذاهبة على كل حال ، فأولى بهم أن يقبلوا إلحاقها بمصر من أن تأخذها فرنسة أو ألمانية ، فأجابوهم بأنّه إن حدث لسورية حدثٌ ، فيبقى لها شأنٌ خاص بها ، ولا يمكن إلحاقها بمصر ، والخليق بهم أن يتفقوا مع دولتهم العثمانية ، فلذلك بعد أن كانت دعوتُهم إنكليزية ، عادوا فولّوا وجوهَهم شطر باريز ، وأخذوا يترددون على خارجية فرنسة ، ففرنسة قِبْلَتُهم ، نظراً لمرافقها في سورية ، ولكنّ فرنسة اتفقت أيضاً مع الباب العالي ، ونالت امتيازات عديدة في سورية ، لم تتوقف في نيلها عند رضاهم ، ولا تفاوضت مع أحدٍ فيها سوى الحكومة الشرعية، وهذا ما لا نزال نكرره على هذه الأمة مِنْ أنّه لا يجوزُ أن نُدْخِلَ أحداً بيننا وبين دولتنا، فإنّ أوربة لا تعرف سواها ، ولا يضرنا ولا ينفعنا غيرها .

ومن جملة إسدائهم الحسن على الدولة أنّهم بعد أن برزوا إلى هذا الميدان ، وجعلوا دينهم الطعنَ والقذفَ ، كانت هناك بعض جرائد مسيحية تتجانف عن الإزراء بالدولة علناً ، والحط من مقامها جهاراً ، رعايةً لعواطف المسلمين ، فلما رأتْ هذا النفرَ من المسلمين خرجوا هذا الخروج على دولتهم الوحيدة ، تمهد عذرها في إظهار ما عندها ، لأنّ المسلم لا يقدر أن يقولَ للمسيحي إنّه يجبُ أن يكونَ عثمانياً أكثرَ منه ، فبرز من أصحاب هذه الجرائد ما لم يكن يظهر قبلاً من الشماتة والغمز والإرجاف والإزدراء ، وهي مع ذلك إنما اقتفت آثارهم في هذه الخطة ، فأصبحَ شأنُ الدولة مضغةً في أفواه الجميع ، من تأثير كتابات هؤلاء وهؤلاء ، إلى أن قرأنا مرةً في إحدى هذه الجرائد المطبوعة في لبنان ما معناه : إنّ الدولة العثمانية ليست بشيء ، فمن جهة المال إفلاسُها معلوم ، ومن جهة السيف قد ظهرتْ قوتها أما أصغر الدول . . . . وأنّه لا بدّ لها من قبولِ السيطرة الأجنبية شاءت أم أبت ، وغير ذلك من المقالات التي لا تتحمّلها الطباعُ ، لصدورها في وسط بلادنا ، وتحت ظل هلالنا .

ولقد اضطررنا أن نجاوبَ أولئك المغرورين ، المسلم منهم والمسيحي معاً ، أننا لا ندعي كونَ الدولة انتصرت في هذه الحرب ، ولكن يلزم قبل هذا التشدق أن يعلموا مقدمة الحرب ، وكيفية مهاجمة البلقانيين للروملي ، والعساكر التي زحفت دفعةً واحدة إليها ، وأننا قبل إعلانِ الحربِ كانت أوربة أشارت علينا بصرف عساكرنا من الحدود ، فصرفنا منها (١٢٠) ألفَ عسكري

مدرَّب ، وأنّهم ما كادوا يصلون إلى بيوتهم حتى زحفت الدول البلقانيات الأربع ، فاستنفدنا جهدنا في الحشد ، فلم نقدر أن نحشدَ أكثرَ من (٣٠٠) ألف عسكري ، أكثرهم من نفس الروملي ، أي أنّه فيهم البغلار واليونان والصربيون والأرناؤوط ، الذينَ كان معظمهم يأبى القتال ، فأصبحتْ الدولةُ بجيشها هذا على ما فيه تقابل (٩٠٠) ألف عسكري ، عدا الأهالي الذين ثاروا من كل ناحية ، وانضافَ إلى ذلك سوءُ إدارة الرجال الذين كانت في أيديهم أزمّةُ الحرب ، حتى تركوا العساكر أياماً بدون طعام ، والمدافع بدون قذائف ، وكذلك الخطأ في الخطة الحربية ، فإنّهم فرقوا الجنود لمقابلة الدول الأربع ، فلم يقدروا أن يقابلوا جيشاً من جيوشها إلا بنحو ثلث عدده ، ومع هذا ، فلم يعهد أنّ دولة اتسق لها السعدُ في جميع أيامها ، وأنها لم تنهزم لها رايةٌ قط حتى تغض هذه الجرائد من مقام الدولة لإدبار طالعها في هذه الحرب ، وكان عليهم أن ينظروا إلى أنّه مع كل هذا التفاوت في العدد، ومع سوء الخطة الحربية التي سرنا عليها، ومع خلل الإدارة وفقد الميرة كافحنا الأعداء مكافحةً تعلم نتيجتها من عدد قتلاهم، الذي أربى على (٦٠) ألف قتيل دون الجرحى، وأنه في آخر الحرب، ومع إنكسار قوتنا المعنوية ، دحرنا الأعداء في شتالجة أولًا وثانياً ، وحشدنا (٤٠٠) ألف عسكري ، وزحفنا بها إلى أدرنة في يومين ، واسترجعناها عنوةً ، وتألبت علينا الدول الكبيرة والصغيرة لإخراجنا منها ، فأبينا الخروجَ إلا بالقوة ، وأخيراً جاء البلغار إلى الأستانة ، ورضوا بجميع شروطنا ، ولو علموا أنّهم يقدرون على مهاجمة الجيش الجديد الذي جهزناه لما وقفوا طرفةَ عينٍ ، ولما سلّموا لنا بأدرنة، التي فقدوا في حصارها وحدَه نحو (٤٠) ألفَ قتيلٍ وجريحٍ.

الجمعية الفينيقية

ومن قرأ الجرائد العربية التي تصدر في أميركة رأى في بعضها من هذا المعنى الغرائب والعجائب ، ويا ليتها وقفتْ عند حد الاستهزاء بالدولة ، بل ظنّتْ أنّ هذا هو الوقت لإدخال سورية تحت الحكم الأوربي ، وكان هذا الباب مما فتحه اللامركزيون بأيديهم ، فإذا طالعتَ تلك الصحف تجد هذا الطلب فيها صريحاً لا مخاتلة [فيه] ولا مواربة .

وقد انتهت إلى الشام ومصر نشرةٌ مطبوعةٌ في نيويورك بإمضاء الجمعية الفينيقية ، مآلها مطالبة الدول العظام بتخليص نصارى سورية من الحكم الإسلامي ، لأنّه كما كان المسلم التركي وحشاً ضارياً ، فإنّ المسلم العربي جاهلٌ متعصِّبٌ ، والنشرة مختومة بالرجاء من الدول أن تخلِّصَ نصارى سورية من الظلم الذي هم فيه ، كما أنقذت نصارى البلقان .

ولعمري إنّ أصحاب هذه النشرة كانوا أشرفَ نفوساً وأصدقَ لهجةً من أولئك الذين ينطوون على سريرةٍ ويورُّون بغيرها ، كأنْ يكونَ مقصدُهم الفرقة تدريجاً بين العرب والترك ، فيوطِّئون لها بطلب الإصلاحات ، ويدّعون أنّهم إنما يبتغونها تقوية لظهر العثمانية ، وهم يسعون في قصم ظهرها ، وكأنْ يكونون نابذين الإسلام ظهرياً ، ويقول أحدهم أمام شهودٍ من حزبه : **إنّ كتاب فلان الإنكليزي هو أبلغ من القرآن** ، ويرفض الرابطة الدينية بين المسلمين في خطابه ، ثم يأتي إلى رجال الدولة ، فيطعن في عقيدة رجلٍ من مناهضي فسادهم ، المعبَّر عنه عندهم بالإصلاح ، ويجعل نفسَه من علماء الإسلام !! .

إنّ أصحاب النشرة الفينيقية لم يدّعوا بما ليس فيهم ، فلا قالوا إنّهم عرب ، ولا تبجّحوا بغسان وقحطان ، ولا جددوا أنساباً ، ولا اخترعوا تواريخ ، بل علموا أنّ ادعاء العربية والقحطانية لا يقترِنُ مع مطالبة تدخل أوربة [في شؤون سورية] ، ومع القول بأنّ المسلم العربي هو جاهل متعصب ، وأنه هو والتركي سواء في خبط النصارى بعسفه ، فرفعوا لواءَ الفينيقية ، التي ربما كانت أقربَ إلى الحقيقة فضلاً عن كونه نسباً لا يستحيا به ، بل محتداً يليقُ به الفخر ، وقاموا يطالِبون بما يطالِبونَ به بكلِّ صراحة ، لا يمشون إليه الضراء ، ولا يسرون حسواً في ارتغاء ، على أنّ الذي جرّأهم على بثّ هذه الفكرة إنْ هو إلا قيام حركة اللامركزية ، فهذه أيضاً من فضائل اللامركزيين على سورية .

وإذا سألتَهم : هل يجوز عندكم هذا الكلام الذي صدر من بعض السوريين في أميركة ؟

قالوا لك : ما مدخلنا بخطة غيرنا ، فنحن لنا خطة مرسومة ، ولم نقل إننا نريد احتلالاً أجنبياً لسورية ، وأمّا غيرُنا فهو مسؤول عن رأيه ، ولسنا بمسؤولين عنه .

فنقول لهم : إذا كان ذلك كذلك ، فلماذا لا تبرأون من هذه الأقوال ، وتنشرون الكتابات المتضمنة الرد عليها ، فقد ملأ تم الآفاق بالطعن في الدولة ، فهلا دار في خَلَدِكم أن تطعنوا فيمن يريدُ تسليمَ بلادنا لحكومة أجنبية ، فعند هذا يجاوبونك : لا شغلَ لنا بهذا الأمر ، وإنما نحن مسؤولون عن بروغرامنا[1] فقط .

والصحيح أنّهم يخاطبون كلَّ قائم ويراجعون كلَّ ناعق ، وقد نقروا تلغرافات إلى نيويورك يَسْتَعْدُوْنَ فيها هؤلاء القوم على الدولة باسم الوطن السوري ، وربّما إذا قال لهم هؤلاء : نحن لا ندعو إلى عربية ، بل إلى فينيقية ، لأننا نعتقدُ كونها هي أصلنا الحقيقي .

أجابوهم : نحن موافقون لكم ، ولسنا بمعارضيكم في خطتكم ، إلا أننا مضطرون لرفع لواء العربية استظهاراً بقوة الأمة العربية التي لا نقدر على الترك بدون تحريك عصبتها ، فقد ثبتَ أنّ بعضَ هؤلاء المصلحين يستبيحون كلَّ وسيلةٍ مهما باينت الحق في سبيل الوصول إلى غايتهم .

[أساليب اللامركزيين في بث دعوتهم]

وقد عهدنا دعاتهم يتقدّمون إلى كلِّ واحدٍ من سراة البلاد ، أو من تجارها ، أو من علمائها ، أو من أكرتها ، ويخاطبونه في عداوة الدولة باللسان الذي يعلمونه أقرب إلى فهمه ، فإن علموه ديِّناً متمسكاً بالشريعة أظهروا له الأتراكَ بمظهر الاستخفاف بالدين ، والإهمالَ للشرع الشريف ، وبكوا على الشرع ، وعقدوا مناحة [على] الدين .

فإن خالفهم فيما قالوه ، وأظهر لهم ما يعلم من تمسك الأتراك بالدين مما هو معلوم ومشهور .

قالوا له : نحن لا نعني أتراك الأناضول ، ولا الأتراك القدماء ، فأولئك هم كما قلتَ ، ولكننا نعني فرقة جون ترك التي هزأ منها فلان بالدين ، وقال فلان ما هو كذا وكذا ، إلى آخر ما هناك .

---

(١) برنامجنا .

فيقول لهم : أفتؤاخذ الدولة كلُّها والأتراكُ بأسرهم بإلحادِ أفرادٍ قلائل ، عندنا في العرب مَنْ هم أشدُّ إلحاداً منهم .

فيقولون له : ألا إنّ هؤلاء الملحدين من الترك هم الذين في أيديهم زمامُ الأمور ، أما الملحدون من العرب فلا بال لهم .

وأما إذا علموا مخاطبهم لا يهمه الدين ، وكان ممن ينزِعُ إلى الجامعة الوطنية ، فإنّهم يجعلون الترك وحزبَ الترك من العرب هم النافخين في بوق التعصب الديني ، والمفرقين بين الطوائف التي كانت تعيش إخواناً لولا فساد الترك ، ولذلك نهضوا هم ، وأخذوا الطرق على هذا الفساد ، وأقاموا الجامعة الوطنية مقامَ الجامعة الدينية ، التي كانت ولم تزل أصل بلاء الإسلام ، والتي أصبحتْ في عصر النور والحرية والمساواة من الأمور التي يجبُ طرحها ، وهلم جرا من هذا البحر .

وإذا كان المخاطب تاجراً لا يكرثه شيءٌ سوى شغله ، وتوفّر ربحه ، قالوا له : إنّ التجارةَ تعطّلت بسوءِ إدارة الأتراك ، وضربوا له مثلاً برواج التجارة في البلدان التي احتلها الأجانب ، وأبانوا له ما هناك من الفرق .

وإذا كان من أصحاب الأراضي قالوا له : كم عندك من الأراضي ، فيقول (٢٠) ألف دونم مثلاً ، فيسألونه كم يأخذ منها سنوياً من الريع ، فيقول لهم : ألف ليرة مثلاً ، فيقولون له : أراضيك هذه في سورية أو في العراق توازي أربعة آلاف فدان في مصر ، والأربعة الآلاف فدان في مصر تعطي صاحِبَها (٣٠) ألف ليرة ريعاً سنوياً ، وهذا كلُّه بالفرق بين إدارة الإنكليز وإدارة الترك ، وإذا سمع الرجلُ ذلك ولم يكن يعلم أسبابه ، ولا مرجع الضرر فيه ، قال : والله إنّهم لمصيبون ، وانقلب ناقماً حاقداً ، وخال أنّه بمجرد وضع سورية تحت سيطرة الأجنبي تصيرُ غلةُ الفدان فيها (١٥) ليرة ، وأنّه ما دامت الإدارة في يد الدولة العثمانية فالتقدُّمُ مستحيلٌ .

ومن غريب ما زينوا أنّهم دسوا إلى السيد طالب الرفاعي في البصرة وعصابته هناك أنّ الدولة تواطِىءُ الأجانبَ على بلاد الإسلام ، وتخلع الدِّينَ ، وما أشبه ذلك من الأقاويل ، التي يعلمون أنّها أعلق بقلوبهم من سواها ، فخرجتْ جرائدُ

كثيرةٌ في العراق ملأى بالتدمير على الدولة ، وعلى أهل الصليب معاً ، بحجة أنّ الاتحاديين يبيعون البلاد للإفرنج ، وتبارى الشعراءُ في نظم القصائد حثّاً للأمةِ على الدفاع عن الحوزة المحمدية ، فكانت حركة هذه اللامركزية تتلوّنُ في كل صقع باللون الذي يلائمه ، وتلبس لكل حالة لبوسها ، والمرمى واحد .

وأهم بابٍ من الأبواب التي فتحوها على الدولة في الواقع هو باب المقايسة بين بلادِها وبلادِ غيرها ، وإظهار ما بينهما من الفرق في العمارة ، وهو بحثٌ دقيقٌ ، ومزلقة مدحاض ، لا تثبت فيها إلا قدم مَنْ كان راسخ الاطلاع ، عليماً بالتاريخ ، شادياً شيئاً من علم الاجتماع والسياسة ، فلذلك نقف عند هذا الموضوع قليلاً ، ونكرر ما قلناه قبلاً ، وهو أنّ المسألة الشرقية ليست إلا عبارة عن مصارعة الصليب للهلال منذ (١٣) قرناً ، وما زال الإسلام يتقدّمُ حتى فتح أكثر المملكة الرومانية الشرقية ، وقسماً كبيراً من المملكة الغربية ، وقبعَ أهلُ الصليب في قطعة أوربة ، ثم طرأ على دول الإسلام العربية من الضعف والانحلال ما أوقف سيره ، فعادت الحرب بين الهلال والصليب سجالاً ، وأخذ الصليب يسترجِعُ من أصل ما كان فقده من أملاكه ، كاسترجاعه بعضَ سواحل فرنسة وإيطالية وجزيرة سردانية وصقلية ثم الأندلس بتمامها ، ثم نظير استيلائه على قسم من أفريقية نفسها ، وكغارة الصليبيين على برِّ الشام ومصر والأناضول ، فكانت الدائرةُ أوشكت أنْ تدورَ على الإسلام ، ويخسرَ أكثر فتوحاته ، ويعودُ الهلالُ كالعرجون القديم ، إلا أنّ الله قيضَ له من دول الأكراد الأيوبية ، ودول الأتراك السلجوقية ، ودول المماليك الجراكسة مَنْ أقاموا أَوَدَهُ ، ورأَبُوا صَدْعَهُ ، وجاءت على أثرِ هذه الدول دولةُ ابن عثمان في قلب الأناضول ، فاستصفت مُلْكَ الإمبراطورية البيزنطية في آسية ، وجازت إلى أوربة ، وأوغلت في الفتوحات إلى بولونية ، وحاصرت عاصمة النمسة مرتين ، وطردت الإفرنج من جميع أفريقية ، وكاد البحر المتوسط يعود بحيرة عثمانية ، وهي إنْ لم تقدر أن تستردَّ رأس أوربة الغربي من ناحية الأندلس ، فقد عاضها الله منه برأسها الشرقي في جزيرة البلقان ، فهذا ما وصلت إليه دولة ابن عثمان من الضرب في طولِ البلاد وعرضِها ، وانتظام البرور والبحور بلبتها ، وتزاحم ملوك الأرض على بابها ، وبقاء جميع أوربة ترعد من خشيتها ، مما جعل دول أوربة تحاربها محاربات

عامة ، **وتصارعها مصارعات صليبية ، وتزحفُ عليها بقضِّها وقضيضها ، وتهاجمها في برها وبحرها ، وتدس عليها الدسائس في وسط بلادِها ، وتغري العجمَ المنتصرين للشيعة بالهجوم عليها من ورائها ، فكان تألب أوربة على هذه الدولة نحواً من خمسين مرة ، وهي قائمةٌ بأمر الهلال وحدّها ، وهم أمم لا تحصى ، ودول ضخمة ، وكل يوم قوّتهم في ازدياد ، وجَدُّهم في صعود .**

وفي أوائل القرون الأخيرة تألّقتْ في آفاقهم أنوارُ المعارف ، وتدرّجوا في المدنية ، وسددهم الله إلى الاختراعات العظيمة ، التي كانت سُلَّم ارتقائهم ، وينبوعَ ثروتهم ، هذا والحرب قد أخْلَتْ ديارنا من العامر ، وأعادت المدن الزاهية بلاقع ، وغلَّت أيدي الدولة عن الاشتغال بشيء سوى الدفاع عن حوضها ، وردّ عواديهم عليها ، وصار الضعف يجرُّ بعضه بعضاً في الشرق ، وصارت القوة يزيدُ بعضها بعضاً في الغرب .

[الحرية الدينية في الدولة العثمانية]

وكان من جملة منازع الدولة في الحِلْمِ، ومذاهبها في العدل ، عدم التعرُّضِ للطوائف الأجنبية الداخلة في طاعتها بشيءٍ من الأشياء ، لا سيّما في حالة العز والمنعة ، فبقيتْ من هذه الطوائف ملايين كثيرة في الروملي والأناضول متحفِّزة كلها للانتقاض عند أول فرصةٍ ، وكان وجود هذه الأمم حرباً دائمة في باطن الدولة ، فلم تأتِ الدولة بليةٌ إلا وهؤلاء مصدرُها ، فلم تقدر الدولة أن تتوفر ـ وهي منفردة وحدَها بهذه المصارعة ـ على توفية المعارف حقها ، ومباراة الأمم الغربية في مراقيها العلمية والصناعية .

ولو تركت الدولة وشأنها بضع سنين بدون حروب من الخارج ، وبدون فتن في الداخل ، لسارت في طريق التقدم كما سار غيرُها ، ولكنّ قياسها بغيرها فاسدٌ من وجوه ، وما يتهيأ لدولة أوربية إتمامه ، وهي في ظلِّ أمانها ، وكهف سكونها ، وكنف دعتها ، لا يتهيأُ نظيرُه للدولة العثمانية التي لا تقدر أنْ تأمَنَ الغدرَ لحظةً واحدةً ، ناهيكَ عن تفرَّق بلادها ، وكثرة سواحلها ، وتعدُّد عناصرها وأديانها وألسنتها .

وهذا قد كررناه ، لا لنلتمسَ لرجالِ الدولةِ عُذْراً على جمودٍ لا يفيقون من مرضه ، وإهمالٍ لا يخلصون من تبعته ، بل لنُقْنِعَ بعضَ الأغرار بأنّ لهذه الحالة التي عليها الشرقُ كلُّه أسباباً طبيعية اجتماعية ، وعللاً متسلسلة تاريخية ، وأنّ أدوار الإقبال والإدبار التي تتعاقب على الأمم لا تكون إلا نتائج مثل هاتيك المقدمات ، وأنه لو قامت دولة أوربية عظيمة بالغةً أعلى درجات التمدن مقامَ الدولة العثمانية بما هي فيه من المشاكلِ والمعاضلِ ، وما عليها من العداواتِ المنصوبةِ ، والأطماعِ الهافية من كل صوب ـ لما تسنّى الإصلاحُ الذي تبتغيه أمتها ، ولسقط في يدِها من أول يوم ، ولصاحت : المددَ المددَ .

الأسباب الحقيقية للنهضة المصرية

وأما التنظيرُ بمصر ، ما أدراك ما مصر ، فقد كان السبب الأكبرُ في دخول هذا الوهم على الأفكار ، واعتقاد بعضهم أنّ مجرد وجود الأجانب محتلين أو مسيطرين يكون سبباً لفيض معين الثروة ، وامتداد رواق الأمن والراحة ، وبلوغ معالي درجات العزِّ والبسطة ، ويذهب الواحد منهم إلى مصر فيرى شوارعَ القاهرة ومبانيها الفخمة ، وساحاتها الرحبة ، وأرصفتها الممدودة ، ويشاهِدُ السيارات الكهربائية ذاهبةً جائية ، والقُطُر الحديدية متواصلة ، والعربات والحوافل تُعَدُّ بالألوف ، والخلق مزدحمين في الأسواق والشوارع كأنّهم يحشرون ضحى ـ فيظنّ أنّ هذا العمران كله لم يكن الأصل الأصيل فيه سوى وجود الإنكليز ، وأنه لولا الإنكليز لم تكن مصرُ شيئاً مذكوراً ! ! .

ولسنا هنا نحاوِلُ غمط إحسان الإنكليز ، ولا تنقُّصَ إدارتهم ، ولا الغمزَ في اقتدارهم ، وإنكار ما أتوه من الإصلاحات أثناء وجودهم بمصر ، ولكننا نحبُ تنبيه المغرورين من الأمة بظواهرِ الأمور ، المنخدعين بحيل السماسرة المعهودين إلى النقط الآتية :

أولًا : أجمع علماء الاجتماع أن أسعدَ سعادةٍ تطمعُ بها أمةٌ ، وتبذل النفوس والنفائس من دونها بذلَ رخيص المتاع هي **سعادة الاستقلال** ، وهي التي بدونها لا يلَذُّ لأمةٍ مالٌ ولا ثروةٌ ، بل كلّما عظمت الثروة ازداد الحنين إلى الجاه ،

واشتدت الحسرة على الاستقلال ، فإذا فرضنا أنّ بلاداً شرقية ازدادتْ ثروتُها ، وبهر انتظامها ، وكانتْ قد فقدت بمقابل ذلك استقلالها ، فلا تكونُ قد اشترت هذه النعم بثمن بخس ، بل تكون قد اشترتها بضعفٍ بل بأضعافِ قيمتها .

ثانياً : أنّ الزمان زمانٌ تقدم في كل بقاع الأرض ، حتى إنّ البلاد العثمانية كان لها نصيبٌ من التقدم رغم المشاكل والحروب التي لم تفارقها طرفة عين ، ولو كانت مصرُ بقيتْ بدون احتلالٍ أجنبي لما كان يمكن القول بأنها تبقى على حالتها التي وجدت فيها منذ ثلاثين عاماً ، بل لا شكَّ أنها كانت سارت في طريق التقدم من نفسها شوطاً بعيداً ، **ولقد ترقّت مصر في أيام اسماعيل باشا ترقياً باهراً في العلم والصناعة ، ولم يكن فيها سيطرة أجنبية**[1] .

ثالثاً : أنّ الشام ليست فيها ثروة مصر ، ولا يسار مصر ، ولكن أرضها لأهلها ، وجميع ما يملكه الأجانب من حدودِ العريش إلى حدود مرعش لا يساوي في الأراضي ملك فردٍ واحدٍ من ذوي الأراضي في سورية كعبد الرحمن باشا اليوسف في الشام أو أولادِ محمد باشا المحمد في طرابلس الشام ، أو الجابري في حلب مثلاً ، وكذلك لا ديونَ على سورية للأجانب باعتبار المجموع ، بل ديون سورية هي لأهلِ سورية ، والمال ينتقِلُ من يدٍ إلى يدٍ ، وكلتاهما يد سورية عثمانية ، حتى التجارة في مدن كثيرة كحلب وحمص ونابلس ، لا تدور بأموالِ المصارف العموميةِ كالبنك العثماني وغيره ، بل تجد الصيارِفَ من أهلِ البلاد ، يدفعون جميعَ رؤوس الأموال من صناديقهم رأساً ، باستغنائهم عن البنوك الكبيرة تماماً ، فهل يمكننا أن نقولَ : إنّ أراضي مصر باقيةٌ كلها لأهل مصر ؟ وهل يمكننا أن ندعيَ كون الديون التي على مصر البالغة (٢٤٠) مليون ليرة إنكليزية لا تساوي نصف أطيان[2] مصر ، بل تزيدُ على هذا المقدار ، إذا اعتبرنا أنّه لا يوجد أكثر من ستة ملايين فدان من الطين ؟ وهل يمكنُنا أن نزعم كون الأهالي الوطنيين في مصر لا يخسرون من مجموع أطيانهم

---

(١) انظر كتاب « بناء دولة عصر محمد علي » للدكتور فؤاد شكري وزميليه . ط دار الفكر العربي .

(٢) أراضٍ .

سنةً عن سنةٍ ، وأنه إذا استمر الحال هذا طويلاً ربما خرجوا منها كلها ، وأصبحوا أكرة[1] عند الأجانب التي يكونون ملكوها ؟ وهل يمكننا أن نحكمَ بأنّ الفوائد[2] التي تدفعها حكومةُ مصر وأهالي مصر للأجنبي كلَّ سنة ، وهي معدلةٌ بأربعة وخمسين مليون ليرة ، لا تساوي مجموعَ محصول القطن المصري ، بل تزيد عليه كثيراً ؟

اذاً لم يفدنا سير الفرّارات الكهربائية في شوارع القاهرة والإسكندرية ، ولا الانتظام الذي نشاهده في ذلك القطر ، إذا كان هذا الانتظام وقع بهذا الثمن الهائل.

رابعاً : لا يمكن أن تقاسَ الشامُ بمصر لا في قديم ولا في حديث في باب الثروة ، فلا يكفي الشام أن يأتيَها اللورد فلان أو المستر فلان ليبلغَ بها تلك الدرجة العليا بمجرَّدِ سداد رأيه ، وسعه علمه ، فإنّ دخلَ حكومة مصر هو نحو (١٥) مليون ليرة إنكليزية ، وهي باستغنائها عن جيشٍ مهم ، وعن استخدام أسطولٍ تقدر أنْ تصرفها كلّها في إدارة داخليتها ، ثم إنها كانت قد وفّرت من المال المسمّى بالاحتياطي نحو (٣٠) مليون ليرة إنكليزية ، فصرفتها أيضاً في الإصلاحات ، فلذلك لم يكن يكفي لمصر اللورد كرومر لولا وجود اللورد نيل[3] بجانبه ، ولو كان كلُّ بلدٍ يحتلُّه الأجنبي يصير عامراً ، وينقلب حدائق وأعناباً ، للزم أن تكونَ قبرص مثل مصر ، والحال أنّها أدنى درجة في العمران من سورية ، بل من أدنى بقاع سورية .

خامساً : إذا لحظنا تقدُّمَ المحاصيل في برِّ الشام في هذه السنين الأخيرة ، والارتقاء المدهش الذي حصل في أثمان الأراضي ، بحيث إنّ المكان الذي كان يساوي منذ (٢٠) سنة نحو (٢٠) ليرة صار يساوي اليوم (٥٠٠) ليرة ، وأحياناً (١٠٠٠) ليرة و(٢٠٠٠) أو (٣٠٠٠) ليرة في بعض الأصقاع المجاورة للأبنية ، وإذا نظرنا إلى كون هذا الارتقاء عاماً ، لم ينفرد به بلدٌ عن بلد ، بل هو من حدود مصر إلى حدود أضنة ، ومن البحر الملح إلى حدود تدمر على وتيرةٍ واحدةٍ

---

(١) أجراء .
(٢) الفوائد الربوية .
(٣) أي نهر النيل .

ـ علمنا الظلمَ الفاحشَ الذي يقع فيه القائلون بأنّ البلاد تسيرُ إلى الوراء ، أو أنّها لم تتقدم إلا تقدماً بطيئاً ، ومما لا جدالَ فيه أنّ سكة حديد الحجاز وحدَها زادت في أثمان الأراضي بما قيمته نحو (١٢) مليون ليرة ، سواء في سورية وفلسطين ، أو في الحجاز .

سادساً : نعودُ فنقول : إننا بدون إنكار شيءٍ من حسن إدارة الإنكليز ، الذين هم أرقى أمةٍ مستعمرةٍ ، لا نسلِّمُ بكون مصر لم تكن حافلة بالعمران إلا في أثناء الاحتلال ، **فقد كان العمران زاخراً في مصر منذ آلافٍ من السنين** ، ولما دخل عمرو بن العاص مصرَ كان خراجُها اثني عشر ألف ألف دينار ، ومما ورد في التواريخ ، والآثار الباقية تؤيِّدُ صحته ، أنّ بعضَ فراعنةِ مصرَ جبى خراجَ مصر اثنين وسبعين ألف ألف دينار ، (أي نحو (٣٠) مليون ليرة) وأنّ من عمارته أنه أرسل ويبة (الويبة ستة أمدادٍ) قمح إلى أسفل الأرض إلى الصعيد في وقتِ تنظيفِ الأرضِ والتُّرَعِ من العمارة ، فلم يوجَدْ لها أرض فارغة تزرع فيها ، وذكر أنّه كان عند تناهي العمارة يرسِلُ بأربع ويبات برسيم إلى الصعيد وإلى أسفل الأرضِ وإلى أي كورة ، فإنّ وجد لها موضعاً خالياً فزرعت ضرب عنق صاحب الكورة .

وقال عمرو بن العاص للمقوقس : أنت وليت مصر فبم تكون عمارتُها ، فقال : بخصالٍ : أن تحفرَ خلجانها ، وتسدَّ جسورها وترعَها ، ولا يؤخذ خراجها إلا مِنْ غلتها ، ولا يقبل مطل أهله ، ويوفّى لهم بالشروط ، ويدر الأرزاقَ على العمال ، لئلا يرتشوا ويرتفع عن أهله المعاوِن والهدايا ، ليكون قوة لهم ، فبذلك يعمر خراجها انتهى .

قال ابن وصيف شاه : وكان منقاوس قسّمَ خراجَ البلاد أرباعاً : **فربع** للملك خاصة ، يعمَلُ فيه ما يريدُ ، **وربع** ينفَقُ في مصالح الأرض ، وما تحتاج إليه من عمل الجسور ، وحفر الخليج ، وتقوية أهلها على العمارة ، **وربع** يدفَنُ لحادثةٍ تحدُثُ ، ونازلة تنزل ، **وربع للجند** .

وكان خراج البلد ذلك الوقت مئة ألف ألف وثلاثة آلاف ألف دينار ، ويقال : إنّ كلَّ دينارٍ عشرة مثاقيل من مثاقيلنا الإسلامية .

قالوا : وارتفع مالُ البلدِ على يد ندارس مئة ألف ألف دينار ، وفي أيام كلكن بن خربتا بن ماليق بن ندارس مئة ألف ألف دينار وبضعة عشر ألف ألف دينار ، وكان فرعون الأول يجبيها تسعينَ ألفَ ألفِ دينار ، يُخْرِجُ من ذلك عشرة آلاف ألف دينار لمصالح البلد ، وعشرة آلاف ألف دينار لمصالح الناس من أولادِ الملوك وأهلِ التعفف ، وعشرة آلاف ألفِ دينار لأولياء الأمر والجند والكتّاب ، وعشرة آلاف ألف دينار لمصالح فرعون ، ويكنِزُون لفرعون خمسين ألف ألف دينار ، وبلغ خراجُ مصر في أيام الريان بن الوليد ، وهو فرعون يوسف عليه السلام سبعة وتسعين ألفَ ألفِ دينار ، فأحبَّ أن يتمه مئة ألف ألف دينار ، فأمر بوجوه العمارات ، وإصلاح جسور البلد ، والزيادة في استنباط الأرض ، حتى بلغ ذلك ، وزاد عليه .

ووجد في كتابٍ قبطي باللغة الصعيدية ونُقِلَ إلى العربية : أنّ مبلغ ما كان يُستخرَجُ لفرعون مصر بحقِّ الخراج الذي يوجَدُ وسائر وجوه الجبايات لسنة كاملة على العدل والانصاف والرسوم الجارية من غير اضطهاد ، ولا مناقشة على عظيم فضل ، كان في يد المؤدي لرسمه ، وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان (المعبَّرُ عنه في أيامنا هذه بالاحتياطيّ) رفقاً بالمعاملين ، وتقويةً لهم ـ من العين أربعة وعشرين ألف ألف دينار ، وأربعمئة ألف دينار .

ومن جهات مصر : وذلك ما يصرفُ في عمارة البلاد لحفر الخليج ، وإتقان الجسور ، وسد الترع ، وإصلاح السبل ، ثم في تقوية من يحتاج للتقوية من غير رجوع عليه بها ، لإقامة العوامل ، والتوسعة في البذار ، وغير ذلك . وثمن الآلات ، وأجرة من يستعان به من الأجراء لحمل الأصناف وسائر نفقات تطريق أراضيهم ـ من العين[١] ثمانمئة ألف دينار .

ولما يصرف في أرزاق الأولياء الموسومين بالسلاح وحملته ، والغلمان وأشياعهم ،مع ألف كاتب موسومين بالدواوين ، سوى أتباعهم من الخُزّان ، ومن يجري مجراهم ، وعدتهم مئة ألفِ وأحدَ عشر ألفَ رجلٍ ـ من العين ثمانية آلاف ألفِ دينار .

---

(١) العين : الذهب .

ولما يصرف في الأرامل والأيتام فرضاً لهم من بيت المال ، وإن كانوا غيرَ محتاجين إليه ، حتى لا تخلوا آمالهم من بِرٍّ يصل إليهم أربعمئة ألفِ دينار .

ولما يصرف في كهنة برابيهم وأئمتهم وسائر بيوت صلواتهم - من العين مئة ألف دينار .

ولما يصرف في الصدقات مئة ألف دينار .

ويحصل بعد ذلك ما يتسلّمه فرعون في بيوت أمواله عدة لنوائب الدهر وحادثات الزمان - من العين أربعة عشر ألف ألف دينار وستمئة ألف دينار .

وكان عمرو بن العاص يبعث إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بالجزية بعد حبس ما كان يحتاجُ إليه ، وكان فريضةُ مصر لحفر خلجها وإقامةِ جسورها ، وبناءِ قناطرها ، وقطع جزائرها - مئة ألف ، وعشرين ألف رجل ، معهم الطور والمساحي والأداة ، يتعقّبون ذلك ، لا يدعون ذلك صيفاً ولا شتاءً .

ومما يروى من النكات عن ثروة مصر أنه لما ذهب المأمون العباسي إلى مصر سار في قراها ، وكان يُبنى له في كلِّ قرية دكة يضرِبُ عليه سرادقه ، والعساكر من حوله ، وكان يقيم بالقرية يوماً وليلةً ، فمرَّ بقريةٍ يقال لها طاء النمل ، فلم يدخلها لحقارتها ، فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تُعْرَفُ بمارية القبطية صاحبة القرية ، وهي تصيحُ ، فظنّها المأمون مستغيثةً متظلمةً ، فوقف لها ، وكان لا يمشي أبداً إلا والتراجمةُ بين يديه ، فذكروا له أنّ القبطية قالت : يا أمير المؤمنين نزلتَ في كلِّ ضيعةٍ ، وتجاوزتَ ضيعتي ، والقبطُ يعيروني بذلك ، وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرّفني بحلوله في ضيعتي ، ليكونَ لي الشرفُ ولعقبي ، ولا تشمتْ بي الأعداء ، وبكتْ بكاءً كثيراً ، فرّقَّ لها المأمون ، وثنى عِنانَ فرسه إليها ، ونزل ، فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ ، وسأله عما يحتاج إليه من كل الأصناف ، فأحضر ذلك إليه بزيادة ، وكان مع المأمون أخوه المعتصم ، وابنه العباس ، وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ، ويحيى بن أكثم ، والقاضي أحمد بن دؤاد ، فأحضرت لكلِّ واحدٍ منهم ما يخصُّه على انفراده ، ولم تكل أحداً منهم ولا من القواد إلى غيره .

ولما عزم المأمون على الرحيل ، حضرت إليه ، ومعها عشرُ وصائف ، مع

كلِّ وصيفةٍ طبق ، فلما عاينها المأمون مِنْ بعدٍ ، قال : قد جاءتكم القبطية بهديةِ الريف الكامخ والصحناه والصبر ، فلما وضعت ذلك بين يديه إذا في كل طبقٍ كيسٌ من ذهب ، فاستحسن ذلك ، وأمرها بإعادته ، فقالت : لا والله لا أفعل ، فتأمَّلَ الذهب ، فإذا به ضرب عام واحدٍ كله ، فقال : هذا واللهِ أعجبُ ، ربما يعجزُ بيتُ مالنا عن مثل ذلك .

فقالت : يا أمير المؤمنين ، لا تكسر قلوبنا ، ولا تحتقرنا[1] .

فقال : إنّ في بعض ما صنعتِ لكفايةٌ ، وما نحبُّ التثقيلَ عليك ، فردي مالك بارك الله فيك ، فأخذتْ قطعةً من الأرض ، وقالت : يا أمير المؤمنين هذا (وأشارت إلى الذهب) من هذا (وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض) ثم مِنْ عدلك ، وعندي من هذا شيءٌ كثير ، فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعطاها من قريتها طاء النمل مئتي فدان بغير خراج .

وبلغت مصر في الدولة الفاطمية مبلغاً من العز والقوة يحارُ له العقل ، حتى قيل : إنّه لم يطأ الأرضَ بعد جيش الإسكندر المقدوني أكثرَ عدداً من جيوشِ المعزِّ الفاطمي ، وذكر بعضُ المؤرخين أنّه لما خرجَ العزيزُ بن المعز إلى الشام كان حمل خزانته الخاصة عشرين ألفَ حملٍ خارجاً عن خزائن القواد وأكابر الدولة .

ولا ينكر أنّ الجباية في مصر لم تبلغ في الإسلام ما بلغته في أيّام الفراعنة ، بل كانت ألفَ ألفِ دينار ، و (١٤) ألف ألف دينار ، ثم انحطت إلى (٤) و (٥) آلاف ألفِ دينار ، وذلك لتقلّص العمران وتوالي الحروب والنوائب ، وهي عين الحروب التي كانت سبب محنة الدولة العثمانية ، وغلّتْ يدها عن إصلاح بلادها .

وقال المقريزي : إنّ سبب اتضاع خراج مصر بعدما بلغ مع الروم في آخر سنة ملكوا قبل فتح مصر (٢٠) ألف ألف دينار أنّ الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان يُنْفَقُ في كلف عمارة الأرض ، فإنّها تحتاجُ أن ينفق عليها ما بين ربع

---

(١) في الأصل (تحتقر بنا) .

متحصلها إلى ثلثه ، وأنه لا يتمُّ خراجُها حتى يكون فيها أربعمئة ألفٍ وثمانون ألفَ حرّاث يلزمون العمل فيها دائماً .

وجبى عَمْرُو بن العاص من الإسكندرية وحدَها ستمئة ألف دينار ، لأنّه كان بها (٣٠٠) ألف من أهل الذمة ، فجعل على كلٍّ منهم دينارين دينارين ، وقد اتفق المؤرخون على أنّ مصر هي كنانةُ الله في أرضه .

وكرر ابن خلدون مراراً أنّ العمران تناقَصَ من كل المشرق إلا من مصر ، وعليه يمكننا أن نقول : إنّ الإنكليز ، ـ وإنْ كانوا مبرّزين في حلبة الإدارة ـ فربّما لم يكونوا بلغوا بمصر الغاية التي بلغتها مصر في القرون الأولى ، وأنْ ليس لأحدٍ فضلٌ على مصر بعد الله تعالى سوى هذا النيل المبارك ، وأنّ مصرَ معروفةٌ بخاصة الثروة والغنى ، وطاعة أهلِها للملوك ، منذ دحى الله هذه الأرض ، كما أنّ الشام معروفةٌ بالنجدة والعقل مع حُبّ الفتنة ، حتى بالغ بعضُهم فقالوا : سئل كعب الأحبار عن طبائع البلدان وأخلاقِ سكّانها ، فقال : إنّ الله لما خلق الأشياء جعل كل شيء لشيء ، فقال العقل : أنا لاحقٌ بالشام ، فقالت الفتنة : وأنا معك ، وقال الخصب : أنا لاحقٌ بمصر ، فقال الذُّلُّ : وأنا معك . وقال الشقاء : أنا لاحِقٌ بالبادية ، فقالت الصحة : وأنا معك . ومرادُه بالذل في مصر ما رُكِّبَ في طباع أهلها من الدعة وطاعة الأمراء .

فأما المفسدون ، فيخيّلون لأهل الشام أنّه لو صارت بلادُهم إلى إدارة أوربية لم تكن تدرُّ فقط لبناً وعسلاً ، بل كانت تدرُّ فضةً وذهباً ، والحقيقة أنّها لو تسلمتها إدارة أوربية لما درّت على أهلها من الفضة سوى فض قوّتهم ، ومن الذهب سوى ذهاب عزهم ، وأنّها كانت تصير لقحةَ دَرٍّ للأجانب يحلبونها لأنفسهم ، ويردُّون أهلها غرباء في نفس أرضهم ، ويزاحمونهم في كلِّ مرفق ، جلَّ أو دقّ ، وإنهم ليزاحمونهم الآن ، وهم ليس لهم من الأمر شيء ، فكيفَ إنْ صاروا أصحابَ الشأن لا سمح الله .

ثم إنّ من مزايا مصاحبة الأتراك أنّهم لم يكونوا أمة متجرة ، مولعة بالأخذ والعطاء ، فكان لأهل سورية معهم الحرية التامة ، وخلو الميدان لأجل الكسب والربح بدون مراقب ولا مزاحم ، ولم يكن للأتراك فيها سوى الولاية والقضاء

في المراكز الكبرى ، وانتدح لهذه الأمة السورية سلالة العرب النجباء والفينيقيين العظماء أنْ تنمو وتزداد ، وتكون سيدةً في بلادها .

فأما لو دخلت سورية تحت حكمٍ أجنبي ، فإنّه لا يكونُ فقط للأجانب الولايةُ والقضاء والجيشُ والسيفُ والقلمُ ، بل تكونُ لهم التجارةُ والصناعةُ والزراعةُ ، ولا يمضي وقتٌ طويلٌ حتى يصيرَ أهلُ سورية خولًا لهم ، وهم في وسطِ بلادهم ، وحتى يندموا على فارطِ تهورهم ، وسابق غرورهم ، ويبكوا على حكم الأتراك الحالي ، ويلعنوا أولئك الدعاة الذين كانوا السببَ في سقوطهم .

وسيقول المغالِطون : ومن قال لك : إننا نبغي الأجانب في بلادنا ، أفلم تر أنّ المؤتمر العربي في باريز قرر مناهضة الاحتلال ، وأنّا نحن أهل سورية لا نريدُ الأوربيين ولا الأتراك ، وإنما نريدُ أن نكونَ حاكمين على بلادنا بأنفسنا .

قلنا : وهكذا كان يقول عرابي وجماعته في مصر : نحن نريدُ تحريرَ مصر من حكم الترك والجركس ، وأن تكونَ مصرُ لأهلها ، وكذلك نقاوِمُ كلَّ سلطة أجنبية ، وكان عند عرابي لما قام يقول هذا القول ملك مصر وخزائنها وملايينها وجيشها ، وكان أعزَّ قبيلاً من اللجنة العليا ، وكان مركزُه دواوين مصر وقصورَها ، لا قهوة السبلاند بار ، فهل تمّ له ما منّى به نفسَه هو وحزبه ، أمْ كانت النتيجة أنّ مصرَ خرجتْ مِنْ حكم الترك والجركس ، ومن حكم العرب والقبط معاً[1] ؟!!

إنّ قول بعض الطلبة في باريز : إننا قررنا مناهضة الاحتلال ، وإنْ كان جميلاً في ذاته ، وكان بعضُهم صادقاً في دعواه ، فلا يمنع أساطيل الأجانب أن تُنزِلَ العساكر في سواحل الشام ، عندما ترى الفتنة في البلد ؛ و [تنازع] الأهالي على دولتهم ، ولو احتجَّ عليها المؤتمر العربي نفسُه ، وأكدت احتجاجه اللجنة العليا بعينها ، ونخشى أن نرى الذين قرروا المناهضة المذكورة أنفسهم مهطعين يومئذٍ إلى البحر ، يرحّبون بالعساكر المحتلة الآتية بزعمهم بالحضارة والمدنية ،

---

(١) ما حدث في معركة التل الكبير حصل مثله في ميسلون .

وبالعدل والإنسانية ، وتنسخ يومئذ مدافعُ الأسطول المادةَ المذكورة من بروغرام[1] المؤتمر العربي (لا أرانا الله ذلك اليوم) ويدافع عن البلاد الأتراك ، والذين قالوا عنهم : إنّهم حزب الأتراك من العرب ، ورموهم بالخيانة ، أولئك الذين عرفوا مذاق علو الهمة ، وفهموا معنى الوطنية والاستقلال ، ولم يسلّوا أنفسهم بالأقاويل الفارغة ، وبالإصلاحات التي ظاهرها الرحمة ، وباطنها العذاب .

مسألة المهاجرين

ومن المبادىء المؤلمة التي زرعوها في هذه الملة وهذا الوطن مسألة المهاجرين التي كانت من جملة أعراض المرض الاجتماعي الذي ظهر في جسم هذه الأمة ، فقد ذكروا في نشرتهم الباريزية أنّ مِنْ مواضيع المؤتمر العربي مسألة المهاجرين من سورية وإلى سورية .

فأما مِنْ سورية فإنّه من ألزم الأمور حقاً تفكر المفكرين بوضع حدٍّ لهذه المهاجرة التي كادت تخلي البلادَ من السكان ، والتي تكاد تحرِمُها الطبقةَ العاملة من أهلها ، وتحرم الدولةَ الأموالَ والرجال ، وكان على محبي الوطن أن يطالبوا الدولة بما شاءوا من الأعمال التي يُرجى بها وقف هذا السبيل .

فأما المهاجرة إلى سورية فكنّا نظنُّ أنّهم نظراً لخلو البلاد ، واتساع الأرض ، وقلة النفوس ، يطالبون الحكومة بإرسال قسم كبير من مهاجري الروملي إليها ، حباً بعمارة الخالي منها ، ونظراً لما يقال دائماً من أنّ سورية كانت قائمة ببضعة عشر مليوناً من الخلق ، فلما أديلَ للأتراك خرّبوها ، وصار أكثرها قفاراً وصحارى ، فما كان أجدرنا نحن اليوم ، وقد نهضنا لأجل إصلاح بلادنا ، بأن نسعى في زيادة عدد السكان ، والاستظهار على الأرض بوفرة الحارث والعامل ، لا سيّما وأن الدولة قد نقلت إلى سورية طوائفَ من الچركس والشاشان والبوشناق وأهل كريد ومن المغاربة ، فلم يكن من وجودهم في بلادنا

---

(١) برنامج .

سوى زيادة الخير والمير ، وإحياء الأراضي الموات ، وإيناس القفار الموحشة .

وقد نزلت دمشقَ أصنافٌ عديدةٌ من المهاجرين ، وعمرت بهم حارة كبيرة في الصالحية[١] ، فهل ترتَّبَ على مجيئهم شيءٌ من الضرر في دين أو في دنيا ، أم كان ذلك من جملة أسباب العمارة ؟!! .

وعمَّرَ الچراكسةُ قسماً من قضاء القنيطرة ، وزاد بهم ارتفاعه ، وتوفّرت غلته .

وكذلك كانت عمّان قد خربت من قرون عديدة ، وصار واديها مفترَساً وعُشّاً لأهل الدعارة ، فلما نزلها الچركس صيّروها قصبةً كبيرةً ، وعمّروا قرى عديدة في جوارها ، فأمنت السوابل ، وازداد عمران البلقاء الخصيبة ، ورغبت البوادي في الحضارة والزراعة ، وحذا الأهالي حذوَ المهاجرين في الشغل ، وتركوا البطالة ، فطبقوا جانباً كبيراً من الأرض بالعمل ، وانتشر المهاجرون في جوار دمشق وأطراف الغوطة ، وعمّروا قرى من حمص وحلب وحماه وفلسطين ، ونزل طائفة من الچركس في ضواحي طبرية من عمل الأردن .

وأما المغاربة فعمَّروا قرًى من الغوطة ، ومن طبرية ، ومن غور الحولة ، ومن حوران ، ومن ساحل عكا ، وازداد بهم عددٌ أهل دمشق ، وكثير من مدن سورية .

وبالإجمال فإنّ مجيء المهاجرين إلى بلادنا هو من أوثَقِ أسباب عمرانها ، وأنجع وسائل إيطانها ، وإن قيل : إنّهم يأخذون جانباً من الأراضي التي كان يمكن أن يحرثها الأهالي الأصليون فلعمري مهما أخذوا من الأراضي الخالية فلن تضيقَ الأرضُ بما رحبت على الأهالي الأصليين ، بل هي بقدر كثرة الساكن تزداد ريعاً ، وتغلو ثمناً ، وبجيرانها تغلو الديار وترخص .

ولكن من جملة عوارض المرض الذي طرأ على أرواحنا هذا العام المشؤوم ، ونوبات هذه الحمّى التي وفدت على أخلاقنا ، على أثر انكسارنا في الحرب البلقانية الأخيرة أنْ كان أولُ شيءٍ فكروا فيه عندما بلغتهم المصائب

---

(١) حي المهاجرين بدمشق .

المحرقة للأكباد ، التي حلت بإخواننا مسلمي الروملي أنّ الدولة لا بدّ وأن تضطر إلى نقلِ جانبٍ منهم إلى أطراف الشام ، فتحفّزوا سلفاً للاعتراض على ذلك ، ولردهم منها ، ودار الكلام فيما بينهم في هذا الأمر ، وشرعوا يدوكون فيه ، كأنّه من المسائل المجحفة بحقوق الوطن خاصة ، والعرب عامة ، ولما اجتمع مؤتمرُهم هذا في باريز ، طرحوا هذه المسألة في المذاكرة ، وأنكروا قبولَ المهاجرين في سورية إنكاراً مطلقاً ، وقام أحدُ عقلاء المسيحيين فأبدى مخالفته لرأيهم هذا بحجة أنّ البلاد محتاجةٌ إلى السكان ، فلم يستمعوا له ، ونضح إناؤهم بما فيه من الرأفة والرحمة ومن الاعتدال والحكمة !! .

وغلب رأيُ أكثرهم على رأي أقلهم ، وهو منع من يقصد أكناف سورية من مهاجري الروملي ، وكل مهاجر غريب عنها ، ولو كان في ذلك ما فيه من مخالفة الشرع الإسلامي ، بل ومخالفة الشرع الإنساني ، بل ومدابرة مبادىء الاقتصاد السياسي ، التي يكادون يجعلونها لأنفسهم شرعاً ، ويتخذونها صلاةً وصياماً ونسكاً ، ومحياً ومماتاً .

ولو فقهوا لعلموا أنّهم لو عملوا بمبادىء القرآن وحدَها لكانوا أولَ الاقتصاديين السياسيين ، وأغنى الأغنياء ، ولرأوا أنّ الأمةَ التي لا تجمعها مثل تلك الرابطة القوية ، ولا تنظمها هاتيك الأخوة التي لا انفصام لعروتها يوشِكُ أن يتخاذل أعضاؤها ، وتتفكك أجزاؤها ، وتتبع خسارة دينها بخسارة دنياها ، وتعيش في أفقر الفقر ، وأذل الذل ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

وأنه لم يكن القرآن سبباً لشقاء هذه الأمة ، إنما كان السبب في شقائها هو الصدود عنه ، والاكتفاء منه بمجرد الحفظ دون العمل .

ألا وإنه لم يقع في خاطر الدولة أن تأتي بمهاجري الروملي إلى بر الشام ، لأنّ عندها من الأراضي الخالية ، والسهول التي أكملت تجفيفها في الأناضول ما يقوم بأضعاف أضعاف أولئك المهاجرين ، وهي الآن تفكّر في وضع طائفةٍ كبيرةٍ منهم في ضواحي الأستانة نفسها ، وفي ولاية أدرنة بعينها .

فأما لو خطر في بال الدولة أن تنقلَ إلى سورية بعضَ أولئك المساكين

ـ الذين ساقهم نحسُ الطالع أن يكونوا من هذه الأمة الغافلة الجاهلة بحقيقة مصالحها ـ إلى أطراف الشام ، وأن تَسْتحيي بقية [من نجوا من] سيوف البلغار والصرب واليونان بإقطاعهم بعضَ مهامه الشامات ، التي ليس فيها ساكن ولا أنيس ، إلا العيافير وإلا العيس ، فأيُّ ضرر في ذلك على أهالي سورية ؟ وأيةُ غضاضةٍ تلحقهم من هذا الأمر ، حتى يقومَ بعضُ أولئك الذين انقلبت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوةً فيقولوا : غداً يتدفق على الدولة سيلُ مهاجري الروملي ، فتسوقُ إلينا منهم ألوفاً ، يأتوننا بشقائهم ؟.

نعم لو كان أولئك المهاجرون أرمناً ـ كما هاجرمنهم ألوفٌ إلى حلب الشهباء ـ لم يكونوا ممن يأتون إلى سورية بشقائهم ، ولا كانت ثقلت وطأتهم على أحدٍ من هؤلاء ، بسبب نعمة كونهم نصارى .

أولو كان المهاجرون إلى بلادنا من السادة الأوربيين ، لما توقفَ أحدٌ عن القول بأنّ هذه منه من جلائل المنن ، التي أسبغها الله على عباده أهلِ سورية ، بأنْ جعلَ بين ظهرانيهم من يعلِّمهم الكتابَ والحكمة ويزكيهم ، ويلقح بلادَهم بمَصل الرقي الحقيقي ، ولو كانت الحقيقة أنّه ما يجيءُ إلى بلادنا إلا ليزاحمَ أهلها على خيراتها ، ويضعَ حجرَ أساس عبوديتهم بيده ؟!! .

وتصوّر أيها القارىء رجلاً عثمانياً ، بل رجلاً يزعمُ كونَه مسلماً ، بل رجلاً يزعم كونه إنساناً ، يسمعُ بخبر أناسٍ كانوا وادعين في أوطانهم ، ظانين بأنّهم سواء انتصرت الدولة العثمانية أم انكسرت فلا خوف عليهم ، لأنّهم عُزَّلٌ من السلاح ، قارُّون في بيوتهم ، فلما تقهقر الجيش العثماني بسوءِ إدارةِ الوزارةِ الائتلافيةِ ، دخل عليهم أولئك الوحوش البلقانيون ، الذين لا يشبهون بني آدم إلا في الصورة فقط ، فذبحوا شبّانهم ذبح الشياه ، وخضبوا شيب الشيوخ بدم أفلاذِ أكبادهم ، وفسقوا بعقائل الصون وكرائم الستر ، اللائي كن لا يرينَ الشمس إلا من كوى المقاصير بحضور بعولتهن ، وآبائهن ، وإخوانهن ، وأردفوا هذه المعرّات ـ التي الموت من دونها ـ بقتلِ رجال أولئك المصونات ، وسَبَوْا البنات والأطفال ، وبقروا بطونَ الحوامل ، وتقاسموا أعراض مسلمي

الروملي ، كما تقاسموا أموالهم وعروضهم ، وأحرقوا مساكن المسلمين ، وربما ساقوا جموعهم إلى المساجد ، وأحرقوها بهم ، وأحرقوهم بها ، ولم يدعوا فادحةً ولا فظيعةً إلا وقد ارتكبوها فيهم ، وقلبوا مساجدَهم كنائس[1] ، وحملوهم على تبديل دينهم بالسيف ، حتى نصّروا منهم بهذه الصورة مئات الألوف ، وتصوَّر ذلك الرجلَ الذي يدّعي أنّه مسلم ، بل لا يكثر عليه أن يمنح الإسلام من يشاء ، ويمنعُ الإسلام من يشاء ، يقول : لو جاءنا نفرٌ من هؤلاء المنكوبين إلى سورية لما قبلناهم بين ظهرانينا ، ولا يعنينا من أمرهم شيءٌ ، وسيان عندنا هَتَكَ البغاري أعراضَهم أم احترمها ، ولا فرق عندنا بين أن يصيروا نصارى قسراً أم يبقوا مسلمين ، وبالاختصار فإننا لا نريد أن نرى أحداً من هؤلاء المهاجرين في بلادنا مهما بلغ بهم البؤس والشقاء ، لأننا لا نريد أن نشاركهم بشيء من آلامهم حتى ولا نريدُ أن نظهِرَ أدنى توجع لأحوالهم ، لئلا يرمينا بعضُ متعصبي الإفرنج أو متعصبي النصارى على الإطلاق بتهمة التعصب الإسلامي ، الذي أول علاماته عندهم أن يحزنَ المسلمُ لمصائبِ المسلمين ، أو أن يستثقل الذلَّ للأجنبي ، فكلُّ مَنْ كان عنده مثل هذا الشعور من المسلمين دعوه متعصباً ، وجعلوه عرضةً لمطاعنهم وشتائمهم ، وأعطوه لقب مفرِّق .

والحقيقة أنَّه لا يوجد مسيحي في الدنيا شرقياً كان أو غربياً إلا وهو في نفسه يعلمُ أنّ جميعَ ما أحلّه النصارى بمسلمي البلقان هو مما لا تحتمله النفوس البشرية ، وأنّ كلَّ مسلم يسايرهم بعدم الانتصار للمنكوبين ، والتأثر من أخبارهم ، وبعدم الاحتجاج على ظالميهم بسيف أم بقلم ، فإنه في نظرهم ساقِطُ المروءة والفتوة ، معدودٌ من سفلة الهيئة الاجتماعية ، ولو تخيَّلَ نفسَه راقياً ولقبوه هم متمدناً .

ومما يؤسف نقله ، ويجرح في السمعة أثره ، ما بلغنا من كون بعضِ المهاجرين الذين ألقوا بأنفسهم في البواخر لا يلوون على شيء ، طالبين بلادَ الإسلام ، مرّوا بسواحل الشام وهم يتضوّرون جوعاً ، لعدم مِلْكهم ما يمسك

---

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة ، فها هم الصرب يفعلون بمسلمي البوسنة والهرسك وقوصوه (كوسوفو) ما فعله البلقانيون بمسلمي الروملي بل أفظع ، والعالم كله يسمع ويرى !!.

رمقهم ، فلما نزلوا إلى البر اعترضوا على نزولهم ، فانصرفوا وهم في البواخر عيالٌ على من هو مسافر فيها من الإفرنج ، الذين لم يتركوهم يموتون جوعاً .

انظر إلى هذا وإلى مثله من آثار هذه النزعة المؤلمة التي هي من أعظم علامات الانفكاك والسقوط ، وقابله بما فعله كبار المصريين وصغارهم مع مسلمي الروملي ، الذين ليسوا بأقربَ إلى مصر مما هم إلى الشام ، وما نقلوه من مهاجريهم ألوفاً مؤلفة من سلانيك ومن قَوَلة إلى أزمير ، وإلى مرسين ، وإلى الإسكندرية ، وما أمسكوه من أرماقهم ، وأنعشوه من حُشاشاتهم ، وجبروه من خواطرهم ، وكفكفوه بجميل الصنع من دموعهم ، وما نالوه بذلك من جمال الأحدوثة في الشرق والغرب ، وما كَسِبوه من عظيم الحرمة عند الوطني والأجنبي ، وعند ذلك تعلم ضرر تلك الفلسفة الكاذبة التي يدعيها بعضُ أدباء السوريين ، ويحبون أن يعملوا بها ، وأن يحملوا سائر وطنهم عليها .

كنا مرةً نحادث بعض أولئك المرضى في عقولهم ، فقلنا له : أفلا ترون قبول المهاجرين موافِقاً لمصلحة البلاد من حيثُ إنّه يزيدُ عدد الساكن ، ويضاعِفُ سواد العامل ؟

فأجابنا : كلا فإننا لا نحبُّ أن يكونَ بيننا غرباء ، ونريدُ أن تبقى البلادُ لأهلها .

فقلنا له : فما قولك بمهاجري المغاربة ، وهم عربٌ مثلنا ؟

فقال : تلكَ مسألة فيها نظر ، ثم خاف أن تقوى حجتي عليه من جهة مناقضة قوله لدعوى العربية والعرب ، فعاد قائلاً : أما هؤلاء فنقبلهم عندنا لدى الضرورة ؛ على أننا اضطررنا أن نصرّح له حينئذ بأنّ المهاجرين من أي قبيلٍ كانوا ، إذا وقع عليهم حيفٌ اضطرهم إلى الجلاء إلى بلاد الإسلام ليكونوا فيها آمنين على دينهم وعرضهم ومالهم ، فإنّهم يقدرون أن يقدموا علينا ، وأنّهم يجيئون منا أهلاً ، ويطأون من بلادنا سهلاً ، وأنّهم هم عندنا في بلادهم ، وليسوا بغرباء ، « والمسلمون تتكافأ دماؤهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم »[1] وأنّ البلاد هي للإمام أمير المؤمنين ، وأنّ ذلك

---

(١) فقرة من المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ عند مقدمه إلى المدينة المنورة ، وتعتبر =

سيكون كذلك رغم أنفِ ذلك المخاطَب وأنوف أمثاله ، ممن هم قائمون بهذه الفلسفات الجديدة ، التي هي مشتقةٌ كلُّها من فلسفة **إيطاء بلادنا للأجنبي** لا غير ، وإن كانت تظهَرُ لنا بأعراض مختلفة .

[ما بلغه كرههم للدولة ولكل من ناصرها]

على أنّ هذا وأمثاله كاذبون في قوله : إنّ مهاجري المغاربة عندهم مقبولون ، وأنّهم لا يثقلون على طباعهم ، فإنّ كلَّ مغربي يخرَجُ من بلاده ليوطِّنَ بلاد الشام ثقيلٌ عليهم إذا أصرَّ أن يكون عثمانياً ، حتى إنّ أربعمئة رجل من أهل شنقيط[1] من أطراف السنغال ، **وهم أشهر من اشتهر بين العرب بالنسب الصريح ، واللسان الفصيح** ، كانوا قَدِموا على طرابلس الغرب مجاهدين ، ثم بعد أن حضروا من حربها عدة مواطن ، جاؤوا لقضاءِ فريضة الحج ، وقفلوا من الحجاز إلى الشام ، وعوّلوا على الإقامة بها ، فلما رآهم بعضُ أولئك المتفلسفة ، أنكروا مجيئهم ، وقبّحوا هجرتهم .

وبلغنا أنّ رجلاً عالماً منهم يدعى بالسيد الأمين ، كان يعظُ في جامع بني أمية بدمشق ، ويحثُّ الناسَ على نُصْرَةِ الدولة العثمانية دولةِ الخلافةِ الوحيدة ، فتعرّضَ بذلك إلى حنق عدة أشخاص كانوا ينظرون إليه شزراً ، ثم شرعوا يسمعونه شتماً وهجراً ، وهو لم يقل شيئاً سوى الحثِّ على طاعة الدولة ، ذلك هو الحوب الكبير .

[موقف اللامركزيين من مسلمي الهند]

فأنت ترى أنّهم ليسوا بأعداء الأتراك فقط ، بل أعداء كل من نصر الدولة من مسلمي الآفاق ، حتى إنّهم كانوا يردون على مسلمي الهند تمسكهم بالدولة ، واهتمام المسلمين العثمانيين بأمر مسلمي الهند ، ومن جملةِ ما كتبتْ بعضُ جرائدهم المأجورة للأجانب : إنّه لو كان لمسلمي الهند قوة ، لكانوا قادرين

= هذه الوثيقة بمثابة أول دستور في الإسلام .

(١) في موريتانية .

على تحرير أنفسهم ، فلا ينبغي أن نقيمَ لهم وزناً ، فكان عجزُ مسلمي الهند عن تحريرِ أنفسهم ، أو بعبارة أخرى عن رفض سلطة الإنكليز سبباً عندهم في سقوطِ مسلمي الهند ، الذين هم من أعظم أركان هذه الأمة ، ومن أكبر بناةِ مجدها ، بجانب أولئك المخربين من أبنائها ، وهم الذين وقفوا المواقفَ الجليلة في عضدها ، آسوا الدولة بما يقارب مليون ليرة من الإعانات التي جمعوها ، ورفعوا أصواتهم بالاحتجاج على خذلان إنكلترة للدولة العثمانية أولّا وثانياً ، حتى اضطروا سياسة إنكلترة إلى التصريح لأوربة مراراً ، بأنّهم لا يقدرون أن يتجاوزوا هذا الحدَّ مع الدولة ، خشيةَ أن يؤسفوا[1] مسلمي الهند ، وآخر مرة نطق المستر أسكويت رئيس نظار إنكلترة بأنّ الحكومة الإنكليزية لا تقدِرُ أن تمالىء على تركية مكارمةً لأمةٍ كبيرة من تبعةِ إنكلترة ، لا يروقُ لها أنْ ترى الحرمين الشريفين في غير يد الدولة العثمانية .

فالمستر أسكويت والسير غراي وغيرُهما من أساطين السياسة الإنكليزية يعرفون تأثير الميل الإسلامي فيهم ، وترجيحه في ميزان سياستهم ، وهناك صبية من المتسلقين على جدران الصحافة في سورية ينكِرون تأثيرَ إسلام الهند ، ويهزأونَ بالاعتماد على هذا الأمر ، ويظنّون في أنفسهم أنّهم عالمون بحقائق الأمور .

[الجامعة الإسلامية]

ونظير ذلك إنكار بعض متفلسفة المسلمين للجامعة الإسلامية تزلّفاً للأجانب ، وظناً بأنّ ذلك يكسِبُهم سمعة « راق » و « متمدن » و « غير متعصب » عند المسيحيين ، حال كون أوربة نفسها تعلم الجامعة الإسلامية حق العلم ، وحال كون إنكلترة استنجدت أثناء ثورة الهند الكبرى بالسلطان عبد المجيد العثماني رحمه الله ، لاستعمال نفوذه على مسلمي الهند في جلبهم إلى السكون ، وتفريقهم عن الهندوس ، فكان للسلطان عبد المجيد من اليد العاملة في تبريد الهند لإنكلترة ما لا تقدر إنكلترة يوماً أن تجحده .

---

(١) يغضبوا .

وكذلك في ثورة البوكسر بالصين ، لما علمت أوربة أنّ للإسلام فيها اليد الطولى ، هناك رغبت إلى السلطان السابق عبد الحميد في إنفاذ وفدٍ خاص يخاطِبُ مسلمي الصين باسم الخلافة الإسلامية أن يخلدوا إلى السكون ، ويكفّوا عن الثورة ، فذهب وفد خاص من دار السعادة إلى بكين ، وطاف في هاتيك الأرجاء ، وأبلغ المسلمين إرادةَ السلطان ، ونجع كلامُه فيهم ، وليس بين العثمانيين وبين أهلِ الصين أدنى رابطة سوى أنّ منهم أمة عظيمة مسلمة ، وأنّ السلطان العثماني هو خليفة الإسلام الحاضر ، فهم مرتبطون معهم من جهة الإمامة الدينية .

فإذا كانت أوربة المسيحية المتمدنة الراقية تعرِفُ حقَّ الجامعة الإسلامية ، ولا تنكِرُ فائدتها عند مسيس الحاجة ، فما بالُ بعضِ الشرقيين كلّما تلفظ خاطِبٌ أو كاتِبٌ بالجامعة الإسلامية شددوا عليه النكير ، ورموه بالتعصب ، واتهموه بالتفريق ، وقذفوه بكل شنيعة ، أفذكر ذلك الذاكر الجامعة الإسلامية بمعنى أنه تجب ثورة المسلمين عليهم ، كلا ، فلا يوجد عاقل ولا أديب ولا كيّسٌ يذهب هذا المذهب ، أو يرضى بالنفرة بين المسلمين والنصارى ، فضلاً عن أن يهيج هذا التهييج .

ولكن إذا وجد المسلم العثماني دولةً مضطرة إلى معاونة العالم الإسلامي بعد تكالب الكثير من دول أوربة عليها ، ونادى المسلمين بل وسائر الشرقيين بأن ينضمّوا حولَ حوض الدولة العثمانية ، ويذبّوا عنها ، وينضحوا عن استقلالها ، لتبقى لهم بقية ، فأيُّ تعصبٍ ، وأي تفريقٍ يؤخَذُ من هذا القول ، وأي منصفٍ يسلّم بأنّ من يدعو إخوانه لمعاضدته في مواقف حياته ، ومواطن المناضلة عن خيط رقبته يعدُّ متعصباً ومفرقاً ؟ وأنّ المعترض عليه والطاعن فيه مما يضيق صدره من دعوته لا يكون هو المتعصب الحقيقي والمفرِّقُ والمفسِدُ ، والذي يريدُ أن يرى بعينه دعائم الدولة العثمانية منهارةً من كل جهة ، ولا يجدلها من الأنس ولا الجن داعماً ولا ممسكاً ، فهو يجودُ على كلِّ من خذلها من أبنائها بلقب « متنور » و« متمدن » و« متهذب » وما أشبه ذلك ، ويرمي مَنْ قام يناضِلُ عنها المعتدين عليها ، ومن يَدْعون الغافلين إلى التماسك ببقية مجدهم ،

والاحتفاظ بثمالة استقلالهم بكلمات « متعصب » و« مفسد » و « مفرّق » وهلم جرّا .

[تمسك أوربة بالنصرانية]

وكنا نحب من بعض أبناء وطننا ممن لا يفتأون يعزون إلينا وإلى إخواننا التعصب والتفريق بين العناصر ، بمجرد ذكر الإسلام والمسلمين والخلافة والدين ، أنْ يتكلموا مع أبناء دينهم من الفرنج - الراقين العالمين المهذبين المتمدنين ، غير المفرقين ، ولا المميزين بين أصناف العالمين - في إلغاء الدعوة الدينية ، والتجانف عن إدامة تذكارِ النصرانية ، وأن لا يُظْهِرَ رجالُ إنكلترة شدةَ استمساكهم بالنصرانية ، ولا تعلنَ فرنسة حمايتها دائماً لنصارى الشرق ، الذين لا جامعةَ بينهم وبينها سوى الدين ، وأن لا تعلنَ دولُ البلقان علينا حرب الصليب قولاً وفعلاً ، وأن لا يقول ملكُ رومانية ، وهو أكثرُهم اعتدالاً : إنّه لم يقدر أن يقاوم بلغارية في أول الحرب مع تركية ، إذ كان ذلك مخالِفاً لواجباته تجاهَ النصرانية ، وأن تخفِّفَ روسية من غلوائها شيئاً في إعلانها علينا الحرب باسم الصليب ، وفي سفك دماء البشر باسم من يقول أتباعه : إنّه قد سَفكَ دمه في خلاص البشر ، وهو رسول السلام ، وداعية الإخاء العام ، كما لا يخفى ، بحيث قال شوقي شاعرُ الوقت :

يا حاملَ الآلامِ عَنْ هذا الوَرَىٰ   كَثُـرَتْ علينـا بـاسْمِـكَ الآلامُ

فمتى قاموا بهذا العمل ، وأثبتوا أنّهم لا يفرّقون بين المسلم والمسيحي ، وأنّ البشرَ عندهم سواء ، وأنّهم مقتدون فعلاً بهدي السيد المسيح صلوات الله عليه ، الذي لا شكَّ أنه غيرُ راضٍ عن شيءٍ مما فعله البلقانيون باسمه مع مسلمي الروملي ، ولا يزالون يفعلونه ، فعند ذلك يتوفّر لهم حق التكلم بكوننا متعصبين ومفرّقين وداعين إلى الشقاق .

فأما وأوربة المتمدنة ، التي هي قدوتنا الآن في كلِّ عمل ، لا تزالُ رافعةً لواء الدين ، ومتسمةً بسمة التفريق ، فكيف يسوغ لنا أن نسبقَ أوربة في المدنية والمساواة ، وهي قدوتُنا فيهما - لا جرمَ أنّ كلامنا في أمرِ الإسلام ليس فيه شيءٌ

من الغرابة ، ولا من التهوُّرِ ، بل هو من قبيل الاقتداء بالمتمدنين ، والنسج على منوال الأوربيين ، ولعمري إنهم يعلمون ذلك حقَّ العلم ، ولا يخفى عليهم وجهُ الحق ، ولو ثقل عليهم .

ولهذا **نجدُ الطعنَ بنا** ، والتحامل علينا ، وما نراه في بعض الصحف السورية المطبوعة في سورية ومصر وأميركة من الشتائم الموجهة إلينا ، والمغامز والمطاعن بحقنا ، من أجل هذا الموضوع ـ **هو التعصب بعينه** ، والظلم بحذافيره ، ولا نحمل ذلك من هذه الشرذمة إلا على أمرٍ واحد ، وهو أنهم أصبحوا يرجون انهدام بنية الإسلام بتمامها ، وقد لاحتْ لهم بوارق هذا الأمل من خلال غيوم الحوادث الأخيرة ، فهم يخشَوْن بالكلام في ذلك أن يثوب المسلمون من غفلتهم هذه قبل القضاء الأخير على ملكهم ، فتراهم ضائقةً صدورُهم بأيِّ قولٍ رمَى إلى تنبيه المسلمين من غفلتهم ، وإيقاظهم من رقدتهم ، متأججة صدورهم تلك حقداً وإحنةً على كل من جسر أنْ يدعو إلى هذا الانتباه ، ولو لم يكن فيه أدنى مسٍّ بحقوق النصرانية ، ولا أقلُّ إشارةٍ إلى تنفير المسلمين من المسيحيين .

فكأنّه **يجوزُ** عندهم لأعداء الدولة العلية الإسلامية الوحيدة أن يستبيحوا أعراضَ المسلمين ، ودماءَ المسلمين ، وأملاكَ المسلمين ، ويتكالبوا على الدولة مثنى وثلاث ورباع ، شاهرين على الإسلام سيوفَ الاستئصال ، وتقف لهم بعضُ الدول العظام مواقف العضد والمحاماة ، وتقاتل الإسلام بجنودٍ من الضغط والتضييق ، لا يقلُّ بأسُها عن جنود الحرب والنزال ، **ولا يجوزُ** لمسلمٍ يجول دمُ الآباء في عروقه يصرخ لمصائب قومه ، ولا أن يئنَّ من الألم لنكباتِ إخوانه ، وإذا تألّم بحركة غير اختيارية لما يلقاه قومه من هذه المظالم والفواحش ، التي بخلَ بمثلها تاريخُ القرونِ الوسطى ـ قام بعضُ أبناءِ وطنهِ يرمونه بكلِّ عضيهة ، ويهيّجونَ عليه الأحقادَ والضغائن ، ولقّبوه بالمتعصب ، ونعتوه بالمارق ، وذهبوا إلى الأجانب يقولون لهم : **أفما ترونَ الخطر الواقع عليكم من مقالات فلانٍ وفلانٍ ، أفلا تقرأون ما يكتبُ بحقكم ، أفلا تنظرونَ إلى تهييج بعض كتّاب المسلمين لحفائِظِ المسلمين ، أفلا تشعرون بحركة الجامعة**

الإسلامية . . إلى غير ذلك من الأقوال ، مع أنّه ليسَ ثمة سوى أنينٌ من الألم ، وصراخٌ من الظلم، واستطارةٌ من الذبح ، واستغاثةٌ برجال الإنسانية الصحيحة ، ودعوةٌ إلى التزام جادة العدل والإنصاف ، فإنْ كان أهلُ المدنية يطمعون أن يمنعوا الإسلام مجرَّدَ الأنين والحنين ، ويذكّرونا بقول القائل :

أغارُ إذا آنستُ في الحيِّ أنةً حذاراً عليه أن تكون لِحِبِّهِ

فلقد حجّروا واسعاً ، وحاولوا مرتقًى صعباً ، وأوجدوا هم الاتحاد الإسلامي من العدم ، ووضعوا حجر زاويته بأيديهم ، فإنّ الاتحاد الإسلامي إلى يومنا هذا لم يقع في التصور ، ولا كان الأمنُ قبيل الغول والعنقاء اسماً بلا مسمى يخيله للأوربيين الرعب ، وتمثله في أذهانهم شدَّةُ الحرص ، ويلوِّح بشبحه فرطُ الغَيرة ، والغلو في الأثرة .

أما إذا بقيتْ أوربة تعامل الإسلام بقاعدة عدم المساواة ، وبقي بعضُ النصارى من أبناء وطننا ينفثون من مكنونات الصدور ما ينفثون ، غير مراعين وجهَ العدل والانصاف ، ولا مقدرين قدر آلام أبناء وطنهم من المسلمين ، ولا متبصّرين في كون أمةٍ هي ثلاثمئة مليون لا يمكنها أن تموتَ ، فإنّ اتحاد الإسلام ينتقِلُ حينئذٍ من الخيال إلى القول ، ومن القوة[1] إلى الفعل ، ولا يمكن أن تقوى أوربة على إطفاء نوره ، وسدِّ فجاجه ، بل هو يجدُ كثيراً من عناصر أوربة مؤيداً وناصراً ، لأنّ في باطن أوربة فِرَقاً كثيرة نامية ، أخصُّها **الاشتراكية** ، قد ملّتْ اعتداءَ الأوربيين على المسلمين ، وتجاوزها الحقوق العمومية المتفق عليها بين الدول ، وعلمتْ أن شدةَ الضغط تورِثُ الانفجار ،فهي تحمِلُ على حكومات أوربة حملاتٍ شداداً ، تزدادُ وطأتها مع الأيام .

كما أننا قد وجدنا في الأيام الأخيرة تضامناً عاماً ، بدتْ تباشيرُه بينَ جميعِ الشرقيين .

فاليابانيون أبعدُ الأمم عنا مكاناً ، يحنّون إلى سائر أهلِ الشرق ، ويودّون لو تفوزُ الدولةُ العثمانيةُ على كل من ناوأها من الفرنجة والصقالبة .

---

(١) الإمكان .

والصينيون يصرّحون بأنهم من أصلٍ واحدٍ هم والأتراك ، كما أنّ الهندوس في الهند قد أصبحوا يميلون كل الميل إلى مواطنيهم المسلمين ، بل إلى الدولة العثمانية ، التي لا يربطها بهم رابط سياسي ولا ديني ، وكلا الفريقين كان مبتهجاً بانتصار اليابان على روسية .

فأنت ترى أنّه لا يمكِنُ ابتلاع أهل آسية وأهل أفريقية جميعاً ، مهما بلغ من ضعفهما في العصر الحاضر ، وأنّه ليس أمام دول أوربة لاتقاء خطر الاتحاد الإسلامي أو الخطر المسمى عندهم بالخطر الأصفر سوى الانصاف في معاملة المسلمين ، والتوقف عن قهر الدولة العثمانية ، وإعناتها ، والغارة على أملاكها .

وإننا لسنا نعجبُ من كتابات بعض أفرادٍ من نصارى المشرق في نسبةِ التعصُّبِ إلى مَنْ لا يريدُ سوى دفع الظلم عن قومه ما نعجبه من بعض أفرادٍ من حزب اللامركزية ، يقولون : إنّهم مسلمون ، وكلّما رأوا واحداً من أبناء هذه الملة استصرخَ هذه الملة ، لإغاثة المستضعفين من أبنائها ، الواقعين في تلك المصائب المحرقة للأكباد ، المؤثرة في الصم الصلاد ، قاموا عليه يسلقونه بألسنةٍ حداد ، ويقولون له : كفاكَ أيُّها المفرِّق تفريقاً ، أفلا علمتَ أننا نحنُ تركنا النسبةَ الدينية ، أفلا عرفتَ أنا لا نريدُ أن نتخذَ غيرَ الجنسية ديناً ، أفلا وقفتَ عن ذكر الإسلام والمسلمين الخ حتى إنه روى لنا شاعرٌ من تونس زار المدينةَ المنورة ، فنظم فيها قصيدةً في الحضرة النبوية ، ومعاني الزيارة ، وأتى بها على ذكر الإسلام والمسلمين ، بما لا يخرجُ عن الحثِّ على الانتباه ، وتذكُّرِ الأيام السالفة ، فعرضها على جريدةٍ في دمشق ، أصحابُها من المسلمين ، لأجلِ نشرها ، فقالوا له : إننا ننشرها لك ، بشرطِ أن تحذفَ منها ذكرَ الإسلام ، والشاعرُ إلى الآن حيٌّ يرزَقُ ، وهو من أفاضل الناس وثقاتهم ، ومقيم في دمشق نفسها .

على أنّهم إذا كانوا حقاً لايقولون إلا بدعوةٍ جنسية ، ولا تهمهم الجامعة الإسلامية ، بل الجامعة العربية فقط ، فما بالهم يتمنون لو دخل جميعُ العربِ تحت سلطةِ الأجانب ، ما بال آحادٍ منهم هنَّأوا مراكش الدولة العربية الوحيدة

بدخولها تحت حكم فرنسة ؟ ما بال بعضِهم لا يزالون يُسْفِرون بين إيطالية وبين عرب بني غازي في أمرِ إطاعة العرب لإيطالية ؟ ما بال جريدةِ « الأهرام » اللامركزية هي لسانُ حال إيطالية ، حتى إنّ منهم من لم يكفه ما يبثّه من السموم في عرب سورية ، وما يزينه لهم من الحكم الأجنبي ، حتى صار يقصدُ إيطالية من الشام ، لأجلِ أن يتبرّعَ بخدمة الطليان في استمالة عرب طرابلس إليها ؟ ما بال حمية هؤلاء على الجنسية العربية لا تظهَرُ إلا عندما يكون العرب بإزاء الترك وحدَهم ، فإذا صاروا بإزاء أمةٍ أوربيةٍ ارتفعت حينئذٍ الفروق ، وهوتْ جميعُ أفئدةِ اللامركزيين إلى أعلاقهم حيال تلك الأمة الأوربية ، وإدخالهم في طاعتها ، وهنّأوهم على نعمة استيلائها عليهم ، وسعادة انقيادهم إليها ؟ فإنّ التركَ مهما بعدوا عن العرب ، فليسوا بأبعدَ عنهم من الأوربيين ، ولا أشدَّ خطراً منهم .

وهناك عذرٌ جديدٌ في فلسفة اللامركزيين ، يكاد يقيءُ الإنسان لسماعه ، ولا يصدِّقُ صدورَه عن قوم زعموا أنّهم مطلعون على أحوالِ عصرهم ومصرهم ، وهو أنهم أبداً يقولون : إننا نحن عارفون بكل ما يجري على الإسلام من التحامل ، غير جاهلين شيئاً مما تحاوله النصرانية في شأن الإسلام ، لكننا لو جئنا ندافِعُ عن الإسلام من جهة الرابطة الدينية ، لأهاجَ ذلك علينا تعصب المسيحيين ، فأضروا بنا ، وتألبوا علينا ، وأجلبوا ، وجلبوا الويل والدمار ، وجروا إلينا الاحتلال الأجنبي ، وهو مبدأ الهوان والصغار ، فنحن نخاتلهم مخاتلةَ من يعلم حقيقة مقاصدهم ، ونتزيّا لهم بغيرِ زينا الحقيقي ، وندعوهم إلى الاجتماع معنا بالاجتماع بالجامعة العربية ، والنسب القحطاني ، مداهنةً منا ومصانعةً ، ونجودُ عليهم بحق المناصفة معنا في أعضاء عدد المجلس العمومي خداعاً لهم عن جرِّ الاحتلال الأجنبي ، ومراودةً لهم عن إثارة فتنةٍ في بر الشام ، يكون ضررُها أعظم من ضرر التساهل ببعض الحقوق ، فإنهم على هذا الشرط يقرون ويستكنون ، ويتركون النزوع إلى أوربة ، وبدونه لا نأمن من كيدهم ، وإنما نحنُ رقباء عليهم ، لئلا ينفردوا بالعمل ، إلى غير ذلك من الأقوال التي طالما كرّروها ، وزادوا عليها ما لا يَحْسُنُ إيراده بحق المسيحيين أبناء الوطن ، الذين يلقونهم بمظاهر الاخاء ، ويرمونهم في غيابهم بما لا يرمى به غير الأعداء.

والجواب على كلِّ ذلك هو هذا . إنّ هذه الفلسفة إما أن تكونَ صادقةً ، أو كاذبةً ، وأنّ هذه الحركة إمّا أن تكونَ مناصحةً أو مداجاةً ، فإنْ كانتْ هذه الحركة صحيحةً على ظاهرِها ، فإنّ جمهور المسلمين لا يقبلونها أصلاً ، ولا يرضون أن يعطوا النصارى نصفَ المجلس العمومي عندما لا يكون لهم إلا حقُّ الخمس أو السدس ، وهم يعلمون أنّ أول ضمانةٍ لبقاءِ الأمن والنظام ، وحسن المعاشرةِ في البلاد ، هو المساواةُ التامةُ بين الطائفتين في الحقوق ، وإخراجِ الانتخابات على نسبة العدد ، كما أنّ العقلاء من النصارى لا يطمعون في أكثر من حقوقهم الثابتة .

وإن كانت تلك الحركة رياءً وخدعةً ، فإنّ المسيحيين في بلادنا هم أجلُّ وأعقلُ من أن ينخدعوا بهذه الخزعبلات ، وفيهم رجالٌ بلغوا مبالغ جماعة اللامركزيين في العلم والسياسة ، فلن تخفى عليهم هذه الصنعة ، ولن يجرَّهم هؤلاء إلى ما يعلمونه مخالفاً لمصالحهم .

وإن كانَ يوجدُ في أبناء وطننا من المسيحيين من يصبَون فعلاً إلى دخول دولةٍ أجنبيةٍ ، فلن يتوقّف عن ذلك برشوة المسلم له بحقه في المجلس العمومي ، بل هناك من لو أعطيتَه المجلس العموميَّ كلَّه ما راقَ له إلا مشاهدة البرنيطة حاكمة في سورية .

كما أنّ منهم مَنْ هو خيرٌ من كثير من المسلمين في حب الوطن ، وكراهية التسلط الأجنبي ، ومن يرضى من المسلمين بالعدل والمساواة ، ولا يهمه الاشتراك في النسب القحطاني حتّى يَصْدُقَ في وطنيته ، وحتى يتمنّى أن تبقى البلادُ لأهلها[1] .

وسواء كان الشق الأول أو الثاني ، فالأطفال الصغار يعلمون أنّ أوربة لا يوقفها عن احتلال بلادنا اتفاق النصراني مع المسلم ، ولا إعطاء النصراني أزيدَ من حقه ، بل مسألةُ احتلال إحدى دول للشام هي غيرُ متعلقةٍ بأهل سورية ،

---

(١) من هؤلاء الوطني الغيور طيب الذكر فارس الخوري ، انظر في سيرته « فارس الخوري وأيام لا تنسى » للأستاذ محمد الفرحاني .

فإنْ قرّ قرارٌ دولي على ذلك ، فإنّ تلك الدولة تتقدم بدون انتظار أهلِ سورية ، وتفعل ولو كان النصارى أسبق من المسلمين إلى مقاومتها وحملِ السلاح في وجهها ، وإن لم تكن السياسة الدولية العامة تسمح بالتعرض لسورية ، فإنّ تلك الدولة تلزم احترامَ سورية ، ولو لم يأخذ النصارى نصف المجلس العمومي ، حتى ولو لم يعدّهم المسلمون من بني قحطان ، بل عدوهم من سلائل السريان والفينيقيين ، أفكان في طرابلس الغرب نصارى عندما هاجمتها إيطالية ؟ أم كان اعتداؤها على تلك الولاية بعد أنْ سمحت لها أوربة بهذه الغارة ، إتماماً لمعاهداتٍ سابقاتٍ بين الدول ؟ .

كلّما ذَكَرَ لهم ذاكرٌ هذه الحقائق قالوا له : قد عرفنا من أسرار سياسة أوربة في أمرِ سورية ما لم يعرفه بابُك العالي نفسُه ، ويا ليت شعري ، ما هي تلك الأسرار ؟ وماذا عرف هؤلاء مما يعجزُ عن معرفته أمثال جاويد وطلعت وغيرهما من دهاة الدنيا ، وممن لا تخفى عليهم خافية من حركات أوربة ؟

ومهما كان هناك من الأسرار ، فلا تخرج عن قضية اتفاق أوربة علينا وعدمه ، فإن تيسّرَ بين الدول هذا الاتفاق ، ولم تخشَ من حربٍ عموميةٍ تَشِبُّ من وراءِ تصفية هذه التركة العظيمة عاجلاً أم آجلاً ، فإنّ سورية تصيرُ إلى ما صار إليه غيرُها ، ولا يدفعُ هذا الخَطْبَ عنّا صِدْقُ إسكندر عمون معنا ولا [شبلي] الشميل ، مهما كانا صادقين ، حتى ولا جميع إخوانِنا نصارى الشام ، مهما صدقوا معنا ، وإلا وهو الأقرب . . . (١)

فإنْ كانت لقمة سورية صعبةَ المساغ يخشى منها على السلم العام ، لئلا تكونَ مبدأً لحربٍ طاحنةٍ ، فلا خوفَ على سورية من غارةٍ أجنبية ، ولا حاجةَ في رقينا وصيانةِ ذمارنا إلى غيرِ نشر العلم ، وإفاضة العدل ، ومعاملة المسلم للنصراني كما يعامل نفسه ، وهذا وحدَه كافٍ في النصح ، وبالغ حدَّ المصلحة ، فأما ذلك الخداع البارد فلا معنى له .

ومن المضحك أنّه كما ادّعى هؤلاء المسلمون خداعَ النصارى ، فقد كان

---

(١) كذا في الأصل .

بعضُ النصارى يصرِّحون أنّهم هم أيضاً إنما يخادعون المسلمين ، لأجلِ أن يُحْدِثوا حدثاً بين العرب والترك ، ويخلصوا من الفريقين معاً .

ولا نعلم أيَّ هاتين الشرذمتين كانا أحكمَ صنعةً من الأخرى ، لكننا نعلمُ أنّ كلاً من الطائفتين الإسلامية والنصرانية هي أجلُّ من أن تختارَ هذه السياسة العوجاء ، **وأنّ مسلمي سورية ونصاراها هم أبناءُ وطن واحد** ، هو لهم جميعاً في الواقع ، لا يعمر إلا بالعدل والمساواة ، ولا يوقى خطر الشقاء والهبوط إلا بتعزيز الدولة الشرعية دول آل عثمان ، وبتجنب الحركات المضرة ، والفرفرات الأليمة ، والفتن المؤدية إلى سفك الدماء ، وخراب البيوت ، ومن كان يخاطبُ أبناء وطنه بغير ما في ضميره ، فإنّه جديرٌ بأن يسقط من نظرهم ، ويُتَّهمُ في صدق نيته .

على أنّه لا ينكر أصلاً أنّ بعضَ جرائدِ إخواننا المسيحيين سواءً في أمريكة أو في مصر أو في نفس سورية قد صارت تصرِّحُ في كتاباتها بأمورٍ لم يتعود إلى اليوم مسلمو سورية أن يسمعوها من مسيحي ، وبعد أنْ كانت تقتصِرُ في حملاتها على الدولة وحدَها ، ويشارِكُها في ذلك أولئك النفر من المسلمين أنفسِهم ، كادت تحمِلُ على الإسلام بأجمعه ، ورأى أولئك الأغرارُ من المسلمين أنّهم بما فعلوه بحقِّ دولتهم وخلافتهم لم يجرِّأوا الناس على الدولة والخلافة فقط بل جرَّأوهم على الإسلام كلِّه ، وعلى أنفسِهم ، وأصبحوا معهم في موقعٍ ضنك ، لأنّهم إن عادوا عليهم بالمعاتبة أو اللوم قائلين لهم : حقاً قد تجاوزتم الحدَّ في إهانة دولتنا ، وإننا لسنا نجاريكم في ذلك على تلك الغاية ، عرف المتهورون من النصارى أنْ يجاوبوهم : إننا لسنا آلةً في أيديكم تصرفونها كيف تشاؤون ، فمتى غضبتم على دولتكم دعوتمونا أن نغضبَ معكم ، ونحملَ عليها وإياكم ، ومتى قضيتم بعض وطركم من الدولة ، ورأيتم المصلحةَ في السكوتِ جئتم تطالبوننا بما تقضي به مصلحتكم ، فإننا نحنُ معاشر النصارى لنا مصالح أيضاً لا بدّ لنا من مراعاتها .

وكذلك الحمل على الإسلام بأسره والغمز في كلِّ ما يتعلق بالأمة الإسلامية لا حقَّ لهؤلاء النفر من مسلمي المؤتمر الباريزي أن يغضبوا منه ، أو يجدوا شيئاً

من ورائه ، ومن خرقِ ستار حرمته بيده ، فهو جديرٌ بأن لا يستر عليه غيره .

وكذلك متى كان نفرٌ من مسلمي بيروت ومن نصاراها ممن لا يكادُ الواحد منهم يعرف البطنَ الذي فوق جده ينتحلون النسب القحطاني ، ويعقدونَ جمعية عربية بزعمهم مبدأوها تقديمُ العربية على الإسلام .

وإذا قيل للمسلمين منهم : لماذا آثرتم قحطان على عدنان ، وكلاهما جدُّ القبيلين الكبيرين من العرب ؟

أجابوك : أننا لا نريدُ الانتساب إلى عدنان ، لكونه جد قريش التي منها النبي ﷺ ، وأنّ قحطانَ هو الجدُّ الجامعُ بيننا وبين النصارى ، اجتهاداً من هؤلاء العلماء بالتاريخ ، بأنّ النصارى الذين في برِّ الشام هم من ذريةِ قحطان ، وذلك لكون غسّانَ من عرب اليمن ، وأنّ غساناً كانوا في حوران ، ولبثوا نصارى إلى ما بعد الإسلام ، ونسلوا كلَّ هذه الأمم ، فلا يبقى بعدَ هذا حقٌّ لأحدٍ من هؤلاء المسلمين أن يطالِبَ أحداً من النصارى باحترام الدين الإسلامي ، لأنّهم هم الذين فتحوا بابَ الجرأة على ما كان إلى اليوم محترماً مهاباً ، ولا عجبَ أنْ صارت تُرمى الأوراقُ المتضمِنةُ الطعنَ في الدين الاسلامي في أسواقِ بيروت ، بعد أن كانتْ من قبلُ تطرَحُ في شوارع مصر فقط ، فإنّ صدور الأمور مؤذنات بأعجازِها ، ولم ينقدح في خاطر عاقلٍ عارضٌ من شكٍّ بأنّه منذ جار هؤلاء النفر المسلمونُ على دولتهم أثناء الحرب ، وشرعوا في عقد الاجتماعات في باريز ، واجتهدوا في إيجاد شيءِ يسمونه المسألة العربية ، وحاولوا أن يستعينوا على دولتهم بدول أوربة ، ويدخلونها بين الدولة وأهالي سورية في قضيةٍ داخليةٍ صِرْفةٍ ـ أنّه لا بدَّ أن تنتهي المسألة بتطاول الأجانب ليس على الدولة العثمانية فقط ، بل على الدين الإسلامي نفسه ، فإنّ الدولة العثمانية والدين الاسلامي هما أمران متلازمان ، لا يمكِنُ احترامُ الواحِد منهما بدون احترام الآخر ، ولا إهانة الواحد دون إهانة الآخر ، وما كانتْ تلك الحركة العربية نزعةً قحطانيةً ، بل نزعةً شيطانيةً جاءت بجميع ما يتصوره العقل من المبادىء المباينة للدين وللمصلحة .

فقد روى أناسٌ ثقاتٌ عن بعض أولئك القحطانيين أنّهم كانوا يعلنون ترجيحَ

العربيةِ على الإسلام ، ولو خالفَ ذلك الشرعَ ، الآمر بنبذ العصبيات ، وعدم التفضيل إلا بالتقوى .

وقد قيل مرة لمن يلوثُ العمامة منهم : ماذا تقولُ إذاً في التركي المسلم والعربي المسيحي ؟

فقال : إنني لا أعتقد بإسلام رجلٍ غير عربي ، وعندَ ذلك أمسكَ السائلُ عن محاورته ، لما وجده عليه من السقوط عن مواقع الحوار بعدَ هذا الكلام ، وهذا كلُّه من مآثرِ الحركة اللامركزية ، التي قام بها أولئك الذين يدّعون الإصلاح ، والذين نصبوا أنفسهم لإفادتهم المسلمين في جرائدهم ومجلاتهم .

ومن الغريب أنّ رجلاً يجاهر في القول بأنّه لا يعتقِدُ بإسلام غير العربي ، ورجلاً آخر يشهد عليه بعضُ أصحابه ، ومَنْ هم الآن من حزبه ، أنّه قال : إنّ كتاب بانتام الإنكليزي في « أصول الشرائع » أفضلُ من القرآن ـ لا يكثرُ عليهما أن يكفِّرا المسلمين ، ويخرجا من الإسلام مَنْ يريدان ، ويُدْخِلا فيه من يريدان ، ومثلُهما خلق كثير ، نجدهم مارقين من الدين مروقَ السهم من الرمية ، مجاهرين في تخطئةِ المبادىءِ الإسلامية علناً ، غير راجعين إلى نصابِ صدقٍ في الإسلام ، لا في أصلٍ ولا في فصلٍ ، ومع ذلك يحكمون بالإسلام لزيد ، وينفونه عن عمرو ، ويسيرون فيه مسير مَنْ يظنُّ الإسلام مِلْكاً لهم يتملك ، أو حاجة يضعها الإنسان في جيبه ، فيمنعها من شاء ، وما يعلمون أنّ الإسلام لم يكن مِلْكاً لأحدٍ ، وأنْ ليس لمسلمٍ أنْ يُنْكِرَ إسلامَ أحد يقول الشهادتين ، ويقيم حدود الله ، وأنّ البابا نفسه ، وهو المسلط على النصرانية الكاثوليكية ، وأصحابهُ يعتقدون فيه العصمة في الأمور الدينية ، لم يكن له أن يطردَ أحداً من الدين الكاثوليكي ما دام متمسكاً به ، فكيفَ جاز لمن يجاهِرُ بمخالفة أحكامِ دينهِ من المسلمين أن يتصرَّفَ في الإسلامِ بالترجيح والتجريح ، ويتعاورَ المسلمين هذا بالإدخال وذاك بالإخراج ، وهو أولى بأن يكونَ الخارجَ والمارقَ ، وأجدرُ بأن يُنسب إليه الكفر والنفاق ، وعدم إقامة حدود الله .

ولولا ميلنا إلى طيِّ كثيرٍ من الفضائح على غرها ، لذكرنا كيف أنّ كثيرين ممن يدّعون القطع والوصل في الإسلام ، رضوا أن يجعلوا أولادهم في مدارس

النصارى ، وأن يشهدوهم صلاةَ المسيحيين ، ولما وضعتْ بعضُ المدارس الأجنبية في بيروت قاعدةً ، وهي سؤال كلِّ طالبِ داخلٍ فيها كلَّ صباحٍ هل أنت مسيحي ، وإلزامُه الجوابَ : بنعمة الله مسيحي ، وُجِدَ من هؤلاءِ من رضي بأنْ يجاوِبَ ولدُه هذا الجواب ، واعتذرَ بأنّه لا يقدِرُ أن يخرِجَ ولده من المدرسة لهذا السبب ، حرصاً على تعليمه ، مع أنّه لا يوجد نصراني واحد حتى من رعاع الناس ، مهما بلغ به الحرصُ على تعليم ولده يرضى أن يضعه في مدرسةٍ إسلاميةٍ على شرط أن يصلّي صلاةَ المسلمين ، ويجاوبَ عن نفسِه أنّه بنعمةِ اللهِ مسلم حال كونه مسيحياً .

فهذه حالةُ كثيرٍ ممن اتخذوا الإصلاح شعاراً ، وزعموا أنّهم رفعوا للعربية مناراً ، وما رفعوا من العِربية سوى منار الاستخفاف بالدين ، ولا استشعروا من الإصلاح سوى الاعتقاد بكون الدين الإسلامي هو الحائل دون الرقي ، وإنْ كانوا لا يصرِّحون بهذا القول خوفاً من التعرض لغضب العامة ، فإنّهم يحومون حوله ، ويشيرون إليه من طرفٍ خفي .

[لا عز للعرب إلا بالإسلام]

وتجدُ الواحدَ منهم يؤلِّفُ كتاباً بكون العرب لا ينهضون إلا باتخاذ العربية ديناً وديدناً ، والحالُ أنّه عندما لم يكن للعرب دين وديدن سوى العربية ، لم يكن عندهم من النهوض سوى الذل للأعاجم ، والخضوع للروم من جهة الشام ، والفرس من جهة العراق ، والحبشة من جهة اليمن ، يسومونهم سوءَ العذاب ، ويقتلون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، ولم يعرفوا من المناقب السامية سوى وأد البنات ، والبغاء ، والاشتراك في إتيان المرأة الواحدة ، إلا من رحم ربك ، والصفير حولَ البيت الحرام بحجة العبادة ، واتخاذ الأصنام من العجوةِ ، والسجود لها ، ثم أكلها عند المجاعة . هذه كانت حالة العرب قبل الإسلام .

فلما جاء الإسلام أقطعهم صاحبه ﷺ المشرقَ والمغربَ ، وصيَّرهم سادةَ الأرضِ ، ونقلَهم من الجاهلية الجهلاء إلى الحنيفية البيضاء ، التي دلّتْ على

النصارى ، وأن يشهدوهم صلاةَ المسيحيين ، ولما وضعتْ بعضُ المدارس الأجنبية في بيروت قاعدةً ، وهي سؤال كلِّ طالبٍ داخلٍ فيها كلَّ صباحٍ هل أنت مسيحي ، وإلزامُه الجوابَ : بنعمة الله مسيحي ، وُجِدَ من هؤلاءِ من رضي بأنْ يجاوِبَ ولدُه هذا الجواب ، واعتذرَ بأنّه لا يقدِرُ أن يخرِجَ ولده من المدرسة لهذا السبب ، حرصاً على تعليمه ، مع أنّه لا يوجد نصراني واحد حتى من رعاع الناس ، مهما بلغ به الحرصُ على تعليم ولده يرضى أن يضعه في مدرسةٍ إسلاميةٍ على شرط أن يصلّي صلاةَ المسلمين ، ويجاوبَ عن نفسِه أنّه بنعمةِ اللهِ مسلم حال كونه مسيحياً .

فهذه حالةُ كثيرٍ ممن اتخذوا الإصلاح شعاراً ، وزعموا أنّهم رفعوا للعربية مناراً ، وما رفعوا من العِربية سوى منار الاستخفاف بالدين ، ولا استشعروا من الإصلاح سوى الاعتقاد بكون الدين الإسلامي هو الحائل دون الرقي ، وإنْ كانوا لا يصرِّحون بهذا القول خوفاً من التعرض لغضب العامة ، فإنَّهم يحومون حوله ، ويشيرون إليه من طرفٍ خفي .

[لا عز للعرب إلا بالإسلام]

وتجدُ الواحدَ منهم يؤلِّفُ كتاباً بكون العرب لا ينهضون إلا باتخاذ العربية ديناً وديدناً ، والحالُ أنّه عندما لم يكن للعرب دين وديدن سوى العربية ، لم يكن عندهم من النهوض سوى الذل للأعاجم ، والخضوع للروم من جهة الشام ، والفرس من جهة العراق ، والحبشة من جهة اليمن ، يسومونهم سوءَ العذاب ، ويقتلون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، ولم يعرفوا من المناقب السامية سوى وأد البنات ، والبغاء ، والاشتراك في إتيان المرأة الواحدة ، إلا من رحم ربك ، والصفير حولَ البيت الحرام بحجة العبادة ، واتخاذ الأصنام من العجوةِ ، والسجود لها ، ثم أكلها عند المجاعة . هذه كانت حالة العرب قبل الإسلام .

فلما جاء الإسلام أقطعهم صاحبه ﷺ المشرقَ والمغربَ ، وصيَّرهم سادةَ الأرضِ ، ونقلَهم من الجاهلية الجهلاء إلى الحنيفية البيضاء ، التي دلّتْ على

درجة فضائلها أخلاق الخلفاء الراشدين ، ومناقب الصحابة والتابعين ، أولئك الذين لو عكف ناشرو الإصلاح مئين من السنين على قراءة « أصول الشرائع » أو « روح الشرائع » أو « أصول الثورة » أو كتب مونتسيكو وروسو ، وطالعوا جميعَ ما وضعه الأوربيون في علم تهذيب الأخلاق ، وتزكية الأنفس ـ لما تحققوا بعشر معشار الفضل والنشاط اللذين كانوا عليهما ، على حين [أنه] لا عمدةَ لهم سوى القرآن .

ولكنْ لسوءِ حظِّ الشرق ، يتعلَّمُ الواحِدُ من أهله بضعَ كليماتٍ ، فيظنُّ أنّه بلغَ بها منتهى العلم ، حتى إذا سقطَ على كتابٍ من الكتب الأجنبية في موضوع اجتماعي زعم أنّه مطابِقٌ بجملتِهِ لحالتنا الحاضرة ، وأخذَ ما في ذلك الكتاب من المبادىء والأفكار ، وطفِقَ يطبقها على ما نحن فيه ، ويجزمُ بعقم غيرها ، [فهو] أشبه بمن يدّعي الاجتهادَ وهو يظنُّ فهمَ الجملةِ الواحدةِ كافياً للاجتهاد المطلق[1] .

[قوة العرب في اتحادهم وتخاذلهم في تخالفهم]

ومن جملة ما هم قائمون به الآن القول باتحاد أمراء العرب ، واستعدادهم للنهوض لإعادة مجد العرب ، إلى غير ذلك من الأمور المتعلقة بالعرب ، ويا حبّذا لو صحت الأحلام ، وكان هذا القول يتحقق فعلاً ، فإنّه لا يوجد بشرى أعذب موقعاً في أسماع المسلمين ، وأندى على أكبادهم من بشرى اتحاد أمراء العرب يداً واحدة ، ونهوضهم لإعادة مجد العرب ، فإنّه مما لا مشاحة فيه أنّه لو سدد الله أمراءَ جزيرةِ العرب إلى هذا العمل العظيم ، لوطّدوا دعائم الإسلام ، وزحزحوا عنه هذا العذاب الذي هو فيه من الأمم الأجنبية ، فإنّ الأمةَ العربية في الجزيرة وما جاورها لا تقلُّ عن (١٢) مليون نسمة ، كلُّهم شعب واحد ، إذا استنفروا للقتال خرج منهم ثلاثة ملايين مقاتل ، يحمي بعضُهم ظهورَ بعض ، أسرعُ الأمم إجابةً لصريخ ، وأشدهم إقداماً على خطر ، وأربطهم جأشاً ، وقد

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة فقد أصبح مدعو الاجتهاد أكثر من المقلدين وبفضلهم أصبح الاجتهاد مخرقة وزندقة !!

طارت القلوب شعاعاً ، وأطولهم أناةً على البيداء ، وأعظمهم صبراً وجلداً على حمر المنايا ، وأكثرهم استخفافاً بالحياة ، وأحسنهم تحملاً لجميع أنواع المشاق ، فأمةٌ هذه مناقبُها في الحرب ، وذاك ولوعها بالطعن والضرب، وتلك درجةُ احتقارِها للحياة ، وأكثرها إن لم نقل كلُّها مسلَّحٌ بالسلاح الجديد ، بصير بتقليبه ، قد دلت حربُ طرابلس الأخيرة من عمل أبنائها في أفريقية على ما تقدر أن تعمله إذا نفرت إلى القتال ، وهي في وسط حماها ، وسرة بطحائها ، لا شك أنها لا تؤخذ إلا من قبيل شقاق ، واختلاف كلمة ، وأنّه لا خوفَ على جزيرة العرب ، ولا على الحرمين الشريفين ، ما دامت هذه الأمةُ من حولهما ، فلا بشرى تعدِلُ إذن عندَ المسلمين بشرى اتحادها واتفاقها ، ونبذ ضغائنها وأحقادها ، لا سيما إذا علمنا أنّ مكالمة بعضهم مع بعض في أمرِ الاتفاق إنما كان لأجلِ حوطة الجزيرة وحماية الحرمين ، وقصرِ كل يدٍ تمتدُّ إلى داخل البلاد من الخارج ، ووقف كلِّ طمعٍ يحومُ حول الاستيلاء على مهد الإسلام ، بحيثُ يكون العربُ يومئذٍ مع شدة تشعبهم وتفرقهم عصبةً واحدةً لا خللَ بينها ، وكتلةً لا جوف لها على عدو الأمة والدين ، هذا قرارُ أمراءِ العرب ؛ وعلماءِ العرب ؛ وجميع من اهتمَّ بشأنِ العرب ، وهم مجمعون على عضد الدولة العلية ، التي هي نظامُ ألفتهم ، وسلك وحدتهم ، وبدونها يخشى من تنافسهم ، وتحاسدهم ، وتفرق كلمتهم ، عن حماية البيضة ، فإنَّ كلَّ أميرٍ من أمراء الجزيرة لا يخضع لجاره ، ولا يقرُّ بالسيادة لنظيره ، مع أنّ كلهم مُقِرٌّ بخلافة ابن عثمان ، راضٍ بسيادته ، مطاطىء الرأس أمام بابه العالي ، عالم بأنْ لا غنى للإسلام عن الدولة العلية .

وفي هذا العام عندما كان مولاي عبد الحفيظ سلطان المغرب في الحج ، ونظمته عرفة مع أمير مكة وكثيرٍ من كبار الإسلام ذكر أميرُ مكة مناقبَ آل عثمان ، وإحرازهم قصب السبق على جميع مَنْ تقدَّمهم من دول الإسلام ـ العربية والعجمية ـ في خدمة الحرمين الشريفين ، وتوقير آل البيت المصطفوي ، والاعتناء بسكان الحجاز وبالعرب ، وختم كلامه أمام سلطان المغرب بقوله : فنحنُ بعدَ هذا جميعاً لا نأْنَفُ أن نكون عبيداً لمولانا السلطان محمد رشاد !! .

أما تلك الفئة المعدودة ، فإنها لا تزال تذكر اتفاق أمراء العرب ، وتنوّه بحنينهم إلى تأسيس جامعة عربية ، مشيرةً بذلك إلى عقدها غيظاً بالترك ، ومناوأةً للدولة ، حال كون جلّ مقصد العرب هو تعزيز الدولة ، والقيام مقامها في الذود عن الحرمين، فيما لو ناشبها الأعداء حرباً من حروبهم الصليبية هذه في جوار الأستانة، مما يحول دون إمدادها الجزيرة كما جرى لها في مسألة طرابلس، فإنّها لولا الحرب الصليبية البلقانية ، وتحفز روسية من وراء البلقانيين ، لما تركت الدولةُ طرابلس أصلاً ، ولبقيت تناضِلُ عنها إلى ساعتنا هذه[1] .

فمن الواجب بعد أن علمنا مقدارَ الحقوق الدولية في أوربة أن لا نتكلَ على شيءٍ من عهود [هذه] الدول ، وأن نَرْصُدَ في كلِّ ولاية من ولايات الدولة ، ـ لا سيما في الولايات العربية ، وفي جوار الحرمين الشريفين ـ القوةَ الكافية من السلاح والذخيرة للدفاع عنها ، وأن نَكِلَ إلى الأهالي الأشدّاء والعشائر المخيمة في هاتيك الفلوات أمرَ المكافحة عن بيضة الإسلام إذا طرق طارق ، أو نعق ناعق .

وأن تكونَ الدولةُ هي الرأس في ذلك العمل ، والنظام الجامع لما تفرّق من أدواته ، فهذا ما عليه العرب من هذا القبيل ، لا ما يُحِبُّ أن يخيله بعضُ تلك الفئة ، من كون اتحاد العرب هو بغضاً منهم بالترك ، وقياماً على الترك ، تجدُ مضامينَ ذلك في جرائدهم ومجلاتهم ، كأنّه لا يروقُ لهم اتحاد العرب إلا لمناوأةِ الترك وحدَهم .

[هدف اللامركزية إخضاع المسلمين للأوربيين]

فأما مناوأة الإفرنج ، الذين هم أثقلُ على العرب من الترك ، وأعظم خطراً ألفَ مرة ، فإنّك لا تجدُ واحداً من الفئة اللامركزية أو على رأيهم الإصلاحية ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] من يرغبُ فيها ، أو يصبو إليها ، لا بل هم أضداد كل مقاومة للأوربي ، وأينما كان اللامركزي فهو حزب

---

(١) عام تأليف الكتاب (١٩١٣) .

إخضاع المسلمين للأوربيين ، إن لم يكن علناً فقلباً . ولا أعلم ـ لعمري ـ ما هي لَذتهم بركوب الأجانب فوق مناكب المسلمين ؟ وماذا يأتيهم من الخير في عبوديتنا لأوربة ، وقد شاهدنا آلام غيرنا ممن ادّاركوا في تلك الهوة بأسبابٍ شبيهةٍ جداً بالأسباب التي تخلقها الآن العصابة اللامركزية ؟

وقد يكابرون في صحة هذه النسبة إليهم ، وينكرون كونهم حزب خضوع الشرق لأوربة ، ويحاولون التمويهَ والتغطيةَ جهدهم ، ولكن فاتهم أنّ كلَّ حركةٍ من حركاتهم ، وكلَّ إشارةٍ من إشارتهم ـ دالةٌ على مكنون صدورهم ، ومعقود نياتهم ، وإنّ زمانَ السفسطة قد مضى ، وأن دور المغالطة قد انقضى .

وما بال أعضاء من لجنة اللامركزية بمصر لا شغل لهم سوى الذهاب إلى درنة والإياب من درنة ، والمداخلة مع عرب الجبل الأخضر لغاية استيلاءِ إيطالية على هاتيك الديار ، بدون إعطاء السنوسية شيئاً من الامتيازاتِ الملكية التي تضمنُ صيانةَ أراضي العرب ، وعدم تبسط الملايين من جياع إيطالية في بقاعهم ، مما يؤول إلى طردهم من أوطانهم ، أهذِه هي المنافع التي يَعِدُ بها طلاّبُ مجد العرب وحفّاظ حقوق العرب إخوانَهم عربَ أفريقية ؟

وما بال جريدة « الأهرام » التي هي من أهم معاول اللامركزية هي الداعيةُ الكبرى لإيطالية في طرابلس ، الناصحة أبداً للعرب بقبول حكم هذه الدولة ، التي ليست من قحطان ولا غسان .

فيا ليتَ شعري ! ما بال هؤلاء لا يصيرون عرباً إلا لأجلِ عداوةِ الترك ؟ وما جوابهم على هذا ، وقد طارحناهم السؤال عنه مراراً ، فلم نجد منهم إلا الخرس المطلق ، والصمت المغلق ؟ وإنما لدى هذا السؤال يحملون علينا من جهة أخرى بالطعن والقذف ، ويتحاملون بالبهتان والافتراء ، شأنهم في كل مواقفهم ، ودأبهم عندما يُلْزِمُهم مناظرُهم الحجةَ ، ولا يجدون مما دخلوا فيه مخرجاً ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ [البقرة : ٨٧] أو كلما وقف الإنسان عن مجاراتكم في أهوائكم وضلالاتكم لجأتم إلى المهاترة والشتم ، تتخذونهما أحدَّ سلاحِكم ، وأمضى نصالِكم في نضالكم .

وما بالكم تتكلمون عن العرب وعن قحطان ، وتنصِّبون أنفسكم وكلاء عن

هذه الأمة ، وتقارعون باسمها الترك ، فهل أخذتم التفويضَ من عرب الآفاق بهذا العمل ؟ وهل أبناءُ قحطانَ أنفسِهم ـ وهم يملأون اليمن ، وقسماً من نجد والحجاز والعراق والبحرين ، ومنهم سكان البلقاء ، وعرب غزة ، وفلسطين ، ومنهم أكثرُ عرب الصعيد أبناء لخم وجذام ـ قد أحالوا عليكم قضيةَ مخاصمة الترك ، ومشاغبة الدولة العثمانية أثناء الحرب ، ونبذوا واجبات الإسلام ظهرياً ؟

وهل قال لكم هؤلاء الملايين من بني قحطان : إنّهم عرب قبل كل شيء ، وإنّ الإسلام هو عندهم بالدرجة الثانية ، حتى جئتمونا بهذه النغمة الجديدة باسم قحطان ؟

وهاهم أبناءُ قحطان في منبت أسلة قحطان ، الذي هو اليمن ، يواصلون الرسائل إلى سورية بالنصيحة بعدم شقِّ العصا ، وبالانضمام حول الدولة العثمانية ، وينكرون ويكبِرون اتخاذَ الأجانب أولياء من دون العثمانيين ، والأوربيين من دون المسلمين ، ولقد بلغ أمراءُ العرب أنّ الدولة في حلمها وصفحها وميلها إلى إسكات القالةِ ، وصبرها على أخلاق هذه الأمة ، ريثما تكونُ عرفت واجباتها ـ قد رضيت أنِ تتفاوضِ مع الجماعة ، الذين اجتمعوا في باريز ، وأن تتجاذَبَ وإياهم أحاديثَ الإصلاح ، فانتقدوا هذا الحلم ، ورأوا أضراره أكبر من نفعه ، وأنكروا وكالة أولئك النفر عن العرب ، حتى لقد صرّح بهذا اللوم الشريف عبد الله بك نجل أمير مكة لوالي سورية عارف بك المارديني بحضور جمٍّ غفيرٍ من سادات العرب في المدينة المنورة .

[تجاوب الدولة مع دعوات الإصلاح مهما كان شأنها]

وكيف كان الأمر فإنّ الدولة لم تستنكِفْ أن تدخلَ في المفاوضة مع بعض أبنائها ، وأنّ جمعية الاتحاد والترقي لم تأنَفْ من استعتاب أولئك الأشخاص ، واسترضائهم ، ومن دعوتهم إلى الوفاق ، ومع علمها بما كان بعضهم يفعلونه ويكيدونه ، وما يلقونه إلى الأجانب من مفاوضتها العثمانية الصرفة معهم ، وما يستظهرون به على دولتهم من مداخلةِ أعدائها ـ فقد طوت على كلٍّ هذه

العظائم كشحاً ، وتدرّعت بالصبر الجميل ، وأظهرتْ قبولَ العذر ، والتجاوز عن الوزر ، وكفّتْ من غرب الحفيظة ، وطامنت من جانب الموجدة ، ذهاباً مع الحكمة ، والتزاماً لقاعدة المداراة ، لا سيما والدولةُ مشغولةٌ في مقارعة البلغار ، ومكافحة اليونان ، ومن الاستمساك أمام الثقل الروسي الملقي بكلكله عليها ، بما لم يبقِ مجالًا للاشتغال بمعاتبة أبنائها ، فارتضتْ بدعوتهم إلى الأستانة ، وأكرمت مثواهم ، وأحسنتْ مقدَمهم ، وظنّتْ أنّ الأمر قد انتهى أو كاد ، وأنّ الجماعة كانوا يبتغون مخرجاً مما أدخلوا أنفسهم فيه ، فأوجدت لهم مخرجاً شريفاً ، ولو على أعين الخلق ، فظهر بعد هذا كله أنّ جماعة من هذه الفئة ازدادوا بهذه المعاملة غروراً ، وبعد أن سقط في يدها ، وكادتْ تقطعُ كلَّ أملٍ من نجاحها ، عادت إلى سابق لهجتها ، واستأنفت ماضي غيها ، ومن شكَّ في ذلك ، فعليه أن يراجعَ جرائد هذه الفتنة ، ويتأمّلْ خلال السطورِ منها ، ليعلمَ الروحَ التي تنفثُ في روعها ، والطوية التي تملي عليها ، أنّهم كانوا يكرهون أن تفوزَ الدولة في قضية أدرنة ، خوفاً من أنّ استردادَ أدرنة يستردُّ هيبتها في قلوب الأمة ، وهم يريدونَ خرق حجابها .

[إصرار اللامركزيين على محاربة الدولة]

إنهم كانوا لا يتمالكون أنفسهم من إظهار الفرح بكلِّ نكايةٍ تصيب قلب الدولة ، أو سهمٍ ينفذُ في أحشاء الأمة ، إنّ بعضَهم كان يتجاهلُ حوادث اعتداء البلقانيين على مسلمي الروملي ، ويعمسها قصداً ، ويطمسها عمداً ، ولا يزال يتسقَّطُ روايات تكذيبها ، حتى إذا وقع على أقلِّ فريةٍ من هذا القبيل بادر بنشرها تغطيةً لعسف أوربة ، وتغافلاً عن تعصبها ، الذي يزيدُ الشرقيين تعصباً لحوزتهم ، حال كون أصحابِ هذه الجرائد إنما يريدون تزيينَ السلطة الأوربية لكل شرقيّ ، وإقناعَ كل مسلم بأنّ شريعتَهُ لم تتوفق في يومٍ من الأيام إلى توطيد أمنٍ ، ولا إلى رفع بناءٍ ثابتٍ ، فإذا خافت افتضاح سرائرها تجاه الأمة التي تخدعُها ، نشرت بعضَ مقالاتٍ دفاعية تقصد بها إثباتَ صدقها وعصبيتها ، فجاءت بالمتناقضاتِ ، وظهرت في شكل أبي قلمون « ورُبَّ ابن صار أباً » ولقد اتخذت نغمةً واحدة تتغنّى بها في كلّ مقالٍ ، وهي أنّها لم تكن لتكرهَ الدولةَ ،

ولا لتسعى في توهينها ، وإنما تلك مساعٍ إصلاحية ، جلّ المقصد منها تقوية الدولة ، وتعزيز الملة ، ولكنَّ التركَ يجهلون مصلحةَ أنفسِهم ، فلا بدَّ أن يساقوا إلى الإصلاح قسراً ، ويجرَّعوا كأس اللامركزية كما يجرَّعُ العليلُ مُرَّ الدواء ، ففضلاً عن كون هذا الدواء هو الآن سماً ناقعاً للعليل ، لا نسلّم أصلاً بمحبتهم للدولة ، وتمسكهم بكيانها ، ما دامت عيونُهم تنمُّ عليهم ، وألفاظهم تبدر بخلاف دعواهم .

ولقد كنا نحادِثُ مرةً أحدَ فضلاء الهند ، ممن هو مداخِلٌ للأجانب ، مواطىءٌ لهم على كثير من مقاصدهم ، فأخذَ يذكر لنا حجج من عرفهم من رؤساء هذه الفئة ، إذ كان اجتمع معهم في مصر ، ونحن نردّها له واحدة واحدة ، إلى أن ناشدناه الله أن يصدقنا القولَ : هل هذه الفئة مسرورةٌ بارتباط قلوبِ مسلمي الهند بالدولة ، ومعاونتهم لها إذا كانت صادقة للدولة كما تقول ؟ فاضطر حينئذٍ أن يقول لنا : كلا ، لا يحبون هذا الارتباط ، ولا يغتبطون به ، قال لنا هذا وهو صاحبهم ، وقسيمهم في الأفكار ، وشريكهم في كثير من المَنازع ، فلم تكن المسألةُ إذاً مسألةَ إصلاحٍ أو شكلٍ في الإدارة يودُّونَ تغييره ، بل ما هناك سوى دسائس يقصدون بها ثلم بنيان الدولة ، وإدخال الأجانب إلى البلاد ، لتكون لهم الحظوةُ عندَهم ، وهم يطلقون على ذلك ألقاباً مختلفة ، من قبيل إصلاحٍ ، ولا مركزيةٍ ، ونهضةٍ ، ورقيٍّ ، وغيره ، والألفاظُ لا تغني من الحق شيئاً ، ومن قبلهم قام أعداءُ الاتحاديين فألّفوا جمعيةً سمّوها بالجمعية المحمدية ، تقرُّباً بهذا الاسم الشريف إلى قلوب العامة ، ولم يكن المقصد منها خيراً ، وقيل : إنّها كلمةُ حقٍّ أريدَ بها باطل ، فالدعاوى لا تغيِّرُ حقائقَ الأشياء ، والأسماء لا تصدق إلا إذا اقترنت بالأفعال ، وقد يخدعون الأغبياء ، ويتغفَّلون العوام ، الذين لا يعلمون ما وراء الأكمة .

فأما الذين عندهم مسكةٌ من عقل ، أو حصاةٌ من رويّةٍ فإنّهم لا ينخدعون بهذه الألفاظ ، ولا يغترون بذلك الطلاء ، وهم يعلمون أنّ الدولةَ سواءٌ طالبوها هم أم لم يطالبوها بالإصلاح ، فقد كانت عازمةً على تغيير شكل الإدارة ، وإن القيام بهذه العربدة التي قاموا بها على الدولة في أثناء مكافحتها لأعدائها على

أبوابِ عاصمتها لا يفيدُ شيئاً من الإصلاح ، ولا من التقوية ، وإنما يورِثُ الدولةَ زيادةَ الضعفِ ، وطمعَ العدوِّ ، واستئسادَه .

وإنه إن كان لا بدَّ من المطالبةِ والمراجعةِ فقد كان لهم مندوحةٌ عن الاجتماع في باريز ، والاعتضاد بالأجانب على دولتهم الشرعية ، وما أحسنَ قولَ الشاعر :

لقد رابني مِنْ عامرٍ أنَّ عامراً بعينِ الرِّضَىٰ يَرْنُو إلَى مَنْ قلانِيَا

يلتمسون عذراً للإدريسي على خروجِه وعصيانِه ، وأغربُ منه أنّهم لا يقبّحونَ ممالأته للطليان ، حينما كان الطليان يقاتلون المسلمين، ويخرجونهم من ديارهم ، بل يقاتلونَ العرب الذين الإدريسيُّ منهم ، وذلك لأنّهم يجدون كلَّ ذنبٍ مغفوراً في جانب الخروج على الدولة .

يضمِرون لأبطال الاتحاديين مثل طلعت وأنور وفتحي من البغض والشنآن ما لايضمرونه للروس ولا للبلغار ولا لليونان ، لا بل تجدُهم يعلنون هذه البغضاء ، ولا يجمجمونها في صدورهم ، مع أنّ السيد السنوسي وجميعَ خلفائه وحلفائِه وجميعَ رؤساء العرب في طرابلس وبرقة قد بلغوا من حُبِّ أنور وفتحي وتوقيرهما مبلغاً لا يعلمه إلا مَنْ عرفَ أحوال هاتيك البلاد ، ولا نظن في الدنيا عثمانياً منصفاً ، لا بل إنساناً عادِلًا يمكنُه أن يبغضَ هؤلاء الأبطال ، الذين باعوا أنفسهم من أجل أوطانهم ، والذين قد وقّرهم الأجانب حق التوقير والإعزاز .

[سياسة التتريك هل هي حقيقة ؟]

يتهمون الاتحاديين بكونهم أرادوا تتريك العناصر [العثمانية] ، ومحو العربية والعرب[1] ، ورفيق بك العظم يقول لعبد الرحمن بك اليوسف في مصر : إنّه على ثقةٍ تامةٍ من هذا القرار ، الذي قرّره الاتحاديون في سلانيك ، لأنّه قد تلقّى خبرَه حتى من البلغار أنفسِهم .

---

(١) بدأت حملة التتريك في سورية في عهد جمال باشا السفاح . انظر كلام الأمير ص (٤٣٠) من هذا الكتاب .

انظروا إلى هذا الإسناد البلغاري ، الذي يخجل الإنسانُ من ذكره في قضيةٍ واقعةٍ بين العرب والترك ، وتأمّلوا كيفَ يدّعي بعضُهم المعرفة والمنطق ، وهو يستشهد بكلام أعدائنا البلغار ، ويتخذُه حجةً على فرية غير معقولة ، ويبنى عليه حكماً طويلاً عريضاً ، مهما بلغَ بالاتحاديين الغرورُ ، أو تمادى بهم الاستئثار ، فلن يجهلوا تعذُّرَ حمل سائرِ العناصر العثمانية على الاندماج في التركية ، بل لقد وجدنا الأتراكَ أشدَّ الناسِ تفريطاً في حفظ عنصرهم ، ورأيناهم والله يهملون تتريك طائفةٍ من مسلمي الروملي اسمها البوماق ، تركوها بدون تعليم اللغة التركية ، حتى إذا غلب البلغار على بلادِها هذه المرة في « قرجه علي » و « جمعه بالا » حملوها على النصرانية بالسيف ، وتزوجوا ببناتها قسراً ، زاعمين أنَهم إنما أعادوا البوماق إلى دينهم الأصلي ، ولم ينصّروا التركَ الذين لم يكن أصلهم نصارى ، وأنّ الدليل على كون البوماق بلغاريين في الأصل هو جهلهم اللغة التركية ، وعدم معرفتهم غير البلغارية .

فالأتراكُ يحكمون في الروملي منذ ستمئة سنة ، ولا يفكّرون في أن يدمجوا في التركية طائفة كالبوماق عددها (١٥٠) ألفاً ، وهي بين أظهرهم ، ولا يحاولون تتريك الأرناؤوط ، ولا البوشناق ، هذه الأمم الصغيرة ، ويقوم هؤلاء الذين في قلوبهم مرض ، وقد زادهم الله مرضاً بعد هذه الحرب ، فيقولون : إنّهم قرروا تتريك العرب ، الذين هم أكثرُ منهم عدداً ، والذين هم أصلُ الإسلام في كلِّ شيءٍ[١] .

وهكذا تجدهم دائبين في تمزيق هذه الأمة المسكينة ، التي لم تكفها بلايا أوربة في جوانبها ، حتى قاموا هم يقطِّعون في أحشائها ، ويفرِّقون من أوصالها بالأراجيف والأكاذيب والأخبار الموضوعة ، فيقولون للنصراني : إنّ الاتحاديين أو الاتراك يريدونَ محو النصرانية من البلاد ، ويدعوننا إلى إحياء التعصب الديني ، ونحن مسلمي العرب لا نقبلُ منهم ذلك ، فلهذا هم يكرهوننا .

---

(١) إن سياسة الاتحاديين العنصرية ، وإصرارهم على تتريك من سواهم من الشعوب العثمانية وخاصة العرب متواتر لا يحتاج إلى دليل ، ونفي ذلك بالتعليلات النظرية لا يغيّر الحقيقة ، وحال من يفعل ذلك كحال من يخفي الشمس بكفيه !!

ويقولون للمسلم العربي : إنّ الأتراكَ لا يريدون ضعف النصارى في البلاد العربية لأجلِ أن يجعلوهم شغلاً شاغلاً لنا عن مقاومتهم .

ويقولون لطالب الرفاعي وأهلِ البصرة : إنّ الأتراك يريدون الرضيخةَ ببلادِكم للإنكليز والألمان ، وهم يبيعون بلادَ الإسلام كما باعوا طرابلس الغرب ، فيقوم هؤلاء هناك ، وينادون : وا إسلاماه ، كيف تقبلون أيها المسلمون أنْ تُباع بلادُكم من الأجانب ، وأن يخفِقَ فوقكم علم الصليب ؟!! .

ويرسلون إلى ابن سعود قائلين له : إنْ لم تأخذ الإحساء وقطر وسائر لواء نجد ، فإنّ البابَ العالي سيعطيها قريباً إلى الإنكليز ، ويكونون في الوقت نفسه ذاهبين جائين في السفارة إلى الانكليز ، يخبرونهم بما عندهم من أخبارِ سورية ، واليمن ، وعسير ، والحجاز ، التي مآلُها أنّ العربَ بأجمعهم ناقمون وقائمون ، وأنهم يريدون الحماية الإنكليزية والخلاص من الحكم التركي ، إلى أن روى صاحبُ جريدة « بيسه أخبار » في الهند أنّ إنكليزياً كبيراً في مصر ، لا نريدُ أن نسميه ، قال له : اذهب إلى الشام ، لتعلمَ أنّه لا يوجد عربيٌّ واحد إلا وهو يفضِّلُ حكم إنكلترة على حكم تركية ، واذهب إلى الحجاز لتشهدَ بعينك كيفَ أنّ العربَ يتقرّبون إلى الله تعالى فيه بقتل التركي ، وهذه الأقاويل كلُّها نتيجة ما يلقيه هؤلاء الجماعة في آذان الإنكليز صباحَ مساءَ .

ويقولون للعربي : إنّ الأتراك قرروا تتريكَ كلِّ العناصر العثمانية ، فبادر إلى الخروج عليهم قبلَ أن يباشروا إجراءَ قرارهم بالفعل ، فهم يهيّجون بذلك أحقاد العرب ، ويتغفَّلون كثيراً من أغرار العرب ، ولا يخافون الله فيما يفترون وما يضعون ، ولا يتقونه في ملتهم ولا في وطنهم ولا في أنفسهم ، وهم يعلمون ما في هياج العامة العمياء من الخطر العام ، وما وراء تناحر العناصر من سقوط الجميع في هاوية الاستيلاء الأجنبي .

على حين لو عاد هؤلاء الأغرار المتهورون إليهم فيها بعدُ قائلين لهم : أين الدولة العربية التي وعدتمونا ؟ وأين اللامركزية التي قلتم لنا إنها مرحلتنا الأولى ؟ وأينَ السعادةُ التي زعمتم أنّها مستقبلنا ؟ فما نحنُ اليومَ إلا تبعة دولة أجنبية لا ترقب فينا إلًّا ولا ذمةً ، بفضل فرفرتكم هذه ، ووالله لنارُ الأتراكِ

ولا جنةُ الأوربيين ، ـ لنفضوا أيديهم منهم ، وقالوا لهم : إننا أبرياءُ منكم ﴿ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ [الحشر : ١٦] ويا ليت شعري ماذا يفيد اللوم يومئذ ؟ وماذا يقدر هؤلاء المساكين مِنْ هذه الأمة المغرورة أن يثأروا من أولئك المغرِّرين ؟ وقد سبق السيف العذل ، وانتهى كل شيءٍ ، وأصبح قصارى مَنْ عرف خطأ نفسِه يومئذٍ أنْ يقول : ألا لعنة الله على المفسدين ، ألا لعنة الله على المتسببين !! .

[الاتحاديون والدونمة والماسونية]

يذيعون من جملة أكاذيبهم لتهييج العوام أنّ الدولة هي في أيدي الاتحاديين ، وأنّ هؤلاء كلهم من يهود سلانيك ، ولا يزالون يكرِّرون أنّ جاويد هو يهودي ، وأن رحمي هو يهودي ، وأنّ كلَّ من خرج من سلانيك هو يهودي ، حتى إن أناساً من كبار الاتحاديين ليسوا من سلانيك أصلاً قالوا : إنّهم يهود أيضاً ، وغيروا قلوبَ جمٍّ غفير من عامة الناس بهذه الأقاويل ، التي ما جعل الله لها من نصيبٍ من الصحة ، فالاتحاديون الذين يعنونهم هم أحسن الناس إسلاماً ، وأشدهم بالإسلام تمسكاً ، وجاويد بك الذين يقولون : إنّه يهودي ، هو واللهِ أصدقُ إسلاماً وأقربُ إلى رضى الله ورسوله من أكثر أولئك الذين قاموا ينفخون في بوق العنصرية ، ويزرعون بذور الشقاق بين العرب والترك ، ويقولون : نحن عرب أولّا ومسلمون ثانياً ، مخالفين قولَ صاحب الإسلام عليه الصلاة والسلام ، وليس جاويد الذي هو مسلم ، بل يهود سلانيك أنفسِهم هم أخلصُ لدولة الإسلام ولاءً من هؤلاء الذين لم يجدوا فرصة للقيام على الدولة ومشاغبتها باسم المطالبة بالإصلاحات سوى فرصة إحاطةِ الأعداء بها ، وحصارهم لعاصمتها ، وأخذِ الأعداء بمخنق الإسلام ، وارتكاب البلقانيين بمسلمي الروملي ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا كتاب روى من الفظائع والفجائع .

إنّ يهود سلانيك هم إلى يومنا هذا ينوحون على أيام الدولة العثمانية[1] ،

---

(١) في هذا الكلام مغالطة فاضحة ، فاليهود هم الذين قضوا على الدولة العثمانية ، وهم =

ويراجعون دول أوربة في إعادة سلانيك إلى الدولة ، وقد عاتبهم ملك اليونان على ما ظهر من حزنهم لدى دخول عساكره إلى سلانيك ، فقال له حاخامهم : إنّ الذي يفقِدُ والده لا بد أن يلبِسَ عليه أثوابَ الحداد مدةً ، وإلا لا يكون إنساناً ، ونحن نعدُّ الدولة العثمانية أباً لنا ، لأنّه لما طردنا الإسبانيول من إسبانية لم نجد لنا ملجأً إلا في أكناف الدولة العثمانية ، التي أنزلتنا في الأستانة ، وفي سلانيك وأزمير ، هذا كلام الحاخام اليهودي لملك اليونان[١] .

عندما يكون منا سادة يدّعون أنهم من آل البيت النبوي[٢] ، مداخلين الأجانب على دولتهم ، وعندما نكون متزلفين إلى الأجانب بمصر بقولنا لهم : إنّ عرب الشام والحجاز يفضّلون الحكم الأوربي على الحكم التركي ، وينتظرون الخلاص على أيديكم ، أفلا يعلم هؤلاء المغرورون أنّ الإسلام ليس عقاراً يرثه الإنسان عن والده ، ولا وقفاً يحتكره ، ولا لقباً يتلقّب به ، ولا بضاعة يحوزها فيمنعها غيره .

إنّ الإسلام حالة روحية مَنْ تحقق بها وراعى شروطها المبينة في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ كان هو المسلم المرتضى عند الله ورسوله ، ولو كان فرنسياً أو إنكليزياً أو روسياً ، بل لو كان زنجياً رأسه زبيبة .

وإن بيرلوتي ولاون أوستروروغ وغيرِهما من النصارى المحبين للدولة والإسلام من فضلاء أوربة ، هم أعلى درجةً عند الله ورسوله من أولئك الذين يدّعون الإسلام ظاهراً ، ويعملون على قتله باطناً ، ثم ينقلبون على المسلمين المخالفين لهم بالتكفير والتفسيق كلّما جاؤوهم[٣] جاؤهم بما لا تهوى أنفسهم .

= وراء منع تركية اليوم من الرجوع إلى الإسلام انظر « موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية » للدكتور حسان الحلاق (٢٦٩ ـ ٣٥٢) .

(١) انظر حول دور يهود الدونمة في تحطيم الدولة العثمانية « يهود الدونمة » تأليف كمال خوجة ، وكتاب « فرقة الدونمة بين اليهودية والإسلام » للدكتور جعفر هادي حسن .

(٢) يشير إلى الشريف حسين وأبنائه .

(٣) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٤٠] .

ومن جملة نكاتهم في هذا الموضوع أنّ ابن شيخ الصقر ،وهم قبيلة من العرب تنزل بأرضِ بَيْسان في الغور كان محبوساً في دمشق الشام ، بسبب من الأسباب ، فبعد التدقيق في قضيته تبينت براءته ، فأُطلق سراحه ، وكان لبعض الاتحاديين يد في هذا الافراج ، فحضر والده من الغور إليه فرحاً مسروراً ، وقال له : من ذا الذي أنقذك من الحبس يا بني ، وصنع إليك هذا الجميل ؟ فقال له : الاتحاديون يا أبتاه ، فقال له وقد أخذت منه الدهشة كلَّ مأخذ : كيف تقول هذا ، والناس يقولون : إنّ هؤلاء هم كفّار ، يكرهون الإسلام ، ويدينون بدين الفرماسون(١) وأنهم يريدون استئصال جرثومة العرب ؟ فقال له ولده : كلا يا والدي ، فإن ما بلغك عنهم هو افتراء محض ، فإنّ إخواني هؤلاءهم من أصدقِ الناس إسلاماً وإيماناً ، ومن أقربهم إلى فعل الخير ، وإنك لتعلم ذلك من كشفهم هذه الغمة عني ، فأخذ شيخ الصقر يعجب من ذلك البهتان العظيم ، الذي سمعه بحق الاتحاديين ، ويكرر اللعنة على الظالمين .

ولقد كانت الحكومة استدعت مؤخراً نوري بن شعلان ، شيخ قبيلة الرولة الكبيرة من عرب الشام ، فتخلّف عن الحضور ، وبعد الفحص عن السبب وُجدت عنده كتب من بعض تلك الفئة تحذِّرُه من المجيء ، وتؤكد سوءَ نية الدولة بحقّه ، وتروي له روايات ما أنزل الله بها من حقّ ، وهكذا فإنّهم لا يتركون فرصةً لإفساد أفكار الناس من بدوٍ أو من حضر إلا وتورّدوها .

وحسبك مراسلاتهم مع الإدريسي الثائر بعسيرٍ ، وإطماعهم إياه أحياناً بالخلافة ، وتحذيرهم [له] من الإخلاد إلى السكون والطاعة .

ولقد كنا في الأول نرتابُ فيما ينقل إلينا من أخبار هذه التسويلات منهم ، ونظنها من جملة وساوس الأتراك ، ونكره صدورَ هذه الأقوال منهم ، وننزه أياً كان عن مراسلة الإدريسي في شيء من مقاومة الدولة ، إلا أننا أخيراً علمنا أشياء انزاحت بها الشكوك ، وثبت بها فسادُ أولئك الذين لا قلوب في صدورهم تمنعهم من تفجير دماء المسلمين ، وتعريض جزيرةِ العرب للاستيلاء الأوربي ،

---

(١) انظر حول علاقة الاتحاديين بالماسونية كتاب جواد رفعة أتليخان « أسرار الماسونية » .

غيظاً بالأتراك ، أو انتقاماً من الاتحاديين .

[قصة الإدريسي]

إنّ الإدريسيَّ ظهر في الأول بمظهر الدين والصلاح ، وارتدى حُلَّةَ التقوى ، وخلب بسحره كثيراً من سكان تلك البلاد[1] ، واستجلبهم إليه بالمواعظ ، وأقنعهم بأنّه مجتهد يسعى في إقامة الشريعة الغراء ، وإجراء حدود الله ، وقد ساعده على ذلك سوءُ إدارةِ بعض العمال العثمانيين ، وخلو القطر من القوة الكافية ، ومن الحكومة بالمرة في بعض الأماكن ، بما لا تزال هذه الدولة مشغولة به من الخطوب الأوربية ، وما يحول دون توفّرها على إصلاح بلادها من نفاد الأموال في ميرة الجيوش المرصدة للدفاع عن حريم الدولة ، مع تنائي ذلك الإقليم الشاسع عن مركز الخلافة ، فأصبح الإدريسيُّ ذا يدٍ مبسوطةٍ ، وكلمةٍ مسموعةٍ في أكناف عسير ، وكان الإمام يحيى إذ ذاك لم يأتلف مع الدولة ، فأرسل إلى الإمام يعرض عليه أن يكون نائباً من قبله في عسير ، فأرسل الإمام إليه تفويضاً بالأمر بالنيابة عنه ، وما زال كلٌّ منهما يجاذِبُ الدولةَ الحبل من جهته ، حتى فوجئت الدولة بحرب طرابلس ، فقال الإمام : أما وقد اعتدى العدو على بلاد الإسلام فحاشا أن أحملَ السلاح في وجه الدولة ، وأبلغَ الدولةَ أنّه هادنها إلى ما بعد الحرب مع إيطالية ، فلما بلغ الدولة ذلك ، وأيقنت أنّه جدير بأنْ يكون أميراً من أمراء الإسلام ، حقيقاً بأن يركن إليه ، ويعوّل عليه ، ارتضت بالصلح معه ، وقررت معه من الصلح ما استقر به أمر اليمن في نصابه ، وكفى الله المؤمنين من الجانبين شرَّ هذه الفتنة .

إلا أنّ الإدريسي لم يزل على ضلاله وفساده ، وغدره بالعساكر العثمانية ، مما حدا بالإمام إلى أن يكاتبه مذكراً إياه بما يحظره عليه الشرع ،ـ الذي يدّعي أنّه مجتهد فيه ـ من مقاتلة المسلمين عندما يكونون في حربٍ مع الأعداء ، ويكون العدو هو المهاجم لهم ، فلم تحكِ النصيحةُ فيه ، ولم يكتفِ بقول المسلمين حتى مدَّ يدَ المصافحةِ إلى إيطالية ، فأرسلت إليه بالذخيرة والعدة والنقود

---

(١) منطقة عسير .

والمدافع ، فتقبلها مبتهجاً مسروراً ، وقاتل بها المسلمين ، ووضع العساكر العثمانية بين نارين في سواحل قنفدة ، فكان الطلياني يقاتلهم من البحر ، والإدريسي من البر ، كما شهد بذلك ألوفٌ من عرب اليمن ، ومن العرب الذين في الجيش العثماني ، ومن عرب الحجاز .

ولما بلغ الإمام يحيى ذلك أرسل إليه يقول : أفلا تخشى الله ؟ أفلا تستحيي من رسول الله ﷺ ؟ أفلا تخجل من أن تستعدِي النصارى على المسلمين وتقاتلَ أمة محمد ﷺ بسلاح أعدائها ؟

فأجاب : إنني إنما أخذتُ الأسلحة من النصارى لأقاتلهم بها ، أي النصارى ، وكان جواباً كما ترونه ملفقاً !! .

وعند ذلك شهر الإمام عليه الحرب من جهة اليمن ، كما أنّ أمير مكة كان شهرها عليه من جهة الحجاز ، وصار كلٌّ منهما يزحف إليه بقوةٍ ، ولولا اتساع عسير ، ووقوف الدولة عن متابعة هذه الحرب بما شغلها من حرب البلقان ، لكان انتهى أمرُ الإدريسي .

وأما الفئة المعهودة ، فلم يغضبها على الادريسي قتاله للمسلمين حينما تكون خمس دول نصرانيات مقاتلات للدولة العثمانية ، ولا نفّرها منه اتفاقه مع الطليان ، وقتاله المسلمينَ بسلاحهم ، ولا غيّر لهجتها بحقه عفو الدولة عنه ، وإصراره على الحرب ، بل الإدريسي هو الإمام المجتهد المجدِّد المرشح للخلافة ، القائم بالفرض والسنة ، بل نقموا جداً على الإمام يحيى وعلى الشريف حسين أميرِ مكة مقاتلتهما للإدريسي ، وقد سمعنا منهم بآذاننا ما لفظته أفواههم من البغضاء لهما .

وأغرب من خيانة الإدريسي هذه في أطراف اليمن خيانةُ كلٍّ من انتسب إليه ، حتى أبناء عمه الذين في صعيد مصر ، ممن كانت مراسلته مع تلك الفئة [تتم] بواسطتهم ، وممن لم يقتصروا على خدمة إيطالية في البحر الأبيض ، بل[1] كانوا في مقدمة كلٍّ من الوفدين اللذين أُنفذا من الإسكندرية إلى درنة ،

---

(١) في الأصل (و) .

لإقناع سيدي أحمد الشريف السنوسي بترك المقاومة ، وتسليم السلاح ، والطاعة لإيطالية ، وأن يأخذ عوض ذلك مالاً كثيراً !! .

هذا هو السيد الإدريسي الشريف ، المنتسب إلى أشرف عترة ، وهذه هي أفعاله ، وهذا هو ضلاله ، وهذه هي مساعي أبناء عمه ، الذين يجرون ذيولَ السيادة ، ويلوثون عمائم الشرف ، ولكنّ رسول الله ﷺ بريءٌ من الولد العاقّ ، الذي يخالِفُ أمرَه ، وينبذُ دينَه ، **ولا ينهض بالإنسان نسبُه إذا كبا به عملُه** :

إذا لم تكنْ نَفْسُ الشّرِيْفِ كأَصْلِهِ فما هيَ إلا حجةٌ للنّواصِبِ[1]

وسينكرُ من أشرنا إليهم مداخلتهم الإدريسي ، وفرحهم بما يعمل ، ورضاهم عما يأتي ، شأنُهم في كلِّ أمورِهم ، وهو التشبث بأذيال الإنكار ، والتحريك من وراء الأستار ، ولكنّ هذا الإنكار لا يفيدُهم شيئاً ، وفي بعض كتاباتهم فضلاً عن مشافهاتهم التصريح بكونه مجتهداً .

وأما ما هناك من المراسلات السرية بواسطة أولاد عمه الذين في الصعيد ، فكاد يكون معلوماً عند الجميع ، ففي يد الإدريسي مكاتبات كثيرة ، يقرأها الناس ، ويكتم مصادرها ، ويضع يده أحياناً على تواقيعها .

[موقف اللامركزيين من سقوط أدرنة]

ومن أعمال هذه الطائفة ما ظهر منهم من الشماتة يومَ سقوطِ أدرنة في أيدي البلقانيين ، فإنّهم فرحوا بذلك فرحاً شديداً كتمه عقلاؤهم ، وأظهره سفهاؤهم ، وكان بعضُهم يبشِّرُ بعضاً حينما [كانت] عساكرُ البلغار تفتِكُ بالمسلمين ، وضباطُهم تنتخِبُ كرائم البيوتات الإسلامية للافتراع ، والعلمُ العثماني ينكّس عن حصون أدرنة ، والصليبُ يرتفع فوق مآذن جامع السلطان سليم ، وألوف من جثث المسلمين مطروحةٌ بالعراء ، وساعةُ وقوعِ الإسلام في

---

(١) ذكر ابن بشكوال في «الصلة» : أنشدني أبو محمد ابن حزم قال : أنشدني أبو عمرو البيّاني :

إذا القرشيُ لم يشبهْ قريشاً بفعلهمو الذي بذَّ الفِعالا
فتيسٌ من تيوسِ بني تميمٍ بذي العبلات أحسنُ منه حالا

هذه الفتن ، التي هي كقطع الليل المظلم ، نعم في هذه الساعة العظيمة كان أناسٌ يقولون : إنّهم عثمانيون ، وآخرون يدّعون الإسلام ، وربما نفوا منه من يشاؤون ـ فرحين مستبشرين ، يختالون فرحاً ، ويمشون في الأرض مرحاً .

قد حدّثوا عن ضابطٍ من ضباط الجيش العثماني ـ ويا للخجل ـ أنه خرج من قهوة دياربكر في محلة شمبرلي طاش ، وأخذ يقبّلُ يدَ من أبلغه بشرى سقوط أدرنة تقبيلاً مكرَّراً ، وجرى من أمثالِ هذه الفضيحة أمثال عديدة في جميع أنحاءِ السلطنة ، وأنه لأعظم سقوطٍ في أخلاق العثمانيين والمسلمين [من وصل] إلى هذه الدركات ، التي مَنْ سقط إليها لم يعجب الناس من فشلِهِ في الحروب ، وخجلِهِ بين الأمم .

ولقد أخبرني أحد رجال الدولة من المسيحيين ، وممن ليسوا اتحاديين أنه بعد قتل ناظم باشا جاءَه في جوف الليل بعضُ ضباطٍ من أبناء العرب ، وهم يتحرّقون غضباً ، ويتوهجون حنقاً ، قائلين له : إننا لا بدّ من أن نأخذ بثار ناظم باشا ، فأجابهم : ما أجدركم يا أولادي بأن تأخذوا بثار وطنكم المغلوب ، وبثأر دولتكم المقهورة ، وأن تتركوا هذه الانتقامات الشخصية إلى ما بعدَ الحرب على الأقل .

والله إن من أخفى الأسرار الاجتماعية ، وأعضل الأمراض التي شاهدناها في هاتين السنتين ، أن يشاهِدَ بعضُ العثمانيين ما حلَّ بهم ، وببلادهم ، وبإخوانهم ، وأن يصابوا في شرفهم وعرضِهم ، وفي أغلى شيءٍ لديهم ، وتبقى لهم حشاشات متوفرة على بغض بعضهم بعضاً ، والتعصب للأحزاب ، ومناصبة فريق منهم الفريق الآخر العداوات ، والتفكر بالانتقام ، فقد ثقل على أولئك الضباط أن يناموا على ثأر ناظم باشا ، وهو الذي بغروره واستبدادِهِ برأيه رحمه الله كان أكبرَ سببٍ في هذا الخزي الذي أصابَ المسلمين ، ولم يثقل عليهم أن يناموا على الثأر الذي لهم عند البلغار واليونان .

ومن جملة فصولهم العجيبة القيامة التي أقاموها على قضية الدفاع عن أدرنة ، فما كنتَ تسمع إلا تنديداً ولوماً ، وما كنتَ تُحِسُّ منهم إلا ازدراءً وسخطاً ، وتارةً يقولون : مالنا وللحرب ، وما بسياسة العواطف يأخذُ

الرجال !! وكلُّ ذلك لكونِ كامل باشا مال إلى تسليم أدرنة ، **فكامل باشا هو المصيب** ، بل هو الصواب المجسَّمُ ، بل هو الحق الذي يتكلّم ، وكامل باشا هو الشيخ المحنك ، الذي وإنْ ذهب أكثرُ المملكة في أيامه ، **فهو أدهى الدهاة** ، والقطب الذي تدور عليه رحى السياسة ، ومهما فعل ، **فهو الحكمة** ، ومهما أنزل به على البلاد ، فإنما هو لخير الأمة !!!

والمصيبةُ أنّهم لقفوا بعض كلماتٍ مقتضباتٍ قالها قائلوها في محلها ، فظنّوها قاعدةً مطردةً ، وشرعوا يطبقونها على كل شيءٍ ، وظنّوا أنّهم أصابوا المحزَّ ، وطبقوا المفصل ، فكلما قام الاتحاديون ، وهم العرق الوحيد النابض في هذه الملة بعملٍ يقصدون به حفظ شرف الدولة ، والفداء الذي بدونه لا تكون أمة ولا وطن ، قالوا : ما لهؤلاء القوم ماشين بنا على سياسة العواطف ؟ وفاتهم أنْ ليس هناك سياسة عواطف ، بل سياسة حفظ الشرف ، الذي مَنْ فاته فليسَ له وجودٌ في هذه الدنيا ، ومن فاته المعنى فاتته المادة أيضاً .

نعم انكسرت **فرنسة** ، وأُخِذَ إمبراطورها أسيراً ، وتبدّد جيشُها ، وأحاط الألمان بعاصمتها ، وصارت جميعُ مقاوماتها عبثاً ، ومع ذلك اتفقت جميعُ الأمم على أنّ إصرارها على الدفاع كان واجباً ، **لأنّ الأمة التي لا تدافِعُ عن شرفها ، ليسَ لها بقاءٌ ولا أرضٌ ولا سماءٌ** ، وإنّ الناس الذين لا يحافظون على عواطفهم لا يقدرون أن يحافظوا على أموالهم ومرافقهم ، فما قاومته فرنسة بعد انقطاع كلِّ أملٍ في نجاحها في حرب ألمانية ، لم يزدها إلا شرفاً وعزاً .

وكذلك **روسية** بقيت تكافِحُ اليابان كفاحَ المستميت ، وهي واثقةٌ بعقم كل حركة من حركاتها ، وقد طوّحتْ بأسطول البلطيق إلى بحر الشرق الأقصى ، وهي على يقينٍ بأنّه سيناله من أسطول اليابان ما ناله ، لكن لم تجدْ بُدّاً من إيصال شعبها إلى درجة اليأس التام ، خوفَ انتقاضه عليها ، ولم يلمها أحدٌ على ما فعلت ، ولا ازدادت إلا رفعةً في نظر العدو والصديق .

فأما **العثمانية** ، فليس لها أن تحافظَ إلى الآخر على شرفها ، ولا أن تدهقَ الكأس إلى أصبارها ، بل يجب أن تبادِرَ إلى قطع الأمل ، وتتجرّدَ من جميع

العواطف ، ولا يكونَ لها أسوة ببقية الأمم ، لأنّ عندها مَنْ يقرأ عليها فلسفةً جديدةً .

مع أنّه لو أخذ البلغارُ أدرنة بدون حرب ، كما كان تقرَّرَ مع المرحوم كامل باشا ، لما كان جرى بين الحلفاء البلقانيين ما جرى من الخلاف الذي اهتبلنا من ثناياه الغرة التي أعادت لنا أدرنة ، وقسماً من شرفنا .

وذلك أنّه لما أخذ البلغار أدرنة ، قويَ عزمُ اليونان على استبقاء سلانيك ، وطمعَ الصرب في الاحتفاظ بمناستر لأنفسهم ، فلما قام البلغار يزاحمونهم عليهما بالمناكب ، أجابوهم بقولهم : حسبكم أدرنة التي أخذتموها ، ولم تكن داخلةً في الحساب .

فقال البلغار : هذه قد استولينا عليها بسيوفنا .

فقال الصرب : إننا أنجدناكم لأخذِها بنحو سبعين ألفَ جندي ، وأرسلنا مِنْ عساكرنا إلى حد شتالجة .

وقال اليونان : لولا مشاغلتنا للدولة العثمانية من الغرب ، وسدُّنا عليها باب البحر الأبيض ، لما تسنّى لكم أن تأخذوا أدرنة ولا غير أدرنة ، فوقع بينهم من المشاحنة بسبب أدرنة ما أعاد الجدال جلاداً ، وانحلّ ما كان انعقد من حلفهم انحلالاً غريباً ، فكان لنا فرصة لاسترداد ثلثي تلك الولاية ، ورجوعنا دولة أوربية ، بعد أن كانت الأستانة قد أصبحت لا تصلحُ عاصمةً للعثمانية ، وصار وسطنا طرفاً .

ولا نعيدُ الآن ما بدا منهم يوم استرجاع أدرنة من العذل والتنديد ، وما ردّدوه في جرائدهم من الكلمات الدالّةِ على غصتهم بهذا الشرف ، الذي تسلت به الأمة العثمانية على عظيم بلاياها ، فقد أشرنا إليه سابقاً ، ولكنّه سيبقى إلى ما شاء الله سمعة عار على هذا الوطن التاعس ، الذين لم تُضِرَّ به أوربة بحروبها ، ولا الأمم السلافية بهجماتها ـ ضررَ هذه الأرواح الخبيثة في جنباتها .

وسيقولون لك : هذه أمثال قلائل في أمةٍ كبيرة ، لا تخلوا منها أمة

ولا وطن ، وهذه مفاريدُ حوادث لا يبنى عليها حكم ، وما كنا بأقل من الاتحاديين أسىً على سقوط أدرنة ، ولا أقل فرحاً باستردادها ، إلى غير ذلك مما أعتادوا التمويه به .

والجواب : إنّ هذه الأعراض المخجلة التي ظهرت في الأمة العثمانية ، إنما كانوا [هم] أهمَّ وأعظم أسباب ظهورها ، وإنّ هذه اللامركزية التي قاموا بها في هذه المدة ، وأصحبوها الحملات الشنيعة على الحكومة ، هي التي أوجدتْ في أكثر المعارضين للحكومة روحاً لا تليقُ إلا بأمةٍ يتخطبها الشيطان من المس ، إنْ لم تكن خائنةً ساقطةً .

ولا نقول : إنّ كل المعارضين وكلَّ اللامركزيين كانوا منطوين على هذه السرائر ، حاشا لله ، ولكننا نقول : إن مئات منهم أو ألوفاً كانوا يشتفون بخسائر الدولة ومصائبها ، وهزائم إخوانهم ، غيظاً بالاتحاديين ، وإنّ في ذلك من العار والإثم ما هو كافٍ ، وما لا يمهد له عذر ، ولا يغتفر له وزر .

ومن دقق في جرائدهم ، وأنعم النظر في كتاباتهم - لم يخفَ عليه أنّهم كانوا شامتين ، بل كانوا كأنّهم ليسوا من هذه الأمة المقهورة .

وزد على ذلك أنّ حركتهم لم تبطل ، ومشاغبتهم لم تقف عند حد ، ولا يزالون يترقّبون كلَّ فرصةٍ ، وإن كانوا أبدوا التوقف والتريث ، فلم يكن ذلك منهم ضناً بالمصلحة ، ولا رفقاً بالدولة .

ومنهم عصابة يعملون على هدم الدولة من أساسها ، ولكن خافوا إذا ظهرتْ سرائرُهم بتمامها ، أن تقومَ عليهم العامة ، الذين خدعوا كثيراً منهم بقولهم : إنهم إنما يريدون ليصلحوا الأمورَ ، ويخففوا عن عواتقهم أحمال سوءِ الإدارة .

بيان اللامركزية وتفنيده

وبينما الدولة ترضى أن تفاوضتهم في الأمور العامة ، ولا تأنف من معاملتهم معاملةَ الأب لأولاده ، بعدما جرى منهم من الأفعال ، إذ نشروا رسالة سموها « بياناً للأمة العربية من حزب اللامركزية » عادوا فيه إلى نغمتهم الأولى ،

ولم يكتفوا بما لا يزال محيطاً بالدولة من الأخطار والمشاكل ، وبما يبرز من روسية من الحركات الموجهة لاضمحلال الدولة والإسلام ، وبقيامها بعد تخليص الروملي من أيدينا إلى فتح مسألة في الأناضول ، تكون لنا مكدونية ثانية ، وتؤول إلى تقسيمنا ، نظير العجم ، حتى أوحت إليهم قلوبهم الجاسية أنْ يشاقُّوا الدولة أيضاً في هذه الأزمة ، كأنّهم آلوا على أنفسهم أن لا يدعوا أزمةً تقع فيها الدولة إلا كانوا أولَ من صَبَّ على نارها زيتاً ، فجاؤونا برسالةٍ استهلّوها بقولهم :

« من المعلوم أنّ الأمة العربية المستظلة براية الهلال العثماني من أخلص الأمم للدولة العلية الخ »

وهذه حقيقة مسلمة ، فإنّ كلَّ العرب مخلصون للدولة ، وإنما يخلصون بذلك لأنفسهم ، وما خلص منهم من الإخلاص للدولة إلا أولئك النفر ، الذين هبُّوا يثيرون عليها المشاكل ، ويمشون إلى بلاد الأجانب ، مستعينين بهم على الدولة المتبوعة .

ثم قالوا : « صبرت الشعوب العربية العثمانية على ذلك طويلاً ، وللصبر حدٌّ ينتهي إليه ، ولما رأت هذه الشعوبُ أنّ الالتجاء إلى رابطةٍ عامةٍ دخلها الوهن ، والسكوت على مرضٍ بلغ حدَّ الإعضالِ ليس من الإخلاص للدولة ، التي يودّون بقاءها في شيء ، هبَّ عقلاؤهم والمفكرون فيهم إلى البحث عن أقربِ الطرق المؤدية إلى السلامة » .

يعنون بذلك ـ كما هو ظاهر ـ أنّ الرابطة العثمانية دخلها الوهن ، فلابدّ من الاعتياض عنها برابطة أخرى ، وهذا ظاهرٌ لا يحتاجُ إلى تأويل ، ولا يقبل مماحكة ، ويا ليت شعري إذا انحلت هذه الرابطة بالوهن ، الذي لم يدخل إلا بوجود المشاقين في الأمة ، فإنّ الرابطة التي يَعِدُوْنَ الناس بها ، ويخيلونها كفيلةً بالنهوض ، هي أشدَّ وهناً ، وأسرع انحلالاً ، وأوهى أساساً ! ومن عرف دخائل الأمة العربية ، وتبطَّنَ سرائر سورية خاصةً فهم كيف أنّ تلك الرابطة التي يسعون إلى إقامتها مقام الرابطة العثمانية ليست سوى ربقة يهيّئون لها أعناق أبناءِ جلدتهم ، فهم مطوقون ، وجامعة يجمعون إليها أيدي أولاد وطنهم ، فهم

مقمَحون[١] ، والسعيد من اتعظ بغيره ، والعاقل من قاس يومه على أمسه ، والبصير من أبصر ما حواليه ، وأحس بما يجري تحت رجليه .

ثم قالوا : « إنّ أدواء الوطن والأمة كثيرةٌ ، ترجِعُ كلُّها إلى أمر واحدٍ هو شكلُ الإدارة ، التي تُدارُ به المملكة » .

لا نزاع أنّ شكل الإدارة محتاجٌ إلى التبديل ، وأن المركزية الشديدة خصوصاً في أمر المعارف والأشغال العمومية هي غير مساعدة للترقي ، ولكنّ هذا الأمر قررته الدولةُ قبل اجتماع حضراتهم في باريز ، وقبلَ وجود اللجنة العليا والسفلى ، ولذلك لم يكن من حاجة إلى تلك الجلبة ، التي لم يكن لها فائدة سوى زيادة ضغط الأجانبِ على الدولة ، وتحيّفهم جوانب الأمة .

فأما كون أدواء الأمة كثيرة ، وكون مرجعها كلها [إلى] شكل الادارة - فليس بصحيح ، فإنّ مرجع الأمراض والعلل هو في الحقيقة كون الدولة دولة إسلامية وحيدة بين دول عديدة ، تخالفها كلها في المذهب ، وتطمع في توارثها ، فهي ترهقها من كل جانب ، حتى لا تقدِرَ على لم شعثها ، وهي حقيقة كنا نودُّ لو استغنينا عن التصريح بها ، تحاشياً لنسبة التعصب ، لكن لسوء الحظ هي الحقيقية الوحيدة ، وما دام كثير من الأوربيين يصرّحون بها ، فلا عجبَ إذا قفونا في ذلك أثرَهم .

ثم ذكروا عدم استفادة المملكة من كنوزها الطبيعية ، وتأخر البلاد من كل وجه ، وهذا وإن كان رجالُ الباب العالي أنفسهم لا ينكرونه ، فإنّ فيه إغراقاً كبيراً ، لأنّ التقدم المادي والمعنوي أمرٌ مشهود ، لا سيما في الشام ، ولأنّ صعود الأثمان والأسعار ، وازدياد المحاصيل ، وتضاعف أعداد طلاب العلوم في جميع أقطار سورية بدون استثناء - هو فائتٌ أمثالَه في كلِّ صقع آخر ، حتى في مصر ، فلا يصحُّ أن يُعَدَّ ذلك تأخراً ، ويكونُ من باب كفران النعمة ، وإنكار الحقائق المعززة بالأرقام ، وللدولة نفسِها في هذا الرقي اليد الطولى ، خلافاً لما يتشدَّقُ به المتفيقهون ، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم .

---

(١) يقال أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعاً من ضيقه .

ثم أشاروا إلى عدم كفاية الموظفين، الذين يقذف بهم المركز إلى الولايات.

وهذه قضية قسم كبير منها صحيح ، ولا إنكار في أنّ في انتخاب المأمورين تساهُلاً يجبُ النظر في العدول عنه ، ولكن علمنا بالتجارب أنّ المأمورين الذين في ولاياتنا ليسوا إلى اليوم أعلى درجةً في الكفاية من الذين يقذف بهم المركز، ويقذف بحقهم هؤلاء المتعنتون .

وهذه هي المجالس البلدية في كلِّ الولايات متمتعة بأوسع الحرية ، ومنتخبة من أماثلَ من عندنا ، ولا نظنُّ دائرةً من دوائر الدولة أشدُّ تأخُّراً من دوائر البلديات التي كان ينبغي أن تكونَ بحسب زعمهم مصدرَ سعادةِ البلاد ، لتوفّر شروط العمل فيها ، وكونها على حد قول المتنبي :

ولم أرَ في عيوبِ النّاسِ شَيْئاً كنقصِ القادرينَ على التمامِ

هذا والنادر لا عبرة به .

ثم قالوا : « إن عقلاء العرب فكّروا فيما يجبُ عملُه لأجلِ ملافاة الخطر ، فلم يجدوا طريقةً للسلامة إلا بأنْ يناطَ بأهلِ كلِّ ولايةٍ النظرُ في شؤونها الإدارية والتعليمية » .

والجواب عليه أنّ الدولة ضمنت هذا الغرض للولايات العربية وغيرِها بقانونِ الولاياتِ الجديد ، الذي فيه أكثر مما ذكروا لمن أراد أن يتدبّرَ وينصِفَ ، لا لمن أراد أن يتعنّتَ ويتعسَّفَ ، وعلى فرض أنّه لم يزل فيه بعضُ النقص ، فكان يمكنُ لمجلس الأمة عند التئامه أن يسددَه .

قالوا : كذلك تأسس في مصر حزب اللامركزية الإدارية ، وارتاح إليه جميع المخلصين . . » الخ .

نعم ارتاح إلى هذه الحركة كلُّ من يتربّصُ بالدولةِ الدوائرَ ، وكلُّ مَنْ يرود للأجانب في بلاد الشرق ، وكلّ من ينتظر شبوب الفتنة بين العرب والترك . **وأفراد قلائل ممن خدعتهم تمويهات هؤلاء الأساتذة من دجالي الإصلاح ، ولم نعلم أنّ الأمة العربية ارتاحت إلى تلك الحركة ، لا سيما في الظروف الزمانية والمكانية التي اختاروها لها .**

ثم قالوا : « لم يشذَّ عن مشاركتنا بهذا الشعور إلا أفرادٌ من عبّاد المنفعة في الأمة العربية » .

فحاشا لله أن يكونَ بلغ الانحطاط من أخلاق الأمة العربية إلى أنْ يكونَ الشعورُ السائِدُ فيها هو مشاغبة الدولة في أشدِّ أزماتها ، وانتهاز فرصةِ ضعفها لأجلِ المطالبة بالاستقلال الإداري ، ورفع نعر الجنسية على نعرةِ الدين ، التي لولاها لم يكن شيءٌ ، والتي بها قامتْ دولةُ العرب .

وعقد المؤتمرات في بلاد الأجانب ، ومراجعتهم بصورة رسمية في الأمور الداخلية الصرفة ، التي لا ينبغي أن تدورَ مذاكراتها إلا بين العثمانيين فقط .

حاشا ثم حاشا أن يكون جمهور العرب موافقاً على هذه المساعي ، التي إنما تليقُ بأصحابها المعهودين .

ولقد أثبت جمهور العرب ـ إلا شذاذاً قلائل ليسوا في العير ولا في النفير ـ أنّ هذه الأفكار هي بعيدةٌ عنهم بعد الأرضِ عن السماءِ ، **وأنّهم جميعاً يطلبون الإصلاح ، ولكنّهم لا يطلبونه على هذا الشكل ، ويريدونَ تبديلَ شكل الإدارة ، ولكنْ لا يطرقونه من هذا الباب** .

وهؤلاء هم أمراء العرب ، وسادات العرب ، وغطاريف العرب ، وصناديد العرب : من الشام ، ومصر ، والحجاز ، ونجد ، واليمن ، واليمامة ، والعراق ، والجزيرة ، والغرب . ليقل لنا هؤلاء القائلون : مَنْ مِنْ هؤلاء أرسل إلى اللجنة اللامركزية في مصر يقول لها : قد أحسنتِ فيما فعلتِ من هذا القيام في هذا الوقت الصعب ومن فتح الأبواب التي فتحتها على الدولة في سورية وفي البلاد العربية ، أو من منهم أبرقَ إلى مؤتمر باريز الملقّب بالعربي قائلاً : إننا نحن قد وكّلناك عنا ، وفوضنا إليك أمر المطالبة بحقوقنا .

وإنما كانت هذه الفئةُ عبارة عن أفراد قلائل في بعض مدن سورية ، جمعتهم على هذه الأفكار أسبابٌ متعددة ، واستمدوا القوةَ من ضعف الدولة ومصائب الإسلام ، وكسبوا المكانةَ التي كسبوها لا بأهميتهم في قومهم ، ولا بمؤازرة عنصرهم لهم ، بل بمراجعتهم الدول الأجنبية ، ووضع أيديهم في أيدي العناصر

المقاومة للدولة ، وكفاهم بذلك خزياً لو كانوا يشعرون .

وأما قولهم الذي لا يزالون يكررونه : « بأنّ مقاومي حركتهم إنما هم من عُبّاد المنفعة » فالله يعلم أنّ مقاوميهم هم أشرفُ منهم نفوساً ، وأعلى همماً ، وأزهدُ في الدنيا ، وأبعدُ عن المنافع الشخصية ، وأنهم لم يقوموا لإبطال سحرهم ، وتضليل كيدهم ـ طمعاً في جاهٍ ولا مالٍ ، ولا استزلالاً[1] لنعمةٍ أو منحةٍ ، ولكن خوفاً على بلادهم من الهزاهز والفتن ، وربيئةً بأوطانهم عن أن تجرَّ إليها هذه الحركات ما جرتهُ إلى غيرها ، فإنّ استمرارَ النزاع بين الأحزاب والعناصر ، وتمادي الأخذِ والردّ والإيجاب والسلب ، لا يمكن إلا أن يؤديا إلى فتنةٍ داخليةٍ ، تكونُ سبب تَدَخُّلٍ أجنبيٍّ في سورية ، وربما تبعَ هذا التعرض الأجنبي لسورية تعرُّضُ دولٍ أخرى من قبيل التعويضات على رأيهم ، فنكون فتحنا بأيدينا بابَ تقسيم السلطنة العثمانية ، فضلاً عن أن نكونَ اقتدحنا زند فتنةٍ في سورية ، ترمى علينا بشرر كالقصر ، فخفنا على بيوتنا ورجالنا ، وأشفقنا على أعراضنا ودمائنا ، وعلمنا ما عندنا من الحزازات والأحقاد الكامنة إلى يوم انفجار الدم ، فما لنا أن يصيبنا ما أصاب المسلمين والنصارى في الروملي ، أو أنْ تعاد فينا الفتن السابقة ، « وما يومُ حليمة بسر »[2] فنقع في الدواهي التي تصفرُّ منها الأنامل ، عندما يكون أولئك الذين أشعلوا هذه النار جالسينَ من حول حديقة الأزبكية[3] ، ينظرون إلى الفرارات الكهربائية العادية ، ويقرؤون الصحف والبرقيات الآتية بأخبار خرابِ الوطن ، وتناحر الجيران ، حين لا ينفع النادمين ندم ، ولا يغني عن اللائمين لوم .

هذه أسباب مقاومتنا لهذا الفساد لا غير ، وهؤلاء القوم لا يزالون يفترون على الناس ، ويرمونهم بالتملُّقِ إلى الدولة ، والتزلُّفِ إلى الترك ، والممالأة على العرب ، طمعاً في كسب مال أو نيل منصب ، ويشيعون أنّ مقاومي فسادهم

---

(١) طلبا .

(٢) يضرب لكل أمرٍ متعالمٍ مشهور انظر كتاب « الأمثال » لأبي عبيد ص (٩٢) .

(٣) من أشهر حدائق القاهرة .

أخذوا الأموالَ الجزيلةَ والبُدَرَ[1] المصرورة ، وأنّهم أَثْرَوْا من مالِ الدولة ، وأنعلوا أفراسهم بنعماها عسجداً[2] ، إلى غير ذلك مما يعلم اللهُ وملائكتهُ ، بل يعلم الناسُ في سورية أنّه لا نصيبَ له من الصحة .

ولو تأمل هؤلاء المفترون قليلاً ، لوجدوا أنّه لو صحّ شيءٌ مما يقولون ، لكان أصغر جرماً ، وأخفَّ تبعةً ـ من أخذ بدر الأجانب ، ومد اليد إلى عدوِّ الوطن لقبض المال ، الذي يتمكّنُ به من مد اليد إلى الوطنِ نفسِه .

ثم يقولون : « إنّ جمعيةَ الاتحاد والترقي التركية أرسلت مندوباً من قبلها للاتفاق مع أعضاء المؤتمر ، بعد أن نحلوه اسم العربي ، وجعلوه نائباً عن الشعب العربي الكريم » .

وحقيقة إنّه لا يمكن أن يُقال : إنّ جمعية الاتحاد والترقي تركيةٌ ، بل عثمانية ، وهناك فرق ظاهر ، وهي التي ضمّتْ من العرب سادةً لا يقاس بواحدٍ منهم أحدٌ من جماعة اللامركزية ، بل هي التي كانَ من جملةِ أعضائها هؤلاء الذين قاموا اليوم ينصبون لها العداوة[3] .

وأما كون هذه الجمعية مما يليق بصدقها للدولة ، وينطبِقُ على مبادئها في ضمد الجراح العثمانية أن لا تأنف من المفاوضة مع بعض شبان من تبعة آل عثمان ، تهوّروا بسببٍ من الأسباب في عثرة ، يرجون إقالتها ، ودخلوا في مسألةٍ أصبحوا ينشدون منها مخرجاً شريفاً ، فأرسلتْ إليهم مَنْ ينصحهم ، ويثير فيهم عواطفَ العثمانية ، ويذكّرهم بواجباتهم الوطنية ، إنْ لم تكن واجباتهم الدينية ، لعلهم يتخذونها فرصة للإنابة ، فهذا لا محلَّ فيه للانتقاد .

فأما ما ذكروه من أمر الاتفاقية مع بعض التحوير ، ومن قضية الإصلاح ، فالحقيقة فيه أنّ جمعيةَ الاتحاد والترقي لم تكن تجهل حقيقة مؤتمرهم هذا ،

---

(١) جمع بَدْرة وهي صرة مليئة بالدنانير أو الدراهم .

(٢) ذهباً كناية عن سعة الغنى .

(٣) فمحب الدين الخطيب رحمه الله تعالى كان من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي كما هو ثابت في مذكراته وهو هو السكرتير الثاني للجمعية اللامركزية !!

وأنهم لم ينوبوا فيه إلا عن أنفسهم ، وعن زمرة صغيرة ممن شاكلهم ، ولكنّها ظنت بالتساهل مع بعض أبناء الوطن الوصول إلى سدّ هذا الباب ، وإماطةِ ذلك العار ، ورضيت بما رضيت به على هذا الأمل ، ولكنّ الحكومة هي غير الجمعية ، فلم تقدر أن تجاريَ هؤلاء المطالبين في جميع أهوائهم ، وإنما نشرت بعضَ القرارات تسكيناً لخواطرهم ،ولم تكن قراراتُها هذه نشأة جديدة أحدثها مؤتمرهم الباريزي ، ولا لجنتهم العليا ، بل هي أمورٌ مقرَّرةٌ عندها مِنْ قَبْلُ ، ارتضت نشرها على الملأ أثناء مجيئهم إلى الأستانة ، حتى لا تدعَ محلاً للائمة ، ولا مجالًا لتهمة كبرى على أبنائها ، فجعل هؤلاء ينفخون في أبواق عظمتهم ، مردّدين كلَّ يومٍ ذكر الاتفاق بين الجمعية والمؤتمر ، وناشرين قرار مجلس الوكلاء والإرادة السنية ، إيهاماً بأنّه لولاهم لم تكن في هذا الموضوع إرادة سنية ، ولا قرار وكلاء ، وأنّهم هم الذين استدرّوا كلَّ هذه العطايا ، واستنزلوا جميعَ هذه النعم ، ومع هذا فإنّهم لولا حرجُ موقفِ الدولة ، وإشفاقُهم على الوطن ، لم يكونوا ليرضوا بها ، فرضاهم بها مؤقت ، وكلُّ هذا منهم تَزَيُّدٌ بما ليس فيهم ، وتعاظمٌ في عيون العامة ، وما تزيَّدَ متزيِّدٌ إلا لنقصٍ يجدُه في نفسه .

ثم نشروا برنامج حزبهم ، وأردفوه بالاتفاقية التي عُقدت مع الشبيبة ، وصدّقها مؤتمر باريز ، وأردفوا ذلك بيان الحكومة بموجب برقية صادرة من نظارة الداخلية ، حتىيخالَ القارىء أنَّ كلَّ هذه القرارات سلسلة متصلة ، فلولا الاتفاقية التي صدّقها مؤتمر باريز لم تكن برقية نظارة الداخلية ، ثم لم تكن الإرادةُ السنية بالإصلاحات العربية ، وأيُّ دليلٍ بعد هذا أعظمُ من هذا الدليل على فضل اللجنة العليا على الأمة العربية ، فليقدّسوها ، وليسبّحوا بحمدها ، وليعبدوا ربَّ هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوعٍ ، وآمنهم من خوف ، لا جرم أنّ فضل هذه اللجنة على العرب كفضل النيل على مصر ، ما بقيت عندنا في ذلك مرية .

ثم إنهم أجروا المقابلة بين هاتيك الاتفاقيات وبين بيان الحكومة ، واستخرجوا منها الفروقَ المهمة التي آلت إلى توقف حزب اللامركزية عن إرسال

وفده إلى الأستانة ، كما كان قُرِّرَ ، ونشروا صورةَ كتابٍ أرسل به رفيق بك العظم إلى أحد أركان الدولة ، يقول فيه : إنّه مع تكذيب جمعية الاتحاد والترقي في جريدة « طنين » لخبر الاتفاق ، الذي حصل بصورة مهينة لطلاب الإصلاح ، فإنّ اللجنة كانت باقية على عزم إيفاد الوفد ، لاعتبارها أنّ الحقائق هي التي تنشَدُ ، لا الألفاظ ، لكن الحكومة ببيانها الأخير شوهت مواد تلك لاتفاقية تشويهاً أدخلَ اليأس من جديد في نفوس أعضاءِ حزبهم ، وهو أي رفيق بك يخاطِبُ ذلك الركن من أركان الدولة بصفته من شهود ذلك الاتفاق ، بأنّ اللجنةَ عوّلتْ على إيقافِ الوفد ، حتى ترضى الحكومة بتطبيق الاتفاقية بالحرف ، أو إيداع مسألة اللامركزية إلى رأي الأمة .

وإنْ كانت الحكومة لا ترى لا هذا ولا ذاك ، فقد عوّل رفيق بك العظم والركن الآخر من أركان الأمة على المضي في الوجهة التي رسمها الحزبُ لنفسِه ، تاركاً تقديرَ النتائج المترتبة على ذلك إلى ضمائر القابضين على زمام الأمر اليوم الخ .

يتهدّدون الدولةَ بأنّها إنْ لم تجبهم إلى مطالبهم ، فإنّهم يحدثون أحداثاً ، ويخلقون مشاكل ، ويجرون غوائل ، ويا حبذا لو كانوا يتهددونها بأهميتهم وبما لَهم من النفوذ والتأثير في العرب ، ولكن كلُّ تهديدِهم وصلَفِهم وجميع تدللهم وتعجرفهم مبني على اعتقادهم حَرَجَ مركزِ الدولة ، ووجودها بإزاء دولٍ عظام ، كلٌّ منها يجاذِبُها الحبل من جهة ، والدليلُ على ذلك أنّه ما ظهرت منهم هذه القوة إلا عندما ظهر ضَعْفُ الدولة ، وأنّهم ما توردوا هذا الإصلاح الذي ملاؤوا الأرض بألفاظه الضخمة ، إلا من ثنايا هزائم الجيش العثماني ، وأنّهم لو علموا أنّ الأمة تجيبُ ندائهم لما أحجموا عن شيءٍ من الحركات التي تفتُّ في عضد الدولة ، إجباراً لها على إرضائهم ، لكنّهم خافوا أن يُفْتَضَحَ أمرُهم أكثر مما افتضح ، فظهروا بمظهر المناصح ، الذي كظم الغيظ حباً بسلامة الناس ، ولكنْ لا يفتأون ينذِرون الدولة ، ويتوعّدونها لأقلِ حادثة ، علماً بوفرة مشاكلها ، وكثرة أعدائها ، والاعتمادِ على غيرها ، والاعتزاز بضدها ، ولبئس ما ارتضوه من هذا الموقف لأنفسهم لو كانوا يعقلون .

ثم رموا في الفلسفة إلى أبعدِ شأوِ المرتمى ، فجاءونا بآيات جديدة في تاريخ الأمة العربية ، ورجعوا بنا إلى مشرعين غير محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ ، مما يؤكّد ما طالما سمعناه منهم وعنهم من المبادىء التي يريدون أن يزرعوها في الأمة العربية فقالوا : « إن الأمة التي استمدّ منها العالم القديم روح المدنية والتشريع منذ ستة آلاف سنة ، أي من عصر حمورابي ، وكان العالم الجديد مديناً في مدنيته لها من ألفِ سنةٍ ، أي في عصر الرشيد والمأمون وما بعدهما ، لا يجوِّز العدل والإنسانية أن تسحق بأقدام الطامعين والسياسيين ، وأنّ الأوطان التي أنبتت حمورابي أولُ واضع للشرائع المدنية ، وأخرجت مثل موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، الذين قلبوا نظام العالم الإنساني ، وأخرجوه من ظلمات الوثنية والرذائل إلى نور التوحيد والفضائل ، لا يجوزُ أن تكون أوطاناً لغير أهلِها ، النابتين من ترابها الخ » .

أولًا : إنّ الإسلام قد نهانا عن مفاخراتِ الجاهلية ، وأنّ الشرع لا يعلم لدى سلب الإسلام فضيلةً مذكورةً ، فالاعتزاء إلى حمورابي ، والاعتزاز بحمورابي ليسا من روح الإسلام في شيءٍ .

ثانياً : إنْ جاز الفخر بفرسان الجاهلية ، أو بأشراف الجاهلية ، أو غير ذلك مما قبل الإسلام ، فلن يجوزَ الفخرُ بشريعةٍ زعم اللامركزيون هؤلاء أنّها من وضع العرب قبل الإسلام ، وأنها أولُ شريعة وضعها الناس ، فإنه لا شرائع للمسلم مع الشريعة المحمدية كما لا يخفى .

ثالثاً : إنْ زعموا أنّ مقصدهم بالتنويه بشريعة حمورابي هو بالنسبة إلى ما قبل الإسلام ، أو على رأيهم العالم القديم ، وأنه كان مديناً بالمدينة لحمورابي ، فما معنى قولهم : إنّ العالم الجديد مدينٌ للأمةِ العربية بالمدنية منذ ألفِ سنة ، ولماذا لا يقال : إنّ العالم الجديد مدينٌ بالمدنية للعرب منذ ألف وثلاثمئة سنة ، أي منذ بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

رابعاً : ظهر أنّ مرادهم بتحديد ابتداء مدنية العرب منذ ألفِ سنة فقط ، لا ألف وثلاثمئة سنة تاريخ ظهور الإسلام ، أنّهم لا يعدّون ظهور الإسلام مبدءاً للمدنية ، ولا صاحبَ الدين هو المعلّم الحقيقي للخير ، وإنما يعدّون مبدأ

التمدن العربي خلافة الرشيد والمأمون ، حسبما صرّحوا به ، لكون الرشيد والمأمون هما اللذين أمرا بتعريب كتب اليونان ، وعنيا بفلسفتهم ، فالمدنية بزعمهم لم تبدأ بالقرآن ، بل بفلسفة اليونان ، كما لا يخفى على كلِّ مَنْ تأمَّلَ في عبارتهم .

خامساً : بعد أن ذكروا حمورابي مرتين في فقرة واحدة ، وجعلوه أولَ واضع للشرائع المدنية ، عادوا فستروا الدسيسة بذكر أصحاب الشرائع الثلاث : موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم ، فجعلوا للنبيِّ الأعظم حصةً من جملة حصص في مكان لا يجوز أن يذكر فيه معه غيرُه ، لأنّه مخصوص بالتشريع ، ولأنّ الشريعةَ المحمديةَ هي أكمل الشرائع بإقرار الجميع .

سادساً : إذا كان محمد ﷺ نقل الناس من ظلمات الوثنية والرذائل إلى نور التوحيد وفضائله ، فما معنى هذه المفاخرة بالعرب قبل الإسلام ؟ وما وجه تذكار ذلك التاريخ العربي المملوء بفظائع الجاهلية وسفاحها ، ووأد بناتها ، وعبادة عُزّاها ومَنَاتِها ، وما لايزالون يكررونه على أسماعنا بكرةً وأصيلاً من كون العربية هي مقدَّمةٌ على الإسلام ، وأنّ الإسلامَ طارىءٌ عليها ، مع أنّه ما اعتزتْ العربيةُ إلا بالإسلام !

سابعاً : لنتركْ كلَّ العقائد الدينية ، ولننظر إلى المسألة نظر أجنبيٍّ غير متعصب ، فإننا نجدُ عندئذٍ أنّ شريعةَ حمورابي التي أشاروا إليها إنْ هي إلا بصيصٌ ضعيفٌ من نورٍ خفيفٍ لا يذكره عاقلٌ بجانبِ شمسِ الإسلام المشرقة ، وأنّ القوانينَ المنسوبةَ إلى حمورابي لم تكن سوى بعض إصطلاحات من قبيل العين بالعين ، والسن بالسن ، ومما اصطلح البدو وأشباههم على ما هو أرقى منه في درجات المدنية ، فأينَ هذا من الشريعة المحمدية ، التي لا تزالُ شرائِعُ الدنيا عيالًا عليها ، حتى إنّ أوربة الراقية العالية لتستمدُّ منها ما ينقصُها من الأحكام إلى يومنا هذا ، ولا تأنَفُ حكوماتُها أنْ تراجِعَ مشيخةَ الإسلام في الأستانة في معرفة كثيرٍ مما خلتْ منه شرائِعُها تماماً مع أنه مبذولٌ في كتبِ فقهائِنا[1] .

---

(١) انظر ما قاله مؤتمر باريس حول الشريعة الإسلامية في « المدخل الفقهي العام » (١ : ٢٤).

ثامناً : غاية ما وصل إليه التحقيق إلى هذا اليوم من أمرِ مشرِّعِ اللامركزيين الجديد ، هو أنّه ملك من ملوك بابل ، وُجِدَ في نواحي العراق سنة (٢٢٥٠) قبل ميلاد المسيح ، ويقال : إنّه وَحّدَ المدن البابلية [في] مملكةٍ واحدةٍ ، وكانت لغتُه ولغةُ قومه بابلية ، والبابليون خليطٌ من أممٍ مختلفة ، يُظَنُّ أنهم لا يرجعون إلى أصل سامي ، ويذهب بعضُهم إلى أنّ طائفةً من العرب هاجرت إلى أرضِ بابل ، وأنّ لغتها غلبتْ على لغة أهلها ، وعلى هذا لا يمكنُ أن يُجْزَمَ بأنّ البابليين هم عرب ، والعرب ساميون[1] ، وأنّه على فرضٍ كان امتزجَ بهم قومٌ من العرب ، ممن يسمى النبط ، فلا يكونونَ بذلك عرباً ، قال المتنبّي :

بها نبطيٌّ من أهْلِ السّوادِ   يدرِّسُ أنسابَ أهلِ الفلا

وهل صار قصارى أمرنا أن نفتخرَ بكوننا نبطاً من سواد العراق قبل الإسلام .

ولو فرضنا أنّ حمورابي هو عربي النسب أصلاً ، فلم يبق عربياً بعد أن صار ملكاً لأمةٍ غيرِ عربية ، فإنّ المرءَ من حيث يوجد لا من حيث يولد ، وإنّ كثيراً من فرسان العربية اليوم ليسوا منها ولا قلامة ظفر ، ومع هذا فهم يتكلّمون بلسانِها ، وهم مستعربون .

ثم قالوا : إنّهم لا يعلمونَ عربياً مخلِصاً تُظِلُّه راية الهلال العثمانية إلا وهو يريدُ البقاء للدولة والحياة مع إخوانه الأتراك تحت رايةٍ واحدةٍ ، كما أنه لا يوجد عربي يعقِلُ معنى الحياة يرضى أن يكونَ مكانُه من هذه الدولة مكان العبدِ المملوك من المالك .

والجواب : أننا لم نجد في كلامهم من أوله إلى آخره جملةً واحدةً نقبلها بدون اعتراض ، سوى هذه الجملة ، ولكنّ الطريقَ الذي ساروا إليه لأجلِ بقاء الدولة والحياة مع إخواننا الأتراك ، ولأجل أن لا يكون العربي مع التركي بمنزلة العبد من السيد ، ليس هو الطريق المؤدِّي إلى سلامة عربي ولا تركي ، بل هو الطريق الموصل إلى هلاك الإثنين معاً ، والنافذ إلى عبودية كل منهما إلى شخصٍ ثالثٍ ، هو الإفرنجي ، ويا حبّذا لو شاهدنا من هذه الفئة ربع هذه الحمية العربية

---

(١) كتب هذا الكلام عام (١٩١٣) .

في رفع ربقة الأجنبيِّ من أعناق العرب ، **الذين أصبحَ منهم ما يقرب خمسين** مليوناً تحت سلطنة إنكلترة وفرنسة وإيطالية الخ فنحنُ نقولُ قبلهم : **إنّ أوطان العرب لا يجوزُ أن تكون أوطاناً لغير أهلها** .

ثم عادوا إلى الجعجعة بالفارغ ، فقالوا : إنّه في اليوم الذي يصدُرُ فيه منشورُهم هذا « تهتزُّ أسلاكُ البرق ، وتنبض عروقه بين عاصمة الدولة وجميع الولايات العثمانية العربية والجاليات العربية العثمانية في الممالك الأجنبية ، فتشعر حكومة العاصمة بما تنبض به قلوب العرب العثمانيين في مشارق الأرض ومغاربها ، وأنّه في ذلك اليوم تستوي الشمسُ على كرسيها من القبة الزرقاء ، وفخامة الصدر الأعظم مستوٍ على كرسيه في الباب العالي، ووفود طلاب اللامركزية من العرب واقفون في إدارات التلغراف في سورية ، وفلسطين ، والجزيرة ، والعراق ، وفي أوربة ، وفي أميركة ، يخاطبون فخامته بما نصه » وذكروا صورة تلغراف ورد يومئذٍ إلى الصدر وناظر الداخلية بطلب اللامركزية .

إننا نرى جعجعةً ولا نرى طحناً ، وإننا نأبى أن يوقِّعَ مثلُ هذا الكلام باسم العرب ، الذين لو كانوا بالفعل قائمين بهذه المطالبة حسب زعمهم لهزّوا أركانَ الأرضِ ، فضلاً عن أركانِ الدولة العثمانيةِ ، إلا أنّ العربَ لم يطالبوا الدولة بما زعم هؤلاء الجماعة ، وما هبَّ منهم إلى هذه المطالبة والمشاغبة سوى أفراد معدودين كما قدمنا آنفاً ، ولذلك استوت الشمسُ على كرسيها في القبة الزرقاء ، ولم يحصل شيءٌ سوى تقديم تلغراف بصورة واحدة من دمشق الشام فيه نحو (٥٠) توقيعاً من بعض الناقمين والمخالفين لأسباب شخصية ، تدلُّ على قلتهم ، وضع اسم الأب وابنه والأخ مع أخيه لا بل مع أخويه معاً ، وتلغرافات من بعض قصبات سورية وفلسطين كتلغراف من نابلس فيه بعض تواقيع ، وآخر من جنين فيه خمسة إمضاآت ، وآخر من جباثة الخشب قرية من قرى القنيطرة في حوران ، وآخر من بعلبك ، ولم نعلم أنّ هؤلاء هم العرب ، وأنّهم ممن يقيمُ الأرضَ ويقعدها ، بل هم من بعض العرب ، وليس لهم ان يتكلّموا إلا عن أنفسِهم ، ولم تكن الأمة العربية الكريمة لترحِّبَ بحركاتٍ مصادرها أوربة ، ومراميها ضعف الدولة العثمانية ، ولذلك ولعلم الباب العالي مَنْ هم العرب ،

وما هي أفكار العرب ، لم تتهزَّ أصلاً حركة الكهرباء ذلك اليوم ، ولو نبضت أسلاكه ببعض برقيات جاءت على نغمة واحدة من بضعة أماكن ، فكان على المتصدرين للكلام باسم العرب أن يراجعوا كبار الأمة وأعيانها وعلماءها ، وأهلَ الحل والعقد فيها ، وأرباب السنان والعنان منها ، وسكان الحجاز واليمن ونجد ، ومن هم سنام العرب ، ولا يظنّوا أنّ العربَ هم موتى ، وأنّ شرذمة من المهاجرين إلى مصر وإلى أميركة يقدرون أن ينوبوا عن الأمة العربية ، ويسلبوها حقوقها ، ويبيعوا ويشتروا عنها .

ثم ختموا بيانهم ذاك بتهديدٍ وتحريضٍ قالوا فيه : « ومن أرادَ الحياة الطيبة الشريفة لا يلامُ ، وإذا سعى لها سعيها نالها بسلام أو غير سلام ، ومتى أرادتْ الأمةُ فعلتْ ، ومتى سارتْ وصلتْ » .

آه ! ما أشدنا شعوراً بالحياة الشريفة الطيبة ، وما أشوقنا أن نرى العربَ متمتعين بها ، ولكن في كل البلاد العربية ، لا في الشام وحدَها ، ولا بإزاء الترك وحدَهم ، بل في مصر ، والسودان ، وطرابلس ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الأقصى ، وشنقيط ، وزنجبار ، ومصوّع ، وغير ذلك .

وآه ما أشدنا خجلاً ، عندما نرى أناساً من قومنا أُسْداً على الأتراك ، وعلى الإفرنج نعائم ، وصقور بإزاء إخوانهم ، وبإزاء أعدائِهم حمائم .

ويا ليت شعري متى صار اللامركزي يقول : « نالها بسلام أو بغير سلام » إلا بعد أن آنس ضعف الدولة على أثر حرب البلقان ، وأيقنَ أنّها مِنْ مشاغلها العظيمة وكروبها المدلهمة في شغلٍ شاغلٍ عنه ، فقد كنا نودُّ لو ظهرت منا هذه الرجولية في عنفوان أمرِ الدولة وعُنجهية سلطان الترك ، لأننا معاشرَ العرب نأنفُ أن نقاوِمَ الترك في أثناءِ غرةٍ ، ونخجل من أن نطالبهم بالحقوق في أحناء نبوة ، ولكنْ حاشا للعرب أن يهدّدوا الدولة في يوم بؤسها ، وأن يكونوا للسلاف ردءاً في موالاة خطوبها ، نعم إنّ الأمةَ العربيةَ متى أرادت فعلت ، ولكن ليست لجنة اللامركزية هي التي [إذا] أرادتْ فعلتْ ، فإنّ هناك أمة عربية كريمة ، تدافع عن الدولة وعن الخلافة ، وتدافِعُ عن أخلاقها معاً .

سيقولون : إننا استضعفنا شعورَ الأمة من جهة الدين فحركنا وتر الاعتقاد ،

واستظهرنا به على دفع نظرياتهم الواهية ، ويطيلونَ القولَ في هذا الصدد ، فما كان عليهم إلا أن يدفعوا دعاوينا هذه بمبادىء الإسلام الصحيحة ، التي ليسَ فيها فضلٌ لعربيٍّ على عجمي ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بالتقوى ، وأن يكتفوا بالمساجلة بآثار محمد ﷺ عن آثار حمورابي في وضع شريعة مدنية .

وسيميلون علينا إلى جهة المسيحيين ميلةً واحدةً ، كما جرت لهم عادة أن يفعلوا ، ويقولون لهم : إننا إنما نهيِّجُ التعصب الديني ، الذي يبغون هم إزالته ، ودحض أدرانه من هيئة العرب الاجتماعية .

والحال أننا أصدقُ منهم لإخواننا المسيحيين ، وأننا لا نُسِرُّ لإخواننا المسيحيين خلافَ ما نظهره ، ولا ندَّعي أمامَهم بغير ما نحن منطوون عليه ، رغبةً منا في إخاءٍ ، ولا نحاربهم ونؤاخيهم معاً ، ونقول : إنما نحنُ عليهم رقباء ، ولكننا نحبُّ أن نعيش وإياهم بسلام وولاء ، وأن نتساكنَ ونتعاشرَ معهم على أتمِّ وئام وصفاء ، وأن يأخذوا حقوقهم بل زيادة على حقوقهم برضى بيننا متبادل ، وأنْ نكونَ وإيّاهم جميعاً أصحاب البلاد ، وحماة الأوطان ، وإنّا لنعدهم إخواناً وأعضاداً ، ونجدُهم أقرب الناس إلينا مودة ، كما قال الله تعالى ، والله يعلم أننا نكره مِنْ إساءة المسيحي ما نكره من إساءةِ المسلم ، ونعلم أنْ لا سعادة لهذا الوطن إلا بالتناصف والتساوي في الحقوق ، وبالتوادّ والتصافي في الاجتماعات .

ولكن لا يدخلُ في بروغرامنا[1] هذا شيءٌ من رفض إخاء أخينا التركي ، ولا من ترجيح سلطة الأجنبي ، مهما وُضِعَتْ لنا في قالب من الإصلاح ، ولا من إيثارِ الجنسية على الدين ، حينما تكون أوربة لا تريدُ أن تعرفنا مساوين لأبنائها في الحقوق ، ولا من سائر المنازع ، التي هب بعضهم لإحيائها في هذه الأيام ، سابقين به أوربة نفسها ، التي لا تزال تعرف جامعة الدين .

وربما قال قائل : لا غبار على هذا الكتاب في شيء ، سوى كونهِ شديدَ التعصب للإسلامية ، قائلاً بالدعوة الدينية .

---

(١) برنامجنا .

وجوابه : لنترك الدين جانباً ، ولننظر إلى نقطة استقلال الوطن ، فنجد أنْ لا أملَ بنجاة الشرق أجمع من السقوط في هاوية العبودية الأوربية إلا ببقاء الدولة العلية ، ولابقاءَ للدولة العلية إلا ببقاء الإسلام ، ولكنّ ذلك لا يُفْهَمُ منه بُغْضُ المسيحيين الشرقيين ، والنفور منهم ، مع وجود الرابطة الوطنية الجامعة بينهم وبين المسلمين ، والتي هي جامعةٌ للمصالح ، ناظمةٌ للمنازع ، منزلةٌ أبناء الوطن الواحد منزلة أبناء البيت الواحد ، وعلى كل حالٍ فهذا هو اعتقادُ جمهور المسلمين .

والأولى بأبناء الوطن أن يفهموا الحقائق كما هي ، وأن يستعملَ بعضُهم مع البعض الصراحة وعدم التمويه ، إنّ ذلك ادعى إلى التفاهم ، وأبعد عن التخاصم ، ومن كان منصِفاً علم أنّ المصارحة هي أولى من المداجاة ، وأنّ من يعالنُ برأيه منذ البداية هو أولى بأن يوثَقَ بودِّه ، ويركن إلى عهده ، ولو حمل عليه المتعصبون .

وأنّ مَنْ يحاولُ تغطيةَ الحقائق ، والمكابرة فيما عليه جمهورُ الأمة ، والتزيي بغير زيِّه ، وإرضاء أبناء وطنه بالكلام الفارغ ، والتزلف إلى جيرانه بالرياء ، وكتمان السريرة الصحيحة ـ هو أولى بأن ينبذَ ويهمل ، وبأن لا يعوَّلَ عليه في خصامٍ ولا في وفاقٍ .

ولقد أغنانا الله ـ ولله الحمد ـ عن المداجاة والرياء ، ولو ساء وقع ما نقولُ عند بعض من لا يحبون أن يسمعوا إلا ما يشتهون ، وسيفزعون إلى طريق الطعن والشتم ، ويلجأون إلى الافتراء والبهتان ، ظانين أنّهم بنحت أسلات الصادقين يحولون دون رفع أصواتهم بالنكير ، فليعلموا أنّ الشتم هو أوهى سلاح المقاتل ، وأوهن حجج المناظر ، وأنّه لا يخلو ممن يذود بمثل سلاحهم ، ويناظر بشبه سبابهم ، ولئن صبر عليهم الناس أول مرة عندما لاذوا من ضعف حجتهم بمعاقل الهجر ، وهجروا مراجع العقل ، فيوشِكُ أن لا يصبرَ جميعُ الناس إلى الآخر على عدوانهم ، ويكيل لهم بعضُ أبناء الوطن بمثل صاعهم ومدهم ، ويقفوهم في تطوُّحهم عند حدهم ، وإنْ كان لا يكفيهم هذا البيان عما فعلوه في عام الشدائد هذا ، وكانوا يكابرون فيما هنا من الحقائق ، فإننا نزيده إن

شاء الله شرحاً ، وعند ذلك نفصِّلُ ما أجملناه ، ونقيِّدُ ما أهملناه ، وإننا آلينا على أنفسنا أن لا نسكتَ على هذه الترّهات ، وأن لا نقبلَ إصلاحاً إلا بالاتفاق مع الدولة ، ومع مراعاة موقف الخلافة منحصرة في بني عثمان ، وأن لا تأخذنا في الحق لومةُ لائم ، وأن نحذِّر ممن يُضِلُّ ، ونقاتِل من يبغي حتى يفيء إلى أمر الله .



فريق من الضباط والمجاهدين في معسكر درز (طرابلس الغرب)، خـــلال حرب إيطاليا مـــع الدولة العثمانية عام ١٩١١ ، وهم يبتهلون إلى الله بالنصر . وقد ظهر فيها : (١) أنور باشا ناظر الحربية التركية (٢) مصطفى كمال (أتاتورك) (٣) الأمير شكيب (٤) الشيخ صالح التونسي (٥) عبدالقادر الغنامي.

(٢)

حصارات العرب للقسطنطينية وفتح الترك لها

الأمير شكيب أرسلان

إنّ العرب منذ فتحوا الشام فكّروا في فتح القسطنطينية ، لأنّها كانت لذلك العهد عاصمةَ النصرانية ، وكان الإسلام لو فتحها تغلّب على شماليّ أوربة بلا نزاع . ومن الأحاديث النبوية المروية : «لَتَفْتَحُنَّ القسطنطينيةَ ، وَلَنِعْمَ الأميرُ أميرُها ، وَلَنِعْمَ الجيشُ ذلك الجيشُ» وهذا الحديث على ضعفه متداول بين الناس . ويقال : إنّه مذكور في «الجامع الصغير» للسيوطي[١] . وهو منقوشٌ على الحجر في جامع آيا صوفيا بإستامبول . وكيف كان الأمرُ فالمسلمون تنبهوا من بدء الإسلام لأهمية القسطنطينية .

وسنة (٣٢ هـ ـ ٦٥٣ م) جهز العرب أسطولاً عظيماً في ميناء طرابلس الشام ، عقدوا لبُسرِ بن أبي أرطاة لأجلِ غزو القسطنطينية ، فتلاقى هذا الأسطول بأسطول الروم وهزمه ، إلا أنّ الأسطول العربيّ في هذه الغزاة لم يبلغ القسطنطينية .

وفي سنة (٤٤ هـ ـ ٦٦٤ م) غزا الأسطول العربي القسطنطينيةَ بقيادة بسر بن أبي أرطاة المذكور ، ووصل إليها كما رواه الطبري .

ثم إنّ فضالة بن عبيد غزا خلقيدونية (ما جاورَ البوسفور من آسية الصغرى) حيث وافاه يزيدُ بن معاوية ، وقد جعل المؤرخ تيوفان هذه الغزاة في سنة (٦٦٦م) ، ولكن إلياس النزّبي قال : إنّ السنة التي حاصر فيها يزيدُ بن معاوية القسطنطينية كانت سنة (٥١ هـ ـ ٦٧٢ م) ، وقد جاءها يزيد برّاً ، وكان بسر بن أبي أرطاة ماسكاً البحر ، وقد انتشرت السفنُ الحربيةُ العربية على طول ساحل

---

(١) قال الألباني : حديث ضعيف رواه الطبراني عن نهيك بن صريم انظر « الأحاديث الضعيفة » رقم (٨٨٢) .

بحر مرمرة ، وهاجم العرب القسطنطينية بين شهري إبريل - نيسان ، وسبتمبر - أيلول ، ولم يتمكّنوا من فتحها ، فلما جاء الشتاء انكمشوا إلى جهة قيزيقية في الشمال الغربي من آسية الصغرى ، وفي الربيع عاودوا حصار تلك العاصمة ، ويقال : إنّهم لم ينصرفوا عن القسطنطينية إلا بعدَ حروبٍ استمرت سبعَ سنوات ، وكان أعظمُ عاملٍ في فشلهم النارَ الإغريقية ، التي أحرقتْ جانباً من الأسطول ، كما أنّ جانباً آخر منه غرق في أثناء الرجوع .

وليس عندنا كلُّ التفاصيل اللازمة عما جرى من الوقائع في هذه السنوات السبع . والمرجَّح أنّ الجيشَ العربي الذي جاء من البرّ بدأ بالحصار سنة (٤٧ هـ - ٦٦٧ م) وأنّ الأسطول أقلع عن القسطنطينية سنة (٥٤ هـ - ٦٦٧ م) ومؤرخو العرب يجعلون غزاة القسطنطينية هذه من سنة (٤٨ هـ - ٦٦٨ م) إلى سنة (٥٢هـ - ٦٧٢ م) ومنهم من يمدّ ذلك إلى سنة (٥٥ هـ - ٦٧٤ م) ، ويقولون : إنّ أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه توفي في حصار القسطنطينية سنة (٥٠ هـ - ٦٧٠ م) ومنهم من يقول سنة (٥١ هـ - ٦٧١ م) ومنهم من يقول (٥٢ هـ - ٦٧٢ م) والذي في « الطبقات الكبرى » لابن سعد أنّه توفي سنة (٥٢ هـ - ٦٧٢ م) وهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد بن عوف من بَلْحارث بن الخزرج ، شهد بدراً ، وأُحُداً ، والخندق ؛ والمشاهدَ كلها مع رسول الله ﷺ ، وخرج غازياً في زمان معاوية .

قال في «الطبقات» : فمرض ، فلما ثقل قال لأصحابه : إنّ أنا مِتُّ فاحملوني ، فإذا صافقتم العدوّ فادفنوني تحتَ أقدامكم ، وسأحدثكم بحديث سمعتُه من رسول الله ﷺ لولا ما حضرني لم أُحدثكم ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : «مَنْ ماتَ لا يشرِكُ باللهِ شيئاً دخل الجنة»[1] . قال ابن سعد : ولما مرض أتاه يزيد بن معاوية يعودُه فقال : حاجتك ؟ قال : نعم ، حاجتي إذا أنا مِتُّ فاركب بي ، ثم سُغ بي في أرض العدو ما وجدتَ مَساغاً ، فإذا لم تجدْ مساغاً فادفني ، ثم ارجع ، فلما مات ركبَ به ، ثم سار به في أرضِ العدو ما وجد مساغاً ، ثم دفنه ثم رجع .

---

(١) تقدم تخريجه ص (١١١) .

قال ابن سعد : أخبرنا عمرو بن عاصم قال أخبرنا همام ، عن عاصم بن بهدلة ، عن رجل من أهل مكة ، أنّ أبا أيوب قال ليزيد بن معاوية حين دخل عليه : أَقْرِىء الناسَ مني السلام ، ولينطلقوا بي ، فليبعدوا ما استطاعوا .

قال : فحدّث يزيدُ الناسَ بما قال أبو أيوب ، فاستسلم الناس ، فانطلقوا بجنازته ما استطاعوا .

قال محمد بن عمر[1] : وتوفي أبو أيوب عام غزا يزيدُ بن معاوية القسطنطينية في خلافة أبيه معاوية سنة (٥٢ هـ ـ ٦٧٢ م) وصلّى عليه يزيدُ بن معاويةَ ، وقبرُه بأصلِ حصنِ القسطنطينية بأرضِ الرُّوم ، فلقد بلغني أنّ الرومَ يتعاهدون قبرَهُ ، ويُرِمُّونَهُ ، ويستسقون به إذا قحطوا . انتهى ما جاء في « الطبقات »[2] .

ثم إنّ الأتراك عندما فتحوا القسطنطينية سنة (٩٦١ هـ ـ ١٤٥٣ م) بقيادة السلطان محمد الفاتح عثروا على قبر أبي أيوب الأنصاري ، وبنوا عليه قبةً ، وجعلوا عنده جامعاً .

وجاء في « الأنسيكلوبيدية الإسلامية » أنّ ابن قتيبة هو أول من ذكر قبرَ أبي أيوب[3] .

قلت : كانت وفاةُ ابن قتيبة في ذي القعدة سنة سبعين ومئتين وقيل ست وسبعين ومئتين على ما في « وفيات الأعيان »[4] . والحال أنّ وفاة محمد بن سعد صاحبُ « الطبقات » كانت يوم الأحد لأربع خلَوْنَ من جُمادى الآخرة سنة ثلاثين ومئتين أي قبلَ وفاةِ ابن قتيبة كما في « وفيات الأعيان » أيضاً . فيكونُ جزمُ أصحاب « الأنسيكلو بيدية الإسلامية » بأنّ ابنَ قتيبة هو أول من ذكر قبرَ أبي أيوب الأنصاري هو بغير محله ، لأنّ ابنَ سعد سابقٌ لابن قتيبة ، وأنت ترى أنّه قد ذكره .

---

(١) الواقدي صاحب المغازي .

(٢) « الطبقات » : (٣ : ٤٨٤) .

(٣) « المعارف » لابن قتيبة : (٢٧٤ ـ ٢٧٥) .

(٤) « وفيات الأعيان » : (٣ : ٤٤) .

وأما قضيةُ كون الروم حفظوا قبره ، وكانوا يستسقون به في القحط ، فقد جاء في « الأنسيكلو بيدية » المذكورة نقلُها عن الطبري وابن الأثير وابن الجوزي والقزويني ، والحالُ أنّها مذكورة في « طبقات ابن سعد » ، الذي تقدَّم في الزمن هؤلاء جميعاً .

وقد جاءت هذه القصة مع ترجمة أبي أيوب في كتاب تركي للحاج عبد الله اسمه « الآثار الماجدية في المناقب الخالدية » طبع إستانبول سنة (١٢٥٧) .

وجاء في « الأنسيكلوبيدية الإسلامية » أنّ الهدنة بقيت بين العرب والرُّوم نحواً من أربعين سنة إلى أن تولّى سليمانُ بن عبد الملك ، فأعملَ في غزو القسطنطينية ، وجرَّد لها جيشاً كثيفاً عقد عليه لأخيه مَسْلمة ، فجاءها من البرّ ، وجاء الأسطول العربيّ من البحر ، وكان الخليجُ المسمى بقرن الذهب مسدوداً بسلسلة حديدية ، فاستمرَّ هذا الحصارُ سنةً كاملة ، وكان ابتداؤه في (٢٥) أغسطس ـ آب سنة (٧١٦ م ـ ١٩٨ هـ) وهذه المرة خاب العرب أيضاً فيما قصدوا إليه ، وذلك بفقد الأقوات ، وبزحف البلغار من جهة الشمال مُناصرين للروم .

وقد جاء ذِكْرُ هذه الغزاة في « تاريخ الطبري » و« تاريخ ابن الأثير » ، واستوفاها ابن مسكويه ، ويقال : إنّه وُجِدَتْ عينُ ماءٍ اسمها عين مسلمة عند الدردنيل ، حيث كان الأمير مسلمة قد خيّم بعسكره ، ذكر ذلك المسعودي وابن خرذادبه .

وقيل : إنّ مسلمة بنى جامعاً في ذلك المكان .

وذكر ابن قتيبة أنّ رجلاً اسمه عبد الله بن الطيب سلّ سيفَهُ وأثبته في باب القسطنطينية ، وهذا الرجلُ كانَ من أصحاب مَسْلمة .

ولم ينصرف مسلمةُ من حصار القسطنطينية حتى أجبُر إمبراطور الروم على التعهد ببناء بيتٍ لأسرى العرب بجوار قصرِ الإمبراطور ، وكذلك كان مسلمةُ هو الباني لأولِ جامعٍ في القسطنطينية ، نقلَ ذلك المقدسيُّ وابنُ الأثير ، ويقال : إنه هو الذي بنى برج غلطة ، وروى حاجي خليفة في « تقويم التواريخ » أنّه هو الذي بناه سنة (٩٧ هـ ـ ٧١٥ م) انتهى .

قلت : ذكر المسعودي في « مروج الذهب » خليجَ القسطنطينية فقال : إنّه يضيقُ عند المدينة ، فيصير عرضُه نحواً من أربعة أميال ، وعليه العمائر ، وينتهي في ضيقه إلى الموضع المعروف بالأندلس[1] وهناك جبال ، وعينُ ماء كثيرٍ ماؤُها موصوف ، تعرف بعين مسلمة بن عبد الملك ، وكان نزولهُ عليها حين حاصر القسطنطينية ، وأتته مراكِبُ المسلمين في فم هذا الخليج مما يلي بحر الشام ، ومنتهى مصبّه مضيق (هو الدردنيل) وهناك برجٌ يمنع مَنْ فيه مَنْ يردُ مِنْ مراكب المسلمين في الوقت الذي للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم ، وأما الآن فمراكبُ الروم تغزو بلادَ الإسلام ، ولله الأمرُ مِنْ قبلُ ومِنْ بعدُ . انتهى كلام المسعودي وهو مما حرره سنة (٣٣٠ هـ ـ ٩٤١ م) . فكيف كان يقول لو عاش لهذا العصر ؟

ثم جاء في « الأنسيكلوبيدية الإسلامية » أنّ العربَ حاصروا القسطنطينية في زمن هارون الرشيد ، ووصل الجيش العربي إلى أسكدار ، أي القسم الآسيوي من المدينة ، فاضطرت الإمبراطورة إيرينة ـ والمسعودي يقول لها : إرين ـ التي كانت كافلةَ ابنها قسطنطين السادس لصغر سنه ـ أنْ تطلُبَ الصلحَ ، وتؤدي للخليفة الجزية ، روى ذلك تيوفانوس ، والبلاذري ، والطبري ، وابن الأثير . وقال هؤلاء : إنّ هذه الغزاة جرت سنة (١٦٥ هـ ـ ٩٤١ م) . قلت : إنّ البلاذري يذكر أنّ المهدي أغزا ابنَه هارون الرشيد الروم سنة (١٦٥ هـ) فنزل على الخليج ، ثم نقلت « الأنسيكلوبيدية » عن أوليا عن محيي الدين الجمالي أنّ العرب حاصروا في أيام المهدي والرشيد القسطنطينية أربع مرَّات .

وأما الجامع المنسوب إلى مَسْلمة بن عبد الملك في القسطنطينية فلم يُعْرَفْ مكانُه ، وقيل : إنّه هُدِمَ في أثناء فتنة ، وذلك سنة (٥٩٧ هـ ـ ١٢٠٠ م) . وقيل إنّ الصليبيين انتبهوه سنة (١٢٠٣ م) وذكر ابن الأثير أنّ الإمبراطور قسطنطين مونوماك كان قد رمَّم هذا الجامع بناءً على رغبة طغرل بك السلجوقي ، وذلك

---

(١) هذا تحريف للفظة الدردنيل فيما يظهر لنا أو غلط طبع في النسخة المطبوعة بالمطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٠٢ . المؤلف .

سنة (٤٤١ هـ ـ ١٠٤٩ م) ، وقال أبو الفداء : إنّه سنة إحدى وأربعين وأربعمئة أرسل ملك الروم إلى السلطان طغرل بك هديةً عظيمةً ، وطلب منه المعاهدة ، فأجابه إليها ، وعمر مسجدَ القسطنطينية ، وأقام فيه الصلاةَ والخطبةَ لطغرل بك اهـ .

وقال ابن خلكان في « الوفيات »[1] في ترجمة السلطان طغرل بك : ومن محاسنه المسطورة أنّه سَيَّرَ الشريف ناصر الدين بن إسماعيل رسولاً إلى ملكة الروم ، وكانت على الروم إذ ذاك امرأة ، فاستأذنها في الصلوات الخمس بجامع القسطنطينية ، وبالجماعة يومَ الجمعة ، فأذنت له في ذلك ، فصلى ، وخطب للإمام القائم العباسي . وكان رسولُ المستنصر العبيدي صاحبُ مصر حاضراً ، فأنكر ذلك ، وكان من أكبر الأسباب في فساد الأحوالِ بين المصريين والروم .

وجاء في « الأنسيكلوبيدية الإسلامية » نقلاً عن المقريزي أنّ الإمبراطور ميخائيل باليولوج الثامن بنى سنة (٦٦٠ هـ ـ ١٢٦١ م) في القسطنطينية جامعاً أهدى إليه الملكُ الظاهر بيبرس مفروشاتٍ نفيسةٍ .

فتح الترك للقسطنطينية

ومضى على حصار العرب للقسطنطينية واحتلالهم لضفافِ البوسفور ستمئة سنة قبل أن حاصرها الأتراك لأول مرةٍ لعهد بايزيد الأوَّل العثماني ، وذلك سنة (٧٩٩ هـ ـ ١٣٩٦ م) وبينما كان بايزيد الأوَّل ماسكاً بخناقها ، بلغه قدومُ جيشٍ إفرنسي مجريّ تحتَ قيادة سجيسموند الأوَّل ملك المجر لنجدة القسطنطينية ، فنهد إليهم بجيشه ، والتقى الجمعان في نيقوبوليس من بلاد البلغار [في] الخامس والعشرين من سبتمبر ـ أيلول سنة (١٣٩٦ م) ـ (٧٩٩ هـ) فكانت الدبرة[2] على الفرنسيس والمجر . واستؤصل جيشهم قتلاً وأسراً .

وقرأت في بعضِ تواريخ الفرنسيس أنّه حصلت في تلك البلدة معركتان

---

(١) « وفيات الأعيان » : (٥ : ٦٣ ـ ٦٨) .

(٢) الهزيمة .

إحداهما سنة (١٣٩٣ م ـ ٧٩٦ هـ) انهزم فيها سيجيسموند ملك المجر ، والثانية سنة (١٣٩٦ م ـ ٧٩٩ هـ) انهزم فيها المجر والإفرنسيس معاً .

وعاد بايزيدُ إلى التضييق على القسطنطينية إلى أن ارتضى امبراطور الروم بشروطِ ابنِ عثمان ، وذلك سنة (٨٠٣ هـ ـ ١٤٠٠ م) وكان من جملة تلك الشروط التخلّي عن حارةٍ في تلك العاصمة لتكون مسكناً للمسلمين ، والأذن في بناء مسجد جامع ، ونصب قاضٍ شرعي لفصلِ دعاوى المسلمين ، ولما جاء تمرلنك ، وتغلّبَ على السلطان بايزيد يلدرم ، وأخذه أسيراً ، نشقت فَروق[1] نسيمَ الفرج ، إلا أن ذلك لم يستمرَّ إلى الآخرِ ، بل سنة (٨٢٦ هـ ـ ١٤٢٢ م) جاء السلطان مراد الثاني ، وحاصر القسطنطينية ، وضيّقَ عليها ، فلم يقدَّرْ له فتحُها ، فارتضى بالصلح مع الإمبراطور .

وخلفه ابنه محمد الثاني فزحف إليها سنة (٨٥٦ هـ ـ ١٤٥٢ م) وبنى بجانبها حصن روملي حصار ، وبدأ الحصار في (٩) إبريل ـ نيسان سنة (١٤٥٣ م ـ ٨٥٧ هـ) وافتتحها في (٢٩) مايو ـ أيار ، وكان أكثر إلحاح الأتراك في الهجوم من جهة البر بين باب طوب قبو وباب أدرنة ، فإنّ مدافعهم الثقيلةَ فتحت ثُلَماً تعذَّرَ على الروم سدَّها ، وكان خليجُ قرنِ الذهبِ مسدوداً بسلسلة حديدية ، فنقل التركُ أسطولهم من جهة طولمة بغجة ، وأصعدوه في البر إلى أكمة بك أوغلي ، وأنزلوه إلى الساحل المسمّى بقاسم باشا ، وأزلقوه على الشحم إلى الخليج ، واستولوا عليه ، وكشف المولى آق شمس الدين قبرَ أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، وانتهب الأتراك البلدةَ ثلاثةَ أيام ، ثم دخلها السلطان محمد الفاتح في اليوم الرابع ، وارتفعَ النهبُ ، وعَمَّ السكون ، ونودي بالأمان ، وصلّى السلطانُ الجمعة في كنيسة أيا صوفيا بعد أن حولها جامعاً ، وكان الجنويون في غلطة ، ولهم فيها محلة خاصة بهم ، فتسلمها الأتراك منهم ، وجاء تاريخ فتحِها مصادفاً بحساب الجمل لآية ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : ١٥] أي (٨٥٣) وهي سنةُ فتحها بالحساب الهجري . ولم يملك الإسلامُ

---

(١) القسطنطينية .

في الحقيقة بلدة أجلَّ منها ، ولا خِطَّةٌ أهمَّ موقعاً ، ولا مدينةٌ أطيبَ نجعةً .

وقيل : إنّ أجملَ مدنِ العالم منظراً إذا أقبلَ المسافرُ عليها ثلاثٌ : نابولي في إيطالية ، وأشبونة عاصمة البرتغال ، والأستانة ، وهذه أجملُ الثلاث .

وأما أهميتُها الجغرافية والسياسية فلم تكن لبلدة أخرى في المعمور واقعة بين البحرين الأسود والأبيض ، وواصلة بين البرّين آسية وأوربة ، أمامها بوغاز ، ووراءها بوغاز ، ومن مَلَكها فقد تبوّأ ملكاً كبيراً ، وكرسيّاً عالياً منيفاً ، ومن شرقيها البوسفور ، ومن غربيها بحر مرمرة المنتهي بمضيق الدردنيل ، وإذا تحصَّن كلٌّ منهما كما يجبُ أصبحَ العبور منهما في حكم المستحيل تقريباً ، ولقد تمكّنَ الأميرال الإنكليزي[1] دوكفورت من اجتياز الدردنيل بغتةً ، ووصل إلى الأستانة ، ولم يجرأ أن يهاجمها ، وقفل راجعاً ، ولكن حصون الدردنيل لم تكن وقتئذٍ في المنعة التي صارت إليها فيما بعد . وقد ظهر أن فرنسة وإنكلترة وجهتا في الحرب العامة إلى الدردنيل جيوشاً جرارة وأساطيل قلما اجتمعت في حرب بحرية ، وأنهما بذلتا لاختراقِ هذا المضيق من الجهود ما ندر مثله في تاريخ الحروب ، وانتهى الأمر بأنّ الجيوش العثمانية دحرتهما إلى الوراء ، واضطرتهما إلى الرجوع والانقلاع أخيبَ ما كانتا ، بعد أن فقدتا بين قتيل وجريح وضائع ثلاثمئة وخمسة وعشرين ألف مقاتل[2] .

فالعرب في صدر الإسلام لم تخفَ عنهم أهميةُ هذه المواقع ، ولذلك زحفوا إليها عن أبعادٍ شاسعة ، وأعملوا في غزوها قواتٍ هائلة ، ولما ملك آلُ عثمان بلادَ الأناضول ، ثم اجتازوا البحر إلى الروملي حاصروها من البرين ، ولم يزالوا يعملون في استخلاصها لأنفسهم إلى أن قيّضَ اللهُ ذلك الفتح العظيم لمحمد الثاني ابن مراد ، وكان من أعاظم السلاطين ، تولى الملك في حداثةِ سنه في عهد أبيه ، وأصلى الأعداءَ المعارك الكبرى ، مثل معركة قُوْصُوَهْ (Kosvo) ، التي هزم بها المجر والأممَ البلقانية ، ثم إنّه جلس على كرسي السلطنة بعد وفاة

---

(١) في (٢٠) فبراير ـ شباط سنة (١٨٠٨ م ـ ١٢٢٣ هـ) .

(٢) راجع الكتاب المؤلَّف على حرب الدردنيل التابع لسلسلة وثائق الحرب العامة بالإفرنسية . المؤلف .

أبيه وهو ابن (٢٢) سنة وفتح القسطنطينية العظمى وهو ابن (٢٤) سنة .

قال البارون كارادفو (Baron Cara de vaux) في كتابه «مفكرو الإسلام» في الجزء الأول منه عند ترجمة محمد الفاتح : إنّ هذا الفتحَ لم يقيَّضْ لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسَّر بمجرَّدِ ضعفِ دولة بيزنطة ، بل كان هذا السلطانُ يدبِّرُ التدابيرَ اللازمة له من قبلُ ، ويستخدِمُ له كلَّ ما كان في عصره من قوة العلم ، فقد كانت المدافعُ حينئذٍ حديثة العهد بالإيجاد ، فأعملَ في تركيب أضخم المدافع التي يمكنُ تركيبها يومئذ ، وانتدب مهندساً مجرياً ركب له مدفعاً كان وزن الكرة التي يرمي بها (٣٠٠) كيلو ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ، وقيل : إنّه كان يلزم لهذا المدفع (٧٠٠) رجل ليتمكنوا من سحبه ، وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوهِ ، ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمئة ألف مقاتل ، ومعه مدفعية هائلة ، وكان أسطوله المحاصِرُ للبلدة من البحر (١٢٠) سفينة حربية ، وهو الذي مِنْ قريحته تصوَّر سحبَ جانبٍ من الأسطول من البرّ إلى الخليج ، وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم (٧٠) سفينة أنزلها في البحر من جهة قاسم باشا ، وبعد حصار (٥٠) يوماً هدمتْ مدافعُه أربعة أبراج ، وفتحت ثلمةً عظيمةً من جهة باب سان رومان ، وقام السلطان بالقحمة الأخيرة بنفسه ، وسار على رأس جيشه ، وبيده قضيبٌ من حديد إلى أن دخل قصر إمبراطور الروم ، فأنشد قول الشاعر الفارسي :

العنكبوتُ تنسجُ خيوطها في القصر الملوكي ، والبومُ يسمَعُ صداه على أبراجِ أفراسياب .

ولما دخل كنيسة أياصوفيا لم يسمح بمحو الفسيفساء التي بها صور أشخاص ، وإنما أمر بأن تغطَّى بالجص إلخ .

وازدادت عمارةُ فَروق[1] في زمان آل عثمان ، وأسكن فيها محمد الفاتح أقواماً من أطراف مملكتهِ ، لا سيما من بلاد القرمان ، ومن الجزر ، وعاد إليها

---

(١) إستانبول .

كثيرٌ من الروم الذين كانوا غادروها ، وبعد وفاةِ الفاتح جاءها اليهود المطرودون من إسبانية ، ومعهم جماعةٌ من العرب .

وما زالت هذه البلدة تنمو وتعظُمُ حتى صارت عاصمة العالم الإسلامي ، ومن عُظْمَيات عواصم العالم كله ، وبلغ عددُ سكانها في هذا العصر مليوناً ومئتي ألف نسمة ، إلا أنه من المؤسف كون حكومة تركية الجمهورية الحاضرة قد أهملت هذه البلدة الطيبة التي لا نظيرَ لها إهمالًا زائداً ، ونقلت مقر الحكم إلى أنقرة ، فرجعت الأستانةُ القهقرى ، ونزل عددُ سكانها من مليون ومئتي ألف إلى سبعمئة ألف ، وقيل : إلى ستمئة ألف ، وإنّ إهمال الحكومة التركية لمثل الأستانة لمن الأغلاط السياسية التي لا جدالَ فيها .

***

(٣)

خطط الأستانة

الأمير شكيب أرسلان

لقد شاد بنو عثمان في الأستانة أو إستانبول من الجوامع والقصور والأبراج والحصون والمدارس والتُكن والمعاهد الخيرية ما يليقُ بعاصمةٍ فريدٍ نظيرها ، وأهم ما فيها من المباني الجوامعُ ، التي لا توجد في سواها ، والتي تجدُ منائرها العديدة سامقة في الفضاء من كلِّ جانبٍ ، فتكسب بها إستانبول منظراً لا يجدُه ناظرٍ في غيرها لا شرقاً ولا غرباً .

ومن أهم هذه الجوامع : **جامع الفاتح** ، الذي أتم بناءه هو رحمه الله سنة (٨٧٥) للهجرة وبنى بجانبه ثماني مدارس ، وعنده القبة التي دفن فيها الفاتح ، ومدافن أخرى لآله ، يقال : إنّ منها مدفن الأميرة الصربية ماري ابنة جورج برانكوفيه ، التي كان تزوّجَ بها مراد الثاني ، وماتت وهي باقية على دينها .

ثم **جامع بايزيد** بقرب باب السر عسكرية ، وفيه مدفن السلطان بايزيد بن محمد الفاتح وبعضُ عائلته .

ثم **جامع السليمية** ، بناه السلطان سليم الأول ، مشرِفٌ على محلة الفنار ، وفيه تربة السلطان المذكور ، وتربة السلطان عبد المجيد ، والد السلاطين مراد ، وعبد الحميد ، ومحمد الخامس ، ومحمد السادس .

ثم **جامع الشاه زاده** : بناه السلطان سليمان سنة (٩٥٥) للهجرة ، وهندسه **المعمار سنان المشهور** ، وفيه مدفن الأمير محمد بن السلطان ، ومدفن أخيه جهانكير .

ثم **جامع السليمانية** ، وهو من أجلِّ وأشهقِ وأفخمِ جوامع الدنيا ، بناه السلطان سليمان القانوني ، وكان المهندسِ له **المعمار سنان** ، وانتخَبَ له أعلى قمة من الجبال التي عليها الأستانة ، وبنى حوله أربع مدارس وعمارات أخرى ، وفيه مدفن سليمان الأول القانوني ، وسليمان الثاني ، وأحمد الثاني ، وهذا

الجامع فيه من الصنعة الهندسية في بنائه ما لا يوجَدُ في أياصوفيا .

ثم **جامع السلطان أحمد** : بناه أحمد الأول ، وهو قريبٌ من أياصوفيا ، وله ست منائر ، وفيه مدفن السلطان أحمد الأول وولديه عثمان الثاني ومراد الرابع .

ثم **يني جامع**[1] . بقرب الجسر الواصل بين إستانبول وغلَطَة ، وقد بدأت به السلطانة كوسم ، ثم أكملته السلطانة خديجة والدة محمد الرابع ، وذلك سنة (١٠٧٤) للهجرة ، وفي هذا الجامع مدافن السلاطين محمد الرابع ، ومصطفى الثاني ، وأحمد الثالث ، وعثمان الثالث ، ولا تزدحمُ الجماعاتُ في مسجدٍ ما تزدحمُه في هذا الجامع ، نظراً لقربه [من] الجسر ومركز حركة الخلق .

ثم **جامع النور العثماني** : بدأ بناءه محمود الأول ، وأكمله عثمان الثالث .

ثم **جامع لاله لي** : وفيه مدفن سليم الثالث .

ثم **زيرك جامع** ، وأصلُه كنيسة ، حوَّله الفاتح إلى جامع .

ثم **جامع محمود باشا**بقرب النور العثماني ، بناه أحد الصدور العظام سنة (٨٦٨) للهجرة .

ثم **جامع مراد باشا** ، بناه أحد وزراء الفاتح سنة (٨٧٠) .

ثم **جامع وفا** ، بناه بايزيد الثاني سنة (٨٨١) للشيخ مصطفى وفا .

ثم **جامع داود باشا** على بحر مرمرة تاريخ بنائه سنة (٨٩٠) .

ثم **جامع خوجه مصطفى باشا في سماطية** ، أصلهُ كنيسة بيزنطية تحولت جامعاً سنة (٨٩٥) .

ثم **جامع عتيق علي باشا في شمبرلي طاش بني سنة (٩٠٢)** .

ثم **جامع مهرماه** : ابن السلطان سليمان في أعلى نقطة من المدينة بقرب باب أدرنة [بني] سنة (٩٦٥) وهندسه المعمار سنان .

---

(١) الجامع الجديد .

ثم **جامع رستم باشا** عند الخليج ، بناه رستم باشا الصدر الأعظم في زمن سليمان الأول ، وهذا الجامع هو من بناء **سنان** أيضاً ، وفيه من صنعة الخزف القاشاني نفائس لا توجد في غيره .

ثم **جامع الصدر الأعظم الصوقلي** كمل بناؤه سنة (٩٦٩) .

ثم **جامع فتحية** ، أصله كنيسة ، تحول جامعاً في زمان مراد الثالث سنة (١٥٨٧) .

ثم **جامع جراح باشا** ، كان بناؤه سنة (١٠٠٢) للهجرة .

وفي إستانبول القديمة نحو من **خمسمئة جامع** ، وبديهي أنّه غيرُ داخل في هذا العدد الجوامع التي في غَلَطَة ، وبك أوغلي ، وبكشطاش ، ونشان طاش ، والقرى التي علي البوسفور من الجانبين ، فهناك جوامع أيضاً تُحصى بالمئات . ومنها جوامع في الغاية من الإتقان والبداعة، وكلُّها لها المنائر الرفيعة المستديرة، الضاربة في الهواء ، البالغة الحد في البهاء ، والتي هي زينةُ هذه العاصمة .

ومن أشهر هذه الجوامع النصرتية في الطوبخانه ، **وجامع جهانكير** في الفندقلي ، **وجامع بشكطاش** ، وغيرها .

جامع أياصوفيا

ولنتكلّم الآن على **جامع أياصوفيا** ، وهو الدرة الدهماء ، واليتيمة الطائرُ ذكرها في الغبراء ، فنقول : إنّ هذا الجامع لا يزالُ أعظمُ جامعٍ في القسطنطينية ، كما أنّه كان أعظم وأجمل كنيسة في الشرق ، ومن أعظم وأجمل كنائس العالم . والأصلُ في هندسة قبتهِ المشهورة بعظمتها مأخوذ من الهندسة التي كانت **معروفة قديماً في العراق** أي أنّها هندسة آسيوية لا أوربية ، كان أتى بها البنّاؤون من العراق إلى بلاد الروم ، وغلبت على كنائسهم ، وعدلوا بعدَها عن طُرُزِ البناء اليوناني القديم .

أما حلية أياصوفيا الداخلية ، فهي من **الصناعة السورية** ، فهي إذاً من جميعِ الوجوهِ تضرِبُ في بنائها إلى عرقٍ آسيوي .

ولقد صار طرازها هو المعول عليه في بناء الكنائس الأرثوذكسية كلِّها ولا سيما في روسية ، ولم يحدث في الهندسة طرازٌ يفوقه .

وجاء في « الأنسيكلوبيدية الإسلامية » أنّ بعضَ كنائس الغرب أيضاً مثل كنيسة مار مرقس في البندقية مبنية أيضاً على طراز أياصوفيا . قالت : وإنّ أجملَ جوامعِ الأتراك في الروملي ـ كجوامع أدرنة مثلاً ـ لا تخرجُ عن طراز أياصوفيا إلا قليلاً .

وأول من أسس أياصوفيا هو الإمبراطور قنسطنطيوس ابن الإمبراطور قسطنطين الكبير ، وذلك سنة (٣٦٠ م) ، وكانت تسمى حينئذ بالكنيسة الكبرى ، ثم أصابتها جوائح من حريق وزلزال ، ثم أعيد بناؤها سنة (٤١٥) ، ثم احترقت في أثناء فتنةٍ احترق بها جانب كبير من المدينة ، وعندها قرر الإمبراطور يوستنيانوس تجديدَ بنائها والسخاء عليها بالأموال الطائلة ، وحشد لها الصنَّاع وجمعَ مواد البناء من أطراف المملكة ، لا سيما من أنقاض الهياكل القديمة ، التي كان النصارى قد دمَّروها بعد تنصُّر الدولة .

واستجلب يوستينانوس لهندسة الكنيسة مهندسين من أشهر بنائي ذلك العصر وكل عصر وهما أنيتميوس [من] تراليس ، وإيزدوروس المليطي ، فتوخيًّا فيها الطريقة التي تقيها الحريق وتأثيرَ الزلازل التي تكثر في القسطنطينية ، وعقدا لها هذه القبة العجيبة .

وتمَّ بناءُ أياصوفيا سنة (٥٣٧) واحتفل يوستنيانوس بافتتاحها في يوم عظيم أبلغ فيه الأبهة منتهاها ، وهُتِفَ يومئذٍ : سليمانُ قد غلبتُك[1] . ولم يكن في قوله هذا مبالغاً .

ثم حصلت زلزلة سقط بها جانبٌ من القبة ، وذلك في زمن يوستنيانوس نفسه ، فجددوا بناءَها ، ورفعوها نحو (٢٠) قدماً ، واحتفلوا بافتتاح البناء سنة (٥٦٣) .

---

(١) إشارة إلى تفوقها على هيكل سليمان .

ويقدَّر داخل أياصوفيا بخمسة وسبعين متراً طولاً ، وسبعين متراً عرضاً ، ويقدَّرُ علو القبة بستة وخمسين متراً ، ولما كانت الجدرانُ لا تكفي لتوطيد القبة إلى الدرجة المطلوبة ، فقد أرسوها أيضاً على أساطين أربع ، مرتبط بعضها ببعض بأعمدة أصغر منها ، وبقسي شديدة ، وعدد أعمدة الكنيسة التي يتوكأ عليها البنيان (١٠٧) أعمدة ، كلها من ذوات الألوان النادرة والرخام المجزع .

وكانت القبة والحيطان مزيَّنة كلها بالفسيفساء المذهبة ، الآخذة بالأبصار ، وعلى الحيطان صور عيسى ومريم عليهما السلام والأنبياء والرسل والملائكة .

وإنّ القلمَ ليعجَزُ عن إعطاءِ تلك المناظر حقَّها من الوصف ، وكان القسوس والوفَهة[١] الذين يخدمون في أيا صوفيا لعهد يوستنيانوس (٤٢٥) شخصاً ، وكان لها مئة بوّاب ، وقيل إنّه لما فتح الأتراك القسطنطينية كان وفَهَة أياصوفيا (٨٠٠) شخص .

وسنة (٩٨٩ م) حصل زلزال أضرَّ بقبة أياصوفيا ، ثم رممت .

وسنة (١٢٠٤) انتهب اللاتين الصليبيون هذه الكنيسة وجرَّدوها من حلاها ، وذلك في أثناء مقامهم بالقسطنطينية ، وأكثر ترميمات أياصوفيا للعهد البيزنطي وقعت في القرن الرابع عشر ، إذ بنيت حولَ الكنيسة جدران وأجنحة جديدة لتوطيد الجدران القديمة .

وجاء في « الأنسيكلوبيدية الإسلامية » أنّ أول مسلم كتب عن أيا صوفيا هو أحمد بن رستة من رجال القرن الثالث للهجرة ، وذلك في كتابه «الأعلاق النفيسة» وكان يسمي أيا صوفيا بالكنيسة العظمى ، ويصف كيفية ذهاب إمبراطور بيزنطة إلى الكنيسة أيام الآحاد والأعياد بذلك الاحتفال العظيم ، وكيف كان الأسرى المسلمون يؤتى بهم إلى تلك الحفلة ، ليهتفوا للملك قائلين : « أطال الله حياة الملك » وذكر هذا الكاتبُ شيئاً في غاية من الدقة فقال : إنّه يوجد في مدخل الكنيسة الغربي مجلس وأربعة وعشرون باباً صغيراً ، فكلّما مضت ساعة من الأربع والعشرين ساعة ينفتح بابٌ من هذه الأبواب من نفسه ، ثم ينغلق لنفسه .

---

(١) الوافه قيم البيعة .

ولم يذكر هذه النادرة أحدٌ غير أحمد المذكور .

ولم نجد بعدَ ذلك لأحدٍ من مؤلفي الإسلام كتابة عن أياصوفيا حتى القرن السابع للهجرة ، فقد جاء لشمس الدين محمد الدمشقي كلامٌ وجيزٌ على أياصوفيا .

ثم جاء ذكر أياصوفيا في « رحلة ابن بطّوطة » ، الذي زار الأستانة ، لكن ابن بطوطة يقول : إنّه لم يدخل إلى داخل الكنيسة ، لأنّه كان من العادات المرعية عندهم أنّ كلَّ من دخل إليها لا بدّ له من أن يسجدَ للصليب ، وهو أبى أن يفعلَ ذلك .

ولما دخل الأتراك القسطنطينية في (٢٩) مارس ـ آذار (١٤٥٣) ـ (٨٥٣) التجأ جميعُ الأهالي الذين لا يحملون السلاح والنساء والأولاد إلى أياصوفيا ، وهم يعتقدون أنّه متى وصل التركُ إلى عمود قسطنطين الكبير ، يظهر ملك في السماء ، فينهزمون نكوصاً على الأعقاب ، ويعودون من حيث أتوا ، ولكن الترك دخلوا الكنيسة ، وأخذوا جميعَ تلك الخلائق أسرى ، **وليس بصحيح ما يزعمه بعضُهم من أنّهم ذبحوهم . فالترك لم يذبحوا هناك أحداً ، وما لبثوا أن** أطلقوا سبيل أولئك الأسرى .

ولما جاء محمد الفاتح ترجّل عن جواده ، ودخل أياصوفيا ، وارتفع صوت الأذان في داخل الكنيسة ، وسجدَ السلطانُ ومن معه للإله الواحد ، وتحول هيكلُ قنسطنطيوس ويوستنيانوس مسجداً للإسلام .

أما ما أدخله المسلمون من التغييرات على أياصوفيا فهو أنهم غطوا الصور التي كانت على الحيطان والفسيفساء البديعة الباهرة المبثوثة على الجدُر والأقبية وذلك بالجِصّ الذي يمنع من ظهورها للعيان ، لما في دين الإسلام من تحريم الصور في أماكن العبادة ، وكذلك رفعوا الحاجز الذي كان بين القسيسين والأهالي .

ولما كانت الكنائس البيزنطية موجهةً في بنائها إلى القدس ، وكان المسلمون في صلواتهم يولون وجوههم شطر مكة ، كان لا بدّ للمسلمين في

أياصوفيا من أن ينحرفوا قليلاً عن الجهة الشرقية إلى الجهة الجنوبية .

ولقد دعّم المسلمون أياصوفيا بجدران جديدة ، فبنى محمد الفاتح دعائم لتقوية الحائط الجنوبي الشرقي من المسجد ، وبنى أيضاً إحدى المنائر الأربع الموجودة الآن ، والتي هي من أجملِ ما يُرى في سماءِ الأستانة ، ثم بنى سليم الثاني المنارة الثانية ، وبنى مراد الثالث المنارتين الأخريين فتتامّت أربع منائر .

وكان لمراد الثالث في أياصوفيا آثار كثيرة ، فهو الذي جعل عند الباب حوضين يسع كل منهما (١١٥٠) ليتراً من الماء لأجل الوضوء ، وجعل في الداخل مصطبتين عاليتين يتلى فوق إحداهما القرآن طول النهار ، ويؤذَّنُ بالصلاة فوق الأخرى ، ووضع مراد الثالث محل الصليب الذي بأعلى القبة هلالاً ، أنفق على تمويهه بالذهب أموالاً طائلة ، وقُطْرُ هذا الهلال خمسون شبراً فهو يرى من مسافات بعيدة .

وقد بُنيتْ إلى الجنوب من المسجد قبابٌ لأجل دفن السلاطين ، أقدمُها قبة سليم الثاني ، وبجانبها مدفن ابنه مراد الثالث ، وحفيدِه محمد الثالث . وهناك أيضاً مدفن مصطفى الأول ثم ابن أخيه السلطان إبراهيم .

وممن اعتنى أشدّ الاعتناء بأياصوفيا السلطان مراد الرابع ، فشاد عضائد كثيرة للجدران ، وفي أيامه كُتبتْ على الجدران الداخلية من المسجد الآيات القرآنية بتلك الحروف التي لا يوجد أكبرُ منها ، وكلها مموّهة بالذهب ، وهي من خط ذلك الخطاط الشهير بيشكجي زاده مصطفى شلبي ، فمن هذه الأحرف حرفُ الألف مثلاً طوله عشرة أذرع ، وهذا عدا بداعة الخط ، واشتباك حروفه ، وتعليق بعضها على بعض ، مما يُدْهِشُ الأبصار ، ويتنافِسُ به أدباء الترك ، وقد كتبت أيضاً بهذا الخط نفسه أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة .

أما المنبر الذي في أياصوفيا فهو إحدى يتائم الصنعة ، وهو أيضاً من آثار مراد الرابع .

وقد شيّد أحمد الثالث مقصورةً لصلاته مرتفعةً مشتبكة من جهة المسجد .

ثم إنّ السلطان محمود الأول جعل بجانب المسجد سبيلاً للماء ومدرسةً ،

وذلك إلى الجنوب منه ، وجعل أيضاً خزانة للكتب في نفس الجامع .

ومن بعد مراد الرابع فاتح بغداد تأخرت أحوالُ أياصوفيا بالتأخر العام الذي أصاب المملكة ، وبقيت الحال على ما هي عليه إلى أيام السلطان عبد المجيد الذي عهد سنة (١٨٤٧) إلى الأخوان فوساطي من البنائين الطليان بترميم ما يجبُ ترميمُه من المسجد ، فلبثوا مدة سنتين يشتغلون ، ولم يبقوا على الحيطان إلا الجص الذي يحجب الصورَ البشرية ، وجلّوا الحيطانَ المموهة بالذهب والنقوش الساطعة ، وكذلك في زمان عبد المجيد جرى رفعُ المنائر الأربع ، وبالجملة كان ترميمُ السلطان المشار إليه لجامع أياصوفيا من أجلّ مآثره .

ولقد توالت الزلازل على الأستانة المعروفة بكثرة زلازلها ، ولم يصب أياصوفيا من هذه الاهتزازات الأرضية منذ القرن الخامس للمسيح إلى الآن أذًى يذكر ، وذلك بفضل الدعائم الكثيرة التي أقامها البيزنطيون سابقاً والأتراك لاحقاً ، وشدوا بها جدران الجامع صفاً وراء صف .

وأجمل ما يكون مسجد أياصوفيا في شهر رمضان ، إذ يحتشد الألوف من المصلين لصلاة العصر ، وكذلك الألوف لصلاة التراويح بعد العشاء ، وأعظم حفلةٍ تقع فيه في الليلة السابعة والعشرين من رمضان أي ليلة القدر ، وكان السلطان عبد الحميد الثاني يأتي إلى أياصوفيا في أواسط رمضان بعد الاحتفال المعروف بزيارة البردة الشريفة في سراي طوب قپو .

وقد كتبتْ على مسجد أياصوفيا تآليفُ خاصة به ، منها كتابٌ ظهرَ في زمن الفاتح من تأليف أحمد الجيلاني ، مأخوذٌ منه قسمٌ عن اليونان ، وقد حرره المؤلف بالفارسي . ثم ترجمه أديبٌ اسمه نعمة الله إلى التركي ، وهذا التأليف تجدهُ في خزانة أياصوفيا تحت رقم (٣٠٢٥) .

وروى كاتب شلبي صاحب « كشف الظنون » أنّ الفلكي علي بن محمد القوشجي ألّفَ أيضاً لعهد السلطان الفاتح كتاباً آخر بالفارسي على أياصوفيا ، لكننا لم نتحققه .

ثم إنه يوجد في خزانة كتب برلين تأليفٌ ثالث عهدُه (٨٨٨ هـ) في الموضوع نفسِه ، هو ملحق بتاريخ الدولة العثمانية إلا أنّ اسمَ المؤلف غيرُ مذكور فيه .

ثم هناك مجلد اسمه «تواريخ قسطنطينية» فيه كتابان في الموضوع ، وفيه أقاصيص كثيرة تتعلّقُ بالجامع ، وأسباب بناء هذا المعبد في الأصل ، والأموال التي أنفقت عليه .

ثم إنّه موجودٌ تأليف آخر اسمه « تواريخ قسطنطينية وأياصوفيا » لعلي العربي إلياس ، بدأ به سنة (٩٧٠) لعهد السلطان سليمان القانوني ، ويقول علي العربي إلياس : إنّ البنّاء الذي هندس بناية أياصوفيا بأمر الإمبراطور يوستنيانوس كان اسمه إغناطيوس ، وبالجملة نجدُ تاريخَ هذا الرجل أوفى الكتبِ بموضوع أياصوفيا ، وإن كان مقصِّراً عن الوفاء بتحقيقاتنا العصرية . اهـ .

هذا ما نقلناه عن « الأنسيكلوبيدية الإسلامية » بشأن أياصوفيا أشهر جامع في القسطنطينية وذلك على وجه الاختصار .

وفي الأستانة غير بعيد عن هذا الجامع جامع آخر اسمه أياصوفيا الصغير ، بناه أيضاً الإمبراطور يوستنيانوس باسم القديسين سرجيوس وباخوس ، وقد تحوَّلَ في زمان محمد الفاتح أيضاً إلى مسجدٍ .

ثم إنّ تاريخ أياصوفيا الذي أشارت إليه « الإنسيكلوبيدية » من تأليف الجيلاني قد جاء ذكرُه في « كشف الظنون » وجاء ذكر التاريخ الآخر للكُشْجي قال : «تاريخ أياصوفيا» مختصرٌ ، نقله أحمد الجيلاني ، حين الفتح من اليونانية إلى الفارسية ، وأهداه للفاتح ، ثم نقله نعمة الله بن أحمد من الفارسية إلى التركية ، وللمولى الفاضل علي بن محمد القوشجي المتوفى سنة (٨٧٩) تأليف لطيف بالفارسية ألّفه للفاتح المرحوم .

* * *

وفي القسطنطينية جوامعُ أخرى كانت كنائس منها كليسة جامع ، وگل جامع أي جامع الورد وغيرهما .

ولا يزال فيها خمسون كنيسة منها كنائس باقية من القرن الثالث عشر .

وأما الجامع المسمى بسلطان أيوب في الخليج الذي هو أقدسُ مكانٍ عند الأتراك ، فهو الجامع المبني على ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب خالد

الأنصاري رضي الله عنه .

وقد تقدّم لنا خبرُ وفاة أبي أيوب في أثناء حصار القسطنطينية ، وما أوصى به يزيد بن معاوية من جهة دفنه ، ثم إنّه لما جاء محمد الفاتح وحاصر هذه البلدة الطيبة ، وفتحها ، انكشف للمولى آق شمس الدين ضريحُ أبي أيوب ، وشاد الفاتح رحمه الله سنة (٨٦٣) جامعاً عند ضريح الصحابي المجاهد ، ثم في سنة (١٢١٣) إلى سنة (١٢١٥) تجدَّد بناءُ هذا الجامع على صورته الأصلية ، وكان من عادة سلاطين آل عثمان أنه عندما يتولى أحدهم السلطنة يذهب إلى جامع أبي أيوب المشار إليه ، ويتقلّد فيه السيفَ باحتفالٍ عظيم ، ويكون تقليدُ السيفِ من يد الشلبي شيخ الطريقة المولوية التي مركزها قونية .

هذه هي العادة التي أدركناهم عليها ، إلا أنّه لما تولى السلطنة محمد وحيد الدين الملّقب بمحمد السادس ابن السلطان عبد المجيد بن محمود (١٩١٨) ، وهو الذي أعلنت تركية الجمهورية بعد خلعه[١] ـ كان الذي قلّده السيفَ السيد أحمد الشريف كبيرُ السادة السنوسية والمجاهد الشهير بهذا العصر .

هذا وبجوار جامع أبي أيوب مقبرةٌ ، فيها مدافن كثير من أميرات آل عثمان ، وكثير من الوزراء والعلماء والشعراء ورجال الدولة، نظراً لكون الناس في الأستانة يتبركون بهذا المكان المنسوب لصاحب رسول الله ﷺ ، ويحبون أن يدفنوا فيه ، ومن جملة من دفنوا فيه أحدُ أعمامِ محرِّرِ هذه السطور ، وهو العالم الكبير المرحوم الأمير محمد الأمين الأرسلاني ، الذي كان عضواً في مجلس شورى الدولة ، وتوفي في الأستانة شاباً عن (٣١) سنة وذلك سنة (١٢٨٨) هجرية[٢] .

المدافن

ومن **المدافن الشهيرة** في الأستانة مدافن السلاطين ، مثل سلطان محمود تبه

---

(١) أعلنت الجمهورية بعد خلع الخليفة عبد المجيد الثاني عام (١٩٢٤) .

(٢) راجع ترجمة الأمير محمد أرسلان عند ذكر الأمراء الأرسلانيين في « دائرة المعارف » للبستاني .

سي في ديوان يولي ، وفيها دفن السلطان محمود الثاني ، المتوفى سنة (١٨٣٩ م) ، وولده السلطان عبد العزيز ، المتوفى سنة (١٨٧٧) .

وتربة السلطان عبد الحميد الأول ، المتوفى سنة (١٧٨٩) وهي في بغجة قبوسي ، وفيها دفن السلطان مصطفى الرابع المتوفى سنة (١٨٠٧) .

التكايا

ومن الأمكنة الدينية المشهورة في الأستانة **التكايا** ، وهي التي يُقال لها الزوايا عند العرب ، وهذه كان يبلغ عددُها (٢٦٠) تكية في البلدة وقرى البوسفور ، أشهرُها تكية المولوية في يني كوي ، وتكية السنبلي في جوارها ، ثم تكية هذه الطريقة في بك أوغلي ، وهي من أشهر تكايا تركية وأقدمِها ، بنيت سنة (٨٩٧) للهجرة ، ثم احترقت منذ مئة وسبع وستين سنة ، وأعادَ بناءَها بشكلها الحاضر السلطان سليم الثالث وذلك سنة (١٢١٠) ، وفيها قبر أحمد باشا المهتدي الإفرنسي ، الذي كان اسمه الكونت دوبونفال (de Bonneval) والذي هو من آل ليموزين ، العائلة العريقة بفرنسة من القرن الحادي عشر ، والتي اشتهر منها عددٌ من القوادِ الأبطال ، منهم **كلود إسكندر** الذي ولد سنة (١٦٧٥) وتوفي سنة (١٧٤٧) وكان في الجيش الإفرنسي ، فجرت معه حادثة أوجبتْ غضبه ، ففارق فرنسة ، ودخل في خدمة أوسترية . واشتهر في محاربة الأتراك ، وبعد مدة من الزمن وقع أسيراً في أيديهم في البوسنة ، ثم أسلم ، وجعله الأتراكُ قائداً باسم أحمد باشا ، ولما مات دفن في هذه التكية .

ومن المدفونين فيها إسماعيل الأنقروي شارح «المثنوي»[١] .

المدارس

وأما **المدارس القديمة**التي تُعلَّمُ فيها العلومُ الشرعية والآدابُ الشرقية ، فكانت نحو (١٧١) مدرسة ، أشهرها مدرسة أياصوفيا ، وفيها (١٥٠) طالباً ،

---

(١) ديوان صوفي للمولى جلال الدين الرومي .

ومدرسة السلطان أحمد وفيها (٢٠٠) طالب ، والسليمانية وفيها (٦٥٠) طالباً ، والمحمدية وفيها (٩٠٠) طالب ، وكان مجموع طلبة هذه المدارس نحواً من سبعة آلاف .

المشافي والمارستانات

وفي الأستانة مستشفيات ودوراً للمجانين ، كانت من القديم تابعةً للجوامع ، ثم جعلتها الحكومة التركية على الطريقة العصرية .

خزائن الكتب

أما خزائن الكتب فهي (٤٥) خزانة فيها (٤٦١٦٢) مجلداً ، كلها كتب إسلامية ، أكثرها مخطوط بالقلم ، وأشهر هذه الخزائن الخزانة التي في سراي السلاطين في طوب قبو ، ثم خزانة أياصوفيا ، ثم خزانة الفاتح ، ثم خزانة النور العثماني ، ثم خزانة أسعد أفندي ، ثم خزانة الكوبريلي ، ثم خزانة راغب باشا .

ومن الخزائن المعروفة خزانة بايزيد ، وفيها كان بعضُ أجزاء كتاب « الإكليل » النادر الوجود للهمداني اليماني . وخزانة عاشر أفندي ، بقرب يني جامع ، وفيها وجدتُ أنا منذ أربعينَ سنة رسالة « الدرة اليتيمة » لعبد الله بن المقفع ، ورسائل أبي إسحاق الصابىء رئيس كتاب ديوان الخلافة لعهد الطائع العباسي ، ونسختُ هذين المخطوطين بخط يدي ، وطبعتهما ، وكانت هذه طبعتهما الأولى .

ولقد علمنا أن حكومة تركية الحاضرة جمعت أكثر هذه الكتب في مكتبة واحدة بدار الفنون .

وأما مكتبة السراي فمنها قسم في الخزانة الخاصة بها ، ومنها قسم في بغداد كوشك ، ويقال : إنّ فيها مخطوطات لاتينية ويونانية ذات قيمة عظيمة ، ولقد أتيح لي أن أدخل إلى هذه المكتبة ، وإلى خزانة التحف السلطانية ، وأن أرى

كثيراً من الكتب النفيسة في أجلادها[1] المذهبة وخطوطها التي تحيِّرُ العقول ، ولا عجب فعن الملوك ولا تسل ، وأيّ الملوك : سلاطينُ آل عثمان ، الذين ملكوا نحواً من سبعمئة سنة مملكةً من أكبر ممالك العالم .

وكذلك الجواهر والدرر اليتيمة التي في خزانة آل عثمان قلما يوجَدُ مثلها في خزائن الملوك ، ولا شكّ في أنها تقوَّمُ بملايين كثيرة من الجنيهات .

وفي أثناء الحرب العامة نقلت الدولة الجواهر التي كانت في الحرم النبوي بالمدينة المنورة إلى خزانة طوب قبو .

وفي السراي من النفائس مالا يُحصى ، ومن جملتها (١٢) ألف قطعة خزف صيني من النادر الأندر ، الذي صار مثله كالكبريت الأحمر ، كان المرحوم علي الباشهانبه التونسي قد عُهِدَ إليه بجمعها وتنضيدها لسعة معرفته بالخزف المذكور ، وهو الذي قال لي : إنّه لا يظنُّ في الدنيا كلِّها مجموعةَ خزفٍ صيني في نفاسة هذه المجموعة ، لا في الكيفيةِ ولا في الكميّةِ .

الآثار النبوية

وأما الآثار[2] النبوية التي أخذها السلطان سليم العثماني من آخرِ خلفاء بني العباس عندما فتح مصر ، فلها في سراي طوب قبو كوشك خاص بها ، وأهمها البردة الشريفة ، التي أعطاها رسول الله ﷺ كعبَ بن زهير عندما أنشدَه « بانت سعاد » وهي في سفطٍ ثمين ، كان السلطان سليم رتَّب عندها (١٢) قارئاً ، يقرأون كتابَ الله بالمناوبة ، بحيث لا تنقطع التلاوة لا ليلاً ولا نهاراً ، وكان السلاطين يحتفلون بزيارتها في وسط رمضان في يومٍ مشهود ، يكون فيه السلطان وأمراء الأسرة المالكة والوزراء والقواد وأعضاء مجلسي الأعيان والنواب ، وقد حضرت هذه الحفلة مراراً ، وكان السلطان يجلِسُ على دكة ، وأمامه الصندوق الذي فيه السفط الذي فيه البردة ، وهم يقولون لها : خرقة سعادت ، ثم يتقدّم

---

(١) مجلداتها .

(٢) في الأصل (المخلفات) .

الرجال المدعوون للحفلة واحداً بعد واحد بالترتيب بحسب برنامج معلوم ، فيرقى الواحد منهم درجة الدكة ، ويصير أمام الصندوق ، وينحني ، ويقبِّل الصندوق من أعلاه ، ويكون السلطان قد تناول منديلاً ، فمسح به على وجه الصندوق ، فيناوله إياه ، وينصرف سائراً من غير الجهة التي جاء منها ، فيرقى غيرُه ، وهلم جرّا إلى أن تنتهي هذه المراسم ، والسكوت التام والخشوع العظيم سائدان عليها ، بحيث لا يسمع الإنسان فيها إلا صوتَ قارِىء يتلو القرآن في وسط البهو الذي فيه الحفلة .

لعل إخواننا الوهابيين يستهجنون هذه المراسم ، ولا يرون تقبيلَ الآثار النبوية أو الأصِونة التي فيها ، مما يستحب شرعاً ، إلا أنه ليس شيءٌ من هذه الأمور منوياً به غيرَ مجرد التذكر والتبرك « وإنما الأعمالُ بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى »[1] .

القصور

ثم إنّ سراي طوب قبو هذه هي في الواقع عبارة عن بلدة كبيرة في طولها وعرضها ومبانيها وحدائقها وميادينها وساحاتها ، وفيها أكشاكٌ وقصورٌ وصروحٌ بغاية الأبهة ، إذا طاف بها الإنسانُ طولَ النهار لا يأتي على آخرها . وفيها مساكنُ حرم السلاطين ، والغرفِ الخاصة بكل واحد منهم ، ومما أدهشني وأنا أطوفُ فيها أني لم أكدْ أمرُّ بغرفةٍ ولا ببهوٍ ولا بإيوانٍ من هذه القصور الملكية إلا رأيتُ على جدرانِ ذلك المكان آياتٌ قرآنية أو أحاديثُ نبوية بأجمل الخطوط المذهبة .

وقد رأيتُ القصيدةَ المعروفة بالبردة الشريفة منقوشة بأحرفٍ كبيرةٍ مموَّهةٍ بالذهب من أولها إلى آخرها في إيوانٍ واحدٍ ، ومن شاء أن يزورَ هذا المكان لم يكن له بدٌّ من أن يطوفَ به بمعرفةِ دليلٍ يعرِّفهُ تاريخَ كل محل ، ونسبته ، ووقت

---

(١) حديث متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قلت : لا تكفي النية الصحيحة ما لم يكن العمل في أصله مشروعاً .

بنائه ، ومَنْ كان من السلاطين يسكنُ في هذا القصر ، وأية حادثة وقعت في تلك الساحة ، وأيّ اجتماعٍ جرى في ذلك البهو إلى غير ذلك . وقد كان دليلُنا يوم طفنا في سراي طوب قبو المؤرخ العليم بالخطط أحمد رفيق بك المشهور ، الذي كان يشرحُ لنا ما يتعلّقُ بكلّ محل من الوقائع ، فشهدنا بواسطته التاريخَ مجسمّاً .

وللسلاطين العثمانيين ، عدا سراي طوب قبو ، سرايات كثيرة متناهية في الفخامة ، منها سراي **طولمه بغجة** ، التي كان يسكن فيها المرحوم السلطان محمد رشاد ، وفيها البهو الكبير العديم النظير ، الذي تجري فيه مراسم الأعياد ، وتستقبل به الملوك .

ومنها سراي جراغان ، وقد احترق جانبٌ منها .

ومنها **سراي يلدز** ، التي كان يسكنها السلطان عبد الحميد الثاني ، وهي على رابية من أبدع روابي الأستانة ، ولها حديقة واصلة إلى البحر ، وكان يصيِّفُ فيها السلطان [محمد] رشاد أيضاً . وقد وقعت لنا مقابلة السلطان [محمد] رشاد مرتين في سراي يلدز ، ومرة في سراي طولمه بغجه ، هذا عدا المقابلات الرسمية .

ومن السرايات الفخمة في الأستانة سراي **بكلربك** ، في الشاطىء الأسيوي من البوسفور ، وهي التي مات فيها السلطان عبد الحميد الثاني بعد خلعه .

ومنها **كوشك كوك صو** ، وغير ذلك من السرايات والقصور والصروح والمقاصف التي تدهش كل من رآها .

الثكن العسكرية

وفي الأستانة **ثُكَنٌ عسكرية** كثيرة لا تكاد تحصى إلا أن أعظمها الثكنة السليمية في أسكدار ، يقال : إنّها من أعظم ثكن الدنيا .

وفيها **الطوبخانة** ، وهي معمل المدافع والأسلحة ، وأول من أسس الطوبخانة محمد الفاتح ، [و] زاد فيها سليمان القانوني ، وما زالت السلاطين تهتمّ بها وتزيد فيها ، وسنة (١٩١٢) زرتُها بنفسي ، وتفقدت أعمالها ، وكان

مديرها رجل اسمه ناظم باشا ، فعلمتُ منه أنّها تصنع في كل أسبوع عشرة مدافع و(١٢٠) بندقية ، ومقداراً من الخرطوش للبنادق ، ومن القنابل للمدافع ، ولكن ذلك لم يكن شيئاً بالنسبة إلى احتياجات السلطنة ، فلذلك كانت الدولة العلية توصي على مدافعها وبنادقها في معامل ألمانية ، وقد علمتُ أنّ الدولة قد كانت أوسعتها في أثناء الحرب العامة ، وأدخلت فيها زيادات كثيرة .

وفي الخليج **الترسانة** ، وهي محرفة عن دار الصنعة ، وكان العرب يسمون كل مكانٍ تبنى فيه المراكب البحرية بدار الصنعة ، فأخذ هذه الكلمة الإفرنج ، وحرفوها ، وقالوا أرسنال ، وأخذها الترك ، وحرّفوها وقالوا : ترسانة ، وقد كان مؤسس الترسانة في إستانبول السلطان سليم الأول سنة (٩٢٢ ـ ١٥١٦) ثم زاد فيها القانوني ، ثم زاد فيها حسن باشا الجزائري في زمن عبد الحميد الأول ، ثم زاد فيها حسين باشا في زمن سليم الثلث ، وهناك دار نظارة البحرية العثمانية ، وأما الآن فقد جعلت حكومة أنقرة دار الصنعة في خليج أزميد .

الجامعات

وفي الأستانة مكاتب ودور علم كثيرة أشهرها : **دار الفنون في إستانبول** ، **ومكتب غلطه سراي** ، في بك أوغلي ، **والمكتب العسكري في شيشلي** ، **ومكتب البحرية** في جزيرة خلقي في بحر مرمرة ، وكلها قد نبغَ منها الألوف من رجال العلم والأدب والسيف والقلم .

الأسواق والخانات

وفي الأستانة **أسواق** عظيمة شهيرة ، لا توجد في حاضرة شرقية غيرها . منها **السوق الكبيرة** التي بدأها محمد الفاتح ، **وسوق مصر** التي بناها سليمان القانوني ، وغيرهما .

وكذلك فيها خانات شهيرة ، مثل خان والدة سلطان ، وبيوك يني جامع ، وفيه (٣٥٠) غرفة ، وسنبلي خان ، وخان محمود باشا ، وغيرها ، ويقدّرُ عدد ما فيها من الخانات بمئتين .

مياه القسطنطينية

ثم إن القسطنطينية من قديم الزمان كانت في حاجةٍ للمياه ، نظراً لوفرةِ سكانها ، وضخامة عمرانها ، فقياصرةُ الروم كانوا جلبوا لها المياه من الخارج على الحنايا والقناطر العظيمة ، أولهم الإمبراطور هادريان ، ثم ڤالنس .

ولما جاء المسلمون ازداد احتياجُ الأهالي إلى الماء ، كما هو بديهي ، فجرَّ إليها الفاتح مياهاً جديدةً ، ثم جرَّ لها القانوني بواسطة مهندسه سنان خمسة ينابيع ، عقد لها خمسة مجار فوق القناطر ، وجمعها في حوض كبير .

وبنى عثمان الثاني حوض برغوس سنة (١٦٢٠) وبنى أحمد الثالث السد ـ والأتراك يقولون بند ـ الذي في الوادي المسمى بغابة بلغراد ، وسنة (١٧٣٢) بنى محمود الأول سد بغجه كوي ، الذي منه مياه بك أوغلي وغلطة والطوبخانة .

وفي طرف بك أوغلي إلى جهة شيشلي محل يقال له تقسيم ، منه تقسيم المياه التي جرَّها محمود الأول .

وفي الأستانة حياضُ مياهٍ قديمةٍ من عهد الروم ، دثر أكثرُها ، واعتيضَ منها بالعيون التي هي من أجمل ما رأتْهُ العيون ، والسبل المبنية بالمرمر ، البالغة الحد في بداعة الصنعة ، مثل سبيل السلطان أحمد الثالث ، الذي بقرب باب همايون ، الذي تاريخه سنة (١١٤١) .

الحمامات

ويقدر عدد حمامات الأستانة بنحو من (١٥٠) حماماً عدا حمامات القرى الملحقة بالأستانة .

هذا وكان العرب يقولون للقسطنطينية « فَروق » كصبور ، وقد وردتْ كذلك في معاجم اللغة ، وكأنّهم أخذوها من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ [البقرة : ٥٠] أي فلقناه ، فإنّ البحر يفرقها بين آسية وأوربة بمضيق البوسفور ، ثم يفرق القسم الأوربي منها بالخليج المسمى بقرن الذهب ، الذي فيه دار

الصنعة أو الترسانة ، وفي آخرِه قبرُ [أبي أيوب] خالد [بن زيد] الأنصاري رضي الله عنه .

وهذا الخليج يفرقُ بين القسم المسمى بإستانبول الأصلية وغَلَطة ، وكانت غلطة من أيام الروم مسكن الجنويَّة وأصنافِ اللاتين ، ولما فتح الترك الأستانة ، انتقل كثيرٌ من الروم والأرمن إليها ، ثم لما بنيت الطوبخانة ، وهي قسم من غلطة ، جاءها كثير من المسلمين ، وهكذا تحولت كنيسة مار بولس جامعاً منذ سنة (١٥٢٥) وقيل (١٥٣٥) وهي المسجدُ الذي يقال له اليوم : عرب جامع . ويقول بعضُهم : إنّه كان جامعاً في أثناء حصار العرب للقسطنطينية . وتحوّلت كنيسة مار فرنسيس إلى جامع سنة (١٦٩٧) وهو المسجد المسمى **جامع الوالدة**. وللأتراك (١٤) جامعاً في غلَطَة ، منها أربعةٌ كانت كنائس .

***

وقد ذكر ياقوت الحموي في « معجم البلدان » (٤ : ٣٤٧) هذه العاصمة الشهيرة ، وقال : إنّها دارُ ملك الروم ، وإنّ الحكايات عن عِظَمِها وحُسْنها كثيرٌ ، ولكنّ ياقوت لم يعطِها حقَّها ، وربما كتب في وصف بلدة لا تبلُغُ مقدارَ حارةٍ من حارات القسطنطينية أكثرَ مما كتب عن القسطنطينية ، ولعله تجنّب الإطنابَ في شأنها ، خشيةَ أن ينسَب إليه التعصُب للرومية ، لأنه رومي ، وخشي أن يقال : إنّه لا يزال فيه عِرْقٌ من الرومية ينزعُ إليه .

وقد روى ياقوتُ ثلاثةَ أبياتٍ جاء فيها ذكر القسطنطينية وقال : إنها لأبي العيال الهُذلي رثى ابنَ عمٍّ له قتل في القسطنطينية ، وهي هذه :

ذكـرتُ أخـي فعـاودنـي ... رُداعُ القلبِ والوَصَبُ
أبـو الأضيـافِ والأيتـا ... مِ سـاعـةَ لا يُعَـدُّ أبُ
أقـامَ لـدى مـدينـةِ آ ... لِ قسطنطيـنَ وانقلبـوا

قال ياقوت : وهي بيد الإفرنج ، غلبوا عليها الروم ، وكان ياقوت حيّاً في أوائل القرن السابع للهجرة .

ولنختم كلامنا على القسطنطينية بذكر قضيةٍ ينبغي أن تُعْرَفَ في العالم

الإسلامي ، وهي أنّه لما تقررت في معاهدة لوزان المنعقدة بين تركية ودول الحلفاء سنة (١٩٢٣) مبادلة السكان بين تركية واليونان بحيث يخرج المسلمون الذين في بلاد الروملي إلى تركية ، ويخرج الأروام الذين في تركية إلى بلاد اليونان ، وجرت المبادلة بالفعل استُثني من ذلك الأروام الذين في القسطنطينية ، وهم يناهزون مئتي ألف نسمة ، واستثني بمقابلهم المسلمون الذين في تراقية الغربية ، لأنّ الدول الأوربية واليونان أَبَيْنَ إخلاءَ القسطنطينية من المسيحيين ، فأبت تركية أن تجعلَ ذلك بدون عوض ، ولما كان مسلمو تراقية يعز عليهم فراقُ وطنهم ، جعلوا هؤلاء في مقابلة هؤلاء .

فهذا ما اكتفينا به من أخبار هذه البلدة الطيبة ، أدامها الله دار إسلام ، ولقد رجعت الحكومة التركية الآن تطلِقُ عليها اسمها القديم إستامبول ، وأعلنت أنّها لا تقبل المكاتبات التي ترد عليها تحت اسم القسطنطينية (Coastantinople) وأوجبت أن يكتب إستامبول (Stamboul) وذلك لأنّ الأتراك يرون في اسم القسطنطينية تذكاراً لمُلْكِ الروم فيها ، ويرون اسم إستامبول هو الاسم الذي يطلِقُهُ الأتراك عليها .

وحقيقة الحال أنّ اسم إستامبول كان معروفاً للقسطنطينية من عهد الروم ، وقد نقل ياقوت الحموي عن ابن خرداذبة أنّه يقال لها : إسطنبول ، ومن المعلوم أن ابن خرداذبة عاشَ في أوائل القرن الثالث للهجرة ، وكان في أيام الخليفة المعتمد العباسي ، ويقال : إنّه كتب كتابه « المسالك والممالك » في حوالي سنة (٢٣٢) إذاً يكون اسم إستانبول أو إسطنبول قديماً ، **ومن العجيب أن ينفر الأتراك الأنقرويون من اسم القسطنطينية ، بحجة أنّه اسمٌ غربي ، وهم يحبون أن يقلِّدوا الأوربيين في كلِّ شيء ، وقد أخذوا يكتبون اللغة التركية بالحروف اللاتينية ، وأدخلوا فيها كلمات لا تحصى من اللغات الأوربية ، وهذه الكلمات ليست من الأعلام ، بل من الكلمات المعتادة التي كان يمكنهم الاستغناء عنها لوجود ألفاظ لها في العربية ، فآثروا الألفاظ الأوربية على الألفاظ العربية حباً بالتفرنج لا غير ، فكيف نسوا هذا كله ، ورجعوا يحاولون إثباتَ تركيتهم في إحياءِ لفظةٍ واحدةٍ هي لفظة إستانبول أو إسطنبول . إنّ هذا المنطق الأنقروي لعجيبٌ !! .**

هذا ولما كانت ألسنُ البنيان هي أدل الدلائل على همم الملوك ، فلا شيءَ أدلُّ على علو همم السلاطين العثمانيين من هذه الجوامع العظيمة التي شادوها في إستانبول آيات باهرة للناظرين ، وآثاراً خالدة في الأولين والآخرين .

فهذه الجوامع عدا فائدتها المعنوية من جهة الصلاة التي هي عمود الدين ، وكونها مجمعاً للألوف وعشرات الألوف من جماعات المصلين ، هي أيضاً الملاجىء الوحيدة في الأستانة عند النوازل ، سواء كانت من حريق أو زلزال أو حرب أو آفة سماوية أخرى ، ومن المعلوم أنّ القسطنطينية في القديم والحديث عرضةٌ للزلازل ، ولا تزال الزلازل تختلفُ إليها ، ولذلك اعتمد أهلُها على البناء بالخشب ، لأنّ خطر الأبنية الخشبية في الزلازل أقلُّ جداً من خطر الأبنية الحجرية . ولكنهم بهذا الأمر تعرّضوا لخطرٍ آخر هو الحريق ، الذي لا تخلو منه الأستانة ليلةً واحدةً . وكثيراً ما حدث من الحرائق ما أفنى قسماً كبيراً من تلك العاصمة ، ومرةً احترقَ ثلثُ الأستانة في حريقٍ واحدٍ . وفي أيامنا هذه جرت حرائقُ كان يبقى بعدها مئة ألفٍ نسمة أو يزيدون بدون مأوى ، فعندما تحصلُ حرائقَ كهذه ، لم يكن للأهالي الباقين بدون مأوى وهم ألوف أو عشرات الألوف ملجأٌ إلا الجوامع والمدارس التي حولها ، فإنّها مبنيةٌ كلُّها بالحجر الأصم المنحوت بناءً هو المثل البعيد في الإحكام ، بحيث مضت عليها القرون ، ولم تتأثر لا بقدم ولا بزلزال ولا بحريق ، فتجدها كالقلاع بل أشدُّ متانة ، ولولا هذه الجوامع وهذه المدارس لكان مصيرُ أصحابِ البيوت المحترقة لا سيّما في فصل الشتاء من أفجع ما يتصوره العقل ، فإنّ بيوت الأفراد لتعجزُ عن استيعابِ خمسين ألفاً ومئة ألف في ثغور المملكة الباقية بدون مأوى .

وكذلك في أثناء الحروب كان يهاجر المسلمون الذين في ثغور المملكة إلى الأستانة بعيالهم وهم ألوف مؤلفة ، فتضيق عليهم الأرض بما رحبت ، ولا يسعهم غير هذه الجوامع ، ولقد شهدتُ أنا بنفسي هذا الأمرَ في أثناء الحرب البلقانية ، فقد كانت مصر أرسلت بعثةً للهلال الأحمر المصري لأجل مداواةِ الجرحى العثمانيين على رأسها المرحوم محمد باشا الشريعي وكامل باشا جلال ، وجاءني أنا أيضاً من الأمير محمد علي توفيق رئيس الهلال الأحمر

المصري تفويضٌ بأن أكون من المراقبين على أعمال تلك البعثة في الأستانة .

وفي ذلك الوقت تقدّمت عساكرُ الدول البلقانية ، واخترقت حدود تركية فأجفل الأهالي المسلمون من أمامها ، والتجأوا من كل صوب إلى الأستانة ، لا يلوون على شيء ، ولم يكن في أيديهم شيءٌ تقريباً ، فدخل الأستانة نحو من مئة وثلاثين ألف نسمة مسلمة من الروملي ، فأنزلتهم الحكومة في هذه الجوامع ، التي لولاها لكان خطبهم لا يوصف ، ولكن كانت الحكومة آنئذٍ باحتياجها لمئونة جيوشها عاجزة عن إعاشة هؤلاء المهاجرين القادمين بغتة ، وليس بأيديهم شيءٌ يسد أرماقهم ، فعند ذلك توالت برقياتي إلى الأمير محمد علي توفيق رئيس الهلال الأحمر المصري ، وإلى الأمير عمر طوسون رئيس لجنة إعانة الدولة بمصر ، والذي نجده على رأس كل مأثرة في خدمة الإسلام ، ففي الحال أرسلوا مبالغَ وافرةٍ من المال ، وأمكننا أن نوزِّع على هؤلاء البؤساء إعاناتٍ أصابَ النفس الواحدة منها ثلاثة ريالات مجيدية ، فكانت العائلة المؤلفة من عشرة أنفس تقبض ثلاثين ريالاً مجيدية ، وكانت بعثة الهلال الأحمر المصري بالاشتراك مع لجنة من قبل أمانة البلدة توزِّعُ هذه الأموال على المهاجرين بموجب قوائم كانت تُعَدُّ من قبلُ بعددهم وبأسمائهم .

ومن حيثُ إني كنتُ دائماً حاضراً تلك التوزيعات أمكنني أن أشاهِدَ أكثر تلك الجوامع وتلك المدارس ، التي كانت هذه الألوف المؤلفة من المهاجرين قد أنزلت بها ، وعلمتُ أيَّ غناءٍ تغنيه هذه المباني الخالدة ، وتأملتُ في فضل أولئك السلاطين الذين لو لم يؤثروا في الأرض إلا هذه الآثار العظيمة وحدَها لكفاهم ذلك فخراً في هذه الدنيا ، وأجراً في الآخرة . فكيف وقد ضموا إلى هذه الآثار الباهرة تلك الفتوحات التي انصات الزمان بذكرها ، وارتعدت لها الدول الأوربية بأجمعها ، **وعاش الإسلام زمناً مديداً آمناً في ظلها ، فلا ينكِرُ فضائلَ هذه الأسرة إلا المكابر الجاحد ، الذي يحاول أن يستر نور الشمس بيده ، ولكنّ التاريخ شاهدٌ خالدٌ أمين ، لا يكذِبُ أهلَه** .

* * *

(٤)

نص القانون الأساسي العثماني[١]

« المشروطية الأولى » سنة ١٨٧٦م

المادة ١ ـ إنّ الدولة العثمانية تشمل الممالك والخطط الحاضرة ، والولايات الممتازة ، وهي كجسمٍ واحدٍ ، لا تقبل الانقسامَ أبداً لأيّةِ علةٍ كانتْ .

المادة ٢ ـ إنّ عاصمة الدولة العثمانية هي مدينة إسلامبول ، وهذه المدينة ليس لها أدنى امتياز على غيرها من البلاد العثمانية ، ولا هي معفاةٌ من شيء .

المادة ٣ ـ إنّ السلطة السنيةَ هي بمنزلة الخلافةِ الإسلاميةِ الكبرى ، وهي عائدة بمقتضى الأصول القديمة إلى أكبر الأولاد من سلالة آل عثمان .

المادة ٤ ـ إنّ حضرة السلطان ، وهو حامي الدين الإسلامي بحسبِ الخلافة ، وحاكمُ جميعِ التبعةِ العثمانية وسلطانها .

المادة ٥ ـ إنّ حضرة السلطان مقدَّسٌ وغيرُ مسؤول .

المادة ٦ ـ إنّ حقوقَ سلالةِ بني عثمان ، وأموالَهم وأملاكَهم الذاتية ، ومخصصاتهم المالية في مدة حياتهم ، هي تحت الضمانة العامة .

المادة ٧ ـ إنّ عزلَ الوكلاء ونصبَهُم ، وتوجيهَ المناصب والرتبِ ، وإعطاءَ النياشين ، وإجراءَ التوجيهات في الولايات الممتازة وفقاً لشروطها ، وضربَ النقود ، وذكرَ الاسم في الخطب ، وعقدَ المعاهدات مع الدول الأجنبية ، وإعلانَ الحرب ، وذكرَ الاسم في الحرب والصلح ، وقيادةَ القوات البحرية والبرية ، وإجراءَ الحركات العسكرية ، والأحكامَ الشرعية والقانونية ، وسنّ النظامات المتعلقة بدوائر وتخفيف المجازاة القانونية ، أو العفو عنها ، وعقد المجلس العمومي ، وفضه ، وفسخ هيئة المبعوثين عند الاقتضاء ، بشرط انتخاب أعضاء جديدة لها ـ جميعُ ذلك من جملةِ حقوق السلطان المقدسة .

---

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية : (٢٥٧ ـ ٢٧٨) .

في حقوق التبعة العثمانية

المادة ٨ - يطلَقُ لقب عثماني على كلِّ فردٍ من أفرادِ التبعةِ العثمانية بلا استثناء من أي دين ومذهب ، ويسوغ الحصولُ على الصفة العثمانية وفقدانِها بحسب الأحوال المعيَّنة في القانون .

المادة ٩ - إنّ جميعَ العثمانيين متمتعون بحريتهم الشخصية ، وكلٌّ منهم مكلَّفٌ بعدم تجاوزه حقوقَ غيره .

المادة ١٠ - إنّ الحريةَ الشخصية هي مصونةٌ من جميع أنواعِ التعدي ، ولا يجوزُ إجراءُ مجازاةِ أحدٍ بأي وسيلةٍ كانت ، إلا بالأسبابِ والأوجه التي يعينها القانون .

المادة ١١ - إنّ دينَ الدولة العثمانية هو الدينُ الإسلامي ، ومع مراعاة هذا الأساس ، وعدم الإخلال براحة الخلق والآداب العمومية ، تجري جميعُ الأديان المعروفة في الممالك العثمانية بحريةٍ تحت حماية الدولة ، مع دوام الامتيازاتِ المعطاة للجماعات المختلفة كما كانت عليه .

المادة ١٢ - إنّ المطبوعات هي حرةٌ ضِمنَ دائرةِ القانون .

المادة ١٣ - إنّ تبعة الدولة العثمانية مرخصةٌ بتأليفِ كلِّ نوعٍ من أنواعِ الشركات المتعلقة بالتجارة والصناعة والفلاحة .

المادة ١٤ - يسوغُ لكلِّ فردٍ من أفرادِ التبعة العثمانية أو الجملة منهم تقديمُ عرضِ حالٍ بحق مادةٍ وُجِدَتْ مخالفةً للقوانين والنظامات المتعلقة بالعموم إلى مرجع تلك المادة ، كما أنّه يحقُّ لهم تقديمُ عرضِ حالاتٍ ممضاةٍ إلى المجلس العمومي بصفة مدّعين ومشتكين من أفعال المأمورين .

المادة ١٥ - إنّ التعليم حرٌ ، وكلُّ عثماني مرخَصٌ له بالتدريس العمومي والخصوصي بشرطِ مطابقةِ القانون .

المادة ١٦ - جميعُ المكاتب هي تحت نظارةِ الدولةِ ، وسيصيرُ النظرُ بالوسائل التي من شأنها جعلُ تعليمِ التبعة العثمانية على نسقِ اتحادٍ وانتظامٍ واحدٍ ، لا تمس أصول التعاليم الدينية عند الملل المختلفة .

المادة ١٧ - إنّ العثمانيين جميعُهم متساوون أمام القانون ، كما أنّهم متساوون

كذلك في حقوقِ وظائفِ المملكة ما عدا الأحوالِ الدينية والمذهبية .

المادة ١٨ ـ يشترط على التبعة العثمانية معرفة التركية ، التي هي اللغة الرسمية لأجلِ تقلُّدِ مأمورياتِ الدولة .

المادة ١٩ ـ يقبلُ في مأموريات الدولة عمومُ التبعة ، ويعيّنون في المأموريات المناسبة بحسب أهليتهم واستحقاقهم .

المادة ٢٠ ـ إنّ تكاليف الدولة تطرح وتوزع بين جميع التبعة ، بحسب اقتدارِ كلٍّ منها وفقاً لنظاماتها المخصوصة .

المادة ٢١ ـ كل أحدٍ أمينٌ على ماله وملكه الجاري تحت تصرفه بحسب الأصول ، ولا يؤخَذُ من أحدٍ ملكَه ما لم يثبت لزومه للنفع العام ، ويدفع ثمنُه الحقيقي سلفاً وفقاً للقانون .

المادة ٢٢ ـ إنّ مسكنَ كلٍّ أحدٍ في الممالك العثمانية مصونٌ من التعدي ، ولا تقدرُ الحكومة أن تدخلَ جبراً في مسكن أحدٍ أو منزِله ، إلا في الأحوال التي يعينها القانون .

المادة ٢٣ ـ لا يسوغُ إجبارُ أحدٍ على الحضور إلى محكمةٍ غيرِ المحكمةِ المنسوب إليها قانونياً وفقاً لقانون أصول المحاكمة الذي سيصير ترتيبه .

المادة ٢٤ ـ المصادرةُ والتسخيرُ من الأمور الممنوعة ، وإنما يُستثنى من ذلك التكاليف والأحوال التي تعيَّنُ في أوقات الحرب بحسب الأحوال .

المادة ٢٥ ـ لا يجوزُ أن يؤخَذَ من أحدٍ پارة واحدة باسم ويركو ورسومات ، أو بصفة أخرى ، ما لم يكنْ ذلك موافقاً للقانون .

المادة ٢٦ ـ إنّ التعذيبَ وكل أنواع الأذى ممنوع قطعياً بالكلية .

في وكلاء الدولة

المادة ٢٧ ـ إنّ مسند الصدارة والمشيخة الإسلامية يفوّضان من قبل السلطان إلى الذوات الذين يَثِقُ بهم ، وكذلك مأموريات باقي الوكلاء ، فإنّها تجري بوجوب إرادة سلطانية .

المادة ٢٨ ـ إنّ مجلس الوكلاء ينعقِدُ تحتَ رئاسة الصدر الأعظم ، وهو مرجعُ جميع الأمور الداخلية والخارجية ، أما قراراته المحتاجة إلى الاستئذان ،

فإنّها تجري بموجب إرادة سنية .

المادة ٢٩ ـ إنّ كلاًّ من الوكلاء يجري من الأمور العائدة إلى إدارته ما هو مأذونٌ بإجرائه وفقاً لقواعده ، وأما ما كان خارجاً عن دائرةِ مأذونيته فيعرَضُ إلى الصدر الأعظم يجري مقتضياتِ المواد التي تحتاج إلى المذاكرة ، ويستأذنُ عنها من الحضرة السلطانية ، وما كان محتاجاً منها للمذاكرة يعرضُه ، ويستأذِنُ إلى مجلس الوكلاء للتذاكر به ، ويجري إيجابه بمقتضى الإرادة السنية التي تصدُرُ بها ، أما أنواع ودرجات هذه القضايا فستعيَّنَ بنظامٍ مخصوص .

المادة ٣٠ ـ إنّ وكلاء الدولة مسؤولون عن الأحوالِ والإجراءات المتعلقة بمأموريتهم .

المادة ٣١ ـ إذا تشكّى واحدٌ أو أكثر من أعضاء مجلس المبعوثين على أحد وكلاءِ الدولة بما يوجب عليه المسؤولية في الموادِ التي هي من متعلقات هيئة المبعوثين ، فعلى رئيسِ هذه الهيئة ، الذي يُتقدَّمُ له بتقريرِ الشكوى أن يرسلَ ذلك التقرير وبظرف ثلاثة أيام إلى الشعبة التي تتعلَّقُ بها المذاكرة في أنّه هل يجب إحالته إلى الهيئة المناط بها رؤيةُ هكذا مواد أو لا ، وفقاً لنظام هيئة المبعوثين الداخلي ، وهذا بعد أن تفحَصَ هذه الشعبةُ ذلك التقرير ، وتجري التحقيقات اللازمة ، وتستوفي الإيضاحات الكافية من الذي اشتكي عليه ، فإنْ قررت بالأكثرية أنّ هذا التشكي حريٌّ بالمذاكرة ، تقدّم قرارها إلى هيئة المبعوثين للإطلاع عليها ، وإذا مست الحاجة تستدعي المشتكى عليه ، وتسمع الإيضاحات التي يقدمها بنفسه أو بواسطة غيره ، فإنْ وافقتْ أكثريةُ الهيئةِ المطلقة أي ثلثاها على لزوم المحاكمة تقدَّم المضبطة المتضمنة طلب المحاكمة إلى مقام الصدارة العظمى ، وغِبّ عرضها للأعتاب السلطانية تحالُ الدعوى إلى الديوان العالي بموجب إرادة سنية .

المادة ٣٢ ـ إن أصول محاكمة الوكلاء الذين يقعون تحت تهمة ستعين في قانون خصوصي .

المادة ٣٣ ـ لا فرقَ البتةَ بين الوكلاء وبين أفراد العثمانيين في الدعاوى الشخصية الخارجية عن مأموريتهم ، فتجري المحاكمة على هذه القضايا في المحاكم

العمومية التي يتعلق بها ذلك .

المادة ٣٤ ـ إذا حكمتْ دائرةُ التهمةِ في الديوان العالي على أحدِ الوكلاءِ بكونه واقعاً تحت التهمة ينزل عن مأموريته إلى أن تظهرَ براءته .

المادة ٣٥ ـ إذا وقع اختلافٌ على مادة ما بين الوكلاء وبين هيئة المبعوثين وأصرّ الوكلاء على تقرير تلك المادة ، فرفضتها هيئة المبعوثين ثانية رفضاً قطعياً بأكثرية الآراء ، مبينة تفصيل الأسباب الموجبة لذلك ، فللحضرة السلطانية حينئذ وحدَها أن تغيِّرَ الوكلاء أو أن تفضَّ المبعوثين ، بشرط انتخابِ هيئةٍ جديدةٍ خلافَها في المدة القانونية .

المادة ٣٦ ـ إذا اقتضت الحالُ ضرورةً في غير وقت انعقادِ المجلس العمومي لوضع قانون صيانة الدولة من الخطر ، أو وقاية الأمن العام من الخلل ، ولم يكن الوقت كافياً لجمع المجلس للمذاكرة بهذا القانون فتجتمع هيئة الوكلاء ، وتقرر ما يلزم من الأمور بشرط مراعاة أحكام القانون الأساسي ، وبموجب إرادة سنية ، يكون لقرارها قوة القانون للحكم مؤقتاً إلى أنْ تجتمعَ هيئةُ المبعوثين ، وتعطي قرارَها بهذا المعنى .

المادة ٣٧ ـ يحقُّ لكلٍ من الوكلاء في أيِّ وقتٍ شاء أن يحضرَ اجتماعاتِ كلتا الهيئتين ، أو أن ينيبَ عنه فيها أحدُ رؤساءِ المأمورين ، الذين تحت إدارته ، وله التقدُّمُ في الكلام على الأعضاء .

المادة ٣٨ ـ إذا استدعي أحدُ الوكلاء إلى مجلس المبعوثين بموجب قرار الأكثرية ، لإعطاء إيضاحٍ عن أمرٍ ما ، يحضرُ إلى المجلس ، أو يرسل أحدَ رؤساء المأمورين الذين تحت إدارته ، ويجيبُ عن المواد التي يُسألُ عنها ، ويحقّ له أن يؤخِّرَ جوابه إذا رأى لزوماً لذلك ، آخذاً المسؤولية على نفسه .

في المأمورين

المادة ٣٩ ـ جميعُ المأمورين ينتَخَبون من أربابِ الأهلية والاستحقاق للمأموريات التي تفوَّضُ إليهم بحسب الشروط المعينة في النظام ، وكلُّ مأمورٍ ينتخَبُ على هذه الصورة لا يجوزُ عزله ولا تغييره ، ما لم يبد منه

حقيقةَ ما يُوْجِبُ العزل قانوناً ، أو يستعفي من تلقاء نفسه ، أو يرى عزله لازماً لضرورةٍ تقتضيها أحوالُ الدولة .

ومن كان مِن أصحاب الاستقامة وحسن السلوك من المأمورين ، وعُزِلَ عن ضرورةٍ كما ذُكِرَ يكون جديراً بالترقي ، ويعيَّنُ له معاشُ التقاعدِ ، أو العزل بحسب نص النظام الخصوصي الذي سيصير ترتيبه .

المادة ٤٠ ـ سيعيَّنُ نظامٌ مخصوصٌ لوظائف كلِّ مأمورية ، وكلُّ مأمورٍ هو مسؤولٌ في إدارة وظيفته .

المادة ٤١ ـ من الواجب على كلِّ مأمورٍ احترامُ أمرِهِ ورعايته ، إلا أنّ الطاعة لا تتجاوَزُ الدائرةَ المعينة قانونياً ، والطاعة للآمرِ في الأمورِ المخالفةِ للقانون لا تقي من المسؤولية .

في المجلس العمومي

المادة ٤٢ ـ إنّ المجلسَ العمومي يركَّبُ من هيئتين ، تسمّى إحداهما هيئةُ الأعيان ، والأخرى هيئة المبعوثين .

المادة ٤٣ ـ إنّ كلاً من هيئتي المجلس العمومي تجتمعُ في ابتداء شهر تشرين الثاني من كلِّ سنة ، وتفتح بموجب إرادة سنية ، وتقفَلُ كذلك بإرادة سنيةٍ أول آذار ، ولا يجوزُ انعقادُ إحدى هاتين الهيئتين بغيرِ وقتِ اجتماع الأخرى .

المادة ٤٤ ـ إذا رأتْ الحضرةُ السلطانية وجوباً تقتضيه أحوال الدولة ، فإنّها تفتحُ المجلسَ العمومي قبل وقته ، وتقصر اجتماعَ المجلسِ كذلك أو تطيلهُ عن المدة المعينة .

المادة ٤٥ ـ إنّ افتتاحَ المجلس العمومي يتمُّ بحضرة الذات السلطانية ، أو بحضور الصدر الأعظم نائباً عنها ، أو بحضور وكلاء الدولة مع أعضاء الهيئتين ، ويتلى حينئذ نطقٌ سلطاني فيما يلزم اتخاذُه في المستقبل من الوسائل والتدابير بخصوص أحوال الدولة الداخلية ، وصلاتها الخارجية في السنة الحالية .

المادة ٤٦ ـ إنّ الأعضاء الذين ينتَخَبون أو يعيَّنون للمجلس العمومي ، يحلفون بالأمانة للحضرة السلطانية وللوطن ، وبمراعاة أحكام القانون الأساسي ، والأمور المودعة لعهدتهم ، والابتعاد عن مخالفة ذلك ، وهذا اليمينُ يتمُّ بحضور الصدر الأعظم في يوم افتتاح المجلس ، ومن لم يكن حاضراً من الأعضاء في ذلك اليوم يحلِفُ هذه اليمين بعينها بحضورِ الرئيس والهيئة التي هو منها .

المادة ٤٧ ـ إنّ أعضاءَ المجلس العمومي أحرارٌ بإبراز آرائهم وأفكارهم ، ولا يقيَّدُ أحدٌ منهم بوعدٍ أو تهديدٍ ما ، ولا يرتَبِطُ بتعليماتٍ البتةَ ، ولا يجوز إلقاء التهمةِ على أحدٍ منهم بوجهٍ من الوجوه ، بسبب إبراز آرائه ، أو بيان أفكاره بأثناء مفاوضات المجلس ، إلا إذا بدا منه مخالفة لنظامات المجلس الداخلية ، فحينئذ تجري معاملتُه بموجب النظامات المذكورة .

المادة ٤٨ ـ إذا اتُّهِمَ أحدُ أعضاء المجلس العمومي من قبل الهيئة المنسوب إليها بجنايةٍ ما ، أو بمحاولة إلغاء القانون الأساسي ، أو بالارتكاب ، وتقرَّرتْ هذه التهمةُ بموجب أكثرية تلك الهيئة المطلقة ، أي بثلثي الآراء ، أو إذا حكم قانونياً على أحد الأعضاء بالحبس أو النفي ، فتسقط عنه صفة العضوية ، وتجري محاكمتُه ، ويحكم بمجازاته على أفعاله هذه في المحكمة التي يتعلق بها ذلك .

المادة ٤٩ ـ يحقُّ لكلِّ عضوٍ من أعضاء المجلس العمومي أن يبرزَ رأيه بنفسه ، أو يمتنع عن إعطاء رأيه فيما يتعلَّقُ برفض أو قبول مادةٍ مطروحةٍ تحت المذاكرة .

المادة ٥٠ ـ لا يجوزُ أن يكونَ شخصٌ واحدٌ عضواً في كلتا الهيئتين المذكورتين في وقت واحد .

المادة ٥١ ـ لا يسوغُ الشروع بالمفاوضات في إحدى الهيئتين بدون حضور نصف الأعضاء المرتبين وعضو واحد زيادة عن النصف ، وتقرر كل المواد بأكثرية الأعضاء الحاضرين المطلقة ، خلا الأمور المشترط بها أكثرية ، هي ثلثا الأعضاء ، وإذا تساوت الآراء فرأي الرئيس يُحسَبُ مضاعفاً .

المادة ٥٢ ـ إذا قدّمَ شخصٌ ما عرضَ حالٍ إلى إحدى هيئتي المجلس العمومي بخصوص دعوى متعلقة بشخص ، ثم ظهر أنّ ذلك الشخص لم يقدِّمْ دعواه

إلى مأموري الدولة ، الذين يتعلّق بهم رؤيتها ، ولا إلى مرجع أولئك المأمورين ، فإنّ عرضَ حالِه يُرْفَضُ ويُرَدُّ له .

المادة ٥٣ ـ إنّ سنَّ قانونٍ جديدٍ ، أو تغييرَ بعضِ القوانين الموجودة متعلِّقٌ بهيئة الوكلاء ، إلا أنّه يحقُّ لكلٍّ من هيأتي الأعيان والمبعوثين أن تطلب تجديدَ قانون أو تغييرَ القوانين الموجودة في المواد التي هي ضمن دائرة وظائفهم ، وحينئذ يستأذن بذلك من الحضرة السلطانية والصدر الأعظم ، فإنّ صدرت الإرادة السنية بذلك ، تحالُ الكيفية إلى مجلس شورى الدولة ، لأجل ترتيب اللوائح المقتضية على مقتضى الإيضاحات والتفاصيل التي تؤخذ من الدوائر التي يتعلَّق بها ذلك .

المادة ٥٤ ـ إنّ لائحة القوانين التي يرتبها مجلس شورى الدولة بعد أن يجري البحثُ والتدقيقُ عليها ، وقبولها في هيئة المبعوثين أولًا ، ثم في هيئة الأعيان ، تكون دستوراً للعمل إذا صدرت الإرادة السنية السلطانية بإجراءها ، وكل لائحةِ قانونٍ ترفضُ رفضاً قطعياً من قبل إحدى هاتين الهيئتين لا يجوز طرحُها ثانيةً تحت المذاكرة في تلك السنة .

المادة ٥٥ ـ كلُّ لائحة قانونٍ لا تعتبَرُ مقبولةً ما لم تُقْرأْ أولًا في هيئة المبعوثين ، ثم في هيئة الأعيان بنداً بنداً ، ويقرر كلٌّ منها بأكثرية الآراء ، ثم تقرر بالأكثرية أيضاً في هيئة المجلس العمومية .

المادة ٥٦ ـ لا يسوغ لهيئتي المجلس أن تقبلا أحداً أتى إليها للإفادة عن مادة بطريق الوكالة ولا أن تسمع تقريره ما لم يكن من هيئة الوكلاء ، أو من حضر بالنيابة عنهم ، أو من نفس أعضاء المجلس ، أو من المأمورين الذين استدعوا للحضور رسمياً .

المادة ٥٧ ـ إنّ المفاوضات في الهيئتين تجري باللغة التركية ، أما لوائح المفاوضات فإنّها تطبَعَ وتوزَّعُ على الأعضاء قبل اليوم المعين للمذاكرة .

المادة ٥٨ ـ إنّ إبراز الآراء في كلتا الهيئتين يتمُّ إما بتصريح الأسماء ، أو بالإشارة المخصوصة ، أو بالطريقة السرية ، إلا أنّ إبرازَ الآراء بالطريقة السرية يتوقَّفُ على أكثرية الأعضاء الحاضرين .

المادة ٥٩ ـ إنّ ضبطَ الأحوالِ الداخليةِ في كلِّ هيئةٍ منوطٌ برئيسها .

المادة ٦٠ ـ إنّ رئيسَ وأعضاء هيئة الأعيان يعيِّنُهم حضرةُ السلطان رأساً ، ولا يتجاوز عددُهم ثلث هيئة المبعوثين .

المادة ٦١ ـ إنّ مَنْ يُعيَّنُ بصفة عضو في هيئة الأعيان ، يجب أن يكونَ قد فعلَ ما يجعله أهلاً للثقة العثمانية ، وسبقت له خدمات حسنة مشهودة في الدولة ، وأن لا يكونَ سِنُّهُ دونَ أربعين سنة .

المادة ٦٢ ـ إنّ مدة العضوية في هيئة الأعيان هي مدةُ الحياة ، وتوجَّهُ هذه المأمورية لمن هو أهل لها من معزولي الوكلاء ، والولاة ، والمشيرين ، وقادة العسكر ، والسفراء ، والبطاركة ، ورؤساء الحاخامية ، والفرقاء البرية والبحرية ، ولغيرهم من الذوات الحاصلين على الصفات المطلوبة ، أما من يعيَّنُ من أعضاء هيئة الأعيان لإحدى مأموريات الدولة بطلبه فتسقط عنه صفة العضوية .

المادة ٦٣ ـ إنّ معاش العضوية الشهري في هيئة الأعيان عشرةُ آلاف قرش ، وإذا كان لأحدِ الأعضاءِ معاشٌ آخر أو مخصصات من الخزينة دونَ عشرةِ آلاف قرش فتزداد إلى هذا القدر ، وإن كانت عشرة آلاف أو أكثر تبقَى على حالها .

المادة ٦٤ ـ إنّ هيئة الأعيان تدِّقق البحثَ في القوانين ولوائح الموازنة الصادرة من هيئة المبعوثين ، فإنْ وجدت بها ما يُخِلُّ أساساً بالأمور الدينية ، أو بحقوقِ حضرة السلطان السنية ، أو بالحرية ، أو بأحكام القانون الأساسي ، أو باستقلالية ملك الدولة ، أو بأمنية المملكة الداخلية ، أو بوسائل المدافعة والمحافظة على الوطن ، أو بالآداب العمومية ، فلها أن ترفضها قطعياً مع إيراد ملاحظتها ، أو تردها إلى هيئة المبعوثين لأجل إصلاحها وتصحيحها .

أما اللوائح التي تقبلها ، وتصادق عليها ، فتقدم للصدر الأعظم ، وكذلك المعروضات التي تقدَّمُ للهيئة تُفْحَصُ بالتدقيق ، وتقدَّمُ لمقامِ الصدارة إذا وجد لزومٌ لذلك ، مع إضافة الملاحظات اللازمة عليها .

المادة ٦٥ ـ إنّ عدد أعضاءِ هيئة المبعوثين يكونُ باعتبار شخصٍ واحد من كلِّ خمسين ألف نفس من ذكور التبعة العثمانية .

المادة ٦٦ - إنّ أمر الانتخاب مؤسَّسٌ على الطريقة السرية ، وستقرر كيفية الانتخاب في قانون مخصوص .

المادة ٦٧ - لا يمكِنُ الجمعُ بين عضوية هيئة المبعوثين ومأمورية أخرى في الحكومة ، خلا من ينتخب من الوكلاء لهذه العضوية ، فيجوز له ذلك ، وأمّا من ينتخب لهيئة المبعوثين من باقي مأموري الدولة ، فهو في خيار من قبول ذلك ، أو رفضه ، إلا أنه إذا قبل العضوية يفصل من مأموريته الأولى .

المادة ٦٨ - لا يجوزُ أن ينتخَبَ لعضوية المبعوثين :

أولًا : من لم يكن من تبعية الدولة العلية .

ثانياً : من كان حائزاً مؤقتاً على امتياز خدمة أجنبية بمقتضى النظام المخصوص .

ثالثاً : من لم يكن عارفاً باللغة التركية .

رابعاً : من كان سنُّه دونَ الثلاثين .

خامساً : من كان مستخدماً عند شخص آخر في وقت الانتخاب .

سادساً : من حُكِمَ عليه بالإفلاس ولم يُعَدْ اعتباره .

سابعاً : من كان مشهوراً بالتصرفات السيئة .

ثامناً : من حُكِمَ عليه بالحجر حكماً لاحقاً ولم يفك عنه الحجر .

تاسعاً : من كان ساقطاً من الحقوق المدنية .

عاشراً : من يدّعي أنّه من التبعة الأجنبية ، فجميع هؤلاء لا يجوز انتخابهم بهيئة المبعوثين . أما في الانتخاب الذي يجري بعد أربع سنوات ، فيشترط على المنتخب أن يكون عارفاً القراءة والكتابة في اللغة التركية نوعا ما .

المادة ٦٩ - إنّ انتخاب المبعوثين العمومي يجري مرة واحدة في كل أربع سنين ، ومدة مأمورية كل من المبعوثين هو عبارة عن أربع سنين ، ويجوزُ تجديد انتخابه .

المادة ٧٠ - إنّ انتخاب المبعوثين العمومي يُبْدَأُ به قبل شهر تشرين الثاني ، الذي هو بداية اجتماع الهيئة بأربعة أشهر على الأقل .

المادة ٧١ ـ إنّ كلاًّ من أعضاء هيئة المبعوثين يعتبر كنائب عن عموم العثمانيين ، وليس عن الدائرة التي انتخبته فقط .

المادة ٧٢ ـ من الواجب على المنتخبين أن ينتخبوا المبعوثين من أهالي دائرة الولاية التي هم منها .

المادة ٧٣ ـ إذا قضت هيئة المبعوثين بإرادةٍ سنيةٍ بانتخاب جميع الأعضاء الجدد ، بحيث تتمكن الهيئة من الاجتماع بعد ستة أشهر على الأكثر .

المادة ٧٤ ـ إذا توفي أحدُ أعضاء هيئة المبعوثين ، أو وقع تحت الحجز لأسباب قانونية ، أو انقطع عن الحضور إلى المجلس مدةً طويلةً ، أو استعفى لداعي صدور حكمٍ ما عليه لسبب قبول مأمورية أخرى ، فيتعيّنُ عضوٌ خلافُه بحسب الأصول قبل الاجتماع التالي .

المادة ٧٥ ـ إنّ مأمورية العضو الذي ينتَخَبُ عوضاً عن أحد المبعوثين تدومُ فقط إلى وقت الانتخاب العمومي الآتي .

المادة ٧٦ ـ يعطَى لكلٍّ من المبعوثين عشرونَ ألفَ قرش من خزينة الدولة عن مدة الاجتماع في كل سنة ، وتعطَى له أيضاً مصاريفُ الطريق ذهاباً وإياباً باعتبار كونِ المعاش الشهري خمسة آلاف قرش وفقاً لنظام المأمورين الملكيين .

المادة ٧٧ ـ تَنْتَخِبُ هيئة الأعيان ثلاثةَ أشخاص لرئاسة الهيئة ، وثلاثةَ أشخاص لكلٍّ من الرئاستين الثانية والثالثة ، ثم تقدِّمُ أسماءَ هذه الأشخاص التسعة إلى الحضرة الشاهانية ، وبموجب إرادة سنية يعيّنُ أحدُ الثلاثة الأولين لرئاسة الهيئة ، وشخصان من الستة الباقين بصفة وكيلين للرئيس ، وتجري مأموريتهم على هذه الصورة .

المادة ٧٨ ـ إنّ المذاكرَة والمفاوضاتِ في هيئة المبعوثين تجري علناً غير أنّه إذا وقعت مادةٌ مهمةٌ ، وعند طلب الوكلاء أو خمسة عشر عضواً من أعضاءِ المبعوثين إجراء المذاكرة سرًّا على أمرٍ ما ، حينئذٍ يصرف الأشخاص الموجودون في محل اجتماعها ، خلا أعضائها ، وبموجب قرار الأكثرية تقبل أو ترفُضُ الطلبَ المتقدم لها ، وتجري المفاوضات علناً أو سراً بحسب القرار المذكور .

المادة ٧٩ ـ لا يجوزُ إلقاء القبض على أحدِ أعضاءِ هيئة المبعوثين بمدة اجتماع

المجلس ، ولا محاكمته ما لم يثبت بموجب قرار أكثرية الهيئة وجودُ سببٍ كاف لالقاء التهمة عليه من قبل الهيئة ، وما لم يرتكب جنحةً أو جنايةً ما ، ويمسك بوقت ارتكابه ذلك ، أو عقيبه .

المادة ٨٠ ـ إنّ هيئة المبعوثين تتذاكَرُ بلوائح القوانين التي تحال لها ، فما كان منها متعلقاً بالمالية أو القانون الأساسي يسوغ لها أنْ ترفضَه أو تقبلَه أو تصلِحَه غِبَّ تدقيق البحث على المصاريف العمومية بالتفصيل ، كما هو مصرَّحٌ به في قانون الموازنة ، تُقرر مقدارَها بالاتفاق مع هيئة الوكلاء ، وتُعيِّنُ كذلك مع هيئة الوكلاء أنواعَ الوارداتِ المقتضية لمقابلة المصاريف العمومية ومقدارها ، وكيفية توزيعها ، واستحصالها .

في المحاكم

المادة ٨١ ـ إنّ القضاة الذين ينصّبون من قبل الدولة بموجب النظام المخصوص ، وتعطى لأيديهم البراءة الشريفة ، فهؤلاء لا يعزلون ، وإنما يجوزُ قبول استعفائهم ، وأمّا صورة ترقي القضاة ومسالكهم ، ومبادلة مناصبهم ، وكيفية إجراء تقاعدهم ، وعزلهم عند صدور الحكم عليهم بذنب ما ، جميعُ ذلك مصرَّحٌ في النظام المذكور ، وهذا النظام موضح به كذلك الأوصاف المطلوبة من القضاة ومن باقي مأموري المحاكم .

المادة ٨٢ ـ إنّ جميع أنواع المحاكمات تجري في المحاكم علناً ، والإعلامات التي تصدرُ منها مأذونٌ بنشرها ، غير أنّه تجري المحاكمة سراً في الظروف المعينة بالقانون .

المادة ٨٣ ـ يحقُّ لكل أحدٍ أن يستخدِمَ لدى المحاكمة جميعَ الوسائل القانونية للدفاع عن حقوقه .

المادة ٨٤ ـ لا يسوغُ لإحدى المحاكم لأية علةٍ كانت أن تمتنعَ عن رؤيةِ دعوى هي من متعلّقاتها ، ولا يجوزُ توقيفُ الحكم بدعوى ما ، أو تأخيرُه بعدَ الشروع في رؤية تلك الدعوى ، أو بعد إجراءِ التحقيقات الأولية المقتضية لرؤيتها ، ما لم يكفَّ المدّعي عن ملاحقة دعواه . ولكنّ حقوق الحكومة

في الدعاوي الجنائية تأخذُ مجراها النظامي .

المادة ٨٥ ـ كلُّ دعوى يجب أن ترى في المحكمة التي يتعلق بها رؤيتها ، أما الدعاوى التي تقع بين الأفراد والحكومة فإنها ترى كذلك في المحاكم العمومية .

المادة ٨٦ ـ إنّ المحكمة بجملتِها تكون عارية من كل نوع من المداخلات .

المادة ٨٧ ـ إنّ الدعاوى الشرعية تُرى في المحاكم الشرعية ، والدعاوى النظامية ترى في المحاكم النظامية .

المادة ٨٨ ـ إنّ أنواع المحاكمة ووظائفها ، ودرجات حقوقها ، وأمرَ توظيف القضاء ـ كلُ ذلك يعودُ به على القوانين .

المادة ٨٩ ـ لا يجوز قطعاً ، لأية علة كانت ، ترتيبُ محاكم غير اعتيادية ، ولا لجان لرؤية بعض دعاوى مخصوصة والحكم بها خلال المحاكم القانونية ، وإنّما يجوزُ فقط التحكيم ، وتعيين مولين بحسب مفاد القانون .

المادة ٩٠ ـ لا يجوزُ لقاضٍ أن يجمعَ بين مأموريته القضائية ومأموريةٍ أخرى ذات معاشٍ في الحكومة .

المادة ٩١ ـ سيجري تعيينُ مدعين عموميين للدفاعِ عن الحقوقِ العامةِ في الأمور الجنائية ، أما وظائف هؤلاء المدعين ودرجاته فستقرر في القانون .

في الديوان العالي

المادة ٩٢ ـ يتألف الديوان العالي من ثلاثين عضواً ، منهم عشرة ينتَخَبون بالقرعة من رؤساء وأعضاء مجالس التمييز والاستئناف . وهذا الديوان ينعقدُ عند الاقتضاء بموجب إرادة سنية في دائرة هيئة الأعيان ، ووظيفته إنما هي محاكمة الوكلاء ورؤساء محاكم التمييز وأعضائها ، وكلِّ من اعتدى على ذاتِ الحضرةِ السلطانيةِ ، وعلى حقوقها ، وكلٍّ من حاول إلقاء الدولة في خطر .

المادة ٩٣ ـ ينقسمُ الديوان العالي إلى قسمين : يسمى أحدهما دائرة التهمة ، والآخر ديوان الحكم .

أما دائرة التهمة فأعضاؤها تسعة ، ينتخَبون ثلاثة من هيئة الأعيان ، وثلاثة من ديوان التميز والاستئناف ، وثلاثة من أعضاء هيئة التمييز ، وثلاثة من أعضاء شورى الدولة ، وكلهم ينتخَبُون بالقرعة من الأعضاء الذين يعينون للديوان العالي .

المادة ٩٤ ـ يعطي القرارُ في هذه الدوائر بأكثرية الثلثين على صحة التهمة الملقاة على الذوات المشتكى عليهم ، أو عدمها ، أما أعضاء دائرة التهمة فلا يحضرون في ديوان الحكم .

المادة ٩٥ ـ إنّ عدد الأعضاء في ديوان الحكم واحدُ وعشرون عضواً من أعضاءِ الديوان العالي ، منهم سبعة من هيئة الأعيان ، وسبعة من ديوان التمييز والاستئناف ، وسبعة من شورى الدولة ، وهذا الديوان يحكم حكماً باتاً وبمقتضى القوانين المؤسسة في الدعاوى التي قررت دائرة التهمة لزوم المحاكمة عليها ، ويتم حكمُه بموجب قرار أكثريته بثلث أعضائه ، أما أحكامُ هذا الديوان فلا تقبَلُ الاستئنافَ ولا التمييز .

في الأمور المالية

المادة ٩٦ ـ إنّ تكاليف الدولة لا يترتَّبُ منها شيءٌ ، ولا يصيرُ توزيعُ شيءٍ منها ، ولا جمعُه ما لم يتعيَّنْ بقانونٍ .

المادة ٩٧ ـ إنّ لائحةَ الدخل والخَرْجِ في الدولة هي بمنزلةِ قانونٍ موضَّح به مقدارُ واردتِها ومصارفاتها تقريباً ، فكل تكاليف الدولة يعوَّلُ بأمرِ ترتيبها وتوزيعها وجبايتها على هذا القانون .

المادة ٩٨ ـ إنّ اللائحة المذكورة أي قانون الموازنة العمومية يصيرُ بالبحث والمصادقة عليها بنداً بنداً في المجلس العمومي ، وكذلك الجداول المرتبطة بها ، المتضمنة تفاصيلَ الواردات والمصارفات تقسّمُ إلى أبوابِ وفصولِ وموادِ متعددةِ وفقاً للأصول المتخذة نظاماً ، وتجري المذاكرة عليها أيضاً فصلاً فصلاً .

المادة ٩٩ ـ إنّ قانون الموازنة العمومية يطرَحُ أمام هيئة المبعوثين عقب اجتماع

المجلس العمومي ، ليمكنَ وضعُهُ في موقع الإجراء عند دخول السنة المتعلق بها .

المادة ١٠٠ ـ لا يجوز صرفُ شيء من أموالِ الدولة خارجاً عن الموازنة ، ما لم يعيَّنْ ذلك بقانون مخصوص .

المادة ١٠١ ـ إذا مسَّتْ الحاجةُ لصرف مبلغ ما خارج عن الموازنة في غير وقتِ اجتماعِ المجلس العمومي ، وذلك لأسباب إجباريةٍ غير اعتيادية ، فإنّ هيئة الوكلاءَ تستأذِنُ من الحضرة السلطانية عن ذلك ، آخذةً المسؤولية عليها ، وتتدارك المبلغ اللازم لصرفه بموجب الإرادة السنية التي تصدر . وعليها أن تقدِّم لائحة ذلك إلى المجلس العمومي عند اجتماعه .

المادة ١٠٢ ـ إنّ حكم قانون الموازنة هو لسنة واحدة فقط ، ولا يجري في غير تلك السنة، غير أنّه إذا فُضَّ مجلس المبعوثين لأسباب غير اعتيادية قبل تقرير الموازنة ، فيسوغ للوكلاء بموجب إرادةٍ سنيةٍ أن يداوموا إجراء حكم موازنة السنة الماضية إلى أن يلتَئِمَ المبعوثين ، بشرطِ أن لا يتجاوز ذلك مدة سنة .

المادة ١٠٣ ـ إنّ لائحةَ قانون المحاسبة القطعية يتضمَّنُ مقدار المبالغ المتحصلة من واردات السنة المعينة لها ، وحقيقة المصاريف التي صار دفعها بتلك السنة ، وينبغي أن تكونَ هيئتُها وأبوابُها موافقةً بالتمام لقانون الموازنة العمومية .

المادة ١٠٤ ـ إنّ قانون المحاسبة القطعية يطرح أمام المجلس العمومي في كل أربع سنين على الأكثر من ختام السنة المتعلق بها .

المادة ١٠٥ ـ يترتّبُ ديوانُ محاسبات لأجل رؤية حساب المأمورين الموكلين بقبض أموال الدولة وصرفها ، لأجلِ فحص المحاسبات السنوية التي تقدَّمُ من الدوائر المختلفة ، وهذا الديوان يقدِّمُ إلى هيئة المبعوثين في حينهِ تقريراً حاوياً خلاصة فحصه وتدقيقاته ، ونتيجة أفكاره وملاحظاته ، وفي كلِّ ثلاثة أشهر يَعْرِضُ أيضاً على الحضرة السلطانية بواسطة رئيس الوكلاء تقريراً عن أحواله المالية .

المادة ١٠٦ ـ إنّ ديوان المحاسبات يؤلَّفُ من اثني عشر عضواً ، يعيَّنونَ بموجب إرداةٍ سنيةٍ ، ويستمرون في مأموريتهم مدةَ حياتهم ، ولا يعزل أحدٌ منهم ما

لم تصادِقْ هيئةُ المبعوثين بالأكثرية على لزوم عزله .

المادة ١٠٧ ـ سيترتب نظام مخصوص لتعيين الصفات المطلوبة من أعضاء ديوان المحاسبات ، وتفاصيل وظائفهم ، وصورة استعفائهم وتبديلهم وترقيتهم وتقاعدهم ، وكيفية تشكيل الأقلام المتعلقة بهذا الديوان .

في الولايات

المادة ١٠٨ ـ إنّ أصول الولايات ستؤسس على قاعدة توسيع دائرة المأذونية ، وتفريق الوظائف ، وستعين درجاتها بنظام مخصوص .

المادة ١٠٩ ـ سيترتب قانون مخصوص أوسع من القانون الجاري الآن لانتخاب أعضاء مجالس الإدارة في الولايات الأولية والأقضية ، لانتخاب أعضاءِ المجالس العمومية التي تلتئم كلَّ سنةٍ مرةً في مراكز الولايات .

المادة ١١٠ ـ إنّ وظائف المجالس العمومية كما سيصرح به القانون المذكور هي المذاكرة والمفاوضة في الأمور النافعة ، كتنظيم الطرق والمعابر ، وترتيب الصناديق ، وترقية أسباب الصنائع والتجارة ، ونشر المعارف العمومية ، ومن خصائصه أيضاً حق التشكيّ إلى المحلات المقتضية عند وقوع مغايرات للقوانين والنظامات المؤسسة لأجل إصلاح ذلك ، سواء كان بأمر توزيع الأموال الأميرية وجبايتها أو بالمعاملات العمومية .

المادة ١١١ ـ يترتب في كلِّ قضاء مجلس لكل ملة ينتخب أعضاؤه من أفراد تلك الملة، ويكون من خصائصه النظر بمداخل المسقفات والمستغلات والنقود الموقوفة لكي تصرف بحسب شروط واقفيها ومعاملتها القديمة لمن له حق فيها وللخيرات والمبرات ، والمناظرة أيضاً على صرف الأموال الموصى بها حسبما هو محرر في وصية الموصي ، وعلى إرادة أموال الأيتام وفقاً لنظامها الخصوصي . أما هذه المجالس فإنها تعرف الحكومات المحلية ومجالس الولايات العمومية مرجعاً لها .

المادة ١١٢ ـ إنّ الأمور البلدية تجري إدارتها في مجالس الدوائر البلدية ، التي سيصير ترتيبها في دار السعادة في الخارج ، وسيصيرُ وضع قانونٍ

مخصوص لتنظيم الدوائر البلدية ووظائفها ، وكيفية انتخاب أعضائها .

في مواد شتى

المادة ١١٣ ـ إذا ظهرت بعضُ علائم وإمارات تنذِرُ بوقوع اختلال ما في إحدى جهات المملكة ، فيحق للحكومة السنية حينئذٍ أن تعلن الإدارةَ العرفيةَ مؤقتاً في ذلك المحل ، والإدارةُ العرفيةُ إنما هي إبطال القوانين والنظامات الملكية بصورة مؤقتة ، وسيترتب نظام مخصوص لكيفية إدارة المحل الموضوع تحت الإدارة العرفية .

أما الذين يثبت بواسطة تحقيقات إدارة الضابطة الصحيحة أنهم سبب في اختلال أمنية الحكومة ، فللحضرة السلطانية وحدَها الحق أن تخرجهم من الممالك المحروسة وتبعدهم عنها.

المادة ١١٤ ـ إنّ التعليم الابتدائي يجعل إجبارياً على كل فردٍ من جميع أفراد العثمانيين ، وتفاصيل ذلك تقرر في نظام مخصوص .

المادة ١١٥ ـ لا يجوزُ توقيفُ أو إبطالُ بند من بنود هذا القانون الأساسي لأية علةٍ كانت .

المادة ١١٦ ـ إذا اقتضت الظروف والأحوال تغيير بعض المواد المدرجة في هذا القانون الأساسي أو إصلاحها ، ووجد لزوم حقيقي وقطعي لذلك ، فيجوز تغييرها على الشروط الآتية وهي : أنّه متى طلبت هيئة الوكلاء وكلٌّ من هيئة الأعيان والمبعوثين إصلاح قضيةٍ ما، فإذا صادقت هيئةُ المبعوثين على ذلك بأكثريةٍ هي الثلثان ، وصدرت إرادةٌ سنيةٌ بشأنه ، فإنّ هذا الإصلاح يعتبر دستوراً للعمل. أمّا المادة التي يطلب إصلاحها فتبقى مرعيةَ الإجراء حائزةً قوةَ الحكم والنفوذِ إلى أنْ تجريَ عليها المذاكرةُ ، وتصدرَ بشأنها الإرادةُ السنية كما ذكر.

المادة ١١٧ ـ إذا اقتضى الحالُ تفسيرَ إحدى المواد القانونية فإذا كان ذلك من الأمور العدلية يتعلّقُ تفسيره في محكمة التميز ، وإن كان من أمورِ الإدارةِ الملكية فذلك من خصائص شورى الدولة ، وإنْ كان من مواد هذا القانون الأساسي ، فذلك متعلق بهيئة الأعيان .

المادة ١١٨ ـ إنّ القوانين والنظامات الجاري العمل بها الآن وجميع المعاملات والعوائد تبقى نافذة ومرعية الإجراء ما لم يَصِرْ إلغاؤها ، أو إصلاحها بالقوانين والنظامات التي تُسَنّ في المستقبل .

المادة ١١٩ ـ إنّ التعليمات المؤقتة التي ترتبت بشأن المجلس العمومي في ٢٠ شوال سنة ١٢٩٣ ـ تبقى أحكامُها جاريةً إلى نهاية اجتماع المجلس المذكور الأول ، وبعد ذلك يضحي حكمها باطلاً .

في (٧) ذي الحجة (١٢٩٣ هـ ـ ١٨٧٦ م)

***

نص تعديل مواد دستور ١٨٧٦م

« المشروطية الثانية » سنة ١٩٠٨م

وقد أجري قبيل الانقلاب المضاد في (١٣) نيسان ـ إبريل (١٩٠٩) وبعدَه ، وصودق عليه من قبل السلطان في (٢٨) آب ـ أغسطس (١٩٠٩) .

المادة ٤ : بينما لم يكن في السابق لأحدٍ غير السلطان الحق في دعوة المجلس العمومي (أي مجلس المبعوثين ومجلس الأعيان مجتمعين) لدورةٍ استثنائية، أو تقصير اجتماعه ، أو مدِّ أجل انعقاده ، أصبحَ هذا الحق في يد الأكثرية البرلمانية المطلقة أيضاً ما عدا تقصير مدة الاجتماع التي ألغيت بتاتاً .

المواد ٧ ، ٢٧ : بينما كان للسلطان قبلَ التعديل حقُّ تعيين وإقالة جميع الوزراء ، لم يعطه التعديلُ سوى حق تعيين الصدر الأعظم وشيخ الإسلام، أما الوزراء فيختارُهم الصدر الأعظم ، ويصِّدقُ السلطان على تسميتهم .

المادة ٣٠ : بينما كان الدستور قبل التعديل قد نصَّ بعباراتٍ عامة على مسؤولية النُّظَّار عن الأحوال والإجراءات المتعلقة بمأموريتهم دون الإشارة إلى شيءٍ من العقوبات بحقهم ، إلا أنَّ التعديل الجديد قد نص على مسؤولية النظار متضامنين أمام مجلس المبعوثين فيما يخص السياسة العامة للحكومة ، أما فيما يختص بوظائف وصلاحيات كلِّ ناظرٍ بما يتعلق بنظارته فالمسؤولية فردية .

المادة ٣٥ : اقتضى التعديلُ الجديد أيضاً أن يحرَمَ السلطان من حقِّ حل مجلس المبعوثين في حالة خلافه مع مجلس النظار ، وكان هذا الحق مطلقاً دون قيد أو شرط في السابق . أما الآن فلم يعد باستطاعة السلطان أن يحل المجلس إلا في حالة واحدةٍ محدودةٍ بدقةٍ ، أي حينما يختلف مجلس المبعوثين ويرفض الخضوع لقرار هذا الأخير ، ويستقيل ، ثم يتبنى مجلس النظار الجديد وجهة نظر سلفه عندئذ فقط يستطيع السلطان حل المجلس ، ولكن بعد موافقة مجلس الأعيان ، مع تحديد مدة ثلاثة أشهر لإجراء

انتخابات جديدة ، وقد اعتبر رجال تركية الفتاة هذه المادة حجرَ الزاويةِ في البناء البرلماني العثماني .

المادة ٣٨ : إذا صوت المجلس بسحب الثقة من أحد النظار لا يجبر على الاستقالة أحد آخر سوى الوزير صاحب العلاقة ، أما إذا صوت بحجب الثقة عن الصدر الأعظم وجبَ استقالةُ مجلس النظار برمته .

المادة ٤٣ : أصبح للمجلسين : الأعيان والمبعوثين الحق أن يجتمعا بدون دعوةٍ من السلطان ، بينما لم يكن باستطاعتهما فيما سبق أن يفعلا ذلك إلا بدعوة منه .

المادة ٥٣ : اقتضى التعديل الجديد أن يكونَ لكل وزير أو عضوِ أعيانٍ أو مبعوثٍ حقُّ اقتراحِ سَنّ القوانين ، وتقديم المشروعات ، بينما حصر الدستور قبل تعديله هذا الحق بهيئة النظّار ، ولم يترك لمجلس المبعوثين والأعيان سوى الحق بأن يطلبا تجديدَ قانونٍ ما ، أو تغيير القوانين الموجودة ، وحينئذٍ يستأذَنُ بذلك من الحضرة السلطانية بواسطة الصدر الأعظم ، فإنْ سمحتْ ، كان به ، وإلا فلا .

المادة ٥٤ : قبل التعديل لم يكن لمشاريع القوانين التي يصدّقُ عليها مجلس المبعوثين ثم مجلس الأعيان أن تصبحَ دستوراً للعمل إلا بعد تصديق السلطان عليها ، أما التعديل فقد نصَّ على أن مشاريع القوانين يجب أن تصدق أو تعاد إلى مجلس المبعوثين لإعادةِ النظر فيها في مدى شهرين ، وفي حالة إعادتها غير مصدقة لا يكون الاقتراع عليها صحيحاً إلا إذا استوفى أكثرية الثلثين ، لكنّ الدستور سكت عن حالة رفض السلطان مرة ثانية التصديق عليها .

المادة ٦٠ : كان الدستور قبل (١٩٠٨ م) ينصُّ في هذه المادة على أنّ رئيسَ وأعضاء هيئة الأعيان يعينهم حضرة السلطان رأساً ولا يتجاوز عددهم ثلث الهيئة ، أما التعديل الجديد فقد تناول تأبيدَ جعلهم ثلث المبعوثين ، وأن يعيَّنَ ثلثَهم فقط من قبل السلطان لمدى الحياة ، أما الثلثان الباقيان منهم فينتخبون من قبل المبعوثين لمدة تسع سنوات فقط .

المادة ٧٧ : كما فقد السلطان حق تعيين رئيس مجلس المبعوثين من بين الثلاثة

ذوات ـ من المبعوثين الذين ينتخبهم هذا المجلس ، بل اقتضى التعديل أن يكتفيَ المجلس بإعلام الحضرة السلطانية بأسماء الرئيس ونائبيه المنتخبين[1] .

***

(١) الأهرام ـ ٩٥٩٤/٥/١٠/١٩٠٩ .

(٥)

خطبة السلطان عبد الحميد خان الثاني
في افتتاح مجلس المبعوثين

في (٤) ربيع الأوّل سنة (١٢٩٤) فُتِحَ البرلمان العثماني الأوَّلُ في سراي بشكطاش ، وعند افتتاحه تليتْ خطبةٌ أنيقةٌ عن لسان جلالة السلطان ، وبحضورِه ، شُرِحَتْ فيها جميعُ الأسباب التي أدّت إلى انحطاط الدولة وتأخُّرها سلمياً وسياسياً ، وبعدَ تشخيص الداء ، بيَّنَ فيها الدواء ، وما يلزم للملكة من الإصلاحات ، ونشر التعليم ، والمساواة بين الجميع ، والعدل في الأحكام .

ولأهميتها في بابها ، وجمعها كلَّ ما يمكن أن يُقالَ في مثل هذا الحال ، أتينا على دَرْجِها هنا ، وقد صدق مَنْ قال : إنّ كلامَ الملوكِ ملوكُ الكلام ، وها هي :

يا أيها الأعيان والمبعوثين !!

إنني أبثُّ الممنونية بافتتاح المجلس العمومي ، الذي اجتمع للمرّة الأولى في دولتنا العلية ، وجميعُكم تعلمون أنّ ترقي شوكة واقتدارَ الدول والملل إنما هو قائم بواسطة العدالة ، حتى إنّ ما انتشر في العالم من قوّة دولتنا العلية ، وقدرتها في أوائل ظهورها ، كان من مراعاة العدل في أمرِ الحكومة ، ومراعاة حقّ ومنفعة كلّ صنفٍ من صنوف التبعة .

وقد عرف الناس أجمع تلك المساعدات التي أبداها أحدُ أجدادِنا العظام ، المرحوم السلطان محمد خان الفاتح في مطلب حرّية الدين والمذهب ، وكافةُ أسلافنا العظام أيضاً قد سلكوا على هذا الأثر ، فلم يقع في هذا المطلب خللٌ بوقتٍ من الأوقات .

وغير منكَرٍ أنّ المحافظةَ منذ ستمئة عام على ألسنة صنوف تبعتنا ومليتهم

ومذاهبهم كانت النتيجة الطبيعية لهذه القضية العادلة .

والحاصلُ

بينما كانت ثروة الدولة والملة وسعادتهما صاعدتين في درجة الترقي في تلك الأعصار والأزمان بظلِّ حماية العدالة ووقاية القوانين ، أخذنا بالانحطاط تدريجاً بسبب قلة الانقياد للشرع الشريف ، والقوانين الموضوعة ، وتبدّلت تلك القوة بالضعف .

وقصارى الأمر أنّ المرحومَ والدي الأكبر السلطان محمود خان أزال عدم الانتظام الذي هو العلة الكبرى للانحطاط ، الذي طرأ منذ أعصارٍ على دولتنا ، ورفع من الوجود عائلة الإنكشارية المتولدة منه ، وقلع شوك الفساد والاختلال ، الذي مزّقَ جسم الدولة والملة ، وكان هو السابقُ لفتح باب إدخال مدنية أوربة الحاضرة إلى ملكنا .

وهكذا والدي الماجد المرحوم عبد المجيد خان قد اقتفى هذا الأثرَ ، فأعلن أساسَ التنظيمات الخيرية ، المتكفلة بالمحافظة على نفوس أهالينا وأموالهم وأعراضهم وناموسهم ، ومنذ ذلك اليوم اتسعت تجارةُ ممالكنا وزراعتها ، وزادت واردات دولتِنا أضعافاً في أمدٍ قليلٍ ، ومن ثَمَّ وضعت القوانين والنظامات التي هي مدارٌ لما يعوزنا من الإصلاحات ، وأخذ تحصيل المعارف والفنون بالامتداد ، **وبينما شَبَّ في دولتنا أملُ النجاح بناءً على هذه المقدّمات الحسنة ، ولا سيما بناءً على الأمنية الداخلية ـ ظهرت حرب القرم ، فكان ظهورها مانعاً لدوام المساعي بتنظيم أحوال الملك والتبعة .**

ومع أنّ خزينة دولتنا كانت حتّى ذلك الوقت غير مديونة للخارج بقرشٍ واحدٍ اضطررنا للاستقراض الخارجي ، دفعاً للاحتياج والضرورة ، فتعذّر والحالة هذه تقابل وارداتنا مع مصاريف الحرب المبرمة ، وبهذا السبب فتح بابُ الدَّين ، نعم إنّه في هذه المسالمة بواسطة اتفاق الدول المفخمة التي صادقت على مشروعية حقوقنا ، وبانضمام معاوناتها الكاملة الفعلية التي لا تبرحُ مدى الدهر زينةً لصحائف التواريخ ، قد أنتجت الحرب تلك المصالحة التي وضعتْ تمامَ ملكية دولتنا واستقلالها تحت ضمان دول أوربة العهدي .

وغلب على الظنّ أنّ هذه المصالحة قد مهدتْ لمستقبلنا زماناً مساعداً على وضع أعمالنا الداخلية في طريقها ، وسلوك جادّة الترقي الحقيقي ، إنما الأحوال المتعاقبة ساقتنا بكليتنا إلى عكس ذلك الانتظار ، والأمل أن توالي الحوادث الداخلية المتتابعة الظهور بمفاعيل التحريكات والتسويلات لم تخوّلنا وقتاً للنظر في إصلاحات ملكنا وتنظيماته ، بل أوقعت زراعتنا وتجارتنا في وقوف عظيم ، لاضطرارنا في كلِّ عام لجمع معسكرات فوق العادة في أنحاء مختلفةٍ ، ووضع الصنف الأكثر نفعاً من أهالينا تحت السلاح .

وأمرٌ مُسَلّمٌ ومعلومٌ أنه مع كل ما صادفنا من المشاكل والموانع قد قطعنا مادياً وأدبياً مسافةً كلية في سبيل النجاح ، وتزايدُ وارداتنا على التوالي منذ عشرين عاماً دليلٌ على ترقي المملكة ، وازدياد رفاهية حال الأهالي .

ثم وإنْ كانت المضايقة الحاضرة قد تولّدتْ من الأحوال التي عددناها ، فمع هذا كان ممكناً تخفيفُ غائلة الضرورة ، وحفظ الاعتبار المالي ، لو سلكنا في الإدارة المالية طريقاً قويماً ، بيدَ أنّ كل ما اتُخِذَ من التدبير المالي في صورة الإصلاحات لم يصلح الحال ، وإنما زاد العمل أثقالاً .

وقد طلبتُ الاستفادة من الحال قبل التفكر ماذا يكون الاستقبال ، فدوام هذه الغوائل وتعاقبها من الجهة الواحدة ، ومداركة وإنشاء الأدوات والأسلحة الجديدة الحربية التي هي أعظم أسباب شوكة دولتنا واقتدارها ، وعدم وضع وارداتنا ومصاريفنا تحت موازنة اقتصادية من الجهة الأخرى ـ أفضتا إلى انتقاضِ إدارتنا المالية درجةً فدرجةً ، فأنتجت ما نحنُ فيه الآن من المضايقة الخارقة للعادة ، وأعقب ذلك ظهورُ وقوعات هرسك المنبعثة من أثر الفساد ، والتحريك التي تجسمت أخيراً ، ثم افتتحت بغتةً محاربات بلاد الصرب والجبل الأسود ، وظهرت في عالم السياسة أيضاً فتنٌ واختلالاتٌ كبيرة .

وفي ذلك الزمان الذي فيه تهوّرت دولتنا في بحران عظيم وقع جلوسنا بإرادة جناب الحق الأزلية على تخت أجدادنا العظام ، ولما كانت درجة المخاطر والمشكلات التي حاقت بأحوالنا العمومية غيرَ قابلةِ القياس مع ما تقدّمها من الغوائل التي تهوّرت بها دولتنا حتى الآن ، قد اضطررتُ لأجلِ المحافظة قبل كل

شيءٍ على حقوقنا أن أزيدَ معسكراتنا في جميع الجهاتِ ، حتى وضعتُ تحت السلاح نحو ستمئة ألف عسكري ، لاعتقادي بأنَّ ملاشاة هذه الاختباطات بالكلية ، واستئصالها بعون الله تعالى ، والتفتيش على طريقةٍ لإصلاحاتٍ مهمةٍ في دولتنا نضعُ بواسطتها مستقبلنا تحت الأمنية المتمادية ، إنما هو فرضٌ على ذمتي ، وأمرٌ واضِحٌ بأنّه إذا نهجنا في الإدارة سبيلاً حسناً سنتقدم بأقربِ وقتٍ تقدّماً كبيراً في النجاح بحسب القابلية التي أحسنَ بها الحقُّ تعالى على ملكنا ، وبحسب الاستعداد المتصفة به أهالينا .

وأمر محقق أنّ تأخرنا عن الحوق والترقيات الحاضرة في عالم المدنية كان لإهمالنا المداومة على الإصلاحات المحتاج ملكنا إليها ، ولعدم المثابرة على القوانين والنظامات المتعلقة بها ، ومنشأ ذلك ليس هو إلا صدور هذه الأشياء عن يد الحكومة الاستبدادية بدون استناد على قاعدة المشورة .

والحال أنّ ترقّي الدول المتمدّنة ونجاحها ، وأمنية الممالك وعمرانها ، إنما هو ثمرةُ تأسيس مصالحها وقوانينها العمومية بالاتفاق وإجماع الآراء كما هو مسلَّم ، فبناءً عليه رأيتُ أنّ تجري أسباب الترقي في هذه الطريق ، وإستناد قوانين المملكة على الآراء العمومية هو ألزمُ ما لدينا ، فلذا قد أعلنتُ « **القانون الأساسي** » .

أما مقصدنا من تأسيسه فليس هو عبارة عن دعوة الأهالي للحضور في رؤية المصالح العمومية ، وإنما بالأحرى لاعتقادنا القطعي بأنّ هذه الأصول هي وسيلةٌ مستقلةٌ لإصلاح إدارةِ ممالكنا ، ومحو سوء الاستعمالات ، واستئصالِ قاعدة الاستبداد ، وفضلاً عما في هذا «القانون الأساسي» من الفوائد الأصلية ، فهو كذلك مهدٌ لأساس حصول الاتحاد والأخوة بين الأنام ، وجامعٌ لمقصد تأسيس أمر الائتلاف والسعادة بين الخاص والعام .

أما أجدادنا العظام ففي الفتوحات التي وفقوا إليها قد جمعوا تحت حكومتهم في هذه الدولة الوسيعةِ الممالك أقواماً عديدة ، فلم يبقَ سوى أمرٌ واحدٌ فقط ، وهو ربط هذه الأقوام المختلفة اختلافاً كلياً في الأديان والأجناس بقانون مفردٍ وحسٍ مشترك .

وحيث قد تيسر الآن هذا الأمر بعون جناب الحق الذي لا نهاية لألطافه ومقدرته الإلهية ، فيقتضي إذاً من الآن فصاعداً أن تكونَ كافةُ تبعتنا أولادَ وطنٍ واحدٍ ، يعيشون بأجمعهم تحت جناح حماية قانونٍ واحدٍ ، وينعتون بالعنوان المخصوص منذ ما ينيف عن ستمئة سنة لأهلِ بيتٍ سلطتنا السنية ، المسطر كثيرٌ من آثار شوكتهم في صحف تواريخ البرية ، مؤملاً أنّ الاسم العثماني الذي ما بَرِحَ حتى الآن علم القوة والاقتدار المشتهر يكون من بعد الآن شاملاً لدوام المنافع المختلفة الموجودة بين جميع تبعتنا وحفظها .

وحيث إنني بناء على ما ذُكِرَ من الأسباب والمقاصد ، قد عزمتُ عزماً ثابتاً على أنْ أنهجَ السبيلَ الذي سلكتُه ، ولا آلو جهداً في توطيدِه وتشييدِه فأترقَّبُ منكم إذاً المعاونةَ فعلاً وعقلاً ، للاستفادة من مشروع « القانون الأساسي » ، الذي بني على قاعدتي العدل والسلامة ، والمفروض عليكم إذاً القيامُ بأعباء الوظائف القانونية المحوّلة لعهدتكم وحميتكم بصدق واستقامة ، بدون احتراز من أحدٍ ، غير ملتفتين إلى شيءٍ آخر سوى سلامة دولتنا ومملكتنا وسعادتهما ، لأنَّ ما يعوزنا اليومَ من الإصلاحات ، وما يترقبُ الجميعُ اتخاذه في ملكنا من التنظيمات ، هو في غايةِ الأهميةِ والاعتناء .

وبما أنّ وضعَ ذلك على الفور في موقع الإجراء موهونٌ على اتفاقكم بالأفكار والآراء ، فلذا شورى الدولة مثابِرٌ الآن على تنظيم لوائح القوانين اللازمة لكي تتحول في اجتماعكم في هذه السنة إلى مجلسكم لأجل المذاكرة ، وهي لائحة نظامات داخلية مجلسكم ، ولوائح قانون الانتخاب ، وقانون الولايات ، وإدارة النواحي العمومي ، وقانون الدوائر البلدية ، وقوانين أصول المحاكمات المدنية ، وترتيب المحاكم ، وصورة ترقي الحكام وتقاعدهم ، ووظائف عموم المأمورين ، وحق تقاعدهم ، وقوانين المطبوعات ، وديوان المحاسبات ، ولائحة قانون ميزانية السنة السابقة ، فمطلوبنا القطعي والحالةُ هذه مطالعة هذه القوانين بالتتابع ، والمذاكرة عليها ، وإعطاء قراراتها .

وكما أنّ النظرَ عاجلاً في إصلاحات وتنظيمات المحاكم والعساكر الضبطية اللتين هما الواسطة المستقلة لتأمين حقوق العموم من أهمّ ما يلزم ، فَوَضْعُ ذلك

في موقع الإجراء أيضاً متوقفٌ على توسيع مخصصاتهما المقررة، وتزييدها.

ومن حيث إنّ إدارتنا المالية قد أمست عرضةً للعُسرِ والمشاكل الكثيرة، حسبما يتضح لديكم من الميزانية المعطاة إلى مجلسكم، فأوصيكم أن تسعَوْا مهتمين بالاتفاق، لتعيين التدابير التي تهدينا قبلَ كل شيء إلى التخلص من هذه المشاكل، وإلى وسائل إعادةِ اعتبار ماليتنا، ومن ثم لتعيين تلك التخصيصات التي تُخْرِجُ هذه الإصلاحات المستعجلة إلى الفعل.

ولما كان ترقي الزراعة والصناعة اللتين هما من أعظم الإصلاحات والاحتياجات في ملكنا وتبعتنا، وإيصال المدنية والثروة إلى درجة الكمال موقوفاً على قوة المعارف والعلوم، فستعطى ـ بمنه تعالى ـ إلى مجلسكم في اجتماع السنة الآتية لوائحُ القوانين المتعلقة بإصلاح المكاتب، وبتنظيم درجات التحصيل.

وبما أنّ حصولَ تأثيراتِ أحكامِ القوانينِ على الوجهِ الأتمّ، سواءٌ كانتِ القوانين المذكورة أعلاه، أو القوانين التي توضَعُ من الآن فصاعداً في موقع الإجراء يتوقَّفُ على وضعِ أقضية انتخاب مأموري الإدارة تحت أهميةٍ عظيمة، فهيئة دولتنا ستُمْعِنُ نظرَ التدقيق المخصوص في هذا المطلب، وفي مطلب صورة مكافأة وحماية المأمورين المتصفين بالعفة والاستقامة اللتين ضَمِنَهُما « القانون الأساسي ».

وحيث كانت قضية انتخاب المأمورين ذات بال وأهمية لدينا اعتمدنا على تأسيس مكتبٍ مخصوصٍ تكونُ مصاريفه من خزينتنا الخاصة، لقصد الحصول على مأمورين جديرين بالإدارة العمومية على وجه أن تلامذته تقبل في مأموريات الإدارة والسياسة حتى الدرجة العليا، ويدخل إليه من كل صنوف تبعتنا، بدون استثناء مذهبي، وترقيهم يكون بحسب درجة أهليتهم، كما يتضح من نظامه الأساسي المعلَن قبلاً.

وقد وقع لدينا التقدير والتحسين في صورةٍ خارقةٍ للعادةِ ما أبدته عموم تبعتنا الصادقة من آثار الحمية، وما تحملتْهُ جنودنا من أنواع المتاعب والمشاق

المشفوعة بالغيرة والبسالة في أثناء الغوائل الداخلية التي تهوّرنا بها منذ عامين تقريباً ، ولا سيما في أثناء الحرب مع الصرب والجبل الأسود ، على أنّ تشبثاتنا المجرّدة للمحافظة على حقوقنا في هذه الحوادث قد أنتجت استحصال قرار مصالحة الصرب ، والمذاكرات الجارية مع الجبل الأسود، وسيتحوّل لمطالعتكم في اجتماع مجلسكم للمرّة الأولى ما نتخذه من المعاملات بناءً على تلك المذاكرات ، فأوصيكم إذاً بتعجيل قرارتها .

أما السلوك مع الدول المتحابة بالصداقة والرعاية ، لما كان من أهمّ المعاملات المألوفة والمعتنى بها لدى دولتنا ، فلم نزل اليومَ حريصين على مراعاة هذه القاعدة الودادية ، ولما طلبتْ إنكلترة منذ بضع شهورٍ عقدَ مؤتمرٍ في مقرّ سعادتنا لأجلِ المسائل الحاضرة ، وروّجتْ كافةُ الدول المعظمة أيضاً أساسات هذا الطلب والاقتراح وافق بابنا العالي على عقدِه ، نعم إنّه لم يأتِ هذا الاجتماع باتفاق قطعي ، ولكنْ ما تأخرنا عن إثباتِ نوايانا الخالصة ، وإظهارها بإجراء مأثوراتهم ونصائحهم الموافقة لأحكام معاهدات الدول ، ولقواعد الملل وحقوقها ، ولمقتضيات أحوالنا وحقوقنا المبرمة .

أما أسباب عدم الاتفاق ، فلم تكن في الأساس ، وإنما بالأحرى كانت في صور الإجراآت وأشكالها ، لاستحساننا أساسياً لزوم إيصال الترقيات الكلية التي وقعت منذ بداية التنظيمات حتى الآن في أحوال مملكتنا العمومية ، وفي إدارةِ كلِّ شعبة من شعب دولتنا إلى حالٍ أكمل .

ولم تزل مساعينا حتى اليوم مصروفةً لهذا المقصد ، **على أنّ وظيفتي التوقي من الأحوال التي تُخِلُّ بشأن مملكتنا واستقلالها** ، وقد تركتُ إثبات صدق نيتي وسلامتها لدى الجميع إلى تمادي الأيام والزمان .

أما النتائج التي ولدتها هذه الحال فقد أفضَتْ بي إلى زيادة التأسف وزوالها سريعاً مما يكفَلُ بكمال ممنونيتي ، على أنّ مقصدَنا في جميع الأوقات مقصورٌ على دوام السلوك في منهج المحافظة على استقلالية حقوقنا ، وسيكونُ هذا المسلك مركز النظر في تصرّفاتنا الآتية ، وأؤمل أنّ مآثر الاعتدال وحسن النية التي أظهرتهما دولتنا قبل انعقاد المؤتمر وبعده ، تتكفَّلُ بمضاعفة حُسْن

المعاشرةِ والمناسبات الودادية الرابطة لسلطتنا السنية بجمعية الدول الأورباوية ، ونسأل حضرة الحقّ المتعال أن يجعلَ مساعينا جميعاً مظهراً للتوفيق في كافّةِ الأحوال .

* * *

(٦)

سلاطين آل عثمان

اسم السلطان	مدة حكمه
١ ـ عثمان الأول	٦٩٩ـ٧٢٦ هـ = ١٢٦٦ـ١٣٢٦ م
٢ ـ أورخان	٧٢٦ـ٧٦١ هـ = ١٣٢٦ـ١٣٥٩ م
٣ ـ مراد الأول	٧٦١ـ٧٩٢ هـ = ١٣٥٩ـ١٣٨٩ م
٤ ـ بايزيد الأول (يلدرم)	٧٩٢ـ٨٠٥ هـ = ١٣٨٩ـ١٤٠٢ م
٥ ـ محمّد شلبي	٨١٦ـ٨٢٤ هـ = ١٤١٣ـ١٤٢١ م
٦ ـ مراد الثاني	٨٢٤ـ٨٥٥ هـ = ١٤٢١ـ١٤٥١ م
٧ ـ محمد الثاني الفاتح	٨٥٥ـ٨٨٦ هـ = ١٤٥١ـ١٤٨١ م
٨ ـ بايزيد الثاني	٨٨٦ـ٩١٨ هـ = ١٤٨١ـ١٥١٢ م
٩ ـ سليم الأول (ياوز)	٩١٨ـ٩٢٧ هـ = ١٥١٢ـ١٥٢٠ م
١٠ ـ سليمان الأول (القانوني)	٩٢٧ـ٩٧٤ هـ = ١٥٢٠ـ١٥٦٦ م
١١ ـ سليم الثاني	٩٧٤ـ٩٨٢ هـ = ١٥٦٦ـ١٥٧٤ م
١٢ ـ مراد الثالث	٩٨٢ـ١٠٠٤ هـ = ١٥٧٤ـ١٥٩٥ م
١٣ ـ محمد الثالث	١٠٠٤ـ١٠١٢ هـ = ١٥٩٥ـ١٦٠٣ م
١٤ ـ أحمد الأول	١٠١٢ـ١٠٢٦ هـ = ١٦٠٣ـ١٦١٧ م
١٥ ـ مصطفى الأول (أول مرة)	١٠٢٦ـ١٠٢٧ هـ = ١٦١٧ـ١٦١٨ م
١٦ ـ عثمان الثاني	١٠٢٧ـ١٠٣٢ هـ = ١٦١٨ـ١٦٢٢ م
١٥ ـ مصطفى الأول (ثاني مرة)	١٠٣٢ـ١٠٣٣ هـ = ١٦٢٢ـ١٦٢٣ م
١٧ ـ مراد الرابع	١٠٣٣ـ١٠٥٠ هـ = ١٦٢٣ـ١٦٤٠ م
١٨ ـ إبراهيم	١٠٥٠ـ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٠ـ١٦٤٨ م
١٩ ـ محمد الرابع	١٠٥٨ـ١٠٩٩ هـ = ١٦٤٨ـ١٦٨٧ م
٢٠ ـ سليمان الثاني	١٠٩٩ـ١١٠٣ هـ = ١٦٨٧ـ١٦٩١ م

٢١ ـ أحمد الثاني	١١٠٣ـ١١٠٧ هـ = ١٦٩١ـ١٦٩٥ م
٢٢ ـ مصطفى الثاني	١١٠٧ـ١١١٥ هـ = ١٦٩٥ـ١٧٠٣ م
٢٣ ـ أحمد الثالث	١١١٥ـ١١٤٣ هـ = ١٧٠٣ـ١٧٣٠ م
٢٤ ـ محمود الأول	١١٤٣ـ١١٦٨ هـ = ١٧٣٠ـ١٧٥٤ م
٢٥ ـ عثمان الثالث	١١٦٨ـ١١٧١ هـ = ١٧٥٤ـ١٧٥٧ م
٢٦ ـ مصطفى الثالث	١١٧١ـ١١٨٨ هـ = ١٧٥٧ـ١٧٧٤ م
٢٧ ـ عبد الحميد الأول	١١٨٨ـ١٢٠٤ هـ = ١٧٧٤ـ١٧٨٩م
٢٨ ـ سليم الثالث	١٢٠٤ـ١٢٢٢ هـ = ١٧٨٩ـ١٨٠٧ م
٢٩ ـ مصطفى الرابع	١٢٢٢ـ١٢٢٣ هـ = ١٨٠٧ـ١٨٠٨ م
٣٠ ـ محمود الثاني	١٢٢٣ـ١٢٥٥ هـ = ١٨٠٨ـ١٨٣٩ م
٣١ ـ عبد المجيد الأول	١٢٥٥ـ١٢٧٨ هـ = ١٨٣٩ـ١٨٦١ م
٣٢ ـ عبد العزيز	١٢٧٨ـ١٢٩٣ هـ = ١٨٦١ـ١٨٧٦ م
٣٣ ـ مراد الخامس	١٢٩٣ـ١٢٩٣ هـ = ١٨٧٦ـ١٨٧٦ م
٣٤ ـ عبد الحميد الثاني	١٢٩٣ـ١٣٢٧ هـ = ١٨٧٦ـ١٩٠٩ م
٣٥ ـ محمد رشاد الخامس	١٣٢٧ـ١٣٣٧ هـ = ١٩٠٩ـ١٩١٨ م
٣٦ ـ محمد وحيد الدين السادس	١٣٣٧ـ١٣٤١ هـ = ١٩١٨ـ١٩٢٢ م
٣٧ ـ عبد المجيد الثاني	١٣٤١ـ١٣٤٣ هـ = ١٩٢٢ـ١٩٢٤ م

* * *

(٧)

ولاة الشام في العهد العثماني[1]

من ١٥١٧ ـ ١٩١٨م

الإسم	تاريخ التعيين	(المدة)	
		سنة	شهر
جان بردي الغزالي	١٥١٧	٣	٠
إياس باشا	١٥٢٠	٠	٩
فرهاد باشا	١٥٢٣	٣	٠
خرم باشا	١٥٢٤	١	٩
طواشي سليمان باشا	١٥٢٥	١	١
لطفي باشا	١٥٢٦	٤	٦
عيسى باشا الفنري	١٥٣٠	٢	٦
مصطفى باشا	١٥٣٢	١	٨
لطفي باشا (مرة ثانية)	١٥٣٣	١	٢
عيسى باشا (مرة ثانية)	١٥٣٥	١	٠
محمد باشا (كوزلجة)	١٥٣٦	٠	٩
سليمان باشا طوبال	١٥٣٧	٠	٧
أحمد باشا (وزير)	١٥٣٧	٢	٢
خسرو باشا	١٥٣٩	١	١
عيسى باشا (مرة ثالثة)	١٥٤٠	٤	٠
بيري باشا	١٥٤٣	٢	٠
سنان باشا	١٥٤٥	٤	٠

---

(١) انظر الدكتور صلاح الدين المنجد : ولاة دمشق في العهد العثماني .

بيري باشا (مرة ثانية)	١٥٥٠	١	٥
محمد باشا	١٥٥١	٣	٧
شمسي أحمد باشا	١٥٥٤	٦	٧
خضر باشا	١٥٦٠	١	١
بكليون علي باشا	١٥٦١	٠	١١
خسرو باشا (مرة ثانية)	١٥٦٢	١	٠
لالا مصطفى باشا	١٥٦٣	٥	٠
مراد باشا	١٥٦٩	١	١
بكليون علي باشا (مرة ثانية)	١٥٧٠	١	٠
حاجي أحمد باشا	١٥٧١	١	٠
درويش باشا	١٥٧٢	٣	٧
لالا جعفر باشا	١٥٧٥	١	١١
حسن باشا	١٥٧٧	٤	٥
بهرام باشا	١٥٨١	٠	٧
حسين باشا	١٥٨١	٠	٧
حسن باشا (مرة ثانية)	١٥٨٢	١	٤
سليمان باشا	١٥٨٣	٠	١
أويس باشا	١٥٨٣	١	٠
محمد باشا	١٥٨٤	٠	١
أويس باشا (مرة ثانية)	١٥٨٤	١	٠
علي باشا	١٥٨٥	٠	٧
جامورجي محمد باشا	١٥٨٥	٠	٤
علي باشا (مرة ثانية)	١٥٨٥	٠	٤
سنان باشا	١٥٨٦	١	٧
حسن باشا (مرة ثالثة)	١٥٨٨	١	٤
مصطفى باشا	١٥٩٠	٠	٧
محمد باشا ابن سنان	١٥٩١	١	٦

خليل باشا	١٥٩٢	١	٣
محمد باشا ساطرجي	١٥٩٣	٠	٧
علي باشا بستانجي	١٥٩٣	٠	١
مراد باشا	١٥٩٣	١	١
خسرو باشا الخادم	١٥٩٤	٠	٨
مراد باشا (مرة ثانية)	١٥٩٤	٠	٧
خسرو باشا (مرة ثانية)	١٥٩٥	١	٤
مصطفى باشا	١٥٩٦	١	٠
سنان باشا ابن جغال	١٥٩٧	٠	٨
أحمد باشا	١٥٩٧	١	١
خسرو باشا (مرة ثالثة)	١٥٩٨	٠	٦
شريف محمد باشا	١٥٩٨	١	٤
محمود باشا بن سنان باشا	١٥٩٩	١	١
عثمان باشا	١٦٠١	٠	١١
بستانجي فرهاد باشا	١٦٠٢	٠	١٠
مصطفى باشا بن راضية خاتون	١٦٠٣	٠	٠
محمود باشا (مرة ثانية)	١٦٠٣	٠	٥
عثمان باشا (مرة ثانية)	١٦٠٣	٠	١
محمد علي باشا جنبلاط	١٦٠٤	١	٢
سنان باشا التلكي	١٦٠٥	٠	٣
أحمد باشا الحافظ	١٦٠٦	٦	٠
محمد باشا جركس	١٦١٣	٢	٦
محمد باشا جوخدار	١٦١٥	٠	٦
أحمد باشا (من مصر)	١٦١٦	٠	٦
مصطفى باشا (من بغداد)	١٦١٧	٠	٦
سليمان باشا (وزير)	١٦١٧	٢	٠
مرتضى باشا (وزير)	١٦١٩	١	٠

محمد باشا	١٦٢٠	١	٠
مصطفى باشا (مرة ثانية)	١٦٢٢	١	٠
نكيده لي مصطفى باشا	١٦٢٣	١	٠
محمد باشا كورجي	١٦٢٤	١	٠
محمد باشا طيار	١٦٢٥	١	٠
أحمد باشا الكجك	١٦٢٧	٣	٠
مصطفى باشا آغا الإنكشارية	١٦٣٠	١	٠
سليمان باشا عردار	١٦٣١	٠	٣
يوسف باشا	١٦٣٢	٠	٣
أحمد باشا الكجك (مرة ثانية)	١٦٣٢	٢	٠
مصطفى باشا سلحدار	١٦٣٤	١	٠
أحمد باشا الكجك (مرة ثالثة)	١٦٣٥	١	٠
درويش محمد باشا	١٦٣٦	٢	٠
مصطفى باشا آغا الإنكشارية (مرة ثانية)	١٦٣٨	١	٠
عثمان باشا جفتلي	١٦٣٩	١	٠
محمد باشا الحافظ	١٦٤٠	١	٠
أحمد باشا السروجي	١٦٤١	١	٠
ملك أحمد باشا	١٦٤٢	١	٠
حراد محمد باشا	١٦٤٣	٠	٠
يوسف باشا سلحدار	١٦٤٣	١	٠
محمد باشا كورجي	١٦٤٤	١	٠
إبراهيم باشا	١٦٤٥	١	٠
محمد باشا كورجي (مرة ثانية)	١٦٤٦	١	٠
محمد باشا	١٦٤٧	١	٠
محمد باشا كوبرولو	١٦٤٨	١	٠
محمد باشا	١٦٤٩	١	٠
مرتضى باشا سلحدار	١٦٥٠	٠	٥

مصطفى باشا سيواسلي	١٦٥٠	٢ ٠
آق محمد باشا	١٦٥٢	٢ ٠
محمد باشا بن الدفتردار	١٦٥٤	٢ ٠
غازي باشا شهشوار	١٦٥٦	١ ٠
محمد باشا (وزير أعظم)	١٦٥٧	١ ٠
مرتضى باشا سلحدار (مرة ثانية)	١٦٥٨	٠ ٤
أحمد باشا الطيار	١٦٥٨	٢ ٠
قدري باشا	١٦٦٠	١ ٠
مصطفى باشا	١٦٦١	١ ٠
أحمد باشا كوبرولو	١٦٦٢	١ ٠
سليمان باشا	١٦٦٣	١ ٠
مصطفى باشا قلبه لي	١٦٦٤	٢ ٠
صالح باشا (وزير)	١٦٦٦	١ ٠
مصطفى باشا قبلان	١٦٦٧	١ ٠
مصطفى باشا فرادي	١٦٦٨	٠ ٧
محمد باشا الجاويش	١٦٦٨	١ ٠
شيطان إبراهيم باشا	١٦٦٩	٣ ٠
حسين باشا الأصفر	١٦٧١	١ ٠
محمد باشا الأسود	١٦٧٢	١ ٠
إبراهيم باشا شيشمان	١٦٧٣	١ ٠
كور حسين باشا	١٦٧٤	٣ ٠
عثمان باشا	١٦٧٧	٢ ٠
حسين باشا الأصفر	١٦٧٩	٥ ٠
عثمان باشا (مرة ثانية)	١٦٨٤	٢ ٠
قبلان باشا	١٦٨٦	٢ ٠
صالح باشا بن دويعر	١٦٨٧	١ ٠
حمزة باشا	١٦٨٨	٢ ٠

أحمد باشا سلط	١٦٨٩	٠ ١
مرتضى باشا	١٦٩٠	٠ ١
محمد باشا كورجي	١٦٩١	٠ ١
إسماعيل باشا	١٦٩٢	٠ ٢
عثمان باشا سلحدار	١٦٩٤	٠ ٢
بيقلي مصطفى باشا	١٦٩٧	٠ ١
أحمد باشا	١٦٩٨	٠ ٢
حاجي قران حسن باشا	١٧٠٠	٠ ١
حسن باشا سلحدار	١٧٠١	٠ ١
أرسلان باشا	١٧٠٢	٠ ١
محمد باشا كردبيرام	١٧٠٣	٠ ١
أرسلان باشا (مرة ثانية)	١٧٠٤	٠ ١
قرة حسين باشا الفرادي	١٧٠٥	٠ ١
كردزاده بيرام باشا	١٧٠٦	٠ ١
سليمان باشا بلطه جي	١٧٠٧	٠ ١
حسين باشا حلبي	١٧٠٨	٠ ١
عثمان نصوح باشا	١٧٠٩	٠ ٥
محمد باشا جركس	١٧١٤	٠ ١
يوسف باشا طوبال	١٧١٥	٠ ١
إبراهيم باشا قبودان	١٧١٦	٠ ١
عبد الله باشا كوبرولو	١٧١٧	٠ ١
رجب باشا	١٧١٨	٠ ١
عثمان باشا أبو طوق	١٧١٩	٠ ١
عثمان باشا كتخدا	١٧٢٠	٠ ٣
عثمان باشا معتوق	١٧٢٢	٠ ١
عثمان باشا أبو طوق (مرة ثانية)	١٧٢٣	٠ ٢
إسماعيل باشا العظم	١٧٢٥	٠ ٦

عبد الله باشا الأيدينلي	١٧٣١	٣	٠
سليمان باشا العظم	١٧٣٤	٥	٠
حسين باشا	١٧٣٩	١	٠
عثمان باشا محصل	١٧٤٠	١	٠
علي باشا بن عبدي باشا	١٧٤١	١	٠
سليمان باشا (مرة ثانية)	١٧٤١	١	٠
سليمان باشا (مرة ثالثة)	١٧٤٢	١	٠
أسعد باشا العظم	١٧٤٣	١٤	٠
حسين باشا مكي	١٧٥٧	١	٠
عبد الله باشا جتجي	١٧٥٨	٢	٠
محمد باشا جالق	١٧٦٠	١	٠
عثمان باشا الصادق	١٧٦١	١٠	٠
محمد باشا العظم	١٧٧١	١	٠
بستانجي حافظ مصطفى باشا	١٧٧٢	١	٠
محمد باشا العظم (مرة ثانية)	١٧٨٣	١٠	٠
محمد باشا بن عثمان باشا	١٧٨٣	٠	٢
درويش باشا بن عثمان باشا	١٧٨٣	١	٠
أحمد باشا الجزار	١٧٨٥	٢	٠
حسين باشا البطال	١٧٨٧	١	٠
إبراهيم باشا الدالاتي	١٧٨٨	٤	٠
أحمد باشا الجزار (مرة ثانية)	١٧٩١	٥	٠
عبد الله باشا العظم	١٧٩٦	٣	٠
إبراهيم باشا القطر آغاسي الحلبي	١٧٩٨	٠	٣
أحمد باشا الجزار (مرة ثالثة)	١٧٩٩	١	٠
عبد الله باشا العظم (مرة ثانية)	١٨٠٠	٤	٠
أحمد الجزار (مرة رابعة)	١٨٠٣	١	٠
إبراهيم باشا القطر آغاسي (مرة ثانية)	١٨٠٤	١	٦

عبد الله باشا العظم (مرة ثالثة)	١٨٠٦	٢	٠
كنج يوسف باشا	١٨٠٨	٢	٠
سليمان باشا	١٨١٠	٢	٠
سليمان باشا سلحدار	١٨١٢	٢	٠
علي باشا روملي	١٨١٥	٠	٣
علي باشا الحافظ	١٨١٦	٤	٠
مصطفى باشا شيشمان	١٨٢٠	٠	٣
صالح باشا معدنلي	١٨٢٠	٠	٠
درويش باشا (صدر أسبق)	١٨٢٠	٣	٠
صالح باشا (صدر أسبق)	١٨٢٣	١	٠
مصطفى باشا بيلاني	١٨٢٤	٢	٠
ولي الدين باشا	١٨٢٦	٢	٠
صالح باشا (مرة ثانية)	١٨٢٧	١	٠
عبد الرؤوف باشا	١٨٢٨	٢	٢
سليم باشا	١٨٣٠	١	٠
حاجي علي باشا	١٨٣١	٠	٠
إبراهيم باشا المصري	١٨٣١	٩	٠
حاجي علي باشا (مرة ثانية)	١٨٤٠	١	٠
نجيب باشا	١٨٤٠	١	٠
أحمد باشا	١٨٤١	٠	٣
علي رضا باشا بغدادي	١٨٤٢	٣	٠
خالد باشا	١٨٤٤	٠	١
علي باشا	١٨٤٤	١	٠
موسى صفوتي باشا	١٨٤٥	٢	٠
خليل باشا الكاملي	١٨٤٧	١	٠
عثمان باشا	١٨٤٨	١	٠
داماد محمد سعيد باشا	١٨٤٩	١	٠

أحمد عزت باشا أرزنجانلي	١٨٥٠	١	٠
إسحاق باشا	١٨٥١	٠	٤
علي عشقر باشا	١٨٥٢	١	٦
محمد عارف باشا	١٨٥٤	٠	٤
صالح وامق باشا	١٨٥٥	١	٠
محمود نديم باشا (صدر أسبق)	١٨٥٦	٠	١
مصطفى باشا	١٨٥٧	٠	١
أحمد عزت باشا (مرة ثانية)	١٨٥٧	١	٠
علي باشا كوتاهية لي	١٨٥٨	١	٠
خليل باشا كاملي (مرة ثانية)	١٨٥٩	٠	٣
أحمد عزت باشا (مرة ثانية)	١٨٥٩	١	٠
معمر باشا	١٨٦٠	٠	٣
محمد أمين باشا	١٨٦١	؟	
محمد باشا (مشير ضبطية أسبق)	١٨٦١	١	١
شروانلي محمد رشدي باشا	١٨٦٢	٢	٥
أسعد مخلص باشا	١٨٦٥	٠	٩
محمد راشد باشا	١٨٦٦	٥	٣
عبد اللطيف صبحي باشا	١٨٧١	١	٣
محمد حالت باشا	١٨٧٢	١	٧
أسعد باشا العظم	١٨٧٤	٠	٥
أحمد حمدي باشا (صدر أسبق)	١٨٧٥	١	٤
راشد باشا الناشد	١٨٧٦	٠	٨
ضياء باشا	١٨٧٦	٠	٤
عمر فوزي باشا	١٨٧٧	٠	٨
أحمد جودت باشا	١٨٧٨	٠	٩
مدحت باشا (صدر أسبق)	١٨٧٩	١	٨
أحمد حمدي باشا (مرة ثانية)	١٨٨٠	٥	٠

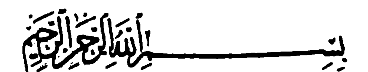
راشد باشا ناشد (مرة ثانية)	١٨٨٥	٢	٥
نظيف باشا	١٨٨٧	١	٨
مصطفى عاصم باشا	١٨٨٩	١	٩
عثمان نوري باشا	١٨٩٠	٠	٦
إسماعيل كمال بك (بالوكالة)	١٨٩١	٠	١
رؤوف باشا	١٨٩١	٢	٠
عثمان نوري باشا (مرة ثانية)	١٨٩٣	٢	٠
نصوحي بك (بالوكالة)	١٨٩٥	٠	٠
الحاج حسن رفيق باشا	١٨٩٥	١	٠
حسين ناظم باشا	١٨٩٦	١٣	٠
شكري باشا (أعلن في أيامه الدستور)	١٩٠٨	-	
حسين ناظم باشا (المرة الثانية)	١٩٠٩	-	
إسماعيل فاضل باشا	١٩١٠	-	
علي غالب بك	١٩١١	-	
حسين ناظم باشا (مرة ثالثة)	١٩١١	-	
كاظم باشا العسكري	١٩١٢	-	
عارف بك المارديني	١٩١٣	-	
خلوصي بك	١٩١٤	-	
توفيق بك	-	-	
عزمي بك	-	-	
تحسين بك	-	-	
رأفت بك	١٩١٨	-	

* * *

(٨)

الطلعة البهية للملوك العثمانية

للشيخ عبد الغني النابلسي



يقول أفقر الورى عبدُ الغني[١] يدعوه بالنَّابلسيْ مَنْ يَعتني

وهو الدِّمشقيْ وطناً ومَوْلداً وابن جماعة أباً وَمُحْتدا :

بحمدِكَ اللهمَّ ذا العطايا وبالملوكِ حافظ الرعايا

وناصر السنّة في الأنام وقامع البدعة في الإسلام

وخالق الخلق مصرّف الدّولْ وجاعلِ العبرة في القوم الأُولْ

سبحانه من قاهرٍ ومالِكِ ومتقنِ التدبيرِ في الممالكِ

وكم أبادَ من سلاطينِ الورى وكم طوى من خلقه ما نشرا

وحوّل الأحوالَ من جيلٍ إلى جيلٍ على الإذلال أو على العُلى

وليس بالظَّالمِ في شيءٍ فَعَلْ وعدلُه الظاهِرُ فيما قَدْ جَعَل

ولم تزل أحكامُه بالحكمةْ تجري على عبادِه والرّحمةْ

يمنع من شا ويعطى من يشا بعدلِه وفضلِه الذي فشا

---

(١) عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي : إمام جامع ، عالم بالحديث والفقه والتفسير والكلام والأصول والتصوف ، وعلوم العربية ، وشاعر عالم بالأنغام ، مع جاه عظيم ، وقيام بأمر الدين ، ورحالة جاب بلاد مصر والشام والحجاز ، وله مصنفات كثيرة ، منها « ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الأحاديث » فهرس لكتب الحديث الستة . و« ذيل نفحة الريحانة » و« نفحات الأزهار على نسمات الأسحار » و« الاقتصاد في النطق بالضاد » و« ديوان الحقائق » و« كنز الحق المبين في أحاديث سيد المرسلين » و« الحديقة الندية في شرح الطريقة المحمدية » مولده بدمشق عام ١٠٥٠هـ ووفاته بها عام ١١٤٣هـ وقبره معروف في الصالحية انظر سلك الدر ٣ : ٣٠ .

ثم الصلاةُ والسلامُ المُقْتَفَى ... على رسولِ الله طه المُصْطفى
(محمّدٍ) أفضلِ كُلِّ الرُّسْلِ ... ومن أتانا موضحاً للسُّبْلِ
قام بإذْنِ الله في الجهاد ... ومهّد الأمورَ للعبادِ
وفتح القِلاعَ والحصونا ... ولم يزلْ بربّه مَصُوْنا
وكم غزا مِنْ غزوةٍ بها قَهَرْ ... أعداءَه وسيفُ نصرِه شَهَرْ
وسَنَّ للملوك جَمْعَ العَسْكرِ ... وَعَقْدَ راياتٍ لأجلِ المحضر
وحَمَلَ السَّلاحَ للحروبِ ... وركبَ الخيلَ على ضروبِ
وبعدَه قد تَبِعَتْه الخُلَفَا ... واثنانِ في سُنَّتِه ما اختلفا
واجتمعت أُمته على الهدى ... من بعدِه فاز بهم منِ اقْتَدَى
ودينُه الدينُ القويمُ الواضِحُ ... وما عداه فهو كُفْرٌ فَاضِحُ
ولم يزل رضوانُ ربِّ الناسِ ... عن خلفائه حُماة الباسِ
كذاك عن بقيّة الصّحابه ... والآل أهلِ المجدِ والنَّجَابه
جميعِهم ساداتِ هذا الدّينِ ... كواكبِ الكمالِ واليقينِ
والتابعينَ بعدَهم بالخيرِ ... وكلِّ من سار بهذا السَّيرِ
ما طلعَ الفجرُ وما الليلُ مَضَا ... وهبَّتِ الريحُ وَبَرْقٌ ومَضَا

* * *

وبعدُ فالتّاريخُ علمٌ فاخِرُ ... رأتْ به الأوائلَ الأوَاخِرُ
وهذه الأمّةُ قد خُصَّتْ بِهِ ... وفيه ليس الأمر بالمشتبهِ
وقد عنت بشأنه الكبارُ ... من علماءِ الملّة الأخيارُ
وصنّفوا مصنفاتٍ شتّى ... فيه هُمُ بحسب ما تأتّى
من كلِّ تاريخٍ مطوَّلٍ ومِنْ ... مُخْتَصَرٍ قارئُه منْ فَوْتِ أمِنْ
جزاهُمُ اللهُ على السَّعْي الحَسَنْ ... خيرَ الجزا إذ أيقظوا مِنَ الوَسَنْ
وأخبروا عنِ القرونِ الماضيه ... وحرّروا شأنَ العصورِ الخاليه
وقد وجدنا جملةً منظومه ... أرجوزةً أبياتُها معلومة
ناظِمُها (محمّد الباعوني)[1] ... في الخلفاء قرّةِ العيونِ

---

(١) محمد بن أحمد بن ناصر ، شمس الدين الباعوني الدمشقي (٧٧٦ ـ ٧٨٠هـ) فاضل له « منحة اللبيب في سيرة الحبيب » نظم فيه سيرة الحافظ ابن مغلطاي ، وله تخميس =

وفـي الملـوك بعـدهـم مقتصـرا ... علـى الـذي يلـزمُـه مختصـرا
ولـم يُطِـلْ ، وابـنُ أخيـه[1] بعـدَه ... أتـى لـه بـالـذَّيـل يحـذو حـذوه
وذكـروا كـلَّ ملـوك العُـرْبِ ... بـ (مصرَ) و(الشّامِ) وأقصى (حَلبِ)
وأرضِ (بغدادَ) ومَن قد ملكوا ... تلـك النـواحـي وإليهـا سلكـوا
حتى إلى (الغُوريّ) من الملوكِ ... أوصلهـم بـذوي[2] السّلـوكِ
فـرمـتُ أن أفـوزَ بـالتـذييـل ... لمـا أتـوا بـه ، بـلا تطـويـلِ
وأنظـمَ الملـوك بـالتـرتيـبِ ... مـع اختصـارِ اللفـظِ والتهـذيـبِ
أعنـي ملـوكنـا (بنـي عثمـانِ) ... للشـرع منقـاديـن بـالإذعـانِ
وكـان حَقِّـي (بسليـمٍ) أبتـدي ... فهو إلى المُلْكِ عن (الغُوري) هُدِي
وإنَّـه أول سلطـانٍ حُبـي ... مِـنْ (آل عثمـان) بـلادَ العـربِ
لكننـي بـأولِ (العَثَـامِنَـهْ)[3] ... بـدأتُ قصـداً لأمـورٍ كـامنـه
تظهـرُ فـي شـأنِ ملـوك (الـروم) ... قـد اقتضتهـا حكمـةُ القيّـوم
وهـي إشـارةٌ مـن القـرآنِ ... إلـى سـلاطيـن (بنـي عثمـانِ)
بقـولـه: لقـد كتبنـا فـي الـزّبـور[4] ... بـأنّ إرْثَ الأرضِ أي حكـم الأمـور
إلـى العبـادِ الصّـالحيـن هكـذا ... صرَّحَ أهل الكشفِ طابوا مأخذا
فهـم ملـوكٌ قـائمـون بـالهـدى ... لنُصْـرَةِ الشـرعِ وإخمـاد العـدا

= قصيدة ابن زريق ، و« ينابيع الأحزان » و« تحفة الظرفاء » أرجوزة في تاريخ الخلفاء والسلاطين الذين تولوا مصر إلى عهد قانصوه الغوري ، مولده ووفاته بدمشق . الشذرات ٧/ ٣١٠ .

(١) محمد بن يوسف بن أحمد ، بهاء الدين الباعوني الدمشقي (٨٥٧ ـ ٩١٦هـ) فاضل عني بالأدب ، ونظم الأراجيز في بعض السير ، منها « الإشارة الوفية إلى الخصائص الأشرفية » في سيرة الملك الأشرف برسباي ، جعلها ذيلاً لـ « تحفة الظرفاء » منظومة عمه شمس الدين ، و« القول السديد الأظرف في سيرة الملك السعيد الأشرف » أرجوزة و« اللمحة الأشرفية والبهجة السنية » و« بهجة الخلد في نصح الولد » الشذرات ٨ : ٤٨ .

(٢) في الأصل سدا .

(٣) العثمانيون .

(٤) الأنبياء : ١٠٥ .

وأســـألُ الله بهـــم[1] أن ينصـــرا وأنْ يُـديـمَ ملكهـم بيـن الـورى
فليـس فـي زمـانهـم مِـنْ مُبْتَـدِعْ يكـــونُ إلا بسيـــوفهـــم رُدِعْ
وينصـــرون السُّنَّـــةَ المطهّـــره ويخـذلـون الكـافـريـن الفجـره
وظلمهـم بـالمـال ممـن ينتسـب لهـم وذاك مـن حـواشيهـم حُسِب
فـإن تحققـوه لا يـرضـون بـه ولكـن عليهـمُ الأمـر يشتبـه
لأنّهـم قـد قهـروا بـالظلمـه وألـزمـوهـم حُجُجاً مستحكمـه
وأكثـروا لهـم قـوانيـنَ غـدتْ مـألـوفـةً ، وعُصْبَـةُ الغـيِّ اعتـدت
وربُّنـا العـالـم بـالأحـوالِ عـن كـل قـاضٍ كـاشـفٍ ووالـي
فهـو الـذي إليـه مَـرْجِعُ الـورى وحـاكـمٌ فـي الأغنيـا والفُقـرا
وأستعينـه تعـالـى فـي الـذي أرومُـه مـن نشـر رَوْضِـيَ الشَّـذي
واعلـمْ بـأنَّ أولَ الملـوك مـنْ آل عثمـانَ ذوي السلـوكِ

١) (**عثمان بك**) بن الأمير (أرطغل)[2] وجـدُّه (شـاه سليمـان) نقـل
وحكمهـم كـان بمـاهـان العَجَـمْ وكـم لهـم مـن فـارسٍ فيهـا هَجَـمْ
وأصلُهـم مـن عـربِ الحجـازِ وجـدُّهـم عثمـانُ هـذا الغـازِي
هـاجَـر مـن مـدينـةِ الرّسـولِ للتُّـركمـانِ الـرُّحَّـلِ النـزولِ[3]
وكان معهم في نواحي (قونيه) بِعُصْبَـةٍ علـى الفـلا مستـوليـه
فنـزلـوا بـالملـك السَّلجـوقـي (شـاه عـلاء الـديـن) ذي الحقـوق
وكـان يغـزو معـه (عثمـانُ) وتحصـلُ النصـرةُ والأمـانُ
حتـى لقـد قـرّبـه إليـه وجعـلَ الأمـور فـي يـديـه
وكثـرتْ هيبتُـه والصَّـوْلَـهْ وبعـد ذا صـارَتْ إليـه الـدّولـه
وأقبلـتْ لـه وجـوهُ النّـاسِ مـن سـائـر الأجنـادِ والأجنـاسِ
وضعفـتْ سلطنـةُ السَّلجـوقـي والشمسُ في (عثمانَ) ذي شروقِ
وأصبـحَ الملـكُ إلـى (عثمـانِ) وبـاسمـه دعـت كبـار الشـأنِ

---

(١) في الأصل (ربهم) وبه ينكسر الوزن .
(٢) في الأصل (أرطغرل) وبه ينكسر الوزن .
(٣) هذا الخبر لا يحتاج للتفنيد لظهور بطلانه .

وخطبوا له على المنابرِ وسلطنوه كابراً عن كابرِ
في عام تسعة وتسعين سنه وستميةٍ سنيناً حسنه
مولدُه في الست والخمسينا وستميةٍ من السنينا
ومات في ست وعشرين التي من السنينَ بعد سبعمئةٍ
وملكُه قد كان عشرينَ سنه وستةٌ أعوامُه مستحسنه
وبعدَه الملك إلى (أُرْخانِ) قد صار من والدِه عثمانِ (٢)
في سنٍّ أربعينَ مع ثمانيه قطوفُ عمره إليه دَانِيَه
وفتحَ اللهُ على يديه بلاد (بُرْصا)[1] فانتمت إليه
وقد بنى مدرسةً وجامعا بها، وكان للكمال جامعا
وعمَّر التكية المشهوره للنّاسِ والزاوية المعمورَه
وملكه قد كان أربعينا وواحداً محسوبةً سنينا
ومات في إحدى وستين سنه وسبعميةٍ جرت في الألسنه
وعمره ستون مع ثلاثِ وفضلُه لاقتْ به المراثِ
وقبرُه بداخلِ القلعةِ من (برصا) عليه قبةٌ فيها دُفن
وبعده (مراد) ابنه ملك وبالهُدَى والعدل في الحكمِ سلك (٣)
وعمره كان ثلاثينَ سنه وأربعاً كم نالَ فيها حسنه
وفتحَ اللهُ له (أَنْكُوْرِيَه) وبعدها (أَدَرْنَةَ) المستعليَه
مات ببرصا وبها قد دُفنا في قبةٍ لنفسِه بها بَنَا
في عام تسعين مع السبعمئه واثنين وهو كانَ منْ خير الفئَه
وملكُه كانَ ثلاثين سنه وواحداً من السنين الحَسَنه
وسلطنوا (أبا يزيدَ) بعدَه وهو ابنُه وكان يحذو حذوه (٤)
وعمرُه إذ ذاك أربعونا من بعد أربعٍ هي السنونا
وفُتحت على يديه (أَسْكُبُ) وأرضُ (سيواس) وتلك المطلب
كذا (توقات) وبلاد (قونيه) بهمّةٍ شديدةٍ مستوليه
ومن (سنانيك) و(يَنْكِيْ شَهْرِ) بالفتح كان فائزاً والنصرِ

---

[1] بورصة أو بروسة .

وغيرها من الحصون المانعه ... ومن قلاعٍ للطغاةِ جامعه
وعمَّر المدارس الشريفه ... وعيّن الجوامك المنيفه
وكان في عام ثمانمئة ... واثنين أمر عَجَبٌ في الأمة
وذاك أنّ هذه الممالكِ ... أصحابُها شكت بحالِ حالك
قَهْرَ (أبي[1] يزيد) واغتصابَهُ ... بلادَهم وذكروا استلابَهُ
وطلبوا النجدةَ من (تيمورِ) ... فجاءه بهذه الأمورِ
وقصد البلادَ بالعساكرِ ... فأعلنوا في الناس بالمناكرِ
ولأبي يزيدَ بالمراسله ... خاطبَه أن يدفع الحصونَ له
حتى أبو يزيد قامَ وقعدْ ... وجمعَ الجيوشَ من غيرِ عدد
فأرسل (التيمور) للتتارِ ... حتى استمالهم إلى الفرارِ
فخامروا على (أبي يزيدِ) ... وأوقعوه في العنا الشديدِ
وانهزموا عنه فنالته اليدُ ... وإنّه المأسور والمقيّدُ
ومات بالحمّى لفرطِ الحَصْرِ ... واللهُ لم يَجُدْ لَهُ بالنَّصْرِ
عام ثمانمئة وخمس ... وهو ببرصا ضِمَن ذاك الرَّمْسِ
وقد بنى مدرسةً في (أدرنه) ... مشهورةً معمورةً مُسْتَحْسَنَه
والجامعَ الكبيرَ في (كوتاهيه) ... وغيرها من الجهات الباهيه
وملكُه أربعةً وعشره ... من السنين بالهُدَى منتشره
كان له من البنين خَمْسَه ... فقام كلّ صبحه وأمسه
يحاولون الحربَ فيما بينهم ... عشراً وإحدى أدركوا سنينهم

(٥) ثم استقلّ منهم (محمَّدُ) ... بالملك وهو الكاملُ الممجَّدُ
وكان ذاك عامَ سِتَّ عشرةِ ... من بعدِ مدة الثمانمئةِ
وكان عمره سنيناً تسعه ... مع الثلاثين فنال الرفعه
وفتح البلادَ والقلاعا ... وأخذَ الحصون واستراعا
وهو الذي للحرمين رتّبا ... صرةَ مالٍ كلَّ عامٍ تُجْتَبَىٰ
وفعل الخَيْرَ الكثيرَ الوافرا ... وفي البلادِ عمّر العمائِرا

---

(١) في الأصل (أبا) .

وكـان ملكـه علـى التّمـامِ … فـي الأرضِ نحـو تسعـة الأعـوامِ
ومـاتَ فـي الأربـع والعشـرينـا … بعـد ثمـانمئـة سنينـا
وبعـدَه ابنـه (مـراد الثـانـي) … ذو العـز والمجـد الـرفيـع الشـان (٦)
وعمـره كـان ثمـانـي عشـره … وفـي الـورى سيـرتُـه مشتهـره
وكان موسى بن أبي يزيد شاه ، … (أدرنـة) الجـامـعَ فيهـا قـد بنـاه
ولـم يكـن أكملـه ومـاتـا … حتـى (مـرادُ) ذا حـوى مـا فـاتـا
فـأكمـلَ الأسـاسَ والبنيـانـا … وحـرَّرَ الإحكـامَ والإتقـانـا
وهـو الـذي بـالجـامـع العقيـق فـي … أدرنـةٍ لُقِّـبَ ليـس يختفـي
ثُـمَّ عـن الملـك إلـى ابنـهِ نَـزَلْ … واختـار بلـدةً بهـا عنـه اعتـزل
وفـي مكـانـه ابنـه (محمَّـدُ) … قـام يحـلُّ مـا يشـا ويعقـدُ
ثـم أعيـد ثـانيـاً لملكـهِ … خـوفَ استهـانـةِ العـدا لهُلْكِـهِ
ولـم يـزل فـي ملكـه حتـى قَضَـى … في عام خمسين وخمسٍ وانقضى
بعـد ثمنمئـة والسلطنَـه … كـانـت لـه نحـو ثـلاثيـنَ سنـه
ومـات فـي (بـرصـا) وفيهـا دُفِنَا … دامـتْ عليـه رحمـةٌ مـن ربنـا
ثـم تـولـى المُلـك بعـدَه ابنُـه … (محمّـد الفـاتـح) كـان سِنُّـه (٧)
تسعـاً وعشـرة مـن الأعـوام … وهـو أجـلُّ فـارسٍ مِقْـدَامِ
ومـا لـه مـن هِمَّـةٍ متينـه … سـوى افتتـاح حصـن (قسطنطينه)
وهـو إلـى صـاحبهـا مُسَـالِـمُ … مُـدَّتْ لـه مِنْـه لهـا السّـلالِـمُ
ورامَ منهـا قَـدْرَ جِلْـدِ الثَّـوْرِ … لنفسِـه أجـابـه بـالفَـوْرِ
فقـدَّ جلـدَ ثـورِه حتـى انبسـطْ … فـاتّسـعَ الخـرْقُ عليـه مـا انْضَبَـطْ
وفـي مكـان ذاك قلعـةً بنـا … صغيـرةً متينـةً بهـا اعتنـى
ووضَـعَ المـدافـعَ المستحسَنَـه … ثـم انثنـى بعـزمِـه لأدْرَنَـه
وعمّـر العمـارةَ الجـديـده … وكـلُّ ذا صيّـره مكيْـدَه
لعصبـة فـي كفـرِهـا مجتمعَـهْ … و«الحربُ ـ جاء في الحديث ـ خدْعَه»[1]

---

(١) الحرب خدْعة : أخرجه البخاري ومسلم من حديث جابر ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنهما .

وقد أتى بالعسكرِ العَرَمْرَمِ يبدي بقسطنطينة سفك الدَّمِ
حتى أزالَ اللهُ أهلَ الكُفّرِ وخَصَّ بالفتحِ له والنَّصْرِ
وذاكِ في سبعٍ وخمسين مضت بعد ثمانمئةٍ قد انْقَضَتْ
ودخلَ البلادَ واستولَى على جميع مَنْ فيها ونالَ الأملا
وعمّرَ الجامِعَ والمدارسا وغيَّرَ الصُّلبانَ والكنائِسا
كما أيا صوفيّةَ بالجامع أبدلها لأمرِ سِرٍّ جامعِ
على أبي أيوبِ الأنصاري بني عظيمَ ذلك المزارِ
وأتقنَ المشاهِدَ الرفيعه والحجرات الجمّةِ الوسيعهْ
ودامَ ملكُه له استقلالا نحو الثلاثين غَدَتْ أحوالا
وعامَ ستٍ وثمانين قَضَى بعد ثمانمئةٍ له الرِّضَىٰ
(٨) وكان أوصى لابنِه بالمُلْكِ (أبي يزيدٍ) در عقد السّلك
فقامَ بعدَه بشأنِ المملكه وكان يقهرُ العِدَا في المعركه
بعدَ ثلاثين مَضَتْ مِنْ عُمْرِه وقد سما بنهيه وأمْرِه
وفتح القلاعَ والحصونَ في تلكَ البلادِ لأبيه يقتفي
وقد بنى مدارساً للعلمِ وكانَ ذا شهامةٍ وحِلْمِ
وعمّرَ العمائِرَ الكثيره ولم تزل خيراتُه شهيره
وكان قد بُلي بداءِ النُّقْرُسِ ودامَ في أمرٍ خطيرٍ مويئسِ
ففرتِ الجيوشُ منه لابنهِ سليم حتى ثارَ فرط غُبْنِه
ورامه (سليمُ) بالحروب مع الجيوشِ مسرع الوثوب
فسلَّم الملك إليه واكتفَى نزاعه والشرّ عنهما انتفى
وذاكَ في ثمان عشرةٍ جرى من بعد تسعمئةٍ تحرّرا
وماتَ بعد ذاك في تلك السنه وكان ملكُه كطيفٍ في سنَه
قدر ثلاثينَ من الأعوامِ وواحدٍ ، والدَّهْرُ كالمنامِ
ودفنوه في تجاهِ المدرسه له بقسطنطينة مؤسسه
(٩) ولم يزل أمر (سليم) ظاهرا وكان سلطاناً مهاباً قاهِرا
وكان عمرُه زمانَ السلطنه ستاً وأربعين عاماً حَسّنه
وهو الذي من حقّنا أن نبتدي في ذيلنا هذا به ونقتدي

بِمَنْ مَضَى في سيرةِ الملوكِ ونظمِه كالجوهرِ المسبوك
لكنَّنا رُمْنَا لأخبارِ (بني عثمانَ) كلِّهم بهم أن نعتني
وزادَ في أيامِه بالعجم من (شاه إسماعيل) فرطَ الألمِ
فأظهرَ الرفضَ ، وأهلُ السُّنَة أذلّهم ، وأطلقَ الأعِنَّة
في قتلهم والحرق للمصاحف وقد طغى في أمرِه المخالف
فبلغَ السلطانَ ما قد فعلا وحرّكَ اللهُ الهُمام البطلا
حتى أتى يغزوه بالعساكرِ وبالجنودِ غزوَ شخصٍ كافرِ
ففر جيشُ (الشاهِ إسماعيلا) واللهُ قصّ ظفرَه الطويلا
ولم يكن يسلَمُ من (سليمِ) وراحَ في عذابهِ الأليمِ
وعادَ بعد أن أبادَ دينه لموضع التخت بقسطنطينه
فجاءتِ الأخبار أنَّ (الغُوْرِي) كان هو الذي بغى بالجوْرِ
وعارضَ القفول بالذخائر حيث أتت بالخيرِ للعساكرِ
وكان بين (الشاه إسماعيلا) وبينه صفوُ ودادٍ حيلا
فأخذت (سليمَ) شدةُ الغضب وقال : ذا أمرٌ عجيب مقتضب
يحمي عن الرفض ويُخْزي السنَّه ومنه للعدا تكونُ المِنَّه
فعند ذاك قَصَد السلطانُ قتالَه ، وقامتِ الفُرْسَانُ
في عام اثنين وعشرين التي حسابُها من بعد تسعمئة
والتقيا في أرض (مرجِ دابقِ) من (حلبٍ) فسيقَ بالسوابقِ
والتحمت معركةُ القتالِ بينهما ، فانكسرتْ في الحالِ
عساكرُ (الغوري) لأنّه هلك وعنه زالَ كلّ ما كانَ ملك
وقابلتْ (سليمَ) أهلُ (حلبٍ) بفرحةٍ ونشوةٍ[1] وطَرَبِ
وخرجوا إليه بالمصاحفِ على رؤوسهم خشوعُ الخائفِ
ثم أتى إلى (دمشق الشامِ) فاستقبلته سائرُ الأقوام
وخرجوا إلى الملاقاة لَهْ وسألوه جودَهُ وفَضَلَهْ
وكم بها صلّى صلاةَ الجمعه في (الجامع الأمويِّ) زاكي اللمعه

---

(١) في الأصل نشأةٍ .

وخطبَ الخطيبُ فيه باسمه ... يمدحُه على جميلِ قسمه

وقد أقام في (دمشقَ) أشْهُرَا ... ثلاثةً ونصف شهر حُرِّرا

وقد بنى التكية المشهوره ... بالصالحية غدت معموره

والجامع العظيم ذا التزيين ... لشيخِنا الأكبر (محيي الدِّينِ)

وذلك المشهور بابن العربي ... حقَّقه الله بأعلا الرتب

وعيَّن الأوقافَ والوظائِفا ... عليه والخيرات واللطائِفا

ثم مضى يسيرُ نحو (مصرِ) ... يقصدُ للفتح بها والنصرِ

فافتتح (القدسَ) وما والاها ... من البلادِ عندما أتاها

و (صفدٍ) و(غزةٍ) والرَّملَه ... وما هناك من جهاتٍ جُمْله

حتى أتى (مصر) فقابلتْهُ ... عساكرٌ فيها وقاتلتْهُ

وانكسرتْ قُدّامه حتى دخل ... وقرّ في (مِصْرَ) وما عن ذاك حل

ومهد الأمور في البلاد ... محرِّراً مصالح العبادِ

ثم أتى من (مصرَ) نحو (الرومِ) ... بعد تمامِ فتحه المعلوم

فبينما يسيرُ في الطريق ... إذ جاءه ذو النَّسبِ العريق

وهو (الشريفُ بركاتُ المكِّي) ... وعنه قد أزال كلَّ الشكِّ

ومعه ابنه (محمّد أبو ... نمي) الشهم الحسني المنجب

فهنياه بالفتوحاتِ التي ... قد نالها من ربِّه بالمنة

وطلبا منه بأن يكونا ... عن أمرِه تحريكاً أو سكونا

وسلّما مكةَ والمدينه ... إلى حِمَى دولتِه الأمينه

ولابنِه أبي نمي قدرا ... عن إذنه لأمره بلا مرا

وقد أطاعته قبائل العربْ ... بمصر والشام وقد نال الأربْ

وبعده أتى إلى (دمشق) ... و(الجان بردي) صار فيها مُبْقي

عن الإمارة التي كانت له ... حيث رأى كمالَه وفضلَه

من بعد ذا استولى على البلاد ... جميعها والسهلِ والوهادِ

وجاءَ (قسطنطينةَ) وقد خرج ... منها إلى (أدرنة) يبغي الفرج

فمات في الطريق والأمر اختفى ... حتى (سليمان) ابنُه له اقتفى

وصارَ في مكانه سلطانا ... فأعلنوا بموتِه إعلانا

وأرجعوه نحو (قسطنطينه) ودفنوا فيها جليلَ الطينه
وعمَّر ابنُه (سليمانٌ) على مزاره جامعَه المكمّلا
في الست والعشرين مع تسعمئه وملكه تسع سنين في فئه
وأُجْلِسَ السلطانُ فوق التَخْتِ وهُو (سليمانُ) عظيمُ البختِ
وعمره ستاً وعشرين سنة شهمٌ همامٌ في الأمورِ المتقَنَه
وكانَ ذا عَزْمٍ ورأْي وزكا ما مِثْلُه في الناس شخصٌ ملكا
وكم غزا في نفسِه من غَزْوة وكان زايد العُلا والحَظْوَةِ
و(الجان بردي) بدمشق عندما موت سليم غاية تقدما
ونقضَ العهدَ ورام السلطنَه لنفسِه بالشامِ تلك الأزمنه
حتّى (سليمانُ) له قد أرسلا جنوده ورَدَّه وقتلا
ومهّد البلادَ فاطمئنت حتى رعاياه به تَهَنَّت
وقد غزا الإفرنجَ حتى فُتحتْ له البلادُ وأودعت واصطلحت
وسار بالجيش إلى بغدادِ لأخذِه لها من الأعادي
وكان فيها حاكِمٌ شاهُ العجم يبدي الفسادَ وانطلاق اللجمِ
وعندما نائبُه فيها عَلِمْ بأنّ (سلطانَ سليمان) قَدِمْ
قرّوا بذي طاعة المماكر وأقبلَ السلطانُ بالعساكر
وشاد من قبر (أبي حنيفة) ما هدّموا والقبة المنيفة
وجدَّد المشاهد الوسيمة وعمّر التكية العظيمة
وزارها تيك المزاراتِ التي أنوارُها تشعشعتْ بالبهجةِ
ثم بجيشِه إلى (تبريزِ) سار بعزِّ قدرةِ العزيزِ
وحلَّ فيها وهو مبدي المنفعه ثم بها صلّى صلاةَ الجُمُعَه
وأرسل الشاهُ إليه يعتذرْ ويطلُبُ الصُلْحَ ، ومنه قد حَذِرْ
فأخذَ العَهْدَ عليه أن يَدَعْ كلَّ بلادٍ أُخِذَتْ منه ارتدع
وعندما تحقّقَ السلطانُ كلامَه سارتْ به الركبانُ
وعادَ قاصداً بلادَ (الرومِ) واستبشر العسكرُ بالقدومِ
وعمّر المدرسة المشهوره في (الشام) والتكية المعموره
وذاك في ستين بعد أربعِ وبعد تسعمئة لمن يعي

وهو الذي أجرى لعين (عرفة) ... ونفعَ النّاسَ بمالٍ صرفه

وعمّر الأربعةَ المدارسا ... في مكةٍ وكان شهماً فارسا

ومات بعد ذا بداءِ النّقرسِ ... في (أسْكِدَار) بين جمع مؤنسي

ثم به أتوا القسطنطينه ... ودفنوا جثّته الأمينه

في جامعٍ هناك فيها قد بنا ... عليه رحمة الإله ديدنا

(١١) وكان أوصى لابنِه (سليم) ... بملكه من قلبِه السليمِ

فقام في أعوامِه الثمانيه ... بهمّة عن الدنايا عاليه

وهو الذي اعتنى بفتح (قبرس) ... وغيرها من القلاع الحرس

والحرم المكيّ قد جدد ما ... قد كان من رُوَاقِه تهدّما

وشاد من سقوفه القبابا ... متينةً ، وجدّد الأبوابا

وقد أتى لمكة بالماءِ ... من (عرفات) كامل الإجراء

ومات في الاثنين مع تسعمئه ... بعد الثمانين سنيناً منبئه

وهو الذي قد دفنوه في أيا ... صوفية في وسط قبر بنيا

(١٢) وبعده كان (مرادُ الثالثُ) ... وهو ابنُه عن كلّ خير باعث

وكان ذا علم ونظمٍ يحْكي ... بالعربي والفارسي والتركي

ولم يَزَلْ في الملك عشرين سنه ... سيرتُه محمودةٌ مستحسنه

وماتَ بعد الألف في الثلاث ... وعُمره خمسونَ ذو انبعاث

(١٣) ثم ابنُه من بعدِه قد ملكا ... (محمّد) في سُبُل خيرٍ سلكا

وملكه تسع سنين كانا ... وجهَّز الجيوش والفرسانا

وكان يغزو عصبة الكفّار ... بنفسه مثل الهِزْبرِ الضارِي

وانتشرت في عصره الخوارجُ ... وأمر (جنبلاطِ) فيهم مارجُ

من (حلبٍ) وسار نحو (الشامِ) ... ومات في البلاد بانتقام

وماتَ بعد الألف باثنتي عشر ... (محمد السلطان) والأمر انتشر

(١٤) وبعده أوصى (لأحمد) ابنه ... بالملك حتى شادَ عزّ ركنِه

فقام في الملك يدّبُر الورى ... ويرديَ الطاغي ومن قد افترى

فكمـنَ[1] الـوزيـر بـالجنـود على ابـن جنبـلاطِ المطـرود

وهو العنيدُ المدّعي للسلطنه حتـى أبـادوا جيشـه والأكمنـة

وشتتـوا عسكـره وقـد هـرب للـرومِ تـائبـاً ومنهـم اقتـرب

فصفحـوا عنـه وولّـوه علـى بعضِ بلادِ الرّوم والأمر انجلا

وقد بنى في وسط قسطنطينه جـامِعَـه بنـايـة متينـه

وشيّـد المـدرسـةَ الـرفيعـه وأتقـن العمـارةَ البـديعـه

وملكُـه مـن السنيـن عَشْـرَه وبعـدَهـا أربعـة منتشـره

وماتَ في ست وعشرين وألف وقد مشى الناسُ أمامه وخَلَفْ

حتـى بقسطنطينـة قـد دفنـا هنـاك فـي جامِعـه الـذي بنـا

وبعده أخوه كان (مصطفى) ثـلاثـةً مـن الشهـور تُقْتَفـى (١٥)

ثـم لـه مـن ملكـه قـد خلعـوا وبعدها (عثمان) فيه وضعوا (١٦)

وهو ابن (أحمد) الهمام الذي قد اقتضى للخلع سهل المأخذ

وذا لِما كان عليه منْ سَرَف في المال بالخير وتحصيل الشرف

وزهـدُه فـي حـالـه والمـركـبِ وما قد اعتادوه يوم الموكبِ

فقـام (عثمـانُ) بـأمـر الملكِ مـن السنيـن أربعـاً بـالفتـك

وكـانَ حيـن نصبِـه مـراهقـا دونَ البلـوغِ للكمـالِ لائقـا

وقـد أراد أن يحـج فـاختلـف عسكرُه عليه فاقتضى التلف

وقتلـــوه نقمـــةً وظلمـــا ودفنـوه حيـث نـال الـرَمّـا

عنـد أبيـه (أحمـد) الهمـام في الجامع المعروف للأنام

في عام إحدى وثلاثين لدى ألف من السنين كانت عددا

وقد أعادوا[2] عمّه الذي خُلِعْ للملك (مصطفى) الإمام المُطَّلِعْ (١٥)

ومـات ذاك العـام بعـد أشهـرِ ثـم تـولا بعـدَه فـي البشـر

(مراد) وهو الرابع ابن (أحمد) ثمان عشر ملكه في العددِ

وقاتل (الدروزَ) و(ابنَ معنِ) وقـد رمـاهـم بـالـردا واللعنِ

---

(١) في الأصل (فمعن) .

(٢) في الأصل (عاودوا) .

وجهّزَ الوزيرَ أحمد باشا | إلى قتالهم ونالَ ما شا
وقد غزا بنفسِه شاهَ العجم | وفتحَ البلادَ لمَّا أنْ هَجَم
وفرّ منه عسكرُ الروافضِ | وكان ذا حزمٍ وكفٍّ قابضِ
ثم أتاه الشاهُ يبغي الصُّلحا | بعدَ فرارِه فنالَ النجحا
وكان سلطاناً مهاباً ذا خطر | تهابُه الملوكُ ثم الوُزَرْ
وماتَ في تسع وأربعين مع | ألفٍ من السنين هكذا وقع

(١٨) ثم تولّى الملك (**إبراهيمُ**) | وهو أخوه الفاضِلُ الكريم
وقاتل (**الإفرنج**) حتى فتحا | منهم قلاعاً وعليهم رجحا
وشاع عنه غير ما يليقُ | فخلعوه واعتراه الضيق
وقتلوه بفتاوى العلما | وملكه تسع سنين عُلِما
في عام خمسين مع الثمانيه | من بعد ألفٍ من سنين ماضيه

(١٩) وسلطنوا عنه ابنه (**محمدا**) | وعمره سبع سنين عددا
ففتح البلاد والقلاعا | ولم يزل مؤيَّداً شُجَاعا
وكان عزُّ ملكِه في الدوله | وزيرُه (الكُبْرِي)[1] عظيمُ الصّوله
وفى ابنه الوزير (أحمد باشا) | فقام بالشرع وما تحاشا
وملكه قد كان بالتّمامِ | ثلاثة وأربعين عام
وخلعوه عام ألفٍ قد مضت | من بعدِ تسعة وتسعين انقضت

(٢٠) وأجلسوا أخاه في مكانه | وهو (**سليمان**) الذي فاق زمانه
أعزّه اللهُ بعزِّ الشرع | حيثُ اعتنى بأصله والفَرْع
وهو الذي في عصرنا سلطانُ | دام له العلا ودامَ الشأنُ
فإنّه قد رفعَ المظالِمَا | ودفع الغُصوبَ والجرائِما
وأبطلَ الخمورَ في البلادِ | وقلّ فيها عصبةَ الفُسّادِ
ودَمَّر البغاةَ والخوارِجَا | ولم يَزَلْ ضيقُ الأنامِ فارجا
وقامَ للنّاسِ وزيرُه الذي | بالفَضْلِ كان والعلوم يغتذي
مؤيَّداً للحق ناصراً لَهُ | وناشراً بين الأنامِ عدلَهُ

---

(١) في الأصل (الكبرلي) .

وهو الوزيرُ ابْنُ الوزيرِ(مصطفى ولد ألكبريّ[1]) لمجدِ اقتفى
سـدّ أمـره وسـدّ دولتـه ربي وأبقىٰ في الأنام مُدّتَهْ
فـإنّـه ركـنٌ عظيـمُ الملكـه ولـم يـزلْ مـدبّـراً للمملكـه
ثـم تـولـى سلطـان الـورى أعني (سليمان) الذي قد ذكرا
فـي رمضـان دون ألـف ومئـة مع اثنتين في الحساب منبئه
وملـك مـن السنيـن أربعـه إلا ثـلاثَ أشهـرٍ مُتَّسِعَـه
وسلطنـوا مـنْ بعـدِه أخـاه (أحمد) من له علم وجاه (٢١)
وهـو همـامٌ زائـدُ الشجـاعـة ذو هيبـةٍ وشِـدَّةٍ استطـاعـة
فمهّـد البـلادَ والأمـورا وحَصَّـنَ القـلاعُ والثغـورا
ومثل ما كان الوزيرُ (مصطفى باشا) لقد أبقاه والشر انتفى
أعـزّه الله وأبقـى مُلْكَـهُ وفـي العـداة لا يـزالُ سَفْكُـه
ونصـر الله بـه الإسـلامـا وشـرّفَ الأوقـات والأعـوامـا
بجاه طه المصطفى العدنانِ عليـه صلّـى الله كـلَّ آنِ
وكـانـتِ الـوفـاةُ للسطـانِ (أحمد) في شهر جمادَى الثاني
في الثاني والعشرين يوم الأحدِ عليـه رحمـةُ الـرحيـم الأحـدِ
في عام ستٍّ بعد ألفٍ ومئة وفئةٍ مَضَتْ وقد جاءت فئه
وملكه قد كان في التقاضي قـدر سلطـان أخيـه مـاضـي
أربعـة مـن السنيـن مـا عـدا ثـلاثـة مـن الشهـور عـددا
وبعده قد سلطنوا (مصطفى) ابن (محمد) فجاؤا بالوفا (٢٢)
وعنـده أبقـى الـوزيـرَ الأولا وهو (علي باشا) الذي حاز العُلا
ومـذ ولـى تـوالـت الأمطـارُ وواصـل الليـلُ بهـا النهـارُ
وكـان رام النّـاسُ الاستسقـاءَ فـأمطَـر اللهُ بـه السمـاءَ
وفُتحَـتْ جـزيـرةُ تُسَمّـى (ساقز) والنصرُ فيها جَمّا
من بعدِ ما استولى عليها الكفره من قبلُ حتّى الدينُ فيها أظهرَه
بعـزمـةٍ مـن بعـد أيـام ثـلاثْ من حين وَلّوه وكان الانبعاثْ

---

(١) في الأصل (الكبرلي) .

فيـالـهُ مـن ملـكٍ همـام — مشتغـل بنصـرةِ الإسـلامِ
مـوفقـاً لكـلِّ فعـلٍ خيـري — وسائراً في الحكم خيرَ سيرِ
وقـامعـاً لعصبـةِ الفسـادِ — ومكثـر الأمـانَ فـي البـلادِ
أدامـه الله لنـا منصـورا — فينـا لـواءُ عـدلِـه منشـورا
وراقيـاً بـالنصرِ أوجَ الـرُّتَـبِ — والعزَّ عن جدٍ حَوَىٰ وعن أبِ
وكـانَ فـي مشيخـةِ الإسـلامِ — في عصرِه شخصٌ من الأعجامِ
سُمّـي بفيـضِ الله أصلُـه خجـا — مؤدِّبُ السلطان من أهل الحِجا
فقـام مـع أولاده فـي الـدّولـه — وصالَ في الأعيان أعلا صوله
وأكثـر العُجْـبَ مـع التكبُّـرِ — وبـالـغَ فـي صفـة التجبُّـرِ
فضجّتِ الناسُ على السلطانِ — مـن أجـل ذا وجملـة الأعيـانِ
وسلبـوا دولـةَ فيـضِ اللهِ(١) — أشـدَّ سلبـة بسيـوفِ اللهِ
وبـالغـوا فـي قتلِـه جهـارا — وأوقفـوا بـرفضِـه الإكفـارا
وخلعوا السلطان (مصطفى) بما — قدْ كانَ منه حيث ذاك قد صما
وحـال بينهـم وبينـه إلـى — أن أمسكـوه ورمـوه بـالبـلا
وبعـد هـذا سلطنـوا السلطانـا — (أحمدَ) مَن حاز العلا والشانا
وهو أخٌ (لمصطفى) ولم يزل — في السجن مصطفى إلى أن انتقل
وأجلسوا (أحمدَ) والداعي دعا — على سريرِ الملك يومَ الأربعا
تاسعَ يومِ [من] ربيع الأولِ — في عام خَمْسَ عشرةَ(٢) لها تلي
ألـف ومئـة فكـانَ القـائِمـا — بـالخيرِ والأعدا بِـه مُرَاغِمـا
وفّقـه اللهُ لانصـاف الـورى — ودفـع فتنـةٍ وبغـي وافتـرى
حتـى يعـزّ ربنـا الشـرع بـه — وينصـر الإسـلامَ بيـن حزبـه
أدامـه اللهُ علـى الهـدايـه — وخَصَّـهُ بـالحفـظِ والعنـايـه
وتـمّ هـاهنـا كـلامنـا علـى — مقدار ما يسّره مولى العلا
وهـو ثـلاثـة مـن المئـاتِ — والسبع والستيـن فـي أبيـات

(٢٣)

---

(١) في الأصل (فضل الله) .
(٢) في الأصل (خمسة عشر) .

وذاك بعــــد مئـــة وألـــفِ　　　واثنيــن مــن السنيــن تلفــي
والحمــدُ للهِ علــى التمـــامِ　　　والشكـرُ فـي المبـدأ والختـامِ
ودامــتِ الصّــلاةُ والتسليــمُ　　　علــى نبــيٍّ قــدرُه عظيــمُ
محمّــدٍ أفضــلِ كـلِّ الخلـقِ　　　وآلهِ والصحبِ أهل الصِّدقِ
مـا أسفَـر الليـلُ عـن الصبـاحِ　　　وأشـرقَ النـورُ علـى البِطـاح

تمت بحمد الله تعالى وعونه وصلى الله على محمد وآله

(٩)

وصية عثمان
مؤسس الدولة العثمانية
لابنه أورخان

ذكر المؤرخ العثماني عاشق جلبي أن عثمان مات بينما كان ابنه أورخان يحاصر مدينة بروسة ، فأوصى عثمان لابنه أورخان بهذه الوصية :

يا بني ! إياك أن تشتغلَ بشيء لم يأمر به الله ربّ العالمين ، وإذا واجهتك في الحكم معضلة ، فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً .

يا بني ! أحط من أطاعك بالإعزاز ، وأنعم على الجنود ، ولا يغرنّك الشيطان بجندك ومالك ، وإياكَ أن تبتعد عن أهل الشريعة .

يا بني ! إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين ، وأنّ بالجهاد يعمُّ نور ديننا كل الآفاق ، فتحدثُ مرضاة الله جل جلاله .

يا بني ! لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكمٍ أو سيطرة أفراد ، فنحن بالإسلام نحيا وبالإسلام نموت .

وهذا يا ولدي ما أنت أهلٌ له[1] .

عثمان

•••

(١) د. محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ص١٦ ط دار القلم بدمشق .

مراجع التحقيق

١ ـ أصول التاريخ العثماني تأليف الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ دار الشروق ١٩٩٣

٢ ـ الإمبراطورية العثمانية سعيد أحمد برجاوي دار الأهلية بيروت ١٩٩٣

٣ ـ بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت تأليف الدكتور عبد الكريم رافق دمشق ١٩٦٨

٤ ـ البلاد العربية والدولة العثمانية تأليف ساطع الحصري دار العلم للملايين ١٩٦٠

٥ ـ تاريخ الدولة العثمانية تأليف الدكتور علي حسون المكتب الإسلامي دمشق ١٩٨٠

٦ ـ تاريخ الدولة العثمانية (١ـ٢) تأليف يلماز أوزتونا ترجمة عدنان محمود سلمان مؤسسة فيصل للتمويل إستانبول ١٩٨٨

٧ ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية تأليف محمد فريد بك دار النفائس بيروت ١٩٩٥

٨ ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر تأليف الدكتورة ليلى الصباغ دمشق ١٩٨٢

٩ ـ تاريخ عمومي عثماني أطلس تأليف محمد أشرف مكتب حربية مطبعة سي ١٣٢٩ ـ ١٩١١

١٠ ـ حاضر العالم الإسلامي بحواشي الأمير شكيب أرسلان ط (٢) مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٣٦

١١ ـ العثمانيون في أوربة تأليف كولز ترجمة عبد الرحمن الشيخ الهيئة العامة للكتاب مصر ١٩٩٣

١٢ ـ العرب والعثمانيون تأليف الدكتور عبد الكريم رافق دمشق ١٩٧٤

١٣ ـ قيام الدولة العثمانية تأليف محمد فؤاد كوپريلي ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ـ دار الكاتب العربي مصر ١٩٦٧

١٤ ـ محمد الفاتح تأليف الدكتور سالم الرشيدي دار العلم للملايين ١٩٦٩

١٥ ـ المشرق العربي في العهد العثماني الدكتور عبد الكريم رافق مطبعة الرياض دمشق ١٩٨٩

المحتوى



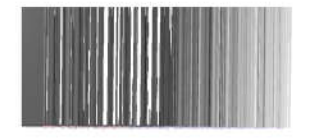
مصطفى صبري

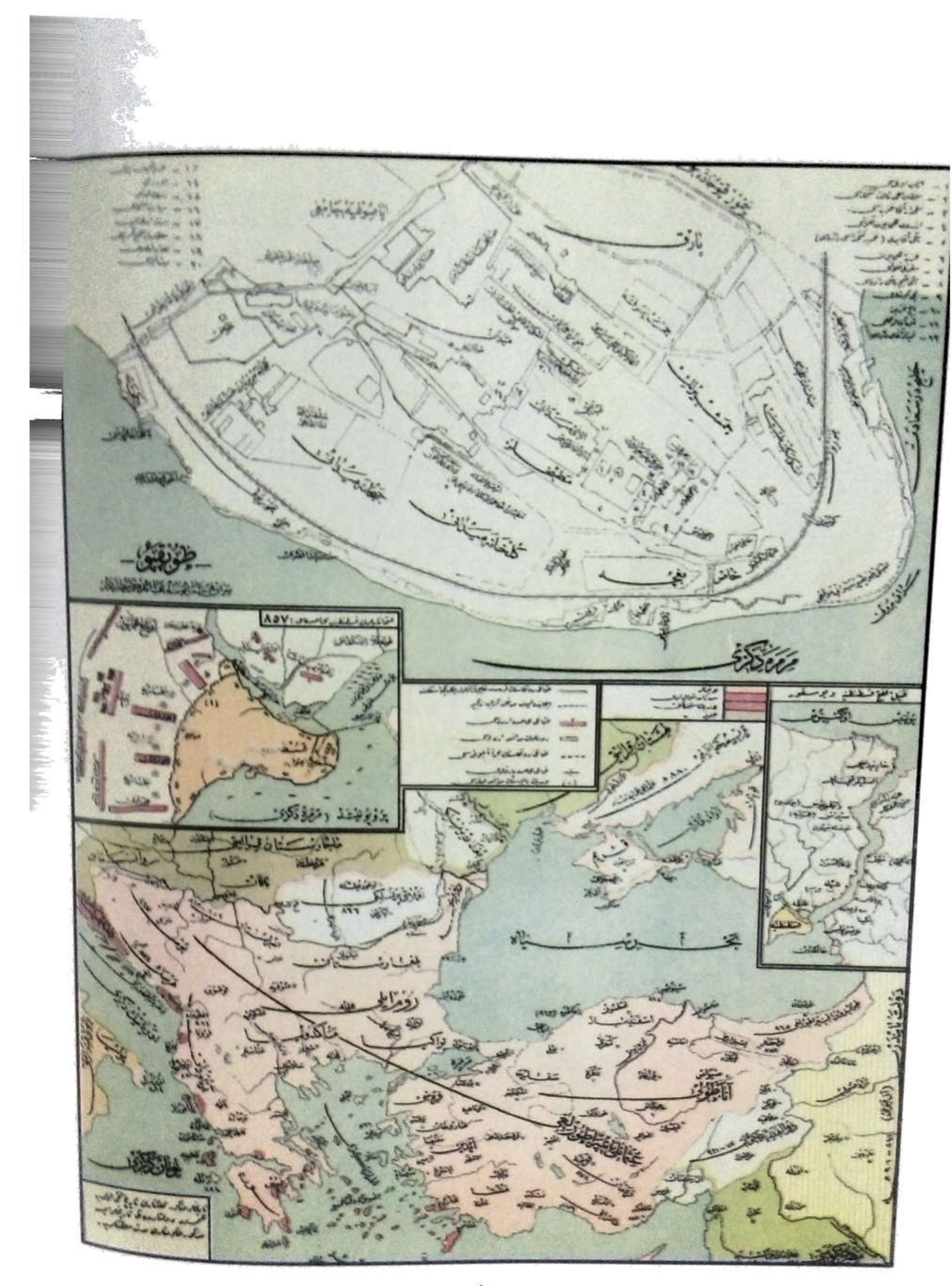
شيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقاً



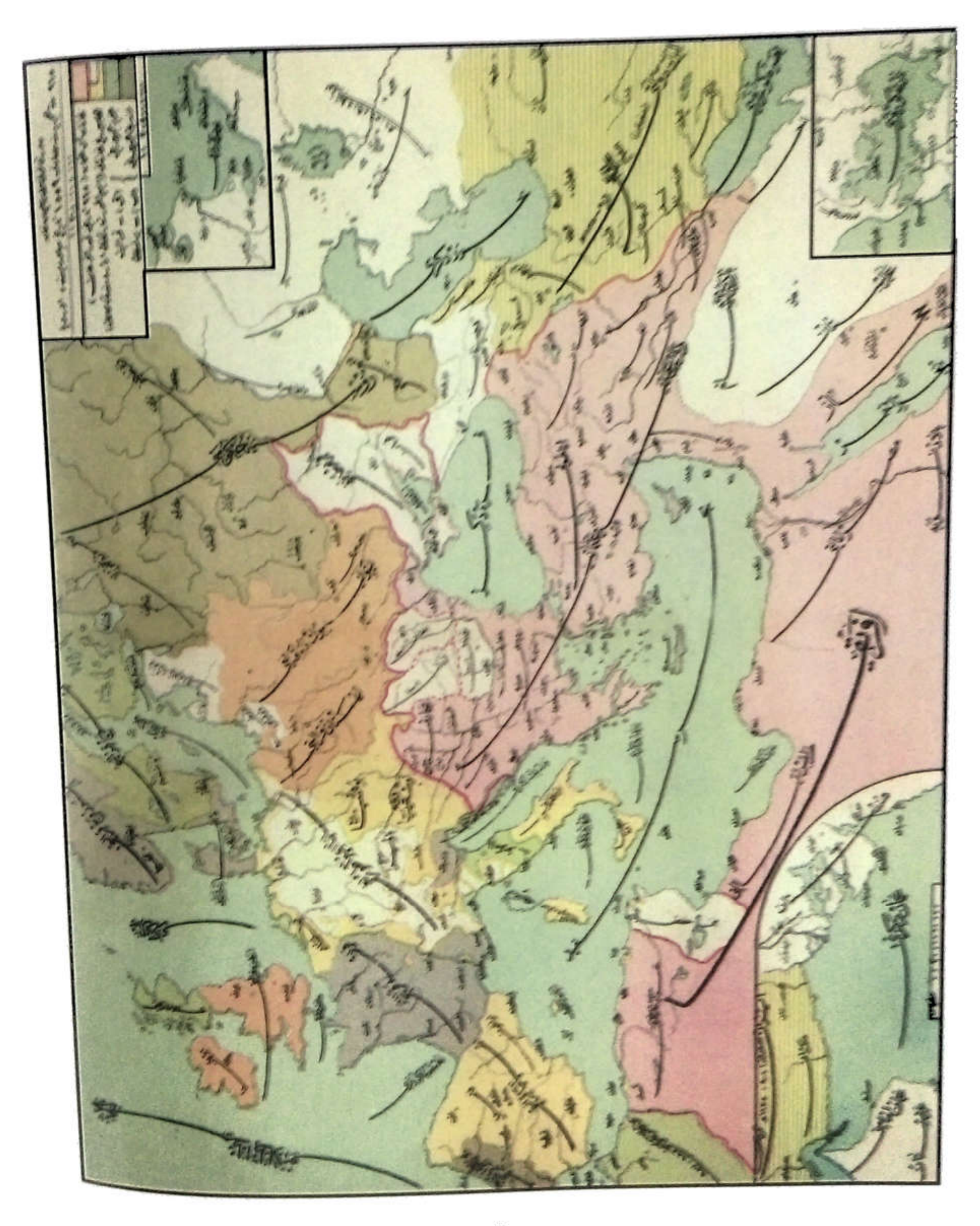
مرمره دکزی
بروسه
ینکیشهر
سکود
اسکیشهر
قره جه حصار


دولت عثمانیه
(٨٠٥ هـ ١٤٠٢م)
بحر سیاه
آناطولی
بلغارستان
روم ایلی
اسفندیار
ذوالقدریه

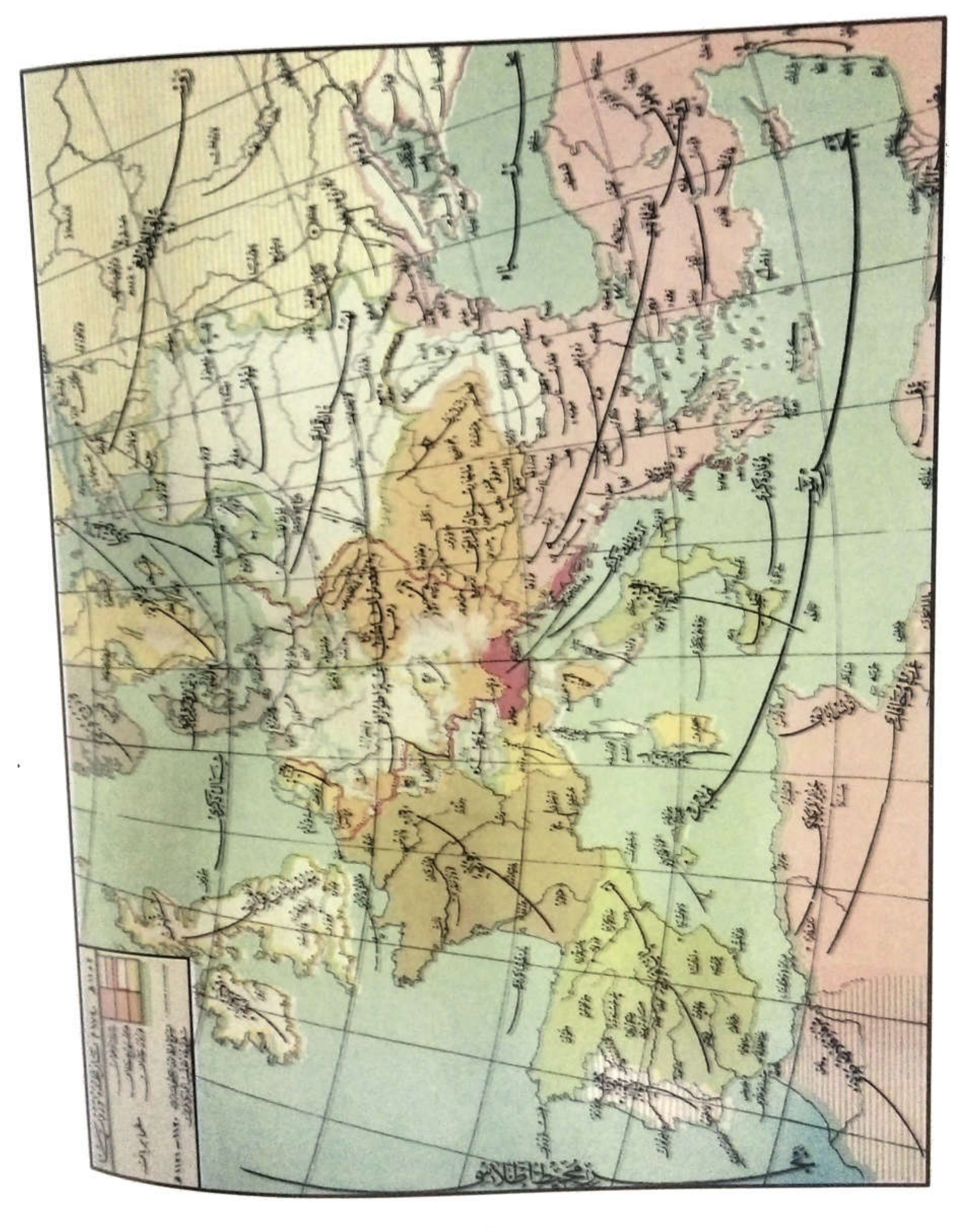


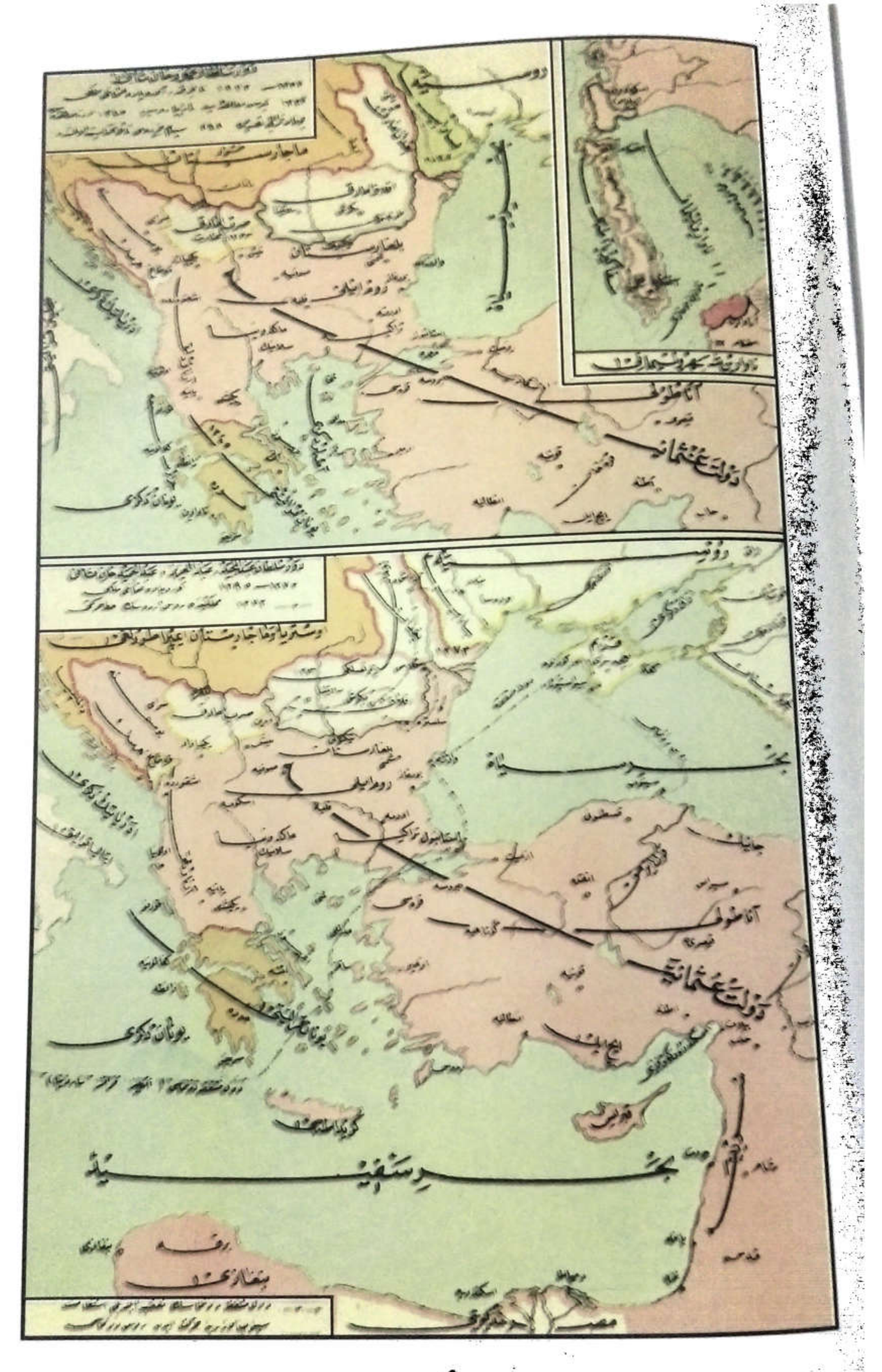

طوپقپو
مرمره دكزی
بحر سیاه
روم ایلی
ماكدونیا
بلغارستان
آناطولی
عثمانلی ایمپراطورلغی
آیدین
قریم
۸۵۷





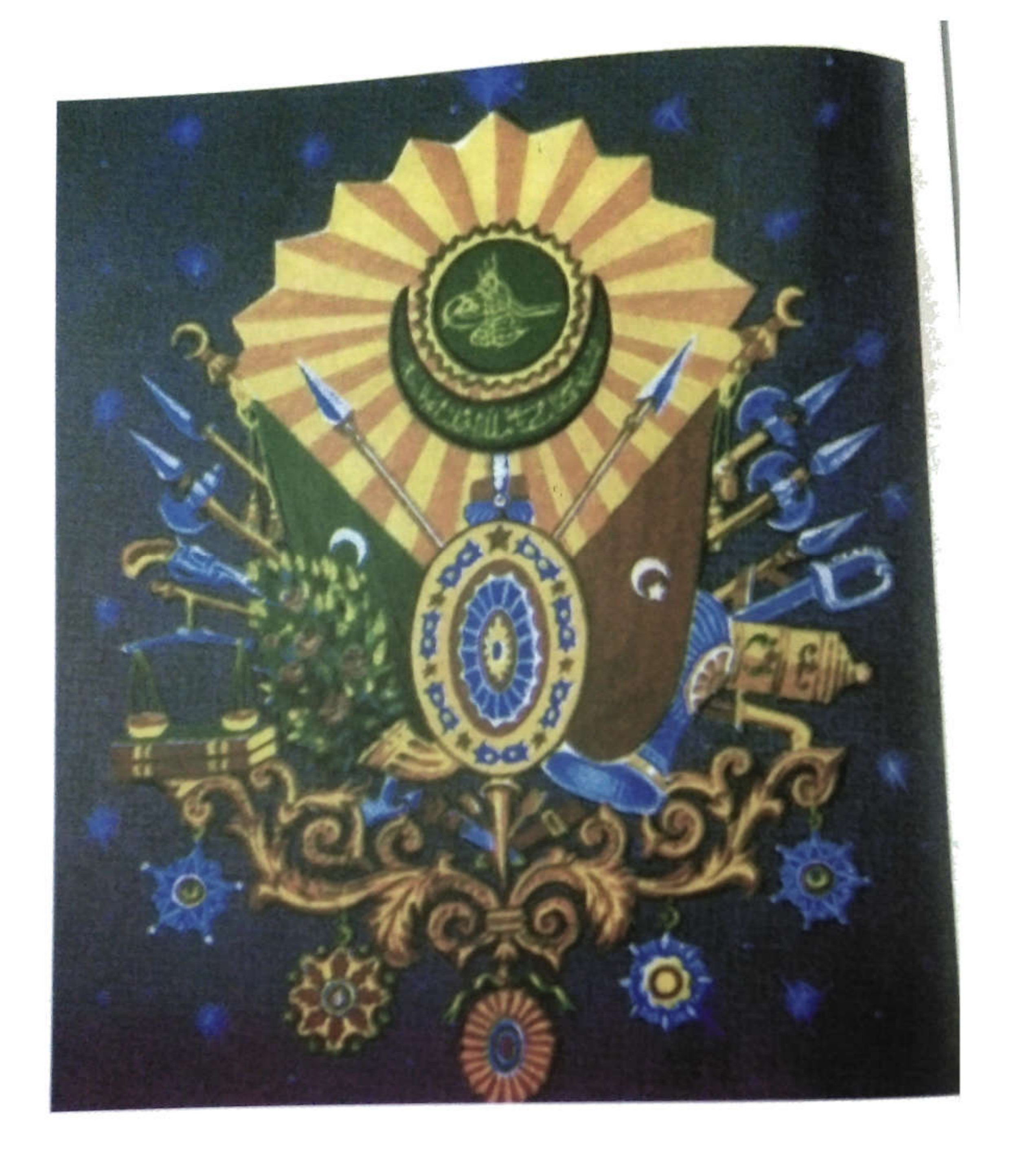






دولت عثمانیه
آناطولی
بحر سیاه
بحر سفید
یونان دکزی
قبرس
برقه
بنغازی
مصر

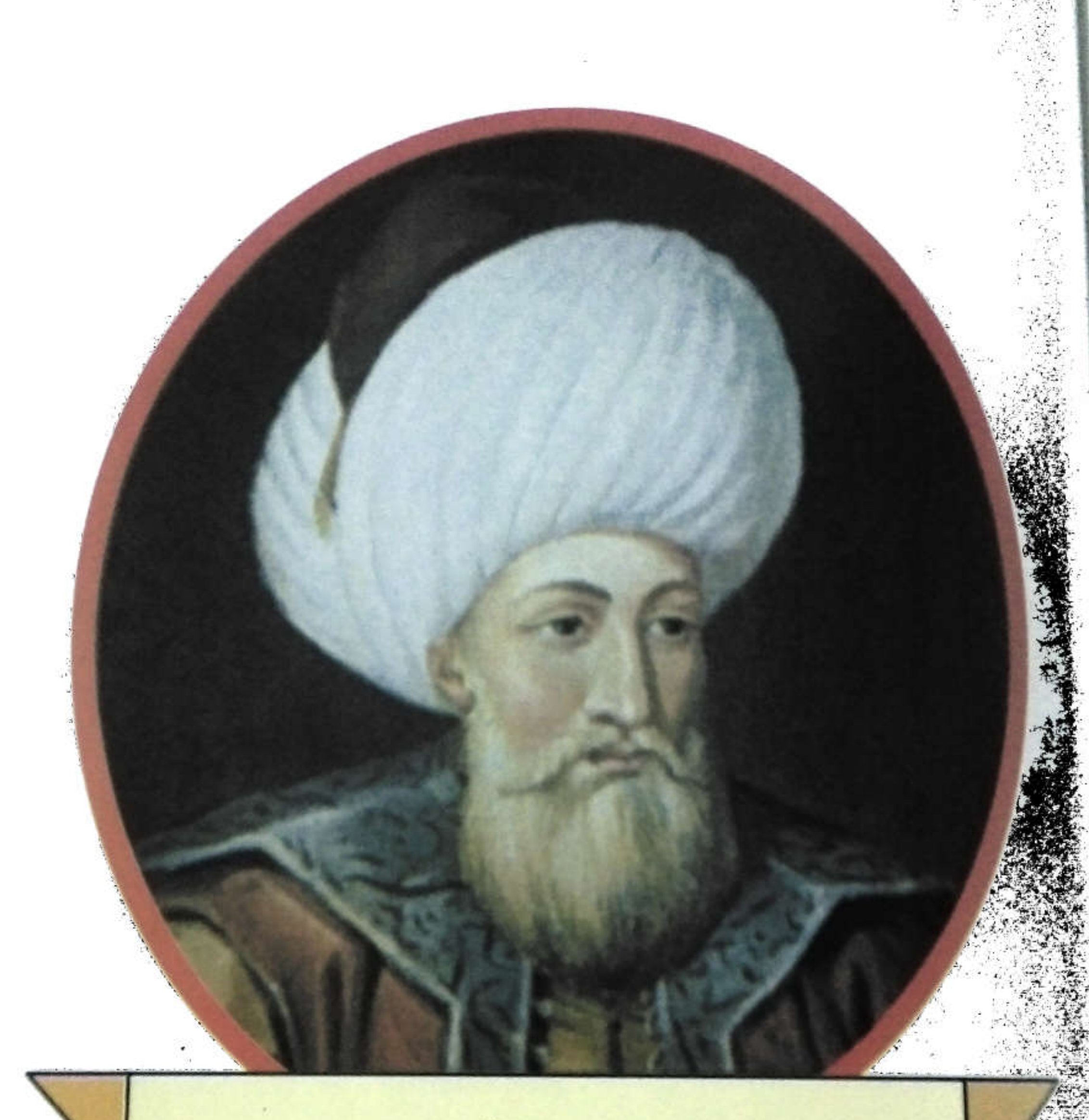




الدَّوْلَةُ العُثْمَانِيَّةُ



١ - السلطان عثمان الأول



٢ - السلطان أورخان


٣- السلطان مراد الأول



٤- السلطان بايزيد الأول



٥- السلطان محمد الأول



٦- السلطان مراد الثاني



٧ - السلطان محمد الثاني



٨ - السلطان بايزيد الثاني



٩ - السلطان سليم الأول



١٠ - السلطان سليمان الأول



١١ - السلطان سليم الثاني



١٢ - السلطان مراد الثالث



١٣ - السلطان محمد الثالث



١٤ - السلطان أحمد الأول



١٥ - السلطان مصطفى الأول



١٦- السلطان عثمان الثاني



١٧ - السلطان مراد الرابع



١٨- السلطان إبراهيم



١٩ - السلطان محمد الرابع



٢٠ - السلطان سليمان الثاني



٢١ - السلطان أحمد الثاني



٢٢ - السلطان مصطفى الثاني



٢٣ - السلطان أحمد الثالث



٢٤ - السلطان محمود الأول



٢٥ - السلطان عثمان الثالث



٢٦ - السلطان مصطفى الثالث



٢٧ - السلطان عبد الحميد الأول



٢٨ - السلطان سليم الثالث



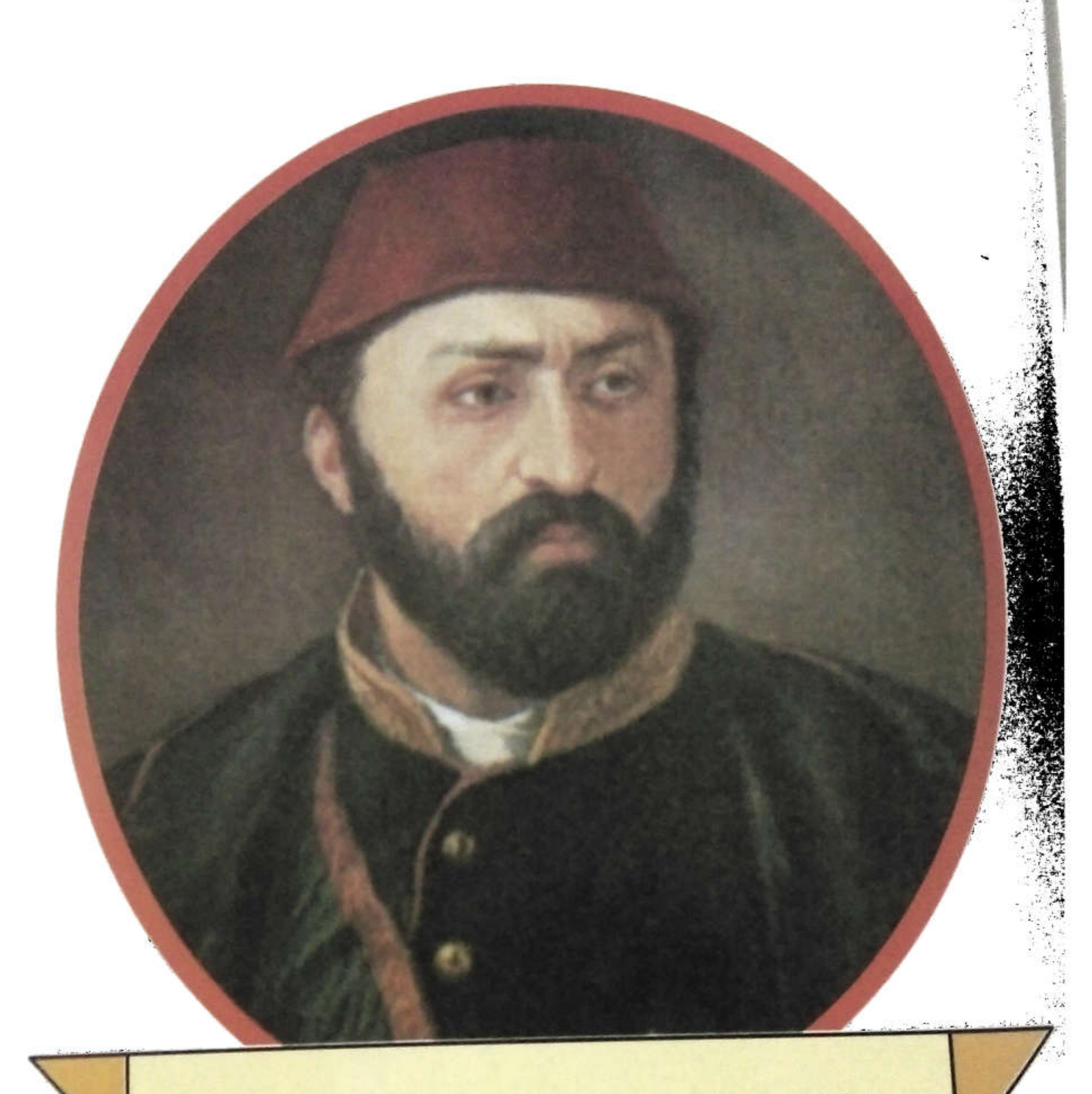
٢٩ - السلطان مصطفى الرابع



٣٠ - السلطان محمود الثاني



٣١ - السلطان عبد المجيد الأول



٣٢ - السلطان عبد العزيز

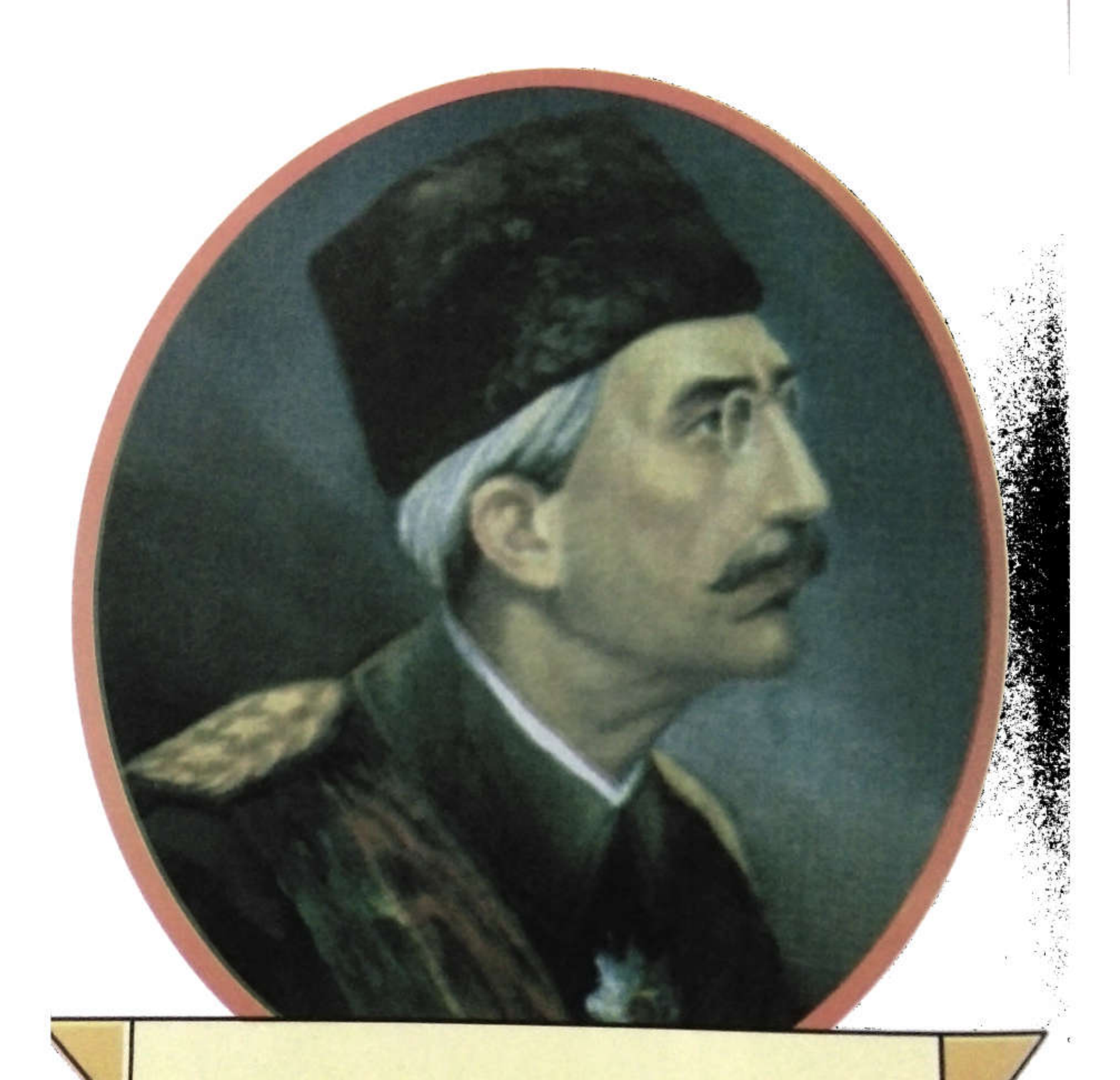


٣٣ - السلطان مراد الخامس

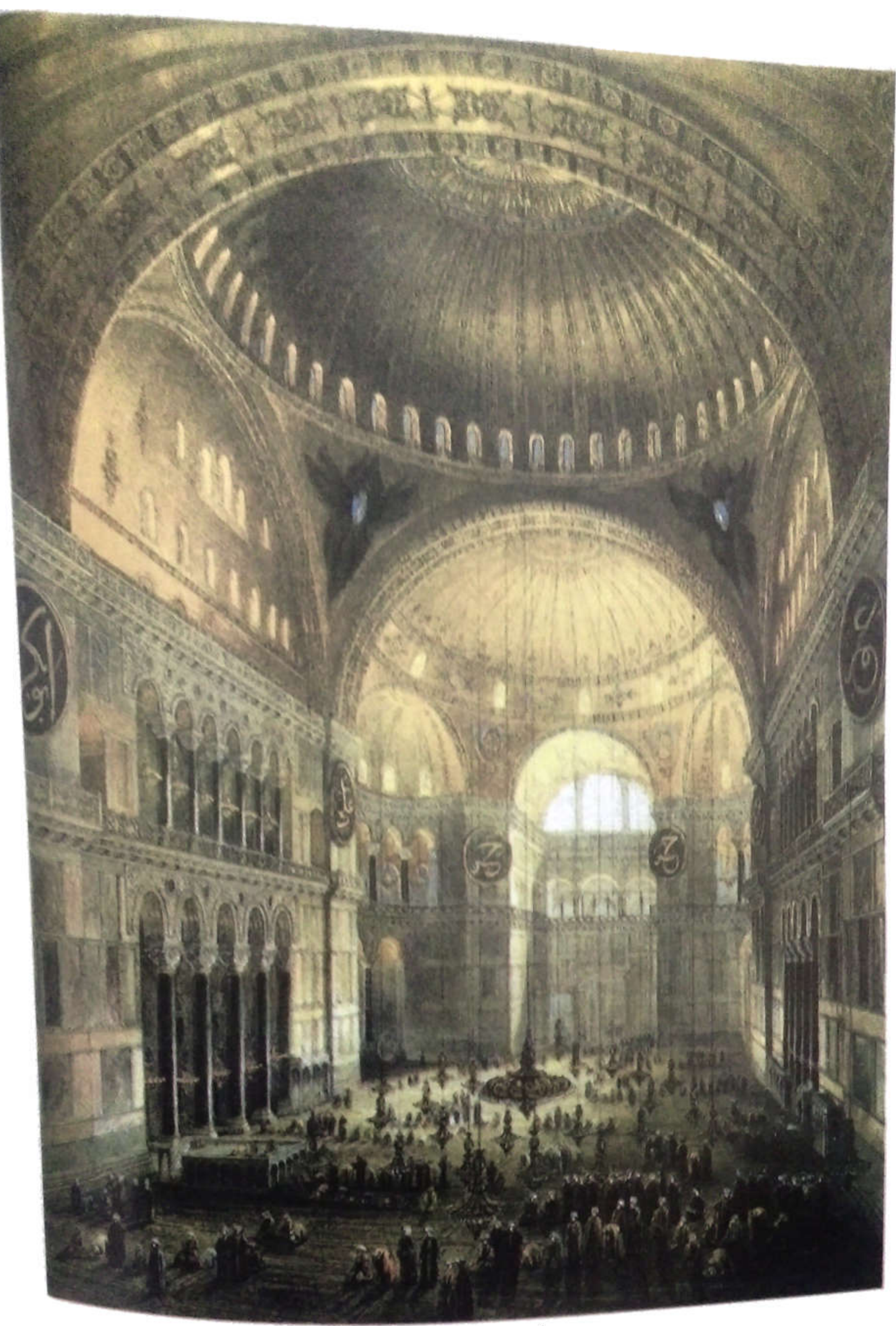


٣٤ - السلطان عبد الحميد الثاني


٣٥ - السلطان محمد الخامس



٣٦ - السلطان محمد السادس



أيا صوفية

